المستطرف

في كل فن مستظرف

تأليف

شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي المحلي

٧٩٠ — ٨٥٠ هـ

وبالهامش

ثمرات الأوراق في المحاضرات

لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي القادري الحنفي

ويليه ذيلان :

١ — لابن حجة الحموي .

٢ — لمحمد بن ابراهيم الأحدب .

الجزء الأول

الطبعة الأخيرة

١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ
« قرآن كريم »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك العظيم العلىّ الكبير . الغنى الحميد اللطيف الخبير . المنفرد بالعز والبقاء والارادة والتدبير . الحى العليم الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير . وأشكره على ما أعان عليه من قصد ويسر من عسير . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مشير . ولا ظهير له ولا وزير . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير . المبعوث إلى كافة الخلق من غنى وفقير . ومأمور وأمير . صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير ، وينجو بها فى الآخرة من عذاب السعير . وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير .

(أما بعـد) فقد رأيت جماعة من ذوى الهمم . جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم . وبسطوا مجلدات فى التواريخ والنوادر والأخبار والحكايات واللطائف ورقائق الأشعار وألفوا فى ذلك كتبا كثيرة . وتفرد كل منها بفرائد فوائد لم تكن فى غيره من الكتب محصورة . فاستخرت الله تعالى وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف . وجعلته مشتملا على كل فن ظريف . (وسميته المستطرف فى كل فن مستظرف) واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم وأحاديث صحيحة من أحاديث النبى الكريم . وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار . ونقلت فيه كثيرا مما أودعه الزمخشرى فى كتابه ربيع الأبرار . وكثيرا مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد . ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد . وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة . من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة وأودعته من الأحاديث النبوية . والأمثال الشعرية . والألفاظ اللغوية . والحكايات الجدية . والنوادر الهزلية . ومن الغرائب والدقائق . والأشعار والرقائق . ما تشنف بذكره الأسماع وتقر برؤيته العيون . وينشرح بمطالعته كل قلب محزون .

من كل معنى يكاد الميت يفهمه حسنا ويعشقه القرطاس والقلم

(وجعلته) يشتمل على أربعة وثمانين بابا من أحسن الفنون متوجة بألفاظ كأنها الدر المكنون كما قال بعضهم شعرا فى المعنى :

فى كل باب منه در مؤلف كنظم عقود زينتها الجواهر
فان نظم العقد الذى فيه جوهر على غير تأليف فما الدر فاخر

(وضمنته) كل لطيفة ونظمته بكل ظريفة ، وقرنت الأصول فيه بالفصول ورجوت أن يتيسر لى ما رمته من الأصول (وجعلت) أبوابه مقدمة وفصلتها فى مواضعها مرتبة منظمة ليقصد الطالب

(بسم الله الرحمن الرحيم) (قال) الشيخ الامام حجة العرب وترجمان الأدب تقى الدين أبو بكر بن حجة الحنفى منشىء دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية تغمده الله برحمته (أما بعد) حمدا لله الذى فكهنا بثمار أوراق العلماء . والصلاة والسلام على نبيه شجرة العلم التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء . وعلى آله وصحبه الذين هم فروع هذه الشجرة . وأغصانها التى دنت لهذه الأمة قطوفها المثمرة . فانى وريت بتسمية هذا الكتاب بثمار الأوراق . عالما أن قطوفه لم تدن لغير ذوى الأذواق (فمن ذلك) ما نقلته من درة الغواص لأبى محمد القاسم بن على الحريرى صاحب المقامات أن أبا العباس المبرد روى أن بعض أهل الذمة سأل أبا عثمان المازنى فى قراءة كتاب سيبويه عنه وبذل له مائة دينار فى تدريسه إياه فامتنع أبو عثمان من ذلك فقال له المبرد: جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فاقتك واحتياجك إليها فقال أبو عثمان هذا الكتاب يشتمل على

إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه و يعرف مكانه بالاستدلال عليه فيجد كل معنى فى بابه إن شاء الله تعالى . والله المسئول فى تيسير المطلوب . وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب . إنه على ما يشاء قدير و بالاجابة جدير . وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المهون للصعاب

(الباب الأول) فى مبانى الاسلام وفيه خمسة فصول (الباب الثانى) فى العقل والذكاء والحمق والذم وغير ذلك (الباب الثالث) فى القرآن العظيم وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم (الباب الرابع) فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم (الباب الخامس) فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك (الباب السادس) فى الأمثال السائرة وفيه فصول (الباب السابع) فى البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول (الباب الثامن) فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك (الباب التاسع) فى ذكر الخطب والخطباء والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد (الباب العاشر) فى التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول (الباب الحادى عشر) فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب (الباب الثانى عشر) فى الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك (الباب الثالث عشر) فى الصمت وصون اللسان والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول (الباب الرابع عشر) فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الاسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه (الباب الخامس عشر) فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته (الباب السادس عشر) فى الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك (الباب السابع عشر) فى ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر (الباب الثامن عشر) فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول (الباب التاسع عشر) فى العدل والاحسان والانصاف وغير ذلك (الباب العشرون) فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك (الباب الحادى والعشرون) فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان (الباب الثانى والعشرون) فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء الحوائج للمسلمين وإدخال السرور عليهم (الباب الثالث والعشرون) فى محاسن الأخلاق ومساويها (الباب الرابع والعشرون) فى حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة وما أشبه ذلك (الباب الخامس والعشرون) فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة وإصلاح ذات البين وفيه فصلان (الباب السادس والعشرون) فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان (الباب السابع والعشرون) فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك (الباب الثامن والعشرون) فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت (الباب التاسع والعشرون) فى الشرف والسؤدد وعلو الهمة (الباب الثلاثون) فى الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضى الله عنهم أجمعين (الباب الحادى والثلاثون) فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى الله عنهم (الباب الثانى والثلاثون) فى ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة (الباب الثالث والثلاثون) فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد (الباب الرابع والثلاثون) فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم (الباب الخامس والثلاثون) فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب الضيف والضيف وأخبار

ثلثمائة حديث وكذا كذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها ذميا غيرة على كتاب الله تعالى وحمية له قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق من شعر العرجى

أظلوم أن مصابكم رجلا
أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من بالحضرة فى إعراب رجلا فمنهم من نصبه وجعله اسم أن ومنهم من رفعه على أنه خبرها والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها إياه بالنصب فأمر الواثق بإشخاصه قال أبو عثمان فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل قلت من مازن يا أمير المؤمنين قال أى الموازن قلت من مازن ربيعة فكلمنى بكلام قومى وقال باسمك لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما إذا كانت فى أول الأسماء فكرهت أن أجيبه على لغة قومى لئلا أواجهه بالمكر فقلت بكر يا أمير المؤمنين ففطن لما قصدته وأعجبه منى ذلك ثم قال ما تقول فى قول الشاعر :

أظلوم أن مصابكم رجلا
أهدى السلام تحية ظلم

أترفع رجلا أم تنصبه فقلت الوجه النصب ياأمير المؤمنين قال ولم ذلك فقلت أن مصابكم مصدر بمعنى أصابتكم فأخذ اليزيدى فى معارضتى فقلت هو بمنزلة قولك إن ضربك زيدا ظلم فالرجل مفعول مصابكم ومنصوب به والدليل عليه أن الكلام متعلق إلى أن تقول ظلم فيتم فاستحسنه الواثق وأمر له بألف دينار قال أبو العباس المبرد فلما عاد أبو عثمان إلى البصرة قال لى كيف رأيت رددنا لله مائة فعوضنا ألفا (ونقلت من درة الغواص أيضا) أن حامدبن العباس سأل على بن عيسى فى ديوان الوزارة مادواء الخمار وكان قد علق به فأعرض عن كلامه وقال ما أنا وهذه المسألة فخجل حامد منه والتفت إلى قاضى القضاة أبى عمر فسأله عن ذلك فتنحنح لاصلاح صوته ثم قال: قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقال النبى صلى الله عليه وسلم استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها والأعشى هو المشهور بهذه الصناعة فى الجاهلية حيث قال:

والسبعون) فى ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وفيه فصول (الباب الثالث والسبعون) فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن ومايمدح وما يذم من عشرتهن وفيه فصول (الباب الرابع والسبعون) فى ذم الخمر وتحريمها والنهى عنها (الباب الخامس والسبعون) فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول (الباب السادس والسبعون) فى النوادر والحكايات وفيه فصول (الباب السابع والسبعون) فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول (الباب الثامن والسبعون) فى القضاء والقدر وأحكامهما والتوكل على الله تعالى (الباب التاسع والسبعون) فى التوبة وشروطها والندم والاستغفار (الباب الثمانون) فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء من السنة والعيادة وثوابها وما أشبه ذلك وفيه فصول (الباب الحادى والثمانون) فى ذكر الموت ومايتصل به من القبر وأحواله (الباب الثانى والثمانون) فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول (الباب الثالث والثمانون) فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها ونحو ذلك (الباب الرابع والثمانون) فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخر الأبواب ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته صلى الله عليه وسلم يوم المعاد .

الباب الأول فى مبانى الاسلام وفيه خمسة فصول :

[الفصل الأول فى الاخلاص لله تعالى والثناء عليه] وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له فرد لا مثل له صمد لا ند له أزلى قائم أبدى دائم لا أول لوجوده ولا آخر لأبديته قيوم لا يفنيه الأبد ولا يغيره الأمد بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن منزه عن الجسمية ليس كمثله شىء وهو فوق كل شىء فوقيته لا تزيده بعدا عن عباده وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد وهو على كل شىء شهيد، وهو معكم أينما كنتم لايشابه قربه قرب الأجسام كما لايشابه ذاته ذوات الأجرام منزه عن أن يحده زمان مقدس عن أن يحيط به مكان تراه أبصار الأبرار فى دار القرار على ما دلت عليه الآيات والأخبار . حى قادر جبار قاهر لايعتريه عجز ولا قصور ولا تأخذه سنة ولا نوم له الملك والملكوت والعزة والجبروت . خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته عالم بجميع المعلومات لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات . يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر مريد للكائنات مدبر للحادثات لا يجرى فى ملكه قليل ولا كثير ولا جليل ولا حقير خير أو شر نفع أو ضر إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فهو المبدىء المعيد الفاعل لما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته . لو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا سميع بصير متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث أوجده بقدرته وما من حركة وسكون إلا وله فى ذلك حكمة دالة على وحدانيته قال الله تعالى إن فى خلق السموات والأرض الآية وقال أبو العتاهية :

فياعجبا كيف يعصى الاله … أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية … تدل على أنه الواحد
ولله فى كل تحريكة … وتسكينة فى الورى شاهد

وقال غيره :

كل ما ترتقى إليه بوهم … من جلال وقدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى … منه سبحانه مبدع الأشياء

وكأس شربت على لذة
وأخرى تداويت منها بها

ثم تلاه أبو نواس فى الاسلام فقال :

دع عنك لومى فان اللوم إغراء
وداونى بالتى كانت هى الداء

فاصفر حينئذ وجه حامد وقال لابن عيسى ما ضرك يا بارد أن تجيب ببعض ما أجاب به مولانا قاضى القضاة وقد استظهر فى جواب المسألة بقول الله تعالى أولا ثم بقول النبى صلى الله عليه وسلم ثانيا وأدى المعنى وخرج من العهدة فكان خجل ابن عيسى أكثر من خجل حامد لما ابتدأه بالمسألة انتهى . ويضارع هذه الحكاية فى لين بعض القضاة المتقشفين وإذعانهم مع الزهد والتقشف للمستفتين مانقلته من درة الغواص للحريرى أيضا قال اجتمع قوم على شراب فتغنى مغنيهم بشعر حسان

إن التى ناولتنى فرددتها
قتلت قتلت فهاتها لم تقتل
كلتاهما حلب العصير فعاطنى
بزجاجة أرخاهما للمفصل

فقال بعضهم امرأتى طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله ابن الحسن القاضى عن علة هذا الشعر كيف قال إن التى فوحد ثم قال

وقال على رضى الله عنه فى بعض وصاياه لولده : اعلم يا بنى أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه إله واحد لايضاده فى ملكه أحد . وعنه عليه الصلاة والسلام كل ما يتصور فى الأذهان فالله سبحانه بخلافه وقال لبيد بن ربيعة :

ألا كل شىء ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل وكل ابن أنثى لوتطاول عمره
إلى الغاية القصوى فللقبر آيل وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرىء يوما سيعرف سعيه إذا حصلت عند الاله الحصائل

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر : إن أشعر كلمة قالتها العرب *ألا كل شىء ما خلا الله باطل* ثم بعد هذا الاعتقاد الاقرار بالشهادة بأن محمدا رسول الله بعثه برسالته إلى الخلائق كافة وجعله خاتم الأنبياء ونسخ بشريعته الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفع فى المحشر وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت من سؤال منكر ونكير وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد فى قبره عن التوحيد والرسالة ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق وأن الميزان حق والصراط حق والحساب حق وأن الجنة حق والنار حق وأن الله تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم المقربون وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى فى جهنم من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء وأن يعتقد فضل الصحابة رضى الله تعالى عنهم ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك مؤمنا به موقنا فهو من أهل الحق والسنة مفارق لعصابة الضلال والبدعة رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة وجعلنا من أهلها ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها إنه سميع مجيب فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الاسلام الخمسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا

[الفصل الثانى فى الصلاة وفضلها] قال الله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين وقال تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا . واختلفوا فى اشتقاق اسم الصلاة مم هو فقيل هو من الدعاء وتسمية الصلاة دعاء معروفة فى كلام العرب فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء وقيل سميت بذلك من الرحمة قال الله تعالى إن الله وملائكته يصلون على النبى فهى من الله رحمة ومن الملائكة استغفار ومن الناس دعاء قال صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبى أوفى أى ارحمهم وقيل سميت بذلك من الاستقامة من قولهم صليت العود على النار إذا قومته والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتنهاه عن خلافه قال الله تعالى إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وقيل لأنها صلة بين العبد وربه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال علم الايمان الصلاة فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن . وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر إن الرجل ليشيب عارضاه فى الاسلام وما أكمل لله تعالى صلاة قيل وكيف ذلك قال لايتم ركوعها وسجودها وخشوعها وتواضعه وإقباله على الله فيها . وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه . وقيل للحسن ما بال المتهجدين من

أحسن

كلتاهما فتى فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا فيه ومضوا يتخبطون القبائل إلى بنى شقرة فوجدوا عبيد الله ابن الحسن يصلى فلمافرغ من صلاته قالوا له قد جئناك فى أمر دعتنا إليه الضرورة وشرحوا له الخبر وسألوه الجواب فقال مع زهده وتقشفه إن التى ناولتنى فرددتها عنى بها الخمرة الممزوجة بالماء ثم قال كلتاهما حلب العصير يريد الخمرة المتحلبة من العنب والماء المتحلب من السحاب المكنى عنه بالمعصرات انتهى (قال الحريرى) وقد بقى فى الشعر مايحتاج إلى تفسيره أما قوله إن التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت فانه خاطب به الساقى الذى ناوله كأسا ممزوجة لأنه يقال قتلت الخمرة إذا مزجتها فأراد أن يعلمه أنه فطن لما فعله ثم مااقتنع بذلك منه حتى دعا عليه بالقتل فى مقابلة المزج ثم إنه عقب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تقتل يعنى الصرف التى لم تمزج وقوله أرخاهما للمفصل يعنى به اللسان وسمى

أحسن الناس وجوها فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وقال بعضهم لا تفوت أحدا صلاة فى جماعة إلا بذنب . وكانت رابعة العدوية تصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة وتقول والله ما أريد بها ثوابا ولكن ليسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام انظروا إلى امرأة من أمتى هذا عملها فى اليوم والليلة . وقال بعضهم صليت خلف ذى النون المصرى فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال الله ثم بهت وبقى كأنه جسد لا روح فيه إعظاما لربه جل وعلا ثم قال الله أكبر فظننت أن قلبى انخلع من هيبة تكبيره . وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود كذب من ادعى محبتى وإذا جن عليه الليل نام عنى أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه . ولعبد الله بن المبارك رضى الله تعالى عنه :

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

وكان سيدى الشيخ الامام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم النحريرى رحمه الله كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات :

يا أيها الراقد كم ترقد ... قم يا حبيبى قد دنا الموعد ... وخذ من الليل ولو ساعة
تحظى إذا ما هجع الرقد ... من نام حتى ينقضى ليله ... لم يبلغ المنزل لو يجهد

وكان سيدى أويس القرنى لا ينام ليله ويقول ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر . وقال حذيفة رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . وقال هشام بن عروة كان أبى يطيل المكتوبة ويقول هى رأس المال . وقال أبو الطفيل سمعت أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فأطفئوها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر . وجزأ محمد بن المنكدر عليه وعلى أمه وعلى أخته الليل أثلاثا فماتت أخته فجزأه عليه وعلى أمه فماتت أمه فقام الليل كله . وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلى فى بيته يقول لأهله تحدثوا فلست أسمع حديثكم . وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا ووقع حريق إلى جنبه وهو فى الصلاة فما شعر به حتى أطفئ . وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير فى المسجد الحرام يحسبه جذعا منصوبا لطول انتصابه فى الصلاة وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم ابن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط . وختم القرآن فى ركعة واحدة أربعة من الأئمة عثمان ابن عفان وتميم الدارى وسعيد بن جبير وأبو حنيفة رضى الله تعالى عنهم ورأى الأوزاعى شابا بين القبر والمنبر فلما طلع الفجر استلقى ثم قال : * عند الصباح يحمد القوم السرى *
فقال ابن أخى لك ولأصحابك لا للجمالين . وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه فى الصلاة فقيل له كيف تصبر فقال بلغنى أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور وأنا بين يدى ربى أفلا أصبر على ذباب يقع علىّ . وقال أبو صفوان بن عوانة : ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلى فى القمر كأنه يشبه الملائكة . وقال الحسن : ما كان فى هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تقوم بالأسحار حتى تورمت قدماها . وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وكانت دموعه تقع فى مصلاه كوكف المطر . وكان إبراهيم

مفصلا بالكسر لأنه يفصل بين الحق والباطل قال الحريرى وليس على ما اعتمده القاضى عبيد الله من الاستماح وخفض الجناح ما يقدح فى نزاهته ويغض من نبله ونباهته والله أعلم . ونقلت من درة الغواص أن عروة ابن أذينة الشاعر وفد على هشام بن عبد الملك فى جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له ألست القائل :

لقد علمت وما الاسراف من خلقى
أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى له فيعنينى تطلبه
ولو قعدت أتانى لا يعنينى

وأراك قد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق فقال له : يا أمير المؤمنين زادك الله بسطة فى العلم والجسم ولا رد وافدك خائبا والله لقد بالغت فى الوعظ وأذكرتنى ما أنسانيه الدهر وخرج من فوره إلى راحلته فركبها وتوجه راجعا إلى الحجاز فلما كان فى الليل ذكره هشام وهو فى فراشه فقال رجل من قريش قال حكمة ووفد إلىّ فجبهته ورددته عن حاجته وهو مع ذلك

الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان . هذا خوف الحبيب والخليل مع ماأعطيا من الإجلال والاكرام وشرف المقام فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل قال له ادع الله أن يجعلنى رفيقك فى الجنة فقال أعنى على نفسك بكثرة السجود وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى فاتتنى صلاة الجماعة مرة فعزانى أبو اسحق البخارى وحده ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا. وكان السلف رضى الله تعالى عنهم يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى وسبعا إذا فاتتهم الجماعة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه (وأنشد بعضهم)

خسر الذى ترك الصلاة وخابا … وأبى معادا صالحا ومآبا … إن كان يجحدها فحسبك أنه
أضحى بربك كافرا مرتابا … أوكان يتركها لنوع تكاسل … غطى على وجه الصواب حجابا
فالشافعى ومالك رأيا له … إن لم يتب حد الحسام عقابا
والرأى عندى للامام عذابه … بجميع تأديب يراه صوابا

اللهم أعنا على الصلاة وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين (ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل) ذكر شيء من فضل السواك والآذان (أما السواك) فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة . وقال أيضا صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك . وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام ليتهجد شاص فاه بالسواك وقال صلى الله عليه وسلم السواك مطهرة للفم مرضاة للرب وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لو يعلم الناس مافى السواك لبات مع الرجل فى لحافه وقال أيضا أفواهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها : والاختيار فى السواك أن يكون بعود الأراك ويجزى بغيره من العيدان وبالسعد والاشنان والخرقة الخشنة وغير ذلك مما ينظف ويستاك عرضا مبتدئا بالجانب الأيمن من فيه وينوى به الاتيان بالسنة والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان وقال الأصحاب يقول عند السواك اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين ويستاك فى ظاهر الاسنان وباطنها ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه إمرارا لطيفا ويستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد اللين فان اشتد يبسه لينه بالماء وقد قيل إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ويسهل خروج الروح (وأما الآذان) فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من آذانه قيل فى قوله تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا نزلت فى المؤذنين وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يغفر الله للمؤذن مدى صوته ويشهد له ما سمعه من رطب ويابس . وعن معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة رواه مسلم . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين رواه البخارى ومسلم . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة رواه البخارى والأحاديث فى فضله كثيرة مشهورة والله سبحانه وتعالى أعلم

[الفصل الثالث فى الزكاة وفضلها] قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة فى مواضع شتى من كتابه

شاعر لا آمن ما يقول فلما أصبح سأل عنه فأخبر بانصرافه وقال : لا جرم ليعلم أن الرزق سيأتيه ثم دعا مولى له وأعطاه ألفى دينار وقال : الحق بهذه ابن أذينة وأعطه إياها قال فلم أدركه إلا وقد دخل بيته فقرعت الباب عليه فخرج إلى فأعطيته المال فقال أبلغ أمير المؤمنين قولى سعيت فأكديت ورجعت إلى بيتى فأتانى رزقى (ويضارع هذه الحكاية) ما حكى عن هدبة بن خالد رحمه الله تعالى قال : حضرت مائدة المأمون فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط مافى الأرض فنظر إلى المأمون فقال : أما شبعت ياشيخ قلت بلى يا أمير المؤمنين ولكن حدثنى حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التقط ما تحت مائدته أمن من الفقر فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه فما شعرت أن جاءنى ومعه منديل فيه ألف دينار فناولنى إياه فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك انتهى (ومن لطائف ما جنيت

قال الله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقال تعالى ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة وعن بريدة رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال ما خالطت الزكاة مالا قط إلا أهلكته وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال من كان عنده ما يزكي ولم يزك ومن كان عنده ما يحج ولم يحج سأل الرجعة يعنى قوله تعالى رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت (ولنلحق) بهذا الفصل ذكر شىء من الصدقة وفضلها وما جاء فيها وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب ودفع البلاء قال الله تعالى ان الله يجزى المتصدقين وقال تعالى والمتصدقين والمتصدقات الآية والآيات الكريمة فى ذلك كثيرة والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة وروى الترمذى فى جامعه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره وفى صحيح مسلم وموطأ مالك وجامع الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ما نقص مال من صدقة أو قال ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى (ودخلت) امرأة شلاء على عائشة رضي الله عنها فقالت كان أبى يحب الصدقة وأمى تبغضها لم تتصدق فى عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة فرأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت وكأن أمى قد غطت عورتها بالخلقة وفى يدها الشحمة تلحسها من العطش فذهبت إلى أبى وهو على حافة حوض يسقى الناس فطلبت منه قدحا من ماء فسقيت أمى فنوديت من فوق ألا من سقاها فشل الله يدها فانتبهت كما ترين (ووقف) سائل على امرأة وهي تتعشى فقامت فوضعت لقمة فى فيه ثم بكرت إلى زوجها فى مزرعته فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة تريد قضاءها فاختلسه الذئب فوقفت وقالت يارب ولدى فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر فقال لها هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتها فى فم السائل (وعشش) ورشان فى شجرة فى دار رجل فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخه ذلك الورشان ففعل ذلك مرارا وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخه فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال يا رسول الله أردت أن يكون لى أولاد يذكرون الله تعالى من بعدى فأخذها الرجل بأمر امرأته ثم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان لشيطانين إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام فقال للشيطانين ألم تمتثلا ما أمرتكما به فقال اعترضنا ملكان فطرحانا فى الخافقين (وقال النخعى كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء وكان الرجل يضع الصدقة فى يد الفقير ويتمثل قائما بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائل وقال رسول الله ﷺ الصدقة تسد سبعين بابا من الشر وعنه ﷺ قال ردوا صدمة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من طعام وروى عنه ﷺ أنه قال ردوا مذمة السائل ولو بظلف محرق وعنه أيضا ﷺ اتقوا النار ولو بشق تمرة وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه من رد سائلا خائبا لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام وكان نبينا محمد ﷺ يناول المسكين يده وعنه ﷺ ما من مسلم يكسو مسلما ثوبا إلا كان فى حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة وقال عبد العزيز بن عمير الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه وعن الربيع بن خيثم أنه خرج فى ليلة شاتية وعليه برنس خز فرأى سائلا فأعطاه إياه وتلا قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وروى عن رسول الله ﷺ أنه

من ثمرات الأوراق) أن رجلا من الحذاق كان يكتب كتابا وإلى جانبه آخر فانتهى فى كتابه إلى اسم عمرو فكتبه بغير واو فقال يا مولانا زدها واوا للفرق بينها وبين عمر فقال له والله لقد تفضل مولانا بزيادة الواو بمعنى تفوضل (قلت) وبعضهم يرى أن الواو تزاد بعد لا النافية فى الجواب إذا قيل هل فعلت كذا وكذا فيقول لا وعافاك الله ＊ قال أبو الفرج بن الجوزى روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لرجل عربى أكان كذا وكذا فقال لا أطال الله بقاءك فقال الامام عمر رضى الله عنه قد علمتم فلم تتعلموا هلا قلت لا وعافاك الله (وحكى) عن الصاحب بن عباد أنه قال هذه الواو هنا أحسن من واوات الاصداغ فى وجنات الملاح (قلت) وهذه الواو أعنى واو عمرو نظم فيها الشعراء كثيراً منهم أبو النواس قال يهجو أشجع السلمى

قل لمن يدعى سليمى سفاها ... لست منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سليمى كواو ... ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

(وقال أبو سعيد الرستمى وأجاد)

أفى الحق أن يعطى ثلاثون شاعراً ... ويحرم مادون الرضا شاعر مثلى

قال لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر وأن سوء الخلق شؤم وحسن الملكة نماء والصدقة تدفع ميتة السوء وقال يحيى بن معاذ ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة وعن عمر رضى الله عنه ان الأعمال تباهت فقالت الصدقة أنا أفضلكن وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال تداركوا الهموم والغموم بالصدقات يدفع الله ضركم وينصركم على عدوكم وعن عبيد بن عمير قال يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط فمن أطعم لله أشبعه الله ومن سقى لله سقاه الله ومن كسا لله كساه الله وقال الشعبى من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل فان كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فان لم يكن عنده من ذلك شىء أعطاه دهنا أو غيره مما ينتفع به فان لم يكن عنده شىء أعطاه كحلا أو أخرج ابرة وخيطا فرقع بهما ثوب السائل * ووجه رجل ابنه فى تجارة فمضت أشهر ولم يقع له على خبر فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالما رابحا فسأله أبوه هل أصابك فى سفرك بلاء فقال نعم غرقت السفينة بنا فى وسط البحر وغرقت فى جملة الناس وإذا بشابين أخذانى فطرحانى على الشط وقالا لى قل لوالدك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك وقال على رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج اليه فاغتنم حمله إياه ولله در القائل حيث قال

يبكى على الذاهب من ماله * وإنما يبقى الذى يذهب

(وحكى) أن رجلا عبد الله سبعين سنة فبينما هو فى معبده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت اليها وأقبل على عبادته فولت المرأة فنظر اليها فأعجبته فملكت قلبه وسلبت لبه فترك العبادة وتبعها وقال إلى أين فقالت إلى حيث أريد فقال هيهات صار المراد مريدا والأحرار عبيدا ثم جذبها فأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام فبكى حتى غشى عليه فلما أفاق قالت له يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيرى وأنا ما عصيت الله مع غيرك وإنى أرى فى وجهك أثر الصلاح فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرنى قال فخرج هائما على وجهه فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان وكان بالقرب منهم راهب يبعث اليهم فى كل ليلة بعشرة أرغفة فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز فمد ذلك الرجل العاصى يده فأخذ رغيفا فبقى منهم رجل لم يأخذ شيئا فقال أين رغيفى فقال الغلام قد فرقت عليكم العشرة فقال أبيت طاويا فبكى الرجل العاصى وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه أنا أحق أن أبيت طاويا لأنى عاص وهذا مطيع فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة هذا رجل فر من ذنبه وجاء طائعا وقالت ملائكة العذاب بل هو رجل عاص فأوحى الله تعالى اليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة فأوحى الله اليهم أن زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذى آثر به على نفسه فوزنوا ذلك فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله توبته (وحكى) أن رجلا جلس يوما يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية فوقف سائل ببابه فخرج اليه وانتهره فذهب فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها فى بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية وإذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته ادفعى اليه هذه الدجاجة فخرجت بها اليه فاذا هو زوجها الأول فدفعت اليه الدجاجة ورجعت وهى باكية فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها وذكرت له قصتها

كما سامحوا عمرا بواو مزيدة * وضويق بسم الله فى ألف الوصل

(ومن لطائف المجتنى) ما نقل عن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب قيل انه قال يوما للقاضى الفاضل لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب فلعله ضعيف امض اليه وتفقد أحواله فلما دخل الفاضل إلى دار العماد وجد أشياء أنكرها فى نفسه مثل آثار مجالس أنس ورائحة خمر وآلات طرب فأنشد

ما ناصحتك خبايا الود من رجل * ما لم ينلك بمكروه من العذل
محبتى فيك تأبى عن مسامحتى * بأن أراك على شىء من الزلل

فلما قام من عنده نزع العماد عما كان فيه وأقلع ولم يعد إلى شىء من ذلك ألبتة (ومن اللطائف) ما نقل عن الملك الظاهر رحمه الله تعالى قيل انه لما استعرض الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار ليشتريه قال له أنا حر يا مولانا السلطان وأحسن الكتابة فأحضرت له دواة فكتب يقول

لولا الضرورة ما فارقتكم أبدا * ولا تنقلت من ناس الى ناس

فأعجبه الاستشهاد بهذا البيت ورغبه ذلك فى مشتراه (ويضارعه ما حكى عن الصاحب كمال الدين ابن العديم) قيل إن إنسانا رفع قصة إلى الصاحب المشار اليه فأعجبه خطها فأمسكها وقال لرافعها هذا خطك قال لا ولكن

مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول فقال لها زوجها أنا والله ذلك السائل (وذكر) عن مكحول أن رجلا أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقال ادع الله لابني فقد وقع في نفسي الخوف من هلاكه فقال له ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأنجع وأسرع اجابة قال بلى قال تصدق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامة ما معه فخرج الرجل من عنده وتصدق على سائل بدرهم وقال هذا لخلاص ولدي وسلامته وما معه فنادى في تلك الساعة مناد في البحر ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال يا أبت لقد رأيت في البحر عجبا يوم كذا وكذا في وقت كذا وكذا وهو اليوم الذي تصدق فيه والده عنه بالدرهم وذلك انا أشرفنا على الهلاك والتلف فسمعنا صوتا من الهواء ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين والآثار والحكايات في ذلك كثيرة وفيما أشرت اليه كفاية لمن وعى وأن ليس للانسان إلا ما سعى والله أعلم

﴿الفصل الرابع في الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب﴾ قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون قيل الصوم عموم وخصوص وخصوص الخصوص * فصوم العموم هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة * وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام * وصوم خصوص الخصوص هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية * قال رسول الله ﷺ زكاة الجسد الصيام وعنه ﷺ أنه قال للصائم فرحتان فرحة عند افطاره وفرحة عند لقاء ربه وقال وكيع في قوله تعالى كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية انها أيام الصوم تركوا فيها الأكل والشرب * وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال من أفطر يوما في رمضان من غير رخصة رخصها الله له لم يقض عنه صيام الدهر وروى في صحيح النسائي عنه أيضا ﷺ أنه قال إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين وروى الزهري أن تسبيحة واحدة في شهر رمضان أفضل من ألف تسبيحة في غيره وروى عن قتادة أنه كان يقول من لم يغفر له في شهر رمضان فلن يغفر له في غيره وقال رسول الله ﷺ لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لتمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها ولو أذن الله للسموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة وقال ﷺ ليس من عبد يصلي في ليلة من شهر رمضان إلا كتب الله بكل ركعة ألفا وخمسمائة حسنة وبنى له بيتا في الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب لكل باب منها مصراعان من ذهب وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام وقال ﷺ إن لكل صائم دعوة فاذا أراد أن تقبل فليقل في كل ليلة عند فطره يا واسع المغفرة اغفر لي * وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من صام يوما من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فاذا انسلخ عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقا على الله أن يرويه يوم القيامة وقال بعضهم الصيام زكاة البدن ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى وروى في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وعنه ﷺ أنه قال صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر وهي الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر وفي صحيح البخاري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه * وفضل الصوم

حضرت إلى باب مولانا فوجدت بعض مماليكه فكتبها إلى فقال علي به فلما حضر وجد مملوكه فقال هذا خطك قال نعم قال فهذه طريقي من ذا الذي أظهرك عليها فقال يا مولانا كنت إذا وقعت لأحد على قصة أخذتها عنه وسألته المهلة حتى أكتب عليها سطرين أو ثلاثة فأمره أن يكتب بين يديه ليراه فكتب

وما تنفع الآداب والعلم والحجى
وصاحبها عند الكمال يموت

فكان إعجاب الصاحب بالاستشهاد أكثر من الخط ورفع منزلته بعد ذلك (وأذكر في اتفاق التورية في الكمال هنا) ما حكي عن القاضي فخر الدين لقمان والقاضي تاج الدين أحمد ابن الأثير رحمهما الله أنهما كانا صحبة السلطان على تل العجول ولفخر الدين مملوك اسمه الطنبا فاتفق أنه طلب مملوكه المذكور وناداه يا طنبا فقال له نعم ولم يأته وكانت ليلة ممطرة مظلمة فأخرج فخر الدين ابن لقمان رأسه من الخيمة فقال تقول نعم ولم أرك فقال القاضي تاج الدين

في ليلة من جمادى ذات أندية
لا يبصر الكلب في أرجائها الطنبا

(ومن اتفاق التورية) أيضا ما كتبه الشيخ شرف الدين بن عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة ملغزا في باب إلى والده

ما واقف في المخرج * ينصب طورا ويجي

لست أخاف شره * ما لم يكن بمرتج فكتب اليه والده فى الجواب ذهاب وإياب وخوف وشر هذا باب

غزير لأنه خصه الله تعالى بالاضافة اليه كما ثبت فى الصحيح من الحديث عن النبي ﷺ أنه قال مخبراً عن ربه عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فانه لى وأنا أجزى به وقد يكتفى فى فضله بهذا الحديث الجليل وحسبنا الله ونعم الوكيل

﴿الفصل الخامس فى الحج وفضله﴾ قال الله تعالى ـ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ـ وقال رسول الله ﷺ من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة وقال ﷺ من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً وفى الحديث إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة وفيه أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم فى الدنيا وفى الخبر أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق وجاء فى الحديث الصحيح أن آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام وقال مجاهد إن الحجاج إذا قدموا مكة لقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الابل وصافحوا ركبان الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقا وكان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة ويستقبلوا الحجاج ويقبلوهم بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام وعن النبى ﷺ إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف فان نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة وان الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها (وحكى) أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبى محمد بن حمدان حجت سنة ست وثمانين وثلثمائة فصارت تاريخا مذكورا قيل انها سقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج واستصحبت البقول المزروعة فى المراكن على الجمال وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ولم تستصبح فيها وعندها الا بشموع العنبر وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتى جارية وأغنت الفقراء والمجاورين * ولما بنى آدم عليه الصلاة والسلام البيت وقال يارب إن لكل عامل أجراً فما أجر عملى قال إذا طفت به غفرت لك ذنوبك قال زدنى قال جعلته قبلة لك ولأولادك قال يارب زدنى قال أغفر لكل من استغفرني من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك قال يارب حسبى * وفى الحديث الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة وقيل للحسن ما الحج المبرور قال أن ترجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة * وأول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير وكانت كسوتها المسوح والانطاع وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت فيقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الاله أحبه وأخشاه * ورؤى الحسن ابن على رضى الله عنهما يطوف بالبيت ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين ثم وضع خده على المقام فجعل يبكى ويقول عبيدك ببابك خويدمك ببابك سائلك ببابك مسيكينك ببابك يردد ذلك مراراً ثم انصرف رضى الله عنه فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام فجلس معهم وقال لولا انه صدقة لأكلت معكم ثم قال قوموا بنا إلى منزلى فتوجهوا معه فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم (وحج) عبد الله بن جعفر رضى الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشى على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكا وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفا وقال أعتقتهم لله تعالى لعله يعتقني من النار وقال الحسن بن على رضي الله عنهما إني لأستحي من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرة * ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حبان الضرير حين لم يهد اليه الحجاج شيئا

خصومة واسلام (قيل) إن الصاحب جمال الدين ابن مطروح كتب لبعض الرؤساء رقعة إلى صديق له يشفع فيها عنده فكتب ذلك الرئيس هذا الأمر على فيه مشقة فكتب ابن مطروح فى جوابه لولا المشقة فلما وقف عليها فهم الاشارة إلى قول المتنبي

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

وقضى الشغل على الفور انتهى ﴿قيل﴾ إن يوسف الصديق عليه السلام كتب على باب السجن لما خرج منه هذا قبر الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء

(وقال الشاعر)

دعوى الاخاء على الرخاء كثيرة * بل فى الشدائد تعرف الاخوان

(ولله در يزيد بن المهلب) من ذى مروءة وسخاء وتصديق أمل فانه كان فى سجن الحجاج يعذب فدخل عليه يزيد بن الحكم وقد حل عليه نجم وكانت نجومه فى كل أسبوع ستة عشر ألف درهم فقال له

أصبح فى قيدك السماحة والـ

سجود وفضل السلاح والحسب * ولا تضجرن إن نابت نعم * وصارف فى البلاء عقب * كن

برزت سبق الجياد فى مهل * وقصرت دون سعيك العرب   فالتفت يزيد إليه مولى له وقال اعطه نجم هذا الاسبوع

كان الحجيج الآن لم يقربوا منى * ولم يحملوا منها سواكا ولا نقلا
أتونا فما جادوا بعود اراكة * ولا وضعوا فى كف طفل لنا نقلا

(وقال غيره) يحجون بالمال الذى يجمعونه * حراما إلى البيت العتيق المحرم
ويزعم كل منهمو أن وزره * يحط ولكن فوقه فى جهنم

(وقال آخر) حج فى الدهر حجة * حج فيها وأحرما * وأتانا من الحجا
ز كما راح محرما * فهو ذو الحجة الذى * ما توقى محرما

وتخاصم بدوى مع حاج عند منصرف الناس فقيل له أتخاصم رجلا من الحجاج فقال

يحج لكيما يغفر الله ذنبه * ويرجع قد حطت عليه ذنوب

(وقال أبو الشمقمق) إذا حججت بمال أصله دنس * فما حججت ولكن حجت العير
مايقبل الله إلا كل طيبة * ماكل من حج بيت الله مبرور

والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿الباب الثانى فى العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك﴾

نص الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها وبين بدائع مصنوعاته وشرحها فقال تعالى وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وروى عن النبي ﷺ أنه قال أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال عز من قائل وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أعز على منك بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب وقال أهل المعرفة والعلم العقل جوهر مضىء خلقه الله عز وجل فى الدماغ وجعل نوره فى القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة ﴿واعلم﴾ أن العقل ينقسم إلى قسمين قسم لا يقبل الزيادة والنقصان وقسم يقبلهما فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء وأما الثانى فهو العقل التجريبي وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع وباعتبار هذه الحالة يقال ان الشيخ أكمل عقلا وأتم دراية وان صاحب التجارب أكثر فهما وأرجح معرفة ولهذا قيل من بيضت الحوادث سواد لمته وأخلقت التجارب لباس جدته وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته كان جديرا برزانة العقل ورجاحة الدراية وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحا على ذوى التجارب والآداب ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به فى محكم كتابه العزيز حيث يقول وآتيناه الحكم صبيا فمن سبقت له سابقة من الله تعالى فى قسم السعادة وأدركته عناية أزلية أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه وأسفر عن وجه الاصابة ظنه وان كان حديث السن قليل التجربة كما نقل فى قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبى حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام فى أمر الغنم والحرث وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث فقال أحدهما إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثى فأهلكته وأكلته ولم تبق لى فيه شيئا فقال داود عليه السلام الغنم لصاحب الحرث عوضا عن حرثه فلما خرجا من عنده مرا على سليمان عليه السلام وكان عمره اذ ذاك على مانقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة فقال لهما ما حكم بينكما الملك فذكرا له ذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود عليه السلام وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام

ونصبر على العذاب الى البيت الآخر ﴿قال الأصمعي﴾ حضرت مجلس الرشيد وفيه مسلم ابن الوليد إذ دخل أبو نواس فقال له الرشيد ما أحدثت بعدنا يا أبا نواس فقال يا أمير المؤمنين ولو فى الخمر فقال قاتلك الله ولو فى الخمر فأنشد:

ياشقيق النفس من حكم * نمت عن ليلى ولم أنم

حتى انتهى إلى آخرها فقال

فتمشت فى مفاصلهم * كتمشى البرء فى السقم

فقال أحسنت والله ياغلام اعطه عشرة آلاف درهم وعشر خلع فأخذها وخرج قال الاصمعي فلما خرجنا من عنده قال لى مسلم بن الوليد ألم تر إلى الحسن بن هانىء كيف سرق شعرى وأخذ به مالا وخلعا فقلت له وأى معنى سرق لك قال قوله فتمشت فى مفاصلهم البيت فقلت وأى شيء قلت فقال

كأن قلبي وشاحاها اذا خطرت * وقلبها قلبها فى الصمت والخرس
تجرى محبتها فى قلب وامقها * جرى السلامة فى أعضاء منتكس

﴿ترجمة المعتزلة﴾ المعتزلة طائفة من المسلمين يرون ان افعال الخير من الله وأفعال الشر من

فدعاه داود عليه السلام وقال له ماهو إلا رفق بالفريقين فقال سليمان تسلم الغنم إلى صاحب الحرث وكان الحرث كرما قد تدلت عناقيده في قول أكثر المفسرين فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به فاذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم اليه سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته فقال له داود القضاء كما قلت وحكم به كما قال سليمان عليه السلام وفي هذه القصة نزل قوله تعالى ـ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ـ فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة بل حصلت بعناية ربانية وألطاف إلهية واذا قذف الله تعالى شيئا من أنوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب ورجح على ذوي التجارب والاكتساب في كثير من الأسباب ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه فان العقل معنى لا يمكن مشاهدته فان المشاهدة من خصائص الأجسام فأقول يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها ميله إلى محاسن الأخلاق واعراضه عن رذائل الأعمال ورغبته في اسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عارا ويورثه سوء السمعة * وقد قيل لبعض الحكماء بم يعرف عقل الرجل فقال بقلة سقطه في الكلام وكثرة اصابته فيه فقيل له فان كان غائبا فقال باحدى ثلاث إما برسوله واما بكتابه واما بهديته فان رسوله قائم مقام نفسه وكتابه يصف نطق لسانه وهديته عنوان همته فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها وقيل من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه فانه روي عن النبي ﷺ أنه قال من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق وقالوا العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه وقال رسول الله ﷺ الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس وقال علي بن عبيدة العقل ملك والخصال رعية فاذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل اليها فسمعه أعرابي فقال هذا كلام يقطر عسله وقيل بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس وكل شيء اذا كثر رخص إلا العقل فانه كلما كثر غلا وقيل لكل شيء غاية وحد والعقل لا غاية له ولا حد ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج * واختلف الحكماء في ماهيته فقال قوم هو نور وضعه الله طبعا وغريزة في القلب كالنور في العين وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور وعمى القلب كعمى البصر قال الله تعالى ـ فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ـ وقيل محل العقل الدماغ وهو قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى وذهب جماعة إلى أنه في القلب كما روي عن الشافعي رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى فتكون لهم قلوب يعقلون بها وبقوله تعالى إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أي عقل وقالوا التجربة مرآة العقل ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فانهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة (قال الشاعر)

ألم تر أن العقل زين لأهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

(وقال آخر) إذا طال عمر المرء في غير آفة * أفادت له الأيام في كرها عقلا

(وقال) عامر بن عبد قيس إذا عقلك عقلك عما لا يعنيك فأنت عاقل * ويقال لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس وقيل يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان قال الشاعر

إذا لم يكن للمرء عقل فانه * وإن كان ذا بيت على الناس هين

الانسان وان القرآن مخلوق محدث ليس بقديم وأن الله تعالى غير مرئي يوم القيامة وأن المؤمن إذا ارتكب الذنب مثل الزنا وشرب الخمر كان في منزلة بين منزلتين يعنون بذلك أنه ليس بمؤمن ولا كافر وأن إعجاز القرآن في الصرفة لا لأنه في نفسه معجز ولو لم يصرف الله العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه وان من دخل النار لم يخرج منها وانما سموا معتزلة لأن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري رضي الله تعالى عنه فلما ظهر الخلاف وقالت الخوارج بكفر مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر خرج واصل عن الفريقين وقال ان الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين منزلتين فطرده الحسن رضي الله تعالى عنه عن مجلسه فاعتزل عنه فقيل لأتباعه معتزلة * ولم يزل مذهب الاعتزال ينمو الى أيام الرشيد فظهر بشر المريسي وأحضر الشافعي مكبلا في الحديد فسأله بشر والسؤال ما تقول يا قرشي في القرآن فقال إياي تعني قال نعم قال مخلوق فخلي عنه وأحس الشافعي رضي الله عنه بالشر وان الفتنة تشتد في اظهار القول بخلق القرآن فهرب من بغداد إلى مصر ولم

ومن

ومن كان ذا عقل أجل لعقله * وأفضل عقل عقل من يتدين

وقالوا العاقل لا تبطره المنزلة السنية كالجبل لا يتزعزع وان اشتدت عليه الريح والجاهل تبطره أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح وقيل لعلي رضي الله تعالى عنه صف لنا العاقل قال هو الذى يضع الشيء مواضعه قيل فصف لنا الجاهل قال قد فعلت يعني الذى لا يضع الشيء مواضعه وقال المنصور لولده خذ عني ثنتين لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير وقال اردشير أربعة تحتاج الى أربعة الحسب إلى الأدب والسرور الى الأمن والقرابة إلى المودة والعقل إلى التجربة وقال كسرى أنوشروان أربعة تؤدي الى أربعة العقل إلى الرياسة والرأي الى السياسة والعلم الى التصدر والحلم الى التوقير وقال القاسم بن محمد من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه وقيل أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه وقيل ثلاثة هن رأس العقل مداراة الناس والاقتصاد في المعيشة والتحبب إلى الناس وقيل من أعجب برأي نفسه بطل رأيه ومن ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال أهل مصر أعقل الناس صغاراً وأرحمهم كباراً وقيل العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق وقيل لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت ولا طعاما حتى يستمرئه ولا يثق بخليل حتى يستقرضه وقيل طول اللحية أمان من العقل وسئل بعضهم أيما أحمد في الصبا الحياء أم الخوف قال الحياء لان الحياء يدل على العقل والخوف يدل على الجبن وقيل غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه قال لي رسول الله ﷺ يا عويمر ازدد عقلا تزدد من الله تعالى قربا قلت بأبي وأمي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلا ثم تنفل الى صالح الاعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من الله قربا وعزا وحكى بعض أهل المعرفة قال حياة النفس بالروح وحياة الروح بالذكر وحياة القلب بالعقل وحياة العقل بالعلم ويروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها

ان المكارم أخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها * والعلم ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والعرف سادسها * والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم من عيني محدثها * ان كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها * ولست أرشد الا حين أعصيها

(وقال) بعض الحكماء العاقل من عقله في ارشاد ورأيه في امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم ولا يكفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته ونظافة بزته اذ كم من كنيف مبيض وجلد مفضض وقد قال الأصمعي رأيت بالبصرة شيخا له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرج وعنده دخل وخرج فأردت أن أختبر عقله فسلمت عليه وقلت له ما كنية سيدنا فقال أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين قال الأصمعي فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله وقد يكون الرجل موسوما بالعقل مرموقا بعين الفضل فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله * وقيل إن اياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد اليها فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة فاتفق أن رجلا أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الامين كيسا فيه جملة من الذهب ثم حج فلما عاد من حجه جاء الى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده فجاء الى القاضي اياس وقص عليه القصة فقال

يقل الرشيد رحمه الله بخلق القرآن فكان الأمر بين أخذ وترك الى أن ولى المأمون فقال بخلق القرآن وبقي يقدم رجلا ويؤخر أخرى في الدعوة إلى ذلك إلى ان قوي عزمه في السنة التي مات فيها وطلب الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فأخبر في الطريق أنه توفي فبقي الامام محبوسا بالرقة حتى بويع المعتصم فأحضر إلى بغداد وعقد له مجلس المناظرة وفيه عبد الرحمن ابن اسحق والقاضي أحمد بن أبي داود وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام فلم ينقطع في بحث وسفه أقوال الجميع فأمر به فضرب بالسياط الى أن أغمي عليه ورمي على بارية وهو مغشي عليه ثم حمل وصار إلى منزله ولم يقل بخلق القرآن ومكث في السجن ثمانية وعشرين شهرا ولم يزل يحضر الجمعة ويفتي ويحدث حتى مات المعتصم وولي الواثق فأظهر ما أظهر من المحنة وقال للامام أحمد لا تجمعن اليك أحدا ولا تساكني في بلد أنا فيه فاختفى الامام أحمد لا يخرج الى الصلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولي المتوكل فأحضره وأكرمه وأطلق له مالا فلم يقبله وفرقه وأجرى على أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم ولم تزل جارية الى أن مات المتوكل وفي أيامه

القاضي هل أخبرت بذلك أحدا غيرى قال لا قال فهل علم الرجل أنك أتيت إلى قال لا قال انصرف واكتم أمرك ثم عد الى بعد غد فانصرف ثم ان القاضى دعا ذلك الرجل المستودع فقال له قد حصل عندى أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيء لها موضعا حصينا فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضى اياس امض الى خصمك واطلب منه وديعتك فان جحدك فقل له امض معى إلى القاضى اياس أتحاكم أنا وأنت عنده فلما جاء اليه دفع اليه وديعته فجاء الى القاضى وأعلمه بذلك ثم ان ذلك الرجل المستودع جاء الى القاضي طامعا فى تسليم المال فسبه القاضي وطرده وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره * ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها فقالوا الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فتمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم وعقدوا لذلك المشورات وتراجعوا فيه بالمناظرات وأجمعوا على أنه فرصة الدهر وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة والرأى غائبا عنهم فقالوا من الحزم عرض الرأى عليه فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال لا أرى ذلك صوابا فسألوه عن علة ذلك فقال فى غد أخبركم ان شاء الله تعالى فلما أصبحوا أتوا اليه وقالوا قد وعدتنا أن تخبرنا فى هذا اليوم بما عولنا عليه فقال سمعا وطاعة وأمر باحضار كلبين عظيمين كان قد أعدهما ثم حرش بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغ الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئبا كان قد أعده لذلك فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعا على الذئب فقتلاه فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم فاذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء

﴿ وأما ذم الحمق ﴾ فقد قال ابن الأعرابى الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأى فلا يشاور ولا يلتفت اليه فى أمر من الأمور والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به * إلا الحماقة أعيت من يداويها

والحمق مذموم قال رسول الله ﷺ الأحمق أبغض الخلق الى الله تعالى اذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ فمن أفرط طول لحيته قل دماغه ومن قل دماغه قل عقله ومن قل عقله فهو أحمق وأما صفته من حيث الأفعال فترك نظره فى العواقب وثقته بمن لا يعرفه والعجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب وكثرة الالتفات والخلو من العلم والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء ان استغنى بطر وان افتقر قنط وان قال أفحش وان سئل بخل وان سأل ألح وان قال لم يحسن وان قيل له لم يفقه وان ضحك قهقه وان بكى صرخ وان اعتبرنا هذه الخلال وجدناها فى كثير من الناس فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق * قال عيسى عليه السلام عالجت الابرص والاكمه فأبرأتهما وعالجت الاحمق فأعيانى والسكوت عن الاحمق جوابه ونظر بعض الحكماء الى أحمق على حجر فقال حجر على حجر ﴿ وحكى ﴾ أن أحمقين اصطحبا فى طريق فقال أحدهما للآخر تعال نتمن على الله فان الطريق تقطع بالحديث فقال أحدهما أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها وصوفها وقال الآخر أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئا قال ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة فتصايحا وتخاصما واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالاطواق ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكما

ظهرت السنة وكتب إلى الآفاق برفع ما وقع من المحنة واظهار السنة وتكلم فى مجلسه بالسنة ولم يزالوا أعنى المعتزلة فى قوة الى أيام المتوكل ولم يكن فى هذه الامة الاسلامية أهل بدعة أكثر منهم (ومن) مشاهيرهم على ماذكروا من الفضلاء الاعيان الجاحظ وواصل بن عطاء والقاضى عبد الجبار والرمانى النحوى وأبو على الفارسى وأقضى القضاة الماوردى الشافعى وهذا غريب ومن المعتزلة أيضا الصاحب ابن عباد وصاحب الكشاف والفراء النحوى والسيرافى وابن جنى والله أعلم (ومما جنيته من ثمرات الاوراق) أن الرشيد سأل جعفرا عن جواريه فقال يا أمير المؤمنين كنت فى الليلة الماضية مضطجعا وعندى جاريتان وهما يكبسانى فتناومت عنهما لأنظر صنيعهما واحداها مكية والاخرى مدنية فمدت المدنية يدها إلى ذلك الشيء فلعبت به فانتصب قائما فوثبت المكية وقعدت عليه فقالت المدنية أنا أحق به لأنى حدثت عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحيا أرضا ميتة فهى له فقالت المكية وأنا حدثت عن معمر عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس الصيد لمن أثاره إنما

بينهما فطلع عليها شيخا بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ثم قال صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين * وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء وأعشبت الارض فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال يارب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهم أن يدعو عليه فأوحى الله اليه لاتدع عليه فاني أجازي العباد على قدر عقولهم ويقال فلان ذو حمق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل إلا مايوجب حجة الله عليه وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال :

وما هوجي ياهند إلا سجية * أجر لهـا ذيلي بحسن الخلائق
ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصه * ولاطمت في البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح والأحمق المؤذي هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الثالث في القرآن وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم﴾

قال الله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وسمى الله تعالى القرآن كريما فقال تعالى انه لقرآن كريم وسماه حكيما فقال تعالى يس والقرآن الحكيم وسماه مجيدا فقال تعالى ق والقرآن المجيد أنزله الله تعالى على سيد الانام وخاتم الانبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الاتيان بآية من مثله قال تعالى قل فأتوا بسورة من مثله وقال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فهو النور المبين والحق المستبين لا شيء أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ولا أكثر من إفادته ولا ألذ من تلاوته قال رسول الله ﷺ القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم وقال أيضا ﷺ أصغر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى وقال الشعبي الذي يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل ووفد غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعه ابن الفرزدق فقال له من أنت قال غالب بن صعصعة قال ذو الابل الكثيرة قال نعم قال فما فعلت بابلك قال أذهبتها النوائب وزعزعتها الحقوق قال ذاك خير سبلها ثم قال له يا أبا الاخطل من هذا الذي معك قال ابني وهو شاعر قال علمه القرآن فهو خير له من الشعر فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة وفي ذلك قال :

وماصب رجلي في حديد مجاشع * مع القيد إلا حاجة لي أريدها

وقال أنس رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ يا بني لا تغفل عن قراءة القرآن اذا أصبحت وإذا أمسيت فان القرآن يحيي القلب الميت وينهى عن الفحشاء والمنكر (وحكى) الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار قال ومن حكايات الحشوية ماقيل ان ابراهيم الخواص مر بمصروع فأذن في أذنه فناداه الشيطان من جوفه دعني أقتله فانه يقول القرآن مخلوق * وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن * وكان الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى اذا دخل شهر رمضان يفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم ويقبل على القراءة في المصحف وكان أبو حنيفة والشعبي رحمهما الله تعالى يختمان في رمضان ستين ختمة وقال علي رضي الله تعالى عنه من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوا وقال الشعبي اللسان عدل على الأذن والقلب فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك وقال رسول الله ﷺ من قرأ القرآن ثم رأى أن

الصيد لمن أخذه فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه وقال هل من سلوة عنهما فقال جعفر هما ومولاهما بحكم أمير المؤمنين وحملهما اليه (ومن ذلك) ماحكي عن بعض المطربين أنه غنى في جماعة عند بعض الأمراء

إذا أنت أعطيت السعادة لم تبل * ولو نظرت شزرا اليك القبائل
وان فوق الأعداء نحوك أسهما * ثنتها على أعقابهن المناصل

فطرب الأمير إلى الغاية ولما زاد طربه قال لبعض مماليكه هات خلعة لهذا المغني ولم يفهم المغني مايقوله الامير فقام لقلة حظه الى بيت الخلاء وفي غيبته جاء المملوك بالخلعة فوجد المغني غائبا وقد حصل في المجلس عربدة وأمر الامير باخراج الجميع فقيل المغني بعد ما خرج ان الامير كان قد أمر لك بخلعة فلما كان بعض أيام حضر المغني عند ذلك الامير وغنى فقال

إذا أنت أعطيت السعادة لم تبل * ولو نظرت شزرا اليك القبائل

بفتح التاء وضم الباء فأنكروا عليه فقال نعم لاني لما بلت في ذلك اليوم فاتتني السعادة من الأمير فأوضحوا له القصة فضحك وأعجبه ذلك وأمر له بخلعة ﴿ومن المنقول﴾

أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله وعنه ﷺ أنه قال إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل يارسول الله وما جلاؤها قال قراءة القرآن وذكر الموت وقال عمر بن ميمون من نشر مصحفا حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا وقال علي كرم الله وجهه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات وقال ابن عباس رضي الله عنهما لان أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب الي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة وقال رسول الله ﷺ اقرؤا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المزني قال قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لي ياصالح هذه القراءة فأين البكاء وكان عثمان رضي الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة وليلة السبت بالأنعام الى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطه الى طسم وموسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت الى ص وليلة الأربعاء بتنزيل الى الرحمن ويختم ليلة الخميس * وعن علي رضي الله عنه لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا خير في قراءة لا تدبر فيها وكان عكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنه ولعن أباه إذا نشر المصحف أغمي عليه ويقول هو كلام ربي وأبطأت عائشة رضي الله عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال ما حبسك قالت قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقام فاستمع اليه طويلا ثم قال هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله وقال ابن عيينة رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يارسول الله قد اختلفت على القراءات فعلى قراءة من تأمرني فقال على قراءة أبي عمرو * وعن أبي عمرو اني لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فقرأت عليهم فاشدد بها يدك * فينبغي للانسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلا ونهارا سفرا وحضرا * وقال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في كتابه الأذكار قد كان للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه فكانت جماعة منهم يختمون في كل شهر ختمة وآخرون في كل عشر ليال ختمة وآخرون في كل ثلاث ليال ختمة وكان كثيرون في كل يوم وليلة ختمة وختم جماعة في كل يوم وليلة ختمتين وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمان ختمات أربعا في الليل وأربعا في النهار وروي أن مجاهدا رحمه الله تعالى كان يختم القرآن في شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء * وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان وتميم الداري وسعيد بن جبير رضي الله تعالى عنهم وروينا في مسند الامام المجمع على حفظه وجلالته واتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي رحمه الله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال اذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح واذا وافق أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي قال الدارمي هذا حديث حسن عن سعد وأفضل القراءة ما كان في الصلاة وأما في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل والنصف الاخير منه أفضل من الاول والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولا كراهة في وقت من الاوقات ولا في أوقات النهي عن الصلاة ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة وقيل إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن وان الرحمة تنزل عند ختمه ويستحب الدعاء عقب الختم استحبابا مؤكدا تأكيدا شديدا ويجب على القارىء الاخلاص في قراءته وأن يريد بها وجه الله تعالى وأن لا يقصد بها توصلا الى شيء سوى ذلك وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر في ذهنه أنه يناجي ربه سبحانه وتعالى ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى فانه إن لم يكن يراه فان الله يراه وينبغي للقارىء إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن

أن عبد الله بن المعتز من خلفاء بني العباس مع كماله وغزارة فضله كان لم يزل منغصا في مدة حياته بويع له بالخلافة وظن أن الحظ قد تنبه له فلم يتم الامر له إلا يوما واحدا ثم قبض عليه وقتل رحمه الله تعالى على أنه ما وافق على ولاية الامر حتى اشترط عليهم أن لا يسفكوا في واقعته دما ومحله من الادب لا يخفى وشمعة فضله كالصبح لا تقط ولا تطفي وقد قيل

لله درك من ملك بمضيعة ناهيك في العلم والعلياء والحسب
ما فيه لو ولا ليت تنقصه وانما أدركته حرفة الادب

(وقال ابن الساعاتي)

عفت القريض فلا أسمو له أبدا حتى لقد عفت أن أرويه في الكتب
هجرت نظمي له لا من مهانته لكنها خيفة من حرفة الادب

قلت ومابرح الزمان مولعا بخمول أهل الأدب وخمود نارهم * كان الملك الأفضل نور الدين علي ابن صلاح الدين يوسف من كبار أهل الأدب وكان حسن السيرة متدينا قل إن عاقب على ذنب وله المناقب الجميلة وكان أكبر اخوته ومع كمال صفاته وآدابه التي سارت بها الركبان ماصفا له الدهر ولا هناه بالملك بعد أبيه السلطان صلاح الدين

يكون

يكون شأنه الخشوع والتدبير والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب وبه تنشرح الصدور وبتيسر المرغوب ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر وقد كان الواحد من السلف رضى الله عنهم يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها ويستحب البكاء والتباكي لمن لا يقدر على البكاء فان البكاء عند القراءة صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين قال الله تعالى ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا * وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف ابراهيم الخواص رضى الله تعالى عنه دواء القلب خمسة أشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلو البطن وقيام الليل والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة وآثار بفضيلة الاسرار قال العلماء إن أراد القارىء بالاسرار بعد الرياء فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك فان لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذى غيره من مصل أو نائم أو غيرهما والأحاديث فى فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة ومن أراد الزيادة فلينظر فى كتاب التبيان فى آداب حملة القرآن لشيخ مشايخ الاسلام محيي الدين النووى قدس الله روحه ونور ضريحه وقد جاء فى فضل القرآن أحاديث كثيرة * وروى فى فضل قراءة سورة من القرآن فى اليوم والليلة فضل كبير منها يس وتبارك الملك والواقعة والدخان فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ يس فى يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له وفى رواية له من قرأ سورة الدخان فى ليلة أصبح مغفورا له وفى رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة وعن جابر رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام كل ليلة حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب وتبارك الملك وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال من قرأ فى ليلة إذا زلزلت الأرض كانت له كعدل نصف القرآن ومن قرأ قل يا أيها الكافرون كانت له كعدل ربع القرآن ومن قرأ قل هو الله أحد كانت له كعدل الثلث والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة وقد أشرنا إلى المقاصد منها والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الرابع فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم ﴾

قال الله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء وقال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام وبيان سبيل الجنة والمؤنس فى الوحشة والمحدث فى الخلوة والجليس فى الوحدة والصاحب فى الغربة والدليل على السراء والمعين على الضراء والزين عند الأخلاء والسلاح على الأعداء وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار فى الدرجات العلى ومجالسة الملوك فى الدنيا ومرافقة الأبرار فى الآخرة والفكر فى العلم يعدل الصيام ومذاكرته تعدل القيام وبالعلم توصل الأرحام وتفصل الأحكام وبه يعرف الحلال والحرام وبالعلم يعرف الله ويوحد وبالعلم يطاع الله ويعبد (قيل) العلم درك حقائق الأشياء مسموعا ومعقولا وقال النبى ﷺ خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل وعنه عليه الصلاة والسلام يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ولغدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة ولا يخرج أحد فى طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة وقال على كرم الله وجهه أقل الناس قيمة أقلهم علما وقال أيضا رضى الله عنه العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون والحكماء وسط البحر يغوصون والعارفون فى سفن النجاة يسيرون وقال موسى عليه السلام فى مناجاته إلهى من أحب الناس إليك قال عالم يطلب علما وقال

رحمه الله تعالى لبث مدة يسيرة بدمشق المحروسة ثم حضر اليه عمه أبو بكر العادل وأخوه الملك العزيز عثمان فأخرجاه من ملكه بدمشق إلى صرخد ثم جهزاه إلى سميساط وفى ذلك كتب إلى الامام الناصر ببغداد

مولاى إن أبا بكر وصاحبه
عثمان قد منعا بالسيف حق على
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقى
من الأواخر مالاقى من الأول

فكتب الناصر الجواب

ولكن الفرق مثل الصبح
وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ثائر
فاصبر فان غدا عليه حسابهم
وابشر فناصرك الامام الناصر

ولم ينصره الامام الناصر بل توفى فجأة بسميساط رحمه الله تعالى ومن شعره ماذكره ابن واصل فى مفرج الكروب

يامن يسود شعره بخضابه
فساه من أهل الشبيبة يحصل
ها فاختضب بسواد حظى مرة
ولك الأمان بأنه لا ينصل

﴿قلت﴾ ومثله الملك الناصر داود ابن الملك المعظم وكان

بعض السلف رضي الله عنهم العلوم أربعة الفقه للأديان والطب للأبدان والنجوم للأزمان والنحو للسان وقيل العالم طبيب هذه الأمة والدنيا داؤها فاذا كان الطبيب يطلب الداء فتى يبرى غيره * وسئل الشعبي عن مسألة فقال لاعلم لى بها فقيل له ألا تستحى فقال ولم أستحى مما لم تستح الملائكة منه حين قالت لاعلم لنا وعن النبي صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم وروى كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وقال على كرم الله وجهه من نصب نفسه للناس إماما فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه وقيل مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالاجلال من مؤدب الناس ومعلمهم وأنشدوا :

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى * كيا يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا * أبدا وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويهتدى * بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال بعضهم

إنى رأيت الناس فى عصرنا * لا يطلبون العلم للعلم
الا مباهاة لأصحابه * وعدة للغش والظلم

(نظر) رجل الى امرأته وهى صاعدة فى السلم فقال لها أنت طالق ان صعدت وطالق ان نزلت وطالق ان وقفت فرمت نفسها إلى الأرض فقال لها فداك أبى وأمى ان مات الامام مالك احتاج اليك أهل المدينة فى أحكامهم وقال النبي ﷺ هلاك أمتى فى شيئين ترك العلم وجمع المال * وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال العلم بالله والفقه فى دينه وكررها عليه فقال يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرنى عن العلم فقال ان العلم ينفعك معه قليل العمل وان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل وقال عيسى عليه السلام من علم وعمل عد فى الملكوت الاعظم عظيما * وقال الخليل عليه السلام العلوم أقفال والأسئلة مفاتيحها وعنه عليه السلام زلة العالم مضروب بها الطبل وزلة الجاهل يخفيها الجهل وقال الحسن رأيت أقواما من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم وقال يزيد بن ميسرة من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجوه العباد اليه ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه وعن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ألا أخبركم بأجود الأجواد قالوا بلى يا رسول الله قال الله أجود الأجواد وأنا أجود ولد آدم وأجود من بعدى رجل علم علما فنشره يبعث يوم القيامة أمة وحده ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل وقال الثورى كان يقال العالم الفاجر فتنة لكل مفتون وعن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله إذا لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقادلهم الناس وكانوا لهم تبعا ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا فانا لله وانا اليه راجعون فأعظم مصيبة والله أعلم وللقاضى العلامة أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى وقد أحسن كل الاحسان كأنما طرزت فى خلع حسان

ولم أقض حق العلم ان كنت كلما * بدا طمع صيرته لى سلما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى * لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة * إذا فاتباع الجهل قد كان أسلما
فان قلت زند العلم كاب فانما * كبا حين لم نحرس حماه وأظلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

داود صاحب الكرك مابرح مع كمال فضله منكدا مشتتا فى البلاد توجه إلى بغداد ومعه نظر

القضاة ابن بصاقة والشيخ شمس الدين الخرشاهي وقد استصحب جواهر نفيسة والتجأ إلى الامام الناصر وطلب الحضور بين يديه ليشاهده فى الملأ فما قدر له ذلك ولا وافق الخليفة عليه حتى امتدحه بقصيدته البائية التى مطلعها

ودان ألمت بالكثيب ذوائبه * وجنح الدجى وحف تجول غياهبه
تقهقه فى تلك الربوع رعوده * وتبكى على تلك الطلول سحائبه

(وقال منها في حكاية حاله مع الخليفة)

أيحسن في شرع المعالى ودينها * وأنت الذى تعزى اليه مذاهبه
بأنى أخوض الدو والدو مقفر * سباريته مقفرة وسباسبه
ويأتيك غيرى من بلاد قريبة * له الامن فيها صاحب لا يجانبه
فيلقى دنوا منك لم ألق مثله * ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه
وينظر فى لألاء قدسك نظرة * فيرجع والنور الامامى صاحبه
ولو كان يعلونى بنفس ورتبة * وصدق ولاء لست فيه أصاقبه
ولو

لكنت أسلى النفس عما ترومه * وكنت أزود العين عما تراقبه   ولكنه مثلي ولو قلت انني أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه

ولو عظموه فى النفوس لعظما * ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا * محياه بالاطماع حتى تجهما

وقيل من لم يتعلم فى صغره لم يتقدم فى كبره وقال الفضيل شر العلماء من يجالس الامراء وخير الامراء من يجالس العلماء وقال لقمان جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الارض بماء السماء وقيل من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار وكان ابن مسعود رضى الله عنه اذا رأى طالبي العلم قال مرحبا بكم ينابيع الحكمة ومصابيح الظلمة خلقان الثياب جدد القلوب رياحين كل قبيلة وقال على رضى الله عنه كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب اليه وكفى بالجهل ضعة أن يبرأ منه من هو فيه ويغضب اذا نسب اليه وعن النبى ﷺ ما آتى الله أحدا علما الا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحدا ودعا بعضهم لآخر فقال جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله وعن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال على باب الجنة شجرة تحمل ثماراً كثدى النساء يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب والناس عطاش وعن ابن مسعود رضى الله عنه من تعلم بابا من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبيا وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويل لأمتى من علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم

العلم أنفس شيء أنت داخره * من يدرس العلم لم تدرس مفاخره
أقبل على العلم واستقبل مقاصده * فأول العلم اقبال وآخره

(قال) الشعبي دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألني عن اسمى فأخبرته ثم قال ياشعبي كيف علمك بكتاب الله قلت عنى يؤخذ قال كيف علمك بالفرائض قلت الى فيها المنتهى قال كيف علمك بانساب الناس قلت أنا الفيصل فيها قال كيف علمك بالشعر قلت أنا ديوانه قال لله أبوك وفرض لى أموالا وسودنى على قومى فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان وخرجت وأنا سيدهم (قال البستى)

إذا لم يزد علم الفتى قلبه هدى * وسيرته عدلا وأخلاقه حسنا
فبشره ان الله أولاه فتنة * تغشيه حرمانا وتوسعه حزنا

وقال الهيثم بن جميل شهدت مالك بن أنس رضي الله عنه سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال فى ثنتين وثلاثين منها لا أدرى وقال الأوزاعي شكت النواويس الى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار فأوحى الله اليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه وقال على رضى الله عنه من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والارض ولصالح اللخمي

تعلم إذا ما كنت لست بعالم * فما العلم الا عند أهل التعلم
تعلم فان العلم أزين للفتى * من الحلة الحسناء عند التكلم

ودخل عبدالله بن مسلم الهذلى على المهدى في القراء فأخذ عشرة آلاف درهم ثم دخل فى الرماة فأخذ عشرة آلاف درهم ثم دخل في المغنين فأخذ كذلك ثم دخل فى القصاص فأخذ كذلك فقال المهدى لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله فى أحد منك ومل جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه فى بيت فرقى السطح وجعل يستمع من كوة حتى وقع عليه الثلج فصبر فشكر الله له ذلك فجعله أمام الحكماء لا يختلفون فى شيء الا صدروا عن رأيه وشكا رجل الى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له استعن على الحفظ بترك المعاصى فأنشأ يقول :

شكوت الى وكيع سوء حفظي * فأرشدني إلى ترك المعاصى

الناصر يشير الى مظفر الدين كوكبورى بن كوجك فانه قدم الى الديوان فطلب الحضور فاذن له وبرز له الخليفة وشاهد وجهه ولما وقف الخليفة على هذه القصيدة أعجبته غاية الاعجاب وهى من النظم البديع فى غاية لا تدرك فاستدعاه بعد شطر من الليل واجتمع به خلوة وما تم له ما ظفر به مظفر الدين المذكور وسبب ذلك أن الخليفة راعى عمه المذكور والذى ثبت عند أهل التاريخ أن عمه العادل مافعل ذلك إلا حسدا له على كمال أدواته وبلاغة آدابه وقيل إنه كتب خطا منسوبا أزرى بالحدائق المدبجة (وحكى صاحب الريحان والريعان) قال حضر شاب ذكى بعض مجالس الأدب فقال بعضهم ما تصحيف نصحت فخنتنى قال تصحيف حسن فاستغرب اسراعه وكان بالمجلس شاعر من أهل بلنسية فاتهم الشاب وقال مختبرا له ما تصحيف بلنسية فأطرق ساعة ثم قال أربعة أشهر فجعل البلنسى يقول صدق ظنى انك تدعى وتنتحل ما تقول والفتى يضحك ثم قال له أشعرت أنت ياشاعر فقال له وأي نسبة بين أربعة أشهر وبين بلنسية فقال له ان لم يكن فى اللفظ فهو فى المعنى ثم قام وهو

وذلك ان حفظ العلم فضل * وفضل الله لا يؤتى لعاصي

ووجد في بعض الآثار عن بعضهم أنه قال اذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب أو المصحف أو ابتداء القراءة في كل شيء أردت بسم الله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين ودهر الداهرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (قيل) وإذا أردت أن لا تنسى حرفا فقل قبل القراءة اللهم افتح علينا حكمتك وانشر علينا رحمتك ياذا الجلال والاكرام واذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة آمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه (ومن فوائد سيدي الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى في الحفظ) يقرأ في كل يوم عشر مرات ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما الى قوله تعالى وكنا فاعلين ياحي ياقيوم يارب موسى وهارون ويارب ابراهيم ويارب محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ألزمني الفهم وارزقني العلم والحكمة والعقل برحمتك ياأرحم الراحمين وعن أبي يوسف قال مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أدع مجلس أبي حنيفة خوفا أن يفوتني منه يوم وقال محمد بن اسحق بن خزيمة مارأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث ولا أحفظ له من محمد بن اسماعيل البخاري حتى كان يقال ان حديثا لا يعرفه محمد بن اسماعيل ليس بحديث وقال البخاري رحمه الله تعالى أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح وقال ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين وقال أخرجته من ستمائة ألف حديث وصنفته في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى وقال مجاهد أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه وكان يقال الليث بن سعد رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته ولهذا قال الشافعي لما قدم مصر بعد موته والله لأنت أعلم من مالك وانما أصحابك ضيعوك وقال الليث بن سعد ماهلك عالم قط الا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس ويقال اذا سئل العالم فلا تجب أنت فان ذلك استخفاف بالسائل والمسئول وقالوا من خدم المحابر خدمته المنابر

لاتدخر غير العلوم فانها نعم الذخائر * فالمرء لو ربح البقا * مع الجهالة كان خاسر

وللشافعي رضي الله تعالى عنه

أخي لن تنال العلم الا بستة * سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة * وصحبة أستاذ وطول زمان

وقال الزهري العلماء أربعة سعيد بن المسيب بالمدينة وعامر الشعبي بالكوفة والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام وقال بعضهم العلماء سرج الازمنة كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره وقيل لابراهيم بن عيينة أي الناس أطول ندامة قال أما في الدنيا فصانع المعروف الى من لا يشكره وأما في الآخرة فعالم مفرط:

كن عالما وارض بصف النعال * ولا تكن صدرا بغير الكمال
فان تصدرت بلا آلة * صيرت ذاك الصدر صف النعال

وقيل لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر ثم طار فنظر الخضر الى موسى عليه السلام وقال يانبي الله ان هذا العصفور يقول ياموسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لا يعلمه الخضر والخضر على علم من علم الله علمه الله إياه لا تعلمه أنت وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ولا الخضر وما علمي وعلمك وعلم الخضر في علم الله الا كهذه القطرة من هذا البحر قال الله تعالى ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وقال تعالى وما يعلم جنود

يقول ذلك فخذه بعض الحاضرين ونظر فاذا أربعة أشهر ثلث سنة وهو تصحيف بلنسية فخجل الشاعر المنازع ومضى الى الشاب معترفا ومعتذرا انتهى وهذا المعنى في بلنسية نظمه الشيخ بدر الدين الدماميني أحجية فقال

أيا واحد العصر ما بلدة * محاسنها في الورى تذكر
حجى ما يرادف تصحيفها * وحقك أربعة أشهر

(ومن الغريب) ما نقل عن الفقيه عمارة اليمني الشاعر أنه مر بمصلوب فقال

ومد على صليب الصلب منه * يمينا لا تطول الى الشمال
ونكس رأسه لعتاب القلب * دعاه الى الغواية والضلال

فلم يمض ثلاثة أيام حتى صلب بين القصرين مع الجماعة القرماء (وكان) الفقيه نجم الدين عمارة أديبا ماهرا فقيها شافعي المذهب من أهل السنة قدم في دولة الفاطميين الى الديار المصرية وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر ووزيره الصالح بن رزيك فكان عنده في أكرم محل وأعز جانب واتحد به على ما كان بينهما من الاختلاف في العقيدة ثم رحل الى اليمن وعاد الى مصر وأقام بها الى أن زالت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورثى أهل القصر بقصيدته التي أولها

ربك إلاهو قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما خلق الله تعالى أربعين ألف عالم الانس والجن عالمان والبواقى لا يعلمها إلاهو وقال موسى عليه السلام يارب قد قلت للسموات والأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فلولم تطعك السموات والارض ماذا كنت فاعلا بهما قال ياموسى كنت آمر دابة من دوابى أن تبتلعهما قال موسى يارب وأين تلك الدابة قال فى مرج من مروجى قال موسى يارب وأين ذلك المرج قال فى علم من علمى لا يعلمه إلا أنا وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى فكرة فقال فيم تفكرون تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فان الله خلق من جانب الغرب أرضا يقال لها البيضاء تقطعها الشمس فى أربعين يوما فيها خلق ما عصوا الله طرفة عين فقال ابن عمر يارسول الله أين إبليس منهم قال ماعلموا بابليس خلق أم لا قال أمن بنى آدم قال ماعلموا بآدم خلق أم لا فهذه كلها مما أعدها الله فى علم غيبه انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون وقال قتادة لو كان أحد مكتفيا من العلم لا كتفى نبى الله موسى عليه السلام إذ قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا وقال الحكماء أفضل العلم وقوف العالم عند علمه وقال بعضهم ليس العلم ماخزنته الدفاتر وإنما العلم ماخزنته الصدور وقيل العلم يؤدى إلى التصدير وقيل من تواضع للعلم ناله ومن لم يتواضع له لم ينله وقيل من برق علمه برق وجهه ومن لم يستفد بالعلم مالا اكتسب به جمالا العلم نور وهدى والجهل غى وردى وقال بعضهم العالم يعرف الجاهل والجاهل لا يعرف العالم لان العالم كان جاهلا والجاهل لم يكن عالما وقيل أربعة يسودون العبد العلم والأدب والصدق والأمانة وقيل أهل العراق أطلب الناس للعلم وقال حماد بن سلمة مثل الذى يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها ولابراهيم بن خلف المهرانى :

النحو يصلح من لسان الألكن * والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها * فأجلها منها مقيم الألسن

وقال على بن بشار :

رأيت لسان المرء آية عقله * وعنوانه فانظر بماذا تعنون * ولا تعد اصلاح اللسان فانه
يخبر عما عنده ويبين * ويعجبنى زي الفتى وجماله * فيسقط من عينى ساعة يلحن

ودخل أعرابى السوق فوجدهم يلحنون فقال سبحان الله يلحنون ويربحون ؟ وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن فقال لم لا تنظر فى العربية فقال بلغنى أن من نظر فيها قل كلامه فقال ويحك لأن يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ وكان يقال مجالسة الجاهل مرض للعاقل وقال أبو الاسود الدؤلى إذا أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا وقال الشاعر :

جهلت ولا تدرى بأنك جاهل * ومن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى

وقال رجل للحسن أنا أفصح الناس قال لا تقل هذا قال فخذ على كلمة واحدة قال هذه واحدة أبو جهل كناه المسلمون بذلك وكانت قريش تكنيه أبا الحكم فقال حسان رضى الله تعالى عنه

الناس كنوه أبا حكم * والله كناه أبا جهل

﴿وأما ما جاء فى الأدب﴾ فقد قال بعض الحكماء العقل يحتاج الى مادة من الأدب كما تحتاج الابدان الى قوتها من الطعام وقال على كرم الله وجهه الأدب كنز عند الحاجة عون على المروءة صاحب فى المجلس أنيس فى الوحدة تعمر به القلوب الواهية وتحيا به الالباب الميتة وينال به الطالبون ما حاولوا وقيل عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح ﴿وحكى﴾ أن رجلا تكلم بين يدى المأمون فأحسن فقال ابن من أنت

رميت يادهر كف المجد بالشلل * ورعته بعد حسن الحلى بالعطل
﴿ومنها﴾
قدمت مصر فأولتنى خلائفها * من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن * تمامها أنها جاءت ولم أسل
بالأمس فى هوى أبناء فاطمة * لك الملامة إن قصرت فى عذل
بالله زر ساحة القصرين وابك معى * عليهما الاعلى صفين والجمل
ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة * بنسل آل أمير المؤمنين على

وهى طويلة فى غاية الحسن فلما بلغت السلطان صلاح الدين تغير عليه (وقيل) إنه استفتى عليه فى قوله من قصيدته الميميه

وكان مبدأ هذا الامر من رجل * سعى فأصبح يدعى سيد الأمم

فأفتى الفقهاء بقتله وقالوا إن هذا الكلام رأى الفلاسفة فى النبوات وانها بالتكسب وهي إحدى المسائل التى كفروا بها والصحيح أنه يجتبي من رسله من يشاء ولم يكن أحد من الانبياء عنده شعور بأنه يكون فيما بعد نبيا والذى يظهر أن هذا منحل على الفقيه عمارة نظمه بعض أعدائه على لسانه ودسه فى تلك القصيدة وما يبعد أن القاضي الفاضل رحمه الله كان

قال ابن الأدب يا أمير المؤمنين قال نعم النسب انتسبت اليه ولهذا قيل المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ومن حيث يوجد لا من حيث يولد قال الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول ها أناذا * ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال بعض الحكماء من كثر أدبه كثر شرفه وان كان وضيعا وبعد صيته وان كان خاملا وساد وإن كان غريبا وكثرت حوائج الناس اليه وان كان فقيرا قال بعض الشعراء :

لكل شيء زينة فى الورى * وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرء بآدابه * فينا وان كان وضيع النسب

(وقال بعض الاعاجم مفتخرا) مالى عقلى وهمتى حسبي * ما أنا مولى وما أنا عربي
اذا انتمى منتم الى أحد * فانني منتم الى أدبي

وقيل الفضل بالعقل والأدب لا بالاصل والحسب وقيل المرء بفضيلته لا بفصيلته وبكماله لا بجماله وبآدابه لا بثيابه وقيل لرجل من أدبك قال رأيت جهل الجهال قبيحا فاجتنبته فتأدبت ومن أدب ولده صغيرا سر به كبيرا من عرف الأدب اكتسب به المال والجاه خير الخلال الأدب وشر المقال الكذب وقيل لبقراط ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له قال كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذى ليس بناطق ودخل أبو العالية على ابن عباس رضى الله عنهما فأقعده معه على السرير وأقعد رجالا من قريش تحته فرأى سوء نظرهم اليه وحموضة وجوههم فقال ما لكم تنظرون الى نظر الشحيح إلى الغريم المفلس هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير ويرفع المملوك على المولى ويقعد العبيد على الأسرة وقال جالينوس ان الابن الوضيع اذا كان أديبا كان نقص أبيه زائدا فى منزلته وابن الشريف اذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائدا فى سقوطه وقيل أحسن الأدب أن لا يفتخر المرء بأدبه وسمع معاوية رجلا يقول أنا غريب فقال كلا الغريب من لا أدب له ويقال اذا فاتك الادب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب ولعبد الملك بن صالح

فى الناس قوم أضاعوا مجد أولهم * ما فى المكارم والتقوى لهم أرب
سوء التأدب أرداهم وأرذلهم * وقد يزين صحيح المنصب الأدب

وقيل أربعة تسود العبد الأدب والعلم والصدق والامانة وقال بعض الحكماء خمسة لا تتم الا بخمسة لا يتم الحسب إلا بالأدب ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة ولا يتم الغنى الا بالجود ولا يتم البطش إلا بالجراءة ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق والله تعالى أعلم

﴿ الباب الخامس فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك ﴾

قال الحكماء اذا أراد الله بعبد خيرا ألهمه الطاعة وألزمه القناعة وفقهه فى الدين وعضده باليقين فاكتفى بالكفاف واكتسى بالعفاف وإذا أراد به شرا حبب اليه المال وبسط منه الآمال وشغله بدنياه ووكله الى هواه فركب الفساد وظلم العباد الثقة بالله أزكى أمل والتوكل عليه أوفى عمل من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ من سره الفساد ساءه المعاد كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع لا يغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة من أطاع هواه باع دينه بدنياه ثمرة العلوم العمل بالمعلوم من رضى بقضاء الله لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه خير الناس من أخرج الحرص من قلبه وعصى هواه فى طاعة ربه نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف البخيل حارس

له ميل إلى هلاكه لأنه لما استشاره قال الكلب يسكت ثم ينبح قال فيسجن قال يرجى له الخلاص قال فيقتل قال كذا الملوك إذا أرادوا شيئا فعلوه ونهض فأمر فصلبه مع الغرماء فلما أمسكوه مروا به على باب القاضل فلما رآه مقبلا قام ودخل إلى بيته وأغلق الباب فقال الفقيه عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص من العجب

(نكتة أدبية) قال ابن سناء الملك من أبيات

صليني وهذا الحسن باق فربما * يعزل بيت الحسن منه ويكنس

فوقف القاضى الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة وكتب الى ابن سناء الملك من جملة فصل وما قلت هذه الغاية الا وتعلمنى انها البداية ولا قلت هذا البيت آية القصيدة الا وتلا ما بعده وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها فى حسنها بديعة فى فنها ولكن بيت يعزل ويكنس أروت أنا كنسه من القصيدة فان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها انتهى فأجاب ابن سناء الملك

نعمته وخازن لورثته من لزم الطمع عدم الورع إذا ذهب الحياء حل البلاء علم لا ينفع كدواء لا ينجع من جهل المرء أن يعصى ربه فى طاعة هواه ويهين نفسه فى اكرام دنياه أيام الدهر ثلاثة يوم مضى لا يعود اليك ويوم أنت فيه لا يدوم عليك ويوم مستقبل لا يدرى ما حاله ولا تعرف من أهله من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب لا تبت على غير وصية وان كنت من جسمك فى صحة ومن عمرك فى فسحة عظ المسىء بحسن أفعالك ودل على الجميل بجميل خلالك إياك وفضول الكلام فانه يظهر من عيوبك ما بطن ويحرك من عدوك ما سكن لا تجد العجول فرحا ولا الغضوب مسرورا ولا الملول صديقا حسن النية من العبادة حسن الجلوس من السياسة من زاد فى خلقه نقص فى حظه من ائتمن الزمان خانه أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء لا يكمل للانسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال يقطع رجاءه مما فى أيدى الناس ويسمع شتم نفسه ويصبر ويحب للناس ما يحب لنفسه ويثق بمواعيد الله إياك والحسد فانه يفسد الدين ويضعف اليقين ويذهب المروءة قيل لأفلاطون ما الشىء الذى لا يحسن أن يقال وان كان حقا قال مدح الانسان نفسه أربعة تؤدى إلى أربعة الصمت إلى السلامة والبر إلى الكرامة والجود إلى السيادة والشكر إلى الزيادة من ساء تدبيره أهلكه جده الغرة ثمرة الجهل آفة القوة استضعاف الخصم آفة النعم قبح المن آفة الذنب حسن الظن الحزم أسد الآراء والغفلة أضر الاعداء من قعد عن حيلته أقامته الشدائد ومن نام عن عدوه أيقظته المكايد من قرب السفلة وأطرح ذوى الاحساب والمروءات استحق الخذلان من عفا تفضل من كظم غيظه فقد حلم من حلم فقد صبر ومن صبر فقد ظفر من ملك نفسه عند أربع حرمه الله على النار حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل كل امرىء يعرف بقوله ويوصف بفعله فقل سديدا وافعل حميدا من عرف شأنه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته وقلت ندامته كن صموتا وصدوقا فالصمت حرز والصدق عز من أكثر مقاله سئم ومن أكثر سؤاله حرم من استخف باخوانه خذل ومن اجترأ على سلطانه قتل ما عز من أذل جيرانه ولا سعد من حرم اخوانه خير النوال ما وصل قبل السؤال أولى الناس بالنوال أزهدهم فى السؤال من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه إذا اصطنعت المعروف فاستره واذا اصطنع اليك فانشره من جاور الكرام أمن من الاعدام من طاب أصله زكا فرعه من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة من من بمعروفه سقط شكره ومن أعجب بعمله حبط أجره من رضى من نفسه بالاساءة شهد على أصله بالرداءة من رجع فى هبته بالغ فى خسته من رقى فى درجات الهمم عظم فى عيون الامم من كبرت همته كثرت قيمته من ساء خلقه ضاق رزقه من صدق فى مقاله زاد فى جماله من هان عليه المال توجهت اليه الآمال من جاد ناله جل ومن جاد بعرضه ذل خير المال ما أخذ من الحلال وصرف فى النوال وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف فى الآثام أفضل المعروف اغاثة الملهوف من تمام المروءة أن تنسى الحق لك وتذكر الحق عليك وتستكبر الاساءة منك وتستصغرها من غيرك من أحسن المكارم عفو المقتدر جود الرجل يحببه إلى أصدقائه وبخله يبغضه إلى أودائه لا تسىء إلى من أحسن اليك ولا تمن على من أنعم عليك من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه من طال تعديه كثرت أعاديه شر

قائلا قد علم المملوك ما نبه عليه مولانا من أمر البيت الذى أراد أن يكنسه من القصيدة وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت مستحليا له معجبا به معتقدا أن قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه وما أوقعه فى الكنس الا ابن المعتز حيث يقول

وقوامي مثل القناة من الخطا
ط وخدى من خيى مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر وما مال المملوك إلا إلى طريق من ميله اليه طبعه ولا سار الا الى من دله عليه سمعه ورأى المملوك أبا عبادة قد قال

ويا عاذلى فى عبرة قد سفحتها
لبين وأخرى قبلها للتجنب
تحاول منى شيمة غير شيمتى
وتطلب منى مذهبا غير مذهبي

وقال

وما زارنى الا ولهت صبابة
إليه والا قلت أهلا ومرحبا

فعلم المملوك أن هذه طريقة لا تسلك وعقيلة لا تملك وغاية لا تدرك ووجد المملوك أبا تمام قد قال

سلم على الربع من سلمى بذى سلم

ووجدته أيضا قد قال * خشنت (٢٦) عليه أخت بنى خشين * فاشمأز من هذا اللفظ طبعه واقشعر

منه فهمه ونباعنه ذوقه وكان سمعه يتجرعه ولا يكاد يسيغه ووجد هذا المبدع السيد عبد الله بن المعتز قد قال

وقفت بالربع أشكو فقد مشبهه
حتى بكت بدموعى أعين الزهر
لو لم أعرها دموع العين تسفحها
لرحمتى لاستعارتها من المطر

وقد قال

قدك غصن لاشك فيه كما
وجهك شمس نهاره جسدك

فوجد المملوك طبعه إلى هذا الأمر مائلاوخاطره فى بعض الأحيان عليه سائلا فنسج على هذا الأسلوب وغلب على خاطره مع علمه أنه المغلوب وحبك الشىء يعمى و يصم فقد أعماه حبه وأصمه إلى أن نظم تلك اللفظة فى تلك الأبيات تقليداً لابن المعتز قائلها وحمل أثقالها وهى زلة تغتفر فى جنب حسناته وأما المملوك فهى عورة ظهرت فى أبياته (فأجابه الفاضل بقوله) ولا حجة فيما احتجه بابن المعتز عن الكنس فى بيته فانه غير معصوم من الغلط ولا يقلد إلا فى الصواب فقط وقد علم مما ذكره من

الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم من جفر حفيراً لأخيه كان حتفه فيه من سل سيف العدوان أغمد فى رأسه من لم يرحم العبرة سلب النعمة ومن لم يقل العثرة سلب القدرة لاتحاج من يذهلك خوفه و يملكك سيفه صمت تسلم به خير من نطق تندم عليه من قال مالا ينبغى سمع مالا يشتهى جرح الكلام أصعب من جرح الحسام من سكت عن جاهل فقد أوسعه جوابا وأوجعه عتابا من أمات شهوته أحيا مروءته من كثرت عوارفه كثرت معارفه من لم تقبل توبته عظمت خطيئته اياك والبغى فانه يصرع الرجال ويقطع الآجال الناس فى الخير أربعة أقسام منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه حرمانا ومنهم من يتركه استحسانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه حرمانا فهو شقى ومن تركه استحسانا فهو دنى من سالم سلم ومن قدم الخير غنم من لزم الرقاد عدم المراد ومن دام كسله خاب أمله العجول مخطىء وان ملك والمتأنى مصيب وان هلك من أمارات الخذلان معادات الاخوان استفساد الصديق من عدم التوفيق الرفق مفتاح الرزق من نظر فى العواقب سلم من النوائب ومن أسرع فى الجواب أخطأ فى الصواب من ركب العجل أدركه الزلل من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه من قلت فضائله ضعفت وسائله من فعل ماشاء لقى ماساء من كثر اعتباره قل عثاره من ركب جده غلب ضده القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير ظن العاقل أصح من يقين الجاهل قليل تحمد آخرته خير من كثير تذم عاقبته من خاف سطوتك تمنى موتك إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة لاتشك ضعفك إلى عدوك فانك تشمته بك وتطمعه فيك من لم يعمل لنفسه عمل للناس ومن لم يصبر على كده صبر على الافلاس من أفشى سره أفسد أمره الحازم من حفظ مافى يده ولم يؤخر شغل يومه لغده من طلب ما لا يكون طال تعبه لاتفتح بابا يعييك سده ولا ترم سهما يعجزك رده سوء التدبير سبب التدمير اغمد سيفك ما نابءنك لسانك ليس العجب من جاهل يصحب جاهلا ولكن العجب من عاقل يصحبه لأن كل شىء يفر من ضده و يميل إلى جنسه اذا نزل القدر بطل الحذر رب عطب تحت طلب ومنية تحت أمنية لايخلو المرء من ودود يمدح وعدو يقدح الجوع خير من الخضوع الكذوب متهم وان صدقت لهجته وضحت حجته من طاوعه طرفه اشتد حتفه من لم تسرحياته لم تغم وفاته من أعظم الذنوب تحسين العيوب الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل من ساءت أخلاقه طاب فراقه من حسنت خصاله طاب وصاله بعد يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا اللسان سيف قاطع لايؤمن حده والكلام سهم نافذ لا يمكن رده من اطلع على جاره انهتكت حجب أستاره أجهل الناس من قل صوابه وكثر إعجابه أظهر الناس نفاقا من أمر بالطاعة ولم يأتمر بها ونهى عن المعصية ولم ينته عنها من سلا عن المسلوب كمن لم يسلب ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب الفضيلة بكثرة الآداب لا بفراهة الدواب من زادت شهوته نقصت مروءته من عرف بشىء نسب اليه ومن اعتاد شيئا حرص عليه عند الجدال يظهر فضل الرجال من أخر الأكل لذ طعامه ومن أخر النوم طاب منامه موت فى دولة وعز خير من حياة فى ذلة وعجز مقاساة الفقر هى الموت الأحمر ومسئلة الناس هى العار الأكبر حق يضر خير من باطل يسر كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر ومرهوب منه ينفع ولا يضر عثرة الرجل تزيل القدم وعثرة اللسان تزيل النعم المزاح يورث الضغائن من حلم ساد ومن تفهم ازداد معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب شر ماصحب المرء الحسد بما أصاب الأعمى رشده وأخطأ البصير قصده اليأس خير

من التضرع إلى الناس لا تكن ضاحكا فى غير عجب ولا ماشيا فى غير أرب من سعى بالنميمة حذره القريب ومقته الغريب الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استبد برأيه أشرف الغنى ترك المنى من ضاق خلقه مله أهله الحسد للصديق من سقم المودة كل الناس راض عن عقله دنياك كلها وقتك الذى أنت فيه استر سوأة أخيك لما يعلم فيك محمود الذكر أسنى من الذكر الذميم العجلة أخت الندامة من كرم أصله لان قلبه ومن قل لبه زاد عجبه ربما أدرك بالظن الصواب ليس لمعجب رأى ولا لمتكبر صديق سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار لا تعادين أحدا فانك لا تخلو من عداوة جاهل أو عاقل فاحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه من قل سروره كان الموت راحته لا تردن على ذى خطأ خطأه فيستفيد منك علما ويتخذك عدوا استحى من ذم من لو كان حاضرا لبالغت فى مدحه ومدح من لو كان غائبا لسارعت إلى ذمه وقيل المنفعة توجب المحبة والمضرة توجب البغضة والمخالفة توجب العداوة والمتابعة توجب الألفة والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة والكبر يوجب المقت والتواضع يوجب الرفعة والجود يوجب المدح والبخل يوجب الذم والتوانى يوجب التضييع والحزم يوجب السرور والحذر يوجب السلامة وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة وبالتأنى تسهل المطالب وبحسن المعاشرة تدوم المحبة وبخفض الجانب تأنس النفوس وبسعة خلق المرء يطيب عيشه والاستهانة توجب التباعد وبكثرة الصمت تكون الهيبة وبعدل المنطق تجب الجلالة وبالنصفة تكثر المواصلة وبالافضال يعظم القدر وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال وباحتمال المؤن يجب السودد وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة وبترك مالا يعنيك يتم لك الفضل * واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة والنظر فى العواقب نجاة ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ومن سكت سلم ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ومن أطاع هواه ضل ومع العجلة الندامة ومع التأنى السلامة وزارع البر يحصد السرور وصاحب العقل مغبوط وصداقة الجاهل تعب إذا جهلت فاسأل وإذا زللت فارجع وإذا أسأت فاندم وإذا ندمت فاقلع المروآت كلها تبع للعقل والرأى تبع للتجربة والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة والأعمال كلها تتبع القدر واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب فمن التوراة من قنع شبع ومن الانجيل من اعتزل نجا ومن الزبور من سكت سلم ومن القرآن ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات لا تحمل بطنك مالا يطيق ولا تعمل عملا لا ينفعك ولا تغتر بامرأة ولا تثق بمال ولو كثر والله تعالى أعلم

﴿الباب السادس فى الأمثال السائرة وفيه فصول﴾

﴿الفصل الأول فيما جاء من ذلك فى القرآن العظيم وأحاديث النبى الكريم﴾

(اعلم) أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه وحلى بجواهره كتابه وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها ولم يخل كلام سيدنا رسول الله ﷺ منها وهو أفصح العرب لسانا وأكملهم بيانا فكم فى إيراده وإصداره من مثل يعجز عن مباراته فى البلاغة كل بطل وسنذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامة * فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون الآن حصحص الحق قضى الأمر الذى فيه تستفتيان أليس الصبح بقريب ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ليس لها من دون الله كاشفة أتأمرون الناس بالبر

ابن رشيق فى العمدة من تهافت طبعه وتباين صنعه ومخالفة وضعه فذكر من محاسنه مالا يعلق معه كتاب ومن بارده وغثه مالا تلبس عليه الثياب وقد تعصب القاضى السعيد على أبى تمام فنقصه حظه وأما البحترى فأعطاه أكثر من حقه وقال

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى
فؤادى ولكن للعتاب مواضع

(قال) الشيخ صلاح الدين الصفدى لما وقف على هذا الفصل رأيت ابن سناء الملك استعمل هذه اللفظة فى غير هذا الموضع ولم يحفظ بنهى الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى فقال :

وخلصنى من يدى عشقه
ظلام على خده حندسه
كنست فؤادى من حبه
ولحيته كانت المكنسه

﴿قلت﴾ مابرح الشيخ صلاح الدين غفر الله له يذوق تقليدا كقوله عن ابن سناء الملك لما استعمل فى هذه الصيغة المشتملة على الهجو بشاعة المكنسة ولم يحفظ بنهى الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى أما نهى الفاضل على ابن سناء الملك وضع المكنسة على وجنة معشوقته التى ليس العذار بوجنتها شعرى فقد صحيح * وأما وضع مكنسة اللحية على وجنة من

وتنسون أنفسكم وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكل نبأ مستقر قل كل يعمل على شاكلته وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيراً وإن تصبهم سيئة يفرحوا بها كل نفس بما كسبت رهينة حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ما على الرسول إلا البلاغ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ما على المحسنين من سبيل تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ولا ينبئك مثل خبير ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم كل حزب بما لديهم فرحون لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لا يستوى الخبيث والطيب ففررت منكم لما خفتكم وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين لا يجليها لوقتها إلا هو فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى كل يوم هو فى شأن فبأى حديث بعده يؤمنون وما ربك بغافل عما تعملون واهجرهم هجرا جميلا من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها إن هى إلا فتنتك فاعتبروا يا أولى الأبصار وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ولتعلمن نبأه بعد حين وكان بين ذلك قواما لمثل هذا فليعمل العاملون كل من عليها فان كل نفس ذائقة الموت أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون (ومن) الأمثال من الحديث النبوى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى نية المرء خير من عمله آفة العلم النسيان من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه أنزلوا الناس منازلهم اليد العليا خير من اليد السفلى من مات غريبا مات شهيدا مطل الغنى ظلم يد الله مع الجماعة الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق من غشنا فليس منا سيد القوم خادمهم الحياء شعبة من الايمان تخيروا لنطفكم ابدأ بنفسك ثم بمن تعول حدث عن البحر ولا حرج المجالس بالأمانات كل ميسر لما خلق له اطلبوا الخير من حسان الوجوه إياك وما يعتذر منه الوحدة خير من الجليس السوء استعينوا على الحوائج بالكتمان الندم توبة لا يكون المؤمن طعانا ولا لعانا دع ما يريبك إلى مالا يريبك من كثر سواد قوم فهو منهم انصر أخاك ظالما أو مظلوما انتظار الفرج عبادة كاد الفقر أن يكون كفرا نعم صومعة الرجل بيته الأعمال بخواتيمها

﴿ الفصل الثانى فى أمثال العرب ﴾ إن من البيان لسحرا إن الجواد قد يعثر إن البلاء موكل بالمنطق إن أخا الهيجاء من يسعى معك * ومن يضر نفسه لينفعك أنف فى السماء وأست فى الماء إن الذليل الذى ليست له عضد أى الرجال المهذب إنما هو كبرق خلب إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم إياك أعنى فاسمعى يا جاره إن لم يكن وفاق ففراق إنك لا تجنى من الشوك العنب إذا حان القضاء ضاق الفضاء إن المناكح خيرها الابكار إذا كنت مناطحا فناطح بذوات القرون أوى إلى ركن بلا قواعد إياك أن تضرب بلسانك عنقك أكل وحمد خير من أكل وذم آفة المروءة خلف الوعد إذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقئت عيناه ترك الذنب أيسر من طلب التوبة اتق شر من تحسن اليه الناس اخوان وشتى فى الشيم بلغ السيل الزبى أجع كلبك يتبعك حافظ على الصديق ولو فى الحريق اشتدى أزمة تنفرجى أتبع السيئة الحسنة تمحها الخيل أعرف بفرسانها رمتنى بدائها وانسلت رب رمية من

طلعت لحيته وكان جائرا على عاشقه وسبكها هنا في قالب الهجو فهو نوع من المرقص والمطرب ولو وقف الفاضل على هذه النكتة لأعدها لأبياته انتهى (ومن لطائف المنقول) ما حكى عن الشيخ مجد الدين ابن دقيق العيد والد قاضى القضاة تقى الدين تغمدهما الله برحمته ورضوانه وهو أن الشيخ مجد الدين المشار إليه كان كثير الاحسان إلى أصحابه يسعى لهم على قدر استحقاقهم فيمن يصلح للحكم وفيمن يصلح للعدالة فجاءه بعض طلبته وشكا اليه رقة الحال وكثرة الضرورة فقال له اكتب قصتك وأنا أتحدث مع الوالد فكتب ذلك الطالب المملوك فلان يقبل الأرض وينهى أنه فقير ومضرور بالقطاء القائمة وقليل الحظ بالضاد وناولها للشيخ فلما قرأها تبسم وقال يا فقير سبحان الله ضرك قائم وحظك ساقط انتهى * ومن لطائف المنقول عن قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان رحمه الله تعالى أنه كان يهوى بعض أولاد الملوك وله فيه الاشعار الرائقة يقال إن أول يوم زاره بسط له الطرحة وقال ما عندى أعز من هذه أطأ عليها ولما فشا أمرهما وعلم به أهله منعوه من الركوب فكتب اليه ياسادتى إنى قنعت وحقكم * فى حبكم منكم بأيسر مطلب

غير رام الرباح مع السماح رب أكلة تمنع أكلات استراح من لا عقل له رب أخ لم تلده أمك رب طمع أدى إلى عطب ربما كان السكوت جوابا رب ملوم لا ذنب له رب عين أنم من لسان رحم الله من هدانى الى عيوبى ركوب المخنافس ولا المشى على الطنافس سبق السيف العذل زوج من عود خير من قعود دسبك من بلغك السب سحابة صيف عن قليل تقشع شر أيام الديك يوم تغسل رجلاه طاعة النساء ندامة أطلب تظفر طرف الفتى يخبر عن لسانه ظاهر العتاب خير من باطن الحقد عند الصباح يحمد القوم السرى والظلم مرتعه وخيم عند النطاح يغلب الكبش الأجم

العبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه الملامة

اعقل وتوكل العتاب قبل العقاب عند الرهان تعرف السوابق عند الامتحان يكرم المرء أو يهان عند النازلة تعرف أخاك فى القمر ضياء والشمس أضوأ منه القول ماقالت حذام لقد أسمعت لو ناديت حيا أقلل طعامك يحمد منامك كل فتاة بأبيها معجبة كل كلب ببابه نباح كاد العروس أن يكون ملكا كثرة العتاب توجب البغضاء أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع الكلام أنثى والجواب ذكر كل إناء يرشح بما فيه كما تزرع تحصد كل امرىء فى بيته صبي كلب جوال خير من أسد رابض لقد ذل من بالت عليه الثعالب ليس الخبر كالعيان لكل صارم نبوة ولكل جواد كبوة لكل قادم دهشة لعل لها عذرا وأنت تلوم * لكل ساقطة لاقطة لكل مقام مقال لك لسان من رطب ويدان من خشب للباطل جولة ثم يضمحل ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة لكل غد طعام لكل دهر دولة ورجال لا عطر بعد عروس لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين لا يضر السحاب نباح الكلاب لا تقتن من كلب سوء جروا مقتل الرجل بين فكيه ماحك جلدك مثل ظفرك من عتب على الدهر طال عتبه معاتبة الاخوان خير من فقدهم النفس مولعة بحب العاجل هذه بتلك والبادى أظلم ياحبذا الامارة ولو على الحجارة يكسو الناس وأسته عارية يدك منك وإن كانت شلاء

(الفصل الثالث فى أمثال العامة والمولدين) التسلط على المماليك دناءة اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية الحاجة تفتق الحيلة الحاوى لا ينجو من الحيات الحبة تدور الى الرحى ترجع المؤذى بردى كلما جلوته صدى الأسواق موائد الله فى أرضه السلامة إحدى الغنيمتين الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ الطير بالطير يصاد اطلع القرد فى الكنيف فقال هذه المرآة لهذا الوجه الظريف العادة طبيعة خامسة الغائب حجته معه الخضوع عند الحاجة رجولية الناس أتباع لمن غلب النكاح يفسد الحب النصح بين الملا تقريع الحر حر وإن مسه الضر والعبد عبد وان ملك الدار الثقيل إذا تخفف صار طاعونا أضيع من حلى على زنجية العمل الزرنيخ والاسم للنورة أنشط من ابر دخل نصفه البغل الهرم لا يفزعه صوت الجلجل بدن وافر وقلب كافر تزاوروا ولا تجاوروا تعاشروا كالاخوان وتعاملوا كالاجانب ثمرة العجلة الندامة جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة حينا سقط لقط خذ اللص قبل أن يأخذك خذ القليل من اللئيم وذمه ذل من لا سفيه له ريق العدو سم قاتل رب ساع كقاعد زكاة البدن العلل زلق الحمار وكان من سهوة المكارى زلة الرجل عظم يجبر وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر سلطان غشوم خير من فتنة تدوم سواء قوله وبوله سفير السوء يفسد ذات البين شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه صديق الو الد عم الولد ضرب الطبل تحت الكسا طاعة الولاة بقاء العز طفيل ويقترح عناية القاضى خير من شاهدى عدل دلت على أهلها براقش (وهو اسم كلبة نبحت فدلت على الجيش فقطوهم) غش القلوب يظهر فى فلتات الالسن وصفحات الوجوه غنى المرء فى الغربة وطن فر من الموت وفى الموت وقع قم بسبح وقلب يذبح فلان

ان لم تجودوا بالوصال تعطفا ورأيتم هجرى وفرط تجني لاتمنعوا عيني القريحة أن ترى * يوم الخميس جمالكم فى الموكب

لو كنت تعلم ياحبيبي ماالذى ألقاه من كمد إذا لم تركب لرحمتني ورثيت لي من حالة لولاك لم يك حملها من مذهبي

قسما بوجهك وهو بدر طالع وبليل طرتك التى كالغيهب وبقامة لك كالقضيب ركبت من أخطارها فى الحب أصعب مركب

لولم أكن فى رتبة أرعى لها الـ عهد القديم صيانة المنصب لهتكت سترى فى هواك ولذلى خلع العذار ولج فيك مؤنبي

لكن خشيت بأن تقول عواذلى قد جن هذا الشيخ فى هذا الصبي فارحم فديتك حرقة قد قاربت كشف القناع بحق ذياك النبي

(قال الشيخ جمال الدين) ابن عبد القادر التبريزى الذى يهواه القاضى شمس الدين بن خلكان رحمه الله الملك المسعود ابن الملك الظاهر وكان قد تيمه حبه وكنت أنام عنده بالعادلية فحدثنا فى بعض الليالى إلى أن ذهب الناس فقال لي نم أنت هنا وألقى على فروة

كالكعبة يزار ولا يزور قيل للزمار تهيأ للزمر قال المزمار فى كمى والريح فى فمى كل قليلا تعش كثيراً كلامه ريح فى قفص كالابرة تكسو الناس وهى عريانة كلمة حكمة من جوف خرب كالمريب يقول خذونى كنت سندالا فصرت مطرقة كل مافاتك من الدنيا فهو غنيمة كلما طار قصوا جناحه لو كان المزاح غلاما يتنج إلا شراً لسان الجاهل مفتاح حتفه لكل جديد لذة لو ضاعت صفعة ماوجدت إلا فى قفاه لو كان فى اليوم خير مافات الصياد من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا وبالله التوفيق

(الفصل الرابع فى الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم)

﴿حرف الألف﴾

ألا كل شيء ماخلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل * إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر * إذا لم يكن فيكن ظل ولاخبا * فأبعد كن الله من شجرات إذا كنت فى فكرى وقلبى ومقلتى * فأى مكان من مكانك ألطف * إذا أراد كريم منع صاحبه فليس يخفى عليه كيف ينفعه * إذاما أتيت الأمر من غير بابه * ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته * على طرف الهجران إن كان يعقل * إذا لم يكن عندى نوال هجرتنى وإن كان لى مال فأنت صديقى * الناس فى طلب المعاش وإنما * بالجد يرزق منهم من يرزق أيها السائل عما قد مضى * هل جديد مثل ملبوس خلق * إنما أنفسنا عارية والعوارى حكمها أن تسترد * إن العدو وإن أبدى مسالمة * إذا رأى منك يوماغرة وثبا أتمنى على الزمان محالا * أن ترى مقلتاى طلعة حر * إذا ملك لم يكن ذاهبه فدعه فدولته ذاهبه * إذا ثارت خطوب الدهر يوما * عليك فكن لها ثبت الجنان إذا كنت لا ترضى بما قد ترى * فدونك الحبل به فاختنق * إن الأمور إذا بدت لزوالها فعلامة الادبار فيها تظهر * إذا ضاع شيء بين أم وبنتها * فأحداهما لاشك ذلك آخذه إذا كان رب البيت بالطبل ضاربا * فلا تلم الصبيان فيه على الرقص * إذا ما أراد الله إهلاك نملة سمت بجناحيها إلى الجو تصعد * إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى * أصبت حليما أو أصابك جاهل إذا لم تستطع أمراً فدعه * وجاوزه إلى ما تستطيع * إذا صوت العصفور طار فؤاده ولكن حديد الناب عند الثرائد * أهن عامراً تكرم عليه فانما * أخو عامر من مسه بهوان إذا محاسنى اللاتى أتيت بها * عدت ذنوبا فقل لى كيف أعتذر * اخوان صدق ماراوك بغبطة فإذا افتقرت فقد هوى بك من هوى * إذا اعتاد الفتى خوض المنايا * فأيسر ما يمر به الوحول ألم تر أن المرء تدوى يمينه * فيقطعها عمدا ليسلم سائره * إذا أنت لم تعلم طبيبك كل ما يسؤك أبعدت الدواء عن السقم * إذا أنت حملت الخؤن أمانة * فانك قد أسندتها شر مسند أكل خليل هكذا غير منصف * وكل زمان للكرام بخيل * إذا أنت عبت المرء ثم أتيته فأنت ومن تزرى عليه سواء * أسأت إذا أحسنت ظنى بكم * والحزم سوء الظن بالناس الحادثات إذا ألم خطوبها * فلها مساو مرة ومحاسن * الخير لا يأتيك متصلا والشر يسبق سيله مطره * العلم ينهض بالخسيس الى العلا * والجهل يقعد بالفتى المنسوب الكفر بالنعمة يدعو الى * زوالها والشكر أبقى لها * أيادارهم ما كنت أنت بدارهم ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا * أقلب طرفى لا أرى غير صاحب * يميل مع النعماء حيث تميل إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن * قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

قرظ وقام يدور حول بركة العادلية ويقول فى دورانه أنا والله هالك آيس من سلامتى أو أرى القامة التى قد أقامت قيامتى (وقيل) إن قاضى القضاة شمس الدين المشار اليه رحمه الله سأل بعض أهل دمشق المحروسة وكان المسئول من خواص أصحابه عن ترجمته عند أهل دمشق فاستعفاه من ذلك فألح عليه فقال أما العلم والفضل فهم مجمعون عليه وأما النسب فيدعون فيه الادعاء ويقولون ان مولانا يأكل الحشيش ويحب الغلمان (فقال) أما النسب والكذب فيه فهذا نوع من الهذيان ولو أردت أن أنتسب الى العباس أو الى على بن أبى طالب أو إلى أحد من الصحابة لاجازوا ذلك وأما النسب الى قوم لم يبق منهم بقية وأصلهم فرس مجوس فما فيه فائدة وأما الحشيشة فالكل ارتكاب محرم واذا كان ولا بد فكنت أشرب الخمر فانه ألذ وأما محبة الغلمان فإلى غد أجيبك عن المسألة انتهى (ومما يناسب لطيفة قاضى القضاة شمس الدين ما نقلته من روض الجليس ونزهة الأنيس) حكى عن سليمان بن محمد المهدى الصقلى قال كان بأفريقية رجل نبيه شاعر وكان يهوى غلاما جميلا من غلمانه فاشتد كلفه به وكان

حرف

﴿حرف الباء الموحدة﴾ بنا فوق ما نشكو فصبراً لعلنا ◦ نرى فرجا يشفى السقام قريبا
بالملح نصلح ما نخشى تغيره ◦ فكيف بالملح ان حلت به الغير
بنى عمنا ان العداوة شأنها ◦ ضغائن تبقى فى نفوس الأقارب

﴿حرف التاء المثناة الفوقية﴾ تحن اليه أفئدة البرايا ◦ وتهواه الخلائق للسماع
تلوم على القطيعة من أتاها ◦ وأنت سننتها للناس قبلى ◦ تلجى الضرورات فى الأمور الى
سلوك مالا يليق بالأدب ◦ تفرقت الظباء على خراش ◦ وما يدرى خراش ما يصيد
تجتلى الاذن منه أحسن مما ◦ تجتلى العين من وجوه البدور

﴿حرف الجيم﴾ جن له الدهر فنال الغنى ◦ آه لمن أغفله الدهر
جربت أهلى وأهليه فما تركت ◦ لى التجارب فى ود امرىء غرضا

﴿حرف الحاء المهملة﴾ حياك من لم تكن ترجو تحيته ◦ لولا الدراهم ما حياك انسان

﴿حرف الخاء المعجمة﴾ خفض الجأش واصبرن رويدا ◦ فالرزايا اذا توالت تولت
خليلى ان الحب صعب مراسه ◦ وان عزيز القوم فيه يهان ◦ خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة
ان الجلوس مع العيال قبيح ◦ خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ◦ ومثواك فى قلبي فأين تغيب
خن من آمنت ولا تركن الى أحد ◦ فما نصحتك الا بعد تجريبى

﴿حرف الدال المهملة﴾ داود محمود وأنت مذمم ◦ عجبا لذاك وأنتما من عود
دعنى أنهب الأموال حتى ◦ أعف الاكرمين عن اللئام

﴿حرف الذال المعجمة﴾ ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ◦ وأخو الجهالة فى الشقاء منعم

﴿حرف الراء﴾ رب مهزول سمين عرضه ◦ وسمين الجسم مهزول الحسب
ردوا على صحائفا سودتها ◦ فيكم بلا حق ولا استحقاق ◦ رضيت ولا أرضى إذا كان مسخطي
من الأمر ما فيه رضا صاحب الامر ◦ رب يوم بكيت منه فلما ◦ صرت فى غيره بكيت عليه

﴿حرف الزاى﴾ زنيم ليس يعرف من أبوه ◦ بغي الأم ذو حسب لئيم

﴿حرف السين المهملة﴾ سرورى أن تبقى بخير ونعمة ◦ وانى من الدنيا بذلك قانع
سوء حظى أنالنى منك هجرا ◦ فعلى الحظ لا عليك العتاب ◦ سبكناه ونحسبه لجينا
فأبدى الكير عن خبث الحديد ◦ ستذكرنى اذا جربت غيرى ◦ وتعلم انى نعم الصديق

﴿حرف الشين المعجمة﴾ شفيعى اليك الله لا رب غيره ◦ وليس الى رد الشفيع سبيل
شكرتك للجميل ان كنت واثقا ◦ بأنى بعد الخير لاشك شاكر

﴿حرف الصاد المهملة﴾ صحيح لنا والده أولا ◦ وأنت فى حل من الوالده

﴿حرف الضاد المعجمة﴾ ضاقت ولو لم تضق لما انفرجت ◦ والعسر مفتاح كل ميسور

﴿حرف الطاء المهملة﴾ طويل عمر المعالى والندى أبدا ◦ قصير عمر الاعادى والمواعيد
طوبى لأعين قوم أنت بينهم ◦ فالقوم فى نزهة من وجهك الحسن

﴿حرف الظاء المشالة﴾ ظهرت خيانات الثقات وغيرهم ◦ حتى اتهمنا رؤية الابصار
ظلمت امرأ كلفته غير خلقه ◦ وهل كانت الاخلاق الا غرائزا

﴿حرف العين المهملة﴾ علم الله كيف أنت فأعطا ◦ ك المحل الجليل من سلطانه
على المرء أن يسعى لما فيه نفعه ◦ وليس عليه أن يساعده الدهر ◦ عسى فرج يأتى به الله انه
له كل يوم فى خليقته أمر ◦ عتبت على عمرو فلما تركته ◦ وجربت أقواما بكيت على عمرو

الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه كثيراً فبينما هو ذات ليلة وقد انفرد بنفسه لشرب الخمر اذ ذكر محبوبه فجرى بخاطره ما يفعله به من التجنى فزاد سكره وقام من الفور وقد غلب عليه سكر الغرام وسكر المدام فأخذ قبس نار وجعله عند باب الغلام ليحرق عليه داره فلما دارت النار بالباب بادر الناس باطفائها واعتقلوه فلما أصبحوا أتوا به إلى القاضى فأعلموه بفعله فقال له القاضى لأى شىء أحرقت باب هذا الغلام فأنشد على الفور

لما تمادى على بعادى
وأضرم النار فى فؤادي
ولم أجد من هواه بدا
ولا معينا على السهاد
حملت نفسى على وقوفى
ببابه وقفة الجواد
فطار من بعض نار قلبي
أقل فى الوصف من زناد
فأحرق الباب دون علمى
ولم يكن ذاك من مرادى

قال فاستظرف القاضى واقعته واستملح شعره ورق لحكاية حاله وتحمل عنه ما أفسده من باب الغلام وأطلقه (ومما يناسب هذه اللطائف) قيل انه رفع إلى المأمون أن حائكا يعمل السنة كلها لا يعطل فى عيد ولا جمعة فاذا ظهر الورد طوى عمله وغرد بصوت عال

طاب الزمان وجاء الورد فاصطبحوا ◦ ما دام للورد أزهار وأنوار

فاذا شرب مع ندمائه على الورد غنى

(حرف الغين المعجمة) غنى بلا دين عن الخلق كلهم * وان الغنى الا عن الشيء لا به
غلام أتاه اللؤم من شطر نفسه * ولم يأته من شطر أم ولا أب

(حرف الفاء) فلم أر كالأيام للمرء واعظا * ولا كصروف الدهر للمرء هاديا
فنفسك أكرمها فانك ان تهن * عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما
فصبر جميل ان في اليأس راحة
إذا الغيث لم يمطر بلادك ماطره * فما أكثر الاصحاب حين تعدهم * ولكنهم في النائبات قليل
فان كانت الاجسام منا تباعدت * فان المدى بين القلوب قريب * فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت
ولكن حمد المرء غير مخلد * فان تفق الانام وأنت منهم * فان المسك بعض دم الغزال

(حرف القاف) قد يجمع المال غير آكله * ويأكل المال غير من جمعه
قد زال ملك سليمان فعاوده * والشمس تنحط في المجري وترتفع * قد يدرك المتأني نجح حاجته
وقد يكون مع المستعجل الزلل * قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه * خلق وجيب قميصه مرقوع

(حرف الكاف) كلوا اليوم من رزق الاله وأبشروا * فان على الخلاق رزقكم غدا
كفى زاجرا للمرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدي * كنت من كربتي أفر اليهم
فهم كربتي فأين الفرار * كانوا بني أم ففرق شملهم * عدم العقول وخفة الاحلام
كل المصائب قد تمر على الفتى * فتهون غير شماتة الاعداء * كأنك من كل النفوس مركب
فأنت إلى كل الانام حبيب * كالكلب ان جاع لم يمنعك بصبصة * وان ينل شبعا ينبح من الاشرار

(حرف اللام) لعمرك مايدري الفتى كيف يتقي * اذا هو لم يجعل له الله واقيا
لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها * ولكن أخلاق الرجال تضيق * للموت فينا سهام وهي صائبة
من فاته اليوم سهم لم يفته غدا * لو أن خفة عقله في رجله * سبق الغزال ولم يفته الأرنب
لو كان مابي في صخر لأنحله * فكيف يحمله خلق من الطين * لعمرك ما الأيام إلا معارة
فما استطعت من معروفها فتزود * لكل امرىء حالان بؤس ونعمة * وأعطفهم في النائبات أقاربه

(حرف الميم) من يحمد الناس يحمدوه * والناس من عابهم يعذب
من لم يعدنا إذا مرضنا * ان مات لم نشهد الجنازه * متى يبلغ البنيان يوما تمامه
اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم * من كان فوق محل الشمس رتبته * فليس يرفعه شيء ولا يضع
من الناس من يخشى الاباعد نفعه * ويشقى به حتى الممات اقاربه * ما كان في المخدع من أمركم
فانه في المسجد الجامع * ما قام عمرو في الولا * ية قائما حتى قعد

(حرف النون)

نسود أعلاها وتأبى أصولها * وليس الى رد الشباب سبيل * نحن بنو الموتى فما بالنا
نعاف مالا بد من شربه * ندمت ندامة الكسعي لما * رأت عيناه ماصنعت يداه

(حرف الهاء) هنا كم الله بالدنيا ومتعكم * بما تحب لكم منها وترضاه
هل بالحوادث والأيام من عجب * أم هل الى ردما قد فات من طلب * هب الدنيا تقاد اليك عفوا
أليس مصير ذاك إلى الزوال * هنيئا لمن لاذاق للدهر لوعة * ولم تأخذ الأيام منه نصيبا
هم يحسدوني على موتي فوا حزني * حتى على الموت لا أخلو من الحسد

(حرف الواو) ولم أر كالمعروف أما مذاقه * فحلو وأما وجهه فجميل
واذا خشيت من الامور مقدرا * وهربت منه فنحوه تتوجه * والرزق يخطي باب عاقل قومه
ويبيت بوابا بباب الأحمق * ولا يغررك طول الحلم مني * فما أبدا تصادفني حليما

اشرب على الورد من حمراء صافية شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا ولا يزالون في صبوح

وغبوق ما بقيت وردة فاذا انقضى الورد عاد إلى عمله وغرد بصوت عال

فان يقض ربي إلى الورد أصطبح
وان مت والهفي على الورد والخمر
سألت إله العرش جل جلاله
يواصل قلبي في غبوق إلى الحشر

فقال المأمون لقد نظر هذا الرجل الى الورد بعين جليلة فينبغي أن نعينه على هذه المروءة فأمر أن يدفع له في كل سنة عشرة آلاف درهم في زمن الورد (ومن اللطائف ماحكى عن مجير الدين الخياط الدمشقي) قيل إنه كان يهوى غلاما من أولاد الجند فشرب مجير الدين في بعض الليالي وسكر فوقع في الطريق فمر الغلام عليه بشمعة وهو راكب فرآه في الليل مطروحا على الطريق فوقع عليه بالشمعة ونزل فأقعده ومسح وجهه فسقط من الشمعة نقطة على وجهه ففتح عينيه فرأى محبوبه على رأسه فاستيقظ وأنشد

يامحرقا بالنار وجه محبه
مهلا فان مدامعي تطفيه
أحرق بها جسدي وكل جوارحي
واحذر على قلبي فانك فيه

(ومن اللطائف ماحكاه الأصمعي) ولا خير

ولاخير فيمن لايوطن نفسه * على نائبات الدهر حين تنوب * وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لى بأني كامل * وما للمرء خير فى حياة * إذا ماعد من سقط المتاع
وما المرء إلا كالهلال وضوءه * يوافى تمام الشهر ثم يغيب * وقد تسلب الأيام حالات أهلها
وتعدو على أسد الرجال الثعالب * ومن يأمن الدهر الخئون فانني * برأى الذى لا يأمن الدهر اقتدى
واذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد * ذخرا يكون كصالح **الأعمال** * ومن يكن الغراب له دليلا
يمر به على جيف الكلاب * ومن يكن مثلى ذا عيال ومقترا * من الزاد يطرح نفسه أى مطرح
ولربما منع الكريم وما به * بخل ولكن سوء حظ الطالب * ولا بات يسقينا سوى الماء وحده
وهذا جزاء من بات ضيف الضفادع * ومن عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى * من العيش ما يصفو وما يتكدر
ولودامت الدولات دامت لغيرنا * رعايا ولكن مالهن دوام * وأحسن فان المرء لابد ميت
وانك مجزى بما كنت ساعيا * ولا ترين الناس إلا تجملا * وإن كنت صفر الكف والبطن طاويا
ومالامرىء طول الخلود وانما * يخلده طول الثناء فيخلد * ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعا وعند الله منها المخرج * وكان رجائى أن أعود ممتعا * فصار رجائي أن أعود مسلما
وتجلدى للشامتين أريهم * إني لريب الدهر لا أتضعضع * ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع * وهون حزنى عن خليلى أننى * إذا شئت لاقيت الذى مات صاحبه
ويوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر

﴿ حرف اللام ألف ﴾

لا تنظرن إلى الجهالة والحجى * وانظر إلى الاقبال والادبار * لا تسأل المرء عن خلائقه
فى وجهه شاهد من الخبر * لا يصبر الحر تحت ضيم * وإنما يصبر الحمار
لانه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم * لا يبالى الشتم عرض
كله شتم وذم * لا تنظرن إلى امرىء ما أصله * وانظر إلى أفعاله ثم احكم
لا يسكن المرء في أرض يهان بها * إلا من العجز أو من قلة الحيل * لا يقبلون الشكر مالم ينعموا
نعما يكون لها الثناء تبيعا * لا أسأل الناس عما فى ضمائرهم * ما فى ضميرى لهم من ذاك يكفينى

﴿ حرف الياء المثناة التحتية ﴾

يفر من المنية كل حى * ولا ينجى من القدر الحذار * يريك الرضا والغل حشو جفونه
وقد تنطق العينان والفم ساكت * يهمهم للسعير إذا رآه * ويعبس إن رأى وجه اللجام
يفارقني من لا أطيق فراقه * ويصحبنى فى الناس من لا أريده * يزيد تفضلا وأزيد شكرا
وذلك دأبه أبدا ودابى * يواسي الغراب الذئب فى كل صيده * وما صارت الغربان فى سعف النخل
يهون علينا أن تصاب جسومنا * وتسلم أعراض لنا وعقول * يغر الفتى مر الليالى سليمة
وهن به عما قليل غوائل * يغيظني وهو على رسله * والمرء فى غيظ سواه حليم
يريك البشاشة عند اللقا * ويبريك فى السر برى القلم

﴿ الفصل الخامس فى الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم ﴾

﴿ حرف الألف ﴾

ان كنت ماتعمل جميل اعمل كما يعمل معك إذا أبغضك جارك حول باب دارك إذا كان صاحبك عسل
لا تلحسه كله المستعجل والبطي عند المعدية يلتقى ألف ذقن ولا سلام عليكم ألف ذقن ولا ذقنى اذا
غاب عنك أصله كانت دلائل نسبته فعله إذا وصلت وسلم الله بع بما قسم الله إذا كنت أعمى وأطروش
شم رائحة النقوش إذا كان النبيذ دردى والعشيق كردى والبقل فول حار والعشاء بيسار ايش يكون

قال مررت بكناس يكنس كنيفا وهو يغني ويقول أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر
فقلت له أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه وأما سداد الكنف فمعلوم قال الأصمعي وكنت حديث السن فأردت العبث به فأعرض عني مليا ثم أقبل علي وأنشد

وأكرم نفسي أنني إن أهنتها
وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقلت وأي كرامة حصلت لها منك وما يكون من الهوان أكثر مما أهنتها به فقال بل لا والله من الهوان ماهو أكثر وأعظم مما أنا فيه فقلت له وماهو فقال الحاجة اليك وإلى أمثالك فقال فانصرفت وأنا أخزى الناس (ذكرت) بقول الكناس غريم الأصمعي مايضارع ذلك أعني قوله

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

قيل انه كان لأبي حنيفة رضي الله عنه جار اسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع فاذا جنه الليل رجع إلى منزله بلحم وسمك فيطبخ اللحم ويشوى السمك فاذا دب فيه السكر أنشد

أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد البيت إلى أن يغلبه

الحال إذا كان القطن أحمر والمغسل أعور والدكة مخلعة والنعش مكسر اعلم أن الميت من أهل سقر والوادى الأحمر ايش ينفع الضراط عند طلوع الروح قال تعريف للحاضرين وتعريق للملائكة القشر والنشر والعشا خبيزة أكل الدقة والنوم في الأزقة ولا دجاجة محمرة يعقبها مشنقة ايش أنت في الحارة يامنخل بلاطارة الرجم بالطوب ولا الهروب اذا وقعت يافصيح لا تصيح أقرع يقول لأقرع امش بنا نزرع في بركة القرعان ايش مايطلع يطلع النصف لى والربع لى والثمن لى والثمن الآخر لك ولى العد ومايبقى حبيب حتى يصير الحمار طبيب اقعد ياحمار حتى ينبت لك الشعير أى موضع راح الحزين يلقى جنازة قال الشاعر

ان دام هذا السير يامسعود * لا جمل يبقى ولا قعود

غيره اذا لم تكن لى والزمان شرم برم * فلا خير فيك والزمان ترللى

غيره اذا أقبلت كادت تقاد بشعرة واذا * أدبرت كادت تقد السلاسل

﴿ حرف الباء الموحدة ﴾

بينما يتروى البخيل قضى الكريم حاجته بينما يسعد المعتر فرغ عمره بينما أصل قبره نسيت همه بينما يعدل المعتر حاله جا الموت شاله بينما يخلص ربنا حتى انفرقت جوزة حلقى بينما يقطع الجريد يفعل الله مايريد بينما يجىء الدرياق من العراق يكون الملسوع مات بين حانه وبانه حلقت لحانه بدوى مقروح لقى التمر مطروح أين يخلى ويروح بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شد على راسك بدال اللحمة والباذنجان هات لك قيص ياعريان بدال لحمتك الثلاثة هات لك شد ياشماته بقى للكلب سرج وغاشيه وغلمان وحاشية بقى للخرا مرا ويحلف بالطلاق بعد الجوع والقلة بقى لك حمار وبغله

﴿ حرف التاء المثناة فوق ﴾

تموت الحدادى وعينها في الصيد تعالوا بنا نقتبح ونرجع غدا نصطلح تدحرج الحر العند البعر قال له ايش أنت قال له بزم قردش ترك الفضول من حزم العقول تراب العمل ولا زعفران البطالة تسكر وتخانق ماهو شيء موافق تجارة الأحمق على أهل بيته تضارب الريح مع الموج جا الهم على النواتيه تزاوروا ولا تجاوروا تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها ﴿ حرف الثاء المثلثة ﴾

ثوب العيرة مايدفى ثقيل واسمه صخر بن جبل ثور علقوه أغمى عليه قال حتى يطلع شيء يرشوه عليه ثور عاجز مايدور ساقيه ثقيل من أولاد الزنا مر العنا ثوب عليه وثوب على الوتد قال أنا اليوم أحسن من كل من فى البلد ﴿ حرف الجيم ﴾

جور القط ولا عدل الفار جمل موضع جمل يبرك جهد المقل دموعه جمل بحبه قال وأين المحبة جيت أصطاد صادونى جاره حق وجار ماله حق وجار لا صحبته عافية جارك مرآتك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك جا كتاب من عند خاله قال كل من هو فى حاله جا كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهى بهمه جاؤا يبعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها جوز وهاله ما لها إلا له جوز وامشكاح لريمه ما على الاثنين قيمة

﴿ حرف الحاء المهملة ﴾

حاجة لاتهمك وصى عليها زوج أمك حول حبيبى ماعونه وقدرته مع كانونه حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت حلينا القلوع وأرسينا وأصبحنا على ما أمسينا حب وواري واكره وداري حدثتني ونصحتنى عايرتنى وفرحتنى حط فليساتك فى كك واشتر أبوك وأمك حبة قرض تخرب أرض

﴿ حرف الخاء المعجمة ﴾

خدينى وارغى فيه أنا حصاد ملوخية وعند الخبز آكل ميه وعند الشغل مالى نيه خبثت لى وصلحت لك خذ الصبي فوق صبيانك تمام لاخزانك خزينة فى جره وملحه فى صره خبزه بلا ادام ويعزم على

السكر وينام وكان الامام أبو حنيفة يصلى الليل كله ويسمع حديثه وانشاده ففقد صوته بعض الليالى فسأل عنه فقيل أخذه العسس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس فصلى الامام الفجر وركب بغلته ومشى واستأذن على الأمير فقال ائذنوا له واقبلوا به راكبا حتى يطأ البساط فلما دخل على الأمير أجلسه مكانه وقال ما حاجة الامام فقال لى جار اسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام فتأمر بتخليته فقال نعم وكل من أخذ تلك الليلة إلى يومنا هذا ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين فركب الامام وتبعه جاره الاسكاف فلما وصل إلى داره قال له الامام أبو حنيفة أترانا أضعناك قال لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا عن صحبة الجوارى ورعايته ولله على أن لا أشرب بعدها خمرا فتاب من يومه ولم يعد إلى ما كان عليه انتهى (ومما يناسب هذه اللطائف) ماذكره الحريرى فى كتابه الموسوم بتوشيح البيان نقل أن أحمد بن المعدل كان يجد بأخيه عبد الصمد وجدا عظيما على تباين طريقيهما لأن أحمد كان صواما قواما وكان عبد الصمد سكيرا خموريا وكانا يسكنان دارا واحدة ينزل أحمد فى غرفة أعلاها وعبد الصمد فى أسفلها فدعا عبد الصمد ليلة

الجيران

جماعة من ندمائه وأخذ فى القصف والعزف حتى منعوا أحمد الورد ونغصوا عليه التهجد فاطلع عليهم وقال
أفأمن الذين مكروا
السيئات أن يخسف الله
بهم الأرض فرفع
عبد الصمد رأسه وقال وما
كان الله ليعذبهم وأنت فيهم
(وذكرت) بهذا الاقتباس
الذى خلب القلوب هنا
بحسن موقعه اقتباسا
خلب قلوب الناس لعظم
موقعه وما ذاك الا أن
الحاكم الفاطمي على ماذكر
لما بنى المسجد الجامع
بالقاهرة المعزية المجاور
لباب الفتوح قيل إنه
فسد حاله فى آخر أمره
وادعى الالوهية وكتب
بسم الحاكم الرحمن الرحيم
وجمع الناس الى الايمان
به وبذل لهم نفائس
وكان ذلك فى فصل
الصيف والذباب يتراكم
على الحاكم والخدام
تدفعه ولا يندفع فقرأ فى
ذلك الوقت بعض القراء
وكان حسن الصوت يأيها
الناس ضرب مثل فاستمعوا
له ان الذين تدعون من
دون الله لن يخلقوا ذبابا
ولو اجتمعوا له وان يسلبهم
الذباب شيئا لا يستنقذوه
منه ضعف الطالب والمطلوب
ماقدروا الله حق قدره
ان الله لقوى عزيز
فاضطربت الأمة لنظم
وقوع هذه الآية الشريفة فى حكاية الحال حتى كأن الله أنزلها تكذيبا للحاكم فيما ادعاه وسقط الحاكم من فوق سريره.

الجيران

﴿ حرف الدال المهملة ﴾

دار الظالم خراب ولو بعد حين درهم لك ودرهم عليك لالك ولا عليك دواء مالا تشتهى النفوس تعجيل الفراق

﴿ حرف الذال المعجمة ﴾

ذادرب مايسد ريح ذى ماهى رمانه الا قلوب ملا نه ذالى وذا أيدى عليه ذى مائدة ما يقعد عليها طفيلى ذا الخبز ماهو من ذا العجين الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليه حك أنفه ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشا يشها ذكروا المدن جاءت القرى تحجل

﴿ حرف الراء المهملة ﴾

راح ذاك الزمان بناسه وجا هذا الزمان بفاسه وكل من تكلم بالحق كسروا راسه رأوا احجار راكب حيط قالوا الى أين ياحجار قال مسافر قالوا من كانت هذه المطية مطيته لا يشرق ولا يغرب رأوا واغن سكران يقرأ قالوا غن تشاكل روحك رأوا شيخا يتهجى قالوا نحتم على الصراط رأوا أوردانه على سنداس قالوا ما الذى الفسقيه الا ذى البلطيه رأوا على قبر مكتوب باسعادة ساكنه قالوا أبصر من يزاحمه راكب بلاش ويناغش مرات الريس ركبتك وراى حطيت يدك فى الخرج راح الجندى وخلى خلقه عندى رزق الكلاب على المجانين راسين فى عمامه مايكون راحت على جمل وجات على قطه قال ماالذى الشيله الا ذى الحطه قال الشاعر:

راح الذى كنا نعيـ * ـش بفضله بين الورى * وبقى الذين حياتهم * ووجودهم مثل الخرا

﴿ حرف الزاى المعجمة ﴾

زقزوق على بركه يضحك وهو ضحكه زاويه بلا عيش بنيت ليش زوج القصيرة يحسبها صغيره زوجت بنتي أقعد فى دارها جاتنى وأربعة وراها قال الشاعر

زوجت بنتى تنستر * ويمتلى بيتى قماش * جا غزلها فى أكلها * ونيكها طلع بلاش

زنبور زن على حجر مسن قال له ايش تريد قال الحسك قال أنا الحس البولاد زنبور زن على فلس جحش قال له ايش تطلب قال له عسل قال له قصدت معدن يادندن

﴿ حرف السين المهملة ﴾

سل المجرب ولا تنس الطبيب سموك مسحر قال فرغ رمضان سموك حبل قال وطولت سموك راجح قال ان شاء الله تجيء الحق سبع وزرو لا استتر (قال الشاعر)

سيغنى الله عن بقراط دن * ويأتي الله باللبن الحليب

(وقال آخر) سيغنى الله عن زيد وعمرو * ويأتى الله بالفرج القريب

﴿ حرف الشين المعجمة ﴾

شره ووضيع ويغضب سريع شىء ما نابه وتقطعت ثيابه شعر يحلق وشعر ما يحلق شرب السموم القاتلة ولا الحاجة الى السفل شمنى ولا تدعكنى شىء ما يجى على القلب عنايته صعبه شر العبد ولا تربيته شحت بغله جامت زبله ركبت خنفسه زمر زنبور قال ماذا الجوق الجليل الا لمقطعات النيل

﴿ حرف الصاد المهملة ﴾

صام سنه وفطر على بصله صبرى على الحبيب ولا فقده صاحب بضر عدو مبين صباح القوال ولا صباح العطار صباحك يا أعور قال لذى خناقه بايته صباح الخير ياجارى انت فى دارك وأنا فى دارى

﴿ حرف الضاد المعجمة ﴾

ضرب الحبيب كأكل الزبيب ضربتين فى الرأس تعمى ضرب وبكى وسبق يشتكي ضربة على كيس غيرى كأنها فى عدل حنا ضمنوا حدايه لغراب قال الكل بطير واضربوا ياباع الكسبره خرى يباع الثوم قال ذى داهية جات على الخضريه

﴿ حرف الطاء المهملة ﴾

طارت الطيور بأرزاقها طفيل ويجلس فى الصدر طفيلى ويقترح طويل الكم خطار قليل الفرح فى الدار طبق وجاريه على صحن بسار يه طبلوا جاكم عثمان يدمن وراو يدمن قدام طعامك ماجانى ودخانك عمانى طار طيرك وأخذه غيرك طول ماأعيش يكفينى رعى الحشيش طول الغيبة وجانا بالخيبه

﴿ حرف الظاء المعجمة ﴾

ظهرك عندى نصف الليل

﴿ حرف العين المهملة ﴾

عنقود مدلى فى الهوا من لا يصل اليه يقول حامض ولا استوى عشق بداله لا أباله عاشق مايسمع بكا صغير عاشق مايسمع كلام مفارق عاشق مقل شيء مازرع ايش جايستغل عزومه حسبت عليك كل وبحلق عنيك عند المخاضه يبان القيليط عند الطعان يبان الفارس من الجبان عريان التينه وفى حزامه سكينه عريان وفى كمه ميزان

﴿ حرف الغين المعجمة ﴾

غابت السباع ولعبت الضباع غربه وكربه مايحمل الحال غطاس وقلقاس تحسين فى قدره غالى السوق ولا رخيص البيت

﴿ حرف الفاء ﴾

قرجه بلا كسر تعمى البصر فقير ونفير وكلامه كثير ويقول هاتوا عشا من يغنى فوق الشراطه ملغ أودانه فارس خراو يسوق فى الوحل فارس خراو اسمه عنتر فارس خرا ويسابق الخيل فرد ضربه في الرأس تكني فصدوا قرد ضرط قالوا به دم زايد فرغت الرعانه ياجانم

﴿ حرف القاف ﴾

قالوا للأعمي زوق عصاتك قال هو أنا محب فيها * قالوا للحمار اجتر قال مضغ المحال ماينطلى * قالوا للقرد شب أيادى ملاح وتمسك الماصول * قالوا للقرد اطلب من ربك قال هو أنا عنده بوجه يبسط قالوا للجمل زمر قال لاشفف ملمومه ولا أيادى مفروده * قالوا للدبة طرزى قالت ذى خفة أيادى قالوا للكلاب احرثوا قالوا ماجرت بهذا عاده * قالوا للغراب مالك تسرق الصابون قال الأذى طبعي * قالوا للبقر الديوان اذا متم يكفنوكم فى حرير قالوا اشتهينا نروح بجلودنا * قالوا للغزاله ارحلى حركت ذنبها * قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف

﴿ حرف الكاف ﴾

كل من عودته بأكلك كلما نظرك جاع * كشكار دايم ولا علامه مقطوعه * كل كرها واشرب كرها ولا تعاشر كرها * كل هم كاوي عندهمى ياوى * كل شيء لا يشبه قانيه حرام * كل مائة عصفور مايجو حدايه * كل ألف مصه مايجو بغصه كل ألف بوسه مايجو بعبوسه * كلت بالحمان بالشمره والصنان كل حبيبي كل المعانى أعرج وقيليط ومعجبانى كمل حبيبي وأكمل اعرج وقيليط واحول وفيه عاده أخرى لمن يواصل بخرا * كأنه خان للفجر لا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر * كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار كأنه عصفور ينيك بلاش ويأوى فى الأعشاش

﴿ حرف اللام ﴾

لولاك ياكمى ماكلت يافمي لولاك يالسانى ماانكسيت ياقفاى لولا الغيره والحسد كانت عجوزه كفت بلد لولا أختك ماصرت ابن عمتك لوقلبتاها بليه ما جات هكذا لو كان فيها خير مارماها طير لك وعليك مايصعب عليك لك اسوه بغيرك لقمه بدقه ولا خروف بزقه لقمه تحت حيطه ولا خروف بعيطه لوسلم الكرم من حارسه طابت مغارسه لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعه ما يخليها لو عمل لى من الذهب ولمو هو عندى بتلك العين القديمه لوشال راسه الى السما كانه عصيده بما لو نظر الجمل لصنمه كان كدمه لولا الكشط والبرايه ماكانت أولاد الخرا كتاب

حرف

خوفا من أن يقتل وولى هاربا وأخذ فى استجلاب ذلك الرجل الى ان اطمأن اليه فجهزه رسولا إلى بعض الجزائر وأمر باغراقه ورؤى بعد ذلك فى المنام فقيل له ما وجدت فقال ما قصر معى صاحب السفينة أرسى بى على باب الجنة (ومن الاقتباسات التى وقعت للمتأخرين فى أحسن المواقع المتعلقة بحكاية الحال) ماسمعت وشهدت حكاية حاله بالجامع الأموى وماذاك الا أن قاضى القضاة علاء الدين أبا البقاء الشافعي رحمه الله تعالى كان قد عزل من وظيفته قضاء القضاة بدمشق المحروسة فعاد إلى وظيفته وألبس التشريف من قلعة دمشق وحضر الى الجامع على العادة ومعه أخوه قاضى القضاة بدر الدين الشافعى بالديار المصرية فاستفتح الشيخ معين الدين الضرير المقرى وقرأ قالوا ياأبانا مانبغي هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا الى آخر الآية فحصل بالجامع الأموى ترنم صفق له النسر بجناحيه (وروى المرزبان) باسناده أن المجنون خرج مع أصحاب له يمتار من وادى القرى فمر بجبلى نعمان فقالوا ان هذين جبلا نعمان وقد كانت ليلى تنزلها قال فأى ريح تهب من نحو أرضها الى هذا المكان فقالوا

الصبا فقال والله لا أبرح حتى تهب الصبا فأقام في ناحية من الجبل ومضوا فأمتاروا له ولهم ثم أتوا فحبسهم حتى هبت الصبا ورحل معهم وفي ذلك يقول

أيا جبلي نعمان بالله خليا
نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف مني حرارة
على كبد لم يبق إلا صميمها
فان الصبا ريح إذا ما تنسمت
على نفس مهموم تجلت همومها

وضمن البيت الأول الشيخ صفي الدين الحلي في مليح اسمه نعمان

أقول وقد عانقت نعمان ليلة
بنور محياة أثار أديمها
وقد أرسلت الياه تحوي قسوة
بروح كرب المستهام شميمها
أيا جبلي نعمان بالله خليا
نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

(وكان) لابن الجوزي رحمه الله تعالى زوجة اسمها نسيم الصبا فاتفق أنه طلقها فحصل له عند ذلك ندم وهيام أشرف منه على التلف فحضرت في بعض الأيام مجلس وعظه فحين رآها عرفها فاتفق أنه جاء امرأتان وجلستا أمامه فحجبتاها عنه فأنشد في الحال

أيا جبلي نعمان بالله خليا
نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

(قلت) وعلى ذكر نعمان

﴿ حرف الميم ﴾

محبه بلا حبه ماتساوي حبه ماشلتك يادمعتي إلا لشدتي من عاشر غير جنسه دق الهم صدره من قدم النحس تعب في تأخيره من عاشر الحداد احترق بناره من عاشر الزبداني فاحت عليه روايحه من ركب في غير سرجه وغرزه دخل الهوا استه وهزه من لا يحط يده لزنده ما يعرف حره من برده ما رأيتك يانور حتى ابيضت العيون مالى على فراقكم جلد إلا هجاجي من البلد ما كفا نام أبونا قام أبونا جاب أبوه قال خذوا اجدكم ربوه من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به من يكلم القبيح بروح عرضه وينفضح ما تتقدوهم كلهم زغليه ما فيهم من يعجب النقاد

﴿ حرف النون ﴾

نوايه تسند الجره قال وتسند الزير الكبير نفسك أتلفت أي شيء أخلقت نصف البلاو لا البلا كله ناقص ونحاس ناموسه باتت على شجره أصبحت تقول خاطرك قالت لها وأنت كنت على أي ورقه نيتك مطيتك نسيت يا فلاح ما كنت فيه كعبك المشقق والوحل فيه نيك حتى تبقى ديك

﴿ حرف الهاء ﴾

هانت الزلابيه حتى أكلها بنو وائل هان المسك وانتثر هدية تعرقوها تخلينها ولا لومها هدية الاحباب على ورق السداب قال هو أعمى عن ورق الموز هو عرس تأكل وتنسل أهدوا هديه وأعينهم فيها يقول الله يردها هاتوا ذا الغزل المخبل لذى القلب المدبل

﴿ حرف الواو ﴾

واحد نتفه وآخر لقفه وقال آخر يا قريب الفرج واحد يخبطواله وهو قائم عليه قال أنا في حاجتك واحد جائز رأى قرد يحرش ترمس قال ما الذي الفاكهة البدرية الادى الصورة القمرية واحد سموه عنبر وصنعته سرباتي قال الذي كسبه في الاسم خسره في الصنعة وحش ويكش ويقعد في الوش ويغني بلينا بكم وقت أكل الدجاج ما يفتكروني وفي وقت شيل التراب هات يدك وإيش قام على تومه بفصل الحكومة وقت الشوا والبخني ما قلت يا اخي الحقني ووقت ضرب الدره قلت اصفعوا واصفعني

﴿ حرف اللام ألف ﴾

لا تعيرني ولا أعيرك الدهر حيرني وحيرك لا أصل شريف ولا وجه ظريف لا أخوك ولا ابن عمك تشق ثوبك على إيش لا عاش يليق لا حراس ولا دراس لا عاش العار ولا بنى له دار لا ربح ثوابه ولا خلاه لاصحابه لا في الفراق نجد راحة ولا في الوصل لا تشكرن فتى حتى تجربه لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجي لا يضر السحاب نبح الكلاب لا يغرك تظريف الاصل في ريق

﴿ حرف الياء ﴾

ياشب مليح ما أحسن وصفك لا في يدك ولا في طرفك ياويل من ذاق الغنى بعد جوعه يموت وفي قلبه من الهم واجس ياطارق الباب بعد العشى لا تطرق الباب ما ثم شى يامن ملنا ما كان حلنا اساما لنا في العشره سنه بهنيكم قدومه قد جاكم بشومه ياليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا ياويل من كان عشيه من بيت خيه يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر

﴿ أمثال النساء ◦ حرف الالف ﴾

أحبك ياسواري مثل معصمي الذي في قلب أم حنين تعلم به في الليل ان كنتي حره لا تضيعي تعابك بره ان لم تعملي وتفتخري والا اقعدي وانعفري ان كانت الداية أحن من الوالده قال ذي داهيه عياره الكلام لك ياجاره الا انت حماره ايش تعمل الماشطة في الوجه المشئوم ايش قام على الحزينه بالنقش

والزينة ايش بنفع النفخ فى الوجه الأصم أرمله عدس ومتزوجه عدس اقعدى بعدسكى اسم الزوج ولطعم الترمل العاقلة فينا تزنى بيقطينا إذا كان زوجى راضى ايش فضول القاضي استعارت الرعنه شيء حسبته لها أخذت المقص ودارته لها اقعدي فى عشك حتي يجي حد ينشك

﴿ حرف الباء الموحدة ﴾

بعدأن كنتى لى وحدى بقيت أسمع أخبارك بعدسنه وشهرين جابت بنت بشفرين بعدأن كان زوجها بق طباخ فى عرسها بعدمشيك في الحلقه بقي لك سلام وغرفه واسمك ستيته بعدأمى واختى الكل جيرانى يما تقتنب الحوله انصرف القاضى بنت الخرا ترف لان الخرا بدف باتت ناموسه على جميزه قالت صبحك الله بالخير قالت من درى بك قبله بدال ماتمشي وتهزى كتفك رقعى فردة خفك بخراو تزاحم بالبوس بق لام سيبى برقع وللضفدعة زماره بعدمشيك فى الحلاقى لبست الصافى بعيد على الحزينه تستعمل الزينه

﴿ حرف التاء ﴾

تابت القحبه يوم وليله قالت ما بقي فى البلد حكام تضاربت المجنونة والحمقا حسبته الرعنه من حنا تضاربو وتتعرى وتصيح ياقلة رجالى تأخذوا أبونا وتكابرونا ترتانه وبيبانه ومفاتيح الخزانه تباهت الرعنه بشعر بنت أختها تخلونى وإلا أستحل بجارنا قالت إذا كان ذاقى قلبك خذيه بلا استحلال تتغمى بالخرج ولا تخلى الفنج تقعد عيوشه فى ديارتها ما لأحد حاجه فى زيارتها

﴿ حرف الثاء ﴾

ثوب سيدى ثوب حبيبي ثوب ستى ثوب قحبه

﴿ حرف الجيم ﴾

جاره بجاره والعداوه خساره جاني عذولى ورتالى ماهى محبه الا شماتة لى جاريه وزبديه على باذنجانه مقلية جاتنا العدوه مكحله قطران لاغيره وقلبها فرحان جاب ثيابه يغسلهم بلاصابونه معهم

﴿ حرف الحاء المهملة ﴾

حوله وتتقنب بنخ حزانى ماعندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق حزاني ماعندهم خبز اشتروا لهم بعشره ملوخيه حزينه وواعيه حبله ومرضعه وعلى كتفها أربعة وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل حوله ونصرانيه لا مليحه ولا أصل طيب حزينه ما لها مملوك سمت زنبورها خوشكلدم حزينه مالها ملك اكرت لها بواب حزينة ما لها كاملية طلبت لها خف وشعريه

﴿ حرف الخاء المعجمة ﴾

خطبوها تعززت وكان زمان البوار خلت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب خذى قطيفه واكتمى سري قالت ما يطاوعنى قلبي خلت ما يعنيها واتبعت حك رجليها

﴿ حرف الدال المهملة ﴾

درى زوجك بكبتك تمى نهارك مع ليلتك دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب

(حرف الذال المعجمة ﴾

ذكرت العجوز اطلالها

﴿ حرف الراء ﴾

رقصتى ما أحسنتى كان قعادك أجمل رعنا يضحكوا بها وهى تضحك تساعدهم رأوا جاموسه منقبه بحصير قالوا اماالذى الشكل الوضيع الادا القماش الرفيع راحت تبيع ربعه غابت جمعه راحت رجال الهيبة وبقيت رجال الخيبة راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالقسقاس رأوا اخنفسه على مكنسه قالوا ما لذى الصيغة الا دا الحمار الأذعر

﴿ حرف الزاى ﴾

زمر بالذميمير تبان لك العاقله من المجينينه زوجى ما حكم على قام لى عشيقي بشمعه زوجوا بنت نشادرى

لمربائي

والكناية عنه فما ألطف ما ذكره الشيخ بدر الدين حسن بن زفر الطيب الأربلى فى كتابه روضة الجليس ونزهة الأنيس وهو أن بعض الرؤساء قال أخبرنى بعض الأصحاب قال كنت يوما جالسا عند صديق لى بالموصل إذ جاءه كتاب من بغداد من صديق له وفيه تشوق وفيه عتاب بهذا البيت

تناسيتم العهد القديم كأننا
على جبلى نعمان لن نتجمعا

فأخذ يستحسن هذا البيت ويهتز له فقلت بالله عليك أسألك شيئا لا تخفه قال سل قلت هذه معشوقتك صاحبة هذا الكتاب هل كنت تأتيها من وراء الدار فقال أى والله ومن أين علمت ذلك فقلت من البيت لأنها ذكرتك فيه بجبلى نعمان وهما كناية عند الظرفاء من أهل الأدب عن جانبي الكفل للمليح والمليحة فقال والله ما أدركت ما أدركت (ونقلت من اللطائف المسبوكة فى قالب التورية) أن بعض الكتاب دخل يسلم على بعض فضلاء النحاة وكان من أصحابه فوجده قائما يلوط بأحد الغلمان الملاح من طلبته فى قراءة النحو ولم يره الغلام فجلس النحوى فى مكانه وبقى الغلام

لمرباني قالوا قليلات الخرا تدحرج لبعضها ﴿ حرف السين المهملة ﴾

سودا و تتنقش بسباخ سودا منقبه قفل على خزانه سألوها عن أبيها قالت جدى شعيب

﴿ حرف الشين المعجمة ﴾

شدى قرطاسك من عند موسه قالوا داشى مفرحق به وأنق عروسه شامته ومعزيه

﴿ حرف الصاد المهملة ﴾

صارت القحبة واعظه صارت النوبقه شاعره ﴿ حرف الضاد المعجمة ﴾

ضحك ابن سنه غمى على أمه قالت ماأخف دمه ﴿ حرف الطاء المهملة ﴾

طامت ترحم نزلت تتوحم ﴿ حرف الظاء المعجمة ﴾

ظريفه وعفيفه ولها نفس شريفه ﴿ حرف العين المهملة ﴾

عميا تحفف مجنونه وتقول حواجبك سود مقرونه عاقله وجابت طفله وجاتها خطار واشتروا لها قلقاس دكر وحطب أخضر في نهار مطر وقالوا لها اطبخى على قدر لحمه تقع الصلحه عجوزه وجابت غلام إذا جنت لا تلام عجوزه وخرفانه دى داهيه كانه ﴿ حرف الغين المعجمة ﴾

غيرك يقوم مقامك عليش قلبي أعذبه ﴿ حرف الفاء ﴾

فرحت حزينه خربت مدينه ﴿ حرف القاف ﴾

قالوا للمغانى اتزوقوا قلبوا عصابيهم قحبه ما كنست بيتها كنست المسجد قالوا دى قحبه تطلب الثواب

﴿ حرف الكاف ﴾

كل من تبعت هواها صارت مسرا ويلها رداها كبرتى يابرقوقه وبقى لك دبوقه كانوا امغانى صاروا ملاهى لا راحت ولا جات كاهى كلى قليه وياتى هنيه كأنها من الباسطيه قاش على جريده كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر كأنها من عمايم اليهود صمرا طويله ترفيعه كأنها من بيت الوالى ما يحدث فيها سوى الحاشيه كأنها ضبة جعيدى مخلوعه ولا تاخذ شى ﴿ حرف اللام ﴾

لو كان ماينقش إلا الحيان بارت المواشط من زمان للساعة ماجبلت جابت المرسين لولا المعاير ما كانت الحراير ﴿ حرف الميم ﴾

ماشطه وتمشط بنتها من افتكرنا ياسمينا ما نسينا ﴿ حرف النون ﴾

نوايه تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير ﴿ حرف الهاء ﴾

هش يادبانا أنا حبلى من مولانا ﴿ حرف الواو ﴾

وجه لا يرى بالذهب يشترى ﴿ حرف اللام ألف ﴾

لاتى مليحه ولا تغنى بايش تدلى ﴿ حرف الياء ﴾

يجش المدلل بلا مكلل ياغزالة الأقمار أين كنتى بالنهار ياما تحت النقاب والشعريه من كل بليه يامن ملنا ما كان حلنا للساعه مالنا في العشره سنه

﴿ الباب السابع في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول ﴾

﴿ الفصل الأول في البيان والبلاغة ﴾ أما البيان فقد قال الله تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وقال ﷺ إن من البيان لسحرا قال ابن المعتز البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول ‌● وأما حده فقد قال الجاحظ البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى ‌● وأما البلاغة فانها من حيث اللغة هي أن يقال بلغت المكان إذا أشرفت عليه وان لم تدخله قال الله تعالى فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف وقال بعض المفسرين في قوله تعالى أم لكم أيمان علينا بالغة أي وثيقة كأنها

واقفا مبهوتا فقال الكاتب للنحوى مالى أرى هذا الغلام واقفا فقال النحوى وقع عليه الفعل فانتصب (ومثل ذلك قصة ابن عنين مع الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل) لما كتب اليه في مرضه

انظر الى بعين مولى لم يزل
يولى الندى وتلاف قبل تلافى

أنا كالذى أحتاج ما يحتاجه
فاغنم دعائي والثناء الوافى

فحضر اليه المعظم بنفسه ومعه ثلثمائة دينار وقال له أنت الذى وأنا العائد وهذه الصلة (وظرف من قال)

وذي أدب بارع لكنه
أولجت فيه قدا عتف

فقلت فديتك أعصر عليه
ففيه اللذاذة لو تعترف

فقال أجدت ولكن لحنت
لقولك أعصر بفتح الألف

فقلت لك الويل من أحمق
فقال وأحمق لا ينصرف

(وأظرف منه قول الحسين ابن الريان)

أتيت حانة خمار وصاحبها
مما جن متقن للنحو ذو لسن

وحوله كل هيفاء منعمة
وكل علق رشيق أهيف حسن

فقال لى اذرأى عينى قد انصرفت
إلى النساء كلام الحاذق الفطن

ات وركب وصف واعدل بمعرفة واجمع وزد واسترح من عجمة وزن (ومثله ماحكى) أن بعض الفقراء

قد بلغت النهاية وقال اليونانى البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة وقال الهندى البلاغة تصحيح الاقسام واختيار الكلام وقال الكندى يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى وقيل إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس فقال أقلهم لفظا وأسهلهم معنى وأحسنهم بديهة ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم وذلك انه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة * وقيل ثلاثة تدل على عقول أصحابها الرسول على عقل المرسل والهدية على عقل المهدى والكتاب على عقل الكاتب * وقال أبو عبد الله وزير المهدى البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة وقال البحترى خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل * وقالوا البلاغة ميدان لا يقطع الا بسوابق الاذهان ولا يسلك الا ببصائر البيان وقال الشاعر:

لك البلاغة ميدان نشأت به * وكلنا بقصور عنك نعترف
مهد لى العذر فى نظم بعثت به * من عنده الدر لا يهدى له الصدف

(وروى) أن ليلى الاخيلية مدحت الحجاج فقال ياغلام اذهب الى فلان فقل له يقطع لسانها قال فطلب حجاما فقالت ثكلتك أمك انما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة فلولا تبصرها بأنحاء الكلام ومذاهب العرب والتوسعة فى اللفظ ومعانى الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل * وقال الثعالبى البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالى ويخيط الالفاظ على قدر المعانى والكلام البليغ ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا وقال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى عليه فى حد البلاغة انها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما فى قلبه مع الاحتراز عن الايجاز المخل والتطويل الممل وهذه الاصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق الى أقوم طريق

﴿الفصل الثانى فى الفصاحة﴾ قال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى عليه اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد وأصلها من قولهم أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد فى تسوية الحكم بينهما ويزعم بعضهم أن البلاغة فى المعانى والفصاحة فى الالفاظ ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح * وقال يحيى بن خالد ما رأيت رجلا قط إلا هبته حتى يتكلم فان كان فصيحا عظم فى صدرى وان قصر سقط من عينى * وقد اختلف الناس فى الفصاحة فمنهم من قال انها راجعة الى الالفاظ دون المعانى ومنهم من قال انها لا تخص الا الالفاظ وحدها واحتج من خص الفصاحة بالالفاظ بأن قال نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح وهذه الالفاظ فصيحة ولا نرى قائلا يقول هذا معنى فصيح فدل على أن الفصاحة من صفات الالفاظ دون المعانى وان قلنا انها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح وذلك غير مألوف فى كلام الناس والذى أراه فى ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف فى الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحا حسنا ومن المستحسن فى الالفاظ تباعد مخارج الحروف فاذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة فى مواضعها غير قلقة ولا مكدودة والمعيب من ذلك كقول القائل

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما * كنا وكنت ولكن ذاك لم يكن

وكقول بعضهم أيضا

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه * ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقول الآخر

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

وقف على باب نحوى فقرعه فقال النحوى من بالباب فقال سائل فقال ينصرف فقال اسمى احمد فقال النحوى لغلامه اعط سيبويه كسرة (ومثله قول ابن عنين)

شكا ابن المؤيد من عزله
وذم الزمان وأبدى السفه
فقلت له لا تذم الزمان
فتظلم أيامه المنصفه
ولا تعجبن إذا ما صرفت
فلا عدل فيك ولا معرفه

(وألطف منه قول القائل)

ورقيع أراد أن يعرف النحو
وبزى العيار لا المستفق
قال لى لست تعرف النحو مثلى
قلت سلنى عنه أجب فى الوقت
قال ما المبتدا وما الخبر المجرور
أوجز فقلت ذقنك فى استى

(وأحسن منه وأبدع قول الشيخ زين الدين بن الوردى)

وشادن يسألنى
ما المبتدا والخبر
مثلهما لى مسرعا
فقلت أنت القمر

(ومن النكت المسبوكة فى قالب التورية أيضا) ما قيل ان شهاب الدين القوصى حضر عند الملك الاشرف وقد دخل اليه سعد الدين الحكيم فقال الملك الاشرف لشهاب الدين ما تقول فى سعد الدين الحكيم قال يا مولانا السلطان إذا كان بين يديك قهوة سعد الدين وعلى السماط سعد بلع وفى الخباء عن الصيوف سعد الاخبية وعند قيل

قيل ان هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلا في النطق به وقيل من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار * وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه مليكها على الخفي من أمره والمستور قال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلاما فصيحاً فقال بارك الله لك يا عم في جمالك أي فصاحتك (وعرضت) على المتوكل جارية شاعرة فقال أبو العيناء يستجيزها أحمد الله كثيراً * فقالت * حيث أنشأك ضريراً * فقال يا أمير المؤمنين قد أحسنت في اساءتها فاشترها * وقال فيلسوف كما ان الآنية تمتحن بأطنانها فيعرف صحيحها من مكسورها فكذلك الانسان يعرف حاله من منطقه * وقال المبرد قلت للمجنون أجز لي هذا البيت

أرى اليوم يوما قد تكاثف غيمه * وابراقه فاليوم لاشك ماطر

فقال وقد حجبت فيه السحائب شمسه * كما حجبت ورد الخدود المحاجر

وقال عبد الملك لرجل حدثني فقال يا أمير المؤمنين افتتح فان الحديث يفتح بعضه بعضا * وقال الهيثم ابن صالح لابنه يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب قال يا أبت فان أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاما وصوابا قال يا بني ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظاً منك * وقال الشعبي كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول أجزها أصلحك الله فان الحديث من وراء ذلك فيقول والله لحديثك أحب إلي منها * وقال ابن عيينة الصمت منام العلم والنطق يقظته ولا منام الا بتيقظ ولا يقظة إلا بمنام قال ابن المبارك

وهذا اللسان بريد الفؤاد * يدل الرجال على عقله

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال له أبو بكر رضي الله عنه أتبيعه فقال لا رحمك الله فقال أبو بكر لو تستقيمون لقومت ألسنتكم هلا قلت لا ورحمك الله (ومنه) ما حكي ان المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء فقال لا وأيد الله أمير المؤمنين فقال المأمون ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها * وكان الصاحب يقول هذه الواو أحسن من واوات الاصداغ ويقال اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم وقال بعضهم شعراً

سحبان يقصر عن بحور بيانه * عجزاً ويغرق منه تحت عباب
وكذاك قس ناطق بعكاظه * يعيا لديه بحجة وجواب

(وقيل) انه حج مع ابن المنكدر شابان فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا قد أبرقتا وهما يظنان ان ابن المنكدر لا يفطن فرأيا قبة فيها امرأة فقالا بارقة وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر بل صاعقة * وكان أصحاب أبي علي الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون حجة فعرضت لهم قبيحة فقالوا داحضة وكتب ابراهيم بن المهدي إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة فان ذلك العناء الاكبر وعليك بما سهل من تجنبك الالفاظ السفل ويقال القول على حسب همة القائل تقع والسيف بقدر عضد الضارب يقطع وقال الاحنف سمعت كلام أبي بكر حتى مضى وكلام عمر حتى مضى وكلام عثمان حتى مضى وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة وقال معاوية رضي الله تعالى عنه ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها ما أغلقت بابا فأرادت فتحه الا فتحته ولا فتحت بابا فأرادت إغلاقه الا أغلقته (ومن غريب) الكنايات الواردة على سبيل الرمز وهو من الذكاء والفصاحة ما حكي

مرض المسلمين سعد الذابح قال فضحك الملك الأشرف واستحسن اتفاقه البديعي (وأبدع منه في هذا الباب) ما نقل عن الشيخ نظام الدين قيس قيل انه لقي الصاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور فسأله الصاحب عن حاله فقال

حال متى علم ابن منصور بها * جاء الزمان الى منها تائبا

(قلت) ان نظام الدين أحق من أبي الطيب بهذا البيت (ومن النكت بالتورية أيضا) قيل ان بعض الماجنات أرادت السفر فلقيها بعض المجان فقال لها خذي معك هذا الكتاب وأشار الى ذكره فقالت له على الفور ان لم ألق أمك أعطه أختك (ومثل ذلك) أن الشيخ بدر الدين بن الصاحب لقي شخصا ومعه مليحان فقال ما اسمك فقال عبد الواحد فقال اخرج منهما فأنا عبد الاثنين (ومثله) أن ابن نقيلة المغني مرض وأشرف على الموت فجاء اليه ابن الصاحب يعوده فقال كيف حال النقيلة فقال ما أخوفني أن تصير مدفونة (ومثله) أن بعض المجان رأى امرأة حاملة سرموجة فقال لها متى زوجك حملك تركاشه فقالت له رح لأرميك منه بفردة (ومثله) أن بعضهم رأى امرأة حاملة فردة سقمان لخيطه فقال لها اعتقي هذا الغراب

أن رجلا كان أسيرا في بني بكر بن وائل وعزموا على غزو قومه فسألهم في رسول يرسله الى قومه فقالوا لا ترسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم فجاؤا بعبد أسود فقال له أتعقل ما أقوله لك قال نعم إني لعاقل فأشار بيده الى الليل فقال ما هذا قال الليل قال ما أراك إلا عاقلا ثم ملأ كفيه من الرمل وقال كم هذا قال لا أدري وإنه لكثير فقال أيما أكثر النجوم أم النيران قال كل كثير فقال أبلغ قومي التحية وقل لهم يكرموا فلانا يعني أسيرا كان في أيديهم من بني بكر بن وائل فان قومه لي مكرمون وقل لهم ان العرفج قد دنا وشكت النساء وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها وان يركبوا جملي الأصهب بامارة ما أكلت معكم حيسا واسألوا عن خبري أخي الحرث فلما أدى العبد الرسالة اليهم قالوا لقد جن الأعور والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملا أصهب ثم دعوا بأخيه الحرث فقصوا عليه القصة فقال قد أنذركم أما قوله قد دنا العرفج يريد أن الرجال قد استلاموا ولبسوا السلاح وأما قوله شكت النساء أي أخذت الشكاء للسفر وأما قوله أعروا ناقتي الحمراء أي ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الجمل الأصهب أي الجبل وأما قوله أكلت معكم حيسا أي إن اخلاطا من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع التمر والسمن والاقط فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا * وأسرت طيء غلاما من العرب فقدم أبوه ليفديه فاشتطوا عليه فقال أبوه والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء ما عندي غير ما بذلته ثم انصرف وقال لقد أعطيته كلاما ان كان فيه خير فهمه فكأنه قال له الزم الفرقدين يعني في هربك على جبل طيء ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجى * وكانت علية بنت المهدي تهوى غلاما قادما اسمه طل فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها فاطلع الرشيد يوما عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة فان لم يصبها وابل فالذي نهى عنه أمير المؤمنين ومن ذلك قولهم تركت فلانا يأمر وينهى وهو على شرف الموت أي يأمر بالوصية وينهى عن النوح ويقال ما رأيت فلانا أي ما ضربته في رئته ولا كلمته أي ما جرحته فان الكلوم الجراح وما رأيت ربيعا فالربيع حظ الارض من الماء والربيع النهر وما رأيت كافرا ولا فاسقا فالكافر السحاب والفاسق الذي تجرد من ثيابه وما رأيت فلانا راكعا ولا ساجدا ولا مصليا فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه والساجد المدمن النظر والمصلي الذي يجيء بعد السابق وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجا فالدجاجة الكبة من الغزل والفروجة الدراعة وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورا فالبقرة العيال الكثيرة يقال جاء فلان يسوق بقرة أي عياله والثور القطعة الكبيرة من الاقط (وحكى) أن معاوية رضي الله تعالى عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا وكان آخر كلامه أن لعن عليا رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه فقال الأحنف يا أمير المؤمنين ان هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليا رضي الله تعالى عنه فلقد لقي ربه وأفرد في قبره وخلا بعمله وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته فقال معاوية يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت وايم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعا أو كرها فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين ان تعفني فهو خير لك وان تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبدا فقال قم فاصعد قال أما والله لأنصفنك في القول والفعل قال وما أنت قائل ان أنصفتني قال أصعد المنبر فأحمد الله وأثني عليه وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم أقول أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا ألا وان معاوية وعليا اقتتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما أنه مبغي عليه وعلى فئته فاذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية

اللهم

صارت له رح لأبيه بشرك (ومثله) أن الشيخ بدر الدين المذكور أولا حضر إلى مجلس قاضي القضاة ناصر الدين المالكي فذكروا محاسن القاضي محب الدين ناظر الجيشين وحسن أخلاقه ثم ذكروا محاسن الشعر فأنشده قاضي القضاة

فكم أب قد علا بابن ذوي شرف
كما علت برسول الله عدنان

فكل من الجماعة أثنى على هذا البيت فقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب والقاضي محب الدين يحب هذا البيت فطربوا له (ومما وقع له بذلك المجلس) أنه لما قدم المشروب على العادة كان قد تولى السقيا مملوك له اسمه يكتمر فلما شرب الشيخ بدر الدين قال له قاضي القضاة ما تقول يا شيخ قال رأيت ملك العلماء يكتمر الساقي (ومثله) أن الصاحب ابن سكر أراد قارئا يقرأ بالمدرسة التي أنشأها بالقاهرة فاختاروا له رجلين أحدهما اسمه زيادة والآخر مرتضى فوقع في ظهر القصة مرتضى زيادة وزيادة مرتضي (ومثله) ان أبا الحسن الجزار جاء إلى باب الصاحب زين الدين بن الزبير فأذن للناس في الدخول ولم يأذن له فكتب في ورقة

الناس كلهم كالاير قد دخلوا
والعبد مثل الخصى ملقى على الباب

فلما قرأها ابن الزبير قال لحاجبه أخرج الى الباب وقل ياخصي ادخل فدخل أبو الحسين وهو يقول

اللهم العنهم لعنا كثيرا أمنوا رحمكم الله يامعاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفا ولو كان فيه ذهاب روحى فقال معاوية اذا نعفيك يا أبابحر * وقال معاوية لعقيل بن أبى طالب ان عليا قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضينى منك الا أن تلعنه على المنبر قال أفعل فصعد المنبر ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ أيها الناس ان معاوية بن أبي سفيان قد أمرني ان ألعن على بن أبى طالب فالعنوه فعليه لعنة الله ثم نزل فقال له معاوية انك لم تبين من لعنت منهما بينه فقال والله لا زدت حرفا ولا نقصت حرفا والكلام الى نية المتكلم ودخلت امرأة على هرون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت يا أمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت فقال لها من تكونين أيتها المرأة فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم فقال أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره وأما المال فمردود اليك ثم التفت الى الحاضرين من أصحابه فقال أتدرون ماقالت هذه المرأة فقالوا ما نراها قالت الاخيرا قال ما أظنكم فهمتم ذلك أما قولها أقر الله عينك أى أسكنها عن الحركة واذا سكنت العين عن الحركة عميت وما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر

اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا إذا قيل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا فتعجبوا من ذلك (وحكى) أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى فقال له أطال الله بقاءك وأقر عينك وجعل يومى قبل يومك والله انه ليسرني مايسرك فأحسن اليه وأجازه على دعائه وأمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه لان معنى قوله أطال الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به فى أداء الجزية وأما قوله وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها أى أعماها وأما قوله وجعل يومي قبل يومك أى جعل الله يومى الذى أدخل فيه الجنة قبل يومك الذى تدخل فيه النار وأما قوله انه ليسرني ما يسرك فان العافية تسره كما تسر الآخرة فانظر الى الاشتراك وفائدته ولولا الاشتراك ماتهيأ لمتستر مراد ولا سلم له فى التخلص قياد وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن فكلفه بعض الخلفاء القراءة فى المصحف فصحف فى نيف وعشرين موضعا من جملتها قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون بالغين المعجمة والسين المهملة وقوله وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها اياه بالباء الموحدة ليكون لهم عدوا وحزنا بالباء الموحدة وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار بالجيم والباء الموحدة هم أحسن أثاثا ورئيا بالزاى وترك الهمزة عذابى أصيب به من أشاء بالسين المهملة صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة بالنون والعين المهملة سلام عليكم لا نبتغي باسقاط التاء بل الذين كفروا فى عزة وشقاق بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة وهذا لا يقع الا من الأذكياء (وحكى) أن المأمون ولى عاملا على بلاد وكان يعرف منه الجور فى حكمه فارسل اليه رجلا من أرباب دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم فى تجارة لنفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن اليه وسأله أن يكتب كتابا الى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده لتزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتابا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذا بالعزم عاملا بالحزم قد عدل بين رعيته وساوى فى أقضيته أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الأولاد وأذهب ما بينهم من الضغائن والاحقاد وعمر منهم المساجد الدائرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر الى وجهه والسلام فكان معنى قوله آخذا بالعزم أى إذا عزم على ظلم أو جور فعله فى الحال وقوله قد عدل بين رعيته وساوى

هذا دليل على السعة (ومن التنكيت والحشمة بالتورية) أن الشيخ صلاح الدين الصفدى قال أخبرني الشيخ فتح الدين بن سيد الناس بالقاهرة قال قلت للشيخ تقى الدين بن دقيق العيد إن بهاء الدين بن النحاس يرجح أباتمام على المتنبي فما رأيك أنت فسكت فقلت ثانيا فقال كنت كذا فى الأول قال الشيخ صلاح الدين ولما حكيت للشيخ جمال الدين بن نباتة قال أنا على رأى ابن دقيق العيد قال الشيخ صلاح الدين وممن رأيته يعظم أباتمام شيخنا أثير الدين ويرجحه على المتنبي فعذلناه فى ذلك فقال أنا ما أسمع عذلا فى حبيب اه (ونقلت) من خط الصاحب فخر الدين ابن مكانس رحمه الله قال سافرت سنة احدى وستين وسبعمائة مع الصاحب فخر الدين ابن قزوينة الى دمشق المحروسة وقد ولى نظر مملكتها ووالدى رحمه الله أفتاها وكان له دوادار مليحا وهو من عتقاء جده الوزير أمين الدين بن الغنام وكان لطيفا كثير النوادر فاتفق أن جمال الدين بن الرهاوى موقع دست الوزارة ركب يوما فتنظر به

الفرس وداس على رأس احليله فحمل الى داره وأقام أياما الى ان عوفى وحضر مجلس الوزارة وهو غاص بالناس فقال الصاحب ماسبب تأخرك فقال تقنطر بى الفرس وداس رأس احليلى فكدت أموت والآن فقد لطف الله تعالى وحصل البرء والشفاء فقال له صبيح الحمد لله على سلامة الخصي فانقلب المجلس ضحكا وخجل ابن الرهاوى وانصرف (وحكى) أن بعض الرؤساء كان له خادم وعبد فدخل يوما فوجد العبد فوق الخادم فضربه وخرج فرأى بعض أصدقائه فسأله عن غيظه فقال هذا العبد النحس فعل بالخويدم الصغير فقال بل مولانا السيد الكبير فخجل منه وأبرزها فى قالب المجون (وأنشد ابن الجوزى فى بعض مجالس وعظه)

أصبحت ألطف من مر النسيم على زهر الرياض يكاد الوهم يؤلمنى

من كل معنى لطيف أجتلى قدحا وكل ناطقة فى الكون تطربنى

فقام اليه انسان فقال ياسيدي الشيخ فان كان الناطق حمارا فقال أقول له ياحمار اسكت (ويعجبنى) قول برهان الدين القيراطى:

صاح هذى قباب طيبة لاحت وفؤادى على اللقاء حريص

وتبدت نخيلها للمطايا فعيون المطي للنخل خوص

فى أقضيته أى أخذ كل مامعهم حتى ساوى بين الغنى والفقير وقوله عمر منهم المساجد الدائرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة يعنى أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئا من الدنيا ومعنى قوله يريدون النظر الى وجه أمير المؤمنين أى ليشكوا أحوالهم ومانزل بهم فلما جاء الكتاب الى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره (ومن ذلك ماحكى) أن القاضى الفاضل كان له صديق خصيص به وكان صديقه هذا قريبا من الملك الناصر صلاح الدين وكان فيه فضيلة تامة فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهم بقتله فتسحب الى بلاد التتر وتوصل الى ان صار وزيرا عندهم وصار يعرف التتر كيف يتوصل الى الملك الناصر بما يؤذيه فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل اكتب اليه كتابا عرفه فيه انى أرضى عليه واستعطفه غاية الاستعطاف الى أن يحضر فاذا حضر قتلته واسترحت منه فتحير الفاضل بين الاثنين صديقه يعز عليه والملك لا يمكنه مخالفته فكتب اليه كتابا واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب ان شاء الله تعالى كما جرت به العادة فى الكتب فشدد إن ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه فى غاية الكمال وما فهم إن وكان قصد الفاضل ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فلما وصل الكتاب الى الرجل فهمه وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلا فلما أراد أن ينهى الكتاب ويكتب ان شاء الله تعالى مد النون وجعل فى آخرها ألفا وأراد بذلك إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فلما وصل الكتاب الى الفاضل فهم الاشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك (وحكى) أن بعض الملوك طلع يوما الى أعلى قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار الى جانب قصره لم ير الراؤن أحسن منها فالتفت الى بعض جواريه فقال لها لمن هذه فقالت يامولاى هذه زوجة غلامك فيروز قال فنزل الملك وقد خامره حبها وشغف بها فاستدعى بفيروز وقال له يافيروز قال لبيك يامولاى قال خذ هذا الكتاب وامض به الى البلد الفلانية وائتنى بالجواب فأخذ فيروز الكتاب وتوجه الى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه وجهز أمره وبات ليلته فلما أصبح ودع أهله وسار طالبا لحاجة الملك ولم يعلم بما قد دبره الملك وأما الملك فانه لما توجه فيروز قام مسرعا وتوجه مختفيا الى دار فيروز فقرع الباب قرعا خفيفا فقالت امرأة فيروز من بالباب قال أنا الملك سيد زوجك ففتحت له فدخل وجلس فقالت له أرى مولانا اليوم عندنا فقال زائر فقالت أعوذ بالله من هذه الزيارة وما أظن فيها خيرا فقال لها ويحك اننى أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتنى فقالت بل عرفتك يامولاى ولقد علمت انك الملك ولكن سبقتك الأوائل فى قولهم

سأترك ماءكم من غير ورد * وذاك لكثرة الوراد فيه

اذا سقط الذباب على طعام * رفعت يدى ونفسى تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء * إذا كان الكلاب ولغن فيه

ويرتجع الكريم خميص بطن * ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يامولاى قول الشاعر

قل للذى شفه الغرام بنا * وصاحب الغدر غير مصحوب

والله لا قال قائل أبدا * قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت أيها الملك تأتى الى موضع شرب كلبك تشرب منه قال فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها فنسى نعله فى الدار هذا ما كان من الملك وأما ما كان من فيروز فانه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه فى رأسه فتذكر أنه نسيه تحت فراشه فرجع الى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره فوجد نعل الملك فى الدار فطاش عقله وعلم أن الملك لم يرسله فى هذه السفرة الا لأمر يفعله فسكت ولم يبد كلاما وأخذ الكتاب وسار الى حاجة الملك فقضاها ثم عاد اليه فأنعم عليه بمائة دينار فمضى فيروز الى السوق واشترى ما يليق بالنساء وهيأ هدية حسنة وأتى الى زوجته فسلم عليها وقال لها قومى الى

زيارة بيت أبيك قالت وماذاك قال ان الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك قالت حبا وكرامة ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها فأقامت عند أهلها مدة شهر فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها فأتى اليه أخوها وقال له يا فيروز إما ان تخبرنا بسبب غضبك واما أن تحاكمنا إلى الملك فقال ان شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها على حقا فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسا إلى جانبه فقال أخو الصبية أيد الله مولانا قاضي القضاة انى أجرت هذا الغلام بستانا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة وأشجار مثمرة فأكل ثمره وهدم حيطانه وأخرب بئره فالتفت القاضي الى فيروز وقال له ماتقول ياغلام فقال فيروز أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان فقال القاضي هل سلم إليك البستان كما كان قال نعم ولكن أريد منه السبب لرده قال القاضي ماقولك قال والله يامولاى مارددت البستان كراهة فيه وإنما جئت يوما من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يغتالني فحرمت دخول البستان إكراما للأسد قال وكان الملك متكئا فاستوى جالسا وقال يافيروز ارجع الى بستانك آمنا مطمئنا فوالله ان الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرا ولا التمس منه ورقا ولا ثمرا ولا شيئا ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس والله مارأيت مثل بستانك ولا أشد احترازا من حيطانه على شجره قال فرجع فيروز الى داره ورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم وهذا كله مما يأتى به الانسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ومنه ما يجده المتستر فى أمره من الراحة فى كتمان حاله مع لزوم الصدق ورضا الخصم بما وافق مراده لأن فى المعاريض مندوحة عن الكذب كما روى فى غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائرا بأصحابه يقصد بدرا فلقيهم رجل من العرب فقال ممن القوم فقال له النبي ﷺ من ماء فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول من ماء من ماء يرددها لينظر أى العرب يقال لهم ماء فسار النبي ﷺ بأصحابه لوجهته وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ فى قوله فان الله عز وجل قال فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق وكما روى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال للكافر الذى سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار هو رجل يهديني السبيل وقد صدق فيما قال رضى الله عنه فقد هداه وهدانا السبيل ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الاسلام وكما حكى عن الامام الشافعي رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول فى القرآن فقال الشافعى اياى تعنى قال نعم قال مخلوق فرضى خصمه منه بذلك ولم يرد الشافعى الا نفسه وكما حكى عن ابن الجوزى رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته وهم فريقان قوم سنية وقوم شيعة فقيل له من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أم على رضى الله عنهما فقال أفضلهما بعده من كانت ابنته تحته فأرضى الفريقين ولم يرد الا أبا بكر رضى الله عنه لأن الضمير فى ابنته يعود إلى أبى بكر رضى الله عنه وهي عائشة رضى الله عنها وكانت تحت رسول الله ﷺ والشيعة ظنوا أن الضمير فى ابنته يعود الى رسول الله ﷺ وهى فاطمة رضى الله عنها وكانت تحت على رضى الله عنه فهذه منه جيدة حسنة وكلمة بلت جفون الفريقين منها وسنة والله أعلم

(الفصل الثالث فى ذكر الفصحاء من الرجال) دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم فأحب الحسن أن يتكلم فزجره وقال ياصبي تتكلم فى هذا المقام فقال يا أمير المؤمنين ان كنت صبيا فلست بأصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال أحطت بما لم تحط به ثم قال ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى (ولما)

(يطربني ماحكاه أبو الفوارس ابن اسرائيل الدمشقي) قال كنت يوما عند السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب فحضر رسول صاحب المدينة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ومعه قودوه ايا فلما جلس أخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران بالسعف الأحمر وقال الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول هذه المروحة مارأى مولانا السلطان ولا أحد من بني أيوب مثلها فاستشاط السلطان صلاح الدين غضبا فقال الرسول يا مولانا السلطان لا تعجل قبل تأملها وكان السلطان صلاح الدين ملكا حليما فتأملها فاذا عليها مكتوب

أنا من نخلة تجاور قبرا ساد من فيه سائر الناس طرا
شملتني عناية القبر حتى صرت فى راحة ابن أيوب أقرا

وإذا هي من خوص النخل الذى فى مسجد الرسول ﷺ فقبلها السلطان صلاح الدين ووضعها على رأسه وقال لرسول صاحب المدينة النبوية صدقت فيما قلت من تعظيم هذه المروحة (وأحسن ماسمع فيها) قول عرقلة الدمشقى

ومحبوبة فى القيظ لم تخل من يد وفى القر تسلوها أكف الحبائب
إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقا

أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود فاذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صبي صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال ليتكلم من هو أسن منك فانه أحق بالكلام منك فقال الصبي يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك قال صدقت فتكلم فقال يا أمير المؤمنين انا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي من علينا بك ماقدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك أما عدم الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا وأما عدم الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك فنحن وفد الشكر والسلام فقال له عمر رضي الله عنه عظني يا غلام فقال يا أمير المؤمنين ان أناسا غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون فنظر عمر في سن الغلام فاذا له اثنتا عشرة سنة فأنشدهم عمر رضي الله تعالى عنه

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القوم لا علم عنده * صغير إذا التفت عليه المحافل

(وحكى) أن البادية قحطت في أيام هشام فقدمت عليه العرب فهابوا أن يكلموه وكان فيهم درواس ابن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام فقال لحاجبه ماشاء أحد أن يدخل علي إلا دخل حتى الصبيان فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقا فقال يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرا وطيا وانه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره فان أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته فأعجبه كلامه وقال له انشره لله درك فقال يا أمير المؤمنين انه أصابتنا سنون ثلاث سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة دقت العظم وفي أيديكم فضول مال فان كانت لله ففرقوها على عباده وان كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم فان الله يجزي المتصدقين فقال هشام ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرا فأمر للبوادي بمائة ألف دينار وله بمائة ألف درهم ثم قال له ألك حاجة قال مالي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجل القوم (وقيل) ان سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره فبعث إليه يقول ان لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي فوفد عليه وكان صغير الجثة فاقتحمته عينه وتنقصه فقال مهلا أيها الملك ان الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وانما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ان نطق نطق ببيان وان صال صال بجنان ثم أنشأ يقول

يا أيها الملك المرجو نائله * اني لمن معشر شم الذرى زهر
فلا تغرنك الأجسام ان لنا * أحلام عاد وان كنا إلى قصر
فكم طويل إذا أبصرت جثته * تقول هذا غداة الروع ذو ظفر
فان ألم به أمر فأفظعه * رأيته خاذلا بالأهل والزمر

فقال صدقت فهل لك علم بالأمور قال اني لأنقض منها المفتول وأبرم منها المحلول وأجيلها حتى تجول ثم أنظر فيها إلى ما تؤول وليس للدهر بصاحب من لا ينظر في العواقب قال فتعجب النعمان من فصاحته وعقله ثم أمر له بألف ناقة وقال له يا سعد إن أقمت واسيناك وان رحلت وصلناك فقال قرب الملك أحب الي من الدنيا وما فيها فأنعم عليه وأدناه وجعله من أخص ندمائه (وحكى) أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء وعن دين لا يقبل الله غيره وعن مفتاح الصلاة وعن غرس الجنة وعن صلاة كل شيء وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء وعن رجل لا أب له وعن رجل لا أم له وعن قبر جرى بصاحبه وعن قوس قزح ماهو وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها وعن ظاعن ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها وعن شجرة نبتت من غير ماء وعن شيء تنفس ولا روح له

لدى القيظ مبثوثا بأهداء ريحها
روينا عن الريح الشمال حديثها
على ضعفه مستخرجا من صحيحها

(نقل الحافظ) اليعمري أن أبا نصر المنذري واسمه أحمد ابن يوسف دخل على أبي العلاء المعري في جماعة من أهل الأدب فأنشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر فأنشده أبو نصر

وقانا لفحة الرمضاء واد * سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحة فحنا علينا * حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا * ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا * فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى * فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء أنت أشعر من بالشام ثم رحل أبو العلاء الى بغداد فدخل المنازي عليه في جماعة من أهل الأدب ببغداد وأبو العلاء لايعرف منهم أحداً فأنشد كل واحد ماحضره من شعره

وعن

وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد وعن البرق والرعد وصوته وعن المحو الذى فى القمر فقيل لمعاوية لست هناك ومتى أخطأت فى شىء من ذلك سقطت من عينه فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل فكتب إليه فأجابه أما الشىء فالماء قال الله تعالى وجعلنا من الماء كل شىء حى وأما لاشىء فانها الدنيا تبيد وتفنى وأما دين لا يقبل الله غيره فلا إله إلا الله وأما مفتاح الصلاة فالله أكبر وأما غرس الجنة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأما صلاة كل شىء فسبحان الله وبحمده وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فآدم وحواء وناقة صالح وكبش إسمعيل وأما الرجل الذى لا أب له فالمسيح وأما الرجل الذى لا أم له فآدم عليه السلام وأما القبر الذى جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به فى البحر وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق وأما البقعة التى طلعت عليها الشمس مرة واحدة فبطن البحر حين انفلق لبنى إسرائيل وأما الظاعن الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم فأخذوا التوراة معذرين فرده الله تعالى إلى موضعه فذلك قوله تعالى وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم الآية وأما الشجرة التى نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التى أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام وأما الشىء الذى تنفس بلا روح فالصبح قال الله تعالى والصبح إذا تنفس وأما اليوم فعمل وأمس فمثل وغد فأجل وبعد غد فأمل وأما البرق فخاريق بأيدى الملائكة تضرب بها السحاب وأما الرعد فاسم الملك الذى يسوق السحاب وصوته زجره وأما المحو الذى فى القمر فقول الله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل * ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال تمم الله عليك ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترجوه وتفضل عليك بما لم تحتسبه

(وحكى) أن الحجاج سأل يوما الغضبان بن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له من أكرم الناس قال أفقههم فى الدين وأصدقهم لليمين وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهانين وأطعمهم للمساكين قال فمن ألأم الناس قال المعطى على الهوان المقتر على الاخوان الكثير الالوان قال فمن شر الناس قال أطولهم جفوة وأدومهم صبوة وأكثرهم خلوة وأشدهم قسوة قال فمن أشجع الناس قال أضربهم بالسيف وأقراهم للضيف وأتركهم للحيف قال فمن أجبن الناس قال المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف المرتعش عند الوقوف المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف قال فمن أثقل الناس قال المتفنن فى الملام الضنين بالسلام المهذار فى الكلام المقبب على الطعام قال فمن خير الناس قال أكثرهم احسانا وأقومهم ميزانا وأدومهم غفرانا وأوسعهم ميدانا قال لله أبوك فكيف يعرف الرجل الغريب أحسيب هو أم غير حسيب قال أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداراته على أصله فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله والنذل الجاهل يجهله فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها وإذا نظر اليها العقلاء عرفوها وأكرموها فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة فقال الحجاج لله أبوك فما العاقل والجاهل قال أصلح الله الأمير العاقل الذى لا يتكلم هذرا ولا ينظر شزرا ولا يضمر غدرا ولا يطلب عذرا والجاهل هو المهذار فى كلامه المنان بطعامه الضنين بسلامه المتطاول على امامه الفاحش على غلامه قال لله أبوك فما الحازم الكيس قال المقبل على شأنه التارك لما لا يعنيه قال فما العاجز قال المعجب

حتى جاءت نوبة المنازى فأنشد

لقد عرض الحمام لنا بسجع
إذا أصغى له ركب تلاحى
شجى قلب الخلى فقيل غنى
وبرح بالشجى فقيل ناحا
وكم للشوق فى أحشاء صب
إذا اندملت أجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وان تقاوى
وسكران الفؤاد وان تصاحى
بذاك بنو الهوى سكرى صحاة
كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال أبو العلاء ومن بالعراق عطفا على قوله من بالشام انتهى (نادرة) مشى البيدق الزيدى مع شاب موسوم بالجمال فقال له شمس الدين ابن المنجم الشاعر أراك يا بيدق تفرزنت حول هذه النفس فقال وإذا كان فقال أخشى عليك من ذلك الرخ لا يقطعك من الحاشية ويرميك عن الفرس ويقطع عليك الرقعة ولو كان فى كفك الفيل (ومثله فى الظرف) أن بعض الأجناد كان كثير اللعب بالشطرنج وكان الجندى خليعا ظريفا فأعطاه الأمير فى بعض الأيام فرسا وقال له لا تفرط فيها فقال نعم وبعد ذلك التقاه الأمير وهو لابس جوخة فقال ويلك أين الفرس فقال يا خوند ضربنى الشتاء

بآرائه الملتفت الى ورائه قال هل عندك من النساء خبر قال أصلح الله الأمير إنى بشأنهن خبير إن شاء الله تعالى ان النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الاضلاع ان عدلتها انكسرت ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة فمن دارهن انتفع بهن وقرت عينه ومن شاورهن كدرن عيشه وتكدرت عليه حياته وتنغصت لذاته فأكرمهن أعفهن وأفخر أحسابهن العفة فاذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة فقال له الحجاج ياغضبان انى موجهك الى ابن الاشعث وافدا فماذا أنت قائل له قال أصلح الله الأمير أقول مايرديه ويؤذيه ويضنيه فقال انى أظنك لا تقول له ما قلت وكأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصري هذا قال كلا أصلح الله الأمير سأحدده لسانى وأجريه فى ميدانى قال فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان فلما توجه الى ابن الاشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينا عليه أى جاسوسا وكان يفعل ذلك مع جميع رسله فلما قدم الغضبان على ابن الاشعث قال له ان الحجاج قد هم بخلعك وعزلك فخذ حذرك وتغده قبل أن يتعشى بك فأخذ حذره عند ذلك ثم أمر للغضبان بجائزة سنية وخلع فاخرة فأخذها وانصرف راجعا فأتى الى رملة كرمان في شدة الحر والقيظ وهي رملة شديدة الرمضاء فضرب قبته فيها وحط عن رواحله فبينما هو كذلك اذا بأعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير صدا نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة وقد ظمىء ظمأ شديدا فقال السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال الغضبان هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها ماحاجتك يا أعرابى قال أصابتنى الرمضاء وشدة الحر والظمأ فتيممت قبتك أرجو بركتها قال الغضبان فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم قال أيتهن تعنى قال قبة الأمير بن الاشعث قال تلك لا يوصل اليها قال ان هذه أمنع منها فقال الاعرابى ما اسمك ياعبد الله قال آخذ فقال وما تعطى قال أكره أن يكون لى اسمان قال بالله من أين أنت قال من الارض قال فأين تريد قال أمشى فى مناكبها فقال الاعرابى وهو يرفع رجلا ويضع أخرى من شدة الحر أتقرض الشعر قال انما يقرض الفأر فقال أفتسجع قال انما تسجع الحمامة فقال ياهذا ائذن لى أن أدخل قبتك قال خلفك أوسع لك فقال قد أحرقنى حر الشمس قال مالى عليها من سلطان فقال الرمضاء أحرقت قدمي قال بل عليها تبرد فقال انى لا أريد طعامك ولا شرابك قال لا تتعرض لما لا تصل اليه ولو تلفت روحك فقال الاعرابى سبحان الله قال نعم من قبل أن تطلع أضراسك فقال الاعرابى ماعندك غير هذا قال بلى هراوة أضرب بها رأسك فاستغاث الاعرابى ياجار بنى كعب قال الغضبان بئس الشيخ أنت فوالله ماظلمك أحد فتستغيث فقال الاعرابي مارأيت رجلا أقسى منك أتيتك مستغيثا فحجبتنى وطردتنى هلا أدخلتنى قبتك وطارحتنى القريض قال مالى بمحادثتك من حاجة فقال الاعرابى بالله ما اسمك ومن أنت فقال أنا الغضبان بن القبعثرى فقال اسمان منكران خلقا من غضب قال قف متوكئا على باب قبتى برجلك هذه العوجاء فقال قطعها الله ان لم تكن خيرا من رجلك هذه الشنعاء قال الغضبان لو كنت حاكما لجرت فى حكومتك لأن رجلى فى الظل قاعدة ورجلك فى الرمضاء قائمة فقال الاعرابى اني لا أظنك حروريا قال اللهم اجعلنى ممن يتحرى الخير ويريده فقال انى لأظن عنصرك فاسدا قال ما أقدرنى على اصلاحه فقال الاعرابى لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى وهو يقول

لا بارك الله فى قوم تسودهم * انى اظنك والرحمن شيطانا
أتيت قبته أرجو ضيافته * فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ماجرى بينه وبين ابن الاشعث وبين الاعرابى قال له الحجاج ياغضبان كيف وجدت الارض كرمان قال أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش بها ضعاف

شاه مات فقسترت بالفرس (ويعجبنى قول الشيخ بدر الدين بن الصاحب) تأمل تر الشطرنج كالدهر دولة * نهارا وليلا ثم بؤسا وأنعما
محركها باق وتفنى جميعها * وبعد الفنا تحيا وتبعث أعظما

(قلت) ويشبه هذا قول الفاضل وقد أخرج له السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القصر من يعانى الخيال أعنى خيال الظل ليفرجه عليه فقام الفاضل عند الشروع فى عمله فقال له الناصر ان كان حراما فما نحضره وكان حديث العهد بخدمته قبل أن يلى السلطنة فما أراد أن يكدر عليه فقعد الى آخره فلما انقضى ذلك قال له الملك الناصر كيف رأيت ذلك قال رأيت موعظة عظيمة رأيت دولا تمضى ودولا تأتى ولما طوى الازار إذا المحرك واحد فأخرج ببلاغته هذا الجد فى هذا الهزل انتهى (وللشيخ بدر الدين الصاحب مضمنا فى الشطرنج)

أميل لشطرنج أهل النهى * وأسلوه من ناقل الباطل
وكم رمت تهذيب لعابها * وتأبى الطباع على الناقل

ويعجبنى قول الشيخ عز الدين الموصلى حيث قال

جاهل شطرنج ينادى وقد * أمات نفس اللعب من عكسه
ما تفعل الأفضال فى جاهل * ما يفعل الجاهل فى نفسه

هؤلاء ان كثروا جاعوا وان قلوا ضاعوا فقال له الحجاج ألست صاحب الكلمة التي بلغتني أنك قلت لابن الاشعث تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك فوالله لأحبسنك عن الوساد ولأزلنك عن الجياد ولأشهرنك في البلاد قال الامان أيها الأمير فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له فقال له ألم أقل لك كأني بصوت جلالك تجلجل في قصري هذا اذهبوا به الى السجن فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله ثم ان الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها فقال لمن حوله كيف ترون قبتي هذه وبناءها فقالوا أيها الأمير انها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة قليل عيبها كثير خيرها قال لم تخبروني بنصح قالوا لا يصفها لك الا الغضبان فبعث الى الغضبان فأحضره وقال له كيف ترى قبتي هذه وبناءها قال أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بباق فقال الحجاج قد صدق الغضبان ردوه الى السجن فلما حملوه قال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين فقال أنزلوه فلما أنزلوه قال رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين قال اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض قال منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى فقال جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم فقال الحجاج ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاء وخبثا ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلى سبيله (وحدث) الزبير قال دخل محمد بن عبد الملك ابن صالح على المأمون وقد كانت ضياعهم أخذت فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك أتأذن له في الكلام فقال تكلم فقال الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ونستمتع الله لحياطة ديننا ودنيانا ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا فان الحق لا تعفو آثاره ولا ينهدم مناره ولا ينبت حبله ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين هذا المقام مقام العائذ بظلك الهارب الى كنفك الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكلب الدهر وذهاب النعمة وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب ويبرد غليل القلوب وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آبائه الطيبين ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين وقدمت مقامي هذا متوسلا اليك بآبائك الطيبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين والمهدي ناصر المسلمين والمنصور منكل الظالمين ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفا اليك بالطاعة التي أفرع عليها غصني واحتنكت بها سني وريش بها جناحي متعوذا من شماتة الأعداء وحلول البلاء ومفارقة الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين وعرفه وقد أثبت الله الحق في نصابه وأقره في داره وأربابه يا أمير المؤمنين ان الدهر ذو اغتيال وقد يقلب حالا بعد حال فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدرا بعد صفو ومرا بعد حلو وهبنا نعم آبائك اللاتي غذتنا صغارا وكبارا وشبابا وأشياخا وأمشاجا في الاصلاب ونطفا في الارحام وقدمنا في القرابة حيث قدمنا الله منك في الرحم فان رقابنا قد ذلت لسخطك ووجوهنا قد عنت لطاعتك فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين ان الله قد سهل بك الوعور وجلا بك الديجور وملأ من خوفك القلوب والصدور بك يردع الفاسق ويقمع بك المنافق فارتبط نعم الله عندك بالعفو والاحسان فان كل راع مسئول عن رعيته وان النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها يا أمير المؤمنين انه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر وقد قال الله جل ثناؤه وتعالت قدرته وليعفوا وليصفحوا

(وقال الشيخ جمال الدين ابن نباتة) أفديه لاعب شطرنج قد اجتمعت ٭ في شكله من معاني الحسن أشتات

عيناه منصوبة للقلب غالبة ٭ والخد فيه لقتل النفس شامات

(نادرة لطيفة)

حكى أن السراج الوراق جهز غلاما له يوما ليبتاع له زيتا طيبا ليأكل به لفتا فأحضره وقلبه على اللفت فوجده زيتا حارا فأنكر على الغلام ذلك فأخذه وجاء الى البياع وقال له لم تفعل مثل هذا فقال له والله ياسيدي مالي ذنب لأنه قال أعطني زيتا للسراج انتهى (ومثله) ما حكاه الصاحب فخر الدين ابن مكانس عن صاحبه سراج الدين القوصي أنه كان حصل له طلوع في جسده فتردد اليه المزين وصنع له فتائل على العادة قال فقلت له يوما كيف الحال ياسراج الدين فقال كيف حال سراج فيه سبع فتائل (ورأيت له في ديوانه يداعب سراج الدين المذكور بقوله)

يا ذا السراج اشترى إربى فأنت به ٭ أولى وذلك للامر الذي وجبا

سكندري وتدعى بالسراج وذا ٭ مثل المنار اذا ما قام وانتصبا

﴿ نادرة لطيفة ﴾ اجتمع محدث ونصراني في سفينة فصب النصراني من

ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي ومنعه الكافي ثم أنشد يقول

أمير المؤمنين أتاك ركب * لهم قربى وليس لهم تلاد * هم الصدر المقدم من قريش
وأنت الرأس تتبعك العباد * لقد طابت بك الدنيا ولذت * وأرجو أن يطيب بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عين * وكيف يقل سوددك البلاد

قال فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية وأمر برد ضياعه وقرب منزلته وأدناه ودفع اليه من المال ما أغناه (ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء) ما حكى أن عبد الملك ابن مروان جلس يوما وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله علي ما يتمناه فقام اليه سويد بن غفلة فقال أنا لها يا أمير المؤمنين قال هات فقال نعم يا أمير المؤمنين أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة وجه يد وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الانسان مرتين فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمعت ما قال قال أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثا فقال هات ولك ما تتمناه فابتدأ يقول أنف أسنان أذن بطن بنصر بزة ترقوة تمرة تينة ثغر ثنايا ثدي جمجمة جنب جبهة حلق حنك حاجب خد خنصر خاصرة دبر دماغ درادير ذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة زند زردمة زب فهنالك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ساق سرة سبابة شفة شفر شارب صدر صدغ صلعة ضلع ضفيرة ضرس طحال طرة طرف ظفر ظلم عين عنق عاتق غبب غلصمة غنة فم فك فؤاد قلب قفا قدم كف كتف كعب لسان لحية لوح منخر مرفق منكب نغنوغ ناب نن هامة هيئة هيف وجه وجنة ورك يمين يسار يافوخ ثم نهض مسرعا فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال فعندها ضحك عبد الملك وقال والله ما تزيد نا عليها شيئا اعطوه ما يتمناه ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ في الاحسان اليه (وكان) الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوه واسرافه جوادا وكان اذا ضحك واستغرق في الضحك اتبع ذلك بالاستغفار مرات وكان يطعم على ألف خوان وكان يطوف على الموائد ويقول يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود اليكم ثانيا وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم وكان يقول أرى الناس يتخلفون عن طعامي فقيل له انهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا فقال قد جعلت رسولي اليهم كل يوم الشمس إذا طلعت وعند المساء اذا غربت (حكى) عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده وقال أيها الناس ان العراق كدر ماؤها وكثر غوغاؤها وأملولح عذبها وعظم خطبها وظهر ضرامها وعسر اخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع وذهن جامع وقلب ذكي وأنف حمي فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمن العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد فقام الحجاج وقال يا أمير المؤمنين أنا للعراق قال ومن أنت لله أبوك قال أنا الليث الضمضام والهزبر الهشام أنا الحجاج بن يوسف قال ومن أين قال من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف قال اجلس لا أم لك فلست هناك ثم قال مالي أرى الرءوس مطرقة والألسن معتقلة فلم يجبه أحد فقام اليه الحجاج وقال أنا مجندل الفساق ومطفىء نار النفاق قال ومن أنت قال أنا قاصم الظلمة ومعدن الحكمة الحجاج بن

ركوة كانت معه في مشربة وشرب وصب وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة فقال النصراني جعلت فداك هذا خمر فقال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلامي من خمار يهودي وحلف أنها خمر عتيق فشربها بالعجلة وقال للنصراني أنت أحمق نحن أصحاب الحديث نروي عن الصحابة والتابعين أفنصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودي والله ما شربتها الا لضعف الاسناد (نادرة لطيفة) نظر طفيلي الى قوم ذاهبين فلم يشك أنهم في دعوة ذاهبون إلى وليمة فقام وتبعهم فاذا هم شعراء قد قصدوا السلطان بمدائح لهم فلما أنشد كل واحد شعره وأخذ جائزته لم يبق إلا الطفيلي وهو جالس ساكت فقال له أنشد شعرك فقال لست بشاعر قيل فمن أنت قال من الغاوين الذين قال الله تعالى في حقهم والشعراء يتبعهم الغاوون فضحك السلطان وأمر له بجائزة الشعراء (وحكى) الهيثم ابن عدي قال ماشيت الامام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه في نفر من أصحابه الى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض بخيلا وتواصينا على أن نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال بعضنا آتنا

يوسف معدن العفو والعقوبة وآفة الكفر والريبة قال اليك عني وذاك فلست هناك ثم قال من للعراق فسكت القوم وقام الحجاج وقال أنا للعراق فقال اذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وان لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة فما آيتك وما علاماتك قال العقوبة والعفو والاقتدار والبسط والازورار والادناء والابعاد والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب فمن جادلني قطعته ومن نازعني قصمته ومن خالفني نزعته ومن دنا مني أكرمته ومن طلب الأمان أعطيته ومن سارع إلى الطاعة بجلته فهذه آيتي وعلامتي وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فان كنت للأعناق قطاعا وللأموال جماعا وللأرواح نزاعا ولك في الأشياء نفاعا والا فليستبدل بي أمير المؤمنين فان الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل فقال عبد الملك أنت لها فما الذي تحتاج اليه قال قليل من الجند والمال فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال هيء له من الجند شهوته وألزمهم طاعته وحذرهم مخالفته ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق قال عبد الملك بن عمير فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذ أتانا آت فقال هذا الحجاج قدم أميرا على العراق فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد فاذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابيء التميمي فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له أسبه لكم قال اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابيء وقال لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشيء والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال هل اجتمعتم فلم يرد عليه أحد شيئا فقال اني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم فقال رجل من القوم قد اجتمعنا أصلح الله الأمير فكشف عن لثامه ونهض قائما فكان أول شيء نطق به أن قال والله إني لأرى رؤسا أينعت وقد حان قطافها واني لصاحبها واني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى والله يا أهل العراق ان أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأنكلن بكم في البلاد ولأجعلنكم مثلا في كل واد ولأضربنكم ضرب غرائب الابل واني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ولا أعزم إلا أمضيت فاياي وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال وكان ويكون يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا فليس مني الاهدار والاكثار إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم اني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار وقد وجهني أمير المؤمنين اليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة واني أقسم بالله لا أجد رجلا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيئا فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئا عليه هذا أدبكم الذي تأدبتم به أما والله لأؤدبنكم أدبا غير هذا الأدب اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم

غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال فمطى المريض وقال ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال قوموا فما لكم هنا من فرج انتهى (ومن غرائب المنقول) أن يحيى بن اسحق كان طبيبا حاذقا صانعا بيده وكان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزروه نقل عنه من حذقه أنه أتى اليه بدوي على حمار وهو يصيح على باب داره أدركوني وكلموا الوزير بخبري فلما دخل عليه قال ما بالك قال ورم باحليلي منعني النوم منذ أيام وأنا في الموت فقال له اكشف عنه فاذا هو وارم فقال لرجل جاء معه أحضر لي حجرا أملس فطلبه فوجده فقال له ضع عليه الاحليل فلما تمكن احليل الرجل على الحجر جمع الوزير يده وضرب الاحليل ضربة غشي على الرجل منها ثم اندفع الصديد يجري فلما انقطع جريان الصديد فتح الرجل عينيه ثم بال في أثر ذلك فقال له اذهب فقد برأت علتك وأنت رجل عابث واقعت بهيمة في دبرها فصادفت شعيرة من علفها ولجت في عين الاحليل فورم لها وقد خرجت في الصديد فقال له الرجل قد فعلت ذلك وهذا يدل على الحذق المفرط (ومثله)

فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعد مافرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال أيها الأمير إني على الضعف كما ترى ولى ابن هو أقوى مني على الاسفار أفتقبله بدبلا مني فقال نقبله أيها الشيخ فلما ولى قال له قائل أتدرى من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا عمير بن صابىء الذى يقول

همت ولم أفعل وكدت وليتنى * تركت على عثمان تبكى حلائله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضى الله عنه وهو مقتول فوطىء فى بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج ردوه فلما ردوه قال له الحجاج أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان مافعلت يوم قتل الدار إن فى قتلك أيها الشيخ اصلاحا للمسلمين ياسياف اضرب عنقه فضرب عنقه وكان من أمره بعد ذلك ماعرف وسطر (ومن حكايات الحجاج) ماحكى أنه لما أسرف فى قتل أسرى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب اليه أما بعد فقد بلغنى عنك اسراف فى الدماء وتبذير فى العطاء وقد حكمت عليك فى الدماء فى الخطأ بالدية وفى العمد بالقود وفى الأموال أن تردها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأيى فانما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه فان كنت أردت الناس لى فما أغنانى عنهم وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عنى أمران لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب فى أسفل الكتاب

إذا أنت لم تترك أمورا كرهتها * وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
فان ترمني غفلة قرشية * فياربما قد غص بالماء شاربه
وان ترمني وثبة أموية * فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادث جمة * فانك تجزى بالذى أنت كاسبه
فلا تعد ما يأتيك منى وان تعد * يقمن به يوما عليك نوادبه
فلا تمنعن الناس حقا علمته * ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فانك ان تعطى الحقوق فانما * النوافل شىء لا يثيبك واهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافى وتبذيرى فى الأموال ولعمرى ما بلغت فى عقوبة أهل المعصية ولا قضيت حقوق أهل الطاعة فان كان قتلى العصاة اسرافا واعطائى المطيعين تبذيرا فليضمن لى أمير المؤمنين ماسلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدا فأقادبهم ولا قتلت إلا لك ولا أعطيت إلا فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب فى أسفل الكتاب

إذا أنا لا أبغى رضاك وأتقى * أذاك فليلى لا توارى كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جنة * تقيه من الأمر الذى هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة * لقامت عليه بالصياح نوادبه
فاذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه * واقص الذى تسرى إلى عقاربه
واعط المواسى فى البلاء عطية * لرد الذى ضاقت على مذاهبه
فمن يتق بؤسى ويرجو مودتى * ويخشى غدا والدهر جم نوائبه
وأمرى اليك اليوم ما قلت قلته * وما لم تقله لم أقل ما يقاربه
ومهما أردت اليوم منى أردته * وما لم ترده اليوم إنى مجانبه
وقف بى على حد الرضا لا أجوزه * مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
والا فدعنى والأمور فاننى * شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال خاف أبو محمد صولتى ولم يعاود لأمر كرهته ان شاء الله تعالى فمن يلومنى على محبته ياغلام اكتب اليه الشاهد يرى مالا يرى الغائب وأنت أعلى عينا بما هنالك (وفى مروج الذهب للمسعودى) ان أم الحجاج وهى الفارعة بنت همام ولدته مشوها لا دبر له فثقب له

أن ابن جميع الاسرائيلى كان من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين خدم سلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وحظى فى أيامه وكان رفيع المنزلة نافذ الأمر * ومما نقل عنه فى حذقه أنه كان جالسا فى دكان وقد مرت عليه جنازة فلما نظر اليها صاح يا أهل الميت إن صاحبكم لم يمت ولا يحل أن تدفنوه حيا فقال بعضهم لبعض هذا الذى يقوله لا يضرنا ويتعين أن نمتحنه فان كان حيا فهو المراد وان لم يكن حيا فما يتغير علينا شىء فاستدعوه اليهم وقالوا بين لنا ما قلت فأمرهم بالعود إلى البيت وأن ينزعوا أكفانه فلما فرغوا من ذلك أدخله الحمام وسكب عليه الماء الحار وأحمى بدنه ونطله فظهر فيه أدنى حس وتحرك حركة خفيفة فقال أبشروا بعافيته ثم تمم علاجه إلى أن أفاق وصحى فكان ذلك مبدأ اشتهاره بشدة الحذق والعلم ثم انه سئل بعد ذلك ومن أين علمت أن فى ذلك الميت بقية روح وهو فى الأكفان محمول فقال نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الموتى منبسطة فحدست أنه حى وكان حدسى صائبا (نادرة لطيفة) قيل إن المنصور ابن أبى عامر الأندلسى كان إذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة ولم يصر الى الغزاة الا من الجامع فاتفق أنه دبر

دبر وأبى أن يقبل الثدى وأعياهم أمره فيقال ان الشيطان تصور لهم فى صورة الحرث بن كلدة حكيم العرب فسألهم عن ذلك فأخبره مخبر من أهله فقال لهم اذبحوا له تيسا وألعقوه من دمه وأولغوه فيه ثم اطلوا به وجهه ففعلوا ذلك فقبل الثدي فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدر غيره عليها وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحرث ابن كلدة فدخل عليها يوما فى السحر فوجدها تخلل أسنانها فطلقها فسألته لم فعل فقال لها ان كنت باكرت الغداء فأنت شرهة وان كان بقيا طعام بفيك فأنت قذرة فقالت كل ذلك لم يكن وانما تخللت من شظايا السواك فقال قضى الأمر فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفى فأولدها الحجاج * وقيل ان الحجاج تقلد الامارة وهو ابن عشرين سنة ومات وله ثلاث وخمسون سنة وكان من عنف السياسة وثقل الوطأة وظلم الرعية والاسراف فى القتل على مالا يبلغه وصف أحصى من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله فى حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفا ووجد فى سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل وكان يحبس الرجال والنساء فى موضع واحد ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد وقيل للشعبى أكان الحجاج مؤمنا قال نعم بالطاغوت وقال لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم وقد مضى القول فى ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم وما أعان الله تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم وأنا قائل إن شاء الله تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان

﴿ ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن ﴾

(حكى) عن أبى عبدالله النميرى أنه قال كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر فبينما هو سائر اذ لاحت له طريدة فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل فأشرف على نهر ماء من الفرات فاذا هو بجارية عربية خماسية القد قاعدة النهد كأنها القمر ليلة تمامه وبيدها قربة قد ملأتها ماء وحملتها على كتفها وصعدت من حافة النهر فانحل وكاؤها فصاحت برفيع صوتها يا أبت أدرك فاها قد غلبنى فوها لا طاقة لى بفيها قال فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها فقال لها المأمون يا جارية من أى العرب أنت قالت أنا من بنى كلاب قال وما الذى حملك أن تكونى من الكلاب فقالت والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ثم قالت يا فتى من أى الناس أنت فقال أو عندك علم بالأنساب قالت نعم قال لها أنا من مضر الحمراء قالت من أى مضر قال من أكرمها نسبا وأعظمها حسبا وخيرها أما وأبا ممن تهابه مضر كلها قالت أظنك من كنانة قال أنا من كنانة قالت فمن أى كنانة قال من أكرمها مولدا وأشرفها محتدا وأطولها فى المكرمات يدا ممن تهابه كنانة وتخافه فقالت اذن أنت من قريش قال أنا من قريش قالت من أى قريش قال من أجملها ذكرا وأعظمها فخرا ممن تهابه قريش كلها وتخشاه قالت أنت والله من بنى هاشم قال أنا من بنى هاشم قالت من أى هاشم قال من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ممن تهابه هاشم وتخافه قال فعند ذلك قبلت الأرض وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين قال فعجب المأمون وطرب طربا عظيما وقال والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم ووقف حتى تلاحقته العساكر فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها وأخذها وعاد مسرورا وهي والدة ولده العباس والله أعلم (وحكى) أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حسنها فأنفذ اليها يخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتى ألف درهم ودخل بها ثم انها انحدرت معه الى بلد أبيها المعرة وكانت

فى بعض حركاته للغزاة توجه الى الجامع لعقد اللواء فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة فرفع حامل اللواء اللواء فصادف ثريا من قناديل الجامع فانكسرت على اللواء وتبدد عليه الزيت فتطير الحاضرون من ذلك وتغير وجه المنصور فقال رجل أبشر يا أمير المؤمنين بغزاة هينة وغنيمة سارة فقد بلغت أعلامك الثريا وسقاها الله من شجرة مباركة فاستحسن المنصور ذلك واستبشر به وكانت الغزوة من أبرك الغزوات (ومثل هذا) لما خرج المنصور العباسى الى قتال أبى يزيد الخارجى فى جماعة من الأولياء وواجه الحصن سقط الرمح من يده فأخذ بعض الأولياء فمسحه وقال

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالاياب المسافر

قال فضحك المنصور وقال لم لا قلت فألقى موسى عصاه فقال يا أمير المؤمنين العبد تكلم بما عنده من اشارات المتأدبين وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل على النبى من كلام رب العالمين فكان الامر على ما ذكره وأخذ الحصن وحصل الظفر بأبى يزيد (حكى) أن الشيخ شهاب الدين بن محمود قال عدت قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى دمشق بالمدرسة النجيبية سنة إحدى وثمانين وستمائة فأنشدنى لبعض أهل

هند فصيحة أديبة فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ثم ان الحجاج رحل بها الى العراق فأقامت معه ما شاء الله ثم دخل عليها فى بعض الايام وهى تنظر فى المرآة وتقول

وما هند إلا مهرة عربية * سليلة أفراس تحللها بغل
فان ولدت مهرا فلله درها * وان ولدت بغلا فجاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعا ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ اليها عبد الله ابن طاهر وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم وهى التى كانت لها عليه وقال يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت وهذه المائتا ألف درهم التى كانت لك قبله فقالت اعلم يا ابن طاهر انا والله كنا فما حمدنا فبنا فما ندمنا وهذه المائتا ألف درهم التى جئت بها بشارة لك بخلاصى من كلب بنى ثقيف ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان خبرها ووصف له جمالها فأرسل إليها يخطبها فأرسلت اليه كتابا تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين ان الاناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها وكتب إليها يقول اذا ولغ الكلب فى اناء أحدكم فليغسله سبعا احداهن بالتراب فاغسلى الاناء يحل الاستعمال فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة فكتبت إليه بعد الثناء عليه يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط فان قلت ماهو الشرط قلت أن يقود الحجاج محملى من المعرة الى بلدك التى أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التى كان فيها أولا فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكا شديدا وأنفذ الى الحجاج وأمره بذلك فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف وأنفذ الى هند يأمرها بالتجهزة فتجهزت وسار الحجاج فى موكبه حتى وصل المعرة بلد هند فركبت هند فى محمل الزفاف وركب حولها جواريها وخدمها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ثم انها قالت للهيفاء يا داية اكشفى لى سجف المحمل فكشفته فوقع وجهها فى وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول :

فان تضحكى منى فيا طول ليلة * تركتك فيها كالقباء المفرج

فأجابته هند تقول

وما نبالى اذا أرواحنا سلمت * بما فقدناه من مال ومن نشب
فالمال مكتسب والعز مرتجع * اذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب الى أن قربت من بلد الخليفة فرمت بدينار على الارض ونادت يا جمال انه قد سقط منا درهم فارفعه الينا فنظر الحجاج الى الارض فلم يجد الا دينارا فقال انما هو دينار فقالت بل هو درهم قال بل دينار فقالت الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله دينارا فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جوابا ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها وكان من أمرها ما كان وقد وجدت فى بعض النسخ ماهو أوسع من هذا ولكن اقتصرت على القليل منه إذ فيه الغرض والله أعلم * وقيل إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها فتأملها وقال لمولاها خذ جاريتك فلولا كلف بوجهها وخنس بأنفها لاشتريتها فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول فقال قولى فأنشدت تقول

ما سلم الظبى على حسنه * كلا ولا البدر الذى يوصف
الظبى فيه خنس بين * والبدر فيه كلف يعرف

قال فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها * وقيل عرضت على المأمون جارية بارعة فى الجمال فائقة فى الكمال غير أنها كانت تعرج برجلها فقال لمولاها خذ بيدها وارجع فلولا عرج بها لاشتريتها فقالت الجارية يا أمير المؤمنين انه فى وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها (ومن ذلك)

رثاه خلب قلبي وهو يقول قد قلت للرجل المولى غسله * جلا أطاع وكنت من نصحائه
جنبه ماءك ثم غسله بما * أذرت عيون المجد عند بكائه
وأزل أناوية الحنوط ونحها * عنه وحنطه بطيب ثنائه
ومر الملائكة الكرام بنقله * شرفا ألست تراهم بازائه
لا توه أعناق الرجال بحمله * يكفى الذى حملوه من نعمائه

قال الشيخ شهاب الدين فوقع فى نفسى أنه أحق الناس بهذا الرثاء وأنه نعى نفسه فمات فى ذلك الأسبوع برد الله مضجعه

(نكتة لطيفة) قيل إنه لما رجع الشيخ شهاب الدين السهروردى رحمه الله من الشام الى بغداد وجلس على عادته أخذ يقلل أحوال الناس ويهضم جانب الرجال ويقول انه مابقى من يجارى وقد خلت الدنيا وأنشد

ما في الصحاب أخو وجد نطارحه * حديث نجد ولا خل نجاريه

فصاح من أطراف المجلس رجل عليه قباء وكلوتة فقال ياشيخ كم تنتقص بالقوم والله ان فيهم من لم يرض أن يجاريك وقصارك أن تفهم ما يقول هلا قلت

ما في الصحاب وقد سارت حمولهم * الا محب له في الركب محبوب

ما حكى

ماحكي أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوما تحت جوسق ببستان فرأى جارية ذات وجه زاهر وكمال باهر لا يستطيع أحد وصفها فلما نظر اليها ذهل عقله وطار لبه فعاد إلى منزله وأرسل اليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه وكانت الجارية عزبا وكتب اليها رقعة يعرض اليها بالزيارة فى جوسقها فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية ثم أرسلت اليه مع العجوز عنبرا وجعلت فيه زر ذهب وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز هذا جواب رقعته فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحير فى أمره وكانت له ابنة صغيرة السن فلما رأت أباها متحيرا فى ذلك قالت له يا أبت أنا علمت معناه قال وما هو لله درك قالت

أهدت لك العنبر فى جوفه * زر من التبر خفى اللحام
فالزر والعنبر معناهما * زر هكذا مختفيا فى الظلام

قال فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها ﴿وحكى﴾ ان طائفة من بنى تميم كانوا يكسرون أول الفعل فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب اليهم من كسر الفعل فقال لأى شىء يا بنى تميم ماتكتنون فقالت ولم لا نكتنى وكسرت الفعل فضحك عليها وقال أفعل إن شاء الله فخجلت من قوله وتغير وجهها وأرادت أن توقعه كما أوقعها فقالت له هل تحسن شيئا من العروض قال نعم قالت قطع لى حولوا عنا كنيستكم * يابنى حمالة الحطب فقطعه فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه وأضحكت أصحابه فقال ويحك لم تبرحى حتى أخذت بثارك ﴿وحكى﴾ أن شاعرا كان له عدو فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق إذا هو بعدوه فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة فقال له ياهذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت ولكن سألتك الله اذا أنت قتلتنى امض الى دارى وقف بالباب وقل * ألا أيها البنتان ان أباكما * فقال سمعا وطاعة ثم انه قتله فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال * ألا أيها البنتان إن أباكما * وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل * ألا أيها البنتان ان أباكما * أجابتاه بفم واحد * قتيل خذا بالثار ممن أتاكما * ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه الى الحاكم فاستقرره فأقر بقتله فقتله والله أعلم * وقيل بينما كثير عزة مار بالطريق يوما إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشى فقال لها تنحى عن الطريق فقالت له ويحك ومن تكون قال أنا كثير عزة قالت قبحك الله وهل مثلك يتنحى له عن الطريق قال ولم قالت ألست القائل

وما روضة بالحسن طيبة الثرى * يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهنا * إذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها

ويحك ياهذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلى ومثل أمك لطاب ريحها لم لا قلت مثل سيدك امرىء القيس

وكنت إذا ماجئت بالليل طارقا * وجدت بها طيبا وان لم تطيب

فقطعته ولم يرد جوابا * وقيل أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه ما تقولون فيها قالوا عاجلها بالقتل أيها الأمير فقالت الخارجية لقد كان وزراء صاحبك خيرا من وزرائك ياحجاج قال ومن هو صاحبى قالت فرعون استشارهم فى موسى عليه السلام فقالوا أرجه وأخاه * وأتى بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر اليه فقيل لها الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين اليه فقالت إنى لأستحى أن أنظر إلى من لا ينظر الله اليه ﴿وحكى﴾ ابن الجوزى فى كتابه المنتظم فى مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقة أزواج النبى ﷺ خمسمائة درهم وأن فاطمة رضى الله عنها كان صداقها على على بن أبى طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضى الله عنها

كأنما يوسف فى كل راحلة والحى فى كل بيت منه يعقوب فصاح السهروردى ونزل عن الكرسى وطلب الشاب فلم يجده (حكى) عن ابن المطرزى الشاعر أنه مر وفى رجله نعل بالية بالشريف الرضى فأمر باحضاره وقال أنشدنى أبياتك التى تقول فيها

اذا لم تبلغنى اليك ركائبى
فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فأنشده إياها فلما انتهى الى هذا البيت أشار إلى نعله البالية وقال هذه كانت ركائبك فأطرق ابن المطرزى ساعة ثم قال لما عادت هبات مولانا الشريف إلى مثل قوله

وخذ النوم من جفونى فانى
قد خلعت الكرى على العشاق

عادت ركائبى إلى مثل ماترى لأنك خلعت مالا تملك على من لا يقبل فخجل الشريف وقابله بما يليق من الاكرام (قلت) وأما الأجوبة الهاشمية وبلاغتها فهى فى المحل الأرفع (فمن ذلك) أنه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعقبة ابن أبى سفيان والمغيرة ابن شعبة فقالوا ياأمير المؤمنين ابعث لنا الحسن بن على فقال لهم فيم فقالوا كى نوبخه ونعرفه أن أباه قتل عثمان فقال

لهم إنكم لا تنتصفون منه ولا تقولون شيئا إلا كذبكم الناس ولا يقول لكم شيئا يبلغه إلا صدقه الناس فقالوا

أرسل اليه فانا سنكفيك أمره فأرسل اليه معاوية فلما حضر قال ياحسن إني لم أرسل اليك ولكن هؤلاء أرسلوا اليك فاسمع مقالتهم وأجب لا تحرمني فقال الحسن عليه السلام فليتكلموا ونسمع فقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال هل تعلم ياحسن أن أباك أول من أثار الفتنة وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله به ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يابني هاشم كنتم أصهار عثمان بن عفان فنعم الصهر كان يفضلكم ويقربكم ثم بغيتم عليه فقتلتموه ولقد أردنا ياحسن قتل أبيك فأنقذنا الله منه ولو قتلناه بعثمان ما كان علينا من الله ذنب ثم قام عقبة فقال تعلم ياحسن ان أباك بغى على عثمان فقتله حسداً على الملك والدنيا فسلبها ولقد أردنا قتل أبيك حتى قتله الله تعالى ثم قام المغيرة بن شعبة فكان كلامه كله سبا لعلي وتعظيما لعثمان فقام الحسن عليه السلام فحمد الله تعالى

وأثنى عليه وقال بك أبدأ يامعاوية لم يشتمني هؤلاء ولكن أنت تشتمني بغضا وعداوة وخلافا

أوتيت

فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال أيها الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين فهاب الناس أن يكلموه فقامت امرأة في يدها طول فقالت له كيف يحل لك هذا والله تعالى يقول وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا فقال عمر رضي الله عنه امرأة أصابت ورجل أخطأ * وقيل جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقالت ياأمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل فقال لهم نعم الرجل زوجك وكان في مجلسه رجل يسمى كعبا فقال ياأمير المؤمنين ان هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن فراشه فقال له كما فهمت كلامها احكم بينهما فقال كعب علي بزوجها فاحضر فقال له ان هذه المرأة تشكوك قال أفي أمر طعام أم شراب قال بل في أمر مباعدتك إياها عن فراشك فأنشأت المرأة تقول :

يا أيها القاضي الحكيم أنشده * ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقده * فلست في أمر النساء أحمده

فأنشأ الزوج يقول

زهدني في فرشها وفي الحلل * أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول * وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي

ان لها عليك حقا لم يزل * في أربع نصيبها لمن عقل
* فعاطها ذاك ودع عنك العلل *

ثم قال ان الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة فقال عمر رضي الله عنه لا أدري من أيكما أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما اذهب فقد وليتك البصرة

(حكاية المتكلمة بالقرآن) قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فاذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت سلام قولا من رب رحيم قال فقلت لها يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان قالت ومن يضلل الله فلا هادي له فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تريدين قالت سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس فقلت لها أنت منذ كم في هذا الموضع قالت ثلاث ليال سويا فقلت ما أرى معك طعاما تأكلين قالت هو يطعمني ويسقين فقلت فبأي شيء تتوضئين قالت فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فقلت لها إن معي طعاما فهل لك في الأكل قالت ثم أتموا الصيام إلى الليل فقلت ليس هذا شهر رمضان قالت ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم فقلت قد أبيح لنا الافطار في السفر قالت وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون فقلت لم لا تكلميني مثل ما أكلمك قالت ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد فقلت فمن أي الناس أنت قالت ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا فقلت قد أخطأت فاجعليني في حل قالت لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم فقلت فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة قالت وما تفعلوا من خير يعلمه الله قال فأنخت ناقتي قالت قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم فغضضت بصري عنها وقلت لها اركبي فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم فقلت لها اصبري حتى أعقلها قالت ففهمناها سليمان فعقلت الناقة وقلت لها اركبي فلما ركبت قالت سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون قال فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت واقصد في مشيك واغضض من صوتك فجعلت أمشي رويدا رويدا وأترنم بالشعر فقالت فاقرؤا ما تيسر من القرآن فقلت لها لقد

أوتيت خيرا كثيرا قالت وما يذكر الا أولوا الألباب فلما مشيت بها قليلا قلت ألك زوج قالت يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها قالت المال والبنون زينة الحياة الدنيا فعلمت أن لها أولادا فقلت وما شأنهم في الحج قالت وعلامات وبالنجم هم يهتدون فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها قالت واتخذ الله ابراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما يا يحيي خذ الكتاب بقوة فناديت يا ابراهيم يا موسى يا يحيي فاذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يدي فقالت كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية فقلت الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم الا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء فقلت ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الثامن في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك ﴾

(قيل) ان معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له هيه يا معن تعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف على قوله :

معن بن زائدة الذي زادت به * شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين انما أعطيته على قوله

ما زلت يوم الهاشمية معلنا * بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه * من وقع كل مهند وسنان

فقال أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع * ووفد ابن أبي محجن على معاوية فقام خطيبا فأحسن فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له أنت الذي أوصاك أبوك بقوله :

اذا مت فادفني الى جنب كرمة * تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فانني * أخاف اذا ما مت أن لا أذوقها

قال بل أنا الذي يقول أبي لا تسأل الناس ما مالي وكثرته * وسائل الناس ما جودي وما خلقي أعطى الحسام غداة الروع حصته * وعامل الرمح أرويه من العلق * وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتم السر فيه ضربة العنق * ويعلم الناس أني من سراتهم * اذا سما بصر الرعديد بالفرق فقال له معاوية أحسنت والله يا ابن أبي محجن وأمر له بصلة وجائزة (وقيل) أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الخارجي فقال له ألست القائل ومنا سويد والبطين وقعنب * ومنا أمير المؤمنين شبيب. فقال يا أمير المؤمنين انما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب وأردت بذلك مناداتك فكان ذلك سببا لنجاته * ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميما فقال له معاوية انك لدميم والجميل خير من الدميم وانك لشريك وما لله من شريك وان أباك لأعور والصحيح خير من الأعور فكيف سدت قومك فقال له انك معاوية وما معاوية الا كلبة عوت فاستعوت الكلاب وانك لابن صخر والسهل خير من الصخر وانك لابن حرب والسلام خير من الحرب وانك لابن أمية وما أمية الا أمة صغرت فكيف صرت أمير المؤمنين ثم خرج وهو يقول :

أيشتمني معاوية بن حرب * وسيفي صارم ومعي لساني * وحولي من ذوي يزن ليوث
ضراغمة تهش الى الطعان * يعير بالدمامة من سفاه * وربات الحجال من الغواني

جدي صلى الله عليه وسلم ثم التفت الى الناس وقال أنشدكم الله أتعلمون أن الرجل الذي شتمه هؤلاء كان أول من آمن بالله وصلى للقبلتين وأنت يا معاوية يومئذ كافر تشرك بالله وكان معه لواء النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ومع معاوية وأبيه لواء المشركين ثم قال أنشدكم الله والاسلام أتعلمون أن معاوية كان يكتب الرسائل لجدي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه يوما فرجع الرسول وقال هو يأكل فرد الرسول اليه ثلاث مرات كل ذلك وهو يقول هو يأكل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا أشبع الله بطنه أما تعرف ذلك في بطنك يا معاوية ثم قال وأنشدكم الله أتعلمون أن معاوية كان يقود بأبيه على جمل وأخوه هذا يسوقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الجمل وقائده وراكبه وسائقه هذا كله لك يا معاوية وأما أنت يا عمرو فتنازع فيك خمسة من قريش فغلب عليك شبه ألأمهم حسبا وشرهم منصبا ثم قمت وسط قريش فقلت اني شانئ محمدا فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ان شانئك هو الأبتر ثم هجوت محمدا صلى الله عليه وسلم بثلاثين بيتا من

الشعر فقال النبي ﷺ اللهم اني لا أحسن الشعر ولكن ألعن عمرو بن العاص بكل بيت لعنة ثم انطلق
الى النجاشي بما علمت
وعملت فأكذبك الله
وردك خائبا فأنت عدو
بني هاشم في الجاهلية
والاسلام فلم نلمك على
بغضك وأما أنت يا ابن
أبي معيط فكيف ألومك
على سبك لعلي وقد جلد
ظهرك في الخمر ثمانين
سوطا وقتل أباك صبرا
بأمر جدي وقتله
جدي بأمر ربي ولما
قدمه للقتل قال من
للصبية يا محمد فقال لهم النار
فلم يكن لكم عند النبي
الا النار ولم يكن لكم
عند علي غير السيف
والسوط وأما أنت يا عتبة
فكيف تعد أحدا بالقتل
لم لا قتلت الذي وجدته
في فراشك مضاجعا
لزوجتك ثم أمسكتها بعد
ان بغت وأما أنت يا أعور
ثقيف ففي أي ثلاث
تسب عليا أفي بعده من
رسول الله صلى الله عليه
وسلم أم في حكم جائر
أم في رغبة في الدنيا فان
قلت شيئا من ذلك فقد
كذبت وأكذبك الناس
وإن زعمت أن عليا قتل
عثمان فقد كذبت
وأكذبك الناس وأما
وعيدك فانما مثلك كمثل
بعوضة وقعت على نخلة فقالت لها استمسكي فاني أريد أن أطير فقالت لها النخلة ما علمت بوقوفك

ودخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج فقال له سليمان قبح الله رجلا أجرك رسنه وولاك أمانته فقال يا أمير المؤمنين رأيتني والامر لك وهو عني مدبر فلو رأيتني وهو علي مقبل لاستكبرت مني ما استصغرت واستعظمت مني ما استحقرت فقال سليمان أترى الحجاج استقر في جهنم فقال يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك فان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك فحيثما كانا كان * وقال يهودي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم الا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم فقال علي كرم الله وجهه ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة * ووجد الحجاج على منبره مكتوبا قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار فكتب تحته قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور * ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره فأجلسه معه على سريره ثم قال له أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم فقال له عقيل وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم * وقيل اجتمعت بنو هاشم يوما عند معاوية فأقبل عليهم وقال يا بني هاشم ان خيري لكم لممنوح وان بابي لكم لمفتوح فلا يقطع خيري عنكم ولا يرد بابي دونكم ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمرا مختلفا انكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني واذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له هذا مع انصاف قائلكم واسعاف سائلكم قال فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما فقال والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك ولئن أغلقت دوننا بابا لنكفن أنفسنا عنك وأما هذا المال فليس لك منه الا ما للرجل من المسلمين ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر أكفاك أم أزيدك قال كفاني يا ابن عباس * وقال معاوية يوما أيها الناس ان الله حبا قريشا بثلاث فقال لنبيه ﷺ وأنذر عشيرتك الأقربين ونحن عشيرته الاقربون وقال تعالى وانه لذكر لك ولقومك ونحن قومه وقال تعالى لايلاف قريش إيلافهم ونحن قريش فأجابه رجل من الانصار فقال على رسلك يا معاوية فان الله تعالى يقول وكذب به قومك وهو الحق وأنتم قومه وقال تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وأنتم قومه وقال تعالى وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا لزدناك * وقال معاوية أيضا لرجل من اليمن ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة فقال أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ولم يقولوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه * وقال يوما لجارية بن قدامة ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية فقال ما كان أهونك على قومك اذ سموك معاوية وهي الأنثى من الكلاب قال اسكت لا أم لك قال أمي ولدتني أما والله ان القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا وانك لم تهلكنا قسوة ولم تملكنا عنوة ولكنك أعطيتنا عهدا وميثاقا وأعطيناك سمعا وطاعة فان وفيت لنا وفيناك وان نزعت الى غير ذلك فانا تركنا وراءنا رجالا شدادا وأسنة حدادا فقال معاوية لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية فقال له قل معروفا فان شر الدعاء محيط بأهله * وخطب معاوية يوما فقال ان الله تعالى يقول وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم فعلام تلومونني اذا قصرت في عطاياكم فقال له الاحنف وانا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه * وقيل دخل مجنون الطاق يوما الى الحمام وكان بغير مئزر فرآه أبو حنيفة رضي الله تعالى

عنه

عنه وكان في الحمام فغمض عينيه فقال له المجنون متى أعماك الله قال حين هتك سترك (ومن ذلك) ماحكي أن الحجاج خرج يوما متنزها فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فاذا هو بشيخ من بني عجل فقال له من أين أيها الشيخ قال من هذه القرية قال كيف ترون عمالكم قال شر عمال يظلمون الناس ويستحلون أموالهم قال فكيف قولك في الحجاج قال ذاك ماولي العراق شر منه قبحه الله وقبح من استعمله قال أتعرف من أنا قال لا قال أنا الحجاج قال جعلت فداك أو تعرف من أنا قال لا قال أنا فلان بن فلان مجنون بني عجل أصرع في كل يوم مرتين قال فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة ٭ وقال رجل لصاحب منزل أصلح خشب هذا السقف فانه يقرقع قال لا تخف فانه يسبح قال إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد ٭ وقالت عجوز لزوجها أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب قال أما حلال فنعم وأما طيب فلا ٭ وقال ملك لوزيره ماخير مايرزقه العبد قال عقل يعيش به قال فان عدمه قال أدب يتحلى به قال فان عدمه قال مال يستره قال فان عدمه قال فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد ٭ وتنبأ رجل في زمن المنصور فقال له المنصور أنت نبي سفلة فقال جعلت فداك كل نبي يبعث إلى شكله (ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة) ماذكر أن ابراهيم مغني الرشيد غنى يوما بين يديه فقال له أحسنت أحسن الله إليك فقال له يا أمير المؤمنين إنما يحسن الله إلي بك فأمر له بمائة ألف درهم ٭ وقال رجل لبعض العلوية أنت بستان فقال العلوي وأنت النهر الذي يسقى منه البستان ٭ وذبحت عائشة رضي الله تعالى عنها شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كتفا فقال لها النبي ﷺ ماعندك منها فقالت ما بقي منها إلا كتف فقال كلها بقي إلا كتفها ٭ وقال عبدالله بن يحيى لأبي العيناء كيف الحال قال أنت الحال فانظر كيف أنت لنا فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس فقال لعمرو من أنت قال عمرو عمرك الله بن سعد أسعدك الله ابن سالم سلمك الله قال أنت تكلؤنا الليلة قال الله يكلؤك يا أمير المؤمنين وهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين فقال المأمون

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ٭ ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك ٭ شتت فيك شمله ليجمعك

ادفعوا اليه أربعة آلاف دينار قال عمرو وددت لو أن الأبيات طالت وقال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبي صغير أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفص لفص كان في يده قال نعم يا أمير المؤمنين اليد التي هو فيها أحسن منه فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة ٭ وقيل إن رجلا سأل العباس رضي الله عنه أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله ٭ وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندي أأنت سعيد قال أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة ٭ وقال المأمون للسيد بن أنس أأنت السيد قال أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس وقال الحجاج للمهلب وهو يماشيه أأنا أطول أم أنت قال الأمير أطول وأنا أبسط قامة أراد الطول وهو الفضل والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها ولكني اقتصرت على هذا وأوجزت وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية

(الباب التاسع في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد) قيل خطب المأمون فقال اتقوا الله عباد الله وأنتم في مهل بادروا الأجل ولا يغرنكم الأمل فكأني بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله وتولت عنه فواصله وهيئت أكفانه وبكاه جيرانه وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي فهو في التراب عفير والى ماقدم فقير ٭ وقال الشعبي ما سمعت أحدا يخطيء إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطيء مما خلا زيادا فانه لا يزداد إكثارا إلا ازداد

فكيف يشق على طيرانك وأنت فما شعرنا بعداوتك فكيف يشق علينا سبك ثم نفض ثيابه وقام فقال لهم معاوية ألم أقل لكم إنكم لا تنتصفون منه فوالله لقد أظلم علي البيت حتى قام فليس فيكم بعد اليوم خير انتهى

(ومن غريب النقل) ان شريك بن الأعور دخل على معاوية وهو يختال في مشيته فقال له معاوية والله انك لشريك وليس لله من شريك وإنك ابن الأعور والصحيح خير من الأعور وإنك لدميم والوسيم خير من الدميم فبم سودك قومك فقال له شريك والله انك لمعاوية وما معاوية الا كلبة عوت فاستعوت فسميت معاوية وإنك ابن حرب والسلم خير من الحرب وإنك ابن صخر والسهل خير من الصخر وإنك ابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت فسميت أمية فكيف صرت أمير المؤمنين فقال له معاوية أقسمت عليك الا ماخرجت عني

(نكتة لطيفة) اتفق أن الملك المعظم عزم على الصيد فقال له بعض جماعته يامولانا ان القمر في العقرب والسفر فيه مذموم والمصلحة أن تصبر إلى أن ينزل القمر القوس فعزم على الصبر فبينما هو مفكر إذ دخل عليه مملوك له من أحسن الناس وجها فوقف

احسانا (وخطب) علي رضي الله عنه فقال فى خطبته عباد الله الموت الموت ليس منه فوت ان أقمتم أخذكم وان فررتم منه أدرككم الموت معقود بنواصيكم فالنجا النجا والوحا الوحا فان وراءكم طالبا حثيثا وهو القبر ألا وان القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ألا وانه يتكلم فى كل يوم ثلاث كلمات فيقول أنا بيت الظلمة أنا بيت الوحشة أنا بيت الديدان ألا وان وراء ذلك اليوم يوما أشد منه يوما يشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ألا وان وراء ذلك اليوم يوما أشد منه فيه نار تتسعر حرها شديد وقعرها بعيد وحليها حديد وماؤها صديد ليس لله فيها رحمة قال فبكى المسلمون بكاء شديدا ثم قال ألا وان وراء ذلك اليوم جنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين أدخلنا الله واياكم دار النعيم وأجارنا واياكم من العذاب الأليم (وخطب) الحجاج بن يوسف فقال فى بعض خطبه ان ابراهيم بن عبد الله بن الحسن رضى الله عنه خطب بالبصرة فقال أيها الناس كل كلام فى غير ذكر فهو لغو وكل صمت فى غير فكر فهو سهو والدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط بينهما ونحن فى أضغاث أحلام * قيل اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبرا ثم قال أمير المؤمنين هذا وأشار الى معاوية ثم قال فان يهلك فهذا وأشار الى يزيد ثم قال فمن أبى فهذا وأشار الى سيفه فقال له معاوية أنت سيد الخطباء

﴿فصل فى ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم﴾ قيل ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى والمكان الخضر الخالى وقيل أمسك على النابغة الجعدى أربعين يوما فلم ينطق بالشعر ثم ان بنى جعدة غزا فظفروا فاستخفه الطرب والفرح فرام الشعر فذل له ما استصعب عليه فقال له قومه والله لنحن باطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا * وقال أبو نواس ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال وقال الخليل الشعراء امراء الكلام يصرفونه كيف شاؤا جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق المعنى وتقييده ومن تسهيل اللفظ وتعقيده. وقيل وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له أقرأت القرآن قال نعم قال أفرضت الفرائض قال نعم قال أرويت الشعر قال لا فكتب الى عبد الله أبا زياد بارك الله لك فى ابنك فأروه الشعر فقد وجدته كاملا وانى سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول أرووا الشعر فانه يدل على محاسن الاخلاق وينهى عن مساويها وتعلموا الانساب فرب رحم مجهولة قد وصلت بعرفان النسب وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم فى البر والبحر ولقد هممت بالهرب يوم صفين فما ثبتنى الا قول القائل :

اقول لها إذا جشأت وجاشت * مكانك تحمدى أو تستريحى

وقيل لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء فلا يتميز عن مقولهم ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة وبذل له بعض الملوك مالا جزيلا على أن يتكلم فى بيت من الشعر شكوا فيه فأبى * وكان الحسن بن على رضى الله عنه يعطى الشعراء فقيل له فى ذلك فقال خير مالك ما وقيت به عرضك * وقال أبو الزناد ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له ما أرواك يا أبا عبد الله فقال وما روايتى مع رواية عائشة رضى الله عنها ما كان ينزل بها شيء الا أنشدت فيه شعرا وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل * كفى الاسلام والشيب للمرء ناهيا * ولم ينطق به موزونا فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه أشهد أنك رسول الله حقا ولا قوله تعالى وما علمناه الشعر وما ينبغى له (ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم) فمن

أمامه وقد توشح بقوس فقال له بعض الحاضرين بالله يامولانا اركب فى هذه الساعة فهذا القمر قد حل فى القوس حقيقة فقام لوقته وركب استبشارا بالقول فلم ير أطيب من تلك السفرة ولا أكثر من صيدها ﴿ومن غرائب المنقول﴾ ما حكي اسحق النديم عن أبيه قال استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من الجمعة لأنبعث فيه بجوارى واخوانى فأذن لى فى يوم السبت وقال هو يوم استثقله فاله فيه بما شئت قال فاقمت يوم السبت بمنزلى وتقدمت لاصلاح طعامى وشرابى وأمرت بوابى باغلاق الباب وأن لا يأذن لأحد من الناس فبينما أنا فى مجلسي والحرم قد حففن بى اذ أنا بشيخ عليه هيبة وجمال وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بالفضة وروائح الطيب تفوح منه فداخلنى لدخوله علي مع ما قدمت من الوصية غيظ عظيم وهممت بطرد بوابى ومن يحجبنى لاجله فسلم علي أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ فى حديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى فظننت أن غلمانى قصدوا مسرتى بادخاله على لظرفه وأدبه فقلت له هل لك فى الطعام فقال لا حاجة لى به فقلت هل لك فى الشراب

ذلك قول قيس بن الحطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها :

وما المال والأخلاق إلا معارة * فما اسطعت من معروفها فتزود

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهى معلقة على الكعبة يقول فيها :

لعمرك ما الأيام إلا معارة * فما اسطعت من معروفها فتزود

(ومن ذلك) قول عبدة بن الطيب

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

أخذه من قول امرىء القيس فلو أنها نفس تموت سريتها * ولكنها نفس تساقط أنفسا

ويقال من سرق شيئا واسترقه فقد استحقه وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ * فمن السرقة الفاحشة قول كثير فى عبدالملك بن مروان : إذا ما أراد الغزو لم يثن همه * حصان عليها عقد در يزينها

أخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروى :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه * حصان عليها لؤلؤ وشنوف

وجرير على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله :

فلو كان الخلود بفضل قوم * على قوم لكان لنا الخلود

من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت * ولكن حمد المرء غير مخلد

وقد قال الشماخ : وأمر ترجى النفس ليس بنافع * وآخر تخشى ضيره لا يضيرها

وهو المأخوذ من قول الآخر : ترجى النفوس الشىء لا تستطيعه * وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول :

وأحسن من نور تفتحه الصبا * بياض العطايا فى سواد المطالب

أخذه من قول الأخطل : رأيت بياضا فى سواد كأنه * بياض العطايا فى سواد المطالب

(ومن سقطات الشعراء) ما قيل ان أبا العتاهية كان مع تقدمه فى الشعر كثير السقط روى أنه لقى محمد ابن مبادر بمكة فمازحه وضاحكه ثم انه دخل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة فى كل سنة وأنا أقول فى كل سنة مائتى قصيدة فأدخله الرشيد اليه وقال ما هذا الذى يقول أبو العتاهية فقال يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول ألا يا عتبة الساعه * أموت الساعة الساعه لقلت كثيراً ولكننى أقول ابن عبد الحميد يوم توفى * هد ركنا ما كان بالمهدود

ما درى نعشه ولا حاملوه * ما على النعش من عفاف وجود

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم فكاد أبو العتاهية يموت غما وأسفا * وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين ويسلمون اليه فى الفضيلة والسبق وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال

إنما عظمي سليمى حبتى * قصب السكر لا عظم الجمل

وإذا أدنيت منها بصلا * غلب المسك على ريح البصل

هذا مع قوله إذا قامت لمشيتها تثنت * كأن عظامها من خيزران

ومع قوله فى الفخر كأن مثار النقع فوق رؤسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومع قوله أيضا إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وأبو الطيب المتنبي فى فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام وقوته على رقائق المعانى وعلى ما فى شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول :

فقال ذاك اليك قال فشربت رطلا وسقيته مثله فقال يا أبا اسحق هل لك فى أن تغنى ونسمع منك ما فقت به على العام والخاص قال فغاظنى منه ذلك ثم سهلت الأمر على نفسى وأخذت العود وضربت وغنيت فقال أحسنت يا إبراهيم فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله حتى سمانى باسمى ولم يحسن مخاطبتى ثم قال هل لك فى أن تزيدنا ونكافئك قال فتقدمت وأخذت العود وضربت وغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته قياما تاما فطرب وقال أحسنت ياسيدى ثم قال أتأذن لعبدك فى الغناء فقلت شأنك واستضعفت عقله كيف سولت له نفسه أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى فأخذ العود وجسه فوالله لقد خلته ينطق بلسان عربى واندفع يغنى

ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كبداً ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها
ومن يشترى ذا علة بصحيح

قال إبراهيم فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى ثم غنى ألا يا حمامات اللوى الابيات فكاد يذهب عقلى طربا ثم قال يا إبراهيم خذ هذا الغناء

وابح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك فسألته أن يعيدما غناه فقال لم تحتج إلى شيء من ذلك ثم غاب من بين عيني فارتعت وقمت إلى السيف فجردته ثم غدوت نحو الأبواب وقلت للجوارى أى شيء سمعتن فقلن سمعن أحسن غناء فخرجت متحيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ فقال أى شيخ والله مادخل اليك اليوم أحد من الناس فرجعت لأتأمل أمرى فاذا به قد هتف من بعض جوانب الدار فقال لا بأس عليك يا أبا اسحق أنا إبليس وقد اخترت منادمتك فى هذا اليوم فلا ترتع فركبت على الفور إلى الرشيد وأتحفته بهذه الطرفة فقال ويحك اعتبر الأصوات التى أخذتها عنه فأخذت العود فاذا هي راسخة فى صدرى فطرب الرشيد وأمر لى بصلة وقال ليته متعنا يوما واحدا كما متعك قال أبو الفرج الاصبهانى هكذا حدثنا ابن أبى الأزهر وما أدرى ما أقول فيه (ويضارع هذا ما أورده ابن خلكان فى ترجمة بن دريد) قال أبو بكر محمد بن الحسين ابن دريد سقطت من منزلى فانكسر بعض أعضائى فسهرت ليلتى فلما كان آخر الليل غمضت عينى فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا دخل علىّ وأخذ بعضادتى

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم * إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وغير شيء معناه المعدوم والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش * ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الاسماع قوله :

تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا * قلاقل عيش كلهن قلاقل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى :

ان كان مثلك كان أو هو كائن * فبرئت حينئذ من الاسلام

ومن معانيه المسروقة قوله * ونهب نفوس أهل النهب أولى * بأهل المجد من نهب القماش أخذه من قول أبي تمام * إن الاسود أسود الغاب همتها * يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب قال أبو عبد الله الزبيرى اجتمع راوية جرير وراوية كثير وراوية جميل وراوية الأحوص وراوية نصيب فافتخر كل منهم وقال صاحبي أشعر فحكموا السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله تعالى عنهما بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأى ساعة أحلى من الزيارة بالطروق قبح الله صاحبك وقبح شعره فهلا قال فادخلي بسلام ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذي يقول

يقر بعينى مايقر بعينها * وأحسن شيء مابه العين قرت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح أيحب صاحبك أن ينكح فبح الله صاحبك وقبح شعره ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ماطلبتها * ولكن طلابيها لما فات من عقلى

فما أراه هوى وانما طلب عقله قبح الله صاحبك وقبح شعره ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذي يقول : أهيم بدعد ماحييت فان أمت * فواحزنى من ذا يهيم بها بعدى فماله همة إلا من يتعشقها بعده قبحه الله وقبح شعره هلا قال :

أهيم بدعد ماحييت فان أمت * فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذى يقول

من عاشقين تواعدا وتراسلا * ليلا إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها * حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره هلا قال تعانقا فلم تثن على واحد منهم وأحجم رواتهم عن جوابها رضى الله عنها (وروى) ابن الكلبي قال لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت اليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله فأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم فى الدخول حتى قدم عدى بن أرطاة عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال :

يا أيها الرجل المزجي مطيته * هذا زمانك انى قد خلا زمنى * أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أنى لدى الباب كالمشدود فى قرن * لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة * قد طال مكثي عن أهلى وعن وطنى

قال نعم يا أبا عبد الله فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألسنتهم مسمومة وسهامهم صائبة فقال عمر رضي الله عنه مالى وللشعراء فقال يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى وفيه أسوة لكل مسلم قال صدقت فمن بالباب منهم قال ابن عمك عمر بن

أبي ربيعة القرشي قال لاقرب الله قرابته ولا حيا وجهه أليس هو القائل :

ألا ليتني في يوم تدنو منيتي * شممت الذي مابين عينيك والفم * وليت طهوري كان ريقك كله
وليت حنوطي من مشاشك والدم * ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي * هنالك أو في جنة أو جهنم

فليته عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ثم يعمل عملا صالحا والله لا يدخل علي أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال جميل بن معمر العذري قال أليس هو القائل :

ألا ليتنا نحيا جميعا فان نمت * يوافي لدى الموت ضريحي ضريحها * فما أنا في طول الحياة براغب
إذا قيل قد سوى عليها صفيحها * أظل نهاري لا أراها وتلتقي * مع الليل روحي في المنام وروحها

والله لا يدخل علي أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال كثير عزة قال أليس هو القائل :

رهبان مدين والذين عهدتهم * يبكون من حذر الفراق قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها * خروا لعزة ركعا وسجودا

أبعده الله فوالله لا يدخل علي أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال الأحوص الأنصاري قال أبعده الله والله لا دخل علي أبدا أليس هو القائل وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه

الله بيني وبين سيدها * يفر مني بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال همام بن غالب الفرزدق قال أليس هو القائل يفتخر بالزنا في قوله :

هما دلياني من ثمانين قامة * كما انقض باز لين الريش كاسره
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا * أحي فيرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأحراس لا يفطنوا بنا * ووليت في أعقاب ليل أبادره

والله لا دخل علي أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال الأخطل التغلبي قال أليس هو القائل

ولست بصائم رمضان عمري * ولست بآكل لحم الأضاحي * ولست بزاجر عيسا بكورا
إلى اطلال مكة بالنجاح * ولست بقائم كالعبد يدعو * قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني ساشربها شمولا * وأسجد عند منبلج الصباح

أبعده الله عني فوالله لا دخل علي أبدا ولا وطىء لي بساطا وهو كافر فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت قال جرير قال أليس هو القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعي بسلام

فان كان ولا بد فهذا فأذن له قال عدي بن أرطاة فخرجت فقلت أدخل يا جرير فدخل وهو يقول

إن الذي بعث النبي محمدا * جعل الخلافة في الامام العادل * وسع الخلائق عدله ووقاره
حتى ارعووا وأقام ميل المائل * إني لأرجو منه نفعا عاجلا * والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة * لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقا فأنشأ يقول :

كم باليمامة من شعثاء أرملة * ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر * ممن بعدلك يكفي فقد والده
كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر * أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت * أم قد كفاني ما بلغت من خبري
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا * من الخليفة ما نرجو من المطر * إن الخلافة جاءته على قدر
كما أتى ربه موسى على قدر * هذي الأرامل قد قضيت حاجتها * فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير مادمت حيا لا يفارقنا * بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال والله يا جرير لقد وافيت الأمر ولا أملك إلا ثلاثين دينارا فعشرة أخذها عبد الله ابني وعشرة

الباب وقال أنشدني أحسن ما قلت في الخمر فقلت ما ترك أبو نواس لاحد شيئا في هذا الباب فقال أنا أشعر منه فقلت ومن أنت قال أبو ناجية من أهل الشام وأنشدني :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده * بدت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا * عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له أسأت قال ولم قلت لأنك قلت وحمراء قدمت الحمرة ثم قلت نرجس وشقائق فقدمت الصفرة فقال ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض وأبو ناجية من كنى إبليس * قال قاضي القضاة شمس الدين محمد بن خلكان في تاريخه وفي رواية أخرى إن الشيخ أبا علي الفارسي قال أنشدني ابن دريد هذين البيتين وقال جاءني إبليس في المنام ثم ذكر بقية الكلام الخ (ونقل) ابن خلكان وغيره أن أبا بكر بن قريعة قاضي السندية وغيرها من أعمال بغداد كان من عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالأجوبة عن جميع ما يسئل عنه في أفصح لفظ وأملح سجع وكان مختصا بحضرة الوزير أبي محمد المهلبي ومنقطعا اليه وله مسائل وأجوبة مدونة في أيدي الناس وكان رؤساء ذلك العصر والعلماء والفضلاء يداعبونه

أخذتها أم عبد الله ثم قال لخادمه ادفع اليه العشرة الثالثة فقال والله يا أمير المؤمنين انها لأحب مال اكتسبته ثم خرج فقال له الشعراء وما وراءك يا جرير فقال ورائي ما يسوءكم خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء واني عنه لراض ثم أنشأ يقول

رأيت رقى الجن لا يستفزه * وقد كان شيطاني من الجن راقيا

﴿ ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد ﴾

قال الأحنف الشريف من عدت سقطاته قلت عثراته وقالوا كل صارم ينبو وكل جواد يكبو وكان الاحنف بن قيس حليما سيدا يضرب به المثل وقد عدت له سقطة وهو أن عمرو بن الأهتم دس اليه رجلا يسفهه فقال يا أبا بحر ما كان أبوك في قومه قال كان أوسطهم وسيدهم ولم يتخلف عنهم فرجع اليه ثانيا ففطن أنه من قبل عمرو بن الاهتم فقال ما كان أبوك قال كانت له فتوة ومروءة ومكارم أخلاق ولم يكن أهتم سلاحا وقال سعيد بن المسيب ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة ثم قام يريد الصلاة فوجد الناس قد خرجوا من المسجد وقال قتادة ما نسيت شيئا قط ثم قال يا غلام ناولني نعلي قال النعل في رجلك وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودهاتهم وقد عدت له سقطات منها أن الحادي حدا به يوما فقال

اني عليك أيها النجي * أكرم من يمشي به المطي

فقال هشام صدقت * وذكر عنده سليمان وأخوه فقال والله لأشكونه يوم القيامة الى أمير المؤمنين عبد الملك ولما ولي الخلافة قال الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام قال النابغة أي الرجال المهذب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب العاشر في التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول ﴾

﴿ الفصل الأول في التوكل على الله تعالى ﴾ قال الله تعالى وتوكل على الحي الذي لا يموت وقال تعالى وعلى ربهم يتوكلون وقال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير رواه مسلم قيل معناه متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود من دعاني أجبته ومن استغناني أغنيته ومن استنصرني نصرته ومن توكل على كفيته فأنا كافي المتوكلين وناصر المستنصرين وغياث المستغيثين ومجيب الداعين ﴿ حكي ﴾ أنه كان في زمن هرون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادا عظيما فأمر الخليفة هرون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء وأمر بكسر آلات الطرب ففي بعض الأيام رؤي عبد يصفق ويرقص ويغني فحمل إلى الخليفة هرون الرشيد فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال ان سيدي عنده خزانة بر وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها فلهذا أنا اذاً لا أبالي فأنا أرقص وأفرح فعند ذلك قال الخليفة اذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى فسلم للناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى ﴿ وحكى ﴾ أن حاتما الأصم كان رجلا كثير العيال وكان له أولاد ذكور وإناث ولم يكن يملك حبة واحدة وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج فداخل الشوق قلبه ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم ثم قال لهم لو أذنتم لأبيكم أن يذهب الى بيت ربه في هذا العام حاجا ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم فقالت زوجته وأولاده

ويكتبون له المسائل الغريبة المضحكة فيكتب الأجوبة من غير توقف ولا يكتب الا مطابقا لما سألوه وكان الوزير المذكور يغري به جماعة يصنعون له المسائل الهزلية من معان شتى من النوادر (فمن ذلك) ما كتب اليه بعض الفضلاء على سبيل الامتحان ما يقول القاضي أيده الله تعالى في رجل سمى ولده مداما وكناه أبا الندامى وسمى ابنته الراح وكناها أم الأفراح وسمى عبده الشراب وكناه أبا الأطراب وسمى وليدته القهوة وكناها أم النشوة أينهى عن بطالته أم يؤدب على خلاعته (فكتب تحت السؤال) لو نعت هذا لأبي حنيفه لأقعده خليفة وعقد له راية وقاتل تحتها من خالف رأيه وعلمنا مكانه لقبلنا أركانه فان أتبع هذه الأسماء أفعالا وهذه الكنى استعمالا علمنا أنه أحيا دولة المجون وأقام لواء ابن الزرجون فبايعناه وشايعناه وان تكن أسماء سماها ماله بها من سلطان خلعنا طاعته وفرقنا جماعته فنحن الى امام فعال أحوج منا الى امام قوال (وكتب اليه العباس الكاتب) ما يقول القاضي وفقه الله تعالى في يهودي زنى بنصرانية فولدت له ولدا جسمه للبشر ووجهه للبقر وقد قبض عليهما فما يرى القاضي فيهما (فكتب تحت سؤاله بديها) أنت

أنت على هذه الحالة لا تملك شيئا ونحن على ما ترى من الفاقة فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة وكان له ابنة صغيرة فقالت ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك دعوه يذهب حيث شاء فانه مناول الرزق وليس برزاق فذكرتهم ذلك فقالوا صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج وخرج مسافرا وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون لو سكت ما تكلمنا فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم ولا تخجلني معهم فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدا فانقطع عن عسكره وأصحابه فحصل له عطش شديد فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم فاستسقى منهم ماء وقرع الباب فقالوا من أنت قال الأمير ببابكم يستسقيكم فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت إلهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعا واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا ثم انها أخذت كوزا جديدا وملأته ماء وقالت للمتناول منها اعذرونا فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال هذه الدار لأمير فقالوا لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم فقال الأمير لقد سمعت به فقال الوزير يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئا وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعا فقال الأمير ونحن أيضا قد ثقلنا عليهم اليوم وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار ثم قال لأصحابه من أحبني فليلق منطقته فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ثم انصرفوا فقال الوزير السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير ودفع إليهم ثمن المناطق مالا جزيلا واستردها منهم فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديدا فقالوا لها ما هذا البكاء إنما يجب أن تفرحي فان الله قد وسع علينا فقالت يا أم والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعا فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة فأغنانا بعد فقرنا فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين اللهم انظر إلى أبينا ودبره بأحسن التدبير هذا ما كان من أمرهم وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فانه لما خرج محرما ولحق بالقوم توجع أمير الركب فطلبوا له طبيبا فلم يجدوا فقال هل من عبد صالح فدل على حاتم فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته فأمر له بما يركب وما يأكل وما يشرب فنام تلك الليلة مفكرا في أمر عياله فقيل له في منامه يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه ثم أخبر بما كان من أمر عياله فأكثر الثناء على الله تعالى فلما قضى حجه ورجع تلقته أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال صغار قوم كبار آخرين ان الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فانه من توكل على الله فهو حسبه * ومن كلام الحكماء من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه وجمع شمله وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كنت عند النبي ﷺ يوما فقال يا غلام اني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف (ورفع) إلى الرشيد أن بدمشق

هذا من أكبر الشهود على الملاعين اليهود فانهم أشربوا حب العجل في صدورهم حتى خرج من أيورهم وأرى أن يناط رأس اليهود برأس العجل ويصلب على عنق النصرانية الساق مع الرجل ويسحبان على الأرض وينادى عليهما ظلمات بعضها فوق بعض والسلام

(نادرة لطيفة) ولما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس قال لعيسى بن موسى الهادي أنت تعلم أن الخلافة صائرة إليك وأريد أن أسلمك عمي وعمك عبد الله بن علي فخذه واقتله وإياك أن تجبن في أمره ثم مضى المنصور إلى الحج وكتب إليه من الطريق يستحثه على ذلك فكتب إليه قد أنفذت أمر أمير المؤمنين وكان الأمر بخلاف ذلك فلم يشك أبو جعفر أنه قتله ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس فقال له ان المنصور دفع إلي عمه وأمرني بقتله فقال له يريد أن يقتلك به فانه أمرك بذلك سرا ويدعي به عليك علانية والرأي أن تستره في منزلك ولا تطلع عليه أحدا فان طلبه منك علانية دفعته إليه علانية ولا تدفعه إليه سرا أبدا ففعل ذلك وقدم المنصور فدس على عمومته من يحركهم أن يسألوا المنصور أن يهب لهم أخاهم عبد الله ففعلوا ذلك وكلموه فأجاب وقال نعم علي بعيسى بن موسى فأتاه فقال يا عيسى كنت دفعت إليك عمي وعمك عبد الله قبل خروجي إلى الحج وأمرتك أن يكون في منزلك مكرما قال قد فعلت ذلك قال قد كلمني فيه عمومتك فرأيت الصفح عنه

فأتى به قال يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله قال لا بل أمرتك بحبسه عندك ثم قال المنصور لعمومته إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم وادعى أني أمرته بذلك وقد كذب قالوا فادعه إلينا نقتله قال شأنكم فأخرجوه إلى صحن الدار واجتمع الناس واشتهر الأمر فقام أحدهم وشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه فقال عيسى لا تعجلوا فإن عمي حي ردوني إلى أمير المؤمنين فردوه إليه فقال يا أمير المؤمنين إنما أردت بقتله قتلي هذا عمك حي إن أمرتني بدفعه إليهم دفعته قال ائتنا به فأتي به فجعله في بيت فسقط عليه فمات وكان المنصور قد وضع في أساس البيت ملحا لما شرع في عمارته وأعده لهذا المعنى ولما جلس فيه عمه أجرى الماء في أساس البيت سرا بحيث لا يشعر به أحد فذاب الملح وسقط البيت وركب المنصور بعد موت عمه وفي خدمته عباس ابن المتوفى وكان يباسطه في كل وقت فقال له المنصور وهو يحادثه هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين قتلوا ثلاثة في أول أسمائهم عين قال لا أعرف إلا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين إن عليا قتل عثمان وكذبوا والله وعبد الملك ابن مروان قتل عبد الله ابن الزبير وسقط البيت على عم أمير المؤمنين قال فضحك المنصور وقال إذا سقط البيت على عمي فما ذنبي قال قلت مالك ذنب يا أمير المؤمنين وقتل عبد الله كان بسبب البيعة التي تقدمت له مع السفاح وشرحها يطول انتهى ٭ ونقلت من خط قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان ما صورته كامل

رجلا من بني أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند يخشى على المملكة منه وكان الرشيد يومئذ بالكوفة قال منارة خادم الرشيد فاستدعاني الرشيد وقال اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام وائتني بفلان الأموي وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به واذكر لي حاله ومآله وقد أجلتك لذهابك ستا ولمجيئك ستا ولاقامتك يوما أفهمت قلت نعم قال فسر على بركة الله فخرجت أطوي المنازل ليلا ونهارا لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق فلما فتح الباب دخلت قاصدا نحو دار الأموي فإذا هي دار عظيمة هائلة ونعمة طائلة وخدم وحشم وهيبة ظاهرة وحشمة وافرة ومصاطب متسعة وغلمان فيها جلوس فهجمت على الدار بغير إذن فبهتوا وسألوا عني فقيل لهم إن هذا رسول أمير المؤمنين فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواما محتشمين فظننت أن المطلوب فيهم فسألت عنه فقيل لي هو في الحمام فأكرموني وأجلسوني وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر وأنا أتفقد الدار وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان فسلم علي وسألني عن أمير المؤمنين فأخبرته أنه بعافية فحمد الله تعالى ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال تقدم يا منارة كل معنا فتأملت تأملا كثيرا إذ لم يكنني فقلت ما آكل فلم يعاودني ورأيت ما لم أره إلا في دار الخلافة ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيبا ولا أعطر رائحة ولا أكثر آنية منه فقال تقدم يا منارة فكل قلت ليس لي به حاجة فلم يعاودني ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحدا منهم عندي فحرت لكثرة حفدته وعدم من عندي فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر فأتم الركوع والسجود وأكثر من الركوع بعدها فلما فرغ استقبلني وقال ما أقدمك يا منارة فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ووضعه على رأسه ثم فضه وقرأه فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها فطار عقلي وما شككت أنه يريد القبض علي فقال الطلاق يلزمه والحج والعتق والصدقة وسائر أيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلني وقدم رجليه وقال هات يا منارة قيودك فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل وسرنا فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ويقول هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا فقلت يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه وقد أخرجت من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيدا فريدا وأنت تحدثني حديثا غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه وكان شغلك بنفسك أولى بك فقال إنا لله وإنا إليه راجعون لقد أخطأت فراستي فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا لوفور عقلك فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى فإن كان قد قضى علي بأمر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه وإن لم يكن قد قدر علي بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى وما لي ذنب فأخاف وإنما هذا واش وشى عند أمير المؤمنين ببهتان وأمير المؤمنين

كامل العقل فاذا اطلع على براءتى فهو لا يستحل مضرتى وعلى عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جوابا ثم أعرض عنى وأقبل على التلاوة ومازال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض فقال هات يامنارة أخبرني من يوم خروجك عنى إلى يوم قدومك على فابتدأت أحدثه بأمورى كلها مفصلة والغضب يظهر فى وجهه فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم وتفقدى لأصحابى فلم أجد منهم أحداً أسود وجه فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه فلما قلت انه قدم رجليه اسفر وجهه واستبشر فلما أخبرته بحديثى معه فى ضياعه وبساتينه وماقلت له وما قال لى قال هذا رجل محسود على نعمته ومكذوب عليه وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله اخرج اليه وانزع قيوده وفكه وأدخله على مكرما ففعلت فلما دخل قبل الأرض فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر اليه فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين سل حوائجك فقال سرعة رجوعى إلى بلدى وجمع شملى بأهلى وولدى قال هذا كائن فسل غيره قال عدل أمير المؤمنين فى عماله ما أحوجنى إلى سؤال قال فخلع عليه أمير المؤمنين ثم قال يامنارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذى أخذته منه قم فى حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك فانظر إلى حسن توكله على خالقه فانه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لباه ومن سأله أعطاه ما تمناه وروى أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة فى التوراة فكتبها وهى يا ابن آدم لا تخافن من ذى سلطان مادام سلطانى باقيا وسلطانى لا ينفد أبداً يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق مادامت خزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبدا يا ابن آدم لا تأنس بغيرى وأنا لك فان طلبتنى وجدتنى وإن أنست بغيرى فتك وفاتك الخير كله يا ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب وقسمت رزقك فلا تتعب وفى أكثر منه فلا تطمع ومن أقل منه فلا تجزع فان أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندى محموداً وان لم ترض بما قسمته لك فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البر ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك وكنت عندى مذموما يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع ولم أعى بخلقهن أيعيينى رغيف أسوقه لك من غير تعب يا ابن آدم أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محبا يا ابن آدم لا تطالبنى برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد فانى لم أنس من عصانى فكيف من أطاعنى وأنا على كل شىء قدير وبكل شىء محيط (قال الشاعر)

وما ثم إلا الله فى كل حالة * فلا تتكل يوما على غير لطفه
فكم حالة تأتى ويكرهها الفتى * وخيرته فيها على رغم أنفه

ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

توكل على الرحمن فى الأمر كله * فما خاب حقا من عليه توكلا
وكن واثقا بالله واصبر لحكمه * تفز بالذى ترجوه منه تفضلا

(الفصل الثانى فى القناعة والرضا بما قسم الله تعالى) جاء فى تفسير قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة أن المراد بها القناعة وقال ﷺ القناعة مال لا ينفد وقيل يارسول الله ما القناعة قال الاياس مما فى أيدى الناس وإياكم والطمع فانه الفقر الحاضر وكان سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه من القناعة بالجانب الأوفر وانه كان يشتهى الشىء فيدافعه سنة قال الكندى:

العبد حر ما قنع * والحر عبد ما طمع

نقلت من خط القاضى كمال الدين بن العديم من مسودة تاريخه أن ابن الدقاق البلنسى الشاعر المشهور كان يسهر الليل ويشتغل بالأدب وكان أبوه حداداً فقيراً فلامه وقال ياولدى نحن فقراء ولا طاقة لنا بالزيت الذى تسهر عليه فاتفق أنه برع فى العلم والأدب وقال الشعر وعمل فى أبى بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية قصيدة مطربة أولها:

ياشمس خدر مالها مغرب * وبدر تم قط لا يحجب

وقال منها:

ناشدتك الله نسيم الصبا * أين استقرت بعد نازينب
لم تسر إلا بشذا عرفها * أولا فماذا النفس الطيب

فاطلق له ثلثمائة دينار فجاء إلى أبيه وهو جالس فى حانوته منكب على صنعته فوضعها فى حجره وقال خذ هذه واشتر بها زيتا انتهى (حكى عن عبد العزيز بن الفضل) قال خرج القاضى أبو العباس أحمد بن عمر بن شريح وأبو بكر بن داود وأبو عبد الله نفطويه إلى وليمة فأفضى بهم الطريق إلى مكان ضيق فأراد كل منهم تقديم صاحبه عليه فقال ابن شريح ضيق الطريق يورث سوء الأدب فقال ابن داود لكنه تعرف به مقادير الرجال فقال نفطويه إذا استحكمت المودة بطلت التكاليف (وحكى عن شريح جد أبى العباس المشهور بالصلاح الوافر) أنه كان أعجميا لا يعرف بلسان العرب شيئا فاتفق له أنه رأى البارى عز وجل فى النوم فخاطبه وقال ياشريح طلبكن قال ياخداى سر بسار وهذا لفظ أعجمى معناه بالعربى ياشريح اطلب فقال يارب رأسا برأس

كما يقال رضيت أن أخلص رأسا برأس (ومن لطائف المنقول) أنه كان بالعقبة ظاهر دمشق المحروسة خان تجمع فيه أسباب
الملاذ وينفق فيه من الفسوق والفجور مالا يحد ولا يوصف فرجع ذلك إلى أبي الفتح موسى بن أبي بكر العادل
ابن أيوب الملقب بالأشرف فهدمه وعمره جامعا وسماه الناس جامع التوبة كأنه تاب إلى الله وأناب مما كان فيه وجرت في خطابته نكتة لطيفة وهو أنه كان بمدرسة الشام التي خارج البلد امام يعرف بالجمال قيل انه كان في زمان صباه يلعب بشيء من الملاهي وهي التي تسمى الجغانة ولما كبر حسنت طريقته وعاشر العلماء وأهل الصلاح حتى صار معدودا في الأخيار فلما احتاج الجامع المذكور إلى خطيب رشح جانبه للخطابة لكثرة الثناء عليه فتولاها فلما توفي تولى بعده العماد الواسطي الواعظ وكان متهما باستعمال الشراب وكان صاحب دمشق يومئذ الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن العادل أيوب فكتب اليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن رواحة أبياتا وهي هذه

يامليكا أوضح الـ ... حق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد حـ ... ـلني منه أمانه
قال قل للملك الصا ... لح أعلى الله شانه
يا عماد الدين يامن ... حمد الناس زمانه
كم الى كم أنا فيه ... مهد وضر واهانه
لي خطيب واسطي ... يعشق الشرب مجانه
والذي قد كان من قبـ ... ـل يغني بجغانه
فكما ضعي ولاية ... خطبة أبرح حالة

وقال بشر بن الحرث خرج فتى في طلب الرزق فبيناهو يمشي فأعيا فأوى إلى خراب يستريح فيه فبيناهو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فاذا هي :

إني رأيتك قاعدا مستقبلي ... فعلمت أنك للهموم قرين
هون عليك وكن بربك واثقا ... فأخو التوكل شأنه التهوين
طرح الأذى عن نفسه في رزقه ... لما تيقن أنه مضمون

قال فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل وقال اللهم أدبنا أنت قال الجاحظ إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة وفي ذلك بطلان المصالح وذهاب المعايش فكل صنف من الناس مزين لهم ماهم فيه فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيراً أو خلفا قال ويلك ياحجام والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال ويلك ياحائك فجعل الله تعالى الاختلاف سببا للائتلاف فسبحانه من مدبر قادر حكيم ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف كلبه معه في بيته لباسه شملة من وبر أوشعر ودواؤه بعر الابل وطيبه القطران وبعر الظباء وحلي زوجته الودع وثماره المقل وصيده اليربوع وهو في مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه يابني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فانها مال لا ينفد وإياك والطمع فانه فقر حاضر وعليك باليأس فانك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة فجاءه حماد بن أبي حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال هي من مال رجل ما أقدم عليه أحدا في زهده وورعه وطيب كسبه فقال لو كنت أقبل من أحد شيئا لقبلتها تعظيما للميت وإكراما للحي ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة وقال عيسى عليه الصلاة والسلام اتخذوا البيوت منازل والمساجد مساكن وكلوا من بقل البرية واشربوا من الماء القراح واخرجوا من الدنيا بسلام وأنشد المبرد :

إن ضن زيد بما في بطن راحته ... فالأرض واسعة والرزق مبسوط
ان الذي قدر الأشياء بحكمته ... لم ينسني قاعدا والرحل محطوط

قال لي عبد الواحد بن زيد ما أحسب أن شيئا من الاعمال يتقدم الصبر الا الرضا ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة قيل له متى يكون العبد راضيا عن ربه قال إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي فسكر يوما ففاتته الصلاة فجاءته جارية له بجمرة فوضعتها على رجله فانتبه مذعورا فقالت له إذا لم تصبر على نار الدنيا فكيف تصبر على نار الآخرة فقام فصلى الصلوات وتصدق بما يملكه وذهب يبيع البقل فدخل عليه فضيل وابن عيينة فاذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء فقالا له انه لم يدع أحد شيئا لله إلا عوضه الله منه بدلا فما عوضك عما تركت له قال الرضا بما أنا فيه وقال الثوري ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذل له وقال الفضيل من رضي بما قسم الله له بارك الله فيه وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول الشمس في الشتاء جلالي ونور القمر سراجي وبقل البرية فاكهتي وشعر الغنم لباسي أبيت حيث يدركني الليل ليس لي ولد يموت ولا بيت يخرب أنا الذي كببت الدنيا على وجهها :

ان القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق في ظلها هما يؤرقه

(وقال) عيسى عليه الصلاة والسلام انظروا إلى الطير تغدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فان زعمتم أنكم أكبر بطونا من الطير فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا

تحصد والله يرزقها * وقيل وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا اليه خلته فقال له ألست القائل :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي * إن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى اليه فيعييني تطلبه * ولو قعدت أتاني ليس يعييني

وقدجئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق فقال ياأمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت وخرج فركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعا فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال فى نفسه رجل من قريش قال حكمة ووفد على فجبهته ورددته خائبا فلما أصبح وجه إليه بألف دينار فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال فقال أبلغ أمير المؤمنين مني السلام وقل له كيف رأيت قولي سعيت فأكديت فرجعت فأتاني رزقي في منزلي ولما ولى عبدالله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصارى وثقفى فلماسارا تخلف الانصارى وقال الذى أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني فوفد الثقفى وقال اجوز الحظين فلما دخل على عبدالله بن عامر قال له مافعل زميلك الانصارى قال رجع إلى أهله فأمر للثقفى بأربعة آلاف دينار وبعث إلى الأنصارى بثمانية آلاف دينار فخرج الثقفى وهو يقول :

فوالله ماحرص الحريص بنافع * فيغني ولا زهد القنوع بضائر * خرجنا جميعا من مساقط روسنا على ثقة منا بجود ابن عامر * فلما أنخنا الناجعات ببابه * تخلف عنى اليثربى ابن جابر وقال ستكفيني عطية قادر * على مايشاء اليوم للخلق قاهر * فان الذى أعطى العراق ابن عامر لربى الذى أرجو لسد مفاقرى * فقلت خلالي وجهه ولعله * سيجعل لى حظ الفتى المتزاور

فلما رآني سأل عنه صبابة * اليه كما حنت ظؤار الأباعر
فأثنت وقد أيقنت أن ليس نافعا * ولا ضائرا شيء خلاف المقادر

قيل أوحي الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه أتدري لم رزقت الاحمق قال لا يارب قال ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال ولبعض العرب :

ولا تجزع إذا أعسرت يوما * فقد أيسرت في الزمن الطويل * ولا تظنن بربك ظن سوء فان الله أولى بالجميل * وان العسر يتبعه يسار * وقول الله أصدق كل قيل

فلو أن العقول تسوق رزقا * لكان المال عند ذوي العقول

وأوحى الله تعالى الى يوسف عليه الصلاة والسلام انظر الى الأرض فنظر اليها فانفجرت فرأى دودة على صخرة ومعها الطعام فقال له أتراني لم أغفل عنها وأغفل عنك وأنت نبي وابن نبي ودخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفا على باب المسجد أمسك على بغلتى فأخذ الرجل لجامها ومضى وترك البغلة فخرج على وفى يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على امساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام فركبها ومضى ودفع لغلامه درهمين يشترى بهما لجاما فوجد الغلام اللجام فى السوق قدباعه السارق بدرهمين فقال على رضي الله عنه إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له وقيل لراهب من أين تأكل فأشار إلى فيه وقال الذى خلق هذه الرحى يأتيها بالطحين وقال سلم بن المهاجر الجبلي :

كسوت جميل الصبر وجهي فصانه * به الله عن غشيان كل بخيل * فما عشت لم آت البخيل ولم أقم

ردنى للنمط الأول واستبق زمانه (ومن لطائف المنقول) أن بثينة وعزة دخلتا على عبد الملك بن مروان فانحرف إلى عزة وقال أنت عزة كثير قالت لست لكثير بعزة لكننى أم بكر قال أتروين قول كثير

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها
ومن ذا الذى ياعز لا يتغير

قالت لست أروى هذا ولكننى أروى قوله :

كأنى أنادى أو أكلم صخرة
من الصم لو تمشى بها العصم زلت

ثم انحرف إلى بثينة فقال أنت بثينة جميل قالت نعم يا أمير المؤمنين قال ماالذى رأى فيك جميل حتى لهج بذكرك من بين نساء العالمين قالت الذى رأى الناس فيك فجعلوك خليفتهم قال فضحك حتى بدا له ضرس أسود ولم ير قبل ذلك وفضل بثينة على عزة فى الجائزة ثم أمرهما أن يدخلا على عاتكة فدخلتا عليها فقالت لعزة أخبريني عن قول كثير

قضى كل ذي دين فوفى غريمه
وعزة ممطول معنى غريمها

ما كان دينه وما كنت وعدتيه قالت كنت وعدته قبلة ثم تأثمت منها قالت عاتكة وددت أنك فعلت وأنا كنت تحملت إثمها عنك ثم ندمت عاتكة واستغفرت الله تعالى وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة انتهى (ومن حسن قول أسامة بن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره)

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا * قسرا إلى الإقرار بالأقدار

على بابه يوما مقام ذليل * وان قليلا يستر الوجه أن يرى * الى الناس مبذولا لغير قليل

وصلى معروف الكرخي خلف إمام فلما فرغ من صلاته قال الامام لمعروف من أين تأكل قال اصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك قال ولم قال لان من شك في رزقه شك في خالقه وقال ابو حازم مالم يكتب لي لو ركبت الريح ماأدركته وقال عمر بن أبي عمر اليوناني :

غلا السعر في بغداد من بعد رخصه * وأني في الحالين بالله واثق
فلست أخاف الضيق والله واسع * غناه ولا الحرمان والله رازق

وقال القهستاني : غنى بلادنيا عن الخلق كلهم * وان الغنى الاعلى عن الشيء لا به

وقال منصور الفقيه : الموت أسهل عندي * بين القنا والاسنه * والخيل تجرى سراعا
مقطعات الاعنه * من أن يكون لنذل * على فضل ومنه

(وأنشد أعرابي) أيا مالك لا تسأل الناس والتمس * بكفيك فضل الله فالله أوسع
ولو تسأل الناس التراب لأوشكوا * إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصني قال عليك باليأس مما في أيدي الناس وإياك والطمع فانه فقر حاضر وقيل إذا وجدت الشيء في السوق فلا تطلبه من صديقك وقيل لأعرابية من أين معاشكم قالت لو لم نعش الا من حيث نعلم لم نعش وقال أعرابي أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك

وقال المعرى : إذا كنت تبغى العيش فابغ توسطا * فعند التناهي يقصر المتطاول
توقى البدور النقص وهي أهلة * ويدركها النقصان وهي كوامل

(وقال آخر) اقنع بأيسر رزق أنت نائله * واحذر ولا تتعرض للارادات
فما صفا البحر الا وهو منتقص * ولا تعكر الا في الزيادات

وقال أعرابي استظهر على الدهر بخفة الظهر قال هشام بن ابراهيم البصرى :

وكم ملك جانبته عن كراهة * لاغلاق باب أو لتشديد حاجب
ولي في غنى نفسي مراد ومذهب * إذا انصرفت عني وجوه المذاهب

وقيل ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو الى الوليمة ان أتته صحفة تناولها وان لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها . وقال شقيق بن ابراهيم البلخي قال لي ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أخبرني عما أنت عليه قلت ان رزقت أكلت وان منعت صبرت قال هكذا تعمل كلاب بلخ فقلت كيف تعمل أنت قال ان رزقت آثرت وان منعت شكرت وقال بعضهم :

هي القناعة فالزمها تعش ملكا * لو لم يكن منك الا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها * هل راح منها بغير القطن والكفن

(وقال آخر) وان القناعة كنز الغنى * فصرت بأذيالها ممتسك * فلا ذا يراني على بابه
ولا ذا يراني له منهمك * فصرت غنيا بلا درهم * أمر على الناس شبه الملك

جاء فتح الموصلي الى أهله بعد العتمة فلم يجد عندهم شيئا للعشاء ولم يجد عندهم سراج فجلس ليلته يبكي من الفرح ويقول بأي يد كانت مني تركت مثلي على هذه الحالة والله تعالى أعلم

﴿الفصل الثالث في ذم الحرص والطمع وطول الأمل﴾ قال الله تعالى ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر

ما أوقد ابن طليب قط بداره * نارا وكان حريقها بالنار

قلت ومما يناسب هذه الواقعة ان الوجيه بن صورة دلال الكتب بمصر كان له دار موصوفة بالحسن فاحترقت فعمل فيها نشو الملك المعروف بابن المنجم

أقول وقد عاينت دار ابن صورة * وللنار فيها مارج يتضرم
كذا كل مال أصله من نهاوش * فعما قليل في نهابر يعدم
وما هو الا كافر طال عمره * فجاءته لما استبطأته جهنم

قلت وهذه اللطائف تضارع قصة أبي الحسين الجزار مع بعض أهل الأدب بمصر وكان شيخا قد ظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت فلما سمع أبو الحسين الجزار بذلك كتب اليه :

أيها السيد الاديب دعاء * من محب خال عن التنكيت
أنت شيخ وقد قربت من النا * ر فكيف ادهنت بالكبريت

(قيل) إن أبا القاسم الزعفراني مدح الصاحب ابن عباد بقصيدة نونية وانتهى إلى قوله منها

وحاشية الدار يمشون في * صنوف من الخز إلا أنا

قال الصاحب قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني أن رجلا قال له احملني أيها الأمير فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ثم قال لو علمت أن الله سبحانه وتعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك عليه وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وعمامة ودراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس وروى

ولو علمنا لباسا من الخز لأعطيناكه (وبلغ) حديث معن المذكور للعلاء بن أيوب فقال رحم الله ابن زائدة لو كان يعلم أن الغلام يركب لأمر له به ولـكنه كان عربيا خالصا لم يدنس بقاذورات الأعاجم انتهى (قيل) ان بيوت الشعر أربعة فخر ومديح وهجاء ونسيب وكان جرير أخل شعراء الاسـلام في الاربعـة

(فالفخر قوله)

إذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضابا

(والمديح قوله)

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح

(والهجاء قوله)

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

(والنسيب قوله)

ان العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

(وقال أبو عبيدة) التقى جرير والفرزدق بمنى وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير:

فانك لاق بالمنازل من منى
فخاراً فأخبرنى بما أنت فاخر

فقال له جرير بلبيك اللهم لبيك قال أبو عبيدة أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويعجبون منه (قيل) لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وفد الشعراء اليه وأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم فبينما هم كذلك إذ مر بهم رجاء بن حيوة وكان جليس عمر

وروى أن النبي ﷺ قرأ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت وتصدقت فأمضيت وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال ياعائشة ان أردت اللحوق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلق ثوبا حتى ترقعيه وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل وقيل الحرص ينقص من قدر الانسان ولا يزيد فى رزقه وقيل لحكيم مابال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب قال لأنه ذاق من طعم الدنيا مالم يذقه الشاب وما أحسن ماقال بعضهم:

إذا طاوعت حرصك كنت عبداً * لـكل دنيئة تدعى اليها

(وقال آخر وأجاد)

قد شاب رأسى ورأس الدهر لم يشب * إن الحريص على الدنيا لفى تعب

وقيل للاسكندر ماسرور الدنيا قال الرضا بما رزقت منها قيل فما غمها قال الحرص عليها وقال الحسن لو رأيت الاجل ومروره لنسيت الأمل وغروره وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر ان أسامة لطويل الامل وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان نبي الله ﷺ يخرج فيبول ثم يمسح بالتراب فأقول إن الماء منك قريب فيقول مايدريني لعلى ما أبلغه وعن أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه لايزال الكبير شابا فى اثنين حب المال وطول الامل وقيل لمحمد بن واسع كيف تجدك قال قصير الاجل طويل الامل مسيء العمل وقيل من جرى فى عنان أمله كان عاثرا بأجله لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان فى قوله

وذى حرص تراه يلم وفراً * لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاو * فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن من قال فى الجناس الحقيق

إذا ما نازعتك النفس حرصا * فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه * وعد فرزق يومك رزق أمسك

ومن كلام الحكماء إياكم وطول الامل فان من ألهاه أمله أخزاه عمله قال عبد الصمد بن المعذل

ولى أمل قطعت به الليالى * أرانى قد فنيت به وداما

قال الحسن اياكم وهذه الامانى فانه لم يعط أحد بالأمنية خيرا قط فى الدنيا ولا فى الآخرة (قال قس بن ساعدة)

وما قد تولى فهو لاشك فائت * فهل ينفعنى ليتنى ولعلنى

(وقال آخر) ولا تعلل بالامانى فانها * عطايا أحاديث النفوس الكواذب

(وقال آخر وأجاد) الله أصدق والآمال كاذبة * وجل هذى المنى فى الصدر وسواس

(وقال آخر) شط المزار بسعدى وانتهى الامل * فلا خيال ولا رسم ولا طلل

الا رجاء فما ندرى أندركه * أم يستمر فيأتى دونه الاجل

(وقال أبو العتاهية) لقد لعبت وجد الموت فى طلبي * وان فى الموت لى شغلا عن اللعب

لو شمرت فكرتي فيما خلقت له * ما اشتد حرصي على الدنيا ولا طلبي

(وله أيضا) تعالى الله ياسلم بن عمرو * أذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تقاد اليك عفوا * أليس مصير ذلك للزوال

﴿ وقد ضمنت البيت الأخير فقلت ﴾

أيا من عاش فى الدنيا طويلا * وأفنى العمر فى قيل وقال * وأتعب نفسه فيما سيفنى
وجمع من حرام أو حلال * هب الدنيا تقاد اليك عفوا * أليس مصير ذلك للزوال

(ومما جاء فى الطمع وذمه) قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع وقال رضى الله عنه ما الخمر صرفا بأذهب لعقول الرجال من الطمع وفى الحديث إياك والطمع فانه الفقر الحاضر وقال فيلسوف العبيد ثلاثة عبد رق وعبد شهوة وعبد طمع وقال بعضهم من أراد أن يعيش حرا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع * وقيل اجتمع كعب وعبد الله بن سلام فقال له كعب يا ابن سلام من أرباب العلم قال الذين يعملون به قال فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج إلى الناس * واجتمع الفضيل وسفيان وابن كريمة اليربوعى فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء الحرص والطمع والحسد فهى تجرى فى أولاده إلى يوم القيامة فالعاقل يخفيها والجاهل يبديها ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه قال اسمعيل بن قطرى القراطيسى :

حسبي بعلمى إن نفع * ما الذل إلا فى الطمع * من راقب الله نزع
عن سوء ما كان صنع * ما طار طير وارتفع * إلا كما طار وقع

(وقال سابق البربري)

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى * سفاها وريب الدهر عنها يخادعه
ويطمع في سوف ويهلك دونها * وكم من حريص أهلكته مطامعه

وقيل لاشعب ما بلغ من طمعك قال أرى دخان جارى فأفت خبزى وقال أيضا ما رأيت رجلين يتساران فى جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لى بشىء من ماله وما زفت عروس إلا كنست بيتى رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إلىّ قال بعضهم

لا تغضبن على امرىء * لك مانع ما فى يديه
واغضب على الطمع الذى استدعاك تطلب ما لديه

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الحادى عشر فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب ﴾

قال الله تعالى لنبيه ﷺ وشاورهم فى الأمر واختلف أهل التأويل فى أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه أحدها أنه أمره بها فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل عليه وهذا قول الحسن ثانيها أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل وهذا قول الضحاك ثالثها أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وإن كان فى غنية عن مشورتهم وهذا قول سفيان وقال ابن عيينة كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمرا شاور فيه الرجال وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين من الخالق مدبر أمره ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس وإن كان عالما وقال عليه الصلاة والسلام

فلما رآه جرير داخلا قام اليه وأنشده يا أيها الرجل المرخى عمامته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا فدخل عليه ولم يذكر له شيئا من أمرهم ثم مر بهم عدى بن أرطاة فقال جرير أبياتا آخرها قوله

لا تنس حاجتنا لقيت مغفرة
قد طال مكثى عن أهلى وأوطانى

قال فدخل عدى على عمر فقال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة قال ويحك يا عدى مالى وللشعراء قال أعز الله أمير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح وأعطى ولك فى رسول الله عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة قال كيف قال امتدحه العباس ابن مرداس السلمي فأعطاه حلة فقطع بها لسانه قال أو تروى من قوله شيئا قال نعم قوله :

رأيتك يا خير البرية كلها
نشرت كتابا جاء بالحق معلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا
عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان أمرا مدلسا
وأطفأت بالاسلام نارا تضرما
فمن مبلغ عنى النبي محمدا
وكل امرىء يجزى بما كان قدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه
وكان قديما ركنه قد تهدما

فقال عمر ويلك يا عدى من بالباب منهم قال عمر بن أبى ربيعة قال أليس هو الذى يقول

ثم نبهتها فمدت كعابا
طفلة ما تبين رجع الكلام

ما خاب

ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا افتقر من اقتصد وقال عليه الصلاة والسلام من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل وكان يقال ما استنبط الصواب بمثل المشاورة وقال حكيم المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأى • وقال الحسن الناس ثلاثة فرجل رجل ورجل نصف رجل ورجل لا رجل فأما الرجل الرجل فذو الرأى والمشورة وأما الرجل الذي هو نصف رجل فالذى له رأى ولا يشاور وأما الرجل الذى ليس برجل فالذى ليس له رأى ولا يشاور وقال المنصور لولده خذ عنى ثنتين لا تقل فى غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير وقال الفضل المشورة فيها بركة وانى لأستشير حتى هذه الحبشية الاعجمية وقال اعرابى لا مال أوفر من العقل ولا فقر أعظم من الجهل ولا ظهر أقوى من المشورة وقيل من بدأ بالاستخارة وثنى بالاستشارة فحقيق أن لا يخيب رأيه وقيل الرأى السديد أحمى من البطل الشديد (قال أبو القاسم النهروندى)

وما ألف مطرور السنان مسدد • يعارض يوم الروع رأيا مسددا

وقال على رضي الله عنه خاطر من استغنى برأيه وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة • فان فساد الرأى أن تترددا

فأضاف اليه قوله

وان كنت ذا عزم فانفذه عاجلا • فان فساد العزم أن يتقيدا

ولمحمد بن ادريس الطائى

ذهب الصواب برأيه فكأنما • آراؤه اشتقت من التأييد
فاذا دجا خطب تبلج رأيه • صبحا من التوفيق والتسديد

ولمحمد الوراق :

ان اللبيب اذا تفرق أمره • فتق الأمور مناظرا او مشاورا
وأخو الجهالة يستبد برأيه • فتراه يعتسف الامور مخاطرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الامين على المأمون فى العهد :

لقد بان وجه الرأى لى غير أننى • عدلت عن الامر الذى كان أحزما • فكيف يرد الدر فى الضرع بعدما توزع حتى صار نهبا مقسما • أخاف التواء الامر بعد استوائه • وان ينقض الحبل الذى كان ابرما

(وقال آخر) خليلى ليس الرأى فى جنب واحد • أشيرا على اليوم ما تريان

ووصف رجل عضد الدولة فقال له وجه فيه ألف عين وفم فيه ألف لسان وصدر فيه ألف قلب وقال ازدشير بن بابك أربعة تحتاج الى أربعة الحسب الى الادب والسرور الى الامن والقرابة الى المودة والعقل الى التجربة وقال لا تستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقير فان الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها وقال جعفر بن محمد لا تكونن أول مشير واياك والرأى الخطير وتجنب ارتجال الكلام ولا تشيرن على مستبد برأيه ولا على متلون ولا على لجوج وقيل ينبغى أن يكون المستشار صحيح العلم مهذب الرأى فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب وكم ناقد فى شىء ضعيف فى غيره قال أبو الأسود الدؤلى : وما كل ذى نصح بمؤتيك نصحه • وما كل مؤت نصحه بلبيب

ولكن اذا ما استجمعا عند واحد • فحق له من طاعة بنصيب

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وانما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى منها لئلا يقع بين المستشارين منافسة فتذهب اصابة الرأى لأن من طباع المشتركين فى الأمر التنافس والطعن من بعضهم فى بعض وربما سبق أحدهم بالرأى الصواب فحسدوه وعارضوه وفي اجتماعهم أيضا للمشورة تعريض السر للاذاعة فاذا كان كذلك وأذيع

ساعة ثم انها بعد قالت • ويلنا قد عجلت يا ابن الكرام • فلو كان عدو الله اذ فر كتم على نفسه لكان أستره لا يدخل والله على أبدا فمن بالباب سواه قال الفرزدق قال أو ليس الذى يقول هما دلياني من ثمانين قامة

كما انقض باز أقتم الريش كاسره •
فلما استوت رجلاى فى الارض قالتا
أحى فيرجى أم قتيل نحاذره
لا يدخل على والله فمن بالباب سواه قال الأخطل قال يا عدى هو الذى يقول
ولست بصائم رمضان طوعا
ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عيسا بكورا
الى بطحاء مكة للنجاح
ولست بزائر بيتا عتيقا
بمكة أبتغى فيه صلاحى
ولست بقائم بالليل أدعو
قبيل الصبح حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا
وأسجد عند مبتلج الصباح
والله لا يدخل على وهو كافر أبدا فمن بالباب سوى من ذكرت قال الاحوص قال أليس الذى يقول
الله بينى وبين سيدها
يفر منى بها وأتبعه
فما هو بدون من ذكرت فمن هنا أيضا قال جميل ابن معمر قال أليس هو الذى يقول
ألا ليتنا نحيا جميعا وان أمت
يوافق فى الموتى ضريحى ضريحها • فلو كان عدو الله تمنى لقاءها • فى الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحا لكان أصلح والله لا يدخل على أبدا فهل سوى من ذكرت أحد قال جرير قال أما هو الذي يقول طرقتك صائدة القلوب وليس ذا •

المرء لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للابهام فان عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد وان عفا عنهم ألحق الجاني بمن لا ذنب له وقيل اذا أشار عليك صاحبك برأي ولم تحمد عاقبته فلا تجعلن ذلك عليه لوما وعتابا بأن تقول أنت فعلت وأنت أمرتني ولولا أنت فهذا كله ضجر ولوم وخفة ❊ وقال أفلاطون اذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة لانه بالاستشارة قد خرج من عداوتك الى موالاتك وقيل من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن بذر في السباخ قال الشاعر يمدح من له رأي و بصيرة

بصير بأعقاب الأمور كأنما ❊ يخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز المشورة راحة لك وتعب على غيرك وقال الاحنف لا تشاور الجائع حتى يشبع ولا العطشان حتى يروى ولا الاسير حتى يطلق ولا المقل حتى يجد (ولما) أراد نوح بن مريم قاضي مرو أن يزوج ابنته استشار جاراً له مجوسياً فقال سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتيني قال لا بد أن تشير علي قال إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ورئيس العرب كان يختار الحسب ورئيسك محمد كان يختار الدين فانظر لنفسك بمن تقتدي و كان يقال من أعطي أربعا لم يمنع أربعا من أعطي الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب وقال اذا استخار الرجل ربه واستشار صحبه و أجهد رأيه فقد قضى ما عليه و يقضي الله تعالى في أمره ما يحب وقال بعضهم خمير الرأي خير من فطيره و تقديمه خير من تأخيره ❊ وقالت الحكماء لا تشاور معلما ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ولا خائفا ولا حاقنا وقيل سبعة لا ينبغي لصاحب لب أن يشاورهم جاهل وعدو وحسود ومراء وجبان وبخيل وذو هوى فان الجاهل يضل والعدو يريد الهلاك والحسود يتمنى زوال النعمة والمرائي واقف مع رضا الناس والجبان من رأيه الهرب والبخيل حريص على جمع المال فلا رأي له في غيره وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته (ويحكى) أن رجلا من أهل يثرب يعرف بالأسلمي قال ركبني دين أثقل كاهلي وطالبني به مستحقوه واشتدت حاجتي الى ما لا بد منه وضاقت علي الارض ولم أهتد الى ما أصنع فشاورت من أثق به من ذوي المودة والرأي فأشار علي بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق فقلت له تمنعني المشقة وبعد الشقة وتيه المهلب ثم اني عدلت عن ذلك المشير الى استشارة غيره فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الاول فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له أصلح الله الأمير إني قطعت اليك الدهنا وضربت أكباد الابل من يثرب فانه أشار علي بعض ذوي الحجى والرأي بقصدك لقضاء حاجتي فقال هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة فقلت لا ولكني رأيتك أهلا لقضاء حاجتي فان قمت بها فأهل لذلك أنت وان يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم أيأس من غدك فقال المهلب لحاجبه اذهب به وادفع اليه ما في خزانة مالنا الساعة فأخذني معه فوجدت في خزانته ثمانين ألف درهم فدفعها الي فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحا وسرورا ثم عاد الحاجب به اليه مسرعا فقال هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك فقلت نعم أيها الأمير وزيادة فقال الحمد لله على نجح سعيك واجتنائك جنى مشورتك وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا قال الأسلمي فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه

يا من على الجود صاغ الله راحته ❊ فليس يحسن غير البذل والجود ❊ عمت عطاياك أهل الارض قاطبة ❊

وقت الزيارة فارجعي بسلام فان كان ولا بد فرحه الله يدخل فلما مثل بين يديه قال يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقا فأنشده قصيدته الرائية المشهورة التي منها إنا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر نال الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر هذي الارامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الارمل الذكر الخير ما دمت حيا لا يفارقنا بوركت يا عمر الخيرات من عمر فقال يا جرير ما أرى لك فيما ههنا حقا قال بلى يا أمير المؤمنين إني ابن سبيل ومنقطع فقال له ويحك يا جرير قد ولينا هذا الامر ولا نملك إلا ثلثمائة درهم فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله يا غلام أعطه المائة الباقية قال فأخذها جرير وقال والله لهي أحب مال اكتسبته ثم خرج فقال له الشعراء ما وراءك فقال ما يسوءكم خرجت من عند خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء واني عليه لراض وأنشد:

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه ❊ وقد كان شيطاني من الجن راقيا

(ومن لطائف الطرف) ما حدث ابراهيم بن المهدي قال قال لي جعفر يوما إني استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غدا فهلا أنت مساعدي فقلت جعلت فداك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمحادثتك قال فبكر الى بكور

الغراب قال فأتيته عند الفجر فوجدت الشمعة بين يديه وهو ينتظرنى للميعاد فصلينا ثم أفضينا إلى الحديث وقدم الطعام فأكلنا فلما غسلنا أيدينا خلعت علينا ثياب المنادمة ثم ضمخنا بالخلوق ومدت الستائر ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب فقال إذا أتى عبد الملك فائذن له يعني قهرمانا له فاتفق أن جاء عبد الملك بن صالح الهاشمى شيخ الرشيد وهو من جلالة القدر والورع والامتناع من منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل وكان الرشيد قد اجتهد أن يشرب معه قدحا واحدا فلم يقدر عليه ترفعا لنفسه فلما رفع الستر وطلع علينا سقط فى أيدينا وعلمنا أن الحاجب قد غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان فأعظم جعفر ذلك وارتاع له ثم قام اجلالا له فلما نظر إلى تلك الحال دعا غلامه فدفع إليه سيفه وعمامته ثم قال اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال فجاء إليه الغلمان فطرحوا عليه الثياب الحرير وضمخوه ودعي بالطعام فطعم وشرب ثلاثا ثم قال ليخفف عنى فانه شىء ما شربته والله فتهلل وجه جعفر وفرح ثم التفت إليه فقال جعلت فداك بالغت فى الخير والفضل فهل من حاجة تبلغ إليها قدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها مكافأة لما صنعت قال على ان فى قلب أمير المؤمنين على غضبا فتسأله الرضا عنى فقال له جعفر قد رضى أمير المؤمنين عنك ثم قال وعلى عشرة آلاف دينار فقال هى لك حاضرة من مالى ومن مال أمير المؤمنين مثلها ثم قال وابنى ابراهيم أحب أن أشد ظهره بصهر من أمير

فأنت والجود منحوتان من عود * من استشار فباب النجح منفتح * لديه فيما يضاه غير مردود

ثم عدت إلى المدينة فقضيت دينى ووسعت على أهلى وجازيت المشير على وعاهدت الله تعالى ألا أترك الاستشارة فى جميع أمورى ما عشت (وحكى) عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن على وكان واليا على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه وأوحشه منه وصرف وجه ميله إليه عنه فتألم المنصور من ذلك وساءظنه وتأرق جفنه وقل أمنه وتزايد خوفه وحزنه فأدته فكرته إلى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته وستره واستحضر ابن عمه عيسى ابن موسى وأجراه على عادة اكرامه ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل على عيسى وقال يا ابن العم انى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعدا لى على حمل ثقله فهل أنت فى موضع ظنى بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى فقال له عيسى بن موسى أنا عبد أمير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه فقال إن عمى وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه وفى قتله صلاح ملكنا فخذه إليك واقتله سرا ثم سلمه إليه وعزم المنصور على الحج مضمرا أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه إلى أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصا فيكون قد استراح من الاثنين عبد الله وعيسى قال عيسى فلما أخذت عمى وفكرت فى قتله رأيت من الرأى أن أشاور فى قضيته من له رأى عسى أن أصيب الصواب فى ذلك فأحضرت يونس بن قرة الكاتب وكان لى حسن ظن فى رأيه وعقيدة صالحة فى معرفته فقلت له إن أمير المؤمنين دفع إلى عمه عبد الله وأمرنى بقتله واخفاء أمره فما رأيك فى ذلك وما تشير به فقال لى يونس أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين فانى أرى لك أن تدخله فى مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه وتجعل دونه مغالق وأبوابا وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته وأنفذت أمره فيه وانتهيت إلى العمل بطاعته فكأنى به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه أمرك باحضاره على رؤس الاشهاد فان اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك وآخذك بقتله وقتلك قال عيسى بن موسى فقبلت مشورة يونس وعملت بها وأظهرت لأمير المؤمنين انى أنفذت أمره ثم حج المنصور فلما قدم من حجه وقد استقر فى نفسه أنى قد قتلت عمه عبد الله دس إلى عمومته أخوة عبد الله وحثهم على أن يسألوه فى أخيهم ويستوهبوه منه فجاؤا إليه وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم فسألوه فى عبد الله فقال نعم إن حقوقكم تقتضى اسعافكم بحاجتكم كيف وفيها صلة رحم واحسان إلى من هو فى مقام الوالد ثم أمر باحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته فقال يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجى إلى الحج عمى عبد الله ليكون عندك فى منزلك إلى حين رجوعى فقال عيسى قد فعلت يا أمير المؤمنين فقال المنصور قد سألنى فيه عمومتك وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم باجابة سؤالهم فيه فائتنا به الساعة قال عيسى فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرنى بقتله والمبادرة إلى ذلك قال كذبت ما أمرتك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته قد أقر بقتل أخيكم مدعيا أنى أمرته بقتله وقد كذب على قالوا يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه فقال شأنكم به قال عيسى فأخذونى إلى الرحبة واجتمع الناس على وقام واحد من عمومتى إلى وسل سيفه ليضربنى به فقلت له يا عم أفاعل أنت قال إى والله

المؤمنين قال قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية قال وأحب أن تخفق على رأسه الالوية قال قد ولاه أمير المؤمنين مصر فانصرف عبد الملك بن صالح قال ابراهيم بن المهدى فبقيت متحيرا متعجبا من إقدام جعفر على أمير المؤمنين من غير استئذان وقلت عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضا والمال والولاية ولكن من أطلق لجعفر أو لغيره تزويج بنات الرشيد فلما كان من الغد بكرت الى باب الرشيد لأرى مايكون فدخل جعفر فلم يلبث حتى دعا بأبى يوسف القاضى وابراهيم بن عبد الملك ابن صالح فخرج ابراهيم وقد عقد نكاحه بالعالية بنت الرشيد وعقد له على مصر الرايات والألوية بين يديه وحملت البدر الى منزل عبد الملك وخرج جعفر فأشار الينا فقال تعلقت قلوبكم بحديث عبد الملك فأحببتم علم آخره فلما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال كيف كان يومك ياجعفر فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك وكان متكئا فاستوى جالسا وقال إيه ولله أبوك فقلت سألنى فى رضا أمير المؤمنين قال فبم أجبت قلت قد رضى أمير المؤمنين عنك قال قد رضيت ثم ماذا قلت وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار قال فبم أجبته قلت قد قضاها أمير المؤمنين عنك قال قد مضيت قلت وذكر أنه راغب فى أن يشد ظهر ولده ابراهيم بصهر منك قال فبم أجبته قلت قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية قال قد أمضيت ذلك ثم ماذا لله أبوك قلت وذكر أنه يشتهى أن تخفق على رأس ولماذ

كيف لا أقتلك وقد قتلت أخى فقال لهم لا تعجلوا وردونى الى أمير المؤمنين فردونى اليه فقلت يا أمير المؤمنين انما أردت قتلى بقتله والذى دبرته على عصمنى الله تعالى من فعله وهذا عمك باق حى فان أمرتنى بدفعه اليهم دفعته الساعة فاطرق المنصور وعلم أن ريح فكره صادفت إعصارا وأن انفراده بتدبيره قارف خسارا ثم رفع رأسه وقال ائتنا به فمضى عيسى وأحضر عبد الله فلما رآه المنصور قال لعمومته أتركوه عندى وانصرفوا حتى أرى فيه رأيا قال عيسى فتركته وانصرفت وانصرف اخوته فسلمت روحى وزالت كربتى وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها ثم ان المنصور أسكن عبد الله فى بيت أساسه قد بنى على الملح ثم أرسل الماء حوله ليلا فذاب الملح وسقط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن سهام مراميها البعيدة

(ومما جاء فى النصيحة) اعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين قال الله تعالى إخبارا عن نوح عليه الصلاة والسلام ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون وقال شعيب عليه السلام ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين وقال صالح عليه السلام ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قالوا لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم * فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهرا وباطنا والرغبة فى محابه والبعد عن مساخطه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد فى رد العصاة الى طاعته قولا وفعلا * والنصيحة لكتابه إقامته فى التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم ما فيه والذب عنه من تأويل المحرفين وطعن الطاعنين وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين قال الله تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب * والنصيحة للرسول عليه السلام إحياء سنته بالطلب لها وإحياء طريقته فى بث الدعوة وتأليف الكلمة والتخلق بالأخلاق الطاهرة * والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما كلفوا القيام به وتنبيههم عند الغفلة وإرشادهم عند الهفوة وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء وإعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم فى الرعية وسد خلتهم عند الحاجة ورد القلوب النافرة اليهم * والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم وتوقى ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوسواس عليهم (واعلم) أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم وقال ميمون ابن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قل لى فى وجهى ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره وفى منثور الحكم ودك من نصحك وقلاك من مشى فى هواك وقال أبو الدرداء رضى الله عنه إن شئتم لأنصحن لكم ان أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله تعالى إلى عباده ويعملون فى الأرض نصحا ولورقة بن نوفل:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم * انى النذير فلا يغرركم أحد
لا شىء مما ترى تبقى بشاشته * لا الاله ويردى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد إنى قد أعددتك لأمر قال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قد أعد لك منى قلبا معقودا بنصيحتك ويدا مبسوطة لطاعتك وسيفا مجردا على عدوك وأنشد الأصمعى

النصح أرخص ما باع الرجال فلا * تردد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لا تخفى مناهلها * على الرجال ذوى الألباب والفهم

ولمعاذ بن مسلم:

نصحتك والنصيحة ان تعدت * هوى المنصوح عز لها القبول
تخالف الذى لك فيه حظ * فنالك دون ما أملت غول

وقيل أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده فى يد الحجاج فلم يقبل منه وسار اليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتك أمرا حازما فعصيتنى * فأصبحت مسلوب الامارة نادما * أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر
فنفسك أول اللوم إن كنت لائما * فما أنا بالباكى عليك صبابة * وما أنا بالداعى لترجع سالما

ويقال من اصفر وجهه من النصيحة اسود لونه من الفضيحة وقال طرفة:

ولا ترفدن النصح من ليس أهله * وكن حين تستغنى برأيك غانيا
وان امرأ يوما تولى برأيه * فدعه يصيب الرشد أو يك غاويا

وفى مثله قال بعضهم من الناس من إن يستشرك فتجتهد * له الرأى يستغششك ما لم تتابعه
فلا تمنحن الرأى من ليس أهله * فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الثانى عشر فى الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك﴾

قال الله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن وقال الله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون وقال تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات والآيات فى ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة وروينا فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وقال شيخنا محيى الدين النووى رحمة الله تعالى عليه فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ان هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب فى معناها أنكم اذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والآية مرتبة فى المعنى على قوله تعالى ما على الرسول إلا البلاغ * وقال محمد بن تمام الموعظة جند من جنود الله تعالى ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط ان استمسك نفع وان وقع أثر * ومن كلام على رضى الله تعالى عنه لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة الا إذا بالغت فى ايلامه فان العاقل يتعظ بالأدب والبهائم لا تتعظ الا بالضرب وأنشد الجاحظ

وليس يزجركم ما توعظون به * والبهم يزجرها الراعى فتنزجر

وكتب رجل الى صديق له أما بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك واستح من الله بقدر قربه منك وخفه بقدر قدرته عليك والسلام وقيل من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ وقال لقمان الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير * قيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام انك ان أتيتنى بعبد آبق كتبتك عندى حميدا ومن كتبته عندى حميدا لم أعذبه بعدها أبدا وقال الرشيد لمنصور بن عمار عظنى وأوجز فقال يا أمير المؤمنين هل أحد أحب اليك من نفسك قال لا قال ان أردت أن لا تسىء الى من تحب فافعل وقال النبى ﷺ فى بعض خطبه أيها الناس الأيام تطوى والأعمار تفنى والأبدان فى الثرى

ولده ابراهيم الالوية قال فبم أجبته قلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر قال قد وليته فأحضر ابراهيم القضاة والفقهاء وأتم له جميع ذلك من ساعته قال ابراهيم بن المهدى فوالله ما أدرى أيهم أكرم وأعجب ما أجده عبد الملك من الموافقة وشرب الخمر ولم يكن شربها قط ولباسه ما ليس من لبسه من ثياب المنادمة أم إقدام جعفر على الرشيد بما أقدم أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر عليه (ومن لطائف المنقول) ما حكى عن أبى معشر البلخى المنجم الامام المصنف صاحب التصانيف المفيدة فى علم النجوم قيل إنه كان متصلا بخدمة بعض الملوك وان ذلك الملك طلب رجلا من أتباعه وأكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه فاستخفى وعلم أن أبا معشر يدل عليه بالطريقة التى يستخرج بها الخبايا والأشياء الكامنة فأراد أن يعمل شيئا حتى لا يهتدى اليه ويبعد عنه حديثه فأخذ طستا وجعل فيه دما وجعل فى الدم هاون ذهب وقعد على الهاون أياما وتطلبه الملك وبالغ فى الطلب فلما عجز عنه أحضر أبا معشر وطلب منه اظهاره فعمل المسألة التى يستخرج بها وسكت زمانا حائرا فقال له الملك ما سبب سكوتك وحيرتك فقال أرى شيئا عجيبا فقال وما هو قال أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل فى بحر من دم ولا أعلم فى العالم موضعا على هذه الصفة فقال له أعد نظرك ففعل ثم قال ما أرى الا ما ذكرت وهذا شىء ما وقع لى مثله فلما أيس الملك من تحصيله نادى فى البلد بالأمان للرجل ولمن أخفاه فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين

تبلى وان الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ويقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد في ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات * ولما لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له قد كنت أحب ان القاك فعظني فقرأ الحسن البصري أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما اغنى عنهم ما كانوا يمتعون فقال عليك السلام ابا سعيد لقد وعظتني أحسن موعظة * ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله عليا رضي الله عنه دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وقال اوصيكما بتقوى الله تعالى والرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا ولا تأسفا على شيء فاتكما منها فانكما عنها راحلان افعلا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ثم دعا محمدا ولده وقال له أما سمعت ما أوصيت به أخويك قال بلى قال فاني أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ولا تقطع امرا دونهما ثم أقبل عليهما وقال أوصيكما به خيرا فانه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه فأحباه ثم قال يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر والعدل في الصديق والعدو والعمل في النشاط والكسل والرضا لله في الشدة والرخاء يا بني ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير وكل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية يا بني من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ومن رضي بما قسم الله لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغي قتل به ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الأنذال احتقر ومن دخل مداخل السوء اتهم ومن جالس العلماء وقر ومن مزح استخف به ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار يا بني الأدب ميزان الرجل وحسن الخلق خير قرين يا بني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت الا عن ذكر الله تعالى وواحد في ترك مجالسة السفهاء يا بني زينة الفقر الصبر وزينة الغنى الشكر يا بني لا شرف أعلى من الاسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة ولا لباس أجمل من العافية يا بني المرض مفتاح التعب ومطية النصب (ولما) حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله يبكون حوله فقال جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء وترك لكم جميع ما جمع وتركتم عليه ما حمل ما أعظم منقلب هشام ان لم يغفر الله له وقال الاوزاعي للمنصور في بعض كلامه يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة التي بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا فكيف بمن سفك دماء المسلمين وانتهب أموالهم يا أمير المؤمنين ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابيا من غير تعمد يا أمير المؤمنين لو أن ذنوبا من النار صب ووضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتجرعه ولو أن ثوبا من النار وضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتقمصه ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن يتسلسل بها ويرد فضلها على عاتقه وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكان والي المدينة احذر أن يأتي رجل غدا ليس له في الاسلام نسب ولا أب ولا جد فيكون أولى برسول الله ﷺ منك كما كانت امرأة فرعون اولى بموسى وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون ومن أخطأ به

بدى الملك فسأله عن الموضع الذى كان فيه فأخبره بما اعتمد عليه فأعجبه حسن احتياله فى اخفاء نفسه ولطافة أبى معشر المنجم فى استخراجه وله غير ذلك من الاصابات (قال قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان) ومما يناسب هذا من فطن المتطببين ما رواه الحسين ابن ادريس الحلوانى قال سمعت الامام محمد بن ادريس الشافعي رضى الله عنه يقول ما أفلح سمين قط الا أن يكون محمد بن الحسن قيل له ولم ذلك قال لانه لا يعدو العاقل احدى خلتين اما أن يهتم لآخرته ومعاده أو لدنياه ومعاشه والشحم مع الهم لا ينعقد ثم قال وكان بعض ملوك الارض قديما كثير الشحم لا ينتفع بنفسه فجمع الحكماء وقال احتالوا لى بحيلة ليخف عنى لحمى هذا قليلا قال فما قدروا له على شيء فجاءه رجل عاقل لبيب متطبب فقال عالجنى ولك الغنى قال أصلح الله الملك أنا طبيب منجم دعنى حتى أنظر الليلة فى طالعك لأرى أي دواء يوافقه فلما أصبح قال أيها الملك الأمان فلما أمنه قال رأيت طالعك يدل على أنه لم يبق من عمرك غير شهر واحد فان اخترت عالجتك وان أردت بيان ذلك فاحبسنى عندك فان كان لقولى حقيقة فخل عنى والا فاقتص منى قال فحبسه ثم رفع الملك الملاهى واحتجب عن الناس وخلا وحده منها فكلما انسلخ يوما ازداد هما وغما حتى هزل وخف لحمه ومضى لذلك ثمان وعشرون يوما عمله
فبعث اليه وأخرجه فقال ماترى فقال أعز الله الملك أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب والله انى لم أعلم عمري فكيف أعلم

عمله لم يسرع به نسبه ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه وروي بزياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال لما بعث أبو جعفر الى مالك بن أنس وابن طاوس قال دخلنا عليه وهو جالس على فرش وبين يديه أنطاع قد بسطت وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الاعناق فأومأ الينا أن اجلسا فجلسنا فأطرق زمانا طويلا ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاوس وقال حدثني عن أبيك قال سمعت أبي يقول قال رسول الله ﷺ ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه فادخل عليه الجور في حكمه فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال مالك فضممت ثيابي مخافة أن يناله شيء من دم ابن طاوس ثم قال يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة فأمسك عنه فقال ما منعك أن تناولنيها قال أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال قوما عني فقال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغي قال مالك فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم * وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الاحبار يا كعب خوفنا قال أوليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ قال بلى يا كعب ولكن خوفنا فقال يا أمير المؤمنين اعمل فانك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى فنكس عمر رضي الله عنه رأسه وأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال يا كعب خوفنا فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم أفاق فقال يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الا جثا على ركبتيه يقول يا رب لا أسألك اليوم الا نفسي * وقال سيدي الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمه الله تعالى عليه دخلت على الافضل بن أمير الجيوش وهو أمير على مصر فقلت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا وأكرمني اكراما جزيلا وأمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس فيه فقلت أيها الملك ان الله تعالى قد أحلك محلا عليا شامخا وأنزلك منزلا شريفا باذخا وملكك طائفة من ملكه وأشركك في حكمه ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك وليس الشكر باللسان وإنما هو بالفعال والاحسان قال الله تعالى « اعملوا آل داود شكرا » واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك فاتق الله فيما خولك من هذه الامة فان الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير قال الله تعالى « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » وقال تعالى « وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الانس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به فقال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم وأغث الملهوف أعانك الله على نصر المظلوم وجعلك كهفا للملهوف وأمانا للخائف ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت البلاد شرقا وغربا فما اخترت مملكة وارتحت اليها ولذت لي الاقامة فيها غير المملكة ثم أنشدته

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلا * حتى يروا عنده آثار إحسان

(وقال) الفضل بن الربيع حج هرون الرشيد سنة من السنين فبينا أنا نائم ذات ليلة اذ سمعت قرع

عمرك ولكن لم يكن عندي دواء إلا الغم فلم أقدر أجلب اليك الغم إلا بهذه الحيلة فان الغم يذيب الشحم فأجازه على ذلك وأحسن اليه غاية الاحسان وذاق حلاوة الفرح بعد مرارة الغم (قلت) ويعجبني (٧٩) قول جعفر بن شمس الخلافة في هذا المعنى :

هي شدة يأتي الرخاء عقيبها
وأسى يبشر بالسرور العاجل
واذا نظرت فان بؤسا عاجلا
للمرء خير من نعيم زائل

(ويعجبني قوله وان كان في غير ما نحن فيه)

مدحتك ألسنة الانام مخافة
وتشاهدت لك بالثناء الأحسن
أترى الزمان مؤخرا في مدتي
حتى أعيش إلى انطلاق الألسن

(نادرة لطيفة) نقل عن قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان في تاريخه أن الجنيد قال ما انتفعت بشيء كانتفاعي بأبيات سمعتها قيل له وما هي قال مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار وتقول هذه الأبيات

إذا قلت أهدى الهجر لي حلل البلى
تقولين لولا الهجر لم يطب الحب
وان قلت ما أذنبت قالت مجيبة
حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

فصعقت وصحت فبينا أنا كذلك اذ خرج صاحب الدار فقال ما هذا يا سيدي فقلت له مما سمعت فقال انها هبة مني اليك فقلت قد قبلت وهي حرة لوجه الله تعالى ثم دفعها لبعض أصحابنا بالرباط فولدت منه ولدا نبيلا حج على قدميه ثلاثين

حجة (وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في ترجمة أبي علي الفارسي) أنه كان يوما يساير عضد الدولة بن بويه في ميدان سيران فقال له لم انتصب (٨٠) المستثنى في قولنا قام القوم الا زيدا فقال الشيخ الفعل مقدر تقديره استثنى زيدا فقال له عضد الدولة هلا رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد فانقطع وقال هذا الجواب ميداني ثم إنه لما رجع الى منزله وضع في ذلك كلاما حسنا وحمل اليه فاستحسنه (وحكى أبو القاسم أحمد الاندلسي) قال جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي وأنا حاضر فقال اني لاغبطكم على قول الشعر فان خاطري لا يوافقني إلى ذلك مع تحقيق العلوم التي هي من معاده فقال له رجل فما قلت قط شيئا منه قال ما أعلم أن لي شعرا غير ثلاثة أبيات في الشيب هو قولي:

خضبت الشيب لما كان عيبا
وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خل
ولا عيبا خشيت ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميما
فصيرت الخضاب له عقابا

(ومن لطائف المنقول أن أبا محمد الوزير المهلبي) كان في غاية من الادب والمحبة لاهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة بن بويه في شدة عظيمة من الضرورة والمضايقة وسافر وهو على تلك الحالة ولقي في سفره شدة عظيمة فاشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال ارتجالا

ألا موت يباع فأشتريه … فهذا العيش مالا خير فيه

فاضل

الباب فقلت من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم فانظر لي رجلا أسأله عنه فقلت ههنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال جد لما جئنا له فحادثه ساعة ثم قال له أعليك دين قال نعم فقال يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عني صاحبك شيئا فانظر لي رجلا أسأله فقلت ههنا عبد الرزاق بن همام فقال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا قلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال جد لما جئنا به فحادثه ساعة ثم قال له أعليك دين قال نعم فقال يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عني صاحبك شيئا فانظر لي رجلا أسأله فقلت ههنا الفضيل بن عياض فقال امض بنا اليه فأتيناه فاذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال مالي ولأمير المؤمنين فقلت سبحان الله أما تجب عليك طاعته ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي اليه فقال أواه من كف ما ألينها ان نجت غدا من عذاب الله تعالى فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام تقي من قلب تقي فقال جد لما جئنا له رحمك الله تعالى فقال وفيم جئت حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم أن يحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك ثم قال ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم اني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال سالم بن عبد الله ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها على الموت وقال محمد بن كعب ان أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ولدا فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك وقال رجاء بن حيوة ان أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت متى شئت واني لأقول هذا واني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الاقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا فبكى هرون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت له ارفق بأمير المؤمنين فقال يا ابن الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ثم أفاق هارون الرشيد فقال زدني فقال يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكا اليه سهرا فكتب له عمر يقول يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الابدان فان ذلك يطرد بك الى ربك نائما ويقظان واياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر ما أقدمك فقال له لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ان العباس عم النبي ﷺ جاء اليه فقال يا رسول الله أمرني امارة فقال له النبي ﷺ يا عباس نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال زدني رحمك الله فقال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت أن تقي هذا الوجه من النار

فافعل وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فان النبي ﷺ قال من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال له أعليك دين قال نعم دين لربي يحاسبني عليه فالويل لي إن ناقشني والويل لي إن سألني والويل لي ان لم يلهمني حجتي قال هرون انما أعني دين العباد قال ان ربي لم يأمرني بهذا وانما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره قال تعالى وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فقال له هرون هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك فقال سبحان الله انا دللتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا اسلمك الله ووفقك ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال لي هرون إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا فان هذا سيد المسلمين اليوم (واعلم) أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات قال سليمان الخواص من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ومن وعظه على رؤس الاشهاد فانما بكته ﴿ وقالت أم الدرداء رضي الله تعالى عنها من وعظ أخاه سرا فقد سره وزانه ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه ويقال من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وسره ومن وعظه جهرا فقد فضحه وضره ﴿ وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئا أمره في ستر ونهاه في ستر فيؤجر في ستره ويؤجر في أمره ويؤجر في نهيه وعن عمر رضي الله تعالى عنه إذا رأيتم أخا لكم ذا زلة فقوموه وسددوه وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة فيتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيكم وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ الباب الثالث عشر في الصمت وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول ﴾

﴿ الفصل الأول في الصمت وصون اللسان ﴾ قال الله تعالى مايلفظ من قول الالديه رقيب عتيد وقال تعالى ان ربك لبالمرصاد (واعلم) أنه ينبغي للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاما تظهر المصلحة فيه ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الامساك عنه لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه بل هذا كثير وغالب في العادة والسلامة لا يعادلها شيء وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت قال الشافعي رضي الله تعالى عنه في الأم إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر في كلامه فان ظهرت المصلحة تكلم وان شك لم يتكلم حتى تظهر وروينا في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال قلت يارسول الله أي المسلمين أفضل قال من سلم الناس من لسانه ويده وروينا في كتاب الترمذي عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال قلت يارسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك قال الترمذي حديث حسن وروينا في كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفقه الله تعالى (وأما الآثار) عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شيء منها ﴿ فمما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا فقال أحدهما لصاحبه كم وجدت في ابن آدم من العيوب فقال هي أكثر من أن تحصر وقد وجدت خصلة إن استعملها الانسان سترت العيوب كلها قال وما هي قال حفظ اللسان وقال الامام

ألا موت لذيذ الطعم يأتي ... يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرت قبرا من بعيد ... وددت لو أنني فيما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر ... تصدق بالوفاء على أخيه

وكان له رفيق يقال له أبو عبد الله الصوفي وقيل أبو الحسن العسقلاني فلما سمع الأبيات اشترى له لحما بدرهم وطبخه وأطعمه وتفارقا وتنقلت الأحوال وولي الوزارة ببغداد لمعز الدولة المذكور وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم في السفر وبلغه وزارة المهلبي فقصده وكتب إليه

ألا قل للوزير فدته نفسي ... مقال مذكر ماقد نسيه
أتذكر إذ تقول لضيق عيش ... ألا موت يباع فأشتريه

(فلما) وقف عليها تذكر الحال وهزته أريحية الكرم فأمر له بسبعمائة درهم ووقع له في رقعته مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملا يرتفق منه انتهى ﴿ وذكر الحريري صاحب المقامات في كتابه المسمى بدرة الغواص ﴾ ما مثاله قال حماد الراوية كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك ابن مروان في خلافته وكان أخوه هشام يجفوني لذلك فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من اخواني سرا فلما لم أسمع أحدا ذكرني في السنة أمنت وخرجت وصليت الجمعة في الرصافة فاذا شرطيان قد وقفا علي وقالا يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي وكان واليا على

الشافعى رضى الله عنه لصاحبه الربيع ياربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فانك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها وقال بعضهم مثل اللسان مثل السبع ان لم توثقه عدا عليك ولحقك شره ومما أنشدوه فى هذا الباب :

احفظ لسانك أيها الانسان * لا يلدغنك انه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه * كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقال الفارسي : لعمرك ان في ذنبي لشغلا * لنفسى عن ذنوب بنى أميه
على ربى حسابهم اليه * تناهى علم ذلك لا اليه

وقال على رضى الله عنه إذا تم العقل نقص الكلام وقال أعرابى رب منطق صدع جمعا وسكوت شعب صدعا وقال وهب بن الورد بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت والعاشر فى عزلة الناس وقال على بن هشام رحمة الله تعالى عليه :

لعمرك ان الحلم زين لأهله * وما الحلم الا عادة وتحلم
إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة * وعي فان الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة من حرم الخير فليصمت فان حرمهما فالموت خير له عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبى ذر رضى الله عنه عليك بالصمت إلا من خير فانه مطردة للشيطان وعون على أمر دينك ومن كلام الحكماء من نطق فى غير خير فقد لغا ومن نظر فى غير اعتبار فقد سها ومن سكت فى غير فكر فقد لها وقيل لو قرأت صحيفتك لأغمدت صفيحتك ولو رأيتك فى ميزانك لختمت على لسانك ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته فقيل له ألا تتكلم فقال الكلام صيرنى فى بطن الحوت وقال حكيم إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم وكان يقال من السكوت ما هو أبلغ من الكلام لأن السفيه اذا سكت عنه كان فى اغتنام وقيل لرجل بم ساد كم الأحنف فوالله ما كان بأكبركم سنا ولا بأكثركم مالا فقال بقوة سلطانه على لسانه وقيل الكلمة أسيرة فى وثاق الرجل فاذا تكلم بها صار فى وثاقها وقيل اجتمع أربعة ملوك فتكلموا فقال ملك الفرس ما ندمت على ما لم أقل مرة وندمت على ما قلت مرارا وقال قيصر أنا على رد ما لم أقل اقدر منى على رد ما قلت وقال ملك الصين ما لم أتكلم بكلمة ملكتها فاذا تكلمت بها ملكتني وقال ملك الهند العجب ممن يتكلم بكلمة ان رفعت ضرت وان لم ترفع لم تنفع وكان بهرام جالسا ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فاصابه فقال ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والانسان لو حفظ هذا لسانه ما هلك وقال على رضى الله تعالى عنه بكثرة الصمت تكون الهيبة وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه الكلام كالدواء ان أقللت منه نفع وان أكثرت منه قتل وقال لقمان لولده يا بنى اذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أنتن فيقلن بخير ان تركتنا قال الشاعر : احفظ لسانك لا تقول فتبتلى * ان البلاء موكل بالمنطق

(الفصل الثانى فى تحريم الغيبة) اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشارا فى الناس حتى لا يسلم منها الا القليل من الناس وهى ذكرك الانسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان فى دينه أو بدنه أو نفسه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك او بكتابك او رمزت اليه بعينك أو يدك أو رأسك او نحو ذلك فاما الدين فكقولك سارق خائن ظالم متهاون بالصلاة متساهل

العراق فقلت فى نفسى من هذا كنت أخاف ثم قلت لهما تدعانى حتى آتى أهلى وأودعهم ثم أسير معكما فقالا ما إلى ذلك من سبيل فاستسلمت فى أيديهما ثم صرت الى يوسف بن عمر وهو فى الايوان الاحمر فسلمت عليه فرد على السلام ورمى الى بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف ابن عمر أما بعد فاذا قرأت كتابي هذا فابعث الى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع وادفع له خمسمائة دينار وجملا مهريا يسير عليه ثنتى عشرة ليلة إلى دمشق فأخذت الدنانير ونظرت فاذا جمل مرحول فركبت وسرت حتى وافيت دمشق فى ثنتى عشرة ليلة فنزلت على باب هشام واستأذنت فأذن لى فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر وقد ضمخ بالمسك فسلمت عليه فرد على السلام واستدناني فدنوت منه حتى قبلت رجله فاذا جاريتان لم أر أحسن منهما قط فقال كيف أنت وكيف حالك فقلت بخير يا أمير المؤمنين فقال اتدرى فيما بعثت اليك فقلت لا قال بعثت اليك بسبب بيت خطر ببالى لا أعرف قائله قلت وما هو يا أمير المؤمنين قال ودعوا بالصبوح يوما فجاءت قينة في يمينها إبريق فقلت بقوله عدى بن يزيد العبادى فى قصيدة قال انشدنيها فأنشدته فى
بكر العاذلون فى وضح الصبح يقولون لى اما تستفيق ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موثوق

فى النجاسات ليس بارا بوالديه قليل الأدب لا يضع الزكاة مواضعها لا يجتنب الغيبة وأما البدن فكقولك أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود أو أصفر وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الادب متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقا كثير النوم كثير الأكل وما أشبه ذلك أو كقولك فلان أبوه نجار أو اسكاف أو حداد أو حائك تريد تنقيصه بذلك أو فلان سيء الخلق متكبر مراء معجب عجول جبار ونحو ذلك أو فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثوب ونحو ذلك وقد روينا في صحيح مسلم وسنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل وان كان فى أخي ما أقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته قال الترمذى حديث حسن صحيح وروينا فى سنن أبى داود والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت للنبى ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا قال بعض الرواة تعني قصيرة فقال لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها وروينا فى سنن أبى داود عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لما عرج بى الى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم وروى عن جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا ثم قال رسول الله ﷺ ان الرجل ليزنى فيتوب فيتوب الله عليه وان صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفرله صاحبها وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال من اغتاب المسلمين وأكل لحومهم بغير حق وسعي بهم الى السلطان جيء به يوم القيامة مزرقة عيناه ينادى بالويل والثبور يعرف اهله ولا يعرفونه وقال معاوية بن قرة أفضل الناس عند الله أسلمهم صدرا وأقلهم غيبة وقال الأحنف فى خصلتان لا أغتاب جليسى اذا غاب عني ولا أدخل فى أمر قوم لا يدخلوني فيه ، وقيل للربيع بن خيثم ما نراك تعيب أحدا فقال لست عن نفسى راضيا فأتفرغ لذم الناس وأنشد :

لنفسى أبكي لست أبكي لغيرها ❊ لنفسى من نفسى عن الناس شاغل

وقال كثير عزة : وسعى الى بعيب عزة نسوة ❊ جعل الاله خدودهن نعالها

وقال محمد بن حزم أول من عمل الصابون سليمان وأول من عمل السويق ذو القرنين وأول من عمل الخبيص يوسف وأول من عمل خبز الجرادق نمروذ وأول من كتب فى القراطيس الحجاج وأول من اغتاب ابليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام ، وأوحى الله تعالى الى موسى عليه الصلاة والسلام ان المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة وان أصر فهو أول من يدخل النار ويقال لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك وقيل للحسن البصرى رضى الله تعالى عنه إن فلانا اغتابك فأهدى اليه طبقا من رطب فأتاه الرجل وقال له اغتبتك فأهديت الى فقال الحسن أهديت الى حسناتك فأردت أن أكافئك وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والدى لأنهما أحق بحسناتي واذا حاكي انسان انسانا بأن يمشى متعارجا أو متطأطئا أو غير ذلك من الهيئات يريد تنقيصه بذلك فهو حرام . وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضا تفهم به كما تفهم بالتصريح فيقال لأحدهم كيف حال فلان فيقول الله يصلحنا الله يغفر لنا الله يصلحه نسأل الله العافية نحمد الله الذى لم يبتلنا بالدخول على الظلمة نعوذ

لست أدرى إذا كثر العذل فيها أعذول يلومني أم صديق (قال حماد فانتهيت فيها الى قوله)

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت قينة فى يمينها ابريق قدمته على عقار كعين الديك صفى سلافها الراووق

مرة قبل مزجها فاذا ما مزجت لذ طعمها من يذوق

قال فطرب هشام ثم قال أحسنت يا حماد سل حاجتك قلت احدى الجاريتين قال هما جميعا لك بما عليهما وما لهما فأقام عنده مدة ثم وصله بمائة ألف درهم قلت انظر أيها المتأمل إلى نفاق رخيص الأدب فى ذلك العصر وكساد غاليه فى هذا العصر وبشهادة الله أن البيت الذى طلب حماد الراوية بسببه من بغداد إلى دمشق فى اثنى عشرة ليلة وأجيز عليه بالجاريتين والمائة الف درهم تأنف نفسي أن أضعه فى قصيدة من قصائدى لرخصه وسفالته وهو

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت قينة فى يمينها ابريق

(وكنت أود) أن أكون فى ذلك العصر ويسمع هشام بن عبد الملك قولى فى هذا الباب من قصيدة قلتها

فى ليلة رقم البدر المنير لها طارا به الصبا الجوزاء نقرات وباتلى من الماء إذ تبسم لى تحت الضفائر صبحات وغبقات والراح دقت فهى تصورها لكن لما ضاع فى الكاسات نفحات كانت علاقة تحقيق وقال فى هي المنازل لي فيها علاقات مذ أنشأتنا سجعنا فى محاسنها مغردين وللأنشاء سجعات

هذا وأفواه كاسانى قد ابتسمت ومازجتها ثغور لؤلؤيات ومن يقل حركات الهم ماسكنت فالحباب على التسكين جزمات (قال ثعلب) ما أحد من (٨٤) الشعراء تكلم فى الليل الطويل إلا قارب ولكن خالدالكاتب أبدع فيه فقال

رقدت فلم ترث للساهر
وليل المحب بلا آخر
ولم تدر بعدذهاب الرقا
د ماصنع الدمع بالناظر

وقال بعض من كان يحضر مجلس المبرد كنا نختلف إليه فاذا كان آخر المجلس أملى علينا من طرف الأخبار وملح الأشعار مانرتاح الى حفظه فأنشدنا يوما مرثية زياد الأعجم فى المغيرة بن المهلب التى منها

فاذامررت بقبره فاعقرله
كرم الهجان وكل طرف سابح
وانضح بجوانب قبره بدمائها
فلقد يكون أخا دم وذبائح

قال فخرجت من عنده وأنا أديرها فى لسانى لأحفظها فاذا بشيخ قد خرج من خربة وفى يده حجر فهم ان يرمينى به فتترست بالمحبرة والدفتر فقال ماذا تقول أتشتمنى فقلت اللهم لا ولكنى كنت عند استاذنا أبى العباس المبرد فأنشدنا مرثية زياد الأعجم فى المغيرة بن المهلب فقال له ايه ايه أنشدنى ما أنشدكم بارد كم لا مبرد كم فأنشدته فقال والله ماأجود الرائى ولا أنصف المرثى ولا أحسن الراوى قلت فما عساه أن يقول قال كان يقول

احلانى ان لم يكن لكماعة ... الى جنب قبره فاعقرانى

عن

بالله من الكبر يعافينا الله من قلة الحياء الله يتوب علينا وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة ﴿واعلم﴾ أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها فيجب على من يستمع انسانا يبتدئ بغيبة أن ينهاه إن لم يخف ضررا فان خاف وجب عليه الانكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته فان قال بلسانه اسكت وقلبه يشتهى سماع ذلك قال بعض العلماء ان ذلك نفاق قال الله تعالى ـ واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ـ ومما أنشدوه فى هذا المعنى :

وسمعك صن عن سماع القبيح ✻ كصون اللسان عن النطق به ✻ فانك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه ✻ وكم أزعج الحرص من طالب ✻ فوافى المنية فى مطلبه

﴿الفصل الثالث فى تحريم السعاية بالنميمة﴾ قال الله تعالى ـ ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ـ الآية وحسبك بالنمام خسة ورذيلة سقوطه وضعته والهماز المغتاب الذى يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم وقال الحسن البصرى هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس وهو الهمزة اللمزة وقال على والحسن البصرى رضى الله عنهما العتل الفاحش السيء الخلق وقال ابن عباس رضى الله عنهما العتل الفاتك الشديد المنافق وقال عبيد بن عمير العتل الأكول الشروب القوى الشديد يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة وقال الكلبى هو الشديد فى كفره وقيل العتل الشديد الخصومة بالباطل والزنيم هو الذى لا يعرف من أبوه قال الشاعر :

زنيم ليس يعرف من أبوه ✻ بغى الأم ذو حسب لئيم

وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال لا يدخل الجنة نمام وروى أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله قال الامام أبو حامد الغزالى رحمة الله تعالى عليه النميمة إنما تطلق فى الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كقوله فلان يقول فيك كذا فينبغى للانسان أن يسكت عن كل مارآه من أحوال الناس إلا مافى حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية وينبغى لمن حملت إليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا أن لا يصدق من نم إليه لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر وان ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويبغضه فى الله تعالى فانه بغيض عند الله والبغض فى الله واجب وان لا يظن بالمنقول عنه السوء لقول الله تعالى اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن اثم وسعى رجل إلى بلال بن أبى بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له انصرف حتى أكشف عنك فكشف عنه فاذا هو ابن بغى ولد زنا قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه لا ينم على الناس إلا ولد بغى وروى أن النبى ﷺ قال ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغاز ملعون كل قتات ملعون كل نمام ملعون كل منان والشغاز المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام والمنان الذى يعمل الخير و يمن به وأما السعاية الى السلطان وإلى كل ذى قدرة فهى المهلكة والحالقة لأنها تجمع الخصال الذميمة من الغيبة وشؤم النميمة والتغرير بالنفوس والأموال فى النوازل والأحوال وتسلب العزيز عزه وتحط المكين عن مكانه والسيد عن مرتبته فكم دم أراقه سعى ساع وكم حريم استبيح بنميمة نمام وكم من صفيين تباعدا وكم

من متواصلين تقاطعا وكم من محبين افترقا وكم من إلفين تهاجرا وكم من زوجين تطالقا فليتق الله ربه عز وجل رجل ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار أن يصغي لساع أو يستمع لنمام * ووجد في حكم القدماء أبغض الناس إلى الله المثلث قال الأصمعي هو الرجل يسعى بأخيه إلى الامام فيهلك نفسه وأخاه وامامه وقال بعض الحكماء احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات وفي المثل السائر من أطاع الواشي ضيع الصديق وقد تقطع الشجرة فتنبت ويقطع اللحم السيف فيندمل واللسان لا يندمل جرحه * ودفع انسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالا كثيرا فكتب اليه على ظهرها النميمة قبيحة وان كانت صحيحة والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعي لعنه الله ولا حول ولا قوة الا بالله وروينا في كتاب أبي داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئا فاني احب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر ومن الناس من يتلون ألوانا ويكون بوجهين ولسانين فيأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى :

قل للذي لست أدري من تلونه * أناصح أم على غش يناجيني
اني لأكثر مما سمتني عجبا * يد تشج وأخرى منك تأسوني * تغتابني عند أقوام وتمدحني
في آخرين وكل عنك يأتيني * هذان شيئان قد نافيت بينهما * فاكفف لسانك عن شتمي وتزييني

وقيل لألف لحوح جموح خير من واحد متلون وكان يشبه المتلون بأبي براقش وأبي قلمون فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون في اليوم ألوانا وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانا ويقال للطائش الذي لا ثبات معه أبو رياح تشبيها بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور مع الريح وبيمناه ممدودة وأصابعها مضمومة الا السبابة فاذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به فانه يدور بأضعف نسيم يصيبه والذي يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة يسمى أبا رياح أيضا ويقال أخلاق الملوك مثل في المتلون قال بعضهم :

ويوم كأخلاق الملوك تلونا * فصحو وتغييم وطل ووابل
أشبهه إياك يام صفاته * دنو واعراض ومنع ونائل

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه فأنكره الأحنف فقال له معاوية بلغني عنك الثقة فقال له الأحنف إن الثقة لا يبلغ مكروها وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية وإذا أتاه ساع يقول له ان صدقتنا أبغضناك وان كذبتنا عاقبناك وان استقلتنا أقلناك وكتب في جواب كتاب ساع نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شيء وأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعي فانه لو كان في سعايته صادقا لكان في صدقه لئيما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة وقيل من سعى بالنميمة حذره الغريب ومقته القريب وقال المأمون النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها ولا عداوة إلا جددتها ولا جماعة إلا بددتها ثم لا بد لمن عرف بها ونسب اليها أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه * على الصديق ولم تؤمن أفاعيه * كالسيل بالليل لا يدري به أحد
من أين جاء ولا من أين يأتيه * الويل للعهد منه كيف ينقضه * والويل للود منه كيف يفنيه

وانضحا من دمي عليه فقد كا ن دمي من نداه لو تعلمان قال فقلت هل رأيت أحدا واسى أحدا بنفسه قال نعم هذا الفتى الفتح بن خاقان طرح نفسه على المتوكل حتى خلط لحمه بلحمه ودمه بدمه ثم تركني وتولى فلما عدت الى المبرد قصصت عليه القصة فقال تعرفه قلت لا قال ذلك خالد الكاتب تأخذه السوداء أيام الباذنجان انتهى * قيل كبر خالد الكاتب حتى دق عظمه ورق جلده وقوى به الوسواس ورؤي ببغداد والصبيان يتبعونه فأسند ظهره إلى قصر المعتصم والصبيان يصيحون به يا بارد فقال كيف أكون باردا وأنا الذى أقول

بكى عاذلي من رحمتي فرحمته * وكم مثله من مسعد ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها * دموع دموعي لا دموع جفوني

(وحدث أبو الحسن) علي بن مقلة قال حدثني أبي عن عمه قال اجتاز بي خالد الكاتب وأنا على باب داري بسر من رأى والصبيان حوله يعبثون به فجاء في الى آني وسألني صرفهم عنه فصرفتهم وأدخلته داري وقلت له ما تشتهي تأكل قال الهريسة فتقدمت باصلاحها له فلما أكل قلت أي شيء تحب بعد هذا قال رطب فأمرت باحضاره فأكل فلما فرغ من اكله قلت له أنشدني من شعرك فأنشدني

تناسيت ما أوعيت سمعك يا سمعي * كأنك بعد الضر خال من النفع * فإن كنت مطبوعا على الصد والجفا * فمن أين لي صبر فأجعله طبعي

(وقال آخر) يسعى عليك كما يسعى إليك فلا * تأمن غوائل ذى وجهين كياد

وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى :

من يخبرك بشتم عن أخ * فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شيء لم يواجهك به * إنما اللوم على من أعلمك

وقال آخر: إن يعلموا الخير أخفوه وان علموا * شرا أذاعوا وان لم يعلموا كذبوا

وقال آخر : إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا * مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به * وان ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقال الحسن ستر ما عاينت أحسن من إشاعة ما ظننت وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذى أتاها

(ومما جاء فى النهى عن اللعن)

ما روينا فى صحيح البخارى ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لعن المؤمن كقتله وروينا فى صحيح مسلم أيضا عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة وروينا فى سنن أبى داود عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ان العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط الى الأرض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يمينا وشمالا فاذا لم تجد مساغا رجعت إلى الذى لعن ان كان أهلا لذلك والا رجعت إلى قائلها ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله لعن الله الظالمين لعن الله الكافرين لعن الله اليهود والنصارى لعن الله الفاسقين لعن الله المصورين ونحو ذلك * وثبت فى الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة وانه قال لعن الله آكل الربا وأنه قال لعن الله المصورين وأنه قال لعن الله من لعن والديه وأنه قال لعن الله من ذبح لغير الله وأنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد وأنه قال لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال وجميع هذه الألفاظ فى البخارى ومسلم بعضها فيهما وبعضها فى أحدهما والله أعلم

﴿ومما جاء فى العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة﴾

قال رسول الله ﷺ الخمول نعمة وكل يجرأ والظهور نقمة وكل يتمنى وقال بعضهم

تلحف بالخمول تعش سليما * وجالس كل ذى أدب كريم

(وقال جعفر بن الفراء) من أجمل النفس أحياها وروحها * ولم يبت طاويا منها على ضجر
ان الرياح إذا اشتدت عواصفها * فليس ترمى سوى العالى من الشجر

وقال اعرابى رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أنفع من أنيس وكان أبو معاوية الضرير يقول فى خصلتان ما يسرنى بهما رد بصرى قلة الاعجاب بنفسى وخلو قلبى من اجتماع الناس إلى وقال عمر رضى الله عنه خذوا حظكم من العزلة وصعد حسان على أطم من آطام المدينة ونادى بأعلى صوته يا صباحاه فاجتمعت الخزرج فقالوا ما عندك قال قلت بيت شعر فأحببت أن تسمعوه قالوا هات يا حسان فقال :

وان امرأ أمسى وأصبح سالما * من الناس الا ما جنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه منزله بالعقيق قيل له تركت منازل اخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق فقال رأيت أسواقهم لاغية ومجالسهم لاهية فوجدت الاعتزال فيما هنا لك عافية

لئن كان أضحى فوق خدبك روضة فان على خدى غديراً من الدمع قلت زدنى فقال لا يساوى تهريسك ورطبك غير هذا (ومن المروى (٨٦) عنه) قال بعض طلبة المبرد خرجت من مجلس المبرد فلقيت خالد الكاتب فقال من أين قلت من مجلس المبرد قال بل البارد ثم قال ما الذى أنشدكم اليوم قلت أنشدنى

أعار الغيث نائله
إذا ماؤه نفدا
وان أسدا شكا جنبا
أعار فؤاده الأسدا

فقال أخطأ قائل هذا الشعر قلت كيف قال ألا تعلم انه إذا أعار الغيث نائله بقى بلا نائل واذا أعار الأسد فؤاده بقى بلا فؤاد قلت فكيف كان يقول فأنشد :

علم الغيث الندى من يده
مذ دعاه علم البأس الأسد
فاذا الغيث مقر بالندى
واذا الليث مقر بالجلد

قال فكتبتهما وانصرفت

﴿نادرة لطيفة﴾ دخل أبو دلامة على المهدى فأنشده قصيدة فقال سل حاجتك فقال يا أمير المؤمنين هب لى كلبا قال فغضب وقال أقول لك سل حاجتك تقول هب لى كلبا فقال يا أمير المؤمنين الحاجة لى أو لك فقال بل لك فقال انى أسألك أن تهب لى كلب صيد فأمر له بكلب فقال يا أمير المؤمنين هبنى خرجت للصيد أعدو على رجل فأمر له بدابة فقال له يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها فأمر له بغلام فقال يا أمير المؤمنين هبنى صدت صيدا وأتيت به المنزل فمن يطبخه فأمر له بجارية فقال يا أمير المؤمنين فهؤلاء

وقيل

أبن بيعون فأمر له بدار فقال يا أمير المؤمنين قد صيرت في عنقي عيالا فمن أين لي ما يقوت هؤلاء فقال المهدي أعطوه جريب نخل ثم قال
هل بقيت لك حاجة قال نعم تأذن لي أن أقبل يدك انتهى (وحكي) أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى بيت الله الحرام
فلما دخل الحرم قال ائتوني برجل من الصحابة فقيل يا أمير المؤمنين قد تفانوا قال فمن التابعين فأتي بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بأمير المؤمنين ولم يكنه وجلس إلى جانبه بغير اذنه وقال كيف أنت يا هشام فغضب من ذلك غضبا شديدا حتى هم بقتله فقيل له أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون ذلك فقال يا طاوس ما حملك على ما صنعت قال وما صنعت قال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تسلم يا أمير المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي بغير اذني وقلت يا هشام كيف أنت فقال له طاوس أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات ولا يعاتبني ولا يغضب علي وأما قولك لم تسلم علي بإمرة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضيا بإمرتك فخفت أن أكون كاذبا وأما قولك لم تكنني فإن الله عز وجل سمى أنبياءه فقال يا داود يا يحيى يا عيسى وكنى أعداءه فقال تبت يدا أبي لهب وأما قولك جلست بإزائي
فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله
قوم قيام فقال له عظني فقال له إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول إن في جهنم حيات وعقارب كالبغال

وقيل لعروة أخي مرداس لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم فقال أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلى حب الرياسة فأخسر الدارين وقال سفيان بن عيينة دخلنا على الفضيل في مرضه نعوده فقال ما جاء بكم والله لو لم تجيئوا لكان أحب إلي ثم قال نعم الشيء المرض لولا العيادة وقيل للفضيل ان ابنك يقول وددت لو أني بالمكان الذي أرى الناس فيه ولا يروني فقال ويح ابني لم لا أتمها فقال لا أراهم ولا يروني وقال علي رضي الله تعالى عنه طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعته وبكى على خطيئته فكان من نفسه في شغل والناس منه في راحة وقال سفيان الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس وقيل لراهب في صومعته ألا تنزل فقال من مشى على وجه الأرض عثر والكلام في مثل هذا كثير وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الرابع عشر في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الاسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه﴾

روي عن الحسن أنه قال للحجاج سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول قال رسول الله ﷺ وقروا السلاطين وبجلوهم فإنهم عز الله وظله في الأرض إذا كانوا عدولا فقال الحجاج ألم تكن فيهم إذا كانوا عدولا قال قلت بلى وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال قلت للنبي ﷺ أخبرني عن هذا السلطان الذي ذلت له الرقاب وخضعت له الأجساد ما هو قال ظل الله في الأرض فإذا أحسن فله الأجر وعليكم الشكر وإذا أساء فعليه الاصر وعليكم الصبر وعنه عليه الصلاة والسلام أيما راع استرعى رعيته ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء وقال مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى أنا ملك الملوك رقاب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم وقال جعفر بن محمد رحمه الله تعالى عليه كفارة عمل السلطان الاحسان إلى الاخوان وقال كسرى لسيرين ما أحسن هذا الملك لو دام فقال لو دام لأحد ما انتقل إلينا ومر طارق الشرطي بابن شبرمة في موكبه فقال:

أراها وان كانت تحب فإنها ٭ سحابة صيف عن قليل تقشع

وجلس الاسكندر يوما فارفع إليه حاجة فقال لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي وقال الجاحظ ليس شيء ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهي ومن الظفر بالاعداء ومن تقليد المنن أعناق الرجال لأن هذه الأمور نصيب الروح وحظ الذهن وقسمة النفس وقيل الملك خليفة الله في عباده ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته وقال الحجاج سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها وقال ازدشير لابنه يا بني الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر فالدين أس والملك حارس وما لم يكن له أس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع قيل لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولدله ولد فتملك وأغار العرب على نواحي فارس في صباه فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرسانا وأغار على العرب فانتهكهم بالقتل ثم خلع أكتاف سبعين ألفا فقيل له ذو الاكتاف وأمر العرب حينئذ بإرخاء الشعور ولبس المصبغات وان يسكنوا بيوت الشعر وان لا يركبوا الخيل الاعراة (وقيل) من أخلاق الملوك حب التفرد كان أزدشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان وإذا لبس حلة لم ير على أحد مثلها وإذا تختم بخاتم كان حراما على

أهل المملكة أن يتختموا بمثله وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتم لم يعتم أحد بمثل عمامته مادامت على رأسه وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترىء أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه وأخبرني من سافر إلى اليمن أنه لا يأكل الأوز بها أحد غير الملك وقيل من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضعة عن ابنها وكان أزدشير متى شاء قال لأرفع أهل مملكته وأوضعهم كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت حتى كان يقال يأتيه ملك من السماء وما ذاك إلا بتنحصه وتيقظه وكان علم عمر رضي الله عنه بمن نأى عنه كعلمه بمن بات معه على وساد واحد ولقد اقتفى معاوية أثره وتعرف إلى زياد رجل فقال أتتعرف إلى وأنا اعرف بك من أبيك وأمك وأعرف هذا البرد الذي عليك ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه وعن بعض العباسيين قال كلمت المأمون رحمه الله تعالى في امرأة خطبتها وسألته النظر اليها فقال يا أبا فلان من قصتها وحليتها وفعلها وشأنها كيت وكيت فوالله مازال يصفها ويصف أحوالها حتى ابهتني

﴿ومما جاء في طاعة ولاة أمور الاسلام﴾ امر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم قال تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ورويناً في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم * وسئل كعب الاحبار عن السلطان فقال ظل الله في أرضه من ناصحه اهتدى ومن غشه ضل * وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لا تسبوا السلطان فانه ظل الله في الأرض به يقوم الحق ويظهر الدين وبه يدفع الله الظلم ويهلك الفاسقين وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه كيف كانت طاعتي لك قال أحسن طاعة قال فأطعني كما كنت أطيعك خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ومن ثوبك حتى تبدو عقباك وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أمري فقد أطاعني ومن عصى أمري فقد عصاني وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ومناصحته ومحبته والدعاء له ولو تتبعت ذلك لطال الكلام لكن أعلم ارشدني الله واياك الى الاتباع وجنبنا الزيغ والابتداع ان من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفية المحررة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية وان طاعة السلطان تؤلف شمل الدين وتنظيم أمور المسلمين وان عصيان السلطان يهدم أركان الملة وان أرفع منازل السعادة طاعة السلطان وان طاعته عصمة من كل فتنة وبطاعة السلطان تقام الحدود وتؤدى الفروض وتحقن الدماء وتؤمن السبل وما أحسن ماقالت العلماء ان طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها وان الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة بريء من الذمة وان طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم وأن الخروج منها خروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ومن غش السلطان ضل وزل ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا في ارفع محل وان طاعة السلطان واجبة أمر الله تعالى بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم وقد اقتصرنا في ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا وأن يصلح شأننا إنه قريب مجيب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

﴿الباب الخامس عشر فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته﴾

تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام فخرج انتهى (نادرة) مروية عن أبي عمر عامر الشعبي ولكن يتعين أن نبدأ بشيء من ترجمته قال الزهري العلماء أربعة ابن المسيب بالمدينة والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام والشعبي بالكوفة ويقال إنه ادرك خمسمائة من الصحابة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (والنادرة الموعود بذكرها) هي ماحكى الشعبي قال أنفذني عبد الملك ابن مروان إلى ملك الروم فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته وكانت الرسل لا تطيل الاقامة فحبسني عنده أياما كثيرة فلما أردت الانصراف قال أمن بيت المملكة أنت فقلت لا ولكني من العرب فدفع إلى رقعة وقال إذا أديت الرسائل إلى صاحبك أوصل إليه هذه الرقعة قال فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة فلما وصلت الباب أريد الخروج تذكرت الرقعة فرجعت فأوصلتها إليه فقال لي هل قال لك شيئا قبل أن يدفعها اليك قلت نعم قال لي أنت من أهل بيت المملكة قلت لا ولكني رجل من العرب في الجملة ثم خرجت من عند عبد الملك فلما بلغت الباب طلبني فرددت فلما مثلت بين يديه قال أتدرى مافي الرقعة قلت لا قال اقرأها فقرأتها فاذا فيها عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره قلت يا أمير المؤمنين لو علمت مافيها ما حملتها وانما قال هذا لأنه لم يرك قال أتدرى لم كتبها قلت لا قال حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك انتهى (وقيل) كان الشعبي ضئيلا نحيلا فقيل له في ذلك (أما

(أماصحبة السلطان) فقد قال ابن عباس رضي عنهما قال لي أبي يابني إني أرى أمير المؤمنين يستخليك و يستشيرك ويقدمك على الاكابر من أصحاب محمد ﷺ واني اوصيك بخلال ثلاث لا تفشين له سرا ولا تجر بن عليه كذبا ولا تغتا بن عنده أحدا قال الشعبي رحمه الله تعالى قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف فقال إي والله ومن عشرة آلاف وقال بعض الحكماء إذا زادك السلطان تأنيسا فزده اجلالا واذا جعلك أخا فاجعله أبا واذا زادك احسانا فزده فعل العبد مع سيده واذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فأخذوا في الثناء عليه فعليك بالدعاء له ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة والغربة * وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ولا تتغير منه اذا أقصاك * وروى أن بعض الملوك استصحب حكيما فقال له أصحبك على ثلاث خصال قال وماهن قال لا تهتك لي سترا ولا تشتم لي عرضا ولا تقبل في قول قائل حتى تستشيرني قال هذا لك فما لي عليك قال لا أفشي لك سرا ولا أدخر عنك نصيحة ولا أوثر عليك أحدا قال نعم الصاحب للمستصحب أنت وقال بزرجمهر إذا خدمت ملكا من الملوك فلا تطعه في معصية خالقك فان إحسانه اليك فوق احسان الملك وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه * وقالوا اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار لأنهم انما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة وان طال أنسك بهم تزدد هما * وقالوا علم السلطان وكأنك تتعلم منه وأشر عليه وكأنك تستشيره واذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك و يثق بك فإياك والدخول بينه وبين بطانته فانك لا تدري متى يتغير منك فيكونوا عونا عليك وإياك أن تعادي من إذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه فعل وفي الأمثال القديمة احذروا زمارة المخدة وفيه قيل:

ليس الشفيع الذي يأتيك متزرا * مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق (وأما ما جاء في التحذير من صحبة السلطان) فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهي عن صحبة السلطان قال في كتاب كليلة ودمنة ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل صحبة السلطان وائتمان النساء على الاسرار وشرب السم على التجربة * وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطرا من صحب السلطان وكان بعض الحكماء يقول أحق الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان فان من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور وفي حكم الهند صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر * وقيل للعتابي لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب قال لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء ويرمي من السور في غير شيء ولا أدري أي الرجلين أكون * وقال معاوية لرجل من قريش إياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبي ويبطش بطش الأسد * وقال ميمون بن مهران قال لي عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عني أربعا لا تصحبن السلطان وان أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ولا تخلون بامرأة وان أقرأتها القرآن ولا تصل من قطع رحمه فانه لك أقطع ولا تكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا وكم رأينا وبلغنا عمن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه فسد هو به فكان كما قيل

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع في الرماد فيخمد

فقال زوحمت في الرحم وكان قد ولد هو وأخ آخر وأقام في البطن سنتين ذكره صاحب كتاب المعارف (و يقال) ان الحجاج قال له يوما كم عطاك في السنة فقال ألفين فقال له ويحك كم عطاؤك قال ألفان فقال ويحك (٨٩) كيف لحنت أولا فقال لحن الأمير فلحنت فلما أعرب أعربت وما يحسن أن يلحن الامير وأعرب فاستحسن ذلك منه وأجازه (نادرة بديعة غريبة) منقولة عن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ صاحب قلعة شيزر وكان سديد المذكور مقصودا من البلاد ممدوحا مدحه جماعة من الشعراء كابن الخياط والخفاجي وغيرهما وله شعر جيد أيضا ومنه قوله وقد غضب على مملوكه فضربه:

أسطو عليه وقلبي لو تمكن من … كفي غلهما غيظا إلى عنق
وأستعين إذا عاقبته حنقا … وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وكان موصوفا بقوة الفطنة ويحكى عنه في ذلك حكاية عجيبة وهي أنه كان يتردد على حلب قبل تملكه قلعة شيزر وصاحب حلب يومئذ تاج الملوك محمود ابن صالح بن مرداس فجرى أمر خاف سديد الملك منه على نفسه فخرج من حلب إلى طرابلس الشام وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده فتقدم محمود صاحب حلب الى كاتبه أبي نصر محمد بن الحسين بن النحاس الحلبي أن يكتب إلى سديد الملك كتابا يتشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه الى حلب ففهم الكاتب أنه يقصد له شرا إذا جاء إليه وكان

ومثل من صحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطا مائلا فاعتمد عليه ليقيمه فخر الحائط عليه فأهلكه قال الشاعر:

ومعاشر السلطان شبه سفينة * فى البحر ترجف دائما من خوفه
ان أدخلت من مائه فى جوفها * يغتالها مع مائها فى جوفه

وفى كتاب كليلة ودمنة لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك فانهم لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ولا يرغبون فيك إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقربوك عند ذلك فاذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك ولا ود للسلطان ولا إخاء والذنب عنده لا يغفر * وقالت الحكماء صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف * وقال محمد بن واسع والله لسف التراب ولقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين * وقال محمد بن السماك الذباب على العذرة خير من العابر على أبواب الملوك * وقيل من صحب السلطان قبل أن يتأدب فقد غرر بنفسه * وقال ابن المعتز من شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذل الآخرة وعنه إذا زادك السلطان تأنيسا وإكراما فزده تهيبا واحتشاما * وقال أبو على الصغانى إياك والملوك فان من والاهم أخذوا ماله ومن عاداهم أخذوا راسه وقيل مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة عقل وصبر ومال وتحته مكتوب كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان وقال حسان ابن ربيع الحميرى لا تثقن بالملك فانه ملول ولا بالمرأة فانها خئون ولا بالدابة فانها شرود وقال عبيد بن عمير ما ازداد رجل من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعداً ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه ولا كثر ماله إلا كثر حسابه وقال ابن المبارك رحمه الله:

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا * ولا أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما اسـ * ـتغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم فى ولاة بنى مروان:

إذا ماقطعتم ليلكم بمدامكم * وأفنيتمو أيامكم بمنام * فمن ذا الذى يغشاكم فى ملمة
ومن ذا الذى يغشاكم بسلام * رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة * بلثم غلام أو بشرب مدام
ولم تعلموا أن اللسان موكل * بمدح كرام أو بذم لئام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك فقالوا ان الملوك يستعظمون فى الثواب رد الجواب ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب وقيل شر الملوك من أمنه الجرىء وخافه البرىء والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم المصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ الباب السادس عشر فى ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك ﴾

قال الله تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام واجعل لى وزيرا من أهلى فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ثم ذكر حكمة الوزارة فقال أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة ثم قال كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة وكما يحتاج

الكاتب صديقا إلى سديد الملك فكتب الكاتب كما أمره مخدومه إلى أن بلغ الى آخره وهو ان شاء الله فشدد النون وفتحها فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن بمجلسه من خواصه فاستحسنوا عبارة الكتاب واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه وايثاره لقربه فقال سديد الملك انى أرى مالا ترون فى الكتاب ثم أجاب عن الكتاب بما اقتضاه الحال وكتب فى جملة فصول الكتاب أنا الخادم المقر بالانعام وكسر الهمزة من أنا وشدد النون فلما وصل الكتاب إلى محمود ووقف عليه سر بما فيه وقال لأصدقائه قد علمت أن الذى كتبته لا يخفى على مثله وقد أجاب بما طيب قلبي عليه وكان الكاتب قد قصد قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأجاب سديد الملك بقوله انا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها وكانت هذه الحكاية معدودة من شدة تيقظه وفهمه انتهى ﴿ وحكى الصابى في كتاب الأعيان والأماثل ﴾ أن رجلا اتصلت عطلته وانقطعت مادته فزور كتابا من الوزير أبى الحسن على ابن الفرات وزير المقتدر بالله العباسى الى ابن زيتون المارداني عامل مصر يتضمن المبالغة فى الوصايا وزيادة الاكرام وعمل المصالح فلما دخل مصر اجتمع بابن زيتون ودفع اليه الكتاب فلما قرأ ابن زيتون الكتاب ارتاب فى أمره لتغير لفظ الخطاب عما جرت به العادة وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله فراعاه مراعاة قريبة ووصله صلة قليلة وحبسه عنده على وعد وعده به ثم كتب الى أبى الحسن بن الفرات

يذكر الكتاب الذى ورد عليه وأنفذه بعينه فلما وقف عليه ابن الفرات عرف الرجل وذكر ما كان عليه من الحرمة وماله من الحقوق القديمة عليه فعرضه على كتابه وعرفهم الصورة وعجب اليهم منها وقال لهم ما الرأى فى مثل هذا الرجل فقال بعضهم تأديبه وقال بعضهم قطع ابهامه وقال أجلهم محضرا يكشف لابن زيدون أمره ويرسم له بطرده وحرمانه فقال ابن الفرات ما أبعد كم من الخير رجل توسل بنا وحمل المشقة إلى مصر وأمل الخير بجاهنا والانتساب الينا يكون حاله عند أحسنكم نظرا تكذيب ظنه وتخييب سعيه والله لا كان هذا أبدا ثم أخذ القلم ووقع على الكتاب المزور هذا كتابى ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتك فيه شبهة وليس كل من خدمنا نعرفه وهذا رجل خدمنى أيام نكبته فأحسن تفقده ورفده وصرفه فيما يعود نفعه عليه ثم رد الكتاب إلى ابن زيدون من يومه ومضت على ذلك مدة طويلة اذ دخل على ابن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبزة جميلة فأقبل يدعو له ويثنى عليه ويبكى ويقبل يده والارض فقال له ابن الفرات من أنت بارك الله فيك قال صاحب الكتاب المزور إلى ابن زيدون الذى صححه كرم الوزير بفضله فضحك ابن الفرات وقال كم وصل اليك منه قال أوصل الى من ماله ومن قسط قسطه على عماله عشرين ألف دينار فقال الحمد لله على صلاح حالك ثم اختبره فوجده كاتبا سديدا فاستخدمه انتهى والحمد لله على ذلك ﴿ ذكر الحصرى فى كتابه المسمى بالدر المصون فى ...

أشجع الناس إلى السلاح وأفره الخيل إلى السوط وأحد الشفار إلى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله وقال وهب بن منبه قال موسى لفرعون آمن ولك الجنة ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاوره فى ذلك فقال له هامان بينما أنت إله تعبد إذ صرت تعبد فأنف واستكبر وكان من أمره ما كان وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالا ولبئس القرناء شر قرين لشر خدين وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة وفى الأمثال نعم الظهير الوزير وأول ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله فى انتخاب الوزراء واستنقاء الجلساء ومحادثة العقلاء فهذه ثلاث خلال تدل على كماله وبهذه الخلال يجمل فى الخلق ذكره وترسخ فى النفوس عظمته والمرء موسوم بقرينه وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم وفى كتاب كليلة ودمنة لا يصلح السلطان الا بالوزراء والأعوان وقال شريح بن عبيد لم يكن فى بنى اسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب اليه صحائف فى كل صحيفة ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه ومثل الملك الخير والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافى فيه التمساح فلا يستطيع المرء دخوله وان كان سابحا والى الماء محتاجا ومثل السلطان كمثل الطبيب ومثل الرعيه كمثل المرضى ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء فاذا كذب السفير بطل التدبير وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فاذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس فى الرجل فيقتله الملك فمن ههنا شرط فى الوزير أن يكون صدوقا فى لسانه عدلا فى دينه مأمونا فى أخلاقه بصيرا بأمور الرعية وتكون بطانة الوزير أيضا من أهل الأمانة والبصيرة وليحذر الملك أن يولى الوزارة لئيما فاللئيم اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالأشراف وتكبر على ذوى الفضل ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والأدب فوجد عنده رجلا ذميا كان الخليفة يميل اليه ويقربه فقال الوزير منشدا :

يا ملكا طاعته لازمه ❊ وحبه مفترض واجب
ان الذى شرفت من أجله ❊ يزعم هذا أنه كاذب

وأشار إلى الذمى فسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك فسأله فلم يجد بدا من أن يقول هو صادق فاعترف بالاسلام وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره إذا رأيتنى غضبان فادفع الى رقعة بعد رقعة وكان فى الأولى انك لست باله وانك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضا وفى الثانية ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء وفى الثالثة اقض بين الناس بحكم الله فانهم لا يصلحهم إلا ذلك ولما كانت أمور المملكة عائدة الى الوزراء وأزمة الملوك فى أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير واذا أحبك الوزير فنم ولا تخش الأمير ومثل السلطان كالدار والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر فكما أن من لم ينظر فى المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رءوفا بهم

﴿واعلم﴾ أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وان استقلها وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس وكما أن المرآة لاتريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدأ كذلك السلطان لايكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير وصحة فهمه ونقاء قلبه والله تعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

﴿ الباب السابع عشر فى ذكر الحجاب والولاية ومافيها من الغرر والخطر ﴾

(أما الحجاب) فقد قيل لاشىء أضيع للملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب وقيل إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم واذا عظم الحجاب هجمت على الظلم وقال ميمون بن مهران كنت عند عمر بن عبدالعزيز فقال لحاجبه من بالباب فقال رجل أناخ ناقته الآن يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ فأذن له أن يدخل فلما دخل قال حدثني أبى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من ولى شيئا من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجبه الله عنه يوم القيامة فقال عمر لحاجبه الزم بيتك فما رؤى على بابه بعد ذلك حاجب وكان خالد بن عبدالله القشيرى يقول لحاجبه اذا أخذت مجلسى فلا تحجبن عنى أحداً فان الوالى لايحتجب إلا لثلاث عيب يكره أن يطلع عليه أحد أو ريبة يخاف منها أن تظهر أو بخل يكره معه أن يسأل شيئا وكانت العجم تقول لاشىء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك ولاشىء أهيب للرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته وقيل لبعض الحكماء ما الجرح الذى لايندمل قال حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يرده بغير قضائها قيل فما الذى هو أشد منه قال وقوف الشريف بباب الدنىء ثم لايؤذن له ووقف عبدالله بن العباس بن الحسن العلوى على باب المأمون يوما فنظر إليه الحاجب ثم أطرق فقال عبدالله لقوم معه إنه لو أذن لنا لدخلنا ولو صرفنا لانصرفنا ولو اعتذر إلينا لقبلنا وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه ثم تمثل بهذا البيت .

وماعن رضى كان الحمار مطيتى ٭ ولكن من يمشى سيرضى بما ركب

ثم انصرف فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضربا شديدا وأمر لعبدالله بصلة جزيلة وعشر دواب

(قال الشاعر) :

رأيت أناسا يسرعون تبادرا ٭ إذا فتح البواب بابك اصبعا
ونحن جلوس ساكتون رزانة ٭ وحلما الى أن يفتح الباب أجمعا

ووقف رجل خرسانى بباب أبى دلف العجلى حينا فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف فى وصولها اليه وفيها

إذا كان الكريم له حجاب ٭ فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه أبو دلف بقوله : إذا كان الكريم قليل مال ٭ ولم يعذر تعلل بالحجاب
وأبواب الملوك محجبات ٭ فلا تستنكرن حجاب بابى

ومن محاسن النظم فى ذم الاحتجاب قول بعضهم :

سأهجركم حتى يلين حجابكم ٭ على أنه لابد سوف يلين
خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها ٭ وان لم تكن خانت فسوف تخون

وقال آخر ماذا على بواب داركم الذى ٭ لم يعطنا إذنا ولايستأذن
لو ردنا ردا جميلا عنكم ٭ أو كان يدفع بالتى هى أحسن

المورى المكنون﴾ أن الجاحظ ذكر للواثق لتأديب بعض أولاده فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه قال الجاحظ فخرجت من عنده فرأيت محمد بن ابراهيم وهو يريد الانحدار إلى مدينة السلام فعرض على الانحدار معه فانحدرت ونصبت ستارة وامر بالغناء فاندفعت عوادة تغنى

كل يوم قطيعة وعتاب ٭ ينقضى دهرنا ونحن غضاب
ليت شعرى أنا خصصت بهذا ٭ دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

ثم سكتت فأمر طنبورية فغنت

وارحمتا للعاشقينا ٭ ماإن أرى لهم معينا
كم يهجرون ويصرمو ٭ ن ويقطعون فيصبرونا

فقالت لها العوادة فيصنعون ماذا فقالت يصنعون هكذا وضربت بيدها على الستارة وبدت كأنها فلقة بدر ثم رمت بنفسها فى الماء قال وكان على رأس محمد غلام يضاهيها فى الجمال وفى يده مذبة فألقى المذبة من يده لما رأى ماصنعت الجارية ثم أتى إلى موضع سقوطها ونظر اليها وأنشد :

أنت التى غرقتنى ٭ بعد القضا لو تعلمينا

ورمى بنفسه فى أثرها فادار الملاح الحراقة فاذا بهما متعانقين ثم غاصا فهال ذلك محمدا واستعظمه وقال ياعمرو ان لم تحدثنى حديثا يسلينى عنهما ألحقتك بهما قال الجاحظ فحضرنى خبر سليمان بن عبدالملك وقد قعد يوما للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت قصة مكتوب فيها ان رأى أمير المؤمنين أعزه

وقال آخر: أمرت بالتسهيل فى الاذن لى * ولم ير الحاجب أن يأذنا
فلن ترانى بعدها عائدا * ولن تراه بعد مستأذنا

وقال آخر: ولقد رأيت بباب دارك جفوة * فيها لحسن صنيعك التكدير
مابال دارك حين تدخل جنة * وباب دارك منكر ونكير

وقال آخر: إذا جئت ألقى عند بابك حاجبا * محياه من فرط الجهالة حالك
ومن عجب مغناك جنة قاصد * وحاجبها من دون رضوان مالك

وقال آخر: سأترك بابا أنت تملك إذنه * ولو كنت أعمى عن جميع المسالك
فلو كنت بواب الجنان تركتها * وحولت رجلى مسرعا نحو مالك

وقال آخر: ماذا يفيدك أن تكون محجباً * والعبد بالباب الكريم يلوذ
ماأنت إلا فى الحصار معى فلا * تعجب فكل محاصر مأخوذ

وقال أبو تمام: سأترك هذا الباب مادام اذنه * على ماأرى حتى يلين قليلا
فما خاب من لم يأته متعمداً * ولافاز من قد نال منه وصولا
إذا لم نجد للاذن عندك موضعاً * وجدنا إلى ترك المجيء سبيلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب قل له ان الكرى قد خطب الى نفسى وانما هى هجعة وأهب فخرج الحاجب فقال له الرجل ماالذى قال لك قال قال كلاما لا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة اذنه وبذل طعامه وقال عمرو بن مرة الجهنى لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول مامن أمير يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسئلة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسئلته * وجاء النامى الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال :

سأصبر إن جفوت فكم صبرنا * لمثلك من أمير أووزير
رجوناهم فلما أخلفونا * تمادت فيهم غير الدهور
فبتنا بالسلامة وهى غنم * وباتوا فى المحابس والقبور
ولما لم ننل منهم سروراً * رأينا فيهم كل السرور

وأنشدوا فى ذلك أيضا: قل للذين تحجبوا عن راغب * بمنازل من دونها الحجاب
ان حال عن لقيا كم بوابكم * فالله ليس لبابه بواب

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه فهتف بالبكاء فأتى إليه الناس وفيهم كعب فقال ومايبكيك ياسعد فقال ومالى لا أبكى وقد ذهب الاعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة فقال كعب لاتبك فان فى الجنة قصرا من ذهب يقال له عدن أهله الصديقون والشهداء وأنا أرجو أن تكون من أهله * واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه فقال :

فى كل يوم لى ببابك وقفة * أطوى إليه سائر الأبواب
واذا حضرت رغبت عنك فانه * ذنب عقوبته على البواب

(وأما ذكر الولايات ومافيها من الخطر العظيم) فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب جاء فى التفسير أن مع اتباع الهوى أن يحضر الخصمان

الله أن يخرج إلى جاريته فلانة حتى تغنى ثلاثة أصوات فعل إن شاء الله تعالى فاغتاظ سليمان لذلك وأمر من يأتيه برأسه ثم أردفه رسولا آخر أن يدخل به اليه فلما دخل قال ماحملك على ماصنعت قال الثقة بحلمك والاتكال على عفوك فأمره بالقعود حتى لم يبق أحد من بنى أمية إلا خرج ثم أمر بالجارية فأخرجت ومعها عود فقال لها غني مايقول لك فقال الفتى غنى

تألق البرق نجديا فقلت له * أيها البرق انى عنك مشغول

فغنته فقال له سليمان أتأمر لى برطل فأتى به فشربه ثم قال لها غنى

حبذا رجعها إليها يداها * فى يدى درعها تحل الازارا

فغنته فقال لسليمان أتأمر لى برطل فأتى به فشربه ثم قال غني

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل * وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

فغنته فقال لسليمان أتأمر لى برطل فما استتم شربه حتى صعد على الفور على قبة لسليمان فرمى بنفسه على دماغه فمات فقال سليمان إنا لله وإنا إليه راجعون أتراه الأحمق ظن أنى أخرج إليه جاريتى وأردها إلى ملكى ياغلمان خذوا بيد هذه الجارية وانطلقوا بها إلى أهله ان كان له أهل والا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عليه فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفيرة فى دار سليمان اتخذت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم ثم قالت

من مات عشقا فليمت هكذا * لاخير فى عشق بلا موت

فرمت بنفسها فى الحفيرة فماتت فسرى عن يد وأحسن صلق

بين يديك فتود أن يكون الحق للذي في قلبك حبه خاصة وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه قال ابن عباس رضي الله عنهما كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناسا من أهل جرادة امرأته وكانت من أكرم نسائه عليه تحاكموا اليه مع غيرهم فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدا ه وروى عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال قال لي رسول الله ﷺ يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها وان أعطيتها عن مسئلة وكلت اليها وقال معقل بن يسار رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحته الا لم يجد رائحة الجنة وفي الحديث من ولي من أمور المسلمين شيئا ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة فأبي وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا كان يوم القيامة يؤتي بالوالي فيقف على جسر جهنم فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه ثم يأمر الله تعالى بالعظام فترجع إلى أماكنها فان كان لله مطيعا أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته وان كان لله عاصيا انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفا فقال عمر رضي الله عنه سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع قال نعم وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان إي والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفا في واد يلتهب التهابا فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال إنا لله وإنا اليه راجعون من يأخذها بما فيها فقال سلمان من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض وروى أبو داود في السنن قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن أبي عريف على الماء واني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده فقال النبي ﷺ العرفاء في النار وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إن أشد الناس عذابا يوم القيامة الامام الجائر وقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة وقال الحسن البصري إن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال يا رسول الله خر لي فقال اقعد في بيتك وقال أبو هريرة رضي الله عنه ما من أمير يؤمر على عشرة الا جيء به يوم القيامة مغلولا لا ينجاه عمله أو أهلكه وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابا يوم القيامة قال سليمان قل فقال طاوس أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فجار في حكمه فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه وقال ابن سيرين جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيرون اليه في ألواحهم فلم ينظر اليها وقال هذا حكم لا أتولى حكما أبدا وقال أبو بكر بن أبي مريم حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا له دلنا على الماء فقال احلفوا لي ثلاثا وثلاثين يمينا أنه لم يكن صرافا ولا مكاسا ولا عريفا ويروى ولا عرافا ولا بريدا وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثا وثلاثين يمينا كما قال فدلهم على الماء فقالوا له أعنا على غسله فقال لا حتى تحلفوا لي ثلاثا وثلاثين يمينا كما تقدم فحلفوا له فأعانهم على غسله ثم قالوا له تقدم فصل عليه فقال لا حتى تحلفوا لي ثلاثا وثلاثين يمينا كما تقدم فحلفوا له فصلى عليه ثم التفتوا فلم يجدوا أحدا فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام وقال أبو ذر رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي واني أراك ضعيفا فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم (ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق) ما حكي أن

انتهى (وكتب) أبو منصور أفتكين التركي متولي دمشق إلى عضد الدولة بن بويه كتابا مضمونه إن الشام قد صفا وصار في يدي وزال عنه حكم صاحب مصر وان قويتني بالأموال والرجال والعدد حاربت القوم في مستقرهم فكتب اليه عضد الدولة في جوابه هذه الكلمات وهي متشابهة في الخط لا تعرف الا بعد النقط والضبط وهي غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك تهدا بهذا قال القاضي شمس الدين ابن خلكان تغمده الله برحمته لقد أبدع غاية الابداع (قلت) وأبدع منه قول السلامي فيه من قصيدته التي منها

اليك طوى عرض البسيطة جاعل
قصار المطايا أن يلوح لها القصر
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي
ثلاثة أشياء كما اجتمع النسر
وبشرت آمالي بملك هو الورى
ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

قال ابن خلكان هذا على الحقيقة هو السحر الحلال كما يقال ه وقد أخذ هذا المعنى القاضي أبو بكر الارجاني فقال

يا سائلي عنه لما جئت أمدحه
هذا هو الرجل العاري من العار
لقيته فرأيت الناس في رجل
والدهر في ساعة والأرض في دار

ولكن أين الثريا من الثرى ه وألم أبو الطيب المتنبي أيضا بهذا المعنى لكنه ما استوفى ملكا

يقوله هو الغرض الاقصى ورؤيتك المنى ه ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق ولكن ليس لأحد منهما طلاوة بيت السلامي

انتهى (نادرة لطيفة) كان أبو بكر المحلي يتولى نفقات أبي المسك كافور الاخشيدي وكان له في كل عيد أضحى عادة وهو أن يسلم إلى أبي بكر المذكور بغلا محملا ذهبا وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى (٩٥) الجبانة وما بينهما قال أبو بكر المذكور وكان يمشي معي صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت اسمه الجريدة فاطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة وأقول الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدي يهنئك بالعيد ويقول لك اصرف هذا في منفعتك فارفع إليه ما جعل له وفي آخر وقت زاد في الجريده الشيخ أبا عبد الله بن جابار وجعل له في ذلك العيد مائة دينار فطفت في تلك الليلة وأنفقت المال في أربابه ولم يبق إلا الصرة فجعلتها في كمي وسرت مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة فطرقت الباب فنزل الينا الشيخ وعليه أثر السهر فسلمت عليه فلم يرد علي وقال ما حاجتك قلت الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالاسلام فقال والي بلدنا قلت نعم قال حفظه الله الله يعلم انى أدعوله في الخلوات وادبار الصلوات بما الله سامعه ومستجيبه قلت وقد انفذ معي نفقة وهي هذه الصرة ويسألك قبولها لتصرف في مؤنة هذا العيد المبارك فقال نحن رعيته ونحبه في الله تعالى وما نفسد هذه المحبة بصلة فراجعته القول فتبين لي الضجر في وجهه والقلق واستحييت من الله أن أقطعه عما هو عليه فتركته وانصرفت قال فجئت فوجدت الأمير

ملكا من ملوك الفرس يقال له أردشير وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع وأن هذه البنت بكر ذات خدر فسير أردشير من يخطبها من أبيها فامتنع من اجابته ولم يرض بذلك فعظم ذلك على أردشير وأقسم بالايمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة وليمثلن بهما أخبث مثلة فسار اليه أردشير في جيوشه فقاتله فقتله أردشير وقتل سائر خواصه ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنا وجمالا وقدا واعتدالا فبهت أردشير من رؤيته اياها فقالت له أيها الملك انى ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية وان الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت وانه أسرني في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر فلما رأتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني وسألت أباها أن تتركني عندها لتأنس بي فتركني لها فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك فقال أردشير وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال فمالت نفسه اليها فأخذها للتسري وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها ثم انه واقعها وأزال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق انها تحدثت معه يوما وقد رأته منشرح الصدر فقالت له أنت غلبت أبي وأنا غلبتك فقال لها ومن أبوك فقالت له هو ملك من بحر الأردن وأنا ابنته التي خطبتها منه وانى سمعت انك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت والآن هذا ولدك في بطني فلا يتهيأ لك قتلي فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه فانتهرها وخرج من عندها مغضبا وعول على قتلها ثم ذكر للوزير ما اتفق له معها فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا وانه لا يقبل فيها شفاعة شافع فقال أيها الملك ان الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيتها أنت وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال ان امرأة قهرت رأى الملك وحنثته في يمينه لأجل شهوة النفس ثم قال أيها الملك ان صورتها مرحومة وحمل الملك معها وهي أولى بالستر ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق فقال له الملك نعم ما رأيت خذها غرقها فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلا إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان فتحيل إلى أن طرح شيئا في البحر وأوهم من كان معه أنها الجارية ثم إنه أخفاها عنده فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرقها فشكره على ما فعل ثم ان الوزير ناوله الملك حقا مختوما وقال أيها الملك انى نظرت مولدي فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم وان لي أولادا وعندي مال قد ادخرته من نعمتك خذه إذا أنا مت ان رأيت وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فانه ارثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء اكتسبته منه إلا هذا الجوهر فقال له الملك بطول الرب في عمرك ومالك لك ولأولادك سواء كنت حيا أو ميتا فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة فأخذه الملك وأودعه عنده في صندوق ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولدا ذكرا جميلا حسن الخلقة مثل فلقة القمر فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته فرأى انه ان خترع له اسما وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك فان شاه ملك وبور ابن ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر

وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية وهو يوهم انه مملوك له اسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد وقد طعن في السن وأقعده الهرم فمرض واشرف على الموت فقال للوزير أيها الوزير قد هرم جسمي وضعفت قوتي واني أرى اني ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضى له به فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولي بعده الملك ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها فقال الملك لقد ندمت على تغريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكرا فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال أيها الملك انها عندي حية ولقد وضعت ولدا ذكرا من أحسن الغلمان خلقا وخلقا فقال الملك أحق ما تقول فأقسم الوزير أن نعم ثم قال أيها الملك ان في الوالد روحانية تشهد بأبوة الأب وفي الولد روحانية تشهد ببنوة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبدا واني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلاما في سنه وهيئته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلاهو واني أعطي كل واحد منهم صولجانا وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا ويتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم فكل من مالت اليه نفسه وروحانيته فهو هو فقال الملك نعم التدبير الذي قلت فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فانه كان إذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه فلاحظ أردشير ذلك منه مرارا فقال له أيها الغلام ما اسمك قال شاه بور فقال له صدقت أنت ابني حقا ثم ضمه اليه وقبله بين عينيه فقال له الوزير هذا هو ابنك أيها الملك ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والدا بحضرة الملك فحقق الصدق في ذلك ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها فقبلت يد الملك فرضي عنها فقال الوزير أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى احضار الحق المختوم فأمر الملك باحضاره ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فاذا فيه ذكر الوزير وأنثياه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولا من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة قال فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة وشدة مناصحته فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية واثبات نسب الولد ولحوقه به ثم ان الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى والله تعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين

﴿الباب الثامن عشر فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول﴾

﴿الفصل الأول فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم﴾ قال الله تعالى يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وقال تعالى فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط وقال تعالى

ومن

قد تهيأ للركوب وهو ينتظرني فلما رآني قال ايه يا أبا بكر قلت أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت لك في هذه الليلة وفي هذا اليوم الشريف فقال (٩٦) الحمد لله الذي جعلني لايصال الراحة إلى عباده ثم اخبرته بامتناع ابن جابار فقال ثم هو جدير لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم ثم قال لي عد اليه واركب دابة من دواب النوبة واطرق بابه فاذا نزل اليك فانه سيقول لك ألم تكن عندنا فلا ترد عليه جوابا ثم استفتح واقرأ بسم الله الرحمن الرحيم طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى يا ابن جابار الاستاذ كافور يقول لك ومن كافور العبد الأسود ومن هو مولاه ومن الخلق ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة تلاشى الناس كلهم ههنا أتدري من هو معطيك وعلى من رددت أنت ما سألت وإنما هو أرسل لك يا ابن جابار أنت لا تفرق بين السبب والمسبب * قال أبو بكر فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل إلي فقال لي مثل لفظ كافور فأضربت عن الجواب وقرأت طه ثم قلت له ما قال لي كافور فبكى وقال لي أين ما حملت فخرجت الصرة فأخذها وقال علمنا الأستاذ كيف التصوف فقلت له أحسن الله جزاءك ثم عدت اليه فأخبرته بذلك فسر وسجد شكرا لله تعالى وقال الحمد لله على ذلك (ونقل ابن خلكان في تاريخه) أن أبا عبد الله محمد بن الاعرابي كان

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون وقال رسول الله ﷺ من حكم بين اثنين تحاكما اليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله وعن أبي حازم قال دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما فسلم عليه فلم يرد عليه فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف أخاف أن يكون وجد على خليفة رسول الله ﷺ فكلم عبد الرحمن أبا بكر فقال أتاني وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري وعلمت أن الله سائلي عنهما وعما قالا وقلت وادعى رجل على على عند عمر رضي الله عنهما وعلى جالس فالتفت عمر اليه وقال يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فتناظرا وانصرف الرجل ورجع على إلى مجلسه فتبين لعمر التغير في وجه على فقال يا أبا الحسن مالي أراك متغيرا أكرهت ما كان قال نعم قال وماذاك قال كنيتني بحضرة خصمي هلا قلت يا على قم فاجلس مع خصمك فأخذ عمر رأس على رضي الله عنهما فقبله بين عينيه ثم قال بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور * وعن أبي حنيفة رضي الله عنه القاضي كالغريق في البحر الأخضر الى متى يسبح وان كان سابحا * وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب فقال الضرب بالسياط في الدنيا أهون على من الضرب بمقامع الحديد في الآخرة * وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزا فكتبنا إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فكتب الينا لا تحركوه حتى يقدم اليكم كتابي ثم فتح فاذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان

إذا خان الأمير وكاتباه * وقاضي الارض داهن في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل * لقاضي الأرض من قاضي السماء

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن إرم عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال ان الله مع القاضي ما لم يجر فاذا جار برىء الله منه ولزمه الشيطان وقال محمد بن حريث بلغني أن نصر بن على راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس اليه فكان لا يجيبهم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال اللهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني اليك فقبض * وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء لعلك تريد أن تكون قاضيا لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضيا وقيل أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن ابي موسى الأشعري كان أمير البصرة وقاضيا فيها وكان يقول ان الرجلين يتقدمان الى فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له * وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيي بن اكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيي لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ولم يكن للرجل بينة فأراد أن يحلف المأمون فدفع اليه المأمون ثلاثين الف دينار وقال والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية ان تقول العامة إني تناولتك من جهة القدرة ثم امر ليحيي بمال وأجزل عطاءه * وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله الى ابي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل فقال أبو يوسف قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع يا غلام ائتني بعمرو بن أبي

يزعم أن الأصمعي وأبا عبيدة لا يحسنان شيئا وكان يقول جائز في كلام العرب أن يعاقب بين الضاد والظاء فلا يخطىء من يجعل هذا في موضع هذا وينشد

إلى الله أشكو من خليل أوده * ثلاث خصال كلها لي غائض

ويقول هكذا سمعته بالضاد (ومن النوادر اللطيفة) ورد أبو نصر الفارابي إلى دمشق على سيف الدولة بن حمدان وهو إذ ذاك سلطانها قيل إنه لما دخل عليه وهو بزي الاتراك وكان ذلك زيه دائما وقف فقال له سيف الدولة اجلس فقال حيث أنا أو حيث أنت فقال حيث أنت فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارهم به فقال لهم بذلك اللسان ان هذا الشيخ قد أساء الأدب واني سائله عن أشياء ان لم يعرفها أخرجوا به فقال له أبو نصر بذلك اللسان أيها الأمير اصبر فان الأمور بعواقبها فعجب سيف الدولة منه وعظم عنده ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في أن تأكل قال لا قال فهل لك أن تشرب قال لا فقال هل تسمع قال نعم فأمر سيف الدولة باحضار القيان فحضر كل ماهر في الصنعة بانواع الملاهي فخطأ الجميع فقال له سيف الدولة هل تحسن

هذه الصنعة قال نعم ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها فأخرج منها عيدانا وركبها ثم لعب بها فضحك كل من في المجلس ثم فكها وركبها تركيبا آخر فبكي كل من في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وحركها فنام كل من في المجلس حتى البواب

عمر والنخاس فانه ان قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه الى أمير المؤمنين ثم ان الحاجب اخذ بيده حتى اوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم الى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك الى ملكي فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فان ذلك عمود السلطان وقوام الاديان والله تعالى أعلم (وقال) الارش العكلي يمدح بعض القضاة

رفضت وعطلت الحكومة قبله ٭ في آخرين وملها رواضها

حتى إذا ما قام ألف بينها ٭ بالحق حتى جمعت أوفاضها

(وفي ضد ذلك قول بعضهم)

أبكي وأندب ملة الاسلام ٭ إذ صرت تقعد مقعد الحكام

إن الحوادث ماعلمت كثيرة ٭ وأراك بعض حوادث الأيام

وتقدمت امرأة إلى قاض فقال لها جامعك شهودك فسكتت فقال كاتبه إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك قالت نعم هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك ما رأيت ميتا يقضى بين الاحياء غيرك ٭ وقيل المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الاحكام قاضي منى وقاضي كسكر وقاضي أيدج وهو الذي قال فيه أبو إسحق الصابي

يارب علج أعلج ٭ مثل البعير الاهوج ٭ رأيته مطلعا ٭ خلف باب مرتج

وخلفه عذية ٭ تذهب طورا وتجي ٭ فقلت من هذا ترى ٭ فقيل قاضي أيدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري

رأيت رأسا كدبه ٭ ولحية كالمذبه ٭ فقلت من أنت قل لي ٭ فقال قاضي شلبه

(وتقدمت) امرأة جميلة الى الشعبي فادعت عنده فقضى لها فقال هذيل الأشجعي

فتن الشعبي لما ٭ رفع الطرف اليها ٭ فتنته ببنان ٭ كيف لو رأى معصميها

ومشت مشيا رويدا ٭ ثم هزت منكبيها ٭ فقضي جورا على الخصم ٭ ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطا (وحكي) ابن أبي ليلى قال انصرف الشعبي يوما من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول فتن الشعبي لما ٭ ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبي وقال رفع الطرف اليها ٭ ثم قال أبعده الله أما انا فما قضيت إلا بالحق ٭ وأنشد بعضهم في امين الحكم

تناوتن إذا مشيت تخشعا ٭ حتى تصيب وديعة ليتيم

﴿الفصل الثاني في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون﴾ أما الرشوة فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال لعن الله الراشي والمرتشي ٭ وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تولوا اليهود ولا النصارى فانهم يقبلون الرشا ولا تحل في دين الله الرشا قال الشهيدي وأصحابنا اليوم اقبل للرشا منهم وفي نوابغ الحكم أن البراطيل تنصر الاباطيل وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال من شفع شفاعة ليرد بها حقا أو يدفع بها ظلما فأهدي له فقبل فذلك السحت فقيل له ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم قال الأخذ على الحكم كفر وانشد المبرد رحمه الله تعالى

وكنت إذا خاصمت خصما كببته ٭ على الوجه حتي خاصمتني الدراهم

فتركهم نياما وخرج ٭ وهو الذي وضع القانون وكان منفردا بنفسه لا يجالس الناس وكان مدة إقامته بدمشق لا يكون غالبا إلا عند مجتمع المياه أو مشتبك الرياض وهناك يؤلف كتبه وكان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مسكن ولا مكسب وسأله سيف الدولة في مرتب من بيت المال فقال يكفيني أربعة دراهم ولم يزل على ذلك الى أن توفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق وصلى عليه سيف الدولة وأربعة من خواصه وقد ناهز ثمانين سنة ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير (ومن المنقول من خط القاضي الفاضل) أن نور الدين الشهيد كتب إلى راشد الدين سنان صاحب القلاع الاسماعيلية كتابا يهدده فيه فشق ذلك على سنان فكتب اليه بما هو فوق الوصف بحكاية الحال وهو

ياذا الذي بقراع السيف هددنا .

لاقام مصرع قلب كنت تصرعه

قام الحمام الى البازي يهدده ٭ واستصرخت بأسود الغاب أضبعه

أضحى يسد فم الافعى بأصبعه ٭ يكفيه ماذا تلاقى منه أصبعه

فلما وقفنا على تفصيله وجمله وعلمنا ما هددتنا به من قوله وعمله فيالله العجب

من ذبابة تطن فى أذن الفيل وبعوضة تعد فى التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرناعليهم فما كان لهم من ناصرين أو الحق تدحضون وللباطل تنصرون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون (٩٩) وأما ماصدر من قولك فتلك أمانى كاذبة وخيالات غير صائبة فان الجواهر لا تزول بالأعراض كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض فان عدنا إلى الظواهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله ما أوذى نبي ما أوذيت ولقد علمتم ماجرى على عترته وأهل بيته وشيعته والحال ما حال والأمر مازال ولله الحمد فى الآخرة والأولى إذ نحن مظلومون لا ظالمون ومغصوبون لا غاصبون وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا وما يتمنونه من الفوت ويستقربون به إلى حياض الموت قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين وفى أمثال العامة أو للبط تهددون بالشط فهي ءالبلاء جلبابا وتدرع للرزايا أثوابا وإنك لكالباحث حتفه بظلفه أو الجاذع أنفه بكفه وما ذلك على الله بعزيز ﴿ ومن غرائب الظرف ماحكاه ابن خلكان فى تاريخه ﴾ قال حدثنى من أثق به أن شخصا قال له رأيت فى تأليف أبى العلاء المعرى ماصورته أصلحك الله وأبقاك لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالى لكى يحدث لى

فلما تنازعنا الحكومة غلبت * على وقالت قم فانك ظالم

﴿ وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال ﴾

فقد روى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال من تداين بدين وفى نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بماشاء ومن تداين بدين وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة رواه الحاكم وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال كان رسول الله ﷺ اذا أتى له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن دينه فان قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل ﷺ هل على صاحبكم من دين فقالوا ديناران يارسول الله فعدل النبي ﷺ عنه وقال صلوا على صاحبكم فقال على كرم الله وجهه هما على يارسول الله وهو برىء منهما فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلى رضى الله عنه جزاك الله عنه خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك انه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة * وقال بعض الحكماء الدين هم بالليل وذل بالنهار وهو غل جعله الله فى أرضه فاذا أراد الله أن يذل عبدا جعله طوقا فى عنقه وجاء سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يتقاضى دينا له على رجل فقالوا اخرج إلى الغزو فقال أشهد أن رسول الله ﷺ قال لو أن رجلا قتل فى سبيل الله ثم أحيي ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضى دينه * وعن الزهري قال لم يكن رسول الله ﷺ يصلى على أحد عليه دين ثم قال بعد أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وعليه دين فعلى قضاؤه ثم صلى عليهم وعن جابر لاهم إلا هم الدين ولا وجع إلا وجع العين * وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال من تزوج امرأة بصداق ينوى أن لا يؤديه اليها فهو زان ومن استدان دينا ينوى أن لا يقضيه فهو سارق وقال حبيب بن ثابت ما احتجب إلى شيء استقرضه الا استقرضته من نفسى أرادانه يصبر إلى أن تمكن الميسرة ونظيره قول القائل

وإذا غلى شيء على تركته * فيكون أرخص مايكون اذا غلا

وقال بعضهم أيضا لقد كان القريض سمير قلبي * فألهتنى القروض عن القريض

وقال غيلان بن مرة التميمى وانى لأقضى الدين بالدين بعدما * يرى طالبي بالدين أن لست قاضيا

فأجابه ثعلبة بن عمير إذا ماقضيت الدين بالدين لم يكن * قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال حبا وكرامة ولكن سكن قلبي برهن يساوى ضعف ماتطلبه فقال ياأباسعيد أماتثق بى قال بلى وإن خليل الله كان واثقا بربه وقد قال له ولكن ليطمئن قلبي اللهم أوف عنا دين الدنيا بالميسرة ودين الآخرة بالمغفرة برحمتك ياأرحم الراحمين

﴿ الفصل الثالث فى ذكر القصاص والمتصوفة وماجاء فى الرياء ونحو ذلك ﴾

﴿ أما ماجاء فى ذكر القصاص والمتصوفة ﴾ فقد روى عن خباب بن الأرت قال قال رسول الله ﷺ إن بنى اسرائيل لما قصوا هلكوا وروى أن كعبا كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصص وقال ابن عمر رضى الله عنهما لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة وقال ابن المبارك سألت الثورى من الناس قال العلماء قلت فمن الأشراف قال المتقون قلت فمن الملوك قال الزهاد قلت فمن الغوغاء قال القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام قلت فمن السفهاء قال الظلمة قيل

وهب رجل لقاض خاتما بلا فص فقال وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف وقال قيس بن جبير النهشلي الصعقة التي عند القصاص من الشيطان وقيل لعائشة رضى الله عنها إن أقواما إذا سمعوا القرآن صعقوا فقالت القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فان صعقوا فهو كما قالوا ه وكان بمرو قاض يبكي بمواعظه فاذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبورا صغيرا فيحركه ويقول مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة وقال بعضهم قلت لصوفي بعني جبتك فقال إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد ه وسئل بعض العلماء عن المتصوفة فقال أكلة رقصة ه وعظ عيسى عليه السلام بني اسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب فقال ماذنب الثياب أقبلوا على القلوب فعاتبوها

﴿ وأما ما جاء في الرياء ﴾ فقد قال الله تعالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال قال لي رسول الله ﷺ يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين وقيل لو أن رجلا عمل عملا من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه فهو من أقبح الرياء وقيل كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله في شيء وعن شداد ابن أوس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال الرياء ه وقيل بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله فجاء رجل يريد أن يستظل معه فمنعه وقال إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني فقال له الرجل قد علم الناس أني لست ممن تظله الغمامة فحولها الله تعالى الى ذلك الرجل وقال عبد الأعلى السلمي يوما الناس يزعمون أني مراء وكنت أمس والله صائما ولا أخبرت بذلك أحدا اللهم اصلح فساد قلوبنا واستر فضائحنا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب التاسع عشر في العدل والاحسان والانصاف وغير ذلك ﴾

(اعلم) أرشدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل فقال تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى الآية فلو وسع الخلائق العدل ما قرن الله به الاحسان والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والمحق من المبطل ه واعلم أن عدل الملك يوجب محبته وجوره يوجب الافتراق عنه وأفضل الأزمنة ثوابا أيام العدل وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال لعمل الامام العادل في رعيته يوما واحدا أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عاما وروى عن النبي ﷺ أنه قال عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لكعب الأحبار أخبرني عن جنة عدن قال يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل فقال عمر والله ما أنا بنبي وقد صدقت رسول الله ﷺ وأما الامام العادل فاني أرجو أن لا أجور وأما الشهادة فاني لي بها قال الحسن فجعله الله صديقا شهيدا حكما عدلا وسأل الاسكندر حكماء أهل بابل أيما أبلغ عندكم الشجاعة أو العدل قالوا إذا

أنسك يا زين الاخلاء فما مثلك من غير عهدا أو غفل وسأله من أي الأبحر وهل هو بيت واحد أم أكثر فان كان أكثر فهل أبياته على روى واحد أو مختلفة الروى قال فافكر فيه ثم أجابه بجواب حسن قال ابن خلكان قلت للقائل اصبر حتى أنظر فيه ولا تقل ما قاله فأجاب القاضي شمس الدين بن خلكان بعد حسن النظر بما أجاب به عنه الرجل وهذه الكلمات تخرج من بحر الرجز وتشتمل على أربعة أبيات في روى اللام وهي على صورة يسوغ استعمالها عند العروضيين ومن لا يكون له بهذا الفن معرفة ينكرها لأجل قطع الموصول منها ولابد من الاتيان بهذا النظم صورة ذلك وهي

اصلحك الله وأبـ ... قاك لقد كان من الـ
واجب أن تأتينا الـ ... يوم الى منزلنا الـ
خالي لكي يحدث لي ... أنسك يا زين الاخـ
لاء فما مثلك من ... غير عهدا أو غفل

(قلت) وعلى ذكر أبي العلاء الضرير يعجبني قول مظفر بن جماعة الضرير قالوا اعشقت وأنت أعمى

ظبيا كحيل الطرف ألمى ... وحلاه ما عاينتها
وتقول قد شغفتك وهما ... وخياله بك في المنا
م فما أطاف ولا ألمـ ... من أين أرسل للفؤا
د وأنت لم تنظره سهما ... ومتى رأيت جماله
حتى كساك هواه سقما ... وبأي جارحة وصلـ
ـت لوصفه نثرا ونظما ... استعملتا

استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة ويقال عدل السلطان أنفع من خصب الزمان وقيل اذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته * وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو اليه من خراب مدينته ويسأله مالا يرمها به فكتب اليه عمر قد فهمت كتابك فاذا قرأت كتابى فحصن مدينتك بالعدل ونق طرقها من الظلم فانه مرمتها والسلام * ويقال ان الحاصل من خراج سواد العراق فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف فلم يزل يتناقص حتى صار فى زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف فلما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ارتفع فى السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف وفى الثانية إلى ستين ألف ألف وقيل أكثر وقال ان عشت لابلغنه إلى ما كان فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فمات فى تلك السنة * ومن كلام كسرى لاملك إلا بالجند ولا جند إلا بالمال ولا مال إلا بالبلاد ولا بلاد إلا بالرعايا ولا رعايا إلا بالعدل (ولما) مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور فكتب المنصور لعامله استوف لأمير المؤمنين حقه وفرق ما بقى بين الغرماء فلم يلتفت إلى كتابه وضرب للمنصور بسهم من المال كما ضرب لأحد الغرماء ثم كتب للمنصور انى رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء فكتب إليه المنصور ملئت الأرض بك عدلا وكان أحمد بن طولون والى مصر متحليا بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم (حكى) أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يوما فلقيها بعض صالحى مصر ومعها غلام يحمل عوده فكسره فدخل العباس اليه وأخبره بذلك فأمر باحضار ذلك الرجل الصالح فلما أحضر اليه قال أنت الذى كسرت العود قال نعم قال أفعلمت لمن هو قال نعم هو لابنك العباس قال أفما أكرمته لى قال أأكرمه لك بمعصية الله عز وجل والله تعالى يقول والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ورسول الله ﷺ يقول لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق فاطرق أحمد بن طولون عند ذلك ثم قال كل منكر رأيته فغيره وأنا من ورائك * ووقف يهودى لعبد الملك بن مروان فقال ياأمير المؤمنين ان بعض خاصتك ظلمنى فانصفنى منه وأذقنى حلاوة العدل فأعرض عنه فوقف له ثانيا فلم يلتفت اليه فوقف له مرة ثالثة وقال ياأمير المؤمنين انا نجد فى التوراة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه ان الامام لا يكون شريكا فى ظلم أحد حتى يرفع اليه فاذا رفع اليه ذلك ولم يزله فقد شاركه فى الظلم والجور فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث فى الحال الى من ظلمه فعزله وأخذ لليهودي حقه منه (وروي) أن رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له فأتى الى المنصور فقال له أصلحك الله ياأمير المؤمنين أأذكر حاجتى أم أضرب لك قبلها مثلا فقال بل اضرب المثل فقال إن الطفل الصغير اذا نابه أمر يكرهه فانما يفزع الى أمه اذ لا يعرف غيرها وظنا منه أن لا ناصر له غيرها فاذا ترعرع واشتد كان فراره الى أبيه فاذا بلغ وصار رجلا وحدث به أمر شكاه الى الوالى لعلمه انه أقوى من أبيه فاذا ازداد عقله شكاه الى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه فان لم ينصفه السلطان شكاه الى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان وقد نزلت بى نازلة وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى فان أنصفتنى والا رفعت أمرى الى الله تعالى فى الموسم فانى متوجه الى بيته وحرمه فقال المنصور بل ننصفك وأمر أن يكتب الى واليه برد ضيعته اليه وكان الاسكندر يقول ياعباد الله انما الحكم الله الذى فى السماء الذى نصر نوحا بعد حين الذى يسقيكم الغيث عند الحاجة واليه مفزعكم عند الكرب والله لا يبلغنى ان الله

فأجبت انى موسوى العشق انصاتا وفهما أهوى بجارحة السماع ولاأرى ذات المسمى (ويعجبنى أيضا قول ضرير آخر) وغادة قالت لأترابها ياقوم ماأعجب هذا الضرير أيعشق الانسان مالا يرى فقلت والدمع بعينى غزير ان لم تكن عينى رأت شخصها فانها قد مثلت فى الضمير (ومثل هذا) قول المهذب عمر بن الشحنة وانى امرؤ أحببتكم لمحاسن سمعت بها والأذن كالعين تعشق وتقدمه بشار بقوله ياقوم أذني لبعض القوم عاشقة والاذن تعشق قبل العين أحيانا (ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة) فى كتابه المسمى بسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون عن على بن أبى طالب أنه قال سبحان الله ما أزهد كثيراً من الناس فى الخير عجبا لرجل يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه أهلا للخير ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا وكان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فانها تدل على سبل النجاح فقام إليه رجل فقال ياأمير المؤمنين أسمعته من النبى صلى الله عليه وسلم قال نعم لما أتى بسبايا طيء وقعت جارية بها جميلة لما رأيتها أعجبت بها فلما تكلمت نسيت جمالها بفصاحتها فقالت يامحمد ان رأيت أن تخلى سبيلى ولا تشمت بى أحياء العرب فانى

ابنة سيد قومى وان أبى كان يفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى ويفشى السلام ولا يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائي فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذه صفات المؤمنين خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق والمنقول عن حاتم فى زيادة الكرم كثير ﴿من ذلك﴾ ماحكاه المدائنى قال أقبل ركب من بنى أسد وبنى قيس يريدون النعمان فلقوا حاتما فقالوا تركنا قومنا يثنون عليك وقد أرسلوا إليك رسالة قال وماهى فأنشده الأسديون شعرا للنابغة فيه فلما أنشدوه قالوا انا نستحى أن نسألك شيئا وان لنا حاجة قال وماهى قالوا صاحب لنا قد أرجل يعنى فقدت راحلته فقال حاتم خذوا فرسى هذه فاحملوه عليها فأخذوها وربطت الجارية فلوها بثوبها فأفلت يتبع أمه فتبعته الجارية لترده فصاح حاتم ماتبعكم فهو لكم فذهبوا بالفرس والفلو والجارية (وقيل) أجود العرب فى الجاهلية ثلاثة حاتم الطائى وهرم ابن سنان وكعب بن مامة وحاتم كان أشهرهم بالكرم ذكر أنه أدرك مولد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وحكى الهيثم بن عدى﴾ قال تمارى ثلاثة فى أجواد الاسلام فقال رجل أسخى الناس فى عصرنا هذا عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب وقال آخر أسخى الناس عرابة الأوسى وقال آخر بل قيس بن سعد بن عبادة وأكثروا الجدال فى ذلك وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة فقال لهم رجل قد أكثرتم الجدال فى ذلك فما عليكم أن يمضى كل واحد منكم

تعالى أحب شيئا إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلى ولا أبغض شيئا إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلى وقد أنبئت أن الله تعالى يحب العدل فى عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض فويل للظالم من سيفى وسوطى ومن ظهر منه العدل من عمالى فليتكىء فى مجلسى كيف شاء وليتمن على ماشاء فلن تخطئه أمنيته والله تعالى المجازى كلا بعمله ويقال اذا لم يعمر الملك ملكه بالانصاف خرب ملكه بالعصيان (وقيل) مات بعض الاكاسرة فوجدوا له سفطا ففتح فوجد فيه حبة رمان كأكبر مايكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها هذه من حب رمان عمل فى خراجه بالعدل (وقيل) تظلم أهل الكوفة من واليهم فشكوه الى المأمون فقال ماعلمت فى عمالى أعدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه فقال رجل منهم ياأمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والانصاف منك فان كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدا بلدا حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذى لحقنا ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا واذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فنزل بواصل بن عطاء وقال بلغنى أبيات عن سليم بن يزيد العدوى فى العدل فقم بنا اليه فأشرف عليهم من غرفة فقال لواصل من هذا الذى معك قال عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم فقال رحب على رحب وقرب على قرب فقال إنه يحب أن يسمع أبياتك فى العدل فقال سمعا وطاعة وأنشد يقول:

حتى متى لانرى عدلا نسر به ٭ ولا نرى لولاة الحق أعوانا ٭ مستمسكين بحق قائمين به
اذا تلون أهل الجور ألوانا ٭ ياللرجال لداء لادواء له ٭ وقائد ذى عمى يقتاد عميانا

فقال المنصور وددت لو أنى رأيت يوم عدل ثم مت وقيل لما ولى عمر بن عبد العزيز أخذ فى رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا الى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها ان رسول الله ﷺ سلك طريقا فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ فلما أفضى الأمر الى معاوية جره يمينا وشمالا وايم الله لئن مد فى عمرى لأردنه الى ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه فقالت له يا ابن أخى إنى أخاف عليك منهم يوما عصيبا فقال كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا أمننيه الله وقال وهب بن منبه اذا هم الوالى بالجور أو عمل به أدخل الله النقص فى أهل مملكته فى الأسواق والزروع والضروع وكل شىء واذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة فى أهل مملكته كذلك وقال الوليد بن هشام إن الرعية لتصلح بصلاح الوالى وتفسد بفساده وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان ملكا من الملوك خرج يسير فى مملكته متنكرا فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس فقال له الملك مابال حلبها نقص أرعت فى غير مرعاها بالأمس فقال لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خبرها فهم بأخذها فنقص لبنها فان الملك اذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة فتاب الملك وعاهد ربه فى نفسه ان لا يأخذها ولا يحسد أحدا من الرعية فلما كان من الغد حلبت عادتها ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وان كل قصبة منها تعصر قدحا فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم ثم إنها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح فقال لها أين الذى كان يقال فقالت هو الذى بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها منى فارتفعت البركة منها فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا

يأخذها

يأخذها منها أبدا ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح (وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمه الله فى كتابه سراج الملوك قال حدثنى بعض الشيوخ ممن كان يروى الأخبار بمصر قال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن فى ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل شيئا فى ذلك العام ولا تمرة واحدة وقال لى شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهى تحمل عشرة أرادب ستين ويبة وكان صاحبها يبيعها فى سنى الغلاء كل ويبة بدينار (وحكى) أيضا رحمه الله تعالى قال شهدت فى الاسكندرية والصيد مطلق للرعية السمك يطفو على الماء لكثرته وكانت الاطفال تصيده بالخرق من جانب البحر ثم حجزه الوالى ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ان خيرا فخير وان شرا فشر وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم قالوا كان الناس إذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وما أشبه ذلك وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الاشجار ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الاطعمة الرفيعة ويتغالون فى المناكح والسرارى ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ولما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك فينبغى للامام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضى الله عنهم ويقتدى بهم فى الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبى مرسل أو ملك مقرب وقد قيل إن مثله كمثل الرياح التى يرسلها الله تعالى بشرا بين يدى رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحا للثمرات وروحا للعباد ولو تتبعت ما جاء فى العدل والانصاف وفضل الامام العادل لألفت فى ذلك مجموعا جامعا لهذا المعنى ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأمه السامع وبالله التوفيق الى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب العشرون فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك ﴾

قال الله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين وقال تعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قيل هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وقال تعالى وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون وقال رسول الله ﷺ من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الاسلام وقال أيضا ﷺ رحم الله عبدا كان لاخيه قبله مظلمة فى عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتى يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم وقال أيضا ﷺ من اقتطع حق امرىء مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل يا رسول الله ولو كان شيئا يسيرا قال ولو كان قضيبا من أراك وعن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أوحى الله تعالى الى يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتا من بيوتى ولا أحد من عبادى عند أحد منهم مظلمة فانى ألعنه ما دام قائما يصلى بين يدى حتى يرد تلك الظلامة الى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة وعن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ إياك ودعوة المظلوم فانما يسأل الله تعالى حقه وعنه ﷺ أنه قال

الى صاحبه يسأله حتى تنظر ما يعطيه وتحكم على العيان فقام صاحب عبد الله اليه فصادفه قد وضع رجله فى غرز ناقته يريد ضيعة له فقال يا ابن عم رسول الله قال قل ما تشاء قال ابن سبيل ومنقطع به قال فأخرج رجله من غرز الناقة وقال له ضع رجلك واستو على الراحلة وخذ ما فى الحقيبة واحتفظ بسيفك فانه من سيوف على بن أبى طالب رضى الله عنه قال فجاء بالناقة والحقيبة فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار وأعظمها وأجلها السيف ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة فصادفه نائما فقالت الجارية هو نائم فما حاجتك اليه قال ابن سبيل ومنقطع به قالت حاجتك أهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار والله يعلم ان ما فى دار قيس غيره خذه وامض الى معاطن الابل الى أموال لنا بعلامتنا فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبدا وامض لشأنك فقيل ان قيسا لما انتبه من رقدته أخبرته بما صنعت فاعتقها ومضى صاحب عرابة الأوسى اليه فالفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يمشى على عبدين وقد كف بصره فقال يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به قال فخلى العبدين وصفق بيمناه على يسراه وقال أواه أواه ما تركت الحقوق لعرابة مالا ولكن خذهما يعنى العبدين قال ما كنت بالذى أقص جناحيك قال ان لم تأخذهما فهما حران فان شئت تأخذ وان شئت تعتق وأقبل يلمس الحائط بيده

راجعا إلى منزله قال فأخذها وجاء بهما فثبت أنهم أجود عصرهم إلا أنهم حكموا لعرابة لأنه أعطى جهده ﴿ نادرة غريبة ﴾
حضر يعقوب بن اسحق الكندى المسمى بوقته فيلسوف الاسلام مجلس أحمد بن المعتصم وقد دخل عليه أبو تمام فأنشد قصيدته السينية المشهورة فلما بلغ إلى قوله إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس قال له الكندى ما صنعت شيئا فقال كيف قال ما زدت على أن شبهت ابن أمير المؤمنين بصعاليك العرب وأيضا فان شعراء دهرنا تجاوزوا بالممدوح من كان قبله ألا ترى إلى قول العكوك فى أبى دلف رجل أبر على شجاعة عامر بأسا وغبر فى محيا حاتم فأطرق أبو تمام ثم أنشأ يقول

لا تنكروا ضربى له من دونه ... مثلا شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

ولم يكن هذا فى القصيدة فتزايد العجب منه ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل فاستصغر عن ذلك فقال الكندى ولوه لأنه قصير العمر لأن ذهنه ينحت من قلبه فكان كما قال وقد تكون ظهرت له دلائل من شخصه فى ذلك الوقت على قرب أجله انتهى وسمع الكندى

وفى أربع منى حلت منك أربع ... فما أنا أدري أيها هاج لى كربى
خيالك فى عينى أم الذكر فى فمى ... أم النطق فى سمعي أم الحب فى قلبي

على

ما من عبد ظلم فشخص ببصره إلى السماء إلا قال الله عز وجل لبيك عبدى حقا لانصرنك ولو بعد حين وعنه أيضا أنه قال ألا ان الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب فأما الظلم الذى لا يغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأما الظلم الذى لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا وأما الظلم المغفور الذى لا يطلب فظلم العبد نفسه ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال يارب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عليين وإذا مناد ينادى حلمى على الظالمين أحل المظلومين فى أعلى عليين وقيل من سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره وسمع مسلم بن بشار رجلا يدعو على من ظلمه فقال له كل الظالم إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك ويقال من طال عدوانه زال سلطانه وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم ورئى لوح فى أفق السماء مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحته هذا البيت

فلم أر مثل العدل للمرء رافعا ... ولم أر مثل الجور للمرء واضعا

وقال الشاعر

كنت الصحيح وكنا منك فى سقم ... فان سقمت فانا السالمون غدا
دعت عليك أكف طالما ظلمت ... ولن ترد يد مظلومة أبدا

وكان معاوية يقول انى لاستحيي أن أظلم من لا يجد على ناصرا إلا بالله وقال أبو العيناء كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم الى أحمد بن أبى داود وقلت قد تضافروا على وصاروا يدا واحدة فقال يد الله فوق أيديهم فقلت له ان لهم مكرا فقال ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله قلت هم فئة كثيرة فقال كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله وقال يوسف بن اسباط من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال أبو القاسم ﷺ من أشار إلى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه وإن كان أخاه لأبيه وأمه وقال مجاهد يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام فيقال لهم هل يؤذيكم هذا فيقولون أى والله فيقال لهم هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين وقال ابن مسعود رضى الله عنه لما كشف الله العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه وقال أبو ثور ابن يزيد الحجر فى البنيان من غير حله عربون على خرابه وقال غيره لو أن الجنة وهى دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب وقال بعض الحكماء اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لا يعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء فان له قاتلا لا يموت وقال سحنون بن سعيد كان يزيد بن حاتم يقول ما هبت شيئا قط هيبتى من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله فيقول حسبك الله الله بينى وبينك وقال بلال بن مسعود اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله * وبكى على بن الفضل يوما فقيل له ما يبكيك قال أبكى على من ظلمنى إذا وقف غدا بين يدى الله تعالى ولم تكن له حجة وروى أن النبي ﷺ قال يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيرى * ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر ياسليمان اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له ما يوم الأذان فقال قال الله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين قال فما ظلامتك قال ارض لى بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك فكتب إلى وكيله ادفع اليه أرضه وأرضا مع أرضه * وروى أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق فى العلوم فضربه المعلم يوما من غير ذنب فأوجعه فحقد أنوشروان عليه فلما ولى الملك قال للمعلم ما حملك

على ضربى يوم كذا وكذا ظالما فقال له لما رأيتك ترغب فى العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان زه زه * وقال محمد بن سويد وزير المأمون :

فلا تأمن الدهر حراً ظلمته * فما ليل حر إن ظلمت بنائم

وروى أن بعض الملوك رقم على بساطه

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً * فالظلم مصدره يفضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه * يدعو عليك وعين الله لم تنم

وما أحسن ما قال الآخر :

أتهزأ بالدعاء وتزدريه * وما تدرى بما صنع الدعاء
سهام الليل نافذة ولكن * لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربى * ويرسلها إذا نفذ القضاء

وقال أبو الدرداء إياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فانها تسرى بالليل والناس نيام وقال الهيثم بن فراس السامى من بنى سامة بن لؤى فى الفضل بن مروان

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبر * فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم * أبادهم الموت المشتت والقتل

يريد الفضل بن الربيع والفضل بن يحيى والفضل بن سعد * ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة مكتوب فيها

وحق الله إن الظلم لؤم * وإن الظلم مرتعه وخيم
إلى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم

ووجد القاسم بن عبيد الله وزير المكتفى فى مصلاه رقعة مكتوبا فيها :

بغى وللبغى سهام تنتظر * أنفذ فى الأحشاء من وخز الابر * سهام أيدى القانتين فى السحر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء ما كنت لألى هذا بعد ما حدثنى ابراهيم قال وما حدثك ابراهيم قال حدثنى عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشياع الظلمة حتى من برى لهم قلما أو لاق لهم دواة فيجمعون فى تابوت من حديد ثم يرمى بهم فى نار جهنم * وروى هرون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال جلس أبى للمظالم يوما فلما انقضى المجلس رأى رجلا جالسا فقال له ألك حاجة قال نعم أدننى اليك فانى مظلوم وقد أعوزنى العدل والانصاف قال ومن ظلمك قال أنت ولست أصل اليك فأذكر حاجتى قال وما يحجبك وقد ترى مجلسى مبذولا قال يحجبنى عنك هيبتك وطول لسانك وفصاحتك قال ففيم ظلمتك قال فى ضيعتى الفلانية أخذها وكيلك غصبا منى بغير ثمن فاذا وجب عليها خراج أديته باسمى لئلا يثبت لك اسم فى ملكها فيبطل ملكى فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدى خراجها وهذا لم يسمع بمثله فى المظالم فقال له محمد هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء فقال له الرجل أيؤمننى الوزير من غضبه حتى أجيب قال نعم قد أمنتك قال البينة هم الشهود وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شىء آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء وأى شىء هذه الأشياء إن هى إلا الجور وعدولك عن العدل فضحك محمد وقال صدقت والبلاء موكل بالمنطق وانى لأرى فيك مصطنعا ثم وقع له برد ضيعته وان يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل إلى الانصاف واعادة ضيعته له يقال له يا فلان كيف الناس فيقول بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر فلما صار من أصحاب محمد

قال لقد قسمتها تقسيما فلسفيا انتهى ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة فى كتابه المسمى بشرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون أن واضع العود بعض حكماء الفرس ولما فرغ منه سماه البربط وتفسيره باب النجاة ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة وجعلت أوتاره أربعة بازاء الطبائع الأربع فالزير بازاء السوداء والبم بازاء الصفراء والمثنى بازاء الدم والمثلث بازاء البلغم فاذا اعتدلت أوتاره المرتبة على ما يجب جانست الطبائع وأنتجت الطرب وهو رجوع النفس إلى الحالة الطبيعية دفعة واحدة وبدىء هذا العلم بيطليموس وختم باسحق ابن ابراهيم الموصلي (وحكى ابن حمدون فى تذكرته) أن الحسن ابن حماد قال كنت بالمدينة فخلا لى الطريق نصف النهار فجعلت أتغنى بشعر ذى يزن وهو

مابال قومك يا رباب
خزرا كأنهم غضاب

فاذا كوة قد فتحت وإذا وجه قد بدا منها تتبعه لحية حمراء فقال يا فاسق أسأت التأدية ومنعت القائلة وأذعت الفاحشة ثم اندفع يغنى فغنى الصوت غناء لم أسمع بمثله فقلت أصلحك الله من أين لك هذا الغناء قال نشأت وأنا غلام يعجبنى الأخذ عن المغنين فقالت أمي يا بنى ان المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه فدع الغناء واطلب الفقه فتركته وتبعت الفقهاء فبلغ بى إلى ما ترى فقلت أعدلى الصوت جعلت فداك فقال لا ولا كرامة أتريد أن تقول أخذته عن مالك بن أنس ﴿فائدة غريبة﴾ روى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال

ابن عبد الملك ورد عليه ضيعته وأنصفه قال له ليلة كيف الناس الآن قال بخير قد اعتمدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم بقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب ﴿ومما نقل﴾ فى الآثار الاسرائيلية فى زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلا من ضعفاء بنى اسرائيل كان له عائلة وكان صيادا يصطاد السمك ويقوت منه أطفاله وزوجته فخرج يوما للصيد فوقع فى شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها فى مصالح عياله فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد فرفع العوانى خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصبا بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال الهى جعلتنى ضعيفا وجعلته قويا عنيفا فخذلى بحقى منه عاجلا فقد ظلمنى ولا صبر لى إلى الآخرة ثم ان ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزته فى أصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل بها فلما رآها قال له إن دواءها أن تقطع الأصبع لئلا يسرى الألم إلى بقية الكف فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع الى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه فقال له الطبيب ينبغى أن تقطع اليد الى المعصم لئلا يسرى الألم إلى الساعد فقطعها فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضوا انتقل الألم إلى العضو الآخر الذى يليه فخرج هائما على وجهه مستغيثا إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى فى منامه قائلا يقول يا مسكين الى كم تقطع أعضاءك امض إلى خصمك الذى ظلمته فارضه فانتبه من النوم وفكر فى أمره فعلم أن الذى أصابه من جهة الصياد فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى اليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الاقالة مما جناه ودفع اليه شيئا من ماله وتاب من فعله فرضى عنه خصمه الصياد فسكن فى الحال ألمه وبات تلك الليلة فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحى على موسى عليه السلام يا موسى وعزتى وجلالى لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته ﴿ومما تضمنته أخبار الأخيار﴾ ما رواه أنس رضى الله عنه قال بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قاعد اذ جاءه رجل من أهل مصر فقال يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك فقال عمر رضى الله عنه لقد عذت بمجير فما شأنك فقال سابقت بفرسى ابنا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعنى بسوطه ويقول أنا ابن الأكرمين فبلغ ذلك عمرا أباه فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك فكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص اذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان وقال للمصرى أقم حتى يأتيك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه الى جانبه قام المصرى فرمى اليه عمر رضى الله عنه بالدرة قال أنس رضى الله عنه فلقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول اضرب ابن الأكرمين قال يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت قال ضعها على صلع عمرو فقال يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذى ضربنى قال أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذى تنزع ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا فجعل عمرو يعتذر اليه ويقول انى لم أشعر بهذا ۞ وقيل لما ظلم

سمعت رسول الله ﷺ يقول ان هذا القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به من لم يتغن بالقرآن فليس منا رواه ابن ماجه ﴿نادرة لطيفة﴾ قال عبد الله بن أبى يزيد مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فاذا رجل رث الهيئة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يتغن بالقرآن قال فقلت لابن أبى مليكة يا أبا محمد أرأيت إن لم يكن حسن الصوت قال يحسنه ما استطاع رواه أبو داود ﴿نادرة لطيفة﴾ تتضمن المثل السائر فى قولهم عن الخائب رجع بخفى حنين المنقول عن حنين أنه كان اسكافيا من أهل الحيرة ساومه اعرابى بخفين ولم يشتر منه شيئا وغاظه ذلك فخرج الى الطريق التى لا بد للاعرابى من المرور منها فعلق الفردة الواحدة منهما فى شجرة على طريقه وتقدم قليلا فطرح الفردة الثانية واختفى فجاء الاعرابى فرأى أحد الخفين فوق الشجرة فقال ما أشبهه بخف حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه وتقدم فرأى الخف الآخر مطروحا فنزل وعقل بعيره وأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من الكمين فأخذ بعيره وذهب ورجع الاعرابى الى ناحية بعيره فلم يجده فرجع بخفى حنين فصارت مثلا ﴿نادرة لطيفة﴾ قيل ان بعض وفود العرب قدموا على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وكان فيهم شاب فقام وتقدم وقال يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون سنة

أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه اليها فقالت لهم متى يركب قالوا فى غد فكتبت رقعة ووقفت بها فى طريقه وقالت يا أحمد يا بن طولون فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فاذا فيها ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخولتم فعسفتم وردت اليكم الأرزاق فقطعتم هذا وقد علمتم أن سهام الاسحار نافذة غير مخطئة لاسيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوعتموها وأجساد عريتموها فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم اعملوا ماشئتم فانا صابرون وجوروا فانا إلى الله مستجيرون واظلموا فانا بالله متظلمون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون قال فعدل لوقته ﴿وحكي﴾ أن الحجاج حبس رجلا فى حبسه ظلما فكتب اليه رقعة فيها قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم لايحتاج إلى بينة وكتب فى آخرها

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا * غدا عند الاله من الظلوم
أما والله ان الظلم لؤم * وما زال الظلوم هو الملوم
سينقطع التلذذ عن أناس * أداموه وينقطع النعيم
إلى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم

﴿وحكى﴾ أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فانتبه منزعجا وقال ياخدم فأسرعنا الجواب فقال ويلكم أعينونى والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرا فى سفينة فارغة فاقبضوا عليه واتونى به ووكلوا بالسفينة من يحفظها فأسرعنا فوجدنا ملاحا فى سفينة منحدرة وهى فارغة فقبضنا عليه ووكلنا بها من يحفظها وصعدنا به إلى المعتضد فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال أصدقنى يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم والا ضربت عنقك فتلعثم وقال نعم كنت سحرا فى المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلى كثيرة وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها وأغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها فى الماء ولم أجسر على حمل سلبها إلى دارى لئلا يفشو الخبر على فعولت على الهرب والانحدار إلى واسط فصبرت إلى أن خلا الشط فى هذه الساعة من الملاحين وأخذت فى الانحدار فتعلق بى هؤلاء القوم فحملونى اليك فقال وأين الحلى والسلب قال فى صدر السفينة تحت البوارى قال المعتضد على به الساعة فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرا وعليها ثياب فاخرة وحلى فليحضر فحضر فى اليوم الثانى ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك اليهم قال فقلت يا مولاى من أعلمك أو أوحى اليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية فقال بل رأيت فى منامى رجلا شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التى قتلها اليوم ظلما وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك فكان ماشاهدتم * فيتعين على كل ولى أمر أن يعدل فى الأحكام وأن يتبصر فى رعيته وعلى كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالنصفة ويراقب الله فى السر والعلانية ويعلم أن الله يجازى على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه وينتصر للمظلوم ويأخذ له حقه ممن ظلمه واذا أخذ الظالم لم يفلته والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم

أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة أذابت العظم وفى أيديكم فضول أموال فان كانت لنا فلام تمنعونها منا وان كانت لله ففرقوها على عباد الله وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا إن الله يجزى المتصدقين فقال عمر بن عبد العزيز ما ترك الأعرابى لنا عذرا فى واحدة ﴿ووقف اعرابى على حلقة الحسن البصرى﴾ فقال رحم الله من تصدق من فضل أو واسى من كفاف أو آثر من قوت فقال الحسن البصرى ما ترك الأعرابى أحدا منكم حتى عمه بالسؤال قلت هذا النوع سماه البديعيون بالتقسيم ﴿نادرة أدبية بديعة﴾ حكى ضياء الدين ابن الأثير فى المثل السائر بعد ما أورد لغزا فى الخلخال

ومضروب بلا جرم * مليح اللون معشوق
له شكل الهلال على * رشيق القد ممشوق
وأكثر ما يرى أبدا * على الامشاط فى السوق

قال بلغنى أن بعض الناس سمع هذه الأبيات فقال دخلت السوق فلم أر على الأمشاط شيئا ﴿ومن نوادر الأدب أيضا﴾ اشارة الحجاج إلى قول ابن نباتة السعدى فى فرس أغر محجل

غضبت صباح وقد رآنى قابضا * أبرى فقلت لها مقالة فاجر
بالله الا ما لطمت جبينه * حتى يحقق فيك قول الشاعر

يريد بذلك قوله

وكأنما لطم الصباح جبينه * فاقتص منه فخاض فى أحشائه

(ومن المنقول

الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

﴿ الباب الحادى والعشرون فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان ﴾

﴿ الفصل الأول فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج والانفاق من بيت المال وسيرة العمال ﴾ قال جعفر بن يحيى الخراج عماد الملوك وما استعز بمثل العدل وما استنذر بمثل الظلم وأسرع الأمور فى خراب البلاد تعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو ان شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذى يطين سطحه بتراب أساس بيته وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها فتخرب الأرض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج وينتج من ذلك ضعف الاجناد وإذا ضعف الجند طمع الأعداء فى السلطان (وروى) أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميرا يحدثه فقال يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها فقالت بومة البصرة لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعل فى صداق ابنتى مائة ضيعة خربة فقالت بومة الموصل لا أقدر عليها لكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك قال فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية * وقال أبو الحسن ابن على الأسدى أخبرنى أبى قال وجدت فى كتاب قبطى باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون فى زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه من أموال مصر للخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار من ذلك ما ينصرف فى عمارة البلاد كحفر الخلجان والانفاق على الجسور وسد الترع وتقوية من يحتاج إلى التقوية من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة فى البلدان وغير ذلك من الآلات وأجرة من يستعان به لحمل البذر وسائر نفقات تطبيق الأرض ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف للارامل والأيتام وإن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من يرفعون أربعمائة ألف دينار ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا ألف دينار ولما ينصرف فى الصدقات مما يصب صبا وينادى عليه برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر فيحضر لذلك جمع كثير مائتا ألف دينار فاذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون اليه وهنؤه بتفرقة الأموال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والنعماء والسلامة وأنهوا اليه حال الفقراء فيأمر باحضارهم وتغيير شعثهم ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته فان كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذى كان له ولما ينصرف فى نفقات فرعون الراتبة فى كل سنة مائتا ألف دينار ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك ويجعله فى بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار * وقال أبو رهم كانت أرض مصر أرضا مدبرة حتى ان الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه حيث شاؤا ويرسلونه حيث شاؤا وذلك قول فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى الآية وكان ملك مصر عظيما لم يكن فى الأرض أعظم منه ملكا وكانت الجنان بحافتى

المشهور) أن الأدب وأهله كان عند أصحاب حماة فى الذروة العالية ولكن قصة زكى الدين بن عبد الرحمن العوفى مع الملك
المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك تقى الدين عمر بن شهنشاه كانت على غير المعهود منه ومن سلفه
الطاهر وما ذاك إلا أن زكى الدين المذكور أنشده الملك المظفر محمودا قبل أن يملك حماة

متى أراك ومن تهوى وأنت كما
تهوى على رغمهم روحين فى بدن

هناك أنشد والآمال حاضرة
هنئت بالملك والأحباب والوطن

فوعده إن تملك حماة أن يعطيه ألف دينار فلما ملكها أنشد

مولاى هذا الملك قد نلته
برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته
فذا أوان الموعد الصادق

فدفع له ألف دينار وأقام معه مدة ولزمته أسفار أنفق فيها المال الذى أعطاه ولم يحصل بيده زيادة عليه فقال

ان الذى أعطوه لى جملة
قد استردوه قليلا قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا
وحسبنا الله ونعم الوكيل

فبلغ ذلك الملك المظفر فأخرجه من دار كان قد أنزله بها فقال

أتخرجنى من كدر بيت مهدم
ولى فيك من حسن الثناء بيوت
فان عشت لم أعدم مكانا يضمنى
وأنت فتدرى ذكر من سيموت

النيل
فحبسه المظفر فقال ماذنبى اليك فقال حسبنا الله ونعم الوكيل وأمر بخنقه فلما أحس بذلك قال أعطيتنى الألف تعظيما وتكرمة

ياليت شعرى أم أعطيتني دبق (قلت) كان والد الملك المظفر أليق بهذا المقام الذى لم يقصد به زكي الدين الصوف غير زوبع الأدب فى اختلاف المعانى والمداعبة به والتوصل بذلك إلى بسط الملك المظفر ولكن حال

النيل متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما دبروا من جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها الى آخرها وذلك قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم (وقال) عبد الله بن عمر رضى الله عنهما استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ فى حفره وتدبيره فجعل أهل القرى يسألونه أن يجرى لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالا فكان يذهب به من قرية الى قرية من المشرق إلى المغرب ومن الشمال الى القبلة ويسوقه كيف أرادوا الى حيث قصد فليس خليج بمصر أكثر عطوفا منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون انه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بأيديهم رد على أهل القرى أموالهم فرد عليهم ما أخذه منهم * فاذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويوقن بالحساب والثواب والعقاب وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى اجعلنى على خزائن الأرض قال هى خزائن مصر ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام وكمل وصارت الأشياء اليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره لما لم يرتكب محارمه وكانت مصر أربعين فرسخا فى مثلها وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب وناب عنه إلا بعد أن دعاه الى الاسلام فأسلم وكانت السنون التى حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز وتملك يوسف وافتقرت زليخا وعمى بصرها فجعلت تتكفف الناس فقيل لها لو تعرضت للملك ربما رحمك ويعينك ويغنيك فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه ثم قيل لها لا تفعلى لأنه ربما يتذكر ما كان منك اليه من المراودة والحبس فيسيء اليك ويكافئك على ما سبق منك اليه فقالت أنا أعلم بحلمه وكرمه فجلست له على رابية فى طريقه يوم خروجه وكان يركب فى زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته فلما أحست به قامت ونادت سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم والعبيد ملوكا بطاعتهم فقال يوسف عليه السلام من أنت فقالت أنا التى كنت أخدمك بنفسى وأرجل شعرك بيدي وأكرم مثواك بجهدى وكان منى ما كان وقد ذقت وبال أمرى وذهبت قوتى وتلف مالى وعمى بصرى وصرت أسأل الناس فمنهم من رحمني ومنهم من لا يرحمني وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم وهذا جزاء المفسدين فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديداً وقال لها هل فى قلبك من حبى إياى شيء فقالت نعم والذى اتخذ ابراهيم خليلا لنظرة اليك أحب إلى من ملء الأرض ذهبا وفضة فمضى يوسف وأرسل اليها يقول ان كنت أيما تزوجناك وان كنت ذات بعل أغنيناك فقالت لرسول الملك أنا أعرف أنه يستهزيء بى هو لم يردنى فى أيام شبابى وجمالى فكيف يقبلنى وأنا عجوز عمياء فقيرة فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوج بها وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قدميه وقام يصلى ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم فرد الله عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها فاذا هى بكر فولدت له افرائيم بن يوسف ومنشا بن يوسف وطاب فى الاسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما فينبغي للقوى أن لا ينسى الضعيف وللغنى أن لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالبا ومرغوب فيه يصير راغبا ومسئول يصير سائلا وراحم يصير مرحوما فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته ويغنينا بفضله ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع

الزكي كقول الشاعر

وكنت كالمتمني أن يرى فلقا
من الصباح فلما أن رآه عمى

(قلت) وكان والد السلطان الملك المظفر المنصور من كبار أهل الأدب وكان أحب الناس لأهله وله كتاب طبقات الشعراء عشر مجلدات وسمع الحديث من الحافظ السلفي بالاسكندرية وكان مغرما بحب الأدباء والعلماء وجمع تاريخا على السنين فى عشر مجلدات ومن مصنفاته كتابه المسمي بمظاهر الحقائق وسر الخلائق وهو كبير نفيس يدل على فضله وجمع عنده من الكتب مالا مزيد عليه وكان فى خدمته ما يناهز مائتى متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب وأقامت دولته ثلاثين سنة وتوفى سنة عشر وستمائة ومن شعره

أربى راح وريحا
ن ومحبوب وشادى
والذى ساق لى الملا
ن له دفع الأعادى

(قلت) وقد تقدم القول وقد تقرر أن جميع ملوك حماة المحروسة من بنى أيوب وكان لهم المام بالأدب وأهله وقد تعين أن نذكر هنا ترجمة مؤيدهم فانه كان بدر كمالهم ومسك ختامهم وهو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسمعيل بن

ويأكل من خبز الشعير فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع

﴿ومن حسن سيرة العمال﴾ ما روى أن عمر رضى الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عمير ابن سعد فلما مضت السنة كتب اليه عمر رضى الله عنه ان أقدم علينا فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشيا حافيا عكازته بيده وأدواته ومزوده وقصعته على ظهره فلما نظر اليه عمر قال له يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء فقال يا أمير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن وقد جئت اليك بالدنيا أجرها بقرابها فقال له وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ومزود أحمل فيه طعامى واداوة أحمل فيها ماء لشربى ولطهورى وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسى وآكل فيها طعامي فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد الا تبع لما معي قال فقام عمر رضى الله عنه من مجلسه الى قبر رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه فبكى بكاء شديدا ثم قال اللهم ألحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل ثم عاد إلى مجلسه فقال ما صنعت فى عملك يا عمير فقال أخذت الابل من أهل الابل والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شيء لأتيتك به فقال عمر عد إلى عملك يا عمير قال أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردنى إلى أهلى فأذن له فأتى أهله فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار وقال له اختبر لى عميرا وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله هل هو فى سعة أم ضيق فان كان فى ضيق فادفع اليه المائة دينار فأتاه حبيب فنزل به ثلاثا فلم ير له عيشا إلا الشعير والزيت فلما مضت ثلاثة أيام قال يا حبيب ان رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشا منا فأتنا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به قال فدفع اليه المائة دينار وقال قد بعث بها أمير المؤمنين اليك فدعا بفرو وخلق لامرأته فجعل يصر منها الخمسة دنانير والستة والسبعة ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها فقدم حبيب على عمر وقال جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير فأمر له عمر بوسقين من طعام وثوبين فقال يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما وأما الوسقان فلا حاجة لى بهما عند أهلى صاع من بر هو كافيهم حتى ارجع اليهم (وروى) أن عمر رضى الله عنه صر أربعمائة دينار وقال للغلام اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها فذهب بها الغلام اليه وقال له يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه فى بعض حوائجك قال وصله الله ورحمه ثم دعا بجاريته وقال لها اذهبي بهذه السبعة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له انطلق بها إلى معاذ بن جبل وانظر ما يكون من امره فمضى اليه وقال له كما قال لأبى عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل ابو عبيدة فرجع الغلام فأخبره عمر فقال انهم اخوة بعضهم من بعض رضى الله تعالى عنهم أجمعين

﴿الفصل الثانى فى أحكام أهل الذمة﴾ روى عن عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حواليها كنيسة ولا ديرا ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا فى نهار وأن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤدى فى كنائسنا

الملك الأفضل بن الملك المظفر بن الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة المحروسة كان أميرا بدمشق المحروسة تقدم الملك الناصر لما كان بالكرك وبالغ فى خدمته فوعده بحماة ووفى له بذلك وجعله بها سلطانا يفعل فيها ما يشاء من أقطاع وغيره ليس لأحد من الدولة المصرية معه حديث وأركبه فى القاهرة بشعار المملكة وأبهة السلطنة ومشى الأمراء فى خدمته حتى الأمير سيف الدين ابن أرغون النائب وقام له القاضي كريم الدين بكل ما يحتاج اليه فى ذلك المهم من التشاريف والانعامات على وجوه الدولة ولقبوه بالملك الصالح ثم بعد ذلك بقليل لقب بالمؤيد وتقدم أمر السلطان الملك الناصر إلى نوابه أن يكتبوا اليه يقبل الأرض والمقام الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى المؤيدى العمادى وفى العنوان صاحب حماة وكان الملك الناصر يكتب اليه أخوه محمد بن قلاوون أعز الله المقام الشريف العالى السلطانى الملكى المؤيدى العمادى المولوى ٭ وكان الملك المؤيد من علماء الفقه والادب والطب والحكمة والهيئة ونظم الحاوى وله تاريخ بديع وكتاب الكناش وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله وأجاد فيه ما شاء وله كتاب الموازين ٭ وكان قد رتب للشيخ جمال الدين بن نباتة فى كل شهر ألف درهم غير ما يتحفه وهو مقيم بدمشق وتوجه الملك المؤيد فى بعض السنين إلى الديار

ولا

ولا فى منازلنا جاسوسا ولا نكتمه عن المسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوى قراباتنا الدخول فى دين الاسلام ان أراده وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس وأن لا نتشبه بالمسلمين فى شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب فى السروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وأن نجز مقادم رؤسنا ونلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنار على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا فى شيء من أسواق المسلمين وطرقهم ولا نضرب بالنواقيس فى كنائسنا إلا ضربا خفيفا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران فى شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ماجرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع على منازلهم وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا فى شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق فكتب اليه عمر رضي الله عنه أن امض ماسألوه والحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ماشرطوا على أنفسهم أن لا يشتروا شيئا من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده * وروى أن بنى ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين انا قوم من العرب أفرض لنا قال نصارى قالوا نصارى قال ادعوا إلى حجاما ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزما يحتزمون بها وأمرهم ان لا يركبوا بالسروج وأن يركبوا على الأكف من شق واحد * وروى أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زيهم وزى المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل فأحيا الله به الحق وأمات به الباطل فهو يذكر بذلك ويترحم عليه مادامت الدنيا وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم أهل رشا فى دينهم ولا يحل فى دين الله الرشا ولما استقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أباموسى الأشعرى رضى الله عنه من البصرة وكان عاملا عليها للحساب دخل على عمر وهو فى المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيا فقال عمر قاتلك الله وضرب بيده على فخذه وليت ذميا على المسلمين أما سمعت الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض الآية هلا اتخذت حنيفا فقال يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه فقال لا أكرمهم إذ أهانهم الله ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله وكتب بعض العمال إلى عمر رضي الله عنه إن العدو قد كثر وان الجزية قد كثرت أفنستعين بالأعاجم فكتب اليه انهم أعداء الله وانهم لنا غششة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله * ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة فقال انى أريد أن أتبعك وأصيب معك قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن نستعين بمشرك ثم لحقه عند الشجرة فقال جئتك لأتبعك وأصيب معك قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال فارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه عند ظهر البيداء فقال له مثل ذلك فأجابه بمثل الأول فقال نعم فخرج به وفرح المسلمون وكان له قوة وجلد وهذا أصل عظيم فى أن لا يستعان بكافر هذا وقد خرج ليقاتل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ويراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين * وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن فكتبوا اليه انا قد وجدنا فيهم خيانة فكتب اليهم ان لم يكن فى أهل القرآن خير فأجدر أن لا يكون فى غيرهم قال أصحاب الشافعى ويلزمهم

المصرية ومعه ابنه الملك الأفضل محمد فمرض ولده فجهز اليه السلطان الحكيم جمال الدين بن المغربى رئيس الأطباء فكان يجيء اليه بكرة وعشيا فيراه ويبحث معه فى مرضه ويقدر له الأدوية ويطبخ له الشراب بيده فى دست فضة فقال له ابن المغربي يا مولانا السلطان أنت والله ماتحتاج إلى الملوك وما أجيء إلا امتثالا للأوامر الشريفة ولما عوفي أعطاه بغلة بسرج ذهب ولجام وكنبوش مزركش وعشرة آلاف درهم والدست الفضة وقال يا رئيس اعذرنى فانى لما خرجت من حماة ما حسبت مرض هذا الولد ومدحه شعراء زمانه وأجازهم وبنى بظاهر حماة المحروسة جامعا حسنا وسماه جامع الدهيشة وأوقف عليه كتبا قيل انها ما اجتمعت لغيره من سائر الفنون فانه اجتهد فى جمعها من سائر البلاد شرقا وغربا وتوفى رحمه الله سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ومن شعره

كم من دم حلت وما ندمت
تفعل ماتشتهي فلا عدمت
سمعت فلو تبلغ الشموس إلى
لثم مواطىء أقدامها لثمت

(والمنقول عن القاسم المكنى بأبى دلف) أنه جمع بين طرفى الكرم والشجاعة ولى دمشق فى خلافة المعتصم فأما شجاعته فانه لحق قوما من الأكراد قطعوا الطريق فطعن فارسا طعنة فنفذت الطعنة إلى فارس آخر رديفه فقتلهما فقال بكر بن النطاح

قالوا وينظم فارسين بطعنة * يوم الهياج ولا تراه كليلا

أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين وأن يلبسوا اقلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة ويشدوا الزنانير على أوساطهم ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات وأما المرأة فانها تشد الزنار تحت الازار وقيل فوق الازار وهو الأولى ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ولا يركبون الخيل ولا البغال ولا الحمير إلا بالأكف عرضا ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون فى المجالس ولا يبدأون بالسلام ويلجأون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يعلوا على المسلمين فى البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز وإن تملكوا دارا عالية أقروا عليها ويمنعون من اظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل ويمنعون من المقام فى أرض الحجاز وهى مكة والمدينة واليمامة وان امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم وإن زنى أحد منهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عينا للكفار أو دل على عورة المسلمين أو فتن مسلما عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق تنتقض ذمته وفى تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فمنهم من قال إنها مقدرة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر رضى الله عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة فوضع على الغنى ثمانية وأربعين درهما وعلى من دونه أربعة وعشرين درهما وعلى من دونه اثنى عشر درهما وذلك بمحضر من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ولم يخالفه أحد وكان الصرف اثناعشر بدينار وهذا مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل وأحد قولى الشافعى ويجوز للامام أن يزيد على ماقدره عمر ولا يجوز أن ينقص عنه ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين * وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الاسلام ومنع أن تجدد كنيسة وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدد فى ذلك عمر ابن عبد العزيز وأمر أن لا يترك فى دار الاسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة والله تعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الثانى والعشرون فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وادخال السرور عليهم ﴾

قال الله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم وقال تعالى وتعاونوا على البر والتقوى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشى فى عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين فى سبيل الله وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال الخلق كلهم عيال الله فأحب خلقه اليه أنفعهم لعياله رواه البزار والطبرانى فى معجمه ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى والخلق كلهم فقراء الله تعالى وهو يعولهم وروينا فى مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال خير الناس أنفعهم للناس وعن كثير بن عبيد ابن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله خلقا خلقهم لقضاء حوائج الناس آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار فاذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس فى الحساب وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ من سعى لأخيه المسلم فى حاجة فقضيت له أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

لا تعجبوا فلو أن طول قناته * ميل إذا نظم الفوارس ميلا

وفيه يقول ابن عنين

تمشى المنايا إلى غيرى فأكرهها * فكيف أمشى اليها بارز الكتف

ظننت أن نزال القرن من خلق * وان قلبي من جنبي أبي دلف

وأما شهرته فى الكرم فهو الذى قال فيه أبو تمام

ياطالبا للكيمياء وعلمها * مدح ابن عيسى الكيمياء الأعظم

لو لم يكن فى الأرض إلا درهم * ومدحته لأتاك ذاك الدرهم

ودخل عليه بعض الشعراء فأنشد أبو دلف

ان المكارم لم تزل * مغلغلة تشكو إلى الله حلها

فبشرها منه بميلاد قاسم * فأرسل جبريلا اليها فحلها

فأمر له بمال فقال الخازن لم يكن هذا القدر ببيت المال فأمر له بضعفه فقال هذا غير ممكن فأمر له بضعفه فلما حمل اليه المال قال أبو دلف

أتعجب ان رأيت على دينا * وان ذهب الطريف مع التلاد

وما وجبت على زكاة مال * وهل تجب الزكاة على جواد

وقال آخر

إن سار سار المجد أو حل وقف * أنظر بعينيك إلى أسنى الشرف

هل ناله بقدرة أو بكلف * خلق من الناس سوى أبى دلف

فأعطاه خمسين ألف درهم وفيه يقول العكوك بن على بن أبى جبلة

انما الدنيا أبو دلف * بين باديه ومحتضره

فاذا ولى أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

وكتب

وكتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفا عند ميزانه فان رجح والا شفعت له رواه أبو نعيم فى الحلية وروينا فى مكارم الأخلاق لأبى بكر الخرائطى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من مشى فى حاجة أخيه المسلم كتب الله بكل خطوة سبعين حسنة وكفر عنه سبعين سيئة فان قضيت حاجته على يده خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فان مات فى خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ من مشى مع أخيه فى حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض رواه أبو نعيم وابن أبى الدنيا وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ ان لله عند أقوام نعما يقرها عندهم ما داموا فى حوائج الناس ما لم يملوا فاذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم رواه الطبرانى وروينا من طريق الطبرانى باسناد جيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس اليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثا وسبعين حسنة واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه والباقى فى الدرجات وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أتدرون ما يقول الأسد فى زئيره قالوا الله ورسوله أعلم قال يقول اللهم لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال قيل يا رسول الله أى الناس أحب اليك قال أنفع الناس للناس قيل يا رسول الله فأى الأعمال أفضل قال ادخال السرور على المؤمن قيل وما سرور المؤمن قال اشباع جوعته وتنفيس كربته وقضاء دينه ومن مشى مع أخيه فى حاجة كان كصيام شهر واعتكافه ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام ومن كف غضبه ستر الله عورته وان الخلق السىء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من لقى أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك سره الله يوم القيامة رواه الطبرانى فى الصغير باسناد حسن وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورا لم يرض الله له سرورا دون الجنة رواه الطبرانى وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ما أدخل رجل على مؤمن سرورا إلا خلق الله من ذلك السرور ملكا يعبد الله تعالى ويوحده فاذا صار العبد فى قبره أتاه ذلك السرور فيقول له أما تعرفنى فيقول له من أنت فيقول أنا السرور الذى أدخلتنى على فلان أنا اليوم أؤانس وحشتك وألقنك حجتك وأثبتك بالقول الثابت وأشهد مشاهدك يوم القيامة وأشفع لك إلى ربك وأريك منزلك فى الجنة رواه ابن أبى الدنيا وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه يرفعه إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران وآية الكرسى وانا أنزلناه فى ليلة القدر وأم الكتاب فان فيها حوائج الدنيا والآخرة وهو حديث مرفوع * ومن كلام الحكماء إذا سألت كريما حاجة فدعه يفكر فانه لا يفكر إلا فى خير وإذا سألت لئيما حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل وسأل رجل رجلا حاجة ثم توانى عن طلبها فقال له المسئول أتمن على حاجتك فقال ما نام عن حاجته من أسهرك لها ولا عدل بها عن محجة النجح من قصدك بها فعجب من فصاحته وقضى حاجته

كل من فى الأرض من عرب ديه إلى حضره مستعير منك مكرمة يكتسبها يوم مفتخره فأعطاه أبو دلف مائة ألف درهم ولما بلغت المأمون غضب غضبا شديدا على العكوك فطلب فهرب فاجتهدوا إلى أن جاؤا به مقيدا فلما صار بين يديه قال له يا ابن اللخناء أنت القائل فى مدحك لأبى دلف كل من فى الارض من عرب البيتين جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ويفتخر بها فقال يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يقاس بكم لأن الله تعالى اختصكم لنفسه على عباده وآتاكم الكتاب والحكم وانما ذهبت فى شعرى لأقران وأشكال أبى دلف فقال والله ما أبقيت من أحد ولقد أدخلتنا فى الكل وما أستحل دمك بهذا ولكن بكفرك حيث قلت فى عبد ذليل مهين:

أنت الذى تنزل الآيات منزلها
وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما نظرت مدى طرف إلى أحد
إلا قضيت بأرزاق وآجال

ذاك هو الله يا كافر أخرجوا لسانه من قفاه ففعلوا به ذلك فمات * ومن مصنفاته كتاب البزاة والصيد وكتاب السلاح وكتاب النزه وكتاب سياسة الملوك وكانت له اليد الطولى فى الغناء وهو مترجم بذلك فى كتاب الأغانى وذكر أبو عبيدة فى كتاب مثالب أهل البصرة أن النضر بن شميل النحوى البصرى كان عالما بفنون من العلم صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب ورواية الحديث وهو من أصحاب الخليل بن أحمد فاتفق أن ضاقت به المعيشة ورق حاله فخرج يريد خراسان فشيعه

وأمر له بمال جزيل * وقال مسلمة لنصيب سلني فقال كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسئلة فأمر له بألف دينار وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها وعنه أيضا قال لا تكثر على أخيك الحوائج فان العجل إذا أفرط فى مص ثدى أمه نطحته وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس ما أدرى ما أصنع بكثرة الطلاب فقال زل عن موضعك وعلى أن لا يلقاك منهم أحد فقال له صدقت وجلس لهم فى قضاء حوائجهم وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي قال عرضت على أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات رقعة فى حاجة لى فقرأها ووضعها من يده ولم يوقع فيها بشىء فأخذتها وقمت وأنا أقول متمثلا من حيث يسمع هذين البيتين :

وإذا خطبت إلى كريم حاجة * وأبى فلا تقعد عليه بحاجب

فلربما منع الكريم وما به * بخل ولكن سوء حظ الطالب

فقال وقد سمع ما قلت ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب ولكن إذا سألتمونا الحاجة فعاودونا فان القلوب بيد الله تعالى فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت * وسأل اسحق بن ربعى اسحق بن ابراهيم المصعبي أن يوصل له رقعة إلى المأمون فقال لكاتبه ضمها إلى رقعة فلان فقال :

تأن لحاجتى واشدد عراها * فقد أضحت بمنزلة الضياع

إذا شاركتها بلبان أخرى * أضر بها مشاركة الرضاع

(وقال أبو دقاقة البصرى)

أضحت حوائجنا اليك مناخة * معقولة برحابك الوصال

أطلق فديتك بالنجاح عقالها * حتى تثور معا بغير عقال

(وقال سلم الخاسر)

إذا أذن الله فى حاجة * أتاك النجاح على رسله

فلا تسأل الناس من فضلهم * ولكن سل الله من فضله

(ولله در القائل حيث قال)

أيها المادح العباد ليعطى * ان لله ما بأيدى العباد

فاسأل الله ما طلبت اليهم * وارج فرض المقسم الجواد

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضى الله تعالى عنهم قال أتيت باب عمر بن عبد العزيز فى حاجة فقال إذا كانت لك حاجة إلى فأرسل إلى رسولا أو اكتب لى كتابا فانى لأستحيي من الله أن يراك ببابى وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال والذى وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلبا سرورا إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفا فاذا نزلت به نائبة جرى اليها كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الابل وقال لجابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس اليه فان قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء وإن لم يقم فيها بما يجب لله عرضها للزوال نعوذ بالله من زوال النعمة ونسأله التوفيق والعصمة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(الباب الثالث والعشرون فى محاسن الأخلاق ومساويها)

قال الله تعالى لنبيه ﷺ وإنك لعلى خلق عظيم فخص الله تعالى نبيه ﷺ من كريم الطباع ومحاسن الأخلاق

من أهل البصرة ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا محدث أو نحوى أو عروضى أو لغوى أو اخبارى أو فقيه فلما بعد واعن المدينة جلس فقال يا أهل البصرة يعز على فراقكم والله لو وجدت كل يوم أكلة باقلاء ما فارقتكم قال فلم يكن أحد فيهم يتكلف له ذلك القدر اليسير وسار حتى وصل إلى خراسان فاستفاد بها مالا عظيما من ذلك أنه أخذ على حرف ثمانين ألف درهم وهذه القصة نقلها الحريرى صاحب المقامات فى كتابه المسمى بدرة الغواص فى أوهام الخواص قال حكى عن محمد بن ناصح الاهوازى قال حدثنى النضر بن شميل المازني قال كنت أدخل المأمون فى سمره فدخلت ذات ليلة وعلى قميص مرقوع فقال يا نضر ما هذا التقشف حتى تدخل على امير المؤمنين فى هذه الخلقان قلت يا أمير المؤمنين أنا رجل كبير وضعيف وحر مر وشديد فأتبرد بهذه الخلقان قال ولكنك قشف ثم أجرينا الحديث فأجرى ذكر النساء فقال حدثنى هشام عن مجاهد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها ودينها كانت سدادا من عوز بفتح السين من سداد فقلت صدق يا أمير المؤمنين هشام حدثنا عوف عن ابن أبى جميلة عن الحسن عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كانت سدادا من عوز بكسر السين قال وكان أمير

الأخلاق من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال تعالى وإنك لعلى خلق عظيم قالت عائشة رضي الله عنها كان خلقه القرآن يغضب لغضبه ويرضى لرضاه وكان الحسن رضي الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال أكرم ولد آدم على الله عز وجل أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله أتي بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ولا يأكل متكئا ولا على خوان وكان يأكل خبز الشعير غير منخول وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول برد هذا يطفئ حر هذا وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول هذا يزيد في السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان يحب الدباء ويقول يا عائشة إذا طبختم قدرا فأكثروا فيه من الدباء فإنها تشد قلب الحزين وكان يقول إذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها وكان يكتحل بالإثمد ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن والكحل والمرآة والمشط والإبرة يخيط ثوبه بيده وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ولا ينكره وكان يسابق أهله قالت عائشة رضي الله عنها سابقته فسبقته فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكتفي وقال هذه بتلك وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب ولا ملبس وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحارى يتيما لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق وكان أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما وكان يقول أنا أفصح العرب وقال أنس رضي الله عنه والذي بعثه بالحق نبيا ما قال لي في شيء قط كرهه لم فعلته ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته ولا لامني أحد من أهله إلا قال دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى لا مانع من أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية فالنبي ﷺ أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبدا له متواضعا فحاز المرتبتين مرتبة العبودية ومرتبة الملكية ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار بلا إكاف ويردف خلفه ويأكل الخشن من الطعام وما شبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى من دعاه لباه ومن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذي يرفعها يعود المريض ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء أعظم الناس من الله مخافة وأتعبهم لله عز وجل بدنا وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أما والله ما كان تغلق من دونه الأبواب ولا كان دونه حجاب ﷺ وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادما له ولا ضرب بيده شيئا إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون إثما أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه وقال إبراهيم بن عباس لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت وهي قوله عليه الصلاة والسلام إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم وفي رواية أخرى فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن وعنه ﷺ حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه والزمام بيد الملك والملك يجره إلى الخير والخير يجره إلى الجنة وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه والزمام بيد الشيطان والشيطان يجره إلى الشر والشر يجره إلى النار وقال بعض السلف الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب والسيء الخلق أجنبي عند أهله وقال الفضيل لأن يصحبني فاجر حسن الخلق

المؤمنين متكئا فاستوى جالسا وقال يا نضر كيف قلت سدادا قلت نعم يا أمير المؤمنين لأن سدادا بالفتح هنا لحن قال أو تلحنني قلت إنما لحن هشام وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه قال فما الفرق بينهما قلت السداد بالفتح القصد في الدين والسبيل والسداد بالكسر البلغة وكل ما سددت به شيئا فهو سداد قال أو تعرف العرب ذلك قلت نعم هذا العرجي يقول :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فقال المأمون قبح الله من لا أدب له وأطرق مليا ثم قال ما مالك يا نضر قلت أريضة لي بمرو قال أفلا نفيدك معها مالا قلت إني إلى ذلك لمحتاج قال فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب ثم قال كيف تقول إذا أمرت أن يترب قلت أتربه قال فهو ماذا قلت مترب قال فمن الطين قلت أطنه قال فهو ماذا قلت مطين قال هذه أحسن من الأولى ثم قال يا غلام أتربه ثم صلى بنا العشاء ثم قال لغلامه تبلغ النضر إلى الفضل بن سهل قال فلما قرأ الفضل الكتاب قال يا نضر إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم فما كان السبب فأخبرته ولم أكذبه شيئا فقال ألحنت أمير المؤمنين قلت كلا إنما لحن هشام وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه وقد تتبع ألفاظ الفقهاء ورواة الآثار ثم أمر لي الفضل بثلاثين ألف درهم فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف واحد انتهى ه وحكي أن النضر ابن شميل مرض فدخل عليه قوم يعودونه فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح مسح الله ما بك فقال لا تقل مسح

أحب إلى من أن يصحبني عابد سيء الخلق لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه والعابد إذا ساء خلقه مقتوه

إذا رام التخلق جاذبته * خلائقه إلى الطبع القديم

قيل أبى الله لسيء الخلق التوبة لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل فى ذنب آخر لسوء خلقه وعن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان ولكن يقول ما بال أقوام يقولون حتى لا يفضح أحدا وعنه صلى الله عليه وسلم ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق وعنه أيضاً صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه كن له من صدق لسانه زكا عمله ومن حسنت نيته زيد فى رزقه ومن حسن بره لأهل بيته زيد له فى عمره ثم قال وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان فى الرزق وقيل سوء الخلق يعدى لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله * وكتب الحسن بن على إلى أخيه الحسين رضى الله عنهم فى اعطائه الشعراء فكتب اليه الحسين أنت أعلم منى بأن خير المال ما وقي به العرض فانظر إلى شرف أدبه وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه بأنت أعلم منى وكان بينه وبين أخيه كلام فقيل له ادخل على أخيك فهو أكبر منك فقال انى سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما اثنين جرى بينهما كلام فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنة فبلغ ذلك الحسن فجاءه عاجلا رضى الله عنهما وأنشد فى المعنى :

وانى لألقى المرء أعلم أنه * عدو وفى أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بشرا فيرجع قلبه * سليما وقد ماتت لديه الضغائن

(وسرق) بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها فقالوا اباعها فلان من مدة ثم ان ذلك الرجل الذى سرقها قبض عليه وأحضر بين يدى جعفر فلما رأي ما ظهر عليه قال له أراك قد تغير لونك ألست يوم كذا طلبت منى هذه الجوهرة فوهبتها لك وأقسم بالله لقد أنسيت هذا ثم أمر للجوهرى بثمنها وقال للرجل خذها الآن حلالا طيباً وبعها بالثمن الذى يطيب خاطرك به لا تبع بيع خائف * ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تبتسم فقال لها المأمون مم تضحكين فقال ابن عباد أنا أخبرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبحى واكرامك إياى فقال لا تعجبي فان تحت هذه العمامة كرما ومجداً قال الشاعر :

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم * إذا كانت الاعراض غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى * فما كل مصقول الحديد يمانى

(وحكي) ان بهرام الملك خرج يوما للصيد فانفرد عن أصحابه فرأى صيداً فتبعه طامعا فى لحاقه حتى بعد عن عسكره فنظر إلى راع تحت شجرة فنزل عن فرسه ليبول وقال للراعى احفظ على فرسى حتى أبول فعمد الراعي إلى العنان وكان ملبساً ذهبا كثيراً فاستغفل بهرام وأخرج سكيناً فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذى عليه فرفع بهرام نظره اليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه إلى الأرض وأطال الجلوس حتي أخذ الرجل حاجته ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعي قدم إلى فرسى فانه قد دخل فى عيني من سافى الريح فلا أقدر على فتحهما فقدمه اليه فركبه وسار إلى أن وصل الى عسكره فقال لصاحب مراكبه ان أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحدا (وذكر) أن أنوشروان وضع الموائد للناس فى يوم نيروز وجلس ودخل وجوه مملكته

بالسين ولكن قل مصح الله بالصاد أى أذهبه وفرقه أما سمعت قول الأعشي :

وإذا ما الخمر فيها أزبدت * أفل الازباد فيها ومصح

فقال له الرجل ان السين قد تبدل بالصاد كما يقال الصراط والسراط وصقر وسقر فقال له النضر فأنت إذا أبو سالح (قلت) ويشبه هذه النادرة ما حكى أن بعض الأدباء جوز بحضرة الوزير أبى الحسن بن الفرات أن تقام السين مقام الصاد في كل موضع فقال الوزير أتقول جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم أم سلح فخجل الرجل وانقطع والذى ذكره أرباب اللغة فى جواز ابدال الصاد من السين انه فى كل كلمة كان فيها سين وجاء بعدها أحد الحروف الأربعة وهى الطاء والخاء والغين والقاف فتقول الصراط والسراط وفى سخر لكم صخر لكم وفى مسغبة مصغبة وفى سيقل صيقل وقس على هذا (ونقل قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان فى تاريخه) أن أبا جعفر أحمد بن عيسى البلادرى المؤرخ قال كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء فقال لست أقبل إلا من يقول مثل قول البحترى فى المتوكل

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما * فى وسعه لسعى اليك المنبر

قال البلادرى فرجعت إلى دارى وأتيته وقلت قد قلت فيك أحسن مما قاله البحترى قال هاته فأنشدته

فى

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن لظن البرد أنك صاحبه وقال وقد أعطيته ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه
فقال ارجع إلى منزلك وافعل ما آمرك به فرجعت فبعث إلى بسبعة آلاف دينار وقال ادخر هذه للحوادث من بعدي ولك الجراية والكفاية مادمت حيا (ويعجبني من المدائح الرائقة في حلل الحشمة) قول عبد الله الأسطرلابي

أهدى لمجلسه الكريم وإنما أهدى له ما حزت من نعمائه
كالبحر يمطره السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه

(ومثله) قول القاضي الفاضل وقد كتبت به إلى وزير بغداد

يا أيها المولى الوزير ومن له منن حلان من الزمان وثاقي
من شاكر عني نداك فانني من عظم ماأوليت ضاق نطاقي
منن تخف علي يديك وإنما ثقلت مؤونتها على الأعناق

(قلت) كان نظم القاضي الفاضل رحمه الله ونثره كفرسي رهان ولكن نثره أكثر مما نظم وأجمع الناس أنه أتي مع الاكثار بالعجائب (وذكر قاضي القضاة شمس الدولة بن خلكان في تاريخه) أن مسودات رسائله اذا جمعت ماتقصر عن مائة مجلد وهو مجيد في أكثرها ولعمري أن الانشاء الذي صدر في الأيام الأموية والأيام العباسية نسي وألغي بانشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعاني المخترعة

في الايوان فلما فرغوا من الطعام جاؤا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشموم في آنية الذهب والفضة فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه وأنوشروان يراه فلما فقده الشرابي صاح بصوت عال لايخرجن أحد حتى يفتش فقال كسرى لم فأخبره بالقضية فقال قد أخذه من لا يرده ورآه من لا ينم عليه فلا تفتش أحدا فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية فدعاه كسرى وقال له هذا من ذاك فقبل الأرض وقال نعم أصلحك الله * وقال عبد الله بن طاهر كنت عند المأمون يوما فنادى بالخادم ياغلام فلم يجبه أحد ثم نادى ثانيا وصاح ياغلام فدخل غلام تركي وهو يقول ماينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح ياغلام ياغلام إلى كم ياغلام فنكس المأمون رأسه طويلا فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه ثم نظر الي فقال ياعبد الله ان الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه وانا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا * وقال ابن عباس رضي الله عنهما وردعلينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة واليا وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف فوالله ماترك فينا فقيرا إلا أغناه ولا مديونا الا أدى عنه دينه وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء ويكلمنا بكلام أحلى من الجني ولقد شهدت منه مشهدا لو كان من معاوية لذكرته تغدينا يوما عنده فأقبل الفراش بصحفة فعثر في وسادة فوقعت الصحفة من يده فوالله ماردها الا ذقن الوليد وانكب جميع مافيها في حجره فبقي الغلام متمثلا واقفا مامعه من روحه الا مايقيم رجليه فقام الوليد فدخل فغير ثيابه وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته فأقبل على الفراش وقال يابائس ماأرانا إلا روعناك اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى * ومرض أحمد بن أبي داود فعاده المعتصم وقال نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار فقال له احمد ياأمير المؤمنين فاجعلها في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة فقال نويت أن أتصدق بها على من ههنا وأطلق لأهل الحرمين مثلها فقال احمد متع الله الاسلام وأهله بك ياأمير المؤمنين فانك كما قال النميري لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه

إن المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصما * فليس بالصلوات الخمس ينتفع

(وقيل) للأحنف بن قيس ممن تعلمت حسن الخلق فقال من قيس بن عاصم بينما هو ذات يوم جالس في داره اذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء حار فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقته فدهشت الجارية فقال لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى * وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى أحدا من عبيده يحسن صلاته يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مرآة له فكان يعتقهم فقيل له في ذلك فقال من خدعنا في الله انخدعنا له وروى أن أباعثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة فألقي عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه وبسطوا ألسنتهم في الملقي للرماد فقال أبو عثمان لاتقولوا شيئا فان من استحق أن يصب عليه النار فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب وقيل لابراهيم بن أدهم تغمده الله تعالى برحمته هل فرحت في الدنيا قط فقال نعم مرتين احداهما أني كنت قاعدا ذات يوم فجاء انسان فبال علي والثانية كنت جالسا

فجاء انسان فصفعنى وروى أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه دعا غلاما له فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال نعم قال فما حملك على ترك جوابى قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى ﴿وحكى﴾ أن أبا عثمان الحيرى دعاه انسان الى ضيافة فلما وافى باب الدار قال له الرجل يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك فانصرف رحمك الله فانصرف أبو عثمان فلما وافى منزله عاد الرجل اليه وقال يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له وقال احضر الساعة فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال فى الأولى ثم فعل به ذلك أربع مرات وأبو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال له يا أستاذ انما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك ثم جعل يعتذر له ويمدحه فقال أبو عثمان لا تمدحنى على خلق تجده فى الكلاب فان الكلب إذا دعى حضر واذا زجر انزجر * وقال الحرث بن قصى يعجبنى من القراء كل فصيح مضحاك فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كثر الله فى المسلمين مثله ﴿ومن محاسن الأخلاق﴾ ما حكى عن القاضى يحيى بن أكثم قال كنت نائما ذات ليلة عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص على نومى فرأيته وقد قام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة فأخذ منها كوزا فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى أنا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهنى حتى صار إلى فراشه ثم رأيته آخر الليل قام يبول وكان يقوم فى أول الليل وآخره فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام فلما تحركت وثب قائما وصاح يا غلام وتأهب للصلاة ثم جاءنى فقال لى كيف أصبحت يا أبا محمد وكيف كان مبيتك قلت خير مبيت جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين قال لقد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك فقلت يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء وأحب لك سيرتهم فهناك الله تعالى بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لى بألف دينار فأخذتها وانصرفت قال وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال فجعلت أرمقه وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته فانتبه قال يحيى وكنت معه يوما فى بستان ندور فيه فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان أصلح هذا الحوض ولا تغرس فى هذا الحوض شيئا من البقول قال يحيى ومشينا فى البستان من أوله إلى آخره وكنت أنا مما يلى الشمس والمأمون مما يلى الظل فكان يجذبنى أن أتحول أنا فى الظل ويكون هو فى الشمس فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان فلما رجعنا قال يحيى والله لتكونن فى مكانى ولأكونن فى مكانك حتى آخذ نصيبى من الشمس كما أخذت نصيبك وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبى فقلت والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسى لفعلت فلم يزل بى حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس ووضع يده على عاتقى وقال بحياتى عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقى مثل ما فعلت أنا فانه لا خير فى صحبة من لا ينصف فانظر إلى أخلاقهم رضى الله تعالى عنهم ما أحسنها وإلى أفعالهم ما أزينها نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا وأن يبارك لنا فى أرزاقنا انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الرابع والعشرون فى حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة وما أشبه ذلك﴾

﴿اعلم﴾ أن المودة والاخوة والزيارة سبب التألف والتألف سبب القوة والقوة سبب التقوى والتقوى

والانواع البديعة والذى يؤيده قول العماد الكاتب فى الجريدة انه فى صناعة الانشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع (ومن غرر نثره) هذه الرسالة التى أنشأها فى حمائم (١١٨) الرسائل وسحب فيها ذيل البلاغة والفصاحة على سحبان وائل (وهى) سرحة لا تحمل من البطائق أجنحة وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر وتزوى لها الأرض حتى ترى ما سيبلغه ملك هذه الأمة وتقرب منها السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همة وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعا وتركب الجو بحرا . يصفق فيه هبوب الرياح مرجا وموقوعا وتعلق الحاجات على أعجازها ولا تعوق الارادات عن انجازها ومن بلاغات البطائق استفادت ما هى مشهورة به من السجع ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى دائمة الرجع وقد سكنت النجوم فهى أنجم وأعدت فى كنانتها فهى للحاجات أسهم وكادت تكون ملائكة لأنها رسل واذا أنيطت بالرقاع صارت أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع وقد باعد الله بين أسفارها وقربها وجعلها طيف خيال اليقظة الذى صدق العين وما كذبها وقد أخذت عهود أداء الأمانة فى رقابها أطواقا وأدت من أدنابها أوراقا وصارت خوافى من وراء الخوافى وأعطت سرها المودع بكتمان سحبت عليه ذيول ريشها الضوافى ترغم أنف النوى بتقريب العهود وتكاد العيون

حصن

بملاحظتها تلاحظ نجم السعود وهى أنبياء الطيور لكثرة ماتأتى به من الانباء وخطباؤها لانها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء * ومن غريب المنقول أنى حضرت فى بعض الليالى على جانب النيل المبارك (١١٩) فى خدمة مولانا المقر الأشرف المرحومى القاضوى الناصرى محمد ابن البارزى الجهنى الشافعى صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية المحروسة كان تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان وبيده الكريمة جزء من تذكرة الشيخ صلاح الدين الصفدى بخطه وهذه الرسالة أول الجزء فشرع فى قراءتها وكررها مرارا وهو يترنم فى بديعها وغريبها ورسم فى أثناء ذلك بمعارضتها فلم أجد بدا من الشروع لالتزام الواجب وأوترت قوس العزم مطمئنا بهذا الرأى الصائب وقد أوصلت هنا شمل القطعتين ليتأمل المتأمل فى جنى الجنتين ويتنزه نظره فى حدائق الروضتين ويطرب لسجع حمائم الدوحتين (قلت) شرح فما سرح العيون إلا دون رسالته المقبولة وطلب السبق فلم يرض معرق البرق سرجا ولا استعلى صفحته المصقولة وهمز جواد التسليم فقصر وأمست أذياله بعرق السحب مبلولة وأرسل فأقر الناس برسالته وكتابه الصدق وانقطع كوكب الصبح خلفه فقال عند التقصير كنت نجابا وعلى يدى مخلق يؤدى ماجاء على يده من الترسل فيهيج الأشواق ومابرحت الحمائم تحسن الأداء فى الأوراق وصحبناه على الهدى فقال ماضل صاحبكم وماغوى ومن روى عنه حديث الفضل المسند

حصن منيع وركن شديد بها يمنع الضيم وتنال الرغائب وتنجح المقاصد وقد من الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء وردها بعد الفرقة إلى الألفة والاخاء فقال تعالى واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة إذ جعلهم اخوانا على سرر متقابلين وقد سن رسول الله ﷺ الاخاء وندب إليه وآخى بين الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم ومايلقون فيها من الألم إذ يقولون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين وأنشدوا فى ذلك :

وما المرء إلا باخوانه * كما يقبض الكف بالمعصم
ولاخير فى الكف مقطوعة * ولاخير فى الساعد الأجذم

وقال زياد خير ما اكتسب المرء الاخوان فانهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان وعون فى السراء والضراء * ومن كلام على رضى الله عنه وكرم وجهه :

عليك باخوان الصفاء فانهم * عماد إذا استنجدتهم وظهور
وان قليلا ألف خل وصاحب * وان عدوا واحداً لكثير

وقال الأوزاعى الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب ان لم تكن مثله شانته وقال عبد الله بن طاهر المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة وقال المأمون للحسن بن سهل نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة قال وما السبعة ياأمير المؤمنين قال خبز الحنطة ولحم الغنم والماء البارد والثوب الناعم والرائحة الطيبة والفراش الوطيء والنظر إلى الحسن من كل شىء قال فأين أنت ياأمير المؤمنين من محادثة الرجال قال صدقت وهى أولاهن وقال سليمان بن عبد الملك أكلت الطيب ولبست اللين وركبت الفاره وافتضضت العذراء فلم يبق من لذاتى إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ وكذلك قال معاوية رضى الله عنه نكحت النساء حتى مافرق بين امرأة وحائط وأكلت الطعام حتى لاأجد ماأستمرئه وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء وركبت المطايا حتى اخترت نعلى ولبست الثياب حتى اخترت البياض فما بقى من اللذات ماتتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم وأنشدوا فى معنى ذلك :

وما بقيت من اللذات إلا * محادثة الرجال ذوى العقول
وقد كنا نعدهم قليلا * فقد صاروا أقل من القليل

(وقال لبيد) ماعاتب المرء الأديب كنفسه * والمرء يصلحه الجليس الصالح
(وقال آخر) إذا ماأتت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقيل لابن السماك أى الاخوان أحق ببقاء المودة قال الوافر دينه الوافى عقله الذى لايملك على القرب ولاينساك على البعد أن دنوت منه داناك وان بعدت عنه راعاك وان استعنت به عضدك وان احتجت اليه رفدك وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله وأنشدوا فى المعنى :

ان أخاك الصدق من يسعى معك * ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك * شتت فيك شمله ليجمعك

(وقال غيره) وليس أخى من ودنى بلسانه * ولكن أخى من ودنى وهو غائب

فمن عكرمة قد روى يطير مع الهواء لفرط صلاحه ولم يبق على الدر المصون جناح إذا دخل تحت جناحه ان برز من مقفصه لم يبق للبرد قيمة بل تنعزل (١٢٠) بديبج أوراقه وتعلق عليه من العين التميمة ماسجن إلا صبر على السجن وضيق الأطواق ولهذا حمدت عواقبه على الاطلاق ولا غنى على عود الا أسال .موع الندى من حدائق الرياض ولا أطلق من كبد الجو إلا كان سهما مريشا تبلغ به الاغراض كم علا فصار بريش القوادم كالأهداب لعين الشمس وأمسى عند الهبوط لعين الهلال كالشمس فهو الطائر الميمون والغاية السباقة والأمير الذى اذا أودع أسرار الملوك حملها ببطاقة فهو من الطيور التى خلالها الجو فنقرت ما شاءت من حبات النجوم والعجماء التى من أخذ عنها شرح المعلقات فقد أعرب عن دقائق الفهوم والمقدمة والنتيجة الكتاب المجلى فى منطق الطير وهى من جملة الكتاب الذى اذا وصل القارىء منه الى الفتح تهلل بفاتحة الخير وان تصدر البارزى بغير علم فكم جمعت بين طرفى كتاب وان سألت العقبان عن بديع السجع أحجمت عن رد الجواب رعت النسور بقوة جيف الفلا

ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

وقال

ماقدمت الا وأورثتنا من شمائلها اللطيفة نعم القادمة وأظهرت لنا من خوافيها ما كانت له خير كاتمة كم

ومن ماله مالى إذا كنت معدما * ومالى له أن أعوزته النوائب

(وقال أبو تمام) : من لى بانسان إذا أغضبته * وجهلت كان الحلم رد جوابه

وإذا صبوت إلى المدام شربت من * أخلاقه وسكرت من آدابه

وتراه يصغى للحديث بطرفه * وبقلبه ولعله أدرى به

وقيل لخالد بن صفوان أى اخوانك أحب اليك قال الذى يسد خللى ويغفر زللى ويقيل عثرتى وقيل من لا يؤاخى إلا من لاعيب فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه قال الشاعر :

ومن لم يغمض عينه عن صديقه * وعن بعض مافيه يمت وهو عاتب

(وقال آخر) اذا كنت فى كل الأمور معاتبا * صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

وان أنت لم تشرب مراراً على الأذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وقالوا إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه أو خلة لاتحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ولكن داو كلمته واستر عورته وابقه وابرأ من عمله قال الله تعالى فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون فلم يأمره بقطعهم وانما أمره بالبراءة من عملهم السىء وقال ﷺ الأرواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف وقال عليه الصلاة والسلام ان روحى المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم ومارأى أحدهما صاحبه وفى ذلك قال بعضهم :

هويتكم بالسمع قبل لقائكم * وسمع الفتى يهوى لعمرى كطرفه

وخبرت عنكم كل جود ورفعة * فلما التقينا كنتم فوق وصفه

(وقال آخر) : تبسم الثغر عن أوصافكم فغدر * من طيب ذكركم نشراً فأحيانا

فمن هناك عشقنا كم ولم نركم * والاذن تعشق قبل العين أحيانا

ماتحاب اثنان فى الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حبا لصاحبه مازار أخ أخا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنة وقالوا ليس سرور يعدل لقاء الاخوان ولا غم يعدل فراقهم وقالوا شر الاخوان الواصل فى الرخاء الخاذل عند الشدة وقالوا ان من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقا ولعدو صديقك عدوا وقالوا أعجب الأشياء ود من يهودى وحفظ من نصرانى ورياضة من دهرى وكرم من أعجمى والحذر من الكريم إذا أهنته واللئيم إذا أكرمته والعاقل إذا أحرجته والأحمق إذا مازحته والفاجر إذا عاشرته وقالوا اصحب من الاخوان من إذا لك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسى جمائله وبقى شاكراً ناشراً ذاكراً لجميلك يوليك عليها الاحسان الكثير الجزيل ويجعل أنه مابلغ من مكافأتك القليل وقال ابن عائشة لقاء الخليل شفاء الغليل وقال بعض الحكماء إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهدك قال عبد الله بن طاهر :

خليلى للبغضاء حال مبينة * وللحب آثار ترى ومعارف

فما تنكر العينان فالقلب منكر * وما تعرف العينان فالقلب عارف

(وقال آخر) : وكنت اذا الصديق أراد غيظى * وشرقنى على ظمأ بريقى

غفرت ذنوبه وكظمت غيظى * مخافة أن أعيش بلا صديق

(وقال آخر) وليس فتى الفتيان من جل همه * صبوح وان أمسى ففضل غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح أوغدا * لضر عدو أو لنفع صديق

(وأما آداب المعاشرة) فالبشاشة والبشر وحسن الخلق والأدب فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا والمصافحة إذا تلاقوا وكان القعقاع بن شور الهذلى إذا جالسه رجل يجعل له نصيبا من ماله ويعينه على حوائجه ودخل يوما على معاوية فامر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له فى المجلس فدفعها للذى فسح له فقال

وكنت جليس قعقاع بن شور * وما يشقى بقعقاع جليس
ضحوك السن إن نطقوا بخير * وعند الشر مطراق عبوس

وقال ابن عباس رضى الله عنهما للجليس على ثلاث أن أرمقه بطرفى إذا أقبل وأوسع له إذا جلس وأصغى له إذا حدث ويقال لكل شيء محل ومحل العقل مجالسة الناس ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته ومثل الجليس السوء مثل الكبريت ان لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه وكانت تحية العرب صبحتك الأنعمة وطيب الأطعمة وتقول أيضا صبحتك الافلاح وكل طير صالح ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة فقال انه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب وقيل أول ما يتعين على الجليس الانصاف فى المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما فى محله وقال ﷺ ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل وقال جعفر الصادق رضى الله عنه اذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ماعدا الجلوس فى الصدر وينبغى للانسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه فقد قيل ان نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ولا يبتدع كلاما لا يليق بالمجلس فقد قيل لكل مقام مقال وخير القول ما وافق الحال وأوجبوا على المستمع أنه اذا ورد عليه من المتكلم ما كان مر بسمعه أولا أن لا يقطع عليه ما يقوله بل يسكت الى أن يستوعب منه القول وعدوا ذلك من باب الأدب ولعله اذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن فى حفظه وقيل ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم الجالس فى مجلس ليس له بأهل والمقبل بحديثه على من لا يسمعه والداخل بين اثنين فى حديثهما ولم يدخلاه فيه والمتعرض لما لا يعنيه والمتأمر على رب البيت فى بيته والآتي الى مائدة بلا دعوة وطالب الخير من أعدائه والمستخف بقدر السلطان ويتعين على الجليس أن يراعى ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصا اذا كان جليسه ذا هيبة فقد قيل رب كلمة سلبت نعمة وقال أبو العباس السفاح ما رأيت أغزر من فكر أبى بكر الهذلى لم يعد على حديثا قط وقيل ان أبا العباس كان يحدثه يوما اذ عصفت الريح فأرمت طستا من سطح الى المجلس فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلى ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح فقال ما أعجب شأنك يا هذلى فقال ان الله يقول ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وانما لى قلب واحد فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجمت لها فقال السفاح لئن بقيت لأرفعن مكانك ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة وكان ابن خارجة يقول ما غلبنى أحد قط غلبة رجل يصغى الى حديثى * وفى نوابغ الحكم أكرم حديث أخيك بانصاتك وصنه من وصمة التفاتك وقيل من حق الملك اذا تثاءب او ألقى المروحة من يده أو مد رجليه أو تمطى أو

أهدت من مخلقها وهي عادية رائحة وكم حنت اليها الجوارح وهي أدام الله اطلاقها غير جارحة وكم أدارت من كئوس السجع ماهو أرق من قهوة الانشا وأبهج على زهر المنثور من صبيح الاعشا وكم عامت ببحور (١٢١) الفضا ولم تحفل بموج الجبال وكم جاءت ببشارة وخضبت الكف ورمت من تلك الأنملة قلامة الهلال وكم زاحمت النجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف الخضيب وانحدرت كأنها دمعة سقطت على خد الشفق لأمر مريب وكم لمع فى أصيل الشمس خضاب كفها الوضاح فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح والله تعالى يديم بأفنان أبوابه العالية ألحان السواجع ولا برح تغريدها مطربا بين البادي والراجع انتهى (وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزرى فى كتابه المسمى بالوشى المرقوم فى حل المنظوم) قال حدثنى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى بمدينة دمشق سنة (٥٨٨) ثمان وثمانين وخمسمائة وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية أن فن الانشاء لا تخلو منه رأس مكانا أو بيانا وكل من أنشأ أقام لسلطانه بانشائه سلطانا وكان من العادة أن كلا من أرباب البيوت إذا نشأ له ولد أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويسمع فأرسلنى والدى وكان اذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان الى الديار المصرية فى أيام الحافظ العبيدى وهو أحد خلفائها فدخلت ديوان المكاتبات وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام وهو صاحب الانشاء

بمصر موفق الدين أبا الحجاج يوسف المعروف بابن الخلال فلما مثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبي رحب بي ثم قال ما الذى أعددت لفن الانشاء وكتابته فقلت ليس (١٢٢) عندى سوى أنى أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال فى هذا بلاغ ثم أمرنى بملازمته فلما ترددت اليه وتدربت عليه وطال تدربي بين يديه أمرنى أن أحل عليه ديوان الحماسة فحللته من أوله الى آخره ثم أمرنى أن أحله مرة أخرى فحللته انتهى ماذكره ابن الأثير (قلت) وقال عماد الدين الكاتب فى كتاب الخريدة فى حق موفق الدين بن الخلال كان فن الترسل والانشاء آل اليه وكان فى ذلك ناظر مصره وانسان ناظره وقبلة جامع مفاخره (قلت) الذى ثبت عند المؤرخين وعلماء هــذا الفن أن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى أخـذ علم الانشاء وحكمه عن موفق الدين بن الخلال منشىء الخليفة الحافظ العلوى ورتبته فى الانشاء معلومة ولكن جنحت الى الوقوف على شىء من نظمه لانظر فى الرتبتين كما قررت ذلك فى نظم القاضى الفاضل ونثره فوجدت قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان رحمه الله قد أورد له فى تاريخه نظما ونثرا دلنى على أن نظمه ونثره رضيعا لبان وفرسا رهان (فمن ذلك قوله فى الشمعة ولله دره حيث أجاد) وأما

وصبيحة بيضاء تطلع فى الدجا ٭ صبحا وتشفى الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوان شبابها ٭ واسود مفرقها أوان خضابها

اتكاء أو فعل مايدل على كسله أن يقوم من بحضرته وكان أردشير اذا تمطى قام سماره ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث وان طال الدهر قال روح بن زنباع أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة فما أعدت عليه حديثا إلا مرة واحدة فقال لى قد سمعته منك وعن الشعبى قال ماحدثت بحديث مرتين رجلا بعينه وقال عطاء بن أبى رباح ان الرجل ليحدثنى بالحديث فأنصت له كأنى لم أسمعه قط وقد سمعت به من قبل أن يولد وقيل المودة طلاقة الوجه والتودد الى الناس وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه ان المسلمين اذا التقيا فضحك كل واحد منهما فى وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر وقيل البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر وقيل من السنة اذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيبا وقالوا اذا أردت حسن المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة ولا تنظر فى عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات واذا جلست فلا تتكبر على أحد وتحفظ من تشبيك أصابعك ومن العبث بلحيتك ومن اللعب بخاتمك وتخليل أسنانك وادخال أصبعك فى أنفك وكثرة بصاقك وكثرة التمطى والتثاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة وليكن مجلسك هادئا وحديثك منظوما مرتبا واصغ الى كلام جالسك واسكت عن المضاحك ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ولا تلح فى الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تمازح أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما واذا خاصمت فانصف وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر فى حجتك ولا تكثر الاشارة بيدك ولا الالتفات الى من وراءك واهدىء غضبك وتكلم واذا قربك سلطان فكن منه على حذر واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهى ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه وان كنت لذلك مستحقا عنده وإياك وصديق العافية فانه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ولا تجالس الملوك فان فعلت فالزم ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم وان ظهرت المودة ولا تتجشأ بحضرتهم ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم ولا تجالس العامة فان فعلت فآداب ذلك ترك الخوض فى حديثهم وقلة الاصغاء الى أراجيفهم والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم واياك أن تمازح لبيبا أو سفيها فان اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترأ عليك ولان المزح يخرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الايمان والود ويشين فقه الفقيه ويجرىء السفيه ويميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة والذلة ومن بلى فى مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب اليك غفر له ما كان فى مجلسه ذلك

(وأما آداب المسايرة) فقد روى أن رسول الله ﷺ تعقب هو وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فى سفر على بعير فكان اذا جاءت نوبته فى المشى مشى فيعزمان عليه أن لا يمشى فيأبى ويقول ما أنتم بأقدر منى على المشى وما أنا بأغنى منكم على الأجر وقال ﷺ لا تتخذوا ظهور الدواب كراسى وقيل لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا فى ثلاث اذا ساروا ليلا أو خاضوا سيلا أو واجهوا خيلا وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه فى ثلاث فى نكبته وغيبته ووفاته

كالعين فى طبقاتها ودموعها وسوادها وبياضها وضيائها (وله) وأغن سيف لحاظه يغزى الحسام بحده
عجب الورى لما جننت وقد فنيت بعده وبقاء جسمى ناحلا بصلى بوقدة صده (نادرة)

﴿وأما ماجاء فى الاخوان القليلى المواساة العديمى المكافأة الذين ليس عندهم لصديق مصافاة﴾

قال وهب بن منبه صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلا غفر لى زلة ولا أقالنى عثرة ولا ستر لى عورة وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه إذا كان الغدر طبعا فالثقة بكل أحد عجز وقيل لبعضهم ما الصديق قال اسم وضع على غير مسمى وحيوان غير موجود (قال الشاعر)

سمعنا بالصديق ولا نراه * على التحقيق يوجد فى الانام
وأحسبه محالا نمقوه * على وجه المجاز من الكلام

وقال أبو الدرداء كان الناس ورقا لا شوك فيه فصاروا شوكا لا ورق فيه وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم وان كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر * وقيل لبعض الولاة كم لك صديق فقال أما فى حال الولاية فكثير وأنشد

الناس اخوان من دامت له نعم * والويل للمرء ان زلت به القدم

(ولما) نكب على بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحدا من أصحابه الذين كانوا يألفونه فى ولايته فلما ردت اليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانيا فقال

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها * فكلما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت * يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

(وقال آخر) فما أكثر الأصحاب حين تعدهم * ولكنهم فى النائبات قليل
(وقال البحترى) اياك تغتر أو تخدعك بارقة * من ذى خداع يرى بشرا وألطافا

فلو قلبت جميع الارض قاطبة * وسرت فى الأرض أوساطا وأطرافا
لم تلق فيها صديقا صادقا أبدا * ولا أخا يبذل الانصاف ان صافى

(وقال بعضهم فى المعنى أيضا) خليلى جربت الزمان وأهله * فما نالنى منهم سوى الهم والعنا
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد * خليلا يوفى بالعهود ولا أنا
(وقال آخر) لما رأيت بنى الزمان وما بهم * خل وفى للشدائد أصطفى
فعلمت أن المستحيل ثلاثة * الغول والعنقاء والخل الوفى
(بيت مفرد) وكل خليل ليس فى الله وده * فانى به فى وده غير واثق
(وقال آخر) إذا ما كنت متخذا خليلا * فلا تأمن خليلك أن يخونا
فانك لم يخنك أخ أمين * ولكن قلما تلقى أمينا
(وقال آخر) تحب عدوى ثم تزعم أننى * أودك إن الرأى عنك لعازب
وليس أخى من ودنى بلسانه * ولكن أخى من ودنى وهو غائب
ومن ماله مالى اذا كنت معدما * ومالى له إن أعوزته النوائب

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زور عنه كتابا إلى أعدائه وعزله لم يأت اليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له ثم ان السلطان ظهر له فى بقية يومه أنه برىء مما نسب اليه فخلع عليه ورد اليه وظائفه فأنشد يقول هذه الأبيات

تحالف الناس والزمان * فحيث كان الزمان كانوا * عادانى الدهر نصف يوم
فانكشف الناس لى وبانوا * يا أيها المعرضون عنا * عودوا فقد عاد لى الزمان

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة قول القضاء أفقههما فجمع بينهما فقال له اياس أيها الرجل سل عنى وعنه فقيهى المصر الحسن وابن سيرين وكان القاسم يأتيهما واياس لا يأتيهما ففهم القاسم ان سألهما عنه أشار به فقال له لا تسل عنى ولا عنه فوالله الذى لا إله إلا هو إن اياس بن معاوية أفقه منى وأعلم منى بالقضاء فان كنت كاذبا فما عليك أن تولينى وأنا كاذب وان كنت صادقا فينبغى أن تقبل قولى فقال له اياس انك جئت برجل وقفت به على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله تعالى منها وينجو مما يخاف فقال له عدى أما إذ فهمتها فأنت لها أهل فاستقضاه (نادرة لطيفة)

نقل ابن عبد ربه فى العقد أن أبا سفيان زار معاوية فى الشام فلما رجع من عنده دخل على الامام عمر رضى الله عنه فقال له الامام أجدنا قال ما أصبنا شيئا فنجديك فأخذ الامام عمر خاتمه فبعث به إلى هند وقال للرسول قل لها يقول لك أبو سفيان انظرى الخرجين اللذين جئت بهما من عند معاوية فأحضريهما فلم يلبث عمر أن أتى بالخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فألقاها عمر فى بيت المال فلما

(ومثله في المعني) أخوك أخوك من يدنو وترجو * مودته وان دعى استجابا
إذا حاربت حارب من تعادى * وزاد سلاحه منك اقترابا

(وقال أبو بكر الخالدي) وأخ رخصت عليه حتى ملنى * والشيء مملول إذاما يرخص
ماقي زمانك من يعز وجوده * ان رمته الاصديق مخلص

فيجب على الانسان أن لا يصحب إلا من له دين وتقوى فان المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة وما أحسن ما قال بعضهم :

وكل محبة في الله تبقى * على الحالين من فرج وضيق
وكل محبة فيما سواه * فكالحلفاء في لهب الحريق

فينبغي للانسان أن يجتنب معاشرة الأشرار ويترك مصاحبة الفجار ويهجر من ساءت خلقه وقبحت بين الناس سيرته قال الله تعالى : «الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» وقال تعالى : «ومامن دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة فاذا رأيت الرجل جاهلا في خلائقه غليظا في طبائعه قويا في بدنه لا تؤمن ضغائنه فألحقه بعالم النمورة والعرب تقول أجهل من نمر واذا رأيت الرجل هجاما على أعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب فان دأب الكلب أن يجفو من لا يجفوه ويؤذى من لا يؤذيه فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح ألست تذهب وتتركه واذا رأيت انسانا قد جبل على الخلاف ان قلت نعم قال لا وان قلت لا قال نعم فألحقه بعالم الحمير فان دأب الحمار إن أدنيته بعد وان أبعدته قرب فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقته وان رأيت انسانا يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد واذا بليت بانسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب واذا رأيت من يمشي بين الناس بالنميمة ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم الظربان وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشي بينهم ظربان فتفرقوا واذا رأيت انسانا لا يسمع الحكمة والعلم وينفر من مجالسة العلماء ويألف أخبار أهل الدنيا فألحقه بعالم الخنافس فانه يعجبها أكل العذرات وملامسة النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد واذ شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها واذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلها يبيض ثيابه ويعدل عمامته وينظر في عطفيه فألحقه بعالم الطواويس واذا بليت بانسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازى بعد المدة الطويلة على السقطات فألحقه بعالم الجمال والعرب تقول أحقد من جمل فتجنب قرب الرجل الحقود وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم فانه اذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه والله أعلم

﴿ وأما الزيارة والاستدعاء اليها ﴾ فقد قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى وجبت محبتي للمتحابين في والمتباذلين في والمتزاورين في اليوم أظلهم الله في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي وقال ﷺ من عاد مريضا أو زار أخا نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا وقيل المحبة شجرة أصلها الزيارة قال الشاعر

زر من تحب وان شطت بك الدار * وحال من دونه حجب وأستار

(قلت) وما ظنك بشيء قد جعله الله في كتابه العزيز مدحة وفخرا لأنبيائه فقال واذكر في الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد ولو لم يكن في خلف الوعد الا قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون لكفى قال عمر بن الحرث كانوا يقولون ويفعلون فصاروا يقولون ولا يفعلون ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون فهم ضنوا بالكذب فضلا عن الصدق (ويعجبني قول العباس بن الأحنف) ماضر من شغل الفؤاد ببخله

لو كان عللني بوعد كاذب
صبرا عليك فما أرى لى حيلة
إلا التمسك بالرجاء الخائب
سأموت من مطل وتبقى حاجتي
فيها لديك وما لها من طالب

(وذكر حيان بن سليمان عامر بن الطفيل فقال) والله كان اذا وعد الخير وفى واذا وعد الشر أخلف وهو القائل

ولا يرهب ابن العم ماعشت صولتي * ويأمن منى صولة المتهدد
واني وان أوعدته أو وعدته * لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

لا يمنعك بعد من زيارته * ان المحب لمن يهواه زوار

ولكن الزيارة غبا لقوله ﷺ زرغبا تزدد حبا قال الشاعر فى معنى ذلك

عليك باغباب الزيارة انها * إذا كثرت صارت الى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يسأم دائما * ويسأل بالأيدى إذا هو أمسكا

ويقال الاكثار من الزيارة ممل والاقلال منها مخل وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت

إذا ماتقاطعنا ونحن ببلدة * فما فضل قرب الدار منا على البعد

(وقال آخر) وان مرورى بالديار التى بها * سليمى ولم ألمم بها لجفاء
(وقال آخر) قد أتانا من آل سعدى رسول * حبذا ما يقول لى وأقول
(وقال آخر) أزور بيوتا لاصقات بيتها * وقلبي فى البيت الذى لا أزوره

وزار محمد بن يزيد المهلبي المستعين ووهب له مائتى ألف درهم وأقطعه أرضا فقال

وخصصتنى بزيارة أضحي لنا * مجد بها طول الزمان مؤثل
وقضيت دينى وهو دين وافر * لم يقضه مع جوده المتوكل

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة

نحن فى أفضل السرور ولكن * ليس إلا بكم يتم السرور * عيب مانحن فيه يا أهل ودى
أنكم غبتم ونحن حضور * فأجدوا المسير بل ان قدرتم * أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف أى الرسل أنجح قال الذى له جمال وعقل وقيل إذا أرسلتم رسولا فى حاجة فاتخذوه حسن الوجه حسن الاسم وقال لقمان لابنه يابنى لاتبعث رسولا جاهلا فان لم تجد حكيما عارفا فكن رسول نفسك وقال بعضهم

إذا أبطأ الرسول فقل نجاح * ولا تفرح إذا عجل الرسول

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ الباب الخامس والعشرون فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة واصلاح ذات البين وفيه فصلان ﴾

﴿الفصل الأول فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم﴾ قال الله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ووصف الله نفسه لعباده فقال عز وجل ان الله بالناس لرؤف رحيم وقال الله تعالى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم قال المفسرون الرحمن اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم على الخلق والرحيم مثله وقيل يقال رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ والذى نفسى بيده لايضع الله الرحمة إلا على رحيم قلنا يارسول الله كلنا رحيم قال ليس الرحيم الذى يرحم نفسه وأهله خاصة ولكن الرحيم الذى يرحم المسلمين رواه أبو يعلى والطبرانى وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال من لا يرحم لا يرحم ومن لا يغفر لا يغفر له وعنه ﷺ قال ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل ان كنتم تريدون رحمتى فارحموا خلقى رواه أبو محمد بن عدى فى كتاب الكامل ورويناه من طريق الطبرانى عن الشعبى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ مثل المؤمنين

(وقال ابن حازم) إذا قلت عن شىء نعم فأتمه * فان نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا تسترح وترح بها * لئلا يظن الناس أنك كاذب

(ويعجبنى قول عبد الصمد الرقاشي فى خالد بن ديسم عامل الرى وقد أبطأ عليه بوعد)

أخالد إن الرى قد أجحفت بنا * وضاق علينا رحبها ومعاشها
وقد أطمعتنا منك يوما سحابة * أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يصحو فيرجع طامع * ولا ودقها يهمى فتروى عطاشها

(قلت) ومن البلاغة المرقصة فى هذا الباب خطاب كوثر بن زفر وقد وعده يزيد بن المهلب وأبطأ بوعده وهو * أصلح الله الأمير أنت أعظم من أن يستعان بك أو يستعان عليك ولست تفعل من الخير شيئا الا وهو يصغر عنك وأنت تكبر عنه وليس العجب أن تفعل ولكن العجب أن لا تفعل * قيل ان يزيد بن المهلب لما سمع هذا الخطاب البليغ مال سكرا وطربا وقال له سل حاجتك قال حملت من عشيرتى عشر ديات قال قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها (ويعجبنى قول بعضهم) أما بعد فان شجرة وعدك قد أورقت فليكن وعدها سالما من جوائح المطل والسلام ﴿لطيف الاستمناح﴾ قال الحكماء لطيف الاستمناح سبب النجاح والنفس ربما انطلقت وانشرحت لطيف السؤال وامتنعت وانقبضت بجفاء السائل (ولله در القائل) ان الكريم أخو المروءة والنهى * من ليس فى حاجاته بمغفل

﴿ دخل عبد الملك بن صالح ﴾ على الرشيد فقال له أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة فقال بالخلافة والعامة فقال يا أمير المؤمنين يداك بالعطية أطلق من (١٢٦) لساني فأجزل عطيته ﴿ وقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة ﴾ فقالت أشكو اليك قلة الجرذان فقال ما أحسن هذه الكناية املؤا لها بيتها لحما وخبزا وسمنا ﴿ نادرة لطيفة ﴾ كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل متكتما وكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث فلما أفضت اليه الخلافة قدم أزهر عليه فرحب به وقربه وقال ما حاجتك يا أزهر فقال يا أمير المؤمنين داري متهدمة وعلي أربعة آلاف درهم وأريد أزوج ابني محمدا فوصله باثني عشر ألف درهم وقال قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا بعد هذا طالبا فأخذها وارتحل فلما كان بعد سنة أتاه فقال له أبو جعفر ما حاجتك يا أزهر قال جئت مسلما فقال لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا فلا تأتنا طالبا ولا مسلما فأخذها ومضى فلما كان بعد سنة أتاه فقال ما حاجتك يا أزهر قال أتيت عائدا فقال لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا فاذهب ولا تأتنا بعد طالبا ولا مسلما ولا عائدا فأخذها وانصرف فلما مضت السنة أقبل فقال له ما حاجتك يا أزهر قال يا أمير المؤمنين دعاء كنت أسمعك تدعو به جئت لأكتبه فضحك أبو جعفر وقال الدعاء الذي تطلبه غير مستجاب فاني دعوت الله به أن لا أراك فلم يستجب

في تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى قال الطبراني إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام فسألته عن هذا الحديث فقال النبي ﷺ وأشار بيده صحيح صحيح صحيح ثلاثا وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجده مستلقيا على ظهره وصبيانه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه فقال له عمر كيف أنت مع أهلك قال إذا دخلت سكت الناطق فقال له اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولدك فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ان ابدال امتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين

﴿ الفصل الثاني في الشفاعة واصلاح ذات البين ﴾ قال الله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا وقال رسول الله ﷺ ان الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره فيقول له جعلت لك جاها فهل نصرت به مظلوما أو قمعت به ظالما أو أغثت به مكروبا وقال ﷺ أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له وعن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أفضل الصدقة صدقة اللسان قيل يا رسول الله وما صدقة اللسان قال الشفاعة تفك بها الاسير وتحقن بها الدماء وتجر بها المعروف إلى أخيك وتدفع عنه بها كريهة رواه الطبراني في المكارم وقال علي رضي الله عنه الشفيع جناح الطالب وقال رجل لبعض الولاة ان الناس يتوسلون اليك بغيرك فينالون معروفك ويشكرون غيرك وأنا أتوسل اليك بك ليكون شكري لك لا لغيرك * وقيل كان المنصور معجبا بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم وكان الناس لعظم قدره يفزعون اليه في الشفاعات فثقل ذلك على المنصور فحجبه مدة ثم لم يصبر عنه فأمر الربيع أن يكلمه في ذلك فكلمه وقال اعف يا أمير المؤمنين لا تثقل عليه في الشفاعات فقبل ذلك منه فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع فسألوه ايصالها إلى المنصور فقص عليهم القصة فأبوا الا أن يأخذها فقال اقذفوها في كمي ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين فقال له أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله فقال له يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما آتاك وهناك باتمام نعمتك عليك فيما أعطاك فما بنت العرب في دولة الاسلام ولا العجم في سالف الأيام احصن ولا احسن من مدينتك ولكن سمجتها في عيني خصلة قال وما هي قال ليس لي فيها ضيعة فتبسم وقال قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها فقال أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر فجعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه ثم أقام معه يومه ذلك فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه فجعل يردهن ويقول ارجعن خائبات خاسرات فضحك المنصور وقال بحقي عليك الا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرقاع فأعلمه وقال ما أتيت يا ابن معلم الخير الا كريما وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

لسنا وإن احسابنا كرمت * يوما على الاحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا * تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ثم

ثم تصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها قال محمد فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت * وقال المبرد أتاني رجل لأشفع له في حاجة فانشدني لنفسه

انى قصدتك لا أدلى بمعرفة * ولا بقرب ولكن قد فشت نعمك
فبت حيران مكروبا يؤرقني * ذل الغريب ويغشيني الكرى كرمك
مازلت أنكب حتى زلزلت قدمي * فاحتل لتثبيتها لا زلزلت قدمك
فلو هممت بغير العرف ماعلقت * به يداك ولا انقادت له شيمك

قال فشفعت له وأنلته من الاحسان ما قدرت عليه وكتب رجل إلى يحيي بن خالد رقعة فيها هذا البيت

شفيعي اليك الله لا شيء غيره * وليس الى رد الشفيع سبيل

فامره بلزوم الدهليز فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفا ذهب الرجل فقال يحيي والله لو أقام الى آخر عمره ما قطعتها عنه

وقال آخر

وقد جئتكم بالمصطفى متشفعا * وما خاب من بالمصطفى يتشفع
إلى باب مولانا رفعت ظلامتي * عسى الهم عني والمصائب ترفع
تشفع بالنبي فكل عبد * يجار إذا تشفع بالنبي

وقال آخر

ولا تجزع إذا ضاقت أمور * فكم لله من لطف خفي

وروى أن جبريل عليه السلام قال يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال سقي الماء للمسلمين وإعانة أصحاب العيال وستر الذنوب على المسلمين اذا أذنبوا اللهم استر ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب السادس والعشرون في الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان ﴾

﴿ الفصل الأول في الحياء ﴾ قالت عائشة رضي الله تعالى عنها مكارم الأخلاق عشرة صدق الحديث وصدق اللسان وأداء الأمانة وصلة الرحم والمكافأة بالصنيع وبذل المعروف وحفظ الذمام للجار وحفظ الذمام للصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء وقال رسول الله ﷺ الحياء شعبة من الايمان وقال رسول الله ﷺ ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه وعن زيد بن علي عن آبائه يرفعونه من لم يستح فهو كافر وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه اني لادخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فاحني فيه صلبي حياء من ربي وقال بعضهم الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء وقال الخواص ان العباد عملوا على أربع منازل على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء فارفعها منزلة الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا سواء علينا رأيناه أو رآنا وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه ويقال القناعة دليل الأمانة والأمانة دليل الشكر والشكر دليل الزيادة والزيادة دليل بقاء النعمة والحياء دليل الخير كله

﴿ الفصل الثاني في التواضع ولين الجانب وخفض الجناح ﴾ قال الله تعالى واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين وقال رسول الله ﷺ أفضل العبادة التواضع وقال ﷺ لا ترفعوني فوق قدري فتقولوا في ما قالت النصارى في المسيح فان الله عز وجل اتخذني عبدا قبل أن يتخذني رسولا وأتاه ﷺ رجل فكلمه

لي وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا وتعال إذا شئت فقد أعيتنا الحيلة فيك ﴿ ودخل رجل من الشعراء ﴾ على يحيي بن خالد بن برمك فأنشده

سألت الندى هل أنت حر فقال لا * ولكنني عبد ليحيي بن خالد

فقلت شراء قال لا بل وراثة * توارثني من والد بعد والد

فأمر له بعشرة آلاف درهم ﴿ أجواد الجاهلية الذين انتهى اليهم الجود ثلاثة نفر ﴾ حاتم بن عدى الطائي وهرم بن سنان المزني وكعب بن مامة الأيادي ولكن المضروب به المثل حاتم وحده وكان إذا اشتد البرد وكلب الشتاء أوقد نارا في يفاع الأرض لينظر اليها المار ليلا فيبادر اليها وهو القائل لغلامه يسار

أوقد فان الليل ليل قر * والريح ياموقد ريح صر
حتى يرى نارك من يمر * ان جلبت ضيفا فأنت حر

﴿ وأما ﴾ هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه

تراه إذا ما جئته متهللا * كأنك تعطيه الذي أنت سائله

(وأما) كعب بن مامة الأيادي فلم يأت له الا ما ذكر عنه من ايثاره رفيقه السعدي بالماء حتى مات عطشا ونجا السعدي وناهيك بهذا الكرم الذي ما سبق اليه (وأما أجواد الحجاز) فثلاثة في عصر واحد وهم عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص (وأجود أهل البصرة خمسة في عصر واحد) وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن أبي بكرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسالم بن زياد وعبيد الله بن معمر القرشي التيمي وطلحة الطلحات وهو طلحة بن خالد الخزاعي ﴿ وأجود أهل

فأخذته رعدة فقال ﷺ له هون عليك فانى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد وكان ﷺ يرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم فى مهنة أهله ولم يكن متكبرا ولا متجبرا أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا وكان إذا حدث بشيء مما آتاه الله تعالى قال ولا فخر وقال ﷺ إن العفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله وان التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله وان الصدقة لا تزيد المال الا نماء فتصدقوا يزدكم الله وقال عدى بن أرطاة لاياس بن معاوية انك لسريع المشية قال ذلك أبعد من الكبر وأسرع فى الحاجة وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر اجلس فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار وقيل التواضع سلم الشرف ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين فقيل له فى ذلك فقال ان أبى كان جبارا فأحببت أن أتواضع لربى لعله أن يخفف عن أبى تجبره وقال مجاهد ان الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودى فرفعه فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال الله تعالى لموسى عليه السلام هل تعرف لم كلمتك من بين الناس قال لا يارب قال لأنى رأيتك تتمرغ بين يدى فى التراب تواضعا لى وقيل من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة ما تاه الا وضيع ولا فاخر إلا لقيط وكل من تواضع لله رفعه الله فسبحان من تواضع كل شيء لعز جبروت عظمته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب السابع والعشرون فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك﴾

(اعلم) أن الكبر والاعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب والكبر يكسب المقت ويمنع من التألف قال رسول الله ﷺ لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر وقال رسول الله ﷺ من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله اليه وقال الاحنف ابن قيس ما تكبر أحد الا من ذلة يجدها فى نفسه ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه فقال وددت أنى مثلك فى ظنك وأن أعدائى مثلك فى الحقيقة ورأى رجل رجلا يختال فى مشيه فقال جعلنى الله مثلك فى نفسك ولا جعلنى مثلك فى نفسى وقال الأحنف عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر * ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر فى مشيه فقال له مالك يابنى لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك فقال أوما تعرفنى قال أعرفك معرفة جيدة أولك مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه وقال لا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة والسيادة وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق قال بعض الحكماء ما رأيت متكبرا إلا تحول ما به بى يعنى أتكبر عليه * واعلم أن الكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله والعرب تجعل جذيمة الابرش غاية فى الكبر يقال انه كان لا ينادم أحدا تكبرا ويقول انما ينادمنى الفرقدان وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبرا روى أنه قال لغلامه اسقنى ماء فقال نعم فقال انما يقول نعم من يقدر أن يقول لا اصفعوه فصفع ودعا أكارا فكلمه فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذارا لمخاطبته ويقال فلان وضع نفسه فى درجة لو سقط منها

الكوفة ثلاثة فى عصر واحد) وهم عتاب بن ورقاء الرياحى وأسماء بن خارجة وعكرمة الفياض * فمن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه وأول من وضع الموائد على الطريق (ومن جوده) أن أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال يا ابن عباس ان لى عندك يدا وقد احتجت اليها فصعد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه فقال له ما يدك عندنا قال له رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يملأ من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بطرف كسائى حتى شربت فقال أجل إنى لأذكر لك ذلك ثم قال لغلامه ما عندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم قال ادفعها اليه وما أراها تفى بحق يده عندنا فقال له الرجل والله لو لم يكن لاسمعيل ولد غيرك لكان فيك كفاية فكيف وقد ولد سيد المرسلين ثم شفع بك وبأبيك (ومن جوده أيضا) أن معاوية حبس عن الحسين بن على رضى الله عنه صلاته حتى ضاقت عليه الحال فقيل له لو وجهت إلى عمك عبيد الله بن العباس لكفاك وقد قدم بألف ألف قال الحسين فما مقدارها عنده والله انه لأجود من الريح إذا عصفت وأسخى من البحر إذا زخر ثم وجه اليه رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وانه يحتاج إلى مائة ألف فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان أرق الناس قلبا وألينهم عطفا انهملت عيناه ثم قال ويلك يا معاوية تكون لين المهاد رفيع العماد والحسين يشكو ضعف الحال وكثرة العيال لتكبر

لتكبره * قال الجاحظ المشهورون بالكبر من قريش بنو مخزوم وبنو أمية ومن **العرب بنو جعفر بن** كلاب وبنو زرارة بن عدي وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيدا **وأ**نفسهم الا أربابا وقيل لرجل من بني عبد الدار ألا تأتي الخليفة فقال **أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي وقيل للحجاج بن** ارطاة مالك لا تحضر الجماعة قال أخشى أن يزاحمني البقالون وقيل أتى وائل بن حجر **إلى النبي** ﷺ فاقطعه أرضا وقال لمعاوية أعرض هذه الأرض عليه واكتبها له فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة ومشي خلف ناقته فاحرقه حر الشمس فقال له اردفني خلفك على ناقتك قال لست من أرداف الملوك قال فاعطني نعليك قال ما بخل يمنعني يا ابن أبي سفيان ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلي ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفا وقيل انه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدثه * وقال المسرور بن هند لرجل أتعرفني قال لا قال أنا المسرور بن هند قال ما أعرفك قال فتعسا ونكسا لمن لم يعرف القمر قال الشاعر

قولا لأحمق يلوي التيه أخدعه * لو كنت تعلم ما في التيه لم تته
التيه مفسدة للدين منقصة * للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وقيل لا يتكبر الا كل وضيع ولا يتواضع إلا كل رفيع والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الثامن والعشرون في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت ﴾

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعقبة بن أبي معيط وكانا تفاخرا وقوله تعالى أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمنا يوم القيامة نزلت في أبي جهل وعمار بن ياسر والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب وقد قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فالفخر في الاسلام بالتقوى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نبيكم واحد وان أباكم واحد وانه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت (وقال الأصمعي) بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة اذ رأيت شابا متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول

يامن يجيب دعا المضطر في الظلم * يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا * وأنت يا حي يا قيوم لم تنم
أدعوك ربي حزينا هائما قلقا * فارحم بكائي بحق البيت والحرم
ان كان جودك لا يرجوه ذو سفه * فمن يجود على العاصين بالكرم

ثم بكي بكاء شديدا وأنشد يقول

ألا أيها المقصود في كل حاجتي * شكوت اليك الضر فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي * فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة * وما في الورى عبد جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى * فأين رجائي ثم أين مخافتي

ثم سقط على الأرض مغشيا عليه فدنوت منه فاذا هو زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين فرفعت رأسه في حجري وبكيت فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه

ثم قال لقهرمانه احمل إلى الحسين نصف ما تملكه من ذهب وفضة ودابة واخبره أني شاطرته فان أقنعه ذلك وإلا فارجع واحمل اليه النصف الآخر قال فلما وصل الرسول إلى الحسين قال إنا لله ثقلت والله على عمي وما ظننت أنه يتسع بهذا كله فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل هذا في الاسلام (ومن جوده أيضا) أن معاوية أهدى اليه وهو عنده في شهر من هدايا النوروز حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها اليه مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر الى الحاجب وهو يطيل النظر فيها فقال هل في نفسك منها شيء قال نعم والله ان في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف فضحك عبيد الله فقال فشأنك بها فهي لك قال جعلت فداءك أنا أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيغضب لذلك قال فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن وهو يحملها اليك ليلا فقال الحاجب والله ان هذه الحيلة في الكرماء أكثر من الكرم ولوددت أني لا أموت حتى أراك مكانه يعني معاوية فظن عبيد الله أنها مكيدة منه فقال دع هذا الكلام انا من قوم نفي بما عقدنا ولا ننقض ما أكدنا وقال له رجل من الأنصار جعلت فداءك والله لو سبقت حاتما يوم ماذكرته العرب وأنا أشهد أن عفو جودك أكثر من مجهوده وطل صوبك أكثر من وابله (ومن جود عبد الله بن جعفر) أن عبد الله بن أبي عمارة دخل على نخاس يعرض قيانا للبيع فشغفه حب واحدة منهن ولم يكن له جدة يتوصل بها إلى المشتري فشبب

وقال من هذا الذي يهجم علينا قلت عبيدك الاصمعي سيدي ما هذا البكاء والجزع وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة أليس الله تعالى يقول إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا فقال هيهات هيهات يا أصمعي ان الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا أليس الله تعالى يقول فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون والفخر وان نهت عنه الأخبار النبوية ومجته العقول الذكية الا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعا لا تكلفا وجبلة لا تعلما ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ولا ينبه على مناقبهم سواهم وكان كعب بن زهير اذا أنشد شعرا قال لنفسه أحسنت وجاوزت والله الاحسان فيقال له أتحلف على شعرك فيقول نعم لأني أبصر به منكم وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها ويقول عند إنشادها أي علم بين جنبي وأي لسان بين فكي وقال الجاحظ لولم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ماوجد له طالب ولما أبدع ابن المقفع في رسالته التي سماها باليتيمة تنزيها لها عن المثل سكنت من النفوس موضع ارادته من تعظيمها ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله وسنذكر في هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئا من نظم البلغاء ونثرهم في الافتخار ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره * قال أبو بكر الهذلي سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوي الفلاة وعليه جبة خز وعمامة عدنية وفي يده سوط يكاد يمس الأرض فلما رآه المنصور أمرني باحضاره فدعوته وسألته عن نسبه وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة فأحسن الجواب فأعجبه ما رأى منه فقال أنشدني شعرا فأنشده شعرا لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم وحدثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله

ان الأمور إذا أوردتها صدرت * ان الأمور لها ورد واصدار

فقال ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت قال كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهم لضيفه وأحوطهم من وراء جاره اجتمعت العرب بعكاظ فكلهم أقروا له بهذه الخلال فقال له والله يا أخا بني تميم لقد أحسنت اذ وصفت صاحبك ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان

واني من القوم الذين هم هم * إذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب * بدا كوكب تأوي اليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
ومازال فيهم حيث كان مسودا * تسير المنايا حيث سارت ركائبه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال من ابن علي رضي الله تعالى عنه فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله عز وجل لم يبعث بعثا إلا جعل له عدوا من المجرمين فأنا ابن علي وأنت ابن صخر وأمك هند وأمي فاطمة وجدتك قيلة وجدتي خديجة فلعن الله ألأمنا حسبا وأخملنا ذكرا وأعظمنا كفرا وأشدنا نفاقا فصاح أهل المسجد آمين آمين فقطع معاوية خطبته ودخل منزله * وروى أن معاوية خرج حاجا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالا ولم يحضر الحسن بن علي رضي الله عنهما فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي فقال له معاوية مرحبا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا فقال له الحسن ولم ينفد ما عندك واخراج الدنيا يجيء اليك فقال معاوية اني قد أمرت

يذكرها حتى مشى اليه عطاء وطاوس ومجاهد يعذلونه في ذلك فكان جوابه أن قال
يلومني فيك أقوام أجالسهم * فما أبالي أطار اللوم أم وقعا
فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر فلم يكن له هم غيره فحج وبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم وأمر قيمة جواريه ان تزينها وتحليها ففعلت وبلغ الناس قدومه فدخلوا عليه فقال مالي لا أرى ابن عمارة زائرا فأخبر بذلك فأتى مسلما فلما أراد أن ينهض استجلسه ثم قال ما فعل بك حب فلانة قال حبها في اللحم والدم والمخ والعصب قال أتعرفها إن رأيتها قال لو أدخلت الجنة لم أنكرها فأمرها عبد الله أن تخرج اليه وقال له انما اشتريتها لك والله ما دنوت منها فشأنك بها بارك الله لك فيها فلما ولى قال يا غلام احمل اليه مائة ألف درهم قال فبكى عبد الله وقال يا أهل البيت لقد خصكم الله بشرف ما خص به أحدا من صلب آدم فهنأكم الله بهذه النعمة وبارك لكم فيها (ولقد) تقرر أن أجواد الاسلام أحد عشر جوادا ذكرت من جود بعضهم ما تيسر وقال صاحب العقد إنه جاء بعدهم طبقة أخرى وهي الطبقة الثانية (فمنهم) الحكم بن أحطب قيل سأله أعرابي فأعطاه خمسمائة دينار فبكي الاعرابي فقال له لعلك استقللت ما أعطيناك فقال لا والله ولكني أبكي لما تأكل الارض منك ثم انشد لك

فكأن آدم حين حان وفاته * أوصاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه ان ترعاهم فرعيتهم * وكفيت آدم عيلة الابناء

لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند فقال الحسن قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة * ودخل الحسين يوما على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال أشهد أن محمدا رسول الله قال الحسين يا يزيد جد من هذا فخجل يزيد ولم يرد جوابا وفى ذلك يقول على بن محمد بن جعفر

لقد فاخرتنا من قريش عصابة * بمط خدود وامتداد أصابع
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا * عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوتا والشهيد بفضلنا * عليهم جهير الصوت من كل جامع

(وله أيضا)

انى وقومى من أنساب قومهم * كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف
ما علق السيف منا بابن عاشرة * الا وهمته أمضى من السيف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة وعلى بن أبى طالب فقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها وقال طلحة أنا خادم البيت ومعى مفتاحه فقال على ما أدرى ما تقولان أنا صليت الى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر فنزلت أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر الآية * وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين فقال الآخر أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام أما الذى عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعله عاشرهم فى النار والذي انتسب الى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم فى الجنة قال سلمان الفارسي

أبى الاسلام لا أب لى سواه * إذا افتخروا بقيس أو تميم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال الفرزدق أنا ابن محيي الموتى فأنكر سليمان قوله فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وجدي فدى الموءودات فاستحياهن فقال سليمان انك مع شعرك لفقيه وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات وللعباس بن عبد المطلب

ان القبائل من قريش كلها * ليرون أنا هام أهل الابطح
وترى لنا فضلا على ساداتها * فضل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الاندلس الى صاحب مصر يفتخر

ألسنا بنى مروان كيف تبدلت * بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منا تهللت * له الأرض واهتزت اليه المنابر

وكتب اليه يهجوه فيه ويسبه فكتب اليه صاحب مصر أما بعد فانك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام * وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضا فحضر عنده ذات ليلة ابراهيم بن مخرمة الكندى وخالد بن صفوان بن الأهتم فخاضوا فى الحديث وتذاكروا مضر واليمن فقال ابراهيم بن مخرمة يا أمير المؤمنين ان أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكا ورثوا الملك كابرا عن كابر وآخرا عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصبا وليس من شيء له خطر الا اليهم ينسب إن سئلوا أعطوا وان نزل بهم ضيف قروه فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة فقال أبو العباس ما أظن التميمى رضي بقولك ثم قال ما تقول أنت يا خالد قال ان أذن لى أمير المؤمنين فى الكلام تكلمت قال تكلم ولا

(وحكى) عن العتبي أنه قال حدثنى رجل قال قدم علينا الحكم بن أحطب وهو مملق فأغنانا فقلت فكيف أغناكم وهو مملق قال علمنا المكارم فعاد غنينا على فقيرنا (ومنهم معن بن زائدة) يقال فيه حدث عن البحر ولا حرج وحدث عن معن ولا حرج وأتاه رجل يستحمله فقال يا غلام أعطه فرسا وبرذونا وبغلا وعيرا وبعيرا وجارية ولو عرفت مركوبا غير هذا لأعطيتك (ومنهم يزيد بن المهلب) قيل كان هشام بن حسان إذا ذكره قال كانت السفن تجرى فى بحر جوده (حكي) الأصمعى أنه قدم على يزيد قوم من قضاعة فقال رجل منهم

والله ما ندرى اذا ما فاتنا
طلب اليك من الذى نتطلب
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد
أحدا سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التى عودتنا
أولا فأرشدنا الى من نذهب

فأمرنا له بألف دينار (ومنهم يزيد بن حاتم) قيل ان ربيعة الرأى قدم مصر فأتى يزيد السلمى فلم يعطه شيئا ثم عطف على يزيد بن حاتم فشغل عنه لأمر ضرورى فخرج وهو يقول

أرانى ولا كفران لله راجعا * بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فلما فرغ يزيد من ضرورته سأل عنه فأخبر عنه أنه خرج وهو يقول كذا وأنشد البيت فأرسل من يجد فى طلبه فأتى به فقال كيف قلت فأنشد البيت فقال شغلنا عنك وعجلت علينا ثم

أمر بخفيه فخلعا من رجليه وملئا مالا وقال ارجع بهما بدلا من خفي حنين (ومنهم أبودلف) واسمه القاسم وفيه يقول ابن
أبي جبلة   انما الدنيا أبودلف   بين باديه ومحتضره   فاذا ولى أبودلف   ولت الدنيا على أثره

وقال

إن سار سار المجد أو
حل وقف
انظر بعينك الى أعلى
الشرف
هل ناله بقدرة أو
بكلف
خلق من الناس سوى
أبي دلف

فأعطاه خمسين ألف درهم (ومنهم خالد بن عبد الله القسري) قيل انه كان جالسا في مظلة اذ نظر الى اعرابي يخب على بعيره مقبلا نحوه فقال لحاجبه اذا قدم لا تحجبه فلما قدم أدخله فسلم فقال

أصلحك الله قل ما بيدي
فما أطيق العيال إذ
كثروا
أناخ دهر رمى بكلكله
فأرسلوني اليك وانتظروا

فقال خالد اذا أرسلوك الي وانتظروا والله لتعودن اليهم بما يسرهم فأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة (ومنهم عدي بن حاتم) حكى صاحب العقد قال دخل أبودارة على عدي بن حاتم فقال إني مدحتك قال أمسك حتى آتيك بمال فاني أكره أن أعطيك ثمن ما تقول هذه ألف شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاث اماء وفرسي هذا حبس في سبيل الله فامدحني على حسب ما أجزتك ﴿ قيل ﴾ ان أروى بنت   فانا
الحرث بن عبد المطلب كانت أغلظ الوافدات على معاوية خطابا وكان حلم معاويه أعظم من خطابها دخلت عليه وهي

تهب أحدا قال أخطأ المقتحم بغير علم ونطق بغير صواب وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الانام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فلله المنة به علينا وعليهم فمنا النبي المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور وزمزم والحطيم والمقام والحجابة والبطحاء وما لا يحصي من المآثر ومنا الصديق والفاروق وذو النورين والرضا والولي وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرفوا الدين وأتاهم اليقين فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه ثم أقبل خالد على ابراهيم فقال ألك علم بلغة قومك قال نعم قال فما اسم العين عندكم قال الجمجمة قال فما اسم السن قال الميدن قال فما اسم الأذن قال الصنارة قال فما اسم الاصابع قال الشناتير قال فما اسم الذئب قال الكنع قال أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل قال نعم قال فان الله تعالى يقول إنا أنزلناه قرآنا عربيا وقال تعالى بلسان عربي مبين وقال تعالى وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل ألم تر أن الله تعالى قال والعين بالعين ولم يقل والجمجمة بالجمجمة وقال تعالى والسن بالسن ولم يقل والميدن بالميدن وقال تعالى والأذن بالأذن ولم يقل والصنارة بالصنارة وقال تعالى يجعلون أصابعهم في آذانهم ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم وقال تعالى فأكله الذئب ولم يقل فأكله الكنع ثم قال لابراهيم اني أسألك عن أربع ان أقررت بهن قهرت وان جحدتهن كفرت قال وما هن قال الرسول منا أو منكم قال منكم قال فالقرآن أنزل علينا أو عليكم قال عليكم قال فالمنبر فينا أو فيكم قال فيكم قال فالبيت لنا أو لكم قال لكم قال فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم الا سائس قرد أو دابغ جلد أو ناسج برد قال فضحك أبو العباس وأقر لخالد وحباهما جميعا ٭ وقال بشار بن بردة يفتخر

اذا نحن صلنا صولة مضرية ٭ هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ٭ ذرا منبر صلى علينا وسلما

﴿ وقال السموءل بن عادياء ﴾

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ٭ فكل رداء يرتديه جميل ٭ وان هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس الى حسن الثناء سبيل ٭ تعيرنا أنا قليل عديدنا ٭ فقلت لها ان الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا ٭ شباب تسامي للعلا وكهول ٭ وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل ٭ لنا جبل يحتله من نجيره ٭ منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به ٭ الى النجم فرع لا يزال طويل ٭ وإنا أناس لا نرى القتل سبة
اذا ما رأته عامر وسلول ٭ يقرب حب الموت آجالنا لنا ٭ وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه ٭ ولا طل منا حيث كان قتيل ٭ تسيل على حد الظبات نفوسنا
وليست على غير الظبات تسيل ٭ ونحن كماء المزن ما في نصابنا ٭ كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر ان شئنا على الناس قولهم ٭ ولا ينكرون القول حين نقول ٭ اذا سيد منا خلا قام سيد
قئول بما قال الكرام فعول ٭ وما اخمدت نار لنا دون طارق ٭ ولا ذمنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدونا ٭ لها غرر مشهورة وحجول ٭ وأسيافنا في كل شرق ومغرب
بها من قراع الدارعين فلول ٭ معودة أن لا تسل نصالها ٭ فتغمد حتى يستباح قتيل
سلي ان جهلت الناس عنا وعنهم ٭ فليس سواء عالم وجهول

فانا بني الريان قطب لقومهم * تدور رحاهم حولهم وتجول

(ولما) قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم خطب خطيبهم فافتخر فلما سكت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ماخطب به خطيبهم فخطب ثابت بن قيس فأحسن ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر فقال

نحن الملوك فلاحي يفاخرنا * فينا العلاء وفينا تنصب البيع * ونحن نطعمهم فى القحط ماأكلوا من العبيط إذا لم يؤنس الفزع * وننحر الكوم عبطا فى أرومتنا * للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

تلك المكارم حزناها مقارعة * إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

ثم جلس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت قم فقام فقال

ان الذوائب من فهر واخوتهم * قد بينوا سننا للناس تتبع * يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الاله بالامر الذى شرعوا * قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم * أو حاولوا النفع فى اشياعهم نفعوا سجية تلك منهم غير محدثة * ان الخلائق فاعلم شرها البدع * لو كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع * لا يرفع الناس ماأوهت أكفهم * عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا ولا يضنون عن جار بفضلهم * ولا يمسهم فى مطمع طمع * خذ منهم ماأتوا عفوا إذا عطفوا ولا يكن همك الامر الذى منعوا * أكرم بقوم رسول الله شيعتهم * إذا تفرقت الأهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك وربكم ان خطيب القوم أخطب من خطيبنا وان شاعرهم أشعر من شاعرنا وما انتصفنا ولا قاربنا وقال شاعر من بنى تميم

أيبغى آل شداد علينا * وما يرعى لشداد فصيل

فان تغمد مناصلنا نجدها * غلاظا فى أنامل من يصول

﴿ وقال سالم بن أبى وابصة ﴾

عليك بالقصد فيما أنت فاعله * ان التخلق يأتى دونه الخلق * وموقف مثل حد السيف قمت به أحمى الذمار وترمينى به الحدق * فما زلقت ولا أبديت فاحشة * إذا الرجال على أمثالها زلقوا

﴿ وأما التفاضل والتفاوت ﴾

فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل قال يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ومن كلام على رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه أما قولك انا بنو عبد مناف فكذلك نحن ولكن ليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبى طالب وقال أحمد بن سهل الرجال ثلاثة سابق ولاحق وماحق فالسابق الذى سبق بفضله واللاحق الذى لحق بأبيه فى شرفه والماحق الذى محق شرف آبائه وقيل ان عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث وأشعب الطماع وربتهما قال أشعب فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين وقال أبو العواذل زكريا بن هرون

على وعبد الله بينهما أب * وشتان ما بين الطبائع والفعل

ألم تر عبد الله يلحى على الندى * عليا ويلحاه على على البخل

عجوز كبيرة فلما رآها معاوية قال مرحبا بك ياخالة كيف كنت بعدنا قالت بخير ياأمير المؤمنين لقد كفرت النعمة وأسأت بابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك من غير دين كان منك ولا من آبائك ولا سابقة فى الاسلام بعد أن كفرتم برسول الله فأتعس الله منكم الجدود وأضرع منكم الخدود ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون وكانت كلمتنا هى العليا ونبينا هو المنصور فوليتم علينا بعد فأصبحتم تحتجون على سائر العرب بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أقرب اليه منكم وأولى بهذا منكم فكنا فيكم بمنزلة بنى اسرائيل فى آل فرعون وكان على رضى الله عنه عند نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة هرون من موسى فغايتنا الجنة وغايتكم النار فقال لها عمرو بن العاص كفى أيتها العجوز الضالة واقصرى عن قولك مع ذهاب عقلك إذ لا تجوز شهادتك وحدك فقالت له وأنت ياابن الباغية تتكلم وأمك كانت أشهر بغى بمكة وأرخصهن أجرة وادعاك خمسة نفر كلهم يزعم أنك ابنه فسئلت أمك عن ذلك فقال كلهم أتانى فانظروا أشبههم به فألحقوه به فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به فقال مروان كفى أيتها العجوز واقصدى لما جئت له فقالت وأنت أيضا ياابن الزرقاء تتكلم ثم التفتت إلى معاوية فقالت والله ماأجرأ هؤلاء غيرك وأمك القائلة فى قتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم

نحن جزيناكم بيوم بدر * والحرب بعد الحرب ذات سعر

ماكان لى عن عتبة من صبر ولا أخي وعمه وبكر سكنت وحشيا غليل صدري فشكر وحشي على دهري
حتى ترم أعظمي في قبري (فأجابتها (١٣٤) ابنة عمي بقولها) خزيت في بدر وغير بدر يابنت جبار عظيم الكفر

فقال معاوية عفا الله عما سلف ياخالة هات حاجتك فقالت مالى إليك حاجة وخرجت عنه وهذه العبارة بنصها منقولة من العقد لابن عبد ربه رحمه الله تعالى ﴿ وحكى صاحب العقد أيضا ﴾ قال قدم عقيل بن أبي طالب على معاوية فأكرمه وقربه وقضى عنه دينه ثم قال له في بعض الأيام ياعقيل أنا خير لك من أخيك علي قال صدقت أخي آثر دينه على دنياه وأنت آثرت دنياك على دينك فأنت خير لي من أخي وأخي خير لنفسه منك لنفسك (ودخل) عقيل أيضا على معاوية وقد كف بصره فأقعده على سرير معه ثم قال له أنتم معاشر بني هاشم تصابون في أبصاركم فقال عقيل وأنتم معاشر بني أمية تصابون في بصائركم (ودخل) عليه يوما فقال معاوية لأصحابه هذا عقيل عمه أبو لهب فقال عقيل وهذا معاوية عمته حمالة الحطب ثم قال يامعاوية إذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار فإنك ستجد عمي أبا لهب مفترشا عمتك حمالة الحطب فانظر أيهما خير الفاعل أم المفعول به
(وقال له يوما) ماأبين الشبق في رجالكم يابني هاشم قال لكنه في نسائكم أبين يابني أمية (وقال الجاحظ)
وأم

وحج أبو الأسود الدؤلي بامرأته وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبي ربيعة فغازلها فأخبرت أبا الأسود فأتاه فقال

وإني لينهاني عن الجهل والخنا * وعن شتم أقوام خلائق أربع * حياء وإسلام وتقوى وإنني كريم ومثلي من يضر وينفع * فشتان ما بيني وبينك إنني * على كل حال أستقيم وتضلع

﴿ وقال ربيعة الرقي ﴾

لشتان مابين اليزيدين في الندى * يزيد سليم والأغر بن حاتم * يزيد سليم سالم المال والفتى فتى الأزد للأموال غير مسالم * فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله * وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب القيسي أني هجوته * ولكنني فضلت أهل المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين

يقول أنا الكبير فعظموني * ألا ثكلتك أمك من كبير * إذا كان الصغير أعم نفعا وأجلد عند نائبة الأمور * ولم يأت الكبير بيوم خير * فما فضل الكبير على الصغير

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب التاسع والعشرون في الشرف والسؤدد وعلو الهمة ﴾

قال رسول الله ﷺ من رزقه الله مالا فبذل معروفه وكف أذاه فذلك السيد وقيل لقيس بن عاصم بم سدت قومك قال لم أخاصم أحدا إلا تركت للصلح موضعا وقال سعيد بن العاص ماشاتمت رجلا مذ كنت رجلا لأني لم أشاتم إلا أحد الرجلين إما كريم فأنا أحق أن أجله وإما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسي عنه وقالوا من نعت السيد أن يكون يملأ العين جمالا والسمع مقالا وقيل قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس فقال الحاجب إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه فلما وصلوا إليه قال الأحنف لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت ونازلة نزلت ونائبة نابت والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين فقال له معاوية حسبك ياأبا بحر فقد كفيت الشاهد والغائب * وقال رجل للأحنف بم سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتا ولا أصبحهم وجها ولا أحسنهم خلقا فقال بخلاف مافيك قال وماذاك قال تركي من أمرك مالا يعنيني كما عناك من أمري مالا يعنيك وقيل السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادي وعلى الأعداء كالليث العادي * وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسي وسودده أنه قدم من سفر فجمعه والشماخ بن ضرار المزني الطريق فتحادثا فقال له عرابة ما الذي أقدمك المدينة ياشماخ قال قدمتها لأمتار منها فملأ له عرابة رواحله برا وتمرا وأتحفه بتحف غير ذلك فأنشد يقول

رأيت عرابة الأوسي يسمو * إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت بمجد * تلقاها عرابة باليمين

﴿ وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة ﴾

فممن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة قيل إنه دخل يوما على المنصور وقعد في مجلسه فقام رجل وقال مظلوم ياأمير المؤمنين قال ومن ظلمك قال عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي فقال المنصور ياعمارة قم فاقعد مع خصمك فقال ماهو لي بخصم إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها وإن كانت لي فقد وهبتها له ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعني وأقعد في أدنى منه لضيعة * وتحدث السفاح هو

وأم سلمة يوما في نزاهة نفس عمارة وكبرة فقالت له ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه فان ثمنها خمسون ألف دينار فان هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس فوجه اليه فحضر فحادثته ساعة ثم رمت اليه بالسبحة وقالت هي من الطرف وهي لك فجعلها عمارة بين يديه ثم قام وتركها فقالت لعله نسيها فبعثت بها اليه مع خادم فقال للخادم هي لك فرجع الخادم فقال قد وهبها لي فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه • وأهدى عبيد الله بن السري إلى عبد الله بن طاهر لما ولي مصر مائة وصيف مع كل وصيف ألف دينار ووجه اليه بذلك ليلا فرده وكتب اليه لو قبلت هديتك ليلا لقبلتها نهاراً وما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون (وكان) سبب فتح المعتصم عمورية ان امرأة من الثغر سبيت فنادت وامحمداه وامعتصماه فبلغه الخبر فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال لبيك أيتها المنادية • وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة قيل له في مرضه ان المريض يستريح إلى الأنين وإلى شرح ما به إلى الطبيب فقال أما الأنين فهو جزع وعار والله لا يسمع الله مني أنينا فأكون عنده جزوعا وأما وصف ما بي إلى الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي إن شاء أمسكها وإن شاء قبضها • ومن كبر النفس ما روي عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج فكان يأكل الحنظل حتى قتله ولم يخبر أحداً بحاجته ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمى الذمار وكانت العرب ترى ذلك دينا تدعو اليه وحقا واجبا تحافظ عليه وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال يا هذا انك اخترتني جارا واخترت داري دارا فجناية يدك علي دونك وان جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبي على أهله • وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة فمن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسمها وينسبها فعادت بقبر أبيه فلم يذكر لها اسما ولا نسبا ولكن قال

عجوز تصلي الخمس عاذت بغالب • فلا والذي عاذت به لا أضيرها

وقال مروان بن أبي حفصة هم يمنعون الجار حتى كأنما • لجارهم بين السماكين منزل

(وقال ابن نباتة) ولو يكون سواد الشعر في ذمم • ما كان الشيب سلطان على اللمم

(وقيل) إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستماله وهرب هو والسجان وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن اليه وأقامه عنده فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وانه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأيا فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين اني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه واخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجر عدوا لأمير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلما ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار إلى واستجار بي فأجرته وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم فان رأى أمير المؤمنين أن لا يخزيني في ضيفي فليفعل فانه أهل الفضل والكرم فكتب اليه الوليد انه لابد أن ترسل إلى يزيد مغلولا مقيداً فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعا بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد وكتب اليه أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت اليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممت أن أكون ثالثهما فان هممت يا أمير المؤمنين بقتل

اجتمعت يوما بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال يا بني هاشم والله ان خيري لكم لممنوح وان بابي لكم لمفتوح وقد نظرت في أمري وأمركم فرأيت أمراً مختلفاً انكم ترون أنكم أحق مني مما في يدي فاذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا هذا مع انصاف قائلكم واسعاف سائلكم فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما وكان جريئا عليه فقال والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه وأما هذا المال فمالك منه إلا ما لرجل واحد من المسلمين ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا أثر تحمله خف ولا حافر وأما حربنا إياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل أكفاك أم أزيدك قال كفاني (وقال الشعبي) قال ابن الزبير يوما لابن عباس قاتلت أم المؤمنين وحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما أم المؤمنين فأنت أخرجتها أنت وأبوك وخالك وبنا سميت أم المؤمنين وكنا لها خير بنين وقاتلت أنت وأبوك عليا فان كان علي مؤمنا فقد ضللتم بقتال المؤمنين وان كان علي كافرا فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف (وذكر صاحب العقد) أن عبد الله بن الزبير تزوج امرأة من فزارة يقال لها أم عمرو فلما دخل بها قال لها هل تدرين من معك قالت نعم عبد الله ابن الزبير بن العوام بن خويلد قال ليس هذا قالت فأي شيء تريد قال معك من أصبح في قريش كمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من

يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانياً واجعلني إذا شئت ثالثاً والسلام فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال لقد أسأنا إلى أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد ليتكلم وليحتج لنفسه فقال له الوليد ما يحتاج إلى كلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج ثم أنه أحضر حداداً وأزال عنهما الحديد وأحسن اليهما ووصل أيوب بن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما إلى سليمان وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له لا سبيل لك على يزيد بن المهلب فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم فسار يزيد إلى سليمان ابن عبد الملك وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل (وحكي) أن رجلا من الشيعة كان يسعى في فساد الدولة فجعل المهدي لمن دل عليه أو أتى به مائة ألف درهم فأخذه رجل من بغداد فأيس من نفسه فمر به معن بن زائدة فقال له يا أبا الوليد أجرني أجارك الله فقال معن للرجل مالك وماله فقال ان أمير المؤمنين طالبه قال خل سبيله قال لا أفعل فأمر معن غلمانه فأخذوه غصبا وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة فأرسل خلف معن فأحضره فلما دخل عليه قال له يا معن أتجير علي قال نعم يا أمير المؤمنين قتلت في يوم واحد في طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتي أفما تروني أهلا أن تجيروا إلي رجلا واحداً استجار بي فاستحيا المهدي وأطرق طويلا ثم رفع رأسه وقال قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد قال ان رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بي فيكون قد أجاره وحباه قال قد أمرت له بخمسين ألف درهم فقال معن يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وان ذنب الرجل عظيم فان رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل قال قد أمرت له بمائة ألف درهم فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال لا تتعرض لمساخط الخلفاء وكان جعفر بن أبي طالب يقول لأبيه يا أبت اني لأستحي أن أطعم طعاما وجيراني لا يقدرون على مثله فكان أبوه يقول اني لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب * وسقط الجراد قريبا من بيت بعض العرب فجاء أهل الحي فقالوا نريد جارك فقال أما إذ جعلتموه جاري فوالله لا تصلون اليه وأجاره حتى طار فسمي مجير الجراد وقيل هو أبو حنبل والحكايات في معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الثلاثون في الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الاولياء والصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين ﴾

(اعلم) ان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين وفضائلهم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر واني والله أحبهم وأحب من يحبهم واسأل الله أن يميتني على محبة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومحبتهم وأن يحشرنا في زمرتهم وتحت ألويتهم انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير

اني أحب أبا حفص وشيعته * كما أحب عتيقا صاحب الغار
وقد رضيت عليا قدوة علما * وما رضيت بقتل الشيخ في الدار
كل الصحابة ساداتي ومعتقدي * فهل علي بهذا القول من عار

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من أصبح منكم اليوم صائما فقال أبو بكر أنا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ فمن أطعم اليوم منكم مسكينا فقال أبو بكر أنا قال فمن عاد منكم

اليوم

الرأس قالت أما والله لو أن بعض الهاشميين حضرك ما قال خلافاً لقولك قال فالطعام والشراب علي حرام حتى أحضر الهاشميين وغيرهم ولا يستطيعون لذلك انكاراً قالت ان أطعتني لم تفعل فأنت أعلم بشأنك فخرج من المجلس فاذا بحلقة فيها جماعة من قريش وفيهم من بني هاشم عبد الله بن عباس رضي الله عنه وعبد الله بن الحرث بن عبد المطلب فقال لهم ابن الزبير اني أحب أن تنطلقوا معي إلى منزلي فقام القوم بأجمعهم حتى وقفوا على باب بيته فقال ابن الزبير يا هذه اطرحي عليك سترك ثم أذن للقوم فلما أخذوا مجالسهم دعا ابن الزبير بالمائدة فتغدى القوم فلما فرغوا قال ابن الزبير إنما جمعتكم لحديث ردته علي صاحبة هذا الستر وزعمت ان لو كان بعض بني هاشم حاضراً ما أقر لي بما قلت وقد حضرتم جميعا والحديث الذي ردته علي قلت لها ليلة الدخول بها وأنا معها في خدرها إن معك من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من الرأس فردت علي مقالتي فقال ابن عباس إن شئت أقول وإن شئت اكفف قال لا بل قل وماعسيت أن تقول ألست تعلم أن الزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وان أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين وان خديجة سيدة نساء أهل الجنة عمتي وان صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي وأن عائشة أم المؤمنين خالتي فهل تستطيع لهذا انكارا يا ابن عباس قال ابن عباس

اليوم مريضا قال أبو بكر أنا فقال رسول الله ﷺ ما اجتمعن فى أحد إلا دخل الجنة وقال ﷺ لو كان بعدى نبي لكان عمر وقال له النبي ﷺ والذى بعثنى بالحق بشيرا ما سلكت واديا إلا سلك الشيطان واديا غيره ولما أسلم رضى الله عنه قال يارسول الله ألسنا على الحق قال بلى قال والذى بعثك بالحق نبيا لا نعبد الله سرا بعد هذا اليوم ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيما لهم وقال انظر الى ملك العرب فرآه على فرس وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ومخلاته فى قربوس السرج وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها فوصفه للبطريق فقال لا نرى بمحاربة هذا طاقة اعطوه ما شاء وأما أمير المؤمنين عثمان رضى الله تعالى عنه ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة فهو جامع القرآن ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضي الله عنه وقال جميع بن عمير دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها أخبرينى من كان أحب الناس الى رسول الله ﷺ قالت فاطمة قلت انما أسألك عن الرجال قالت زوجها فوالله لقد كان صواما قواما ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ فى يده فردها الى فيه قلت فما حملك على ما كان فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت أمر قضي علي وقال معاوية لضرار بن حمزة الكنانى صف لى عليا فاستعفى فألح عليه فقال أما اذن فلا بد انه والله كان بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته كان والله غزير العبرة طويل الفكرة يقلب كفه ويعاتب نفسه يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن وكان والله يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له يعظم أهل الدين ويحب المساكين لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله فأشهد الله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ الخائف ويبكى بكاء الحزين فكأنى الآن أسمعه يقول يادنيا الى تعرضت أم الى تشوقت هيهات هيهات غرى غيرى لقد أبنتك ثلاثا لا رجعة لى فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير آه من قلة الزاد ووحشة الطريق قال فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه ياضرار قال حزنى عليه والله حزن من ذبح ولدها فى حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا تسكن حيرتها ثم قام فخرج * وقيل أول من سل سيفا فى سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضى الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلا صائح فقال قتل محمد فخرج متجردا وسيفه معه صلتا فتلقاه رسول الله ﷺ فقال مالك يازبير قال سمعت أنك قتلت قال فماذا أردت أن تصنع قال أردت والله أن أستعرض على اهل مكة وروى أخبط بسيفى من قدرت عليه فضمه رسول الله ﷺ وأعطاه ازاره فاستتر به وقال له أنت حوارى ودعا له * قال الاوزاعي كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها وباع داره بستمائة ألف درهم فقيل له يا أبا عبد الله غبنت قال كلا والله انى لم أغبن أشهدكم أنها فى سبيل الله تعالى وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فقال من حملك على ظهره وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخرة قال طلحة قال أقرئه السلام وأعلمه أنى لا أراه يوم القيامة فى هول من أهوالها الا استنقذته منه من هذا النهى عن يمينك قال المقداد بن الأسود قال ان الله يحبه ويأمرك أن تحبه من هذا الذى بين يديك يتقى عنك قال عمار بن ياسر قال بشره بالجنة حرمت النار على عمار * ومر أبو ذر على النبي صلى الله عليه وسلم

لا ولكن ذكرت شرفا شريفا وفخرا عظيما غير أنك نلت ذلك كله وأنت تفاخر من بفخره فخرت وتسامي من بفضله سموت قال ابن الزبير وكيف ذلك قال لم تذكر مفخرا إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أهل بيته وأقرب إليه وأولى بالفخر به قال ابن الزبير فأنا أفاخرك بما كان قبل النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس لقد أنصفت أسائلكم أيها الحضور أعبد المطلب كان أشرف فى قريش أم خويلد قالوا عبد المطلب قال أسائلكم أهاشم كان أشرف فى قريش أم أمية قالوا بل هاشم قال فأسألكم بالله أعبد مناف كان أشرف أم عبد العزى قالوا اللهم عبد مناف فأنشد ابن عباس يقول

تفاخرنى يا ابن الزبير وقد مضى ... عليك رسول الله لا قول هازل
فلو غيرنا يا ابن الزبير فخرته ... ولكن بنا ساميت شمس الاصائل

وروى عن رسول الله ﷺ انه قال ما افترقت فرقتان الا وكنت في خيرهما وقد فارقك من لدن قصى بن كلاب فنحن فى فرقة الخير أولا ونحن فى فرقة الخير آخرا فان قلت نعم خصمت وإن قلت لا كفرت قال فضحك بعض القوم وقالت المرأة من خلف الستر أما والله لقد نهيته عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترى فقال ابن عباس مه أيتها المرأة اقنعى ببعلك وأخذ القوم بيد ابن عباس فقالوا انهض أيها الرجل فقد أفحمته فى منزله غير مرة فنهض ابن عباس وهو يقول

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلا لناما ﴿وحكى﴾ صاحب العقد قال بينما معاوية جالس وعنده
وجوه الناس اذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا وقال لعن الله عليا فأطرق الناس وفيهم الأحنف
فقال الأحنف يا أمير المؤمنين ان هذا القائل ان علم أن رضاك فى لعن المرسلين لعنهم فاتق الله ودع عنك عليا فقد لقى ربه وأفرد بقبره وخلا بعمله وكان والله مبرورا فى سبقه طاهر الثوب ميمون النقيبة عظيم المصيبة فقال له معاوية يا أحنف لقد اغضبت العين على القذى أما والله لتصعدن المنبر وتلعن عليا طوعا أو كرها فقال ان تعفنى خير لك وأن تجبرنى على ذلك فوالله لا تجدنى شفيا به أبدا قال وما أنت قائل يا أحنف قال احمد الله وأصلى على نبيه ثم أقول إن أمير المؤمنين أمرنى أن العن عليا ومعاوية وعلى اقتتلا واختلفا وادعى كل واحد منهما أنه مبغى عليه فاذا دعوت فأمنوا رحمكم الله اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية أمنوا رحمكم الله يا معاوية لا أزيد على ذلك ولا أنقص ولو كان فيه ذهاب نفسى فقال معاوية إذا أعفيناك انتهى (وقال معاوية) لعقيل إن عليا قطعك ووصلتك ولا يرضينى منك إلا أن تلعنه على المنبر قال أفعل ما فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان أمير المؤمنين أمرنى أن ألعن عليا فالعنوه عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين

ومعه جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبى فلم يسلم فقال جبريل هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه فقال أتعرفه يا جبريل قال والذى بعثك بالحق نبيا لهو فى ملكوت السموات السبع أشهر منه فى الأرض قال بم نال هذه المنزلة قال بزهده فى هذه الحطام الفانية وقال ابن عمر رضى الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض الآية وقال أبو بكر السفاح لأبى بكر الهذلى بم بلغ الحسن ما بلغ قال جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثنتى عشرة سنة لم يجاوز سورة الى غيرها حتى يعرف تأويلها ولم يقلب درهما قط فى تجارة ولم يل عملا لسلطان ولم يأمر بشىء حتى يفعله ولم ينه عن شىء حتى يدعه قال السفاح بهذا بلغ وقال الجاحظ كان الحسن يستثنى من كل غاية فيقال فلان أزهد الناس الا الحسن وأفقه الناس الا الحسن وأفصح الناس الا الحسن وأخطب الناس الا الحسن وقال بعضهم كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها وأويس لم يملكها فقيل لو ملكها لفعل كما فعل عمر فقال ليس من لم يجرب كمن جرب وقال أنس فى ثابت البنانى ان للخير مفاتيح وان ثابتا من مفاتيح الخير وكان حبيب الفارسى من أخيار الناس وهو الذى اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفا كان يخرج من البدرة فيقول يارب اشتريت نفسى منك بهذه ثم يتصدق بها وكان أيوب السختيانى من أزهد الناس وأورعهم ذكر عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى فقال رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقاما عند منبر النبى ﷺ لا أذكر ذلك المقام الا اقشعر جلدى وقال سفيان الثورى جهدت جهدى على أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر وكان الخليل بن أحمد النحوى من أزهد الناس وأعلاهم نفسا وكان الملوك يقصدونه ويبذلون له الأموال فلا يقبل منها شيئا وكان يحج سنة ويغزو سنة حتى مات رحمه الله وقال ابن خارجة جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتبا عليه شيئا وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مثقال لحم وعن محمد بن الحسن قال كان أبو حنيفة واحد زمانه لو انشقت عنه الأرض لا نشقت عن جبل من الجبال فى العلم والكرم والزهد والورع وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة ورابط فى عبادان أربعين ليلة وختم بها القرآن أربعين ختمة وتصدق بأربعين ألفا وروى أربعة آلاف حديث وما ررى واضعا جنبه قط ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبى رباح وهو أسود مفلفل الشعر يفتى الناس فى الحلال والحرام فتمثل بقوله ، تلك المكارم لا قعبان من لبن ، ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين سيدى أبو عبد الله محمد بن اسمعيل المغربى استاذ ابراهيم بن شيبان كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت اليه أيدى بنى آدم سنين كثيرة وكان أكله من أصول العشب شيئا تعوداً كله (ومنهم) سيدى فتح بن شخرف بن داود ويكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة قال احمد بن عبد الجبار سمعت أبى يقول صحبت فتح بن شخرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه الى السماء ثم رفعها يوما فقال طال شوقى اليك فعجل قدومى عليك وقال محمد بن جعفر سمعت انسانا يقول غسلنا فتح بن شخرف فرأينا مكتوبا على فخذه لا إله إلا الله فتوهمناه مكتوبا وإذا هو عرق داخل الجلد ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثا وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحوا من خمسة وعشرين ألفا الى ثلاثين ألفا (ومنهم) سيدى فتح بن سعيد الموصلى يكنى أبا نصر من أقران بشر الحافى وسرى السقطى كبير الشأن فى باب الورع والمجاهدات قال ابراهيم بن نوح الموصلى رجع فتح الموصلى إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائما فقال عشونى فقالوا ما عندنا شىء نعشيك به فقال ما بالكم جلوس فى الظلمة فقالوا

ماعندناشىء نسرج به فجعل يبكي من الفرح ويقول الهى مثلى يترك بلاعشاء ولاسراج بأى يد كانت منى فمازال يبكي إلى الصباح وقال فتح رأيت بالبادية غلاما لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد على السلام فقلت إلى أين فقال إلى بيت ربى عزوجل فقلت بماذا تحرك شفتيك قال أتلو كلام ربى فقلت إنه لم يجر عليك قلم التكاليف قال رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنا منى فقال خطاك قصيرة وطريقك بعيدة فقال أنما على نقل الخطا وعليه البلاغ فقلت أين الزاد والراحلة قال زادى يقينى وراحلتى رجلاى فقلت أسألك عن الخبز والماء قال ياعماه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله قلت لا فقال إن سيدى دعا عباده إلى بيته وأذن لهم فى زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم وانى استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيعني فقلت حاشا و كلا ثم غاب عن بصرى فلم أره إلا بمكة فلما رآنى قال أنت أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين ومنهم سيدى أبو عثمان سعيد بن اسمعيل الحيرى صحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذ الرازى وكان يقال فى الدنيا ثلاثة لا رابع لهم أبو عثمان الحيرى بنيسابور والجنيد ببغداد وأبو عبدالله الجلاء بالشام ومن كلامه لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء المنع والعطاء والعز والذل وقال منذ أربعين سنة أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته ولا نقلني إلى شىء فسخطته (ومنهم) سيدى سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين والعباد الموصوفين سكن الشام ودخل بيروت وكان أكثر مقامه ببيت المقدس قيل اجتمع حذيفة المرعشي وابراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت فقال بعضهم الغنى من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا وقال بعضهم الغنى من لم يحتج إلى الناس فقيل لسليمان ماتقول أنت فى ذلك فبكي وقال رأيت جوامع الغنى فى التوكل ورأيت جوامع الفقر فى القنوط والغنى حق الغنى من أسكن الله فى قلبه من غناه يقينا ومن معرفته توكلا ومن قسمته رضا فذلك الغنى حق الغنى وان أمسى طاويا وأصبح معوزا فبكى القوم من كلامه (ومنهم) سيدى أبو سليمان بن عبدالرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى أحد رجال الطريقة قدس الله سره كان من أجل السادات وأرباب الجد فى المجاهدات ومن كلامه من أحسن فى نهاره كفى فى ليله ومن أحسن فى ليله كفى فى نهاره ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له وقال لكل شىء علامة وعلامة الخذلان ترك البكاء وقال لكل شىء صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن وقال أحمد بن أبى الحوارى شكوت إلى أبى سليمان الوسواس فقال إذا أردت أن ينقطع عنك فأى وقت أحسست به فافرح فانك إذا فرحت به انقطع عنك لأنه لاشىء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن وإذا اغتممت به زادك وقال ذوالنون المصرى رحمه الله تعالى اجتمعوا ليلا على أبى سليمان الدارانى فسمعوه يقول يارب ان طالبتنى بسريرتى طالبتك بتوحيدك وان طالبتنى بذنوبى طالبتك بكرمك وإن جعلتنى من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إياك وقال على بن الحسين الحداد سألت أبا سليمان بأى شىء تعرف الأبرار قال بكتمان المصائب وصيانة الكرامات وروى عنه أنه قال نمت ليلة عن وردى فاذا حوراء تقول لى أتنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام (ومنهم) سيدى أبو محمد عبدالله بن حنيف من ازهاد المتصوفة كوفى الأصل ولكنه سكن انطاكية ومن كلامه لا تغتم إلا من شىء يضرك غدا ولا تفرح إلا بشىء يسرك غدا وله كرامات ظاهرة وبركات متواترة (ومنهم) سيدى أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء أصبهانى الأصل

ثم نزل فقال له معاوية ياعقيل انك لم تبين من المراد منا فقال والله لا زدت حرفا والكلام راجع إلى نية المتكلم (ومن غريب المنقول) ما نقل عن المنصور وهو أنه وعد الهذلى بجائزة ونسى فحجا معا ومرا فى المدينة النبوية ببيت عاتكة فقال الهذلى ياأمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص * ياداربيت عاتكة التى أتغزل * فأنكر عليه أمير المؤمنين المنصور ذلك لأنه تكلم من غير أن يسئل فلما رجع الخليفة نظر فى القصيدة إلى آخرها ليعلم ما أراد الهذلى بانشاد ذلك البيت من غير استدعاء فاذا فيها * وأراك تفعل ما تقول وبعضهم * مذق اللسان يقول مالا يفعل * فعلم المنصور أنه أشار إلى هذا البيت فتذكر ماوعده به وأنجزه له واعتذر اليه من النسيان (ومثله) ما حكى أن أبا العلاء المعرى كان يتعصب لأبى الطيب المتنبي فحضر يوما مجلس المرتضى فجرى ذكر أبى الطيب فهضم من جانبه المرتضى فقال أبو العلاء لو لم يكن لأبى الطيب من الشعر الا قوله

لك يامنازل فى القلوب منازل

لكفاه فغضب المرتضى وأمر به فسحب وأخرج وبعد إخراجه قال المرتضى هل تعلمون ما أراد بذكر البيت قالوا لا قال عنى به قول أبى الطيب فى القصيدة

وإذا أتتك مذمتى من ناقص * فهى الشهادة لى بأنى كامل

(ومثله قصة السرى الرفاء مع سيف الدولة بسبب المتنبي أيضا) فان السرى الرفاء كان من مداح سيف الدولة وجرى

كتب عن ستمائة شيخ ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف وقطع البادية على التجريد وكان فى ابتداء أمره يكتسب فى كل يوم ثلاثة دراهم وثلثا فيأخذ من ذلك لنفسه دانقا ويتصدق بالباقى ويختم مع العمل كل يوم ختمة فاذا صلى العتمة فى مسجده خرج إلى الجبل إلى قريب الصبح ثم يرجع إلى العمل وكان يقول فى الجبل يارب اما أن تهب لى معرفتك أو تأمر الجبل أن ينطبق على فانى لا أريد الحياة بلا معرفتك (ومنهم) سيدى يحيى بن معاذ الرازى قدس الله سره يكنى أبا زكريا أحد رجال الطريق كان أوحد وقته ومن كلامه لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ويوم حشره ميزانه وقال ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال إن لم تنفعه فلا تضره وان لم تسره فلا تغمه وان لم تمدحه فلا تذمه وقال الصبر على الخلوة من علامات الاخلاص وقال بئس الصديق صديقا يحتاج إلى أن يقال له اذكرنى فى دعائك وقال على قدر حبك لله يحبك الخلق وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق وعلى قدر شغلك بالله تشتغل فى أمرك الخلق وقال من كان غناه فى كيسه لم يزل فقيرا ومن كان غناه فى قلبه لم يزل غنيا ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروما وروى أنه قدم شيرازا فجعل يتكلم على الناس فى علم الاسرار فأتته امرأة من نسائها فقالت كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة قال ثلاثون ألفا أصرفها فى دين على بخراسان فقالت لك على ذلك على أن تأخذها وتخرج من ساعتك فرضى بذلك فحملت اليه المال فخرج من الغد فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت فقالت إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك (ومنهم) سيدى يوسف بن الحسين الرازى يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته فى اسقاط التصنع عالما أديبا صحب ذا النون المصرى وأبا تراب النخشبى من كلامه إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال فان قبل فاعلم أنه أحمق وقال إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجىء منه بشىء وقال لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصى أحب إلى من أن ألقاه بذرة من التصنع وقال أبو الحسن الدراج قصدت زيارة بن الحسين الرازى من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله فكل من سألته يقول أى شىء تريد من هذا الزنديق فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف فبت تلك الليلة فى مسجد ثم قلت فى نفسى جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالسا فى المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وقال من أين قلت من بغداد فقال أتحسن من قولهم شيئا قلت نعم وأنشدته :

رأيتك تبنى دائما فى قطيعتى ... ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبنى

فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه ثم التفت إلى وقال يا بنى أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق وها أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ولم تقطر من عيني قطرة وقد قامت على القيامة بهذا البيت (ومنهم) سيدى حاتم بن علوان الاصم قدس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن من أكابر مشايخ خراسان صاحب شقيق البلخى ومن كلامه الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة والآخرة راغبة وقال من ادعى ثلاثا بغير ثلاث فهو كذاب من ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ومن ادعى محبة النبي صلى الله عليه وسلم من غير محبة الفقر فهو كذاب ومن ادعى حب الجنة من غير انفاق ماله فهو كذاب وسأله رجل علام بنيت أمرك فى التوكل على الله عز وجل قال على أربع خصال علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى وعلمت أن عملى لا

فى مجلسه يوما ذكر أبى الطيب فبالغ سيف الدولة فى الثناء عليه فقال له السرى اشتهى أن الامير ينتخب لى قصيدة من غرر قصائده لأعارضها ويتحقق الأمير بذلك أنه أركب المتنبى فى غير سرجه فقال له سيف الدولة على الفور عارض لنا قصيدته التى مطلعها

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى ... وللحب ما لم يبق منى وما بقى

قال السرى فكتبت القصيدة واعتبرتها فى تلك الليلة فلم أجدها من مختارات أبى الطيب لكن رأيته يقول فى آخرها عن ممدوحه

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق ... أراه غبارى ثم قال له الحق

فقلت والله ما أشار سيف الدولة إلا إلى هذا البيت (ومثله) ما حكاه ابن الجوزى فى كتاب الاذكياء وهو من الغرائب فى هذا الباب أن رجلا من طلبة العلم قعد على جسر بغداد يتنزه فأقبلت امرأة بارعة فى الجمال من جهة الرصافة إلى الجانب الغربى فاستقبلها شاب فقال لها رحم الله على بن الجهم فقالت المرأة رحم الله أبا العلاء المعرى وما وقفا بل سارا مشرقا ومغربا قال الرجل فتبعت المرأة وقلت والله إن لم تقولى لى ما أراد ابن الجهم فضحكت وقالت أراد به قوله

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وعنيت أنا بأبى العلاء قوله

فيا دارها بالخيف إن مزارها ... قريب ولكن دون ذلك أهوال

(ومثله) ما هو منقول عن الامام الحافظ فتح الدين أبى الفتح محمد بن

يعمله

يعمله غيرى فأنا مشغول به وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره وعلمت أنى لا أخلو من عين الله عز وجل حيث كنت فأنا أستحى منه * وسبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو على الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة فقال حاتم ارفعى صوتك وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت انه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه (ومنهم) الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصرى وأبا على الروذبارى وكان أوحد مشايخ وقته من كلامه روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وان كتموها وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها وتدل عليهم وان ستروها وأنشدوا فى هذا المعنى :

إذا ما أسرت أنفس الناس ذكره * تبينه فيهم ولم يتكلموا
تطيب به أنفاسهم فتذيعها * وهل سر مسك أودع الريح يكتم

ومن كلامه أيضا إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية فأول ما يفيده الاستغناء به عن الناس وقال صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم وقال إذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه (ومنهم) سيدى جعفر بن نصر الخلدى يكنى بأبى محمد بغدادى المنشأ والمولد صحب الجنيد وانتمى إليه وحج قريبا من ستين حجة روى أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكى بكاء بحرقة فقال لها مالك تبكين فقالت ثكلى بولدى فأنشأ يقول :

يقولون ثكلى ومن لم يذق * فراق الأحبة لم يثكل
لقد جرعتنى ليالى الفراق * شرابا أمر من الحنظل

وروى أنه كان له فص فوقع منه يوما فى الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت فدعا به فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتصفحها وصورة الدعاء أن تقول ياجامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع على ضالتي وقد روى أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثا وروى الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه قال ودعت فى بعض حجاتى ... ين الكبير الصوفى قلت زودنى شيئا فقال إن فقدت شيئا أو أردت أن يجمع الله بينى وبينك وبين انسان فقل ياجامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بينى وبين كذا فان الله يجمع بينتا أو بينك وبين ذلك الشىء أو الانسان (ومنهم) سيدى معروف بن فيروز الكرخى قدس الله سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ مجاب الدعوة وهو أستاذ السرى وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي فكان المؤدب يقول له قل هو ثالث ثلاثة فيقول بل هو الواحد الصمد فضربه المؤدب على ذلك ضربا وجيعا فهرب منه فكان أبواه يقولان ليته يرجع الينا على أى دين شاء فنوافقه عليه فرجع إلى أبويه فدق الباب فقيل من بالباب فقال معروف فقيل على أى دين فقال على دين الاسلام فأسلم أبواه وكان مشهورا بإجابة الدعوة ومن كلامه رضى الله عنه إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الفترة والكسل وكان يعاتب نفسه ويقول يامسكين كم تبكى وتندب أخلص تخلص وقال سرى سألت معروفا عن الطائعين لله بأى شىء قدروا على الطاعات لله عز وجل قال بخروج حب الدنيا من قلوبهم ولو كانت فى قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن انشاداته :

الماء يغسل ما بالثوب من درن * وليس يغسل قلب المذنب الماء

وقال ابراهيم الاطروش كان معروف قاعداً يوما على الدجلة ببغداد فمر بنا صبيان فى زورق

محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى أن الشيخ بهاء الدين بن النحاس رحمه الله دخل إلى الجامع الازهر فوجد أبا الحسين الجزار جالسا وإلى جانبه مليح ففرق بينهما وصلى ركعتين ولما فرغ قال لأبى الحسين ما أردت إلا قول ابن سناء الملك فقال أبو الحسين الجزار وأنا تفاءلت بقول صاحبنا السراج الوراق أما مراد الشيخ بهاء الدين فهو إشارة إلى قول ابن سناء الملك

أنا فى مقعد صدق
بين قواد وعلق

وأما مراد أبى الحسين من قول سراج الوراق فهو

ومهفهف راضى الأبى
قتادة سلس القياد
فلما توسط بيننا
جرت الأمور على السداد

فبلغ كل منهما ما أراد من صاحبه ولم يشعر أحد بمراد الاثنين غيرهما (قلت) وبالنسبة إلى هذا الذكاء المفرط الصادر من هؤلاء القوم يتعين أن نورد هنا نبذة من كتاب الاذكياء لابن الجوزى (فمن ذلك) ما روى عن منصور بن العباس وهو أنه جلس يوما فى احدى قباب المدينة فرأى رجلا ملهوفا يجول فى الطرقات فأرسل اليه من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره أنه خرج فى تجارة فأفاد فيها مالا كثيراً وانه رجع بها إلى زوجته ودفع المال اليها فذكرت المرأة أن المال سرق من المنزل ولم ير نقبا ولا تسلقا فقال له المنصور منذ كم تزوجها قال منذ سنة قال تزوجتها بكراً أم ثيبا قال ثيبا قال شابة أم مسنة قال شابة فدعا كل

المنصور بقارورة طيب وقال تطيب بهذا فانه يذهب همك فأخذها وانقلب إلى أهله فقال المنصور لجماعة من ثقاته اقصدوا على أبواب المدينة فمن مر بكم وشممتم فيه روائح الطيب فأتوني به ومضى الرجل بالطيب إلى بيته فدفعه إلى المرأة وقال هذا من طيب أمير المؤمنين فلما شمته أعجبها إلى الغاية فبعثت به إلى رجل كانت تحبه وهو الذى دفعت المال اليه فقالت له تطيب بهذا الطيب فتطيب به ومر مجتازاً ببعض الأبواب ففاحت منه روائح الطيب فأخذ وأتى به إلى المنصور فقال له من أين استفدت هذا الطيب فتلجلج فى كلامه فسلمه إلى صاحب شرطته وقال له ان احضر كذا وكذا من الدنانير فخذمنه والا فاضربه ألف سوط فما هو إلا أن جرد وهدد حتى أذعن برد الدنانير وأحضرها كهيئتها ثم أعلم المنصور بذلك فدعا صاحب الدنانير وقال له أرأيتك ان رددت اليك الدنانير أتحكمنى فى امرأتك قال نعم يا أمير المؤمنين قال ها هى دنانيرك وقد طلقت امرأتك وقص عليه الخبر (ومن ذلك) ماروى عن المهدى وهو أن شريك بن عبد الله القاضى دخل عليه يوما فأراد المهدى أن يبخره فقال للخادم أحضر للقاضى عودا فذهب الخادم فجاء بالعود الذى يلهى به فوضعه فى حجر شريك فاضطرب هذه شريك من ذلك وقال ماهذا يا أمير المؤمنين قال عود أخذه صاحب العسس البارحة فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضى فقال شريك

يضربون بالملاهى ويشربون فقال له أصحابه أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء فادع عليهم فرفع يديه إلى السماء وقال إلهى وسيدى كما فرحتهم فى الدنيا أسألك أن تفرحهم فى الآخرة فقال له أصحابه إنما سألناك أن تدعو عليهم ولم نقل لك ادع لهم فقال إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم فى الدنيا ولم يضركم ذلك وقال سرى رأيت معروفا فى المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول للملائكة من هذا فقالوا أنت أعلم يارب قال هذا معروف الكرخى سكر بحبى لا يفيق إلا بلقائى وقيل له فى مرضه أوص فقال إذا مت فتصدقوا بقميصى هذا فانى أحب أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا وقال أبو بكر الخياط رأيت فى المنام كأنى دخلت المقابر فاذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان وإذا أنا بمعروف الكرخى بينهم يذهب ويجىء فقلت يا أبا محفوظ ما فعل الله بك أو ليس قدمت قال بلى ثم أنشد يقول :

موت التقى حياة لا نفاد لها ﴿ قدمات قوم وهم فى الناس أحياء

(ومنهم قاسم بن عثمان الكرخى) يكنى أبا عبد الله من أجلاء المشايخ صحب أبا سليمان الدارانى وغيره وكان من أقران السرى والحرث المحاسبى وكان أبو تراب النخشبى يصحبه ومن كلامه من أصلح فيما بقى من عمره غفر له ما مضى وما بقى ومن أفسد فيما بقى من عمره أخذ بما مضى وما بقى السلامة وقال السلامة كلها فى اعتزال الناس والفرح كله فى الخلوة بالله عز وجل وسئل عن التوبة فقال التوبة رد المظالم وترك المعاصى وطلب الحلال وأداء الفرائض وقال لأصحابه أوصيكم بخمس إن ظلمتم فلا تظلموا وان مدحتم فلا تفرحوا وان ذممتم فلا تحزنوا وان كذبتم فلا تغضبوا وان خانوكم فلا تخونوا وقال محمد بن الفرج سمعت قاسم بن عثمان يقول ان لله عباداً قصدوا الله بهممهم فأفردوه بطاعتهم واكتفوا به فى توكلهم ورضوا به عوضا عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا فليس لهم حبيب غيره ولا قرة عين إلا فيما قرب اليه وكان يقول قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة ثم قال اعرف وضع رأسك ونم فما عبد الله اعلق بشىء أفضل من المعرفة وروى عنه أنه قال رأيت فى الطواف حول البيت رجلا فتقربت منه فاذا هو لا يزيد على قوله اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتى لم تقض فقلت له مالك لا تزيد على هذا الكلام فقال أحدثك كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا فنظرت إلى السماء فاذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين فى كل باب جارية فقدم رجل منا فضربت عنقه فرأيت جارية فى يدها منديل قد هبطت إلى الأرض فضربت أعناق الستة وبقيت أنا وبقى باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقى استوهبنى بعض خواص الملك فوهبنى له فسمعتها تقول بأى شىء فاتك هذا يا محروم وأغلقت الباب فأنا يا أخى متحسر على ما فاتنى قال قاسم بن عثمان أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا وترك يعمل على الشوق (ومنهم) سيدى أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى كان جليل القدر مالكى المذهب عظيم الشأن صحب الجنيد ومن فى عصره وكان يبالغ فى تعظيم الشرع المطهر وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جد فى الطاعات ويقول هذا شهر عظمه ربى فأنا أولى بتعظيمه وسئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم خير عمل المرء كسب يمينه فقال إذا كان الليل فخذ ماء وتهيأ للصلاة وصل ما شئت ومد يديك وسل الله عز وجل فذلك كسب يمينك ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشيا عليه فلما أفاق أنشد يقول :

هذه دارهم وأنت محب * مابقاء الدموع فى الآماق

وروى أنه قال كنت يوما جالسا فجرى فى خاطرى أنى بخيل فقلت مهما فتح الله على به اليوم أدفعه الى أول فقير يلقانى قال فبينما أنا متفكر إذ دخل على شخص ومعه خمسون دينارا فقال اجعل هذه فى مصالحك فأخذتها وخرجت وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه فتقدمت اليه وناولته الصرة فقال لى ادفعها للمزين فقلت له انها دنانير فقال انك لبخيل قال فناولتها للمزين فقال المزين ان من عادتنا ان الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجرا قال فرميتها فى الدجلة وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى (ومنهم) سيدى زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى صاحب سياحة كان بجبل لبنان (حكى) عن يوسف بن الحسين الرازي قال بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذى النون المصرى جالسا على عين ماء وقت صلاة العصر فسلمت عليه وجلست من ورائه فالتفت الى وقال ماحاجتك فقلت بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى أعرضهما عليك فقال قل فقلت سمعته يقول

قد بقين مذبذبين حيارى * نطلب الوصل ما اليه سبيل
فدواعي الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل

فقال زرقان ولكنى أقول قد بقين مذهلين حيارى * حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الفوز كان ذاك منانا * واليه فى كل أمر نميل

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسى فقال رحم الله ذا النون المصرى رجع إلى نفسه فقال ماقال ورجع زرقان الى ربه فقال ما قال وقال أبو عبد الرحمن السلمي زرقان بن محمد أخو ذو النون المصرى وأظن أنه أخوة مؤاخاة لا أخوة نسب وكان من أقرانه ورفقائه (ومنهم) سيدى أبو عبدالله النباجى سعيد بن بريد كان من أقران ذى النون المصرى ومن أقران استاذى أحمد بن أبي الحوارى له كلام حسن فى المعرفة وغيرها روى عنه أنه قال أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى المسير الى بعض اخوانى فسمعت قائلا يقول لى فى النوم أيجمل بالحر المريد إذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه الى العبيد فانتبهت وأنا من أغنى الناس (ومنهم) سيدى بشر بن الحرث قدس الله روحه يكنى أبا نصر أحد رجال الطريقة أصله من مرو وسكن بغداد وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين صحب الفضيل بن عياض وروى عن سرى السقطى وغيره ومن كلامه لا تكن كاملاحق بأمنك عدوك وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك وقال أول عقوبة يعاقبها ابن آدم فى الدنيا مفارقة الأحباب وقال غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وخفاء مكانه عنهم وقال التكبر على المتكبر من التواضع وسئل عن الصبر الجميل فقال الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه إلى الناس وقيل إنه لقى رجلا سكران فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول ياسيدى ياأبا نصر وبشر لا يدفعه عن نفسه فلما ولى الرجل تغرغرت عينا بشر وجعل يقول رجل أحب رجلا على خير توهمه لعل المحب قد نجا والمحبوب لا يدرى ماحاله * وروى أن امرأة جاءت الى أحمد بن حنبل تسأله فقالت انى امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه ولا أبين غزل الليل من غزل النهار فهل على فى ذلك شىء فقال يجب أن تبينى فلما انصرفت قال أحمد لابنه اذهب فانظر أين تدخل فرجع فقال دخلت دار بشر فقال قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله نرفع ماءك الى الطبيب قال

جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين ثم أفاضوا فى الحديث حتى نسى الأمر فقال المهدى اشريك ماتقول فى رجل أمر وكيلاله أن يأتى بشىء بعينه فجاء بغيره فتلف ذلك الشىء فقال يضمن يا أمير المؤمنين فقال الخادم اضمن ما أتلفت (ومن ذلك) أنه حكى انه قدم رجل الى بغداد ومعه عقد يساوى ألف دينار فأراد بيعه فلم يتفق فجاء الى عطار موصوف بالخير والديانة فأودع العقد عنده وحج وأتى بهدية للعطار وسلم عليه فقال من أنت ومن يعرفك فقال أنا صاحب العقد فلما كلمه رفسه وألقاه عن دكانه فاجتمع الناس وقالوا ويلك هذا رجل صالح فما وجدت من تكذب عليه الا هذا فتحير الحاج وتردد اليه فما زاده الا شتما وضربا فقيل له لو ذهبت الى عضد الدولة لحصل لك من فراسته خير فكتب قصته وجعلها على قصبة وعرضها عليه فقال ما شأنك فقص عليه القصة فقال اذهب غدا واجلس فى دكان العطار ثلاثة أيام حتى أمر عليك فى اليوم الرابع فأقف وأسلم عليك فلا ترد على الا السلام فاذا انصرفت أعد عليه ذكر العقد ثم أعلمنى بما يقول لك ففعل الحاج ذلك فلما كان فى اليوم الرابع جاء عضد الدولة فى موكبه العظيم فلما رأى الحاج وقف وقال السلام عليكم فقال الحاج وعليكم السلام ولم يتحرك فقال يا أخى تقدم من العراق ولا تأتينا ولا تعرض علينا حوائجك فقال له ما اتفق هذا ولم يزده على ذلك شيئا هذا والعسكر واقف بكماله فانذهل العطار وأيقن بالموت فلما

انصرف عضد الدولة التفت العطار الى الحاج وقال له يا أخي متى أودعتني هذا العقد وفى أى شىء هو ملفوف فذكرني لعلي اتذكر فقال من صفته كذا وكذا فقام وفتش ثم فتح (١٤٤) جرابا وأخرج منه العقد وقال والله أعلم انني كنت ناسيا ولو لم تذكرني ما تذكرت فأخذ الحاج العقد ومضى الى عضد الدولة فأعلمه فعلقه فى عنق العطار وصلبه على باب دكانه ونودى عليه هذا جزاء من استودع ثم جحد ثم أخذ الحاج العقد ومضى الى بلاده (ومثله ما نقل عن ذكاء اياس الذى سارت به الركبان) قيل ان رجلا استودع امين اياس مالا وخرج المودع الى الحجاز فلما رجع طلبه فجحده فأتى اياسا فأخبره فقال له اياس أعلمته انك اتيتنى قال لا قال افنازعته عند غيرى قال لا قال فانصرف واكتم سرك ثم عد إلى بعد يومين فمضى الرجل ودعا إياس أمينه فقال قد حضر عندنا مال كثير أريد أن أسلمه اليك أفحصين منزلك قال نعم قال فأعد موضعا للمال وقوما يحملونه وعاد الرجل الى اياس فقال انطلق الى صاحبك فان اعطاك المال فذلك وان جحد فقل له انى أخبر القاضى بالقصة فأتى الرجل صاحبه فقال تعطيني الوديعة أو أشكوك الى القاضى وأخبره بالحال فدفع اليه المال فرجع الرجل واخبر إياسا وقال اعطانى الوديعة وجاء الأمين الى إياس ليأخذ المال الموعود به فزجره وقال له لا تقربني بعد هذا يا خائن (ومثله) أنه ولى القضاء بواسط رجل مشهور بالدين والذكاء المفرط فجاءه رجل استودع

أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد فألحوا عليه فقال لأخته ادفعى اليهم الماء فدفعته اليهم فى قارورة وكان بالقرب منهم طبيب نصرانى فدفعوا اليه القارورة فقال حركوا الماء فحركوه فقال ضعوه فوضعوه فقالوا له ما بهذا وصفت لنا قال وبماذا وصفت لكم قالوا وصفت بأنك أحذق أهل زمانك فى الطب قال هو كما وصفت لكم أن هذا الماء ان كان ماء نصرانى فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده وان كان ماء مسلم فماء بشر الحافى لأن ما فى زمانه أخوف منه قالوا هو ماء بشر فقال أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فلما رجعوا إلى بشر قال لهم أسلم الطبيب قالوا ومن أعلمك بهذا قال لما خرجتم من عندى نوديت يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب توفى سنة سبع وعشرين ومائتين (ومنهم) سيدى أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى من اجل المشايخ كبير الشان ومن كلامه مازلت أسوق الى الله تعالى نفسى وهى تبكى الى ان سقتها وهى تضحك وسئل بأى شىء وجدت هذه المعرفة فقال ببطن جائع وبدن عار وقيل له ما أشد ما لقيت فى سبيل الله تعالى فقال لا يمكن وصفه فقيل له ما أهون ما لقيته نفسك منك فقال أما هذا فنعم دعوتها الى شىء من الطاعات فلم تجبنى فمنعتها الماء سنة وقال الناس كلهم يهربون من الحساب ويتجافون عنه وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبنى فقيل له لم فقال لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدى فأقول لبيك فقوله لى يا عبدى أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك يفعل بى ما يشاء وقال له رجل دلنى على عمل أتقرب به الى ربى فقال أحب أولياء الله ليحبوك فان الله تعالى ينظر الى قلوب أوليائه فلعله ينظر الى اسمك فى قلب ولى فيغفر لك وسئل عن المحبة فقال استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك توفى سنة احدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى (ومنهم) شيخ الطائفة سيدى أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى شيخ وقته وفريد عصره أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه ببغداد صحب جماعة من المشايخ وصحب خاله السرى والحرث المحاسبى ودرس الفقه على أبى ثور وكان يفتى فى مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة ۞ ومن كلامه رضى الله عنه علامة اعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه وقال الأدب أدبان أدب السر وأدب العلانية فأدب السر طهارة القلوب وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب وروى فى يده يوما سبحة فقيل له أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة فقال نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبدا وقال الحسن بن محمد السراج سمعت الجنيد يقول رأيت ابليس فى منامى وكأنه عريان فقلت له ألا تستحى من الناس فقال بالله هؤلاء عندك من الناس لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة ولكن الناس عندى ثلاثة نفر فقلت ومن هم قال فى مسجد الشونيزى قد أضنوا قلبي وأنحلوا جسمى كلما هممت بهم أشاروا الى الله عز وجل فأكاد أن أحرق قال الجنيد فانتبهت من نومى ولبست ثيابى وجئت الى مسجد الشونيزى بليل فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شىء تقبل قيل إن الثلاثة الذين كانوا فى المسجد الشونيزى ابو حمزة وأبو الحسن الثورى وأبو بكر الدقاق رضى الله عنهم وقال محمد بن قاسم الفارسى بات الجنيد ليلة العيد فى الموضع الذى كان يعتاده فى البرية فاذا هو وقت السحر بشاب ملتف فى عباءة وهو يبكى ويقول

بحرمة غربتى كم ذا الصدود ۞ ألا تحنوا على ألا تجودوا ۞ سرور العيد قد عم النواحى
وحزنى فى ازدياد لا يبيد ۞ فان كنت اقترفت خلال سوء ۞ فعذرى فى الهوى أن لا أعود

توفى الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد وصلى عليه نحو ستين ألفا رضوان الله عليهم أجمعين

بعض الشهود كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف دينار فلما حصل الكيس عند الشاهد وطالت غيبة المودع ظن أنه قد مات فهم باتفاق المال وخشي من مجيء صاحبه ففتق الكيس من أسفله وأخذ الدنانير وجعل مكانها دراهم وأعاد الخياطة كما كانت فقدر أن الرجل حضر إلى واسط وطالب الشاهد بوديعته فأعطاه الكيس بختمه فلما حصل فى منزله فض ختمه فاذا فى الكيس دراهم فرجع إلى الشاهد وقال له اردد على مالى فانى أودعتك دنانير والذى وجدت دراهم فأنكر فاستدعى عليه إلى القاضى المتقدم ذكره فلما حضرا بين يديه قال الحاكم للمستودع منذ كم أودعك الكيس قال منذ خمس عشرة سنة فقال القاضى لصاحب الكيس أحضر لى الدراهم فأحضرها فقال القاضى للشهود اعتبروا تواريخ الدراهم فقرؤا سككها فاذا منها ماله سنتان وثلاث سنين ونحو ذلك فأمره أن يدفع له الدنانير فدفعها وعزله القاضى وأطاف به البلد وأسقطه

﴿ ومثله بل أغرب منه ﴾

أن رجلا استودع رجلا مالا ثم طلبه فجحده فخاصمه إلى إياس وقال المدعى انى أطالبه بمال أودعته إياه وقدره كذا وكذا فقال له إياس ومن حضرك قال كان رب العزة حاضرا قال دفعته اليه فى أى مكان قال فى موضع كذا قال فأى شىء تعهده من ذلك الموضع قال شجرة عظيمة قال فانطلق إلى الموضع وانظر إلى الشجرة لعل الله يظهر لك علامة يتبين بها حقك أو لعلك

أجمعين وممن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات على بركته سيدى الشيخ الامام العالم العامل أبو المعالى وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطربنى المالكى قدس الله سره وروحه ونور ضريحه كان أوحد زمانه فى الزهد والورع قامعا لأهل الضلال والبدع وله أسرار ظاهرة وبركات متواترة قد أطاع أمره الخلائق عجما وعربا وانتشر ذكره فى البلاد شرقا وغربا وأتت الملوك إلى بابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه ما أتاه مكروب إلا فرج الله كربته ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته كان محافظا على النوافل ملازما للفرض وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض لم يمتع نفسه فى الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة بل قيل انه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهورا عديدة وكان رضي الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه نصوحا لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه يدخل عليه أعدى عدوه فيقبل ببشره وبره عليه فيخرج من عنده وهو أحب الناس اليه كما قال بعضهم

وإنى لألقى المرء أعلم أنه * عدوي وفي أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بشرى فيرجع قلبه * سليما وقد ماتت لديه الضغائن

وكانت جملة أهل زمانه عليه وأحوالهم فى كل أمر راجعة اليه وكنت كثيرا ما أسمعه يتمثل بهذا البيت

وما حملونى الضيم إلا حملته * لأنى محب والمحب حمول

وكان رضي الله عنه كثير المصافاة عظيم الموافاة شأنه الحلم والستر لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه وما استشاره أحد فى أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه صحبته رضى الله عنه نحو خمس عشرة سنة فكأنها من طيبها كانت سنة ما قطع بره يوما واحدا عنى حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص مني وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة [illegible] الله وجهه فى القيامة وبلغه من فضل ربه ما [illegible] ربه وكان رضى الله عنه فقيها فى مذهب الامام مالك إمام كبير لم ير له فى زمانه من شبيه ولا نظير وله فى علم الحقيقة أقوال وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ولو تتبعت مناقبه لاتسع الكلام ولكنى أقول كان أوحد عصره والسلام عاش رضى الله عنه نيفا وستين سنة وكان الناس فى زمانه فى عيشة راضية وأحوال حسنة وكان رضى الله عنه كثير الامراض والاسقام حصل له فى آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة ثم تزايد مرضه فى العشر الأول من ذى الحجة الحرام فلما كانت ليلة الحادى عشر اشتد به الأمر واحتضر ولم يزل فى النزع إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة ثم توفى رحمه الله تعالى سعيدا حميدا فى ليلة الجمعة حادى عشر ذى الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة ولما أخبر الناس بوفاته عظم مصابه على المسلمين ووقع النوح والبكاء والاسف فى أقطار البلدان حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم وصاروا يبكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه وكيف لا وهو إمام العصر علامة الدهر حق فيه قول القائل

حلف الزمان ليأتين بمثله * حنثت يمينك يازمان فكفر

رضى الله عنه ورضي عنا به ونفعنا ببركته فى الدين والدنيا والآخرة فشرعوا فى تجهيزه وغسله فكنت ممن حضر غسله ولكن لم يكن ذهني معى فى تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده كيف لا وقد كان لى والدا شفوقا وبارا محسنا عشوقا فلما انتهى غسله رضى الله عنه جاء القضاة والنواب والكشاف والولاة وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعته وضاقت الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس فلم ير أكثر جمعا ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم وهذا دليل

دفنت مالك تحت الشجرة فنسيت فتذكره إذا رأيت الشجرة فمضى الرجل مسرعا فقال إياس للرجل المدعى عليه اقعد حتى يرجع خصمك فجلس واياس يقضى بين الناس (١٤٦) ونظر اليه بعد ذلك ثم قال له ياهذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التى ذكرها قال لا فقال له والله ياعدو الله انك لخائن فقال أقلنى أقالك الله ياأمير المؤمنين فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال اياس قد أقر بحقك فخذه ﴿ومن لطائف المنقول من كتاب الأذكياء﴾ أن يحيى بن أكثم القاضي ولى القضاء بالبصرة وسنه عشرون سنة فاستصغره أهل البصرة فقال أحدهم كم سن القاضى فعلم يحيى أنه استصغره فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل مكة يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن وأنا أكبر من كعب بن سور حين ولاه عمر بن الخطاب قاضيا على أهل البصرة قال فعظم فى أعين أهل البصرة وهابوه ﴿ومن المنقول من كتاب الأذكياء﴾ أن بعض اللصوص دخل بيته ومعه جماعة تحت أمره ونهيه فى القتل والسرقة فظفروا بصاحب البيت وأوقفوه للقتل فتدخل عليهم فى ابقاء مهجته وأخذ ما فى البيت بكماله فقال كبيرهم حلفوه بالطلاق الثلاث وعلى المصحف أنه لا يعلم بهم أحدا فأصبح الرجل يرى اللصوص يبيعون متاعه ولا

على أنه كان قطب أهل زمانه ❊ قال الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه بيننا وبينهم الجنائز يريد بذلك اجتماع الناس والله أعلم فارتفع نعشه على أعناقهم وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدى سليمان الدواخلى نفعنا الله ببركته ودفن يوم الجمعة بزاويته التى أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الامام العالم العلامة مفتى المسلمين سراج الدين أبى حفص عمر الطريني المالكي فى قبر واحد نفعنا الله ببركته وجعل الجنة متقلبه ومثواه وحشرنا واياه فى زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين وأفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ونسأله لنا التوفيق والاعانة وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطرينى أدام الله أيامه للمسلمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

﴿الباب الحادى والثلاثون في مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى الله عنهم﴾

﴿اعلم﴾ أن كرامات الأولياء لا تنكر ومناقبهم أكثر من أن تحصر نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم فى زمرة نبينا محمد ﷺ يوم المحشر إنه على مايشاء قدير وبالاجابة جدير وهو حسبنا ونعم الوكيل ﴿حكاية﴾ قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى احتبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستسقى مرارا فلم نر للاجابة أثرا فخرجت أنا وعطاء السلمى وثابت البنانى ويحيى البكاء ومحمد بن واسع وأبو محمد السختيانى وحبيب الفارسى وحسان بن ثابت بن أبي سنان وعتبة الغلام وصالح المزنى حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب ثم استسقينا فلم نر للاجابة أثرا حتى انتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا وثابت البنانى بالمصلى فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح رقيق الساقين عليه جبة صوف قومت ماعليه بدرهمين فجاء بماء فتوضأ ثم جاء إلى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين ثم رفع طرفه إلى السماء وقال إلهى وسيدى ومولاى إلى كم ترد عبادك فيما لا ينفعك أنفد ماعندك أم نقص مافى خزائنك أقسمت عليك بحبك لى إلا ماسقيتنا غيثك الساعة قال فما تم كلامه حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب قال مالك فتعرضت له وقلت له ياأسود أما تستحى مما قلت قال وما قلت قلت قولك بحبك لى ومايدريك أنه يحبك قال تنح عنى يامن اشتغل عنه بنفسه أفتراه بدأني بذلك إلا لمحبته إياى ثم قال محبته لى على قدره ومحبتى له على قدرى فقلت له يرحمك الله ارفق قليلا فقال إنى مملوك وعلى فرض من طاعة مالكى الصغير قال فانصرف وجعلنا نقفو أثره على البعد حتى دخل دار نخاس فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت يرحمك الله عندك غلام تبيعه منا للخدمة قال نعم عندى مائة غلام للبيع فجعل يعرض علينا غلاما بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاما فلم ألق حبيبى فيهم فقال عودا إلى فى غير هذا الوقت فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره واذا بالاسود قائم يصلى فقلت حبيبى ورب الكعبة فجئت إلى النخاس فقلت له بعنى هذا الغلام فقال ياأبايحيي هذا الغلام ليست له همة فى الليل إلا البكاء وفى النهار إلا الخلوة والوحدة فقلت له لا بد من أخذه منك ولك الثمن وما عليك منه فدعاه فجاء وهو يتناعس فقال خذه بماشئت بعد أن تبرئنى من عيوبه كلها فاشتريته منه بعشرين دينارا وقلت له مااسمك قال ميمون فأخذت بيده أريد المنزل فالتفت الى وقال يامولاى الصغير لماذا اشتريتني وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين فقلت له والله ياسيدى إنما اشتريتك لأخدمك بنفسى قال ولم ذلك فقلت ألست صاحبنا البارحة بالمصلى قال بلى وقد اطلعت على ذلك قلت نعم وأنا الذى عارضتك البارحة فى الكلام بالمصلى قال فجعل يمشى حتى أتى الى مسجد فاستأذننى ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين خفيفتين ثم رفع طرفه إلى السماء وقال إلهى وسيدى ومولاى سر كان بينى وبينك

بعد أن يحكم لأجل اليمين فجاء إلى أبى حنيفة وأعلمه بحاله فقال له احضر أكابر حيك وأخبرن جيرانك وامام جماعتك فلما حضروا قال لهم أبو حنيفة هل تحبون أن يرد الله على هذا الرجل متاعه قالوا نعم قال اجمعوا داعريكم فأدخلوهم الجامع ثم أخرجوهم واحداً واحداً وكلما خرج منهم واحد قولوا هذا لصك فان كان ليس بلصه قال لا وإن كان لصه فليسكت فاذا سكت فاقبضوا عليه ففعلوا ذلك فرد الله عليه ما سرق له (ومنه) ان الربيع صاحب المنصور كان يعادى أبا حنيفة فحضر يوما عند أمير المؤمنين فقال الربيع يا أمير المؤمنين ان أبا حنيفة يخالف جدك ابن عباس وكان جدك يقول إذا حلف الرجل على شىء ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين كان ذلك جائزاً وأبو حنيفة لا يجوز ذلك إلا متصلا باليمين فقال أبو حنيفة يا أمير المؤمنين ان الربيع يزعم أن ليس لك فى رقاب جندك عهد قال كيف ذلك قال يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال يا ربيع لا تعرض لأبى حنيفة (ومنه) ان الامام أبا حنيفة رضى الله عنه قال دخلت البادية فاحتجت إلى الماء فجاءنى أعرابى ومعه قربة ملآنة فأبى أن يبيعها إلا بخمسة دراهم فدفعتها له ثم أخذت القربة فقلت ما رأيك يا اعرابى فى السويق فقال هات فأعطيته سويقا ملتوتا بزيت فجعل يأكل حتى امتلا ثم عطش فقال على بشربة فقلت بخمسة دراهم على

وبينك أطلعت عليه غيرك فكيف يطيب الآن عيشى أقسمت عليك بك إلا ما قبضتنى اليك الساعة ثم سجد فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه فجئت اليه وحركته فاذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه قال فمددت يديه ورجليه فاذا هو ضاحك مستبشر وقد غلب البياض على السواد ووجهه كالقمر ليلة البدر واذا شاب قد دخل من الباب وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أعظم الله أجورنا وأجوركم فى أخينا ميمون هاكم الكفن فناولنى ثوبين ما رأيت مثلهما قط فغسلناه وكفناه فيهما ودفناه قال مالك ابن دينار فبقبره نستسقى إلى الآن ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه (وحكى) عن حذيفة المرعشى رضى الله عنه وكان قد خدم ابراهيم الخواص رضى الله عنه وصحبه مدة فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا فى طريق مكة أياما لم نأكل طعاما فدخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خرب فنظر إلى ابراهيم وقال يا حذيفة أرى بك أثر الجوع فقلت هو كما ترى فقال على بدواة وقرطاس فأحضرتهما اليه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود بكل حال والمشار اليه بكل معنى ثم قال :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر * أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها * فأجر عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة ثم دفع إلى الرقعة وقال اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفعها إلى أول من يلقاك قال فخرجت فأول من لقينى رجل على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فقرأها وبكى وقال ما فعل بصاحب هذه الرقعة قلت هو فى المسجد الفلانى فدفع إلى صرة فيها ستمائة درهم فأخذتها ومضيت فوجدت رجلا فسألته من هذا الراكب على البغلة فقال هو رجل نصرانى قال فجئت ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمس الدراهم فان صاحبها يأتى الساعة فلما كان بعد الساعة أقبل النصرانى راكبا على بغلته فترجل على باب المسجد ودخل فأكب على ابراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قال فبكى ابراهيم الخواص فرحا به وسروراً وقال الحمد لله الذى هداك للاسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام (وحكى) أن بعضهم كان ملاحا ببحر النيل المبارك بمصر قال كنت أعدى من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى ومن الجانب الشرقى إلى الجانب الغربى فبينما أنا ذات يوم فى الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة فقال السلام عليكم فرددت عليه السلام فقال أتحملنى إلى الجانب الغربى لله تعالى فقلت نعم فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربى وكان على ذلك الفقير مرقعة وبيده ركوة وعصا فلما أراد الخروج من الزورق قال انى أريد أن أحملك أمانة قلت وما هى قال إذا كان غداً وقت الظهر تجدنى عند تلك الشجرة ميتا وستنسى فاذا ألهمت فأتنى وغسلنى وكفنى فى الكفن الذى تجده عند رأسى وصل على وادفنى تحت الشجرة وهذه المرقعة والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك فادفعها اليه ولا تحتقره قال الملاح ثم ذهب وتركنى فتعجبت من قوله وبت تلك الليلة فلما أصبحت انتظرت الوقت الذى قال لى فلما جاء وقت الظهر نسيت فما تذكرت إلا قرب العصر فسرت بسرعة فوجدته تحت الشجرة ميتا ووجدت كفنا جديداً عند رأسه تفوح منه رائحة المسك فغسلته وكفنته فلما فرغت من غسله حضر عندى جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحداً فصلينا عليه ودفنته تحت الشجرة كما عهد إلى ثم عدت إلى الجانب الشرقى وقد دخل الليل فنمت فلما طلع الفجر وبانت

الوجوه إذا أنا بشاب قد أقبل على فحققت النظر في وجهه فإذا هو من صبيان الملاهي كان يخدمهم فأقبل وعليه ثياب رقاق وهو مخضوب الكفين وطاره تحت ابطه فسلم على فرددت عليه السلام فقال يا ملاح أنت فلان بن فلان قلت نعم قال هات الوديعة التي عندك قلت ومن أين لك هذا قال لا تسأل فقلت لا بد أن تخبرني فقال لا أدري إلا أني البارحة كنت في عرس فلان التاجر فسهرنا نرقص ونغني إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن فنمت لأستريح وإذا برجل قد أيقظني وقال ان الله تعالى قد قبض فلانا الولي وأقامك مقامه فسر الى فلان بن فلان صاحب الزورق فان الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت قال فدفعتها له فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها في الزورق وقال تصدق بها على ماشئت وأخذ الركوة والعصا ولبس المرقعة وسار وتركني أتحرق وأبكي لما حرمت من ذلك وأقمت يومي ذلك أبكي إلى الليل ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله في النوم فقال يا عبدي أثقل عليك ان مننت على عبد عاص بالرجوع إلي إنما ذلك فضلي أوتيه من أشاء من عبادي وأنا ذو الفضل العظيم (وحكي) أبو اسحق الصعلوكي قال خرجت سنة إلى الحج فبينما أنا في البادية تائه وقد جن الليل وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت صوت شخص ضعيف يقول يا أبا اسحق قد انتظرتك من الغداة فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم قد أشرف على الموت وحوله رياحين كثيرة منها ما أعرف ومنها ما لا أعرف فقلت له من أنت ومن أين أنت قال من مدينة شمشاط كنت في عزة ورفعة فطالبتني نفسي بالغربة والعزلة فخرجت وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقيض لي وليا من أوليائه وأرجو أن تكون أنت هو فقلت ألك حاجة قال نعم لي والدة واخوة وأخوات فقلت هل اشتقت اليهم قط قال لا إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم فهممت أن أريدهم فاحوشتني السباع والهوام وبكين معي وحملوا إلى هذه الرياحين التي تراها قال أبو اسحق فبينما أنا معه يرق له قلبي وإذا بحية عظيمة في فمها باقة نرجس كبيرة فقالت دع ولي الله تعالى فان الله يغار على أوليائه قال فغشي عليه وغشي على فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله قال فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها فلما رأتني نادت يا أبا اسحق ما شأن الشاب الغريب الذي مات غريبا فاني منتظرتك منذ كذا فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها أشم ريحهم فصاحت أواه أواه قد بلغ والله الشم ثم شهقت شهقة خرجت روحها فخرج اليها بنات اتراب عليهن مرقعات ومروط فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع

يا نسيما هب من وادي قبا * خبريني كيف حال الغربا
كم سألت الدهر أن يجمعنا * مثل ما كنا عليه فأبى

(وحكي) أن رجلا كان يعرف بدينار العيار وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ فمر في بعض الأيام بمقبرة فأخذ منها عظما فتفتت في يده ففكر في نفسه وقال ويحك يا دينار كأني بك وقد صار عظمك هكذا رفاتا والجسم ترابا فندم على تفريطه وعزم على التوبة ورفع رأسه الى السماء وقال إلهي وسيدي ألقيت اليك مقاليد أمري فاقبلني وارحمني ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب فقال يا أماه ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده قالت يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه فقال أريد جبة من صوف وأقراصا من شعير وغلين وافعلي بي كما يفعل بالعبد الآبق لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني ففعلت به ما أراد فكان إذا جن عليه الليل أخذ في البكاء والعويل ويقول لنفسه ويحك يا دينار ألك قوة على النار كيف تعرضت لغضب الجبار ولا يزال كذلك إلى الصباح فقالت له أمه يا بني ارفق بنفسك

قدح من ماء فاستردت الخمسة وبقي الماء (ومنه) أنه استودع رجل بالكوفة رجلا مالا وحج ورجع فطلبه فجحده وجعل يحلف له فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة فخلا به وأخبره بذلك فقال له الامام لا تكلم أحدا بجحوده وكان الرجل يجالس أبا حنيفة فقال له وقد خلا لهم المكان ان هؤلاء بعثوا يستشيرونني في رجل يصلح للقضاء وقد اخترتك فانصرف من عند الامام فجاء صاحب الوديعة فقال له الامام ارجع إلى صاحبك وذكره لاحتمال أن يكون ناسيا فذهب اليه وسأله فلم يحتج معه إلى علامة بل دفع اليه متاعه وتوجه بعد ذلك إلى أبي حنيفة فقال له أبو حنيفة اني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أنفس من هذا (ومنه) أنه كان بجوار أبي حنيفة شاب يغشى مجلسه فقال له يوما من الأيام يا امام أريد التزويج إلى فلانة من أهل الكوفة وقد خطبتها من وليها فطلب مني من المهر فوق وسعه وطاقتي فقال أبو حنيفة فاستخر الله تعالى وأعطهم ما طلبوه فلما عقدوا النكاح جاء الى أبي حنيفة فقال اني سألتهم أن يأخذوا من البعض ويدعوا البعض عند الدخول فأبوا فما ترى قال احتل واقترض حتى تدخل بأهلك فان الأمر يكون أسهل عليك من تعقيدهم ففعل ذلك فلما زفت اليه ودخل بها قال أبو حنيفة له ما عليك ان تظهر الخروج بأهلك عن هذا البلد الى موضع بعيد فاكترى الرجل جملين واحضر آلة السفر وما يحتاج اليه وأظهر أنه يريد

قال

فقال دعيني أتعب قليلا لعلي أستريح دا و يلا يا أماه ان لى غداء وقفا طويلا بين يدى رب جليل ولا أدرى أيؤمر بى الى ظل ظليل أو الى شر مقيل قالت يا بنى خذ لنفسك راحة قال لست للراحة اطلب كأنك يا أماه غدا بالخلائق يساقون الى الجنة وأنا أساق الى النار مع أهلها فتركته وما هو عليه فأخذ فى البكاء والعبادة وقراءة القرآن فقرأ فى بعض الليالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشى عليه فجاءت أمه اليه فنادته فلم يجبها فقالت له ياحبيبي وقرة عيني أين الملتقى فقال بصوت ضعيف يا أماه ان لم تجديني فى عرصات القيامة فاسألى مالكا خازن النار عنى ثم شهق شهقة فمات رحمه الله تعالى فغسلته أمه وجهزته وخرجت تنادى أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعا ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر فى الجنة وعليه حلة خضراء وهو يقرأ الآية فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ويقول وعزته وجلاله سألنى ورحمني وغفر لى وتجاوز عنى ألا اخبروا عنى والدتى بذلك (وحكى) عن الحسن البصرى قال نزل سائل بمسجد فسأل الناس أن يطعموه كسرة فلم يطعموه فقال الله تعالى لملك الموت اقبض روحه فانه جائع فقبض روحه فلما جاء المؤذن رآه ميتا فاخبر الناس بذلك فتعاونوا على دفنه فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن فى المحراب مكتوبا عليه هذا الكفن مردود عليكم بئس القوم أنتم استطعمكم فقير فلم تطعموه حتى مات جوعا من كان من أحبابنا لا نكله الى غيرنا (وحكى) أبو على المصري قال كان لى جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوما حدثنى بأعجب ما رأيت من الموتى فقال جاءنى شاب فى بعض الأيام مليح الوجه حسن الثياب فقال لى أتغسل لنا هذا الميت قلت نعم فتبعته حتى أوقفنى على باب فدخل هنيهة فاذا بجارية هى أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهى تمسح عينيها فقالت انت الغاسل قلت نعم قالت بسم الله ادخل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فدخلت الدار وإذا أنا بالشاب الذى جاءنى يعالج سكرات الموت وروحه فى لبته وقد شخص بصره وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه فلم أجلس اليه حتى قبض فقلت سبحان الله هذا ولى من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته فأخذت فى غسله وأنا أرتعد فلما أدرجته أتت الجارية وهى أخته فقبلته وقالت أما أنى سألحق بك عن قريب فلما اردت الانصراف شكرت لى وقالت أرسل الى زوجتك ان كانت تحسن ما تحسنه أنت فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به فلما فرغت من دفنه جئت أهلى فقصصت عليها القصة وأتيت بها الى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت بسم الله تدخل زوجتك فدخلت زوجتى واذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت فغسلتها زوجتى وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما

أأحبابنا بنتم عن الدار فاشتكت * لبعدكم آصالها وضحاها * وفارقتم الدار الأنيسة فاستوت

رسوم مبانيها وفاح كلاها * كأنكم يوم الفراق رحلتم * بنومى فعيني لا تصيب كراها

وكنت شحيحا من دموعى بقطرة * فقد صرت سمحا بعد كم بدماها * يرانى بساما خليلى يظن بى

سرورا وأحشاى السقام ملاها * وكم ضحكة فى القلب منها حرارة * يشب لظاها لو كشفت غطاها

رعى الله أياما بطيب حديثكم * تقضت وحياها الحيا وسقاها

فما قلت إيها بعدها لمسامر * من الناس الا قال قلبي آها

(وحكى) سرى السقطي رحمه الله تعالى قال أرقت ليلة ولم أقدر على النوم فلما طلع الفجر صليت فلما

الخروج من البلد فى طلب المعاش وأن يصحب أهله معه فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤا إلى أبى حنيفة يستشيرونه فقال لهم أبو حنيفة له أن يخرجها الى حيث شاء فقالوا لم نصبر على ذلك فقال أرضوه بان تردوا عليه ما أخذتم منه فأجابوه الى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى إن القوم قد سمحوا وأجابوا إلى أن يردوا عليك ما أخذوا منك من المهر ويبروك فقال الفتى لا بد من زيادة آخذها منهم فقال أبو حنيفة أيما أحب اليك أن ترضى بما بذلوا لك والا أقرت المرأة لرجل بدين عليها ولا يمكنك حملها ولا السفر بها حتى يقضى ما عليها من الدين قال فقال الفتى الله الله يا امام لا يسمع أحد منهم بذلك ثم أجاب وأخذ ما بذلوه من المهر (ومنه) أن رجلا جاء الى أبى حنيفة وقال يا أمام دفنت مالا من مدة طويلة ونسيت الموضع الذى دفنته فيه فقال الامام ليس فى هذا فقه فأحتال لك ولكن اذهب فصل الليلة الى الغداة فانك ستذكره ان شاء الله تعالى ففعل فلم يمض إلا أقل من ربع الليل حتى ذكر الموضع الذى دفن فيه فجاء الى أبى حنيفة فاخبره فقال قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلى الليل كله فهلا أتممت ليلتك كلها شكرا لله تعالى (ومنه) أن بعضهم كانت له زوجة جميلة وكان يحبها حبا شديدا وتبغضه بغضا شديدا ولم تزل المنافرة بينهما ألبتة وأضجره ذلك فطالت مدة تجرمها عليه فى الكلام فقال لها يوما أنت طالق ثلاثا بتاتا ان خاطبتيني بشيء ولم أخاطبك بشيء مثله فقالت له فى الحال أنت طالق ثلاثا بتاتا فأبلس

الرجل ولم يدر ما يجيب وخاف فى جوابها من وقوع الطلاق وأرشد الى أبى جعفر الطبرى فأخبره بما جرى فقال له إذا طالبتك بالجواب فقل لها أنت طالق ثلاثا بتاتا إن أنا طلقتك فتكون قد خاطبتها ووفيت بيمينك (ومنه ما قيل إن ذا النون المصرى كان يعرف الاسم الأعظم) قال يوسف بن الحسن لما تحققت منه ذلك قصدت مصر وخدمته سنة ثم قلت له يرحمك الله انى قد خدمتك ووجب حقى عليك واشتهى أن تعلمنى اسم الله الأعظم فلا تجد له موضعا مثلى قال فسكت ولم يجبنى ستة أشهر وأومأ الى أنه يعلمنى ثم أخرج من بيته طبقا ومكبة وقد شدا بمنديل وكان ذو النون يسكن الجيزة فقال تعرف فلانا صديقنا من الفسطاط قلت نعم قال فأحب أن تؤدى هذا اليه قال فأخذت الطبق وهو مشدود وجعلت أمشى طول الطريق وأقول مثل ذى النون يوجه الى فلان بهدية ترى أى شىء هى فلم أصبر أن بلغت الجسر فحللت المنديل ورفعت المكبة فاذا فأرة نفرت من الطبق وفرت فاغتظت غيظا شديدا وقلت ذو النون المصرى يسخر بى ويوجه مع مثلى فأرة فرجعت على ذلك الغيظ فلما رآنى علم ما فى وجهى فقال يا أحمق ائتمنتك على فأرة فخنتنى فكيف أأتمنك على اسم الله الأعظم فسر عنى فلا أراك بعدها (ومن ذلك ما هو منقول عن الافراط فى ذكاء العرب) قيل سار مضر وربيعة وإياد وانمار أولاد نزار بن معد الى أرض نجران فبينما

أصبحت دخلت المارستان فاذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهى تقول

تغل يدى الى عنقى • وما خانت وما سرقت
وبين جوانحى كبد • أحس بها قد احترقت

قال فقلت للقيم ما هذه الجارية قال هذه جارية اختل عقلها فحبست لعلها تصلح فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت

معشر الناس ما جننت ولكن • أنا سكرانة وقلبى صاحى
لم غللتم يدى ولم آت ذنبا • غير هتكى فى حبه وافتضاحى
أنا مفتونة بحب حبيب • لست أبغى عن بابه من براح
ما على من أحب مولى الموالى • وارتضاه لنفسه من جناح

قال فلما سمعت كلامها بكيت بكاء شديدا فقالت يا سرى هذا بكاؤك من الصفة فكيف لو عرفته حق المعرفة قال فبينما هى تكلمنى إذ جاء سيدها فلما رآنى عظمنى فقلت والله هى أحق منى بالتعظيم فلم فعلت بها هذا قال لتقصيرها فى الخدمة وكثرة بكائها وشدة حنينها وأنينها كأنها ثكلى لا تنام ولا تدعنا نتام وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فانها مطربة قلت فما كان بدء أمرها قال كان العود فى حجرها يوما فجعلت تقول

وحقك لا نقضت الدهر عهدا • ولا كدرت بعد الصفو ودا
ملأت جوانحى والقلب وجدا • فكيف أقر يا سكنى وأهدا
فيا من ليس لى مولى سواه • تراك رضيتنى بالباب عبدا

فقلت لسيدها اطلقها وعلىّ ثمنها فصاح واقراه من أين لك عشرون ألفا يا سرى فقلت لا تعجل على تكون فى المارستان حتى توفينى ثمنها فقلت نعم قال سرى فانصرفت وعينى تدمع وقلبى يخشع و[illegible] الله ما عندى درهم من ثمنها فبت طول ليلتى أتضرع الى الله تعالى فاذا بطارق يطرق الباب ففتحت ودخل علىّ رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر فقال أتعرفنى يا سرى قلت لا قال أنا أحمد بن المثنى كنت نائما فهتف بى هاتف وقال لى يا أحمد هل لك فى معاملتنا فقلت ومن أولى منى بذلك فقال احمل الى سرى السقطى خمس بدر من أجل الجارية الفلانية فان لنا بها عناية قال سرى فسجدت لله شكرا وجلست أتوقع طلوع الفجر فلما طلع صلينا وذكرنا وانصرفنا نحوها فسمعناها تقول

قد تصبرت الى أن • عيل من حبك صبرى
ضاق من غلى وقيدى • وامتهانى منك صدرى
ليس يخفى عنك أمرى • يا منى قلبى وذخرى
أنت قد تعتق رقى • وتفك اليوم أسرى

قال سرى فبينا أنا أسمعها واذا بمولاها قد جاء وهو يبكى فقلت لا بأس عليك قد جئناك برأس مالك وربح عشرة آلاف درهم فقال والله لا فعلت ذلك قلت تريد قال والله لو أعطيتنى ما بين الخافقين ما فعلت وهى حرة لوجه الله تعالى قال فتعجبت من ذلك وقلت ما كان هذا كلامك بالأمس فقال حبيبى لا توبخنى فالذى وقع لى من التوبيخ كفانى وأشهدك أنى قد خرجت من جميع مالى صدقة فى سبيل الله تعالى وإنى هارب الى الله تعالى فبالله لا تردنى عن صحبتك فقلت نعم ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكى فقلت ما يبكيك قال يا استاذى ما قبلنى مولاى لما ندبنى اليه ورده على ما بذلت أشهدك أنى قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى فى سبيل الله وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى قال سرى فقلت ما أعظم بركتك يا جارية قال فنزعنا الغل من عنقها والقيد من رجلها وأخرجناها من المارستان فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ولبست خمارا من صوف

ومدرعة

يسيرون إذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال البعير الذي رعى هذا أعور فقال ربيعة وهو أزور وقال اياد وهو أبتر وقال انمار وهو شرود فلم يسيروا إلا قليلا حتى لقيهم رجل على راحلة فسألهم عن البعير فقال مضر أهو أعور قال نعم قال ربيعة أهو أزور قال نعم قال اياد أهو أبتر قال نعم قال انمار أهو شرود قال نعم والله هذه صفات بعيري دلوني عليه فحلفوا أنهم ما رأوه فلزمهم وقال فكيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته فساروا حتى قربوا نجران فنزلوا بالأفعي الجرهمي فنادى صاحب البعير هؤلاء القوم وصفوا لي بعيري بصفته ثم أنكروه فقال الجرهمي كيف وصفتموه ولم تروه فقال مضر رأيته يرعى جانبا ويترك جانبا فعلمت أنه أعور وقال ربيعة رأيت إحدى يديه ثابتة الاثر والأخري فاسدة الأثر فعلمت أنه أفسدها بشدة وطئه لازوراره وقال إياد عرفت بتره باجتماع بعره ولو كان ذيالا لتفرق وقال انمار انما عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث فقال الأفعى ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ثم سألهم من هم فأخبروه فرحب بهم وأضافهم وبالغ في اكرامهم (ومنه) أن عقبة الأزدي كان مشهورا بمعالجة الجن وصدق العزائم فأتوه بجارية قد جنت في ليلة عرسها فعزم عليها فاذا هي قد سقطت فقال لأهلها اخلوني بها فأجابوه فلما خلا بها قال لها أصدقيني عن نفسك وعلى خلاصك فقالت انه كان لي

ومدرعة من شعر وولت قال سري فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة فبينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتا فتبعناه فاذا هي امرأة كالخيال فلما رأتني قالت السلام عليك يا سري فقلت لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت فقالت لا إله إلا الله وقع الشك بعد المعرفة فتأملتها فاذا هي الجارية فقلت لها ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق فقالت أنسي به ووحشتي من غيره ثم توجهت إلى البيت وقالت إلهي كم تخلفني في دار لا أرى فيها أنيسا قد طال شوقي اليك فعجل قدومي عليك ثم شهقت شهقة وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها فلما نظر اليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خر إلى جانبها ميتا رحمة الله عليه فدفناهما في قبر واحد

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم * من الود الا ما رجعتم إلى وصل * ولا تحرموني نظرة من جمالكم
فلن تجدوا عبداً ذليلا لكم مثلي * فوالله ما يهوى فؤادي سواكم * ولو رشقوه بالأسنة والنبل

(وحكي) أنه كان في زمن بني إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير فاعتراه فتور في بعض الأيام فأزال الله عنه سحابته وحجب إجابته فكثر لذلك حزنه وشجونه وطال كمده وأنينه ومازال يشتاق إلى زمن الكرامة ويبكي ويتأسف ويتحسر ويتلهف فقام ليلة من الليالي فصلى ما شاء الله وبكى وتضرع ودعا الله تعالى ونام فقيل له في المنام إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك فائت الملك الفلاني في بلد كذا واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك قال فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلد التي ذكرت له في المنام فدخلها وسأل من يرشده إلى قصر الملك فجاء إلى القصر واذا عند بابه غلام جالس على كرسي عظيم من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه فقال له الغلام من أين أنت وما حاجتك فقال من بلاد بعيدة وقصدي الاجتماع بالملك فقال له الغلام لا سبيل لك اليه اليوم فسل حاجتك أقضها لك ان استطعت فقال ان حاجتي لا يقضيها إلا الملك فقال الغلام ان الملك ليس له الا يوم واحد في الجمعة يجتمع اليه الناس فيه فاذهب حتى يأتي ذلك اليوم فانصرف الرجل الى مسجد داثر وأقام يعبد الله تعالى فيه وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء إلى القصر فوجد خلقاً كثيراً عند الباب ينتظرون الاذن فوقف مع جملة الناس فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول فدخل أرباب الحوائج ودخل صاحب السحابة معهم وإذا بالملك جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم فجعل رأس النوبة يقدم الناس واحداً بعد واحد حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة فلما نظر اليه الملك قال مرحبا بصاحب السحابة اجلس حتي أفرغ من حوائج الناس وانظر في أمرك قال فتحير صاحب السحابة في أمره فلما فرغ الملك من حوايج الناس قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره ثم مشى به في دهليز القصر فلم يجد في طريقه الا مملوكا واحدا فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد واذا به بناء مهدوم وحيطان مائلة وبيت خرب فيه برش وليس هناك ما يساوي عشرة دراهم الا سجادة خلقة وقدح للوضوء وحصير رثة وشيء من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك ولبس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى يا فلانة قالت لبيك قال أتدرين من هو الليلة ضيفنا قالت نعم هو صاحب السحابة فدعا بها لحاجة فخرجت فاذا هي امرأة كالشن البالي عليها مسح من شعر خشن وهي شابة صغيرة قال الرجل فالتفت

صديق وأنا في بيت أهلي وانهم أرادوا أن يدخلوني على زوجي ولست ببكر تخفت الفضيحة فهل عندك حيلة في أمري قال نعم ثم خرج إلى أهلها فقال إن الجني أجابني إلى الخروج منها فاختاروا من أي عضو واعلموا أن العضو الذي يخرج منه الجني لا بد أن يهلك ويفسد فان خرج من عينها عميت وإن خرج من أذنها صمت وإن خرج من يدها شلت وإن خرج من رجلها زمنت وإن خرج من فرجها ذهبت بكارتها فقال أهلها انا لم نجد شيئا أهون من ذهاب عذرتها فاخرج الشيطان منه فأوهمهم أنه فعل ذلك وأدخلت المرأة على زوجها (ومن ذلك) أن الامام عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلا على عمل فبلغه عنه أنه قال

اسقني شربة ألذ عليها ... واسق بالله مثلها ابن هشام

قال فاشخصه وعلم الرجل بالحال فضم اليه بيتا آخر فلما قدم على الامام قال ألست القائل

اسقني شربة ألذ عليها ... واسق بالله مثلها ابن هشام

قال نعم يا أمير المؤمنين ان لهذا البيت ثانيا وهو

عسلا باردا بماء سحاب ... انني لا أحب شرب المدام

فقال الامام الله الله ارجع إلى عملك (ومن لطائف هزليات الأذكياء) أن الرشيد خرج متنزها فانفرد عن العسكر ومعه الفضل بن الربيع فاذا هو بشيخ قد ركب حمارا ضعيفا وهو رطب العينين فغمز الفضل عليه فقال له الفضل أين تريد ياشيخ فقال حائطالي قال هل أدلك على شيء تداوي

إلى الملك وقال يا أخي تطلعك على حالنا أو تقضي حاجتك وتنصرف فقلت والله لقد شغلني حالكما عما جئت بسببه فقال الملك الله يعلم انه كان لي في هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابرا عن كابر فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى ووصل الأمر إلى بغض الله إلى الدنيا وأهلها فأردت أن أسيح في الأرض وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم فيملكونه عليهم تخفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين والشرائع وتبديل شمل الدين فبايعوني وأنا والله كاره فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت السماط على عادته والحراس على حالها والمماليك على دأبها ولم أغير شيئا وأقعدت المماليك على الأبواب بالسلاح إرهابا لأهل الشرور وردعا عن أهل الخير وتركت القصر مزينا على حاله وفتحت له بابا وهو الذي رأيته يوصلني إلى هذه الخربة فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا وأضفر الخوص وأبيعه وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيتها وهي ابنة عمي زهدت في الدنيا كزهدي واجتهدت حتى صارت كالشن البالي والناس لا يعلمون ما نحن فيه ثم اني أقمت لي نائبا ينوب عني طول الجمعة وعلمت أني مسئول فجعلت لي يوما في الجمعة أبرز للناس فيه وأكشف عن مظالمهم كما رأيت وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خوصاتنا ونبتاع من ثمنها طعاما وتفطر معنا وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسي العمر فأخذ ما عملاه من خوص وسار به إلى السوق فباعه واشترى من ثمنه خبزا وفولا واشترى بباقي ثمنه خوصا فلما كان عند الغروب أفطرا وأفطرت معهما وبت عندهما قال فقاما في نصف الليل يصليان ويبكيان فلما كان عند السحر قال الملك اللهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته وانك قد دللته علينا اللهم اردد ها عليه انك على كل شيء قدير والمرأة تؤمن على دعائه وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لي لك البشارة بقضاء حاجتك وتعجيل اجابتك قال فودعتهما وانصرفت والسحابة معي كما كانت فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئا الا أعطاني إياه رحمة الله تعالى عليهما

استعمل الصبر تجني بعده العسلا ... ولازم الباب حتى تبلغ الأملا

ومرغ الخد في أعتابه سحرا ... واحمل لمرضاته في الحب كل بلا

فما يفوز بوصل يا أخي سوى ... صب لثقل الهوى والوجد قد حملا

هذا الحبيب ينادي في الدجى سحرا ... فانهض وكن رجلا بالسعي قد وصلا

(وحكى) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال خرجت إلى مكة حاجا فبينما أنا سائر اذ رأيت شابا ساكتا لا يذكر الله تعالى فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء وقال يامن لا تسره الطاعات ولا تضره المعاصي هب لي مالا يسرك واغفر لي مالا يضرك ثم رأيته بذي الحليفة وقد لبس احرامه والناس يلبون وهو لا يلبي فقلت هذا جاهل فدنوت منه فقلت له يافتى قال لبيك قلت لم لا تلبي فقال ياشيخ وما تغني التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات والله اني لأخشى أن أقول لبيك فيقول لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك ولا أنظر اليك فقلت له لا تقل ذلك فانه حليم إذا غضب رضي وإذا رضي لم يغضب وإذا وعد وفى ومتى توعد عفا فقال ياشيخ أتشير علي بالتلبية قلت نعم فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب وأخذ حجرا فوضعه على خده الآخر وأسبل دموعه وقال لبيك اللهم لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعي بين يديك فأقام كذلك ساعة ثم مضى فما رأيته إلا بمنى وهو يقول اللهم ان الناس قد ذبحوا ونحروا وتقربوا اليك وليس لي شيء أتقرب به اليك سوى نفسي فتقبلها مني ثم

شهق

بعينيك فتذهب هذه الرطوبة فقال ما أحوجنى إلى ذلك فخذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكمأة فصير الجميع فى قشر جوزة واكتحل من القشر فإنه يذهب رطوبة عينيك فاتكأ الشيخ على ظهر حماره وضرط ضرطة طويلة ثم قال خذ هذه الضرطة أجرة وصفك فإن نفعتنا زدناك فضحك الرشيد حتى كاد يسقط عن ظهر دابته (ومن الجد المفحم) أن رجلا من اليهود قال للامام على رضى الله عنه ما دفنتم نبيكم حتى قال الأنصار منا أمير ومنكم أمير فقال الامام أنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة (ومنه) أن المتوكل قال يوما لجلسائه نقم المسلمون على عثمان أشياء منها أن الامام أبا بكر رضى الله عنه لما تسنم المنبر هبط عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمرقاة ثم قام عمر دون مقام أبى بكر وصعد عثمان ذروة المنبر فقال عبادة ما أحد أعظم منة عليك من عثمان يا أمير المؤمنين قال وكيف ويلك قال لأنه صعد ذروة المنبر ولو أنه كلما قام خليفة نزل مرقاة ونزل عثمان كمن تقدمه كنت أنت تخطبنا من بئر فضحك المتوكل ومن حوله (ومن المنقول عن أذكياء الأطباء) أن جارية من جوارى الرشيد تمطت فلما أرادت أن تمد يدها لم تطق وحصل فيها الورم فصاحت وآلمها فشق على الرشيد وعجز الأطباء عن علاجها فقال له طبيب حاذق يا أمير المؤمنين لا دواء لها إلا أن يدخل اليها رجل أجنبي غريب فيخلو بها ويمرخها بدهن نعرفه فأجابه الخليفة الى ذلك رغبة فى عافيتها فأحضر الطبيب الرجل

شهق شهقة وخر ميتا رحمة الله تعالى عليه (وحكى) أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبى عبد الله الاندلسي وكان شيخا لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات فخرج فى بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلى وغيرهما من مشايخ العراق قال الشبلى فلم نزل فى خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد فجعلنا ندور بتلك القرية وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة وقساقسة ورهبان وهم يعبدون الأصنام والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم ثم انصرفنا إلى بئر فى آخر القرية وإذا نحن بجوار يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها وفى عنقها قلائد الذهب فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال هذه ابنة من فقيل له هذه ابنة ملك هذه القرية فقال الشيخ فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء فقيل له أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته وخدمته ولا تعجبها نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحدا غير أنه يؤدى الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه ولا يدرون ما يصنعون قال الشبلى فتقدمت اليه وقلت له ياسيدى ان أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحدا قال فأقبل علينا وقال يا قوم اعلموا أن الجارية التى رأيتها أمس قد شغفت بها حبا واشتغل بها قلبي وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض قال الشبلى فقلت له يا سيدى أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد فى سائر الآفاق وعدد مريديك اثناعشر ألفا فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز فقال يا قوم جرى القلم بما حكم ووقعت فى بحار العدم وقد انحلت عنى عرى الولاية وطويت عنى أعلام الهداية ثم انه بكى بكاء شديدا وقال يا قوم انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر فتعجبنا من أمره وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد فخرج الناس إلى لقائه ومريدوه فى جملة الناس فلم يروه فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنا عليه وأسفا وجعل الناس يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات والزوايا والخوانق ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابى نكشف خبره فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا انه فى البرية يرعى الخنازير فقلنا وما السبب فى ذلك قالوا انه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجها إلا ممن هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله وها هو فى البرية يرعى الخنازير قال الشبلى فانصدعت قلوبنا وانهملت بالبكاء عيوننا وسرنا اليه وإذا به قائم قدام الخنازير فلما رآنا نكس رأسه وإذا عليه قلنسوة النصارى وفى وسطه زنار وهو متوكئ على العصا التى كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا يا شيخ ماذاك وماذا وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم فقال يا اخوانى وأحبابى ليس لى من الأمر شىء سيدى تصرف فى كيف شاء وحيث أراد أبعدنى عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وابعاده والحذر الحذر يا اهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء ثم رفع طرفه إلى السماء وقال يا مولاى ما كان ظنى فيك هذا ثم جعل يستغيث ويبكي ونادي يا شبلى اتعظ بغيرك فنادى الشبلى بأعلى صوته بك المستعان وأنت المستغاث وعليك التكلان اكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك قال فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم

والدهن وقال أريد ان أمير المؤمنين يأمر بعد تعريتها حتى يمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن فشق ذلك على الخليفة وأمره أن يفعل وأضمر فى نفسه قتل الرجل وقال للخادم خذه وأدخله عليها بعد أن تعريها فعريت الجارية وأقيمت فلما دخل عليها وقرب منها وسعى اليها وأومأ بيده إلى فرجها ليمسه غطت الجارية فرجها بيدها التى قد كانت عطلت حركتها ولشدة ما داخلها من الحياء والجزع حمى جسمها بانتشار الحرارة الغريزية فأعانها على ما أرادت من تغطية فرجها واستعمال يدها فى فرجها فلما غطت فرجها قال لها الرجل الحمد لله على العافية فأخذه الخادم وجاء به إلى الرشيد وأعلمه بالحال وما اتفق فقال الرشيد للرجل فكيف تمد فى رجل نظر إلى حرمنا فمد الطبيب يده إلى لحية الرجل فانتزعها فاذا هى ملصقة وإذا الشخص جارية وقال يا أمير المؤمنين ما كنت لأبذل حرمك للرجل ولكن خشية أن أكشف لك الخبر فيتصل بالجارية فتبطل الحيلة ولا يفيد العلاج لأنى أردت أن أدخل على قلبها فزعا شديداً ليحمى طبعها ويقودها الى تحريك يدها وتمشى الحرارة الغريزية فى سائر أعضائها بهذه الواسطة فسرى عن الرشيد ما كان وقر فى صدره من الرجل وأجزل عطيته (ومن المنقول عن أذكياء المتطفلين) قال أبو عمرو الجهضمى كان لى جار طفيلى وكان من أحسن الناس منظراً وأعذبهم منطقاً وأطيبهم رائحة فكان من شأنه اذا دعيت إلى وليمة يتبعنى فيكرمه الناس من أجلى ويظنون

أقبلت اليهم وجعلت تمرغ وجهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال قال الشبلى فظننت أن القيامة قد قامت ثم ان الشيخ بكى بكاء شديداً قال الشبلى فقلنا له هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد فقال كيف لى بذلك وقد استرعيت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب فقلت يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيئا فقال نسيته كله إلا آيتين فقلت وما هما قال قوله تعالى : ومن يهن الله فما له من مكرم ان الله يفعل ما يشاء والثانية قوله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل فقلت يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ فهل تحفظ منها شيئا قال حديثا واحدا وهو قوله ﷺ من بدل دينه فاقتلوه قال الشبلى فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع وهو يشهد شهادة الحق ويجدد اسلامه فلما رأيناه لم تملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر الينا وقال يا قوم أعطونى ثوبا طاهراً فأعطيناه ثوبا فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا له الحمد لله الذى ردك علينا وجمع شملنا بك فصف لنا ما جرى لك وكيف كان أمرك فقال يا قوم لما وليتم من عندى سألته بالوداد القديم وقلت له يا مولاى أنا المذنب الجانى فعفا عنى بجوده وبستره غطانى فقلنا له بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب قال نعم لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت فى نفسى ما قدر هؤلاء عندى وأنا مؤمن موحد فنوديت فى سرى ليس هذا منك ولو شئت عرفناك ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الايمان قال الشبلى ففرحنا به فرحا شديداً وكان يوم دخولنا يوما عظيما مشهوداً وفتحت الزوايا والرباطات والخوانق ونزل الخليفة للقاء الشيخ وأرسل اليه الهدايا وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفا وأقام على ذلك زمانا طويلا ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث وزاده على ذلك فبينما نحن جلوس عنده فى بعض الأيام بعد صلاة الصبح وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فاذا شخص ملتف بكساء أسود فقلت له ما الذى تريد فقال قل لشيخكم ان الجارية الرومية التى تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك قال فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه وارتعد ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً فقال لها الشيخ كيف كان مجيئك ومن أوصلك إلى ههنا قالت يا سيدى لما وليت من قريتنا جاءنى من أخبرنى بك فبت ولم يأخذنى قرار فرأيت فى منامى شخصا وهو يقول ان أحببت أن تكونى من المؤمنات فاتركى ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعى ذلك الشيخ وادخلى فى دينه فقلت وما دينه قال دين الاسلام قلت وما هو قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقلت كيف لى بالوصول اليه قال اغمضى عينيك واعطينى يدك ففعلت فمشى قليلا ثم قال افتحى عينيك ففتحتهما فاذا أنا بشاطىء الدجلة فقال امضى إلى تلك الزاوية واقرئى الشيخ منى السلام وقولى له ان أخاك الخضر يسلم عليك قال فأدخلها الشيخ إلى جواره وقال تعبدى ههنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت قولوا للشيخ يدخل على قبل الموت فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رأته بكت فقال لها لا تبكى فان اجتماعنا غداً فى القيامة فى دار الكرامة ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياما قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه قال الشبلى فرأيته فى المنام وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين

النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الثاني والثلاثون في ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة ﴾

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال قبل قيام الساعة يرسل الله ريحا باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير وعليهم تقوم الساعة وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى كفى بالمرء شرا أن لا يكون صالحا ويقع في الصالحين وقال لقمان لابنه يابني كذب من قال الشر يطفىء الشر فإن كان صادقا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفىء احداهما الأخرى وإنما يطفىء الشر الخير كما يطفىء الماء النار ووصف بعضهم رجلا من أهل الشر فقال فلان عرى من حلة التقوى وعمى عنه طابع الهدى لا تثنيه يد المراقبة ولا تكفه خيفة المحاسبة وهو لدعائم دينه مضيع ولدواعي شيطانه مطيع

كأنه التيس قد أودى به هرم * فلا لحم ولا صوف ولا ثمر

وقيل من فعل ماشاء لقي ما ساء وقيل زنى رجل بجارية فأحبلها فقالوا له ياعدو الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت قال قد بلغني أن العزل مكروه قالوا فما بلغك أن الزنا حرام وقيل لأعرابي كان بدمشق قينة ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها قال فمن لي إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد وقال أبو العيناء رأيت جارية مع النخاس وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها فسألتها عن ذلك فقالت ياسيدي إنه يواقعني من قيام ويصلي من قعود ويشتمني باعرابه ويلحن في القرآن ويصوم الخميس والاثنين ويفطر رمضان ويصلي الضحى ويترك الفرض فقلت لا أكثر الله في المسلمين مثله * وكانت ظلمة القوادة وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم فلما شبت زنت فلما كبرت قادت وقال صاحب المسالك والممالك إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحا خلا ملك قمار قال الزمخشري رحمه الله أقمت بقمار سنين فلم أر ملكا أغير منه وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل وقمار ينسب إليها العود القماري كما ينسب إلى مندل قال مسكين الدارمي

ولا ذنب للعود القماري إنه * يحرق إن نمت عليه روائحه

وقال ابن عباس رضي الله عنهما عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم وقال رسول الله ﷺ حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم

(ماجاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء) قال رسول الله ﷺ إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ماشئت * وفي ذلك قيل

إذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقاً * وتستح مخلوقا فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام العاقل شجاع القلب والأحمق شجاع الوجه وذم رجل قوما فقال وجوههم وأيديهم حديد أي وقاح بخلاء ووصف رجل وقحا فقال لودق الحجارة بوجهه لرضها ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها قال الشاعر

لو أن لي من جلد وجهك رقعة * لجعلت منها حافراً للأشهب

وقال آخر إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً * تقلب في الأمور كما يشاء

صحبني له فاتفق أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن أولاده فقلت في نفسي كأني برسول الأمير قد جاءني وكأني بالطفيلي قد تبعني والله لئن فعل لأفضحنه فأنا على ذلك إذ جاءني رسول الأمير يدعوني فما زدت على أن لبست ثيابي وخرجت فإذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره وقد سبقني بالتأهب فتقدمت وتبعني فلما حضرت الموائد كان معي على المائدة فلما مد يده ليأكل قلت حدثني درسة ابن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار قوم بغير اذنهم فأكل طعامهم دخل سارقا وخرج مغيرا فلما سمع الطفيلي ذلك قال أنفت لك والله ياأباعمرو من هذا الكلام على مائدة سيد من أطعم الطعام فإنه ما من أحد من الجماعة إلا وهو يظن أنك تعرض به دون صاحبه وقد بخلت بطعام غيرك على من سواك ثم ما استحييت حتى حدثت عن درسة ابن زياد وهو ضعيف وعن إبان بن طارق وهو متروك الحديث والمسلمون على خلاف ما ذكرت فإن حكم السارق القطع وحكم المغير أن يعزر على ما يراه الامام وأين أنت من حديث حدثناه أبو عاصم عن ابن جريج عن الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة وطعام الأربعة يكفي الثمانية وهو إسناد صحيح ومتن صحيح متفق عليه قال أبو عمرو والله لقد أفحمني ولم يحضرني جواب فلما خرجنا فارقني من جانب

وقال أنوشروان أربعة قبائح وهى فى أربعة أقبح البخل فى الملوك والكذب فى القضاة والحسد فى العلماء والوقاحة فى النساء ويقال من جسر أيسر ومن هاب خاب قال الشاعر :

لاتكونن فى الأمور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال على رضى الله عنه إذا هبت أمراً فقع فيه فان شرا توقيه أعظم مما تخاف منه وقال رضى الله عنه الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا وإذا افترقوا نفعوا فقيل قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم قال يرجع أهل المهن إلى مهنهم فينتفع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج الى منسجه والخباز الى مخبزه وقال بعض السلف لاتسبوا الغوغاء فانهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق وقال الأحنف ماقل سفهاء قوم الاذلوا . وقال حكيم لايخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ فى حجره قيراطين من جهل فان الجاهل لايدفعه إلا الجهل أراد السفه قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقيل الجاهل من لا جاهل له أى من لا سفيه له يدفع عنه * وقيل بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه جالس إذ جاء أعرابى فلطمه فقام اليه واقد بن عمر وجلد به الأرض فقال عمر ليس بعزيز من ليس فى قومه سفيه وقال الشاعر :

ولا يلبث الجهال أن يتهضموا * أخا الحلم مالم يستعن بجهول

وقال صالح بن جناح إذا كنت بين الجهل والحلم قاعدا * وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل

ولكن اذا أنصفت من ليس منصفا * ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

وقال الأحنف بن قيس وذى ضغن أميت القول عنه * بحلم فاستمر على المقال

ومن يحلم وليس له سفيه * يلاق المعضلات من الرجال

(وقال آخر) فان كنت محتاجا إلى الحلم اننى * الى الجهل فى بعض الأحايين احوج

ولى فرس للخير بالخير ملجم * ولى فرس للشر بالشر مسرج

فمن رام تقويمي فانى مقوم * ومن رام تعويجى فانى معوج

(وقال آخر) فان قيل حلم قلت للحلم موضع * وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

اللهم إنا نعوذ بك أن نجهل أو يجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الثالث والثلاثون فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد﴾

(اعلم) أن الجود بذل المال وأنفعه ماصرف فى وجه استحقاقه وقد ندب الله تعالى اليه فى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قيل ان الجود والسخاء والايثار بمعنى واحد وقيل من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر فهو صاحب جود ومن آثر غيره بالحاضر وبقى هو فى مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار وأصل السخاء هو السماحة وقد يكون المعطى بخيلا إذا صعب عليه البذل والممسك سخيا إذا كان لا يستصعب العطاء (فمن الايثار ماحكى) عن حذيفة العدوى أنه قال انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى فى القتلى ومعى شىء من الماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته فاذا أنا به بين القتلى فقلت له أسقيك فأشار الى أن نعم فاذا برجل يقول آه فأشار الى ابن

الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشى ورائي وسمعته يقول ومن ظن ممن يلاقي الحروب * بأن لا يصاب فقد ظن عجزا (ومن المنقول عن أذكياء المتلصصين) أن بعض التجار قال احتال على رجل بحوالة فكان يأتينى كل يوم ويأخذ قدر نفقته الى أن نفدت وصار بيننا معرفة وألف الجلوس عندى وكان يرانى أخرج من صندوق لى فأعطيه فقال لى يوما ان قفل الرجل صاحبه فى سفره وأمينه فى حضره وخليفته على حفظ ماله وان لم يكن وثيقا تطرقت الحيل اليه وأرى قفلك هذا وثيقا فقل لى ممن ابتعته لابتاع مثله لنفسى فقلت من فلان الاقفالى قال فما شعرت يوما وقد جئت الى دكانى وتقدمت الى الصندوق لأخرج منه شيئا من الدراهم ففتحته فاذا ليس فيه شىء فقلت لغلامى وهو عندى أمين غير متهم هل أنكرت شيئا من أحوال الدكان قال لا قلت ففتش هل ترى نقبا أم فى السقف حيلة قال لا قلت فاعلم أن الذى كان فى الصندوق قد ذهب فقلق الغلام فأمسكته وقمت مفكراً وتأخر الرجل عنى فتيقظت له وذكرت سؤاله عن القفل وقلت للغلام أخبرنى كيف تفتح دكانى وتقفله فقال أحمل الدراريب دفعتين وثلاثة أضعها فى محلها وهكذا أصنع فى غلقها قلت فمن يدع عند الدكان اذا نقلت الدراريب قال أتركه خاليا قلت فمن ههنا نحيت المفتيت الى الصانع الذى ابتعت منه القفل فقلت هل جاءك انسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل قال نعم رجل من

عمي ان انطلق اليه وأسقه فاذاهو هشام بن العاص فقلت أسقيك فأشار الى أن نعم فسمع آخر يقول آه فأشار الى أن انطلق إليه فجئته فاذاهو قدمات فرجعت الى هشام فاذاهو قدمات فرجعت الى ابن عمي فاذاهو قدمات (ومن عجائب ماذكر فى الايثار) ماحكاه أبو محمد الأزدى قال لما احترق المسجد بمرو ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات وكتب رقاعا فيها القطع والجلد والقتل، ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال والله ما كنت أبالى لولا أم لى وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له فى رقعتى الجلد وليس لى أم فخذ أنت رقعتى وأعطنى رقعتك ففعل فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل * وقيل لقيس بن سعد هل رأيت قط أسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له انه نزل بنا ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال شأنكم فقلنا ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا القليل فقال انى لا أطعم ضيفانى البائت فبقينا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته وقلنا للمرأة اعتذرى لنا اليه ومضينا فلما ارتفع النهار اذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونا ثمن قرانا ثم انه لحقنا وقال خذوها وإلا طعنتكم برمحى هذا فأخذناها وانصرفنا * وقال بعض الحكماء أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه وقال رسول الله ﷺ تجاوزوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا وعنه ﷺ أنه قال السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ولجاهل سخى أحب الى الله من عابد بخيل وقال بعض السلف منع الموجود سوء ظن بالمعبود وتلا قوله تعالى وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين وقال الفضيل ما كانوا يعدون القرض معروفا وقال أكثم بن صيفى صاحب المعروف لا يقع وان وقع وجد له متكأ وقيل للحسن بن سهل لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير فقلب اللفظ واستوفى المعنى ووجد مكتوبا على حجر انتهز الفرص عند امكانها ولا تحمل نفسك هم مالم يأتك واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك فكم من جامع لبعل حليلته وقال على رضى الله تعالى عنه ما جمعت من المال فوق قوتك فانما أنت فيه خازن لغيرك وقال النعمان بن المنذر يوما لجلسائه من أفضل الناس عيشا وأنعمهم بالا وأكرمهم طباعا وأجلهم فى النفوس قدرا فسكت القوم فقام فتى فقال أبيت اللعن أفضل الناس من عاش الناس فى فضله فقال صدقت وكان أسماء بن خارجة يقول ما أحب أن أرد أحدا عن حاجة لأنه ان كان كريما أصون عرضه أو لئيما أصون عنه عرضي وكان مورق العجلى يتلطف فى ادخال السرور والرفق على إخوانه فيضع عند أحدهم البدرة ويقول له أمسكها حتى أعود اليك ثم يرسل يقول له أنت منها فى حل وقال الحسن رضى الله عنه باع طلحة بن عثمان رضى الله تعالى عنه أرضا بسبعمائة ألف درهم فلما جاءه المال قال ان رجلا يبيت هذا عنده لا يدرى ما يطرقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه فى المسلمين * وقال دخل ابن المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها يا أم المؤمنين أصابتنى فاقة فقالت ما عندى شيء فلو كان عندى عشرة آلاف درهم لبعثت بها اليك فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد

صفته كذا وكذا وأعطانى صفة صاحبي فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء ودخل الدكان واختبأ فيها ومعه مفتاح القفل وأخذ المال ومكث طول الليل إلى الصباح فلما فتح الغلام وحمل الدراريب ليضعها فى محلها خرج وانه ما فعل ذلك إلا وقد خرج من المدينة فخرجت من البصرة ومعي قفلي ومفتاحي * فقلت أبتدىء بواسط فلما صعدت طلبت خانا أنزله فلما دخلت الخان وجدت قفلا مثل قفلى على باب بيت فقلت لقيم الخان هذا البيت من ينزله قال رجل قدم أمس من البصرة فقلت ما صفته فوصف لى صاحبي فما شككت أنه هو وان الدراهم فى بيته فاكتريت بيتا إلى جانبه ورصدته حتى انصرف قيم الخان ففتحت القفل ودخلت البيت فوجدت كيسى بعينه فأخذته وخرجت ووضعت قفله على بابه ونزلت على الفور فى السفينة وانحدرت إلى البصرة ولم أقم بواسط غير ساعة من نهار فرجعت إلى منزلى بمالى كله (ومن المنقول عن أذكياء الصبيان) أنه وقف إياس بن معاوية وهو صبي على قاضي دمشق ومعه شيخ فقال أصلح الله القاضي هذا الشيخ ظلمني وأكل مالى فقال القاضي ارفق بالشيخ ولا تستقبله بمثل هذا الكلام فقال اياس إن الحق أكبر مني ومنه ومنك قال اسكت قال وان سكت فمن يقوم بحجتي قال فتكلم فوالله لا تتكلم بخير فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له فبلغ ذلك الخليفة فعزل القاضي وولى إياسا مكانه (ومن المنقول عن أذكياء النساء)

فأرسلت بها إليه في أثره فأخذها ودخل بها السوق فاشترى جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد فكانوا عباد المدينة وهم محمد وأبو بكر وعمر بنو المنكدر وأكرم العرب في الاسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه فقال هذا حائطي بمكان كذا وكذا وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح إلي بالمال العشية فان شئت فالمال وإن شئت فالحائط وقال زياد بن جرير رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وانه ليخيط ازاره بيده (وذكر) الامام أبو علي القالي في كتاب الأمالي أن رجلا جاء إلى معاوية رضي الله تعالى عنه فقال له سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي فقال له معاوية أمن قريش أنت قال لا قال فأي رحم بيني وبينك قال رحم آدم عليه السلام قال رحم مجفوة والله لأكونن أول من وصلها ثم قضى حاجته (وروى) أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدورا كانت لأبيه حاتم فملأها مالا وبعث بها إليه وقال إنا لا نعيرها فارغة وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الاجواد ولم يناول أحدا شيئا وإنما كان يطرحه في الارض فيتناوله الاخذ من الارض وكان يقول الدنيا أقل خطرا من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى وقد قال النبي ﷺ اليد العليا خير من اليد السفلى وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما عن الكرم فقال هو التبرع بالمعروف قبل السؤال والرأفة بالسائل مع البذل وقدم رجل من قريش من سفر فمر على رجل من الاعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض فقال له يا هذا أعنا على الدهر فقال لغلامه ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهم ليقوم فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك فقال لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الارض من كرمك فأبكاني * وقال بعضهم قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب فخرج إليه وسأله عن حاجته فقال علي دين كذا وكذا فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه ثم دخل الدار باكيا فقالت له زوجته هلا تعللت حيث شقت عليك الاجابة فقال إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى أحتاج إلى أن سألني * ويروى أن عبد الله بن أبي بكر وكان من أجود الأجواد عطش يوما في طريقه فاستسقى من منزل امرأة فأخرجت له كوزا وقامت خلف الباب وقالت تنحوا عن الباب وليأخذه بعض غلمانكم فاني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام فشرب عبد الله الماء وقال يا غلام احمل اليها عشرة آلاف درهم فقالت سبحان الله أتسخر بي فقال يا غلام احمل إليها عشرين ألفا فقالت أسأل الله العافية فقال يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفا فما أمست حتى كثر خطابها وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين دارا من جيرانه عن يمينه وأربعين عن يساره وأربعين أمامه وأربعين خلفه ويبعث إليهم بالاضاحي والكسوة في الاعياد ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله تعالى عنه * ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ اخوانه في العيادة فسأل عنهم فقيل له إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع عني الاخوان من الزيارة ثم أمر مناديا ينادي من كان لقيس عنده مال فهو منه في حل فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد * وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة فيفرقها في الناس ولا يرى إلا وعليه دين * وسمن رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها فمر بعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال يا صاحب البهيمة أتبيعها قال لا ولكنها هي لك هبة ثم تركها له وانصرف إلى بيته فلم يلبث إلا يسيرا وإذا بالحمالين على بابه عشرين

حكي المدائني قال خرج ابن زياد في فوارس فلقوا رجلا ومعه جارية لم ير مثلها في الحسن فصاحوا به خل عنها وكان معه قوس فرمى أحدهم فهابوا الاقدام عليه فعاد ليرمي فانقطع الوتر فهجموا عليه وأخذوا الجارية فهرب واشتغلوا عنه بالجارية مد بعضهم يده الى أذنها وفيها قرط وفي القرط درة يتيمة لها قيمة عظيمة فقالت وما قدر هذه الدرة انكم لو رأيتم ما في قلنسوته من الدر لاستحقرتم هذه فتركوها واتبعوه وقالوا الق ما في قلنسوتك وكان فيها وتر قد أعده فنسيه من الدهش فلما ذكره ركبه في القوس ورجع الى القوم فولى القوم هاربين وخلوا الجارية (وحكى ابن الجوزي في كتاب الاذكياء) نبذة عن الحيوان الذي كان بذكائه يشبه ذكاء الآدميين * فمن ذلك أن بعض الكتاب مر بمقبرة فاذا قبر عليه قبة مكتوب عليها هذا قبر الكلب فمن أحب أن يعلم خبره فليمض الى قرية كذا وكذا فان فيها من يخبره فسأل الرجل عن القرية فدلوه عليها فقصدها فقيل له ما يعلم ذلك الا شيخ هنا قد جاوز المائة فسأله فقال كان هنا ملك عظيم الشأن وكان يحب التنزه والصيد وكان له كلب قد رباه لا يفارقه فخرج يوما الى بعض متنزهاته وقال لبعض غلمانه قل للطباخ يصلح لنا ثريدة بلبن فجاؤا باللبن الى الطباخ ونسي أن يغطيه بشيء * قرا واشتغل بالطبخ فخرجت من بعض الشقوق أفعى فكرعت في ذلك اللبن ومجته في الثريدة والكلب رابض يرى ذلك ولم يجد له حيلة يصل بها

الى الأفعي وكان هناك جارية زمنة خرساء قد رأت ماصنعت الافعي ووافى الملك من الصيد فى آخر النهار فقال ياغلمان أدركوني بالزبدة فلما وضعت بين يديه أومأت الخرساء فلم يفهم ماتقول ونبح الكلب وصاح فلم يلتفت اليه ولج فى الصياح فلم يعلم مراده فقال للغلمان نحوه عني ومد يده الى اللبن بعد ما رمي إلى الكلب ما كان يرمي اليه فلم يلتفت الكلب الى شيء من ذلك ولم يلتفت الى غير الملك فلما رآه يريد أن يضع اللقمة من اللبن في فيه وثب الى وسط المائدة وأدخل فمه وكرع في اللبن فسقط ميتا وتناثر لحمه وبقي الملك متعجبا من الكلب وفعله فأومأت الخرساء اليهم فعرفوا مرادها وما صنع الكلب فقال الملك لحاشيته هذا الكلب فداني بنفسه وقد وجب أن أكافئه وما يحمله ويدفنه غيري فدفنه وبنى عليه القبة التي رأيتها (قلت) قد أوردنا نبذة لطيفة من كتاب الاذكياء لابن الجوزي مختلفة الانواع وقد تعين أن نورد له هنا نبذة لطيفة من كتاب الحمق والمغفلين لأنه قال في كتاب الحمقي ماوضعت ذلك إلا لان النفس قد تمل من ملازمة الجد وترتاح الى بعض المباح من اللهو كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لحنظلة ساعة وساعة * وعن علي رضي الله عنه أنه قال روحوا القلوب بطرائف الحكم فانها تمل الابدان (وكان) رجل يجالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثهم فاذا أكثروا وثقل عليه الحديث قال ان الاذن مجاجة وان القلوب حمضة هاتوا من أشعاركم

نفرا عشرة منهم يحملون حنطة وخمسة لحما وكسوة وأربعة يحملون فاكهة ونقلا وواحد يحمل مالا فأعطاه جميع ذلك واعتذر اليه رضي الله تعالى عنه * ولما مات معاوية رضي الله تعالى عنه وفد عبدالله ابن جعفر على يزيد ابنه فقال كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك فقال كان رحمه الله يعطيني ألف ألف فقال يزيد قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف فقال بأبي وأمي أنت فقال ولهذه ألف ألف فقال أما اني لا أقولها لاحد بعدك فقيل ليزيد أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد فقال والله ما أعطيته الا لجميع أهل المدينة ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر مايفعل فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر الى الدين * وخرج رضي الله تعالى عنه هو والحسنان وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم من مكة الى المدينة فأصابتهم السماء بمطر فلجؤا إلى خباء أعرابي فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء فذبح لهم الاعرابي شاة فلما ارتحلوا قال عبدالله للاعرابي ان قدمت المدينة فسل عنا فاحتاج الإعرابي بعد سنين فقالت له امرأته لوأتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان فقال قد نسيت أسماءهم فقالت سل عن ابن الطيار فأتى المدينة فلقي سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها ثم أتى الحسين رضي الله تعالى عنه فقال كفانا أبو محمد مؤونة الابل فأمر له بألف شاة ثم أتى عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال كفاني اخواني الابل والشياه فأمر له بمائة ألف درهم ثم أتى أبادحية رضي الله تعالى عنه فقال والله ماعندي مثل ماأعطوك ولكن ائتني بابلك فأوقرها لك تمرا فلم يزل اليسار في عقب الاعرابي من ذلك اليوم * وقال الحسن والحسين يوما لعبدالله بن جعفر رضي الله عنهم إنك قد أسرفت في بذل المال فقال بأبي أنتما ان الله عز وجل عودني أن يتفضل علي وعودته أن أتفضل على عباده فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني المادة وامتدحه نصيب فأمر له بخيل وأثاث ودنانير ودراهم فقال له رجل مثل هذا الاسود تعطي له هذا المال فقال ان كان أسود فان ثناءه أبيض ولقد استحق بما قال أكثر مما نال وهل أعطيناه الا ثيابا تبلى ومالا يفنى وأعطانا مدحا يروى وثناء يبقى وخرج عبد الله رضى الله تعالى عنه يوما الى ضيعة له فنزل على حائط به نخيل لقوم وفيه غلام أسود يقوم عليه فأتى بقوته ثلاثة أقراص فدخل كلب فدنا من الغلام فرمى اليه بقرص فأكله ثم رمى اليه بالثاني والثالث فأكلهما وعبدالله ينظر اليه فقال ياغلام كم قوتك كل يوم قال مارأيت قال فلم آثرت هذا الكلب قال ان أرضنا ماهي بأرض كلاب وانه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أرده قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى يومي هذا فقال عبدالله بن جعفر ألام على السخاء وان هذا لأسخى مني فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام ثم أعتقه ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات فقال الغلام ان كان ذلك لي فهو في سبيل الله تعالى فاستعظم عبدالله ذلك منه فقال يجود هذا وأبخل أنا لا كان ذلك أبدا وكان عبيدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما من الأجواد أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال يا ابن عباس ان لي عندك يدا وقد احتجت اليها فصعد فيه بصره فلم يعرفه فقال مايدك قال رأيتك واقفا بفناء زمزم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بفضل كسائي حتى شربت فقال أجل اني لاذكر ذلك ثم قال لغلامه ماعندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم فقال ادفعها اليه وما أراها تفي بحق يده * وقدم عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما على معاوية مرة فاهدى اليه من هدايا النوروز حللا كثيرة

وحديثكم (وقال) أبو الدرداء رضي الله عنه انى لاستجم نفسي بشيء من الباطل كراهة أن أحملها من الحق ما يملها (وعن) ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحدث أصحابه ساعة ثم يقول حمضونا فيأخذ في أحاديث العرب وأشعارهم

ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها اليه مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر الى الحاجب وهو ينظر اليها فقال له هل في نفسك منها شيء قال نعم والله ان في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب بن يوسف عليهما الصلاة والسلام فضحك عبد الله وقال خذها فهي لك قال جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد علي قال فاختمها بخاتمك وسلمها الى الخازن فاذا كان وقت خروجنا حملناها اليك ليلا فقال الحاجب والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم * وحبس معاوية عن الحسين ابن علي رضي الله تعالى عنهما صلاته فقيل له لو وجهت الى ابن عمك عبد الله بن عباس فانه قدم بنحو ألف ألف فقال الحسين وأنى تقع ألف ألف من عبد الله فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت وأسخى من البحر إذا زخر ثم وجه اليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه وضيق حاله وأنه يحتاج الى مائة ألف درهم فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه وقال ويلك يامعاوية أصبحت لين المهاد رفيع العماد والحسين يشكو ضيق الحال وكثرة العيال ثم قال لوكيله احمل الى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب وأخبره أني شاطرته فان كفاه والا احمل اليه النصف الثاني فلما أتاه الرسول قال إنا لله وإنا اليه راجعون ثقلت والله على ابن عمي وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله رضوان الله عليهم أجمعين وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال له يا ابن عم محمد ﷺ إنه ولد لي في هذه الليلة مولود واني سميته باسمك تبركا بك وان أمه ماتت فقال له بارك الله لك في الهبة وآجرك على المصيبة ثم دعا بوكيله وقال له انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته ثم قال للأنصاري عد إلينا بعد أيام فانك جئتنا وفي العيش يبس وفي المال قلة فقال الانصاري جعلت فداءك لو سبقت حاتما بيوم ما ذكرته العرب وقال أبو جهم بن حذيفة يوما لمعاوية أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال

يقينا ما نخاف وان ظننا * به خيرا أراناه يقينا * نميل على جوانبه كأنا
اذا ملنا نميل على أبينا * نقلبه لنخبر حالتيه * فنخبر منهما كرما ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما

بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم أر غير ختال وقال * ولم أر في الخطوب أشد وقعا
وأمضى من معادات الرجال * وذقت مرارة الاشياء طرا * فما شيء أمر من السؤال

فأعطاه مائة ألف درهم ودخل عليه الحسن يوما وهو مضطجع على سريره فسلم عليه وأقعده عند رجليه وقال ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تزعم أني لست للخلافة أهلا ولا لها موضعا فقال الحسن أو عجبا مما قالت قال كل العجب قال الحسن وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجليك فاستحيا معاوية واستوى جالسا ثم قال أقسمت عليك يا أبا محمد الا ما أخبرتني كم عليك دينا قال مائة ألف درهم فقال يا غلام أعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم مائة ألف يقضي بها دينه ومائة ألف يفرقها على مواليه ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوغها اليه الساعة وكان معن بن زائدة من الاجواد وكان عاملا على العراق بالبصرة قيل انه أتى اليه بعض الشعراء فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه فلم يتهيأ له ذلك فقال يوما لبعض الخدم اذا دخل الامير البستان فعرفني فلما دخل أعلمه بذلك فكتب الشاعر بيتا ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان وكان معن

ومثله عن الزهري ومالك ابن دينار (وكان) شعبة يحدث فاذا رأى أبا زيد قال له ايه أبا زيد

استعجمت دار نعم ما تكلمنا
والدار لو كلمتنا ذات أخبار

(ووصف) رجل عند ابن عائشة فقيل هو جد كله فقال ابن عائشة لقد أعان على نفسه وقصر لها طول المدى ولو فكهها بالانتقال من حال الى حال نفس عنها ضيق العقد ورجع الى الجد بنشاط (وقال) الرشيد النوادر تشحذ الاذهان وتفتق الآذان (وقال آخر) لايحب الملح إلا ذكران الرجال ولا يكرهها الامؤنثوهم وقال الشاعر

أروح القلب ببعض الهزل
تجاهلا مني بغير جهل
أمزح فيه مزح أهل الفضل
والمزح أحيانا جلاء العقل

(قال ابن الجوزي في كتاب الحمق) ان الأحنف ابن قيس قال اذا رأيتم الرجل طويل القامة عظيم اللحية فاحكموا عليه بالحمق * وقال معاوية لرجل كفى أن تشهد عليك بالحمق ما نراه من طول لحيتك * وقال آخر وتلطف ماشاء من طالت لحيته تكوسج عقله * وقال أصحاب الفراسة من طالت قامته وطالت لحيته وجبت تعزيته في عقله * وقالوا إذا كان الرجل طويلا طويل

جالسا على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فاذا فيها بيت مفرد :

أياجود معن ناج معنا بحاجتى * فليس إلى معن سواك شفيع

فقال من الرجل صاحب هذه فأتى به اليه فقال كيف قلت فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان فى اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ونظر فيها وقال على بالرجل صاحب هذه فأتى به فقال له كيف قلت فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان فى اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال على بالرجل صاحب هذه فأتى به اليه فقال له كيف قلت فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها وتفكر فى نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما معه فلما كان فى اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده فقال معن لقد ساء والله ظنه ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار وفيه يقول القائل :

يقولون معن لازكاة لماله * وكيف يزكي المال من هو باذله
إذا حال حول لم تجب فى دياره * من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ماجئته متهللا * كأنك تعطيه الذى أنت نائله
تعود بسط الكف حتى لوانه * أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن فى كفه غير نفسه * لجاد بها فليتق الله سائله

(ومن قول معن)

دعينى أنهب الأموال حتى * أعف الأكرمين عن اللئام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء وله أخبار فى الجود عجيبة * من ذلك ماحكاه عقيل ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته فقلت أيها الأمير ان رأيت أن تأذن لى فأصحبك قال إذا قدمت واسط فائتنا إن شاء الله تعالى فسافر وأقمت فقال لى بعض اخوانى اذهب اليه فقلت كان جوابه فيه ضعف قالوا أتريد من يزيد جوابا أكثر مما قال قال فسرت حتى قدمت عليه فلما كان فى الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى فالتفت إلى يزيد وقال ايه ياعقيل فقلت :

أفاض القوم فى ذكر الجوارى * فأما الأعزبون فلم يقولوا

قال انك لم تبق عزبا فلما رجعت إلى منزلى إذا أنا بخادم قد أتانى ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم وفى الليلة الثانية كذلك فمكثت عشر ليال وأنا على هذه الحالة فلما رأيت ذلك دخلت عليه فى اليوم العاشر فقلت أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت فان رأيت أن تأذن لى فى الرجوع فأكبت عدوى وأسر صديقى فقال انما أخيرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك أو ترحل فنغنيك فقلت أوما أيها الأمير قال انما هذا تغنى أثاث المنزل ومصلحة القدوم فنالنى من فضله مالا أقدر على وصفه (وحدث) أبو اليقظان عن ابيه قال حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقا يحلق رأسه فجاؤه بحلاق فحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم فتحير الحلاق ودهش وقال آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضى إلى أم فلان وأخبرها انى قد استغنيت فقال اعطوه خمسة آلاف أخرى فقال امرأته طالق إن حلقت رأس أحد بعدك وقيل ان الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقدار مائة ألف درهم فجمعت له وهو فى السجن فجاء الفرزدق يزوره فقال للحاجب استأذن لى عليه فقال انه فى مكان لايمكن

اللحية وأضيف إلى ذلك أن يكون صغير الرأس فاحكم عليه بالحق (وقال زياد) مازادت لحية الرجل على قبضة إلا كان ذلك نقصانا من عقله وقال الشاعر :

إذا عرضت للفتى لحية * وطالت وصارت إلى سرته
فقد ضاق عقل الفتى عندنا * بمقدار مازاد من لحيته

﴿ وقال ابن الرومى ﴾

ان تطل لحية عليك وتعرض * فالمخالى مخلوقة للحمير
علق الله فى عذارك مخلا * ة ولكنها بغير شعير

(وقال بعضهم) صارم الأحمق فليس له خير من الهجران * وقيل مكتوب فى التوراة من اصطنع إلى أحمق معروفا فهى كخطيئة مكتوبة عليه * وقال سفيان الثورى هجران الأحمق قربة إلى الله تعالى (فمن ضرب المثل بحمقه وتغفله) هبنقة واسمه يزيد وكان قد جعل فى عنقه قلادة من عظام وودع وقال أخشى أن أضيع من نفسي ففعلت ذلك لأعرفها فحولت أمه القلادة إلى عنق أخيه فلما أصبح ورآها قال يا أخى أنا أنت وأنت أنا وضل له بعير فجعل يقول من وجده فهوله فقيل له فلم تنشده قال لحلاوة الظفر (واختصمت) بنو طفاوة وبنو راسب فى رجل ادعى من الفريقين انه منهم فقال هبنقة حكمه أن يلقى فى الماء فان طفا فهو من طفاوة وان رسب فهو من راسب فقال الرجل ان كان الحكم هكذا فقد زهدت فى الطائفتين (ومنهم أبو غبشان) رجل

الدخول عليه فيه فقال الفرزدق إنما أتيت متوجعا لما هو فيه ولم آت ممتدحا فأذن له فلما أبصره قال

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم • وقال ذوو الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة • ولا اخضر بالمروين بعدك عود
وما السرور بعد عزك بهجة • وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب ادفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء فقال الحاجب للفرزدق هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه ثم دفعها إليه فأخذها وانصرف ومر يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عنزا فقال لابنه ما معك من النفقة قال مائة دينار قال ادفعها إليها فقال هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك قال ان كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير وان كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي وقال مروان بن أبي الجنوب الشاعر أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفا وخمسين ثوبا ورواحل كثيرة فقلت أبياتا في شكره فلما بلغت قولي :

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزد • فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

قال والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي وأمر له بضياع تقوم بألف ألف وقال أبو العيناء تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية وعلى البرامكة في الدولة العباسية ثم اتفقوا على أن أحمد ابن أبي داود أسخى منهم جميعا وأفضل وسئل إسحق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال أما الفضل فيرضيك فعله وأما جعفر فيرضيك قوله وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد وفي يحيى يقول القائل

سألت الندى هل أنت حر فقال لا • ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة • توارثني من والد بعد والد

﴿ وفي الفضل يقول القائل ﴾

إذا نزل الفضل بن يحيي ببلدة • رأيت بها غيث السماحة ينبت
فليس بسعال إذا سيل حاجة • ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت

وفي محمد يقول القائل سألت الندى والجود مالي أراكما • تبدلتما عزا بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما • فقالا أصبنا بابن يحيى محمد • فقلت فهلا متما بعد موته
وقد كنتما عبديه في كل مشهد • فقالا أقمنا كي نعزى بفقده • مسافة يوم ثم نتلوه في غد

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه من كانت له إلى حاجة فليرفعها إلي في كتاب لأصون وجهه عن المسألة وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي فقال يا أمير المؤمنين ان لي إليك حاجة الحياء يمنعني أن أذكرها فقال خطها في الارض فكتب اني فقير فقال يا قنبر اكسه حلتي فقال الأعرابي

كسوتني حلة تبلى محاسنها • فسوف اكسوك من حسن الثنا حللا • ان نلت حسن الثنا قد نلت مكرمة
وليس تبغي بما قدمته بدلا • ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه • كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به • كل امرىء سوف يجزى بالذي عملا

فقال يا قنبر زده مائة دينار فقال يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لاصلحت بها من شأنهم فقال رضي الله تعالى عنه صه يا قنبر فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ولعبد الله بن جدعان :

اني وإن لم ينل مالي مداخلتي • وهاب ما ملكت كفي من المال

من خزاعة كان يلي سدانة البيت فاجتمع مع قصي بن كلاب بالطائف على الشراب فلما سكر اشترى منه قصي ولاية سدانة البيت بزق من خمر وأخذ منه مفاتيحه وسار بها إلى مكة وقال يا قريش هذه مفاتيح أبيكم ابراهيم ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم وأفاق أبو غبشان فندم غاية الندم فقيل أحمق من أبي غبشان وقال شاعرهم :

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت • بزق خمر فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت • عن المقام وظل البيت والنادي

(ومنهم ربيعة البكاء) سمي البكاء لأنه دخل على أمه وهي تحت زوجها فبكى وصاح أتقتل أمي فقالوا أهون مقتول أم تحت زوج فذهبت مثلا (ومنهم حمزة بن بيض) قال يوما لغلامه أي يوم صلينا الجمعة بالرصافة فافتكر الغلام ساعة ثم قال يوم الثلاثاء (ومنهم جحى) قال بعضهم كان من أذكياء الناس وإنما كان بينه وبين قوم عداوة فوضعوا عليه حكايات سارت بها الركبان وقيل كان من كبار الحمقى والمغفلين (قيل) انه دخل الحمام وخرج منه فضربه ريح باردة فمس خصيته فاذا احداهما قد تقلصت فرجع إلى الحمام وجعل يفتش الناس فقالوا له مالك فقال سرقت احدى بيضتي ثم إنه دخل الحمام وحمي فرجعت البيضة فلما وجدها سجد شكراً لله وقال كل شيء لا تسرقه اليد لا يفقد (واشترى) يوما دقيقا وحمله على حمال فلما دخل الحمال في الزحام هرب فرآه جحى بعد أيام فاستتر منه لئلا

لا أحبس المال الا حيث أنفقه * ولا يغيرني حال الى حال

وقال بعض العرب لولده يا بني لا تزهدن في معروف فان الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوبا اليه وطالب كان مطلوبا ماالديه وكن كما قال القائل :

وعد من الرحمن فضلا ونعمة * عليك اذا ماجاء للخير طالب
ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغبا * فانك لاتدرى متى أنت راغب

(وقال بعضهم) أبيت خميص البطن عريان طاويا * وأوثر بالزاد الرفيق على نفسي
وأمنحه فرشي وأفترش الثرى * وأجعل ستر الليل من دونه لبسي
حذار أحاديث المحافل في غد * اذا ضمني يوما الى صدره رمسي

وقال يحيي البرمكي أعط من الدنيا وهي مقبلة فان ذلك لا ينقصك منها شيئا وأعط منها وهي مدبرة فان منعك لا يبقي عليك منها شيئا فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول لله دره ماأطبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا وقد أمر يحيي من نظمه فقال :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
فان تولت فاحرى أن تجود بها * فليس تبقي ولكن شكرها خلف

وقال يحيي لولده جعفر يا بني مادام قلمك يرعد فأمطره معروفا وقال بعضهم :

لاتكثري في الجود لائمتي * واذا بخلت فاكثري لومي
كفي فلست بحامل أبداً * ماعشت هم غد الى يومي

وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه لا تستح من عطاء القليل فالحرمان أقل منه * وسئل اسحق الموصلي عن المخلوع فقال كان أمره كله عجبا كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوما فأراد الرجوع الى أهله فقال له سفر البر أحب اليك أم سفر البحر قال البحر ألين علي فقال أوقروا له زورقه ذهبا وأمر له بألف ألف درهم * وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان موسى شهوات الى سليمان بن عبد الملك وقال قد هجاني ياأمير المؤمنين فاستحضره سليمان وقال لا أم لك أتهجو سعيداً قال يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر عشقت جارية مدنية وأتيت سعيداً فقلت انى أحب هذه الجارية وان مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك فقال لي بورك فيك فقال سليمان ليس هذا موضع بورك فيك قال فأتيت ياأمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالي فقال ياجارية هاتي مطرفا فأتته بمطرف خز فصر لي في كل زاوية مائتي دينار فخرجت وأنا أقول :

أباخالد أعني سعيد بن خالد * أخا العرف لاأعني ابن بنت سعيد * ولكنني أعني ابن عائشة الذي
أبو أبويه خالد بن أسيد * عقيد الندى ماعاش يرضي به الندى * فان مات لم يرض الندى بعقيد
ذروه ذروه انكم قد رقدتم * وما هو عن احسانكم برقود

فقال سليمان قل ماشئت * وكتب كلثوم بن عمر الى بعض الكرماء رقعة فيها :

اذا تكرهت أن تعطي القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلته * فكل ماسد فقراً فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث اليه بنصف خاتمه وفردة نعله وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضا بثمانين

يطالبه بالأجرة (وكان) لهم جارية تسمى عميرة فضربتها ذات يوم أمه فصاحت الجارية فاجتمع الناس على الباب فخرج اليهم فقال مالكم عافاكم الله انما هي أمي تجلد عميرة (ومنهم ابن الجصاص) قيل انه كان يقصد (١٦٣) النبالة خيفة من الوزير ابن الفرات (فمن المنقول من حمقه) انه كان يوما مع الوزير في مركب ومعه بطيخة فأراد أن يعطيها للوزير ويبصق في البحر فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في البحر هذا من المنقول عما ظهر عنه من النبالة والا فقد روى عنه أنه قال لما ولي ابن الفرات الوزارة قصدني قصداً قبيحا وأنفذ العمال الى ضياعي وبسط لساني بثلبي وتقصني في مجلسه فدخلت يوما داره فسمعت حاجبه وقد ولى يقول هذا بيت مال يمشي على وجه الارض ليس له من يأخذه فقلت هذا من كلام صاحبه وقد كان عندي في ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار عينا سوى الجواهر والذخائر وغير ذلك فسهرت في ليلتي أفكر في أمري معه فوقع في نفسي في الثلث الاخير من الليل ان ركبت الى داره على الفور فوجدت الابواب مغلقة فطرقتها فقال البواب من هذا قلت ابن الجصاص فقال ليس هذا وقت وصول الوزير نائم فقلت عرف الحجاب أني حضرت في مهم فعرفهم فخرج الى أحدهم وقال انه في هذا الوقت لا ينتبه فقلت الأمر أهم من ذلك فأيقظه وعرفه عني ما قلت لك فدخل وأبطأ ساعة ثم خرج وأدخلني فارتاع لدخولي وظن أني جئته برسالة من الخليفة أو حدث حادثة وهو متوقع لما أورده عليه فنظر إلى

وقال ما الذي جاء بك فى هذا الوقت قلت خير ما حدثت حادثة ولا معي رسالة ولا جئته إلا فى أمر يخصنى ويخص الوزير ولم تصلح مفاوضته إلا على خلوة فسكن روعه وقال لمن حوله انصرفوا فمضوا فقال هات فقلت أيها الوزير انك قصدتنى بأقبح قصد وشرعت فى هلاكي وازالة نعمتى وفى إزالتها خروج نفسى وليس عن النفس عوض وقد جعلت هذا الكلام عذراً بينى وبينك فان نزلت تحت حكمى فى الصلح وإلا قصدت الخليفة فى هذه الساعة وحولت إليه ألف ألف دينار وأنت تعلم قدرتى عليها وأقول له خذ هذا المال وسلم إلى ابن الفرات وأسلمك لمن أختاره للوزارة ويقع فى نفسى أنه يجيب إلى تقليده ممن له وجه مقبول ولسان عذب وخط حسن ولا أعتمد إلا على بعض كتابك فانه لا يفرق بينك وبينه إذا رأى المال حاضراً فيسلمك فى الحال اليه ويفرغ عليك العذاب بحضورى ويأخذ منك المال المعين وأنت تعلم أن حالك تفي بها ولكنك تفتقر بعدها ويرجع المال إلى وأكون أهلكت عدوى وشفيت غيظى وزاد محلى بتقليدى وزيرا فلما سمع هذا الكلام سقط فى يده وقال يا عدو الله أو تستحل ذلك فقلت بل عدو الله من استحل منى هذا فقال وما تريد فقلت تحلف الساعة بما استحلفك من الايمان المغلظة أن تكون معى لا على فى صغير أمرى وكبيره ولا تنقص لي رسما ولا تضع مني بل تبالغ فى رفعتى ولا تبطن على قالا وتحلف أنت أيضا لى مثل هذا اليمين على جميل النية وحسن الطاعة وقدم

أنها فقيل له لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً فقال بل أجعله ذخراً لى وأجعل الله ذخراً لولدى وقسمه بين ذوى الحاجات وكان ابن مالك القشيرى من الأجواد قيل إنه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات فعاتبه خاله فقال :

يا خال ذرنى ومالى مافعلت به * وخذ نصيبك منه انني مودى * فلن أطيعك الا أن تخلدنى فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدى * الحمد لايشترى إلا بمكرمة * ولن أعيش بمال غير محمود

وقال المهلب عجبت لمن يشترى المماليك بماله كيف لا يشترى الأحرار بفعاله * ونزل بأبي البحتري وهب بن وهب القرشي ضيفا فسارع عبيده الى إنزاله وخدموه أحسن خدمة وفعلوا به كل جميل فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه فأنكر ذلك عليهم فقالوا نحن إنما نعين النازل على الاقامة ولا نعينه على الرحيل * ووفدت ليلى الأخيلية على الحجاج فقالت فيه

اذا ورد الحجاج أرضا مريضة * تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها * غلام اذا هز القناة سقاها

فقال لا تقولى غلام ولكن قولى همام يا غلام أعطها خمسمائة فقال أيها الأمير اجعلها نعما فجعلها ابلا أناثا وقال أبو الفياض الطبرى :

والعز ضيف لا يراه بربعه * من لا يرى بذل التلاد تلادا
والجود أعلى كعب قبلنا * فمضي جوادا يوم مات جوادا

(وقال آخر) أيقنت أن من السماح شجاعة * وعلمت أن من السماحة جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم عملت أم المستعين بساطا على صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينهم يواقيت وجواهر انفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار وسألته أن يقف عليه وينظر اليه فكسل ذلك اليوم عن رؤيته قال أحمد بن حمدون فقال لى ولأترجة الهاشمي اذهبا فانظرا اليه وكان معنا الحاجب فمضينا ورأيناه فوالله ما رأينا فى الدنيا شيئاً أحسن منه ولا شيئاً حسناً الا وقد عمل فيه فمددت أنا يدى الى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعته فى كمي ثم جئناه فوصفنا له حسن ما رأيناه فقال أترجة يا أمير المؤمنين انه قد سرق منه شيئاً وغمزه على كمى فأريته الغزال فقال بحياتى عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما فمضينا فملأنا أكمامنا وأقبيتنا وأقبلنا نمشي كالحبالى فلما رآنا ضحك فقال بقية الجلساء ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين فقال قوموا فخذوا ما شئتم ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك ونظر يزيد المهلبي سطلا من ذهب مملوءا مسكا فأخذ بيده وخرج فقال له المستعين الى أين فقال الى الحمام يا أمير المؤمنين فضحك من قوله وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقى فانتهبوه فوجهت اليه أمة تقول سر الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه فانى أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار فقال يحمل اليها مثل ذلك حتي تعيد مثله ففعلت ومضى حتى رآه وفعل به كفعله الأول ودخل طلحة بن عبدالله بن عوف السوق يوما فوافق فيه الفرزدق فقال يا أبا فراس اختر عشراً من الابل ففعل فقال ضم اليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتي بلغت مائة فقال هى لك فقال

يا طلح أنت أخو الندى وعقيده * ان الندى ما مات طلحة ماتا
ان الندى ألقى اليك رحاله * فبحيث بت من المنازل باتا

وقدم زياد الأعجم على عبدالله بن الحشرج بنيسابور فأكرمه وأنعم عليه وبعث إليه بألف دينار فقال

ان السماحة والمروءة والندى ۞ فى قبة ضربت على ابن الحشرج

فقال زدني فقال كل شيء مؤنه ۞ ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله وأحسن اليه وقال ماعندك ياأباعطاء فقال وماعسي أن أقول وأنت أشعر العرب غير أنى قلت بيتين قال هات ما قلت فقال :

ياطالب الجود أما كنت تطلبه ۞ فاطلب على بابه نصر بن سيار
الواهب الخيل تغدو فى أعنتها ۞ مع القيان وفيها ألف دينار

فأعطاه ألف دينار ووصائف وكساه كسوة جميلة فقسم ذلك بين رفيقيه ولم يأخذ منه شيئا فبلغ ذلك نصرا فقال ماله قاتله الله من سيد ما أضخم قدره ثم أمر له بمثله ۞ وقال العتبي أشرف عمرو بن هبيرة يوما من قصره فإذا هو باعرابى يرقل قلوصه فقال عمرو لحاجبه ان أرادنى هذا الاعرابى فأوصله الى فلما وصل الاعرابى سأله الحاجب فقال أردت الأمير فدخل به اليه فلما مثل بين يديه قال له ماحاجتك فأنشد الاعرابى يقول :

أصلحك الله قل ما بيدي ۞ ولا أطيق العيال إذ كثروا
أناخ دهرى على كلكله ۞ فأرسلونى اليك وانتظروا

فأخذت عمر الاريحية فجعل يهتز فى مجلسه ثم قال أرسلوك الى وانتظروا اذن والله لاتجلس حتى ترجع اليهم ثم أمر له بألف دينار ۞ وقيل أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف فراجعه الخازن فى ذلك فقال انفذه فما بقي إلا انفاذه وان خروج المال أحب إلى من الاعتذار فاستكثره الخازن فقال إذا أراد الله بعبد خيرا صرف القلم عن مجرى ارادة كاتبه إلى إرادته وأنا أردت شيئا وأراد الجواد الكريم أن يعطى عبده عشرة أضعافه فكانت إرادة الله الغالبة وأمره النافذ ۞ ووقف اعرابى على ابن عامر فقال ياقمر البصرة وشمس الحجاز ويا ابن ذروة العرب وابن بطحاء مكة رحت بي الحاجة وأكدت بي الآمال الا بفنائك فامنحنى بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشرف والهمة فأمر له بمائتى ألف ۞ وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل :

أأترك إن قلت دراهم خالد ۞ زيارته إنى اذا للئيم

فقال أوقلت دراهم خالد احملوا اليه مائة ألف درهم فبعثها خالد بن يحيي الى عمارة بن عقيل وقال هذه قطرة من سحابك ۞ ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكي ثم قال والله ما بكائى جزعا من العزل ولا أسفا على الولاية ولكن أخاف على هذه الوجوه ان يلى أمرها من لا يعرف لها حقا ۞ وأراد الرشيد أن يخرج إلي بعض المتفرجات فقال يحيي بن خالد لرجاء بن عبدالعزيز وكان على نفقاته ماعندك من الأموال قال سبعمائة ألف درهم قال فاقبضها اليك يارجاء فلما كان من الغد دخل عليه رجاء فقبل يده وعنده منصور بن زياد فلما خرج رجاء قال يحيي لمنصور قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال له وانما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا اليه فى وجهنا هذا فقال منصور أنا استخبر لك هذا فقال يحيي اذن يقول لك قل له يقبل يدى كما قبلت يده فلاتقل له شيئا فقد تركتها له ۞ وقيل ان الرشيد وصل فى يوم واحد بألف ألف وثلثمائة ألف وخمسين ألفا ووصل المنصور فى يوم واحد لبنى هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ماذكر ۞ وعن الأخفش الصغير قال كان أسيد بن عنقاء الفزارى من أكبر أهل زمانه قدرا وأكثرهم أدبا وأفصحهم لسانا وأتمهم

فقلت أفعل فقال لعنك الله والله لقد سحرتنى واستدعى بدواة فعملنا نسخة يمين وحلف كل منا عليها فلما أردت القيام قال لى ياأباعبدالله لقد عظمت فى نفسي والله ما كان المقتدر يفرق بينى وبين أحسن كتابى إذا رأى المال فليكن ماجرى بيننا مطويا فقلت سبحان الله فقال إذا كان غدا فسر إلى المجلس فترى ما أعاملك به فقمت فأمر الغلمان أن يسيروا فى خدمتى بأجمعهم إلى دارى ولما أصبحت جئته فبالغ فى الاكرام والتعظيم وأمر بانشاء الكتب الى النواحى باعزازى وكلائى وحماية أملاكى فشكرته وقمت فأمر الغلمان أيضاً بالمشي بين يدى والحجاب والناس يتعجبون من ذلك ولم يعلم أحد ما السبب وما حدثت بهذا الحديث الا بعد القبض عليه (وذكر ابن الجوزى فى الباب السابع من كتاب الحمقى والمغفلين) أن جماعة من العقلاء صدر عنهم أفعال الحمقى وأصروا على ذلك مستصوبين لها فصاروا بذلك الاصرار حمقى ومغفلين (فأول القوم ابليس لعنه الله تعالى) فانه صوب نفسه وخطأ حكمة الله تعالى ورمى عن قوس الاعتراض فى عدم السجود لآدم عليه السلام ثم قال أنظرنى الى يوم يبعثون فصارت لذته فى ايقاع العاصى فى الذنب كأنه يغيظ ونسى عقابه الدائم فلاحمق كحمقه ولا غفلة كغفلته ولله در القائل فى ابليس عجبت من ابليس فى غفلته وخبث ما أظهر من نيته ۞ تاه على آدم في سجدة ۞ وصار قوادا لذريته (الثاني فرعون) فى دعواه الربوبية

وافتخاره بقوله أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى فافتخر بساقية لاهو أجراها ولا يعرف مبدأها ولا منتهاها ونسى أمثالها مما ليس تحت قدرته وليس (١٦٦) فى الحمق أعظم من ادعائه الالهية وقد ضربت الحكماء بذلك مثلا فقالوا دخل ابليس على فرعون فقال له من أنت قال ابليس قال ما جاء بك قال جئت متعجبا من جنونك قال كيف قال أنا عاديت مخلوقا مثلى فامتنعت من السجود له فطردت ولعنت وأنت تدعى أنك إله هذا والله هو الحمق والجنون البارد (ومن عجيب الحمق والتغفل) اتخاذ الأصنام باليد والاقبال على عبادتها والاله ينبغى أن يفعل ولا يفعل (وكذلك) نمروذ فى بنائه الصرح ثم رميه بنشابة يريد أن يقتل إله السموات والأرض (وكذلك) بنو اسرائيل حين جاوزوا البحر وقد أنجاهم الله تعالى من تلك الأهوال واستنقذهم من فرعون قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة (وكذلك) قول النصارى إن عيسى إله وابن إله ثم يقرون أن اليهود صلبوه وهذا غاية البله والغفلة (وكذلك) الرافضة يعلمون اقرار على ببيعة أبى بكر وعمر واستيلاده الحنفية من سبى أبى بكر وتزويجه أم كلثوم ابنته من عمر وكل ذلك دليل على رضاه ببيعتهما ثم فى الرافضة من يسبهما وفيهم من يكفرهما وكل ذلك يطلبون به حب على بزعمهم وقد تركوا حبهم وراء ظهورهم (وقد روى) عن الامام أحمد بن حنبل أنه قال لو جاءنى رجل فقال انى حلفت بالطلاق أن لا أكلم فى هذا اليوم من هو أحمق وكلم رافضيا أو نصرانيا

جنانا فطال عمره ونكبه دهره فخرج عشية يتنقل لأهله فمر به عميلة الفزارى فسلم عليه وقال ما أصارك ياعم إلى ما أرى فقال بخل مثلك بماله وصون وجهى عن مسألة الناس فقال والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة فقالت له لقد غرك كلام غلام فى جنح ليل قال فكأنما ألقمت فاه حجراً وبات متململا بين رجاء ويأس فلما كان وقت السحر سمع رغاء الابل وصهيل الخيل تحت الأموال فقال ماهذا قالوا عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث إليك بشطره فأنشأ يقول :

رآنى على مابى عميلة فاشتكى * إلى ماله حالى فواسى وماهجر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه * تردى رداء سابغ الذيل واتزر
غلام حباه الله بالحسن يافعا * له سيمياء لاتشق على البصر
كأن الثريا علقت فى جبينه * وفى أنفه الشعرى وفى جيده القمر

وكان عمر بن عبيدالله بن معمر التيمى من الاجواد قيل انه كان لرجل جارية يهواها فاحتاج إلى بيعها فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل فلما قبض ثمنها أنشأت تقول :

هنيئا لك المال الذى قد قبضته * ولم يبق فى كفى غير التحسر
أبوء بحزن من فراقك موجع * أناجى به صدراً طويل التفكر

فأجابها بقوله :

ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن * يفرقنا شيء سوى الموت فاعذرى
عليك سلام لا زيارة بيننا * ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر قد شئت وقد وهبتك الجارية وثمنها فخذها وانصرف * ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده فى دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع له فلما رآه على قال :

ولقد قدمت على رجال طالما * قدم الرجال عليهم فتمولوا
أخنى الزمان عليهم فكأنما * كانوا بأرض أقفرت فتحولوا

فقال أبو الشمقمق :

الجود أفلسهم وأذهب مالهم * فاليوم إن راموا السماحة يبخلوا

قال فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما اليه فكتب بذلك مستوفى الخراج إلى الخليفة فوقع إلى عامله باسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام فى تلك السنة واسقاط ماعليه من البقايا وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروءته * وقال أبو العيناء حصلت لى ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائى فدخلت يوما على يحيى بن أكثم القاضى فقال إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصص فهل لك فى الحضور قلت نعم فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى ثم قال ياأبا العيناء بالالفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم * وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم يكن لى أسباب أعيش بها * ففى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال ياسلامة انظر أى شيء فى بيت ما لنا دون مال المسلمين فقال بقية من مال قال فادفع له منها مائة ألف درهم وابعث له بمثلها فى كل شهر فلما كان بعد احدعشر شهراً مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه فدخل عليه بعض أولاده فقال ياأبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فأنشأ أبو العيناء يقول :

شيآن لو بكت الدماء عليهما * عيناى حتى يؤذنا بذهاب

لم

لم يبلغا المعشار من حقيهما ٭ فقد الشباب وفرقة الأحباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة وكان راتبه منها في الشهر ألف دينار سوى مايطرأ عليه من نذر أو صلة وسوى مايطبخ فى دار الصدقة؛ وكان الموكل بصدقته سليم الخادم فقال له سليم يوما أيها الامير انى أطوف القبائل وأدق الابواب لصدقاتك وان اليد تمد الى وفيها الحناء وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب أفأعطي أم أرد قال فأطرق طويلا ثم قال كل يد امتدت اليك فلا تردها ٭ وقال سلمة بن عياش فى جعفر بن سليمان :

وما شم أنفي ريح كف شممتها ٭ من الناس الاريح كفك أطيب

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر ٭ وكان عبد العزيز بن عبد الله جوادا مضيا فاقتدى عنده اعرابى يوما فلما كان من الغد مر على بابه فرأى الناس فى الدخول على هيئتهم الامس فقال أوكل يوم يطعم الامير الناس قالوا نعم فأنشأ يقول

كل يوم كأنه عيد أضحى ٭ عند عبد العزيز أو عيد فطر

وله ألف جفنة مترعات ٭ كل قدر يمدها ألف قدر

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعدا فقال له سعيد ألك حاجة وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى فذكر أن أباه مات وخلف دينا وعيالا وسأله أن يكتب له كتابا إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم ٭ ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير فقال له سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم الا ما أجرتني من خصمي فقال ومن خصمك حتى أجيرك منه فقال الفقر فأطرق الوزير ساعة وقال قد أمرت لك بمائة ألف درهم فأخذها وانصرف فبينما هو فى الطريق إذ أمر الوزير برده اليه فلما رجع قال له سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم متى أتاك خصمك منا فارجع الينا متظلما وقال الاعمش كانت عندي شاة فمرضت وفقدت الصبيان لبنها فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألنى هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتى لبد أجلس عليه فكان إذا خرج يقول خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلى من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ (وحكى) أبو قدامة القشيرى قال كنا مع يزيد بن مزيد يوما فسمع صائحا يقول يا يزيد بن مزيد فطلبه فأتى به اليه فقال ماحملك على هذا الصياح قال فقدت دابتى ونفدت نفقتي وسمعت قول الشاعر :

إذا قيل من للجود والمجد والندى ٭ فنادى بصوت يا يزيد بن مزيد

فأمر له بفرس أبلق كان معجبا به وبمائة دينار وخلعة سنية فأخذها وانصرف ﴿وحكى﴾ أن قوما من العرب جاؤا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنام وهو يقول له هل لك أن تبيعني بعيرك بنجيبي وكان الميت قد خلف نجيبا وكان للرائي بعير سمين فقال نعم وباعه فى النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير فنحره فى النوم فانتبه الرائى من نومه فوجد الدم يسيح من نحر بعيره فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق سائرون استقبلهم ركب تقدم منهم شاب فنادى هل فيكم فلان بن فلان فقال صاحب البعير نعم ها أنا فلان بن فلان

قلت له حنثت فقال له ابن الدينارى أعزك الله لم صارا أحمقين قال لأنهما خالفا الصادقين (أما الصادق الأول) فعيسى عليه السلام قال للنصارى انى عبد الله وقال أن اعبدوا الله فقالوا لا وعبدوه جهلا وحمقا (١٦٧) (والصادق الثانى) الامام على رضي الله عنه فانه قال عنه صلى الله عليه وسلم انه قال عن أبى بكر وعمر هذان سيدا كهول أهل الجنة والرافضة يسبونهما (ومن المنقول عن حمق النساء) أن الأمين لما حوصر قال لجاريته غني فغنت :

أبكى فراقهم عينى فأرقها ٭ ان التفرق للاحباب بكاء

فقالت لعنك الله أما تعرفين غير هذا فغنت :

ما اختلف الليل والنهار ولا ٭ دارت نجوم السماء في فلك
الا لينقل السلطان من ملك ٭ غيب تحت الثرى إلى ملك

فقال لها قومى فقامت فعثرت بقدح بلور فكسرته فقال قائل قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ولما قتله المأمون دخل على زبيدة ليعزيها به فقالت إن أردت أن تسليني فتغد عندى فتغدى عندها فأخرجت له من جوارى الأمير من تغنيه فغنت :

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ٭ كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فوثب المأمون مغضبا فقالت له زبيدة أحرمني الله أجره ان كنت دسسته اليها أو لقنتها فصدقها وانصرف (ومن ذلك) أن المعتصم لما فرغ من بناء قصر له أدخل الناس عليه فاستأذن إسحق بن ابراهيم فى الانشاء فأذن له فأنشد

يا دار غيرك البلى وعاك يا ليت شعرى ما الذى أبلاك فتطير المعتصم وجميع من حضر المجلس وتعجبوا كيف يصدر من مثل اسحق هذا التغفل المفرط ولم يجتمع (١٦٨) بعد ذلك بالدار اثنان (ومن لطائف المنقول عن الحمقى والمغفلين) أن عيسى بن صالح تولى قنسرين والعواصم للرشيد وكان من الحمق على جانب عظيم قال بعضهم أتانى رسوله بالليل فأمرنى بالحضور فتوهمت أن كتابا جاءه من أمير المؤمنين فى مهم احتاج فيه إلى حضور مثلى فركبت إلى داره فلما دخلت سألت الحجاب هل ورد كتاب من الخليفة أو حدث أمر فقالوا لا فمضيت إلى الخدم فسألتهم فقالوا مثل مقالة الحجاب فصرت إلى الموضع الذى هو فيه فقال لى ادخل ليس عندى أحد فدخلت فوجدته على فراشه فقال اعلم انى سهرت الليلة مفكرا فى أمر إلى ساعتى هذه فقلت وما هو الأمر أصلح الله الامير قال اشتهيت أن يصيرنى الله حورية فى الجنة ويجعل زوجي يوسف الصديق فطال لذلك فكرى فقلت له هلا اشتهيت محمدا صلى الله عليه وسلم أن يكون زوجك فانه سيد الأنبياء عليهم السلام فقال لا تظن انى لم أفكر فى هذا قد فكرت فيه ولكنى كرهت أن أغيظ عائشة رضي الله عنها (ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الاعراب) قيل صلى أعرابى خلف بعض الائمة فى الصف الاول وكان اسم الاعرابى مجرما فقرأ الامام والمرسلات عرفا فلما بلغ إلى قوله تعالى ألم نهلك الاولين

فقال هل بعث من فلان الميت شيئا قال نعم بعثه بعيرى بنجيبه فى النوم فقال هذا نجيبه فخذه وأنا ولده وقد رأيته فى النوم وهو يقول إن كنت ولدى فادفع نجيبي إلى فلان فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته (وروى) عن الهيثم بن عدى أنه قال تمارى ثلاثة نفر فى الأجواد فقال رجل أسخى الناس فى عصرنا هذا عبدالله بن جعفر فقال الآخر أسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة فقال الآخر بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسى فتنازعوا بفناء الكعبة فقال لهم رجل لقد أفرطتم فى الكلام فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود فنحكم على العيان فقام صاحب ابن جعفر فوافاه وقد وضع رجله فى ركاب راحلته يريد ضيعة له فقال الرجل يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل ومنقطع به قال فأخرج رجله وقال ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما فى الحقيبة وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار ومضى صاحب قيس فوجده نائما فقالت له جارية لقيس ما حاجتك فقال ابن سبيل ومنقطع به فقالت له الجارية حاجتك أهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما فى دار قيس اليوم غيرها وامض إلى معاطن الابل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبدا وامض لشأنك قيل ان قيسا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله نخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه قال بعض الشعراء :

وإذا ما اختبرت ود صديق * فاختبر وده من الغلمان

ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة فقال يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى وقال أواه أواه والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء ولا تركت له الحقوق مالا ولكن خذ هذين العبدين فقال الرجل والله ما كنت بالذى يسلبك عبديك فقال إن أخذتهما وإلا فهما حران لوجه الله تعالى فان شئت فخذ وان شئت فاعتق فأخذ الرجل العبدين ومضى ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهده * قيل ان شاعرا قصد خالد بن يزيد فأنشده شعرا يقول فيه :

سألت الندى والجود حران أنتما * فقالا يقينا اننا لعبيد
فقلت ومن مولاكما فتطاولا * إلى وقالا خالد ويزيد

فقال يا غلام اعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فأنشد يقول :

كريم كريم الأمهات مهذب * تدفق يمناه الندى وشمائله
هو البحر من أى الجهات أتيته * فلجته المعروف والجود ساحله
جواد بسيط الكف حتى لو انه * دعاها لقبض لم تجبه أنامله

فقال يا غلام اعطه مائة ألف درهم وقل له إن زدتنا زدناك فأنشد يقول :

تبرعت لى بالجود حتى نعشتنى * وأعطيتنى حتى حسبتك تلعب
وأنبت ريشا فى الجناحين بعدما * تساقط منى الريش أو كاد يذهب
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى * حليف الندى ما للندى عنك مذهب

فقال يا غلام اعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فقال حسب الأمير ما سمع وحسبي ما أخذت وانصرف (وأما الذين انتهى اليهم الجود فى الجاهلية) فهم حاتم بن عبدالله الطائى وهرم بن سنان وخالد بن عبدالله وكعب بن مامة الايادى وضرب المثل بحاتم وكعب وحاتم أشهرهما * فاما

كعب

تأخر الاعرابى إلى الصف الاخير فقال ثم تتبعهم الآخرين فرجع إلى الصف الأوسط فقال كذلك نفعل بالمجرمين فولى هاربا وهو يقول والله ماالمطلوب غيرى (ومثله) صلى أعرابى خلف (١٦٩) إمام صلاة الصبح فقرأ الامام سورة البقرة وكان الأعرابى مستعجلا ففاته مقصوده فلما كان من الغد بكر إلى المسجد فابتدأ فقرأ سورة الفيل فقطع الأعرابى الصلاة وولى هاربا وهو يقول أمس قرأت سورة البقرة فلم تفرغ منها إلى نصف النهار واليوم تقرأ سورة الفيل ماأظنك تفرغ منها إلى الليل (ومنه) كان أعرابى قائما يصلى فأخذ قوم يصفونه بالصلاح وهو يسمع فقطع الصلاة وقال وأنا مع هذا صائم (ومنه) دخل خالد بن صفوان الحمام وفى الحمام رجل ومعه ابنه فأراد الرجل أن يعرف خالدا ماعنده من البيان والنحو فقال يابنى ابدأ بيداك ورجلاك ثم التفت إلى خالد فقال له ياأبا صفوان هذا كلام قد ذهب أهله فقال خالد هذا كلام ما خلق الله له أهلا (ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الشعراء) أن بعضهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة وقد تما خبر المهدى أنه مات وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم

(م ٢٢ - المستطرف - أول) بذلك فقال ارفعوا صوته ٭ مات الخليفة أيها الثقلان ٭ فقالوا هذا أشعر الناس فانه نعى الخليفة إلى الانس والجن فى نصف بيت ومدت الناس أبصارهم وأسماعهم اليه فقال ٭ فكأننى أفطرت فى رمضان ٭ قال فضحك

كعب فجاد بنفسه وآثر رفيقه بالماء فى المفازة ومات عطشا وليس له خبر مشهور ٭ وأما خالد ابن عبيد الله فانه جاء اليه بعض الشعراء ورجله فى الركاب يريد الغزو فقال له إنى قلت فيك بيتين من الشعر فقال فى مثل هذا الحال قال نعم فقال هاتهما فأنشده يقول

ياواحد العرب الذى ٭ مافى الأنام له نظير
لو كان مثلك آخره ٭ ما كان فى الدنيا فقير

فقال ياغلام اعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف ٭ وأما حاتم فأخباره كثيرة وآثاره فى الجود شهيرة ويكنى أبا سفانة وأباعدى وكان يسير فى قومه بالمرباع والمرباع ربع الغنيمة وكان ولده عدى يعادى النبى ﷺ فبعث النبى ﷺ عليا إلى طيء فهرب عدى بأهله وولده ولحق بالشام وخلف أخته سفانة فأسرتها خيل رسول الله ﷺ فلما أتى بها إلى النبى ﷺ قالت يامحمد هلك الوالد وغاب الرافض فان رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فان أبى كان سيد قومه يفك العانى ويقتل الجانى ويحفظ الجار ويحمى الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشى السلام ويحمل الكل ويعين على نوائب الدهر وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائبا أنا بنت حاتم الطائى فقال لها النبى ﷺ ياجارية هذه صفات المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق وقال فيها ارحموا عزيزا ذل وغنيا افتقر وعالما ضاع بين جهال فأطلقها ومن عليها فاستأذنته فى الدعاء له فأذن لها وقال لأصحابه اسمعوا وعوا فقالت أصاب الله ببرك مواقعه ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سببا فى ردها عليه فلما أطلقها ﷺ رجعت إلى قومها فأتت أخاها عديا وهو بدومة الجندل فقالت له ياأخى ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله فانى قد رأيت هديا ورأيا سيغلب أهل الغلبة رأيت خصالا تعجبنى رأيته يحب الفقير ويفك الأسير ويرحم الصغير ويعرف قدر الكبير ومارأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ وانى أرى أن تلحق به فان يك نبيا فللسابق فضله وان يك ملكا فلن تذل فى عز اليمن فقدم عدى إلى النبى ﷺ فأتى له وسادة محشوة ليفا وجلس النبى ﷺ على الأرض فأسلم عدى ابن حاتم وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها وكانت من أجود نساء العرب وكان أبوها يعطيها الضريبة من ابله فتهبها وتعطيها الناس فقال لها أبوها يابنية ان الكريمين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه فاما أن أعطى وتمسكى وإما أن أمسك وتعطى فانه لايبقى على هذا شىء فقالت له منك تعلمت مكارم الأخلاق قال ابن الأعرابى كان حاتم الطائى من شعراء الجاهلية وكان جوادا يشبه جوده شعره ويصدق قوله فعله وكان حيثما نزل عرف منزله وكان مظفرا إذا قاتل غلب وإذا سئل وهب وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق وكان إذا هل رجب الذى كانت تعظمه مضر فى الجاهلية نحر كل يوم عشرا من الابل وأطعم الناس واجتمعوا اليه وكان قد تزوج ماوية بنت عفير وكانت تلومه على اتلاف المال فلا يلتفت لقولها وكان لها ابن عم يقال له مالك فقال لها يوما ما تصنعين بحاتم فوالله لئن وجد مالا ليتلفنه وان لم يجد ليتكلفن ولئن مات ليتركن أولاده عالة على قومك فقالت ماوية صدقت إنه كذلك وكانت النساء يطلقن الرجال فى الجاهلية وكان طلاقهن انهن يكن فى بيوت من شعر فان كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب وان كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق وان كان من قبل اليمن حولته إلى الشام وان كان من قبل الشام حولته إلى اليمن فاذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتها ثم قال لها ابن عمها طلقى حاتما وأنا أتزوجك وأنا خير لك منه وأكثر مالا وأنا أمسك

الناس وصار شهرة في الحمق (ومثله) ان سيف الدولة بن حمدان انصرف من حرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فأنشدوه فدخل معهم رجل شامي (١٧٠) فأنشدوه وكانوا كفار وسوسو خلف حائط وكنت كسنور عليهم تسقفا فأمر بأخراجه فقام على الباب يبكي فأخبر سيف الدولة ببكائه فرق له وأمر برده وقال له مالك تبكي قال قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب منه بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملي بكيت فقال سيف الدولة ويلك فمن يكون له مثل هذا النسل يكون له ذلك النظم وكم كنت أملت قال خمسمائة درهم فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف (ومن المنقول عن المغفلين على الاطلاق) قال بعضهم دخلت مسجد دمشق فاذا أنا بجماعة عليهم سمة العلم فجلست اليهم وهم ينقصون من علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقمت من عندهم مغضبا فرأيت شيخا جميلا يصلي فظننت به الخير فجلست اليه فقلت له يا عبد الله أما ترى هؤلاء القوم يشتمون علي بن أبي طالب وينقصونه وهو زوج فاطمة الزهراء وابن عم سيدنا محمد ﷺ فقال لي يا عبد الله لو نجا أحد من الناس لنجا منهم أبو محمد رحمه الله تعالى قال فقلت ومن أبو محمد قال الحجاج بن يوسف وجعل يبكي فقمت من عنده وحلفت لا أقيم بها (ومن ذلك) أن أخوه رجلا سأل بعضهم وكان من الحمق على جانب عظيم فقال أيما أفضل عندك معاوية أو عيسى بن مريم فقال ما رأيت سائلا أجهل منك

عليك وعلى ولدك فلم يزل بها حتى طلقته فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء فقال حاتم لولده يا عدي ماترى ما فعلت أمك فقال قد رأيت ذلك قال فأخذا ابنه وهبط بطن واد فنزل فيه فجاءه قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون وكانت عدتهم خمسين فارسا فضاقت بهم ماوية ذرعا وقالت لجاريتها اذهبي الى ابن عمي مالك وقولي له ان أضيافا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلا فارسل الينا بشيء نقريهم ولبن نسقيهم وقالت لها انظري الى جبينه وفمه فان شافهك بالمعروف فاقبلي منه وان ضرب بلحيته على زوره ولطم رأسه فاقبلي ودعيه فلما أتته وجدته متوسدا وطبا من لبن فأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له انما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم فلطم رأسه بيده وضرب بلحيته وقال اقرئيها السلام وقولي لها هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتما لأجله وماعندي لبن يكفي أضياف حاتم فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت وبما قال لها فقالت لها اذهبي الى حاتم وقولي له ان أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فارسل الينا بناقة نقريهم ولبن نسقيهم فأتت الجارية حاتما فصاحت به فقال لبيك قريبا دعوت فأخبرته بما جاءت بسببه فقال حبا وكرامة ثم قام الى الابل فاطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء ثم ضرب عراقيبهما فطفقت ماوية تصيح هذا الذي طلقتك بسببه تترك أولادنا وليس لهم شيء فقال ويحك ياماوية الذي خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم وكان اذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها في بقاع الأرض لينظر اليها من ضل عن الطريق ليلا فيقصدها ولم يكن حاتم يمسك شيئا ماعدا فرسه وسلاحه فانه كان لا يجود بهما ثم جاد بفرسه في سنة مجدبة (حكي) ان ملكان ابن أخي ماوية قال قلت لها ياعمة حدثيني ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه فقالت يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف وقد أخذني واياه الجوع وأسهرنا فأخذت سفانة وأخذ عديا وجعلنا نعللهما حتى ناما فأقبل علي يحدثني ويعللني بالحديث حتى أنام فرققت به لما به من الجوع فامسكت عن كلامه لينام فقال لي أنمت فلم اجبه فسكت ونظر في فناء الخباء فاذا شيء قد أقبل فرفع رأسه فاذا امرأة فقال ماهذا فقالت يا أبا عدي أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب أو كالذئاب جوعا فقال لها احضري صبيانك فوالله لأشبعنهم فقامت سريعة لأولادها فرفعت رأسي وقلت له يا حاتم بماذا تشبع أطفالها فوالله ما نام صبيانك من الجوع الا بالتعليل فقال والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها فلما جاءت المرأة نهض قائما وأخذ المدية بيده وعمد الى فرسه فذبحه ثم أجج نارا ودفع اليها شفرة وقال قطعي واشوي وكلي وأطعمي صبيانك فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها فأيقظت أولادي وأكلت وأطعمتهم فقال والله ان هذا هو اللؤم تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم ثم أتى الحي بيتا بيتا يقول لهم انهضوا عليكم بالنار فاجتمعوا حول الفرس وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير الا العظم والحافر ولا والله ماذاقها حاتم وانه لأشدهم جوعا وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره

أماوي ان المال غاد ورائح * ويبقى من المال الأحاديث والذكر
وقد علم الأقوام لو أن حاتما * أراد ثراء المال كان له وفر

وأغار قوم على طيء فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادى في جيشه وأهل عشيرته ولقي القوم فهزمهم وتبعهم فقال له كبيرهم يا حاتم هب لي رمحك فرمى به اليه فقيل لحاتم عرضت نفسك الهلاك ولو عطف عليك لقتلك فقال قد علمت ذلك ولكن ما جواب من يقول هب لي وما مات عظم على طيء موته فادعى

ولا سمعت بمن قاس كاتب الوحى إلى بنى النصارى (ومن ذلك) أن لصا تسور روزنة وكان اللص مغفلا فنظر من خلال الروزنة فوجد رجلا وزوجته وهي تقول له يارجل من أين اكتسبت هذا المال العظيم فقال لها كنت لصا وكنت إذا تسورت روزنة بيت صبرت إلى أن يطلع القمر فإذا طلع اعتنقت الضوء الذى فى الروزنة وتدليت بلا حبل وقلت شولم شولم ونزلت فآخذ جميع ما فى البيت ولا تبقى ذخيرة من ذخائر البيت إلا ظهرت لى ثم أقول شولم شولم وأصعد فى الضوء ولا ينتبه أحد من أهل البيت وأذهب بلا تعب ولا كلفة فسمع اللص ذلك فصبر إلى أن طلع القمر ونام أهل البيت فتعلق فى ضوء الروزنة فوقع وتكسرت أضلاعه فقام إليه صاحب البيت وقبض عليه وأسلمه إلى صاحب الشرطة (ومنهم) من كان يسوق عشرة حمير فركب واحدا منها وعدها فإذا هى تسعة حمير فنزل وعدها فإذا هي عشرة فقال أمشى وأربح حمارا خير من أن أركب وأخسر حمارا فمشى حتى كاد يتلف إلى أن بلغ قريته (ومنهم) من مات بعض أقاربه فقيل له لم لا تبعت جنازته فقال هذا الكلام ما يقوله عاقل أكون منسيا فأذكر بنفسي (ومن ذلك) أن بعض المغفلين سمع رجلا ينشد

وكان بنو عمى يقولون مرحبا * فلما رأونى معدما مات مرحب

فقال كذب الشاعر مرحب قتله على بن أبي طالب ولم يمت إلا قتيلا (ومنهم) من باع دارا وكان يؤذن بباب مسجد بالقرب منها فأنسى أنه باعها فصلى ورجع

أخوه أنه يخلفه فقالت له أمه هيهات شتان والله ما بين خلفتيكما وضعته فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلا من الجيران وكنت أنت ترضع ثديا ويدك على الآخر فأنى لك ذلك قال الشاعر

يعيش الندى ما عاش حاتم طيء * وان مات قام للسخاء ما تم

وكانت العرب تسمى الكلب داعى الضمير ومتمم النعم ومشيد الذكر لما يجلب من الأضياف بنباحه والضمير الغريب وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها إلى العمد لتستوحش فتنبح فتهدي الضلال وتأتي الأضياف على نباحها والحكايات فى ذكر الأجواد والكرماء والأسخياء وأهل المعروف وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ففي مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثلها فليعمل العاملون فان فيها عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود جميل الذكر فانا لم نجد شيئا يبقى على ممر الدهر إلا الذكر حسنا كان أو قبيحا وقد قال الشاعر

ولا شيء يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الأمر وقدم لنفسك كما قدموا وتذكر بالصالحات كما ذكروا وادخر نفسك فى القيامة كما ادخروا واعلم أن المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو فاختر أى الثلاث شئت وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب الرابع والثلاثون فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم ﴾

قال الله تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله الآية وقال رسول الله ﷺ إياكم والشح فان الشح أهلك من كان قبلكم وعنه ﷺ أنه قال البخل جامع لمساوي القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهما ان البخل لو كان قميصا ما لبسته أو كان طريقا ما سلكته * وقيل بخلاء العرب أربعة الحطيئة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان * فأما الحطيئة فمر به انسان وهو على باب داره وبيده عصا فقال أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال لكعاب الضيفان أعددتها وأما حميد الأرقط فكان هجاء للضيفان فحاشا عليهم نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمرا وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه * وأما أبو الأسود فتصدق على سائل بتمرة فقال له جعل الله نصيبك من الجنة مثلها وكان يقول لو أطعنا المساكين فى أموالنا كنا أسوأ حالا منهم * وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه يا عيار كم تعير وكم تطوف وتطير لأطيلن حبسك ثم يطرحه فى الصندوق ويقفل عليه وقيل له لم لا تنفق ومالك عريض فقال الدهر أعرض منه وأنشد بعضهم

وهبنى جمعت المال ثم خزنته * وحانت وفاتى هل أزاد به عمرا
إذا خزن المال البخيل فانه * سيورثه غما ويعقبه وزرا

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل فقيل هو محموم فقال كلوا بين يديه حتى يعرق وكتب سهل بن هرون كتابا فى مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه وقال بن ابى فنن

ذريني وإتلافي لمالى فانني * أحب من الاخلاق ما هو أجمل

إليها ودخل من الباب فصاحت النسوة وقلن له يا رجل اتق الله فينا فقال اعذروني فاني ولدت في هذا الدار ولم أذكر البيع (ومنهم) من رأى جاريته تحت رجل يجامعها فقال لها يا جارية ما حملك على هذا فقالت له يا مولاي حلفني بحياة رأسك وأنت تعلم صدق محبتي لك فسكت (ومنهم) من سمع أن صوم يوم عرفة يعدل صوم سنة فصام إلى الظهر وقال يكفيني ستة أشهر (ومنهم) من جاء إلى الجب ونظر فيه فرأى خيال وجهه فذهب إلى أمه وقال يا أمي في الجب لص فجاءت الأم فطلعت فيه فرأت خيال وجهها فقالت صدقت ومعه قحبة (ومنهم) من دعا فقال اللهم اغفر لي ولامي ولاختي ولامرأتي فقيل له لم تركت ذكر أبيك قال لانه مات وأنا صبي لم أدركه (وقال) رجل لرجل كم يوم في هذا الشهر فنظر وقال والله لست من أهل هذه المدينة (ومن ذلك) أن هشام ابن عبد الملك عرض الجند فقدم رجل حمصي بفرس كلما قدمه يتأخر فقال له هشام ما هذا قال ياسيدي فاره ولكنه شبهك بيطار كان يعالجه فنفر (ومنهم) من قيل له عندك مال جزيل وليس لك إلا والدة عجوز وان مت ورثتك فأفسدت مالك فقال إنها لا ترثني قيل وكيف قال لأن أبي طلقها قبل أن يموت (ومنهم) من جاء إليه جماعة يسألونه في كفن لجار له مات فقال ما عندي الآن شيء ولكن عاودوني في وقت آخر فقالوا أفصلحه إلى أن يجتمع عندك شيء (ومنهم) من تقدم يصلي المغرب بجماعة فأطال القيام [illegible] الصلاة سجد

وان أحق الناس باللوم شاعر * يلوم على البخل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلا جداً أصابه القولنج في بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في الطست فقال لغلامه اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة وأسرج به وكان المنصور شديد البخل جداً مر به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج فحداه يوما بقول الشاعر:

أغر بين الحاجبين نوره * يزينه حياؤه وخيره
ومسكه يشوبه كافوره * إذا تغدى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال يا ربيع اعطه نصف درهم فقال مسلم نصف درهم يا أمير المؤمنين والله لقد حدوت لهشام فأمر لي بثلاثين ألف درهم فقال تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع وكل به من يستخلص منه هذا المال قال الربيع فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدوله في ذهابه وإيابه بغير مؤنة وكان أبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل قال مروان ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لي المهدي فوزنتها فرجحت درهما فاشتريت به لحما واشترى يوما لحما بدرهم فلما وضعه في القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول هذا لحم مروان واجتاز يوما بأعرابية فأضافته فقال ان وهب لي يا أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبتك درهما فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوانق * ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو يقال ان من عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه فإذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق وقيل لبخيل من أشجع الناس قال من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته وقيل لبعضهم أما يكسوك محمد بن يحيى فقال والله لو كان له بيت مملوء إبرا وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ما أعاره إياها فكيف يكسوني وقد نظم ذلك من قال:

لو أن دارك أنبتت لك واحتشت * ابرا يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك ابرة * ليخيط قد قميصه لم تفعل

وكان المتنبي بخيلا جداً مدحه انسان بقصيدة فقال له كم أملت منا على مدحك قال عشرة [illegible] فقال له والله لو ندفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقا وقال دعبل كنا عند سهل بن هرون فلن نبرح حتى يكاد يموت من الجوع فقال ويلك يا غلام آتنا غداءنا فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل فتأمل الديك فرآه بغير رأس فقال لغلامه وأين الرأس فقال رميته فقال والله اني لاكره من يرمي برجله فكيف برأسه ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الاعضاء ومنه يصيح الديك ولولا صوته ما أريد وفيه فرقه الذي يتبرك به وعينه التي يضرب بها المثل فيقال شراب كعين الديك ودماغه عجيب لوجع الكلية ولم تر عظما أهش تحت الاسنان من عظم رأسه ويحك ظننت أني لا آكله أما قلت عنده من يأكله انظر في أي مكان رميته فأتني به فقال والله لا أدري أين رميته فقال لكني أنا اعرف أين رميته رميته في بطنك الله حسبك وقيل من الناس من يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس قال بعضهم في أبي دلف

أبو دلف يضيع ألف ألف * ويضرب بالحسام على الرغيف

سجدتى السهو ولم يكن سها قيل نحن أنكرنا عليك طول القراءة فما الجواب عن سجدتى السهو ولم تكن سهوت فقال ذكرت أنى صليت بكم على غير وضوء فسجدت للسهو (ومن ذلك) ان عبداً كان بين اثنين فى الشركة فجعل أحدهما يضربه فلامه شريكه فقال أنا ضربت حصتى (ومنهم) من قيل له كيف صنعتم فى رمضان فقال اجتمعنا ثلاثين فأنفذناه فى يوم واحد واسترحنا منه (قال الأصمعى) خرج جماعة من بنى غفار ومعهم رجل مغفل فأصابتهم ريح فى البحر أيسوا معها من الحياة فأعتق كل واحد منهم مملوكاً أو مملوكة فقال ذلك الرجل اللهم انك تعلم أنى ليس لى مملوك ولا مملوكة ولكن امرأتى طالق طلقة واحدة لوجهك الكريم (قال ابن الجوزى فى آخر كتاب الحمقى والمغفلين) ان المعلمين للصبيان صناعتهم تكاد أن تكون اكسير آفة العقل وابريزا للحماقة (وقال) عدل عقل امرأة سبعين حائكا وعدل عقل حائك سبعين معلما وسبب قلة عقل المعلم أنه مع الصبيان بالنهار ومع النساء بالليل (وكان) يحيى بن أكثم لا يقبل شهادة المعلم (وقيل) لصبى مالنا نراك كثير الحمق فقال لو لم أكن كذلك لكنت ولد زنا (وقيل) لمعلم مالك تضرب هذا الصبى ولم يذنب قال إنما ضربته قبل أن يذنب لئلا يذنب (وقال) الجاحظ مررت بمعلم وهو يقرىء صبيا واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا وأكيد كيدا فقلت له ويحك قد أدخلت سورة فى سورة فقال نعم ما فاتك الله

أبو دلف لمطبخه قتار ٭ ولكن دونه سل السيوف

واشتكى رجل مروزى صدره من سعال فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام إذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة وقال انه يجلو الصدر فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها فجلا صدره ووجده يعصم فلما حضر غداؤه أمر به فرفع إلى العشاء وقال لامرأته اطبخى لأهل بيتنا النخالة فانى وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدور فقالت لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة ٭ وعن خاقان بن صبيح قال دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا فأتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة وقد علق فيها عودا بخيط فقلت له ما بال هذا العود مربوطا قال قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عودا عطشانا ونخشى أن يشرب الدهن قال فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال للرجل يا فلان لقد فررت من شئ ووقعت فيما هو شر منه أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشفان هذا العود لم لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد فان الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف والعود أيضا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها فقال له الرجل الخراسانى أرشدك الله ونفع بك فلقد كنت فى ذلك من المسرفين ٭ وقال الهيثم بن عدى نزل على أبى حفصة الشاعر رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه فى هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج اليه ثم رجع وكتب اليه :

يا أيها الخارج من بيته ٭ وهاربا من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له ٭ فارجع وكن ضيفا على الضيف

واشترى رجل من البخلاء دارا وانتقل اليها فوقف ببابه سائل فقال له فتح الله عليك ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك ثم التفت إلى ابنته فقال لها ما أكثر السؤال فى هذا المكان قالت يا أبت مادمت مستمسكا لهم بهذه الكلمة فما تبالى كثروا أم قلوا والأم اللئام وأبخلهم حميد الأرقط الذى يقال له هجاء الأضياف وهو القائل فى ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له :

مابين لقمته الأولى إذا انحدرت ٭ وبين أخرى تليها قيد أظفور

وقال فيه أيضا :

تجهز كفاه ويحدر حلقه ٭ إلى الزور ماضمت عليه الأنامل

وأكل أعرابى مع أبى الأسود رطبا كثيرا ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابى اليها فسقطت منه فى التراب فأخذها أبو الأسود وقال لا أدعها للشيطان يأكلها فقال الأعرابى والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا من السماء ما تركتها وقال أعرابى لنزيل نزل به نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور فأقم بعدم أو ارحل بندم وللحمدونى :

رأيت أبا زرارة قال يوما ٭ لحاجبه وفى يده الحسام ٭ لئن وضع الخوان ولاح شخص لاختطفن رأسك والسلام ٭ فقال سوى أبيك فذاك شيخ ٭ بغيض ليس يردعه الكلام فقام وقال من حنق اليه ٭ بيت لم يرد فيه القيام ٭ أبى وابنا أبى والكلب عندى بمنزلة إذا حضر الطعام ٭ وقال له أبن لى يا ابن كلب ٭ على خبزى أصادر أو أضام
إذا حضر الطعام فلا حقوق ٭ على لوالدى ولا ذمام

إذا كان أبوه يدخل شهرا في شهر فأنا أيضا أدخل سورة في سورة ولا آخذ شيئا ولا ابنه يعطم شيئا انتهى ماتخيرته من كتاب
الأذكياء والحمقى والمغفلين (ومما تخيرته من سلوان المطاع لابن ظفر) أن الوليد بن يزيد لما بلغه أن ابن
عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد شرد عنه القلوب واستجاش عليه أهل اليمن ونازعه في ملكه احتجب عن سماره ودعا في بعض الليالي خادما فقال له انطلق متنكرا حتى تقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس فاذا رأيت كهلا رث الهيئة يمشي مشيا هوينا وهو مطرق فسلم عليه وقل له في أذنه أمير المؤمنين يدعوك فان أسرع في الاجابة فائتني به وان استراب فدعه واطلب غيره حتى تجد رجلا على الشرط الذي ذكرت لك فانطلق الخادم فأتاه برجل على الشرط فلما دخل الرجل على الوليد حياه بتحية الخلافة فأمره الوليد بالجلوس والدنو منه وصبر إلى أن ذهب روعه وسكن جأشه ثم أقبل عليه فقال له أتحسن المسامرة للخلفاء فقال نعم يا أمير المؤمنين فقال الوليد ان كنت تحسنها فاخبرنا ماهي فقال يا أمير المؤمنين المسامرة اخبار لمنصت ونصات لمخبر ومفاوضة فيما يعجب ويليق قال
له الوليد أحسنت أزيدك امتحانا فقل أسمع لقولك فقال الكهل نعم يا أمير المؤمنين ولكن المسامرة صنفان لا ثالث لهما أحدهما الاخبار بما يوافق خبرا مسموعا والثاني الاخبار بما يوافق غرضا من أغراض صاحب المجلس واني لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين

فما في الأرض أقبح من خوان * عليه الخبز يحضره الزحام

فأين هذا من القائل بخيل يرى في الجود عارا وإنما * يرى المرء عارا أن يضن ويبخلا

إذا المرء أثرى ثم لم يرج نفعه * صديق فلاقته المنية أولا

(وقال آخر) وآمرة بالبخل قلت لها اقصري * فليس اليه ما حييت سبيل

أرى الناس اخوان الكريم وما أرى * بخيلا له في العالمين خليل

وقالوا إذا سألت لئيما شيئا فعاجله ولا تدعه يفكر فانه كلما فكر ازداد بعدا وقال ربعي الهمداني :

جمعت صنوف المال من كل وجهة * وما نلتها إلا بكف كريم

واني لأرجو أن أموت وتنقضي * حياتي وما عندي يد للئيم

(وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق)

ممن تعلمت هذا * أن لا تجود بشي * أما مررت بعبد * لعبد حاتم طي

(ومما قاله الشعراء في البخلاء وطعامهم) فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب

والتغلبي إذا تنحنح للقرى * حك استه وتمثل الامثالا

(وله أيضا فيهم) قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم * واستوثقوا من رتاج الباب والدار

قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم * قالوا لأمهم بولي على النار

فتمنع البول شحا أن تجود به * وما تبول لهم إلا بمقدار

والخبز كالعنبر الهندي عندهم * والقمح خمسون اردبا بدينار

(فأين هؤلاء من الذي قال فيه الشاعر)

أبلج بين حاجبيه نوره * إذا تغدى رفعت ستوره

(وقال بعضهم في بخيل) :

أتانا بخيل بخبز له * كمثل الدراهم في رقته

إذا ماتنفس حول الخوان * تطاير في البيت من خفته

(وقال آخر) تراهم خشية الأضياف خرسا * يقيمون الصلاة بلا أذان

(وقال آخر) وقد بات عند بخيل :

فبتنا كأنا بينهم أهل مأتم * على ميت مستودع بطن ملحد

يحدث بعضا بعضنا بمصابه * ويأمر بعضنا بعضا بالتجلد

(وقال آخر) وجيرة لا ترى في الناس مثلهم * إذا يكون لهم عيدا وافطار

ان يوقدوا يوسعونا من دخانهم * وليس يبلغنا ما تطبخ النار

(وقال آخر وأجاد) :

فصدق ايمانه إن قال مجتهدا * لا والرغيف فذاك البر من قسمه

فان هممت به فاعبث بخبزته * فان موقعها من لحمه ودمه

قد كان يعجبني لو أن غيرته * على جرادقه كانت على حرمه

(وقال آخر) ذهب الكرام فلا كرام * وبقي العضاريط اللئام

من لا يقبل ولا ينيل ولا يشم له طعام

(وقال آخر) خليلي من كعب أعينا أخاكما * على دهره ان الكريم معين

ولا تبخلا بخل ابن قزعة انه * مخافة أن يرجى نداء حزين

إذا

طريقة فانحو نحوها والزم أسلوبها فقال الوليد صدقت وها نحن نقترح لك ما تقتفيه قد بلغنا أن رجلا من رعيتنا سعى فى ضرر ملكنا فأثر سعيه وشق ذلك علينا فهل سمعت بذلك فقال الكهل نعم (١٧٥) يا أمير المؤمنين فقال له الوليد قل الآن على حسب ما سمعت وعلى ما ترى من التدبير فقال يا أمير المؤمنين بلغنى عن أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان أنه لما ندب الناس لقتال ابن الزبير وخرج بهم متوجها إلى مكة حرسها الله تعالى استصحب عمرو بن سعيد ابن العاص وكان عمرو قد انطوى على فساد نية وخبث طوية وطماعية فى نيل الخلافة وكان أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان قد فطن لذلك إلا أنه كان يحترمه ولما أبعد أمير المؤمنين عن دمشق تمارض عمرو ابن سعيد فاستأذن أمير المؤمنين فى العود إلى دمشق فأذن له فلما دخل عمرو دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة واستولى على دمشق ودعا الناس إلى خلع عبد الملك فأجابوه إلى ذلك وبايعوه وحصن بعد ذلك سور دمشق وحمى حوزتها فبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه إلى ابن الزبير وبلغه مع ذلك أن والى حمص قد نزع يده من الطاعة وأن أهل الثغور قد تشوفوا الخلاف فأحضر وزراءه فاطلعهم على ما بلغه وقال لهم دمشق ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن ومصر وخراسان وهذا النعمان بن بشير أمير حمص وزفر بن الحرث

إذا جئته فى حاجة سد بابه * فلم تلقه إلا وأنت كمين

(وقال آخر) له يومان يوم ندى ويوم * يسل السيف فيه من القراب
فاما جوده فعلى قحاب * وأما سيفه فعلى الكلاب

(وقال آخر) :

زففت إلى نبهان من صفو فكرتى * عروسا غدا بطن الكتاب لها صدرا
فقبلها عشرا وهام بحبها * فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

(وقال آخر) لو عبر البحر أمواجه * فى ليلة مظلمة بارده
وكفه مملوءة خردلا * ماسقطت من كفه واحده

(وقال آخر) ياقائما فى داره قاعدا * من غير معنى لا ولا فائده
قد مات أضيافك من جوعهم * فاقرأ عليهم سورة المائده

(وقال آخر) نوالك دونه شوك القتاد * وخبزك كالثريا فى البعاد
فلو أبصرت ضيفا فى منام * لحرمت الرقاد إلى المعاد

(وقال آخر)

لا تعجبن لخبز زل من يده * فالكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

(وقال ابن أبى حازم)

وقالوا قد مدحت فتى كريما * فقلت وكيف لى بفتى كريم
بلوت ومربى خمسون حولا * وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحد يعد ليوم خير * ولا أحد يجود على عديم

(ومن رؤساء أهل البخل) محمد بن الجهم وهو الذى قال وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء وعشرة من الشعراء وعشرة من الأدباء تواطؤا على ذمى واستهلوا شتمى حتى ينتشر ذلك فى الآفاق فلا يمتد إلى أمل آمل ولا يبسط نحوى رجاء راج وقال له أصحابه يوما انا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استثقالك لجالستنا فقال علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء * وقال عمر بن ميمون مررت ببعض طرق الكوفة فاذا أنا برجل يخاصم جارا له فقلت ما بالكما فقال أحدهما ان صديقا لى زارنى فاشتهى رأسا فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب دارى أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس انه هو الذى اشترى الرأس * قال رجل من البخلاء لأولاده اشتروا لى لحما فاشتروه فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق فى يده إلا عظمة وعيون أولاده ترمقه فقال ما أعطى أحدا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها فقال ولده الأكبر أمششها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلا قال لست بصاحبها فقال الأوسط آلوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدرى أحد لعام هى أم لعامين قال لست بصاحبها فقال الأصغر يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفا قال أنت صاحبها وهى لك زادك الله معرفة وحزما * ووقف اعرابى على أبى الأسود وهو يتغدى فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه فقال له الأعرابى أما انى قد مررت بأهلك قال كذلك كان طريقك قال وامرأتك حبلى قال كذلك كان عهدى بها قال قد ولدت قال كان لا بد لها أن تلد قال ولدت غلامين قال كذلك كانت أمها قال مات أحدهما قال

ما كانت تقوى على ارضاع اثنين قال ثم مات الآخر قال ما كان ليبقى بعد موت أخيه قال ومات الام قال حزنا على ولديها قال ما أطيب طعامك قال لأجل ذلك أكلته وحدى ووالله لا ذقته يا أعرابى ٭ وقيل خرج اعرابى قد ولاه الحجاج بعض النواحى فأقام بها مدة طويلة فلما كان فى بعض الايام ورد عليه اعرابى من حيه فقدم اليه الطعام وكان إذ ذاك جائعا فسأله عن أهله وقال ما حال ابنى عمير قال على ما تحب قد ملا الارض والحي رجالا ونساء قال فما فعلت أم عمير قال صالحة أيضا قال فما حال الدار قال عامرة بأهلها قال وكلبنا ايقاع قال قد ملا الحى نبحا قال فما حال جملى زريق قال على ما يسرك قال فالتفت لى خادمه وقال ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الاعرابى ثم أقبل عليه يسأله وقال يا مبارك الناصية أعد على ما ذكرت قال سل عما بدالك قال فما حال كلبي ايقاع قال مات قال وما الذى أماته قال اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات قال أومات جملى زريق قال نعم قال وما الذى أماته قال كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير قال اوماتت أم عمير قال نعم قال وما الذى أماتها قال كثرة بكائها على عمير قال أومات عمير قال نعم قال وما الذى أماته قال سقطت عليه الدار قال أوسقطت الدار قال نعم قال فقام له بالعصا ضاربا فولى من بين يديه هاربا (وحكى) بعضهم قال كنت فى سفر فضللت عن الطريق فرأيت بيتا فى الفلاة فأتيته فاذا به أعرابية فلما رأتنى قالت من تكون قلت ضيف قالت أهلا ومرحبا بالضيف انزل على الرحب والسعة قال فنزلت فقدمت لى طعاما فأكلت وماء فشربت فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال من هذا فقالت ضيف فقال لا أهلا ولا مرحبا ما لنا وللضيف فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتى وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتا فى الفلاة فقصدته فاذا فيه أعرابية فلما رأتنى قالت من تكون قلت ضيف قالت لا أهلا ولا مرحبا بالضيف ما لنا وللضيف فبينما هى تكلمنى إذ أقبل صاحب البيت فلما رآنى قال من هذا قالت ضيف قال مرحبا وأهلا بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مر بى بالامس فتبسمت فقال مم تبسمك فقصصت عليه ما اتفق لى مع تلك الاعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته فقال لا تعجب أن تلك الاعرابية التى رأيتها هى اختى وأن بعلها أخو امرأتى هذه فغلب على كل طبع أهله وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة وأخبارهم ونوادرهم شهيرة وفيما ذكرته كفاية وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الخامس والثلاثون فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيف وأخبار الاكلة وما جاء عنهم وغير ذلك﴾

﴿أما اباحة الطيب من المطاعم﴾ فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون وقال تعالى يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين وقال تعالى قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة وقال رسول الله ﷺ محرم الحلال كمحل الحرام وقال عليه الصلاة والسلام إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه وكان الحسن رضى الله تعالى عنه يقول ليس فى اتخاذ الطعام سرف وسئل الفضيل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص للزهد فقال ما للزهد وأكل الخبيص ليتك تأكل وتتقى الله ان الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام انظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم وكيف

أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة وبايعا الناس لابن الزبير وهذه المضربة بسيوفهما تطالبنا بقتلى المرج فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم فقال لهم عبد الملك ما لكم لا تنطقون هذا وقت الحاجة اليكم فقال أفضلهم وددت أن أكون طيرا على عود من أعواد تهامة حتى تنقضي هذه الفتن فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام وأمره بلزوم موضعهم وركب منفردا وأمر جماعة من شجعانه أن يتبعوه متباعدين ففعلوا وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيخ ضعيف البدن سيء الحال وهو يجمع سماقا فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديثه ثم قال له أيها الشيخ ألك علم بنزول هذا العسكر فقال الشيخ وما سؤالك عنه فقال عبد الملك انى أردت الانتظام في سلكه فقال له انى أرى عليك سمة الرياسة فينبغي لك أن تصرف نفسك عن هذا الرأى فان الامير الذى أنت قاصده قد انحلت عرا ملكه والسلطان فى اضطراب أموره كالبحر إذا هاج فقال عبد الملك أيها الشيخ قد قوى على جذب نفسي إلى صحبة هذا الامير فهل لك أن ترشدنى إلى رأى اتفق به عنده فلعله يكون سبب قربى منه فقال الشيخ ان هذه النازلة التى نزلت بهذا الامير من النوازل التى لا تنفذ فيها العقول وإنى لأكره أن أرد مسئلتك بالخيبة فقال له عبد الله قل جزاك الله خيرا فقال الشيخ ان هذا الخليفة خرج إلى قتال عدوه والارادة غير قابلة لمراده والدليل على ذلك أن الله تعالى لم يرد ما قصده من محاربة ابن الزبير ووثوب

عطفك

عطفك على الجار و كيف رحمتك للمسلمين و كيف كظمك للغيظ و كيف عفوك عمن ظلمك و كيف احسانك إلى من أساء اليك و كيف صبرك واحتمالك للأذى أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص (وأما نعوت الأطعمة وما جاء فيها) فقد نقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فقال يا أمير المؤمنين لا أقضى على غائب فأحضرهما اليه فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ثم قال يا أمير المؤمنين كلما أردت أن أقضي لأحدهما أتى الآخر بحجته ◦ واختلف الرشيد وأم جعفر فى الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضى فسأله الرشيد عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى فقال له الرشيد احكم قال قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا دينارا وسمع الحسن البصرى رجلا يعيب الفالوذج فقال لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ما أظن عاقلا يعيبه وقال الاصمعى أول من صنع الفالوذج عبد الله ابن جدعان وأتى اعرابى بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له هل تعرف هذا فقال هذا وحياتك الصراط المستقيم وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم وكان ﷺ يقول هو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة وهو يزيد فى السمع ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان صلى الله عليه وسلم يحب الدباء ويقول يا عائشة إذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدباء فانها تشد القلب الحزين وهى شجرة أخى يونس وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالقرع فانه يشد الفؤاد ويزيد فى الدماغ وعليكم بالعدس فانه يرق القلب ويغزر الدمعة وعن أبى رافع قال كان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يقول اكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالتعب والوصب والكرفس يقوى المعدة ويطيب النكهة وأطيب اللحم الكتف وكان يديم أكل الهريسة وكان يأكل على سماط معاوية ويصلى خلف على ويجلس وحده فسئل عن ذلك فقال طعام معاوية أدسم والصلاة خلف على أفضل وهو أعلم والجلوس وحدى لى أسلم وسميت المتوكلية بالمتوكل والمأمونية بالمأمون وقال الحسن بن سهل يوما على مائدة المأمون الأرز يزيد فى العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين ان طب الهند صحيح وهم يقولون ان الأرز يرى منامات حسنة ومن رأى مناما حسنا كان فى نهارين فاستحسن قوله ووصله وقال أبو صفوان الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا وقيل لأبى الحرث ما تقول فى الفالوذجة قال وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا فى صدرى والله لو أن موسى لقى فرعون بالفالوذجة لآمن ولكنه لقيه بعصا وكانت العرب لا تعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتى كان زمن معاوية رضى الله تعالى عنه فاتخذ الألوان ويقال المرقة المسخنة بنت نارين وكان بعض المترفين يقول جنبوا مائدتى بنت نارين وقالوا كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد وقيل إذا ألقى اللحم فى العسل ثم أخرج بعد شهر طريا فانه لا يتغير ويقال السكباج سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد ويقال إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة ويقال للخبز ابن حبة قال بعضهم :

في حبة القلب مني ◦ زرعت حب ابن حبه

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما رفعه أكرموا الخبز قالوا وما كرامته يا رسول الله قال لا ينتظر به

عمرو بن سعيد على منبره واستيلائه على بيوت أموال المسلمين وخلافته فاذا قصدت هذا الأمير وانتظمت فى سلكه انظر فى أمره فان رأيته قد أصر على قصده ابن الزبير فاعلم أنه مخذول فاجتنبه وان رأيته قد رجع من حيث جاء وترك قصده الأول فارج له النصر والسلامة فقال عبد الملك يا شيخ وهل رجوعه إلى دمشق إلا كسيره إلى ابن الزبير فقال الشيخ ان الذى أشكل عليك لواضح وها أنا أزيل عنك اللبس وهو أن عبد الملك إذا قصد ابن الزبير كان فى صورة ظالم لأن ابن الزبير لم يطعه طاعة قط ولا وثب له على مملكة فاذا قصد ابن سعيد كان فى صورة مظلوم لأنه نكث بيعته وخان أمانته ووثب على دار ملك لم تكن له ولا لأبيه من قبله بل كانت لعبد الملك ولأبيه من قبله وعمرو عليها متعد ◦ ومن الأمثال سمين الغصب مهزول وولى الغدر معزول وسأضرب لك مثلا يشفى النفس ويزيل اللبس ◦ زعموا أن ثعلباً كان يسمى ظالما وكان له جحر يأوى اليه وكان مغتبطا به فخرج يوما يبتغى ما يأكل ثم رجع فوجد فيه حية فانتظر خروجها فلم تخرج فعلم أنها استوطنته وذلك أن الحية لا تتخذ جحراً بل إذا أعجبها جحراً اغتصبته وطردت من به من الحيوان ولهذا قيل فلان أظلم من حية فهذا ظالما ولما رأى ظالم أن الحية قد استوطنت جحره ولم يمكنه السكنى معها ذهب يطلب لنفسه مأوى فانتهى به السير إلى جحر حسن الظاهر حصين

الادام اذا وجد تم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره وفى الحديث من داوم على اللحم أربعين يوما قسا قلبه ومن تركه أربعين يوما ساء خلقه وقيل المائدة التى أنزلت على بنى اسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث وسمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان ودخل ابن قرعة يوما على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال مابال مولانا ليس يدعونى إلى الفوز بأكل الموز فقال صفه حتى أطعمك منه فقال ماالذى أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبدا وعسلا أطيب الثمر كأنه مخ الشحم سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس فى الحلقوم ثم مد يده وأكل وسمع رجلا يذم الزبد فقال ماالذى ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه وقيل له ماتقول فى الباذنجان قال أذناب المحاجم بطون العقارب وبزور الزقوم قيل له انه يحشى باللحم فيكون طيبا فقال لوحشى بالتقوى والمغفرة ما أفلح وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاذان هل عمل كسرى مثلها فاستعفاه فأقسم عليه فقال أولم عبد عند كسرى فأقام على رءوس الناس ألف وصيفة فى يد كل واحدة إبريق من ذهب فقال الحجاج أف والله ماتركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفا وأهدى رجل إلى آخر فالوذخة زنخة وكتب اليه انى اخترت لعملها السكر السوسى والعسل الماردانى والزعفران الأصبهانى فأجابه والله العظيم ماعملت إلا قبل أن توجد أصبهان وقبل أن تفتح السوس وقبل أن يوحى ربك إلى النحل وقيل ان أباجهم بن عطية كان عينا لأبى مسلم الخولانى على المنصور فأحس المنصور بذلك فطاوله الحديث يوما حتى عطش فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل فى ذلك :

تجنب سويق اللوز لا تقربنه * فشرب سويق اللوز أردى أباجهم

﴿ وقال أبو طالب المأمونى ﴾

فما حملت كف امرىء متطعما * ألذ وأشهى من أصابع زينب

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يعمل ببغداد يشبه أصابع النساء المنقوشة ودخل السائب على على رضى الله تعالى عنه فى يوم شاة فناوله قدحا فيه عسل وسمن ولبن فأباه فقال أما انك لو شربته لم تزل دفئا شبعان سائر يومك وعن نافع بن أبى نعيم قال كان أبو طالب يعطى عليا قدحا من اللبن يصبه على اللات فكان على يشرب اللبن ويبول على اللات ﴿وأما الزهد فى المآكل﴾ فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه ومنهم من لا يقدر عليه قالت عائشة رضى الله تعالى عنها والذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزا منخولا منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض قيل فكيف كنتم تأكلون الشعير قالت كنا نقول أف أف وعن جابر رضى الله تعالى عنه رفعه نعم الأدم الخل وكفى بالمرء سرفا أن يتسخط ما قرب اليه وقال عمر رضى الله تعالى عنه ما اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ادمان إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها ما كان يجتمع لونان فى لقمة فى فم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كان لحما لم يكن خبزا وإن كان خبزا لم يكن لحما وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يا على ابدأ بالملح واختم به فان فيه شفاء من سبعين داء وروى أن نبيا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا إلى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فان القوة فيهما وسنذكر فضل الزهد فى المآكل والمشارب فى باب

فى أرض منيعة ذات أشجار ملتفة وماء معين فأعجبه وسأل عنه فقالوا هذا الجحر يملكه ثعلب اسمه مفوض وانه ورثه عن أبيه فناداه ظالم فخرج اليه ورحب به وأدخله إلى جحره وسأله عن حاله فقص عليه خبره مع الحية فرق له مفوض وقال له الموت فى طلب الثار خير من الحياة فى العار والرأى عندى أن تنطلق معى إلى مأواك الذى أخذ منك غصبا حتى أنظر اليه فلعلى أهتدى إلى مكيدة تخلص بها مأواك فانطلقا معا إلى ذلك الجحر فتأمله مفوض وقال لظالم اذهب معى فبت الليلة عندى لأنظر ليلتى هذه فيما يسنح من الرأى والمكيدة ففعلا ذلك وبات مفوض مفكرا وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض فرأى من سعته وطيب هوائه وحصانته ما اشتد به حرصه عليه وطفق يدبر فى حيلة اغتصابه ونفى مفوض عنه فلما أصبحا قال مفوض لظالم انى رأيت ذلك الجحر بعيدا من الشجر والماء فاصرف نفسك عنه وهلم أعينك على احتفار جحر فى هذا المكان المشتهى فقال ظالم هذا غير ممكن لأن لى نفسا تهلك لبعد الوطن حنينا فلما سمع مفوض مقالة ظالم وما تظاهر به من الرغبة فى وطنه قال له انى أرى أن تذهب يومنا هذا فتحتطب حطبا وتربط منه حزمتين فاذا جاء الليل انطلقنا إلى بعض هذه الخيام فأخذنا قبس نار وجمعنا الحطب والقبس إلى مسكنك فنجعل الحزمتين فى بابه ونضرم النار فان خرجت الحية احترقت وإن لزمت النار

مدح

الجحر فملها الدخان فقال له ظالم هذا نعم الرأى فذهبا واحتطبا حزمتين ولما جاء الليل انطلق مفوض إلى ظاهر تلك الخيام فأخذ قبسا فعمد ظالم إلى إحدى الحزمتين فأزالها إلى موضع غيبها فيه ثم جر الحزمة الأخرى إلى باب مسكن مفوض فسده بها سدا محكما وقدر فى نفسه أن مفوضا إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لحصانته فاذا يئس منه ذهب فنظر لنفسه مأوى وكان ظالم قد رأى فى منزل مفوض طعاما ادخره لنفسه فعول ظالم على أنه يقتات به إلى أن حاصره مفوض وهو من داخل وأذهله الشره والحرص عن فساد هذا الرأى ثم ان مفوضا جاء بالقبس فلم يجد ظالما ولا وجد الحطب فظن أن ظالما قد حمل الحزمتين تخفيفا عنه وأنه سبقه إلى مسكنه الذى فيه الحية اشفاقا على مفوض فشق ذلك عليه وظهر له من الرأى أن يبادر إليه ويلحقه ليحمل معه الحطب فوضع القبس بالقرب من الحطب ولم يشعر أن الباب مسدود به لشدة الظلمة فما بعد عن الباب إلا وضوء النار وشدة الدخان قد لحقا به فعاد وتأمل الباب فرأى الحطب قد صار نارا فعلم مكيدة ظالم ورآه قد احترق من داخل الجحر وحاق به مكره فقال هذا الباحث على حتفه بظلفه ثم إن مفوضا صبر حتى انطفأت النار فدخل جحره فأخرج جثة ظالم فألقاها واستوطن جحره آمنا فهذا المثل ضربته لك لانه ملائم لقتل عمرو بن سعيد فى بغيه ومخادعته عبد الملك وحيلته فى أخذ دار ملكه وتحصينها منه وهذا

مدح الفقراء ان شاء الله تعالى ﴿وأما ما جاء فى آداب الأكل﴾ فقد قال رسول الله ﷺ من قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه وقال ﷺ من أكل طعاما فقال الحمد لله الذى أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ومن لبس ثوبا فقال الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه * وقالت عائشه رضى الله تعالى عنها قال رسول الله ﷺ إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله فان نسى فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره وفى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله ﷺ إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله وقال ﷺ الاكل فى السوق دناءة وعن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبي ﷺ زجر عن الشرب قائما قال فسألناه عن الأكل قائما فقال هو شر من الشرب وأوصي رجل من خدم الملوك ابنه فقال إذا أكلت فضم شفتيك ولا تلتفتن يمينا ولا شمالا ولا تلقمن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة ولا تبصق فى الأماكن النظيفة ومن هذا ما رواه الزهرى أن النبي ﷺ نهى عن النفخ فى الطعام والشراب وقال على رضى الله تعالى عنه نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حارا وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ما عاب النبي ﷺ طعاما قط ان اشتهاه أكله وإلا تركه وقال عمر بن هبيرة عليكم بمباكرة الغداء فان مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروءة قيل وما اعانته على المروءة قال أن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك وعن النبي ﷺ قال من أكل من سقط المائدة عاش فى سعة وعوفى فى ولده وولد ولده من الحمق وعنه ﷺ من لقط شيئا من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار وكان الحرث بن كلدة يقول إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه وإذا تعشي فليخط أربعين خطوة وقيل خير الغداء بواكره وخير العشاء سوافره وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه وقال الحجاج لاعرابي يوما على سماطه ارفق بنفسك فقال وأنت يا حجاج اغضض من بصرك وقال معاوية لرجل على مائدته خذ الشعرة من لقمتك فقال وانك تراعيني مراعاة من يرى الشعرة فى لقمتى لا أكلت لك طعاما أبدا ووضع معاوية بين يدى الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما دجاجة ففكها فقال معاوية هل بينك وبين أمها عداوة فقال الحسن فهل بينك وبين أمها قرابة أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضي الله تعالى عنهما وحضر أعرابى على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدى مشوى فجعل الاعرابى يسرع فى أكله منه فقال له الخليفة أراك تأكله بحرد كأن أمه نطحتك فقال أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك ﴿وأما ما جاء فى كثرة الأكل﴾ فقد روى عن حذيفة رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ من قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه ومن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه وعنه صلى الله عليه وسلم لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات وقال ﷺ ما زين الله رجلا بزينة أفضل من عفاف بطنه وقال عمرو ابن عبيد ما رأيت الحسن ضاحكا إلا مرة واحدة قال رجل من جلسائه ما آذانى طعام قط فقال له آخر أنت لو كانت فى معدتك الحجارة لطحنتها وقال على كرم الله وجهه البطنة تذهب الفطنة وقال

ابن المقفع كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهما شرها أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار وتقول العرب أقلل طعاما تحمد مناما وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا :

لست بأكال كأكل العبد * ولا بنوام كنوم الفهد

وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد

إذا لم أزر إلا لآكل أكلة * فلا رفعت كفي إلى طعامي

فما أكلة إن نلتها بغنيمة * ولا جوعة ان جعتها بغرام

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلاما فألقى بين يديه تمرا فأكل فأكثر فقال ﷺ ان كثرة الأكل شؤم وقالوا الوحدة خير من الجليس السوء والجليس السوء خير من الأكيل السوء وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال فقال اشكر فان الله قد رزقك الاسلام والعافية قال أجل ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد ودعت أبا الحرث حبيبة له فحادثته ساعة فجاع فطلب الأكل فقالت له أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل قال جعلت فداءك لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا

(وأما أخبار الأكلة) فقد قيل ان وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل فقال أكلت مائة رغيف بمكوك بلح * ومر ميسرة المذكور يوما بقوم وهو راكب حمارا فدعوه للضيافة فذبحوا له حماره وطبخوه وقدموه له فأكله كله فلما أصبح طلب حماره ليركبه فقيل له هو في بطنك * وقال المعتمر بن سليمان قلت لهلال المازني ما أكلة بلغتني عنك قال جعت مرة ومعي بعير لي فنحرته وشويته وأكلته ولم أبق منه إلا شيئا يسيرا حملته على ظهري فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لي فلم أقدر أصل إليها فقالت كيف تصل إلي وبيننا جمل فقلت له كم تكفيك هذه الأكلة فقال أربعة أيام وقال الأصمعي إن سليمان بن عبد الملك كان شرها نهما وكان من شرهه أنه إذا أتى بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى ان يبرد ولا أن يؤتى بمنديل فيأخذ بكمه فيأكل واحدة واحدة حتى يأتي عليها فقال الرشيد ويحك يا أصمعي ما أعلمك أخبار الناس اني عرضت علي جباب سليمان فرأيت فيها آثار الدهن فظننته طيبا حتى حدثتني ثم أمر لي بجبة منها فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك * وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إلي وقال يا شمردل ما عندك ما تطعمني قلت عندي جدي كأعظم ما يكون سمنا قال عجل به فأتيته به كأنه عكة سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذ قال هلم يا أبا جعفر فقال إني صائم فأكله ثم قال يا شمردل ويلك أما عندك شيء قلت ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام فأتيته بهن فأتى عليهن ثم قال يا شمردل أما عندك شيء قلت سويق كأنه قراضة الذهب فأتيته به فعبه حتى أتى عليه ثم قال يا غلام أفرغت من غدائنا قال نعم قال ما هو قال نيف وثلاثون قدرا قال ائتني بقدر قدر فأتاه بها ومعه الرقاق فأكل من كل قدر ثلثه ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا وصف الخوان فقعد وأكل مع الناس وكان هلال بن الأسعر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ وكان غليظا عتلا * وقال اعرابي لرجل رآه سمينا أرى عليك قطيفة من

نسج

كفعل ظالم مع مفوض والله أعلم فلما سمع عبد الملك حكمة الشيخ في ضرب أمثاله سر بذلك سرورا عظيما ثم أقبل عليه فقال جزيت عني خيرا واني (١٨٠) أريد أن تجعل بيني وبينك موعدا وتعرفني مكانك لألقاك له بعد يومي هذا فقال الشيخ وما تريد بذلك فقال له عبد الملك اني اريد مكافأتك على ما كان منك فقال له الشيخ اني أعطيت الله عهدا أن لا أقبل منه لبخيل فقال عبد الملك ومن أين علمت اني بخيل فقال لأنك أخرت صلتي مع القدرة فما عليك لو وصلتني ببعض ما عليك فقال عبد الملك أقسم بالله لقد ذهلت ثم نزع سيفه وقال له أقبل مني هذا وأحرص عليه فقيمته عشرون ألف درهم فقال الشيخ اني لا أقبل صلة ذاهل فدعني وربي الذي لا يذهل ولا يبخل فهو حسبي فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عظم في عينه وعلم فضله في دينه فقال له أنا عبد الملك فارفع حوائجك إلي فقال الشيخ وأنا أيضا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان فانطلق عبد الملك وعمل برأي الشيخ فأنجح الله قصده وانتصر على أعدائه فلما سمع الوليد ما أخبره به الكهل استرجع عقله واستظرف أدبه واستحسن محاضرته وسأل عن نفسه فتسمى له وانتسب فلم يعرفه الوليد فاستحى منه وقال له من جهل مثلك في رعيته ضاع فقال له الكهل يا أمير المؤمنين ان الملوك لا تعرف إلا من تعرف إليها ولزم أبوابها فقال له الوليد صدقت ثم أمر له بصدقة معجلة وعهد إليه في ملازمته فكان يجتمع

نسج أضراسك • وقال أبو المحسر الاعرابى كانت لى بنت تجلس معى على المائدة فتبرز كفا كأنها صلفة فى ذراع كأنه جمارة فلا تقع عينها على لقمة نفيسة الا خصتنى بها فكبرت وزوجتها وصرت أجلس على المائدة مع ابن لى فيبرز كفا كأنها كرنافة فوالله لن تسبق عينى الى لقمة طيبة الا سبقت يده اليها وقال مسلم بن قتيبة عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفا مع كل رغيف سمكة • ويقال فلان يحاكى حوت يونس فى جودة الالتقام وعصا موسى فى سرعة الالتهام • وقيل لأبى مرة أى الطعام أحب اليك قال لحم سمين وخبز سميذ أضرب فيه ضرب ولى السوء فى مال اليتيم • وقال صدقة بن عبيد المازنى أولم لى أبى لما تزوجت فعمل عشر جفان ثريد من جزور فكان أول من جاءنا هلال المازنى فقدمنا له جفنة مترعة فأكلها ثم أخرى فأكلها حتى أتى على الجميع ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ فوضع طرفها فى شدقه وفرغها فى جوفه ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام • وكان عبيد الله بن زياد يأكل فى كل يوم خمس أكلات فخرج يوما يريد الكوفة فقال له رجل من بنى شيبان الغداء أصلح الله الامير فنزل فذبح له عشرين طائرا من الاوز فأكلها ثم قدم الطعام فأكل ثم أتى بزنبيلين فى إحداهما تين وفى الآخر بيض فجعل يأكل من هذا تينة ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه ثم رجع وهو جائع وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف فذكر ذلك للمهدى فقال دعوت يوما بالفيل وأمرت فألقى اليه رغيف رغيف فأكل تسعه وتسعين وألقى اليه تمام المائة فلم يأكله • وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهرى انه سمع الشيخ الامام عز الدين بن عبد السلام يقول ان معاوية بن أبى سفيان كان يأكل فى كل يوم مائة رطل بالدمشقى ولا يشبع • ونزل رجل بصومعة راهب فقدم اليه الراهب أربعة أرغفة وذهب ليحضر اليه العدس فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس ففعل معه ذلك عشر مرات فسأله الراهب أين مقصدك قال الى الاردن قال لماذا قال بلغنى ان بها طبيبا حاذقا أسأله عما يصلح معدتى فانى قليل الشهوة للطعام فقال له الراهب إن لى اليك حاجة قال وما هى قال اذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك على

(وأما المهازلة على الطعام) فقد روى عن يحيى بن عبد الرحمن رضى الله تعالى عنه قال قالت عائشة رضى الله تعالى عنها كان عندى رسول الله ﷺ وسودة فصنعت حريرة فجئت به فقلت لسودة كلى فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلين أو لألطخن وجهك فقالت ما أنا بذائقته فأخذت من الصحفة شيئا فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بينى وبينها فتناولت من الصحفة شيئا فلطخت به وجهى وجعل رسول الله ﷺ يضحك • واشترى غندر يوما سمكا وقال لأهله اصلحوه ونام فأكل عياله السمك ولطخوا يده فلما انتبه قال قدموا الى السمك قالوا قد أكلت قال لا قالوا شم يدك ففعل قال صدقتم ولكن ما شبعت • ودخل الحمدونى على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوة ولا يمدون أيديهم فقال لقد ذكرتمونى ضيف ابراهيم وقول الله تعالى فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ثم قال كلوا رحمكم الله فضحكوا وأكلوا والحكايات فى ذلك كثيرة

(وأما الضيافة وإطعام الطعام) فقد قال الله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وقال رسول الله ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره وقال صلى الله

بأدبه وحكمته الى أن كان من أمر الوليد ما هو مشهور والله أعلم (ومما تخيرته من عجائب سلوان المطاع) قيل لما عزم سابور ابن هرمز على الدخول الى بلاد الروم متنكرا نهاه نصحاؤه وعقلاء وزرائه وحذروه من ذلك فعصاهم وكان يقال أوزر الناس وزراء الاحداث من الملوك وعشاق الفتيان من المشايخ فان سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيرا كان له ولأبيه من قبله وكان من أدهى الناس فى الحزم وسداد الرأى واختلاف الأديان ولغاتها وكان من المتبحرين فى العلوم والمبرزين بالمكايد فسلم اليه سابور جميع ما يحتاج اليه فى سفره وأمر أن لا يتجاوز فى السير ولا يبعد عنه بحيث يراعى جميع أحواله فى ليله ونهاره فتوجها نحو الشام ولبس ذلك الوزير زى الرهبان وتكلم بلسانهم وتحرف بصناعة الطب الجرائحى وكان معه الدهن الصينى الذى اذا دهنت به الجراحات ختمت بسرعة واندملت فكان ذلك الوزير فى مسيره نحو بلاد الروم يداوى الجراحات بأدوية يضيف اليها يسيرا من ذلك الدهن فتبرأ بسرعة واذا عنى بأحد من ذوى الاقدار داواه بذلك الدهن صرفا فيبرأ على الفور ولا يأخذ على ذلك أجرا فانتشر ذكره فى بلاد الروم وعقدت عليه الخناصر وأقبل عليه الناس مع انفراده وكان مع سابور يراعى جميع أحواله فلم يزالا كذلك حتى طاف جميع الشام وقصد القسطنطينية فقدماها فذهب الوزير الى البطرك وتسمى هذا الاسم أبو الآلاء

فاستأذن عليه فأذن له وسأله عن قصده فأخبره أنه هاجر اليه ليتشرف بخدمته ويدخل فى اتباعه ثم أهدى اليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك فقربه

وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانته واختبره فوجده عالما بدينهم بل مبرزا فأعجب به غاية الأعجاب وجعل الوزير يتأمل أحوال البطرك ليصحبه بما يلائمه ويحقق عنده فوجده مائلا الى الفكاهات معجبا بنوادر الأخبار وكان الوزير فى ذلك غاية فأخذ يتحفه بكل نادرة غريبة وملحة عجيبة فصار البطرك لم يطق عن الوزير صبرا لأنه حلا لعينه وحل بقلبه وجعل الوزير مع ذلك يعالج الجراحات ولا يأخذ على ذلك عوضا فعظم قدره فى الناس هذا وهو يتعاهد أحوال سابور فى كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة وحضر الناس اليها على طبقاتهم فأراد سابور حضورها ليطلع على أحوال قيصر وعلى رتبته فى قصره وعظم وليمته فنهاه وزيره عن ذلك فعصاه وتزيا بزى ظن أنه يستتر به ودخل دار قيصر مع من حضر الوليمة وكان قيصر من شدة احتراسه من سابور وخيفته من أن يطرق بلاده وتحسن له همته العالية وحدة الشبيبة ذلك صور سابور فى مجلسه وعلى ستور بيته وعلى فرشه وفى آلات أكله وشربه

مطلب

ولما دخل سابور يوم الوليمة واستقر فى مجلسه وأكل مع من حضر أتوا بالشراب فى كئوس البلور والذهب والفضة والزجاج المحكم

عليه وسلم من أكل وذو عينين ينظر اليه ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له وقال الحسن كنا نسمع أن احدى مواجب الرحمة اطعام الأخ المسلم الجائع وقيل لابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بم اتخذك الله خليلا قال بثلاث ماخيرت بين شيئين إلا اخترت الذى لله على غيره ولا اهتممت بما تكفل لى به ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف ويقولون ماخلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف وكان الزهرى إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام وقالوا المائدة مرزوقة أى من كان مضيافا وسع الله عليه وقالوا أول من سن القرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم وأول من أفطر جيرانه على طعامه فى الاسلام عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما وهو أول من وضع موائده على الطريق وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شىء فان لم يجد من يأكله تركه على الطريق وقيل لبعض الكرماء كيف اكتسبت مكارم الأخلاق والتأدب مع الأضياف فقال كانت الاسفار تحوجنى إلى أن أفد على الناس فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته وما استقبحته اجتنبته

(وأما آداب المضيف) فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه فقد قيل البشاشة فى الوجه خير من القرى قالوا فكيف بمن يأتى بها وهو ضاحك وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوى رحمه الله هذا الكلام بابيات فقال إذا المرء وافى منزلا منك قاصدا * قراك وأرمته لديك المسالك
فكن باسما فى وجهه متهللا * وقل مرحبا أهلا ويوم مبارك * وقدم له ماتستطيع من القرى
عجولا ولا تبخل بما هو هالك * فقد قيل بيت سالف متقدم * تداوله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى * فكيف بمن يأتى به وهو ضاحك

وقالت العرب تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة واطالة الحديث عند المؤاكلة وقال حاتم الطائى

سلى الطارق المعتر يا أم مالك * إذا ما أتانى بين نارى ومجزرى
أأبسط وجهى إنه أول القرى * وأبذل معروفى له دون منكرى

(وقال آخر فى عبد الله بن جعفر) انك يا ابن جعفر خير فتى * وخيرهم لطارق إذا أتى

(ولله در القائل) الله يعلم أنه ماسرنى * شىء كطارقة الضيوف النزل
مازلت بالترحيب حتى خلتنى * ضيفا له والضيف رب المنزل

(أخذه من قول الشاعر) ياضيفنا لو زرتنا لوجدتنا * نحن الضيوف وأنت رب المنزل

(وما أحسن ماقال سيف الدولة بن حمدان)

منزلنا رحب لمن زاره * نحن سواء فيه والطارق * وكل ما فيه حلال له * إلا الذى حرمه الخالق

(وقال الأصمعي) سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال أوما سمعت قول عاصم بن وائل

وإنا لنقرى الضيف قبل نزوله * ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

(وقال بعض الكرام) أضاحك ضيفى قبل أن أنزل رحله * ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للاضياف أن تكثر القرى * ولكنما وجه الكريم خصيب

(وقال آخر) عودت نفسى إذا ما الضيف نبهنى * عقرت العشار على عسر وايساره

(ومن آداب المضيف) أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل اكرام الضيف قال الشاعر

مطية الضيف عندي تلو صاحبها * لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله أما سمعت قول الله عز وجل وامرأته قائمة * ومن آداب المضيف أن يحدث أضيافه بما تميل اليه نفوسهم ولا ينام قبلهم ولا يشكو الزمان بحضورهم ويبش عند قدومهم ويتألم عند وداعهم وأن لا يحدث بما يروعهم به كما حكى بعضهم قال استدعانى اسحق بن ابراهيم الظاهرى إلى أكل هريسة فى بكرة نهار فدخلت فأحضرت لنا الهريسة فأكلنا فاذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طباخه فاستدعى خادمه فأسر اليه شيئا لم نعلمه فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة فكشف عن الصينية فاذا يد الطباخ مقطوعة تختلج فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لا نعقل فيجب على المضيف أن يراعى خواطر أضيافه كيفما أمكن ولا يغضب على أحد بحضورهم ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه ولا يعبس بوجهه ولا يظهر نكدا ولا ينهر أحدا ولا يشتمه بحضرتهم بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه وعمل لهم سماطا وكان له ولد جميل الطلعة فكان الولد فى أول النهار يخدم القوم ويأنسون به ففى آخر النهار صعد الى السطح فسقط فمات لوقته فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكى الى أن تصبح فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده فقال هو نائم فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم ان رأيتم أن تصلوا على ولدى فانه بالأمس سقط من على السطح فمات لساعته فقالوا والله لا أخبرتنا حين سألناك فقال ما ينبغى لعاقل أن ينغص على أضيافه فى التذاذهم ولا يكدر عليهم فى عيشهم فتعجبوا من صبره وتجلده ومكارم أخلاقه ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم ويسهل حجابه وقت الطعام ولا يمنع وارداه وقيل لبعض الأمراء الكرام لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير ويحترز عن العدو فقال ان عدوا يأكل طعامنا ولا ينخدع لا يمكنه الله منا والا ليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام فان ذلك أول الشناعة عليه وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف ان كان من أهل ذلك وأن يرى أضيافه مكان الخلاء فقد قيل عن ملك الهند أنه قال إذا ضافك أحد فأره الكنيف فانى ابتليت به مرة فوضعته فى قلنسوتى وقالوا لا بأس أن يدخل الرجل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة وقد قصد النبى ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الانصارى وكذلك كانت عادة السلف رضى الله تعالى عنهم وكان لعون بن عبد الله المسعودى ثلثمائة وستون صديقا فكان يدور عليهم فى السنة ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل وهو غائب فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضى الله عنها فأكل طعامها وهى غائبة وكان الحسن رضى الله عنه يوما عند بقال فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه فستقة فيأكلها فقال له هشام ما بدا لك يا أبا سعيد فى الورع فقال له يا لكع اتل على آية الاكل فتلا ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم إلى قوله أو صديقكم فقال الصديق من استروحت اليه النفس واطمأن اليه القلب وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما فى يده بل يحضر إليهم ما وجد فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا

وكان فى المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم فلما وقعت عينه على سابور أنكره وجعل يتأمل شخصه فرأى عليه مخايل الرياسة ولما زاد فى تأمله وصل اليه دور الكأس فتأمل الصورة التي على الكاس وراجع النظر فى سابور فما شك أن الصورة التي على الكأس وضعت على مثاله وغلب على ظنه انه سابور فأمسك الكأس فى يده امساكا طويلا ثم قال رافعا صوته ان هذه الصورة التي على هذا الكأس تخبرنى اخبارا عجيبا فقيل له وما الذى تخبرك فقال تخبرنى ان الذى هى مثال له معنا فى مجلسنا هذا ثم نظر الى سابور وقد تغير لونه حين سمع مقالته فحقق ظنه فبلغ ذلك قيصر فأدناه وقربه وسأله فأخبره أن سابور معه فى مجلسه وأشار اليه فأمر قيصر بالقبض عليه وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلل لم تقبل فقال ذلك المتفرس أيها الملك لا تقبل قوله فانه سابور لا محالة فهدده قيصر بالقتل فاعترف أنه سابور فحبسه قيصر مكرما وأمر أن يعمل له من جلود البقر صورة بقرة وتطبق عليها الجلود سبع طبقات ويتخذ لها باب وتجعل لها كوة لأجل المبال ويستقر سابور بها وتجمع يداه إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة يمكنه معها تناول ما يعمل له من طعام وشراب وغير ذلك فلما دخل سابور جوف تلك الصورة جمع قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد فارس ووكل بسابور وهو داخل البقرة مائة رجل من ذوى البأس والشدة

يقدمون الكسرة اليابسة وحشف التمر ويقولون ماندرى أيهما أعظم وزرا الذى يحتقر ماقدم اليه أو الذى يحتقر ماعنده أن يقدمه وعن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف (وحكى) عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه كان نازلا عند الزعفرانى ببغداد فكان الزعفرانى يكتب فى كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعى منها يوما وألحق فيها لونا آخر فعرف الزعفرانى ذلك فأعتق الجارية سرورا بذلك وكانت سنة السلف رضى الله عنهم أن يقدموا جملة الالوان دفعة ليأكل كل شخص مايشتهى ومن السنة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار وعلى المضيف إذا قدم الطعام الى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته فقد قيل ثلاثة تضنى سراج لا يضىء ورسول بطىء ومائدة ينتظر لها من يجىء ونزل الامام الشافعى رضى الله عنه بالامام مالك رضى الله عنه فصب بنفسه الماء على يديه وقال له لا يرعك مارأيت منى فخدمة الضيف على المضيف فرض

اعرض طعامك وابذل له لمن أكلا * واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابرى العرض محتشما * من القليل فلست الدهر محتفلا

ومن البخلاء من يعزم على الضيف فيعتذر له فيمسك عنه بمجرد الاعتذار كأنه تخلص من ورطة وقيل لبعض البخلاء ما الفرج بعد الشدة قال أن يعتذر الضيف بالصوم ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف زباديه ويشتهى أن تبقى على حالها ومنهم من يحضر طعامه فاذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها الى النفوس ويعتذر أن فى أصحابه من يحضر بالغداة عنده (وحكى) عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل فدخل الضيف من قبل أن يرفعه فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز فقال له ترى أن تأكل عسلا بلا خبز قال نعم وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة فقال له البخيل مهلا يا أخي والله انه يحرق القلب قال نعم صدقت ولكنه قلبك (وحكى) عن بعضهم انه قال غلب على الجوع مرة فقلت أمضى الى دار فلان لأتغدى عنده فجئت الى باب بيته فوجدت غلامه فقلت له أين سيدك فقال والله لا قلت لك عليه إلا إن أعطيتنى كسرة قال فرجعت هاربا * ومن البخل تقديم الشيء اليسير وتفخيمه * حكى عن بعض البخلاء أنه حلف يوما على صديقه وأحضر له خبزا وجبنا وقال لهلا تستقل الجبن فان الرطل منه بثلاثة دراهم فقال له ضيفه أنا أجعله بدرهم ونصف قال وكيف ذلك قال آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن فأين هؤلاء من الذى يقول

قالت أما ترحل تبغى الغنى * قلت فمن للطارق المعتم * قالت فهل عندك شىء له
قلت نعم جهد الفتى المعدم * فكم وحق الله من ليلة * قد أطعم الضيف ولم أطعم
إن الغنى بالنفس ياهذه * ليس الغنى بالمال والدرهم

وقال بعض البخلاء

سرى نحونا يبغى القرى طاوي الحشى * لقد عملت فيه الظنون الكواذب
فبات لنا منا الى الصبح شاتم * يعدد تطفيل الضيوف وضارب

فشتان مابين القائلين

(وأما آداب الضيف) فهو أن يبادر الى موافقة المضيف فى أمور منها أكل الطعام ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن * فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف فدخل به الى بيته وقدم

يحملونها وصرف أمره إلى المطران وهو خليفة البطرك فكانت تلك الصورة تحمل بين يديه فاذا نزل العسكر نزلت الصورة التى فيها سابور وسط العسكر وضربت عليها قبة وتضرب للمطران قبة مجاورة لقبة سابور وسار قيصر محتفلا بجنوده وعساكره وقد عزم على خراب فارس ولما جد السير قال وزير سابور للبطرك أيها الأب إنما استفدت بخدمتك الرتبة فى مصالح الأعمال ولا عمل أصلح من تنفيس كربة عن مجهود وجر منفعة الى مضطر وقد علمت اجتهادى فى مداواة الجرحى وان نفسى تنازعنى الى صحبة الملك قيصر فى سفره هذا لاغير فلعل الله تعالى يستنفذنى تمساحا لحة أو يسوقنى إلى مداواة جريح من العسكر ليتقدم قلبي بهذه المثوبات فكره البطرك ذلك وقال له قد علمت أنى لا أستطيع فراقك فكيف تطالبنى بالسفر البعيد قال فلم يزل وزير سابور يتضرع الى البطرك إلى أن استحى منه وسمح له بذلك وزوده وكتب معه الى المطران يخبره برتبته عنده وأنه يحله فى أعلى المراتب ويستضىء برأيه اذا أشكل عليه أمر فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزل فى قبته وجعل زمام أمره ونهيه بيده وصار الوزير يستميله بما يميل اليه ويطرفه فى كل ليلة بطرف الأخبار راقيا بها صوته ليسمع سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس فى أحاديثه مايريد أن يعلمه به ويعلمه من الاسرار فكان سابور يجد بذلك راحة عظيمة

وقدم له الطعام فقال الضيف لست بجائع وإنما أحتاج إلى مكان أبيت فيه فقال الأعرابي إذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيري فإني لا أرى أن تمدحني في البلاد وتهجوني فيما بيني وبينك (وحكي) عن بعض التجار قال استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لأعرض عليه قماشا من تجارتي فبينما أنا بين يديه وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه فقال يا فلان ما هذا الخلق العامي اجلس فجلست وتحققت كرمه وجعلت آكل الكمثراة في لقمة والتفاحة في لقمة ثم قدم الطعام وكنت جائعا فأكلت أكلا جيدا ثم انصرفت فلم أشعر في اليوم الثاني إلا وقد جاءني غلامه ببغلته فاستدعاني إليه فقال لي يا فلان إني قليل الأكل بطيء الهضم ولقد طابت لي مؤاكلتك بالأمس فأريد أن لا تنقطع بعدها عني قال فكنت متى انقطعت حضر غلامه في طلبي فحصل لي بقربي منه مال كثير وجاه عريض ومن آداب الضيف أيضا أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة وموضع قضاء الحاجة وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم وأن لا يخالفه إذا أجلسه في مكان أكرمه به وأن لا يمتنع من غسل يديه وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها فقد نقل في بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عربيدا على أضيافه سيء الخلق بهم فبلغ ذلك بعض الأذكياء فقال الذي يظهر لي من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف ولا بد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره قال فقصدته وسلمت عليه فقال هل لك أن تكون ضيفي قلت نعم فسار بين يدي إلى أن جاء إلى باب داره فأذن لي فدخلت فأجلسني في صدر مجلسه فجلست حيث أجلسني وأعطاني مسندا فاستندت إليه فأخرج لي شطرنجا وقال أتتقن شيئا قلت نعم فلعبت معه فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه وأنا آكل فلما فرغنا قدم طستا وإبريقا وأراد أن يسكب الماء على يدي فلم أمنعه من ذلك وأراد الخروج من بين يدي بعد أن قدم نعلي فلم أرده عن ذلك فلما أراد الرجوع قلت يا سيدي أنشدك الله إلا فرجت عني كربة قال وما هي فأخبرته الخبر فقال والله ما يحوجني لذلك إلا سوء أدبهم يصل الضيف إلى داري فأجلسه في الصدر فيأبى ذلك ثم أقدم إليه الطعام فلا أتحفه بشيء مستظرف إلا رده علي ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل ثم أريد أن أشيعه فلا يمكنني من ذلك فأقول في نفسي لا يحكم الإنسان على نفسه حتى في بيته فعند ذلك أشتمه وألعنه بل وأضربه وفي معنى ذلك يقول بعضهم

لا ينبغي للضيف أن يعترض * إن كان ذا حزم وطبع لطيف
فالأمر للإنسان في بيته * إن شاء أن ينصف أو أن يحيف

(ومما) يعاب على الضيف أمور منها كثرة الأكل المفرط إلا أن يكون بدويا فإنها عادته ومنها أن يتبع طريق الشرهين كأن يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيها الزبادي والأمراق والحلوى وغير ذلك ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكي وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولده الصغير ومنها قبح المؤاكلة وقد عد فيها عيوب كثيرة فمنها المتشاوف والعداد والجراف والرشاف والنفاض والقراض والنهات واللتات والعوام والقسام والمخلل والمزبد والمرنخ والمرشش والمفتش والمنشف والملبب والصباغ والنفاخ والحامي والمجنح والشطرنجي والمهندس والمتمني والفضولي فأما المتشاوف فهو الذي يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام فلا تراه إلا متطلعا لناحية الباب يظن أن كل ما دخل هو الطعام وأما العداد فهو الذي يستغرق في عد الزبادي

وكان الوزير قد أعد لخلاص سابور أنواعا من المكايد رتبها عندما قدم على المطران منها أنه امتنع عن مؤاكلة المطران وأخبره أنه لا يخلط بطعام البطرك غيره لأجل بركته فكان إذا حضر طعام المطران أخرج هو ذلك الزاد الذي معه وانفرد بالأكل وحده فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ أرض فارس فأكثر فيها القتل والسبي وتغوير المياه وقطع الأشجار وخراب القرى والحصون وهو مع ذلك يواصل السير ليستولي على دار ملك سابور قبل أن يشعروا فيملكوا عليهم رجالهم ولم يكن للفرس هم إلا الفرار من بين يديه والاعتصام بالمعاقل والحصون فلم يزل قيصر على تلك الحال حتى بلغ مدينة سابور وقرار ملكه فأحاط بها ونصب عليها آلات الحصار ولم يكن عندها قوة ولا منعة في دفعه أكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها وكل ذلك فهمه سابور من كنايات الوزير في محاضراته للمطران ولكن لم يسمع له كلمة من حين سجنه قيصر في تلك الصورة فلما علم سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته وأشرف على فتح البلد عيل صبره وساء ظنه ويئس من الحياة فلما جاءه الموكل بطعامه قال له إن هذه الجامعة قد نالت مني منالا ضعفت قوتي عن احتماله فإن كنتم تريدون بقاء نفسي فنفسوا عني منها واجعلوا بينها وبين يدي وعنقي خرقا من الحرير فجاء الموكل بالطعام إلى المطران وأعلمه بالذي قاله سابور فسمعه الوزير وعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن

لما أراد سابور فلما جن الليل وجلس لمسامرة المطران قال له قد ذكرت الليلة حديثا عجيبا ماذكرته منذ كذا وكذا ووددت أنى كنت حدثت به البطرك قبل سفرى فقال له المطران انى أرغب اليك أن تحدثنى الليلة أيها الراهب الحكيم فقال الوزير حبا وكرامة ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور ويفهم الغرض ويستأنس فقال اعلم أيها المطران أنه كان ببلادنا فتى وفتاة ليس فى زمانهما أحسن منهما اسم الفتى عين أهله واسم الفتاة سيدة الناس وكانا زوجين مؤتلفين لا يبتغى أحدهما بالآخر بدلا ثم ان عين أهله جلس يوما مع أصحابه فتذاكروا النساء إلى أن ذكر أحدهم امرأة أطنب فى وصفها وبالغ وذكر أن اسمها سيدة الذهب فوقع فى قلب عين أهله حبها فسأل الواصف عن منزلها فذكر أنها ببلد بالقرب من بلده ففكر عين أهله فى أمرها وخامره حبها فانطلق إلى البلد التى هى ساكنة بها وسأل عن منزلها فعرفه ولم يزل يتردد إلى بابها حتى رآها فرأى منظرا احسنا ولكن لم تكن بأحسن من امرأته بل ضرورات النفس حب التنقل فى الأحوال ولازم عين أهله المعاودة إلى منزل سيدة الذهب حتى فطن له بعلها وكان جافيا غليظ الطبع شديد البطش يسمى الذئب فرصد عين أهله حتى مر به فلما رآه وثب عليه وقتل فرسه ومزق ثيابه واستعان بجماعته عليه فاحتملوه بيته إلى داخل دار الذئب وربطوه إلى سارية فى الدار ووكل به عجوزا مقطوعة اليد جدعاء عوراء شوهاء فلما جن

ويعد على أصابعه ويشير اليها وينسى نفسه والجراف هو الذى يجعل اللقم فى جانب الزبدية ويجرف بها إلى الجانب الآخر والرشاف هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ويرتشفها فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك والنفاض هو الذى يجعل اللقمة فى فيه وينفض أصابعه فى الزبدية والقراض هو الذى يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ويضعها فى الطعام بعد ذلك والبهات هو الذى يبهت فى وجوه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين أيديهم واللتات هو الذى يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها فى الطعام والعوام هو الذى يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادى والقسام هو الذى يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها فى الطعام من فيه والمخلل هو الذى يخلل أسنانه بأظفاره والمزبد هو الذى يحمل معه الطعام والمرنخ هو الذى يرنخ اللقمة فى الامراق فلا يبلع الأولى حتى تلين الثانية والمرشش هو الذى يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه والمفتش هو الذى يفتش على اللحم بأصابعه والمنشف هو الذى ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها والملبب هو الذى يملأ الطعام لبابا والصباغ هو الذى ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده والنفاخ هو الذى ينفخ فى الطعام والحامى هو الذى يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤاكليه والمجنح هو الذى يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له فى المجلس فلا يشق عليه الأكل والشطرنجى هو الذى يرفع زبدية ويضع زبدية أخرى مكانها والمهندس هو الذى يقول لمن يضع الزبادى ضع هذه هنا وهذه ههنا حتى يأتى قدامه مايحب والمتمنى هو الذى يقول ليتنى لم يكن معى من يأكل والفضولى هو الذى يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام ان كان قد بقى عندك فى القدور شىء فاطعم الناس فان فيهم من لم يأكل * ومن الأضياف من لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه فيبقى الغلام واقفا والابريق فى يده والناس ينتظرونه ومنهم من يغسل يديه بالاشنان مرة واحدة فاذا اجتمع الوسخ والذفر تسوك بهما ومنهم من يدخل الدار فيبتدىء بالهندسة أولا فيقول كان ينبغى أن يكون باب المجلس من ههنا والايوان كان ينبغى أن يكون ههنا وينتقل من الهندسة الى ترتيب المجلس فينقل الفاكهة من موضعها الى موضع آخر وان كان قد استحكم جوعه استعفى من الطعام وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم * ومنهم من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم * ولقد حكى عن مغن غير مجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة وماذاك الا أنه كان اذا سئل أين كنت قال كنت عند الناس واذا قيل له أين أكلت قال أكلت فى بطنى وإذا قيل له أين شربت قال شربت فى فمى ومنهم من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه اشتر كذا فيقول والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه مايشترى شيئا فأذوقه فيعجز صاحب المنزل ويخجله إذا لم يكن فى بيته شىء موجود وليت شعرى اذا كان لا يأكل فلأى شىء حضر ومنهم من يرى صاحب البيت قد أسر الى صديقه شيئا فيقول ما الذى قال المولى لصاحبنا وهو لا يريد أن يعلمه ومنهم من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط ومكارم أخلاق وانما ذلك يكون فى بيته لا فى بيوت الناس ومنهم من يقول لصاحب الدعوة من بقى لنا فيقول فلان فيقول له غلطت لم لا دعوت فلانا ومنهم من يسأل صاحب البيت كيف قوته فى النكاح فيقول له أنا رجل كبير قد ضعفت قوتى وشهوتى أو يقول مالى قوة طائلة فى ذلك فيقول أنا والله كلما مر على عام تزايدت شهوتى وكثر لهذا الفن تشوقى ويلعن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت ومنهم من يشكو حاله مع أهل

بيته ويذكر نفقته عليهن وكسوتهن لهن وكثرة انعامه واحسانه اليهن وماعليه زوجته من سوء الاخلاق وكبر النفس لتستقل زوجة صاحب البيت ماهى فيه مع زوجها وربما كان ذلك سببا لفراقها منه ومنهم من تعجبه نفسه ويستحسن لباسه ويستطيب رائحته واذا سمع الغناء تواجد وأظهر الطرب وحرك رأسه ويقوم قائما يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات ويظن فى نفسه أنه يعشق وأن رسول صاحبة البيت لا يبطىء عنه ومنهم من يقال له العب الشطرنج فيأباه ويشتغل بالدندنة فيقع فى الفضول ومنهم من يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده ويظن أنه يدل عليهم ومنهم من يقول له صاحب البيت كل فيقول ما آكل إلا أنا ورفيق ومنهم من يسمع السائل على الباب فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه أو يقول للسائل فتح الله عليك ومنهم من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير اذنه ويقلده بذلك المنن واكثر الناس واقع فى ذلك نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه انه جواد كريم رءوف رحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ الباب السادس والثلاثون فى العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك ﴾

قد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قيل هو الرضا بلاعتب وقال تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين وقال تعالى ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت ياجبريل لمن هذه قال للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال مازال جبريل عليه السلام يوصينى بالعفو فلولا علمى بالله لظننت أنه يوصينى بترك الحدود وقال الحسن بن أبى الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم إلا العافون عن الناس وتلا قوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله وقال على كرم الله وجهه أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره ويقول لقد حبب الى العفو حتى إنى أخاف أن لا أثاب عليه وكان يقول لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو لارتكبوها وقال لو علم الناس حبي للعفو لتقربوا الى الا بالجنايات وقال على كرم الله وجهه إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه وقال رضي الله تعالى عنه أقيلوا ذوى المروءات عثراتهم فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه وقال رضى الله عنه أن أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل وقال المنتصر لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ولذة التشفى يلحقها ذم الندم وقال ابن المعتز لا تشن وجه العفو بالتقريع به وقيل ماعفا عن الذنب من قرع به وقال رجل لرجل سبه اياك اعنى فقال له وعنك أعرض وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول ما آذانى أحد إلا أخذت فى أمره باحدى ثلاث إن كان فوقى عرفت له فضله وان كان مثلى تفضلت عليه وان كان دونى أكرمت نفسى عنه وكان مشهوراً بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته وكان يقول وجدت الاحتمال أنصر لى من الرجال وقيل له ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم كنا نختلف اليه فى الحلم كما نختلف الى الفقهاء فى الفقه ولقد حضرت عنده يوما وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه فجاؤا به

عليه الليل أوقدت تلك العجوز النار بالقرب منه وجعلت تصطلى فذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والعافية والرفاهية والعز فبكي بكاء شديداً فأقبلت عليه العجوز وقالت له ماذنبك الذى أوجب هذا فقال عين أهله ماعلمت لى ذنبا فقالت العجوز هكذا قال الفرس للخنزير وكذب فقال عين أهله للعجوز وما الذى كذب فيه الفرس عند الخنزير فقالت له العجوز ذكروا أن فرسا كان لأحد الشجعان فكان يبالغ فى اكرامه ويحسن اليه ويعده اهماته ولا يصبر عنه ساعة وكان يخرج به فى صحبته كل يوم فيزيل لجامه وسرجه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى فى كل مرج مخصب حتى يرتفع النهار فيرده وهو على يده ثم إنه خرج يوما الى المرج راكبا ونزل عنه فلما استقرت قدماه على الأرض نفر الفرس وجمح ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه وغاب عنه عند غروب الشمس فرجع الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل جاع وطلب أن يرعى فمنعه اللجام ورام أن يتمرغ فمنعه السرج ورام أن يضطجع فمنعه الركاب فبات بشر فلما أصبح ذهب يبتغى فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطعه الى جهته الأخرى فاذا هو بعيد القعر فسبح فيه وكان حزامه ولببه من جلد ما أتقن فى دبغه فلما خرج أصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا واشتدا عليه فورم موضع اللبب والحزم واشتد به الضرر وقوى به الجوع ومضت عليه أيام فتزايد

ضعفه وعجز عن المشى فمريد خنزير فهم بقتله فرآه ضعيفا جداً فسأله عن حاله فأخبره بما هو فيه من أضرار اللجام واللبب والحزام وسأله أن يصنع معه معروفا ويخلصه مما هو فيه فسأله الخنزير عن الذنب الذى أوقعه فى تلك العقوبة فزعم الفرس أن لاذنب له فقال له الخنزير كذبت ولو صدقت خلصتك مما أنت فيه ومن جهل ذنوبه وأصر عليها لم يبرح فلاحه فحدثنى يافرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك فصدقه الفرس وأخبره بجميع أمره وكيف كان عند فارسه مكرما وكيف فارقه وما لقى فى طريقه من حين اجتماعه بالخنزير فقال الخنزير قاتلك الله لقد كفرت النعم وأكثرت الذنوب منها خلافك لفارسك الذى بالغ فى الاحسان اليك وأعدك لمهماته ومنها كفرك احسانه ومنها تعديك على ما ليس لك وهو السرج واللجام ومنها اساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذى لست من أهله ولالك عليه مقدرة ومنها اصرارك على ذنبك وكنت قادرا على العودة إلى فارسك قبل أن يوهنك اللجام والجوع والحزام واللبب بالألم فقال الفرس للخنزير قد عرفت ذنبي فاطلق عنى ودعنى فانى أستحق أضعاف ما أنا فيه فقال الخنزير بعد أن عرفت وعدت على نفسك باللوم واخترت لها العقوبة على جهلها تعين الشروع فى خلاصك ثم إن الخنزير قطع عذار اللجام فسقط وقطع الحزام فنفس عن الفرس قال فلما سمع عين أهلها ما خاطبته به العجوزة قال لها صدقت فيما نطقت

مكتوفا فقال ذعرتم أخى أطلقوه واحملوا إلى أم ولدى ديته فانها ليست من قومنا ثم أنشأ يقول

أقول للنفس تصبيراً وتعزية * إحدى يدى أصابتنى ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه * هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

وقيل من عادة الكريم إذا قدر غفر وإذا رأى زلة ستر وقالوا ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام وقيل من انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقه فلم يجب شكره ولم يحمد في العالمين ذكره والعرب تقول لاسودد مع الانتقام والذى يجب على العاقل اذا أمكنه الله تعالى أن لايجعل العفو بة شيمته وان كان لابد من الانتقام فليرفق فى انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى وقال المنصور لجان عجز عن العذر ماهذا الوجوم وعهدى بك خطيبا لسنا فقال ياأمير المؤمنين ليس هذا موقف مباهاة ولكنه موقف توبة والتوبة بالاستكانة والخضوع فرق له وعفا عنه وسعى الى المنصور برجل من ولد الاشتر النخعي ذكر له عنه أنه يميل إلى بنى على والتعصب لهم فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه قال ياأمير المؤمنين ذنبي أعظم من نقمتك وعفوك أعظم من ذنبى ثم قال

فهبنى مسيئا كالذى قلت ظالما * فعفواً جميلا كى يكون لك الفضل
فان لم أكن للعفو منك لسوء ما * أتيت به أهلا فأنت له أهل

فعفا عنه وأمر له بصلة وأحضر الى المأمون رجل قد أذنب ذنبا فقال له أنت الذى فعلت كذا وكذا قال نعم ياأمير المؤمنين أنا ذاك الذى أسرف على نفسه واتكل على عفوك فعفا عنه وخلى سبيله * وأحضر إلى الهادى رجل من أصحاب عبدالله بن مالك فوبخه على ذنب فقال ياأمير المؤمنين ان اقرارى يلزمني ذنبا لم أفعله ويلحق بى جرما لم أقف عليه وانكارى رد عليك ومعارضة لك ولكنى أقول

فان كنت تبغى بالعقاب تشفيا * فلا تزهدن عند التجاوز فى الأجر

فقال لله درك من معتذر بحق أو باطل ما أمضى لسانك وأثبت جنانك وعفا عنه وخلى سبيله وركب يوما عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء ومر على قوم فقال بعضهم من يقوم للامير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف فقال واحد منهم أنا فقام وأخذ بعنان بغلته وقال أصلح الله الأمير أنت أكرم الناس خيلا فلم ركبت دابة اشهاب وجهها فقال انى لا أمل دابتى حتى تملنى ولا أمل رفيق حتى يملنى فقال أصلح الله الامير أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه فمن الام قال على الخبير سقطت أمي النابغة بنت حرملة بن عزة سبتها رماح العرب فأتى بها سوق عكاظ فبيعت فاشتراها عبدالله بن جدعان ووهبها للعاص بن وائل فولدت وانجبت فان كان قد جعل لك جعل فارجع وخذه وأرسل عنان الدابة وقيل ان أمه كانت بغيا عند عبدالله بن جدعان فوطئها فى طهر واحد أبو لهب وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل فولدت عمراً فادعاه كلهم فحكمت فيه أمه فقالت هو للعاص لأن العاص هو الذى كان ينفق عليها وقالوا كان أشبه بأبى سفيان * وكان الواثق يتشبه بالمأمون فى أخلاقه وحلمه وكان يقال له المأمون الصغير نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد فقالت السلام عليك ياأمير المؤمنين فقال لست به فقالت السلام عليك أيها الامير فقال لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فقالت ليسعا عدلكم فقال إذا لايبقى على وجه الارض منكم أحد لأنكم حاربتم على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه ومنعتم حقه وسممتم الحسن رضى الله عنه ونقضتم شرطه وقتلتم الحسين رضى الله عنه وسبيتم أهله ولعنتم على بن أبى طالب رضى الله عنه على منابركم

وضربتم

قد أدبتني فتأدبت ثم أعلمها بخبره ثم رغبها في أن تمن عليه بالخلاص كما فعل الخنزير بالقرس فقالت العجوز الذي سألتني عنه لا يمكنني فعله الآن ولعلي أجد لك فرجا ومخرجا عن قريب فعليك (١٨٩) بالصبر وأمسكت العجوز عن مخاطبته

قال فلما انتهى الوزير في حديثه إلى هذه الغاية أقبل على المطران وقال إني أحس في أعضائي فتورا وفي رأسي صداعا ولم أقدر الليلة على اتمام الحديث ولعلي أكون الليلة القابلة نشيطا إلى ذلك فنهض إلى مضجعه فجعل سابور يتأمل حديث الوزير ويتأمل الأمثال التي ضربها له ودسها في المسامرة ففهم أن الوزير كنى عن سابور بعين أهله وكنى عن مملكته بسيدة الناس وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب وكنى عن قيصر بالذئب الذي ذكر أنه بعل سيدة الذهب وكني عن طموح نفس سابور إلى مملكة الروم بطموح نفس عين أهله إلى رؤية سيدة الذهب وكني عن أخذ قيصر له بقبض الذئب على عين أهله وكنى عن نفسه وحاله وعجزه بالعجوز القطعاء وعرفه أنه لا يمكنه تخليصه في هذا الوقت كما قررت العجوز لعين أهله وأنه شاع في خلاصه فاستروح سابور ريح الفرج فسكنت نفسه ووثق بوزيره فلما كانت الليلة القابلة وتعشى المطران وأخذ مقعده للمسامرة قال الوزير أيها الحكيم الراهب أخبرني عن ما كان من أمر عين أهله وهل خلصته العجوز من وثاق الذئب أم لا فقال الوزير سمعا وطاعة فشرع في حديثه وقال ان عين أهله أقام على حالته عدة أيام وكل يوم يدخل

وضربتم على بن عبد الله ظلما بسياطكم فعد لنا لا يبقى منكم أحداً فقالت فليسعنا عفوكم قال أما هذا فنعم وأمر برد أموالها عليها وبالغ في الاحسان اليها * وكان معاوية رضي الله عنه يعرف بالحلم وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة وكان يقول اني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي وذنب لا يسعه عفوي وحاجة لا يسعها جودي وهذه مروءة عالية المرتبة وقال له رجل يوما ما أشبه استك باست أمك فقال ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها وكتب معاوية إلى عقيل ابن أبي طالب رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما يقول من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب أما بعد يا بني عبد المطلب فأنتم والله فروع قصي ولباب عبد مناف وصفوة هاشم فأين أخلاقكم الراسية وعقولكم الكاسية وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ولن يعود لمثله إلى أن يغيب في الثرى فكتب إليه عقيل يقول:

صدقت وقلت حقا غير أني * أرى أن لا أراك ولا تراني

ولست أقول سوأ في صديقي * ولكني أصد إذا جفاني

فركب اليه معاوية رضي الله عنه وناشده في الصفح عنه واستعطفه حتى رجع (وحكي) عنه رضي الله عنه أنه لما ولي الخلافة وانتظمت إليه الأمور وامتلأت منه الصدور وأذعن لأمره الجمهور وساعده في مراده القدر المقدور استحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين ومن كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى من كان يجتهد في ايقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض فقالوا امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدي كانت تعتمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة يا أصحاب علي تسمعهم كلاما كالصوارم مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل والمدبر لأقبل والمسالم لحارب والفار لكر والمتزلزل لاستقر فقال لهم معاوية رضي الله عنه أيكم يحفظ كلامها فقالوا كلنا نحفظه قال فما تشيرون علي فيها قالوا نشير بقتلها فانها أهل لذلك فقال لهم معاوية رضي الله عنه بئسما أشرتم به وقبحا لما قلتم أيحسن أن يشتهر عني أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها اني إذا للئيم لا والله لا فعلت ذلك أبداً ثم دعا بكاتبه فكتب كتابا إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها ومهد لها وطاء لينا ومركبا ذلولا فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها وقرأه عليها فقالت بعد قراءة الكتاب ما أنا بزائغة عن الطاعة فحملها في هودج وجعل غشاءه خزا مبطنا ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحبا وأهلا خير مقدم قدمه وافد كيف حالك يا خالة وكيف رأيت سيرك قالت خير مسير فقال هل تعلمين لم بعثت اليك قالت لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى قال ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب وتحرضين على القتال قالت نعم قال فما حملك على ذلك قالت يا أمير المؤمنين انه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر فقال صدقت فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت قالت لا والله قال لله أبوك فلقد سمعتك تقولين أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس وان الكواكب لا تضيء مع القمر وان البغل لا يسبق الفرس ولا يقطع الحديد إلا بالحديد ألا من استرشدنا أرشدناه ومن سألنا أخبرناه ان الحق كان يطلب ضالة فأصابها فصبرا يا معشر المهاجرين والانصار فكأنكم وقد التأم شمل الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله فانه

عليه الذئب ويهدده بالقتل ويزيده قيدا ثم ان العجوز جاءته في بعض الليالي وأضرمت لها بالقرب منه نارا وجلست تصطلي ثم أقبلت على عين أهله وقالت له ساعدني على خلاصك بالصبر فقال لها عين أهله هان على الطليق ما لقي الاسير فقالت العجوز حداثة سنك قصرت فهمك عن ادراك الحقائق أفتسمع حديثا لك فيه سلوة قال نعم فقالت العجوز ذكروا أن بعض التجار كان له ولد وكان مشغوفا به فاتحفه بعض معارفه بخشف غزال فعلق قلب الصبي بذلك الخشف الصغير فكان لا يفارقه وجعلوا في جيده حليا نفيسا وربطوا له شاة ترضعه حتى اشتد ونجم قرناه فأعجبه بريقهما وسوادهما وقال لأهله ما هذا الذي ظهر في رأس الخشف قالوا قرناه وقالوا له انهما سيكبران ويطولان فقال الغلام لأبيه انى أحب أن أرى غزالا كبيرا له قرنان كاملان فأمر أبوه بعض الصيادين أن يصيد له غزالا كبيرا فأحضر له غزالا قد استكمل قوة ونموا فأعجب الغلام وحلى جيده أيضا فآنس الغزال الكبير بالخشف الصغير للمجانسة الطبيعية فقال الخشف للغزال ما كنت أظن لى فى الارض شكلا قبل أن أراك فقال له الغزال ان أشكالك كثيرة فقال الخشف وأين هي فأخبره الغزال بتوحشها وانفرادها فى فلوات الأرض وتناسلها فارتاح الخشف لذلك وتمنى أن يراها فقال له الغزال هذه أمنية لا خير لك فيها لانك نشأت فى رفاهية من العيش ولو تحصلت على ما تمنيت لدهمت

لا يستوى المحق والمبطل أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون فالنزال النزال والصبر الصبر ألا وإن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء والصبر خير الأمور عاقبة ائتوا الحرب غير ناكصين فهذا يوم له ما بعده يا زرقاء أليس هذا قولك وتحريضك قالت لقد كان ذلك قال لقد شاركت عليا فى كل دم سفكه فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك مثلك من يبشر بخير ويسر جليسه فقال معاوية أوقد سرك ذلك قالت نعم والله لقد سرنى قولك وأنى لى بتصديقه فقال لها معاوية والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلى من حبكم له فى حياته فاذكرى حوائجك تقض فقالت يا أمير المؤمنين انى آليت على نفسى أن لا أسأل أحدا بعد على حاجة فقال قد أشار على بعض من عرفك بقتلك فقالت لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته قال كلا بل نعفو عنك ونحسن اليك ونرعاك فقالت يا أمير المؤمنين كرم منك ومثلك من قدر فعفا وتجاوز عمن أساء وأعطى من غير مسألة قال فأعطاها كسوة ودراهم وأقطعها ضيعة تغل لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم وأعادها إلى وطنها سالمة وكتب إلى والى الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها ✲ وقيل كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها والى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضا عبيد يعملون فيها فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير فكتب عبد الله كتابا إلى معاوية يقول له فيه أما بعد يا معاوية ان عبيدك قد دخلوا فى أرضي فانههم عن ذلك والا كان لى ولك شأن والسلام فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه الى ولده يزيد فلما قرأه قال له معاوية يا بنى ما ترى قال أرى أن تبعث اليه جيشا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه فقال بل غير ذلك خير منه يا بنى ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله ﷺ وساءنى ما ساءه والدنيا بأسرها هينة عندى فى جنب رضاه نزلت عن أرضي لك فاضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضى الله عنه كتب اليه قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل والسلام فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به الى ابنه يزيد فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال له أبوه يا بنى من عفا ساد ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال اليه القلوب فاذا ابتليت بشىء من هذه الأدواء فداوه بمثل هذا الدواء ✲ ولما دخل الفيل من دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية فى مكان مرتفع ينظر اليه فبينما هو كذلك اذ نظر فى بعض الحجر من قصره رجلا مع بعض حرمه فأتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه بد فوقعت عينه على الرجل فقال له يا هذا فى قصرى وتحت جناحى تهتك حرمتي وأنت فى قبضتى ما حملك على هذا قال فبهت الرجل وقال حلمك أوقعني فقال له معاوية فان عفوت عنك تسترها على قال نعم فعفا عنه وخلى سبيله وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجانى وهو عروض قول الشاعر

اذا مرضتم أتيناكم نعودكم ✲ وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

﴿ وحكى ﴾ عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال ما رأيت رجلا أربط جأشا وأثبت جنانا من رجل سعى به إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبنى أمية فأمرنى باحضاره فأحضرته اليه فقال له المنصور قد رفع الينا خبر الودائع والأموال التي عندك لبنى أمية فأخرج لنا منها وأحضرها ولا تكتم منها شيئا فقال يا أمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية قال لا قال أفوصي لهم فى أموالهم ورباعهم

قال

فقال الخشف للغزال لا بد من اللحاق باشكالى فلما رأى الغزال أن الخشف غير راجع لم يجد بدا من قضاء أربه لحرمة الألفة فرصدا وقتا قابلا وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء فلما عاينها الخشف فرح (١٩١) ومرح ومر يعدو ولا يلتفت إلى ما وراءه فسقط فى أخدود ضيق قد قطعه السيل فانتظر أن يأتيه الغزال فيخلصه فلم يأته وأما ولد التاجر فانه تنكد لفقد الخشف والغزال وأشفق أبوه عليه فاستدعى كل من يعانى الصيد فعرفهم القصة وكلفهم طلب الخشف والغزال ووعدهم بالمكافأة على ذلك وركب التاجر معهم وفرق أتباعه على أبواب المدينة ينتظرون من يأتى من الصيادين وانطلق هو وعبيده حتى دخلوا الصحراء فرأوا على بعد رجلا منكبا على شيء بين يديه فأسرعوا نحوه فرأوا صيادا قد أوثق غزالا كبيرا وقد عزم على ذبحه فتأمله التاجر فاذا هو الغزال الكبير الذى لولده فخلصه من الصياد وأمر عبيده ففتشوه فوجدوا معه الحلى الذى كان على الغزال فسأله كيف ظفر به وأين وجده فقال إنى بت فى هذه الصحراء ونصبت شركا ومكثت قريبا منه فلما أصبحت مر على الغزال ومعه خشف يعدو ويمرح فى جهة غير جهة الشرك وجاء هذا الغزال يمشى حتى حصل فيه فقنصته وقصدت به المدينة فلما بلغت هذا الموضع ظهر لى أنى مخطىء فى ادخال هذا الظبى إلى المدينة حيا لعلمى أنه إذا رؤى حيا طوليت بما كان عليه من الحلى فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحما فهذا خبرى فقال له التاجر لعجبى عليك

قال لا قال فما مسئلتك عما فى يدى من ذلك قال فأطرق المنصور وتفكر ساعة ثم رفع رأسه وقال إن بنى أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه فأجعله فى بيت أموالهم فقال يا أمير المؤمنين فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه فان بنى أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال يا ربيع ما أرى الشيخ إلا قد صدق وما يجب عليه شيء وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه ثم قال هل لك من حاجة قال نعم حاجتى يا أمير المؤمنين أن تجمع بينى وبين من سعى فى إليك فوالله الذى لا إله إلا هو ما فى أيدى لبنى أمية مال ولا وديعة ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن وبين ذلك القول الذى ذكرته أولا فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة فقال يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما فلما رآه قال هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار من مالى وأبق منى وخاف من طلبى له فسعى بى عند أمير المؤمنين قال فشدد المنصور على الغلام وخوفه فأقر بأنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره وسعى به كذبا عليه وخوفا من أن يقع فى يده فقال له المنصور سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه فقال قد عفوت عنه وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التى أخذها وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه فقال له المنصور ما على ما فعلت من مزيد قال بلى يا أمير المؤمنين ان هذا كله لقليل فى مقابلة كلامك لى وعفوك عنى ثم انصرف قال الربيع فكان المنصور يتعجب منه وكلما ذكره يقول ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع ۞ وغضب الرشيد على حميد الطوسى فدعا له بالنطع والسيف فبكى فقال له ما يبكيك فقال والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه وإنما بكيت أسفا على خروجى من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط على فضحك وعفا عنه وقال ان الكريم إذا خادعته انخدع ۞ وأمر زياد بضرب عنق رجل فقال أيها الأمير إن لى بك حرمة قال وما هى قال ان أبى جارك بالبصرة قال ومن أبوك قال يا مولاى انى نسيت اسم نفسى فكيف لا أنسى اسم أبى فرد زياد كمه على فمه وضحك وعفا عنه ۞ وأمر الحجاج بقتل رجل فقال أسألك بالذى أنت غدا بين يديه أذل موقفا منى بين يديك إلا عفوت عنى فعفا عنه ولما ضرب الحجاب رقاب أصحاب ابن الأشعث أتى رجل من بنى تميم فقال والله يا حجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب ما أحسنت فى العفو فقال الحجاج أف لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه وخلى سبيله ۞ وكان إبراهيم بن المهدى يقول والله ما عفا عنى المأمون تقربا إلى الله تعالى ولا صلة للرب ولكن له سوق فى العفو يكره أن تكسد بقتلى ۞ وسئل الفضل عن الفتوة فقال الصفح عن عثرات الاخوان وفى بعض الكتب المنزلة ان كثرة العفو زيادة فى العمر وأصله قوله تعالى وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض وقال يزيد بن مزيد أرسل إلى الرشيد ليلا يدعونى فأوجست منه خيفة فقال له أنت القائل أنا ركن الدولة والثائر لها والضارب أعناق بغاتها لا أم لك أى ركن وأى ثائر أنت قلت يا أمير المؤمنين ما قلت هذا انما قلت أنا عبد الدولة والثائر لها فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه ثم ضحك فقلت أحسن من هذا قولى

خلافة الله فى هرون ثابتة ۞ وفى بنيه إلى أن ينفخ الصور

قال يا فضل أعطه مائتى ألف درهم قبل أن يصبح ۞ وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال ما أقبح

طمعك الخيبة فاذا عليك لو أطلقته وخلصت ما كان عليه من الحلى ثم ان التاجر ارسل الغزال الى ولده مع أحد عبيده وقال للصياد
ارجع معي فأرني الجهة التي رأيت الخشف سعى نحوها فرجع به الى تلك الجهة فسمع من قريب صوته
فصاح به التاجر فعرف الخشف صوته فصوت فسمع التاجر الصوت فادركه فاذا هو في ذلك الأخدود ملقى فأخذوه ووهب التاجر للصياد مارضي به وصرفه ورجع التاجر بالخشف الى ولده فكملت مسرة الغلام وجعل الخشف يتجنب الغزال الكبير إذا رآه ولا يأتلفه فتنغصت مسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة ان يجمعوا بين الخشف والغزال فلم يقدروا على ذلك فبينما الخشف نائم في كناسه إذ دخل عليه الغزال فأيقظه وعاتبه على نفاره منه فقال الخشف أما أنت الذي غدرت وقد علمت احتياجي في غربتي الى معاونتك فقال له والله ما أخرني عن ذلك إلا وقوعي في شرك الصياد وقص عليه القصة فقبل عذره وعاد الى الالفة كما كانا فلما سمع عين أهله خطاب العجوز فهم كنايتها عن عجزها في تخليصه أمسك عن خطابها قيل فلما انتهى وزير سابور من حديثه الى هذا الحديث سكت فقال له المطران أيها الحكيم الراهب ماهذا السكوت فقال الوزير قدعاودني ذلك الفتور الذي أجده في اعطائي فقال المطران
لا تفعل فان ذلك يشق علي فقال الوزير نعم أفعل ذلك طلبا لمرضاتك ثم اندفع محدثه قال وبات حين أهله تلك الليلة في أضيق

بي أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة ووجهك هذا الذي يستضاء به فأتعلق بأطواقك وأقول أي رب سل مصعبا لم قتلني فقال اطلقوه فلما أطلقوه قال أيها الأمير اجعل ماوهبت لي من حياتي في خفض عيش قال قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال

أنا المذنب والخطاء والعفو واسع * ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحب الله فعفا عنه وأمر له بصلة وقال الحسن ان افضل رداء تردى به الانسان الحلم وهو والله عليك أحسن من برد الحبر وفيه قال أبو تمام

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه * بكفيك ماماريت في أنه برد

ويقال الحليم سليم والسفيه كليم وقال محمد بن عجلان ماشيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم ان تكلم تكلم بعلم وان سكت سكت بحلم يقول الشيطان سكوته على أشد من كلامه

إذا كنت تبغي شيمة غير شيمة * طبعت عليها لم تطعك الضرائب

وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب * وفي التوراة اذكرني إذا غضبت اذكرك إذا غضبت فلا أمحقك فيما أمحق واذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتي فان نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك * وكان ابن عون إذا غضب على انسان قال له بارك الله فيك وكانت له ناقة كريمة فضربها الغلام فاندرت عينها فقالوا إن غضب ابن عون فانه يغضب اليوم فقال للغلام غفر الله لك وقال رجل لرسول الله ﷺ أي شيء أشد قال غضب الله قال فما يباعدني من غضب الله قال أن لا تغضب ويقال من أطاع الغضب أطاع الأرب قال أبو العتاهية

ولم أر في الأعداء حين اختبرتهم * عدوا لعقل المرء أعدى من الغضب

وقال أبو هريرة رضي الله عنه ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب وقال ابن مسعود رضي الله عنه كفى بالمرء اثما أن يقال له اتق الله فيغضب ويقول عليك نفسك * وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى عامل من عماله أن لا تعاقب عند غضبك واذا غضبت على رجل فاحبسه فاذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا * وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة قال ترك الغضب * وقال المعتمر بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ويشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف فأعطى كل صحيفة رجلا وقال للاول إذا اشتد غضبي فقم الي بهذه الصحيفة وناولنيها وقال للثاني إذا سكن بعض غضبي فناولنيها وقال للثالث إذا ذهب غضبي فناولنيها وكان في الأولى أقصر فما أنت وهذا الغضب انك لست باله انما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا وفي الثانية ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء وفي الثالثة احمل عباد الله على كتاب الله فانه لا يصلحهم إلا ذاك روي أنه أنوشروان * وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت

ليست الأحلام في حال الرضا * انما الأحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء وروي ملأه الله أمنا وايمانا

وإيمانا * وقال ابن السماك أذنب غلام لامرأة من قريش فأخذت السوط ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت ماتركت التقوى أحدا يشفى غيظه * وقال أبوذر لغلامه لم أرسلت الشاة على علف الفرس قال أردت أن أغيظك قال لأجمعن مع الغيظ أجرا أنت حر لوجه الله تعالى واستأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فأذن لهم فقالوا السام عليك يا محمد فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها بل السام عليكم واللعنة فقال يا عائشة ان الله يحب الرفق فى الأمر كله فقالت ألم تسمع ما قالوا قال قد قلت وعليكم * ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابى يقال له حمزة سرق وقامت عليه البينة فهم عبد الملك بقطع يده فكتب إليه حمزة من السجن يقول

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها * بعفوك أن تلقى مقاما يشينها
فلاخير فى الدنيا وكانت خبيثة * إذا ما شمال فارقتها يمينها

قال فأبى عبد الملك إلا قطعه فدخلت عليه أم حمزة وقالت يا أمير المؤمنين بنى وكاسبى وواحدى فقال لها عبد الملك بئس الكاسب لك هذا حد من حدود الله تعالى فقالت يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التى تستغفر الله منها فقال عبد الملك ادفعوه إليها وخلى سبيله

إذا ما طاش حلمك عن عدو * وهان عليك هجران الصديق * فلست إذا أخا عفو وصفح
ولا لأخ على عهد وثيق * إذا زل الرفيق وأنت ممن * بلا رفق بقيت بلا رفيق
إذا أنت اتخذت أخا جديدا * لما أنكرت من خلق عتيق * فما تدرى لعلك مستجير
من الرمضاء فر إلى الحريق * فكم من سالك لطريق أمن * أتاه ما يحاذر فى الطريق

وشتم رجل رجلا فقال له يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعا فاني أبيت مشاتمة الرجال صغيرا فلن أجيئها كبيرا واني لا أكافىء من عصى الله فى بأكثر من أن أطيع الله فيه (وحكى) عن جعفر الصادق رضى الله عنه أن غلاما له وقف يصب الماء على يديه فوقع الابريق من يد الغلام فى الطست فطار الرشاش فى وجهه فنظر جعفر إليه نظر مغضب فقال يا مولاى والكاظمين الغيظ قال قد كظمت غيظى قال والعافين عن الناس قال قد عفوت عنك قال والله يحب المحسنين قال اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يدى الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه قال يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمات أقولها قال قل فأنشأ يقول

زعموا بأن الصقر صادف مرة * عصفور برساقه التقدير * فتكلم العصفور تحت جناحه
والصقر منقض عليه يطير * انى لمثلك لا أتم لقمة * ولئن شويت فانني لحقير

فتهاون الصقر المدل بصيده * كرما وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلى سبيله (قال الشاعر)

أقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزهم * عنه فان جحود الذنب ذنبان

(وقال بعضهم)

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف * وتاب عما قد جناه واقترف
لقوله قل للذين كفروا * ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

(وقال آخر)

إذا ذكرت أياديك التى سلفت * مع قبح فعلى وزلاتى ومجترمى

الأحوال ولما أصبح دخل عليه الذئب فنال منه وهدده بالقتل وخرج من عنده فجعل يعلل نفسه بقية نهاره ويمنيها بالفرج فلما أقبل عليه الليل استوحش وانتظر أن تجلس اليه العجوز وتحادثه فلم تفعل فأيقن بقتله فى تلك الليلة فأقبل على البكاء حتى مضى جانب من الليل ثم قال للعجوز لم أحظ فى هذه الليلة بمؤانستك فقالت له قد جرحت قلبى لقولك لى هان على الطليق ما لقى الأسير ولو اعتبرت باطن حالى لعلمت أن أسرى أشد من أسرك فاستمع لى أحدثك * واعلم أيها الفتى أنى كنت زوجة لبعض الفرسان وكان لى محبا فكنت معه فى أرغد عيش وولدت له أولادا كثيرة فغضب الملك على زوجى لأمر كان منه فقتله وقتل أولادى الذكور وباعنى أنا وبناتى فاشترانى هذا الفارس الذى عدا عليك واحتملنى إلى هذه البلدة وأساء إلي وكلفنى من العمل ما لا أطيق ولى معه على هذه الحالة سبع سنين ثم فررت منه فظفر بى فقطع يدى وعاود عسفى ومضرتى وقد عزمت على تخليصك الليلة وما أشك أنه يقتلنى وجل قصدى ذلك لأجل الراحة مما أنا فيه ولأجل ذلك أنا أكثر الدخول والخروج إليك وأنا فى غاية الحيرة من الفزع والجزع ثم انها فتحت قيود عن أهله وقطعت وثاقه وتناولت سكينا لتقتل نفسها فقال لها عين أهله إن تركتك تقتلين نفسك فقد شاركتك فى دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومى اذهبى معى لكى ننجو معا

أو نعطب معا فقالت إن كبر سني وضعف بصري يمنعاني من اتباعك فقال لها عين أهله ان الليل متسع والموضع الذى أنا فيه قريب ولى قوة على حملك فقالت له العجوز إذا عزمت على هذا فانى لا أحوجك إلى حملي وخرجا معا فلم ينقض الليل حتى بلغا حيث أمنا فجزاها عين أهله خيرا على ما صنعت واتخذها أما فهذا ما بلغني من ذلك فقال المطران ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم ولقد وددت أني لا أفارقك أبدا ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ففهم أن الخشف مثل لسابور وأن الغزال الكبير مثل للوزير وأن خروج الخشف مع الغزال إلى الصحراء وحصول الخشف فى الأخدود مثل لصحبة سابور وزيره حتى حصل سابور فى حبس قيصر وأن نفار الخشف عن الغزال لسوء ظن سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه وتحقق أن الوزير قد عزم على خلاصه والخروج به إلى المدينة ليلا وأن المدينة قريبة منهما وأنه يحمله إن عجز عن المشى فأيقن سابور بالفرج ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التى يطبخ بها الطعام للمطران وبها الموكلون بقبة سابور نائمون ينتظرون الطعام فتحيل إلى أن ألقى فى الطعام مرقدا قوى الفعل ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ما جرت به العادة فلم تكن إلا ساعة حتى صرع القوم فبادر الوزير

أكاد أقتل نفسى ثم يدركنى * علمى بأنك مجبول على الكرم

وروى أن عمر رضى الله عنه رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزره فشتمه السكران فرجع عنه فقيل له يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته قال إنما تركته لأنه أغضبنى فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسى فلا أحب أن أضرب مسلما لحمية نفسى وغضب المنصور على رجل من الكتاب فأمر بضرب عنقه فأنشأ يقول

وانا الكاتبونا وان أسأنا * فهبنا للكرام الكاتبينا

فعفا عنه وخلى سبيله وأكرمه * وقال الرشيد لأعرابى بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة قال بحلمه عن سفيهنا وعفوه عن مسيئنا وحمله عن ضعيفنا لامنان إذا وهب ولا حقود إذا غضب رحب الجنان سمح البنان ماضى اللسان قال فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه وقال والله لو كانت هذه فى هذا الكلب لاستحق بها السودد * وقيل لمعن بن زائدة المؤاخذة بالذنب من السودد قال لا ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم جرمه وقل شفعاؤه ولم يجد ناصرا * وقال محمود الوراق

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب * وان عظمت منه على الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فان قال صنت عن * اجابته نفسى وان لام لائم
وأما الذى مثلى فان زل أو هفا * تفضلت ان الحر بالفضل حاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه يا بنى إذا أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه فان أنصفك وإلا فاحذره (قال الشاعر)

إذا كنت مختصا لنفسك صاحبا * فمن قبل أن تلقاه بالود أغضبه
فان كان فى حال القطيعة منصفا * وإلا فقد جربته فتجنبه

ومن أمثال العرب احلم تسد (قال الشاعر)

لن يبلغ المجد أقوام وان شرفوا * حتى يذلوا وان عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لا صفح ذل ولكن صفح اكرام

(وقال آخر) وجهل رددناه بفضل حلومنا * ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وقال الاحنف اياكم ورأى الأوغاد قالوا وما رأى الاوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عارا * وقال رجل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه لأسبنك سبا يدخل معك قبرك فقال معك والله يدخل لا معى وقيل إن الاحنف سبه رجل وهو يماشيه فى الطريق فلما قرب من المنزل وقف الاحنف وقال له يا هذا ان كان قد بقى معك شىء فهات وقله ههنا فانى أخاف أن يسمعك فتيان الحى فيؤذوك ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا وقال لقمان لابنه يا بنى ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ولا الشجاع إلا عند الحرب ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه ومن أشعر بيت قيل فى الحلم قول كعب بن زهير

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا * أصبت حليما أو أصابك جاهل

(وقال

إلى فتح باب البقرة واستخراج سيده وأزال الجامعة عن عنقه ويديه وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر وقصد به المدينة فانتهيا معا إلى سورها فصرخ بهم الموكلون فتقدم الوزير إليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وأعلمهم بسلامة الملك ثم عرفهم نفسه فابتدروا لها وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح وأمرهم أن يأخذوا أهبتهم فاذا ضربت نواقيس النصارى الضرب الأول يخرجون من المدينة ويفترقون على عسكر الروم فاذا ضربت النواقيس الضرب الثاني يحملون بأجمعهم فامتثلوا أمره ثم إن سابور انتخب كتيبة عظيمة فيها شجعان أساورته ووقف معهم مما يلي الجهة التي فيها أخبية قيصر فلما ضربت النواقيس الضرب الثانى حملوا من كل جهة وقصد سابور أخبية قيصر ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وسد أبوابهم فما شعروا حتى دهموهم وأخذ سابور قيصر أسيراً وغنم جميع ما في عسكره واحتوى على جميع خزائنه ولم ينج من جنوده إلا اليسير ثم عاد سابور الى مدينته ودار مملكته فقسم تلك الغنائم بين أهل عسكره وأحسن إلى حفظة ملكه وفوض جميع أموره الى الوزير ثم إنه أحضر قيصر فلاطفه وأكرمه وقال له إني مبق عليك كما أبقيت علي وغير مجازك على التضييق ولكن آخذك بإصلاح ما أفسدت من جميع ملكي فتبني ما هدمت وتغرس جميع ما قلعت وتطلق كل ما عندك من أسارى الفرس فضمن

(وقال آخر) وإذا بغى باغ عليك بجهله * فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

(وقال آخر) قل ما بدا لك من صدق ومن كذب * حلمي أصم وأذني غير صماء

ويروى في بعض الأخبار أن ملكا من الملوك أمر أن يصنع له طعام وأحضر قوما من خاصته فلما مد السماط أقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك فأمر بضرب عنقه فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك فقال له ويحك ماهذا فقال أيها الملك إنما صنعت هذا شحا على عرضك وغيرة عليك لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني قتله في ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد ولم يقصده فتنسب إلى الظلم والجور فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر في قتلي وترفع عنك الملامة قال فأطرق الملك مليا ثم رفع رأسه اليه وقال يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى

(وحكي) عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه انه لما خرج عمه ابراهيم بن المهدي عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى ابراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلبا لابراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال المأمون لا سلم الله عليك ولا قرب دارك استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام فقال ابراهيم مهلا يا أمير المؤمنين فان ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك فان أخذت فبحقك وان عفوت فبفضلك والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات

ذنبي إليك عظيم * وأنت أعظم منه * فخذ بحقك أولا
فاصفح بعفوك عنه * ان لم أكن في فعالي * من الكرام فكنه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال يا ابراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول وأكثر مما تأمل ولقد حبب الي العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه لا تثريب عليك اليوم ثم أمر بفك قيوده وادخاله الحمام وازالة شعثه وخلع عليه ورد أمواله جميعها اليه فقال فيه مخاطبا

رددت مالي ولم تبخل علي به * وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فان جحدتك ما أوليت من كرم * إني لباللوم أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري فقال له عباد أيها الأمير أنشدك الله أن لا تقتلني فوالله اني لأعول اربعا وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري فرق لهن واستحضرهن واذا واحدة منهن كالبدر فقال لها الحجاج ما أنت منه قالت أنا ابنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول ثم قالت

أحجاج إما أن تمن بتركه * علينا واما أن تقتلنا معا
أحجاج لا تفجع به ان قتلته * ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا

له جميع ذلك ووفى به فلما أتم سابور ما أراد من ذلك كله أحسن إلى قيصر وأطرفه وجهزه إلى دار ملكه واستمر قيصر على مهادنته والانقياد الى طاعته انتهى ومن لطائف المنقول قصة أريتب بنت اسحق زوج عبد الله ابن سلام كان عبد الله ابن سلام واليا بالعراق من قبل معاوية وكانت أريتب بنت اسحق زوجا له وهى من أجمل نساء عصرها وأحسنهم أدبا وأكثرهن مالا وكان يزيد ابن معاوية قدهام بجمالها وأدبها على السماع وبما بلغه عنها من حسن الخلق والخلق وفتن بها فلما عيل صبره خص بسره خصيصا بمعاوية اسمه رفيف فذكر ذلك رفيف لمعاوية وذكر شدة شغف يزيد بها فبعث معاوية الى يزيد فاستفسره عن أمره فبث له شانه فقال معاوية مهلا يا يزيد قال علام تامرنى بالمهل وقد انقطع منها الأمل فقال معاوية وأين حجاك ومروءتك فقال له يزيد قد عيل الحجى ونفد الصبر قال له يا بنى ساعدنى على أمرك بالكتمان والله بالغ أمره وكانت أريتب بنت اسحق قد سارت بذكر جمالها الركبان وضربت بها الامثال فاخذ معاوية فى الحيلة حتى يبلغ يزيد رضاه وينال غرضه ومناه فكتب الى عبدالله ابن سلام يستحثه على الحضور لمصلحة عينها له وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله ﷺ فلما قدم عليه عبدالله بن سلام من الشام أعد له معاوية منزلا حسنا وعقله اليه وبالغ فى اكرامه ثم قال لابى هريرة وأبى الدرداء إن ابنتى قد بلغت وأريدا نكاحها وقد رضيت

أحجاج لا تترك عليه بناته ❊ وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة ❊ ولما قدم عيينة بن الحصن على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضى الله عنه وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخى لك وجه عند هذا الامير فاستأذن لى عليه فاستأذن فأذن له عمر فلما دخل قال هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين ان الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضى الله عنه حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله تعالى ﴿وحكى﴾ أن رجلا زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها الى وكيل الفضل فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل فشرع فى أن يزن له الألف دينار وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر فى وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فأطرق الفضل بوجهه ثم قال الوكيل أتدرى لم أتيتك فى هذا الوقت قال لا قال جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل اعطاء المبلغ الذى فى هذه الورقة فأسرع عند ذلك الوكيل فى وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيرا فى أمره فالتفت اليه الفضل وقال له طب نفسا وامض الى سبيلك آمنا على نفسك فقبل الرجل يده وقال له سترتنى سترك الله فى الدنيا والآخرة ثم أخذ المال ومضى فيجب على الانسان أن يتأسى بهذه الاخلاق الجميلة والافعال الجليلة ويقتفى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام فقد كان أكثر الناس حلما وأحسنهم خلقا وأكرمهم خلقا وأكثرهم تجاوزا وصفحا وأبرهم للمعتر عليه نجحا صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين (وأما ما جاء فى العتاب) فقد قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب الا على زلة وقد مدحه قوم فقالوا العتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة وقد قال أبو الحسن بن منقذ

أسطو عليه وقلبى لو تمكن من ❊ يدى غلهما غيظا الى عنقى
وأستعير له من سطوتى حنقا ❊ وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وذمه بعضهم قال اياس بن معاوية خرجت فى سفر ومعى رجل من الاعراب فلما كان فى بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعانقا وتعاتبا والى جانبهما شيخ من الحى فقال لهما أنعما عيشا ان المعاتبة تبعث التجنى والتجنى يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ولا خير فى شىء ثمرته العداوة قال الشاعر

فدع ذكر العتاب فرب شر ... طويل هاج أوله العتاب

وقيل العتاب من حركات الشوق وإنما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر

علامة ما بين المحبين فى الهوى ... عتابهم فى كل حق وباطل

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله معه يقول

عرضنا أنفسا عزت علينا ... عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا رفعناها لعزت ... ولكن كل معروض مهان

(وقال آخر يعاتب صديقه)

وكنت إذا ما جئت أدنيت مجلسى ... ووجهك من البشاشة يقطر

عبدالله بن سلام لدينه وشرفه وفضله وأدبه وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى ولكن أرجو أن لا تخرج عن رأيي إن شاء الله تعالى فخرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبدالله بن سلام بالذي قال لهما معاوية ثم دخل معاوية على ابنته فقال لها إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك عبدالله بن سلام وانكاحي اياك منه وحضاك على المسارعة إلى رضائي فقولي لهما عبدالله ابن سلام كفء كريم غير أن تحته أرينب بنت اسحق وأنا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ولست بفاعلة حتى يفارقها وأما أبو الدرداء وأبو هريرة فانهما لما وصلا إلى عبدالله ابن سلام أعلماه بما قال لهما معاوية فردهما خاطبين عنه فلما مثلا بين يدي معاوية قال اني كنت أعلمتكما اني جعلت لها في نفسها شورى فادخلا عليها وأعلماها بما رأيت لها فدخلا عليها وأعلماها بذلك فأبدت ما قرره أبوها عندها من قبل فعادا إلى عبد الله بن سلام فأعلماه بذلك ففهم المراد وأشهدهما عليه بطلاق أرينب وبعثهما اليه خاطبين فلما دخلا على معاوية أعلماه بطلاق أرينب فأظهر معاوية كراهية ذلك وقال ما استحسنت طلاق زوجته ولا أحببته فانصرفا في عافية وعودا الينا وكتب إلى ابنه يزيد يعلمه بما كان من طلاق عبد الله بن سلام لأرينب بنت اسحق وعاد بعد ذلك أبو الدرداء وأبو هريرة إلى معاوية فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها وهو يقول

فمن لي بالعين التي كنت مرة * إلي بها في سالف الدهر تنظر

(وقال أبو الحسن بن منقذ):

أخلاقك الغر السجايا مالها * حملت قذى الواشين وهي سلاف
ومرآة رأيك في عبيدك مالها * صدئت وأنت الجوهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله اليه وفيه حط عليه:

اقرأ كتابك واعتبره قريبا * فكفى بنفسك لي عليك حسيبا
أكذا يكون خطاب اخوان الصفا * إن أرسلوا اجعلوا الخطاب خطوبا
ما كان عذري إن أجبت بمثله * أو كنت بالعتب العنيف مجيبا
لكنني خفت انتقاص مودتي * فيعد احساني اليك ذنوبا

وقال آخر:

أراك إذا ما قلت قولا قبلته * وليس لأقوالي لديك قبول
وماذاك إلا أن ظنك سيء * بأهل الوفا والظن فيك جميل
فكن قائلا قول الحماسي تائها * بنفسك عجبا وهو منك قليل
وننكر ان شئنا على الناس قولهم * ولا ينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته اضاقة ثم ولي عملا فأثرى فقصده محمد مسلما فرأى منه تغيرا فكتب اليه:

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة * فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الاثراء منك خلائقا * من اللوم كانت تحت ثوب من الفقر

(وقال آخر في المعنى)

دعوت الله أن تسمو وتعلو * علو النجم في أفق السماء
فلما أن سموت بعدت عني * فكان إذا على نفسي دعائي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرما وابن عرادة يتجنى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع اليه وقال:

عتبت على سلم فلما فقدته * وصاحبت أقواما بكيت على سلم
رجعت اليه بعد تجريب غيره * فكان كبرء بعد طول من السقم

وقال مسلم بن الوليد

ويرجعني اليك إذا نأت بي * دياري عنك تجربة الرجال

(وقال أبو الحسن القابسي)

إذا أنا عاتبت الملوم فانما * أخط بأقلامي على الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن * مودته طبعا فصارت تكلفا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه معاتبة الصديق أهون من فقده وما أحسن ما قيل في العتاب:

وفي العتاب حياة بين أقوام * وهو المحك لذي لبس وابهام

فلا شيء أحسن من معاتبة الأحباب ولا ألذ من مخاطبة ذوي الألباب والله سبحانه وتعالى أعلم
وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب السابع والثلاثون في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم)

أرجح دليل يتمسك به الانسان كتاب الله تعالى الذي من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هداه قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال جل ذكره وتقدس اسمه الذين يوفون بعهد

لم يكن لى أن أكرهها وقد جعلت الشورى فى نفسها فدخلا عليها وأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها بذلك وذكر فضله وشرفه وكرمه ومروءته فقالت جف القلم بما هو كائن ولا أنكر شرفه وفضله وانى سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ولا قوة إلا بالله فان يك صدر هذا اليوم ولى فان غداً لناظره قريب ثم تزايد حديث الناس بطلاق أرينب وخطبة ابنة معاوية واستحث عبد الله أبا الدرداء وأبا هريرة فأتياها فقال لها اصنعى ما أنت صانعة واستخيرى الله فقالت أرجو والحمد لله أن يكون الله قد اختار لى فانه لا يكل إلى غيره وقد سبرت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى مع اختلاف من استشرته فيه فمنهم الناهي عنه والآمر به فلما بلغه كلامها علم انها حيلة وانه مخدوع وقال متعزيا ليس لأمر الله راد ولعل ما سروا به لا يدوم لهم سروره قال وذاع أمره وفشا فى الناس وقالوا خدعه معاوية حتى طلق امرأته لغرض ابنه بئس ما صنع ثم ان معاوية بعد انقضاء أيامها المعلومة وجه أبا الدرداء إلى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهما فقال أبو الدرداء إذا قدم العراق ما ينبغى لذى عقل أن يبدأ بشىء قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة إذا دخل موضعا هو فيه فقصد الحسين رضى الله عنه فلما رآه قام اليه وصافحه اجلالا

الله ولا ينقضون الميثاق وقال جل وعلا وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقال تعالى وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا والآيات فى ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون * وروى فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة يعظم صاحبه فى العيون وتصدق فيه خطرات الظنون ويقال الوعد وجه والانجاز محاسنه والوعد سحابة والانجاز مطره . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكل شىء رأس ورأس المعروف تعجيله وأنشدوا :

إذا قلت فى شىء نعم فأتمه * فان نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا تسترح وترح بها * لئلا يقول الناس انك كاذب
(وقال آخر) لا كلف الله نفسا فوق طاقتها * ولا تجود يد إلا بما تجد
فلا تعد عدة إلا وفيت بها * واحذر خلاف مقال للذى تعد

وقال أعرابى وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل وقال أعرابى أيضا العذر الجميل خير من المطل الطويل * ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفا فأبطأت عليه فقال لقائده أقمنى حيث يمر فأقامه فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول :

أظلت علينا منك يوما سحابة * أضاء لها برق وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع * ولا غيثها يأتى فتروى عطاشها

فقال لا تبرح حتى تؤتى بها وقال صالح اللخمى :

لئن جمع الآفات فالبخل شرها * وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير فى وعد إذا كان كاذبا * ولا خير فى قول إذا لم يكن فعل

وقيل ماتت للهذلى أم ولد فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له ان أمير المؤمنين موجه اليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة فلم يزل الهذلى يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه المنصور فحج المنصور ومعه الهذلى فقال المنصور وهو بالمدينة انى أحب أن أطوف الليلة المدينة فاطلب لى من يطوف بى فقال الهذلى أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة فقال يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص :

يا بيت عاتكة الذى أتغزل * حذر العدا وبه الفؤاد موكل
انى لامنحك الصدود واننى * قسما إليك مع الصدود لأميل

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فاذا فيها :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم * مذق اللسان يقول مالا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذى كان وعد به الهذلى فأنجزه له واعتذر اليه وقال الشاعر :

تعجيل وعد المرء أكرومة * تنشر عنه أطيب الذكر
والحر لا يمطل معروفه * ولا يليق المطل بالحر

لصحبته لجده ﷺ وقال ماأتى بك ياأباالدرداء قال وجهني معاوية خاطبا على ابنه زيد أريب بنت اسحق فرأيت على حقا أن لاأبدأ بشىء قبل السلام عليك فشكره الحسين على ذلك وأثنى عليه وقال لقدذكرت نكاحها وأردت الارسال اليها إذا انقضت عدتها وقدأتى الله بك فاخطب على بركة الله على وعليه وهي أمانة فى عنقك واعطها من المهر مثل مابذل لها معاوية عن ابنه فقال أفعل إن شاء الله فلما دخل قال أيتها المرأة إن الله خلق الأمور بقدرته وكونها بعزته وجعل لكل أمر قدرا ولكل قدر سببا فليس لأحد عن قدرالله مخلص فكان ماسبق لك وقدر عليك من فراق عبدالله بن سلام على غير قياس ولعل ذلك لا يغيرك وجعل الله فيه خيرا كثيراً وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها وولى عهده والخليفة من بعده يزيد ابن معاوية والحسين بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أول من أقربه من أمته وسيد شباب أهل الجنة فاختارى أيهما شئت فسكتت طويلا ثم قالت ياأبا الدرداء لوجاءنى هذا الأمر وأنت غائب لاشخصت فيه الرسل اليك واتبعت فيه رأيك فأما إذا كنت أنت المرسل فيه فقد فوضت أمري فيه بعدالله اليك وجعلته فى يديك فاختر لى أرضاهما لربك والله شاهد عليك فاقض ولا يصدنك عن ذلك اتباع الهوى فليس أمرهما عليك خفيا فقال أبوالدرداء أيتها المرأة إنما على اعلامك ولك الاختيار لنفسك فقالت عفا الله

(وقال آخر) ولقدوعدت وأنت أكرم واعد * لاخير فى وعد بغير تمام
أنعم على بما وعدت تكرما * فالمطل يذهب بهجة الانعام

(وقال آخر) لعبدك وعد قد تقدم ذكره * فأوله حمد وآخره شكر
وقد جمعت فيك المكارم كلها * فمالك عن تأخير مكرمة عذر

(وقال آخر) وميعاد الكريم عليه دين * فلا تزد الكريم على السلام
يذكره سلامك ما عليه * ويغنيك السلام عن الكلام

(وقال آخر) شكاك لسانى ثم أمسكت نصفه * فنصف لسانى بامتداحك ينطق
فان لم تنجزماوعدت تركتنى * وباقى لسانى بالمذمة مطلق

(وقال آخر) بانت لوعدك عينى غير راقدة * والليل حي الدياجى منبت السحر
هذا وقد بت من وعد على ثقة * فكيف لو بت من هجر على حذر

(وقال آخر) تذكر بالرقاع إذا نسينا * ويأبى الله أن تنسى الكرام

(وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم) فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع مايطرب السماع ويشنف المسامع كقضية الطائى وشريك نديم النعمان بن المنذر وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن اليه وأغناه وكان هذا الطائى قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئا لصبيته وصغاره فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان فى يوم بؤسه فلما رآه الطائى علم أنه مقتول وان دمه مطلوب فقال حي الله الملك ان لى صبية صغارا وأهلا جياعا وقد أرقت ماء وجهى فى حصول شىء من البلغة لهم وقد أقدمنى سوء الحظ على الملك فى هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى ولن يتفاوت الحال فى قتلى بين أول النهار وآخره فان رأى الملك أن يأذن لى فى أن أوصل اليهم هذا القوت وأوصي بهم أهل المروءة من الحى لئلا يهلكوا ضياعا ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسى لنفاذ أمره فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأي تلهفه على ضياع أطفاله رق له ورثى لحاله غير أنه قال له لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا فان لم ترجع قتلناه وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائى إلى شريك وقال له

ياشريك بن عدى * ما من الموت انهزام من لأطفال ضعاف * عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار * وافتقار وسقام يا أخا كل كريم * أنت من قوم كرام
ياأخا النعمان جدلى * بضمان والتزام ولك الله بأنى * راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدى أصلح الله الملك على ضمانه فمر الطائى مسرعا وصار النعمان يقول لشريك ان صدر النهار قدولى ولم يرجع وشريك يقول ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء فلما قرب المساء قال النعمان لشريك قدجاء وقتك قم فتأهب للقتل فقال شريك هذا شخص قدلاح مقبلا وأرجو أن يكون الطائى فان لم يكن فأمر الملك ممتثل قال فبينما هم كذلك وإذا بالطائى قداشتد عدوه فى سيره مسرعا حتى وصل فقال خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى ثم وقف قائما وقال أيها الملك مر بأمرك فاطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال والله مارأيت أعجب منكما أما أنت ياطائى فما تركت لاحد فى الوفاء مقاما يقوم فيه ولا ذكرا يفتخر به وأما أنت ياشريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى

عنك إنما أنا بنت أخيك ولا يمنعك أحد من قول الحق فيما طوقتك به فقد وجب عليك أداء الامانة فلم يجد بدا من القول فقال يا بنية ابن بنت رسول الله ﷺ أحب الى (٢٠٠) في ذلك وأرضي عندي والله أعلم وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعا شفتيه على شفتي الحسين فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم شفتيه قالت قد اخترته ورضيته فتزوجها الحسين بن علي عليهما السلام فساق لها مهرا عظيما وبلغ معاوية مافعله أبو الدرداء فعظم عليه وقال من يرسل ذا بله وعمى ركب خلاف ما يهوى وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها ذهبا وكان معاوية قد اطرحه وقطع عنه جميع روادفه لقوله انه خدعه حتى طلق امرأته فلم يزل يجفوه حتى قل ما بيده فرجع إلى العراق فلما قدمها لقي الحسين فسلم عليه ثم قال لقد علمت ما كان من خبري وخبر أرينب وكنت قبل فراقي إياها استودعتها مالا وكان الذي كان ولم أقبضه ، والله ان ظني بها جميل فذاكرها في أمري فان الله يجزيك به أجرك فسكت عنه فلما انصرف إلى أهله قال لها قدم عبيد الله بن سلام وهو كثير الثناء عليك في دينك وحسن صحبتك فسرني ذلك وأعجبني وذكر أنه استودعك مالا فقالت صدق استودعني مالا لا أدري لمن هو وانه لمطبوع عليه بخاتمه وها هو ذا فادفعه اليه بطابعه فأثنى عليه الحسين خيرا وقال لا أدخله عليك حتى

الكرماء فلا أكون أنا الإمام الثالث الا واني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك فقال الطائي :

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي * فعددت قولهم من الاضلال
إني امرؤ مني الوفاء سجية * وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان ماحملك على الوفاء وفيه اتلاف نفسك فقال ديني فمن لا وفاء فيه لا دين له فأحسن اليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده مكرما إلى أهله وأناله ما تمناه (ومن ذلك) ما حكي أن الخليفة المأمون لما ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه دخل على المأمون بعض اخوانه يوما فقال يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أبي طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره فاستحضر شخصا وجعله في زي الزهاد والنساك الغزاة ودسه إلى عبد الله بن طاهر وقال له امض إلى مصر وخالط أهلها وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي واذكر مناقبه ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه إلى القاسم بن محمد العلوي واكشف باطنه وابحث عن دفين نيته وائتني بما تسمع ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه الى مصر ودعا جماعة من أهلها ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه فلما نزل من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب اليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده فقال له لقد فهمت ما قصدته فهات ما عندك فقال ولي الأمان قال نعم فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد فقال له عبد الله أو تنصفني فيما أقوله لك قال نعم قال فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الاحسان والمنة قال نعم قال فيجب علي وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب وأمري فيما بينهما مطاع وقولي مقبول ثم اني التفت يمينا وشمالا فأرى نعمة هذا الرجل غامرة واحسانه فائضا علي أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وتقول اغدر وجانب الوفاء والله لو دعوتني الى الجنة عيانا لما غدرت ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له فسكت الرجل فقال له عبد الله والله ما أخاف إلا على نفسك فارحل من هذا البلد فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون فأخبره بصورة الحال فسره ذلك وزاد في إحسانه اليه وضاعف انعامه عليه (ومما) يعد من محاسن الشيم ومكارم أخلاق أهل الكرم ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه قال قال لي أبو الفتح المنطيقي كنا جلوسا عند كافور الاخشيدي وهو يومئذ صاحب مصر والشام وله من البسطة والمكنة ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر فحضرت المائدة والطعام فلما أكلنا نام وانصرفنا فلما انتبه من نومه طلب جماعة منا وقال امضوا الساعة الى عقبة النجارين وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك فان كان حيا فاحضروه وان كان قد توفي فسلوا عن أولاده واكشفوا أمرهم قال فمضينا الى هناك وسألنا عنه فوجدناه قد مات وترك بنتين احداهما متزوجة والأخرى عاتق فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك فسير في الحال واشترى لكل واحدة منهما دارا وأعطاهما مالا جزيلا وكسوة فاخرة وزوج العاتق وأجرى على كل واحدة منهما رزقا وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك وقال

وقال أتعلمون سبب هذا قالوا لا فقال اعلموا أنى مررت يوما بوالدهما المنجم وأنا فى ملك ابن عباس الكاتب وأنا بحالة رثة فوقفت عليه فنظر إلى واستجلبنى وقال أنت تصير إلى رجل جليل القدر وتبلغ منه مبلغا كبيرا وتنال خيرا كثيرا ثم طلب منى شيئا فأعطيته درهمين كانا معى ولم يكن معى غيرهما فرماهما إلى وقال أبشرك بهذه البشارة وتعطينى درهمين ثم قال وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه فاذكرنى اذا صرت إلى الذى وعدتك به ولا تنس فقلت له نعم فقال عاهدنى أنك تفى لى ولا يشغلك ذلك عن افتقادى فعاهدته ولم يأخذ منى الدرهمين ثم إنى شغلت عنه بما تجدد لى من الأمور والأحوال وصرت الى هذه المنزلة ونسيت ذلك فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته فى المنام قد دخل على وقال لى أين الوفاء بالعهد الذى بينى وبينك واتمام وعدك لا تعذر فيعذر بك فاستيقظت وفعلت ما رأيتم ثم زاد فى احسانه إلى بنات المنجم ووفاء لوالدهما بما وعده والله أعلم

(ومما) أسفرت عنه وجوه الأوراق وأخبرت به الثقات فى الآفاق وظهرت روايته بالشام والعراق وضرب به الأمثال فى الوفاء بالاتفاق حديث السموءل بن عاديا وتلخيص معناه أن امرأ القيس الكندى لما أراد المضى إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموءل دروعا وسلاحا وأمتعة تساوى من المال جملة كثيرة فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموءل فقال السموءل لا أدفعها الا لمستحقها وأبى أن يدفع اليه منها شيئا فعاوده فأبى وقال لا أغدر بذمتى ولا أخون أمانتى ولا أترك الوفاء الواجب على فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره فدخل السموءل فى حصنه وامتنع به فحاصره ذلك الملك وكان ولد السموءل خارج الحصن فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيرا ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموءل فأشرف عليه من أعلى الحصن فلما رآه قال له إن ولدك قد أسرته وها هو معى فان سلمت إلى الدروع والسلاح التى لامرئ القيس عندك رحلت عنك وسلمت اليك ولدك وان امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر فاختر أيهما شئت فقال له السموءل ما كنت لأخفر ذمامى وأبطل وفائى فاصنع ما شئت فذبح ولده وهو ينظر ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبا واحتسب السموءل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم اليهم الدروع والسلاح ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب اليه من حياة ولده وبقائه فصارت الأمثال فى الوفاء تضرب بالسموءل واذا مدحوا أهل الوفاء فى الأنام ذكر السموءل فى الأول وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتقله بيديه وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه واستطلق الأيدى المقبوضة عنه بالاحسان اليه (ومما) وضع فى بطون الدفاتر واستحسنته عيون البصائر ونقله الأصاغر عن الأكابر وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال طلبنى أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لى خذ معك فلانا وفلانا وسماهما أحدهما على بن محمد والآخر دينار الخادم واذهب مسرعا لما أقوله لك فانه قد بلغنى أن شيخا يحضر ليلا إلى دور البرامكة وينشد شعرا ويذكرهم ذكرا ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تردوا هذه الخرابات فاستتروا خلف بعض الجدران فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئا فأتونى به قال فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات واذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسى حديد واذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل فجلس على الكرسى وجعل يبكى وينتحب ويقول

ترى منا ثم أتى عبدالله فقال ما أنكرت مالك وزعمت أنه كما دفعته اليها بطابعك فادخل ياهذا اليها واستوف مالك منها بحيث تحصل البراءة من الطرفين فلما دخل عليها قال لها الحسين هذا عبدالله بن سلام قد جاء يطلب وديعته فأخرجت اليه البدر فوضعها بين يديه وقالت له هذا مالك فشكر وأثنى فخرج الحسين عنهما وفض عبد الله خواتم بدره وحثى لها من ذلك جانبا كبيرا وقال لها والله هذا قليل منى فاستعبرا حتى علت أصواتهما بالبكاء على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما ثم قال أشهد الله أنها طالق ثلاثا اللهم أنت تعلم أنى لم أستنكحها رغبة فى مالها ولا فى جمالها ولكنى أردت إحلالها لزوجها فطلقها ولم يأخذ شيئا مما ساق لها فى مهرها بعد ما عرضته عليه وقال الذى أرجوه من الثواب خير لى فلما انقضت عدتها تزوجها عبدالله بن سلام وعادا على ما كانا عليه من حسن الصحبة إلى أن فرق الموت بينهما هكذا نقله ابن بدرون فى تاريخه والله أعلم

(ومن غرائب المنقول وعجائبه) عن الأمير بدر الدين أبى المحاسن يوسف المهمندار المعروف بمهمندار العرب أنه قال حكى الأمير شجاع الدين محمد

الشيرازى متولى القاهرة فى الأيام الكاملية سنة ثلاث وستمائة قال بتنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد فأكرمنا وكان الرجل شديد السمرة وهو شيخ كبير فحضر له أولاد بيض الوجوه حسان الأشكال فقلنا له هؤلاء أولادك فقال نعم وكأنى بكم وقد

ولما رأيت السيف جندل جعفرا * ونادى مناد للخليفة في يحيي
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي * عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها وردّدها فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له أجب أمير المؤمنين ففزع فزعا شديدا وقال دعوني حتى أوصى وصية فاني لا أوقن بعدها بحياة ثم تقدم إلى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها الى غلامه ثم سرنا به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره وقال له من أنت وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها قال الخادم ونحن وقوف نسمع فقال يا أمير المؤمنين ان للبرامكة عندي أيادي خطيرة أفتأذن لى أن أحدثك حديثي معهم قال قل قال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال فلما ركبني الدين واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورءوس أهلي أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد فدعوت بثوبيات لى كنت قد أعددتها لأستتر بها الناس فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شىء عندهم ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة فاذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زى وزينة وعلى الباب خادمان فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل منى لأنها لم تكن صناعتي وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيي بن خالد ودخلت معهم وإذا يحيي جالس على دكة له في وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده وإذا غلام أمرد عذاره خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام وجلس الغلام إلى جنب يحيي ثم قال يحيي للقاضي تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا فخطب القاضي وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت فاذا نحن في المكان ما بين يحيي والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلا فخرج الينا مائة واثنا عشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدى بين يدى يحيي لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي وأخذت الصينية في يدي وقمت وجعلت ألتفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيي يلحظني إذ قال للخادم ائتني بذلك الرجل فرددت اليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي ثم أمرني بالجلوس فجلست فقال لى ممن الرجل فقصصت عليه قصتي فقال للخادم ائتني بولدي موسى فأتى به فقال له يا بني هذا رجل غريب فخذه اليك واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى على يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الاكرام وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش وأتم سرور فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال إن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه اليك وأكرمه ففعل ذلك وأكرمني غاية الاكرام فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد ثم لم أزل في أيدي القوم

أنكرتم بياضهم وسوادي فقلنا له نعم قال هؤلاء أمهم افرنجية أخذتها في أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب فقلنا وكيف أخذتها قال حديثي بها عجيب قلنا أتحفنا به قال زرعت كتانا في هذه البلدة وقلعته ونفضته فانصرف عليه خمسمائة دينار ولم يبلغ الثمن إلى أكثر من ذلك فحملته إلى القاهرة فلم يصل إلى أكثر من ذلك فأشير على بحمله إلى الشام فحملته فما زاد على تلك القيمة شيئا فوصلت به إلى عكا فبعت بعضه بالأجل والبعض تركته عندي واكتريت حانوتا أبيع فيه على مهل إلى حيث انقضاء المدة فبينما أنا أبيع إذ مرت بي امرأة افرنجية ونساء الافرنج يمشون في الاسواق بلا نقاب فأتت تشتري منى كتانا فرأيت من جمالها ما بهرني فبعتها وسامحتها ثم انصرفت وعادت إلى بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من الكرة الأولى فتكررت الى وعلمت أني أحبها فقلت للعجوز التي معها إنني قد تلفت بحبها وأريد منك الحيلة فقالت لها ذلك فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو فقلت لها قد سمحت بروحي في حبها واتفق الحال على أن أدفع خمسين دينارا صورية فوزنتها وسلمتها للعجوز فقالت نحن الليلة عندك فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلواء فجاءت الافرنجية فأكلنا وشربنا وجن الليل ولم يبق غير النوم فقلت في نفسي أما تستحي من الله بعدا ولوى وأنت غريب تعصى الله مع نصرانية اللهم إني أشهدك أني قد عففت عنها في هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ثم نمت إلى الصبح

يداولونى عشرة أيام لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا لى قم فاخرج الى عيالك بسلام فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج الى عيالى على هذه الحالة انا لله وانا اليه راجعون فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لى مهما كان لك من الحوائج فارفعها الى فانى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا واستقبلنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك واذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل الى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعونى فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل أجحفنى عمرو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلهما به فلما تحامل على الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم الى وأشكرهم على احسانهم فقال المأمون على بعمرو بن مسعدة فلما أتى به قال له يا عمرو أتعرف هذا الرجل قال نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة قال كم ألزمته فى ضيعته قال كذا وكذا قال رد له كل ما استأديته منه فى مدته وقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده قال فعلا نحيب الرجل وبكاؤه فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له يا هذا قد أحسنا اليك فلم تبكى قال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة إذ لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين ففعل ما فعل فمن أين كنت أصل الى أمير المؤمنين قال ابراهيم بن ميمون فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك واياهم فاشكر ولهم فأوف ولاحسانهم فاذكر ● وقيل اذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ودوام عهده فانظر الى حنينه الى أوطانه وتشوقه الى اخوانه وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر :

سقى الله أطلال الوفاء بكفه ● فقد درست أعلامه ومنازله

وقال آخر

أشدد يديك بمن بلوت وفاءه ● ان الوفاء من الرجال عزيز

وقال مالك بن عمارة اللخمى كنت جالسا فى ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير وكنا نخوض فى الفقه مرة وفى المذاكرة مرة وفى أشعار العرب وأمثال الناس مرة فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع فى المعرفة والتصرف فى فنون العلم وحسن استماعه إذا حدث وحلاوة لفظه إذا حدث فخلوت معه ليلة فقلت له والله انى لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك واقبالك على جليسك فقال إن تعش قليلا فسترى العيون طامحة الى والاعناق نحوى متطاولة فاذا صار الأمر الى فلعلك أن تنقل الى ركابك فلأملأن يديك فلما افضت اليه الخلافة توجهت اليه فوافيته يوم الجمعة وهو يخطب على المنبر فلما رآنى أعرض عنى فقلت لعله لم يعرفنى أو عرفنى وأظهر لى نكره فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب فقال أين مالك بن عمارة فقمت فأخذ بيدى وأدخلنى عليه فمد إلى يده وقال انك تراءيت لى فى موضع لا يجوز فيه الا ما رأيت فأما الآن فمرحبا وأهلا كيف كنت بعدى فأخبرته فقال لى أتذكر ما كنت قلت لك قلت نعم فقال والله ما هو بميراث وعيناه ولا أثر رويناه ولكنى أخبرك بخصال منى سمت بها نفسى الى الموضع الذى ترى ما خنت

وبات الى الصبح وقامت فى السحر وهى غضبى ومضت ومضيت أنا الى حانوتى فجلست فيه واذا هى قد عبرت على هى والعجوز وهى مغضبة وكأنها القمر فهلكت فقلت فى نفسى من هو أنت حتى تترك هذه البارعة فى حسنها ثم لحقت العجوز وقلت ارجعى فقالت وحق المسيح ما أرجع اليك الا بمائة دينار فقلت نعم رضيت فوزنت مائة دينار فلما حضرت الجارية عندى لحقتنى الفكرة الأولى وعففت عنها وتركتها حياء من الله تعالى ثم مضت ومضيت الى موضعى ثم عبرت بعد ذلك على وكانت مستعربة فقالت وحق المسيح ما بقيت تفرح بى عندك إلا بخمسمائة دينار أو تموت كمدا فارتعدت لذلك وعزمت انى أصرف عليها ثمن الكتان جميعه فبينما أنا كذلك والمنادى ينادى معاشر المسلمين ان الهدنة التى بيننا وبينكم قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من المسلمين الى جمعة فانقطعت عنى وأخذت أنا فى تحصيل ثمن الكتان الذى لى والمصالحة على ما بقى منه وأخذت معى بضاعة حسنة وخرجت من عكا وفى قلبى من الافرنجية ما فيه فوصلت الى دمشق وبعت البضاعة بأوفى ثمن بسبب فراغ الهدنة ومن الله بكسب وافر وأخذت أتجر فى الجوارى عسى أن يذهب ما بقلبى من الافرنجية فمضت ثلاث سنين وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى من وقعة حطين وأخذه جميع الملوك وفتحه بلاد الساحل باذن الله تعالى فطلب منى جارية للملك الناصر فحضرت جارية حسناء فاشتريتها منى بمائة

دينار فأوصلوا إلى تسعين دينارا وبقيت عشرة دنانير فلم يلقوها فى الخزانة ذلك اليوم لانه انفق جميع الأموال فشاوروه على ذلك فقال امضوا به إلى الخزانة التى فيها السبي من نساء الأفرنج فخيروه فى واحدة منهن يأخذها بالعشرة الدنانير التى له فأتيت الخيمة فعرفت غريمتى الأفرنجية فقلت أعطونى هاتيك فأخذتها ومضيت إلى خيمتى وخلوت بها وقلت لها أتعرفينى قالت لا فقلت أنا صاحبك التاجر الذى جرى لي معك ماجرى وأخذت منى الذهب وقلت مابقيت تبصرنى إلا بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشرة دنانير فقالت مد يدك أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأسلمت وحسن اسلامها فقلت والله لاوصلت اليها إلا بأمر القاضى فرحت إلى ابن شداد وحكيت له ماجرى فعجب وعقدلى عليها وباتت تلك الليلة عندى فحملت منى ثم رحل العسكر وأتينا دمشق وبعد مدة يسيرة أتي رسول الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فردوا من كان أسيرا من الرجال والنساء ولم يبق إلا التى عندى فسألوا عنها واتضح الخبر أنها عندى وطلبت منى فحضرت وقد تغيرلونى وأحضرتها معى بين يدى مولانا السلطان الملك الناصر والرسول حاضر فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول ترجعين إلى بلادك أوإلى زوجك فقدفككنا أسرك وأسر غيرك فقالت يامولانا السلطان أنا قد أسلمت وحبلت وهاجلى ترونه صحب

داود قط ولاشمت بمصيبة عدو قط ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهى حديثه ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذا بها فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتى وقد فعل ثم دعا بغلام فقال له ياغلام بوئه منزلا فى الدار فأخذ الغلام بيدى وأفرد لى منزلا حسنا فكنت فى ألذ حال وأنعم بال وكان يسمع كلامى وأسمع كلامه ثم أدخل عليه فى وقت عشائه وغدائه فيرفع منزلتي ويقبل على ويحادثنى ويسألني مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لى عشرون ليلة فتغديت يوما عنده فلما تفرق الناس نهضت قائما فقال لى على رسلك فقعدت فقال أى الأمرين أحب اليك المقام عندنا مع النصفة لك فى المعاشرة او الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة فقلت ياأمير المؤمنين فارقت أهلى وولدى على أنى أزور أمير المؤمنين وأعود اليهم فان أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد فقال لا بل أرى لك الرجوع اليهم والخيار لك بعد فى زيارتنا وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار وكسوناك وحملناك أتراني قد ملأت يديك فلا خير فيمن ينسي إذا وعد وعدا إذا شئت صحبتك السلامة (ومن ذلك) ماروى عن أبى بكار الأعمى وكان قد انقطع إلى آل برمك قال مسرور الكبير لما أمرنى الرشيد بقتل جعفر بن يحيي دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول

فلا تبعدن فكل فتي سيأتى * عليه الموت يطرق أو يغادى

فقلت فى هذا والله قد أتيتك ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه فقال أبو بكار ناشدتك الله إلا ما ألحقتنى به فقلت له ما الذى حملك على هذا فقال أغنانى عن الناس فقلت حتى استأمر الرشيد ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد وأخبرته بخبر أبى بكار فقال هذا رجل فيه مصطنع أضممه اليك وانظر ماكان يجرى عليه جعفر فادفعه اليه وكان يحيي بن خالد إذا أكد فى يمينه قال لا والذى جعل الوفاء أعز مايرى قال أبو فراس بن حمدان الشاعر :

بمن يثق الانسان فيما ينوبه * ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم * ذئابا على أجسادهن ثياب

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحروب فقال كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا فقال المنصور عليك لعنة الله تطأ بساطي وتترحم على عدوى فقال إن نعمة عدوك لقلادة فى عنقى لا ينزعها إلا غاسلى فقال له المنصور ارجع ياشيخ فانى أشهد أنك لوفى حافظ للخير ثم أمر له بمال فأخذه ثم قال والله لولا جلالة أمير المؤمنين وامضاء طاعته مالبست لأحد بعد هشام نعمة فقال له المنصور لله درك فلولم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً * وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبابين الشام فاذا امرأة جالسة على قبر تبكي قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فكأنما شمسا عن متون غمامة فوقفنا متحيرين ننظر اليها فقال لها يزيد بن المهلب ياأمة الله هل لك فى أمير المؤمنين بعلا فنظرت الينا ثم أنشأت تقول

فإن تسألانى عن هواي فانه * يحول بهذا القبر يافتيان
وانى لاستحييه والتراب بيننا * كما كنت استحييه وهو يرانى

(ومن ذلك) ماروى عن نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبي زوج عثمان رضى الله عنهما ان عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يدها وخطبها معاوية فردته وقالت مايعجب الرجل منى قالوا ثناياك فكسرت ثناياها وبعثت بها إلى معاوية فكان ذلك مما رغب قريشا فى نكاح نساء بنى كلب * ولما أحس

ومابقيت الأفرنج تدنع بى فقال لها الرسول أيما أحب اليك هذا المسلم أو زوجك الأفرنجي فلان فأعادت عبارتها الأولى فقال الرسول لمن معه من الأفرنج اسمعوا كلامها ثم قال لى الرسول خذ زوجتك فوليت بها فطلبنى ثانيا وقال ان أمها أرسلت معي وديعة وقالت ان ابنتى أسيرة وأشتهى أن توصل لها هذه الكسوة فتسلمت الكسوة ومضيت إلى الدار وفتحت القماش فاذا هو قماشها بعينه قد سيرته لها أمها ووجدت الصرتين الذهب الخمسين دينارا والمائة دينار كما هما بربطى لم يتغيرا وهؤلاء الاولاد منها وهي التي صنعت لكم هذا الطعام ﴿ ومن لطائف المنقول من المستجاد ﴾ قال الواقدى كان ابراهيم ابن المهدى قد ادعى الخلافة لنفسه بالرى وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة أحسنها عندى ماحكاه لى قال لما دخل المأمون الرى فى طلبي وجعل لما أتاه بى مائة ألف درهم خفت على نفسى وتحيرت فى أمرى فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدرى أين أتوجه فوقفت فى شارع غير نافذ وقلت انا لله وانا اليه راجعون ان عدت على أثرى يرتاب فى أمرى فرأيت فى صدر الشارع عبدا أسود قائما على باب دار فتقدمت اليه وقلت هل عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار فقال نعم وفتح الباب فدخلت الى بيت نظيف فيه حصر وبسط ووسائط جلود إلا أنها نظيفة ثم أغلق الباب على ومضى فتوهمته قد سمع الجعالة فى وأنه خرج ليدل على فبقيت على مثل النار فبينما أنا كذلك اذ أقبل

مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف وقال له انج بهذا فأخذه زياد ودقه بين حجرين وقال والله لا ينتفع به أحد بعدك ٭ ولما قدم هدبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان ابن الحكم قالت زوجته ان لهدبة عندى وديعة فأمهله حتى آتيك بها فقال أسرعى فان الناس قد كثروا وكان مروان قد جلس لهم بارزا عن داره فمضت إلى السوق وأتت إلى قصاب فقالت اعطنى شفرتك وخذ هذين الدرهمين وأنا أردها عليك فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفتها على وجهها ثم جدعت أنفها من أصله وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس فقالت أتراني ياهدبة متزوجة بعد ماترى فقال الآن طابت نفسي بالموت فجزاك الله من حليلة وفية خيرا (ولنجعل) لهذا الباب من القضايا ختاما هو أوجزها كلاما وأحسنها نظاما وأبينها حكما وأحكاما وهى قضية جمعت الأمرين وفاء وغدرا وعرفا ونكرا وخيرا وشرا ونفعا وضرا واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعهده ففاز ونجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا وغدر الآخر فلم يجد له من جزاء غدره الى النجاة فرجا ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجا وهو ماذكره عبدالله بن عبدالكريم وكان مطلعا على أحوال أحمد بن طولون عارفا بأموره عالما بوروده وصدوره فقال ما معناه إن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلا مطروحا فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فأخذه اليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش اليه وقال له أنت عندى بمكانة أرعاك بها ولكن عادتى انى آخذ العهد على كل من أصرفه فى شىء أنه لايخوننى فعاهده ثم حكمه فى أمواله وقدمه فى أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن اليه فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن اليه واعتمد فى أمور بيوته عليه فقال له يوما يا أحمد امض الى الحجرة الفلانية ففى المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائتنى بها فمضى أحمد فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب فلما رأياه خرج الفتى وجاءت الجارية الى أحمد وعرضت نفسها عليه ودعته الى قضاء وطره فقال لها معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن الى وأخذ العهد على ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف الى الأمير وسلمها اليه وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعد ما أخذ السبحة وخرج من الحجرة لئلا يذكر حالها للامير فأقامت أياما لم تجد من الامير ماغيره عليها ثم اتفق أن الامير اشترى جارية وقدمها على حظاياه وغمرها بعطاياه واشتغل بها عمن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لايذكر جارية غيرها ولا يراها وكان أولا مشغولا بتلك الجارية الخاسرة الخائنة النافرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة فلما أعرض عنها اشتغالا بالجارية الجديدة المنجدة السعيدة المسعدة الحامدة المحمودة الوصيفة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدبها وجهه من ملاعبة أترابها وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف ضرب أضرابها وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لاتخاف من وليه ولا نجيره فكبر عليها اعراضه عنها ونسبت ذلك الى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها فدخلت على الامير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها وأعلنت بالبكاء

بين يديه لاتمام كيدها ومكرها وقالت ان أحمد اليتيم راودني عن نفسي فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظاً وغضباً وهم في الحال بقتله ثم عاوده حاكم عقله فتأنى في فعله واستحضر خادما يعتمد عليه وقال له إذا أرسلت اليك انسانا ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكا فاقتل ذلك الانسان واجعل رأسه في الطبق وأحضره مغطى ثم ان الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماء الخواص وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء ولاهجس هاجس في قلبه فلما مثل بين يدي الأمير وأخذ منه الشراب شرع في التدبير فقال يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكا فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء والخواص فقاموا اليه وسألوه الجلوس معهم فقال أنا ماض في حاجة للامير أمرني باحضارها في هذا الطبق فقالوا له أرسل من ينوب عنك في احضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال له امض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكا فمضى ذلك الفراش إلى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم فأخذه وليس عنده علم من باطن الامر فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال ماهذا فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من انفاذ الطبق وارساله مع الفراش وأنه لاعلم عنده غير ماذكره قال أتعرف لهذا الفراش خبرا يستوجب به ماجرى عليه فقال أيها الأمير ان الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة وقد كنت رأيت الأعراض عن اعلام الأمير بذلك وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وماجرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره لما أتهذه لاحضار السبحة الجوهر فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها فأقرت بصحة ماذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها فقتل وازدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته اليه وضاعف احسانه اليه وجعل أزمة جميع مايتعلق به بيده ❊ فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء كيف تحمى من المعاطب وتنجي من قبضة التلف بعد امضاء القواضب ويفضي بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب فهذا الغلام لما وفى لمولاه بجهده وهو بشر مثله وليس في الحقيقة بعبده وأطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده فاذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيا في طاعته بعقده كيف لا يفيض عليه من ألطاف مواهب بره ورفده ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته مما لا ممسك له من بعده وقالوا ليس شيء أوفى من القمرية إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ولاتزال تنوح عليه إلى أن تموت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

﴿ الباب الثامن والثلاثون في كتمان السر وتحصينه وذم افشائه ﴾

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه يابني لاتقصص رؤياك على اخوتك الآية فلما أفشى يوسف عليه رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت اخوته فحل به ماحل ❊ ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى فأوحى إلى عبده ما أوحى وقوله تعالى وما هو على الغيب بضنين أي

حال عليه كل مايحتاج اليه من خبز ولحم وقدر جديدة وجرة نظيفة وكيزان جدد نظط عن الحال ثم التفت إلي وقال جعلني الله فداك أنا رجل حجام وأنا أعلم أنك تتعرف مني لما أتولاه من معيشتي فشأنك بما لم تقع عليه يد وكان بي حاجة الى الطعام فطبخت لنفسي قدراً ما أذكر أني أكلت مثلها فلما قضيت أربي من الطعام قال هل لك في شراب فانه يسلي الهم فقلت ما أكره ذلك رغبة في مؤانسته فاتى بقطر ميز جديد لم تمسه يد وجاءني بدست شراب مطينة وقال لي روق لنفسك فروقت شرابا في غاية الجودة وأحضر لي قدحا جديدا وفاكهة وأبقالا مختلفة في طسوت فخار جدد ثم قال بعد ذلك أتأذن لي جعلت فداءك أن أقعد ناحية وآتي بشرابي فأشربه سرورا بك فقلت له افعل فشربت وشرب ثم دخل إلى خزانة له فأخرج عودا مصفحا ثم قال ياسيدي ليس من قدري أن أسألك في الغناء ولكن قد وجبت على مروءتك حرمتي فان رأيت أن تشرف عبدك فلك علو الرأي فقلت ومن أين لك أني أحسن الغناء فقال ياسبحان الله مولانا أشهر من ذلك أنت إبراهيم ابن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن دله عليك مائة ألف درهم فلما قال ذلك عظم في عيني وثبتت مروءته عندي فتناولت العود وأصلحته وغنيت وقد مر بخاطري فراق أهلي وولدي

وعسى الذي أهدي ليوسف أهله ... وأعزه في السجن وهو أسير
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا ... والله رب العالمين قدير

بهم

فاستولى عليه الطرب المفرط وطاب عيشه كثيرا ومن شدة طربه وسروره قال لى ياسيدى أتأذن لى أن أغنى ماسنح بخاطرى وان كنت من غير أهل هذه الصناعة فقلت هذا زيادة فى أدبك ومروءتك فأخذ العود وغنى

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا
فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم
سريعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا مادنا الليل المضر بذى الهوى
جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما
نلاقي لكانوا فى المضاجع مثلنا

فوالله لقد أحسست بالبيت قدسارنى وذهب عنى كل ما كان بى من الهلع وسألته أن يغنى فغنى

تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها إن الكرام قليل
وماضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل
وإنا لقوم لانرى القتل سبة
إذاما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول

فداخلنى من الطرب مالا مزيد عليه إلى أن عاجلنى السكر فلم أستيقظ إلا بعد المغرب فعاودنى فكرى فى نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه فقمت وغسلت وجهى وأيقظته وأخذت خريطة كانت معى فيها دنانير لها قيمة فرميت بها اليه وقلت له استودعتك الله فانى ماض من عندك وأسألك أن تصرف مافى

بهم وفى الحديث استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود وقال على رضى الله عنه وكرم وجهه سرك أسيرك فاذا تكلمت به صرت أسيره واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجودا من أمناء الأموال وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار لأن احراز الأموال منيعة بالأبواب والاقفال واحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وحمل الاسرار أثقل من حمل الاموال فان الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشى به ولا يستطيع كتم السر وإن الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكرب مالا يلحقه من حمل الاثقال فاذا أذاعه استراح قلبه وسكن خاطره وكأنما ألقى عن نفسه حملا ثقيلا وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل انسان مفتاح سره * ومن عجائب الأمور أن الاموال كلما كثرت خزانها كان أوثق لها وأما الاسرار فانها كلما كثرت خزانها كان أضيع لها وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ولو كتمه أمن من سطوته وقال أنوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وقيل كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقيل انفرد بسرك لاتودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون وقال كعب بن سعد الغنوى

ولست بمبد للرجال سريرتى * ولا أنا عن أسرارهم بسؤل

وقال أبو مسلم صاحب الدولة

أدركت بالحزم والكتمان ماعجزت * عنه ملوك بنى مروان اذ جهدوا
مازلت أسعى عليهم فى ديارهم * والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعا غنما فى أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وأسر رجل إلى صديقه حديثا ثم قال له أفهمت قال بل جهلت ثم قال له أحفظت قال بل نسيت وقيل لبعضهم كيف كتمانك للسر قال أجحد المخبر وأحلف للمستخبر وقال المهلب أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر اليه ومن أحسن ماقيل فى كتمان السر قول الشاعر

ولما سرائر فى الضمير طويتها * نسى الضمير بأنها فى طيه

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوى فقال

انى كتمت حديث ليلى لم أبح * يوما بظاهره ولا بخفيه
وحفظت عهد ودادها متمسكا * فى حبها برشاده أوغيه
ولما سرائر فى الضمير طويتها * نسى الضمير بأنها فى طيه

وقيل كتمان الاسرار يدل على جواهر الرجال وكما أنه لاخير فى آنية لا تمسك ما فيها فكذلك لاخير فى انسان لايمسك سره قال الشاعر

ومستودعى سرا كتمت مكانه * عن الحس خوفا أن ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهوة * فأودعته من حيث لا يبلغ الحس

(وقال قيس بن الحطيم)

أجود بمكنون التلاد واننى * بسرى عمن سألنى لضنين
وان ضيع الأقوام سرى فاننى * كتوم لأسرار العشير أمين

(وقال جعفر بن عثمان)

ياذا الذى أودعنى سره * لاترج أن تسمعه منى
لم أجره قط على فكرتى * كأنه لم يجر فى أذنى

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول ما أفشيت سرى إلى أحد قط فأفشاه فلمته اذ كان صدرى به أضيق وقال الأحنف بن قيس يضيق صدر الرجل بسره فاذا حدث به أحداً قال اكتمه على قال الشاعر

إذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق

وقال آخر إذا ماضاق صدرك عن حديث * وأفشته الرجال فمن تلوم
وان عاتبت من أفشى حديثى * وسرى عنده فأنا الملوم

وقال صالح بن عبد القدوس لاتودع سرك الى طالبه فالطالب للسر مذيع ولا تودع مالك عند من يستدعيه فالطالب للوديعة خائن * وقيل لأعرابى مابلغ من حفظك للسر قال أفرقه تحت شغاف قلبى ثم أجمعه وأنساه كأنى لم أسمعه وكان يقال أحزم الناس من لايفشى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه وقال حكيم قلوب الأحرار قبور الأسرار وقيل الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق وقال بعضهم

إذا ما غفرت الذنوب يوما لصاحب * فلست معيدا ما حييت له ذكرا
ولست إذا ما صاحب خان عهده * وعندى له سر مذيعا له سرا

وأين هذا من قول القائل

ولا تودع الاسرار أذنى فانما * تصب ماء فى اناء مثلم

أو القائل ولا أكتم الاسرار لكن أذيعها * ولا أدع الاسرار تغلو على قلبى
وان قليل العقل من بات ليلة * تقلبه الاسرار جنبا الى جنب

وقال آخر وانك كلما استودعت سرا * أنم من النسيم على الرياض

وقال إسحق بن ابراهيم الموصلى

أناس أمناهم فنموا حديثنا * فلما كتمنا السر عنهم تقولوا

(ولله در المتنبى حيث قال)

وللسر منى موضع لايناله * نديم ولا يفضى اليه شراب

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

﴿ الباب التاسع والثلاثون فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول ﴾

﴿الفصل الأول فى الغدر والخيانة﴾ قال رسول الله ﷺ أعجل الاشياء عقوبة البغى وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ المكر والخديعة والخيانة فى النار وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر قال الله تعالى انما بغيكم على أنفسكم وقال تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه وقال تعالى ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله وكم أوقع الغدر فى المهالك من غادر وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر وطوقه غدره طوق خزى فهو على فكه

هذه الخريطة فى بعض مهماتك ولك عندى المزيد ان أمنت من خوفى فأعادها على منكدا وقال ياسيدى ان الصعاليك منا لاقدر لهم عند كم أآخذ على ماوهبنيه الزمان من قربك وحلولك عندى ثمنا والله لئن راجعتنى فى ذلك لأقتلن نفسى فأعدت الخريطة إلى كمى وقد أثقلنى حملها فلما انتهيت الى باب داره قال لى ياسيدى ان هذا المكان أخفى لك من غيره وليس فى مؤنتك على ثقل فأقم عندى إلى أن يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن ينفق من تلك الخريطة ولم يفعل فأقمت عنده أياما على تلك الحالة فى ألذ عيش فتذممت من الاقامة فى مؤنته واحتشمت من التثقيل عليه فتركته وقد مضى يجدد لنا حالا وقمت فتزييت بزى النساء بالخف والنقاب وخرجت فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف أمر شديد وجئت لأعبر الجسر فاذا أنا بموضع مرشوش بماء فبصر بى جندى ممن كان يخدمنى فعرفنى فقال هذه حاجة المأمون فتعلق بى فمن حلاوة الروح دفعته هو وفرسه فرميتهما فى ذلك الزلق فصار عبرة وتبادر الناس اليه فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ودخلت شارعا فوجدت باب دار وامرأة واقفة فى دهليز فقلت ياسيدة النساء أحقنى دمى فانى رجل خائف فقالت على الرحب وأطلعتنى إلى غرفة مفروشة وقدمت لى طعاما وقالت ليهدأ روعك فما علم بك مخلوق وإذا بالباب يدق دقا عنيفا فخرجت وفتحت الباب وإذا بصاحبى الذى دفعته على الجسر وهو مشدوخ

غير

غير قادر وأوقعه في خطة خسف وورطة حتف فماله من قوة ولا ناصر ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الألباب من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من انصار النبي ﷺ فجاءه يوما وقال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال له رسول الله ﷺ ويحك ياثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله ﷺ ياثعلبة امالك في رسول الله أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا والذي بعثك بالحق نبيا لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه وعاهد الله تعالى على ذلك فقال رسول الله ﷺ اللهم ارزق ثعلبة ماقال فاتخذ ثعلبة غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها وهي تنمو كما ينمو الدود وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد فلما كثرت الغنم وتنحى صار يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ويصلي بقية الصلوات في غنمه فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت فتباعد أيضا عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الاخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال ما فعل ثعلبة قالوا يارسول الله اتخذ غنما مايسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياويح ثعلبة فأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين رجل من بني سليم ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب الصدقة وكيف يأخذانها وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب وبرجل آخر من بني سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه الا جزية أوماهذه الا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياه قالا ما هذا قال خذاه فإن نفسي به طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال ما هذه الا جزية أوماهذه الا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيا قال فذهبا من عنده وأقبلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال قبل أن يتكلما ياويح ثعلبة فأنزل الله تعالى ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك ياثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل صدقته فقال ان الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع الى منزله وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئا ثم أتى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الانصار فاقبل صدقتي فقال أبو بكر رضي الله عنه لم يقبلها رسول الله ﷺ منك فلا أقبلها أنا فقبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه ولم يقبلها فلما ولي عمر رضي الله عنه فقال ياأمير المؤمنين اقبل صدقتي فلم يقبلها منه وقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه فأنا لا أقبلها وقبض عمر رضي الله عنه ولم يقبلها ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله

الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرس فقالت ياهذا مادهاك فقال ظفرت بالمغنى وانفلت عني فاخبرها بالحال فاخرجت خرقا وعصبته بها وفرشت له ونام عليلا وطلعت إلى وقالت أظنك صاحب القصة فقلت نعم قالت لا بأس عليك ثم جددت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثا ثم قالت اني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فينم بك فانج بنفسك فسألتها المهلة الى الليل ففعلت فلما دخل الليل لبست زى النساء وخرجت من عندها فأتيت إلى بيت مولاة كانت لنا فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدت الله على سلامتي وخرجت كأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة فظننت خيرا فما شعرت الا بابراهيم الموصلي بنفسه في خيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتني اليه فرأيت الموت عيانا وحملت بالزى الذى أنا فيه الى المأمون فجلس مجلسا عاما وأدخلني اليه فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فقال لا سلم الله عليك ولا حياك ولا رعاك فقلت له على رسلك يا أمير المؤمنين ان ولى الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى وقد جعلك الله فوق كل عفو كما جعل ذنبي فوق كل ذنب فان تأخذ فبحقك وان تعف فبفضلك ثم أنشدت

ذنبي اليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... واصفح بحلمك عنه
ان لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه

فرفع إلى رأسه فبدرته وقلت

اتيت ذنبا عظيما   وأنت للعفو أهل   فان عفوت فمن   وان جزيت فعدل   فرق المأمون واستروحت روائح الرحمة من شمائله ثم أقبل على ابنه العباس (٢١٠) وأخيه أبي اسحق وجميع من حضر من خاصته فقال ماترون فى أمره فكل اشار بقتلي إلا أنهم اختلفوا في القتلة كيف تكون فقال المأمون لأحمد بن ابي خالد ماتقول يا احمد فقال يا امير المؤمنين ان قتلته وجدنا مثلك قتل مثله وان عفوت عنه لم نجد مثلك عفا عن مثله فنكس المأمون رأسه وجعل ينكت في الارض وانشد متمثلا

قومي هم قتلوا أميم أخي   فاذا رميت يصيبني سهمي

فكشفت المقنعة عن رأسي وكبرت تكبيرة عظيمة وقلت عفا والله عني أمير المؤمنين فقال المأمون لا بأس عليك يا عم فقلت ذنبي يا امير المؤمنين اعظم من ان انفوه معه بعذر وعفوك اعظم من ان انطق معه بشكر ولكن اقول

ان الذى خلق المكارم حازها   في صلب آدم للامام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة   وتظل تكلؤهم بقلب خاشع
ما ان عصيتك والغواة تمدني   اسبابها الا بنية طائع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله   عفو ولم يشفع اليك بشافع
ورحمت اطفالا كافراخ القطا   وحنين والدة بقلب جازع

فقال المأمون اقول لا تثريب عليك اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك فقلت رددت مالي ولم تبخل علي به وقبل ردك مالي قد حقنت دمي

عنه فسأله أن يقبل صدقته فقال له لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضى الله عنهما فأنا لا أقبلها ثم هلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه * فانظر الى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره وأعقبه نفاقا يخزيه يوم فاقته وفقره فأى خزى أرجح من ترك الوفاء بالميثاق وأى سوء أقبح من غدر يسوق الى النفاق وأى عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوى الأخلاق وكان يقال لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكاره فى جنب نيل المكارم قال الشاعر :

غدرت بأمر كنت أنت جذبتنا * اليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

ولما حلف محمد الأمين للمأمون فى بيت الله الحرام وهما وليا عهد طالبه جعفر بن يحيى أن يقول خذلنى الله ان خذلته فقال ذلك ثلاث مرات فقال الفضل بن الربيع قال لى الأمين فى ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله يا أبا العباس أجد فى نفسى أن أمرى لا يتم فقلت له ولم ذلك أعز الله الأمير قال لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر وكان كذلك لم يتم أمره (وورد) فى أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة كان ملكا بين دجلة والفرات وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذى الأكتاف فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقا كثيرا ثم إن سابور جمع جيوشا وسار إلى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شىء ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت أى حاضت فخرجت من الربض وكانت من أجمل أهل دهرها وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآها ورأته فعشقها وعشقته وأرسلت اليه تقول ما تجعل لى ان دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبى فقال أحكمك فقالت عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فانها تقعد على حائط المدينة فتتداعى المدينة كلها وكان ذلك طلسما لا يهدمها الا هو ففعل ذلك فقالت له وأنا أسقى الحرس الخمر فاذا صرعوا فاقتلهم ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ فى فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام فالتمس ما كان يؤذيها فاذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها وأثرت فيها وقيل كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها ثم ان سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها قيل إنه أمر رجلا فركب فرسا جموحا وضفر غدائرها بذنبه ثم استركضه فقطعها قطعا قطعه الله ما أغدره * وتقول العرب جزانى جزاء سنمار وهو ان ازدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مرىء فدل على ظهر الجزيرة فدفع ابنه بهرام إلى النعمان وهو عامله على أرض العرب وأمره أن يبنى له جوسقا فامتثل أمره وبنى له جوسقا كأحسن ما يكون وكان الذى بنى الجوسق رجلا يقال له سنمار فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقال لو علمت أنكم توفونى أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت فقالوا وانك لتبنى أحسن من هذا ولم تبنه ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع فكانت العرب تقول جزانى جزاء سنمار * وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله غدر بعلى رضى الله عنه وقتله وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضى الله عنه وقتله وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقتله * وجعل المنصور العهد الى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدى عليه فقال عيسى

فلو بذلت دمى أبغى رضاك به والمال حتى أرسل النعل من قدمي ما كان ذاك سوى عارية رجعت اليك لو لم تعرها كنت لم تلم فان جحدتك ما أوليت من كرم انى الى اللؤم أولى منك بالكرم فقال المأمون ان من الكلام دررا وهذا منه وخلع عليه وقال ياعم ان أبا اسحق والعباس أشارا بقتلك فقلت انهما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكن أتيت بما أنت أهله ودفعت ما خفت بما رجوت فقال المأمون ياعم أمت حقدى بحياة عذرك وقد عفوت عنك ولم أجرعك مرارة امتنان الشافعين ثم سجد المأمون طويلا ورفع رأسه وقال يا عم أتدرى لم سجدت قلت شكراً لله تعالى الذى اظفرك بعدو دولتك فقال ما أردت هذا ولكن شكراً لله الذى ألهمنى العفو عنك فحدثني الآن حديثك فشرحت له صورة أمرى وماجرى لي مع الحجام والجندى والمرأة والمولاة التى نمت على فأمر المأمون باحضارها وهى فى دارها تنتظر الجائزة فقال لها ما حملك على ما فعلت مع سيدك فقالت الرغبة فى المال فقال لها هل لك ولد أو زوج فقالت لا فأمر بضربها مائتى سوط وخلد سجنها ثم قال احضروا الجندى وامرأته والحجام فاحضروا فسأل الجندى عن السبب الذى حمله على ما فعل فقال الرغبة فى المال فقال المأمون أنت يجب أن تكون حجاما ووكل به ما يلزمه الجلوس فى دكان الحجام لتعلم الحجامة وأكرم زوجته وأدخلها إلى القصر وقال هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات ثم قال للحجام

أينسى بنو العباس ذبى عنهم * بسيفى ونار الحرب زاد سعيرها
فتحت لهم شرق البلاد وغربها * فذل معاديها وعز نصيرها
أقطع أرحاما على عزيزة * وأبدى مكيدات لها وأثيرها
فلما وضعت الأمر فى مستقره * ولاحت له شمس تلألأ نورها
دفعت عن الأمر الذى أستحقه * وأوسق أوساقا من الغدر عيرها

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجئوها الى خباء اعرابى فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول:

ومن يصنع المعروف مع غير أهله * يلاقي كما لاقى مجير ام عامر
أعد لها لما استجارت ببيته * أحاليب ألبان اللقاح الدرائر
وأسمنها حتى إذا ما تمكنت * فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوى المعروف هذا جزاء من * يجود بمعروف على غير شاكر

(وحكى) بعضهم قال دخلت البادية فاذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب فقالت أتدرى ماهذا فقلت لا قالت هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه فلما كبر فعل بشاتى ما ترى وأنشدت:

بقرت شويهتي وفجعت قومى * وأنت لشاتنا ابن ربيب
غذيت بدرها ونشأت معها * فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء * فلا أدب يفيد ولا أديب

اللهم انا نعوذ بك من البغى وأهله ومن الغادر وفعله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الفصل الثاني فى السرقة والسراق﴾ قيل مر عمرو بن عبيد بجماعة وقوف فقال ما هذا قيل السلطان يقطع سارقا فقال لا إله إلا الله سارق العلانية يقطع سارق السر وأمر الاسكندر بصلب سارق فقال أيها الملك انى فعلت مافعلت وأنا كاره فقال وتصلب أيضا وأنت كاره * وسرق مدنى قميصا فأعطاه لابنه يبيعه فسرق منه فجاء له فقال بكم بعته قال برأس المال وقال أكتل السلمى وكان لصا فاتكا:

والله لأستحى من الله ان ارى * أجرجر حبلى ليس فيه بعير
وان أسأل المرء الدنيء بعيره * واجمال ربى فى البلاد كثير

قال الفرزدق:

وان أبا الكرشاء ليس بسارق * ولكن متى ما يسرق القوم يأكل

وكان لعمرو بن دويرة البجلى أخ قد كلف ببنت عم له فتسور عليها الدار ذات ليلة فأخذه أخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسرى وجعلوه سارقا فسأله خالد فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية فهم خالد بقطعه فقال عمر وأخوه:

أخالد قد والله أوطئت عشوة * وما العاشق المظلوم فينا بسارق
أقر بما لم يأته المرء انه * رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية

﴿الفصل الثالث فيما جاء فى العداوة والبغضاء﴾ قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء فى كتابه العزيز فقال تعالى وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وقال تعالى ان الشيطان للانسان

عـدو مبين وقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وقال تعالى ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وقال رسول الله ﷺ أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه العداوة تتوارث وقال زياد بن عبد الله :

فلو أني بليت بهاشمي ٭ خؤلته بنو عبد المدان
صبرت على عداوته ولكن ٭ تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

وبث رجل في وجه أبي عبيدة مكروها فأنشأ يقول :

فلو أن لحمي إذ وهى لعبت به ٭ سباع كرام أو ضباع وأذؤب
لهون وجدي أو لسلى مصيبتي ٭ ولكنما أودى بلحمي أكلب

وقيل لكسرى أي الناس أحب اليك أن يكون عاقلا قال عدوي قيل وكيف ذلك قال لأنه إذا كان عاقلا كنت منه في عافية وأمن وقيل كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن فان مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفي وبطن وقالوا اياك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه ودخل مع الملك في لحافه وقال أبو العتاهية :

تنح عن القبيح ولا ترده ٭ ومن أوليته حسنا فزده
ستلقى من عدوك كل كيد ٭ إذا كاد العدو ولم تكده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب فقتل أخوها وزوجها وهي حبلى بهجرس بن كليب فلما كبر وشب قال :

أصاب أبي خالد وما أنا بالذي ٭ أميل وأمري بين خالي ووالدي
وأورث جساس بن مرة غصة ٭ إذا ما اعترتني حرها غير بارد

ثم قال بعد ذلك :

يا للرجال لقلب ماله جلد ٭ كيف العزاء وثاري عند جساس

ثم حمل على خاله فقتله وقال :

ألم ترني ثأرت أبي كليبا ٭ وقد يرجى المرشح للدخول
غسلت العار عن جسم ابن بكر ٭ بجساس بن مرة ذي البتول

(بيت) سن العداوة آباء لنا سلفوا ٭ فلن تبيد وللآباء أبناء

ويقال دار عدوك لأحد أمرين إما الصداقة تؤمنك أو لفرصة تمكنك وكتب سويد إلى مصعب

فبلغ مصعباً عني رسولي ٭ وهل تلفي النصيح بكل واد
تعلم أن أكثر من تناجي ٭ وان ضحكوا اليك هم الأعادي

ويقال فلان كثير المراق من المذاق وقال الحجاج لخارجي والله اني لا بغضك قال أدخل الله الجنة أشدنا بغضا لصاحبه ٭ ولما أراد أنوشروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فأنكروا عليه وقال بعضهم ان أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت فقال ان الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات وكانت أم قباذ تركية وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم فقيل هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك فقال ان قصره من رجليه ولا يكاد يرى إلا جالسا أو راكبا فلا يستبين ذلك فيه فقيل هو بغيض في الناس أو ما علمك ابني هرمز فقد قيل إذا كان في الانسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس فلا خير فيه وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب

البغض

لقد ظهر من مروءتك ما يوجب المبالغة في اكرامك وسلم اليه دار الجندي بما فيها وخلع عليه وأنعم عليـه برزقه وزيادة ألف دينار في كل سنة ولم يزل في تلك النعمة إلى أن مات (ومما يضارع ذلك)

أنه لما أفضت الخلافة إلى بني العباس اختفت رجال بني أمية ومنهم ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك وكان ابراهيم رجلا عالما عاملا أديبا كاملا وهو في سن الشبيبة فأخذ والله أمانا من السفاح فقال له يوما حدثني عما مر بك في اختفائك قال كنت يا أمير المؤمنين مختفيا بالحيرة في منزل بشارع على الصحراء فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت إلى أعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيلت أنها تريدني فخرجت من الدار متنكراً حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحدا أختفي عنده فبقيت في حيرة فاذا أنا بباب كبير رحبته واسعة فدخلت فيها فاذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس فدخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه فقال من أنت وما حاجتك فقلت رجل خائف على دمه وقد استجار بمنزلك فأدخلني منزله ثم صيرني في حجرة تلي حرمه وكنت عنده في ذلك على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس لا يسألني عن شيء من حالي إلا أنه يركب في كل يوم ركبة فقلت له يوما أراك تدمن الركوب ففيم ذلك فقال ابراهيم بن سليمان قتل أبي صبرا وقد بلغني أنه مختف فأنا أطلبه لأدرك منه ثاري فكثر

البغض فى الناس فلا عيب فيه

ولست براء عيب ذى الود كله * ولا بعض مافيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة * كما أن عين السخط تبدى المساويا

وفي المعنى قيل

وعين البغض تبرز كل عيب * وعين الحب لا تجد العيوبا

وعن أبى حيان قال قال لقمان نقلت الصخور وحملت الحديد فلم أر شيئا أثقل من الدين وأكلت الطيبات وعانقت الحسان فلم أر شيئا ألذ من العافية وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء خصوصا إذا كانوا مساهمين فى نسب أو مجاورين فى بلد اللهم انا نعوذ بك من تتابع الاثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم وقيل لأيوب عليه السلام أى شىء كان عليك فى بلائك أشد قال شماتة الأعداء وأنشد الجاحظ

تقول العاذلات تسل عنها * وداو عليل قلبك بالسلو
وكيف ونظرة منها اختلاسا * ألذ من الشماتة بالعدو

وقال ابن أبى جهينة المهلبي

كل المصائب قد تمر على الفتى * فتهون غير شماتة الأعداء

وقال الجاحظ ما رأيت سنانا أنفذ من شماتة الأعداء وقيل لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضر موت فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف فقال رجل منهم

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته * ان البغايا من بنى مرام
أظهرن فى موت النبى شماتة * وخضبن أيديهن بالعلام
فاقطع هديت أكفهن بصارم * كالبرق أومض فى متون غمام

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله فأخذهن وقطع أيديهن ويقال فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل ولا يؤمل صلاحا إلا فى فسادك ولا رفعة إلا فى سقوط حالك وقال حكيم لا تأمن عدوك وان كان ضعيفا فان القناة قد تقتل وان عدمت السنان قال الشاعر

فلا تأمن عدوك لو تراه * أقل إذا نظرت من القراد
فان الحرب ينشأ من جبان * وان النار تضرم من رماد

(بيت مفرد) فمن لم يكن منكم مسيئا فانه * يشد على كف المسىء فيجلب

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب

كفاية الله خير من توقينا * وعادة الله فى الماضين تكفينا
كاد الأعادى فلا والله ما تركوا * قولا وفعلا وتلقينا وتهجينا
ولم نزد نحن فى سر وفى علن * على مقالتنا يا ربنا اكفنا
فكان ذاك ورد الله حاسدنا * بغيظه لم ينل تقديرا فينا

﴿الفصل الرابع فى الحسد﴾ قال الله تعالى أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال رسول الله ﷺ استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود وقال على رضى الله عنه الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له وقيل المحسود غضبان على القدر ويقال ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش الحقد والحسد وسوء الخلق وقيل بئس الشعار الحسد وقيل لبعضهم ما بال فلان يبغضك قال لأنه شقيقى فى النسب وجارى فى البلد وشريكى فى الصناعة فذكر جميع دواعى الحسد وقال اعرابى الحسد داء منصف يفعل فى الحاسد أكثر من فعله فى المحسود وهو مأخوذ من الحديث قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود أولاها غم لا ينقطع الثانية

والله تعجبي وقلت القدر ساقنى إلى حتفى فى منزل من يطلب دمى وكرهت الحياة فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه فأخبرنى فعلمت أن الخبر صحيح وأنا الذى قتلت أباه فقلت له يا هذا قد وجب على حقك ومن حقك أن أدلك على خصمك وأقرب إليك الخطوة قال وماذاك قلت أنا ابراهيم بن سليمان قاتل أبيك فخذ بثأرك فقال انى أحسبك رجلا قد مضه الاختفاء فأحببت الموت فقلت لا والله ولكن أقول لك الحق يوم كذا وكذا بسبب كذا وكذا فلما علم صدقى تغير لونه واحمرت عيناه وأطرق مليا ثم قال أما أنت فستلقى أبى عند حكم عدل فيأخذ بثاره وأما أنا فغير مخفر ذمتى فاخرج عنى فلست آمن عليك من نفسى وأعطانى ألف دينار فلم آخذها منه وانصرفت عنه فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين (ومن لطائف ما نقلته من المستجاد) حدث أبو الحسن بن صالح البلخى بمصر قال أخبرنى بعض عمال شيوخنا عن شبة بن محمد الدمشقى قال كان فى أيام سليمان ابن عبد الملك رجل يقال له خزيمة بن بشر من بنى أسد مشهور بالمروءة والكرم والمواساة وكانت نعمته وافرة فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج إلى اخوانه الذين كان يواسيهم ويتفضل عليهم فواسوه حينا ثم ملوه فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال لها يا بنت العم قد رأيت من اخوانى تغيرا وقد عزمت على لزوم بيتى إلى أن يأتينى الموت ثم أغلق بابه عليه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد وبقى حائرا فى حاله فكان عكرمة

الفياض والياً على الجزيرة فبينما هو فى مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر فقال عكرمة ما حاله فقالوا صار فى أسوأ الأحوال وقد أغلق بابه ولزم بيته فقال عكرمة الفياض وما سمى الفياض إلا للافراط فى الكرم فما وجد خزيمة ابن بشر مواسيا ولا مكافئا فامسك عن ذلك فلما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها فى كيس واحد ثم أمر باسراج دابته وخرج سرا من أهله فركب ومعه غلام واحد يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فطرقه بنفسه فخرج خزيمة فقال له أصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلا فوضعه وقبض على لجام الدابة وقال له من أنت جعلت فداك قال له ما جئت فى هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفنى قال خزيمة فما أقبله أو تخبرنى من أنت قال أنا جابر عثرات الكرام قال زدنى قال لا ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته فقال لها أبشرى فقد أتى الله بالفرج فلو كان فى هذا فلوس كانت كثيرة قومى فاسرجى قالت لا سبيل إلى السراج فبات يلمس الكيس فيجد تحت يده خشونة الدنانير ورجع عكرمة إلى منزله فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه منفردا فارتابت وشقت جيبها ولطمت خدها فلما رآها على تلك الحالة قال لها ما دهاك يا ابنة العم قالت سوء فعلك بابنة عمك أمير الجزيرة يخرج

مصيبة لا يؤجر عليها الثالثة مذمة لا يحمد عليها الرابعة سخط الرب الخامسة يغلق عنه باب التوفيق ﴿ من ذلك ﴾ ما حكى أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه وصار يدخل على حريمه من غير استئذان وكان له وزير حاسد فغار من البدوى وحسده وقال فى نفسه ان لم أحتل على هذا البدوى فى قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدنى منه فصار يتلطف بالبدوى حتى أتى به إلى منزله فطبخ له طعاما وأكثر فيه من الثوم فلما أكل البدوى منه قال له احذر أن تقترب من أمير المؤمنين فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك فانه يكره رائحته ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال يا أمير المؤمنين إن البدوى يقول عنك للناس إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه فلما دخل البدوى على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال ان الذى قاله الوزير عن هذا البدوى صحيح فكتب أمير المؤمنين كتابا إلى بعض عماله يقول له فيه إذا وصل إليك كتابى هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوى ودفع إليه الكتاب وقال له امض به إلى فلان وائتنى بالجواب فامتثل البدوى ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده فبينما هو بالباب إذا لقيه الوزير فقال أين تريد قال أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان فقال الوزير فى نفسه ان هذا البدوى يحصل له من هذا التقليد مال جزيل فقال له يا بدوى ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك فى سفرك ويعطيك ألفى دينار فقال أنت الكبير وأنت الحاكم ومهما رأيته من الرأى افعل قال اعطنى الكتاب فدفعه إليه فأعطاه الوزير ألفى دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذى هو قاصد فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة فى أمر البدوى وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أياما ما ظهر وأن البدوى بالمدينة مقيم فتعجب من ذلك وأمر باحضار البدوى فحضر فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها فقال له أنت قلت عنى للناس انى أبخر فقال معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لى به علم وإنما كان ذلك مكرا منه وحسدا وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه فقال يا أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله ثم خلع على البدوى واتخذه وزيرا وراح الوزير بحسده وقال المغيرة شاعر آل المهلب

آل المهلب قوم ان مدحتهم * كانوا الأكارم آباء وأجدادا
ان العرانين تلقاها محسدة * ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال عمر رضى الله عنه يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك وقال مالك بن دينار شهادة القراء مقبولة فى كل شىء إلا شهادة بعضهم على بعض فانهم أشد تحاسدا من التيوس وعن أنس رضى الله تعالى عنه رفعه ان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال منصور الفقيه

منافسة الفتى فيما يزول * على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه * وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عز وجل الحاسد عدو نعمتى متسخط لفعلى غير راض بقسمتى التى قسمت لعبادى قال الشاعر

أيا حاسداً لى على نعمتى * أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت

أسأت على الله في حكمه * لأنك لم ترض لى ماوهب
فأخزاك ربى بأن زادنى * وسد عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعى رأيت اعرابيا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة فقلت له ما أطول عمرك فقال تركت الحسد فبقيت وقالوا لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح وقال ابن مسعود رضى الله عنه ألا لا تعادوا نعم الله قيل ومن يعادى نعم الله قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقيل لعبد الله بن عروة لم لزمت البدو وتركت قومك فقال وهل بقى إلا حاسد على نعمة أوشامت على نكبة وقال الشاعر :

ياطالب العيش فى أمن وفى دعة * رغدا بلا قتر صفوا بلا رنق
خلص فؤادك من غل ومن حسد * فالغل فى القلب مثل الغل فى العنق

(وقال آخر)

اصبر على حسد الحسو * د فان صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها * ان لم تجد ماتأكله

وفى نوابغ الحكم الحسد حسك من تعلق به هلك ولبعضهم :

انى حسدت فزاد الله فى حسدى * لاعاش من عاش يوما غير محسود

(وقال نصر بن سيار) :

انى نشأت وحسادى ذووا عدد * ياذا المعارج لاتنقص لهم عددا
ان يحسدونى على مابى لما بهم * فمثل مابى مما يجلب الحسدا

وكان عمر رضي الله عنه يقول نعوذ بالله من كل قدر وافق ارادة حاسد وقيل لارسطاطاليس مابال الحسود أشد غما قال لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ الباب الأربعون فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصلان ﴾

﴿الفصل الأول فى فضل الجهاد فى سبيل الله وشدة البأس﴾ قد أثنى الله تعالى على الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ووصف المجاهدين فقال تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء والرأى فى الحرب أمام الشجاعة قال رسول الله ﷺ الحرب خدعة وقال ﷺ ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم فى سبيله أو قطرة دمع فى جوف ليل من خشيته وسمع رجل عبد الله بن قيس رضى الله عنه يقول قال رسول الله ﷺ ان الجنة تحت ظلال السيوف فقال يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله قال نعم فرجع إلى أصحابه فقال اقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل وكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد اعلم أن عليك عيونا من الله ترعاك وتراك فاذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ولا تغسل الشهداء من دمائهم فان دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ حين اتينا إلى خيبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وعنه رفعه لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها وعن ابن مسعود رفعه إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور

بعد هدأة من الليل منفردا عن غلمانه فى سر من أهله إلا إلى زوجة أو سرية فقال لقد علم الله ماخرجت لواحدة منهما قالت لا بد أن تعلمنى قال فاكتميه إذن قالت أفعل فأخبرها بالقصة على وجهها ثم قال أتحبين أن أحلف لك قالت لا قد سكن قلبي ثم أصبح خزيمة صالح غرماءه وأصلح من حاله ثم تجهز يريد سليمان ابن عبد الملك بفلسطين فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهورا بمروءته وكان الخليفة به عارفا فأذن له فلما دخل عليه وسلم بالخلافة قال يا خزيمة ما أبطأك عنا فقال سوء الحال يا أمير المؤمنين قال فما منعك من النهضة الينا قال ضعفى قال فمن أنهضك قال لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل إلا ورجل يطرق بابى وكان منه كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها فقال هل عرفته قال لا والله لأنه كان متنكرا وما سمعت منه إلا جابر عثرات الكرام قال فتلهف سليمان ابن عبد الملك على معرفته وقال لو عرفناه لأعناه على مروءته ثم قال على بقناة فأتى بها فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض وأجزل عطاياه وأمره بالتوجه إلى الجزيرة فخرج خزيمة متوجها اليها فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه فسلم عليه ثم سارا جميعا إلى أن دخلا البلد فنزل خزيمة فى دار الامارة وأمر أن يؤخذ عكرمة وأن يحاسب فحوسب ففضل عليه مال كثير فطالبه خزيمة بالمال فقال مالى

خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل وقيل ان أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنه لم يشهد بدرا فلم يزل متحسرا يقول أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه فلما كان يوم أحد قال واها لريح الجنة دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى بدنه بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته الربيع بنت النضر فما عرفت أخى الا ببنانه وعن فضالة بن عبيد رفعه كل ميت يختم على عمله الا المرابط فانه ينمى له عمله الى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر وعن سهل بن حنيف رفعه من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وان مات على فراشه فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة

﴿ الفصل الثانى فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها ﴾ اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس قال الحكماء وأصل الخير كله فى ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه الوجه الأول إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران وتكالحت الأحداق بالأحداق برز من الصف الى وسط المعترك يحمل ويكر وينادى هل من مبارز والثانى اذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة فيتقلب تقلب المالك لأموره القائم على نفسه والثالث اذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب فى وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوى قلوب أصحابه ويرجى الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل ويشجع نفوسهم فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كبا به فرسه حماه حتى ييأس العدو منهم وهذا أحمدهم شجاعة وعن هذا قالوا إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم (وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه فى كتابه سراج الملوك قال كان شيوخ الجند يحكون لنا فى بلادنا قالوا دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا فوجدوا فى المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته الرأس فقالوا إنه لم ير قط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها فى جاهلية ولا اسلام فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم فكانوا إذا عيروا بالانهزام يقولون لقينا أقواما هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم اليها ليروها قالوا ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وان كان ذليلا ولا يغفل عنه وان كان حقيرا فكم برغوث أسهر فيلا ومنع الرقاد ملكا جليلا قال الشاعر

فلا تحقرن عدوا رماك * وان كان فى ساعديه قصر
فان السيوف تحز الرقاب * وتعجز عما تنال الابر

واعلموا أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبا ورتبوا فيها ترتيبا ولنصف منها أشياء نبدأ منها أولا بما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة وفسر النبى ﷺ القوة حين مر على أناس يرمون فقال ألا ان القوة الرمى ألا ان القوة الرمى ألا ان القوة الرمى وافضل العدة ان تقدم بين يدى اللقاء عملا صالحا من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص وامر بمعروف ونهى عن منكر وامثال ذلك والثانى كل الثانى فى استجادة القواد وانتخاب الأمراء وأصحاب الألوية فقد قالت حكماء العجم أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلا ينبغى أن يقدم الجيش الا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجرأة ثابت الجأش صارم القلب صادق البأس

الى شيء منه سبيل فأمر بحبسه ثم بعث يطالبه فأرسل اليه انى لست ممن يصون ماله لعرضه فاصنع ما شئت فأمر به فكبل بالحديد وضيق عليه وأقام على ذلك شهرا فاضناه ثقل الحديد وأضر به وبلغ ذلك ابنة عمه فجزعت عليه واغتمت ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت امضى الساعة الى باب هذا الامير فقولى عندى نصيحة فاذا طلبت منك قولى لا أقولها الا للامير خزيمة فاذا دخلت عليه سليه الخلوة فاذا فعل قولى له ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك فى مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد قال ففعلت ذلك فلما سمع خزيمة قولها قال واسوأتاه جابر عثرات الكرام غريمى قالت نعم فأمر من وقته بدابته فأسرجت وركب الى وجوه أهل البلد فجمعهم وسار بهم الى باب الحبس ففتح ودخل فرأى عكرمة الفياض فى قاع الحبس متغيرا قد أضناه الضر فلما نظر عكرمة الى خزيمة والى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فاقبل خزيمة حتى انكب على رأسه فقبله فرفع رأسه اليه وقال ما أعقب هذا منك قال كريم فعلك وسوء مكافأتى قال يغفر الله لنا ولك ثم أمر بفك قيوده وأن توضع فى رجليه قال عكرمة تريد ماذا قال أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك فقال أقسم عليك بالله أن لا تفعل فخرجا جميعا الى أن وصلا الى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف فلم يمكنه من ذلك قال وما تريد قال اغير من حالك وحيائى

ممن

من ابنة عمك أشد من حيائي منك ثم أمر بالحمام فأخليت ودخلا جميعا ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ثم خرج فخلع عليه وحمل اليه مالا كثيرا ثم سار معه إلى داره واستأذنه فى الاعتذار من ابنة عمه فأذن لها فاعتذر اليها وتذمم من ذلك ثم سأله أن يسير معه إلى أمير المؤمنين وهو يومئذ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك فسارا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فأخبره بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك وقال والى الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا مع قرب العهد به ماهذا إلا لحادث عظيم فلما دخل عليه قال قبل أن يسلم ما وراءك ياخزيمة قال خيرا يا أمير المؤمنين قال فما أقدمك قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك لما رأيت من شوقك إلى رؤيته قال ومن هو قال عكرمة الفياض فأذن له فى الدخول فدخل فسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال ياعكرمة كان خيرك له وبالا عليك ثم قال له اكتب حوائجك وما تختاره فى رقعة فكتبها وقضيت على الفور ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ماأضيف اليها من التحف والطرف ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وقال له أمر خزيمة اليك ان شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال بل أردده إلى عمله يا أمير المؤمنين ثم انصرفا جميعا ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته ﴿ ويضارع ذلك من المستجاد أيضا ﴾ ماروى عن أبى موسى

ممن قد توسط الحروب ومارس الرجال ومارسوه ونازل الأقران وقارع الأبطال عارفا بمواضع الفرس خبيرا بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب فانه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعا كأنهم مثله فانه إن رأى لقراع الكتائب وجهار الإاره الغنم إلى الزريبة ❊ واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء وكان عظماء الترك يقولون ينبغي للعاقل العظيم القياد أن يكون فيه عدة أخلاق من البهائم شجاعة الديك وبحث الدجاجة وقلب الأسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وصبر الكلب على الجراح وحراسة الكركي وغارة الذئب وسمن نغير وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء ❊ وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة والحديد ينحت الجبال والنار تأكل الحديد والماء يطفئ النار والسحاب يحمل الماء والريح تصرف السحاب والانسان يتقي الريح بجناحيه والسكر يصرع الانسان والنوم يذهب السكر والهم يمنع النوم فأشد خلق ربك الهم اللهم انا نعوذ بك من الهم والحزن ❊ ومن الحيل فى الحرب أن يبث جواسيسه فى عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم ويستميل قلوب رؤسائهم وذوى الشجاعة منهم فيدس اليهم ويعدهم وعدا جميلا ويقوى أطماعهم فى نيل ماعنده من الهبات الفخيمة والولايات السنية وان رأى وجها عاجلهم بالهدايا وسامهم اما الغدر بصاحبهم وإما الاعتزال وقت اللقاء ويكتب على السهام أخبارا مزورة ويرمى بها فى جيوشهم واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر وان الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالا عليها وإذا أذن الله تعالى فى حلول البلاء كانت الآفة فى الحيلة وقال الحكماء إذا نزل القضاء كان العطب فى الحيلة ويغلب الضعيف باقبال دولته كما يغلب القوى ببقاء مدته فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال وكماة الابطال فى القلب فانه إذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب فاذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كان حصنا للجناحين يأوى اليه كل منهزم واذا انكسر القلب تمزق الجناحان مثال ذلك أن الطائر اذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين واذا انكسر الرأس ذهب الجناحان وقل عسكر انكسر قلبه فأفلح أو تراجع اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش فيخلى القلب قصدا وتعمدا حتى إذا توسطه العدو واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب ويقال حبب إلى عدوك الفرار بأن لا تتبعهم إذا انهزموا ويقال الشجاع محبب حتى إلى عدوه والجبان مبغض حتى إلى أمه ❊ ولما أقبل كسرى بن هرمز الى محاربة بهرام قال له صاحبه أما تستعد قال عدتى ثبات قلبي واصابة رأيي ونصل سيفي ونصرة خالقي ❊ وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع وذلك فى أيام قتال يزيد بن المهلب فأنشده مسلمة قول الحطيئة

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ❊ دون النساء ولو باتت بأطهار

قال يزيد إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا وأما مثل هذا ونظرائه فلا فقام اليه مسلمة فقبله بين عينيه وقيل لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلا من آل ساسان فوفد عليهم بهرام جور فقال اعمدوا إلى أسدين جائعين فاطرحوا بينهما التاج فمن أخذه فهو الملك ففعلوا فدنا منهما فأهويا نحوه فأخذ برأس أحدهما فادناه من رأس الآخر ثم نطحه به فقتلهما جميعا وشد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه وملكته الفرس عليهم (وقيل) لم يكن فى العجم أرمى من الملك بهرام خرج يتصيد يوما وهو مردف حظية له كان يعشقها فعرضت له ظباء فقال فى أى موضع تريدين أن أضع هذا

محمد بن الفضل بن يعقوب كاتب عيسى بن جعفر قال حدثنى أبى قال كنت أتردد إلى زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله ابن عباس وأخدمها فتوجهت إلى خدمتها (٢١٨) يوما فقالت اقعد حتى أحدثك حديثا كان بالأمس بكتب على الآماق كنت أمس عند الخيزران ومن عادتى أن أجلس بازائها وفى الصدر مجلس للمهدى يجلس فيه وهو يقصدنا فى كل وقت فيجلس قليلا ثم ينهض فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جواريها فقالت أعز الله السيدة بالباب امرأة ذات جمال وخلقة حسنة وليس وراء ماهى عليه من سوء الحال غاية تستأذن عليك وقد سألتها عن اسمها فامتنعت من أن تخبرنى فالتفتت إلى الخيزران وقالت ماتريدين فقلت أدخلها فانه لا بد من فائدة أو ثواب فدخلت امرأة من أجمل النساء لاتتوارى بشىء فوقفت بجنب عضادة الباب ثم سلمت متضائلة ثم قالت أنا مزنة بنت مروان بن محمد الأموى فقالت الخيزران لاحياك الله ولا قربك فالحمد لله الذى أزال نعمتك وهتك سترك وأذلك أتذكرين ياعدوة الله حين أتاك عجائز أهلى يسألنك أن تكلمى صاحبك فى الاذن فى دفن ابراهيم بن محمد فوثبت عليهن وأسمعتيهن مالا سمعن قبل وأمرت فاخرجن على تلك الحالة فضحكت مزنة فما أنسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة ثم قالت يابنت العم أى شىء أعجبك من حسن صنيع الله بى

السهم فقالت أريد أن تشبه ذكرانها بالاناث وأناثها بالذكران فرمى ظبياذكرا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما فى موضع القرنين ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبى وأذنه بنشابة فرمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبى برجله إلى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه ويقال ان من أعظم المكايد فى الحرب الكمين وذلك ان الفارس لا يزال على حمية فى الدفاع وحمى الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بندا منشورا أو يسمع صوت الطبل فحينئذ يكون همه خلاص نفسه وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الابطال ولا تنس قول الشاعر

والناس ألف منهم كواحد ٭ وواحد كالألف ان أمر عنى

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد خيرا من عشرة آلاف وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب فمن ذلك لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصرانى على مدينة وشقة من ثغور بلاد الاندلس وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل فحدث من حضر الوقعة من الاجناد قال لما دنا اللقاء قال الطاغية بن روميل لمن يثق بعقله وبممارسته للحروب من رجاله استعلم لى من فى عسكر المسلمين من الشجعان الذين تعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر فذهب ثم رجع فقال فيهم فلان وفلان فعد سبعة رجال فقال له انظر من فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم فعدهم فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون فقام الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول ما أبيضك من يوم ثم ثارت الحرب بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره ولا تزحزح عن مقامه حتى فنى أكثر العسكرين ولم يفر واحد منهم قال فلما كان وقت العصر نظروا الينا ساعة ثم حملوا علينا جملة وداخلونا مداخلة ففرقوا بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن فى خسارة معهم فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه وانكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم وملك العدو مدينة وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوى على أربعين ألف مقاتل ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرا وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد فى ابطاله رجل واحد (وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه قال سمعت أستاذنا القاضى أبا الوليد يحيى قال بينا المنصور بن أبى عامر فى بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملؤا السهل والجبل فالتفت إلى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضحجى فقال له كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير قال أرى جمعا كثيرا وجيشا واسعا كبيرا فقال له المنصور ماترى هل يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة فسكت ابن المضحجى فقال له المنصور ماسكوتك أليس فى هذا الجيش ألف مقاتل قال لا فتعجب المنصور ثم قال فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين قال لا فحنق المنصور ثم قال أفيهم مائة رجل من الأبطال قال لا قال أفيهم خمسون رجلا من الابطال قال لا قال فسبه المنصور وأغلظ عليه وأمر به فأخرج على أسوأ حال فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم وتصاف الجمعان فبرز علج من الروم بين الصفين شاكى السلاح وجعل يكر ويفر ويقول هل من مبارز فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ففرح المشركون وصاحوا واضطرب المسلمون لها ثم جعل العلج يموج بين الصفين وينادى هل من مبارز اثنين لواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويحمل وينادى ويقول هل من مبارز ثلاثة لواحد

فبرز

على الفوق حتى أردت أن تأسى بى فيه والله انى فعلت بنسائك ما فعلت فأسلمنى الله لك ذليلة جائعة عريانة وكان ذلك مقدار شكرك لله تعالى على ما أولاك بى ثم قالت السلام عليكم ثم ولت مسرعة فصاحت بها الخيزران فرجعت قالت زينب فنهضت اليها الخيزران لتعانقها فقالت ليس فى لذلك موضع مع الحال التى أنا عليها فقالت الخيزران لها فالحمام اذا وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها إلى الحمام فدخلت وطلبت ماشطة ترمى ما على وجهها من الشعر فلما خرجت من الحمام وافتها الخلع والطيب فأخذت من الثياب ما أرادت ثم تطيبت ثم خرجت الينا فعانقتها الخيزران وأجلستها فى الموضع الذى يجلس فيه أمير المؤمنين المهدى ثم قالت لها الخيزران هل لك فى الطعام فقالت والله ما فيكن أحوج منى اليه فجاؤه فأتى بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة الى ان اكتفت ثم غسلنا أيدينا فقالت لها الخيزران من وراءك مما تعتنين به قالت ما خارج هذه الدار من بينى وبينه نسب قالت إذا كان الأمر هكذا فقومى حتى تختارى لنفسك مقصورة من مقاصيرنا وتحولى لها جميع ما تحتاجين اليه ثم لا تفترق الى الموت فقامت ودارت بها فى المقاصير فاختارت أوسعها وأنزهها ولم تبرح حتى حولت اليها جميع ما تحتاج اليه من الفرش والكسوة قالت زينب ثم تركناها وخرجنا عنها فقالت الخيزران ان هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه وقد مسها الضر وليس يغسل ما فى قلبها الا المال

فبرز اليه رجل من المسلمين فقتله العلج فصاح المشركون وذل المسلمون وكادت أن تكون كسرة فقيل للمنصور ما لها إلا ابن المضجعى فبعث اليه فحضر فقال له المنصور ألا ترى ما صنع هذا العلج الكلب منذ اليوم فقال لقد رأيته فما الذى تريد قال أن تكفى المسلمين شره قال الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى ثم قصد إلى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالا وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل فى حليته ونفسه غير متصنع فقال له ابن المضجعى ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال قد رأيته فما الذى تريد قال أريد أن تكفى المسلمين شره قال حبا وكرامة ثم انه وضع القربة بالأرض وبرز اليه غير مكترث به فتجاولا ساعة فلم ير الناس إلا المسلم خارجا اليهم يركض ولا يدرون ما هناك واذا برأس العلج يلعب بها فى يده ثم ألقى الرأس بين يدى المنصور فقال له ابن المضجعى عن هؤلاء الرجال أخبرتك قال فرد ابن المضجعى الى منزلته وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين (حكى) أنه كان للعرب فارس يقال له ابن فتحون وكان أشجع العرب والعجم فى زمانه وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجرى له فى كل عطية خمسمائة دينار وكانت جيوش الكفار تهابه وتعرف منه الشجاعة وتخشى لقاءه فيحكى أن الرومى كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له ويلك لم لا تشرب هل رأيت ابن فتحون فى الماء فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان فوشوا به عند المستعين فأبعده ومنعه من عطائه ثم إن المستعين أنشأ غزوة الى بلاد الروم فتقابل المسلمون والمشركون صفوفا ثم برز علج إلى وسط الميدان ونادى وقال هل من مبارز فبرز اليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومى فصاح المشركون سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الكلب الرومى يجول بين الصفين وينادى هل من اثنين لواحد فخرج اليه فارس من المسلمين فقتله الرومى فصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادى ويقول ثلاثة لواحد فلم يجترئ أحد من المسلمين أن يخرج اليه وبقى الناس فى حيرة فقيل للسلطان ما لها الا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلطف به وقال له يا أبا الوليد أما ترى ما يصنع هذا العلج فقال ها هو بعينى قال فما الحيلة فيه قال الساعة أكفى المسلمين شره فلبس قميص كتان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح وأخذ بيده سوطا طويلا وفى طرفه عقدة معقودة ثم برز اليه فتعجب منه النصرانى ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون واذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل الى الأرض لا شىء منه فى السرج ثم انقلب فى سرجه وحمل على العلج وضربه بالسوط فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدى المستعين فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه مع أبى الوليد بن فتحون فاعتذر اليه وأكرمه وأحسن اليه وبالغ فى الانعام عليه ورده الى أحسن أحواله وكان من أعز الناس اليه * وينبغى لقائد الجيش أن يخفى العلامة التى هو مشهور بها فان عدوه قد يستطلع حيلته وألوان خيله ورايته ولا يلزم خيمته ليلا ولا نهارا وليبدل زيه ويغير خيمته كيلا يلتمس عدوه غرته منه واذا سكن الحرب فلا يمشى فى النفر اليسير من قومه خارج عسكره فان عيون عدوه متجسسة عليه وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش افريقية عند فتحها وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار فجعل مقدم العدو يمشى خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين فجاء الخبر الى عبد الله بن أبى السرح وهو نائم فى قبته فخرج فيمن وثق به من

فاحملوا اليها خمسمائة ألف درهم فحملت اليها وفى أثناء ذلك وافى المهدى فسألنا عن الخبر فحدثته الخيزران حديثها وما لقيتها به فوثب مغضبا وقال للخيزران هذا مقدار شكر الله على أنعمه وقد أمكنك من هذه المرأة مع الحالة التى هى عليها فوالله لولا محلك بقلبي لحلفت ان لا أكلمك أبدا فقالت الخيزران يا أمير المؤمنين قد اعتذرت اليها ورضيت وفعلت معها كذا وكذ فلما علم المهدى ذلك قال لخادم كان معه أحمل إليها مائة بدرة وادخل اليها وأبلغها منى السلام وقل لها والله ما سررت فى عمرى كسرورى اليوم وقد وجب على أمير المؤمنين اكرامك ولولا احتشامك لحضر اليك مسلما عليك وقاضيا لحقك فمضى الخادم بالمال والرسالة فأقبلت على الفور فسلمت على المهدى بالخلافة وشكرت صنعه وبالغت فى الثناء على الخيزران عنده وقالت ما على أمير المؤمنين حشمة انافى عدد حرمه ثم قامت الى منزلها فخلفتها عند الخيزران وهى تتصرف فى المنازل والجوارى كتصرف الخيزران فأرخها عندك فانها من أحسن النوادر (وروى) عن عبد الرحمن بن عمر الفهري عن رجال سماهم أمر المأمون ان يحمل اليه عشرة من أهل البصرة كانوا قد رموا بالزندقة فحملوا فرآهم أحد الطفيلية قد اجتمعوا بالساحل فقال ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة فدخل معهم ومضى بهم الموكلون الى البحر وأطلعوهم فى زورق قد أعدلهم فقال الطفيلي لاشك أنها نزهة فصعد

الباب

رجاله وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح ٥ وبمثل هذا قهر الب أرسلان ملك الترك ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وابادجمعه وكانت الروم قد جمعت جيوشا يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل كتائب متواصلة وعساكر مترادفة وكراديس يتلو بعضها بعضا لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق والآلات المعدة للحروب وفتح الحصون بما لا يحصى وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق ومصر وخراسان وديار بكر ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم وأن نجوم السعود قد خدمتهم ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم الى بلاد المسلمين واضطربت لها ممالك أهل الاسلام فاحتشد للقائهم الملك الب أرسلان وهو الذى يسمى الملك العادل وجمع جموعه بمدينة أصبهان واستعد بما قدر عليه ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين وقالوا الالب أرسلان غدا يتراءى الجمعان فبات المسلمون ليلة الجمعة والروم فى عدد لا يحصيهم الا الله الذى خلقهم وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع فبقى المسلمون وجلين لما دهمهم فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم الى بعض فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو فأمر الب أرسلان أن يعد المسلمون فبلغوا اثني عشر ألفا فكانوا كالشامة البيضاء فى الثور الأسود فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر فى العواقب واستشارهم فى استخلاص أصوب الرأى فتشاوروا برهة ثم اجتمع رأيهم على اللقاء فتوادع القوم وتحاللوا وناصحوا الاسلام وأهله وتأهبوا أهبة اللقاء وقال الالب أرسلان بسم الله نحمل عليهم فقال الألب أرسلان يامعشر أهل الاسلام أمهلوا فان هذا يوم الجمعة والمسلمون يخطبون على المنابر ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها فاذا زالت الشمس وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم إذ ذاك وكان الب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزينته وفرسه ثم قال لرجاله لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلى ويتبع أثرى ويضرب بسيفه ويرمى بسهمه حيث أضرب بسيفى وأرمي بسهمي ثم حمل برجاله حملة رجل واحد الى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها ووصلوا الى الملك فقتلوا من كان دونه وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك فسمعت الروم ان ملكهم قد قتل فتبددوا وتمزقوا كل ممزق وعمل السيف فيهم أياما وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم وأتوا بالملك أسيرا بين يدى ألب أرسلان والحبل فى عنقه فقال له ألب أرسلان ماذا كنت تصنع بى لو أسرتنى قال وهل تشك أنى كنت أقتلك فقال له ألب أرسلان أنت أقل فى عينى من أن أقتلك اذهبوا به فبيعوه لمن يزيد فيه فكان يقاد والحبل فى عنقه وينادى عليه من يشترى ملك الروم ومازالوا كذلك يطوفون به على الخيام ومنازل المسلمين وينادون عليه بالدراهم والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيئا حتى باعوه من انسان بكلب فأخذه الذى ينادى عليه وأخذ الكلب وأتى بهما الى ألب أرسلان وقال قد طفت به جميع العسكر وناديت عليه فلم يبذل أحد فيه شيئا سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب فقال قد أنصفك ان الكلب خير منه ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك باطلاقه وذهب الى القسطنطينية فعزلته الروم وكحلوه بالنار ٥ فانظر ماذا يأتى على الملوك إذا عرفوا فى الحرب من الحيلة والمكيدة اللهم انصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين وأهلك الكفرة والمشركين وانصر المسلمين نصرا عزيزا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

معهم فى الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد الطفيلي معهم فعلم أنه وقع ورام الخلاص فلم يقدر وساوا بهم إلى
أن دخلوا بغداد وحملوا حتى دخلوا على المأمون فلما مثلوا بين يديه أمر (٢٢١) بضرب أعناقهم فاستدعوهم بأسمائهم

﴿الباب الحادى والأربعون فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن﴾

﴿الطبقة الأولى الذين أدركوا الجاهلية والاسلام﴾ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ أسد الله وأسد رسوله ﷺ قتل فى غزاة أحد رماه وحشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله وكان فارس قريش غير مدافع وبطلها غير ممانع وعظم قتله على النبي ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلا من قريش وكبر عليه فى الصلاة سبعين تكبيرة ۞ أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه آية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ ومؤيدا بالتأييد الالهى كاشف الكروب ومجليها ومثبت قواعد الاسلام ومرسيها وهو المتقدم على ذوى الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف روى عنه رضى الله عنه أنه قال والذى نفس ابن أبى طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موتة على فراش وقال بعض العرب ما لقينا كتيبة فيها على بن أبى طالب رضي الله عنه الا أوصى بعضنا على بعض وقال رضى الله عنه لمعاوية قد دعوت الناس إلى الحرب فدع الناس جانبا وأخرج إلى ليعلم أينا المران على قلبه والمغطى على بصره وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخا يوم بدر وذلك السيف معى وبذلك القلب ألقى عدوى وقيل له كرم الله وجهه إذا جالت الخيل فأين نطلبك قال حيث تركتمونى وقيل له كيف كنت تقتل الابطال قال لأنى كنت ألقى الرجل فأقدر أنى أقتله ويقدر هو أنى قتلته فأكون أنا ونفسه عونا عليه وقال مصعب بن الزبير كان على رضي الله عنه حذرا فى الحروب شديد الروغان لا يكاد أحد يتمكن منه وكانت درعه صدرا لا ظهر لها فقيل له أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك فقال إذا مكنت عدوى من ظهرى فلا أبقى الله عليه أن أبقى على قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنة الله تعالى عليه غدره وهو فى صلاة الصبح ۞ وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنة الله عليه تزوج بقطام بنت علقمة وكانت خارجية فقالت له لا أقنع إلا بصداق اسميه وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة وأن تقتل على بن أبى طالب فقال لها لك ما سألت إلا على بن أبى طالب وكيف لى به قالت تغتاله فان سلمت أرحت الناس من شره وأقمت مع أهلك وان أصبت دخلت الجنة فقال

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ۞ وضرب على بالحسام المخذم
فلا مهر أغلى من على وان علا ۞ ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

قيل انه طعنه وهو داخل المسجد فى الغلس وذلك فى تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين كفن رضى الله عنه فى ثلاثة أثواب ودفن فى الرحبة مما يلى باب كندة من أبواب المسجد قالوا ولما ضربه ابن ملجم لعنة الله ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم فاحتضنوه وقام المغيرة بن نوفل ابن الحرث بن عبد المطلب فأخذه فأومأ على رضي الله عنه إلى المغيرة أن صل بالناس فصلى بهم الفجر وأقبلت همدان فدخلوا على على فقالوا يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى فقال لا تقتلوا إنما النفس بالنفس قال ثم إن الحسن رضي الله عنه صلى الفجر وصعد المنبر فأراد الكلام فخنقته العبرة ثم نطق فقال الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ وانى أحتسب عند الله عز وجل مصابى بأفضل الآباء رسول الله القائل ﷺ من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته فى فانها أعظم المصائب والله الذى لا إله

حتى لم يبق إلا الطفيلي وهو خارج عن العدة فقال لهم المأمون من هذا قالوا والله ما ندرى يا أمير المؤمنين غير انا وجدناه مع القوم فجئنا به فقال له المأمون ما قصتك قال يا أمير المؤمنين امرأتى طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئا ولا أعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما رأيتهم مجتمعين فظننت أنهم يدعون إلى وليمة فالتحقت بهم قال فضحك المأمون ثم قال بلغ من شؤم التطفل ان أحل صاحبه هذا المحل لقد سلم هذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب قال ابراهيم ابن المهدى هبه لى وأحدثك بحديث عن نفسي فى التطفل عجيب قال المأمون قد وهبته لك هات حديثك قال يا أمير المؤمنين خرجت يوما متنكرا أتنزه فانتهى بى المشى إلى موضع شممت منه روائح طعام وأبازير قد فاحت فتاقت نفسى إليها ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المضى فرفعت بصرى وإذا بشباك ومن خلفه كف ومعصم ما رأيت أحسن منهما فوقفت حائرا ونسيت روائح الطعام بذلك الكف والمعصم وأخذت فى أعمال الحيلة فاذا خياط قريب من ذلك الموضع فتقدمت إليه وسلمت عليه فرد على السلام فقلت لمن هـذه الدار قال

الاهو الذى أنزل على عبده الفرقان لقد قبض فى هذه الليلة رجل ماسبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ ولا يدركه الآخرون فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ فوالله لاأقول اليوم إلا حقا لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد والشجر والدواب ولقد قبض فى الليلة التى رفع فيها عيسى بن مريم عليهما السلام إلى السماء وقبض فيها موسى بن عمران ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه فى السرية ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه وماترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادما لأهله ألا ان أمور الله تعالى تجرى على أحوالها فما أحسنها من الله وأسوأها من أنفسكم ألا ان قريشا أعطت أزمتها شياطينها فقادتها بأعنتها إلى النار فمنهم من قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليهم ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد على النفاق أعوانا رضع الكتاب وجف القلم وأمور تقضى فى كتاب قد خلا ثم أطرق الحسن فبكى الناس بكاء شديدا ثم نزل فجرد سيفه ودعا بابن ملجم فأقبل يخطر واضعا شعره على أذنيه حتى قام بين يديه فقال ياحسن انى ماعاهدت الله تعالى على عهد قط الا وفيت به عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلته فان تخلنى أقتل معاوية فان أنا قتلته أضع يدى على يدك وان أقتل فهو الذى تريد فقال الحسن رضى الله عنه أما والله لا سبيل الى بقائك ثم قام اليه فضربه بالسيف فاتقاه ابن ملجم بيده ثم أسرع السيف فيه فقتله * ومن الابطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى رضى الله عنه سيف الله وسيف رسوله ﷺ بطل مذكور وفارس مشهور فى الجاهلية والاسلام قتل مالك بن نويرة وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله وكان الفتح لخالد يوم اليمامة وهو الذى فتح دمشق وأكثر بلاد الشام وله وقائع عظيمة فى الروم أيد الله بها الاسلام مات على فراشه وكان يقول لقد شهدت كذا وكذا زحفا ومافى جسدى موضع شبر الا وفيه أثر من طعنة أو ضربة أو رمية وها أنا أموت على فراشى لانامت عين الجبان وكان ينشد ويرتجز ويقول

لاترعبونا بالسيوف المبرقه * ان السهام بالردى مفوقه
والحرب دونها القتال مطلقه * وخالد من دينه على ثقه

رضى الله عنه * الزبير بن العوام رضى الله عنه حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته بطل شجاع لا يمارى وشهم لا يجارى قتله عمرو بن جرموز اغتاله وهو فى الصلاة * عمرو بن معد يكرب الزبيدى فارس من فرسان الجاهلية وله مواقف مذكورة ومواطن مشهورة وأسلم ثم ارتد ثم عاد إلى الاسلام وشهد حروب الفرس وكان له فيها أفعال عظيمة وأحوال جسيمة وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا رآه قال الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمرا روى عنه رضى الله عنه أنه سأله يوما فقال له ياعمرو أى السلاح أفضل فى الحرب قال فعن أيها تسأل قال ماتقول فى السهام قال منها مايخطىء ويصيب قال فما تقول فى الرمح قال أخوك وربما خانك قال فما تقول فى الترس قال هو الدائر وعليه تدور الدوائر قال فما تقول فى السيف قال ذلك العدة عند الشدة وقيل انه نزل يوم القادسية على النهر فقال لأصحابه انى عابر على هذا الجسر فان أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى وقد عقرنى القوم وأنا قائم بينهم وان أبطأتم وجدتمونى قتيلا بينهم ثم انغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يابنى زبيد علام تدعون صاحبكم والله مانظن انكم تدركونه حيا فحملوا فانتهوا اليه وقد

لرجل من التجار قلت مااسمه قال فلان بن فلان قلت أهو ممن يشرب الخمر قال نعم وأحسب اليوم أن عنده دعوة وليس بنادم الا التجار فبينا نحن فى الكلام إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان فأعلمنى أنهما أخص الناس بصحبته وأعلمنى باسميهما فحركت دابتى فلقيتهما وقلت جعلت فداء كما قد استبطأ كما أبو فلان وسايرتهما حتى أتيا الباب فدخلت ودخلا فلما رآنى صاحب الدار معهما لم يشك أنى منهما فرحب بى وأجلسنى فى أفضل المواضع ثم جىء بالمائدة فقلت فى نفسى هذه الألوان قد من الله على ببلوغ الغرض منها بقى الكف والمعصم ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة فرأيت مجلسا محفوفا باللطائف وجعل صاحب المجلس يتلطف بى ويقبل على فى الحديث لظنه أنى ضيف لأضيافه وهم على مثل ذلك حتى شربنا أقداحا اذ خرجت علينا جارية كأنها غصن بان فى غاية الظرف وحسن الهيئة فسلمت غير خجلة وأتى بعود فأخذته وجسته فاذا هى حاذقة واندفعت تقول

أليس عجيبا أن بيتا يضمنى
وإياك لانخلو ولا نتكلم
سوى أعين تبدى سرائر أنفس
وتقطيع أنفاس على النار تضرم
اشارة أفواه وغمز حواجب
وتكسير أجفان وكف يسلم

فهيجت ياأمير المؤمنين بلابلى فطربت لحذقها وحسن شعرها الذى غنت به فحسدتها وقلت قد بقى عليك ياجارية شىء فرمت العود وقالت متى كنتم تحضرون البغضاء

صرع

صرع عن فرسه وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب فرسه فلم تقدر أن تتحرك فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلى فرسه فركبه عمرو وقال أنا أبو ثور كدتم والله تفقدونني فقالوا أين فرسك فقال رمي بنشابة فغار وشب فصرعني ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار فقتل رستم وانهزمت العجم وقتل عمر بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمر حتى ضعف وكان من الشعراء المعدودين وفيه يقول العباس بن مرداس :

اذا مات عمرو قلت للخيل اوطئي * زبيدا فقد أودى بنجدتها عمرو

* طلحة الأسدي رضي الله عنه كان من أكبر الشجعان جاهلية واسلاما ثم ارتد وتنبأ وجمع جمعا عظيما فقتل خالد بن الوليد جمعه وكان يتكهن ثم عاد الى الاسلام وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح * المقداد بن الاسود رضي الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوي الجنان رابط الجأش وله في الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته رضي الله عنه وأرضاه * سعد بن أبي وقاص الزهري الانصاري رضي الله عنه كان فارسا بطلا راميا وهو أول من رمى في سبيل الله بسهم ولما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف أنفه * أبو دجانة الانصاري رضي الله عنه الذي خرج يتبختر بين الصفين فقال عليه الصلاة والسلام إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع * المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه هو أول من فتح حرب الفرس * أبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه قاتل القوم يوم قس الناطف في حرب القادسية * عمار بن ياسر رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ الذي قال فيه رسول الله ﷺ الحق يدور مع عمار حيث دار وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية فقتل بصفين مع علي رضي الله عنه * هاشم ابن عتبة رضي الله عنه من أكابر الشجعان صاحب راية علي رضي الله عنه بصفين * مالك بن الحرث النخعي الاشتر رضي الله عنه مات مسموما في شربة من عسل فقال معاوية ان لله جنودا منها العسل * القعقاع بن عمرو طاعن الفيل في عشية القادسية رضي الله عنه

(الطبقة الثانية) عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه قاتل جرجير ملك أفريقة الذي كان يرى أنه أشجع أهل عصره قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مليكة صف لي عبد الله بن الزبير فقال والله ما رأيت جلدا قط ركب على لحم ولا لحما على عصب ولا عصبا على عظم مثل جلده ولحمه وعصبه ولا رأيت نفسا بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه ولقد قام يوما إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشع له بصره ولا قطع له قراءته ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة وأسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج ألا الى الله تصير الامور * أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية رضي الله عنه كان أبوه يلقيه في الوقائع ويتقي به العظائم وهو شديد البأس ثابت الجنان قيل له يوما ما بال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه يقحمك الحروب دون الحسن والحسين رضي الله عنهما فقال لأنهما كانا عينيه وكنت أنا يديه فكان يتقي عينيه بيديه وقيل إن أباه عليا رضي الله عنه اشترى درعا فاستطالها فأراد أن يقطع منها فقال له محمد يا أبت علم موضع القطع فعلم على موضع منها فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها وبالأخرى

في مجالسكم فندمت على ما كان مني ورأيت القوم قد أنكروا على ذلك فقلت في نفسي فاتني جميع ما أملت فقلت ثم أعود قالوا نعم فاحضروا عودا فأصلحت ما أردت فيه ثم اندفعت فغنيت

هذا محبك مطوي على كمده
صب مدامعه تجري على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته
مما به ويد أخرى على كبده
يا من رأى كلفا مستبعدا دنفا
كانت منيته في عينه ويده

فوثبت الجارية فأكبت على رجلي تقبلها وقالت المعذرة اليك ياسيدي والله ما علمت بمكانك ولا سمعت بمثل هذه الصناعة ثم أخذ القوم في اكرامي وتبجيلي بعد ما طربوا غاية الطرب وسألني كل منهم الغناء فغنيت لهم نوبات مطربة فغلب القوم السكر وغابت عقولهم فحملوا الى منازلهم وبقي صاحب المنزل فشرب معي أقداحا ثم قال ياسيدي ذهب ما مضى من عمري مجانا اذ لم أعرف مثلك فالله يامولاي من أنت لأعرف نديمي الذي من الله علي به في هذه الليلة فأخذت أداري وهو يقسم علي فأعلمته فوثب قائما وقال قد عجبت أن يكون هذا الفضل الا لمثلك وقد أسدى الي الزمان يدا لا أقوم بشكرها ومتى طمعت أن تزورني الخلافة في منزلي وتنادمني ليلتي وما هذا الا في المنام فأقسمت عليه أن يجلس فجلس وأخذ يسألني عن السبب في حضوري عنده بألطف معنى فأخبرته بالقصة من أولها الى آخرها وما سترت عنها شيئا ثم قلت أما الطعام فقد نلت منه بغيتي

فقال والكف والمعصم ان شاء الله ثم قال يا فلانة قولى لفلانة تنزل ثم جعل يستدعى واحدة بعد واحدة يعرضها على وأنا لا أرى صاحبتى الى أن قال والله (٢٢٤) مابقي إلا أمى وأختى ووالله لتنزلان فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت جعلت فداءك تبدأ بالأخت قال حبا وكرامة ثم نزلت أخته فأرانى يدها فاذا هي التى رأيتها فقلت هذه الحاجة فأمر غلمانه لوقته فأحضروا الشهود وأحضر وابدرتين فلما حضر الشهود قال لهم هذا سيدى ابراهيم بن المهدى يخطب أختى فلانة وأشهد كم انى قد زوجتها له وأمهرتها منه عشرين ألف درهم فقلت قبلت ذلك ورضيت فشهدوا علينا فدفع البدرة الواحدة الى أخته والأخرى فرقها على الشهود ثم قال ياسيدى أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك فاحشمنى مارأيت من كرمه وتذممت أن أخلوبها في داره ثم قلت بل أحضر عمارتى وأحملها الى منزلى فقال افعل ماشئت فأحضرت عمارتي وحملتها الى منزلى فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل الى من الجهاز ماضاقت عنه بيوتنا على سعتها وأولدتها هذا الغلام القائم بين يدى أمير المؤمنين فعجب المأمون من كرم هذا الرجل وقال لله دره ماسمعت قط بمثلها وأمر ابرهيم باحضار الرجل ليشاهده فاحضره بين يديه فاستنطقه فأعجبه وصيره من جملة خواصه ومحاضريه (ومن غريب المنقول) ان فتى من ذوى النعم قعد به زمانه وكانت له جارية حسناء محسنة فى الغناء

على موضع العلامة ثم جذبها فقطعها من الموضع الذى حده أبوه وكان عبدالله بن الزبير مع تقدمه فى الشجاعة يحسده على قوته واذا حدث بهذا الحديث غضب مات حتف أنفه بشعب رضوى * عبدالله بن حازم السلمى رضي الله عنه والى خراسان شجيع مضر وفارسها فى عصره قتله وكيع بن أبى سويد بخراسان فى الفتنة * وكيع بن أبي سويد قاتل عبدالله بن حازم المتقدم ذكره شجاع فاتك أهوج والى خراسان قيل لما قتل عبدالله بن حازم ولم يتم أمره لهوجه مات حتف أنفه * مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد جاد بماله وبنفسه قتله عبيدالله بن زياد فى الحروب التي كانت بينه وبين عبدالملك بن مروان * عمير بن الحباب السلمى فارس الاسلام قتله بنو تغلب فى الحرب التى كانت بينهم وبين قيس * مسلمة بن عبد الملك بن مروان فحل بني أميه وفارسها ووالى حروبها قيل إنه جلس يوما ليقضى بين الناس بمصر فكلمته امرأة فلم يقبل عليها فقالت مارأيت أقل حياء من هذا قط فكشف عن ساقه فاذا فيها أثر تسع طعنات فقال لها هل ترين أثر هذا الطعن والله لو أخرت رجلى قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن وما منعنى من تأخيرها الا الحياء وأنت تنحلينى قلته * المعتصم بطل شجاع فارس صنديد لم يكن فى بنى العباس أشجع منه ولا أشد قلبا قال ابن أبى داود كان المعتصم يقول لى يا أباعبدالله عض على ساعدى بأكثر قوتك فأقول والله ياأمير المؤمنين ما تطيب نفسى بذلك فيقول إنه لا يضرنى فأروم ذلك فاذا هو لا تعمل فيه الأسنة فكيف تعمل فيه الاسنان ويقال إنه طعنه بعض الخوارج وعليه درع فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتي يصير طوقا فى العنق * ابراهيم بن الاشتر النخعى كان من الشجعان المعدودين حارب عبيد الله بن زياد وهو فى أربعة آلاف وعبيدالله فى سبعين ألفا فظفر به وقتله بيده وهزم جيشه * عبدالله بن الحر الجعفى شجاع شاعر فاتك له وقائع عظيمة هائلة وأخباره فى الشجاعة مشهورة * جحدر بن ربيعة العكلى كان بطلا شجاعا فاتكا مغيرا شاعرا قهر أهل اليمامة وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج ابن يوسف فكتب الى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه ويأمره بالتجرد له حتى يقتله أو يحمله اليه أسيرا فوجه العامل اليه فتية من بنى حنظلة وجعل لهم جعلا عظيما ان هم قتلوا جحدرا أو أتوا به أسيرا فتوجه الفتية فى طلبه حتى إذا كانوا قريبا منه أرسلوا يقولون له إنهم يريدون الانقطاع اليه والارتفاق به فوثق بذلك منهم وسكن إلى قولهم فبينما هو معهم يوما اذ وثبوا عليه فشدوه وثاقا وقدموا به على العامل فوجه به الى الحجاج معهم فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له أنت جحدر قال نعم أصلح الله الامير قال ما جرأك على ما بلغنى عنك قال أصلح الله الأمير كلب الزمان وجفوة السلطان وجراءة الجنان قال وما بلغ من أمرك قال لو ابتلانى الامير وجعلني مع الفرسان لرأى منى ما يعجبه قال فعجب الحجاج من ثبات عقله ومنطقه ثم قال ياجحدر إنى قاذف بك فى حاجر فيه أسد عظيم فان قتلك كفانا مؤنتك وان قتلته عفونا عنك قال أصلح الله الأمير قرب الفرج إن شاء الله تعالى فأمر به فصفدوه بالحديد ثم كتب الى عامله أن يرتاد له أسدا ويحمله اليه فتحيل العامل وارتاد له أسدا كان كاسرا خبيثا قد أفنى عامة المواشى فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه فى تابوت وسحبوه على عجل فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقى فى الحاجر ولم يطعم شيئا ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب ثم أمر بجحدر أن ينزلوه اليه فأعطوه سيفا وأنزلوه اليه مقيدا وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون الى الأسد ماهو صانع

بجحدر

فضاق بهما الخناق واشتد بهما الحال فى عدم مايقتاتان به فقال لها قد ترين ماقد صرنا إليه من هذه الحالة السيئة ووالله لموتى وأنت معى أحسن وأهون على مما أذكره لك فان رأيت أن أبيعك لمن يحسن إليك ويغسل عنك ما أنت فيه وأنفرد أنا بما لعله يصير إلى من الثمن ولعلك تحصلين عند من تتوصلين إلى نفعي معه فقالت والله لموتى على تلك الحالة معك آثر عندى من انتقالى إلى غيرك ولو كان خليفة ولكن اصنع ما بدا لك قال فخرج وعرضها للبيع فأشار عليه أحد أصدقائه ممن له رأى أن يحملها إلى ابن معمر أمير العراق فحملها إليه فلما عرضت عليه استحسنها فقال لمولاها كم كان شراؤها عليك قال مائة ألف درهم وقد أنفقت عليها مالا كثيراً حتى صارت فى رتبة الأستاذين قال أما ما أنفقت عليها فغير محتسب لك به لأنك أنفقته فى لذاتك وأما ثمنها فقد أمرنا لك بمائة ألف درهم وعشرة أسفاط من الثياب وعشرة رءوس من الخيل وعشرة رؤوس من الرقيق أرضيت قال نعم أرضى الله الأمير فأمر بالمال فأحضر وأمر قهرمانه بادخال الجارية إلى الحرم فأمسكت بجانب الستر وبكت وقالت * هنيئا لك المال الذى قد أفدته * ولم تبق فى كفى غير التفكر * أقول لنفسي وهى فى كرباتها * أقلي فقد بان الحبيب أو اكثرى * إذا لم يكن للأمر عندك موضع * ولم تجدى بدا من الصبر فاصبرى

بجحدر فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض ووثب وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال وارتاعت أهل الارض فشد عليه جحدر وهو ينشد ويقول :

ليث وليث فى مجال ضنك * كلاهما ذو قوة وسفك * وصولة وبطشة وفتك
ان يكشف الله قناع الشك * فأنت لى فى قبضتى وملكي

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته فكبر الناس وأعجب الحجاج ذلك وقال لله درك ما أنجبك ثم أمر به فأخرج من الحاجز وفك عنه قيوده وقال له اختر ما أن تقيم معنا فنكرمك ونقرب منزلتك وأما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثا ولا تؤذى بها أحداً قال بل اختار صحبتك أيها الأمير فجعله من سماره وخواصه ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة وكان من من أمره ما كان * المهلب بن أبى صفرة كان من الشجعان ومن الأبطال المعدودة وأولاده كلهم أنجاد أبطال إلا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكنا وكان المهلب يقول ما شهد معى حربا إلا رأيت البشرى فى وجهه وحمل عليه بعض الشجعان وفى يده شجرة فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج وحمل من تحتها فبراها بسيفه وكان المهلب يقول أشجع الناس ثلاثة ابن الكلبية واحمر قريش وراكب البغلة فابن الكلبية مصعب بن الزبير وأحمر قريش عمر بن عبيدالله بن معمر مالقى خيلا قط إلا فرقها وراكب البغلة عباد بن الحصين ما كان قط فى كربة إلا فرجها وهو من فرسان الاسلام وكان للمهلب فى الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين وكان سيداً كريما مات حتف أنفه وكذلك ابنه المغيرة وفيه يقول زياد الأعجم :

مات المغيرة بعد طول تعرض * للقتل بين أسنة وصفائح

وكان فى الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال وذكرهم يطول ويخرج عما أردناه * فمنهم أبو بلال مرداس خرج فى أربعين فهزم ألفين * وشبيب الخارجى الذى غرق فى الفرات نذرت امرأته غزالة أن تصلى فى جامع الكوفة ركعتين تقرأ فى الأولى البقرة وفى الثانية آل عمران فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها والحجاج فى الكوفة فى خمسين ألفا * ومنهم قطرى بن الفجاءة كان رأس الخوارج وخاطبوه بأمير المؤمنين وعظموه وبجلوه وأشعاره فى الشجاعة تدل على مكانه منها قتل فى بعض وقائع الخوارج «الطبقة الثالثة» معن بن زائدة الشيبانى قتله الخوارج بسجستان فى أيام المهدى * الوليد بن طريف الشيبانى قتله يزيد بن مزيد * عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة نقل عنه انه كان يتصيد فتتبع حمار وحش ومازال يركض إلى أن حاذاه فجمع رجليه ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمار الوحش وصار يحز عنقه بسيف أو سكين فى يده حتى قتله * أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق فى غيره طعن فارسين رديفين فأنفذ الرمح من ظهريهما وحمل بعده أربعة نفر وفيه يقول بكر بن النطاح :

قالوا وينظم فارسين بطعنة * يوم اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو كان مدقناته * ميلا إذا نظم الفوارس ميلا

وسأله يوما رجل شيئا فقال له أتسأل وجدك القائل :

فبكى مولاها وأجاب قائلا

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن * بفرقتنا شيء سوى الموت فاعذري

أروح بهم من فراقك موجع * أناجي به قلبا قليل التصبر

عليك سلامي لا زيادة بيننا * ولا قرب إلا أن يشاء ابن معمر

فقال له ابن معمر قد شئت فخذها بارك الله لك فيها وفيما وصل اليك منا فأخذها وأخذ المال والخيل والرقيق والثياب وعاد وقد حسنت حاله (ومما جنيته من ثمرات الأوراق) أن الحجاج لما ولي قتل عبد الله بن الزبير رحل إلى عبد الملك ابن مروان ومعه ابراهيم ابن محمد بن طلحة فلما قدم على عبد الملك سلم عليه بالخلافة وقال قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز في الشرف والأبوة وكمال المروءة والأدب وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة وهو ابراهيم بن محمد ابن طلحة بن عبيد الله فافعل به يا أمير المؤمنين مايستحق أن يفعل بمثله في أبوته وشرفه فقال عبد الملك يا أبا محمد أذكرتنا حقا واجبا ائذنوا لابراهيم فلما دخل وسلم بالخلافة أمره بالجلوس في صدر المجلس وقال له عبد الملك ان أبا محمد ذكرنا مالم نزل نعرفه منك من الأبوة والشرف فلا تدع حاجة في خاصة أمرك وعامته إلا سألتها فقال ابراهيم أما الحوائج التي نبتغي بها الزلفى ونرجو بها الثواب فما كان لله في خالصا ولنبيه صلى الله عليه وسلم ولكن لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحة لا أجد بدا من ذكري إياها قال أهي دون أبي محمد قال نعم

ومن يفتقر منا يعش بحسامه * ومن يفتقر من سائر الناس يسأل
وانا لنلهو بالسيوف كما لهت * فتاة بعقد أو سخاب قرنفل

فخرج الرجل فجرد سيفه فلم يصادفه في طريقه إلا وكيل لأبي دلف ومعه مال جزيل فاستلبه منه وقتله فبلغ الخبر أبا دلف فقال دعوه فاني عشمته على نفسي * بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهوره وأخبار مذكورة (ومما جاء في مدح السيف) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخير في السيف والخير مع السيف والخير بالسيف وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب وممن تمثل به نهشل فقال :

أخ ماجد ماخانني يوم مشهد * كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن قال :

خليلي لم أخنه ولم يخني * إذا ما صاب أوساط العظام
خليلي لم أهبه من قلاه * ولكن المواهب للكرام
حبوت به كريما من قريش * فسر به وصين عن اللئام
وودعت الصفي صفي نفسي * على الصمصام أضعاف السلام

ولم يزل في آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال جزيل لهشام وكان قد كتب اليه فيه فلم يزل عند بني مروان ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدي فلم يجدوه فجد الهادي في طلبه حتى ظفر به وكان مكتوبا عليه هذا البيت : ذكر على ذكر يصول بصارم * ذكر يمان في يمين يماني

وقال ابن الرومي : لم أر شيئا حاضرا نفعه * للمرء كالدرهم والسيف
يقضي له الدرهم حاجاته * والسيف يحميه من الحيف

وقال زيد بن علي رضي الله عنهما :

السيف يعرف عزمي عند هزته * والرمح بي خبر والله لي وزر
انا لنأمل ما كانت أوائلنا * من قبل تأمله إن ساعد القدر

وقال عبد الله بن طاهر :

يبيت ضجيعي السيف طورا وتارة * يعض بهامات الرجال مضاربه * أخو ثقة أرضاه في الروع صاحبا وفوق رضاه انني أنا صاحبه * وليس أخو العلياء إلا فتى له * بها كلف ما تستقر ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله فطلب منه سيف الزبير وقال له رده علي فانه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين فقال له عبد الملك أو تعرفه قال نعم قال بماذا قال أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك أعرفه بقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

وقال الاجدع الهمداني لقد علمت نسوان همدان أنني * لهن غداة الروع غير خذول
وأبذل في الهيجاء وجهي وانني * له في سوى الهيجاء غير بذول

وقال آخر : عشرون ألف فتى مامنهم أحد * إلا كألف فتى مقدامة بطل
راحت مزاودهم مملوءة أملا * ففرغوها وأوكوها من الأجل

(ومن أخبار الشجعان ماحكاه المفضل بن يزيد) قال نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين وكنت مشغوفا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها فبينا أنا أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بمرأة واقفة

قال قم يا حجاج فنهض الحجاج خجلا لا يبصر أين يضع رجله ثم قال عبد الملك قل يا ابن طلحة فقال تالله يا أمير المؤمنين انك عمدت إلى الحجاج فى ظلمه وتعديه على الحق واصغائه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من (٢٢٧) فيهما من أصحاب رسول الله ﷺ وأبناء المهاجرين والانصار يسومهم الخسف ويطأهم العسف بطغام أهل الشام ومن لا رؤية له فى اقامة الحق ولا ازاحة الباطل قال فاطرق عبد الملك ساعة ثم رفع رأسه وقال كذبت يا ابن طلحة ظن فيك الحجاج غير ما هو فيك فتم فربما ظن الخير بغير أهله قال فقمت وأنا ما ابصر طريقا قال وأتبعنى حرسيا وقال اشدد يدك به قال ابراهيم فما زلت جالساً حتى دعا الحجاج فما زالا يتناجيان طويلا حتى ساء ظنى ولا أشك أنه فى أمرى ثم دعابى فلقينى الحجاج فى الصحن خارجا فقبل بين عينى وقال أحسن الله جزاءك قال فقلت فى نفسى انه يهزأ بى ودخلت على عبد الملك فأجلسنى مجلسى الاول ثم قال يا ابن طلحة هل اطلع على نصيحتك أحد فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ولا اردت الا الله ورسوله والمسلمين وامير المؤمنين على ذلك فقال عبد الملك قد عزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهته لها واعلمته انك استقللت ذلك عليه وسألتنى له ولاية كبيرة وقد وليته العراقين وقررته أن ذلك الك ليلزمه من حقك ما لا بد له من القيام به فاخرج معه غير ذام لصحبته (ومن لطائف المنقول) عن القاضى أبى الحسين بن عبد المحسن على التنوخى رحمه الله تعالى أن الاسكندر لما انتهى إلى الصين ونزل على ملكها أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره فقال

فى فنا مخبائها وهى آخذة بيد غلام فما رأيت مثله فى حسنه وجماله له ذؤابتان كالسبج المنظوم وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن اليه الاسماع وترتاح له القلوب وأكثر ما أسمع منها أى بنى وهو يتبسم فى وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل كأنه جارية بكر لا يرد جوابا فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت فدنوت منه وسلمت فرد على السلام فوقفت أنظر اليهما فقالت يا حضرى ما حاجتك فقلت الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام فقالت يا حضرى إن شئت سقت اليك من خبره ما هو أحسن من منظره فقلت قد شئت يرحمك الله فقالت حملته والرزق عسر والعيش نكد حملا خفيفا حتى مضت له تسعة أشهر وشاء الله عز وجل أن أضعه فوضعته خلقا سويا فوربك ما هو الا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل وأعطى وأتى من الرزق بما كفى وأغنى ثم أرضعته حولين كاملين فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه فربى كأنه شبل أسد أقيه برد الشتاء وحر الهجير حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه وعلمه الشعر فرواه ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بيوتات الحى الخيلاء فأخذ فى قرى الضيف وإطعام الطعام وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب فخرج فتيان الحى فى طلب ثارلهم وشاء الله تعالى ان أصابه وعك شغله عن الخروج حتى إذا أمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره ونحن آمنون وادعون إلى أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها وهو يسألنى عن الصوت وأنا أستر عنه الخبر اشفاقا عليه وضنا به إذ علت الأصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره وثار كما يثور الأسد وأمر باسراج فرسه ولبس لامة حربه وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم فطعن أدنام منه فربى به ولحق أبعدهم منه فقتله فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبيا صغير الامد دوراءه فحملوا عليه فأقبل نحوم البيت ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا فى أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ومرق كما يمرق السهم وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت الا به أو لاهلكن دونه فانصرفت اليه الاقران وتمايلت نحوه الفرسان وتميزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا اليه الاسنة وعطفوا عليه بالاعنة فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الابل وجعل لا يحمل على ناحية الا حطمها ولا كتيبة الا مزقها حتى لم يبق من القوم الا من نجا به فرسه ثم ساق المال وأقبل به فكبر القوم عند رؤيته وفرح الناس بسلامته فوالله ما رأينا قط يوما كان أسمح صباحا وأحسن رواحا من ذلك اليوم ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيان الحى هذه الأبيات

تأملن فعلى هل رأيتن مثله ❊ اذا حشرجت نفس الجبان من الكرب
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه ❊ من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعط كلا حقه ونصيبه ❊ من السمهرى اللدن والمرهف العضب
أنا ابن أبى هند بن قيس بن مالك ❊ سليل المعالى والمكارم والحسب
أبى لى أن أعطى الظلامة مرهف ❊ وطرف قوى الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده ❊ جبال الرواسى لانحططن إلى الترب
وعرض نقى اتقى أن أعيبه ❊ وبيت شريف فى ذرى ثعلب الغلب
فان لم أقاتل دونكن واحمى

له رسول ملك الصين يستأذن عليك فقال ائذن له فلما دخل عليه وقف بين يديه وسلم وقال ان رأى الملك أن يخلى مجلسه فليفعل فأمر الاسكندر من يخدمه بالانصراف ولم يبق غير حاجبه فقال له الرسول الذى جئت به لا يحتمل أن يسمعه غيرك فأمر بتفتيشه ففتش فلم يوجد معه شيء من السلاح فوضع الاسكندر بين يديه سيفا مجردا وقال له قل ما شئت ثم أخرج جميع من عنده فلما خلا المكان قال له الرسول أنا ملك الصين لا رسوله وقد حضرت أسألك عما تريد فان كان مما يمكن الانقياد اليه ولو على أصعب الوجوه أجبت اليه وغنيت أنا وأنت عن الحرب فقال له الاسكندر وما الذى أمنك منى قال علمي بأنك رجل عاقل وليس بيننا عداوة متقدمة ولا مطالبة بذحل ومتى قتلتنى أقاموا غيرى ولم يسلموا اليك البلاد ثم تنسب أنت الى غير الجميل وضد الحزم فاطرق الاسكندر متفكرا فى مقاله وعلم أنه رجل عاقل فقال له أريد ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلا ونصف ارتفاعه فى كل سنة قال أجبتك قال فكيف تكون حالك قال اكون قتيلا أو محاربا قال فان قنعت منك بارتفاع سنتين كيف حالك قال أصلح مما تقدم ذكره قال فان قنعت منك بارتفاع سنة واحدة قال يكون وأنا مضراً بي ومذهبا لجميع لذاتي قال فان اقتصرت منك على السدس قال يكون السدس موفرا والباقى لجيشى ولاسباب الملك

لكن وأحيكن بالطعن والضرب * فلاصدق اللاتى مشين إلى أبي * يهنينه بالفارس البطل الندب

(وقال الشاعر) آراؤهم ووجوههم وسيوفهم * فى الحادثات اذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح * تجلو الدجى والأخريات رجوم

(وقال آخر) فوارس قوالون للخيل اقدمى * وليس على غير الرءوس مجال
بأيديهم سمر العوالى كأنما * تشب على أطرافهن ذبال

(وقال آخر) قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم * شمسا وخلت وجوههم أقمارا
لا يعدلون برفدهم عن سائل * عدل الزمان عليهم أوجارا
واذا الصريخ دعاهم لملمة * بذلوا النفوس وفارقوا الاعمارا

(ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم) قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن فقال اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ ويكفيك أن يقال فى وصف الجبان إن أحس بعصفور طار فؤاده وإن طنت بعوضة طال سهاده يفزع من صرير الباب ويقلق من طنين الذباب ان نظرت اليه شزرا أغمى عليه شهرا يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح قال الشاعر :

إذا صوت العصفور طار فؤاده * وليث حديد الناب عند الثرائد

وكان حسان بن ثابت رضى الله عنه من الجبناء روى عن ابن الزبير أنه قال كان حسان فى قاع أطم مع النساء يوم الخندق فأتاهم فى ذلك اليوم يهودى يطوف بالحصن فقالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها يا حسان ان هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن وانى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود فانزل اليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قال فاعتجرت صفية ثم أخذت عمودا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ورجعت إلى الحصن فقالت يا حسان قم اليه فاسلبه فانه ما منعنى من سلبه الا أنه رجل فقال مالى بسلبه من حاجة

(وقيل) كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب وكان يحبها حبا شديدا فأصابته اضاقة وفاقة فاحتاج إلى ثمنها فحملها إلى العراق وكان ذلك فى زمن الحجاج بن يوسف فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريبا منه وأحسن اليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه وكان الفتى جميلا فجعلت الجارية تسارقه النظر ففطن الحجاج بها فوهبها له فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدرى أين هي وبلغ الحجاج ذلك فأمر مناديا أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا ولم يحضرها فلم يلبث أن أتى لها فقال لها الحجاج يا عدوة الله كنت عندى من أحب الناس إلى فاخترت لك ابن عمي شابا حسن الوجه ورأيتك تسارقينه النظر فعلمت أنك شغفت به فوهبتك له فهربت من ليلتك فقالت يا سيدى اسمع قصتى ثم اصنع بى ما شئت قال هاتى ولا تخفى شيئا قالت كنت للفتى القرشي فاحتاج إلى ثمنى فحملنى إلى الكوفة فلما قربنا منها دنا منى فوقع على فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه ثم أقبل على وما برد ما عنده ثم قضى حاجته وان ابن عمك هذا الذى اخترته لى لما أظلم الليل قام إلى فلما علا بطنى وقعت فارة من السقف فضرط ثم غشى عليه فمكث زمانا طويلا

قال قد اقتصرت على هذا فشكره وانصرف فلما أصبح وطلعت الشمس أقبل جيش الصين حتى طبق الارض واختلط بجيش الاسكندر فارتعب وتواثبت أصحابه فركبوا واستعدوا للحرب (٢٢٩) فبينما هم كذلك إذ ظهر ملك الصين وعليه تاج فلما رأي الاسكندر ترجل فقال له الاسكندر أغدرت قال لا والله قال فما هذا الجيش قال أردت أن أعلمك انى لم أطعك من ضعف ولا من قلة وما غاب عنك من الجيش أكثر لكنى رأيت العالم الاكبر مقبلا عليك ممكنا لك فعلمت أنه من حارب العالم الاكبر غلب فاردت طاعته بطاعتك والذلة لأمره بالذلة لأمرك فقال الاسكندر ليس مثلك يؤخذ منه شيء فما رأيت بينى وبينك أحدا يستحق التفضيل والوصف بالفضل غيرك وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرف عنك فقال ملك الصين أما إذ فعلت ذلك فلست تخسر فلما انصرف الاسكندر أتبعه ملك الصين من الهدايا والتحف بضعف ما كان قدره عليه ﴿ ومن غريب المنقول عن أبي الفرج الأصبهانى ﴾ أنه قال أخبرنى عمى عن أبيه عن الكلبي عن أبيه قال أخبرنى شيخ من بنى نبهان قال أصابت بنى نبهان سنة ذهبت بالأموال فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة وقال كونوا قريبا من الملك يصبكم من خيره حتى أرجع اليكم ومضى على وجهه يسوق راحلته سبعة أيام حتى انتهى الى عطن ابل عند تطفيل الشمس فاذا خباء عظيم وقبة

وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق فخفت أن يموت فتتهمنى به فهربت فزعا منك فامتلك الحجاج نفسه من شدة الضحك وقال ويحك اكتمى هذا ولا تعلمى به أحدا قالت على أن لا تردني اليه قال لك ذلك (وحدث) جار لابى حنيفة النميرى قال كان لابى حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق وكان يسميه لعاب المنية فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيته وقد سمع حسا فى داره وهو يقول أيها المغتر بنا المجترى‌ء علينا بئس والله ما اخترت لنفسك خير قليل وسيف صقيل وهو لعاب المنية الذى سمعت به أخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك ثم فتح الباب على وجل فاذا كلب قد خرج فقال الحمد لله الذى مسخك كلبا وكفانا حربا * وخرج المعتصم يوما الى بعض متصيداته فظهر له أسد فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه أفيك خير يا رجل قال لا فضحك المعتصم وقال قبح الله الجبان ورأى الاسكندر سميا له لا يزال ينهزم فقال له يا رجل إما أن تغير فعلك واما أن تغير اسمك * ووقع فى بعض العساكر ضجة فوثب خراسانى الى دابته ليلجمها فصير اللجام فى الذنب من الدهش وقال يخاطب الفرس هب جبهتك عرضت فناصيتك كيف طالت (وخرج) أسلم بن زرعة الكلابى فى ألفين لمحاربة أبى بلال مرداس وكان مرداس فى أربعين رجلا فانهزم أسلم منه فلاموه على ذلك وذمه ابن أبى زياد فقال لان يذمنى ابن أبى زياد حيا أحب الى من أن يمدحنى ميتا وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج الى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك فكبر ذلك عليه فشكاهم الى ابن أبى زياد فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه وفى ذلك يقول بعضهم شعرا

يقول جبان القوم فى حال سكره * وقد شرب الصهباء هل من مبارز
وأين الخيول الاعوجيات فى الوغى * أنازل منهم كل ليث مناهز
ففي السكر قيس وابن معدى وعامر * وفى الصحو تلقاه كبعض العجائز

هذا ما انتهى الينا من هذا الباب والحمد لله الكريم الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه الطاهرين والحمد لله رب العالمين

﴿ الباب الثانى والاربعون فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول ﴾

﴿ الفصل الأول فى المدح والثناء ﴾ المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها يكون نعتا حميدا وهذا يصح من المولى فى حق عبده فقد قال الله تعالى فى حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ وانك لعلى خلق عظيم وقال تعالى قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون الى آخر الآية فعلى هذا يجوز مدح الانسان بما فيه من الاخلاق الحميدة وأما قوله ﷺ إذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب فقد قال العتبي هو المدح الباطل والكذب وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ ولم يبلغنا أنه حثا فى وجه مادح ترابا وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والانصار رضى الله عنهم وفى حثو التراب معنيان أحدهما التغليظ فى الرد عليه والثانى كأنه يقال له يكفيك التراب وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال اللهم أنت أعلم بي من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون ومدح سارية الديلى رسول الله ﷺ وهو سارية الذى

من أدم قال فقلت فى نفسي ما لهذا الخباء بد من أهل وما لهذه القبة بد من رب وما لهذا العطن بد من ابل فنظرت فى الخباء فاذا شيخ كبير قد أوهاه الكبر وهو (٢٣٠) شبه النسر فجلست خلفه فلما انصرم النهار أقبل فارس لم أر أعظم من شكله وفى خدمته أسودان يمشيان بين جنبيه واذا مائة من الابل معها فحلها فبرك الفحل وبركن حوله فقال لاحد عبيده احلب فلان فحلبها ثم وضع اللبن بين يدى الشيخ فكرع منه واخذه وقدمه الى فشربت نصفه ثم أمر بشاة فذبحت وشويت وأكلنا منها جميعا فامهلت حتى اذا ناموا وحكم عليهم النوم سرت الى الفحل فحللت عقاله وركبته فاندفع بى وتبعته الابل فمشيت الى الصباح فلما أصبحت نظرت فلم أجد أحدا ولما تعالى النهار التفت فاذا أنا بخيال كانه طائر فمازال يدنو حتى تبينته فاذاهو فارس على فرس واذاهو صاحبي بالامس فعقلت الفحل وعمدت الى كنانتى فقال احلل عقاله فقلت كلا لقد خلفت خلفى نساء جياعا بالحيرة قال فانك ميت حل عقاله لاأم لك وانصب لى خطامه واجعل فيه خمس عقد وقل لى أين تحب أن أضع سهمى فقلت فى هذا الموضع فكأنما وضعه بيده ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم فرددت نبلي وحططت قوسي وجال ووقف مستسلما فدنا مني وأخذ القوس والسيف ثم أردفني خلفه وقد عرف أني الذى شربت اللبن عنده وأكلت الطعام

أمره عمر رضى الله عنه على السرية وناداه فى خطبته بقوله يا سارية الجبل فمن مدحه فى رسول الله ﷺ قوله

فما حملت من ناقة فوق ظهرها * أبر وأوفى ذمة من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله

وأحسن منك لم تر قط عينى * وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب * كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الانصارى رضى الله عنه قوله

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تنبيك بالخبر

(ولما) حججت وزرته ﷺ تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بابيات مطولة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف وأنا مكشوف الرأس وأبكى من جملتها
ياسيد السادات جئتك قاصدا * أرجو رضاك واحتمى بحماكا * والله يا خير الخلائق ان لى
قلباً مشوقا لا يروم سواكا * وبحق جاهك انى بك مغرم * والله يعلم انى أهواكا
أنت الذى لولاك ما خلق امرؤ * كلا ولا خلق الورى لولاكا * أنت الذي من نورك البدر اكتسى
والشمس مشرقة بنور بهاكا * أنت الذى لما رفعت الى السما * بك قد سمت وتزينت لسراكا
أنت الذى ناداك ربك مرحباً * ولقد دعاك لقربه وحباكا * أنت الذى فينا سألت شفاعة
ناداك ربك لم تكن لسواكا * أنت الذى لما توسل آدم * من ذنبه بك فاز وهو أباكا
وبك الخليل دعا فعادت ناره * بردا وقد خمدت بنور سناكا * ودعاك أيوب لضر مسه
فازيل عنه الضر حين دعاكا * وبك المسيح أتى بشيرا مخبرا * بصفات حسنك مادحا لعلاكا
وكذاك موسى لم يزل متوسلا * بك فى القيامة مرتج لنداكا * والانبياء وكل خلق فى الورى
والرسل والاملاك تحت لواكا * لك معجزات أعجزت كل الورى * وفضائل جلت فليس تحاكى
نطق الذراع بسمه لك معلناً * والضب قد لباك حين أتاكا * والذئب جاءك والغزالة قد أتت
بك تستجير وتحتمى بحماكا * وكذا الوحوش أتت اليك وسلمت * وشكا البعير اليك حين رآكا
ودعوت أشجارا أتتك مطيعة * وسعت اليك مجيبة لنداكا * والماء فاض براحتيك وسبحت
صم الحصى بالفضل فى يمناكا * وعليك ظللت الغمامة فى الورى * والجذع حن الى كريم لقاكا
وكذاك لا أثر لمشيك فى الثرى * والصخر قد غاصت به قدماكا * وشفيت ذا العاهات من أمراضه
وملأت كل الأرض من جدواكا * ورددت عين قتادة بعد العمى * وابن الحصين شفيته بشفاكا
وكذا حبيب وابن عفراء بعدما * جرحا شفيتهما بلمس يداكا * وعلى من رمد به داويته
فى خيبر فشفى بطيب لماكا * وسألت ربك فى ابن جابر بعدما * قد مات أحياه وقد أرضاكا
ومسست شاة لام معبد بعدما * نشفت فدرت من شفا رقياكا * ودعوت عام المحل ربك معلناً
فانهل قطر السحب عند دعاكا * ودعوت كل الخلق فانقادوا الى * دعواك طوعا سامعين نداكا
وخفضت دين الكفر يا علم الهدى * ورفعت دينك فاستقام هناكا * أعداك عادوا فى القليب بجهلهم
صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا * فى يوم بدر قد أتتك ملائك * من عند ربك قاتلت أعداكا
والفتح جاءك يوم فتحك مكة * والنصر فى الاحزاب قد وافاكا * هود ويونس من بهاك تجملا

وجمال يوسف من ضياء سناكا * قد فقت ياطه جميع الأنبيا * نورا فسبحان الذى سواكا
والله ياياسين مثلك لم يكن * فى العالمين وحق من نباكا * عن وصفك الشعراء يامدثر
عجزوا وكلوا عن صفات علاكا * إنجيل عيسى قد أتى بك مخبرا * وأتى الكتاب لنا بمدح حلاكا
ماذا يقول المادحون وماعسى * أن يجمع الكتاب من معناكا * والله لو أن البحار مدادهم
والعشب أقلام جعلن لذاكا * لم تقدر الثقلان تجمع ذرة * أبدا وما استطاعوا له ادراكا
لى فيك قلب مغرم ياسيدى * وحشاشة محشوة بهواكا * فاذاسكت ففيك صمتى كله
وإذا نطقت فمادح علياكا * وإذاسمعت فعنك قولا طيبا * وإذا نظرت فلا أرى إلا كا
ياما لكى كن شافعى من فاقتى * إنى فقير فى الورى لغناكا * ياأكرم الثقلين ياكنز الورى
جدلى بجودك وارضني برضاكا * أنا طامع فى الجود منك ولم يكن * لابن الخطيب من الانام سواكا

فعساك تشفع عند حسابه * فلقد غدا مستمسكا بعراكا
ولانت أكرم شافع ومشفع * ومن التجا لحماك نال وفاكا
فاجعل قراى شفاعة لى فى غد * فعسى أرى فى الحشر تحت لواكا
صلى عليك الله ياخير الورى * ماحن مشتاق إلى مثواكا
وعلى صحابتك الكرام جميعهم * والتابعين وكل من والاكا

وماذاعسى أن يقول المادحون فى وصف من مدحه الله تعالى وأثنى عليه وقد قال ﷺ أنا سيد ولد آدم ولافخر والله لو أن البحار مداد والأشجار أقلام وجميع الخلائق كتاب لما استطاعوا أن يجمعوا النزر اليسير من بعض صفاته ولكلوا عن الاتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ *

ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له ياهذا إنه قد نهى عن مدح الرجل فى وجهه فقال مامدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكرا فقال له هشام هذا أحسن من المدح ووصله وأكرمه وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان رأيت نفسى فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر وأيقنت أنى حيث انتهى بى القول منسوب الى العجز مقصر عن الغاية فانصرفت عن الثناء عليك الى الدعاء لك ووكلت الأخبار عنك الى علم الناس بك * وقال الحرث بن ربيعه فى رجل من آل المهلب

فتى دهره شطران فيما ينوبه * ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فلا من بغات الخير فى عينه قذى * ولا من زئير الحرب فى أذنه وقر

وقال اعرابى لرجل لا يذم بلد أنت تأويه ولا يشتكى زمان أنت فيه * وكان الحجاج يستثقل زياد ابن عمرو العتكى فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال ياأمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذى لا ينبو وسهمك الذى لا يطيش وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه وقال رجل لآخر أنت بستان الدنيا فقال له وأنت النهر الذى يسقى منه ذلك البستان وقال رجل لأبى عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة فى اللغة أنت والله عين الدنيا فقال له وأنت والله نور تلك العين وقال القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى :

قوم إذا نزل الغريب بدارهم * تركوه رب صواهل وقيان
وإذا دعوتهم ليوم كريهة * سدوا شعاع الشمس بالفرسان

(وقال أوس بن حاتم الطائي)

فان تنكحى مارية الخير حاتما * فما مثله فينا ولا فى الأعاجم

فقال كيف ظنك بى فقلت أحسن ظن فقال أبشر انه لن ينالك شر وقد كنت ضيف مهلهل فقلت أزيد الخيل أنت قال نعم أنا زيد الخيل فلما انتهينا إلى منزله قال لو كانت هذه الابل لى لسلمتها اليك ولكنها لابنة مهلهل فأقم عندى فأقمت عنده أياما فشن الغارة على بنى نمير فأصاب مائة بعير فقال هذه أحب اليك أم تلك قلت هذه قال دونكها وبعث معى خفراء من ماء إلى ماء إلى أن وردت الحيرة فلقينى نبطى فقال يااعرابى احتفظ بابلك فقد قرب مخرج النبى صلى الله عليه وسلم الذى يملك هذه الأرض ويطرد أهلها حتى إن أحدكم ليبتاع البستان بثمن بعير قال فاحتملت بأهلى إلى النبط حتى جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمنا على يديه وما مضت إلا أيام حتى اشتريت بثمن بعير من ابلى بستانا بالحيرة والله أعلم (ونقل عن الواقدى) قال كان لى صديقان أحدهما هاشمي والآخر نبطى فكنا فى الصداقة كنفس واحدة فنالتنى ضيقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتى اما نحن فنصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد قطع قلبى عليهم رحمة لأنهم يرون صبيان جيراننا وقد تزينوا فى عيدهم وهم فرحون ولا بأس بالاحتيال فيما نصرفه فى كسوتهم قال فكتبت الى صديقى الهاشمى أسأله التوسعة على بشيء فوجه الى كيسا فيه ألف درهم فما استقر قراره حتى كتب الى صديقى الآخر يشكو الى مثل ماشكوته إلى الهاشمى فوجهت إليه

فتى لا يزال الدهر أكبر همه * فكاك أسير أو معونة غارم

(وقال ابن حمدون فى آل المهلب)

آل المهلب معشر أمجاد * ورثوا المكارم والوفاء فسادوا * شاد المهلب ما بنى آباؤه
وأتى بنوه ما بناه فشادوا * وكذاك من طابت مغارس نبته * وبنى له الآباء والأجداد

وكان الفرزدق هجاه لعمر بن هبيرة فلما سجن ونقب له السجن وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق

ولما رأيت الأرض قد سد ظهرها * ولم يبق الا بطنها لك مخرجا
دعوت الذى ناداه يونس بعدما * ثوى فى ثلاث مظلمات ففرجا

فقال ابن هبيرة ما رأيت أشرف من الفرزدق هجانى أميرا ومدحنى أسيرا وقال مهرى بن عبد الرحمن الرفاء فى خالد بن حاتم

ياواحد العرب الذى دانت له * قحطان قاطبة وساد نزارا
إنى لأرجو إن لقيتك سالما * أن لا أعالج بعدك الأسفارا

وقال كعب بن مالك الأنصارى فى آل هاشم

يا آل هاشم الاله حباكم * ما ليس يبلغه اللسان المفصل
قوم لأصلهم السيادة كلها * قدما وفرعهم النبى المرسل

وقال الحسين بن دعبل الخزاعى

ملك الأمور بجوده وحسامه * شرفا يقود عدوه بزمامه
فأطاع أمر الجود فى أمواله * وأطاع أمر الله فى أحكامه

وقال آخر

يلقى السيوف بصدره وبنحره * ويقيم هامته مقام المغفر
ويقول للطرف اصطبر لسنى القنا * فعقرت ركن المجد إن لم تعقر
واذا تراءى شخص ضيف مقبل * متسربل أثواب محل أغبر
أومى الى الكوماء هذا طارق * نحرتنى الاعداء ان لم تنحر

(وقال شاعر بنى تميم)

إذا لبسوا عمائمهم طووها * على كرم وان سفروا أناروا
يبيع ويشترى لهم سواهم * ولكن بالطعان هم تجار
إذا ما كنت جار بنى تميم * فأنت لأكرم الثقلين جار

وقالت امرأة من بنى نمير وقد حضرتها الوفاة واهلها مجتمعون من ذا الذى يقول

لعمرى ما رماح بنى نمير * بطائشة الصدور ولا قصار

قالوا زياد الاعجم قالت أشهدكم أن له الثلث من مالى وكان مالا كثيرا واثنى رجل على رجل فقال هو أفصح أهل زمانه إذا حدث وأحسنهم استماعا إذا حدث وأمسكهم عن الملاحات اذا خولف يعطى صديقه النافلة ولا يسأله الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة على المعالى مقصورة كالذهب الابريز الذى يعز كل أوان والشمس المنيرة التى لا تخفى بكل مكان هو النجم المضىء للحيران والمنهل البارد العذب للعطشان وقال الحسن بن هانىء

اذا نحن أثنينا عليك بصالح * فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
وان جرت الألفاظ يوما بمدحة * لغيرك انسانا فأنت الذى نعنى

(وله فى الفضل بن الربيع)

لقد نزلت أبا العباس منزلة * ما أن ترى خلفها الابصار مطرحا

بالكيس على حاله وخرجت الى المسجد وأنا مستح من امرأتي فلما دخلت عليها لم تعنفني لعلمها بالحال فبينما أنا كذلك إذ أقبل صديقي الهاشمي ومعه الكيس بختمه فقال أصدقني عما فعلته فيما وجهت به اليك فأعلمته بالخبر فقال إنك وجهت الى ولا أملك الا ما بعثت به إليك وكتبت الى صديقنا أسأله المواساة فوجه الى كيسى بختمه فأخرجنا للمرأة مائة درهم وتقاسمنا الباقي أثلاثا ونما الخبر الى المأمون فأحضرنى وسألنى عن الخبر فشرحته له فأمر لنا بسبعة آلاف دينار منها ألف للمرأة وألفان لكل واحد منا (ويضارع ذلك ما هو منقول عن الاصمعى) قال قصدت في بعض الايام رجلا كنت أغشاه لكرمه فوجدت على بابه بوابا فمنعني من الدخول اليه ثم قال والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حاله وقصور يده فكتبت رقعة فيها اذا كان الكريم له حجاب * فما فضل الكريم على اللئيم ثم قلت له أوصل رقعتي اليه ففعل وعاد بالرقعة وقد وقع على ظهرها اذا كان الكريم قليل مال * تحجب بالحجاب عن الغريم * ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار قلت والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر فلما رآنى قال من أين يا اصمعي قلت من عند رجل من أكرم الاحياء حاشى أمير المؤمنين قال ومن هو فدفعت اليه الورقة والصرة وأعدت عليه الخبر فلما رأى الصرة قال هذا من بيت مالى ولا بد لى من الرجل

وكلت

فقلت والله يا أمير المؤمنين اني أستحي أن أروعه برسالك فقال لبعض خاصته امض مع الاصمعي فاذا أراك الرجل قال له أجب أمير المؤمنين من غير ازعاج قال فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له أنت الذي وقفت لنا بالأمس وشكوت رقة الحال فان الزمان قد أناخ عليك بكلكله فدفعنا اليك هذه الصرة لتصلح بها حالك فقصدك الأصمعي ببيت واحد فدفعتها اليه فقال نعم يا أمير المؤمنين والله ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقة الحال لكن استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدي إلا كما أعادني أمير المؤمنين فقال له المأمون لله أنت فما ولدت العرب أكرم منك ثم بالغ في اكرامه وجعله من جملة ندمائه (ومن لطائف المنقول) ما هو منقول عن الربيع انه قال ما رأيت رجلا أثبت ولا أربط جأشا من رجل رفع إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبني أمية فأمرني باحضاره فأحضرته ودخلت به اليه فقال له المنصور قد رفع الينا خبر الودائع والأموال التي لبني أمية عندك فأخرج لنا منها فقال يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبني أمية قال لا قال أفوصي قال لا قال فما سؤالك عما في يدي من ذلك قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال ان بني أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين في حقهم فأريد أن آخذ أموال المسلمين وأجعلها في بيت مالهم فقال يا أمير المؤمنين تحتاج في ذلك إلى إقامة

وكلت بالدهر عينا غير غافلة * بجود كفك تأسو كل ما جرحا

(وقال زياد الأعجم في محمد بن القاسم الثقفي)

ان المنابر أصبحت مختالة * بمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة * ياقرب سورة سودد من مولد

(ومن بدائع مدائح المتنبي قوله)

ليت المدائح تستوفي مناقبه * فما كليب وأهل الأعصر الأول
خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به * في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فان وجدت لسانا قائلا فقل

ومدح أبو العتاهية عمر بن العلاء فأعطاه سبعين ألفا وخلع عليه خلعا سنية حتى انه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه لجمعهم وقال يا لله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض ان أحدكم يأتينا ليمدحنا فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتا فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

اني أمنت من الزمان وصرفه * لما علقت من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من اجلاله * جعلوا له حر الوجوه نعالا
ان المطايا تشتكيك لأنها * قطعت اليك سباسبا ورمالا
فاذا وردن بنا وردن خفائفا * وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

ووفد أبو نواس على الخصيب بمصر فأذن له وعنده الشعراء فأنشد الشعراء أشعارهم فلما فرغوا قال أبو نواس أنشدك أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا قال أنشد فأنشده قصيدته التي منها قوله

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا * فأي فتى بعد الخصيب تزور
فتى يشتري حسن الثناء بماله * ويعلم ان الدائرات تدور
فما فاته جود ولا حل دونه * ولكن يسير الجود حيث يسير

فاهتز الخصيب طربا وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة (وحكي) ان أبا دلف سار يوما مع أخيه معقل فرأيا امرأتين يتماشيان فقالت احداهما للأخرى هذا أبو دلف قالت نعم الذي يقول فيه الشاعر

انما الدنيا أبو دلف * بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه فقال له معقل مالك يا أخي تبكي فقال لأني لم أقض حق الذي قال هذا قال أولم تعطه مائة ألف درهم قال والله ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار ويقال هذه المدحة فأين المنحة قال بعضهم * إذا ما المدح صار بلا نوال * من الممدوح كان هو الهجاء

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن حيوس محمد بن نصر صاحب حلب فأجازه بألف دينار ثم مات محمد بن نصر وقام ولده نصر مقامه فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعدت عنكم حرمة لا زهادة * وسرت اليكم حين مسني الضر
فجاء أبو نصر بألف تصرمت * واني عليم أن سيخلفها نصر

فلما فرغ من انشادها قال نصر والله لو قال سيضعفها نصر لأضعفتها له وأعطاه ألف دينار في طبق فضة ومدح بعض الشعراء وقيل هو البديع الهمداني انسانا فقال:

يكاد يحكيه صوب الغيث منسكبا * لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت * والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

(وقال آخر) أخو كرم يفضي الورى من بساطه * إلى روض مجد بالسماح مجود

البينة العادلة على ان الذي في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين فان بني أمية كان لهم

أموال غير أموال المسلمين قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه إلي وقال صدق الرجل يا ربيع ما وجب عليه عندنا شيء ثم بش في وجهه فقال هل لك من حاجة فقال نعم يا أمير المؤمنين حاجتي أن تنفذ كتابي مع البريد إلى أهلي ليسكنوا إلى سلامتي فقد راعهم أشخاصي وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين قال ما هي قال تجمع بيني وبين من سعى بي إليك فوالله ما لبني أمية عندي ولا في يدي وديعة ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني ورأيت ما قلته أقرب إلى الخلاص والنجاة فقال يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما فقال هذا غلامي ضرب على ثلاثة آلاف من مالي وأبق فشدد المنصور على الغلام فأقر انه غلامه وانه أخذ المال الذي ذكره وأبق منه وكذب عليه خوفا من الوقوع في يده فقال المنصور للرجل نسألك أن تصفح عنه فقال يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه وأبرأته من المال وأعطيته ثلاثة آلاف دينار أخرى فقال المنصور ما على ما فعلت مزيد في الكرم قال بلى يا أمير المؤمنين هذا حق كلامك وانصرف

وكم لجباه الراغبين لديه من * مجال سجود في مجالس جود

ويقال فلان رقيق الجود ودخيله وزميل الكرم ونزيله وغرة الدهر وتحجيله مواهبه الانواء وصدره الدهناء عونه موقوف على اللهيف وغوثه مبذول للضعيف يطفو جوده على موجوده وهمته على قدرته ينابيع الجود تنفجر من أنامله وربيع السماح يضحك عن فواضله إن طلب كريما في جوده مت قبل وجوده أو ماجدا في أخلاقه مت ولم تلاقه باسل تعود الاقدام حيث زل الأقدام وشجاع يرى الاحجام عارا لا تمحوه الأيام له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته وصفى كدورته خلق كنسيم الاسحار على صفحات الأنهار وأطيب من زمن الورد في الأيام وأبهج من نور البدر في الظلام خلق يجمع الاهواء المتفرقة على محبته ويؤلف الآراء المتشتتة في مودته هو ملح الأرض إذا فسدت وعمارة الدنيا إذا خربت يحل دقائق الاشكال ويزيل جلائل الاشكال البيان أصغر صفاته والبلاغة عنوان خطراته كأنما أوحى التوفيق إلى صدره وحبس الصواب بين طبعه وفكره فهو يعبث بالكلام ويقوده بألين زمام حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره والمعاني تتغاير في الامتثال لأوامره يوجز فلا يخل ويطنب فلا يمل كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيبس ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس فهو إذا أنشأ وشى وإذا عبر حبر وإذا أوجز أعجز تاهت به الأيام وباهت في يمينه الأقلام له أدب لو تصور شخصا لكان بالقلوب مختصا قال الشاعر:

له خلق على الايام يصفو * كما تصفو على الزمن العقار

(وقال آخر) لو كان يحوي الروض ناضر خلقه * ما كان يذبل نوره بشتائه
أو قابل الأفلاك طالع سعده * ما صار نحس في نجوم سمائه

(وقال آخر) ووجهك بدر في الغياهب مشرق * وكفك في شهب السنين غمام
عجيب لبدر لا يزال أمامه * سحاب ولا يغشاه منه ظلام
وأعجب من هذا غمام إذا سطا * تلظى مكان البرق منه حسام

﴿ وقال الحسين بن مطير الاسدي ﴾

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس * ويوم نعيم فيه للناس أنعم * فيمطر يوم الجود من كفه الندى
ويمطر يوم البؤس من كفه الدم * فلو أن يوم البؤس خلى عقابه * على الناس لم يصبح على الأرض مجرم
ولو أن يوم الجود خلى يمينه * عن المال لم يصبح على الأرض معدم

﴿ وللشيخ جمال الدين بن نباتة ﴾

والله ما عجبي لقدرك انه * قدر على باغي مداه بعيد
إلا لكونك لست تشكو وحشة * في هذه الدنيا وأنت وحيد

(ولصفي الدين الحلي):

انى فتنتني صفاتك مظهرا * عيا وكم أعيت صفاتك خاطبا
لو انني والخلق جما السن * تثني عليك لما قضينا الواجبا

(وللشيخ برهان الدين القيراطي)

أوصافكم تجري أحاديثها * مجرى النجوم الزهر في الأفق
كما أحاديث الندى عنكم * تسندها الركبان من طرق

﴿ وللشيخ

وكان المنصور يعجب منه كما ذكره ويقول مارأيت مثل هذا الرجل ياربيع ﴿ رحلة الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ﴾ قال الشيخ الامام العالم المقرى أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الأرديلي المالكى بالجامع العتيق بمصر فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن فتح المعروف بابن الحبشى سنة ثلاثين وخمسمائة أخبرنا الشريف القاضى الموسوى أبو اسمعيل موسى ابن الحسين بن اسمعل بن على الحسينى المقرى فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة بالجامع العتيق بمصر قال أخبرنا الشيخ أبو العباس أحمد بن ابراهيم الفاقسي فى ربيع الأول سنة احدى وخمسين وأربعمائة قال أخبرنا يحيى بن عبد الله الرجل الصالح ويحيى ابن موسى المعدل بمصر قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن عبد الواعظ المصرى الكرازة قال حدثنى أبو الفرج عبد الرازق حمدان البطين قال حدثنى أبو بكر محمد بن المثنى قال حدثنى الربيع بن سليمان قال سمعت الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه يقول فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة لانبات بعارضى من الابطح الى ذى طوى وعلى بردتان يمانيتان فرأيت ركبا فسلمت عليهم فردوا على السلام ووثب الى شيخ كان فيهم قال سألتك بالله الا ماحضرت طعامنا قال الشافعى رضى الله تعالى عنه وما كنت أعلم أنهم أحضروا طعاما فأجبت مسرعا غير محتشم فرأيت القوم يأخذون الطعام بالخمس ويدفعون بالراحة فأخذت

﴿ وللشيخ جمال الدين بن نباتة ﴾

روت عنك أخبار المعالى محاسنا * كفت بلسان الحال عن ألسن الحمد
فوجهك عن بشر وكفك عن عطا * وخلقك عن سهل ورأيك عن سعد

(وقال غيره) من زار بابك لم تبرح جوارحه * تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة * والقلب عن جابر والسمع عن حسن

(ولأبى فراس بن حمدان)

لئن خلق الانام لحب كاس * ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمدان الا * لمجد أو لبأس أو لجود

(وقال آخر) ان الهبات التى جاد الكرام بها * مطروقة وندى كفيك مبتكر
مازلت تسبق حتى قال حاسدكم * له طريق إلى العلياء مختصر

(ولمحمد بن مناذر فى آل برمك)

أتانا بنو الأملاك من آل برمك * فياطيب أخبار وأحسن منظر * لهم رحلة فى كل عام الى العدا
وأخرى إلى البيت العتيق المنور * إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت * بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا لجود أكفهم * وأقدامهم إلا لسعى مطفر
إذا رام يحيى الأمر ذلت صعابه * وناهيك من راع له ومدبر

ولما عزل ابراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشد

ليت شعرى أى قوم أجدبوا * فأغيثوا بك من بعد العجف * نظر الله لهم من بيننا
وحرمناك بذنب قد سلف * ياأبا اسحق سر فى دعة * وامض مصحوبا فما منك خلف
إنما أنت ربيع باكر * حينما صرفه الله انصرف

(وقال آخر) لوكان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم لقيل اقعدوا ياآل عباس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس وارتفعوا * إلى السماء فأنتم سادة الناس

وللحسين بن مطير الأسدى فى المهدى

لو يعبد الناس يامهدى أفضلهم * ما كان فى الناس الا أنت معبود * اضحت يمينك من جود مصورة
لا بل يمينك منها صور الجود * لوأن من نوره مثقال خردلة * فى السود طرا اذن لابيضت السود

(وقال آخر) أوليتنى نعما وفضلا زائدا * وبررتنى حتى رأيتك والدا
أقسمت لوجاز السجود لمنعم * ماكنت الا راكعا لك ساجدا

(وقال آخر) ثناؤك فى الدنيا من المسك أعطر * وحظك فى الدنيا جزيل موفر
وكفك بحر والانامل أنهر * رعى الله كفا فيه بحر وأنهر * أعيذك بالرحمن من كل حاسد
فلازالت الحساد تفنى وتصغر * لسانى قصير فى مديحك سيدى * لأنى فقير والفقير مقصر

(الفصل الثانى من هذا الباب فى شكر النعمة) أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك وعن غيرك والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله أى تيقنوا أنها من الله وقيل الشكر معرفة العجز عن الشكر وقد

روى أن داود عليه السلام قال الهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك فأوحى الله تعالى اليه الآن قد شكرتنى وفى هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر * ولمحمود الوراق

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة * على له فى مثلها يجب الشكر * فكيف بلوغ الشكر الا بفضله
وان طالت الايام واتصل العمر * إذا مس بالسراء عم سرورها * وان مس بالضراء أعقبها الاجر
فما منها الا له فيه نعمة * تضيق بها الاوهام والسر والجهر

وفى مناجاة موسى عليه السلام الهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال علم ان ذلك منى فكانت معرفته بذلك شكره لى * وأما شكر اللسان فقد قال الله تعالى فيه وأما بنعمة ربك فحدث ويروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تذكروا النعم فان ذكرها شكر * وأما الشكر الذى فى الجوارح فقد قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا الآية فجعل العمل شكرا وروى أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه فقيل له يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً لله شكوراً وقال أبو هرون دخلت على أبى حازم فقلت له يرحمك الله ما شكر العينين قال إذا رأيت بهما خيرا ذكرته واذا رأيت بهما شرا سترته قلت فما شكر الأذنين قال إذا سمعت بهما خيرا حفظته واذا سمعت بهما شرا نسيته وفى حكمة ادريس عليه الصلاة والسلام لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمة بمثل الانعام على خلقه ليكون صانعا إلى الخلق مثل ما صنع الخالق اليه فاذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء * وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر فقال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر فاذا رأينا الغنى يشكر الله تعالى بلسانه وماله فى نقصان علمنا أنه قد أخل بالشكر أما إنه لا يزكى ماله أو يزكيه لغير أهله أو يؤخره عن وقته أو يمنع حقا واجبا عليه من كسوة عريان أو إطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل فى قول النبي ﷺ لو صدق السائل ما أفلح من رده قال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الاحسان وقال بعض الحكماء من أعطى أربعا لم يمنع من أربع من أعطى الشكر لا يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لا يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب وقال المغيرة بن شعبة أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا بقاء للنعم إذا كفرت ولا زوال لها إذا شكرت وكان الحسن يقول ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة الا إلى ما هو أعظم منها وروى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه دعى إلى أقوام ليأخذهم على ريبة فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم * ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام يا نبى الله أنا على قدرى أشكر لله منك وكان راكبا على فرس ذلول فخر ساجداً لله تعالى ثم قال لولا أنى أبجلك لسألتك عن أن تنزع منى ما أعطيتنى وقال صدقة بن يسار بينا داود عليه السلام فى محرابه إذ مرت به دودة فتفكر فى خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه فأنطقها الله تعالى له فقال له يا داود تعجبك نفسك وأنا على قدر ما آتانى الله تعالى أذكر الله وأشكر له منك على ما آتاك وقال على رضى الله عنه احذروا نفار النعم فما كل شارد مردود عليه

كأخذهم كي لا يستبشع عليهم مأكلي والشيخ ينظر الى ثم أخذت السقاء فشربت وحمدت الله وأثنيت عليه فأقبل على الشيخ وقال أمكي أنت قلت مكي قال أقرشي أنت قلت قرشي ثم أقبلت عليه وقلت ياعم بم استدللت على قال أما فى الحضر فبالزى وأما فى القشب فبأكل الطعام لأنه من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه وذلك فى قريش خصوصا قال الشافعى رضى الله تعالى عنه فقلت للشيخ من أين أنت قال من يثرب مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله تعالى والمفتى بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيد بنى اصبح مالك ابن أنس رضى الله تعالى عنه قال الشافعي رضى الله عنه فقلت واشوقاه الى مالك فقال لى قد بل الله شوقك انظر الى هذا البعير الأورق فانه أحسن جمالنا ونحن على رحيل ولك منا حسن الصحبة حتى تصل الى مالك فما كان غير بعيد حتى قطروا بعضها الى بعض وأركبونى البعير الأورق وأخذ القوم فى السير وأخذت أنا فى الدرس فختمت من مكة الى المدينة ست عشرة ختمة بالليل ختمة وبالنهار ختمة ودخلت المدينة فى اليوم الثامن بعد صلاة العصر فصليت العصر فى مسجد رسول الله ﷺ ودنوت من القبر فسلمت على النبي ﷺ ولذت بقبره فرأيت مالك بن أنس متزراً ببردة متوشحا بأخرى قال حدثنى نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر وضرب بيده إلى قبر رسول الله ﷺ السلام

قال الشافعي رضى الله عنه فلما رأيت ذلك هبته مهابة عظيمة وجلست حتى انتهى بى المجلس فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى مالك حديثا كتبته بريقي على يدى والامام مالك رضى الله عنه ينظر إلى من حيث لا أعلم حتى انقضى المجلس وانتظرنى مالك أن أنصرف فلم يرنى انصرفت فأشار إلى فدنوت منه فنظر إلى ساعة ثم قال أحرمي أنت قلت حرمى قال أمكي أنت قلت مكي قال أقرشي أنت قلت قرشي قال كملت أوصافك لكن فيك اساءة أدب قلت وما الذى رأيت من سوء أدبى قال رأيتك وأنا أملى ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام تلعب بريقك على يدك فقلت له عدمت البياض فكنت أكتب ماتقول فجذب مالك يدى اليه فقال ما أرى عليها شيئا فقلت ان الريق لا يثبت على اليد ولكن فهمت جميع ماحدثت به منذ جلست وحفظته إلى حين قطعت فتعجب الامام مالك من ذلك فقال أعد على ولو حديثا واحدا (قال الشافعى رضى الله عنه) فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدى إلى القبر كاشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال خذ بيد سيدك اليك وسألنى النهوض معه (قال الشافعى رحمه الله) فقمت غير ممتنع إلى مادعا من كرمه فلما أتيت الدار أدخلني الغلام إلى خلوة فى الدار وقال لى القبلة فى البيت هكذا وهذا إناء فيه ماء وهذا

السلام إذا وصلت اليكم أطراف النعم فلا تنفروا اقصاها بقلة الشكر وقيل إذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر وقال حكيم الشكر ثلاث منازل ضمير القلب ونشر اللسان ومكافأة اليد قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدى ولسانى والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة كان يقال ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا أن كان حقا على الله تعالى أن يزيلها عنه وأنشد أبو العباس بن عمارة فى المعنى :

أعارك ماله لتقوم فيه * بواجبه وتقضي بعض حقه
فلم تقصد لطاعته ولكن * قويت على معاصيه برزقه

(وقال آخر) ولو أن لى فى كل منبت شعرة * لسانا يطيل الشكر كنت مقصرا

وقال محمد بن حبيب الراوية إذا قل الشكر خسر المن وروى اذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان وسئل بعض الحكماء ما أضيع الأشياء قال مطر الجود فى أرض سبخة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها وسراج يوقد فى الشمس وجارية حسناء تزف إلى أعمى وصنيعة تسد إلى من لا يشكرها وقال عبد الأعلى بن حماد دخلت على المتوكل فقال يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور فقلت يا أمير المؤمنين بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة وأنشدته

لأشكرن لك معروفا هممت به * فإن همك بالمعروف معروف
ولا ألومك ان لم يمضه قدر * فالشر بالقدر المحتوم مصروف

(وقال أبو فراس بن حمدان) :

ومانعمة مكفورة قد صنعتها * إلى غير ذى شكر تمانعنى أخرى
سآتى جميلا ماحييت فانني * إذا لم أفد شكرا أفدت به أجرا

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من امتطى الشكر بلغ به المزيد وقيل من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد وقال ابن السماك النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة فاذا فقدت عرفت وقيل من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها وكان يقال إذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة وقال حكيم لا تصطنعوا ثلاثة اللئيم فانه بمنزلة الأرض السبخة والفاحش فانه يرى أن الذى صنعت اليه إنما هو لمخافة فحشه والأحمق فانه لا يعرف قدر ما أسديت اليه واذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده فقال ماعسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة

أمسلمة يافخر كل خليفة * ويافارس الدنيا ويا جبل الأرض * شكرتك ان الشكر دين على الفتى * وما كل من أوليته نعمة يقضى * وأحييت لى ذكرى وما كان خاملا * ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

وسمعه الرشيد فقال هكذا يكون شعر الأشراف مدح صاحبه ولم يضع نفسه وعن نصر بن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال من أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له ثم قال نصر اللهم انى أنعمت على بنى سام فلم يشكروا اللهم اقتلهم فقتلوا كلهم وعن على ابن الحسين رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ إن المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الأجر ما يعطى الصائم القائم ان الله شاكر يحب الشاكرين وعن محمد بن على ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها ولا أذنب عبد ذنبا فعلم أن الله قد اطلع عليه ان شاء غفر له وان شاء آخذه قبل أن يستغفره إلا غفر الله له قبل أن يستغفره وأولى رجل رجلا اعرابيا

بث الخلاء (قال الشافعي رضي الله عنه) فما لبث مالك رضى الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملا طبقا فوضعه من يده
وسلم الامام على ثم قال للعبد أغسل علينا ثم وثب الغلام إلى الاناء وأراد أن يغسل على أولا فصاح

عليه مالك وقال الغسل في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف (قال الشافعي رضي الله عنه) فاستحسنت ذلك من الامام مالك رضي الله عنه وسألته عن شرحه فقال انه يدعو الناس الى كرمه فحكمه أن يبتدىء بالغسل وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه (قال الشافعي رضي الله عنه) فكشف الامام رضى الله عنه الطبق فكان فيه صحفتان في احداهما لبن والأخرى تمر فسمي الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لي يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل الى فقير معدم فقلت لا عذر على من أحسن انما العذر على من أساء (قال الشافعي رضي الله عنه) فأقبل مالك يسألني عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عني وقال حكم المسافر أن يقل تعبه بالاضطجاع فنمت ليلتي فلما كان في الثلث الأخير من الليل قرع على مالك الباب فقال لي الصلاة يرحمك الله فرأيته حامل إناء فيه ماء فتبشع على ذلك فقال لي لا يرعك ما رأيته فخدمة الضيف فرض (قال الشافعي رضى الله عنه) فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع

من

خير أفقال لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك وأنشد بعضهم وأجاد

سأشكر لاأني أجازيك منعما * بشكرى ولكن كي يزاد لك الشكر
وأذكر أياما لدى اصطنعتها * وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

(وقال آخر) أوليتني نعما أبوح بشكرها * وكفيتني كل الأمور بأسرها
فلأشكرنك ماحييت وان أمت * فلتشكرنك أعظمى في قبرها

(وقال آخر) أيارب أحسنت عودا وبدأة * الى فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة * فعذرى اقرارى بأن ليس لى عذر

وقال محمود الوراق الهي لك الحمد الذى أنت أهله * على نعم ماكنت قط لها أهلا
إن زدت تقصيرا ازددتني تفضلا * كأنى بالتقصير أستوجب الفضلا

وقد أحسن نصيب في وصف الثناء والشكر بقوله :

فعاجوا وأثنوا بالذى أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

﴿ وقال رجل من غطفان ﴾

الشكر أفضل ما حاولت ملتمسا * به الزيادة عند الله والناس

وقيل شكر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة

﴿ الفصل الثالث من هذا الباب في المكافأة ﴾ قال رسول الله ﷺ من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فان لم تقدروا فادعوا له ولما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ قام يخدمهم بنفسه فقيل له يارسول الله لو تركتنا كفيناك فقال كانوا لأصحابى مكرمين وقيل أتى رجل من الأنصار الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال

اذكر صنيعى إذا فاجاك ذو سفه * يوم السقيفة والصديق مشغول

فقال عمر بأعلى صوته ادن منى فدنا منه فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال ألا إن هذا ردعنى سفيها من قومه يوم السقيفة ثم حمله على نجيب وزاد فى عطائه وولاه صدقة قومه وقرأ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة يدى عندك بيضاء قال وما هى قال كبت بك فرسك فتقدمت اليك قبل غلمانك فأخذت بعضدك وأركبتك وأسقيتك ماء قال فأين كنت الى الآن قال حجبت عن الوصول اليك قال قد أمرنا لك بمائتى ألف درهم وبما يملكه الحاجب إذا حجبك عنا (وقال) قطرى بن الفجاءة الخارجي أسره الحجاج ثم من عليه فأطلقه فاود قتال عدو الله فقال هيهات شديدا مطلقها وأرق رقبة معتقها ثم قال

أأقاتل الحجاج عن سلطانه * بيد تقر بأنها مولاته * ماذا أقول إذا وقفت ازاءه
فى الصف واحتجت له فعلاته * أأقول جار على لا انى اذا * لاحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الأقوام أن صنائعا * غرست لدى فحنظلت نخلاته

واجتاز الشافعى رحمه الله تعالى بمصر فى سوق الحدادين فسقط سوطه فقام انسان فأخذه ومسحه وناوله إياه فقال لغلامه كم معك قال عشرة دنانير قال ادفعها اليه واعتذر له واستنشد عبد الملك عامر الشعبي فأنشده لغير ما شاعر حتى أنشد لحسان

من سره شرف الحياة فلم يزل * فى عصبة من صالحى الانصار * البائعين نفوسهم لنبيهم بالمشرفى وبالقنا الخطار * الناظرين بأعين محمرة * كالجمر غير كليلة الأبصار
فقام أنصارى فقال يا أمير المؤمنين أستوجب عامر الصلة على له ستون من الابل كما أعطينا حسان يوم قالها فقال عبد الملك وله عندى ستون أيضا وستون من الابل وعن على كرم الله وجهه "حسنوا" فى عقب غيركم تحفظوا فى عقبكم وقال المدائنى رأيت رجلا يطوف بين الصفا والمروة على بغلة ثم رأيته ماشيا فى سفر فسألته عن ذلك فقال ركبت حيث يمشى الناس فكان حقا على الله أن يرجلنى حيث يركب الناس

(ومما جاء فى المكافأة) ما حكى عن الحسن بن سهل قال كنت يوما عند يحيى بن خالد البرمكى وقد خلا فى مجلسه لأحكام أمر من أمور الرشيد فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياما أحمد بن أبى خالد الأحول فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه وقال يا بنى إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثا فاذا فرغت من شغلى هذا فذكرنى أحدثك به فلما فرغ من شغله وطعم قال له ابنه الفضل أعزك الله يا أبى أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الأحول قال نعم يا بنى لما قدم أبوك من العراق أيام المهدى كان فقيراً لا يملك شيئا فاشتد بى الامر إلى أن قال لى من فى منزلى انا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شىء نقتات به قال فبكيت يا بنى لذلك بكاء شديداً وبقيت ولهان حيران مطرقا مفكراً ثم تذكرت منديلا كان عندى فقلت لهم ما حال المنديل فقالوا هو باق عندنا فقلت ادفعوه لى فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابى وقلت له بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهما فدفعتها إلى أهلى وقلت انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدى فاذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه فخرج عليهم راكبا فلما رآنى سلم على وقال كيف حالك فقلت يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالامس منديلا بسبعة عشر درهما فنظر إلى نظراً شديداً وما أجابنى جوابا فرجعت إلى أهلى كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد فقالوا بئس والله ما فعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلا فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين فقلت قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة فلما بلغت الباب استقبلنى رجل فقال لى قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين فلم ألتفت لقوله فاستقبلنى آخر فقال لى كمقالة الاول ثم استقبلنى حاجب أبى خالد فقال لى أين تكون قد أمرنى أبو خالد باجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين فجلست حتى خرج فلما رآنى دعانى وأمر لى بمركوب فركبت وسرت معه إلى منزله فلما نزل قال على بفلان وفلان الحناطين فأحضرا فقال لهما ألم تشتريا منى غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم قالا نعم قال ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما قالا بلى قال هو الرجل الذى اشترطت شركته لكما ثم قال لى قم معهما فلما خرجنا قالا لى أدخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون لك فيه الربح الهنىء فدخلنا مسجداً فقالا لى انك تحتاج فى هذه الامر إلى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شىء فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به ويسقط عنك التعب والكلف فقلت لهما وكم تبذلان لى فقالا مائة

الامام مالك فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس لا يعرف بعضهم بعضا من شدة الغلس وجلس كل واحد منا فى مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رؤس الجبال فجلس مالك فى مجلسه بالأمس وناولنى الموطأ فأخذته أقرؤه على الناس وهم يكتبونه (قال الشافعى رضى الله عنه) فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره وأنت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الانس الذى كان بيننا أنا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم لزيارة واستماع الموطأ (قال الشافعى) فأمليت عليهم حفظا منهم عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وابن القاسم قال الربيع وأحسب أنه ذكر الليث ابن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم (قال الشافعى رضى الله عنه) فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً فسألته عن اسمه فأخبرنى وسألته عن بلده فقال العراق فقلت أى العراق فقال لى الكوفة فقلت من العالم بها والمتكلم فى نص الكتاب والمفتى بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبى حنيفة رضى الله عنه (قال الشافعى رضى الله عنه) فقلت ومتى عزمتم تظعنون فقال لى فى غداة غد وقت الفجر فعدت إلى مالك فقلت له خرجت من مكة فى طلب العلم بغير استئذان العجوز أفأعود إليها أو أرحل فى طلب العلم فقال لى العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة ألم تعلم

أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلبه (قال الشافعي رضي الله عنه) فلما أزمعت على السفر زودني الامام مالك رضي الله عنه فلما كان في السحر سار معي مشيعا إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكري راحلته إلى الكوفة فأقبلت عليه وقلت بم تكتري وليس معك ولا معي شيء فقال لي انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة إذ قرع علي قارع الباب فخرجت اليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول هديته فقبلتها فدفع لي صرة فيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي فاكترى لي بأربعة دنانير ودفع إلى باقي الدنانير وودعني وانصرف وسرت في جملة الحاج حتى وصلت إلى الكوفة يوم رابع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت فبينما أنا كذلك إذا رأيت غلاما قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة فقمت اليه ناصحا فقلت له أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لي أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيك الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلي هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد بن الحسن وأبي يوسف فما عابا على صلاتي قط وخرج معجبا بنفض رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد فقال أعلمتما في صلاتي من عيب فقالا اللهم لا قال فني مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا اذهب اليه فقل له بم تدخل في الصلاة

ألف درهم فقلت لا أفعل فمازالا يزيداني وأنا لا أرضى إلى أن قالا لي ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا فقلت حتى أشاور أبا خالد قالا ذلك لك فرجعت اليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما هل واقفتماه على ماذكر قالا نعم قال اذهبا فاقبضا المال الساعة ثم قال لي اصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل فأصلحت شأني وقلدني ماوعدني به فمازلت في زيادة حتى صار أمري إلى ماصار ثم قال لولده الفضل يا بني فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل وما جزاؤه قال حق لعمري وجب عليك له فقال والله ياولدي ما أجد له مكافأة غير أني أعزل نفسي وأوليه ففعل ذلك رضي الله عنه وهكذا تكون المكافأة (ومن ذلك ما حكي) عن العباس صاحب شرطة المأمون قال دخلت يوما مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآني قال لي عباس قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال خذ هذا اليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكر به الي في غد واحترز عليه كل الاحتراز قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب الا أن يكون معي في بيتي فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو فقال أنا من دمشق فقلت جزى الله دمشق وأهلها خير الجزاء أنت من أهلها قال وعمن تسأل قلت أتعرف فلانا قال ومن أين تعرف ذلك الرجل فقلت وقع لي معه قضية فقال ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه فقال ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم فبينما أنا هارب في بعض الدروب واذا بجماعة يعدون خلفي فمازلت أعدو أمامهم حتى فتهم فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت أغثني أغاثك الله قال لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت فقالت زوجته ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت الا وقد دخل والرجل معه يقولون هو والله عندك فقال دونكم الدار ففتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا هو ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف فقالت المرأة اجلس لا بأس عليك فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال لا تخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الامن والدعة ان شاء الله تعالى فقلت له جزاك الله خيرا فمازال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكانا في داره ولم يحوجني الى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها فقلت له أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني فلعلي أقف منهم على خبر فأخذ علي المواثيق بالرجوع اليه فخرجت وطلبت غلماني فلم ارلهم أثرا فرجعت اليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يسألني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني الا بالكنية فقال علام تعزم فقلت عزمت على التوجه إلى بغداد فقال القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد أعلمتك فقلت له إنك تفضلت على هذه المدة ولك علي عهد الله اني لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت قال فدعا غلاما له أسود وقال له أسرج الفرس الفلاني ثم جهز آلة السفر فقلت في نفسي أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب فلما كان يوم خروج القافلة جاء في السحر وقال لي يا فلان قم فان القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها فقلت في نفسي كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري به مركوبا ثم قمت فاذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة

السفر

(قال الشافعى رضى الله عنه) فقال لى يامن عاب صلاتى بم تدخل فى الصلاة ؟ فقلت بفرضين وسنة فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر فى العلم فقالا اذهب إليه فقل له ماالفرضان وما السنة فأتى إلىّ فقال ما الفرضان وما السنة ؟ فقلت له : أما الفرض الأول فالنية ، والثانى تكبيرة الإحرام ، والسنة رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا إلى المسجد فلما نظرا إلىّ أظنهما ازدريانى فجلسا ناحية وقالا اذهب إليه وقل له أجب الشيخين (قال الشافعى رحمه الله تعالى) فلما أتانى علمت أنى مسئول عن شىء من العلم ، فقلت : من حكم العلم أن يؤتى إليه وما علمت لى إليهما حاجة . قال الشافعى رضى الله عنه فقاما من مجلسهما إلىّ ، فلما سلما علىّ قمت إليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما ، فأقبل علىّ محمد بن الحسن وقال أحرمى أنت ؟ فقلت نعم ، فقال أعربى أم مولى ؟ فقلت عربى ، فقال : من أىّ العرب ؟ فقلت : من ولد المطلب . قال : من ولد من ؟ قلت من ولد شافع . قال رأيت مالكا ؟ قلت من عنده أتيت . قال لى نظرت فى الموطأ ؟ قلت أتيت على حفظه فعظم ذلك عليه ودعا بدواة و بياض وكتب مسئلة فى الطهارة ومسئلة فى الزكاة ومسئلة فى البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء ومن كل باب فى الفقه مسئلة وجعل بين كل مسألتين بياضا ودفع إلىّ الدرج وقال أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ (قال الشافعى رضى الله عنه) فأجبت بنصّ كتاب الله و بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام و إجماع المسلمين فى المسائل كلها ثم دفعت إليه الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبده : خذ سيدك إليك (قال الشافعى رضى الله تعالى عنه) ثم سألنى النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لى العبد : إن سيدى أمرنى أن لا انسير إلى المنزل إلا راكبا (قال) الشافعى رضى الله تعالى عنه فقلت له قدّم فقدّم إلىّ بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسى بأطماررثة فطاف بى أزقة الكوفة إلى منزل محمد ابن الحسن فرأيت أبوابا ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة فذكرت ضيق أهل الحجاز وما هم فيه فبكيت وقلت : أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد و يمصون النوى ثم أقبل علىّ محمد بن الحسن وأنا فى بكائى فقال لايروعك ياعبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبنى الله فيها بفرض و إنى أخرج زكاتها فى كلّ عام فأسرّ بها الصديق وأكبت العدوّ (قال الشافعى رضى الله تعالى عنه) فما بتّ حتى كسانى محمد بن الحسن خلعة بألف درهم ثم دخل خزانته فأخرج إلىّ الكتاب الأوسط تأليف الإمام أبى حنيفة فنظرت فى أوله وفى آخره ثم ابتدأت الكتاب فى ليلتى أتحفظه فما أصبحت إلا وقد حفظته ومحمد بن الحسن لايعلم بشىء من ذلك ، وكان المشهور بالكوفة بالفتوى والمجيب فى النوازل فأنا قاعد عن يمينه فى بعض الأيام إذ سئل عن مسئلة أجاب فيها وقال : هكذا قال أبو حنيفة فقلت : قد وهمت فى الجواب فى هذه المسئلة والجواب عن قول الرجل : كذا وكذا ، وهذه المسئلة تحتها المسئلة الفلانية وفوقها المسئلة الفلانية فى الكتاب الفلانى ، فأمر محمد بن الحسن بالكتاب فأحضر فتصفحه ونظر فيه فوجد القول كما قلت فرجع عن جوابه

السفر ثم جاءنى بسيف ومنطقة فشدّها فى وسطى ثم قدّم بغلا فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع إلىّ نسخة مافى الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم إلىّ الفرس الذى كان جهزه وقال اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك و يسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إلىّ من التقصير فى أمرى وركب معى يشيعنى وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره فلهذا أنا أسأل عنه فلما سمع الرجل الحديث قال لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل و إنما الضرّ الذى أنا فيه غير عليك حالى وما كنت تعرفه منى ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ثم قلت له فما الذى أصارك إلى ماأرى فقال هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك فنسبت إلىّ و بعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت ، و بعث بى إلى أمير المؤمنين وأمرى عنده عظيم وخطبى لديه جسيم وهو قاتلى لامحالة وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف إلى أهلى بخبرى وهو نازل عند فلان فان رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة وقمت لى بوفاء عهدك . قال العباس : قلت يصنع الله خيرا ثم أحضر حدادا فى الليل ففك قيوده وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم سير من أحضر إليه غلامه فلما رآه جعل يبكى و يوصيه فاستدعى العباس نائبه وقال : علىّ بالفرس الفلانى والفرس الفلانى

إلى ماقلت ولم يخرج إلىّ كتابا بعد هذا (قال الشافعى) واستأذنته فى الرحيل فقال : ماكنت لآذن لضيف بالرحيل حتى يذل لى فى مشاطرة نعمته ، فقلت : مالذا قصدت ولا لذا أردت ولا رغبتى إلا فى السفر . قال : فأمر غلامه أن يأتى بكلّ مافى خزانتــه من بيضاء وحمراء فدفع إلىّ ما كان فيها وهو ثلاثة آلاف درهم ، وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس و بلاد الأعاجم ، وألقى الرجال حتى صرت ابن إحدى وعشرين ســنة ، ثم دخلت العراق فى خلافة هرون الرشيد ، فعند دخول الباب تعلق بى غلام فلاطفنى وقال لى : مااسمك ؟ قلت : محمد . قال : ابن من ؟ قلت : ابن إدريس الشافعى ، فقال : مطلبى ؟ فقلت : أجل ، فــكتب ذلك فى لوح كان فى كمه وخلى سبيلى ، فأويت إلى بعض المساجد أفــكر فى عاقبة مافعل حتى إذا ذهب من الليل النصف كبس المسجد ، وأقبلوا يتأملون وجه كلّ رجل حتى أتوا إلىّ فقالوا للناس : لابأس عليكم هذا هو الحاجة والغاية المطلوبة ، ثم أقبلوا علىّ وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فقمت غير ممتنع ، فلما بصرت بأمير المؤمنين سلمت عليــه سلاما بينا فاستحسن الألفاظ وردّ علىّ الجواب ، ثم قال : تزعم أنك من بنى هاشم ؟ فقلت ياأمير المؤمنين : كلّ زعم فى كتاب الله باطل فقال : أبن لى عن نسبك فانتسبت حتى لحقت آدم عليه السلام فقال لى الرشيد ماتكون هذه الفصاحة ولا هــذه البلاغة إلا فى رجل من ولد المطلب هل لك أن أوليك قضاء المسلمين وأشاطرك ماأنا فيه وتنفذ فيــه حكمك وحكمى عــلى ماجاء به الرسول عليه الصــلاة والسلام واجتمعت عليه الأمة فقلت ياأمير المؤمنين لو سألتنى أن أفتح باب القضاء بالغــداة وأغلقه بالعشىّ بنعمتك هــذه مافعلت ذلك أبدا فبكى الرشيد وقال تقبــل من عرض الدنيا شيئا ؟ قلت يكون معجلا فأمر لى بألف دينار فما برحت من مقامى حتى قبضتها ثم سألنى بعض الغلمان والحشم أن أصلهم من صلتى فلما لم تسع المروءة أن كنت مسئولا غير المقاسمة فيما أنعم الله به علىّ خرج لى قسم كأقسامهم ، ثم عدت إلى المسجد الذى كنت فيــه فى ليلى ، فتقدّم يصــلى بنا غلام صــلاة الفجر فى جماعة فأجاد القراءة ولحقه سهو ولم يدر كيف الدخول ولا كيف الخروج ، فقلت له بعد السلام : أفسدت علينا وعلى نفسك أعد ، فأعاد مسرعا وأعدنا ، ثم قلت له : أحضر بياضا أحمل لك باب السهو فى الصــلاة والخروج منها فسارع إلى ذلك ، ففتح الله عزّ وجلّ علىّ فألفت له كتابا من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين وسميته باسمه وهو أربعون جزءا يعرف بكتاب [الزعفران] وهو الذى وضعته بالعراق حتى تكامل فى ثلاث سنين ، وولانى الرشيد الصدقات بنجران وقدم الحاج فخرجت أسألهم عن الحجاز فرأيت فتى فى قبته فلما أشرت إليه بالسلام أمر قائد القبة أن يقف ، وأشار إلىّ بالكلام فسألته عن الإمام مالك وعن الحجاز ؟ فأجاب بخير ، ثم عاودته إلى السؤال عن مالك ، فقال لى : أشرح لك أو أختصر ؟ قلت فى الاختصار البلاغة ، فقال فى صحة جسم وله للثالثة جارية يبيت عند الجارية ليلة فلا يعود إليها إلى سنة فقد اختصرت لك خبره (قال الشافعى رضى الله تعالى عنه) فاشتهيت أن أراه

والبغل الفلانى والبغلة الفلانية حتى عدّ عشرة ثم عشرة من الصناديق من الــكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا قالخذلك الرجل وأحضر لى بدرةعشرة آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه فى الشرطة : خذ هــذا الرجل وشيعه إلى حدّ الأنبار ، فقلت له : إنّ ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم وخطبى جسيم وإن أنت احتججت بأنى هربت بعث أمير المؤمــنين فى طلبى كلّ من على بابه فأردّ وأقتل ، فقال لى : انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى ، فقلت : والله ماأبرح من بغداد حتى أعلم مايكون من خبرك فإن احتجت إلى حضورى حضرت ، فقال لصاحب الشرطة إن كان الأمر على مايقول فليكن فى موضع كذا فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمتــه وإن أنا قتلت فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك الله أن لايذهب من ماله درهم وتجتهد فى إخراجه من بغداد . قال الرجل : فأخذنى صاحب الشرطة وصيرنى فى مكان أثق به وتفرّغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفنا . قال العباس : لم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسل المأمون فى طلبى ويقولون يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم قال فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا فقال أين الرجل ؟ فسكت فقال ويحك أين الرجل ؟ فقلت ياأمير المؤمنين اسمع منى ، فقال : لله علىّ عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربنّ عنقك ، فقلت : لا والله ياأمير المؤمنين ماهرب ولــكن اسمع حديثى وحديثــه ثم شأنك ماتريد أن تفعله فى أمرى . قال قل فقلت : ياأمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنى أريد أن أفى له وأكافئه على مافعله معى وقلت أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين : إما أن يصفح عنى فأكون قد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلنى فأقيه بنفسى وقد تحنطت وها كفنى ياأمير المؤمنين

فى حال غناه كما رأيته فى حال فقره قلت له أما عندك من المال مايصلح للسفر فقال إنك لتوحشنى خاصة وأهل العراق عامة وجميع مالى فيه لك فقلت له فبم تعيش قال بالجاه ثم نظر إلىّ وحكمنى فى ماله فأخذت منه على حسب الكفاية والنهاية وسرت على ديار ربيعة ومضر فأتيت حران ودخلتها يوم الجمعة فذكرت فضل الغسل وماجاء فيه فقصدت الحمام فلما سكبت الماء رأيت شعر رأسى شعثا فدعوت المزين فلما بدأ برأسى وأخذ القليل من شعرى دخل قوم من أعيان البلد فدعوه إلى خدمتهم فسارع إليهم وتركنى فلما قضوا ماأرادوا منه عاد إلىّ فما أردته وخرجت من الحمام فدفعت إليه أكثر ما كان معى من الدنانير وقلت له خذ هذه وإذا وقف بك غريب لاتحتقره فنظر إلىّ متعجبا فاجتمع على باب الحمام خلق كثير فلما خرجت عانبنى الناس فبينما أنا كذلك إذ خرج بعض من كان فى الحمام من الأعيان فقدمت له بغلة ليركبها فسمع خطابى لهم فانحدر عن البغلة بعد أن استوى عليها وقال لى أنت الشافعى فقلت نعم فمد الركاب مما يلينى وقال بحق الله اركب ومضى فى الغلام مطرقا بين يدى حتى أتيت إلى منزل الفتى ثم أتى وقد حصلت فى منزله فأظهر البشاشة ثم دعا بالغسل فغسل علينا ثم حضرت المائدة فسمى وحبست يدى فقال مالك ياعبد الله؟ فقلت له طعامك حرام علىّ حتى أعرف من أين هذه المعرفة فقال أنا ممن سمع منك الكتاب الذى وضعته ببغداد وأنت لى أستاذ (قال الشافعى رضى الله عنه) فقلت العلم بين أهل العقل رحم متصلة فأكلت بفرحة إذ لم يعرف الله تعالى إلا بينى وبين أبناء جنسى وأقمت ضيفه ثلاثا فلما كان بعد ثلاث قال إن لى حول حران أربع ضياع مابحران أحسن منها أشهد الله إن اخترت المقام فانها هدية منى إليك فقلت فبم تعيش قال بما فى صناديق تلك وأشار إليها وهى أربعون ألف درهم وقال اتجر بها فقلت ليس إلى هذا قصدت ولاخرجت من بلدى لغير طلب العلم فقال لى فالمال إذن من شأن المسافر فقبضت الأربعين ألفا وودعته وخرجت من مدينة حران وبين يدىّ أحمال ثم تلقانى الرجال وأصحاب الحديث منهم أحمد ابن حنبل وسفيان بن عيينة والأوزاعى فأجزت كل واحد منهم على قدر ماقسم له حتى دخلت مدينة الرملة وليس معى إلا عشرة دنانير فاشتريت بها راحلة واستويت على كورها وقصدت الحجاز فما زلت من منهل إلى منهل حتى وصلت إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم بعد سبعة وعشرين يوما بعد صلاة العصر فصليت العصر ورأيت كرسيا من الحديد عليه مخدة من قباطى مصر مكتوب عليها لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الشافعى رضى الله عنه) وحوله أربعمائة دفتر أو يزدن وبينما أنا كذلك إذ رأيت مالك بن أنس رضى الله عنه قد دخل من باب النبى صلى الله عليه وسلم وقد فاح عطره فى المسجد وحوله أربعمائة أو يزيدون يحمل ذيوله منهم أربعة فلما وصل قام إليه من كان قاعدا وجلس على الكرسى فألقى مسئلة فى جراح العمد فلما سمعت ذلك لم يسعنى الصبر فقمت قائما فى سور الحلقة فرأيت إنسانا فقلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر الجواب قبل فراغ مالك من السؤال فأضرب عنه مالك وأقبل على أصحابه فسألهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم

فلما سمع المأمون الحديث قال ويلك لاجزاك الله عن نفسك خيرا إنه فعل بك مافعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لاغير هلا عرفتنى خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر فى وفائك له فقلت ياأمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لايبرح حتى يعرف سلامتى فان احتجت إلى حضوره حضر فقال المأمون وهذه منة أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيب نفسه وسكن روعه وائتنى به حتى أتولى مكافأته قال العباس فأتيت إليه وقلت له ليزل خوفك إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال الحمد لله الذى لايحمد على السراء والضراء سواه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى ياعباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم.
ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه ما أورده محمد بن القاسم الأنبارى رحمه الله تعالى أن سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال: انصرفت يوما من دار الخليفة المهدى فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبله نفسى فأمرت به فرفع ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسى فدخل وقت القائلة فلم يأخذنى النوم فنهضت وأمرت ببغلة لى فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ومعه مال فقلت ماهذا فقال ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد قلت أمسكها معك واتبعنى فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر

وأصاب الرجل ففرح الجاهل بإصابته فلما ألقى السؤال الثانى أقبل علىّ الجاهل يطلب منى الجواب فقلت له الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فلم يلتفت إليه مالك فأقبل على أصحابه واستخبرهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل (قال الشافعى رضى الله عنه) فلما ألقى السؤال الثالث قلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فأعرض مالك عنه وأقبل على أصحابه فخالفوا فقال أخطأتم وأصاب الرجل ثم قال للرجل ادخل ليس ذلك موضعك فدخل الرجل طاعة منه لمالك وجلس بين يديه فقال له مالك فراسة قرأت الموطأ قال لا قال فنظرت ابن جريج قال لا قال فلقيت جعفر بن محمد الصادق قال لا قال فهذا العلم من أين قال إلى جانبى غلام شاب يقول لى قل الجواب كذا وكذا فكنت أقول قال فالتفت مالك والتفت الناس بأعناقهم لالتفات مالك رضى الله عنه فقال للجاهل قم فأمر صاحبك بالدخول إلينا (قال الشافعى رضى الله عنه) فدخلت فإذا أنا من مالك بالموضع الذى كان الجاهل فيه جالسا بين يديه فتأملنى ساعة وقال أنت الشافعى فقلت نعم فضمنى إلى صدره ونزل عن كرسيه وقال أتمم هذا الباب الذى نحن فيه حتى ننصرف إلى المنزل الذى هو لك المنسوب إلىّ (قال الشافعى رضى الله عنه) فألقيت أربعمائة مسئلة فى جراح العمد فما أجابنى أحد بجواب واحتجت أن آتى بأربعمائة جواب فقلت الأول كذا وكذا والثانى كذا وكذا حتى سقط القرص وصلينا المغرب فضرب مالك بيده إلىّ فلما وصلت المنزل رأيت بناء غير الأول فبكيت فقال مم بكاؤك كأنك خفت يا أبا عبد الله أن قد بعت الآخرة بالدنيا قلت هو والله ذلك قال طب نفسا وقرّ عينا هذه هدايا خراسان وهدايا مصر والهدايا تجىء من أقاصى الدنيا وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويرد الصدقة وإن لى ثلثمائة خلعة من رق خراسان وقباطى مصر وعندى عبيد بمثلها لم تستكمل الحلم فهم هدية منى إليك وفى صناديق تلك خمسة آلاف دينار أخرج زكاتها عند كل حول فلك منى نصفها قلت إنك موروث

ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء ثم رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقينيه قال نعم ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولنى فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب فصليت فيه فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يلتمس فقلت ماتريد ياهذا قال إياك أريد قلت فما حاجتك فجاء حتى جلس إلى جانبى وقال شممت منك رائحة طيبة فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشىء فقلت قل قال ألا ترى إلى باب هذا القصر قلت نعم قال هذا قصر كان لأبى فباعه وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كنا فيها وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلنى به وأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقا لأبى فقلت ومن أبوك قال فلان بن فلان فعرفته فإذا هو كان من أصدق الناس إلىّ فقلت له ياهذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار منعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له إذا كان الغد فسر إلى منزلى ثم مضيت وقلت ماأحدث أمير المؤمنين بشىء أظرف من هذا فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى فلما دخلت عليه حدثته بماجرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بألفى دينار فأحضرت فقال ادفعها إلى الأعمى فنهضت لأقوم فقال اجلس فجلست فقال أعليك دين قلت نعم قال كم دينك قلت خمسون ألفا فحادثنى ساعة وقال امض إلى منزلك فمضيت إلى منزلى فإذا بخادم معه خمسون ألفا وقال يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك قال فقبضت منه ذلك فلما كان من الغد أبطأ علىّ الأعمى وأتانى رسول المهدى يدعونى فجئته فقال قد فكرت البارحة فى أمرك فقلت يقضى دينه ثم يحتاج إلى القرض أيضا وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى قال فقبضتها وانصرفت فجاءنى الأعمى فدفعت إليه الألفى دينار وقلت له قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على إحسان أبيك وكافأنى على إسداء المعروف إليك ثم أعطيته شيئا آخر من مالى فأخذه وانصرف والله سبحانه وتعالى أعلم .

(ومما هو أوضح حسنا وأرجح معنى) ماحكاه القاضى يحيى بن أكثم رحمة الله تعالى عليه قال : دخلت يوما على الخليفة هرون الرشيد ولد المهدى وهو مطرق مفكر فقال لى أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشرّ أخبث ماأوعيت من زاد

فقلت ياأمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنا مع عبيد بن الأبرص فقال علىّ بعبيد فلما حضر بين يديه قال له أخبرنى عن قضية هذا البيت فقال ياأمير المؤمنين كنت فى بعض السنين حاجا فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ألحقت أولها بآخرها فسألت عن القصة فقال لى رجل من القوم

تقدم

تقدم تر مابالناس فتقدمت إلى أول القافلة فاذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء البعير فهالنى أمره وبقيت لا أهتدى إلى ما أصنع فى أمره فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى فعارضنا ثانيا فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقرب به فقلت أفدى هذا العالم بنفسى وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفى وتقدمت فلما رآنى قربت منه سكن وبقيت متوقعا منه وثبة يبتلعنى فيها فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة فى فيه وصببت الماء كما يصب فى الاناء فلما فرغت القربة تسيب فى الرمل ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ومضينا لحجنا ثم عدنا فى طريقنا ذلك وحططنا فى منزلنا ذلك فى ليلة مظلمة مدلهمة فأخذت شيئا من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتى ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتنى عينى فنمت مكانى فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسا وقد ارتحلوا وبقيت منفردا لم أر أحدا ولم أهتد إلى ما أفعله وأخذتنى حيرة وجعلت أضطرب وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول :

يا أيها الشخص المضل مركبه ... ما عنده من ذى رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه ... وبكرك الميمون حقا تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيهبه ... عند الصباح فى الفلا تسيبه

فنظرت فاذا أنا ببكر قائم عندى وبكرى إلى جانبى فأنخته وركبته وجنبت بكرى فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة وانفجر الفجر ووقف البكر فعلمت أنه قد حان نزولى فتحولت إلى بكرى وقلت :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ... ومن هموم تضل الدلج الهادى
ألا تخبرنى بالله خالقنا ... من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
وارجع حميدا فقد بلغتنا مننا ... بوركت من ذى سنام رائح غادى

فالتفت البكر إلى وهو يقول :

أنا الشجاع الذى ألفيتنى رمضا ... والله يكشف ضر الحائر الصادى
فجدت بالماء لما ضن حامله ... تكرما منك لم تمنن بانكاد
فالخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك منى لا أمن به ... فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادى

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه وقال لا يضيع المعروف أين وضع والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

تم الجزء الأول من كتاب المستطرف

ويليه :

الجزء الثانى وأوله الباب الثالث والأربعون

وأنا موروث فلا يبيت جميع ماوعدتنى به إلا تحت خاتمى ليجرى ملكى عليه فان حضرنى أجلى كان لورثتى دون ورثتك وإن حضرك أجلك كان لى دون ورثتك فتبسم فى وجهى وقال أبيت إلا العلم فقلت لايستعمل أحسن منه ومابت إلا وجميع ما وعدنى به تحت ختمى فلما كان فى غداة غد صليت الفجر فى جماعة وانصرفت إلى المنزل أنا وهو وكل واحد منا يده فى يد صاحبه إذ رأيت كراعا على بابه من جياد خراسان وبغالا من مصر فقلت له ما رأيت كراعا أحسن من هذا فقال هو هدية منى إليك يا أباعبد الله فقلت له دع لك منها دابة فقال إنى أستحى من الله أن أطأ قرية فيها نبى الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة قال الشافعى رضى الله عنه فعلمت أن ورع الامام مالك باق على حاله فأقمت عنده ثلاثا ثم ارتحلت إلى مكة وأنا أسوق خير الله ونعمه ثم أنفذت من يعلم بخبرى فلما وصلت إلى الحرم خرجت العجوز ونسوة معها فضمتنى إلى صدرها وضمتنى بعدها عجوز كنت آلفها دعوها خالتى وقالت :

ليس أمسك اجتاحت المنايا ... كل فؤاد عليك أم

فهرست

الجزء الأول من كتاب « المستطرف فى كل فنّ مستظرف » للأبشيهى

فهرست كتاب « ثمرات الأوراق » لابن حجة الحموى الذى بهامش الجزء الأول

المستطرف

في كل فن مستظرف

تأليف

شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي المحلي

٧٩٠ — ٨٥٠ هـ

وبالهامش

ثمرات الأوراق في المحاضرات

لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي القادري الحنفي

ويليه ذيلان :

١ — لابن حجة الحموي .

٢ — لمحمد بن ابراهيم الأحدب .

الجزء الثاني

الطبعة الأخيرة

١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ
« قرآن كريم »

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث والأربعون في الهجاء ومقدماته

القصد من الهجاء الوقوف على ملحه وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة لا التشفي بالأعراض والوقوع فيها وليس الهجاء دليلا على إساءة المهجو ولا صدق الشاعر فيما رماه به فما كل مذموم بذميم وقد يهجى الانسان بهتانا وظلما أو عبثا أو إرهابا . قال المتوكل لأبي العيناء كم تمدح الناس وتذمهم قال ما أحسنوا وأساءوا . وقد رضي الله تعالى على عبد من عبيده فمدحه فقال نعم العبد إنه أواب وغضب على آخر فقال مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم قيل الزنيم الملصق بالقوم وليس منهم وقال عبل في المأمون بعد البيعة له وقتل الأمين :

إني من القوم الذين هموهمو قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد
شادوا لذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال المأمون ما أبهته ليت شعري متى كنت خاملا وفي حجر الخلافة ربيت وبدرها غذيت . ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس فقيل له أتبكي على جعفر وأنت هجوته ؟ فقال كان ذلك لركوب الهوى وقد بلغه والله أني قلت :

ولست وإن أطنبت في وصف جعفر بأول إنسان خرى في ثيابه

فكتب يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه .
ومن العبث بالهجو ما روى أن الحطيئة هم بهجاء فلم يجد من يستحقه فقال :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما بسوء فلا أدري لمن أنا قائله
أرى لي وجها قبح الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

وعبث بأمه فقال :

تنحي فاجلسي عنا بعيدا أراح الله منك العالمينا أغربالا إذا استودعت سرا
وكانونا على المتحدثينا حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

وقال رجل ما أبالي أهجيت أم مدحت فقال له الأحنف أرحت نفسك من حيث تعب الكرام . وقال رجل لآخر إن هجوتني أموت أبنق قال لا قال أفتخرب ضيعتي قال لا قال فرجلي مع ساقي إلى حلقي في حر أمك قال ولم تركت رأسك قال لأنظر ما تصنع . وأنا أقول إنما يخشى من الهجو من يخاف على عرضه وأما من لا يخاف على عرضه فقد يستوى عنده المدح والذم وبئس الرجل ذاك . وكان الرجل من نمير إذا قيل له ممن الرجل يقول من نمير وأمال بها عنقه فلما هجاهم جرير بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

بقية ثمرات الأوراق

قال الشافعي رضي الله عنه : وهي أول كلمة سمعتها في الحجاز من امرأة فلما هممت بالدخول قالت لي العجوز إلى أين عزمت فقلت إلى المنزل فقالت هيهات تخرج من مكة بالأمس فقيرا وتعود إليها مترفا تفخر على بني عمك بذلك فقلت ما أصنع فقالت ناد بالأبطح في العرب باشباع الجائع وحمل المنقطع وكسوة العراة فتربح ثناء الدنيا وثواب الآخرة ففعلت ما أمرت به وصار بذلك الفعل الرجال على آباط الإبل وبلغ ذلك مالكا فبعث إلي يستحثني على الفعل ويعدني أنه يحمل إلي في كل عام مثل ما صار إلي منه وما دخلت إلى مكة وأنا أقدر على شيء مما جاء معي إلا على بغلة واحدة وخمسين دينارا فوقعت المقرعة فناولتني إياها أمة على كتفها قربة فأخرجت لها خمسة دنانير فقالت لي العجوز ما أنت صانع فقلت أجيزها على فعلها فقالت ادفع إليها جميع ما تأخر معك قال فدفعت إليها ودخلت إلى مكة فما بت تلك الليلة إلا مديونا وأقام مالك

صار إذا قيل لأحدهم ممن الرجل يقول من بنى عامر وما لقيت قبيلة من العرب بهجو ما لقيت نمير بهجو جرير وهجا ابن بسام رجلا فقال :

يا طلوع الرقيب من غير إلف   يا غريما أتى على ميعاد
يا ركودا فى وقت غيم وصيف   يا وجوه التجار يوم كساد

وقصد ابن عيينة قبيصة المهلبي واستماحه فلم يسمح له بشىء فانصرف مغضبا فوجه إليه داود ابن حاتم فترضاه وأحسن إليه فقال فى ذلك :

داود محمود وأنت مذمم   عجبا لذاك وأنتما من عود
ولرب عود قد يشق لمسجد   نصفا وباقيه لحش يهودى
فالحش أنت له وذاك لمسجد   كم بين موضع مسلح وسجود
هذا جزاؤك يا قبيص لأنه   جادت يداه وأنت قفل حديد

وله هجاء فى خالد :

أبوك لنا غيث يغيث بوبله   وأنت جراد لست تبقى ولا تذر
له أثر فى المكرمات يسرّنا   وأنت تعفى دائما ذلك الأثر

وقال المبرد فى حقه لم يجتمع لأحد من المحدثين فى بيت واحد هجاء رجل ومدح أبيه إلا له . ولما قعد حماد بن عجرد لتأديب ولد الأمين قال بشار بن برد :

قل للأمين جزاك الله صالحة   لا يجمع الله بين السخل والذيب
السخل يعلم أن الذئب آكله   والذئب يعلم ما بالسخل من طيب

وقال فيه أيضا :

يا أبا الفضل لا تنم   وقع الذئب فى الغنم
إن حماد عجرد   شيخ سوء قد اغتنم
بين فخذيه حربة   فى غلاف من الأدم
إن رأى ثم غفلة   يجمع الميم بالقلم

فشاعت الأبيات فأمر الأمين باخراج حماد . وقال رجل لأخيه لأبويه : لأهجونك هجاء يدخل معك فى قبرك قال كيف تهجونى وأبوك أبى وأمك أمى قال أقول :

بنى أمية هبوا طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا   خليفة الله بين الماء والعود

فدخل يعقوب على المهدى فأخبره أن بشارا هجاه فاغتاظ المهدى وانحدر إلى البصرة لينظر فى أمرها فسمع أذانا فى ضحى النهار فقال انظروا ما هذا وإذا به بشار وهو سكران فقال له يا زنديق عجب أن يكون هذا من غيرك ثم أمر به فضرب به سبعين سوطا حتى أتلفه بها وألقى فى سفينة فقال عين الشمقمق تراني حيث يقول :

إن بشار بن برد   تيس أعمى فى سفينه

فلما مات ألقيت جثته فى الماء فحمله الماء فأخرجه إلى الدجلة فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة وأخرجت جنازته فما تبعه أحد وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه . وخاصم أبو دلامة رجلا فارتفعا إلى عافية القاضى فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول :

لقد خاصمتنى دهاة الرجال   وخاصمتها سنة وافيه
فما أدحض الله لى حجة   ولا خيب الله لى قافيه
ومن خفت من جوره فى القضا   ء فلست أخافك يا عافيه

فقال عافية لأشكونك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنه أنك هجوتنى قال له أبو دلامة إذا والله يعزلك قال ولم قال لأنك لا تعرف الهجاء من المدح قال فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر له بجائزة .

رضى الله عنه يحمل إلىّ فى كلّ عام مثل ما كان دفع إلى أولا إحدى عشرة سنة فلما مات ضاق بى الحجاز وخرجت إلى مصر فعوضنى الله عبد الله بن عبد الحكم فقام بالكلفة فهذا جميع ما لقيته فى سفرى فافهم ذلك يا ربيع قال الربيع وسألنى المزنى إملاء ذلك بحضرته فما وجدنا للمجلس فرغة فما وقع كتاب السفر إلى أحد غيرى * ومن لطائف المنقول ما نقله القرطبى فى كتابه المسمى بالاعلام عن صدق محبة أبى طالب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج إلى الكعبة يوما وأراد أن يصلى فلما دخل فى الصلاة قال أبو جهل لعنه الله من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته فقام عبد الله بن الزبعرى فأخذ فرثا ودما فلطخ به وجه النبىّ صلى الله عليه وسلم فانفتل النبى صلى الله عليه وسلم من صلاته وأتى إلى أبى طالب عمه وقال يا عمّ ألا ترى ما فعل بى فقال له أبو طالب من فعل بك

هذا فقال النبي صلى الله عليه وسلم عبدالله بن الزبعرى فقام أبو طالب فوضع سيفه على عاتقه ومشى حتى أتى القوم فلما رأوه قد أقبل نهضوا له فقال أبو طالب والله إن قام رجل جللته بسيفي هذا ثم قال يابنى من الفاعل بك هذا فقال عبدالله ابن الزبعرى فأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول فنزلت هذه الآية الشريفة وهم ينهون عنه وينأون عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم ياعم نزلت فيك آية قال وماهى قال تمنع قريشا أن يؤذونى وتأبى أن تامن بى فقال أبو طالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد فى التراب دفينا
فامض لأمرك قد زعمتك ناصحى
فلقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أوحذار مسبة
لوجدتنى سمحا بذاك يقينا .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله هل تنفع نصرة أبى طالب قال نعم رفع عنه بذلك الفصل أنه لم يقرن مع الشياطين ولم يدخل جب الحيات والعقارب إنما عذابه فى نعلين من نار فى رجليه يغلى منهما دماغه وهو أهون أهل النار عذابا وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طالب قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة فقال أبو طالب لولا أن يعايرونى بها يعنى قريشا يقولون إنما حمله

ودخل أبو دلامة على المهدى وعنده إسمعيل بن على وعيسى بن موسى والعباس بن محمد وجماعة من بنى هاشم فقال له المهدى والله لئن لم تهج واحدا ممن فى هذا البيت لأقطعن لسانك فنظر إلى القوم وتحير فى أمره وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمزه بأن عليه رضاه قال أبو دلامة فازددت حيرة فما رأيت أسلم لى من أن أهجو نفسى فقلت :

الا أبلغ لديك أبا دلامه فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامة وجمعت لؤما كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
إذا لبس العمامة قلت قردا وخنزيرا إذا نزع العمامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه .

وقال ابن الأعرابى إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب فى محمد بن هاشم :

لم تند كفاك من بذل النوال كما لم يند سيفك مذ قلدته بدم

وهجا بعضهم القمر فقال : يهدم العمر ويوجب أجرة المنزل ويشحب الألوان ويقرض الكتان ويضل السارى ويعين السارق ويفضح العاشق .

ولابن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره :

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا قسرا إلى الأقدار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره نارا وكان خرابها بالنار

وكان للوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت فقال فيها ابن المنجم :

أقول وقد عاينت دار ابن صورة وللنار فيها وهجة تتضرم
فما هو إلا كافر طال عمره فجاءته لما استبطأته جهنم

وقد أحسن الأديب كمال الدين على بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى فى ذم دار كان يسكنها حيث قال :

دار سكنت بها أقل صفاتها أن تكثر الحشرات فى جنباتها الخير عنها نازح متباعد
والشر دان من جميع جهاتها من بعض ما فيها البعوض عدمته كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى غنت لها رقصت على نغماتها رقص بتنقيط ولكن قافه
قد قدمت فيه على أخواتها وبها ذباب كالضباب يسد عين الشمس ما طربى سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها فينا وأين الأسد من وثباتها وبها من الخطاف ما هو معجز
أبصارنا عن وصف كيفياتها وبها خفافيش تطير نهارها مع ليلها ليست على عاداتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت عنه العتاق الجرد فى حملاتها وبها خنافس كالطنافس أفرشت
فى أرضها وعلت على جنباتها لوشم أهل الحرب منتن فسوها أردى الكماة الصيد عن صهواتها
وبنات وردان وأشكال لها مما يفوت العين كنه ذواتها أبدا تمص دماءنا فكأنها
حجامة لبدت على كاساتها وبها من النمل السليمانى ما قد قل ذر الشمس عن ذراتها
ما راعنى شئ سوى وزغاتها فتعوذوا بالله من لدغاتها سجعت على أوكارها فظننتها
ورق الحمام سجعن فى شجراتها وبها زنابير تظن عقاربا حر السموم أخف من زفراتها
وبها عقارب كالأقارب رتع فينا حمانا الله لدغ حماتها كيف السبيل إلى النجاة ولا نجا
ة ولا حياة لمن رأى حياتها منسوجة بالعنكبوت سماؤه والأرض قد نسجت على آفاتها

ضجيجها

فضجيجها كالرعد فى جنباتها   وترابها كالرمل فى خشناتها   والبوم عاكفة على أرجائها
والدود يبحث فى ثرى عرصاتها   والجن تأتيها إذا جن الدجى   تحكى الخيول الجرد فى حملاتها
والنار جزء من تلهب حرها   وجهنم تعـــزى إلى لفحاتها   شاهدت مكتوبا على أرجائها
ورأيت مسطورا على جنباتها   لاتقـــربوا منها وخافوها ولا   تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
أبدا يقول الداخلـون ببابها   يارب نج الناس من آفاتها   قالوا إذا ندب الغراب منازلا
يتفرق السكان من ساحاتها   وبدارنا ألفا غراب ناعق   كذب الرواة فأين صدق رواتها
صبرا لعـل الله يعقب راحة   للنفس إذ غلبت على شهواتها   دار تبيت الجن تحرس نفسها
فيها وتنـدب باختلاف لغاتها   كم بت فيها مفردا والعين من   شوق الصباح تسح من عبراتها
وأقول يارب السموات العـلا   يارازقا للوحش فى فـلواتها   أسكنتنى بجهنم الدنيا فى
أخراى هب لى الخلد فى جناتها   واجمع بمن أهواه شملى عاجلا   ياجامع الأرواح بعـد شتاتها

ولبعضهم فى بلان :   أشكو إلى الله بلانا لميت به   مست أنامله ظهرى فأدمانى
فلا يدلك تدليكا بمعرفة   ولا يسرح تسريحا باحسان

وللشيخ شمس الدين البدوى فى بلان أيضا :

وبلان له ظهـــر يباهى   به حـــد الشفار المرهفات   هرى جسمى فألبسه نحيفا
على حـلل الستور السابلات   ورام بلـين أعضائى برفق   فأيبسها وكسر فوقحاتى
ولم أنظر له أبدا حميـــلا   وذلك من عظيم الهالكات   وأحمى مقلق بسنان إبـط
يفوح به على كل الجهات   فلا تجعل إلهى مثـل هذا   يغسلنى إذا حانت وفاتى

ولبعضهم فى حمام :   وحمام دخلنـــــاه لأمر   حكى سقرا وفيها المجرمونا
فيصطرخوا يقولون أخرجونا   فان عـــدنا فإنا ظالمونا

وللشريف أبى يعلى الهاشمى البغدادي فى نظام الملك يهدده بالهجاء يقول :

أيجمـــل يا نظام الملك أنى   أعاود من ذراك كما قدمت   وأصدر عن حياضك وهى نهب
بأفـــواه السقاة وما وردت   يدل على فعالك سوء حالى   ويخبر عن نوالك إن كتمت
إذا استخبرت ماذا نلت منه   وقد عم الورى كرما سكت

وممن عرّض بالهجو فى شعره الخوارزمى قال فى أبى جعفر :

أبا جعفـــر لست بالمنصف   ومثلك إن قال قـــولا يفى   فان أنت أنجزت لى ماوعدت
وإلا هجيت وأدخلت فى   وقد علـم الناس ما بعد فى   فقط الحديث ولا تـكشف

ومدح السراج الوراق إنسانا فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده يقول :

أعد مدحى علىّ وخذ سواه   فقد أتعبتنى يا مستريح
ولا تغضب إذا أنشدت يوما   سواه وقيل هذا صحيح

وله أيضا يقول :   أعد مدحا كذبت عليك فيه   وقد عوقبت بالحرمان عنه
ولكنى سأصدق فيك قولا   فلا يصعب عليك الحق منه

وقال بعضهم فى حجاج قدموا ولم يهدوا إليه شيئا :

مضوا ليحجوا والوجوه كأنها   تكاد لفرط البشر أن توضح السبلا

الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله تعالى إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وأما عبد الله بن الزبعرى فانه أسلم عام الفتح وحسن إسلامه واعتذر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقبل عذره وكان (٥) شاعرا مجيدا فقال يمدح النبى صلى الله عليه وسلم بأبيات منها فى حكاية حاله :

إنى لمعتذر إليك من الذى   أسديت إذ أنا فى الضلال مقيم
فاغفر فداؤك والدىّ كلاهما   وارحم فانك راحم مرحوم

(ومن غريب ما نقله القرطبي فى الأعلام) أن الأنصار الذين نصروا النبى صلى الله عليه وسلم كانوا من أولاد العلماء والحكماء الذين كانوا مع تبع الأول فيما ذكر ابن إسحق وكان تبع من الخمسة الذين كانت لهم الدنيا بأسرها وكان كثير الوزراء فاختار واحدا منهم وأخرجه معه لينظر فى مملكته فكان إذا أتى بلدا يختار من حكمائها عشرة رجال وكان معه من العلماء والحكماء مائة ألف رجل ثم الذين اختارهم من البلدان وهذا القدر غير محسوب من الجيش فلما انتهى إلى مكة لم تخضع له أهل مكة كخضوع أهل البلاد ولم تعظمه فغضب الملك ودعا وزيره وكان اسمه عماريا فقال له كيف شاهدت هذه البلدة فانهم لم يهابونى ولم يخشوا عسكرى فقال أنهم عرب لايعرفون شيئا ولهم بيت يقال له الكعبة وهم معجبون به ويسجدون فيه للأصنام قال فنزل الملك بعسكره ببطحاء مكة وعزم على هدم البيت وقتل الرجال وسبى النساء فأخذه الله بالصداع وتفجر من عينيه وأذنيه ومنخريه وفمه ماء منتن فلم يصبر

عنده أحد طرفة عين من نتن الريح فاستيقظ لذلك وقال لوزيره اجمع العلماء والحكماء والأطباء وتكلم معهم فى أمرى فاجتمع عنده العلماء والحكماء والأطباء (٦) فلم يقدروا على الجلوس عنده ساعة وعجزوا عن مداواته وقالوا نحن نقدر على مداواة مايعرض من أمور الأرض وهذا شىء من السماء لانستطيع له ردا ثم اشتد أمره ونفرت الناس عنه ولم يزل أمره فى شدة حتى أقبل الليل فجاء أحد العلماء إلى وزيره فقال له إن بينى وبينك سرا وهو إن كان الملك يصدقنى فى حديثه عالجته فاستبشر الوزير بذلك وقال له قل ماشئت فقال أريد الخلوة فأخلى له المكان فلما خلا مجلس الملك قال له العالم أيها الملك أنت نويت لهذا البيت سوءا قال نعم نويت خرابه وقتل رجاله وسبى نسائه فقال له العالم أيها الملك هذه النية هى التى أحدثت لك هذا الداء ورب هذا البيت قادر يعلم الأسرار فبادر وأخرج من قلبك ماهممت به من أمر هذا البيت وأهله ولك خير الدنيا والآخرة قال الملك قد أخرجت ذلك من قلبى ونويت لهذا البيت المبارك وأهله كل خير ، فلم يخرج العالم من عنده حتى برئ من علته وعافاه الله تعالى بقدرته فآمن بالله من ساعته وخلع على الكعبة سبعة أثواب وهو أول من كسا الكعبة وخرج الى يثرب وهى يومئذ بقعة فيها عين ماء ليس فيها بيت فنزل على رأس العين هو وعسكره وجميع العلماء الذين كانوا معه ومعهم رئيسهم

كيف

وعادوا كأن القار فوق وجوههم ... فلا مرحبا بالقادمين ولا سهلا
وعدوا وما جادوا بعود أراكة ... ولاوضعوا فى كف طفل لنا بقلا

وقال آخر :
إذا رمت هجوا فى فلان تصدنى ... خلائق قبح عنه لاتتزحزح
تجاوز قدر الهجو حتى كأنه ... بأقبح مايهجى به المرء يمدح

وهجا بعضهم امرأة فقال :
لها جسم برغوث وساق بعوضة ... ووجه كوجه القرد بل هو أقبح
تبرّق عينيها إذا مارأيتها ... وتعبس فى وجه الضجيع وتكلح
لها منظر كالنار تحسب أنها ... إذا ضحكت فى أوجه الناس تلفح
إذا عاين الشيطان صورة وجهها ... تعوّذ منها حين يمسى ويصبح

ولبعضهم فى عظيم أنف :
لك وجه وفيه قطعة أنف ... كجدار قد دعموه ببغله
وهو كالقبر فى المثال ولكن ... جعلوا نصفه على غير قبله

وفيه أيضا :
رأينا للزكى جدار أنف ... يضاهى فى تشامخه الجبالا
تصدّى للهلال لكى يراه ... فلولا عظمه لرأى الهلالا

ولبعضهم فى أبخر مخنث :
قالوا فلان به نتن فقلت لهم ... ياقوم قد حار فكرى فى مساويه
ياقوم لاتعجبوا من نتن نكهته ... فالأير يدفع مافيه إلى فيه

ولصفىّ الدين الحلى :
رأى فرسى إصطبل عيسى فقال لى ... قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
به لم أذق طعم الشعير كأننى ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تقعقع من برد الشتاء أضالعى ... لما نسجتها من جنوب وشمأل

وله أيضا :
ليهنك أن لى ولدا وعبدا ... سواء فى المقال وفى المقام
فهذا سابق من غير سين ... وهذا عاقل من غير لام

وله فى طبيب يدعى إسحق :
مباضع إسحق الطبيب كأنها ... لها بفناء العالمين كفيل
معوّدة أن لاتسلّ نصالها ... فتغمد حتى يستباح قتيل

وله فى أحمق طويل اللسان :
لو أن قوّة وجهه فى قلبه ... قنص الأسود وجندل الأبطالا
أوكان طول لسانه بيمينه ... أفنى الكنوز وأنفد الأموالا

وهجا أعرابىّ رجلا ثم مدحه فقال :
إنى مدحتك من فساد قريحتى ... وعلمت أن المدح فيك يضيع
لكن رأيت المسك عند فساده ... يدنى إلى بيت الخلا فيضوع

وقيل لبعضهم ماتقول فى فلان وفلان قال هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما ، وقيل لرجل :

كيف وجدت فلانا ؟ قال طويل اللسان فى اللؤم قصير الباع فى الكرم وثابا على الشرّ مناعا للخير ، وسمع أعرابىّ قوله تعالى : الأعراب أشدّ كفرا ونفاقا فانتفض ثم سمع قوله تعالى : ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر فقال الله أكبر هجانا ثم مدحنا وكذلك قال الشاعر :

هجوت زهيرا ثم إنى مدحته ومازالت الأشراف تهجى وتمدح

استبّ رجلان فقال أحدهما للآخر : لوقطع زبك وعلق لم تبق زانية بالكوفة إلا عرفته . وقال أبو زيد العبدى :

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت إن الكلاب طويلة الأعمار

وقال المتوكل لأبى العيناء : مابقى أحد فى المجلس إلا هجاك وذمك غيرى فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا علىّ لئامها

الباب الرابع والأربعون فى الصدق والكذب وفيه فصلان

الفصل الأول فى الصدق

قال الله تعالى مبشرا للصادقين : هـذا يوم ينفع الصادقين صـدقهم ، وقال تعالى : والصادقين والصادقات ، فمدحهم و بين لهم المغفرة والأجر العظيم ، وقال عمر رضى الله عنه : عليك بالصدق وإن قتلك ، وما أحسن ماقيل فى ذلك :

عليـك بالصـدق ولو أنه أحرقك الصـدق بنار الوعيد

وابغ رضا المولى فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسمعيل بن عبيدالله : لما حضرت أبى الوفاة جمع بنيه فقال لهم يابنىّ عليكم بتقوى الله وعليكم بالقرآن فتعاهدوه وعليكم بالصـدق حتى لوقتل أحدكم قتيلا ثم سئل عنه أقرّ به والله ما كذبت كذبة قط مذ قرأت القرآن . وعن عائشة رضى الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم بم يعرف المؤمن قال بوقاره ولين كلامه وصدق حديثه ، وقيل : لكل شىء حلية وحلية النطق الصدق . وقال محمود الورّاق :

الصدق منجاة لأربابه وقربة تدنى من الرب

وقيل : الصدق عمود الدين وركن الأدب وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به . وقال أرسطاطاليس : أحسن الكلام ماصدق فيه قائله وانتفع به سامعه وقال المهلب بن أبى صفرة : ماالسيف الصارم فى يد الشجاع بأعزّ له من الصـدق ، وكان يقال على الصدوق : فلان وقف لسانه على الصـدق ، ويقال : الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعى ، ويقال : لوصدق عبد فيما بينه و بين الله تعالى حقيقة الصـدق لاطلع على خزائن الغيب ولكان أمينا فى السموات والأرض ، وقيـل : من لزم الصـدق وعوّد لسانه به وفق ، ويقال : الصـدق بالحرّ أحرى . وقال عتبة بن أبى سفيان : إذا اجتمع فى قلبـك أمران لاتدرى أيهما أصوب فانظر أيهـما أقرب إلى هواك فخالفه فان الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى ، وقال أرسطاطاليس : الموت مع الصـدق خير من الحياة مع الكذب ، وكان نقش خاتم ذى يزن : وضع الخد للحق عز . وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان فأمر له بمائة ناقة فقبل يده وقال والله ماقبلت يد قرشى غيرك إلا واحدا فقال أهو المنصور قال لا والله قال فمن هو قال الوليد بن يزيد قال فغضب وقال والله ماقبلتها لله تعالى فقال والله ولايدك ماقبلتها لله تعالى ولكن

عمار يا الذى يرى الملك برأيه ثم إن العلماء والحكماء أخرجوا من بينهم أربعمائة وهم أعلمهم وبايع كل واحد منهم صاحبه أن لايخرجوا من ذلك المقام وإن قتلهم الملك ، فلما علم الملك بما عزموا عليه (٧) قال للوزير ماشأنهم يمتنعون عن الخروج معى وأنا محتاج إليهم وأىّ حكمة اقتضت نزولهم فى هـذا المكان واختيارهم إياه على سائر النواحى فسألهم الوزير عن ذلك فقالوا أيها الوزير إن ذلك البيت وهذه البقعة التى نحن فيها يشرّفان برجل يبعث فى آخر الزمان يقال له محمد ووصفوه له ثم قالوا طوبى لمن أدركه وآمن به ونحن على رجاء أن ندركه أو تدركه أولادنا فلما سمع الوزير مقالتهم همّ بالمقام معهـم فلما جاء وقت الرحيل أمرهم الملك أن يرتحلوا فقالوا لانفعل وقد أعلمنا الوزير بحكمة مقامنا ، فـدعا بالوزير فأخبره بما سمع منهم فتفكر الملك وهمّ أن يقيم معهـم رجاء أن يدرك محمدا صلى الله عليه وسلم فأقام وأمر النـاس أن يبنوا أربعمائة دار على عدة العلماء والحكماء واشترى لكل واحـد منهم جارية وأعتقها وزوّجها برجـل منهم وأعطى كل واحد منهم عطاء جزيلا وأمرهم أن يقيموا فى ذلك المكان إلى أن يجىء زمان النبىّ صلى الله عليه وسلم ثم كتب الكتاب وختمه بخاتم من ذهب ودفعه إلى عالمهم الكبير وأمره أن يدفع الكتاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم إن أدركه و إلا فيوصى به أولاده مثل ماأوصاه به وكذلك الأولاد حتى يتصل بالنبى

قبلتها لنفسى فقال والله لاضرك الصدق عندى أعطوه مائة أخرى . وقال عامر العدوانى فى وصيته إنى وجدت صدق الحديث طرفا من الغيب فاصدقوا يعنى من لزم الصدق وعوده لسانه وفق فلا يكاد ينطق بشئ يظنه إلا جاء على ظنه وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها نحن من قد عرفتم كنا عبدين فأعتقنا الله تعالى وكنا ضالين فهدانا الله تعالى وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى وأنا أخطب إليكم فلانة لأخى فان تنكحوها له فالحمدلله تعالى وإن تردونا فالله أكبر فأقبل بعضهم على بعض فقالوا بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهده ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجوا أخاه فزوجوه فلما انصرفوا قال له أخوه يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتترك ماعدا ذلك فقال مه يا أخى صدقت فأنكحك الصدق . وخطب الحجاج فأطال فقام رجل فقال الصلاة فان الوقت لاينتظرك والرب لايعذرك فأمر بحبسه فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلى سبيله فقال إن أقرّ بالجنون خليته فقيل له فقال معاذ الله لاأزعم أن الله ابتلانى وقد عافانى فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه .

[الفصل الثانى من هذا الباب فى الكذب وماجاء فيه]

قال الله تعالى فى الكاذبين – ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون – وقال تعالى – ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة – وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والكذب فان الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وتحرّوا الصدق فان الصدق يهدى إلى البرّ والبر يهدى إلى الجنة » وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به » ويقال راوى الكذب أحد الكذابين . ويقال رأس المآثم الكذب وعمود الكذب البهتان ، وقيل أمران لاينفكان من الكذب كثرة المواعيد وشدة الاعتذار . وقال الحسن فى قوله تعالى – ولكم الويل مما تصفون – وهى لكل واصف كذب إلى يوم القيامة . وقال الأصمعى قلت لكذاب أصدقت قط قال لولا أنى أخاف أن أصدق فى هذا لقلت لك لا فتعجب .

وقال محمود بن أبى الجنود :

لى حيلة فيمن ينمّ ... وليس فى الكذاب حيله
من كان يخلق مايقو ... ل فحيلتى فيه قليله

ويقال فلان أكذب من لمعان السراب ومن سحاب تموز . وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب وكان يقول إن منعت الكذب انشقت مرارتى وإنى والله لأجد به مع مايلحقنى من عاره من المسرة مالا أجده بالصدق مع ماينالنى من نفعه . وقال فيلسوف من عرف من نفسه الكذب لم يصدّق الصادق فيما يقوله :

ولبعضهم :

حسب الكذوب من البليـ ... ـه بعض ما يحكى عليه
فمتى سمعت بكذبة ... من غيره نسبت إليه

وأضاف صيرفى قوما فأقبل يحدثهم فقال بعضهم نحن كما قال تعالى – سماعون للكذب أكالون للسحت – وعن عبدالله بن السدى قال قلت لابن المبارك حدثنا حديثا قال ارجوا فلست أحدثكم فقيل له إنك لم تحلف فقال لوحلفت لكفرت وحدثتكم ولكن لست أكذب فكان هذا أحب إلينا من الحديث . وقال مجاهد يكتب على ابن آدم كل شئ حتى أنينه فى سقمه وحتى إن الصبى ليبكى

صلى الله عليه وسلم وكان فى ذلك الكتاب : أما بعد ، فانى آمنت بك وبكتابك الذى أنزل عليك وأنا على دينك وسنتك وآمنت بربك وبكل ماجاء من ربك من شرائع الايمان والاسلام فان أدركتك فيها ونعمت وإلا فاشفع لى ولا تنسنى يوم القيامة فانى من أمتك الأولين وقد بايعتك قبل مجيئك وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام ثم ختم الكتاب ونقش عليه – لله الأمر من قبل ومن بعد – وكتب عنوانه إلى محمد ابن عبد الله ونبىّ الله ورسوله وخاتم النبيين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم من تبع الأول الحميرى ودفع الكتاب إلى الرجل العالم الذى أبرأه من علته وسار تبع من يثرب حتى وصل إلى بلاد الهند فمات بها وكان من اليوم الذى مات فيه تبع إلى اليوم الذى بعث فيه النبى صلى الله عليه وسلم ألف سنة لاتزيد ولا تنقص وكانت الأنصار الذين نصروا النبى صلى الله عليه وسلم من أولاد أولئك العلماء والحكماء فلما هاجر النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سأله أهل القبائل أن ينزل عليهم فكانوا يتعلقون بناقته وهو يقول خلوا الناقة فانها مأمورة حتى جاءت إلى دار أبى أيوب وكان من أولاد العالم الذى أبرأ تبعا برأيه ثم استشار الأنصار عبد الرحمن بن عوف فى إيصال الكتاب إلى النبى صلى الله عليه وسلم لما ظهر خبره قبل هجرته فأشار عبد الرحمن أن يدفعوه إلى رجل ثقة فاختاروا رجلا يقال له أبو ليلى وكان

فتقول

فتقول له أمه اسكت وأشترى لك كذا ثم لاتفعل فتكتب كذبة . وقال الفضيل مامن مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقا ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوبا وعن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا « أعظم الخطايا اللسان الكذوب » .

قال الشاعر:

لا يكذب المرء إلا من مهانته … أوفعله السوء أومن قلة الأدب
لبعض جيفة كلب خير رائحة … من كذبة المرء فى جد وفى لعب

ولما نصب معاوية رضى الله تعالى عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده فى قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يسلمون على يزيد حتى جاء رجل ففعل ذلك ثم رجع إلى معاوية فقال ياأمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها والأحنف ساكت فقال معاوية مالك لاتقول ياأبابحر فقال أخاف الله تعالى إن كذبت وأخافكم إن صدقت فقال جزاك الله خيرا عما تقول ثم أمر له بألوف فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب فقال له ياأبابحر إنى لأعلم هذا من شرار خلق الله تعالى ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والاقفال فلسنا نطمع فى إخراجها إلا بما سمعت فقال له الأحنف ياهذا أمسك فان ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيها . وقيل إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين أو أصلح بين الزوجين ويذم الصدق إذا كان غيبة ، وقد رفع الحرج عن الكاذب فى الحرب وعن المصلح بين المرء وزوجه . وكان المهلب فى حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوى بذلك جأشهم فكانوا إذا رأوه مقبلا إليهم قالوا جاءنا يكذب . وقال يحيى بن خالد رأينا شارب خمر نزع ولصا أقلع وصاحب فواحش رجع ولم نر كذابا صار صادقا . وكان عمرو بن معديكرب مشهورا بالكذب . وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التعصب لليمن أكان ابن معديكرب يكذب فقال كان يكذب فى المقال ويصدق فى الفعال . قيل إن بلالا لم يكذب مذ أسلم رضى الله تعالى عنه والحمد لله وحده .

الباب الخامس والأربعون فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات وذكر الأنساب وفيه فصول

الفصل الأول فى بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى ـ واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ـ وقال تعالى ـ وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ـ وقال تعالى ـ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ـ وقال تعالى ـ فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ـ وعن على رضى الله تعالى عنه لو علم الله شيئا فى العقوق أدنى من أف لحرمه فليعمل العاق ماشاء أن يعمل فلن يدخل الجنة وليعمل البار ماشاء أن يعمل فلن يدخل النار . وقيل إن رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين . وحكى أبو سهل عن أبى صالح عن أبى نجيح عن ربيعة عن عبد الرحمن عن عطاء بن أبى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة وكتب له براءة من النار وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم وعقوق الوالدين فان ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام ولايجد ريحها عاق . وكان رجل من النساك يقبل كل يوم قدم أمه فأبطأ يوما على إخوته فسألوه فقال كنت أتمرغ فى رياض الجنة فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام

من الأنصار فدفعوا الكتاب إليه وأوصوه بحفظه فأخذ الكتاب وخرج من المدينة على طريق مكة فوجد النبى صلى الله عليه وسلم فى قبيلة بنى سليم فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه وقال أنت أبوليلى قال نعم قال ومعك كتاب تبع الأول قال نعم فبقى أبو ليلى متفكرا وقال فى نفسه إن هذا من العجائب ثم قال له أبوليلى من أنت فانى لست أعرفك وتوهم أنه ساحر وقال فى وجهك أثر السحر فقال له بل أنا محمد رسول الله هات الكتاب فأخرجه ودفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم ودفعه إلى على كرم الله وجهه فقرأه عليه فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم كلام تبع قال مرحبا بالأخ الصالح ثلاث مرات ثم أمر أبا ليلى بالرجوع إلى المدينة ليبشرهم بقدومه عليهم . (قال أبو عبد الله محمد القرطبى نور الله ضريحه) ماذكرت هذا الخبر وإن كان فيه طول إلا لما احتوى عليه من فضل مكة والمدينة والتصديق بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم قبل إيجاده بألف عام (ومن لطائف مانقلته من كتاب الاعلام للقرطبى) ماأورده من مسند أبى داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله عز وجل إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه إلى آخر الآية إن أول من جحد الدين آدم عليه السلام لأنه لما أراه الله تعالى ذريته رأى فيهم رجلا أزهى ساطع النور فقال يارب من هذا قال

ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة فكان آخر كلامه يارب أوصني قال أوصيك بأمك حسنا قال له سبع مرات قال حتى ثم قال ياموسى ألا إن رضاها رضاي وسخطها سخطي . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لابن مهران لاتأتين أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر ولاتخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن ولا تصحبن عاقا فانه لن يقبلك وقد عق والديه . وقال فيلسوف من عق والديه عقه ولده . وقال المأمون لم أر أحدا أبر من الفضل بن يحيى بأبيه بلغ من بره له أنه كان لايتوضأ إلا بماء سخن فمنعهم السجان من الوقود في ليلة باردة فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح فلم يزل قائما وهو في يده إلى الصباح حتى استيقظ يحيى من منامه . وقيل طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء فلما أتاه بالشربة نام أبوه فما زال الولد واقفا بالشربة في يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه . وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إن لي أما بلغ منها الكبر أنها لاتقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية فهل أديت حقها قال لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك وأنت تصنعه وتتمنى فراقها . وقال ابن المنكدر بت أكبس رجل أبي وبات آخر يصلي ولا يسرني ليلته بليلتي . وقيل إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذي لاينتصف منه وقيل لعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنه إنك من أبر الناس ولا تأكل مع أمك في صحفة فقال أخاف أن تسبق يدي يدها إلى ماتسبق عيناها إليه فأكون قد عققتها .

[الفصل الثاني في الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء والأذكياء والبلداء والأشقياء]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الولد ريحانة من الجنة . وقال الفضل ريح الولد من الجنة وكان يقال ابنك ريحانتك سبعا ثم حاجبك سبعا ثم عدو أو صديق . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال قلت لسيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله هل يولد لأهل الجنة قال والذي نفسي بيده إن الرجل يشتهي أن يكون له ولد فيكون حمله ووضعه وشبابه الذي ينتهي إليه في ساعة واحدة . وقيل من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كي لايفسق . وقال عمر رضي الله تعالى عنه إني لأكره نفسي على الجماع رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبحه وتذكره . وقال رضي الله تعالى عنه أكثروا من العيال فانكم لاتدرون بمن ترزقون . وقال شبيب بن شبة ذهب اللذات إلا من ثلاث ثم الصبيان وملاقاة الاخوان والخلو مع النسوان . ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال من هذه يا أمير المؤمنين قال هذه تفاحة القلب فقال انبذها عنك فانهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء ويورثن الضغائن قال لاتقل ياعمرو ذلك فوالله مامرض المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الاخوان إلا هن فقال عمرو يا أمير المؤمنين إنك حببتهن إلي . وقيل لرجل أي ولدك أحب إليك قال صغيرهم حتى يكبر ومريضهم حتى يبرأ وغائبهم حتى يحضر . وقال ابن عامر لامرأته أمامة بنت الحكم الخزاعية إن ولدت غلاما فلك حكمك فلما ولدت قالت حكمي أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان من فالوذج وأن تعق بألف شاة ففعل لها ذلك . وغضب معاوية على يزيد فهجره فقال الأحنف يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة وبهم نصول على كل جليلة فان غضبوا فأرضهم وإن سألوا فأعطهم وإن لم يسألوا فابتدئهم ولا تنظر إليهم شزرا فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك فقال معاوية ياغلام إذا رأيت يزيد

ابنك داود قال يارب فما عمره قال ستون سنة قال يارب زد في عمره قال لا إلا أن تزيده من عمرك قال وما عمري قال ألف سنة قال آدم فقد وهبته أربعين سنة قال فكتب الله عليه كتابا وأشهد عليه ملائكته فلما حضرته الوفاة قال بقي من عمري أربعون سنة فقيل له قد وهبتها لابنك داود قال ماوهبت لأحد شيئا فأخرج الله ذلك الكتاب وفيه شهادة الملائكة . وفي رواية إن الله جل جلاله أتم لداود مائة سنة ولآدم ألف سنة أخرجه الترمذي بمعناه وصححه وفيه فقال عليه الصلاة والسلام نسي آدم فنسيت ذريته وجحد آدم فجحدت ذريته والله أعلم . (ومن لطائف الغرائب المنقولة من كتاب الأعلام للقرطبي) أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه مدح النبي صلى الله عليه وسلم بأبيات على قافية بديعة أعجبت النبي صلى الله عليه وسلم، منها قوله :

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ... ض وضاء بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي النو ... ر وسبل الرشاد نخترق

فقال ياعم لكل شاعر جائزة وجائزتك أن الخلافة في عقبك إلى يوم القيامة (ومن غرائب التفسير مانقلته من الأعلام) أن في قوله تعالى — ووجدك ضالا فهدى — أقوالا ذكرت في أحكام مخارج القرآن أحسنها ماذكره بعض المتكلمين أن العرب كانت إذا وجدت شجرة منفردة في فلاة من الأرض لاشجر معها سموها ضالة فيهتدى بها على الطريق فقال الله تعالى

يزيد فاقرئه السلام واحمل إليه مائتى ألف درهم ومائتى ثوب فقال يزيد من عند أمير المؤمنين فقيل له الأحنف فقال يزيد بن معاوية على به فقال ياأبا بحر كيف كانت القصة فحكاها له فشكر صنيعه وشاطره الصلة . وحكى الكسائى أنه دخل على الرشيد يوما فأمر باحضار الأمين والمأمون ولديه قال فلم يلبث قليلا أن أقبلا ككوكبي أفق يزينهما هداهما ووقارهما وقد غضا أبصارهما حتى وقفا فى مجلسه فسلما عليه بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فاستدناهما وأسند محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ثم أمرنى أن ألقى عليهما أبوابا من النحو فما سألتهما شيئا إلا أحسنا الجواب عنه فسره ذلك سرورا عظيما وقال كيف تراهما فقلت :

أرى قمرى أفق وفرعين شامة يزينهما عرق كريم ومحتد سليلى أمير المؤمنين وحائزى مواريث ما أبقى النبي محمد يسدان أنفاق النفاق بشيمة يزينهما حزم وسيف مهند

ثم قلت مارأيت أعز الله أمير المؤمنين أحدا من أبناء الخلافة ومعدن الرسالة وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما ألسنا ولاأحسن ألفاظا ولا أشد اقتدارا على الكلام روية وحفظا منهما أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الاسلام تأييدا وعزا ويدخل بهما على أهل الشرك ذلا وقمعا وأمن الرشيد على دعائه ثم ضمهما إليه وجمع عليهما يديه فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج وقال كأنكم بهما وقد دهم القضاء ونزلت مقادير السماء وقد تشتت أمرهما وافترقت كلمتهما بسفك الدماء وتهتك الستور . وكان يقال بنو أمية دن خل أخرج الله منه زق عسل يعنى عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه . وسب أعرابى ولده وذكر له حقه فقال يا أبتاه إن عظيم حقك علىّ لايبطل صغير حقى عليك . قال سيدى عبد العزيز الديرينى رحمه الله تعالى :

وحب بنيق وودت أنى دفنت بنيق فى قاع لحد

ومابى أن تهون على لكن مخافة أن تذوق الذل بعدى فان زوجتها رجلا فقيرا أراها عنده والهم عندى وإن زوجتها رجلا غنيا فيلطم خدها ويسب جدى

سألت الله يأخذها قريبا ولو كانت أحب الناس عندى

وقال هرون بن على بن يحيي المنجم :

أرى ابنى تشابه من على ومن يحيي وذاك به خليق
وإن يشبههما خلقا وخلقا فقد تسرى إلى الشبه العروق

وقال أبو النصر مولى بنى سلم :

ونفرح بالمولود من آل برمك ولاسيما إن كان من ولد الفضل

وقال الحسن بن زيد العلوي :

قالوا عقيم ولم يولد له ولد والمرء يخلفه من بعده الولد
فقلت من علقت بالحرب همته عاف النساء ولم يكثر له عدد

وكان الزبير بن العوام رضى الله عنه يرقص ولده ويقول :

أزهر من آل بنى عتيق مبارك من ولد الصديق ألذه كما ألذ ريقى

وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول :

ياحبذا ريح الولد ريح الخزامى فى البلد أهكذا كل ولد أم لم يلد مثلى أحد

لنبيه صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالا فهدى أى وجدتك لا أحد على دينك فهديت بك الخلق إلىّ . قلت قد تقدم الكلام فى سعادة العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وما نال بالاسلام من العز وقول النبي صلى الله عليه وسلم إن الخلافة فى عقبك إلى يوم القيامة وتقدم ذكر شقوة عمه أبى طالب بالشرك مع حمايته ورعايته لجانب النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذى تقدم قوله مشيرا إلى قريش فى خطابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

قال السهيلى نور الله ضريحه فى الروض الأنف هذا من باب النظر فى حكمة الله . ونقل فى الروض الأنف أيضا عن هشام ابن السائب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع وجوه قريش وقال لهم إنكم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، فيكم المتقدم الشجاع والواسع الباع لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ولا شرفا إلا أدركتموه فلكم على الناس بذلك الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حربكم ألب وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية فان فيها مرضاة الرب وقواما للمعاش وثباتا للوطأة صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فان فى صلة الرحم منسأة فى الأجل وزيادة فى العدد واتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم وأجيبوا الداعى وأعطوا السائل فان فيهما شرف الحياة والممات وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فان فيهما محبة فى الخاص

ومكرمة فى العام وأنا أوصيكم بمحمد خيرا فانه الأمين فى قريش والصديق فى العرب وهوجامع لكل ما أوصيكم به وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن وايم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البرّ فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدّقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده قد محضته العرب ودادها وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها دونكم يامعشر قريش ابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لايسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكفيت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى ثم هلك .

(ومن شهى المجتنى من ثمرات الأوراق) ماروى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه مرّ على طائفة بالمدينة أيام خلافته فاذا بجارية تبكى وتقول :

وهويته من قبل قطع تمائمى
متناشيا مثل القضيب الناعم
فكأنّ نور البدر سحنة وجهه
يمشى ويصعد من ذؤابة هاشم
والذى

فقرع الباب فخرجت إليه فقال لها أحرّة أنت أم أمة فقالت بل أمة ياصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من هويت

وكان أعرابى يرقص ولده ويقول :

أحبه حب الشحيح ماله   قد ذاق طعم الفقر ثم ناله   إذا أراد بذله بدا له

وكان لأعرابىّ امرأتان فولدت إحداهما جارية والأخرى غلاما فرقصته أمه يوما وقالت معايرة لضرّتها :

الحمد لله الحميد العالى   أنقذنى العام من الجوالى
من كل شوهاء كشنّ بالى   لاتدفع الضيم عن العيال

فسمعتها ضرّتها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول :

وماعلىّ أن تكون جاريه   تغسل رأسى وتكون الفاليه   وترفع الساقط من خماريه
حتى إذا ما بلغت ثمانيه   أزرتها بنقبة يمانيه   أنكحتها مروان أومعاويه
* أصهار صدق ومهور غاليه *

قال فسمعها مروان فتزوّجها على مائة ألف مثقال وقال إن أمها حقيقة أن لايكذب ظنها ولايخان عهدها فقال معاوية لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ولكن لاتحرم الصلة فبعث إليها بمائتى ألف درهم والله أعلم .

ومما جاء فى الأولاد البلداء القليلى التوفيق . قيل : نظر أعرابىّ إلى ولد له قبيح المنظر فقال له يابنىّ إنك لست من زينة الحياة الدنيا ، وقال رجل لولده وهو فى المكتب : فى أىّ سورة أنت ؟ قال لاأقسم بهذا البلد ووالدى بلا ولد فقال لعمرى من كنت أنت ولده فهو بلا ولد ، وأرسل رجل ولده يشترى له رشاء للبئر طوله عشرون ذراعا فوصل إلى نصف الطريق ثم رجع فقال ياأبت عشرون فى عرض كم قال فى عرض مصيبتى فيك يابنى ، وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة فبينما هو يمشى مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب ياعبد الله فلم يجبه ذلك الشاب فقال ألا تسمع فقال ياعم كلنا عبيد الله فأىّ عبد الله تعنى فالتفت أبوحمزة إليه وقال ياحمزة ألاتنظر إلى بلاغة هذا الشاب فلما كان من الغد إذا برجل ينادى شابا ياحمزة فقال حمزة بن الأعرابى كلنا حاميز الله فأىّ حمزة تعنى فقال له أبوه ليس يعنيك يامن أخمد الله به ذكر أبيه ، وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم فأرسله فى حاجته فأبطأ عليه ثم عاد ولم يقضها فنظر إليه ثم قال :

عقله عقل طائر   وهو فى خلقة الجمل

فأجابه :

مشبه بك ياأبى   ليس لى عنك منتقل

ونهى أعرابىّ ابنه عن شرب النبيذ فلم ينته وقال :

أمن شربة من ماء كرم شربتها   غضبت علىّ الآن طابت لى الخمر
سأشرب فاسخط لارضيت كلاهما   حبيب إلى قلبى عقوقك والسكر

وقيل قال ذلك يزيد بن معاوية لأبيه حين نهاه عن شرب الخمر .

ومما جاء فى صلة الرحم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلة الرحم منهاة للولد مثراة للمال » وقيل وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت مكتوب عليه بالعبرانية أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسما من أسمائى فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته أى قطعته ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعجل الخير ثوابا صلة الرحم » وحدثنا أبوسهل عن صالح ابن جرير بن عبدالحميد عن منصور عن عطاء بن أبى مروان عن أبيه عن كعب الأحبار أنه قال :

والذى فلق البحر لموسى بن عمران إن فى التوراة لمكتوبا يا ابن آدم اتق ربك وبرّ والديك وصل رحمك أزد فى عمرك وأيسر لك فى يسرك وأصرف عنك عسرك ، وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « صنائع المعروف تقى مصارع السوء وصدقة السرّ تطفئ غضب الرب جلّ وعلا وصلة الرحم تزيد فى العمر » وذكر تمام الحديث .

[الفصل الثالث من هذا الباب فى ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة]

قال عمر رضى الله عنه : تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم فتصلوا بها أرحامكم ، وقيل : لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء وتنازع الأكفاء لكان تعلمها من أحزم الرأى وأفضل الثواب ألا ترى إلى قول قوم شعيب عليه السلام حيث قالوا ـ ولولا رهطك لرجمناك ـ فأبقوا عليه لرهطه ، وقال عمر رضى الله عنه تعلموا العربية فإنها تزيد فى المروءة وتعلموا النسب فرب رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها . وسئل عيسى عليه السلام : أىّ الناس أشرف فقبض قبضتين من تراب وقال أى هاتين أشرف ثم جمعهما وطرحهما وقال الناس كلهم من تراب إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم .

كان أبو كبشة جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أمه فلما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم دين قريش قالوا نزعه عرق أبى كبشة حيث خالفهم فى عبادة الشعرى ، وقال خالد ابن عبد الله القشيرى : سألت واصل بن عطاء عن نسبه فقال نسبى الاسلام الذى من ضيعه فقد ضيع نسبه ومن حفظه فقد حفظ نسبه فقال خالد وجه عبد وكلام حرّ ، ومن كلام على كرم الله وجهه أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذى به تطير فإنك بهم تصول وبهم تطول وهم العدّة عند الشدة أكرم كريمهم وعد سقيمهم وأشركهم فى أمورك ويسر عن معسرهم ، وكان يقال إذا كان لك قريب فلم تمش إليه برجلك ولم تعطه من مالك فقد قطعته ويقال : حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر وحنو الأكبر على الأصغر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده» قال بعضهم :

وإذا رزقت من النوافل ثروة ... فامنح عشيرتك الأدنى فضلها
واعلم بأنك لم تسود فيهم ... حتى ترى دمث الخلائق سهلها

الباب السادس والأربعون فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبيح والطول والقصر والألوان والثياب وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأوّل فى الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتهى الحسن والجمال . كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ربعة من القوم لابائنا من طول ولا تقتحمه عين من قصر أبيض اللون مشربا بحمرة أدعج العينين مفلج الثنايا دقيق المسربة أزهر الجبين واضح الخد أقنى الأنف كأن عنقه إبريق فضة ظاهر الوضاءة يتلألأ وجهه تلألأ القمر شثن الكفين مسيح القدمين واسع الصدر من لبته إلى سرته شعر يجرى كالقضيب ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره أشعر الذراعين والمنكبين لم يبلغ شيبه فى رأسه ولحيته عشرين شعرة ضخم الكراديس أنور المتجرد إذا مشى كأنما ينحط من صبب وإذا التفت التفت جميعا بين كتفيه خاتم النبوّة كأنه زرّ حجلة أو بيض حمامة لونه كلون جسده أبلج الوجه حسن الخلق وسيما قسيما فى جبينه زجج وفى عينه دعج وفى عنقه سطع وفى لحيته

فبكت وقالت بحق صاحب هذا القبر إلا انصرفت عنى فقال لست بمنصرف من مكانى حتى تعلميني وتقولى فقالت : وإن الذى حمل الفراق بقلبها فبكت بحب محمد بن القاسم فسار أبو بكر رضى الله عنه إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه وبعث بها إلى محمد ابن القاسم بن جعفر بن أبى طالب عنى عنه .

(ومن مناقب الإمام عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى فتح بيت القدس) أن المسلمين تكامل لهم فتوح الشام فأقاموا على دمشق شهرا فجمع أبو عبيدة أمراء المسلمين واستشارهم فى المسير إلى قيسارية أو إلى بيت المقدس فقال له معاذ ابن جبل أيها الأمير اكتب إلى أمير المؤمنين عمر فحيث أمرك امتثله قال له أصبت الرأى يا معاذ ثم كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه بذلك وأرسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعى فسار حتى وصل إلى المدينة فسلم الكتاب إلى عمر رضى الله عنه فقرأه على المسلمين واستشارهم فقال علىّ رضى الله تعالى عنه يا أمير المؤمنين مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس فإذا فتح الله بيت المقدس صرف وجهه إلى قيسارية فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر صدق المصطفى صلى الله عليه وسلم وصدقت أنت يا أبا الحسن ثم دعا بدواة وبياض وكتب بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبى عبيدة أما بعد فإنى

أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى وأسلم على نبيه ، وقد وصلنى كتابك تستشيرنى إلى أىّ ناحية تتوجه ، وقد أشار ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسير إلى بيت المقدس فإنّ الله يفتحها على يديك والسلام ، فلما وصل

الكتاب إلى أبى عبيدة قرأه على المسلمين ففرحوا بالمسير إلى بيت المقدس وتقدّمه الجيش إلى بيت المقدس وأقام المسلمون فى القتال عشرة أيام وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح لعدم الخوف فلما كان يوم الحادى عشر أشرفت عليهم راية أبى عبيدة وخالد عن يمينه وعبد الرحمن ابن أبى بكر الصدّيق عن يساره فضج الناس ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير فوقع الرعب فى أهل بيت المقدس فاجتمعوا بقمامة وهى البيعة المعظمة عندهم فلما وقفوا بين يدى البطرك قال لهم ماهذه الضجة التى أسمع ؟ قالوا : ياأبانا قد قدم أمير المؤمنين ببقية المسلمين فلما سمع البطرك منهم ذلك انخطف لونه وتغير وجهه وقال : إنا وجدنا فى علمنا الذى ورثناه أن الذى يفتح الأرض هو الرجل الأحمر صاحب نبيهم محمد فإن كان قدم عليكم فلا سبيل إلى قتاله ولا بدّ أن أشرف عليه وأنظر إلى صفته فإن كان هو أجبته إلى مايريد وإن كان غيره فلا بأس عليكم ، ثم وثب قائما وقال والقس والرهبان والشمامسة من حوله ، وقد رفعوا الصلبان على رأسه ، فصعدوا إلى السور إلى أن ورد أبو عبيدة

كثافة إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، وأجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأكملهم من قريب كأنما منطقه خرزات نظم يتحدّرن . قال أنس رضى الله عنه : مارأيت من ذى لمة سوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدحه صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت رضى الله عنه فقال :

وأحسن منك لم ترقطّ عينى ... وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرّأ من كلّ عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

اللهمّ صلّ وسلم عليه واجعله شفيعا لمن يصلى عليه . وقال صلى الله عليه وسلم « ماحسن الله خلق عبد وخلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار » وقد كان المتوكل رحمه الله من أحسن الخلفاء العباسيين وجها وأبهاهم منظرا ، وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجها

حكى أنه كان جالسا بفناء داره يوما بالبصرة إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه ، فقال لها : ماوقوفك يرحمك الله ؟ فقالت : طفئ مصباحنا فجئنا نقتبس من وجهك مصباحا ، وقيل لأعرابية ظريفة : مابال شفتيك مشققة ؟ فقالت : إنّ التين إذا حلا تشقق والورد يتشقق إذا مسه الندى . وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم من أجمل الناس وجها وكانت عند الوليد ابن عتبة بن أبى سفيان فكانت تقول : مانظرت وجهى فى مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهى إلا الوليد ، فكنت إذا نظرت إلى وجهى مع وجهه رحمت وجهى من حسن وجهه . قال الشاعر :

ولو أنها فى عهد يوسف قطعت ... قلوب رجال لاأكفّ نساء

وقال كثير : لو أن عزة حاكمت شمس الضحى ... فى الحسن عند موفق لقضى لها

ومما جاء فى محاسن الخلق منظوما على الترتيب من الفرق إلى القدم ماقيل فى الشعر ، كان يقال : من تزوّج امرأة أو اتخذ جارية فليتحسن من شعرها فإن الشعر الحسن أحد الوجهين . قال بكر بن النطاح

بيضاء تسحب من قيام شعرها ... وتغيب فيه وهو وجه أسحم
فكأنها فيه نهار ساطع ... وكأنه ليل عليها مظلم

والمتنبى : نشرت ثلاث ذوائب من شعرها ... فى ليلة فأرت ليالى أربعا
واستقبلت قمر الزمان بوجهها ... فأرتنى القمرين فى وقت معا

وله أيضا : لبسن الوشى لا متجملات ... ولكن كى يصنّ به الجمالا
وضفرن الغدائر لا لحسن ... ولكن خفن فى الشعر الضلالا

وقال الصفدى : لولا شفاعة شعره فى صبه ... ما كان زار ولا أزال سقاما
لكن تنازل فى الشفاعة عنده ... فغدا على أقدامه يترامى

وقال ابن الصائغ : ثنى غصنا ومدّ عليه فرعا ... لحظى حين أطلب منه وصلا
وبليه على الأرداف منه ... فلم أر مثل ذاك الفرع أصلا

وقال آخر : أرخى ثلاثا يوم حمامه ... ذوائبا تعبق منها الغوالى
فقلت والقصد ذؤابته ... واسهرى فى ذى الليالى الطوال

رضي الله عنه ، فناداهم رجل من الروم بإذن البطرك : يامعاشر المسلمين كفوا عن القتال حتى نسألكم فأمسك المسلمون عنهم فناداهم الرجل بلسان عربي : اعلموا أن الرجل الذي يفتح بلادنا هذه وجميع الأرض صفته عندنا فإن كانت في أميركم لم نقاتلكم بل نسلم إليكم وإن لم تكن هذه صفته فلا نسلم إليكم أبدا فأعلم المسلمون أبا عبيدة بذلك فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذاهم فنظر البطرك وحقق صورته فقال ليس هو الرجل فأبشروا وقاتلوا عن دينكم وحريمكم وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في فصل الشتاء والبرد فأقاموا عليها أربعة أشهر في أشد قتال مع الصبر على المطر والثلج فلما نظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار في ذلك الفصل الصعب وما نزل بهم من المسلمين وقفوا بين يدي البطرك وقالوا له : قد عظم الأمر ونريد منك أن تشرف على القوم وتسأل ما الذي يريدون فإن كان أمرا صعبا فتحنا الأبواب وخرجنا إليهم فإما نقتل عن آخرنا أو نهزمهم عنا فأجابهم البطرك إلى ذلك وصعد السور واجتمع القسيسون والرهبان حوله ونادى منهم رجل بالعربي وقال يامعشر الفرسان محمدة دين النصرانية قد أقبل يخاطبكم فليدن منا أميركم فقام أبو عبيدة يمشي ومعه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان فلما وقف بإزائهم قال ما الذي تريدون هذا أمير العرب فقال البطرك إنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة لم تصلوا إلى فتح بلدتنا

وقال آخر :
بدت ثريا قرطها وشعرها ... متصل بكعبها كما ترى
ياعجبا لشعرها لما ابتدى ... من الثريا فانتهى إلى الثرى

وقال ابن المعتز :
توارت عن الواشي بليل ذوائب ... لها من محيا واضح تحته فجر
يغطي عليها شعرها بظلامه ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ومما قيل في الأصداغ . قال ابن المعتز :
ريم يتيه بحسن صورته ... عبث النعاس بلحظ مقلته
وكأن عقرب صدغه وقفت ... لما دنت من ورد وجنته

وقال العادلي :
وعهدي بالعقارب حين تشتو ... يخفف لدغها ويقل ضرا
فما بال الشتاء أتى وهذي ... عقارب صدغها تزداد شرا

وقال آخر :
وما ضره نار بخديه ألهبت ... ولكن بها قلب المحب يعذب
عناقيد صدغيه بخديه تلتوي ... وأمواج ردفيه بخصريه تلعب
شربت الهوى صرفا زلالا وإنما ... لواحظه تسقي وقلبي يشرب

وقال آخر :
حل القباولوى صدغيه فانعقدا ... واحيرتي بين محلول ومعقود
وأسكرتني ثناياه وريقته ... هل هذه الخمر من تلك العناقيد

ومما قيل في مدح العذار . قال أبو فراس بن حمدان :
يامن يلوم على هواه جهالة ... انظر إلى تلك السوالف تعذر
حسنت وطاب نسيمها فكأنها ... مسك تساقط فوق خد أحمر

وقال محمد بن وهب :
صدودك والهوى هتكا استتاري ... وساعدني البكاء على اشتهاري
وكم أبصرت من حسن ولكن ... عليك لشقوتي وقع اختياري
ولم أخلع عذارا فيك إلا ... لما عاينت من خلع العذار

وقال آخر :
ومعذر رقت حواشي خده ... فقلوبنا وجدا عليه رقاق
لم يكس عارضه السواد وإنما ... نفضت عليه سوادها الأحداق

وقال آخر :
ومهفهف راقت نضارة وجهه ... والعين تنظر منه أحسن منظر
أصلى بنار الخد عنبر خاله ... فبدا العذار دخان ذاك العنبر

وقال آخر :
أصبحت سلطان القلوب ملاحة ... وجمال وجهك للبرية عسكر
طلعت طلائع وجنتيك منيرة ... بالنصر يقدمها اللواء الأخضر

وقال آخر :
ياذا الذي خط العذار بخده ... خطين هاجا لوعة وبلابلا
ماصح عندي أن لحظك صارم ... حتى حملت بعارضيك حمائلا

وقال آخر :
من لا أرى كعبة الحسن التي حرست ... بالنمل حيث مقام النحل في فمه
فلينظر النمل أضحى فوق عارضه ... يطوف سبعا وسبعا حول مبسمه

وقال بدر الدين الدماميني :
تحدث ليل عارضه بأني ... سأسلوه وينصرم المزار

و إنما يفتحه رجل موصوف وليست الصفة معكم قال أبو عبيدة وماصفة من يفتح بلدكم قال البطرك لانخبركم بصفته ولكن قرأنا أن هذا البلد يفتحه صاحب محمد اسمه عمر بن الخطاب و يعرف بالفاروق وهو رجل شديد لاتأخذه فى الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم ، فلما سمع أبو عبيدة كلام البطرك تبسم وقال فتحنا البلد ورب الكعبة ثم أقبل على البطرك وقال إن رأيت الرجل تعرفه قال نعم وكيف لاأعرفه وصفته عندنا قال أبو عبيدة هو والله خليفتنا وصاحب نبينا صلى الله عليه وسلم قال البطرك فاذا كان الأمر على ماذكرتم فاحقن الدماء وابعث إلى صاحبك يأتى فاذا رأيناه وتبينا نعته فتحنا له البلد وأعطيناه الجزية فانصرف أبو عبيدة وأمر الناس بالكف عن القتال وأعلمهم بالخبر فكبروا وكتب أبو عبيدة إلى الإمام عمر رضى الله عنه يعلمه بالخبر على يد ميسرة ابن مسروق ، فلما وصل الكتاب إلى عمر رضى الله عنه فرح وقرأه على المسلمين وقال ما ترون رحمكم الله فيما كتب إلينا أمين الامة فكان أول من تكلم عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فقال يا أمير المؤمنين إن الله قد أذل الروم فان أنت أقمت ولم تسر إليهم علموا أنك بأمرهم مستخف فلا يلبثون إلا يسيرا ، فلما سمع عمر ذلك من عثمان جزاه خيرا وقال هل عند أحد منكم رأى غير هذا ؟ فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه

فأشرق صبح غرته ينادى ... حديث الليل يمحوه النهار

وقال آخر :

وقالوا تسلى فقد شانه ... عذار أراحك من صده

فقلت وهمتم ولكننى ... خلعت العذار على خده

وقال سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء :

على وجنتيه جنة ذات بهجة ... ترى لعيون الناس فيها تزاحما

حمى ورد خديه حماة عذاره ... فياحسن ريحان العذار حماحمى

وقال ابن نباتة :

و بمهجتى رشأ يميس قوامه ... فكأنه نشوان من شفتيه

شغف العذار بخده ورآه قد ... نعست لواحظه فدب عليه

وقال الموصلى : لحديث نبت العارضين حلاوة ... وطلاوة هامت بها العشاق

فاذا نهانى المرء قلت ترفقوا ... فاليكم هـذا الحديث يساق

وقال آخر : أصبحت مكسورا بسهم لحاظه ... ومقيدا من صدغه بلسانه

حتى بدا سيف العذار مجردا ... فخشيت يقتلنى وذا من شأنه

وقال آخر : ياصاح قد حضر المدام ومنيتى ... وحظيت بعد الهجر بالإيناس

وكسا العذار الخد حسنا فاسقنى ... واجعل حديثك كله فى الكاس

ابن نباتة : وضعت سلاح الصبر عنه لما له ... يغازل بالألحاظ من لايغازله

وسال عذار فوق خديه سائل ... على خده فليتق الله سائله

ومما قيل فى ذم العذار . قال الشاعر :

غدا لما التحى ليلا بهيما ... وكان كأنه قمر منير

وقد كتب السواد بعارضيه ... لمن يقرا وجاءكم النذير

آخر فى ذمه : قلت لأصحابى وقد مر بى ... منتقبا بعد الضيا بالظلم

بالله ياأهل ودى قفوا ... ثم انظروا كيف زوال النعم

وقال آخر : مازال ينتف ريحانا بعارضه ... حتى استطال عليه صار يحلقه

كأنما طورسينا فوق عارضه ... طول الزمان فموسى لايفارقه

وقال آخر : مازال يحلف لى بكل ألية ... أن لايزال مدى الزمان مصاحبى

لما جنى نزل العذار بخده ... فتعجبوا لسواد وجه الكاذب

ابن المعتز : يارب إن لم يكن فى وصله طمع ... ولم يكن فرج من طول جفوته

فاشف السقام الذى فى لحظ مقلته ... واستر ملاحة خديه بلحيته

ومما قيل فى الجبين والحواجب (خالد الكاتب) :

لها من ظباء الرمل عين مريضة ... ومن ناضر الريحان خضرة حاجب

ومن يانع الأغصان قد وقامة ... ومن حالك الحبر اسوداد الذوائب

وقال آخر :

غزانى الهوى فى جيشه وجنوده ... وهب على الجيش من كل جانب

بميسرة

ثم عندى غير هذا الرأى وأنا أبديه إليك رحمك الله فقال له عمر وما هو يا أبا الحسن قال إن القوم قد سألوك وفى سؤالهم ذل وهو على المسلمين فتح وقد أصابهم جهد عظيم البرد : والقتال وطول المقام وإن سرت إليهم فتح الله على يديك هذه المدينة وكان لك فى مسيرك الأجر العظيم ولست آمن منهم أنهم إذا أيسوا منك أن يأتيهم المدد من طاغيتهم فيحصل للمسلمين بذلك الضرر والصواب أن تسير إليهم ففرح عمر بمشورة على وقال لقد أحسن عثمان النظر فى المكيدة للعدو وعلى أحسن النظر للمسلمين جزاهما الله خيرا ولست آخذ إلا بمشورة على فما عرفناه إلا محمود المشورة ميمون الطلعة ثم إن عمر أمر الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه واستخلف على المدينة على بن أبى طالب وخرج من المدينة وهو على بعير له أحمر عليه غرارتان فى إحداهما سويق وفى الأخرى تمر وبين يديه قربة وخلفه جفنة للزاد وسار إلى أن أقبل على بيت المقدس فالتقاه أبو عبيدة فلما رآه أناخ قلوصه وأناخ عمر بعيره وترجلا ومد أبو عبيدة يده وصافح عمر وتعانقا وسلم كل منهما على صاحبه وأقبل المسلمون يسلمون على عمر ثم ركبوا جميعا إلى أن نزلوا فصلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم فلما فرغ من خطبته جلس وأبو عبيدة يحدثه بما لقى من الروم إلى أن حضرت صلاة الظهر أذن بلال فى ذلك اليوم فلما قال الله أكبر خشعت

بميسرة أجنادها أعين المها ... وميمنة تقضى بزج الحواجب

وقال آخر : أياقمرا تبسم عن إقاح ... ويا غصنا يميل مع الرياح
جبينك والمقبل والثنايا ... صباح فى صباح فى صباح

ومما قيل فى العيون . قال الأصمعى ماوصف أحد العيون بمثل ماوصف أحمد بن الرقاع فى قوله :

وكأنها دون النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس تلاعبت ... فى جفنه سنة وليس بنائم

وقال ابن المعتز: عليم بما تحت العيون من الهوى ... سريع بكسر اللحظ والقلب جازع
فيجرح أحشائى بعين مريضة ... كما لان متن السيف والحد قاطع

وقال الأخطل: ولا تلمم بدار بنى كليب ... ولا تقرب لها أبدا رحالا
ترى فيها بوارق مرهفات ... يكدن يكدن بالحرق الرجالا

وقال أبو فراس وأحسن :

وبيض بألحاظ العيون كأنما ... هززن سيوفا واستللن خناجرا
تصدين لى يوما بمنعرج اللوى ... فغادرن قلبى بالتصبر غادرا
سفرن بدورا وانتقبن أهلة ... ومسن غصونا والتفتن جآذرا

وقال آخر: ومريض جفن ليس يصرف طرفه ... نحو امرئ إلا رماه بحتفه
قد قلت إذا أبصرته متمايلا ... والردف يجذب خصره من خلفه
يا من يسلم خصره من ردفه ... سلم فؤاد محبه من طرفه

وقال أبو هفان: أخو دنف رمته فأقصدته ... سهام من جفونك لاتطيش
فواتك لايقال سوى احورار ... بهن ولا سوى الأهداب ريش
أصبن فؤاد مهجته فأضحى ... سقيما لا يموت ولا يعيش
كئيبا إن ترحل عنه جيش ... من البلوى أناخ به جيوش

وقال آخر: وجاءوا إليه بالتعاويذ والرقى ... فصبوا عليه الماء من شدة النكس
وقالوا به من أعين الجن نظرة ... ولو أنصفوا قالوا به أعين الانس

وقال عز الدين الموصلى: لها عين لها غزو وغزل ... مكحلة ولى عين تباكت
وحاكت فى فعائلها المواضى ... فيالك مقلة غزلت وحاكت

وقال برهان الدين القيراطى :

شبه السيف والسنان بعينى ... من لقتلى بين الأنام استحلا
فأبى السيف والسنان وقالا ... حدنا دون ذاك حاشى وكلا

وله أيضا : بأبى أهيف المعاطف لدن ... حسد الأسمر المثقف قده
ذو جفون مذ رمت منها كلاما ... كلمتنى سيوفهن بحده

قال بدر الدين بن حبيب :

عيناه قد شهدت بأنى مخطئ ... وأتت بخط عذاره تذكارا
ياحاكم الحب اتئد فى قتلتى ... فالخط زور والشهود سكارى

جوارحهم واقشعرت أبدانهم فلما قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله بكى الناس بكاء شديدا عند ذكر الله وذكر رسوله وكاد بلال أن يقطع الأذان فلما فرغ الأذان صلى عمر وجلس ثم أمرهم بالركوب فلما همّ بالركوب على بعيره وعليه مرقعة الصوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من أدم قال المسلمون يا أمير المؤمنين لو ركبت غير بعيرك جوادا ولبست ثيابا لكان ذلك أعظم لهيبتك فى قلوب أعدائك وأقبلوا يسألونه ويتلطفون به إلى أن أجابهم إلى ذلك ونزع مرقعته ولبس ثيابا بيضا قال الزبير أحسبها كانت من ثياب مصر تساوى خمسة عشر درهما وطرح على كتفيه منديلا من الكتان دفعه إليه أبو عبيدة وقدم له برذونا أشهب من براذين الروم فلما صار عمر فوقه جعل البرذون يهملج به فلما نظر عمر إلى ذلك نزل مسرعا وقال أقيلونى عثرتى أقالكم الله عثراتكم يوم القيامة لقد كاد أميركم يهلك مما دخله من الكبر ثم إنه نزع البياض وعاد إلى لبس مرقعته وركوب بعيره فعلت ضجة المسلمين بالتهليل والتكبير فقال البطرك للروم انظروا ما شأن العرب فأشرف رجل من المتنصرة فقال يامعاشر العرب ما قضيتكم فقالوا إن عمر بن الخطاب قد قدم علينا من مدينة نبينا صلى الله عليه وسلم فرجع المتنصر وأعلم البطرك فأطرق ولم يتكلم فلما كان من الغد صلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم قال لأبى عبيدة تقدم إلى القوم وأعلمهم أنى قد أتيت وقال

وقال جلال الدين بن خطيب داريا :

شهدت جفون معذبى بملالة   منى وأنّ وداده تكليف
لكننى لم أنا عنه لأنه   خبر رواه الجفن وهو ضعيف

وقال الشيخ عز الدين الموصلى :

يامقلة الحبّ مهلا   فقد أخذت بثارك
وأنت يا وجنتيه   لا تحرقينى بنارك

وقال ابن الصائغ : لمثلى من لواحظها سهام   لها فى القلب فتك أى فتك
إذا رامت تشك به فؤادا   يموت المستهام بغير شك

وقال الصلاح الصفدى :

يا عاذلى على عين محجبة   خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفى
وخذ فؤادى ودعه نصب مقلتها   لا ترم نفسك بين السهم والهدف

وقال آخر : بسهم أجفانه رمانى   فذبت من هجره وبينه
إن مت مالى سواه خصم   لأنه قاتلى بعينه

وقال آخر : سهام الجفن كم قتلت لنفس   مبرأة من السلوى زكيه
فما أقوى جفونك وهى مرضى   وأقدرها على قتل البريه

ومما قيل فى الخال للصلاح الصفدى :

بروحى خده المحمر أضحى   عليه شامة شرط المحبه
كأن الحسن يعشقه قديما   فنقطه بدينار وحبه

ولابن الصائغ : بروحى أفدى خاله فوق خده   ومن أنا فى الدنيا فأفديه بالمال
تبارك من أخلى من الشعر خده   وأسكن كل الحسن فى ذلك الخال

وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

لله خال على خد الحبيب له   فى العاشقين كما شاء الهوى عبث
أورثته حبة القلب القتيل به   وكان عهدى بأن الخال لا يرث

وقال آخر : يا سالبا قمر السماء جماله   ألبستنى فى الحزن ثوب سمائه
أحرقت قلبى فارتمى بشرارة   علقت بخدك فانطفت فى مائه

وللشيخ تقىّ الدين بن حجة :

قلت للخال إذ بدا   فى نقا جيده السعيد
فزت ياعبد قال لى   أنا عبد لكل جيد

وقال ابن أيبك : فى الجانب الأيمن من خدودها   نقطة مسك أشتهى شمها
حسبته لما بدا خالها   وجدته من حسنها عمها

وقال الحسين بن الضحاك :

ياصائد الطير كم ذا   باللحظ تغنى وتسبى
نصبت نقطة خال   فصدت طائر قلبى

ومما قيل فى الخدود . قال ابن المعتز :

صل بخدى خديك تلق عجيبا   من معان يحار فيها الضمير
فبخديك للربيع رياض   وبخدى للدموع غدير

أبوعبيدة وصاح بهم وقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أتى فما تصنعون فيما قلتم ،فأعلم البطرك بذلك فخرج من قمامة وعليه المسوح ومن حوله الرهبان والقسس ثم علا السور وأشرف على أبي عبيدة وقال ماهذا أيها الشيخ قال أبو عبيدة هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال البطرك قل له يدنو منى فانا نعرفه بصفاته ونعته وأفردوه من بينكم حتى نراه فرجع أبوعبيدة إلى عمر فأخبره بما قال البطرك فهمّ عمر بالقيام فقال له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نخشى عليك من الانفراد بلا عدة فقال عمر : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ثم لبس مرقعته وركب بعيره وأبو عبيدة سائر بين يديه إلى أن أتى بإزاء البطرك قريبا من الحصن فقال أبوعبيدة هذا أمير المؤمنين ، فمد البطرك عنقه ونظر إليه فزعق زعقة وقال هذا والله الذى صفته ونعته فى كتبنا، ثم قال يا أهل بيت المقدس انزلوا إليه وخذوا منه الأمان والذمة فهذا والله صاحب محمد بن عبد الله فنزلوا مسرعين وكانت أنفسهم قد ضاقت من شدة الحصار وفتحوا الباب وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد ، فلما رآهم عمر رضى الله عنه فى تلك الحالة تواضع لله سبحانه وتعالى وخرّ ساجدا على قتب بعيره ثم أقبل عليهم وقال ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد فرجع القوم إلى البلد ولم يغلقوا الباب ورجع عمر ، فلما كان من الغد وهو يوم الاثنين دخل إليها وأقام بها إلى يوم

وقال آخر : ورد الخدود ونرجس اللحظات ... وتصافح الشفتين فى الخلوات
شىء أمرّ به وأعلم أنه ... وحياته أحلى من اللذات

ومما قيل فى الثغور . قال يوسف بن مسعود الصوّاف :

بروحى من ولى قولى بمهجتى ... وولى منامى وهوكالوصل شارد
حمى ثغره منى بسيف لحاظه ... وحتام يحمى ثغره وهو بارد

وقال آخر : أنفقت كنز مدامعى فى ثغره ... وجمعت فيه كل معنى شارد
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة ... فمضى وراح تغزلى فى البارد

وقال آخر :

رأى ثغر من أهوى عذولى فقال لى ... ولم يدر أن اللوم فى خده يغرى
شغلت بهذا وارتبطت بحسنه ... وأحسن ما كان الرباط على ثغر

وقال ابن ريان :

لاحت على مبسمه المشتهى ... ثلاث شامات غدت فى التثام
لاتعجبوا إن كثرت حوله ... فالمنهل العذب كثير الزحام

ومما قيل فى طيب الريق والنكهة . قال ذوالرمة :

أسيلة مجرى الدمع هيفاء طفلة ... عروب كإيماض الغمام ابتسامها
كأنّ على فيها وما ذقت طعمه ... زجاجة خمر طاب فيها مدامها

قال شهاب الدين الكردى :

ذكرت ريح حبيبى بشرب راح تعطر ... وليس ذا بعجيب فالشىء بالشىء يذكر

غيره :

رشفت ريقك حلوا ولم يكن لى صبر ... وسوف أحظى بوصل فأوّل الغيث قطر

الصلاح الصفدى :

نقل الأراك بأن ريقة ثغره ... من قهوة مزجت بماء الكوثر
قد صحّ مانقل الأراك لأنه ... يرويه نصا عن صحاح الجوهرى

وقال آخر : ثلاث تجمعن فى ثغرها ... ملاح أدلتها واضحه
فان قيل ماهى قل لى أقل ... هى الطعم واللون والرائحه

وقال آخر : يارب ممتنع الوصال محجب ... بستوره كالبدر بين غيومه
دارت مراشفه علىّ وكأسه ... فسكرت فى الحالين من خرطومه

وقال آخر: أريقا من رضابك أم رحيقا ... رشفت فكدت منه لن أفيقا
وللصهباء أسماء ولكن ... جهلت بأن فى الأسماء ريقا

ومما قيل فى حسن الحديث . قال البحترى :

ولما التقينا والنقا موعد لنا ... تعجب رائى الدر حسنا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ... ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقال سلم الخاسر :

الجمعة وخط بها محرابا وهو موضع مسجد وتقدم وصلى بالمسلمين صلاة الجمعة وأقام فى بيت المقدس عشرة أيام وبها أسلم كعب الأحبار على يده وارتحل معه إلى المدينة (٢٠) لزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك بعد أن كتب الإمام عمر لأهل بيت المقدس وأقرهم فى بلدهم على عهدهم وأداء الجزية (ومن شهى المجتنى من ثمرات الأوراق) ما نقله أبو الحسن على بن عبد المحسن التنوخى فى المستجاد أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لما بات على فراش النبى صلى الله عليه وسلم ليفديه بنفسه أوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام إنى آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختار كل منهما الحياة فأوحى الله إليهما أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب آخيت بينه وبين نبيى محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره الحياة اهبطا إلى الأرض واحفظاه من عدوه جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبريل ينادى بخ بخ من مثلك يا ابن أبى طالب يباهى الله به الملائكة فأنزل الله تعالى : ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد

ظللنا فبتنا عند أم محمد ... بيوم ولم نشرب شرابا ولا خمرا
إذا صمتت عنا ضجرنا لصمتها ... وإن نطقت هاجت لألبابنا سكرا

وقال ابن الرومى: يمسى ويصبح معرضا فكأنه ... ملك عزيز قاهر سلطانه
ليت إساءته بناقصة له ... درٌ يساقطه إلىّ لسانه

وما أحسن هذه الأبيات وهى من طارف الشعر ووافره وناقده وجيد الكلام وبارع الوصف :

وكل حديث الناس إلا حديثها ... رجيع وفيما حدثتك الطرائف
جرحن بأعناق الظباء وأعين الـ ... جآذر وارتجت بهنّ الروادف
رجحن بأرداف ثقال وأسوق ... جزال وأعضاء عليها المطارف

ومما قيل فى رقة البشرة . قال ابن المعتز :

نضت عنها القميص لصب ماء ... فورد خدها فرط الحياء ... وقابلت الهواء وقد تعرت
بمعتدل أرقّ من الهواء ... ومدّت راحة كالماء منها ... إلى ماء عتيد فى إناء
فلما أن قضت وطرا وهمت ... على عجل إلى أخذ الرداء ... رأت شخص الرقيب على تدان
فأسبلت الظلام على الضياء ... فغاب الصبح منها تحت ليل ... وظلّ الماء يقطر فوق ماء

وقال آخر :

تغير عن مودته وحالا ... وكان مواصلا فطوى الوصالا ... وعلمه التدلل كيف هجرى
فليت الوصل كان له دلالا ... ترى من فوق حقويه قضيبا ... إذا ما حركته خطاه مالا
إذا كلمته أثرت فيه ... وإن حركته فالخصر سالا

وقال بشار: وما ظفرت عينى غداة لقيتها ... بشىء سوى أطرافها والمحاجر
كحوراء من حور الجنان غريرة ... يرى وجهه فى وجهها كل ناظر

ومنه أخذ أبو نواس قوله :

نظرت إلى وجهه نظرة ... فأبصرت وجهى فى وجهه

وقال آخر : توهمه قلبى فأصبح خده ... وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
ومرّ بفكرى جسمه فجرحته ... ولم أر جسما قط تجرحه الفكر

وقال آخر : سقى الله روضا قد تبدّى لناظر ... به شادن كالغصن يلهو ويمرح
وقد نضحت خدّاه من ماء ورده ... وكل إناء بالذى فيه ينضح

وقال آخر : وأهيف قده كسى احمرارا ... وحاز الحسن فهو بلا شبيه
فلو أخجلته بالقول جهدى ... لحمرة خده ما بان فيه

ومما قيل فى التقبيل لمظفر الأعمى :

قبلته فتلظى جمر وجنته ... وفاح من عارضيه العنبر العبق
وجال بينهما ماء ولا عجب ... لا ينطفى ذا ولا ذا منه يحترق

وقال آخر: سألته فى ثغره قبلة ... فقال ثغرى لم يجز لثمه
فمها كها فى الخدّ واقنع بها ... ما قارب الشىء له حكمه

وقال صاحب حماة :

قال أبو الحسن المدائنى : خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال حجاجا ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز فى خباء لها فقال أحدهم هل من شراب قالت نعم فأناخوا إليها وليس لها

إلا شويهة ، فقالت : احلبوها فاشربوا لبنها ففعلوا ، فقالوا : هل من طعام ؟ قالت : لا إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيء لكم ما تأكلون ، فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها ، ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا ، فلما ارتحلوا قالوا : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فإنا صانعون إليك خيرا فارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب وقال : ويحك تذبحين شاتي لقوم لا أعرفهم ثم تقولين نفر من قريش ثم بعد مدة ألجأتهم الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا يلتقطان البعر ويعيشان بثمنه فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن ابن علي على باب داره فعرف العجوز وهي منكرة فبعث إليها غلامه فدعا بها فقال لها يا أمة الله أتعرفينني ؟ قالت : لا ، قال : أنا ضيفك بالأمس يوم كذا وكذا قالت : بأبي أنت وأمي ثم اشترى لها من شاة الصدقة ألف شاة وأمر لها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى الحسين رضي الله عنهما فأمر لها بمثل ذلك وبعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ، فقال لها : بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت : بألفي شاة وألفي دينار ، فقال لها : لو بدأت بي لأتعبتهما في العطاء أعطوها عطيتهما ، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف دينار وأربعة آلاف شاة . (ومما يضارع هذه اللطائف) أنه جرى بين الحسين بن علي

قال الذي تيمني قولوا لمن خبلته
يروم مني قبلة لو مات ماقبلته

الشيخ عز الدين الموصلي :

كالزرد المنظوم أصداغه وخده كالورد لما ورد
بالغت في اللثم وقبلته في الخد تقبيلا يفك الزرد

وقال آخر :

رأيت الهلال على وجهه فلم أدر أيهما أنور
سوى أن ذاك بعيد المزار وهذا قريب لمن ينظر
وذاك يغيب وذا حاضر وما من يغيب كمن يحضر
ونفع الهلال قليل لنا ونفع الحبيب لنا أكثر

وقال ابن صابر :

قبلت وجنته فألفت جيده خجلا وماس بعطفه المياس
فانهل من خديه فوق عذاره عرق يحاكي الطل فوق الآس
فكأنني استقطرت ورد خدوده بتصاعد الزفرات من أنفاسي

وقال آخر :

قبلت رجل حبيبي فازور واحمر خدا
وقال تلثم رجلي لقد تنازلت جدا
فقلت ماجئت بدعا ولا تجاوزت حدا
رجل سعت بك نحوي حقوقها لا تؤدى

ومما قيل في الوجه الحسن . ابن نباتة :

إنسية في مثال الجن تحسبها شمسا بدت بين تشريق وتغميم
شفت لها الشمس ثوبا من محاسنها فالوجه للشمس والعينان للريم

عبد الله بن أبي خبيص :

تصد من غير علة بالعز أضحت مذله
كأنها حين تدنو شمس عليها مظله
وإن أضاءت بليل تفوق نور الأهله

وقال آخر : أقسم بالله وآياته مانظرت عيني إلى مثله
ولا بدا وجهه طالعا إلا سألت الله من فضله

وقال آخر :

أقيمي مكان البدر إن أفل البدر وقومي مقام الشمس قد أمها الفجر
ففيك من الشمس المنيرة نورها وليس لها منك التبسم والثغر

عمر بن أبي ربيعة :

ذات حسن إن تغب شمس الضحى فلنا من وجهها عنها خلف
أجمع الناس على تفضيلها وهواهم في سوى هذا اختلف

أخذ أبو تمام هذا المعنى فرده إلى المدح فقال :

لو أن إجماعنا في فضل سودده في الدين لم يختلف في الأمة اثنان

وقال آخر : يامفردا في الحسن والشكل من دل عينيك على قتلي
البدر من شمس الضحى نوره والشمس من نورك تستملي

ابن أبى طالب و بين أخيه محمد بن الحنفية رضى الله عنهما كلام فانصرفا متغاضبين فلما وصل محمد إلى منزله أخذ رقعة وكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن علىّ بن أبى طالب إلى أخيه الحسين بن على بن أبى طالب . أما بعد فان لك شرفا لا أبلغه وفضلا لا أدركه فاذا قرأت رقعتى هذه فالبس رداءك ونعليك وسر إلىّ فترضنى وإياك أن أكون سابقك إلى الفضل الذى أنت أولى به منى والسلام ، فلما قرأ الحسين رضى الله عنه الرقعة لبس رداءه ونعليه ثم جاء إلى أخيه محمد فترضاه . (قال أبو الفرج الأصفهانى) حدثنى أحمد ابن محمد الجعدى ومحمد ابن يحيى قالا حدثنا محمد ابن زكريا العلائى قال حدثنا ابن عائشة قال حج هشام بن عبد الملك فى خلافة أخيه الوليد ومعه رؤساء أهل الشام فطاف وجهد أن يستلم الحجر فلم يقدر من الازدحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس فأقبل علىّ بن الحسين رضى الله عنهما وهو أحسن الناس وجها وأنظفهم ثوبا وأطيبهم رائحة ، فلما طاف بالبيت وبلغ الحجر تنحى الناس كلهم إجلالا له فاستلم الحجر وحده فغاظ ذلك هشاما وبلغ منه فقال رجل من أهل الشام لهشام من هذا أصلح الله الأمير قال لاأعرفه وكان به عارفا ولكن خاف من رغبة أهل الشام فقال الفرزدق وكان حاضرا أنا أعرفه ياشامى قال من هو قال : هذا ابن من تعرف البطحاء وطأته … والبيت يعرفه والحل والحرم

وقال آخر : فنى أربع منى حلت منك أربع … فما أنا أدرى أيها هاج لى كربى
أوجهك فى عينى أم الريق فى فمى … أم النطق فى سمعى أم الحب فى قلبى

فلما سمعه إسحق بن يعقوب الكندى قال هذا تقسيم فلسفى ، وجعله العلوى خمسة فقال :

وفى خمسة منى حلت منك خمسة … فريقك منها فى فمى طيب الرشف
ووجهك فى عينى ولمسك فى يدى … ونطقك فى سمعى وعرفك فى أنفى

ابن نباتة : أيها العاذل الغبى تأمل … من غدا فى صفاته القلب ذائب
وتعجب لطرّة وجبين … إنّ فى الليل والنهار عجائب

محمود المخزومى :

رأيتك فى الشمس المنيرة غدوة … فكنت على عينى أبهى من الشمس
لأنك تزهو إن بدا الليل بهجة … وشمس الضحى ليست تضىء إذا تمسى

وقال آخر :

إذا احتجبت لم يكفك البدر وجهها … وتكفيك فقد البدر إن غرب البدر
وحسبك من خمر مذاقة ريقها … ووالله مامن ريقها حسبك الخمر

ومما قيل فى البنان المخضب . قال ابن الرومى :

وقفت وقفة بباب الطاق … ظبية من مخدرات العراق
بنت سبع وأربع وثلاث … أسرت قلب صبها المشتاق
قلت من أنت ياغزال فقالت … أنا من لطف صنعة الخلاق
لاترم وصلنا فهذا بنان … قد صبغناه من دم العشاق

وقال الراضى بالله :

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها … فى خدها وقد اعتلقت خطابها
فظننت أن بنانها من فضة … قطفت بنور بنفسج عنابها

وقال آخر : لما اعتنقنا للوداع وأعربت … عبراتنا عنا بدمع ناطق
فرقن بين محاجر ومعاجر … وجمعن بين بنفسج وشقائق

وقال آخر :

ولما تلاقينا رأيت بنانها … مخضبة تحكى عصارة عندم
فقلت خضبت الكف بعدى أهكذا … يكون جزاء المستهام المتيم
فقالت وأذكت فى الحشا لاعج الجوى … مقالة من بالودّ لم يتبرّم
بكيت دما يوم النوى فمسحته … بكفّى فاحمرت بنانى من دمى

وقال آخر : دنوت عشية التوديع منى … ولى عينان بالدم تجريان
فلم يمسحن إكراما جفونى … ولكن رمن تخضيب البنان

ومما قيل فى النحور . قال دعبل :

أتاح لك الهوى بيضا حسانا … تباهى بالعيون وبالنحور
نظرت إلى النحور فكدت تقضى … فكيف إذا نظرت إلى الخصور

ومما

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

ومما قيل فى نعت النهود . قال العباس بن الأحنف :

والله لو أن القلوب كقلبها ... ما رقّ للولد الضعيف الوالد
جال الوشاح على قضيب زانه ... تفاح صدر ما حوته ناهد

وقال آخر : ومحبوبة عند الوداع رأيتها ... تنشف دمعا بالرداء الممسك
وتبكى حذار البين منها بدمعة ... تسيل على الخدين فى حسن مسلك
فتحسب مجرى الدمع من وجناتها ... بقية طلّ فوق ورد ممسك
وقد سفرت عن غرة بابلية ... وصدر به نهد بحقّ مفكك

وقال عمرو بن كلثوم :

تراك إذا دخلت على خلاء ... قد امنت عيون الكاشحينا
لنهد مثل حق العاج حسنا ... حصينا من أكفّ اللامسينا

وقال آخر : بصدرها كوكبا در كأنهما ... ركنان لم يدنسا من لمس مستلم
صانتهما بستور من غلائلها ... فالناس فى الحل والركنان فى الحرم

وقال آخر : صدور فوقهن حقاق عاج ... ودرّ زانه حسن اتساق
يقول الناظرون إذا رأوه ... أهذا الحلى من هذى الحقاق ... وما تلك الحقاق سوى ثدى
جعلن من الحقاق على وفاق ... نواهد لا يعدّ لهن عيب ... سوى منع المحبّ من العناق

وقال آخر : لقد فتكت عيون الغيد فينا ... ببيض مرهفات وهى سود
وتطعننا القدود إذا التقينا ... بسمر من أسنتها النهود

ومما قيل فى الأرداف والخصور . قال ابن الرومى :

وشربت كأس مدامة من كفها ... مقرونة بمدامة من ثغرها
وتمايلت فضحكت من أردافها ... عجبا ولكنى بكيت لخصرها

قال الطنبغا المحاربى :

ردفه زاد فى الثقالة حتى ... أقعد الخصر والقوام السويا
نهض الخصر والقوام وقالا ... فضعيفان يغلبان قويا

وقال آخر :

ياخصره كم جفاء ... تبدى وأنت نحيل ... يا ردفه ملت عنى ... ما أنت إلا بخيل

وقال القيراطى :

بدت روادف بدرى ... تحت الحنين لعينى ... فقلت يا بدر هذا ... حقا خيال الحيف

وقال آخر: أسائلها أين الوشاح وقد سرت ... معطلة منه معطرة النشر
فقالت وأومت للسوار نحلته ... إلى معصمى لما تقلقل فى خصرى

وقال آخر : بيض وسمر مقلتاه وقده ... بدر وليل وجنتاه وشعره
أقسى من الحجر الأصم فؤاده ... وأرقّ من شكوى المتيم خصره

وقال آخر : رخيات الثقال مدللات ... جواعل فى الثرى قضبا جذالا
جمعن فخامة وخلوص جيد ... وقدا بعد ذلك واعتدالا

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
أىّ الخلائق ليست فى رقابهم ... لأولية هذا أوله نعم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم
وليس قولك من هذا بضائره ... فالعرب تعرف من أنكرت والعجم

فحبسه هشام ثم أطلقه فوجه إليه على بن الحسين عشرة آلاف درهم وقال اعذرنا يا أبا فراس فلو كان معنا فى هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به فردها الفرزدق وقال ما قلت ما كان إلا لله فقال له على ابن الحسين قد رأى الله مكانك ولكنا أهل بيت إذا أنفذنا شيئا لم نرجع فيه وأقسم عليه فقبلها . (ومن غالى جواهر العقد لابن عبدربه) قال يزيد حدثنى أبى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم من المدينة إلى الشام على حمار فتلقاه معاوية فى موكب نبيل فأعرض عنه عمر فجعل يمشى إلى جنبه راجلا فقال له عبد الرحمن بن عوف أتعبت الرجل فاقبل عليه وقال يا معاوية أنت صاحب الموكب مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك قال نعم يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك قال لأنا فى بلاد لا نمتنع من الجواسيس ولا بد لهم ما يروّعهم من هيبة

السلطان فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه وإن نهيتنى عنه انتهيت . قال : إن كان الذى قلت حقا فإنه رأى أريب وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب فلا آمرك (٢٤) ولا أنهاك عنه . (ومن لطائف معاوية) أنه كان لعبد الله بن الزبير أرض قريبة لأرض معاوية فيها عبيد له من الزنوج يعمرونها فدخلوا فى أرض عبد الله فكتب إلى معاوية ، أما بعد : فإنه يامعاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى وإلا كان لى ولك شأن فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد فلما قرأه قال له ماترى ؟ قال أرى أن تنفذ إليه جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه ، فقال : يابنىّ عندى خير من ذلك علىّ بدواة وقرطاس وكتب وقفت على كتابك يابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءنى والله ماساءك والدنيا هينة عندى فى جنب رضاك وقد كتبت على نفسى رقما بالأرض والعبيد وأشهدت علىّ فيه ولتضف الأرض إلى أرضك والعبيد إلى عبيدك والسلام ، فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأى الذى أحله من قريش هذا المحلّ والسلام ، فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله رماه إلى ابنه يزيد وقال

فلما قرأه أسفر وجهه فقال يابنىّ إذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء . (نادرة لطيفة) قال الأستاذ أبو على : لما سمى غلام

ومما قيل فى المعاصم . قال عمر بن أبى ربيعة :

حسروا الوجوه بأذرع ومعاصم ... ورنوا بنجل للقلوب كوالم
حسروا الأكمة عن سواعد فضة ... فكأنما انتصبت متون صوارم

ومما قيل فى اعتدال القوام . قال صلاح الدين الصفدى :

تقول له الأغصان مذ هزّ عطفه ... أتزعم أن اللين عندك مانوى
فقم نحتكم للروض عند نسيمه ... ليقضى على من مال منا إلى الهوى

وقيل : ليس لأحد من شعراء العرب فى نعت محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ورقة اللفظ مالذى الرمة حتى كأنه حضرى من أهل المدن لامن أهل الوبر .

وقال القاضى مجد الدين بن مكانس :

أقول لحبى قم ومل يامعذبى ... كميلة خود غير السكر حالها
ولا تله عن شىء إذا ماحكيتها ... فقام كغصن البان لينا وما لها

وقال آخر :

وبحكم أعاطفه فى قتل صب ماغوى ... فاعجب لعادل قدّه فى النفس يحكم بالهوى

وقال آخر : ومهفهف عنى يميل ولم يمل ... يوما إلىّ فصحت من ألم الجوى
لم لاتميل إلىّ ياغصن النقا ... فأجاب كيف وأنت من أهل الهوى

ومما قيل فى الساق . قال ذو الرمة :

لم أنسه إذ قام يكشف عامدا ... عن ساقه كاللؤلؤ البرّاق
لاتعجبوا إن قام فيه قيامتى ... إنّ القيامة يوم كشف الساق

وقال آخر : جاءت بساق أبيض أملس ... كلؤلؤ يبدو لعشاقها
فافتتنت فيها جميع الورى ... وقامت الحرب على ساقها

وقال ابن منقذ : بدر ولكنه قريب ... ظبى ولكنه أنيس
إن لم يكن قدّه قضيبا ... فما لأعطافه تميس

ومما قيل فى مشى النساء . قال بعضهم :

يهززن للمشى أطرافا مخضبة ... هزّ الشمال ضحى عيدان نسرين
أو كاهتزاز ردينىّ تداوله ... أيدى الرجال فزاد المتن فى اللين

وقال آخر :

يمشين مشى قطا البطاح تأودا ... قبّ البطون رواجح الأكفال
فكأنهنّ إذا أردن زيارة ... يقلعن أرجلهنّ من أوحال

ومما قيل فى العناق وطيبه . لابن المعتز :

ما أقصر الليل على الراقد ... وأهون السقم على العائد ... كأنى عانقت ريحانة
تنفست فى ليلها البارد ... فلو ترانا فى قميص الدجى ... حسبتنا فى جسد واحد

وقال آخر : وموشح نازعت فضل وشاحه ... وأعرته من ساعدىّ وشاحا
بات الغيور يشق جلدة وجهه ... وأمال أعطافا علىّ ملاحا

وقال ابن المعدل :

أقول وجنح الدجى مسبل ... والليل فى كل فج يد
ونحن ضجيعان فى مسجد ... فلله ماضمنا المسجد
أيا غد إن كنت لى محسنا ... فلا تدن من ليلق ياغد
و ياليلة الوصل لاتقصرى ... كما ليلة الهجر لاتنفد

وقال آخر : وليل رقيق الطرتين تظلت ... كواكبه من بدره المتألق
لهونا بغزلان الصريمة تحته ... تميت الهوى مابين صدر ومرفق

وقال ابن المعتز :

وكم عناق لنا وكم قبل ... مختلسات حذار مرتقب
نقر العصافير وهى خائفة ... من النواطير يانع الرطب

وقال ديك الجن :

ومعدولة مهما أمالت إزارها ... فغصن وأما قدها فقضيب
لها القمر السارى شقيق وإنها ... لتطلع أحيانا له فيغيب
أقول لها والليل مرخ سدوله ... وغصن الهوى غض النبات رطيب
لأنت المنى يازين كل مليحة ... وأنت الهوى أدعى له فأجيب

وقال على بن الجهم :

سقى الله ليلا ضمنا بعد فرقة ... وأدنى فؤادا من فؤاد معذب
فبتنا جميعا لو تراق زجاجة ... من الخمر فيما بيننا لم تسرب

وقال آخر :

ياليل دم لى لاأريد براحا ... حسبى بوجه معذبى مصباحا
حسبى به نورا وحسبى ريقه ... خمرا وحسبى خده تفاحا
حسبى بضحكه إذا استضحكته ... مستغنيا عن كل نجم لاحا
طوقته طوق العناق بساعد ... وجعلت كفى الشمال وشاحا
هذا هو اليوم النعيم فخلنا ... متعانقين فلا نريد براحا

وقال آخر :

ولم أنس ضمى للحبيب على رضا ... ورشفى رضابا كالرحيق السلسل
ولا قوله لى عند تقبيل خده ... تنقل فلذات الهوى فى التنقل

ومما قيل فى السمن . قال الربيع بن سليمان سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول : مارأيت سمينا عاقلا إلا محمد بن الحسن . قال الشاعر :

لاأعشق الأبيض المنفوخ من سمن ... لكننى أعشق السمر المهازيلا
إنى امرؤ أركب المهر الضمر فى ... يوم الرهان وغيرى يركب الفيلا

ومما قيل فى مدح الألوان والثياب . مدح البياض ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « البياض نصف الحسن » ، وكان صلى الله عليه وسلم أبيض أزهر اللون مشربا بحمرة . قال الشاعر :

نقل بالصوفية إلى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم ، فأما الجنيد فانه استتر بالفقه ، وأما الشحام والرقام والثورى وجماعة نقض عليهم وبسط النطع لضرب أعناقهم فتقدم الثورى فقال له السياف : أتدرى لماذا تتقدم قال نعم قال فما يعجلك ؟ قال أوثر أصحابى بحياة ساعة فتحير السياف ونما الخبر إلى الخليفة فردهم إلى القاضى ليعرف أحوالهم فألقى القاضى على أبى الحسن الثورى مسائل فقهية فأجاب عن الكل ثم أخذ يقول : إن لله عبادا إذا قاموا قاموا بالله وإذا نطقوا نطقوا بالله وسرد حتى بكى القاضى فأرسل إلى الخليفة يقول إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم فأكرمهم وأطلقهم .

(ومن المروى عن أحمد ابن أبى داود القاضى) أنه قال : مارأيت رجلا عرض عليه الموت فلم يكترث به إلا تميم بن جميل الخارجى كان قد خرج على المعتصم ورأيته قد جىء به أسيرا فأدخل عليه فى يوم موكب وقد جلس المعتصم للناس مجلسا عاما ودعا بالسيف والنطع ، فلما مثل بين يديه نظر إليه المعتصم فأعجبه شكله وقده ورآه يمشى إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكرة فيه ثم استنطقه لينظر فى عقله وبلاغته فقال ياتميم إن كان لك عذر فأت به ؟ فقال أما إذا أذن أمير المؤمنين جبر الله به صدع الدين ولم به شعث المسلمين وأخمد شهاب الباطل وأنار سبل الحق فالذنوب ياأمير المؤمنين تخرس الألسن وتصدع الأفئدة ، وايم الله

لقد عظمت الجريمة ، وانقطعت الحجة ، وساء الظن ، ولم يبق إلا العفو وهو الأليق بشيمتك الطاهرة . ثم أنشد :

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا يلاحظني من حيث لا ألتفت

وأكثر ظني أنك اليوم قاتلي

بيض الوجوه كريمة أحسابهم   ثم الأنوف من الطراز الأول

ومما قيل في مدح السواد . قيل لبعضهم : ماتقول في السواد ؟ قال : النور في السواد أراد بذلك نور العينين في سوادهما . وقال بعضهم :

قالوا تعشقتها سوداء قلت لهم   لون الغوالي ولون المسك والعود

إني امرؤ ليس شأن البيض مرتفعا   عندي ولو خلت الدنيا من السود

وقال الحيقطان :

لئن كنت جعد الرأس واللون فاحم   فإني بسيط الكف والعرض أزهر

وإن سواد اللون ليس بضائري   إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر

دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فقال إنك لنعم الخليفة الأسود ، فقال إبراهيم نعم ، فتمثل المأمون ببيت نصيب ، فقال :

إن كنت عبدا فنفسي حرة كرما   أو أسود اللون إني أبيض الخلق

ثم قال : ياعم أخرجنا الهزل إلى الجد ، فأنشد إبراهيم :

ليس يزري السواد بالرجل الشهم   ولا بالفتى الأريب الأديب

إن يكن للسواد فيك نصيب   فبياض الأخلاق منك نصيبي

وقال آخر :

لام العواذل في سوداء فاحمة   كأنها في سواد القلب تمثال

وهام في الخال أقوام وماعلموا   أني أهيم بشخص كله خال

وقيل لمدني : كيف رغبتم في السواد ؟ فقال : لو وجدنا بيضاء لسودناها .

وقال آخر :

يكون الخال في خد قبيح   فيكسوه الملاحة والجمالا

فكيف يلام ذو عشق على من   يراها كلها في الخد خالا

وقال آخر :

فاستحسنوا الخال في خد فقلت لهم   إني عشقت مليحا كله خال

وكان أبو حاتم المدني ينشد :

ومن يك معجبا بنات كسرى   فإني معجب ببنات حام

وتفاخرت حبشية ورومية ، فقالت الرومية : أنا حبة كافور وأنت عدل فحم ، فقالت الحبشية : أنا حبة مسك وأنت عدل ملح . وقد قال الشاعر :

أحب لحبها السودان حتى   أحب لحبها سود الكلاب

وقال آخر :

أشبهك المسك وأشبهته   قائمة في لونه قاعده

لاشك إذ لونكما واحد   أنكما من طينة واحده

ومما قيل في الصفرة . قال الشاعر :

أصفراء كان الهجر منك مزاحا   ليالي كان الود منك مباحا

كأن نساء الحي مادمت فيهم   قباحا فلما غبت صرن ملاحا

وقال آخر :

قالوا به صفرة شانت محاسنه   فقلت ماذاك من عيب به نزلا

عيناه مطلوبة في ثأر من قتلت   فلست تلقاه إلا خائفا وجلا

وأي امرئ مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة
وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت وأنني
لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم
وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم
وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا
وإن عشت عاشوا سالمين بغبطة
أذود الردى عنهم وإن مت موتوا
وكم قائل لايبعد الله داره
وآخر جذلان يسر ويشمت

قال : فبكى المعتصم وقال إن من البيان لسحرا ثم قال : كاد والله ياتميم أن يسبق السيف العذل وقد وهبتك لله ولصبيتك وأعطاه خمسين ألف درهم .

(ومن لطائف المنقول من المستجاد) أنه كان بين غسان بن عباد وبين علي بن عيسى القمر عداوة عظيمة وكان علي بن عيسى ضامنا أعمال الخراج والضياع بيلده فبقيت عليه بقية مبلغها أربعون ألف دينار فألح المأمون عليه بطلبها إلى أن قال لعلي بن صالح الحاجب أمهله ثلاثة أيام

ومما

فان أحضر المال وإلا فاضربه بالسياط حتى يؤدى المال أو يتلف فانصرف على بن عيسى من دار المأمون آيسا من نفسه وهو لايدرى وجها يتجه إليه فقال له كاتبه لو عرّجت على غسان بن عباد وعرّفته خبرك لرجوت أن يعينك على أمرك فقال له علىّ وما بينى وبينه من العداوة فقال نعم فان الرجل أريحىّ كريم فدخل على غسان فقام إليه وتلقاه بالجميل وأوفاه حقه بالخدمة ثم قال له الحال الذى بينى وبينك على حاله ولكن دخولك إلى دارى له حرمة توجب بلوغ مارجوته منى فاذكر إن كان لك حاجة فقصّ عليه القصة فقال أرجو أن يكفيكه الله تعالى ولم يزده على ذلك شيئا فنهض على بن عيسى وخرج آيسا نادما على قصد غسان وقال لكاتبه ما أفدتنى بالدخول على غسان غير تعجيل الشماتة والهوان ، فلم يصل علىّ ابن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتب غسان ومعه البغال وعليها المال فتقدم وسلمه وبكر إلى دار أمير المؤمنين فوجد غسان قد سبقه إليها ودخل على المأمون وقال ياأمير المؤمنين إن لعلى ابن عيسى بحضرتك حرمة وخدمة وسالف أصل وقد لحقه من الخسران فى ضمانه ماتعارفه الناس وقد توعدته بضرب السياط بما أطار عقله وأذهب لبه ، فان رأى أمير المؤمنين أن يجبرنى على حسن كرمه ببعض ماعليه فهى صنيعة يجددها علىّ تعرى ماتقدمها من إحسانه ، ولم يزل يتلطف إلى أن حط عنه النصف واقتصر على عشرين ألف دينار

ومما قيل فى طول اللحية . قيل : إن اللحية الطويلة عش البراغيث . ونظر يزيد الشيبانى إلى رجل ذى لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب فقال له ياهذا إنك من لحيتك فى مؤنة فقال أجل ولذلك أقول :

لها درهم للدهن فى كل جمعة ... وآخر للحناء يبتدران
ولولا نوال من يزيد بن مزيد ... لأصبح فى حافاتها الحنان

وقال إسحق بن خلف فى قصير طويل اللحية :

ماشيت داود فاستضحكت من عجب ... كأنه والد يمشى بمولود
ماطول داود إلا طول لحيته ... يظن داود فيها غير موجود

وقال ابن المقفع :

تأملت أسواق العراق فلم أجد ... دكاكينهم إلا عليها اللواليا
جلوسا عليها ينفضون لحاهم ... كما نفضت عجف البغال المخاليا

ومما جاء فى عظم الخلقة والطول والقصر . قيل : خرب القهندز فبرزت منه جماجم أموات فتصدعت جمجمة فانتثرت أسنانها فوزن السن منها فكان وزنها أربعة أرطال ، فأتى بها إلى ابن المبارك فجعل يقلبها ويتعجب من عظمها ثم قال :

إذا ماتذكرت أجسامهم ... تصاغرت النفس حتى تهون

وأراد ملك الروم أن يباهى أهل الشام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل والثانى قصير شديد القوة ، فدعا الطويل بقيس بن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل فبلغت ثدييه فلاموا قيسا على نزع السراويل فقال :

أردت لكيما يعلم الناس أنها ... سراويل قيس والوفود شهود
وكى لايقولوا غاب قيس وهذه ... سراويل عاد أحرزتها ثمود
وإنى من القوم اليمانين سيد ... وما الناس إلا سيد ومسود

ثم دعا معاوية بالرجل الشديد فى قوته بمحمد بن الحنفية فخيره بين أن يقعد فيقيمه أو يقوم فيقعده فغلبه فى الحالتين وانصرفا متناوبين . وقيل : كان سلمة بن مرّة الناموسى أسر امرأ القيس ابن النعمان اللخمى الملك وكان الناموسى قصيرا مقتحما واللخمى طويلا جسيما ، فقالت بنت امرىء القيس ياهذا القصير أطلق أبى ، فسمعها سلمة بن مرة فقال :

لقد زعمت بنت امرىء القيس أننى ... قصير وقد أعيا أباها قصيرها
وربّ طويل قد نزعت سلاحه ... وعانقته والخيل تدمى نحورها

وقالوا : عظم اللحية يدل على البله وعرضها على قلة العقل وصغرها على لطف الحركة ، وإذا وقع الحاجب على العين دلّ على الحسد ، والعين المتوسطة فى حجمها تدل على الفطنة وحسن الخلق والمروءة ، والتى يطول تحديقها تدل على الحمق . والتى تكسر طرفها تدل على خفة وطيش ، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان .

ومما قيل فى القبح والدمامة : أراد رجل أن يكتب كتابا لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلا وحش الصورة بشع المنظر فلم يقدر على تخليته لفرط دمامته ، فكتب إلى صاحبه يقول : يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره ، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره .

فقال غسان على أن يجدد عليه أمير المؤمنين الضمان و يشرفه بخلعة تقوّى نفسه وترهف عزمه و يعرف بها مكان الرضا عنه ، فأجابه المأمون إلى ذلك قال فيأذن أمير المؤمنين أن أحمل الدواة إلى حضرته ليوقع ماراًه من هذا الانعام، قال افعل فحمل الدواة إلى أمير المؤمنين فوقع ذلك وخرج على بن عيسى بالخلعة والتوقيع بيده فلما حضر فى داره حمل من المال عشرين ألف دينار وأرسلها إلى غسان وشكره على جميل فعله معه فقال غسان لكاتبه والله ماشفعت عند أمير المؤمنين إلا لتوفر عليه وينتفع بها فامض بها إليه ، فلما ردّها كاتبه إلى على بن عيسى علم قدر مافعل معه غسان فلم يزل يخدمه إلى آخر العمر (ومن غريب مايقتطف من ثمرات الأوراق) أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خلف أحد عشر ابنا فأصاب كل ابن نصف وربع دينار وقال لهم عند وفاته يابنىّ ليس لى مال فأوصى فيه . وخلف هشام بن عبد الملك أحد عشر ابنا فأصاب كل واحد من البنين ألف ألف دينار ، فأما أولاد عمر بن عبد العزيز فماروى أحد منهم إلا وهو غنى ومنهم واحد جهز من ماله مائة ألف فارس على مائة ألف فرس فى سبيل الله تعالى ، وماروى أحد من أولاد هشام بن عبد الملك إلا وهو فقير ولقد شوهد أحدهم وهو يوقد فى الأتون . وقيل لمعاوية بن أبى سفيان : إن بالحيرة رجلا من بنى جرهم قد عمر ورأى أعاجيب

ومرّ أبو الأسود الدؤلى بمجلس لبنى بشير ، فقال بعض فتيانهم كأن وجهه وجه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها . وقال الجاحظ : ما أخجلنى قط إلا امرأة مرّت بى إلى صائغ فقالت له اعمل مثل هذا فبقيت مبهوتا ثم سألت الصائغ فقال هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت لاأدرى كيف أصوّره فأتت بك إلىّ لأصوّره على صورتك . وفى الجاحظ يقول الشاعر :

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ... ما كان إلا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه ... وهو القذى فى عين كل ملاحظ
ولو أن مرآة جلت تمثاله ... ورآه كان له كأعظم واعظ

وقال الأصمعى : رأيت بدوية من أحسن الناس وجها ولها زوج قبيح فقلت ياهذه أترضين أن تكونى تحت هذا ؟ فقالت ياهذا لعله أحسن فيما بينه و بين ربه فجعلنى ثوابه وأسأت فيما بينى و بين ربى فجعله عذابى أفلا أرضى بما رضى الله به . وحج مخنث فرأى رجلا قبيح الوجه يستغفر فقال ياحبيبى ماأراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم . وقال بعضهم لرجل : طلع لى دمل فى أقبح المواضع فقال له كذبت هذا وجهك ليس فيه شىء . وخرج رجل قبيح الوجه إلى التجر فدخل اليمن فلم ير فيها أحسن منه وجها فقال :

لم أر وجها حسنا ... منذ دخلت اليمنا
فياشقاء بلدة ... أحسن من فيها أنا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة فقال لها قد عرفت أنى رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره ، فقالت لاشك فى احتمالك المكاره مع حملك هذا الأنف أربعين سنة . وقال الشاعر فى رجل كبير الأنف :

لك وجه وفيه قطعة أنف ... كجدار قد أدعموه ببغله
وهو كالقبر فى المثال ولكن ... جعلوا نصبه على غير قبله

وقال آخر :

* لك أنف أنوف ... أنفت منه الأنوف
أنت فى القدس تصلى ... وهو فى البيت يطوف

ومما جاء فى الثقلاء . قال مطيع بن إياس :

قلت لعباس أخينا ... ياثقيل الثقلاء
أنت فى الصيف سموم ... وجليد فى الشتاء
أنت فى الأرض ثقيل ... وثقيل فى السماء

ومما جاء فى الملابس وألوانها والعمائم ونحوها . قال الله تعالى : وأما بنعمة ربك فحدّث ، وقال تعالى : يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده » وقال صلى الله عليه وسلم « تعمموا تزدادوا جمالا » وقال صلى الله عليه وسلم « العمائم تيجان العرب » . وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء فنزلت الملائكة وعليهم عمائم صفر قد أرخوها . و بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فتخلف عن الجيش وأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه عمامة سوداء من خز فنقضها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعممه بيده وأسدلها بين كتفيه قدر شبر وقال هكذا اعتم يا ابن عوف . و بعث ملك الروم إلى النبى صلى الله عليه وسلم جبة ديباج فلبسها ثم كساها عثمان . وكان سعيد ابن المسيب يلبس الحلة بألف درهم و يدخل المسجد فقيل له فى ذلك فقال إنى أجالس ربى . وقيل المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة . وقيل : البس البياض والسواد فان الدهر هكذا بياض نهار وسواد ليل .

ومما

ومما قيل فى لبس السواد قول أبى قيس :

رأيتك فى السواد فقلت بدرا ... بدا فى ظلمة الليل البهيم
وألقيت السواد فقلت شمس ... محت بشعاعها ضوء النجوم

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خمر العراق فباع الجميع إلا السود ، فشكا إلى الدارمى ذلك وكان الدارمى قد نسك وتعبد فعمل بيتين وأمر من يغنى بهما فى المدينة وهما هذان البيتان :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ... ماذا فعلت بزاهد متعبد
قد كان شمر للصلاة إزاره ... حتى قعدت له بباب المسجد

قال : فشاع الخبر فى المدينة أن الدارمى رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود فلم يبق فى المدينة مليحة إلا اشترت لها خمارا أسود ، فلما أنفد التاجر ما كان معه رجع الدارمى إلى تعبده وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها . وقال آخر فى لابسة الأحمر :

وشمس من قضيب فى كثيب ... تبدّت فى لباس جلنارى
سقتنى ريقها صرفا وحيت ... بوجنتها فهاجت جلّ نارى

وقال آخر فى لابسة ثوب خمرى :

فى ثوبها الخمرىّ قد أقبلت ... بوجنة حمراء كالجمر
لمت سكرا حين أبصرتها ... لاتنكروا سكرى من الخمر

وقال الصنوبرى فى لابسة أخضر :

وجارية أدّبتها الشطاره ... ترى الشمس من حسنها مستعاره
بدت فى قميص لها أخضر ... كما ستر الورق الجلناره
فقلت لها مااسم هذا اللباس ... فأبدت جوابا لطيف العباره
شققنا مرائر قوم به ... فنحن نسميه شق المراره

وقال حكيم لابنه : إياك أن تلبس مايديم الملك نظره إليك به ، واعلم أن الوشى لايلبسه إلا الأحمق أو ملك ، وعليك بالبياض . وقيل : لباس البخلاء الاستبرق لطول بقائه ، ولباس المترفين السندس لقلة بقائه ، ولباس المقتصدين الديباج لتوسط بقائه . وقال بعض الأمراء لحاجبه : أدخل علىّ عاقلا ، فأتاه برجل ، فقال : بم عرفت عقله ؟ فقال : رأيته يلبس الكتان فى الصيف ، والقطن فى الشتاء ، والملبوس فى الحرّ ، والجديد فى البرد . وقيل : كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعا إذا اتسخت ألقاها فى النار فيحترق الوسخ ولا تحترق ، وكان له رداء حسن يتلوّن كلّ ساعة ، وسراويل جوهر وتكة من أنابيب الزمرذ . وقيل : الأقبية لباس الفرس ، والقراطق لباس الهند ، والأزر لباس العرب . وسئل بعض العرب عن الثياب فقال : الصفر أشكل ، والحمر أجمل ، والخضر أقبل ، والسود أهول ، والبيض أفضل . وقال أفلاطون : الصبغ الشقائق والروائح الزعفرانية تسكن الغضب ، والصبغ الياقوتى والروائح الوردية تحرّك السرور ، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوّة العشقية ، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوّة الغريزية ، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة تحركت الطبائع كلها . وكان مصعب بن الزبير يقول : لكل شىء راحة ، وراحة البيت كنسه ، وراحة الثوب طيه . وقال بعض الأعراب : رأيت بالبصرة برودا كأنها نسجت بأنوار الربيع ، ودخل بعض العذريين على معاوية وعليه عباءة فازدراه ، فقال : ياأمير المؤمنين إنّ العباءة لاتكلمك ، وإنما يكلمك من فيها .

فقال معاوية : علىّ به ، فلما حضر قال : من الرجل ؟ قال : عبيد بن شرية ، قال : ثم ممن ؟ قال : من قوم لم يبق منهم بقية ، قال : فكم مضى من عمرك ؟ قال : عشرون ومائتا سنة ، قال : أخبرنى بأعجب مارأيت فى عمرك ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين كنت فى حىّ من أحياء العرب فمات عندهم ميت يقال له عشير ابن لبيد العذرى فمشيت فى جنازته وتأسيت بجماعته للمادفن فى قبره وأعول النساء فى أثره أدركتنى عليه عبرة ولم أستطع ردّها وتمثلت بأبيات كنت سمعتها قديما وعلق الآن على خاطرى منها هذه الأبيات :

ياقلب إنك من أسماء مغرور ... فاذكر وهل ينفعك اليوم تذكير
قد بحت بالحبّ ماتخفيه من أحد ... حتى جرت لك إطلاقا محاضير
فلست تدرى ولا تدرى أعاجلها ... أدنى لرشدك أم مافيه تأخير
فاستقدر الله خيرا وارضينّ به ... فبينما العسر إذ دارت مياسير
وبينما المرء فى الأحياء مغتبط ... إذا هو فى الرمس تعفوه الأعاصير
يبكى الغريب عليه ليس يعرفه ... وذو قرابته فى الحىّ مسرور
وذاك آخر عهد من أخيك إذا ... ما المرء ضمنه اللحد الخناسير

فبينما أنا أردد هذه الأبيات وعيناى يسكبان إذ قال لى رجل إلى جنبى من عذرة ياعبد الله : هل تعرف قائل هذا الشعر ؟

وعما قيل فيمن رذل لبسه وعرف نفسه قال الأصمعى : رأيت أعرابيا فاستنشدته فأنشدنى أبياتا وروى أخبارا فتعجبت من جماله وسوء حاله فسكت سكتة ثم قال :

أأخى إن الحادثا ت عركتنى عرك الأدم ... لاتنكرن أن قد رأيت
أخاك فى طمرى عديم ... إن كان أثوابى رثاثا ... فإنهن على كريم

قال بعضهم . وقيل للشافعى رحمه الله تعالى :

علىّ ثياب لو تقاس جميعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها ... نفوس الورى كانت أجلّ وأكبرا
وماضرّ نصل السيف إخلاق غمده ... إذا كان عضبا حيث وجهه برى

ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه فأنشده :

ترى الرجل الخفيف فتزدريه ... وفى أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير
لقد عظم البعير بغير لبّ ... فلم يستغن بالعظم البعير
يصرّفه الصبى بغير وجه ... ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى ... فلا عار عليه ولا نكير
فإن أك فى شراركمو قليلا ... فإنى فى خياركمو كثير

ويقال : كل ماتشتهيه نفسك ، والبس ماتشتهيه الناس . وقد نظمه من قال :

إن العيون رمتك إذ فاجأتها ... وعليك من مهن الثياب لباس
أما الطعام فكل لنفسك ماشتهت ... واجعل لباسك ماشتهته الناس

وفى هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والأربعون فى التختم والحلى والصوغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك

ماجاء فى التختم : عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتختم فى يمينه ، وقبض عليه الصلاة والسلام والخاتم فى يمينه . قال بعض من مدحه عليه الصلاة والسلام :

كفّ الرسالة ليس يخفى حسنها ... وتمام حسن الكفّ لبس الخاتم

وذكر السلامى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتختم فى يمينه والخلفاء بعده فنقله معاوية رضى الله تعالى عنه إلى اليسار وأخذ الأموية بذلك ثم نقله السفاح إلى اليمين فبقى إلى أيام الرشيد رضى الله تعالى عنه فنقله إلى اليسار وأخذ الناس بذلك . وعن علىّ رضى الله تعالى عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « تختموا بخواتيم العقيق فإنه لايصيب أحدكم غمّ مادام عليه ذلك » وبلغ عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه أن ابنه اشترى فصّ خاتم بألف دينار فكتب إليه : عزمت عليك إلا مابعت خاتمك بألف دينار وجعلتها فى بطن جائع واستعمل خاتما من ورق وانقش عليه : رحم الله امرأ عرف نفسه . وكان خاتم علىّ رضى الله عنه من ورق ونقشه ، نعم القادر . وكان لأبى نواس خاتمان : أحدهما عقيق مربع وعليه مكتوب :

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

والآخر حديد صينى وعليه : أشهد أن لاإله إلا الله مخلصا ، وأوصى عند موته أن يغسل الفصّ ويجعل فى فمه . قال جعفر بن محمد رضى الله تعالى عنه : ماافتقرت يد تختمت بخاتم فيروزج ، وقيل : الخواتم أربعة : الياقوت للعطش ، والفيروزج للمال ، والعقيق للسنة ، والحديد الصينى للحرز ، وقيل : للخوف ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قلت : لا والله قال قائله هذا الميت الذى دفناه وأنت الغريب الذى تبكى عليه ولا تعرفه ولا تعلم أنه قائل هذه الأبيات وذوقرابته الذى ذكرته مسرور هو ذاك وأشار إلى رجل فى الجماعة فرأيته لايستطيع كتمان ماهو عليه من السرة

فقال معاوية : ياأخا جرهم سل ماشئت . قال : مامضى من عمرى ترده والأجل إذا حضر تدفعه قال : ليس ذلك لى سل غيره قال ياأمير المؤمنين ليس إليك ردّ شبابى ولا الآخرة فتكرم مابى والمال فقد أخذت منه فى عنفوانى ماكفانى قال : لابدّ أن تسألنى قال أما إذ شئت فأمر لى برغيفين أتغدى بأحدهما وأتعشى بالآخر واتق الله واعلم أنك مفارق ما أنت فيه وقادم على ماقدّمت ، فأمر له معاوية بأشياء من حنطة وغيرها فردّها وقال إن أعطيت المسلمين كلهم مثلها أعطيتنى وإلا فلا حاجة لى فى ذلك ثم ودّعه وانصرف . قيل وفد عبدالله بن جعفر رضى الله عنه على أحد خلفاء بنى أمية فقال له الخليفة كم كان أمير المؤمنين يعطيك يعنى أباه ؟ قال : كان رحمه الله يعطينى ألف ألف درهم ، قال : زدناك لترحمك عليه ألف ألف درهم ، قال : بأبى أنت وأمى ، قال : وبهذه ألف ألف ، قال : لا أقولها لأحد بعدك ، قال : ولهذه ألف ألف ، قال : مامنحنى ذكر من الاطناب فى وصفك إلا الإشفاق عليك من جودك ، قال : ولهذه ألف ألف ، فقيل له : فرقت ياأمير المؤمنين بيت مال المسلمين

ذكر ماجاء فى الحلى : قيل إن قرطى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما ولم يدر قيمتهما . وقال محمد : بعثنى يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كف كانت للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسرى اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار وحبة لؤلؤ أعظم مايكون من الحب فدخلت عليه بهما فقال : اكتب معك بوزنهما ، فقلت : ياأمير المؤمنين هما أعظم من أن يكتب بوزنهما فقال : صدقت ، وبعث معاوية إلى عائشة رضى الله تعالى عنها طوقا من ذهب فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار فقسمته بين أزواج النبى صلى الله عليه وسلم . وكان ملك العرب كلما مرت عليه سنة من سنى ملكه زيدت فى تاجه خرزة ، وكان يقال لها خرزات الملك .

ذكر ماجاء فى الطيب والتطيب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أطيب الطيب المسك » وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كأنى أنظر إلى وبيص الطيب فى مفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم . وعن سهل بن سعد يرفعه : إن فى الجنة لمرعى من مسك مثل مرابض دوابكم هذه . وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنام عندنا فعرق ، فجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ وقال : ياأم سليم ماهذا الذى تصنعين ؟ فقالت : هذا عرقك نجعله فى طيبنا وهو من أطيب الطيب . وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال : لو كنت تاجرا مااخترت على العطر إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه ، وناول المتوكل فتح فأرة المسك فقال .

لئن كان هذا طيبا وهو طيب   لقد طيبته من يديك الأنامل

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية ، فسأله كم أنفق عليها ؟ فذكر مالا جزيلا ، فقال : هذه غالية فسميت بذلك ، وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء ، فقال : علمينى كيف تصنعين بطيبك ؟ فقالت : لا أفعل ، تريد أن تعلمه جواريك هو لك منى كلما أردته ، ثم قالت : والله إنى ماتعلمته إلا من شعرك حيث تقول :

أطيب الطيب عرف أم أبان   فأر مسك بعنبر مسحوق

قال أبو قلابة كان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مر من طيب ريحه . وعن الحسن بن زيد الهاشمى عن أبيه قال : رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يطلى جسده فإذا مر فى الطريق قال الناس : أمر ابن عباس أم مر المسك وعنه عن أبيه قال : رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حين أحرم والغالية على صدغيه كأنها الرقة . وقال أبو الضحى : رأيت على رأس الزبير من المسك مالو كان لى لكان رأس مالى وقيل : لما بنى عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه بفاطمة بنت عبد الملك أسرج فى مسارجه تلك الليلة بالغالية . وقال الشعبى : الرائحة الطيبة تزيد فى العقل . وقال على كرم الله تعالى وجهه : شمموا النرجس ولو فى العام مرة فإن فى قلب الإنسان حالة لايزيلها إلا النرجس ، وكان الشعبى يقول : إذا أورد الورد صدر البرد ، وكانت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم بالطيب . وكان من اختلف فى طرقات المدينة وجد عرفا طيبا . قيل : والملك ميت طيبة ، وأقول : والله ماطابت إلا بالطيب الطاهر صلى الله عليه وسلم ، وما أحسن ماقيل :

على رجل واحد قال إنما فرقته على أهل المدينة أجمعين ، ثم وكل به من يعلمه بخبره من حيث لايشعر ، فلما قدم المدينة فرق جميع مامعه حتى احتاج بعد شهر إلى القرض .

(ومن لطائف المنقول) أن رجلا قال لهشام القرطبى كم تعد ؟ قال من واحد إلى ألف ألف وأكثر قال : لم أرد هذا كم تعد من السن ؟ قال : اثنين وثلاثين سنا عشر من أعلى وستة عشر من أسفل قال لم أرد هذا كم لك من السنين ؟ قال والله ليس لى منها شىء والسنون كلها لله قال : ياهذا ماسنك ؟ قال عظم قال : ابن لى ابن كم أنت ؟ قال : اثنين رجل وامرأة قال : كم أتى عليك ؟ قال لو أتى على شىء قتلنى ، قيل : كيف أقول ؟ قال تقول كم مضى من عمرك ؟

قيل : عرض محمد بن الجهم داره للبيع بخمسين ألف درهم فلما حضروا ليشتروا قال : بكم تشترون منى جوار سعيد بن العاص ؟ فقالوا له : والجوار يباع ؟ قال : وكيف لايباع جوار من إن سألته أعطاك ، وإن سكت عنه ابتدأك وإن أسأت إليه أحسن إليك ، فبلغ ذلك سعيدا فوجه إليه بمائة ألف درهم وقال أمسك دارك عليك

قيل : خرج عبد الله ابن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخل قوم فيها غلام أسود يقوم عليها فأتى بثلاثة أقراص فدخل كلب فدنا منه فرمى إليه بقرص فأكله ثم رمى إليه بالثانى والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر إليه فقال ياغلام كم قوتك كل يوم ؟ قال مارأيت قال فلم آثرت الكلب ؟ قال لأن أرضنا ماهى بأرض كلاب وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعا

إذا لم أطب فى طيبة عند طيب ... به طيبة طابت فأين أطيب

وقيل إن فأرة المسك دويبة شبيهة بالخشف تصاد لسرتها فإذا صادها الصياد عصب السرة بعصابة شديدة فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها ثم يأخذ السرة فيدفنها فى الشعير حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكا ذكيا بعد أن كان لايرام نتنا ، وقد يوجد جرذان سود يقال لها فأرات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها . وحكى أن العنبر يأتى على طفاوة الماء لايدرى أحد معدنه فلا يأكله شىء إلا مات . ولاينقره طائر إلا بقى منقاره فيه ، ولايقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفارا فيه . وقال الزمخشرى عفا الله عنه : سمعت ناسا من أهل مكة يقولون هو من زبد بحر سرنديب ، وأجود العنبر الأشهب ثم الأزرق وأدونه الأسود . وفى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « ليس فى العنبر زكاة إنما هو شىء نثره البحر » . وأما العود فأجوده المندلى وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند وأجوده أصلبه وامتحان رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم فإن انطبع فرطب وإلا فلا ، ومن خصائصه أن رائحته تطبع فى الثوب أسبوعا فلا يقمل مادامت فيه . وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور يحزونه بالحديد فإذا خرج ظاهرا وضربه الهواء انعقد كالصموغ الجامدة على الأشجار . وأما الند فمصنوع وهو العود المستقطر والعنبر واللبان :

لو كنت أحمل خمرا حين زرتكم ... لم ينكر الكلب أنى صاحب الدار

لكن أتيت وريح المسك يقدمنى ... والعنبر الند مشبوب على النار

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب أيام الورد ، وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرش الورد فى مجلسه ويطيب جميع آلاته بالورد . وقال الحسن بن سهل : أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب ، فالنرجس يقوى بالورد والورد يقوى بالمسك والبنفسج يقوى بالعنبر والريحان يقوى بالكافور والنسرين يقوى بالعود . وقال جالينوس : المسك يقوى القلب والعنبر يقوى الدماغ والكافور يقوى الرئة والعود يقوى المعدة والغالية تحل الزكام والصندل يحل الأورام وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاتردوا الطيب فإنه طيب الريح خفيف المحمل » . تبخر بعض الأمراء وعنده أعرابى ففرطت من الأمير ريح خفيفة فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابى أم لا فقال ماأطيب هذا الند قال نعم ولكنك ربعتها . وقال الأحنف : إن شم رائحة المسك يحيى القلب . وقال سلمة لابن عباس وعنده جعفر بن سليمان : ماشمت أنتن من ريح مسك شممته من الناس الاريح كفك أطيب فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر ، والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن والأربعون فى الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وماأشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول فى الشباب وفضله

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : مابعث الله نبيا إلا شابا ولا أوتى العلم عالم إلا شابا ثم تلا هذه الآية : قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، وقد أخبر الله تعالى به ، ثم آتى يحيى بن زكريا الحكمة قال تعالى : وآتيناه الحكم صبيا وقال تعالى : إذ أوى الفتية إلى الكهف وقال تعالى إنهم فتية آمنوا بربهم وقال تعالى : وإذ قال موسى لفتاه ، وقال أنس رضى الله تعالى

عنه

فكرهت رده قال لها كنت صائما اليوم قال أطوى يومى هذا قال عبد الله بن جعفر الأمر مبنى على السخاء والله إن هذا لأسخى منى فاشترى النخل والعبد فأعتقه ووهب ذلك له . (ومن لطائف المنقول) أنه رفع للرشيد موت العباس ابن الأحنف وإبراهيم الموصلى المعروف بالنديم وعشيمه الجارة فى يوم واحد فخرج للصلاة عليهم فصفوا بين يديه فقال من الأول فقالوا إبراهيم الموصلى فقال أخروه وقدموا العباس بن الأحنف فقدم وصلى عليه فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم ابن عبدالله الخزاعى وقال ياأمير المؤمنين كيف آثرت العباس بالتقديم على من حضر فقال بقوله :

وسعى بها قوم وقالوا إنها
لهى التى تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم
إنى ليعجبنى المحب الجاحد

ثم قال أتحفظهما قلت نعم قال أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقديم ؟ فقلت بلى والله ياأمير المؤمنين .

قلت ويضارع هذا ماحكاه صاحب الأغانى : (حكى) أن رجلا أدى شهادة عند بعض القضاة فقال القاضى هل يعرفك أحد من ذوى العدالة قال نعم فلان ، فلما حضر قال له القاضى هل تعرف هذا قال نعم أعرفه عدلا وما ذاك إلا أنى سمعته ينشد لجرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلا بعينك لايزال معينا

غيضن من أبصارهن وقلن لى ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

علمت أن هذا لايرسخ إلا فى قلب مؤمن . وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله : كانت رقائق الشيخ تقى الدين السروجى تسلب العقول وكان يغنى بها فى عصره لأنها فى الطريق الغرامى غاية لاتدرك فمن ذلك قوله رحمه الله :

عنه « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء » وقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حداثة سنه وعتاب بن أسيد ولاه مكة وبها أكابر قريش وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم وقال بعض البلغاء : الشباب باكورة الحياة ، وأطيب العيش أوله كما أن أطيب الثمار بواكيرها والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء ، وأكثر الوسائل لقلوبهن . ولذلك قال الشاعر :

أحلى الرجال مع النساء مواقعا ... من كان أشبههم بهن خدودا

وما بكت العرب على شيء ما بكت على الشباب ولو لم يكن هذا الشباب حميدا وزمانه حبيبا لوسامة صورته وبهجة منظره وجمال خلقته واعتدال قامته لما جاور الله فى جنات خلده شاب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جردا مردا أبناء ثلاثين » وقد جاء فى ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها .

[الفصل الثانى فى الشيب وفضله]

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وفى الخبر « إن الله تعالى يقول الشيب نورى وأنا أستحى أن أحرقه بنارى » وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : جاء رجلان إلى النبى صلى الله عليه وسلم شيخ وشاب فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ فقال عليه الصلاة والسلام كبر كبر وبهذه الرواية « من وقر كبيرا لكبر سنه آمنه الله من فزع يوم القيامة » وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يقول الله تعالى وعزتى وجلالى وفاقة خلقى إلىّ إنى لأستحى من عبدى وأمتى يشيبان فى الإسلام أن أعذبهما ثم بكى فقيل له ما يبكيك يارسول الله قال أبكى ممن يستحى الله منه وهو لايستحى من الله » وقال « من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرمه الله على النار » وقال « إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله فى الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات » . وقيل : كان الرجل فيمن كان قبلكم لايحتلم حتى يبلغ ثمانين سنة وقال ابن وهب : إن أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتى سنة فبكته الإنس والجن لحداثة سنه . وقال النخعى : كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما رفعه « من أتى عليه أربعون سنة ثم لم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار » . وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام يا أطول النبيين عمرا كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال كرجل دخل فى بيت له بابان فقام وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثانى . ويقال : أطع أكبر منك ولو بليلة . وقال عبد العزيز بن مروان من لم يتعظ بثلاث لم يمنعه شيء الإسلام والقرآن والشيب . قال الشاعر :

ياعامر الدنيا على شيبه ... فيك أعاجيب لمن يعجب
ما عذر من يعمر بنيانه ... وعمره منهدم يخرب

وقال الشعبى : الشيب علة لايعاد منها ومصيبة لايعزى عليها .

وقال الفرزدق : ويقول كيف يميل مثلك للظبا ... وعليك من عظم المشيب عذار
والشيب ينهض فى الشباب كأنه ... ليل يصيح بعارضيه نهار

وقال أبو دلف فى بياض اللحية :

تكونى ثم لبيضاء نابته ... لها بضعة فى مضمر القلب ثابته

أنعم بوصلك لى فهذا وقته ... يكفى من الهجران ماقد ذقته
أنفقت عمرى فى هواك وليتنى ... أعطى وصولا بالذى أنفقته
يامن شغلت بحبه عن غيره ... وسلوت كل الناس حين عشقته
كم حال فى ميدان حسنك فارس ... بالسبق فيك إلى رضاك سبقته
أنت الذى جمع المحاسن وجهه ... لكن عليه تصبرى فرقته
قال الوشاة قد ادّعى بك نسبة ... فسررت لما قلت قد صدقته
بالله إن سألوك عنى قل لهم ... عبدى وملك يدى وما أعتقته
أو قيل مشتاق إليك فقل لهم ... أدرى بذا وأنا الذى شوقته

قلت : لو كان الشيخ تقى الدين السروجى رحمه الله فى جملة من صلى عليه الرشيد لم يقدم غيره عليه . قال الشهاب محمود وكان الشيخ تقى الدين السروجى مع دينه وورعه وزهده وعفته مغرما بالجمال ، وكذلك قال الشيخ أثير الدين وكان يكره مكانا فيه امرأة . ومن دعاه من أصحابه قال شرطى معروف وهو أن لايحضر بالمجلس امرأة .

قال الشهاب محمود : وكنا يوما فى دعوة فأحضر صاحب الدعوة شواء وأمر بادخاله إلى النساء ليجعلنه فى الصحون ، فلما أحضر بعد ذلك نقرف منه وقال كيف يؤكل وقد مسسنه بأيديهن : قال الشيخ أثير الدين : ولما توفى الشيخ تقى الدين بمصر رابع رمضان المعظم سنة ثلاث وتسعين وستمائة حلف أبو محبو به أن لايدفنه إلا فى قبر ابنه وقال كان الشيخ يهواه بالحياة وما أفرق بينهما بالممات هذا لما كان يعلمه من دينه وعفافه . قلت والشيخ مدرك هو أبو هذه العذرة وثمرة هذه الشجرة فانه ممن هام مع زهده وتورعه بالجمال وعف وصبر إلى أن مات ، وكان الشيخ مدرك المذكور من أكابر علماء المغرب المتفقهين وكان مطبوعا فى نظم الشعر الجيد الرقيق وكان يقرئ الأدب وله مجلس بمحلة دار الروم ، وكان لايقرئ إلا الأحداث فقتن بنصرانى اسمه عمرو ابن يوحنا كان من أحسن أهل زمانه وأسلمهم طبعا ، فهام الشيخ به وكتب رقعة وطرحها فى حجره وهى :

بمجالس العلم التى
بك تم جمع جموعها
ألا رثيت لمقلة
غرقت بماء دموعها
بينى وبينك حرمة
الله فى تضييعها

فلما قرأها عمرو استحيا وعلم بها من فى المجلس فانقطع عمرو واشتد بالشيخ الوجد فترك المجلس ونظم القصيدة المشهورة ، قيل إنها اشتملت على سائر عبادات النصارى ومواقيتهم وأسماء المعظمين

ومن عجب أنى إذا رمت قصها — قصصت سواها وهى تضحك نابته

وقال أيضا: أرى شيب الرجال من الغوانى — بمبلغ شيبهن من الرجال

وقال ابن المعتز :

فظلت أطلب وصلها بتذلل — والشيب يغمزها بأن لاتفعلى

قيل : صاح شاب بشيخ أحدب بكم ابتعت هذا القوس ياعماه فقال يابنى إن أعطيتها بغير ثمن . ومر رجل أشمط بامرأة عجيبة فى الجمال فقال ياهذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه وإلا فأعلمينا فقالت كأنك تخطبنى قال نعم فقالت إن فى عيبا قال وماهو قالت شيب فى رأسى فثنى عنان دابته فقالت على رسلك فلا والله مابلغت عشرين سنة ولا رأيت فى رأسى شعرة بيضاء ولكننى أحببت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ماتكره منى ، فأنشد ويقال إنه لابن المعتز :

رأين الغوانى الشيب لاح بمفرق — فأعرضن عنى بالخدود النواضر

وقال آخر :

سألتها قبلة يوما وقد نظرت — شيبى وقد كنت ذا مال وذا نعم

فأعرضت وتولت وهى قائلة — لا والذى أوجد الأشياء من عدم

ما كان لى فى بياض الشيب من أرب — أفى الحياة يكون القطن حشو فمى

وقال آخر :

قالت أرى مسكة الشعر البهيم غدت — كافورة قد أحالتها يد الزمن

فقلت طيب بطيب والتنقل فى — معادن الطيب أمر غير ممتهن

قالت صدقت وما أنكرت ذاك بذا — المسك للشم والكافور للكفن

وقال آخر :

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها — سترته عنك ياسمعى ويابصرى

فقهقهت ثم قالت من تعجبها — تكاثر الغش حتى صار فى الشعر

وقال ابن نباتة : تبسم الشيب بوجه الفتى — يوجب سح الدمع من جفنه

وكيف لايبكى على نفسه — من ضحك الشيب على ذقنه

وقال ابن المعتز :

فما أقبح التفريط فى زمن الصبا — فكيف به والشيب فى الرأس شامل

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر :

رأت وضحا فى الرأس منى فراعها — فريقان مبيض به وبهيم

تفاريق شيب فى السواد لوامع — فياحسن ليل لاح فيه نجوم

ويقال فى الرجل إذا شاب : ليله عسعس وصبحه تنفس :

إذا نازع الشيب الشباب فأصلتا — بسيفيهما فالشيب لاشك غالب

وقال آخر : أكان شيب العبد من نقرة القفا — وشيب كرام الناس شيب المفارق

وقال العتبى : قالت عهدتك مجنونا فقلت لها — إن الشباب جنون برؤه الكبر

وقال على بن ربيع :

كبرت

فى دينهم ، وعدّه صاحب مصارع العشاق مع الذين ماتوا غراما . وقال فى كتابه الموسوم بمصارع العشاق : أخبرنا القاضى أبو القاسم التنوخى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة . قال : حدّثنا القاضى أبو الفرج المعافى قال : أنشدنا أبو القاسم مدرك بن محمد الشيبانى لنفسه فى عمرو النصرانى

كبرت ودقّ العظم منى وعقنى ... بنىّ وزالت عن فراشى المعاقد
وأصبحت أعشى أخبط الأرض بالعصا ... يقودننى بين البيوت الولائد

وقال آخر : عريت من الشباب وكنت غصنا ... كما يعرى من الورق القضيب
ونحت على الشباب بدمع عينى ... فما نفع البكاء ولا النحيب
فياليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

وقال ابن النقيب :

وكم كان من عين علىّ وحافظ ... وكم كان من واش لها ورقيب
فلما بدا شيبى اطمأنت قلوبهم ... ولم يحفظونى واكتفوا بمشيبى

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : ماشبهت الشباب إلا كشىء كان فى كمى فسقط .

قال الشاعر : شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناك حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

وقال الجاحظ : أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت فى زمن الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب

ومما جاء فى الخضاب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالخضاب فإنه أهيب لعدوّكم وأعجب لنسائكم » . وعن أبى عامر الأنصارى رضى الله عنه : رأيت أبا بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنه يغير بالحناء والكتم . وقيل : خضاب الحناء يصفى البصر ، ويذهب بالصداع ، ويزيد فى الباه :

تسوّد أعلاها وتأبى أصولها ... وليس إلى ردّ الشباب سبيل

وقيل : وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذى يزن ، فقال له : لو خضبت شعرك فلما رجع إلى مكة اختضب ، فقالت امرأته نبيلة : ما أحسن هذا لو دام ، فقال :

ولو دام لى هذا الخضاب حمدته ... وكان بديلا من خليل قد انصرم
تمتعت منه والحياة قصيرة ... ولابدّ من موت نبيلة أو هرم

وقال آخر : ياخاضب الشيب الذى ... فى كلّ ثالثة يعود
إنّ الخضاب إذا نضا ... فكأنه شيب جديد
فدع المشيب وما يريـ ... ـد فلن يعود كما تريد

وقال محمود الورّاق :

فما منك الشباب ولست منه ... إذا سامتك لحيتك الخضابا

[الفصل الثالث فى العافية والصحة]

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إليك انتهت الأمانى ياصاحب العافية » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أوّل مايحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له : ألم أصحّ بدنك وأروك بالماء البارد » . وقال علىّ رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى - ثم لتسئلنّ يومئذ عن النعيم - هو الأمن ، والصحة ، والعافية . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : يسأل الله العباد عن الأبدان والأسماع والأبصار فيم استعملوها وهو أعلم بذلك . وقال ابن عيينة : من تمام النعمة طول الحياة فى الصحة والأمن والسرور . وقالت عائشة

قال القاضى أبو الفرج . وقد رأيت عمرا وقد ابيضّ رأسه :

من عاشق ناء هواه دان
ناطق دمع صامت اللسان
موثق قلب مطلق الجثمان
معذّب بالصدّ والهجران
من غير ذنب كسبت يداه
لكن هوى نمّت به عيناه
شوقا إلى رؤية من أشقاه
كأنما عافاه من أبلاه
ياويحه من عاشق مايلقى
من أدمع منهلة ماترقا
ذاب إلى أن كاد يفنى عشقا
وعن دقيق الفكر صار دقا

لم يبق منه غير طرف يبكى
بأدمع مثل نظام السلك
تخمد نيران الهوى وتذكى
منهلة قطر السماء تحكى
إلى غزال من بنى النصارى
فضل بالحسن على العذارى
وغادر الأسد به حيارى
فى ربقة الحبّ له أسارى
ريم به أىّ هزبر لم يصد
يقتل باللحظ ولا يخشى القود
متى تقل ها قالت الألحاظ قد
كأنه ناسوته حين اتحد

ياليتنى كنت له زنارا ... يديرنى فى الخصر كيف دارا
حتى إذا الليل طوى النهارا ... صرت له حينئذ إزارا
ياعمرو ناشدتك بالمسيح ... ألا سمعت القول من فصيح
ينبّ عن قلب له جريح ... ليس من الحبّ بمستريح

رضى الله تعالى عنها : لو رأيت ليلة القدر ماسألت الله إلا العفو والعافية . وقال قبيصة بن ذؤيب : كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة فى مرضه : يا أهل النعم لاتستقلوا شيئا من النعم مع العافية ، ويقال : البحر لا جوار له ، والملك لاصديق له ، والعافية لاثمن لها . قال ابن الرومى :

إذا ما كساك الدهر سربال صحة ... ولم تخل من قوت يحل و يعذب

فلا تغبطن أهل الكثير فإنما ... على قدر مايعطيهم الدهر يسلب

ويقال : صحة البدن أوفر القسم ، وذكر بعضهم العافية فقال : وأى وطاء وأى غطاء . وقال حكيم إن كان شيء فوق الحياة فالصحة ، و إن كان شيء مثل الحياة فالغنى ، و إن كان شيء فوق الموت فالمرض ، و إن كان شيء مثل الموت فالفقر . وقال على رضى الله تعالى عنه : ما المبتلى الذى اشتدّ به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذى لايأمن البلاء . وقيل : إنّ فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء فى شدّة ومحنة ، فقالت لها : ماتصنعين ههنا اذهبى معى إلى البيوت التى فيها أنواع النعيم والخصب ، فذهبت معها و إذا صاحب البيت الذى كانت تسكنه قد هيأ لها الرصد لبنة تحتها شحمة فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها فهربت الفأرة البرية وهزّت رأسها متعجبة وقالت : أرى نعمة كثيرة و بلاء شديدا ، ألا و إنّ العافية والفقر أحبّ إلىّ من غنى يكون فيه الموت ثم فرّت إلى البرية . وكان عند رومى خنزير فربطه إلى أسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمنه ، وكان بجنبه أتان لها جحش وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف مايتناثر ، فقال لأمه ياأماه ماأطيب هذا العلف لو دام . فقالت له يابنىّ لاتقربه فإنّ وراءه الطامة الكبرى ، فلما أراد الرومى أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضطرب و ينفخ ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه وأخرج لها أسنانه وقال : و يحك ياأماه انظرى هل بقى فى خلال أسنانى شيء من ذلك العلف فاقلعيه فما أحسن القنع مع السلامة ، والله أعلم بالصواب .

[الفصل الرابع فى أخبار المعمرين فى الجاهلية والإسلام]

قال الحسن رضى الله تعالى عنه : أفضل الناس ثوابا يوم القيامة المؤمن المعمر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بخياركم ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : أطولكم أعمارا فى الإسلام إذا سددوا » وزعموا أن تبعا الفزارى كان من المعمرين ، وأنه دخل على بعض خلفاء بنى أمية فسأله عن عمره ، فقال : عشت أربعمائة وعشرين سنة فى فترة عيسى بن مريم عليه السلام فى الجاهلية ، وستين فى الإسلام ، قال له : أخبرنى عما رأيت فى سالف عمرك ؟ قال : رأيت الدنيا ليلة فى أثر ليلة و يوما فى أثر يوم ، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق ومفرق مال مجموع و بين قوىّ يظلم ، وضعيف يظلم ، وصغير يكبر ، وكبير يهرم ، وحىّ يموت ، وجنين يولد ، وكلهم بين مسرور بموجود ، ومحزون بمفقود . وقد قال ابن الجوزى : إنّ آدم عليه السلام عاش ألف سنة ، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة ، وعاش ابنه مهلاييل ثمانمائة وخمسا وتسعين سنة ، وعاش ابنه إدريس ثلثمائة وخمسا وتسعين سنة ، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنتين وستين سنة ، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة ، وأما ابنه نوح عليه السلام فروى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : عاش نوح عليه السلام ألفا وأربعمائة وخمسين عاما . وأما الخضر عليه السلام

يامعربو بالحق مع اللاهوت ... والروح روح القدس والناسوت ... ذاك الذى فى مهده المنعوت ... عوض بالنطق عن السكوت
بحق ناسوت ببطن مريم (٣٦) حلّ محلّ الريق منها بالفم ... ثم استحال فى القنوم الأقدم ... يكر الناس ولما يفطم
بحق من بعد الممات قمصا
يوما على مقداره ماقصصا
وكان لله تقيا مخلصا
يشفى و يبرى أكمها
وأبرصا
بحق محى صورة الطيور
وباعث الموتى من القبور
ومن إليه مرجع الأمور
يعلم مافى البرّ والبحور
بحق من فى شامخ الصوامع
من ساجد لربه وراكع
يبكى إذا مانام كل هاجع
خوفا من الله بدمع هامع
بحقّ قوم حلقوا الرءوسا
وعالجوا طول الحياة بوسا
وقرعوا فى البيعة الناقوسا
مشمعلين يعبدون عيسى
بحق مار مريم و بولس
بحق شمعون الصفا
و بطرس
بحق دانيل بحق يونس
بحق حزقيل و بيت المقدس
ونينوى إذ قام يدعو ربه
مطهرا من كل سوء قلبه
ومستقيلا فأقيل ذنبه
ونال من مولاه ما أحبه
بحق مافى قلة البرون
من نافع الأدواء للمجنون
بحق مايؤثر عن شمعون
من بركات النخل
والزيتون
بحق أعياد الصليب الزهر
وعيد شمعون وعيد الفطر
و بالشعانين الجليل القدر ... وعيد مرمارى الرابع الذكر ... واسمه
وعيد شعياء وبالهياكل ... والدخن اللاتى بكف الحامل ... يشق بها من خبل كل خابل ... ومن دخيل السقم فى المفاصل

بحق سبعين من العباد   قاموا بدين الله فى البلاد   وأرشدوا الناس إلى الرشاد   حتى اهتدى من لم يكن بهاد

بحق ثنتى عشرة من الأمم   ساروا إلى الأمصار يتلون الحكم   حتى إذا صبح الهدى جلا الظلم

واسمه حضرون فهو أطول بنى آدم عمرا . وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وكانت العرب لاتعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها ، وعاش أكثم بن صيفى ثلثمائة وستين سنة وأدرك الاسلام ، وعاش سطيح سبعمائة سنة . وعاش قس بن ساعدة الإيادى سبعمائة سنة وكان من حكماء العرب ، وعاش لبيد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة وأدرك الاسلام ، وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الاسلام ولم يسلم . ومن المعمرين عدى بن حاتم الطائى وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة ، ومن المعمرين ذو الأصابع العدوى عاش مائتين وعشرين سنة وهو أحد حكماء العرب فى الجاهلية ، ومن المعمرين عمرو بن معديكرب الزبيدى ، ومن المعمرين عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمائة وعشرين سنة وأدرك الاسلام وقد رأيت رجلا من أهل محلة مسير بالغربية وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة وأن امرأته بلغت من العمر كذلك ولقد رأيت منه ما لم أر من بعض شبان هذا العصر فى القوة وشدة البأس ورأيت له ولدا شيخا هو أشد قوة من ولده وذلك فى صفر سنة تسع وعشرين وثمانمائة والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب التاسع والأربعون فى الأسماء والكنى والألقاب وما استحسن منها

وأشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى : هل تعلم له سميا ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من رفع قرطاسا من الأرض مكتوبا عليه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالا له ولاسمه عن أن يداس كان عند الله من الصديقين وخفف عنه وعن والديه العذاب وإن كانا مشركين» وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يرن إبليس لعنه الله قط إلا ثلاث رنات رنة حين لعن وأخرج من ملكوت السموات والأرض ورنة حين ولد محمد صلى الله عليه وسلم ورنة حين أنزلت سورة الحمد وفى أولها بسم الله الرحمن الرحيم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم وإن أمتى يأتون يوم القيامة يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتثقل حسناتهم فى الميزان فتقول الأمم ما أثقل موازين أمة محمد فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق فى كفة لرجحت كفة الأسماء» .

وأما الأسماء والكنى : فى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحب أسمائكم إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة» وينبغى أن تنادى من لاتعرف اسمه بعبارة لطيفة لا يتأذى بها ولا يكون فيها كذب كقولك يا فقيه يا أخى يا فقير يا سيدى يا صاحب الثوب الفلانى أو البغل الفلانى أو الفرس الفلانى أو السيف الفلانى وما أشبه ذلك . ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام من ذهب فيه ألف مثقال فقال له أسألك عن شىء إن أجبتنى عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجام بما فيه فقال سل يا أمير المؤمنين قال أسألك عن شىء له اسم ولا كنية له وعن شىء له كنية ولا اسم له قال المنارة وأبو رياح فعجب المتوكل وأعطاه الجام بما فيه وقيل لعثمان ذو النورين رضى الله عنه لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين فى الاسلام وقيل لأنه تزوج برقية ثم بأم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يوجد من تزوج بابنتى نبى غيره ، وكان قتادة بن النعمان الأنصارى

ساروا إلى الله ففازوا بالنعم
بحق ما فى محكم الإنجيل
من منزل التحريم والتحليل
وخبر ذى نبأ جليل
يرويه جيل قد مضى عن جيل
بحق مرعيد التقى الصالح
بحق لوقا بالحكيم الراجح
والشهداء بالفلا الصحاصح
من كل غاد منهم ورائح
بحق معمودية الأرواح
والذبح المشهور فى النواحى
ومن به من لابس الأمساح
من راهب باك ومن نواح
بحق تقريبك فى الأعياد
وشربك القهوة كالفرصاد
مما بعينك من السواد
بطول تقطيعك للأكباد
بحق ماقدس شعيا فيه
بالحمد لله وبالتنزيه
بحق نسطور وما يرويه
عن كل ناموس له فقيه
شيخان كانا من شيوخ العلم
وبعض أركان التقى والحلم
لم ينطقا قط بغير الفهم
موتهما كان حياة الخصم
بحرمة الأسقف والمطران
والجاثليق العالم الربانى
والقس والشماس والديرانى
والبطرق الأكبر والرهبان

بحرمة الصوص فى أعلى الجبل   ومار قولا حين صلى وابتهل   وبالكنيسات القديمات الأول   وبالمسيح المرتضى وما فعل

بحرمة الأسقوفيا والبيرم   وما حوى مغفر رأس مريم   بحرمة الصوم الكبير الأعظم   بحق كل بركة ومحرم

رضى الله تعالى عنه أصيب فى عينه يوم أحد فسقطت على خده فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن وأصح من الأخرى فكانت تعتل أى ترمد عينه الباقية ولا تعتل عينه المردودة فقيل له ذوالعينين وقال أبوهريرة رضى الله تعالى عنه كنيت بهرة صغيرة كنت أحملها فى حجرى فألعب بها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أباهريرة واختلف فى اسمه فقيل عبدالرحمن وقيل عبد شمس وقيل عمير وقيل سليمان. وقال الشعبى رضى الله تعالى عنه كنية الدجال أبو يوسف. ذو الشهرة أبودجانة الأنصارى رضى الله تعالى عنه كان له شهرة يلبسها بين الصفين. ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم وولى رياسة الجيوش والدواوين ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا فقال:

اليــوم يوم المهرجان هديتى فيــه اللسان لك دولتان حديثــة
وقديمــة ورياستان لك فى الورى من هاشم نبت وبيت خسروان
علم الخليفة كيف أنـ ت فصرت فى هذا المكان

فأمر له بجميع الهدايا. المطيبون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب ونعيم بن مرة والحرث بن فهر غمسوا أيديهم فى خلوف ثم تحالفوا. شيبة الحمد عبد المطلب لقب بشيبة كانت فى رأسه حين ولد قال حذافة:

بنو شيبة الحمد الذى كان وجهه يضىء ظلام الليل كالقمر البدر

وقيل له عبد المطلب لأن عمه المطلب مر به فى سوق مكة مردوفا له فجعلوا يقولون من هذا الذى وراءك فيقول عبدلى. سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه اسمه عبد الله ولقباه العتيق والصديق لجماله وتصديقه بخبر الاسراء أو لأنه أول من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه لقب بالفاروق لأنه قال يوم أسلم لايعبد الله اليوم سرا فظهر به الاسلام وفرق بين الحق والباطل. الكامل سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه لأنه كان يكتب ويحسن الرمى والعوم. طلحة بن عبد الله رضى الله تعالى عنه كان يقال له طلحة الخير وطلحة الفياض وطلحة الطلحات لسخائه. رشح الحجر وأبو الزبان عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبخره. عكة العسل سعيد بن العاص رضى الله تعالى عنه. الحبر عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه لقب بذلك لعلمه كان يقال له مرة الحبر ومرة البحر. الأشدق عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق. الفياض عكرمة بن ربعى لقب بذلك لسخائه. المصطلق خزيمة بن سعد الخزاعى قيل له المصطلق لحسن صوته وشدته وكان أول من غنى من خزاعة. راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به فاذا رأوه قالوا راح يكذب. واصل الغزال كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين وكان يتتبع العجائز فيتصدق عليهم ولم يكن غزالا. سليمان التيمى كان داره ومسجده فى بنى تيم ولم يكن منهم وهو شيبانى. أبو عمرو الشيبانى لم يكن من بنى شيبان وإنما كان يعلم يزيد بن مزيد الشيبانى. اليزيدى كان يعلم يزيد بن منصور الحميرى فنسب إليه. ذو القروح امرؤ القيس كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة فقرحته. وقالوا لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا العرب وهى مفاخرهم وقال بعضهم:

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءة اللقب

بالفصح يامهذب الأخلاق والذهب الابريز لا الأوراق وليلة الميلاد والتلاق بحق يوم الدنح فى الاشراق
وقربوا يوم خميس الناس قدسه القس مع الشماس بكل قداس على قداس
وقدموا الكاس لكل حاس

إلا رغبت فى رضا أديب باعده الحب عن الحبيب فذلك من شوق إلى المذيب أعلى سناه أيسر التقريب النظر أميرى فى صلاح أمرى محتسبا فى عظيم الأجر مكتسبا من جميل الشكر من نثر ألفاظ ونظم شعر. قلت والشئ بالشئ يذكر الشيخ محرك ألجأته الضرورة الغرامية أن يتجشم المشاق ويتقرب إلى محبوبه بأقسام لها عند أهل دين النصرانية محل عظيم الموقع كما ألجأت الشيخ مهذب الدين بن منير الطرابلسى الشاعر المشهور أن يترك التشيع وكان من كبار الشيعة ويرجح جانب السنة ويوهى أقوال الرافضة وموجب ذلك أن مهذب الدين المذكور هاجر إلى بغداد بسبب مدح الشريف الموسوى نقيب الأشراف بها وكان الشريف أيضا من كبار الشيعة فلما دخل بغداد جهز إلى الشريف هدية مع مملوكه بل معشوقه تتر الذى سارت الركبان بغرامه فيه فأخذ الهدية وأعجبه المملوك فأخذه فلما وصل الخبر إلى مهذب الدين بن منير أشرف على ذهاب روحه وكتب إلى الشريف وإلى تتر: وقيل

عذبت طرفى بالسهر وأذبت قلبى بالفكر

ومزجت صفو مودتى　من بعد بعدك بالكدر　ومنحت جثمانى الضنا　وكحلت جفنى بالسهر

وجفوت صبا ماله　عن حسن وجهك مصطبر　ياقلب ويحك كم تخا دع بالغرور وكم تغر

وقيل فى قوله تعالى ـ فقولا له قولا لينا ـ أى كنياه ، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر ولم ينفلق أوحى الله تعالى إليه أن كنه ، فقال : انفلق أبا خالد ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

وأما الألقاب . فقد قال الله تعالى ـ ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ـ سماه الله تعالى فسوقا ، واتفق العلماء رضى الله تعالى عنهم على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لايعرف إلا بذلك كالأعمش والأعمى والأعرج والأحول والأفطس والأقرع ونحو ذلك ، وقل من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم يزل فى الأمم كلها يجرى فى المخاطبات والمكاتبات من غير نكير غير أنها كانت تطلق على حسب الموسومين . وأما مااستحسن من تلقيب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل ، وذهب التفاوت ، وانقلب النقص والشرف شرعا واحدا فمنكر وهب أن العذر مبسوط فى ذلك فما العذر فى تلقيب من ليس من الدين فى دبير ولا قبيل ، ولا له فيه ناقة ولا فصيل ، بل هو محتو على مايضاد الدين ، و ينافى كمال الدين وشرف الإسلام ، وهى لعمر الله النعمة التى لاتساغ ، والغبن الذى يعجز الصبر دونه فلا يستطاع ، نسأل الله تعالى إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وأن يصلح فسادنا ، و يوقظ غافلنا . الرجل يكنى باسم ولده والمرأة كذلك ، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التفاؤل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له ، وقد يكنون بما يلائم المكنى من غير الأولاد كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى على رضى الله تعالى عنه «أبو تراب» وذلك أنه نام فى غزوة ذى العشيرة فذهب به النوم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متمرغ فى التراب ، فقال له : اجلس أبا تراب وكان أحب أسمائه إليه ، وكقولهم : أبى لهب لحمرة خديه ولونه . وقال الزمخشرى رحمه الله تعالى : وسمعتهم يكنون الكبير الرأس والعمامة بأبى الرأس وأبى العمامة ، وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية : ياأبا الطويلة ، وسمعت عرب البحيرة يكنون بأسماء بناتهم كأبى زهو ، وأبى سلطانة ، وأبى ليلى ونحو ذلك ولا حرج فى ذلك ، وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبى فلانة : منهم سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان له ثلاث كنى : أبو عمرو ، وأبو عبدالله ، وأبو ليلى . ومنهم أبو أمامة ، وأبو رقية تميم الدارى ، وأبو كريمة المقداد بن معديكرب وكثير من الصحابة ومن التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . أبو عائشة مسروق بن الأجدع ، وكان لأنس أخ صغير وله نغير يلعب به فمات ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه حزينا ، فقال : ماشأنه ؟ فقالوا : مات نغيره ، فقال ياأبا عمير مافعل النغير ، ونظر المأمون إلى غلام حسن فى الموكب ، فسأله عن اسمه ، فقال : لاأدرى ، فقال :

تسميت لاأدرى فإنك لاتدرى　بما فعل الحب المبرح فى صدرى

وعن على رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إذا سميتم الولد محمدا فأكرموه ووسعوا له فى المجلس ولا تقبحوا له وجها » . وعنه « مامن قوم كان بينهم مشورة فحضر معهم من كان اسمه محمد أو أحمد فأدخلوه فى مشورتهم إلا كان خيرا لهم ، ومامن مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه محمد أو أحمد إلا قدس الله ذلك المنزل فى كل يوم مرتين كل ذلك ببركة هذا الاسم الشريف . ومما جاء فى مدح الأسماء منظوما . قال بعضهم فى مليح اسمه إبراهيم :

رأيت حبيبى فى المنام معانقى　وذلك للمهجور مرتبة عليا

والإثم تكاف بالأغن
من الظباء و بالأغر
ريم يفوق إن رما
ك بسهم ناظره النظر
تركتك أعين تركها
من بأسهن على خطر
ورمت فأصمت عن قسى
ى لايناط بها وتر
جرحتك جرحا لايخيـ
ـط بالخيوط ولا الإبر
تلهو وتلعب بالعقو
ل عيون أبناء خزر
فكأنهن صوالج
وكأنهن لها أكر
تخفى الهوى وتسره
وخفى سرك قد ظهر
أنهل لوجدك من مدى
يقضى إليه فينتظر
نفسى الفداء لشادن
أنا من هواه على خطر
رشأ تحاوله الخوا
طر إن تثنى أو خطر
عذل العذول وما رآ
ه فحين عاينه عذر
قمر يزين ضوء صبـ
ـح جبينه ليل الشعر
تدمى المواحظ خده
فترى لها فيه أثر
هو كالهلال ملثما
والبدر حسنا إن سفر
ويلاه ماأحلاه فى
قلبى الشقى وما أمر

نومى المحرم بعده　وربيع لذاتى صفر　بالمشعرين وبالصفا　والبيت أقسم والحجر

وبمن سعى فيه وطا　ف ولبى واعتمر　لان الشريف الموسوى　ابن الشريف أبى مضر

وقد رقّ لى من بعد هجر وقسوة | وماضرّ إبراهيم لوصدق الرؤيا

وفيه أيضا: لازال بابك كعبة محجوجة | وترابها فوق الجباه وسيم
حتى ينادى فى البقاع بأسرها | هـذا المقام وأنت إبراهيم

وفيه أيضا: ياسمىّ الخليل إنّ فؤادى | فيه من لوعة الغرام جحيم
وعجيب ياقاتلى أن قلبى | فيه نار وأنت فيه مقيم

ولبعضهم فى مليح اسمه عمر:

ياأعدل الناس أسما كم تجور على | فؤاد مضناك بالهجران والبين
أظنهم سرقوك القاف من قمر | وأبدلوها بعين خيفة العين

وفيه أيضا: ماعليهم فى الهوى لونظروا | حين سموك فقالوا عمر
أبدلوا قافك عينا غلطا | أخطئوا ماأنت إلا قمر

ولبعضهم فى مليح حامل شمعة موقودة اسمه عثمان:

وافى إلىّ بشمعة وضياؤها | وضياؤه حكيا لنا القمرين
ناديته ما الاسم يا كل المنى | فأجابنى عثمان ذو النورين

ولبعضهم فى مليح اسمه يوسف:

يامن سبى الشعراء غل عذار | النجم يشهد لى بأنى مدنف
صيرت قلبى من صدودك فاطر | فامنن علىّ بزورة يايوسف

وللصفى الحلى فيمن اسمه داود:

ونقت بأن قلبى من حديد | وفيه على الهوى بأس شديد
فلان على هواك ولا عجيب | إذا داود لان له الحديد

وله فيمن اسمه موسى:

أتى موسى بآية خال خده | حوته صوارم الحدق المراض
فآية ذا بياض فى سواد | وآية ذا سواد فى بياض
لهذا بضد ماقد جاء موسى | بحكم الله فى الحقب الماضى

وللقرطبى فى مليح اسمه بدر:

سموه بدرا وذاك لما | أن فاق فى حسنه وعما
وأجمع الناس إذا رأوه | بأنه اسم على مسمى

ولمؤلفه رحمه الله تعالى فى قاضى القضاة علم الدين صالح البلقيني

وعظ الأنام إمامنا الحبر الذى | سكب العلوم كبحر فضل طافح
فشق القلوب بعلمه وبوعظه | والعلم يشفى إن يكن من صالح

وتوجهت مرة إلى بلتاج لأجتمع بالحاج خليل بن منصور فى ضرورة فلم أجده ولم يقم أحد من إخوته بقضاء ماتوجهت بسببه فقلت:

خصال خليل كلهنّ حميدة | وأوصافه تزرى بكل جميل
فلاخير فى بلتاج إن لم يكن بها | ولا خير فى الدنيا بغير خليل

وقال آخر فى مقبل:

أبدى الجحود ولم يرد | إلى مملوكى تستر | والبيت آل أمية الطا | هر الياسمين الزرر
وجحدت بيعة حيدر (٤٠) وعدلت عنه إلى عمر | وإذا جرى ذكر الصحا | بة بين قوم واشتهر
قلت المقدم شيخ تيـ | ـم ثم صاحبه عمر
ماسلّ قط ظبا على | آل النبىّ ولاشهر
كلا ولا صدّ البتو | ل عن التراث ولا زجر
وأثابها الحسنى وما | شق الكتاب ولابقر
وبكيت عثمان الشهيـ | ـد بكاء نسوان الحضر
وشرحت حسن صلاته | جنح الظلام المعتكر
وقرأت من أوراق مصـ | ـحفه البراءة والزمر
ورثيت طلحة والزبيـ | ـر بكل شعر مبتكر
وأزور قبرهما وأز | جر من لحانى أو زجر
وأقول أم المؤمنيـ | ـن عقوقها إحدى الكبر
ركبت على جمل لتصـ | ـلح من بنيها فى زمر
وأتت لتصلح بين جيـ | ـش المسلمين على غرر
فأتى أبو حسن وسـ | ـل حسامه وسطا وكر
وأذاق إخوته الردى | وبعير أمهم عقر
ماضرّه لوكان كفّ | وعف عنهم إذ قدر
وأقول إن إمامكم | ولى بصفين وفر
وأقول إن أخطا معا | وية فما أخطا القدر
هـذا ولم يغدر معا | وية ولا عمرو مكر
بطل بسوأته يقا | تل لابصارمه الذكر
وجنيت من رطب النوا | صب ماتمر واختمر
وقال

وقال آخر فى مقبل :

يامن تحجب عن محب صادق ... مازال عنه كل يوم يسأل

من لى بيوم فيه تسمح باللقا ... ويقال لى هذا حبيبك مقبل

ولبعضهم فى مليح اسمه محسن :

وأهيف يعلو على عشاقه ... برتبة من الجمال نالها

واسمه وهو العجيب محسن ... وكم دموع فى الهوى أسالها

ولصفى الدين الحلى فى اسم حسين :

حبيبى وافر والشوق منى ... طويل والهوى عندى مديد

وأعجب أننى أهوى حسينا ... وشوقى فى محبته يزيد

ومما قيل فى أسماء النساء فى فاطمة :

عجبت من فاتنة لم تزل ... لمرتجى الوصل لها فاطمه

تنكر ما ألقاه من وجدها ... وهى بشوقى والجوى عالمه

وقال ابن مكانس فى اسم عائشة :

يادهر جرنى بحقك واشفنى ... فسهام فكرى فى أمورك طائشه

أيحل أنى فى المحبة ميت ... وحبيبتى من بعد موتى عائشه

وقال شمس الدين البديرى فى اسم حليمه :

ولما رأتنى فى هواها متيما ... أكابد من حرّ الغرام أليمه

فجادت بطيب الوصل منها ولم تجر ... ومن أين تدرى الجور وهى حليمه

ولبعضهم فى اسم بركة « دوبيت » :

لما نصب الهوى لقلبى شركه ... ناديت وقلبى تارك من تركه

ياقلب أفق ولا تمل لشركه ... تغنيك سنين ساعة من بركه

مردوفا أيضا :

لما نصب الهوى لقلبى شركه فى كل طريق * ناديت وقلبى تارك من تركه

* لو كان يفيق ياقلب أفق ولا تمل لشركه ما الشرك يليق *

تغنيك سنين ساعة من بركه عن كل صديق *

ولو تتبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات ، ولكن فيما ذكرته كفاية والله الموفق وأسأله العناية ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم :

الباب الخمسون فيما جاء فى الأسفار والاغتراب ، وماقيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ماجاء فى الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان ، فقد قال الله تعالى : هوالذى جعل لكم الأرض ذلولا الآية ، وفى الأثر : سافروا تغنموا . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر وهوميزان الأخلاق إن الله بالمسافر رحيم » ويقال : الحركة ولود والسكون عاقر وقال حكيم :

وأقول ذنب الخارجيـ ... ـن على علىّ مغتفر ... لا ثأر لقتالهم ... فى النهروان ولا أثر

والأشعرىّ بما يئو ... ل إليه أمرهما شعر ... قال انصبوا لى منبرا (٤١) فأنا البرىء من الخطر

فعلا وقال خلعت صا ... حبكم وأوجز واختصر

وأقول إن يزيد ما ... شرب الخمور ولا فجر

ولجيشه بالكف ... عن أبناء فاطمة أمر

والشمر ماقتل الحسيـ ... ـن ولا ابن سعد ماغدر

وحلقت فى عشر المحـ ... ـرم مااستطال من الشعر

ونويت صوم نهاره ... وصيام أيام أخر

ولبست فيه أجلّ ثو ... ب للملابس يدخر

وسهرت فى طبخ الحبو ... ب من العشاء إلى السحر

وغدوت مكتحلا أصا ... فح من لقيت من البشر

ووقفت فى وسط الطريـ ... ـق أقص شارب من عبر

وأكلت جرجير البقو ... ل بلحم جونى الجفر

وجعلتها خير المآ ... كل والفواكه والخضر

وغسلت رجلى كلها ... ومسحت خفى فى السفر

وأمين أجهر فى الصلا ... ة كمن بها قبلى جهر

وأسنّ تسنيم القبو ... ر لكل قبر يحتفر

وإذا جرى ذكر الغديـ ... ـر أقول ماصح الخبر

وسكنت جلق واقتديـ ... ـت بهم وإن كانوا بقر

وأقول مثل مقالهم ... بالقاشر ياقدقشر ... مصطيحق مكسورة ... وفطيرتى فيها قصر

بقر ترى برئيسهم ... طيش الظليم إذا نفر ... وخفيفهم مستثقل ... وصواب قولهم هذر

السفر يسفر عن أخلاق الرجال ، وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقا عليه فقال يوما :

ألا خلنى أمضى لشأنى ولا أكن … على الأهل كلا إن ذا لشديد
تهيبنى ريب المنون ولم أكن … لأهرب عما ليس منه محيد
فلو كنت ذا مال لقرّب مجلسى … وقيل إذا أخطأت أنت رشيد
فدعنى أجول الأرض عمرى لعله … يسرّ صديق أو يغاظ حسود

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالدلجة فان الأرض تطوى بالليل ولا تطوى بالنهار » وقال كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن يسافر الرجل فى غير رفقة ، وقال صلى الله عليه وسلم « الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا خرج ثلاثة فى ركب فليؤمروا أحدهم » .

وقيل : أغار حذيفة بن بدر على هجان النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار فى ليلة مسافة ثمانى ليال فضرب به المثل ، وقال قيس بن الخطيم :

هممنا بالإقامة ثم سرنا … مسير حذيفة الخير بن بدر

وسار ذكوان مولى عمر رضى الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة فى يوم وليلة . وقال المأمون : لاشىء ألذ من السفر فى كفاية وعافية لأنك تحل كل يوم فى محلة لم تحل فيها وتعاشر قوما لم تعرفهم .

ومما قيل فى ترك الاقامة بدار الهوان :

قال الفرزدق :

وفى الأرض عن دار القلى متحوّل … وكل بلاد أوطنتك بلاد

وقال آخر: وماهى إلا بلدة مثل بلدتى … خيارهما ما كان عونا على دهر

وقال آخر: وإذا البلاد تغيرت عن حالها … فدع المقام وبادر التحويلا
ليس المقام عليك فرضا واجبا … فى بلدة تدع العزيز ذليلا

وقال الصفى الحلى :

تنقل فلذات الهوى فى التنقل … ورد كل صاف لاتقف عند منهل
ففى الأرض أحباب وفيها منازل … فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل
ولا تستمع قول امرىء القيس إنه … مضل ومن ذا يهتدى بمضلل

وقال عبد الله الجعدى :

فإن تجف عنى أو تزرنى إهانة … أجد عنك فى الأرض العريضة مذهبا

ومما قيل فى الوداع والفراق والشوق والبكاء قال جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم … يوم الرحيل فعلت مالم أفعل

وقيل لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير : ما كان جدك صانعا فى قوله فعلت مالم أفعل قال كان يقلع عينيه حتى لايرى مظعن أحبابه ثم أنشد يقول :

وما وجد مغلول بصنعاء موثق … بساقيه من ماء الحديد كبول
قليل الموالى مسلم بجريرة … له بعد نومات العيون أليل
يقول له الحدّاد أنت معذب … غداة غد أومسلم فقتيل
بأكبر منى لوعة يوم راعنى … فراق حبيب ما إليه سبيل

وطباعهم بجبالهم . خبثت وقدّت من حجر … مايدرك التشبيب ته … ريد البلابل فى السحر
وأقول فى يوم نحا (٤٢) رله البصائر والبصر … والصحف ينشر طيها … والنار ترمى بالشرر

هذا الشريف أضلنى
بعد الهداية والنظر
مالى مضلّ فى الورى
إلا الشريف أبومضر
فيقال خذ بيد الشري
ف فمستقر كما سقر
لوّاحة تسطو فما
تبق عليه ولا تذر
والله يغفر للمسى
ء إذا تنصل واعتذر
فاخش الإله بسوء فع
لك واحتذر كل الحذر
وإليكها بدوية
رقت لرقتها الحضر
شامية لو شامها
قس الفصاحة لافتخر
ودرى وأتقن أنتى
بحر وألفاظى درر
حبرتها فغدت كزه
رالروض باكره المطر
وإلى الشريف بعثتها
لما قرأها وانبهر
ردّ الغلام وما استمرّ
على الجحود ولا أصرّ
وأثابنى وجزيته
شكرا وقال لقد صبر

(ومن لطائف المنقول)
مانقله الشيخ الامام العالم العلامة الحبر زين الدين أبو حفص عمر ابن الوردى رحمه الله تعالى لما دخل دمشق المحروسة فى أيام قاضى القضاة نجم الدين بن مصرى الشافعى تغمده الله برحمته ورضوانه فأجلسه فى صفة الشهود المعروفة بالشباك وكان الشيخ زين الدين يلبس زى أهل المعرة فاستزراه الشهود فحضر كتاب مشترى فقال بعضهم أعطوا المعرى يكتبه وقال

فقال الشيخ زين الدين ترسمون أأكتبه نظما أو نثرا فزاد استهزاؤهم فقالوا نظما فأخذ القرطاس وكتب :

باسم إله الخلق هذا ماشترى محمد بن يونس بن سنقرا من مالك بن أحمد بن الأزرق .

وقال الشاعر : وماأم خشف طول يوم وليلة ببلقعة بيداء ظمآن صاديا

تهيم ولا تدرى إلى أين تبتنى موطهة حزنا تجوز الفيافيا أضر بها حر الهجير فلم تجد

لغلتها من بارد الماء شافيا إذا بعدت عن خشفها انعطفت له فألفته ملهوف الجوانح طاويا

بأوجع منى يوم شدوا حمولهم ونادى منادى البين أن لاتلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة قال لى المهدى ياماجشون ماقلت حين فارقت أحبابك قال قلت ياأمير المؤمنين :

لله باك على أحبابه جزعا قد كنت أحذرهذا قبل أن يقعا ماكان والله شؤم الدهر يتركنى

حتى يجرّ عنى من بعدهم جرعا إن الزمان رأى إلف السرور لنا فدب بالبين فيما بيننا وسعى

فليصنع الدهر بى ماشاء مجتهدا فلا زيادة شئ فوق ماصنعا

فقال والله لأغنينك فأعطاه عشرة آلاف دينار :

وقال آخر : وقفت يوم النوى منهم على بعد ولم أودعهم وجدا و إشفاقا

إنى خشيت على الاظعان من نفسى ومن دموعى إحراقا و إغراقا

وقال عمر بن أحمد :

أنى الرحيل فحين جد ترحلت مهج النفوس له عن الأجساد

من لم يبت والبين يصدع قلبه لم يدر كيف تفتت الأكباد

وحكى بعضهم قال دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون فى شباك وهو ينشد شعرا فقلنا له أحسنت فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به وقال أمثلى يقال أحسنت ففررنا منه ، فقال أقسمت عليكم إلا مارجعتم حتى أنشدكم فان أنا أحسنت فقولوا أحسنت و إن أنا أسأت فقولوا أسأت فرجعنا إليه فأنشد يقول :

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمو وحملوها وسارت بالدمى الابل

وقلبت بخلال السجف ناظرها يرنو إلىّ ودمع العين ينهمل

وودعت ببنان زانه عنم ناديت لاحملت رجلاك ياجمل

ياحادى العيس عرّج كى أودعهم ياحادى العيس فى ترحالك الأجل

إنى على العهد لم أنقض مودتهم ياليت شعرى لطول البعد مافعلوا

فقلنا له ماتوا فقال والله وأنا أموت ثم شهق شهقة فاذا هو ميت رحمه الله تعالى :

وقال آخر : لما علمت بأن القوم قد رحلوا وراهب الدير بالناقوس مشتغل

شبكت عشرى على رأسى وقلت له ياراهب الدير هل مرت بك الابل

فحن لى وبكى بل رق لى ورثى وقال لى يافتى ضاقت بك الحيل

إن الخيام التى قد جئت تطلبهم بالأمس كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين ابن العربى رحمه الله تعالى :

مارحلوا يوم ساروا البزل العيسا إلا وقد حملوا فيها الطواويسا

من كل فاتكة الألحاظ مالكة تخالها فوق عرش الدر بلقيسا

إذا تمشت على صرح الزجاج ترى شمسا على فلك فى حجر إدريسا

كلاهما قد عرف من جلق
فباعه قطعة أرض واقعه
بكورة الغوطة وهى جامعه
لشجر مختلف الأجناس
والأرض فى البيع مع الغراس
وذرع هذى الأرض بالذراع
عشرون فى الطول بلا انتزاع
وذرعها فى العرض أيضا عشر
وهى ذراع باليد المعتبره
وحدها من قبلة ملك التقى
وحائز الروم حد المشرق
ومن شمال ملك أولاد على
والغرب ملك عامل بن جهبل
وهذه تعرف من قديم
بأنها قطعة بيت الرومى
بيعا صحيحا لازما شرعيا
ثم شراء قاطعا مرعيا
بثمن مبلغه من فضه
وازنة جيدة مبيضه
جارية للناس فى المعامله
ألفان منها النصف ألف كامله
قبضها البائع منه وافيه
فعادت الذمة منه خاليه
وسلم الأرض إلى من اشترى
فقبض القطعة منه وجرى
بينهما بالبدن التفرق
طوعا فما لأحد تعلق
ثم ضمان الدرك المشهور
فيه على بائعه المذكور

وأشهد عليهما بذاك فى رابع عشر رمضان الأشرف من عام سبعمائة وعشره من بعد خمس تلوها الهجره

والحمد لله وصلى ربى على النبى وآله والصحب يشهد بالمضمون هذا عمر بن المظفر المعرى إذ حضر

فلما فرغ الشيخ زين الدين وتأمل الجماعة سرعة بديهته مع استيعاب الشروط الشرعية اعترفوا بفضله واعتذروا إليه لما علموا أنه ابن الوردي وأجلسوه في الصدر (٤٤) ولكنهم عجزوا عن رسم الشهادة نظما وسألوه ذلك فكتب عن شخص منهم إلى جانبه يدعى ابن رسول :

قد حضر العقد لذاك أحمد ابن رسول و بذاك يشهد

(تحفة من فوائد كتاب الإنشاء) قال عبد الحميد كاتب مروان آخر ملوك بني أمية لو كان الوحي نزل على أحد بعد الأنبياء لنزل على كتاب الإنشاء . وقال البلاغة هي ما رضيته الخاصة وفهمته العامة ومن كلامه خير الكلام ما كان خلا ومعناه بكرا (إسمعيل ابن صبيح كاتب الرشيد) كتب إلى يحيي بن خالد في شكر : ماتقدم من إحسانك شاغل عن استبطاء ماتأخر منه، جمع من الشكر والاستزادة بأبلغ عبارة وأوجز . (عمرو بن مسعدة كاتب المأمون) كتب إليه كتابي هذا وأجناد أمير المؤمنين على أحسن مانكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم ، فقال المأمون لأحمد بن يوسف لله در عمرو ما أبلغه ألا ترى إلى إدماجه المسئلة في الاخبار وإعفائه من الاكثار (إبراهيم الصولي كاتب المعتصم والواثق والمتوكل) كان يقول للتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل من منشئه ، وكان يقول الخبز ليومه والطبيخ لساعته والنبيذ لسنته . ومن بديع نثره ما كتبه عن أمير المؤمنين إلى بعض الخارجين وقال

أسقفة من بنات الروم عاطلة ترى عليها من الأنوار ناموسا
وحشية مالها أنس قد اتخذت في بيت خلوتها للذكر ناوسا
إن أومأت تطلب الإنجيل تحسبهم قساقسا أو بطاريقا شمامسا
ناديت إذ رحلوا للبين ناقتها يا حادي العيس لاتحدو بها العيسا
غيبت أجناد صبري يوم بينهم على الطريق كراديسا كراديسا
ساروا وأصبحت أنبي الربع بعدهمو والوجد في القلب لاينفك مغروسا

وقال آخر

ولما تبدت للرحيل جمالنا وجد بنا سير وفاضت مدامع
تبدت لنا مذعورة من خبائها وناظرها باللؤلؤ الرطب دامع
أشارت بأطراف البنان وودعت وأومت بعينيها متى أنت راجع
فقلت لها والله ما من مسافر يسير ويدري مابه الله صانع
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها فسالت من الطرف الكحيل مدامع
وقالت إلهي كن عليه خليفة فيارب ما خابت لديك الودائع

وقال آخر : ياراحلا وجميل الصبر يتبعه هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ما أنصفتك دموعي وهي دامية ولا وفى لك قلبي وهو يحترق

وقال البغدادي :

قالت وقد نالها للبين أوجعه والبين صعب على الأحباب موقعه
اجعل يديك على قلبي فقد ضعفت قواه عن حمل ما فيه وأضلعه
واعطف على المطايا ساعة فعسى من شتت شمل الهوى بالبين يجمعه
كأنني يوم ولت حسرة وأسى غريق بحر يرى الشاطي ويمنعه

وقال ابن البديري :

قفا حاديا ليلى فإني وامق ولا تعجلا يوما على من يفارق
وزما مطاياها قبيل مسيرها ليلتذ منها بالتزود عاشق
ولا تزجرا بالسوق أظعان عيسها فإن حبيبي للظعائن سائق
ولما التقينا والغرام يذيبنا ونحن كلانا في التفكر غارق
وقفنا ودمع العين يحجب بيننا تسارقني في نظرة وأسارق
فلا تسألا ما حل بالبين بيننا ولا تعجبا أنا مشوق وشائق

وقال أيضا : تذكرت ليلى حين شط مزارها وعادت منازلها خليات بلقع
بكيت عليها والقنا يقرع القنا وسمر العوالي للمنايا تشرع
وخالفت لوامي عليها وعذلي وحالفت سهدي والخليون هجع
ولم أستطع يوم النوى رد عبرة فؤادي أسى من حرها يتقطع
فقال خليلي إذ رأى الدمع دائما يفيض دما من مقلتي ليس يدفع
لئن كان هذا الدمع يجري صبابة على غير ليلى فهو دمع مضيع

يهددهم ويتوعدهم أما بعد فان لأمير المؤمنين أناة فان لم تغن عقب بعدها وعيدا فان لم يغن أغنت عزائمه والسلام . وهذا الكلام وجازته في غاية الابداع وينشأ منه بيت شعر وهو :

أناة فان لم تغن عقب بعدها وعيدا فان لم يغن أغنت عزائمه

وكان يقول ماتكلت في مكاتبتي إلا على مايتخيله خاطري ويجلس في صدري إلا قولي وصار مايحرزهم يبرزهم وما كان يعقلهم يعتقلهم وقولي من أخرى فأنزلوه من معقل إلى عقال وبدلوه آجالا من آمال فاني ألممته بقولي آجالا من آمال بقول مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني :

موف على مهج في يوم ذي وهج
كأنه أجل يسعى إلى أمل

وفي المعقل والعقال بقول أبي تمام :

فان باشر الأصحى فبالبيض والقنا
قراه وأحواض المنايا مناهله
وان تبن حيطانا عليه فانما
أولئك عقالاته لامعاقله
والا فأعلمه بأنك ساخط
عليه فان الخوف لاشك قاتله .

ومن رقيق شعره حين أحضر لمناظرته أحمد ابن المدبر فقال ارتجالا :

صد عني وصدق الأقوالا

وقال آخر : مددت إلى التوديع كفا ضعيفة ... وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي
فلا كان هذا آخر العهد منكمو ... ولا كان ذا التوديع آخر زادي

وقال آخر : ولما وقفنا للوداع عشية ... وطرفي وقلبي دامع وخفوق
بكيت فأضحكت الوشاة شماتة ... كأني سحاب والوشاة بروق

وللمؤلف رحمه الله تعالى :

ياسادة في سويد القلب مسكنهم ... وفي منامي أرى أني أعانقهم
أوحشتمونا وعز الصبر بعدكمو ... يامن يعز علينا أن نفارقهم

وقال آخر : لو أن مالكا عالم بذرى الهوى ... ومحله من أضلع العشاق
ماعذب العشاق إلا بالهوى ... وإذا استغاثوا غاثهم بفراق

وقال ابن الوردي :

دهرنا أضحى ضنينا باللقا حتى ضنينا ... ياليالي الوصل عودي إجمعينا أجمعينا

وقال الشريف الرضي :

عللاني بذكركم واسقياني ... وامزجا لي دمعي بكأس دهاق
وخذا النوم من جفوني فاني ... قد خلعت الكرى على العشاق

وقال آخر عند ذلك :

قالوا أترقد إذ غبنا فقلت لهم ... نعم وأشفق من دمعي على بصري
ماحق طرف هداني نحو حسنكمو ... أني أعذبه بالدمع والسهر

وقال الموصلي :

فسدت لطول بعادكم أحلامنا ... وعقولنا وجفا الجفون منام
والطيف قد وعد الجفون بزورة ... ياحبذا إن صحت الأحلام

ومما قيل في البكاء . قال الشاعر :

رجوت طيف خياله وكيف لي بهجوع ... والذاريات جفوني والمرسلات دموعي

وقال آخر : ارحم رحمت للوعتي ... وابعث خيالك في الكرى
ودموع عيني لاتسل ... عن حالها ياما جرى

وقال آخر : إن عيني مذ غاب شخصك عنها ... يأمر السهد في كراها وينهى
بدموع كأنهن الغوادي ... لاتسل ما جرى على الخد منها

وقال آخر : ياقلب صبرا على الفراق ولو ... روعت ممن تحب بالبين
وأنت يادمع إن ظهرت بما ... أخفيه من قلبي سقطت من عيني

وقال آخر :

خاض العواذل في حديث مدامعي ... لما غدا كالبحر سرعة سيره
فحبسته لأصون سر هواكمو ... حتى يخوضوا في حديث غيره

وقال ابن اللواز :

رحت يوم الفراق أجرى دموعي ... حسرة إذ قضى الفراق ببيني

وأطاع الوشاة والعذالا ... أتراه يكون شهر صدود ... وعلى وجهه رأيت الهلالا

فطرب المتوكل واهتز وخلع عليه .

ومن رقيق شعره أيضا قوله : دنت بأناس عن تناء زيارة ... وشط بليلى عن دنو مزارها

قيل كم إذا تجرى دموعك نعمى … أوقف الدمع قلت من بعد عينى

وقال آخر :

لما لبست لبعـده ثوب الضـنى … وغدوت من ثوب اصطبارى عاريا
أجريت وقف مدامعى من بعـده … وجعلتـه وقفا عليـه جاريا

وقال آخر :

ولم أر مثلى غار من طول ليـله … عليـه كأن الليـل بعشقه مى
وما زلت أبكى فى دجى الليل صبوة … من الوجدحتى ابيضّ من فيض أدمعى

وقال الموصلى : عين أفاضت دموعى … لطول صدّ وبين
ووجنة الخدّ قالت … رأيت غسلى بعينى

وقال آخر : وما فارقت ليـلى من مراد … ولـكن شـقوة بلغت مداها
بكيت نعم بكيت وكل إلف … إذا ماتت حبيبتـه بكاها

وفى بعض الكتب السماوية : إنّ مما عاقبت به عبادى أن ابتليتهم بفراق الأحبة :

وممـا جاء فى الحنين إلى الوطن : أما محبة الوطن فمستولية على الطباع مستدعية أشدّ الشوق إليها ، روى أن أبان قدم على النبىّ صلى الله عليـه وسلم ، فقال ياأبان كيف تركت مكة ؟ قال : تركت الإذخر وقد أعذق والثمام وقد أورق فاغرورقت عينا رسول الله صلى الله عليـه وسلم . وقال بلال رضى الله تعالى عنه :

ألاليت شعرى هل أبيتنّ ليلة … بواد وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة … وهل يبدون لى شامة وطفيل

وقيل : من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة و إلى مسقط رأسها مشتاقة .

ومن حبّ الوطن : ماحكى أن سيدنا يوسف عليـه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك ، فلما بعث موسى عليـه الصلاة والسلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حمله موسى إلى مقابر آبائه فقبره بالأرض المقدّسة . وأوصى الاسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رمته فى تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حبا لوطنه ، واعتلّ سابور ذوالأكتاف وكان أسيرا ببلاد الروم ، فقالت له بنت الملك وكانت قد عشقته : ماتشتهى ؟ قال : شربة من ماء دجلة وشمة من تراب إصطخر ، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب ، وقالت له : هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته . وقال الجاحظ كان النفر فى زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضـه فى جراب يتداوى به ، وما أحسن ماقال بعضهم :

بلاد ألفناها على كلّ حالة … وقد يؤلف الشىء الذى ليس بالحسن
ونستعذب الأرض التى لاهواء بها … ولا ماؤها عذب ولكنها وطن

ووصف بعضهم بلاد الهند فقال : بحرها درّ ، وجبالها ياقوت ، وشجرها عود ، وورقها عطر . وقال عبد الله بن سليمان فى نهاوند : أرضها مسك ، وترابها الزعفران ، وثمارها الفاكهة ، وحيطانها الشهد . وقال الحجاج لعامله على أصبهان : وقد وليتك على بلدة حجرها الكحل ، وذبابها

وإن مقيمات بمنعرج اللوى … لأقرب من ليلى وهاتيك دارها . (الحسن بن وهب) سئل عن مبيته ، فقال : شربت البارحة على عقد الثريا ونطاق الجوزاء فلما تنبه الصبح نمت فلم أستيقظ إلا بلبس قميص الصبح .

(بديع الزمان الهمذانى) الحمد لله الذى بيض القار وصاه الوقار ، وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد .

ومن إنشائه البديع قد يوحش اللفظ وكله ودّ ويكره الشىء وليس منه بدّ هذه العرب تقول : لاأبا لك ولا يقصدون الذمّ وويل امّه لأمر إذا هم وسبيل ذوى الألباب فى الدخول من هذا الباب أن ينظروا فى القول إلى قائله فإن كان وليا فهو الولاء وإن خشن ، وإن كان عدوّا فهو البلاء وإن حسن .

(ومن إنشاء أبى القاسم على بن حسن المعروف بالمغربى) وصلت الرقعة فاستجفيت النسيم بالإضافة إلى لطافتها واستثقلت عقود اللؤلؤ بالقياس إلى خفة موقعها .

ومن بديع إنشائه : وغرقت فى هواجس الفكر ووساوس التذكر حتى نبتكم من شدّة التذكر أو لقيتكم من حدّة التصوّر والله تعالى أسأل أن يسقط بيننا فى تشاكى ألم الفراق إسناد القلم بمشافهة الفم للفم . (أبو الحسن بن بسام) من إنشائه : عارض إذا همع استوشلت البحار ، ونجم إذا طلع تضاءلت الشموس والأقمار ، وسابق لايمسح وجهه إلا بهيادب الغيوم ، وصارم لايجلى غمده

وذبابها النحل ، وحشيشها الزعفران . وكان يقال : البصرة خزانة العرب ، وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها واتخاذ المسلمين بها وطنا ومركزا . وكان أبو إسحق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية ، وأنا أقول : مصر كنانة الله فى أرضه والسلام .

ومما جاء فى ذمّ السفر . قيل لرجل : السفر قطعة من العذاب ، فقال : بل العذاب قطعة من السفر . وقال بعضهم :

كلّ العذاب قطعة من السفر ياربّ فارددنا على خير الحضر

وقيل لأعرابى ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان ، ومرّ إياس بن معاوية بمكان فقال : أسمع صوت كلب غريب ، فقيل له : بم عرفت ذلك ؟ قال : بخضوع صوته وشدّة نباح غيره ، وأراد أعرابىّ السفر فقال لامرأته :

عدّى السنين لغيبتى وتصبرى وذرى الشهور فإنهنّ قصار

فأجابته : فاذكر صبابتنا إليك وشوقنا وارحم بناتك إنهنّ صغار

فأقام وترك السفر ، ويقال : ربّ ملازم لمهنته فاز ببغيته . وقال ابن الهيثم :

لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها ولكنّ أخلاق الرجال تضيق

وفيما ذكرته كفاية وأسأل الله التوفيق والهداية ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الحادى والخمسون فى ذكر الغنى وحبّ المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى ـ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ـ وقيل : الفقر رأس كل بلاء ، وداعية إلى مقت الناس وهو مع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء ، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدّا من ترك الحياء ، ومن فقد حياءه فقد مروءته ، ومن فقد مروءته مقت ، ومن مقت ازدرى به ، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » وفى الحديث « لاخير فيمن لايحب المال ليصل به رحمه ، ويؤدّى به أمانته ، ويستغنى به عن خلق ربه » . وقال على كرّم الله تعالى وجهه : الفقر الموت الأكبر ، وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفر والفقر وعذاب القبر ، وقيل : من حفظ دنياه حفظ الأكرمين : دينه وعرضه . قال الشاعر :

لاتلمنى إذا وقيت الأواقى بالأواقى لماء وجهى واقى

وقال لقمان لابنه : يابنىّ أكلت الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئا أمرّ من الفقر فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيلا ينتقصوك ، ولكن اسأل الله تعالى من فضله ، فمن ذا الذى سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه ، أو تضرّع إليه فلم يكشف مابه . وكان العباس رضى الله عنه يقول : الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس ، وهو عندهم أعذب من الماء ، وأرفع من السماء ، وأحلى من الشهد ، وأزكى من الورد ، خطؤه صواب ، وسيئاته حسنات ، وقوله مقبول ، يرفع مجلسه ولا يملّ حديثه . والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب ، وأثقل من الرصاص ، لايسلم عليه إن قدم ، ولا يسئل عنه إن غاب ، إن حضر ازدروه ، وإن غاب شتموه ، وإن غضب صفعوه ، مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة . وقال بعضهم : طلبت الراحة لنفسى فلم أجد لها أروح من ترك مالايعنيها ، وتوحشت فى البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء ، وشهدت الزحوف

إلا بإفراد النجوم . (ضياء الدين بن الأثير الجزرى) ودولته هى الضاحكة وإن كان نسبها إلى العباس وهى خير دولة أخرجت للدهر ورعاياها خير أمة أخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلا بأنها لاتهرم وأنها لاتزال محبوة من أبكار السعادة بالوصل الذى لاينصرم .

وله فى القلم : فهو الملقب بالجواد المضمر وإذا أخذت السوابق فى إحضارها بلغ الغاية وما أحضر وله لون تحقق فيه القول النبوى لو جمعت الخيل فى صعيد لسبقها الأشقر .

(ومن إنشاء القاضى تاج الدين بن الأثير) والمنجنيقات تفوق إليهم قسيها وتخيل إليهم أنها ساعية بحبالها إليهم وعصيها وهى للحصون من آكد الخصوم وإذا أمت حصنا حكم بأنه ليس بإمام معصوم ومتى امترى خلق فى آلات الفتوح لم يكن فيها أحد من الممترين وإذا نزلت بساحة قوم فساء صباح المنذرين تدعى إلى الوغى فتكلم وما أقيمت صلاة حرب عند حصن إلا كان ذلك الحصن ممن يسجد ويسلم . ولقد سهوت عن الصابى وكان فى هذا الفن أمة وهو أبو اسحق ابراهيم بن هلال صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع كان كاتب الإنشاء ببغداد عند الخليفة وعند معز الدولة ابن بويه وكان متشددا فى دينه واجتهد معزّ الدولة أن يسلم فلم يفعل وكان يصوم شهر رمضان ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ واستعمله فى رسائله ، والصابئ عند العرب من خرج عن دين قومه .

وغالبت الأقران فلم أر قرينا أغلب للرجل من المرأة السوء ، ونظرت إلى كل مايذل القوى ويكسره فلم أر شيئا أذل له ولا أكسر من الفاقة قال الشاعر :

وكل مقلّ حين يغدو لحاجة   إلى كل مايلقى من الناس مذنب
وكانت بنو عمى يقولون مرحبا   فلما رأونى معدما مات مرحب

وقال آخر : المال يرفع سقفا لاعماد له   والفقر يهدم بيت العز والشرف

وقال آخر : جروح الليالى مالهن طبيب   وعيش الفتى بالفقر ليس يطيب
وحسبك أن المرء فى حال فقره   تحمقه الأقوام وهو لبيب
ومن يغترر بالحادثات وصرفها   يبت وهو مغلوب الفؤاد سليب
وماضرنى أن قال أخطأت جاهل   إذا قال كل الناس أنت مصيب

وقال آخر : الفقر يزرى بأقوام ذوى حسب   وقد يسود غير السيد المال

وقال آخر : لعمرك إن المال قد يجعل الفتى   سنيا وإن الفقر بالمرء قد يزرى
وما رفع النفس الدنيئة كالغنى   ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

وقال آخر : إذا قل مال المرء لانت قناته   وهان على الأدنى فكيف الأباعد

وقال ابن الأحنف :

يمشى الفقير وكل شئ ضده   والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضا وليس بمذنب   ويرى العداوة لايرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة   خضعت لديه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوما فقيرا عابرا   نبحت عليه وكشرت أنيابها

وقال آخر : فقر الفتى يذهب أنواره   مثل اصفرار الشمس عند المغيب
والله ما الانسان فى قومه   إذا بلى بالفقر إلا غريب

وقال آخر : إن الدراهم فى المواطن كلها   تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة   وهى السلاح لمن أراد قتالا

وقال آخر : ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها   فكلما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فإن وثبت   يوما عليه بما لايشتهى وثبوا

وقال بعض الفرس : من زعم أنه لايحب المال فهو عندى كذاب :

وقال الكنانى : أصبحت الدنيا لنا عبرة   فالحمد لله على ذلكا
قد أجمع الناس على ذمها   وما أرى منهم لها تاركا

وقال الزمخشرى :

وإذا رأيت صعوبة فى مطلب   فاحمل صعوبته على الدينار
وابعثه فيما تشتهيه فإنه   حجر يلين قوة الأحجار

قال الثورى رحمه الله تعالى لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبنى الله عليها أحب إلىّ من أن أحتاج إلى لئيم ، وفى هذا المعنى قال الشاعر :

احفظ عرى مالك تحظى به   ولا تفرط فيه تبقى ذليل
وإن يقولوا باخل بالعطا   فالبخل خير من سؤال البخيل
واحفظ على نفسك من زلة   يرى عزيز القوم فيها ذليل

وقيل الصابئ إن الصاحب بن عباد قال مابقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب الصابئ ويكتب عنى وأغير عليه فقال الصابئ وبغير على وإن أصبت ، ومن إنشائه ما كتب به إلى أبى الخير عن رقعة وصلت تتضمن أنه أهدى إليه جملا وصلت رقعتك ففضضتها عن بلاغة يعجز عنها عبدالحميد فى بلاغته وسحبان فى خطابته وتصرّف بين جد أمضى من القدر وهزل أرقّ من نسيم السحر إلا أن الفعل قصر عن القول لأنك ذكرت جملا جعلته لصفتك جملا وكأنّ المعيدىّ أن تسمع لا أن تراه ، صغر عن الكبر وكبر عن القدم يعجب العاقل من حلول الحياة به ومن تأتى الحركة فيه لأنه عظم مجلد قد طال للكلا فقده وبعد بالمرعى عهده لم ير القتّ إلا نائما ولا عرف الشعير إلا حالما وقد كنت ملت إلى استبقائه لما تعرفه من محبتى للتوفير ورغبتى فى التثمير فلم أجد فيه مستبقى لبقاء ولامدفعا للعناء لأنه ليس بأنثى فتلد ولا بفتى فينسل ولا بصحيح فيرعى ولا بسليم فيبقى فقلت أذبحه ليكون وظيفة للعيال وأقيمه رطبا مقام قديد الغزال فأنشدنى وقد أضرمت النار وحددت الشفار :

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ولست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمى ولا بذى جلد يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمى ولا بذى صوف

وأما

يصلح للنزل لأن الحوادث قد حصت و برى إلا أن تطالبنى بدخل أو بينى و بينك دم فوجدته صادقا فى مقالته ناصحا فى مشورته
ولم أعلم من أى أمر به أعجب أمن مطالبته الدهر بالبقاء أم من صبره على الضر والبلاء أم من قدرتك عليه مع عدم مثله أم من هديتك إياه للصديق مع خساسة قدره وياليت شعرى ما كنت مهديا لوأتى رجل من عرض الكتاب كأبى على وأبى الخطاب ما كنت مهديا إلا كلبا اجرب أو قردا أحدب والسلام . وله من رسالة : هو أخفض قدرا ومكانة وأظهرعجزا ومهانة من أن يستقل به قدم فى مطاولتنا أو تطمئن له ضلوع فى منابذتنا وهو فى نشوزه عنا وطلبنا إياه كالضالة المنشودة والظلامة المردودة . وكان له عبد اسمه يمن وكان يهواه وله فيه المعانى البديعة فمن ذلك قوله فيه :

قد قال يمن وهو أسود للذى ... ببياضه استعلى علو الخائن
ما فخر وجهك بالبياض وهل ترى ... إن قد أفدت به مزيد محاسن
ولو أن منى فيه خالا زانه ... ولو أن منه فى خالا شانى

(الصاحب بن عباد) من بلاغاته المخترعة أنه قيل له ما هو أحسن السجع قال ماخفّ على السمع قيل مثل ماذا قال مثل هذا . وسئل ابن العميد عن بغداد فقال بغداد بلاد كالأستاذ فى العباد . وله جواب كتاب : وصل كتاب مولاى فكانت فاتحته أحسن من كتاب الفتح وواسطته أخس من واسطة

وأما ماجاء فى الاحتراز على الأموال . فقد قالوا ينبغى لصاحب المال أن يحترز و يحتفظ عليه من المطمعين والمبرطحين والمحترفين المموهين والمتمسين

فأما المطمعون : فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام والتحية والإعظام إلى أن يأنسوا بهم و يعرفوهم بالمشاهدة وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم و يحصل بينهم سبب الصداقة ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال فى معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة فى معيشته ثم يمشى معه فى الحديث إلى أن يقول إنى فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات وهذا أمر يعود ضرره فى المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب وغرضى التقرّب إليك ونصحك وخدمتك وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدى على مال بل يكون مالك تحت يدك أو تحت يد أحد من جهتك و يخرج له فى صفة الناصحين المشفقين فاذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين إن ائتمنه وجعل المال بيده أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح وطاول به الأوقات ودفع إليه فى المدّة الطويلة الشىء اليسير من ماله ثم يحتجّ عليه ببعض الآفات و يدعى الخسارة فان لزمه صاحب المال قابحه و برطل من جملة المال صاحب جاه فيدفعه و يقول هذا رابانى فان روعى صاحب المال وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة فلا يستوفى مافيها إلا فى الآخرة وإن هو لم يأتمنه وعول أن يكون القبض بيده والمتاع مخزونا لديه واطأ عليه البائعين والمشترين وحصل لنفسه وعمل مايقول به فان حصل لصاحب المال أدنى ربح أوهمه أن مفاتيح الأرزاق بيده وإن كسد المشترى أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال ليس لى علم الغيب . ومن أشد المطمعين المتعرضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون فى عمل الذهب والفضة من غير معدنهما ، فيجب أن يحذر التقرّب منهم والاستماع لهم فى شىء من حديثهم فان كذبهم ظاهر وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيرا أو يطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لالحاجة وهذا يستحيل و يحتجون بأن مايلجئهم إلى ذلك إلا عدم الامكان وتعذر المكان فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان و يترك عنده عدة لها قيمة فيأخذها و ينسحب ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهى إلى مدة فيقنع فى تلك المدة بالأكل غدوة وعشية وسبيله بعد ذلك إن كان معروفا قال فسد على العمل من جهة كيت وكيت و يقول للذى ينفق عليه هل لك فى المعاودة فان حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتمّ غرض ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأىّ سبب كان وإن كان منكورا غافل صاحب المكان وخرج هاربا . ومن المطمعين قوم يجعلون فى الجبال أمارات من ردم وحجر و يأتون إلى أصحاب الأموال و يقولون إنانعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت وكيت ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة و يقولون نريد أن تأخذ لنا عدة وتنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك فيوافقهم على ذلك و يوطن نفسه على أن المدة تكون قريبة فيعملون يوما أو يومين فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعا و يعتقد الصحة ثم يدرجونه إلى أن ينفق عليهم ماشاء الله تعالى و يكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة فى قماشه أو فى العدة التى معه فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا فهذا أمر المطمعين .

وأما المبرطحون : فهم من الخونة والناس بهم أكثر غررا وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحدا

منهم لشراء حاجة سارع فيها واحتاط في جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئا وزنه عنده حتى يبيض وجهه عند صاحب المال ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقى مقاليد أموره إليه فيستعطفه ويفوز به ثم يغير الحال الأول في الباطن فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه .

وأما المحترفون الموهمون : فهم الذين يتعرضون لذوي الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء ويعتمدون جودة اللباس ويستعملون كثيرا من الطيب ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة فيما يعانيه ويذكر ذلك مع الغير ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثيرة من المال وأنه لا يبالي إذا أنفق أو أكل أو شرب فتشره نفس صاحب المال لذلك فيقول : على سبيل المداعبة يا فلان تريد الدنيا كلها لنفسك لم لا تشركنا في متاجرك هذه وأرباحك فيقول له أنت جبان يعز عليك إخراج الدينار وتظن أنك إن أظهرته خطف منك ، لا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك وإن أمسكته لم يصد شيئا واحتجت إلى أن تطعمه وإلا مات أنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط لهذا كنت فعلت معك خيرا كثيرا ولكن ما كان إلا هكذا وما كان لا كلام فيه والعمل في المستأنف فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده .

وأما المتنمسون : فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ومجانبة الحرام ومواظبة الصلاة والصيام لكي يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام ثم يلقون ذوي الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المقال ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهاني بالأعياد وربما يأتي معه بأحد من الأولاد ويظهرون الزهادة والغنى ويجعلون الدين سلما إلى الدنيا وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال وتفوض إليهم الوصايا ويجلهم العوام وتقبل شهاداتهم الحكام وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال وهؤلاء أشر من اللصوص والقطاع وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم قال الشاعر :

صلى وصام لأمر كان أمله ... حتى حواه فما صلى ولا صاما

وقيل لا فقير أفقر من غني يأمن الفقر . قال الشاعر :

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى ... وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له يا بني عليك بطلب العلم وجمع المال فإن الناس طائفتان خاصة وعامة فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال . وقال بعض الحكماء إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به موثقا وأساء به الظن من كان ظنه حسنا ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدا من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه وما من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب فإن كان شجاعا سمي أهوج وإن كان مؤثرا سمي مفسدا وإن كان حليما سمي ضعيفا وإن كان وقورا سمي بليدا وإن كان لسنا سمي مهذارا وإن كان صموتا سمي عييا . قال ابن كثير :

الناس أتباع من دامت له نعم ... والويل للمرء إن زلت به القدم

المال زين ومن قلت دراهمه ... حي كمن مات إلا أنه صنم

العقد وخاتمه أشرف من خاتم الملك ، ومن شعره يرثي كثير بن أحمد الوزير :

يقولون قد أودى كثير بن أحمد ... وذلك رزء في الأنام جليل

فقلت دعوني والعلا نبكه معا ... فمثل كثير في الرجال قليل

(القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم) علم المتقدمين والمتأخرين وزير السلطان صلاح الدين بن أيوب الملقب بالملك الناصر تمكن منه غاية التمكين وبرز في صناعة الإنشاء على المتقدمين قال ابن خلكان في تاريخه : أخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد وهو مجيد في أكثرها وذكر ابن خلكان في تاريخه أيضا أن العماد الكاتب قال في الخريدة هو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع وكانت ولادته خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بمدينة عسقلان وولي أبوه القضاء ببيسان فلهذا نسبوه إليها . وقال الفقيه عمارة اليمني في كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية في ترجمة العادل بن الصالح بن رزيك ومن أيامه الحسنة التي لا توازي بل هي اليد البيضاء التي لا تجازى خروج أمره إلى والي الاسكندرية باحضار القاضي الفاضل إلى الباب واستخدامه بحضرته في الديوان لما فانه عروس الدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت وفرعها في السماء . وتوفي الفاضل في ليلة الأربعاء سابع

ربيع الأول سنة ست وتسعين وخمسمائة ودفن في تربة بسفح المقطم في القرافة الصغرى . قال ابن خلكان : كان القاضي الفاضل من محاسن الدنيا وهيهات أن يخلف الزمان مثله ، فمن إنشائه المرقص المطرب قوله : وقد كان يقال إن الذهب الإبريز لاتدخل عليه آفة وأن يد الدهر البخيلة به كافة وأنتم يابني أيوب أيديكم آفة نفائس الأموال كما أن سيوفكم آفة نفوس الأبطال فلو ملكتم الدهر لاستطيتم لياليه أداهم وقلدتم أيامه صوارم ووهبتم شموسه وأقماره دنانير ودراهم وأيام دولتكم أعراس ومانم فيها لاعلى الأموال مآتم والجود في أيديكم خاتم ونفس حاتم في نقش ذلك الخاتم .

(ومن إنشائه في كاحل) كأنه غاسل يدخل إلى إنسان العين بحنوط من كحله للمعون لعين المنون ويدرجه في كفن من الخرقة السوداء التي يلبسها سواد العيون ينقل العين إلى بياض الثغور ويسلبها سواد المها وما برحت عصيه مردودة ولديها عصا العمى قد انتهى إلى فوق مايضرب به المثل إذ قيل يسرق الكحل من العين فهذا يسرق العين من الكحل وهو لص من أكابر اللصوص وهموا كالذين هم صاغة لما يركبون فوق العين من الفصوص قد أودع كحله حزن يعقوب فمن كحل منه ابيضت عيناه وجحد معجز القميص اليوسفي فلو مروا به على ناظر انقرحت جفناه وهو من الذين إذا رضوا أميالهم فانما هي لشمس العيون مزولة وإذا أولج أحدهم الميل في المكحلة

لما رأيت أخلائي وخالصتي ... والكل مستتر عني ومحتشم

أبدوا جفاء وإعراضا فقلت لهم ... أذنبت ذنبا فقالوا ذنبك العدم

وكان ابن مقلة وزيرا لبعض الخلفاء فزور عنه يهودي كتابا إلى بلاد الكفار وضمنه أمورا من أسرار الدولة ثم تحيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي فأعطته درجا بخطه فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذي كان في الدرج ، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل من في الدولة ، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولاتوجع له ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلهما شر قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالا كثيرة وخلعا سنية وندم على فعله واعتذر إليه فكتب ابن مقلة على باب داره يقول :

تحالف الناس والزمان ... فحيث كان الزمان كانوا

عاداني الدهر نصف يوم ... فانكشف الناس لي وبانوا

ياأيها المعرضون عني ... عودوا فقد عاد لي الزمان

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى . قال بعضهم :

إنما قوة الظهور النقود ... وبها يكمل الفتى ويسود

كم كريم أزرى به الدهر يوما ... ولئيم تسعى إليه الوفود

والأطباء يعلمون أمراضا من علاجها اللعب بالدينار وشرب الأدوية والمسالين التي يغلى فيها الذهب . قال الشاعر :

احرص على الدراهم والعين ... تسلم من العيلة والدين

فقوة العين بإنسانها ... وقوة الإنسان بالعين

واعلم أن القلب عمود البدن فاذا قوي القلب قوي سائر البدن وليس له قوة أشد من المال ، وبالضد إذا ضعف من الفقر ضعف له البدن .

حكي أن ملكا رأى شيخا قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه والشاب يعجز عن ذلك فعجب منه فاستحضره فحادثه في ذلك فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه . وقال لقمان لابنه يابني شيئان إذا أنت حفظتهما لاتبالي بما صنعت بعدهما دينك لمعادك ودرهمك لمعاشك ، والكلام في هذا المعنى كثير وقد اقتصرت منه على النزر اليسير ، وقد كان في الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخرا ، فمن ذلك ماحكي عن أحمد بن طولون أنه دخل يوما بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهره فاستحسنه فدعا بغدائه فتغدى ثم دعا بشرابه فشرب ، فلما انتشى قال علي بألف مثقال من المسك فنثره على أوراق النرجس . ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف . حكى الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالعجائب والطرف أن أبا الوليد ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما افتتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان يهدى للبيت قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قتل صاحبها بثمانين ألف دينار ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفا وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوض عنها ثلاثين

فهو أولى بالرجم ممن أولج الميل فى المكحلة . (ومن إنشائه سقى الله ثراه) والجو يتنفس عن صدر مسجور كصدر المهجور والحر وصاليه فى هذا النحو جار ومجرور والهامه قد نشرت فيها ملاء السراب وزخر فيها بحر ماء، ولد لغير رشدة على غير فراش السحاب وحر الرمل قد منع حث الرمل ونحن فى أكثر من جموع صفين إلا أننا نخاف وقعة الجمل ووردنا ماء هذه العيون وهو كالحابر يقترف منه المجرم مثل عمله ويرسله سهما فلا يخطى ثغرة مقتله وهو مع هذا قليل كأنه مما جادت به الآماق فى ساحات النفاق لا فى ساعات الفراق فيالك من ماء لاتميز أوصافه من التراب ولا يرتفع به فرض التيمم كما لايرتفع بالسراب ولايعدو ماوصف به أهل الجحيم فى قوله تعالى : وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب ، فنحن حوله كالعوائد حول المريض يعلون عليلا لايرد الجواب بل يندبون ميتا قد حال بينه وبينهم التراب يجهز "دفن ونعشه المراد ويحفر عليه ليقوم من قبره وذلك خلاف المعتاد وفى غير من قد وارت الأرض فاطمع على أنه لو كان دمعا لما بل الأجفان ولو كان مالا لما رفع كفة الميزان (ومن إنشائه) إلى أن يرد كتب العسكر وأعلامها من مدّات ألفاته ودروس الصدا قطعات محرراته . (ومنه) فبنت سنابك الخيل سماء من العجاج نجومها الأسنة وطارت إليهم

ألف دينار وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتى ألف ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريق ذهب مرصعا بالجواهر فلم يدر أحد ماقيمته فقال رجل من الفرس أنا آخذه بعشرة آلاف دينار ولم يعرف قيمته فذهب به إلى سعد بن أبى وقاص فأعطاه إياه وقال لاتبعه إلا بعشرة آلاف دينار فباعه سعد بمائة ألف دينار . ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى فى سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأة خاتون فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه ونسيت الأخرى فأصابها المسلمون فقوّمت بمائتى ألف دينار . ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى فى سنة تسع وثمانين وجد فيها قدور ذهب يُنزل إليها بسلالم . ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مولاه فصا من ياقوت أحمر وقال له انج به وكان قد قوّم ذلك الفص بألف ألف درهم فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال والله لاينتفع به أحد بعد مصعب . وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان فى ولايته عثر على كنز فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب مرصعة بالدرّ والجواهر والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد فحملها إلى مصعب بن الزبير فخرج من قوّمها فبلغت قيمتها ألفى ألف دينار فقال إلى من أدفعها فقيل إلى نسائك وأهلك فقال لا بل إلى رجل قدم عندنا يدا وأولانا جميلا ادع لى عبد الله بن أبى دريد فدفعها إليه . ولما صار موجود عماد الدولة فى قبضة أمير الجيوش وجد فى جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشر مثقالا فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر فقوّمت بتسعين ألف دينار . ووجد فى بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعدّ له من آلة الشرب يوم قتل سبعمائة صينية من ذهب وفضة ووجد مائة ألف مثقال عنبر . وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثنى عشر ألف قميص وشى وعشرة آلاف تكة حرير وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار ولم تأت دولة بنى العباس إلا وجميع أولاده فقراء لامال لواحد منهم وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين . ولما قتل الأفضل بن أمير الجيوش فى شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة خلف بعده مائة ألف ألف دينار ومن الدراهم مائة وخمسين أردبا وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج ودواة من الذهب قوّم ماعليها من الجواهر واليواقيت بمائتى ألف دينار وعشرة بيوت فى كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونا وخلف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذى لايوجد مثله وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه وخلف من الزبادى الصينى والبلور المحكم وسق مائة جمل وخلف عشرة آلاف ملعقة فضة وثلاثة آلاف ملعقة ذهب وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار وأربع قدور ذهبا كل قدر وزنها مائة رطل وسبعمائة جام ذهبا بفصوص زمرد وألف خريطة مملوءة دراهم خارجا عن الأرادب فى كل خريطة عشرة آلاف درهم ، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلى النساء مالايحصى عدده إلا الله تعالى ، وخلف ألف حسكة ذهبا وألفى حسكة فضة وثلاثة آلاف ترجسة ذهبا وخمسة آلاف ترجسة فضة وألف صورة ذهبا وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب وثلثمائة نور ذهبا وأربعة آلاف نور فضة ، وخلف من البسط والرومية والأندلسية ماملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد ، وخلف من البقر والجاموس والأغنام

عقبان الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الأعنة وتصويب عيون السمر إلى قلوبهم كأنما تطلب سوادها وقصدت أنهار السيوف صدورهم لتروى أكبادها . (ومنه) وما أحسب الأقلام جعلت ساجدة إلا لأن طرسه محراب ولا أنها سميت خرسا إلا قبل أن ينفث سيدنا في روعها رائع هذا الصواب ولا أنها اضطجعت إلا ليبعثها ماينفخ فيها من روحه من مرقدها ولا سودت رؤوسها إلا لأنها أعلام عباسية وتناولتها الحضرة بيدها لاجرم أنها تحامى الحمى وتسفك دما وتحقن دما وتنشيح بها يده عنانا وترسلها فتعلم الفرسان أن في الكتاب لفرسانا وتقوم الخطباء بما كتبت تعلم الألسنة أن في الأيدى كما في الأفواه لسانا قلت : ومن مخترعاته قوله وإن ادعى سحر البيان أنه يقضى أيسر حقوقه ويثمر مايجب من شكر فروعه وعروقه كنت أضح باطل سحره وأذيقه وبال أمره وأصب الخواطر السحارة على جذوع الأقلام وأعقد ألسنتها كما تعقد السحرة الألسنة عن الكلام (ومن إنشائه في وفاء النيل المبارك عن الملك الناصر صلاح الدين نور الله ضريحه) نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا وأصفاها سبوغا وأصفاها ينبوعا وأسناها منفوعا وأمدها بحر مواهب وأضمنها حسن عواقب النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره ويربى النبات حجره ويحيى مطلقه الحيوان ويجنى ثمرات الأرض صنوان وغير صنوان وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها ويوضح معنى قوله عز وجل

والأغنام مايباع لبنه في كل سنة بثلاثين ألف دينار وخلف من الحواصل المملوءة من الحبوب مالا يحصى . ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلا كان بالقرب من موضع العاضد محتفظا به فلما رأوه سخروا منه فضرب عليه إنسان فضرط فضحكوا منه ثم أمسكه آخر وضرب به فضرط فضحكوا عليه فكسروه استهزاء وسخرية ولم يدروا خاصيته وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره . وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزا لاتحصى وبعد ذلك ماتوا ونفدت ذخائرهم وفنيت أموالهم فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه . قال بعضهم :

هب الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال

فضمنت أنا هذا البيت وقلت :

أيا من عاش في الدنيا طويلا ... وأفنى العمر في قيل وقال ... وأتعب نفسه فيما سيفنى
وجمع من حرام أو حلال ... هب الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثانى والخمسون في ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى : كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان وسئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال وهل طغى من طغى من خلق الله عز وجل إلا بالغنى وتلا هذه الآية المتقدمة والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال ، وكان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة ، وحدث الحسن رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بأربعين عاما فقال جليس للحسن أمن الأغنياء أنا أم من الفقراء فقال هل تغديت اليوم قال نعم قال فهل عندك ماتتعشى به قال نعم قال فإذا أنت من الأغنياء وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان النبى صلى الله عليه وسلم يبيت طاويا ليالى ماله ولا لأهله عشاء وكان عامة طعامه الشعير وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع وكان صلى الله عليه وسلم يأكل خبز الشعير غير منخول هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه وكان يقول اللهم توفنى فقيرا ولا تتوفنى غنيا واحشرنى في زمرة المساكين وقال جابر رضى الله تعالى عنه دخل النبى صلى الله عليه وسلم على ابنته فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل فبكى وقال تجرعى يافاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة . قال الله تعالى : ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال صلى الله عليه وسلم الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره ولا يختاره إلا أولياء الله تعالى وفي الخبر إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل للملائكة أدنوا إلىّ أحبائى فتقول الملائكة ومن أحباؤك ياإله العالمين فيقول فقراء المؤمنين أحبائى فيدنونهم منه فيقول ياعبادى الصالحين إنى مازويت الدنيا عنكم لهوانكم علىّ ولكن بكرامتكم تمتعوا بالنظر إلى وتمنوا ماشئتم فيقولون وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنا منها ولقد أحسنت بما صرفت عنا فيأمر بهم فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان وقال صلى الله عليه وسلم هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم والذى نفسى بيده ليدخلن فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام

• بارك فيها وقدّر فيها أقواتها وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فأسفر وجه الأرض وإن كانت تنقب وأمن يوم بشراه من كان خائفا يترقب ورأينا الابانة عن لطائف الله التى حققت الظنون ووفت بالرزق المضمون إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقد أعلمناك لتوفى حقه من الاذاعة وتبعده من الاضاعة وتتعرف على مايصرفك فى الطاعة وتشهر ما أورده البشير من البشرى بإبانته وتعده بإيصال رسمه مهنأ على عادته ورسم لى فى الأيام المؤيدية وأنا منشئ الديوان الشريف المؤيدى سنة تسع عشرة وثمانمائة أن أنشئ رسالة بوفاء النيل المبارك لم أسبق إليها ممن تقدمنى من المنشئين بالسيار المصرية حتى إن المقر الأشرف المرحومى القاضوى الناصرى محمد ابن البارزى الجهنى الشافعى سقى الله ثراه قرأ على المسامع الشريفة هذه الرسالة المسطرة ورسالة من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وكان غرضه فى ذلك اختبار الألفاظ والمعانى من الرسالتين فأنشأت بعد المستعان بالله ، ونبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا فيه بالحسنى وزيادة وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة وخلق أصابعه لبزول الابهام فأعلن المسلمون بالشهادة فكسر جسره فأمسى كل قلب بهذا الكسر مجبورا وأتبعناه بنوروز ومابرح هذا الاسم بالسعد تعالى المؤيدى مكسورا دق فنا السودان فالراية البيضاء من كل قلم عليه وقبل ثغور الاسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها

والأغنياء يحاسبون على زكاتهم وقال عليه الصلاة والسلام «رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره» أى لو قال اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا وقال عليه الصلاة والسلام «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه به الذين إذا استأذنوا على الأمير لايؤذن لهم وإن خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لهم حوائج أحدهم تتلجلج فى صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم» . وروى عن خالد بن عبد العزيز أنه قال كان حيوة بن شريح من البكائين وكان ضيق الحال جدا فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو فقلت له يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك فى معيشتك قال فالتفت يمينا وشمالا فلم ير أحدا فأخذ حصاة من الأرض وقال اللهم اجعلها ذهبا فاذا هى تبرة فى كفه مارأيت أحسن منها قال فرمى بها إلىّ وقال هو أعلم بما يصلح عباده فقلت ما أصنع بهذه قال أنفقها على عيالك فهبته والله أن أردها عليه . وقال عون بن عبدالله صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحدا أكثر همًا منى لأنى كنت أرى ثيابا أحسن من ثيابى ودابة أحسن من دابتى ثم صحبت الفقراء بعد ذلك فاسترحت قال بعضهم :

وقد يهلك الانسان كثرة ماله ... كما يذبح الطاوس من أجل ريشه

وقال عبد الله بن طاهر :

ألم تر أن الدهر يهدم مابنى ... ويأخذ ما أعطى ويفسد ماأسدى
فمن سره أن لايرى مايسوؤه ... فلا يتخذ شيئا ينال به فقدا

وكان من دعاء السلف رضى الله تعالى عنهم اللهم إنى أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى . وقيل مكتوب على باب مدينة الرقة ويل لمن جمع المال من غير حقه وويلان لمن ورّثه لمن لايحمده وقدم على من لايعذره . ولما فتحت بلخ فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها إنما يتبين الفقير من الغنى بعد الانصراف من بين يدى الله تعالى أى بعد العرض قال الشاعر :

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل ... حزينا على الدنيا رهين غبونها
إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن ... على حالة إلا رضيت بدونها

وقال آخر :

ولا ترهبنّ الفقر ماعشت فى غد ... لكل غد رزق من الله وارد

قال هرون بن جعفر الطالبى :

بوعدت حمق وقورب مالى ... ففعالى مقصر عن مقالى ... ما كسنى الناس مثل ثوب اقتناع
وهو من بين ما كسوا سربالى ... ولقد تعلم الحوادث أنى ... ذو اصطبار على صروف الليالى

وقال أعرابى من ولد فى الفقر أبطره الغنى ومن ولد فى الغنى لم يزده إلا تواضعا فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه وأعظم أجرا إن رضى به وصبر عليه اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك ياأرحم الراحمين يارب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين :

الباب الثالث والخمسون فى التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد

روى الامام مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطوا السائل ولو جاء على فرس وماسئل عليه السلام شيئا قط فقال لا وأتى أعرابى على على رضى الله

تعالى عنه فسأله شيئا فقال والله ما أصبح فى بيتى شىء فضل عن قوتى فولى الأعرابى وهو يقول والله ليسألنك الله عن موقفى بين يديك يوم القيامة فبكى علىّ رضى الله تعالى عنه بكاء شديدا وأمر برده وقال ياقنبر ائتنى بدرعى الفلانية فدفعها إلى الأعرابى وقال لاتخدعنّ عنها فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قنبر يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهما فقال ياقنبر والله مايسرنى أن لى زنة الدنيا ذهبا وفضة فتصدقت به وقبل الله منى ذلك وأنه يسألنى عن موقف هذا بين يدى . وقال على رضى الله تعالى عنه إن لكلّ شىء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح . وقال مسلمة لنصيب سلنى فقال كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسئلة فقال لحاجبه ادفع إليه ألف دينار . وسأل رجل الحسن رضى الله تعالى عنه فقال له ماوسيلتك قال وسيلتى أنى أتيتك عام أول فبررتنى فقال مرحبا بمن توسل إلينا بنا ثم وصله وأكرمه ، ويقال الكريم إذا سئل ارتاح واللئيم إذا سئل ارتاع . ولما وفد المهدى من الرى إلى العراق امتدحه الشعراء فقال أبو دلامة :

إنى نذرت لئن رأيتك قادما ... أرض العراق وأنت ذو وفر
لتصلين على النبىّ محمد ... ولتملأن دراهما حجرى

فقال المهدى صلى الله على محمد فقال أبو دلامة ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية فضحك وأمر ببدرة فصبت فى حجره . وسمع الرشيد أعرابية بمكة تقول :

طحنتنا كلا كل الأعوام ... وبرتنا طوارق الأيام
فأتينا كم نمد أكفا ... لالتقام من زادكم والطعام
فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا ... أيها الزائرون بيت حرام

فبكى الرشيد وقال لمن معه سألتكم بالله تعالى إلا مادفعتم إليها صدقاتكم فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كثرة وملئوا حجرها دراهم ودنانير . وسأل أعرابى بمكة وأحسن فى سؤاله فقال أخ فى الله وجار فى بلد الله وطالب خير من عند الله فهل من أخ يواسينى فى الله . قال الشاعر :

ليس فى كل وهلة وأوان ... تتهيأ صنائع الإحسان
فاذا أمكنت فبادر إليها ... حذرا من تعذر الإمكان

وقال البصرى :

أضحت حوائجنا إليك مناخة ... معقولة برحابك الوصال
أطلق فديتك بالنجاح عقالها ... حتى تثور بنا بغير عقال

وعن علىّ رضى الله تعالى عنه قال يا كميل مر أهلك أن يروحوا فى كسب المكارم ويدلجوا فى حاجة من هو نائم فوالذى وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلبا سرورا إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفا فاذا نابته نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الابل ، وقال لجابر بن عبد الله ياجابر من كثرت نعم الله تعالى عليه كثرت حوائج الناس إليه فاذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها ، وكان لبيد رحمه الله تعالى آلى على نفسه كلما هبت الصبا أن ينحر ويطعم وربما ذبح العناق إذا ضاق الخناق فخطب الوليد بن عتبة يوما فقال قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته ثم بعث إليه بخمس من الابل وبهذه الأبيات :

إليه وشبت جريره فى الصعيد بالقصب ومد سباتكه الذهبية إلى جزيرة الذهب فضرب الناصرية واتصل بأم دينار وقلنا إنه صيغ بقوة لما جاء وعليه ذلك الاحمرار وأطال الله عمر زيادته فتردد فى الآثار وعمته البركة فأجرى سواقى مكة إلى أن غدت جنة تجرى من تحتها الأنهار وحضن مشتهى الروضة فى صدره وحنا عليها حنوّ المرضعات على الفطيم :

وأرشفنا على ظمأ زلالا ... ألذّ من المدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات وسقى الأرض سلافته الحمرية فخدمته بحلو النبات وأدخله إلى جنات النخيل والأعناق فالق النوى والحب فأرضع جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأب وصافحته كفوف اللوز نختمها بخواتمه العقيقية ولبس الورد تشريفه وقال أرجو أن تكون شوكتى فى أيامه قوية ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة النوى وهامت به مخدرات الأشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى واستوفى النبات ما كان له فى ذمة الرى من الديون ومازج الحوامض بحلاوته فهام الناس بالسكر والليمون وانجذب إليه الكباد وامتد ولكن قوى قوسه لما حظى منه بسهم لا يرد ولبس شربوش الأترج وترفع إلى أن لبس بعده التاج وفتح منشور الأرض لعلامته بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراج فتناول مقالم الشنبر وعلم بأقلامها ورسم لمحبوس كل سد بالافراج وسرح بطائق السفن فخفقت أجنحتها بخلق بشائره وأشار بأصابعه إلى قتل المحل فبادر

الصب إلى امتثال أوامره وحظى بالمشوق وبلغ من كل منية مناه فلا سكن على البحر إلا تحرك ساكنه بعد ماتفقه وأتقن باب المياه ومد شفاه أمواجه إلى تقبيل فم الجسر وزاد بسرعتـه فاستحلى المصريون زائده على الفور ونزل فى بركة الحبش فدخـل التكرور فى طاعته وحمل على الجهـات البحرية فكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشـهامته وأظهر فى المسجد الخضر عين الحياة فأقر الله عينه وصـار أهـل دمياط فى برزخ بين المالح وبينـه وطلب المالح رده بالصدر وطمن فى حلاوة شمائله فما شعر إلا وقد ركب عليـه ونزل فى ساحله وأمست واوات دوائره على وجنات النهر عاطفة وتقلت أرداف أمواجه على خصـور الجوارى فاضطربت كالخائفة ومال شبق النخيل إليـه فلثم ثغر طلعه وقبـل سالفه وأمست سود الجوارى كالحسنات فى حمرة وجناته وكلما زاد زاد الله فى حسناته فلا فقير سـد إلا حصل له من فيض نعماه فتوح ولاميت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح ولـكن احمرت عينه على الناس بزيادة وترفع فقال له القياس عنـدى قبالة كل عين أصبع فنشر أعلام قلوعه وحمـل له على ذلك الحرير زجره ورام أن يهجم على بلاده ، فبادر إليه عزم المؤيدى وكسره وقد أقر ذا القر بهـذه البشرى التى عم فضلها برا و بحرا وحدثناه عن البحر. ولا حرج وشرحنا له حالا وصـدرا

أرى الجزار يشحذ مديتيه إذا هبت رياح بنى عقيل
طويل الباع أبلج جعفرى كريم الجد كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعبرى بمـا نواه على العلات بالمـال القليل

فدعا لبيد بنتا له خماسية وقال يابنية إنى تركت قول الشعر فأجيبى الأمير عنى فقالت :

إذا هبت رياح بنى عقيل تداعينا لهبتها الوليـدا
طويل الباع أبلج عبشمى أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركبا عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها وأطعـمنا الثريدا
فعد إن الـكريم له معاد وظنى فى ابن عتبة أن يعودا

فقال لقد أحسنت والله يابنية لولا أنك سألت وقلت عد فقالت يأبت إن الملوك لايستحيا منهم فى المسئلة فقال والله لأنت فى هذا أشعر منى . ووفد رجل من بنى ضبة على عبد الملك فأنشده :

والله ما ندرى إذا ما فاتنا طلب إليك من الذى نتطلب
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد أحدا سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التى عودتنا أولا فأرشدنا إلى من نذهب

فأمر له بألف دينار ، فعاد إليه من قابل وقال يأمير المؤمنين إن الروى لينازعنى و إن الحياء يمنعنى فأمر له بألف دينار وقال والله لوقلت حتى تنفد بيوت الأموال لأعطيتك . وقيل إن رجلا عرض للمنصور فسأله حاجة فلم يقضها فعرض له بعد ذلك فقال له المنصور أليس قد كلمتنى مرة قبل هذه ؟ قال نعم يأمير المؤمنين ولـكن بعض الأوقات أسعد من بعض و بعض البقاع أعز من بعض فقال صـدقت وقضى حاجته وأحسن إليه . وروى أن أبا دلامة الشاعر كان واقفا بين يدى السفاح فى بعض الأيام فقال له سلنى حاجتك فقال كلب صيد فقال أعطوه إياه فقال ودابة أصيد عليها فقال أعطوه دابة فقال وغلاما يقود الـكلب و يصيد به قال أعطوه غلاما قال وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه قال أعطوه جارية فقال هؤلاء يأمير المؤمنين عيال ولابد لهم من دار يسكنونها قال أعطوه دارا تجمعهم قال فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون قال قد أقطعته عشر ضياع عامرة وعشر ضياع غامرة فقال ما الغامرة يأمير المؤمنين ؟ قال مالانبات فيها قال قد أقطعتـك يأمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافى بنى أسد فضحك وقال اجعلوها كلها عامرة ، فانظر إلى حذقه بالمسئلة ولطفه فيها كيف ابتدأ بكلب صيد فسهل القضية وجعل يأتى بمسئلة بعد مسئلة على ترتيب وفـكاهة حتى سأل ماسأله ، ولوسأل ذلك بديهة لما وصل إليه .

وحكى عن المـأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يوما سر بنا نتفرج فسارا فبيناهما فى الطريق وإذا بقصبة خرج منها رجل بقصة للمـأمون يتظلم له فنفرت دابته فألقته على الأرض صريعا فأمر بضرب ذلك الرجل فقال يأمير المؤمنين إن المضطر يرتـكب الصعب من الأمور وهو عالم به ويتجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه ولوأحسنت الأيام مطالبتى لأحسنت مطالبتك ولأنت على رد مالم تفعل أقدر منى على رد ماقدمافعلت ، قال فبكى المـأمون وقال بالله أعد على ماقلت . فأعاده فالتفت المـأمون إلى يحيى بن أكثم وقال أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه والنبى صلى الله عليه وسلم يقول « المرء بأصغريه قلبه ولسانه » والله لاوقفت لك إلا وأنا قائم على قدمى ، فوقف وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه ، فلما هم المـأمون بالانصراف قال الرجل : يأمير المؤمنين

بيتان

بيتان قد حضراني ، ثم أنشد يقول :

ماجاد بالوفر إلا وهو معتذر ... ولا عفا قط إلا وهو مقتدر
وكلما قصدوه زاد نائله ... كالنار يؤخذ منها وهي تستعر

وقيل : إن بعض الحكماء لزم باب كسرى في حاجة دهرا فلم يوصل إليه ، فكتب أربعة أسطر في ورقة ودفعها للحاجب فكان في السطر الأول العدم لا يكون معه صبر على المطالبة ، وفي السطر الثاني الضرورة والأمل أقدماني عليك ، وفي السطر الثالث الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء وفي السطر الرابع أما نعم فمثمرة ، وأما لا فمريحة ، فلما قرأها كسرى دفع له في كل سطر ألف دينار .

وحكي أن رجلا كان جارا لابن عبيد الله فأصاب الناس قحط بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد في طلب المعيشة وكانت له زوجة لا تقدر على السفر ، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له : إذا سافرت من ينفق علينا ؟ قال : إن لي على ابن عبيد الله دينا ومعي به إشهاد عليه شرعي فخذي الإشهاد وقدميه إليه فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر ، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول :

قالت وقد رأت الأحمال محدجة ... والبين قد جمع المشكو والشاكي
من لي إذا غبت في ذا المحل قلت لها ... الله وابن عبيد الله مولاك

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها وأخبرته بسفره وناولته الرقعة فقرأها وقال : صدق زوجك وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبر والإحسان إلى أن قدم زوجها فشكره على فضله وإحسانه .

وحكي أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة ثم أنشدها بين يديه ، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه فقال يامطيع : إن شئت أعطيناك ؟ وإن شئت مدحناك كما مدحتنا ، فاستحيا مطيع من اختيار الثواب وكره اختيار المدح وهو محتاج ، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين :

ثناء من أمير خير كسب ... لصاحب نعمة وأخي ثراء
ولكن الزمان برى عظامي ... ومالي كالدراهم من دواء

فلما قرأها معن ضحك وقال : مامثل الدراهم من دواء ، وأمر له بصلة جزيلة ومال كثير .

قال الشاعر : هززتك لا أني جعلتك ناسيا ... لأمري ولا أني أردت التقاضيا
ولكن رأيت السيف من بعد سله ... إلى الهز محتاجا وإن كان ماضيا

وقال آخر : ماذا أقول إذا رجعت وقيل لي ... ماذا لقيت من الجواد الأفضل
إن قلت أعطاني كذبت وإن أقل ... بخل الجواد بماله لم يجمل
فاختر لنفسك ما أقول فإنني ... لابد أخبرهم وإن لم أسأل

وقال آخر : لنوائب الدنيا خبأتك فانتبه ... يانائما من جملة النوام
أعلى الصراط تزيل لوعة كربتي ... أم في المعاد تجود بالإنعام

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في ذم السؤال والنهي عنه . روى عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه وكنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسطنا أيدينا وكنا

ليأخذ حظه من هذه البشارة البحرية بالزيادة الوافرة ويتشق من طيبها نشرا ، فقد حملت له من طيبات ذلك النسيم أنفاسا عاطرة ، والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة بسمعه الكريم ليصير بها في كل وقت مشنفا ولا برح من نيلها المبارك وإنعامنا الشريف على كلا الحالين في وفا .

قلت : تقدم قولي : إن الشيء بالشيء يذكر وقد ذكرت بوصف النيل المبارك هنا رسالتي البحرية التي كتبت بها إلى علامة عصرنا الشيخ بدر الدين الدماميني فسح الله في أجله من القاهرة المحروسة إلى ثغر الاسكندرية المحروسة عند دخولي إليها من ثغر طرابلس الشام وقد عضت علي أنياب الحرب بثغرها شاكيا من أهوال برها وبحرها وذلك في منتصف ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانمائة وهي يقبل الأرض التي سقى دوحها بنزول الغيث فأثمر الفواكه البدرية وطلع بدر كمالها من الغرب فسلمنا لمعجزاتها المحمدية وجرى لسان البلاغة في نثرها فيها على العقد بنظمه المستجاد وأنشد وقد ابتسم عن محاسنه التي لم يخلق مثلها في البلاد

لقد حسنت بك الأيام حتى ... كأنك في فم الدهر ابتسام

فأكرم به من مورود فضل ما برح منهله العذب كثير الزحام ومدينة علم تشرفت بالجناب المحمدي فعلى ساكنها السلام ، ومجلس حكم ما ثبت الباطل به حجة ، وعرفات أدب إن وقفت بها وقفة كنت على الحقيقة ابن حجة ، وأفق حمل بالغ في سمو بدره

فلم يقنع بدون النجوم ، وعيدان عرشه تجول به فرسان الفصاحة من بنى مخزوم ، وناهك مالفرسان الشقراء والابلق فى هـذا الميدان مجال ، وإذا اعترفوا بما حصل للفارس المخزومى عنـدهم من الفتح ـ كفى الله المؤمنين القتال ـ

حديثى عهد بالمبايعة ، فقلنا : قد بايعناك يارسـول الله فعلام يارسول الله نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وتقيموا الصلوات الخمس ، وتطيعوا الله ، وأسر كلمة خفية وهى ولا تسألوا الناس شيئا ، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم ، فما يسأل أحدا يناوله إياه » رواه مسلم . وقال رجل لابنه : إياك أن تريق ماء وجهك عند من لاماء فى وجهه . وكان لقمان يقول لولده : يابنىّ إياك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه ، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام لأن تدخل يدك فى فم التنين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غنىّ قد نشأ فى الفقر . وقيل لأعرابىّ : ماالسقم الذى لايبرأ ، أو الجرح الذى لايندمل ؟ قال : حاجة الكريم إلى اللئيم . وقال أبو محلم السعدى :

إذا مارماك الدهر فى الضيق فانتجع ... قديم الغنى فى الناس إنك حامده
ولا تطلبنّ الخير ممن أفاده ... حديثا ومن لايورث المجد والده

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مسئلة الناس من الفواحش ماأحلّ من الفواحش غيرها » وقال عليه الصلاة والسلام « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه » . قال الشاعر :

ماعتاض باذل وجهه بسـؤاله ... عوضا ولو نال الغنى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال وزنته ... رجح السؤال وخفّ كلّ نوال

وقال أحمد الأنبارى :

لموت الفتى خير من البخل للغنى ... وللبخل خير من سؤال بخيل
لعمرك ماشىء لوجهك قيمة ... فلا تلق إنسانا بوجه ذليـل

وقال سلم الخاسر : إذا أذن الله فى حاجـة ... أتاك النجاح على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولـكن سل الله من فضله

ويقال : أحبّ الناس إلى الله من سأله ، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم ، وفى هذا المعنى قيل : لاتسألنّ بنىّ آدم حاجـة ... وسل الذى أبوابه لاتحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبنىّ آدم حين يسئل يغضب

وقال محمود الورّاق :

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا ... من كلّ طالب حاجة أو راغب
فارغب إلى ملك الملوك ولاتكن ... ياذا الضراعة طالبا من طالب

وقال ابن دقيق العيد :

وقائلة مات الـكرام فمن لنا ... إذا عضنا الدهر الشـديد بنابه
فقلت لها من كان غاية قصده ... سـؤالا لمخلوق فليس بنابه
إذا مات من يرجى فمقصودنا الذى ... ترجينـه باق فلوذى ببابه

وقال بعض أهل الفضل :

لما افتقرت لصحبى ماوجدتهمو ... لجأت لله لبانى وأغنانى
ولماعلى بذل وجهى للورى سفها ... فلو بذلت إلى مولاى والأنى

ويتهى بعد أدعية مابرح المملوك منتصبا لرفعها ونثر ثلاثيـة مالسجع المطـوق فى الأوراق النباتيـة حلاوة سجعها وأشواق برّحت بالمملوك ولـكن تمسك فى مصر بالآثار :

وأبرح ما يكون الدهر يوما
إذا دنت الديار من الديار

وصول المملوك إلى مصر محتميا بكنانتها وهو بسهام البين مصاب مذعور لما شاهده من المصارع عند مقابلة الفرسان فى منازل الأحباب مكاما من ثغر طرابلس الشام بأسـنة الرماح محمولا على جناح غراب وقدحكم عليه البين أن لايبرح من سفره على جناح :

وكان فى البين ما كفانى
فكيف بالبين والغراب ،

يامولانا : لقـد قرعت من هـذا الثغر بأصابع السهام وقلع منه ضرس الأمن ولم يبق له بعـد ماشعر به البين نظام وكشرت الحروب فى ثناياه عن أنياب واقتلعنا منه مع أنهم لم يتركوا لنا فيه ثنيـة ولا ناب وأمست شهب الرماح قافية على آثارنا ، والسابق السابق منا الجواد ولزمت الروى وسائل من دمائنا لئلا يظهر لقافيتها عند نظم الحرب سناد ، وفسد انسجام تلك الأبيات المنظومة على ذلك البحر المديد ، وبدلت جنتها

وسأل رجل رجلا حاجة فلم يقضها فقال سألت فلانا حاجة أقل من قيمته فردنى ردا أقبح من خلقته وسأل عروة مصعبا حاجة فلم يقضها فقال عز الله تعالى أن لكل قوم شيخا يفزعون إليه وأنا أفزع منك ، ويقال لاشئ أوجع للاخيار من الوقوف بباب الأشرار وقال الامام الشافعى رحمه الله تعالى :

بلوت بنى الدنيا فلم أر فيهم ... سوى من غدا والبخل مل، اهابه
فجردت من غمد القناعة صارما ... قطعت رجائى منهم بذبابه
فلا ذا يرانى واقفا فى طريقه ... ولا ذا يرانى قاعدا عند بابه
غنى بلا مال عن الناس كلهم ... وليس الغنى إلا عن الشئ لا به
إذا ظالم يستحسن الظلم مذهبا ... ولج عتوا فى قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الليالى فانها ... ستبدى له مالم يكن فى حسابه
فكم قد رأينا ظالما متمردا ... يرى النجم تيها تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو فى غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لامال ولا جاه يرتجى ... ولا حسنات تلتقى فى كتابه
وجوزى بالأمر الذى كان فاعلا ... وصب عليه الله سوط عذابه

وقال آخر :

لا تسألن إلى الصديق حاجة ... فيحول عنك كما الزمان يحول
واستغن بالشئ القليل فانه ... ماصان عرضك لايقال قليل
من عف خف على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت مافى كفه ... ومتى علقت به فأنت ثقيل

وقال آخر :

ليس جودا أعطيته بسؤال ... قد يهز السؤال غير جواد
إنما الجود ما أتاك ابتداء ... لم تذق فيه ذلة الترداد

وقال آخر :

لا تحسبن الموت موت البلى ... إنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا ... أشد من ذاك لذل السؤال

وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه :

قنعت بالقوت من زمانى ... وصنت نفسى عن الهوان
خوفا من الناس أن يقولوا ... فضل فلان على فلان
من كنت عن ماله غنيا ... فلا أبالى إذا جفانى
ومن رآنى بعين نقص ... رأيته بالتى رآنى
ومن رآنى بعين تم ... رأيته كامل المعانى

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والخمسون فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها فسرها بعضهم بالهدية وقال صلى الله عليه وسلم تهادوا تحابوا فانها تجلب المحبة وتذهب الشحناء وقال صلى الله عليه وسلم الهدية مشتركة وقال صلى الله عليه وسلم من سألكم بالله فأعطوه ومن استعاذكم فأعيذوه ومن أهدى إليكم كراعا فاقبلوه وكان صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ماهو خير منها . وفى الأثر الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر . ومن الأمثال إذا قدمت من سفر فأهد لأهلك ولو حجرا وقال الفضل بن سهل ما استرضى الغضبان ولا استعطف السلطان ولا سلبت السخائم ولا دفعت المغارم

نار الحرب التى كم تقول لها هل امتلأت وتقول هل من مزيد ونفذ حكم القضاء وكم جرح خصم السيف فى ذلك اليوم شهودا واتصل الحكم بقضاء القضاة فلم يسلم منهم إلا من كان مسعودا ووقع غالبنا فى القبض من عروض حريهم الطويل وتبدلت محاسن طرابلس الشام بالوحشة فلم تفارقها على وجه جميل وتالله لم يدخلها الملوك فى هذه الوقعة إلا مكرها لابطل وكم قلت لسارية العزم لما كشف لى عن مضيق سهلها ياسارية الجبل ولم يطلق الملوك عروس حماته إلا جبرا أظهروا به كسره والعلوم الكريمة محيطة كيف يكون طلاق المكره ، يامولانا :

بوادى حماة الشام من أيمن الشط ... وحقك تطوى شقة الهم بالبسط
بلاد إذاماذقت كوثر مائها ... أهيم كأنى قد ثملت باسفنط
ومن يجتهد فى أن بالأرض بقعة ... تشاكلها قل أنت مجتهد مخطى
وصوب حديثى ماؤها وهواؤها ... فان أحاديث الصحيحين ماتخطى
بمعصمها إن دار ملوى سوارها ... فما الشام بالخلخال أو مصر بالقرط
تنظم بالشطين در ثمارها ... عقودا لها العاصى رأيناه كالسمط
وترخى علينا الغصون ذوائبا ... يسرحها كف النسيم بلا مشط
ومذمد ذاك النهر ساقا مدملجا ... وأبدت لنا دورا لحلى ساقط السبط
وراح بنقش النبت يمشى على بسط ... لو بنا خلاخيل النواعير فالتوت

ولا استميل المحبوب ولاتوقى المحذور بمثل الهدية . وأتى فتح الموصلي بهدية وهي خمسون دينارا فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من آتاه الله رزقا من غير مسئلة ورده فكأنما رده على الله تعالى » . وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية إلى عمر فردها فقال ياعمر لم رددت هديتي ؟ فقال عمر رضي الله تعالى عنه إني سمعتك تقول : خيركم من لم يقبل شيئا من الناس فقال ياعمر إنما ذاك ما كان عن ظهر مسئلة ، فأما إذا أتاك من غير مسئلة فإنما هو رزق ساقه الله إليك . وقالت أم حكيم الخزاعية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تهادوا فإنه يضاعف الحب ويذهب بغوائل الصدر » ويقال في نشر الهادة طى العادة .

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبه يعتذر بها

أهدى إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانية أشياء متباينة في يوم واحد فيلة من ملك الهند وجارية من ملك الترك وفرس من ملك العرب وجوهرة من ملك الصين وإستبرق من ملك الروم ودرة من ملك البحر وجرادة من ملك النحل وذرة من ملك البعوض ، فتأمل ذلك وقال سبحان القادر على جمع الأضداد . وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية فقال المأمون أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة ليعلم عز الإسلام ونعمة الله تعالى علينا ، ففعلوا ذلك ، فلما عزموا على حملها قال ما أعز الأشياء عندهم قالوا المسك والسمور قال وكم في الهدية من ذلك قالوا مائتا رطل مسكا ومائتا فروة سمور . وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله في يوم نيروز في سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية كان فيها عشرون صينية ذهب في عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلا وعشرون صينية فضة في عشرة منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلا وخمس خلع وشي قيمتها خمسة آلاف دينار ، وعملت شامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار . وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد على الله هدية في بعض السنين من جملتها عشرة بازات منها باز أبلق لم ير مثله ومائة مهر وعشرون صندوقا على عشر بغال فيهم طرائف الصين وغرائبه ومسجد فضة بدرابزين يصلي فيه خمسة عشر إنسانا ومائة رطل من مسك ومائة رطل عود هندي وأربعة آلاف ألف درهم . وأهدت ثريا بنت الأوبارى ملكة افرنجة وما والاها إلى المكتفي بالله في سنة ثلاث وسبعين ومائتين خمسين سيفا وخمسين رمحا وعشرين ثوبا منسوجا بالذهب وعشرين خادما صقليا وعشرين جارية صقلية وعشرة كلاب كبارا لاتطيقها السباع وستة بازات وسبع صقور ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح يتلون في كل ساعة من ساعات النهار وثلاثة أطيار من الأطيار الافرنجية إذا نظرت إلى الطعام أوالشراب المسموم صاحت صياحا منكرا وصفقت بأجنحتها حتى يعلم بذلك وخرزا يجذب النصول بعدنبات اللحم عليها بغير وجع وحمارة وحشية عظيمة الخلقة في قدر البغل وآذانها شبه آذان البغل وهي مخططة تخطيطا عاما لجميع خلقتها . وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارا من الذهب الأحمر كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية قيمة ذلك ثلثمائة ألف دينار عربية .

وحكى أن الخيزران جارية المهدي كانت أديبة شاعرة فعزم المهدي على شراء دواء ، فأنفذت إليه جام بلور فيه شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال وكتبت إليه تقول :

سقى سفحها إن قل دمعي سحابة معطبة بالسمح منهلة النقط
ويا أسطر النبت التي قد تسلسلت بصفحتها لازلت واضحة الخط
ولا زال ذاك الخط بالطل معجما ومن شكل أنواع الأزاهر في ضبط
لويت عناني في حماها عن اللوى وهمت بها لا بالمحصب والسقط
ولله عناق الفقر لي بفنائها وفي غيرها لم أرض بالملك والرهط
منازل أحبابي ومنبت شعبتي وأوطان أوطاري بها ورضا سخطي
نعمت بها دهرا ولكن سلبته برغمي وهذا الدهر يسلب ما يعطي
وقد جاء شرط البين أني أغيب عن حماها لقد أوفى فؤادي بالشرط
وحط على الدهر عمدا وشالني إلى غيرها صبرا على الشيل والحط
وسبحة جمع الشمل كانت لنا بها منظمة لكن قضى الدهر بالفرط
أمثل شوقا شكلها في ضمائري فتتبع عيني ذلك الشكل بالنقط
وقد سار عني الجسم نحوي بسرعة فياليته لو كان في مشيه يبطي
وأصبح نظمي راجعا بي إلى ورا كأني في الديوان أكتب بالقبطي
إذا يامولانا وأبثك ما لقيت من أهوال هذا البحر وأحدث عنه ولا حرج فكم وقع للملوك من أعاريضه في زحاف تقطع منه القلب

إذا خرج الإمام من الدواء ... وأعقب بالسلامة والشفاء
وأصلح حاله من بعد شرب ... بهذا الجام من هذا الطلاء
فينعم للتي قد أنفذته ... إليه بزورة بعد العشاء

فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع وزار الخيزران وأقام عندها يومين .

وأهدى الصابي إلى عضد الدولة إصطرلابا في يوم المهرجان وكتب إليه يقول :

أهدى إليك بنو الأملاك واحتفلوا ... في مهرجان جديد أنت تبليه
لكن عبدك إبراهيم حين رأى ... سمو قدرك عن شيء يدانيه
لم يرض بالأرض يهديها إليك وقد ... أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها : إن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن ، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلت كانت أوقع وأنفع . وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة ثم لم يزل يذكرها وكلما ذكر شيء بجمال أوسمن قال هو أحسن أوأسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم وإن ذكر حادث قال ذلك قبل أن أهدى لكم الدجاجة بشهر وما كان بين ذلك و بين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل فصارت مثلا لمن يستعظم الهدية ويذكرها . قال الشاعر :

وإن امرأ أهدى إليّ صنيعة ... وذكرنيها مرة للئيم

وقال سفيان الثوري : إذا أردت أن تتزوج فأهد للأم وكان سفيان يروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها ، فأهدى إليه صديق له ثيابا من ثياب مصر وعنده قوم فذكروا الخبر فقال إنما ذلك فيما يؤكل و يشرب أما في ثياب مصر فلا .

وكتب الحمدوني إلى جارية اسمها برهان وقد حج مواليها فقال :

حجوا مواليك يابرهان واعتمروا ... وقد أتتك الهدايا من مواليك
فأطرفيني بما قد أطرفوك به ... ولا تكن طرفتي غير المساويك
ولست أقبل إلا ماجلوت به ... ثنيتيك وما رددت في فيك

وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول :

تفضل بالقبول عليّ إني ... بعثت بما يقلّ العبد عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز وكتب إليه يقول : هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العبيد للسادة وقدر الأمير يجلّ عما تحيط به المقدرة وفي سودده مايوجب التفضل ببسط المعذرة وقد وجهت ماحضر علما بأنه لايستكثر ماجلّ ولايستقل لعبده ماقل فان رأى أن يتطول بقبول القليل كتطوله بإهداء الجزيل فعل وجعل يقول :

رأيت كثير مايهدى إليكم ... قليلا فاقتصرت على الدعاء

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول : ظالم ولي المظالم فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال الحمد لله الذي ولى علينا من يعرف حقوقنا فقيل له كنت تذمه ثم الآن تمدحه فقال حدثني خيثمة عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها » وقال عبد الملك بن مروان ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها

لما دخل إلى دوائر اللج وشاهدت منه سلطانا جائرا يأخذ كل سفينة غصبا ونظرت إلى الجواري الحسان وقد رمت أزر قلوعها وهي بين يديه لقلة رجالها تسبي فتحققت أن رأى من جاء يسمى في الفلك حالها غير صائب واستصوبت هنا رأى من جاء يمشي وهو راكب وزاد الظماء بالملوك وقد اتخذ بالبحر سبيلا وكم قلت من شدة الظمأ ياترى قبل الحفرة هل أطوى من البحر هذه الشقة الطويلة :

وهل أباكر بحر النيل منشرحا ... وأشرب الحلو من أكواب ملاح

بحر تلاطمت علينا أمواجه حين متنا من الخوف وحملنا على نعش الغراب وقامت واوات دوائره مقامع فنصبتنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب وقارن العبد فيه سوداء استرقت موالينا وهي جارية وغشيهم منها ماغشيهم فهل أتاك حديث الناشية واقعها الحرب فحملت بنا ودخلها الماء فجاءها المخاض وانشق قلبها لفقد رجالها وجرى ماجرى على ذلك القلب وفاض وتوشحت بالسواد في هذا الماء ثم سارت على البحر وهي مثل وكم سمع المغاربة على ذلك التوشيح زجل يرح ماني ولكن تعرب في رفعها وخفضها عن النسر والحوت وتتشامخ كالجبال وهي خشب مسندة من تبطنها عد من المتصبرين في تابوت تأتي بالطباق ولكن بالقلوب لأن صغيرها كبير وبياضها سواد وتمشي على الماء وتطير مع الهواء وصلاحها عين الفساد إن تمر الموج على دفوفها

الكتاب يدل على عقل كاتبه ، والرسول يدل على عقل مرسله ، والهدية تدل على عقل مهديها والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والخمسون في العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل العمل أدومه وإن قل » وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه : قليل مدام عليه خير من كثير مملول ، وفي التوراة حرك يداك أفتح لك باب الرزق . وكان إبراهيم بن أدهم يسقي ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلي بالليل . وعن علي رضي الله تعالى عنه قال « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ماينفي عني حجة العلم ؟ قال : العمل » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » . وقال الأوزاعي : إذا أراد الله بقوم سوءا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل ، وأنشد يقول :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل

وقال بعض الحكماء : لاشيء أحسن من عقل زانه حلم ، ومن عمل زانه علم ، ومن حلم زانه صدق . ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له : عظني ، فقال له الولي بلغني رحمك الله أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى فانظر ماذا تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم من عملك ، فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه . وقيل : من جد وجد ، وأنشدوا في المعنى :

إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد في أمر يحاوله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وتقول العرب : فلان وثاب على الفرص . وقال بعضهم :

وإني إذا باشرت أمرا أريده ... تدانت أقاصيه وهان أشده

وعن أنس رضي الله تعالى عنه : يتبع الميت ثلاث ، يرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه : أهله ، وماله ، وعمله ، فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله . وقال بعضهم : العمل سعي الأركان إلى الله ، والنية سعي القلوب إلى الله ، والقلب ملك ، والأركان جنود ، ولا يحارب الملك إلا بالجنود ، ولا الجنود إلا بالملك ، وقيل : الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم ، والعلم كله هباء إلا موضع العمل والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ، هذا هو العمل .

وأما الكسب . فقد جاء في تفسير قوله تعالى ـ وعلمناه صنعة لبوس لكم ـ أي دروع من الحديد ، وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام كان يدور في الصحارى فإذا رأى من لايعرفه تحدث معه في أمر داود فإذا سمعه عابه بشيء يصلحه من نفسه فسمع يوما من يقول : إني لاأجد في داود عيبا إلا أنه يأكل من غير كسبه ، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام في محرابه وتضرع بين يدي الله تعالى وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته ، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله في يده كالشمع فاحترفها واستعان بها على أمره وسار يحكم منها الدروع . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جعل رزقي تحت رمحي » فكانت حرفته الجهاد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن

لعبت أنامل قلوعها بالعود ، ورقص على آلتها الحدباء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود نتشام وهي كما قيل :
أنف في السماء واست في الماء (٦٣) وكم نطيل الشكوى إلى قامة صار بها عند الميل وهي الصعدة الصماء فيها المدى وليس لها عقل ولا دين وتتصابى إذا هبت الصبا وهي بنت أربعمائة وثمانين وتوقف أحوال القوم وهي تجري بهم في موج كالجبال وتدعي براءة الذمة وكم استغرقت لهم من أموال هذا وكم ضعف نحيل خصرها عن تثاقل أرداف الأمواج وكم وجلت القلوب لما صار لأهداب مجاذيفها في مقلة البحر اختلاج وكم أسبلت على وجنته طرة قلعها فبالغ الريح في تشويشها وكم مر على قرينتها العامرة فتركها وهي خاوية على عروشها تتعاظم فتهزل إلى أن ترى ضلوعها من السقم تعد ولقد رأيناها بعد ذلك قد تبت وهي حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد وخلص المملوك من كدر المالح إلى النيل المبارك فوجده من أهل الصفا وإخوان الوفا وتنصل من ذلك العدو الأزرق ذي الباطن الكدر وجمع من عذوبة النيل ونضارة شطوطه بين عين الحياة والخضر وتلا لسان الحال على الملوك وأصحابه : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، وقضى الأمر ، وقيل بعدا للقوم الظالمين .
وبعد : فإن المملوك يسأل الإقالة من عثرات هذه الرسالة ، فقد علم الله أنها صدرت من فكر تركه البين مشتتا ، وأعضاء

مع كثرة بردها قد خرجت من البحر عارية فى فصل الشتاء، وليستر عوراتها بستائر الحلم و ينظر إليها من الرحمة بعين وليكن ضربها بسيف النقد صفحا فقد كفى ماجرحت بسيوف البين ، وتالله لم يسلك الملوك هذه الجادة إلا ليجد له

«إن الله يحب العبد المحترف» وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يبغض العبد الصحيح الفارغ» . وقال عليه الصلاة والسلام «من اكتسب قوته ولم يسأل الناس لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة ، ولو تعلمون ماأعلم من المسئلة لما سأل رجل شيئا وهو يجد قوت يومه ، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كسب يده ، إن الله تعالى يبغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة» . وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم «من بات فى طلب الحلال أصبح مغفورا له» . وعن الحسن رحمه الله : كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف . وقيل لمحمد بن مهران : إن ههنا أقواما يقولون نجلس فى بيوتنا وتأتينا أرزاقنا ، فقال : هؤلاء قوم حمق إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلوا وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : لايقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة . وقال أيضا : إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول أله حرفة فإن قالوا لا سقط من عينى ، واشترى سلمان وسقا من طعام وهو ستون صاعا ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت . قال بعضهم فى السعى :

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة ... إن الجلوس مع العيال قبيح

وقيل : إن أول من صنع لسان الميزان عبد الله بن عامر ، وكان الناس إنما يزنون بالشاهينى . وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال «غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا يارسول الله سعر لنا ، فقال : إن الله الخالق القابض المسعر الرازق ، وإنى لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحد يطلبنى بمظلمة ظلمته بها فى أهل ولا مال» .

وأما ماجاء فى العجز والتوانى . فقد روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : من أطاع التوانى ضيع الحقوق ، ومن عجز طلب مافات مما لايمكن استدراكه وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه . قال الشاعر :

على المرء أن يسعى ويبذل جهده ... ويقضى إله الخلق ما كان قاضيا

ومثله قوله :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه ... وليس عليه أن يساعده الدهر

وقيل : احذر مجالسة العاجز فإنه من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه وأمده من جزعه ، وعوده قلة الصبر ، ونساه مافى العواقب ، وليس للعجز ضد إلا الحزم . وقال بعض العلماء : من الخذلان مسامرة الأمانى ، ومن التوفيق بغض التوانى ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «باكروا فى طلب الرزق والحوائج فإن الغدو بركة ونجاح» . وقال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : احرص على ماينفعك ودع كلام الناس فإنه لاسبيل إلى السلامة من ألسنة الناس . وقال على رضى الله تعالى عنه : التوانى مفتاح البؤس ، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة وتنجت الهلكة ، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد . وقال حكيم : من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير ، وقال بعض الحكماء : الحركة بركة ، والتوانى هلكة ، والكسل شؤم ، وكلب طائف خير من أسد رابض ، ومن لم يحترف لم يعتلف ، وقيل : من العجز والتوانى تنتج الفاقة قال هلال ابن العلاء الرفاء : هذين البيتين من جملة أبيات :

سبيلا إلى نهلة من عذب ذلك المورد ويعود على الضعيف الذى قطعت صلاته من صفاء هذا المشرب عائد ويصير العبد مسعودا اذا عد للأبواب العالية من جملة الخدام ويحصل لكبده الحراء من ذلك النسيم الغربى برد وسلام والله تعالى يمن بقرب المثول بين يديه ليحصل للملوك بعد التخلص من البين حسن الختام .

(القاضى السعيد هبة الله ابن سناء الملك) وإن الشوق بحر وقلبه والله الغريق بأمواجه وجمر صدره للظلم بسراجه .

ومن إنشائه . فالإسلام من طلقائه والكفر مجاهد ولكن بإتقانه وسيوفه تحسن فى الأجسام البسط وفى الأرواح القبض ورماحه تكاد لطولها تمسك السماء أن تقع على الأرض .

ومن إنشائه : وكيف لايحمد المملوك تلك الأشواق وهى تقربه من المولى بالتخيل إذا أبعدته الأيام وتمثل للمقام الكريم فيقابله كل ساعة بالسجود ويشافهه بالسلام و يرفع ناظره ، فلولا نظره إليه لكانت عينه مطرقة ، وستور أهدابه مسبلة ، وأبواب جفونه مغلقة ، ولولا اشتغالها بمطالعة طلعته لالتهب من دموعها بمياه محرقة ، فهو منها فى نار وجنه ، مغلول بنه ، مطوق بمنه .

كأنّ التوانى أنكح العجز بنته ... وساق إليها حين زوّجها مهرا

فراشا وطيئا ثم قال لها اتكى ... فإنكما لابد أن تلدا الفقرا

وقال آخر :

توكل على الرحمن فى الأمر كله ... ولا ترغبن فى العجز يوما عن الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزّى إليك الجذع يساقط الرطب

فلو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ولكن كل رزق له سبب

وسأل معاوية رضى الله تعالى عنه سعيد بن العاصى عن المروءة فقال العفة والحرفة وكان أيوب السختيانى يقول يافتيان احترفوا فانى لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم يعنى الأمراء وقال رجل للحسن : إنى أنشر مصحفى فأقرؤه بالنهار كله فقال اقرأه بالغداة والعشىّ ويكون يومك فى صنعتك ومالابد منه . ومرّ رحمه الله تعالى بإسكاف فقال ياهذا اعمل وكل فانّ الله يحبّ من يعمل ويأكل ولا يحب من يأكل ولا يعمل ، وقال أبو تمام :

أعاذلتى ما أحسن الليل مركبا ... وأحسن منه فى الملمات راكبه

ذرينى وأهوال الزمان أقاسها ... فأهواله العظمى تليها رغائبه

أرى عاجزا يدعى جليدا لقسمه ... ولو كلف التقوى لكلت مضاربه

وعفا يسمى عاجزا بعفافه ... ولولا التقى ما أعجزته مذاهبه

وليس بعجز المرء أخطاءه الغنى ... ولا باحتيال أدرك المال كاسبه

وقال آخر :

فلا تركن إلى كسل وعجز ... يحيل على المقادر والقضاء

وقال أعرابىّ : العاجز هو الشاب القليل الحيلة اللازم للأمانى المستحيلة ، ويقال : فلان يخدعه الشيطان عن الحزم فيمثل له التوانى فى صورة التوكل ويريه الهوينا باحالته على القدر . وقال لقمان لابنه : يابنىّ إياك والكسل والضجر فانك إذا كسلت لم تؤدّ حقا وإذا ضجرت لم تصبر على حق . قال أبو العتاهية :

إذا وضع الراعى على الأرض صدره ... فحق على المعزى بأن تتبددا

فالتوانى هو الكسل وتضييع الحزم وعدم القيام على مصالح النفس وترك التسبب والاحتراف والإحالة على المقادير ، وهذا من أقبح الأفعال وأما التأنى فانه خلاف التوانى وهو الرفق ورفض العجلة والنظر فى العواقب ، وقد قيل : من نظر فى عواقب الأمور سلم من آفات الدهور ، ومما جاء فى ذلك قوله تعالى : ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من الدنيا والآخرة » . وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضى الله عنها « عليك بالرفق فان الرفق لايخالط شيئا إلا زانه ولايفارق شيئا إلا شانه » . وفى التوراة : الرفق رأس الحكمة . وقالوا : العقل أصله التثبت وثمرته السلامة . ووجد على سيف مكتوبا : التأنى فيما يخاف فيه الفوت أفضل من العجلة فى إدراك الأمل وقال بعض الحكماء : إذا شككت فاجزم وإذا استوضحت فاعزم . وقالوا : بيد الرفق تجنى ثمرة السلامة ، وبيد العجلة تغرس شجرة الندامة . وأنشدوا فى ذلك :

(ومن إنشائه) ولقد أنساه فراق مولاه حروف المعجم فما يعرف منها حرفا وعاقب خاطره الذى كفر بالبلاد فأسقط عليه من سمائها كسفا شوق ماخطر مثله على قلب بشر ودمع مامرّ على بصر إلا ومن كلح بالبصر ولسان لاينفك من الدعاء على يوم الفراق ومن دعا على ظالمه فقد انتصر .

(القاضى محيى الدين ابن عبد الظاهر خليفة القاضى الفاضل) ومن إنشائه قوله : نعلمه بفتوحات استطعم الإيمان حلاوتها من أطراف القنا واستنطق الإسلام عبارتها من ألسنة الخرسان وذلك بفتح حصن الأكراد الذى كان فى حلق البلاد الشامية غصة لم تسغ بمياه السيوف المجردة وشجى فى صدرها لم تقومه أدوية العزائم المفردة .

ومن انشائه بابطال الحشيش بعد الخمر : نعلمه أن المنكرات أمرنا أن تملأ الصحائف بأجرها وتفرغ الصحاف وأن لايخلو بيت من بيوتها من كسر أوزحاف وقد بلغنا الآن أنها اختصرت وأن كلمة الشيطان بالتعريض عنها ماقصرت وأن أم الخبائث ماعقمت وأن الجماعة التى كانت ترضع ثدى الكأس عن ثديها مافطمت وأنها فى النشوة ماخيب إبليس مسقاها وأنها لما أخرج المنع عنها ماء الخمر أخرج لها قد
من الحشيش مرعاها وأنها استراحت من الخمار واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار وأن ذلك لنا

قد يدرك المتأنى بعض حاجته　　　وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقالوا : التأنى حصن السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة . وقالوا : إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأنى فبماذا يدرك . وقال المهلب : أناة فى عواقبها درك خير من عجلة فى عواقبها فوت . وقالوا : من تأنى نال ماتمنى ، والرفق مفتاح النجاح . وقال بعض الحكماء : إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ويحمد قبل أن يجرّب ، ولن تصحب هذه الصفة أحد إلا صحب الندامة وجانب السلامة .

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها . فقد روى عن سهل بن سعد رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عمل الأبرار من الرجال الخياطة ، وعمل الأبرار من النساء الغزل » وكان صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويعلف ناضحه . وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطا ، وقيل : كان إدريس عليه السلام خياطا ، ووقف على بن أبى طالب كرم الله وجهه على خياط ، فقال له : ياخياط ثكلتك الثوا كل صلب الخيط ، ودقق الدروز ، وقارب الغروز فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه » واحذر السقاطات فإنّ صاحب الثوب أحقّ بها ، ولا تتخذ بها الأيادى وتطلب المكافأة . وقال فيلسوف : إنّ من القبيح أن يتولى امتحان الصناع من ليس بصانع . وفى الحديث « أكذب أمتى الصوّاغون والصباغون ، وكذب الدلال مثل » وقالوا : لكل أحد رأس مال ، ورأس مال الدلال الكذب . وقال عبد الرحمن ابن شبل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « التجار هم الفجار ، فقيل : أليس الله تعالى قد أحلّ البيع ؟ قال : نعم ، ولكن يحدّثون فيكذبون ، ويحلفون فيحنثون » . وقال الفضيل : بخس الموازين سواد فى الوجه يوم القيامة ، وإنما أهلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا ، وعطلوا الحدود ، ونقصوا الكيل والميزان . وقال مجاهد فى قوله تعالى ـ واتبعك الأرذلون ـ قيل : هم الحاكة والأساكفة وقيل : إنّ حائكا سأل إبراهيم الحربى ماتقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطفا ماالذى يجب عليه ؟ فتبسم إبراهيم ثم قال : يتصدّق بدرهمين ، فلما مضى قال : ماعلينا أن تفرح المساكين من مال هذا الأحمق ، وقيل لرجل : هل فيكم حائك ؟ قال : لا ، قيل : فمن ينسج لكم ثيابكم ؟ قال : كلّ منا ينسج لنفسه فى بيته ، وكان أردشير بن بابك لايرتضى لمنادمته ذا صناعة رديئة كحائك وحجام ولو كان يعلم الغيب مثلا . وقال كعب : لاتستشيروا الحاكة فإنّ الله تعالى سلب عقولهم ونزع البركة من كسبهم ، لأن مريم عليها السلام مرّت بجماعة من الحياكين فسألتهم عن الطريق فدلوها على غير الطريق ، فقالت : نزع الله البركة من كسبكم . قال أبو العتاهية :

ألا إنما التقوى هى العزّ والكرم　　　وحبك للدّنيا هو الذلّ والسقم

وليس على عبد تقىّ نقيصة　　　إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

وهذا ما أردنا سياقه فى هذا الباب ، والله الموفق للصواب ، وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فى كثير من الناس ، وعرف فى عيونهم مايعرف من الاحمرار فى الكاس ، وصاروا كأنهم خشب مسندة سكرى ، وإذا مشوا يقدمون لفساد عقولهم رجلا ويؤخرون أخرى ، ونحن نأمر بأن تجتثّ أصولها وتقتلع ، ويؤدّب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع وتطهر منها المساجد والجوامع ويشهر مستعملها فى المحافل والمجامع حتى تنتبه العيون من هذا الوسن وحتى لاتشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن .

ومن إنشائه عن لسان الشريف إلى الفرنج : وقد أخذت شوانى السلطان وفرق بين من يتصيد بالصقور من الخيل العراب وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغراب فلئن أخذتم لنا قربة مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة وقد قال الملك فقلنا وعلم الله أن قولنا من الصحيح واتكل واتكلنا وأين من اتكل على الله ممن اتكل على الريح .

ومن إنشاء الصدر عز الدين بن سينا فى بشارة بكسر عساكر الفرنج عن الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة اثنتين وأربعين وستمائة : فلا روضة إلا درع ولا جدول إلا حسام ولا غمامة إلا نقع ولا وبل إلا سهام ولا مدامة إلا دم ولا نغم إلا صهيل ، ولا معربد إلا قاتل ، ولا سكران إلا قتيل حتى أنبت كافور الرمال شقيقا ، واستحال بلور الحصباء عقيقا . وازدحمت الجنائب فى الفضاء فجعلته مضيقا ، وضرب النقع فى السماء طريقا

الباب السادس والستون في شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلي عن نوائب الدهر ، وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روى عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال « مامن يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه ، سمعت ذلك من نبيكم صلى الله عليه وسلم » وكان معاوية رضي الله تعالى عنه يقول : معروف زماننا منكر زمان قد مضى ، ومنكره معروف زمان لم يأت . وكانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لاتسبق ، فجاء أعرابي فسبقها فشق ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن حقا على الله أن لايرفع شيئا من هذه الدنيا إلا وضعه » .

وحكى عن شيخ من همدان قال : بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا ، فمكث شهرا لا أصل إليه ، ثم بعد ذلك أشرف الشرافة من كوة له فخر له من حول القصر سجدا ، ثم رأيته بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص ، واشترى بدرهم لحما وسمطه خلف دابته ، وهو القائل هذه الأبيات :

أف للدنيا إذا كانت كذا أنا منها في بلاء وأذى
إن صفا عيش امرىء في صبحها جرعته ممسيا كأس الردى
ولقد كنت اذا ماقيل من أنعم العالم عيشا قيل ذا

وقال يونس بن ميسرة : لايأتي علينا زمان إلا بكينا منه ، ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه ، ومن ذلك قوله :

رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

ومثله : وما مر يوم أرتجي فيه راحة فأخبره إلا بكيت على أمسى

ومن كلام ابن الأعرابي :

عن الأيام عد فعن قليل ترى الأيام في صور الليالي

وقال علي رضي الله عنه : ماقال الناس لشيء طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء . قال الشاعر :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعهد

ودخل داود عليه الصلاة والسلام غارا فوجد فيه رجلا ميتا وعند رأسه لوح مكتوب فيه أنا فلان ابن فلان الملك عشت ألف عام و بنيت ألف مدينة وافتضضت ألف بكر وهزمت ألف جيش ثم صار أمري إلى أن بعثت زنبيلا من الدراهم في رغيف فلم يوجد ثم بعثت زنبيلا من الجوهر فلم يوجد فدققت الجواهر واستفيتها فمت مكاني فمن أصبح وله رغيف وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كما مت ، وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولى خراسان حاز من الأموال ماقدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق في كل يوم ألف درهم على نفسه أنه يكفيه فروى بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها . وقال هيثم بن خالد الطويل : دخلت على صالح مولى منارة في يوم شات وهو جالس في قبة مغشاة بالسمور وجميع فروشها سمور ، و بين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود ، ثم رأيته بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس ! ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ونزل في داره وقعد على فرشه دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت ياعامر إن دهرا أنزل مروان

وضاقت الأرض حتى كاد هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

قلت : ذكرت بهذا التلاعب المطرب من إنشاء الصدر عز الدين تلاعب القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في شفاعة مانسج على منوالها ، وهي أدام الله نعمة مولانا ولازال علم علمه مرفوعا أبدا و بناء مجده منصوبا بخفض العدا ولا برحت أقلامه لأفعال الشك جازمه ولأعدائه متعديه ولآرائه لازمه .

أما بعد : فإن فلانا الخضر وادعى أنه رخم في غير النداء وجزم والجزم لايدخل في الأسماء واستثنى من غير موجب لخفض والخفض من أدوات الاستثناء ، وذكر أن العامل الذي دخل عليه منعه من الصرف ولزمه لزوم البناء واجتمع معه في الشرط وأفرده بالجزاء والمأمور من مكارم مولانا نصب محله على المدح لا على الإغراء ورفع اسمه للعرى من العوامل على الابتداء ففيه من التمييز والظرف مايوجب العطف ومن المعرفة والعدل مايمنعه من الصرف لازال ولانا بابا للعطف والصلة وما برح مكارمه متصلة لا منفصلة

قلت : قد انتهت الغاية هنا إلى التحلي بالقطر النباتي وقد عن لي أن أورد هنا حظيرة الانس إلى حضرة القدس فإنها من بديع إنشائه وهي في رحلته إلى القدس الشريف مع الصاحب أمين الدين ، وهي : الحمد لله حافظ سر الملك بأمينه ، وحامى حماه بمن قسم عن الشكر والأجر بين دنياه ودينه ، ومن إذا رفعت راية مجد تلقاها عرابة براعته بيمينه ، وإذا امتدت إليه أجياد للممالك حلاها

عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ فى عظتك . وقال مالك بن دينار مررت بقصر تضرب فيه الجوارى بالدفوف ويقلن :

ألا يادار لايدخلك حزن ... ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار تأوى كل ضيف ... إذا ماضاق بالضيف المكان

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز فسألتها عما كنت رأيت وسمعت فقالت ياعبد الله إن الله يغير ولايتغير والموت غالب كل مخلوق قد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان .
وقال أبو العتاهية :

لئن كنت فى الدنيا بصيرا فإنما ... بلاغك منها مثل زاد المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر

وقال عبد الملك بن عمير رأيت رأس الحسين رضى الله تعالى عنه بين يدى بن زياد فى قصر الكوفة ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار ثم رأيت رأس المختار بين يدى مصعب ثم رأيت رأس مصعب بين يدى عبد الملك قال سفيان فقلت له كم كان بين أول الرؤوس وآخرها قال اثنتا عشرة سنة .
وقال الشاعر :

إن للدهر صرعة فاحذرنها ... لا تبيتن قد أمنت الشرورا
قد يبيت الفتى معافى فيردى ... ولقد كان آمنا مسرورا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر فى قصره على الدجلة ينظر فاذا هو بحشيش فى وسط الماء وفى وسطه قصبة على رأسها رقعة فدعا بها فاذا فيها مكتوب شعرا وهو للشافعى رضى الله تعالى عنه :

تاه الأعيرج واستعلى به البطر ... فقل له خير ما استعملته الحذر
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء مايأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

قال فما انتفع بنفسه مدة . وأعجب ماوجد فى السير خبر القاهر أحد الخلفاء وقلعه من الملك وخروجه إلى الجامع فى بطانة جبة بغير ظهارة ومدبده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض فتبارك الله يعز من يشاء ويذل من يشاء . وقيل كان لمحمد المهلبى قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف فبينما هو فى بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول :

ألا موت يباع فأشتريه ... فهذا العيش مالاخير فيه
ألا رحم المهيمن نفس حر ... تصدق بالوفاة على أخيه

قال فرق له رفيقه وأحضر له بدرهم ماسد به رمقه وحفظ الأبيات وتفرقا ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذى كان رفيقه فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها :

ألا قل للوزير فدته نفسى ... مقالا مذكرا ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنك عيش ... ألا موت يباع فأشتريه

فلما قرأها تذكر فأمر له بسبعمائة درهم ووقع تحت رقعته مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ثم قلده عملا يرتزق منه . ودخل مسلمة بن زيد ابن وهب على عبد الملك بن مروان فقال : أى الزمان أدركته أفضل وأى الملوك أكمل ؟ فقال أما الملوك فلم أر إلا حامدا وذاما وأما الزمان فيرفع أقواما ويضع آخرين وكلهم يذكر أنه يبلى

من عقد التدبير بيمينه وإذا نوى فى السيادة فلا أمضى العزم السنى قبل دخول سينه وإذا حمل بنانه القلم روينا عن ابن بحر كتاب بيانه فى الفضل وتبيينه وصلى الله على سيدنا محمد الذى أيد بالروح الأمين وعضد بوزراء آله وصحبه الغر الميامين وسلم عليه وعليهم سلاما باقيا إلى يوم الدين أما بعد، فان الله سبحانه وتعالى لما يريد من صلاح عباده وانتظام هذا العالم الأرضى فى سلك سداده وتمام أمر هذا السواد الأعظم بعدبرة تماما يخط الطرس بسواده جعل لكل دولة قائمة وزيرا قائما بتدبيرها مفرغا غص القلم بتثميرها منفذا أمر سلطانها ومبلغا أحكام عدلها وإحسانها يبنى ممالكها على الأسل من أقلامه ويحيط أطرافها إحاطة الزهر بكمامه ويتحفها بأوصاف وزيرية يعقد عليها العدل خنصره ويتضح بها وجه الاستحقاق من إبهامه وكان صاحب هذه الدولة التى خضعت لها الدول وفاضل أمرها الجليل وراسخ دوحها الذى ما مال مع الهوى وقديم صحائفها التى تلا تسديده ماضل صاحبكم وماغوى وضابط أمورها الذى طال ما استشرفت إليه أسماع وأبصار وانتصرت به تقديم هجرته فلا غرو أن صار من المهاجرين بها والأنصار المقر الأشرف الصاحبى الوزيرى الأمينى أعلى الله تعالى أبدا شأنه ورفع على فرق الفرقدين مكانه وزان بأقلامه أقاليم مصر فهذه سهام وهذه كنانة عمن استدعته رواة المحافل وتردد فى المناصب العلية تردد الأقمار فى المنازل وجمع الأوصاف الوزيرية جمع أبى جاد للحروف وتنبه قلبه

وناحت ملء أجفانها السيوف وعرف بالسيادة والزهد فعلى كلا الحالين هو السرى وقدره معروف وكنت أود لو نقلت الشهاد:

بصفاته عن الخبر إلى المعاينة وجمعت بملازمة مقره الشريف الظاهر الوصف باطنه ورويت الأخبار عن اسنه وجنيت الورد من غصنه بل التبر من معدنه هذا وأشغاله بتدبير الدول شاغله وأيام البعد عند فراغه بينى وبين القصد حائله ، فلما عزم بدمشق المحروسة سنة خمس وثلاثين على زيارة القدس الشريف اطلع رأيه الشريف على ما فى خاطرى وأمرنى بالمسير فى ظل ركابه فسر على الحقيقة سائرى وكاشف ولا ينكر التكشف لمن كثرت زراياه فى البلاد ونظر لحالى ولا ينكر النظر فى الأحوال لسيد الوزراء والزهاد وكان له فى استصحابى مقصد تقبل الله عمله الصالح ومتجره الرابح وذلك أنى كنت لابسا ثياب الحزن على ولدى مقيما بين المقابر إقامة تفتت حبة قلبى على قطعة كبدى ساقيا روض الحزن بغمائم الجفون باكيا على دينار وجه عاجلته الأيام بصرف المنون أطلب قلبى فى التراب وأنشده وأطارح صوت الصدا فينشدنى وأنشده :

يا لهف قلبى على عبد الرحيم ويا شوقى إليه ويا شجوى ويادائى
فى شهر كانون وافاه الحمام لقد أحرقت بالنار يا كانون أحشائى

وقال أيضا : آها لعقد قد وهى سلكه وكان ذا در بعبد الرحيم
فليتنى لاقيت عنه الردى وعاد ذاك الدر درا يتيم

جديدهم ويفرق عديدهم ويهرم صغيرهم ويهلك كبيرهم . وقال حبيب بن أوس :

لم أبك من زمن لم أرض خلته ... إلا بكيت عليه حين ينصرم

وقال آخر: يامعرضا عنى بوجه مدبر ... ووجوه دنياه عليه مقبله
هل بعد حالك هذه من حالة ... أو غاية إلا انحطاط المنزله

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير :

ذهب الذين إذا رأونى مقبلا ... بشوا إلى ورحبوا بالمقبل
وبقيت فى خلف كأن حديثهم ... ولغ الكلاب تهارشت فى المنزل

وقال آخر فى معناه :

يامنزلا عبث الزمان بأهله ... فأبادهم بتفرق لايجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة ... كان الزمان بهم يضر وينفع
أيام لايغشى لذكرك مربع ... إلا وفيه للمكارم مرتع
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ... وبقى الذين حياتهم لاتنفع

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلى :

وإنى رأيت الدهر منذ صحبته ... محاسنه مقرونة ومعايبه
إذا سرنى فى أول الأمر لم أزل ... على حذر من أن تذم عواقبه

وقال بعضهم: ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت فى خلف يزين بعضه ... بعضا ليدفع معور عن معور
حلف الزمان ليأتين بمثلهم ... حنثت يمينك يازمان فكفر

وكان يقال إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتى الخير . وكان يقال بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال ، ويقال زمام العافية بيد البلاء ورأس السلامة تحت جناح العطب وقال بعضهم نحن فى زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا والشر إلا إقبالا والشيطان فى هلاك الناس إلا طمعا اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيرا يكابد فقرا أو غنيا بدل نعمة الله كفرا أو بخيلا اتخذ بحق الله وفرا أو متمردا كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقرا وقال آخر نحن فى زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول ياليتنى مكانه » ويقال لايقاوم عز الولاية بذل العزل :

مامن مسىء وإن طالت إساءته ... وإلا ويكفيك يوم من مساعيه

وقال الأمين : يانفس قد حق الحذر ... أين المفر من القدر
كل امرىء مما يخا ... ف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صفو الزما ... ن يغص يوما بالكدر

وقال بعضهم :

وقال مابال وجهك قد نضت ... محاسنه والجسم بان شحوبه
فقلت لماهاتى من الناس واحدا ... صفا وقته والنائبات تنوبه

وللأمير أبى على بن منقذ :

لما

أما والذى لايعلك الأمر غيره ... ومن هو بالسرّ المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلما ... لإعلانها عندى أشدّ وأعظم
وبى كل مايبكى العيون أقله ... وإن كنت منه دائما أتبسم

وقال علىّ بن أبى طالب كرّم الله تعالى وجهه : وايم الله ما كان قوم قط فى خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد ، ولوأن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لردّ عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد . قال الشاعر :

يقولون الزمان به فساد ... وهم فسدوا وما فسد الزمان

وكفى بالقرآن واعظا قال الله تعالى : إنّ الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

[الفصل الثانى فى الصبر على المكاره ومدح التثبت وذم الجزع]

قد مدح الله تعالى الصبر فى كتابه العزيز فى مواضع كثيرة وأمر به وجعل أكثر الخيرات مضافا إلى الصبر وأثنى على فاعله وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه وحثّ على التثبت فى الأشياء ومجانبة الاستعجال فيها . فمن ذلك قوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين ، فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين ، وقوله تعالى : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ، وقوله تعالى : وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وقوله تعالى : وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا . وبالجملة فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر فى كتابه العزيز فى نيف وسبعين موضعا وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم به فقال تعالى : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى ذلك أخبار كثيرة ، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « النصر فى الصبر » وقوله عليه الصلاة والسلام « بالصبر يتوقع الفرج » وقوله «الأناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان» فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر فى مواطن طلباته والتثبت فى حركاته وسكناته ، وكثيرا ماأدرك الصابر مرامه أوكاد وفات المستعجل غرضه أوكاد . وقال الأشعث بن قيس : دخلت على أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلا ونهارا فقلت ياأمير المؤمنين إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة ، فما زادنى إلا أن قال :

اصبر على مضض الإدلاج فى السحر ... وفى الرواح إلى الطاعات فى البكر
إنى رأيت وفى الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلّ من جدّ فى أمر يؤمله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فحفظتها منه وألزمت نفسى الصبر فى الأمور فوجدت بركة ذلك . وعن أبى سعيد الخدرىّ وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولاحزن ولا أذى ولاغم حتى الشوكة يشاكها إلا حط الله بها من خطاياه » وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة » وقال صلى الله عليه وسلم « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا

اقتضى تدقيق النظر الصاحي فى إسداء العوارف وإداء عواطف الفضل وفضل العواطف أن ينزع عن بصحبة ركابه الكريم لباس البأس ويشتلى بمشافهة الأنس القابل ، ألا هكذا فليصنع الناس وينهض بالانعام من حوادث الزمن ويقرب مثل قربانا لايفطن لمثله إلا من ومن فيالها سفرة قابلها وجه الاقبال بالسفور ولافقدلها : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، ومدّ فيها الإنعام علىّ ظلا ظليلا وملأ بيق وعينى دقيقا وجليلا وأمرنى أن أصف له المنازل والطرق وصفا كقصده الجميل جميلا فسرنا وأبدى السعد قد ذللت الطرق بل طوتها وقدمت وعود الآمال بل أنجزتها والأرض قد شرعت فى لباس حليها وحللها ومراعى الربيع قدوعدت حتى الشمس لتمين حملها والشتاء قد آن أن يقوض الخيام والأفق قد شمر للانصراف ذيل الغمام ومبدأ الروض أحق بقول أبى الطيب المتنبي :

لقد حسنت بك الأيام حتى ... كأنك فى فم الدهر ابتسام

فأتينا الكسوة فلبسنا منها المسرّة ثيابا سابغة الذيول وطفنا منها بكعبة الفضل طوافا واضح الاقبال والقبول وقلنا للقاصد تباشرى بالحظوة ولعيون الاقبال تأملى لما أحسن الكعبة فى الكسوة وعبرنا والخيل تجمز جمزا وجزنا بالصنمين فهمت أن تفخر بموالى خيلنا على اللات والعزى وصعدنا منزلة رأس الماء فكان الطرب يهزه هزا ورأينا بينها

و بين منزلة المغبر رضا قد اخضر جنابها وطرزت بآثار طرف ثيابها فأمرت بالقول فقلت سقى الله أرضا طرقها مثل طرزها وسائرها برد من الوشى أخضر تذكرت أحبابى بمنوى بريدها فعينى رأس الماء، وجسمى المغبر ووافينا الحصين وقد راغت الخيل روغان أبيه ونلقتنا بالبشر والبشرى وجوه أهليه وسألونا أن نربع عندهم الركاب من الأين وعجلوا بالضيافة على الفتوح ولاينكر تعجيل الفتوح للحصين ووجدنا هناك فقيرا مغريا بأحسن التلاوة وقد عجز عن السير وارتد طرف قصده عن القدس خاسئا وهو حسير فأمرت له الصدقات الصاحبية بمركوب ونفقة تعينه على السفر والإقامة ولحقه فى ذلك فقير عجمى ينشد لسان حاله :

* بى مثل مابك ياحمامة *

فلم أر مثلها صدقات تجود من الزاد والراحلة بالغيث والبرق ولا مثله متصدقا يجلس لحظة واحدة فيركض نداه فى الغرب والشرق وعجنا يعجلون خير الناس لدينا ضحى وجاء أهل المدينة يستبشرون فرحا وارتفعت الأصوات بالأدعية الوافية وأردنا أن نكتم دخولنا البلد وكيف نكتمنا وهى ذات عين صافية ثم نزلنا بالخيام فى مرجتها الخضراء تحت قلعتها الغراء وهى فى معارج السحب صاعدة شائدة فى الجو كأنها فى السحر على عمود الصبح قاعدة مضيئة بين عقود الأنجم ومن كأنها درتها اليتيمة جالسة على سرير الجيل تنادم الفرقدين كأنها جذيمة ، فنظر فى المصالح وميز بالعدل بين الصالح والطالح

ومن سخط فله السخط » رواه الترمذى وقال حديث حسن . وعن إسحق بن عبدالله بن أبى فروة عن أنس بن مالك قال قال النبى صلى الله عليه وسلم « الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر والصبر عند الصدمة الأولى وعظم الأجر على قدر المصيبة ومن استرجع بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها » . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال « احفظوا عنى خمسا ثنتين وثنتين وواحدة : لايخافن أحدكم إلا ذنبه ، ولايرجو إلا ربه ، ولايستحى أحد منكم إذا سئل عن شىء وهو لايعلم أن يقول لاأعلم ، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد و إذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور وأيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فى حبسه مات شهيدا فان ضربه فمات فهو شهيد » وروى فى الخبر : « لما نزل قوله تعالى : من يعمل سوءا يجز به قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يارسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ياأبا بكر ألبس تمرض ألبس يصيبك الأذى ألبس تحزن ؟ قال بلى يارسول الله قال فهذا ماتجزون به » يعنى جميع مايصيبك من سوء يكون كفارة لك . وبهذا اتضح لك أن العبد لايدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء . وروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند الكعبة وأبوجهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبوجهل لعنه الله أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفى محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم فأخذه وأتى به ، فلما سجد صلى الله عليه وسلم وضع بين كتفيه السلا والفرث والدم فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر فقلت لوكان لى منعة لطرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبى صلى الله عليه وسلم ساجد مايرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضى الله تعالى عنها ، فجاءت فطرحته عن ظهره ثم أقبلت عليهم فسبتهم ، فلما قضى صلى الله عليه وسلم الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فلما سمع القوم صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته فقال اللهم عليك بأبى جهل وعتبة وشيبة والوليد وأمية بن خلف فقال على رضى الله تعالى عنه والذى بعث محمدا بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر » وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاث من رزقهن فقد رزق خيرى الدنيا والآخرة : الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والدعاء فى الرخاء » . وحكى أن امرأة من بنى إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة فسرقها سارق فصبرت وردت أمرها إلى الله تعالى ولم تدع عليه ، فلما ذبحها السارق ونتف ريشها نبت جميعه فى وجهه فسعى فى إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبرا من أحبار بنى إسرائيل فشكا له فقال لاأجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة ، فأرسل إليها من قال لها أين دجاجتك فقالت سرقت فقال لقد آذاك من سرقها قالت قدفعل ولم تدع عليه قال وقد فجعك فى بيضها قالت هو كذلك ، فما زال بها حتى أثار الغضب منها فدعت عليه فتساقط الريش من وجهه ، فقيل لذلك الحبر من أين علمت ذلك ؟ قال لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتقم لها الله ، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه ، فالواجب على العبد أن يصبر على مايصيبه من الشدة ويحمد الله تعالى ويعلم أن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرا وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج والفرح عاجلا ،

وعجل من عجلون المسير فلم ينظر الغادى الذى هو رائح ، وأشرفنا على بركات القصد المنجية ، واقتحمنا إلى الغور عقبة سهلها السعد فلا تقل : ما أدراك ما العقبة ، واستفتحنا المزارات التى نوينا قصدها ، وطوينا غورها وتجدها بمشهد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبو عبيدة ابن الجرّاح رضى الله تعالى عنه فترامينا إليه بالعزم الفاخر وزال أمين هذه الأمة الأوّل أمينها الآخر وأجرى أمر مشده على سنن الصلاح ونظر فى مرتبه بعين العدل وأعانه بيد السماح وجعل والى الناحية عبيدة وما جعل لشاهده المعروف بالجرّاح وسلكنا جانب الغور المطور فأعجبنا ريا ورواء وكنا نظنّ الماء فيه غورا فوجدنا الغور ماء وخضنا فى حديثه وخاضت الخيل وتركنا عقباته كالمقلقة وملنا إلى السهل كلّ الميل وتلقينا كلّ ذى قصد يبشر الصباح ولم نقل أهلك والليل وما زلنا كذلك لانمرّ بواد إلا أنت مع الابتهال بطول العمر ماله وأراملة ولا بناد إلا قامت للدعاء رجاله وأطفاله وحلائله ولا بولاية إلا ارتج غدرها ولا ببلدة إلا زها على التى بين السماكين بدرها ولا ماش إلا حمله للعروف ولا عابر سبيل إلا آنسه من النعماء صنوف ولا جائز إلا شملته جائزة ، ولا منقطع بمفازة إلا وعقباه فائزة ، ولا ظبية من ظبيات دمشق إلا والمكارم تؤاليها وتواليها وتوجدها فى القفار كما توجدها أولياء الله فيها إلى أن قدمنا القدس الشريف نحن والغمام ، وسبقنا إليه طرّة الصبح تحت أذيال الظلام ،

ومن أحسن ماقيل فى ذلك من المنظوم :

وإذا مسك الزمان بضرّ ... عظمت دونه الخطوب وجلت
وأتت بعده نوائب أخرى ... سئمت نفسك الحياة وملت
فاصطبر وانتظر بلوغ الأمانى ... فالرزايا إذا توالت تولت
وإذا أوهنت قواك وجلت ... كشفت عنك جملة وتخلت

ولمحمد بن بشر الشارجى :

إنّ الأمور إذا استدّت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كلّ مارتجا
لاتيأسنّ وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

ولزهير بن أبى سلمى :

ثلاث يعزّ الصبر عند حلولها ... ويذهل عنها عقل كلّ لبيب
خروج اضطرار من بلاد يحبها ... وفرقة إخوان وفقد حبيب

وقال بعضهم :

عليك بإظهار التجلد للعدا ... ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
أما تنظر الريحان يشمم ناضرا ... ويطرح فى البيدا إذا ماتغيرا

ولابن نباتة :

صبرا على نوب الزما ... ن وإن أبى القلب الجريح
فلكلّ شىء آخر ... إما جميل أو قبيح

وقال أبو الأسود وأجاد :

وإن امرأ قد جرّب الدهر لم يخف ... تقلب عصريه لغير لبيب
وما الدهر والأيام إلا كما ترى ... رزية مال أو فراق حبيب

ومن كلام الحكماء : ماجوهد الهوى بمثل الرأى ، ولا استنبط الرأى بمثل المشورة ، ولا حفظت النعم بمثل المواساة ، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر ، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر .

وقال نهشل :

ويوم كأن المصطلين بحرّه ... وإن لم يكن نار قيام على الجمر
صبرنا له صبرا جميلا وإنما ... تفرّج أبواب الكريهة بالصبر

وقال ابن طاهر :

حذّرتنى وذا الحذر ... ليس يغنى من القدر
ليس من يكتم الهوى ... مثل من باح واشتهر
إنما يعرف الهوى ... من على مرّه صبر
نفس يانفس فاصبرى ... فاز بالصبر من صبر

وكان يقال : من تبصر تصبر . وكان يقال : إن نوائب الدهر لاتدفع إلا بعزائم الصبر . وكان يقال لادواء لداء الدهر إلا بالصبر ، ولله درّ القائل :

الدهر أدّبنى والصبر ربانى ... والقوت أقنعنى واليأس أغنانى
وحنكتنى من الأيام تجربة ... حتى نهيت الذى قدكان نهانى

وما أحسن ماقال محمود الورّاق :

إنى رأيت الصبر خير معول ... فى النائبات لمن أراد معولا
ورأيت أسباب القناعة أكدت ... بعرى الغنى فجعلتها لى معقلا
فإذا نبا بى منزل جاوزته ... وجعلت منه غيره لى منزلا

وخف بناجناح الشوق والسوق حين دنت الخيام من الخيام ، وألقينا بباب حرمه عصى السفر ، وألقت هناك رحالها ركائب المطر ، وزرنا باب الرحمة من الأرض وزارنا باب الرحمة من السماء ، وصرنا من الصالحين عند زيارة الأقصى فمشينا على الماء وحمدنا الأوطان والأقطار واستمرت السحب حتى عادت الصخرة كحجر موسى تتفجر منها الأنهار وأقمنا فى بيوت أذن الله أن يرفع شأنها ويسبح فيها بالغدو والآصال سكانها وكان معنا شخص يلقب بالخلد سكن بيتا حسنا وغمض عينه على الرفاق تغميضا بينا ، فقال أمولانا الصاحب ماتقول فى بيته ؟ فقلت : ما أقول فى جنة الخلد ، وشكا قوم عشرة هذا الرجل فكتبت على ورقتهم : اصبروا على مايفعلون وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ثم دخل الناس على الأبواب الصاحبية أفواجا وما ترك أحد منهم منهاجا ذا ناحية إلا منهاجا ومكثنا فى البيوت إلى أن صحا الأفق من مدامة غمامه وحسر عن وجهه للأبصار فضل لثامه وقمنا لبقية المشاهد قاصدين ولتلك المبانى المعظمة شاهدين ومشاهدين فعاودنا الصخرة بقلوب قد لانت ونثرنا على مواطئ القدم دموعا عزت بلمسها ولا نقول هانت ، ونظرنا آثارا قديمة تذهل عيون النظارة ، وآثارا متجددة فى هذه الدولة القاهرة كما تقصر عنها العبارة ومحاسن يقف فى طريق الزيارة متأملها وقفة فى الطريق نصف الزيارة فمنها ماهو مخصوص بالحرم الشريف

وإذا غلا شىء علىّ تركته ... فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم :

إذا ما أتاك الدهر يوما بنكبة ... فافرغ لها صبرا ووسع لها صدرا

فإن تصاريف الزمان عجيبة ... فيوما ترى يسرا ويوما ترى عسرا

وقال بعضهم :

وما مسنى عسر ففوّضت أمره ... إلى الملك الجبار إلا تيسرا

وما أحسن ماقيل :

الدهر لايبقى على حالة ... لابدّ أن يقبل او يدبر

فإن تلقاك بمكروهه ... فاصبر فإن الدهر لايصبر

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله تعالى قال : كنت معتقلا بالكوفة فخرجت يوما من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همى وكادت نفسى أن تزهق وضاقت علىّ الأرض بما رحبت وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل علىّ ورأى ما أنا فيه من الكآبة ، فقال : ماحالك فأخبرته القصة ، فقال : الصبر الصبر ، فقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصبر ستر للمكروب وعون على الخطوب » وروى عن ابن عمه علىّ رضى الله تعالى عنه أنه قال : الصبر مطية لاتدبر وسيف لايكلّ وأنا أقول :

ما أحسن الصبر فى الدنيا وأجمله ... عند الإله وأنجاه من الجزع

من شدّ بالصبر كفا عند مؤلمة ... ألوت يداه بحبل غير منقطع

فقلت له بالله عليك زدنى فقد وجدت بك راحة ، فقال مايحضرنى شىء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ولكنى أقول :

أما والذى لايعلم الغيب غيره ... ومن ليس فى كلّ الأمور له كفو

لئن كان بدء الصبر مرّا مذاقه ... لقد يجتنى من بعده الثمر الحلو

ثم ذهب فسألت عنه فما وجدت أحدا يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك فى الكوفة ، ثم أخرجت فى ذلك اليوم من السجن ، وقد حصل لى سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به ، ووقع فى نفسى أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى لى : يوقظنى ويؤدّبنى ويسلينى . وقيل : إن رجلا كان يضرب بالسياط ويجلد جلدا بليغا ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوّه ، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له : أما يؤلمك هذا الضرب الشديد ؟ فقال بلى ، قال لم لاتصيح ؟ فقال إن فى هذا القوم الذين وقفوا علىّ صديقا لى يعتقد فىّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبنى بعينيه فأخشى إن ضجيت يذهب ماء وجهى عنده ، ويسوء ظنه بى ، فأنا أصبر على شدّة الضرب وأحتمله لأجل ذلك .

قال الشاعر :

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه ... ويحمد منه الصبر مما يصيبه

فمن قلّ فيما يلتقيه اصطباره ... لقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها « ياعائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر ، ولم يكلفنى إلا ما كلفوا به ، فقال عزّ وجلّ — فاصبر

كما صبر أولوا العزم من الرسل ، وإني والله لأصبرن كما صبروا» فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما صبر كما أمر أسفر وجه صبره عن ظفره ونصره ، وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولو العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا . وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة فقال مقاتل رضي الله تعالى عنه : هم نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم . وقال قتادة : هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ويقال : ما الذي صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولي العزم ؟ فأقول ذكر ما صبروا عليه :

أما نوح عليه الصلاة والسلام فقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : كان نوح عليه الصلاة والسلام يضرب ثم يلف في لبد ويلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى ، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه يابني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرك ، فقال له ابنه ياأبت مكني من العصا ، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه الصلاة والسلام فشج بها رأسه وسال الدم على وجهه ، فقال رب قد ترى مايفعل بي عبادك فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم وإلا فصبرني إلى أن تحكم ، فأوحى الله تعالى إليه : أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك ، قال يارب وما الفلك ؟ قال بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجي فيه أهل طاعتي وأغرق أهل معصيتي ، قال يارب وأين الماء ؟ قال أنا على كل شيء قدير ، قال يارب وأين الخشب ؟ قال اغرس الخشب ، فغرس الساج عشرين سنة وكف عن دعائهم وكفوا عن ضربه إلا أنهم كانوا يستهزئون به ، فلما أدرك الشجر أمره ربه فقطعها وجففها وقال يارب كيف أتخذ هذا البيت ، قال اجعله على ثلاث صور ، وبعث الله له جبريل فعلمه ، وأوحى الله تعالى إليه أن عجل بعمل السفينة فقد اشتد غضبي على من عصاني ، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته وإهلاك قومه وعذابهم إلا من آمن معه وفار التنور وظهر الماء على وجه الأرض وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال وعلا فوق أعلا جبل في الأرض أربعين ذراعا ، وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحا عليه الصلاة والسلام ، وفي تمام قصته وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه ، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه .

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه ، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حائطا كالحوش طول جداره ستون ذراعا إلى سفح جبل عال ونادى منادي ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ، ومن تخلف عن الاحتطاب أحرقه ، فلم يتخلف منهم أحد ، وفعلوا ذلك أربعين يوما ليلا ونهارا حتى كاد الحطب يساوي رءوس الجبال ، وسدوا أبواب ذلك الحائط وقذفوا فيه النار ، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها ، ثم بنوا بنيانا شامخا وبنوا فوقه منجنيقا ، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان ، فرفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السما ، ودعا الله تعالى وقال حسبي الله ونعم الوكيل ، وقيل كان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام وقال ياإبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا ، فقال جبريل سل ربك ، فقال حسبي

تستلم كالحجاج أركانه ونقلب وجوهنا في سماء سقف يكاد يمطر علينا لجينه وعقيانه ونشاهد رخاما بلغ في الحسن والحل الأقصى في الأقصى ونعت به في بهجة السكان زيادة تخالف قول النحاة إن في الترخيم نقصا ، فأما المياه التي تجرى في الحرم على رأسها وتطوف على مواضع المنافع بنفسها فتلك نعمة مقيمة يكافئ الله عنها في دار المقامة وحسنة في المعنى والصورة جارية إلى يوم القيامة ومن المباني المذكورة ماهو خصيص بمولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره وأبقاه سيفا يقف كل ذي قدر عند حده فلا يجاوز مقداره من مدرسة علم يدرس ولا يدرس معهده ودار حديث يروي فيروي الأسماع الظامئة مورده وخانقاه تضيء عليها أنوار البركات الكوامل ورباط ومكتب هما كما قيل :

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقلت فيها :

بنيت رباطا للنساء ومكتبا ... يدير على الأيتام سحب الفواضل

فلله من هذا وذاك كما ترى ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

لجنينا من تلك المحاسن بساتين دانية القطوف ولحظنا من الظلال السيفية جنة نشأت وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف وشرعت صدقات السر والجهر وقوبل السؤال ببحر لايسمع عنده نهر وغص بفقرائهم السكان والطريق وجاءوا رجالا ونساء وعلى كل ضامر من المعصي يأتين

من كل فج عميق ، فوضع فى مواضع النوال وقدّرت الكساوى حتى على المستورين والأطفال ، هذا وكم ثياب صوف أعرض
إشراقها عن مقال اللاحين واتخذ الفقراء والأغنياء من أصوافها أثاثا ومتاعا إلى حين وجاءت المراسم بعد

من سؤالى علمه بحالى ، فقال الله تعالى : يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذبا ، قال كعب ماأحرقت النار غير كتافه وأقام فى ذلك الموضع سبعة أيام وقيل أكثر من ذلك ونجاه الله تعالى ثم أهلك نمرود وقومه بأخسّ الأشياء وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم ، فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى ولم يجزع منها وصبر وفوّض أمره إلى الله تعالى فى ذلك وتوكل عليه ووثق به ، ثم جاءته قصة ذبح ولده وأمره الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامتثال وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إمهال وقصته مشهورة وتفاصيل القصة فى كتب التفسير مسطورة فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولاه وصبره على ماقدّره وقضاه عوّضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه واتخذه خليلا من بين خلقه واجتباه . وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه فانه صبر على بلية الذبح ، وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال إنى أريد أن أقرب قربانا ، فأخذ ولده والسكين والحبل وانطلق ، فلما دخل بين الجبال قال ابنه أين قربانك ياأبت ؟ قال إنّ الله تعالى قد أمرنى بذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، ياأبت اشدد وثاقى كى لاأضطرب واجمع ثيابك حتى لايصل إليها رشاش الدم فتراه أمى فيشتدّ حزنها وأسرع إمرار السكين على حلقى ليكون أهون الموت علىّ وإذا لقيت أمى فاقرأ السلام عليها ، فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويبكى ويقول نعم العون أنت يابنىّ على ماأمر الله تعالى . قال مجاهد لما أمرّ السكين على حلقه انقلبت السكين فقال ياأبت اطعن بها طعنا . وقال السدّى : جعل الله حلقه كصفيحة من نحاس لاتعمل فيها السكين شيئا ، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودى أن ياإبراهيم هذا فداء ابنك ، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح ، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش ، فلا جرم أن جعل الذبيح نبيا بصبره وامتثاله لأمره .

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام ، فانه لما ابتلى بفراق ولده وذهاب بصره واشتداد حزنه قال : فصبر جميل ، وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لما ابتلاه الله تعالى بالقائه فى ظلمة الجب وبيعه كما تباع العبيد وفراقه لأبيه وإدخاله السجن وحبسه فيه بضع سنين وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله ، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك فى الدنيا مع ملك النبوّة فى الآخرة .

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام ، فانه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله وتتابع المرض الزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ماتضعف القوى البشرية عن حمله . ولنذكر شيئا مختصرا من ذلك وهوأن ملكا من ملوك بنى إسرائيل كان يظلم الناس ، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام فلم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له فى مملكته فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك لأطيلنّ بلاءك فقال إبليس لعنه الله يارب سلطنى على أولاده وماله ، فسلطه ، فبث إبليس مردته من الشياطين ، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاتها ، فاحتملوها جميعا وقذفوها فى البحر ، وبعث بعضهم إلى زرعه وجنانه فأحرقوها ، وبعث بعضهم إلى منازله وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولدا

التفاصيل بالجمل وقال جودها لخاتم هذى التى لاناقة فيها ولا جمل . ومما قلت فى ذلك :

لله حال امرىء مقتر
قضيت فى القدس بتنفيسه

وبرهم ولى ولكنه
قد أخذ الأجر على كيسه

ثم نليت الختمات التى شرف الله تعالى ذكرها ومواعيد التفاسير والرقائق التى أجريت الأوقات الصاحبية أجرها وشرع فى بناء الرواق على سطح الزاوية الصاحبية بباب الحرم الشريف وأخذ راقم الرخام فى التوشيع والتفويف ، فيالها ألواحا كتب فيها من الحسن كل شىء واطرد ماء رونقها فكان العين منها فى ماء وفىء ويالله رواقا شاق وصفه وراق ورفع عطفه فقال لسان المتصوّف حبذا رفاهى الرواق ، ثم رتب للشيخ والفقراء مايحتاجون إليه من كل نوع فريد وأصبح كل أحد وهو للنزول عند ذلك الشيخ مريد ، وبرزنا فى اليوم السابع من الإقامة وقد قدمنا نقصد الخليل صلوات الله عليه بالنية الجلية وطربنا لتلك المنازل وخدمه
وكيف لانطرب لها وهى الخليلية وزرنا قبر يونس عليه السلام فى طريقنا ورفعنا لأنواره الجفون وتملى عند الزيارة وذى العين

بذى النون ثم نزلنا من محل الخليل على محل القرى وحمدنا عند صباح ذلك الوجه السرى واستقبلنا بمقام إبراهيم أمانا واستلمنا
من ضريح شائد الركن ومن ضرائح أهله أركانا وأكانا من شهى عدسه لونا وجدنا من الحناء ألوانا وقلنا
لأنفاس الشوق كونى
بردا وسلاما على إبراهيم
ووردنا مورد اللقاء نشق
ظمأ إبراهيم وفرقت
الهبات ونليت الختمات
وجردت المواعيد على
عوائدها المحكمات فقلت:

قصدنا خليل الله فى ظلّ صاحب
جلىّ العلى والمكرمات جليل
فهذه لدنيانا وهذا لدينا
فياحبذا من صاحب وخليل

وسرنا فى ظل الصاحب
من الخليل وكادت دمشق
تمد أيدى إعطائها لجاذبة
ركابه ومصر تتضرع
بأصابع نيلها طمعا فى
اقترابه وترضع ثدى
هرمها داعية إلى الله
بعوده إليها وإيابه وهمّ
شباك الوزارة أن يتلق
صاحب فتحه وصدر
الخزائن أن يعانق
مااعتاده من رأى عطفه
منحه فإنه ماجلس فيه
أبهر وأبهى من الطلعة
الأمينية بإجماع الآملين
التأملين والخزائن التى كم
قال لها تديره إنى حفيظ
عليم فقال الملك إنك لدينا
مكين أمين ثم عطفتنا
الأقدار إلى جهة الرملة ، وجاءت الوفود كالرمل ، وخفت أكياس دراهم الصلات ، وثقلت أكياس دراهم الحمل ، وأقمنا ثلاثة أيام
نكاد ننشد :

خرجنا على أن المقام ثلاثة   فطاب لنا حتى أقمنا بها عشرا

وخدمه وأهله فزلزلوها فهلكوا ، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام وهو يصلى فتمثل له فى صورة رجل من غلمانه فقال ياأيوب أنت تصلى ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة وقذفت الجميع فى البحر ، وأحرقت زرعك ، وهدمت منازلك على أولادك وأهلك ، فهلك الجميع ماهذه الصلاة ، فالتفت إليه وقال : الحمد لله الذى أعطانى ذلك كله ثم قبله منى ثم قام إلى صلاته ، فرجع إبليس ثانيا فقال يارب سلطنى على جسده ، فسلطه فنفخ فى إبهام رجله فانتفخ ، ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقى أمعاؤه تبين وهو مع ذلك كله صابر محتسب مفوض أمره إلى الله تعالى وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجا عن البيوت من نتن ريحه وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه متفقدة ، فجاءها إبليس يوما فى صورة شيخ ومعه سخلة وقال لها يذبح أيوب هذه السخلة على اسمى فيبرأ فجاءته فأخبرته فقال لها إن شفانى الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى فطردها عنه فذهبت وبقى ليس له من يقوم به فلما رأى أنه لاطعام له ولا شراب ولا أحد من الناس يتفقده خرّ ساجدا لله تعالى وقال رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طول هذه المدة وهى على ماقيل ثمان عشرة سنة وقيل غير ذلك وأنه تلق جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق مانزل به عاد الله تعالى بألطافه عليه فقال تعالى ـ فكشفنا مابه من ضرّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا ـ وأفاض عليه من نعمه ما أنساه بلوى نقمه ، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه فى يمينه تحلة قسمه ، ومدحه فى نص الكتاب فقال تعالى ـ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أوّاب ـ فلولم يكن الصبر من أعلى المراتب وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوى الحزم وسماهم بسبب صبرهم أولى العزم وفتح لهم بصبرهم أبواب مرادهم وسؤالهم ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم ، فما أسعد من اهتدى بهداهم واقتدى بهم وإن قصر عن مداهم ، وقيل : العسر يعقبه اليسر ، والشدة يعقبها الرخاء ، والتعب يعقبه الراحة والضيق يعقبه السعة ، والصبر يعقبه الفرج ، وعند تناهى الشدة تنزل الرحمة ، والموفق من رزقه صبرا وأجرا ، والشقىّ من ساق القدر إليه جزعا ووزرا .

ومما شنف السمع من نجح هذه الإشارة ، وأتحف النفع فى نهج العبارة ماروى عن الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه قال : كنت بواسط فرأيت رجلا كأنه قد نبش من قبر ، فقلت : مادهاك ياهذا ؟ فقال اكتم علىّ أمرى حبسنى الحجاج منذ ثلاث سنين فكنت فى أضيق حال وأسوأ عيش وأقبح مكان وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم ، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معى فضربت رقابهم وتحدث بعض أعوان السجن أن غدا تضرب عنقى ، فأخذنى حزن شديد وبكاء مفرط ، وأجرى الله تعالى على لسانى ، فقلت : إلهى اشتدّ الضر وفقد الصبر وأنت المستعان ثم ذهب من الليل أكثره فأخذتنى غشية وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتانى آت فقال لى : قم فصل ركعتين وقل : يامن لايشغله شىء عن شىء ، يامن قد أحاط علمه بما ذرأ وبرأ ، وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصى وساوس الصدور ، وأنت بالمنزل الأعلى وعلمك محيط بالمنزل الأدنى تعاليت علوّا كبيرا ، يامغيث أغثنى وفكّ أسرى واكشف ضرّى فقد نفد صبرى ، فقمت وتوضأت فى الحال وصليت ركعتين وتلوت ماسمعته منه ولم تختلف علىّ منه كلمة واحدة فما تمّ القول حتى سقط القيد

ورأينا مسجدا يعرف بالركنى قد غير الزمان محاسنه الأنيقة ، وهدم الخراب والموت ركنيه على الحقيقة ، فأمر مولانا الصاحب بعمارة ما منه اندثر ، ولحظت لآراء حجارته للنقضة فتبين أن السعادة تلحظ الحجر ولقد صنع فى هذه المنزلة من المعروف ما لا صنع ذو الدهر الطويل مثله وبنى من المكرمات ما ثبت ولولا إبداع سعادته ما ثبت البناء فوق الرملة ورحلنا عن الرملة بغية الزيارة لمشهد زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام فمررنا فى طريقنا بجملة خير معترضة وبنية فى وجهة القبول مبيضة تحتوى على قبر بنيامين أخى يوسف عليهما السلام فألحقناه بالزيارة بأخيه وتوكلنا على الله فى القبول توكل أبيه وتيممنا ببنيامين وقرعنا أبواب السماء بأدعية فاتحة فقال النجيح عقيب الفاتحة آمين وسررنا والصدور منشرحة والطريق إلى خير الدارين متضحة وجئنا المشهد وقد ظهرت عليه بضريحين كريمين بهجة الدين والدنيا وتلا مزارها للقادم — إنا نبشرك بيحيى — وبتنا ليلة طيبة نحييها ونميت النوم ونعصى بالسهر أمره فما له سلطان على أعين القوم وأصبحنا وقد امتلأت القلوب سرورا والأعين نورا ، وقوينا على قصد جنى الجنان ، واستقبلنا محاسن جيسان ، وختمنا الزيارة بمشهد معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه فأنقذت أنواره القلوب من الهم أى إنقاذ وكدنا نفنى

على

من رجلى ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت فقمت فخرجت ولم يعارضنى أحد فأنا والله طليق الرحمن وأعقبنى الله بصبرى فرجا ، وأخرجنى من ذلك الضيق مخرجا ، ثم ودعنى وانصرف يقصد الحجاز . وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : ياداود من صبر علينا وصل إلينا . وقال بعض الرواة : دخلت مدينة يقال لها دقار ، فبينما أنا أطوف فى خرابها إذ رأيت مكتوبا بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات :

يامن ألحّ عليه الهمّ والفكر   وغيرت حاله الأيام والغير
أما سمعت لما قد قيل فى مثل   عند الإياس فأين الله والقدر
ثم الخطوب إذا أحداثها طرقت   فاصبر فقد فاز أقوام بما صبروا
وكلّ ضيق سيأتى بعده سعة   وكلّ فوت وشيك بعده الظفر

ولما حبس أبو أيوب فى السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وضاق صدره ، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره ، فردّ عليه جواب رقعته يقول :

صبرا أبا أيوب صبر مبرح   وإذا عجزت عن الخطوب فمن لها   إن الذى عقد الذى انعقدت به
عقد المكاره فيك يملك حلها   صبرا فإنّ الصبر يعقب راحة   ولعلها أن تنجلى ولعلها

فأجابه أبو أيوب يقول :

صبرتنى ووعظتنى وأنا لها   وستنجلى بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها   كرما به إذ كان يملك حلها

فما لبث بعد ذلك أياما حتى أطلق مكرما . وأنشدوا :

إذا ابتليت فثق بالله وارض به   إنّ الذى يكشف البلوى هو الله   اليأس يقطع أحيانا بصاحبه
لا تيأسنّ فإنّ الصانع الله   إذا قضى الله فاستسلم لقدرته   فما ترى حيلة فيما قضى الله

[الفصل الثالث من هذا الباب فى التأسى فى الشدة والتسلى عن نوائب الدهر]

قال الثورى رحمه الله تعالى : لم يفقه عندنا من لم يعدّ البلاء نعمة والرخاء مصيبة ، وقيل الهموم التى تعرض للقلوب كفارات للذنوب . وسمع حكيم رجلا يقول لآخر : لا أراك الله مكروها ، فقال كأنك دعوت عليه بالموت فإن صاحب الدنيا لابدّ له أن يرى مكروها . وتقول العرب : ويل أهون من ويلين . وقال ابن عيينة : الدنيا كلها غموم فما كان فيها من سرور فهو ربح . وقال العتبى إذا تناهى الغمّ انقطع الدمع بدليل أنك لا ترى مضروبا بالسياط ولا مقدما لضرب العنق يبكى ، وقيل : تزوّج معن بنائحة فسمعها تقول : اللهمّ أوسع لنا فى الرزق ، فقال لها ياهذه : إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفى ذلك ، فإن كان فرح دعونى ، وإن كان حزن دعوك . وقال وهب ابن منبه : إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء . وقال مطرف : ما نزل بى مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبى فاستصغرته . وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه يرفعه « يودّ أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء » وروى أبو عتبة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « إذا أحبّ الله عبدا ابتلاه فإذا أحبه الحبّ البالغ اقتناه . قالوا وما اقتناه ؟ قال لا يترك له مالا ولا ولدا » ومرّ موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعا لله عزّ وجلّ قد مزقت السباع لحمه وأضلاعه وكبده ملقاة

بالأنس حتى نقول أفتان أنت يا معاذ وأمسكنا عنده من الدعاء بعروة لاتنفصم وأوينا من طوفان الذنوب إلى جبل ينجح من
به يعتصم وأمر بما يحتاج إليه من تجديد عمارة و إنشاء طهارة وألحق بكل زار وردنا عليه فى هذه السيارة

فالالا نفارقه إلا عن إقامة صلاة وصلات وتجديد آثار يزين به وجه القبول كاتب الحسنات ثم نهضنا على الفور نهوض ليثه اللبد وجزنا مبتسمين فما بكينا بكاء لبيد يوم فراقه أربد وانتشقنا من تلقاء طيبة الاسم أطيب العرف وسلكنا بحرف واديها مستبشرين فكانت طيبة الاسم والفعل والحرف ثم عاودنا المنازل التى قدمنا ذكرها ورجعنا كما نسترجع منازل الأفق زهرها وتنسمنا أرواح دمشق حتى كدنا ننشق من ذيل الكسوة عطرها واستقبلنا الديار على هذا السمى الجليل وواصلنا السفر على كل وجه للفضل جميل وقطعنا بالكسوة ليلا طائلا تداوله كل ليل العاشقين طويل وفى تلك الليلة كان دخولنا إلى دمشق المحروسة كدخولنا إلى القدس الشريف سائرين سرى النجوم فى الليل سابقين لغرة الصباح بغرر الخيل موفرين لخواطر المتقين وهيهات وقد سال منهم السيل نازلين من دمشق جنة قد تبسمت

لقدومنا عن ثغور الأزهار وأجرت أمام ركابنا الأنهار ولبست من وشى البديع حللا لها من أوائل ماانعقد من الثمار أزرار فائزين
من الثناء والثواب بما يفوق الإرادة داعين لمن ضمه لنا جامع مترقبين لركبته باب الزيارة وتمت هذه السفرة على أحسن ما يكون

على الأرض فوقف متعجبا فقال أى ربّ عبدك ابتليته بما أرى فأوحى الله تعالى إليه إنه سألنى درجة لم يبلغها بعمله فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة . وكان عروة بن الزبير صبورا حين ابتلى حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطئ عظما فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب فجمع له الوليد الأطباء فأجمع رأيهم على قطع رجله فقالوا له اشرب مرقدا فقال ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى فأحمى له المنشار وقطعت رجله فقال ضعوها بين يدى ولم يتوجع ثم قال لئن كنت ابتليت فى عضو فقد عوفيت فى أعضاء فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها فمات فقال الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحدا لقد أبقيت جماعة . وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى وعيالى ولا أعلم عبسيا يزيد ماله على مالى فعرسنا فى بطن واد فطرقنا سيل فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبى صغير و بعير فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير فسمعت صيحة الصغير فرجعت إليه فاذا رأس الذئب فى بطنه وهو يأكل فيه فرجعت إلى البعير فحطم وجهى برجليه فذهبت عيناى فأصبحت بلاعينين ولاولد ولامال ولاأهل فقال الوليد اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه وقيل الحوادث الممضة مكسبة لحظوظ جليلة إما ثواب مدخر أو تطهير من ذنب أو تنبيه من غفلة أو تعريف لقدر النعمة .

قال البحترى يسلى محمد بن يوسف على حبسه :

وما هـذه الأيام إلا منازل	فمن منزل رحب إلى منزل ضنك
وقد هذبتك الحادثات وإنما	صفا الذهب الابريز قبلك بالسبك
أما فى نبىّ الله يوسف أسـوة	لمثلك محبوس عن الظلم والافك
أقام جميل الصبر فى السجن برهة	فآل به الصـبر الجميل إلى الملك

وقال علىّ بن الجهم لما حبسه المتوكل :

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى	حبسى وأىّ مهنـد لا يغمد
والشمس لولا أنها محجوبة	عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والنار فى أحجارها مخبوءة	لا تصطلى إن لم تثرها الأزند
والحبس مالم تغشـه لدنية	شـنعاء نعم المنزل المتودد
بيت يجدد للكريم كرامة	ويزار فيـه ولا يزور ويحمد
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه	لاتستذلك بالحجاب الأعبد
غرّ الليالى باديات عوّد	والمال عارية يعار وينفد
ولـكلّ حىّ معقب ولربما	أجلى لك المكروه عما يحمد
لا يؤيسنك من تفرج نكبة	خطب رماك به الزمان الأنكد
كم من عليل قد تخطاه الردى	فنجا ومات طبيبه أو العود
صبرا فان اليوم يعقبه غد	ويد الخلافة لا تطاولها يد

قال وأنشد إسحق الموصلى و إبراهيم بن المهدى حين حبس .

هى المقادير تجرى فى أعنتها	فاصبر فليس لها صبر على حال

واشتملت من وجوه المحاسن على عيون قضيت المهمات بها بالنهار وقضيت فى الليل المذاكرة والتقطت من الفوائد الوزيرية ما كنت أرتقب جواهره وأزاهره وأردت أن أذكرها فى هـذه الخطبة لأنها جواهر وأضمنها بعض العلم

فى هذه الأوراق فإنها أزاهر فكثرت على هذا اللفظ للسجوع واقتضى الحال أن أجمعها فى سفر يقال فيه تلك رحلة وهذا تاريخ ومجموع وقد علم الله أن هذه النبذة من القول وردت من قريحة مسها فقد الولد بقرح وأى قرح وقال تفكرها الذى كان حائك الكلام لست اليوم من ذلك الطرح فليبسط الواقف على هذه الرحلة عذرى ويعلم السبب فى كونها ليست عادة نظمى ونثرى وإذا كانت القريحة فى بقايا قروحها فليت شعرى أينهض سجعى وشعرى والله تعالى المسئول أن يجعل فى البقاء الصاحبى سلوة عن كل فقيد ويصل أسبابنا أبدا بتحريره الوافر وظله المديد ويرزقنا فى شكر نعمه لسانا لفظه ذهب وذهنا بصره حديد قلت : ذكرت برحلة الشيخ جمال الدين رحمه الله تعالى إلى القدس الشريف صحبة الركاب الصاحبى الأمينى رحلتى صحبة الركاب الشريف السلطانى المؤيدى سقى الله ثراه إلى البلاد الرومية وبروز أمره الشريف بذكر الفتوحات بها وتسمية البلاد واستيعاب الرحلة الشريفة فى البشارة المجهزة إلى الديار المصرية وأن لا يقرأها بالجوامع المطهرة

يوماتريك خسيس الأصل ترفعه   إلى العلاء، ويوما تخفض العالى

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون ورضى عنه . وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب فى إبراهيم بن المدنى حين عزل :

لبهن أبا إسحق أسباب نعمة   مجددة بالعزل والعزل أنبل
شهدت لقد منوا عليك وأحسنوا   لأنك يوم العزل أعلى وأفضل

وقال آخر : قد زاد ملك سليمان فعاوده   والشمس تنحط فى المجرى وترتفع

وقال أبو بكر الخوارزمى لمعزول الحمد لله الذى ابتلى فى الصغير وهو المال وعافى فى الكبير وهو الحال

ولا عار إن زالت عن الحر نعمته   ولكن عارا أن يزول التجمل

وقيل المال حظ ينقص ثم يزيد وظل ينحسر ثم يعود . وسئل بزرجمهر عن حاله فى نكبته ؟ فقال عوّلت على أربعة أشياء : أولها أنى قلت القضاء والقدر لابد من جريانهما ، الثانى أنى قلت إن لم أصبر فما أصنع ، الثالث أنى قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا ، الرابع أنى قلت لعل الفرج قريب والله تعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والخمسون ماجاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فمما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل قوله تعالى ـ سيجعل الله بعد عسر يسرا ـ وقوله تعالى ـ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولىّ الحميد ـ وقوله تعالى ـ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ـ ويروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لو كان العسر فى جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه » وقال عليه الصلاة والسلام « عند تناهى الشدة يكون الفرج وعند تضايق البلاء يكون الرخاء » وقال على رضى الله تعالى عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « أفضل عبادة أمتى انتظارها فرج الله تعالى » وقال الحسن لما نزل قوله تعالى ـ فان مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ـ قال النبى صلى الله عليه وسلم « أبشروا فلن يغلب عسر يسرين » ومن كلام الحكماء إن تيقنت لم يبق هم . وقال أبو حاتم :

إذا اشتملت على البؤس القلوب   وضاقت بما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت   وأرست فى مكامنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضرّ وجها   ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث   يمنّ به اللطيف المستجيب

وقال آخر : عسى الهم الذى أمسيت فيه   يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويغاث عان   ويأتى أهله النائى الغريب

وقال آخر : تصبر أيها العبد اللبيب   لعلك بعد صبرك ما تخيب
وكلّ الحادثات إذا تناهت   يكون وراءها فرج قريب

وقال إبراهيم بن العباس :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى   ذرعا وعند الله منها المخرج

ضاقت

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

وقال آخر :

لئن صدع البين المشتت شملنا فللبين حكم فى الجموع صدوع
وللنجم من بعد الرجوع استقامة وللشمس من بعد الغروب طلوع
وإن نعمة زالت عن الحر وانقضت فان لها بعد الزوال رجوع
فكن واثقا بالله واصبر لحكمه فان زوال الشر عنك سريع

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة :

روى أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبدالله عامله على المدينة المنورة أن أخرج الحسن ابن الحسن بن على من السجن وكان محبوسا واضربه فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة سوط فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء على بن الحسين عليه السلام فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن فقال يا ابن العم مالك ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك قال ماهو يا ابن العم فقال لا إله إلا الله الحليم الكريم لا إله إلا الله العلى العظيم سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين ثم انصرف عنه وأقبل الحسن يكررها فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال أراه فى سحنه مظلوما أخروه وأنا أراجع أمير المؤمنين فى أمره فأطلق بعد أيام وأتاه الفرج من عند الله . وقال الربيع لما حبس المهدى موسى بن جعفر رأى فى النام عليا رضى الله تعالى عنه وهو يقول يا محمد فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم قال الربيع فأرسل المهدى إلىّ ليلا فراعنى ذلك فجئته فاذا هو يقرأ هذه الآية وكان حسن الصوت فقص على الرؤيا ثم قال ائتنى بموسى بن جعفر فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه وقال يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ على كذا فعاهدنى أن لا تخرج على ولا على أحد من ولدى فقال والله ما ذاك من شأنى فقال صدقت ثم قال يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورده إلى أهله بالمدينة قال الربيع فأحكمت أمره ليلا فما أصبح إلا على الطريق . وقال إسمعيل بن بشار :

وكل حر وإن طالت بليته يوما تفرج غماه وتنكشف

وقال مسلم بن الوليد كنت يوما جالسا عند خياط بازاء منزلى فمر بى انسان أعرفه فقمت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلى لأضيفه وليس معى درهم بل كان عندى زوج أخفاف فأرسلتهما مع جاريتى لبعض معارفى فباعهما بتسعة دراهم واشترى بها ماقلته لها من الخبز واللحم فجلسنا نأكل وإذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بانسان يسأل هذا منزل فلان ففتحت الباب وخرجت فقال أنت مسلم بن الوليد قلت نعم واستشهدت له بالخياط على ذلك فأخرج لى كتابا وقال هذا من الأمير يزيد بن مزيد فاذا فيه قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون فى منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا فأدخلته إلى دارى وزدت فى الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا فأكلنا ثم وهبت لضيفى شيئا يشترى به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة فوجدناه فى الحمام فلما خرج استؤذن لى عليه فدخلت فاذا هو جالس على كرسى وبيده مشط يسرح به لحيته فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال ما الذى أقعدك عنا قلت قلة ذات اليد وأنشدته قصيدة مدحته

غير مولانا شيخ الاسلام قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى الشافعى عظم الله شأنه فقرأها بالجامع المؤيدى والأزهر فى شهر رجب الفرد سنة ست عشرة وثمانمائة وقد عن لى أن أقرنها بالرحلة النباتية فانهما رحلتان وهى ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى ولا زالت طرف أخبارها السارة تسر خاطره وتشنف سمعه وترنحه بنسمات قربنا وتجاور كريم سمعه ليأخذها بالشفعة وإن حصل بينه وبين المسرة لبعدنا طلاق فما ثلنا الشريف يبشره بالرجعة صدرت هذه المكاتبة تهدى إليه من أوراقها ثمرات الفتح ليتفكه بالفواكه الفتحية وتعرب عما أبدته عرب بياننا من شواهد التسهيل فى فتح البلاد الرومية فانها رحلة مؤيدة تشد إليها الرحال وإن كانت دول الاسلام حلة على أعطاف الدهر فهى لها من أطهر الأذيال وتبدى لكريم علمه تجلى مخدرات الحصون بكل وجه حسن تحت عصابتها المؤيدية واستقرار سيس فى هذه الحلبة على قديم عادتها بين الجنائب الحلبية وفتح قلعتها وقد حرك بابها مصراعى شفتيه وأعلن بسورة الفتح جهرا وتلت أقفاله بعد ماعسرت على النيرفان مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا وصعدت أنفاس الأدعية من أفواه مراميها فرحا بنا وسرورا وبدلت صوامعها وتلك البيع بمساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا وأخلصت الطاعة لشيخ ملوك الأرض طائفتها الأرمينية وانقطعوا فى زوايا الطاعة مريدين لهذه المشيخة الشريعة الصوفية ورغب ابن رمضان

فى طاعتنا الشريفة فعجلنا له فى ربيع حلاوة الرغائب ورفعنا قواعد بيتـه الإبراهيمى وأدنيناه من أرمينية فدنا منها إلى أعلى المراتب ونامطت سيوفنا بحلاوة الفتح ورشفت بألسنتها فى كل قطر قطرها ففتحت إياس من بعيد لهذه الحلاوة ثغرها وانسجمت أبياتها لما نظمت على بسيط الطاعة بحرها ومص حصن مصيصه من رحيق هذه الطاعة فأمسى ثغره بأفواه الشكر يقبل وبسط جبين جسره لمواطئ خيلنا فرحة وتهلل وجانس الفتح بين إياس وبانياس ولم ينتظم لبنى كندة بيت بملطية يقام له وزن ويظهر منه اقتباس وانعكس هذا الاسم بعد الاستحالة وإن كان مما لايستحيل بالانعكاس وتسجر كافرهم وقد أضرم به النار فخاطبته بلسان جم لايفحم : وماهو إلا كافر طال عمره فجاءته لما استبطأته جهنم وفرّ إلى ملك عثمان فحكمنا بقتله فى تلك الأرض علما أن الجهاد فى أعداء الدين عند العصابة المحمدية من الفرض وسمع العصاة بطرسوس زئير آسادنا من بعيد فأدبر مقبلهم وتخيل أن الموت أقرب إليه من حبل الوريد وأعربت أبوابها بعد كسرة عن الفتح وقال أهلها ادخلوها بسلام آمنين ، وأوى العصاة إلى جبل القلعة لما رأوا بعد القتال هذا الفتح المبين وصفع مقبلهم وجهه فبصقت فيه أفواه المدافع وحكم عليه القضاء بالاعتقال ولم يأت عند ذلك الحكم بدافع وشاهد القرمانيون

بها قال أتدرى لم أحضرتك ؟ قلت لاأدرى قال كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه فقال لى يايزيد من القائل فيك هذه الأبيات :

سل الخليفة سيفا من بنى مضر يمضى فيخترق الأجسام والهاما
كالدهر لاينثنى عما يهم به قد أوسع الناس إنعاما وإرغاما

فقلت والله لاأدرى ياأمير المؤمنين فقال سبحان الله أيقال فيك مثل هذا ولاتدرى من قاله فسألت فقيل لى هو مسلم بن الوليد فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد ، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبلت الأرض وسلمت فردّ علىّ السلام فأنشدته مالى فيه من شعر فأمر لى بمائتى ألف درهم وأمر لى يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال ماينبغى لى أن أساوى أمير المؤمنين فى العطاء ، فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم ، وما أحسن ماقيل :

الأمن والخوف أياما مداولة بين الأنام وبعد الضيق تتسع

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال ضيق على يزيد بن أبى مسلم فلما ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبى مسلم أفريقية وكان محمد ابن يزيد واليا عليها فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبى مسلم وشدد فى طلبه ، فأتى به إليه فى شهر رمضان عند المغرب وكان فى يد يزيد بن أبى مسلم عنقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه يامحمد بن يزيد قال نعم قال طالما سألت الله أن يمكننى منك فقال وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرنى منك فقال والله ما أجارك ولا أعاذك وإن سبقنى ملك الموت إلى قبض روحك سبقته والله لا آكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك ، ثم أمر به فكتف ووضع فى النطع وقام السياف فأقيمت الصلاة فوضع العنقود من يده وتقدم ليصلى وكان أهل أفريقية قد أجمعوا على قتله ، فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله ، وقيل لمحمد بن يزيد اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الأمير وفك الأسير . قال إسحق بن إبراهيم الموصلى : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقول أطلق القاتل فارتعت لذلك ودعوت بالشموع ونظرت فى أوراق السجن وإذا ورقة إنسان ادّعى عليه بالقتل وأقرّ به فأمرت بإحضاره ، فلما رأيته وقد ارتاع قلت له إن صدقتنى أطلقتك فحدثنى أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة وإن عجوزا جاءت لهم بامرأة ، فلما صارت عندهم صاحت الله الله وغشى عليها ، فلما أفاقت قالت أنشدك الله فى أمرى فإن هذه العجوز غرّتنى وقالت إن فى هذه الدار نساء صالحات وأنا شريفة جدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمى فاطمة وأبى الحسين بن علىّ فاحفظوهم فىّ ، فقمت دونها وناضلت عنها ، فاشتد علىّ واحد من الجماعة وقال لابد منها وقاتلنى فقتلته وخلصت الجارية من يده ، فقالت سترك الله كما سترتنى ، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولا والسكين بيدى ، فأمسكونى وأتوا بى إليك وهذا أمرى ، فقال إسحق قد وهبتك لله ولرسوله ، فقال وحق اللذين وهبتنى لهما لاأعود إلى معصية أبدا . وأمر الحجاج بإحضار رجل من السجن ، فلما حضر أمر بضرب عنقه ، فقال أيها الأمير أخرنى إلى غد ، قال وأىّ فرج لك فى تأخير يوم واحد ، ثم أمر بردّه إلى السجن ، فسمعه الحجاج وهو راجع إلى السجن يقول :

عسى فرج يأتى به الله إنه له كل يوم فى خليقته أمر

فقال

قال الحجاج والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى : كل يوم هو فى شأن ، وأمر بإطلاقه .

وقال بعض جلساء المعتمد : كنا بين يديه ليلة تخفق رأسه بالنعاس فقال لاتبرحوا حتى أغفو سويعة فنام ساعة ثم أفاق جزعا مرعوبا وقال امضوا إلى السجن واتونى بمنصور الجمال ، فجاءوا به فقال له كم لك فى السجن ؟ قال سنة ونصف ، قال على ماذا ، قال أنا جمال من أهل الموصل وضاق على الكسب ببلدى ، فأخذت جملى وتوجهت إلى بلد غير بلدى لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمى الحال وهم مقدار عشرة أنفس وجدوهم يقطعون الطريق ، فدفع واحد منهم شيئا للأعوان فأطلقوه وأمسكونى عوضه وأخذوا جملى فناشدتهم الله فأبوا وسجنت أنا والقوم فأطلق بعضهم ومات بعضهم وبقيت أنا ، فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين دينارا فى كل شهر وقال اجعلوه على جمالنا ، ثم قال أتدرون ماسبب فعلى هذا ؟ قلنا لا ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول أطلق منصورا الجمال من السجن وأحسن إليه . وأخذ الطاعون أهل بيت فسدّ بابه ، ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد ، ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبة ترضعه مع جرو لها ، فسبحان القادر على كل شىء لاإله غيره ولا معبود سواه . قال الشاعر :

إذا تضايق أمر فانتظر فرجا فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

وقال آخر :

فلا تجزعن إن أظلم الدهر مرة فإن اعتكار الليل يؤذن بالفجر

وقال آخر :

لعمرك ما كل التعاطيل ضائر ولا كل شغل فيه للمرء منفعه
إذا كانت الأرزاق فى القرب والنوى عليك سواء فاغتنم لذة الدعه
فإن ضقت فاصبر يفرّج الله مانرى ألا ربّ ضيق فى عواقبه سعه

وقال الرياشى : ما اعترانى همّ فأنشدت قول أبى العتاهية حيث قال :

هى الأيام والغير وأمر الله ينتظر
أتيأس أن ترى فرجا فأين الله والقدر

الأسرى عنى وهبت ريح الفرج . ويروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم فأرسل إلى قائد البحر وقال له انفذ الآن مركبا إلى أفريقية يأتونى بأخبارها فصد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب فى موضعه كأنه لم يبرح ، فقال الملك لقائد البحر أليس قد فعلت ماأمرتك به قال نعم قد امتثلت أمرك وأنفذت مركبا فرجع بعد ساعة وسيحدثك مقدم المركب ، فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك مامنعك أن تذهب حيث أمرت ، قال ذهبت بالمركب فبينما أنا فى جوف الليل والرجال يجذفون إذا بصوت يقول يالله يالله ياغياث المستغيثين يكررها مرارا ، فلما استقرّ صوته فى أسماعنا ناديناه مرارا : لبيك لبيك وهو ينادى يالله يالله ياغياث المستغيثين ، فجدفنا المركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقا فى آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله ، فقال كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت وما زلت أصيح حتى أتانى الغوث من ناحيتكم ، فسبحان من أسهر سلطانا وأرقه فى قصره لغريق فى البحر

من سيوفنا شدة القرم فخشى كل منهم أن يصير لها على وضم ، ورأوا ألسن السهام فى أفواه تلك المرامى بر أينا الصائب ناطقة وما أظهروا على سماء برج غيوم ستائر إلا لمعت فيها من بوارق نفوطنا بارقة فزقوا الأطواق من الحنق فطوّقناهم بالحديد وأحيينا الفتح للمأمون برأينا الرشيد وماخفى عن كريم علمه وقوع انتقامنا الشريف فى الغادر ابن الغادر لما أدبر وقطع الله دابره وظهور السرّ الإبراهيمى لما ادّعى أنه نمروذ تلك الفئة الغادرة كله بسيوفنا فأخرسه وتخبطه شيطان الرعب بمسه ورأى فيه تلك الهمة العالية فنجا من تلك الوقعة بفرسه ونفسه وأوى من قبل إلى جبل ليعصمه فقال له لاعاصم اليوم من أمر الله ورماه من شاهقه فى بحر عبا كرنا بعد ماعض عليه بثناياه وسمع الرعد من سيف إبراهيم فقر وقد شاهد من أصيب بصواعقه من عصاة التركمان وصدقت فيه عزائم أتراكنا وما رؤى أحد فى ذلك اليوم من التركمان وسقوا أوعار تلك الجبال من دمائهم فكادت أحجارها أن تورق وتخصب بعد المحل وجنوا بالمال على النصر وغنمرا من الأنعام مازاد فى أعداد أجناسه على التحق وفرت عنهم أوانس تلك الظباء والتيم ينشد : لحق فى الظبية أنس منكم نفرت * وانفطرت حكبده لما رأى كواكب الحى من أفلاك تلك الصدور قد انتثرت وعيون القمر الصارى فيهم

حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحدة فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه .

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك ، قال : أخبرنى أبو الوليد الباجى عن أبى ذر قال كنت أقرأ على الشيخ أبى حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءا من الحديث فى حانوت رجل عطار ، فبينا أنا جالس معه فى الحانوت إذ جاءه رجل من الطوافين ممن يبيع العطر فى طبق يحمله على يده ، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له أعطنى بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها فأخذها فى طبقه وأراد أن يمضى فسقط الطبق من يده فانكب جميع مافيه فبكى الطوّاف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء فقال سمعا وطاعة فنزل وجمع له ماقدر على جمعه منها ودفع له ماعدم منها وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له لا تجزع فأمر الدنيا أيسر من ذلك ، فقال الطوّاف أيها الشيخ ليس جزعى لضياع ماضاع لقد علم الله تعالى أنى كنت فى القافلة الفلانية فضاع لى هميان فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك فما جزعت لضياعها حيث كان لى غيرها من المال ولكن ولد لى ولد فى هذه الليلة فاحتجنا لأمه ماتحتاج النفساء ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم فخشيت أن أشترى بها حاجة النفساء فأبقى بلا رأس مال وأنا قد صرت شيخا كبيرا لا أقدر على التكسب فقلت فى نفسى أشترى بها شيئا من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئا أسدّ به رمق أهلى ويبقى رأس المال أتكسب به واشتريت هذا العطر فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبق لى إلا الفرار منهم فهذا الذى أوجب جزعى قال أبو حفص وكان رجل من الجند جالسا إلى جانبى يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص ياسيدى أريد أن تأتى بهذا الرجل إلى منزلى فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئا قال فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطوّاف وقال له عجبت من جزعك فأعاد عليه القصة ، فقال له الجندى وكنت فى تلك القافلة ؟ قال نعم وكان فيها فلان وفلان ، فعلم الجندى صحة قوله ، فقال وماعلامة الهميان وفى أى موضع سقط منك فوصف له المكان والعلامة قال الجندى إذا رأيته تعرفه قال نعم ، فأخرج الجندى له هميانا ووضعه بين يديه فحين رآه صاح وقال هذا هميانى والله وعلامة صحة قولى أن فيه من الفصوص ماهو كيت وكيت ففتح الهميان فوجده كما ذكر فقال الجندى : خذ مالك بارك الله لك فيه فقال الطوّاف إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فخذها وأنت فى حلّ منها ونفسى طيبة بذلك ، فقال الجندى : ما كنت لآخذ على أمانتى مالا وأبى أن يأخذ شيئا ثم دفعها للطوّاف جميعها فأخذها ومضى ، ودخل الطوّاف وهو من الفقراء وخرج وهو من الأغنياء . اللهمّ أغن فقرنا ، ويسر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

وحكى أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباء دواؤه ولم يجدوا له شفاء فدسوا على قتله وأرصدوا له رجلا ومعه خنجر فلما كان فى بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته فلم تخط المعى الذى فيه القولنج فخرج مافيه من الخلط فعافاه الله تعالى وبرئ أحسن ما كان . وبضدّ هذا ماحكاه أبو بكر الطرطوشى قال : حدّثنا القاضى أبو مروان الدارانى بطرشوشة قال : نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية

عزمه فقطع بهذا الصارم من عواتقهم أوصالا وحميت نار حربه فسبكت أوانيهم من الذهب والفضة تحت حوافر خيله نعالا ورخصت أنواع الديباج ، فكم من معدنى صار مع دنى لأن قبورهم بعثرت وتلا لسان حال الكسب على السمور وغيره من أصناف الوبر : وإذا الوحوش حشرت وانقادت ركائبهم إلينا وبدور مواطنها فى بروج تلك الجبال قد أشرقت والمتناظر يتلو متعجبا : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وكانت نار حرب القوم على القر الإبراهيمى بردا وسلاما فانه رفع قواعد بيته فى ذلك اليوم وعلمنا أن الله قد جعل لإبراهيم فى هذا البيت الشريف مقاما ورقاه فى عمر الأبدار إلى بروج الكمال فأبدر فيها وسرى ، وأنشد لسان الحال بهذا المقال :

وقد ظهرت فلا تخفى على أحد
إلا على أكمه لايعرف القمرا

وإن كان شبلا فهو فى المخبر كأسده ومصارع ليوث الحرب قد جعلها الله من صغره تحت يده ورفع له فى هذا المبتدإ وسبره فى الآفاق خبرا وعلم الأعداء أن دمعهم يجرى عند لقائه دما وكذا جرى وهذه المقابلة تليق بابن الغادر على قبح سريرته وغدره ، فانه أخرج أهل تلك البلاد من أرضهم بظلمه لابسجره ، وسألنا قبل ذلك فى ولده وقد كره ... يه وألف أبوتنا الشريفة وتوطن فرددناه إلى أبيه

فأولوا

فأولوا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم وسوّوا معيشتهم وكان فى تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع فقال رجل منهم ياهؤلاء لاتقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلنّ أحد فى هذه البقعة فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجا عنهم ولم يقرب ذلك المكان فأصبحوا فى عافية وحملوا على دوابهم فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقضى حاجته فخرّ عليه الحائط فمات لوقته . قال : وأخبرنى أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال : لقد جرت فى هذه الدار ، وأشار إلى دار هناك قضية عجيبة . قلت وماهى ؟ قال كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة فى تجارة الخزّ ، فاتفق أنه جعل جميع مامعه من الخزّ فى خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمار فثقل عليه فأمر إنسانا هناك فأعانه على إنزاله ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد فقال له الرجل : كن رفيقى آنس بك وتعيننى على سفرى ونفقتك ومؤنتك علىّ ، فقال له الرجل : وأنا أيضا أختار صحبتك وأرغب فى مرافقتك ، فسار معه فى سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت ، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم ، فقال التاجر لذلك الرجل : احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشترى مانحتاج إليه ، ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه ، ورحلت الرفقة ولم ير أحدا فظنّ أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجدّ السير فى المشى إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد ، فسألهم عن صاحبه ، فقالوا : مارأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته ، فكرّ الرجل راجعا إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثرا ولا سمع له خبرا فيئس منه ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهارا فقيرا جائعا عريانا مجهودا فاستحى أن يدخلها نهارا فتشمت به الأعداء ، نعوذ بالله من شماتتهم وخشى أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة فاستخفى إلى الليل ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقيل له من هذا ؟ قال فلان يعنى نفسه فأظهروا له سرورا عظيما وحاجة إليه وقالوا : الحمد لله الذى جاء بك فى هذا الوقت على مانحن فيه من الضرورة والحاجة فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم والله ماوجدنا مانشترى به شيئا للنفساء فأتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا ، فلما سمع ذلك ازداد غما على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك ، فأخذ وعاء للدهن ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك وكان البياع أطفأ سراجه وأغلق حانوته ونام فناداه فعرفه فأجابه وشكر الله على سلامته فقال له افتح حانوتك وأعطنا مانحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ماطلب ، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت فرأى خرجه الذى هرب به صاحبه فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه وقال : ياعدوّ الله أتنى بمالى ، فقال له البياع ماهذا يافلان ! والله ماعاملتك متعدّيا وأنا أبدا ماجنيت عليك ولا على غيرك فما هذا الكلام ؟ قال : هذا خرجى هرب به خادم كان يخدمنى وأخذ حمارى وجميع مالى فقال البياع : والله مالى علم غير أن رجلا ورد علىّ بعد العشاء واشترى منى عشاءه وأعطانى

كى تعرّضينا ولا تحزن عليه تخالف نصّ الكتاب ومشى فى ظلم الطغيان ولم يعمل بقوله تعالى – هل جزاء الإحسان إلا الإحسان – تقابله سطواتنا الشريفة على قوله وفعله وما حاق المكر السىء إلا بأهله وحل ركابنا الشريف بالإبليستين فى العشرين من ربيع الآخر فجمعنا بحصنها الزاهر بين ربيعين وعممناها بعشر الإقامة لاستيفاء مالنا فى ذمة جيرانها من الدين فرحبت بنا وبسطت بساطها الأخضر وقالت على الرأس والعين وألقتنا إلى دندرة وما العيان من صنع الله فى أخذها كالخبر وقررنا صدع صخورها باختلاف الآلات فجاء ماقررناه نقشا على حجر وادّعت أن صخرها أصم فأسمعناه من آذان للرامى تنقير الدافع وتحريك الوتر وطلعت فى ظهر الجبل كدمل فطار كل جارح من سهامنا بريشة إلى فتحها وظنت صون من بها لعلوّ ذلك السفح فطالت سيوفنا إلى دماء القوم وسفحها وقرعنا جبلها بسبابات الدافع وكسرنا منه الثنية وأمست حلق مراميها كالخواتم فى أصابع سهامنا المستوية وخرّ بحرها طائعا فركبنا عليه سفن جسور على الزحف جاسرة وأقلعنا إلى خشب سفنها المسندة فمزّقنا قلوع سائرها وخربنا قريتها العامرة هذا مع أن للملك خطبها لنفسه وأراد أن يعرج إليها فترفعت عليه ولم ترضه لنقص العرج أن يعلو عليها فرحل عنها ولم يخط منى ديوان وصلها بممسوح ، ولكن ساعة رؤيتها قالت بكارتها : مرحبا بأبى النصر وأبى الفتوح وتعلق

هذا الخرج بجملته فى حانوتى وديعة إلى حين يصبح والحمار فى دار جارنا والرجل فى المسجد نائم قال له : احمل معى الخرج وامض بنا إلى الرجل ، فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فاذا الرجل نائم فى المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوبا فقال مالك ؟ قال : أين مالى ياخائن ؟ قال : هاهو فى خرجك فوالله ما أخذت منه ذرة . قال : فأين الحمار وآلته ؟ قال : هو عند هذا الرجل الذى معك ، فعفا عنه وخلى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالما فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود ، فسبحان من لايخيب من قصده ولا ينسى من ذكره .

ولنلحق بهذا الباب ذكر شىء مما جاء فى التهنئة والبشائر : كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خبر استبشر به سمعت عنك خبرا سارا كتب فى الألواح ، وامتزج بالأرواح ، وعدّ فى جملة البشائر العظام وجرى فى العروق وتمشى فى العظام . وكان خالد بن عبد الله القسرى أخا هشام بن عبدالملك من الرضاع ، وكان يقول له : إنى لأرى فيك آثار الخلافة ولا تموت حتى تليها ، فقال له : إن أنا وليتها فلك العراق ، فلما ولى أتاه فقام بين الصفين وقال : يا أمير المؤمنين أعزك الله بعزته وأيدك بملائكته ، وبارك الله فيما ولاك ورعاك فيما استرعاك ، وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة ، وعلى أهل الشرك نقمة ، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها ، وأنت لها أزين منها لك ، وما مثلها ومثلك إلا كما قال الأحوص هذه الأبيات :

وإن الدرّ زاد حسن وجوه ... كان للدر حسن وجهك زينا

وتزيدن أطيب الطيب طيبا ... إن تمسه أين مثلك أينا

ودخل على المهدى أعرابى فقال له : فيم جئت ؟ قال : أتيتك برسالة ، قال هاتها قال : أتانى آت فى منامى فقال ائت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات :

لكم إرث الخلافة من قريش ... تزف إليكمو أبدا عروسا

إلى هرون تهدى بعد موسى ... تميس وما لها أن لاتميسا

فقال المهدى : ياغلام علىّ بالجواهر ، فحشا فاه حتى كاد ينشق ، ثم قال : اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها فى مخانق صبياننا . وقال إبراهيم الموصلى فى تهنئة الرشيد بالخلافة :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة ... فلما أتى هارون أشرق نورها

تلبست الدنيا جمالا بملكه ... فهرون واليها ويحيى وزيرها

وغناه بهما من وراء الحجاب فوصله بمائة ألف دينار ويحيى بخمسين ألفا . ودخل عطاء بن أبى صيفى على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنئة والتعزية فقال : رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبه ووليت الرياسة وكنت أحق بالسياسة فاحتسب عند الله أعظم الرزية واشكر الله على أعظم العطية . ومر عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقة فاذا امرأة من بنى سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلا وهى تقول لا والذى أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا فرمى إليها بصرة فيها مائة دينار وقال قد خلص الله عمر بن هبيرة فطيبى نفسا وقرى عينا ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سكانها بأذيال الأمان فأمنام ولكن كانوا فى صدرها غلا فنزعناه ، وجاءت مفاتيح جندروس قبل التخلص منها براعة فأحسنا الختام بصخرة ، وألقينا أكبر للدافع على حجرها الذى كان غير مكرم وأحسنا التدبير فى الصناعة وسمعت كرت برت بذلك فألقت من بها من جيوش معطلة وزهت فرحة بقصرها المشيد ووصلت مفاتيحها يوم هذا الفتح مهنئة بلسانها الحديد وغارت عروس بهنتان من ذلك فخطبتنا بجمالها البارع وجهزت كتابها يشهد لها بالحلق من الموانع وهى أيضا ممن خطبها الملك لنفسه فتمنعت وأراد السمو إلى أفقها العالى فاستفلته وترفعت وعوت كلابه فلقمتهم ماثقل وزنه من أحجارها الثقال خلافا لمن أصبح الصخر عنده مثقالا بمثقال وعلم طرق أن سهامنا فى كل عضو من أعضاء العصاة جارحة وأفواه مدافعنا فى أعراض الصخور من سائر القلاع قادحة فثبت بداء عن النع وجنح إلى الإخلاص فسابقه باب القلعة ورفع صوته فى الفاتحة وضحك ناموس ملكنا الشريف على من ادّعى بضحكنا وكركر ولكن أبكتهم سهامنا دما جرى من محاجر القلمتين ولم يحتقر وقال حصن عكا إن كانت قلعة تجم عقلبا فى عقاب فالنسر الطائر يخفق تحت قادمتى بأجنحته لو كان للمالك خلاصة لأعلنها التى ملاها من الأصيل خضاب فكف الخضيب بجيم ترلى ويمسح بالص

الباب

الباب الثامن والخمسون في ذكر العبيد والاماء والخدم وفيه فصلان

الفصل الأول في مدح العبيد والاماء والاستيصاء بهم خيرا

عن علي رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أول من يدخل الجنة شهيد وعبد أحسن عبادة ربه ونصح لسيده» وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما رفعه «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين» وكان زيد بن حارثة خادما لخديجة رضي الله تعالى عنها اشترى لها بسوق عكاظ فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه أبوه يريد شراءه منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن رضي بذلك فعلت فسئل زيد فقال ذل الرق مع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي من عز الحرية مع مفارقته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اختارنا اخترناه فأعتقه وزوجه أم أيمن وبعدها زينب بنت جحش وعن علي رضي الله تعالى عنه قال : كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصيكم بالصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه : لايقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي . وعن ابن مسعود الأنصاري قال : ضربت غلاما لي فسمعت من خلفي صوتا : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه ، فالتفت فإذا هو النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله هو حر لوجه الله تعالى ، فقال أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار . وروى عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كم نعفو عن الخادم ، ثم أعاد عليه فصمت ، فلما كانت الثالثة قال له أعفو عنه كل يوم سبعين مرة . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال حدثني أبو القاسم نبي التوبة صلى الله عليه وسلم : من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد له يوم القيامة حدا . وقيل : اراد رجل بيع جاريته فبكت فقال لها مالك فقالت لوملكت منك ماملكت مني ماأخرجتك من يدي ، فأعتقها وتزوجها . وقال أبو اليقظان : إن قريشا لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم ابن عبد الله وذلك أن عمر رضي الله تعالى عنه أتي ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيات فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادي عليهن بالسوق فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه فصاح واعمراه وشكا إليه فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة فقال علي رضي الله تعالى عنه يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أكرموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر ، إن بنات الملوك لايبعن ولكن قوموهن فقومهن وأعطاه أثمانهن وقسمهن بين الحسن بن علي ومحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر فولدن هؤلاء الثلاثة وقيل استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة وكان ابن أمة فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدي :

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم   هجينا لكم يوم الرهان فيدرك
فتعثر كفاه ويسقط سوطه   ويخدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوي المرآن هذا ابن حرة   وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

فقال له مسلمة يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي ولكن كما قال ابن معمر هذه الأبيات :

فما أنكحونا طائعين بناتهم   ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا

جبهته فأنا الهيكل الذي ذاب قلب الأصيل على تذهيبه وود دينار الشمس أن يكون من تعاويذه والشجرة التي لولا سمو فرعها تفكهت به حبات الثريا وانتظمت في سلك عناقيده وتشامخ هذا الحصن ورفع أنف جبله وتشامخ فأرمدنا عيون مراميه بدم القوم وأميال سهامنا على تكحيلها تتزاحم ووصل النقب بتنقيبه عن مقاتلهم إلى الصواب وأيقنوا أن بعدهم لم يضرب بيننا بسور له باب وكان منهل مائهم عذبا فأكثرنا على منبعه الزحام وتطفلوا على رضاع ثدي دلوفلم ترض أم النبع بغير الفطام وأمسى دلوهم كدلو أبي زيد السروجي لايرجع ببلهولا يجلب نقع غله وحكم للدفع الكبير على سور القلعة فقال له السور دام النفوذ والأحكام وانقلبوا صاغرين إلى الطاعة وقد قابلنا أنف جبالهم بالإرغام ورجعوا عن خليلهم الكردي لما قام لهم على جهله الدليل وقالوا طاعة السلطنة الشريفة ما براعي فيها من العصاة خليل وسألونا الصفح عن حديث جهلهم القديم وسلموا القلعة لرضا خواطرنا الشريفة فجمعوا بذلك بين الرضا والتسليم وتشكوت أكراد كركر بسور القلعة فعرفناهم بلامات القسي وألفات السهام وعطست أنوف مراميهم بأصوات مدافعنا كأن بها زكام وتبرءوا من خليلهم الكردي لما شاهد الخطب جليلا وقال كل منهم ياليتني لم أتخذ فلانا خليلا وأورث عاديات المدافع بالقلعة قدحا فأمست بالزلزلة مهددة وفروا من سطواتنا الشريفة إلى البروج فأدركهم الموت في بروجهم المشيدة وسألنا

كرديهم فى جزيل ماله ليفدو بنفسه الخبيثة ويروح فلم نرض منه على كفره إلا بالمال والروح وسجناه فى قلعته وقد أيقن بالموت وارتفع النزاع وجهز الفتاح لتخليص دينه فحصل على سجنه الاجماع وأمسى بها * كريشة فى عمر الريح ساقطة * وتمام البيت معروف عند من له عليه اطلاع وجاءت مفاتيح كل من ديار بكر وقد أزهرت باسمنا الشريف أغصان منابرها وسألت قلعتها التشريف برسول يدوس بنعله محاجرها فأجبناها إلى ذلك وأمست بنا بعد التنكير معرفة وصارت أبراجها بالنسبة المؤيدية مشرفة وجهز قرا عثمان مفاتيح الرها وآمد وسأل تشريفه بتشريفهما بتقليدين يرفعان لهما فى الشرف محلا فلبيناه بذلك وكان من العواطل فحلت الطابقة بالعاطل الحلى والتهب ابن النادر بحرارة العصية ففر إلى برد الطاعة من غير فترة وهز جذع مراحمنا الشريفة واعترف أنه جهل الفرق بين التمرة والجمرة وأقر بذنوبه وقال التوبة تجب ما قبلها ودوحة المراحم الشريفة قد مد الله على الخافقين ظلها وعلم أنه ما أحسن البيان عن دندنة فى تخليص ذلك الفتاح وسأل أن يحظى من بيان عفونا الشريف باستجلاء عروس الأفراح فأذقناه حلاوة قربنا بعد ماذاق مرارة بينه وألبسناه تشريفة بنيابة الإبليستين فباس الأرض وهو لا يصدق أنه يرى محاجر تلك العين بعينه وجهزنا ولده غلود

فما زادنا فيها السباء مذلة ... ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا
وكم قد ترى فينا من ابن سبية ... إذا لقى الأبطال يطعنهم شزرا
ويأخذ ريان الطعان بكفه ... فيوردها بيضا ويصدرها حمرا

فقبل رأسه وعينيه وقال أحسنت يابنى ذاك والله أنت وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

[الفصل الثانى فى ذم العبيد والخدم]

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «بئس المال فى آخر الزمان المماليك» وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمنن امرأة على سر ولا تطأ خادما تريدها للخدمة. ووصف بعضهم عبدا فقال يأكل فارها ويعمل كارها ويبغض قوما ويحب نوما؟ وقيل لبعضهم ألك غلام، فقال:

ومالى غلام فأدعو به ... سوى من أبوه أخو عمق

وقال أكثم الحر حر وإن مسه الضر والعبد عبد وإن ألبسته الدر. ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغى لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن فى منزل المرء حرة ... رأى خللا فيما تولى الولائد
فلا يتخذ منهن حر قعيدة ... فهن لعمر الله بئس القعائد

وكان لرجل غلام من أكسل الناس فأرسله يوما يشترى له عنبا وتينا فأبطأ عليه حتى عيل صبره ثم جاء بأحدهما فضربه وقال ينبغى لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضى حاجتين فمرض الرجل فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر فسأله عنه فقال أما ضربتنى وأمرتنى أن أقضى حاجتين فى حاجة فجئتك بالطبيب فإن شفاك الله تعالى وإلا حفر لك هذا قبرك فهذا طبيب وهذا حفار. وقيل كان عمرو الأعجمى يلى حكم السند فكتب إلى موسى الهادى إن رجلا من أشراف أهل الهند من آل المهلب بن أبى صفرة اشترى غلاما أسود فرباه وتبناه فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها فأجابته فدخل مولاه يوما على غفلة منه من حيث لا يعلم فإذا هو على صدر مولاته فعمد إليه فجب ذكره وتركه يتشحط فى دمه ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برئ من علته فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ويدبر عليه أمرا يكون فيه شفاء غليله وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر فغاب الرجل يوما عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عال فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فرأى ابنيه فى شاهق مع الغلام فقال ويلك عرضت ابنى للموت قال أجل والله الذى لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذكرك مثل ما جببتنى لأرمين بهما فقال الله الله ياولدى فى تربيتى لك قال دع هذا عنك فوالله ماهى إلا نفسى وإنى لأسمح بها فى شربة ماء فجعل يكرر عليه ويتضرع له وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من ذلك الشاهق فقال أبوهما ويلك فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أردت ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من الشاهق فتقطعا وقال إن جبك لنفسك ثأرى وقتل أولادك زيادة فيه فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادى فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمى بقتل الغلام وقال ما سمعت بمثل هذا قط وأمر أن يخرج من مملكته

كل أسود فمانرى أردأ من العبيد ولا أقل خيرا منهم وأكثرهم رداءة للولدون لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ماتصل يدك إليه أنكره كأن لم ير منك شيئا وكلما أحسنت إليه تمرد وإن أسأت إليه خضع وذل وقد جربت أنا ذلك كثيرا ، وما أحسن ماقيل :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقيل إن العبد إذا شبع فسق وإن جاع سرق ، وكان جدى لأمى يقول شر المال تربية العبيد والولدون منهم الأم من الزنوج وأردأ لأن المولد لايعرف له أبا وربما يعرف الزنجى أبويه ويقال فى المولد بغل لأنه مجنس والبغل تكون أمه فرسا وأبوه حمارا وبالعكس فلا تثق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير وإن كان فذاك والنادر لاحكم له وأنا أستغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب التاسع والخمسون فى أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أوابد وعوائد كانوا يرونها فضلا وقد دل على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها فمن ذلك قوله تعالى ـ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون ـ قال أهل اللغة : البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكرا بحروا أذنها أى شقوا أذنها وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى ، وكان الرجل إذا أعتق عبدا وقال هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث ، وأما الوصيلة فى الغنم كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم وإن ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم فان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم ، وأما الحام فالذكر من الإبل كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى . وقال تعالى ـ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ـ فالخمر ماخامر العقل ومنه سميت الخمر خمرا والميسر القمار والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهى الأوثان واحدها نصب والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرنى ربى وعلى بعضها نهانى ربى فاذا أراد الرجل سفرا أو أمرا يهتم به ضرب بتلك القداح فاذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج النهى لم يمض . ومن أوابدهم وأد البنات أى دفنهن أحياء كانوا فى الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها وإذا بشر بها ضاق صدره وكظم غيظه واسود وجهه وهو قوله تعالى ـ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ـ وقال تعالى ـ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ـ وقد قيل إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار وبمكة جبل يقال له أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات . وقيل إن صعصعة جد الفرزدق كان يشترى البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل . وفاخر الفرزدق رجلا عند بعض خلفاء بنى أمية فقال أنا ابن محيى الموتى فأنكر الرجل ذلك فقال إن الله تعالى يقول : ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . وأما الرفادة فى الحج فكانت خرجا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالهم إلى قصى فيصنع به طعاما للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد وذلك أن قصيا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم والحجاج ضيوف الله وزوار بيته وهم أحق ضيف

بحروع من الأمن ليأمن بها من يد داود ويتفيأ بظلال جبرنا ويصير بعد حر العصية فى ظل ممدود وقد تقدم سؤال قيسارية أن يقام بها سوق الأمان فأجبناها وسعرت بها نار الخوف بعد ما غلت جهزنا إليها بضائع الأمن وأرخصناها وأيقن أهلها أنهم إن مشوا فى حدائق عدلنا على غير هذه الطريقة صار على سوسنة كل سنان من دمائهم شقيقة فأزلنا عنهم بإيناس عدلنا الوحشة وأمست قيساريتهم فى أيامنا الزاهرة هشة وسجعت خطباء منابرها باسمنا الشريف والدهر يهتز فرحة ويترنم :

ولم يخل من أسمائنا عود منبر ... ولم يخل دينار ولم يخل درهم

وتقارب الاشتقاق بين سيواس وسيس فتجانسا الطاعة ومات العصيان بتلك البلاد فقالت أرزنكان الصلاة جامعة وصلت طائعة مع الجماعة فلا قلعة إلا اقتضضنا بكارتها بالفتح وابتذلنا من ستائرها الحجاب ولا كأس برج أترعوه بالتحصين إلا توجنا رأسه من مدافعنا بالحباب حتى فصلت فى الروم لعساكرنا التى هى عدد النمل قصص وعددنا فكان المرد أحمد إذ لم يبق بتلك البلاد ما تعده القدرة على الفتح .. الفرص وجاءت رسل ملوك الشرق بالاذعان لطاعتنا التى اتخذوها لشرفها قبلة وود كل منهم أن يحظى من جبهات أعتابنا بقبلة وتنوعوا من الهدايا بأجناس صدقت من كل نوع مقبول وبالغوا فى الرقة وأهدوا من الرقيق ما قام له عندنا سوق القبول وأسفر قمرا يوسف من

بالكرامة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليهم . وقيل أول من أقام الرفادة عبد المطلب وهو الذى حفر بئر زمزم وكانت مطمومة واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى وسبعة أسياف وخمسة دروع سوابغ فضرب من الأسياف باب الكعبة وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب وجعل الآخر فى الكعبة . واعلم وفقنى الله وإياك أنه لم يسمع بعجب أعظم من عجب سعيد ابن زرارة وعبد الله بن زياد التميمى وابن سماك الأسدى الذين ضرب بهم المثل . فأما سعيد بن زرارة فقيل إنه مرت به امرأة فقالت له يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا فقال لها يا هنتاه مثلى يكون من عبيد الله . وأما عبد الله بن زياد التميمى فقيل إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز فنودى من نواحى المسجد كثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا وأما ابن سماك فإنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد فقال والله لئن لم يرد راحلتى على لاصليت له أبدا فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر فقيل له قد رد الله عليك راحلتك فصل فقال إنما كانت يمينى يمينا قصدا فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثا مستبشعا ومثلا بين العالمين مستشنعا نعوذ بالله من الخذلان المؤدى إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

حكى عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه قيل له كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل إن الله أظفرنى بأناس بلغنى الأمل فيهم وأعاننى على الانتقام منهم فكنت أتقرب إليه بدمائهم فقيل له من هم فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم ، ولا محالة أنها من محاسن الحجاج وإن قلت فى جنب سيئاته والله تعالى أعلم .

(ذكر أديان العرب فى الجاهلية) كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة وكانت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وبنى الحرث بن كعب وكندة وكانت المجوسية فى بنى تميم منهم زرارة ابن عدى وابنه على وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسيا وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الجزيرة وكانت بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية صنما من حيس فعبدوه دهرا طويلا ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه ، وقد قيل إن أول من غير الحنيفية عمرو بن لحى أبو خزاعة وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك فقال ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها قالوا هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا فقال أعطونى منها صنما أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه . وقيل إن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسمعيل وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم وتفرقوا فى البلاد وما من أحد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوه من الحجارة ثم خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه من دين إسمعيل فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال وكانت قريش قد اتخذت صنما على بئر فى جوف الكعبة يقال له هبل وأيضا اتخذوا إسافا ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون وكان إساف ونائلة رجلا وامرأة فوقع إساف على نائلة فى الكعبة

الجمال اليوسفى ونور الطاعة عن بهجتين وأظهر كتاب الطهارة بتطهير الأرض عمن مدينا إليه من أعداء الدولتين ودنت الغبار من الغبار فكانت سيوفنا فى القرب له حصنا وملاذا ولم يباشر فى إخلاص الطاعة عما يقال له بسببه يوسف أعرض عن هذا وجاءت هداياه التى هبت نسمات القبول على إقبالها وجنينا منها ثمار المحبة وجمل التفاصيل التى وسعها سناء الملك بهجة ولم يترك لابنه فى دار الطراز رتبة والغورة التى يحجم ابن فهد عن وصفها إذا قابل منها السواد والبياض بالمقلتين فإنها جمعت لنا من ليلها الحالك ونهارها الساطع بين الآيتين والجواد الذى تميز بأوصاف ما صاحب مجرى السوابق من الفحول التى تجاريها فإنه غرة فى جباه الخيل التى قال قائد الغر المحجلين إن الخير معقود بنواصيها والسروج التى صحت عندنا على السروجى بمقاماتها العالية ورأيناها أهلة تغنى عن الفجر فخصبنا كل سرج منها بالغاشية والجوارح التى خشى النسر الطائر أن يصير منها واقعا وصدق فيها تفرس وخافت الشمس لما تسمت بالغزالة ولف سرحان الأفق ذنبه على خيشومه ولم يتنفس والقوس الذى أصاب به أغراض المحبة ونال منها أوفر سهم ونصيب وجاء عبارة عن رأى مهديه وكل عندنا بحمد الله مصيب فسخها

وهو من الأشياء التى وقعت فى علها ونحن نقيم دلائل ذلك وبرهانه فإن القوس إذا عانق سهامه بنصر علم أنه وصل إلى الكنانة

فمسخهما الله حجرين واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجل سفرا تمسح به حين يركب وكان ذلك آخر مايصنع إذا توجه إلى سفره و إذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها ، وكانت لقريش و بنى كنانة العزّى ، وكان حجابها بنى شيبة ، وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان حجابها بنى مغيث من ثقيف ، وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم . وأما يغوث و يعوق ونسر فقيل : إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام ، وكانوا أتقياء عبادا فمات أحدهم فحزنوا عليه حزنا شديدا ، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته فى قبلة مسجدهم ليذكروه إذا نظروه فكرهوا ذلك ، فقال : اجعلوه فى مؤخر المسجد ففعلوا ، وصوروه من صفر ورصاص ، ثم مات آخر ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم فصوروهم هناك وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسن لهم الشيطان عبادة شىء غير الله ، فقالوا له : من نعبد ؟ قال : آلهتكم المصورة فى مصلاكم فعبدوها إلى أن بعث الله نوحا عليه الصلاة والسلام فنهاهم عن عبادتها فقالوا كما أخبر الله عنهم ـ لاتذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ـ الآية ، ولما عمّ الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زمانا طويلا فأخرجها الشيطان لمشركى العرب فعبدوها ، وذكر الواحدى فى الوسيط أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام ، فسوّل الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوروا صورهم ليكون أنشط لهم وأشوق للعبادة كما رأوهم ففعلوا ، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها وأن من سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم . وقال الواقدى : كان ودّ على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر ، والله تعالى أعلم أىّ ذلك كان .

ذكر أوابدهم . الرتم : شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصنا منها فإذا عاد من سفره ووجده قد انحلّ قال خانتنى امرأتى و إن وجده على حالته قال لم تخنى . الرجية : ناقة كانت العرب اذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدّوا عينيها حتى تموت يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها . التعمية والتفقئة ، كان الرجل إذا بلغت إبله ألفا قلع عين الفحل يقولون : إن ذلك يدفع عنها العين ، فإذا زادت عن الألف فقأ عينه الأخرى . العر : داء يصيب الإبل شبه الجرب كانوا يكوون السليمة و يزعمون أن ذلك يبرىء داء العر . ضرب الثور عن البقر ، كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضرب الثور يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدّون البقر عن الشرب . الهامة كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة فلا يزال يصيح على قبره : اسقونى إلى أن يؤخذ بثأره ، وكان للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفس وتنازع فى كيفياتها فمنهم من زعم أن النفس هى الدم وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم الإنسان الذى منه نفسه وقالوا : إنّ الميت لايوجد فيه الدم وإنما يوجد فى الحياة مع الحرارة والرطوبة لأن كلّ حىّ فيه حرارة ورطوبة فإذا مات ذهبت حرارته وحلّ به اليبس والبرودة ، وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينبسط فى جسم الإنسان إذا مات أو قتل ، ولا يزال متصوّرا فى صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشا له ، وفى ذلك يقول بعضهم :

وبالغ للمقرّ الجالى فى نظم بديع الهدايا ، ونسخ الجفاء بكثرة رقيقه وأدار من أوانى الصفى كؤوسا أترعها الودّ بسلاف رحيقه ، ودخلنا حلب المحروسة ووصلناها ما استحقّ لها من ديون الفتح علينا ورددنا ما اغتصب منها فقالت هذه بضاعتنا ردّت إلينا وقد آثرنا الجناب بكرامة هذه البشارة التى استبشر بها وجه الزمان بعد قطوبه وتبسم فان ركن هذا البيت الشريف ونسيب مدحه المقدم فيأخذ منها حظه ويثلج صدر البرايا ففيها لهم برد وسلام ويرعاهم بعين الرعاية ليضوع فيهم عرف العدل و يصير مسكا لهذا الختام والله تعالى يمتعه فى ليله ونهاره من أخبارنا السارة بالأعياد والمواسم ويجعل له من صياغة أعماله إن شاء الله حسن الخواتم .

قلت : وذكرت بهذه الرحلة أيضا رحلتى من الديار المصرية إلى دمشق المحروسة المحمية سنة إحدى وتسعين وسبعمائة والملك الناصر قد خرج من الكرك ونزل عليها وتصدّى لحصارها وقد اجتمعت عليه العساكر المصرية والشامية وحدث بدمشق المحروسة ماحدث من القتال والحصار والحريق فكتبت إلى المقر المرحومى الفخر القاضى ابن مكانس فى شرح ذلك رسالة لم ينسج على منوالها ولم تسمح على غلبة الظنّ قريحة بمثلها ، وهى : يقبل للملوك أرضا من يمها أو تيمم بثراها حصل له الفخر والمجد فلا برح هيام الوفود إلى أبوابها أكثر من هيام العرب إلى ربا نجد ، ولا زالت

حول الشعراء تطلق أعنة لفظها فتركض فى ذلك المضمار وتهيم بواديها الذى يجب أن ترفع فيه أعمدة المدائح بيوت الأشعار وينهى بعد أشواق أمست الدموع بها فى محاجر العين معثرة ولو لم يقر إنسانها بمراسلات الدمع لقلت : قتل الانسان ما أكفره وصول الملوك إلى دمشق المحروسة فياليتـه قبض قبل ما كنت عليه ذلك الوصول ودخوله إليها ولقد والله تمنى خروج الروح عند ذلك الدخول ونظر الملوك إلى قبة يلبغا وقد طار بها طير الحمام وجثت حولها تلك الأسود الضارية فتطيرت فى ذلك الوقت من القبة والطير وتعوذت بالغاشية ودخلت بعد ذلك إلى القبيبات التى صغر اسمها لأجل التحبب فوجدتها وقد خلا منها كل منزل كان آنسا بحبيبه ، فأنشد به لسان الحال :

قفا نبك من ذكرى حبيب

ونظرت بعد القباب إلى المصلى وما فعلت به سكان تلك الخيام والتفت إلى بديع بيوته التى حسن بناء تأسيسها وقد فسد بها النظام فسال وقد وقعت عقيق دمى على أرض المصلى والقباب ونظرت إلى ذلك الوادى الفسيح وقد ضاق من الحريق بسكانه الفضا ، فتوهمت أن وادى المصلى قد تبدل بوادى الغضا :

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم   شبوه بين جوانح وقلوب

واصطليت النار وقد أرادت لم سبى ذلك النادى فشبت عليه من فوارس لهيبها الغارة وركضت فى ميدان الحصا فوجدت أركانه كما قال تعالى : وقودها الناس والحجارة

سلط الموت والمنون عليهم   فلهم فى صدى المقابر هام

ثم جاء الإسلام والعرب ترى صحة أمر الهام حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام » وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرا ويكبر حتى يصير كضرب من البوم ، ويتوحش ويصرخ ويوجد فى الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى ، ويزعمون أن الهامة لاتزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت . الصفر زعموا أن الإنسان إذا جاع عض على شرسوفه الصفر وهى حية تكون فى البطن . تثنية الضربة زعموا أن الحية تموت فى أول ضربة فإذا ثنيت عاشت . الغيلان والتغول للعرب فى الغيلان والتغول أخبار وأقاويل ، يزعمون أن الغول يتغول لهم فى الخلوات فى أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم ، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشئوم وأنه خرج منفردا لم يستأنس وتوحش وطلب القفار وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار فى أوقات الخلوات وفى الليل .

وحكى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رآه فى سفره إلى الشام فضربه بالسيف . وقال الجاحظ : الغول كل شىء يتعرض للسيارة ويتلون فى ضروب من الصور والثياب وفيه خلاف ، وقالوا : إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى ، وأما القطرب فى قولهم فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم فيظهر فى أكناف اليمن وصعيد مصر فى أعاليه ، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه فيدود دبره فيموت ، وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحى التى ذكرناها : أمنكوح هو أومذعور ؟ فان كان قد نكحه أيسوا منه ، وإن كان قد ذعر سكن روعه وشجع قلبه ، وإذا رآه الإنسان وقع مغشيا عليه ، ومنهم من يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه .

ذكر الهواتف . أما الهواتف فقد كانت كثرت فى العرب ، وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى .

ومن عجيب ما حكى من أمر الهواتف ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال : خرجنا حجاجا فصاحبنا رجل وجعل يقول فى طريقه : * ليت شعرى هل بغت على *

فلما انصرفنا من مكة قالها فى بعض الطريق فأجابه صوت فى الظلام :

نعم نعم وناكها حجبه   وهو رجل أحمر ضخم فى قفاه كيه

فسكت الرجل فلما صرنا إلى البصرة أخبرنا ذلك الرجل قال دخل جيرانى يسلمون على فاذا فيهم رجل أحمر ضخم فى قفاه كية فقلت لأهلى من هذا ؟ قالت رجل كان ألطف جيراننا بنا جزاه الله خيرا فسألتها عن اسمه فقالت حجية فقلت الحقى بأهلك . وأما بكاء المقتول فكانت النساء لايبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره فاذا أخذ بثأره بكينه . وأما رمى السن فكانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر فرمى سنه فى عين الشمس بسبابته وإبهامه وقال أبدلينى بأحسن منها فانه يأمن على أسنانه العوج والفلج . وأما خضاب النحر فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة . وأما نصب الراية فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها . وأما جز النواصى فكانوا إذا أسروا رجلا ومنوا عليه وأطلقوه جزوا ناصيته . وأما الالتفات فكانوا يزعمون أن من خرج فى سفر والتفت وراءه لم يتم سفره فان التفت تطيروا له ، وكانوا يقولون : من علق عليه كعب الأرنب

لم تصبه عين ولا سحر وذلك أن الجن تهرب من الأرنب لأنها تحيض وليست من مطايا الجن ويزعمون أن المرأة إذا أحبت رجلا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها ويزعمون أن الحرقوص وهو دويبة أكبر من البرغوث تدخل فى فروج الأبكار فتفتضهن ويزعمون أن الرجل إذا ضل فقلب ثيابه اهتدى وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فانها تسكن وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب مايخرج منها صبر وتسمى السلوان . ونكاح المقت من سنتهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها فان لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض إخوته بمهر جديد فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال ، ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الستون فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

أما الكهانة ، فكانت فاشية فى الجاهلية حتى جاء الاسلام فلم يسمع فيه بكاهن وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها . وللكهنة أخبار ، فمنهم سطيح ورد عليه عبدالمسيح وهو يعالج الموت وأخبره على مايزعمون بما جاء لأجله . وذلك أن الموبذان رأى إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها فلما أصبح أعلم كسرى بذلك فتصبر كسرى تشجعا ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته فلبس تاجه وقعد على سريره وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر فبيناهم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران وارتجاس الايوان فازدادوا غما على غمهم فكتب كسرى كتابا إلى النعمان بن المنذر أما بعد فوجه إلىّ رجلا عالما بما أريد أن أسأله عنه فوجه إليه عبدالمسيح الغسانى فقال له كسرى أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه قال ليخبرنى الملك فان كان عندى علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه به فأخبره بما رآه الموبذان فقال علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له سطيح قال فأته فاسأله عما سألتك وائتنى بالجواب فركب عبدالمسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح فسلم عليه وحياه ولم يخبره عبدالمسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعرا يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم ولم يذكر له السبب فرفع رأسه وقال عبدالمسيح على جمل يسيح إلى سطيح بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الايوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان رأى ابلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت الدجلة وانتشرت فى بلادها ياعبد المسيح إذا كثرت التلاوة وفاض وادى سماوة وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس فليس الشام لسطيح شاما ولا العجم لعبدالمسيح مقاما يرتفع أمر العرب وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب يملك منهم ملوكا وملكات بعدد الشرفات وكل ماهو آت آت ثم قضى سطيح مكانه فثار عبدالمسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك .

وحكى أن ربيعة بن مضر اللخمى رأى مناما هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته مايفسره لك إلا شق وسطيح فأحضرهما وقال لسطيح إنى رأيت مناما هالنى فان عرفته فقد أصبت تفسيره فقال رأيت جمجمة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة فأكل منها كل ذات جمجمة فقال له الملك

ودخلت قصر الحجاج وقد مدت النار به من غير ضرورة فى موضع القصر وأصبح أهله فى خسر وكيف لا وقد صاروا عبرة لأهل العصر وتأملت تلك الألسن الجرية وقد انطلقت فى ثغور تلك الربوع تكلم السكان وتطاولت بألسنة الأسنة الأتراك فاندهل أهل دمشق وقد كلموا بكل لسان ووصل المملوك بعد الفجر إلى البلد وقد تلا بعد زخرفه فى سورة الدخان فوجب أن أجرى الدموع على وجيب كل ربع وأنشد وقد دخل صبرى بعد أن كان فى خبر كان

* دمع جرى فقضى فى الربع ماوجبا *

ووقفت أندب عرصاتها التى فحت بالبين فخابت من أهلها الظنون وكم داروا بقمحها خبدة من طاحون النار فلم يسلم فصدقت المثل بأن القمح يدور ويجىء إلى الطاحون وتطرقت بعد ذلك إلى الحدادين وقد نادتهم النار بلسانها من مكان بعيد آتونى زبر الحديد ولقد كان يوم حريقها يوما عبوسا قمطريرا أصبح المسلمون فيه من الخيفة وقد رأوا سلاسل وأغلالا وسعيرا هذا وكلما أصليت نار الحريق وشبت نار الحرب ذكرت ما أشار به مولانا على المملوك من الاقامة بمصر فأنشدت من شدة الكرب :

آها لمصر وأين مصر وكيف لى بديار مصر مراتعا وملاعبا والدهر سلم كيفما حاولته لامثل دهرى فى دمشق محاربا

يامولانا لقد بت دمشق فى حفنا الأتم السواد وطبخت قلب أهلها كما تقدم على تاريخ سقوا من الأسنة بألسنة حداد ولقد

نتحت عيونهم من الحريق واستنشقوا فلم ينشقوا رائحة النادية وكم رؤى فى ذلك اليوم وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية وكم رجل تلا عند لهيب بيتـه تبت يدا أبى لهب وخرج هاربا وامرأته حمالة الحطب وشك الناس من شدة الوهج وهم فى الشتاء وصاروا من هذا الأمر يتعجبون فقال لهم لسان النار أتعجبون من الوهج والحريق وأنتم فى كانون ولعمرى لو عاش ابن نباتة ورأى هذه الحال وما تم على أهل دمشق فى كانون لترك رثاء ولده عبد الرحيم وقال:

يالهف قلبى على وادى دمشق ويا حزنى عليه وياشجوى ويادانى

فى شهر كانون وافاه الحريق لقد أحرقت بالنار يا كانون أحشائى

ونظرت بعد ذلك إلى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا أزفت الآزفة وستروا بروجها من الطارق بتلك الستائر وهم يتلون ليس لها من دون الله كاشفة واستجليت عروس الطارقة عند زفها وقد تجهزت للحرب ومالها غير الأرواح مهر وعقدت على رأسها تلك العصائب وتوشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الأبيض سوار النهر وغازلت بحواجب قسيها فرمت القلوب من عيون مراميها وأما بالنبال وأهدت إلى العيون من مكاحل نارها أكحالا كانت السهام لها أميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب

ما أخطأت شيئا فما تفسيره قال ليهبطن بأرضك الحبش وتملك ما بين أبين إلى جرش فقال الملك إن هذا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفى زمانى أم بعده قال بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضى من السنين ثم يقتلون بها أجمعين ويخرجون منها هاربين قال ومن ذا الذى يملك بعدهم قال أراه ذايزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحدا باليمن قال الملك فيدوم ذلك أم ينقطع قال بل ينقطع قال ومن يقطعه قال نبى زكى يأتيه الوحى من العلى قال وممن يكون هذا النبى قال من ولد عدنان بن فهر ابن مالك بن النضر يكون فى قومه الملك إلى آخر الدهر قال وهل للدهر من آخر قال نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون قال أوحق ماتخبر قال والشفق والقمر إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق ثم دعا بشق فقال مثل ما قال سطيح . ومن ذلك ماحكى أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم ابن عبد مناف إلى المفاخرة فقال له هاشم أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة فرضى أمية بذلك وجعل بينهما الخزاعى الكاهن حكما فخبئوا له شيئا وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا قد خبأنا لك خبيئا فان علمته تحاكمنا إليك وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك فقال لقد خبأتم لى كيت وكيت قالوا صدقت احكم بين هاشم بن عبد مناف وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتا ونسبا ونفسا فقال والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو طائر وما اهتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلا المآثر ولأمية أواخر فأخذ هاشم الابل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين ويقال إنها أول عداوة وقعت بين بنى هاشم وبنى أمية .

وحكى أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة وكان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت ضيافة خارجا عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند ثم نهض لحاجة فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه فلما رأى هندا رجع هاربا فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله وقال لها من هذا الذى خرج من عندك قالت ما رأيت أحدا قط وما انتبهت حتى نبهتنى قال فارجعى إلى بيت أبيك وتكلم الناس فيها فقال أبوها يابنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام فان يكن الرجل صادقا دسست عليه من يقتله لينقطع كلام الناس وإن يك كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن فقالت له لا والله ماهو على بصادق فقال له يافاكه إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم وخرج أبوها فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة فلما شارفوا البلاد قالوا غدا نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها إنى أرى حالك قد تغير وماهذا إلا لمكروه عندك فقالت لا والله ولكن أعرف أنكم تأتون بشرا يخطىء ويصيب ولا آمنه أن يسمنى بسيما تكون على سبة فقال لها لاتخشى فسوف أختبره فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل فى إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم فلما تغدوا قال له عتبة قد جئناك فى أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها قال خبأتم لى ثمرة فى كمرة قال إنى أريد أبين من هذا قال حبة بر فى إحليل مهر قال فانظر فى أمر هؤلاء النسوة فجعل يأتى إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها انهضى حتى بلغ هندا فقال انهضى غير رسحاء ولا زانية ولتلدن ملكا اسمه معاوية فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده وقالت إليك عنى فوالله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك فتزوجها أبو سفيان فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضى الله تعالى عنه .

وأما القيافة ، فهى على ضربين : قيافة البشر وقيافة الأثر . فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج يعرض على أحدهم مولود فى عشرين نفرا فيلحقه بأحدهم .

وحكى عن بعض أبناء التجار أنه كان فى بعض أسفاره راكبا على بعيره يقوده غلام أسود ، فمرّ بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال ماأشبه الراكب بالقائد قال ولد التاجر فوقع فى نفسى من ذلك شىء ، فلما رجعت إلى أمى ذكرت لها القصة فقالت ياولدى إن أباك كان شيخا كبيرا ذامال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ماله فمكنت هذا الغلام من نفسى فحملت بك ولولا أن هذا شىء ستعلمه غدا فى الدار الآخرة لما أعلمتك به فى الدنيا . وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف ، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أودخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه فيظفروا به ، ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ والمرأة من الرجل والبكر من الثيب والغريب من المستوطن ويذكرون فى قطية ونمر البرلس أقواما بهذه الصفة وقد وقعت من قريش حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد وأحجار صم ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم بما كان من نسيج العنكبوت ومالحق القائف من الحيرة وقوله إلى ههنا انتهت الأقدام ، هذا ومعهم الجماعة من قريش وأبصارهم سليمة ، ولولا أن هناك لطيفة لايتساوى الإنسان فيها يعنى فى علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى . وقيل القيافة لبنى مدلج فى أحياء مضر واختلف رجلان من القافة فى أمر بعير وهما بين مكة ومنى ، فقال أحدهما هو جمل وقال الآخر هى ناقة وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بنى عامر فاذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه أهوذا قال نعم فوجداه خنثى فأصابا جميعا . ومنهم من كان يخط الرمل فى الأرض ويقول فيوافق قوله مايأتى بعد . وقال رجل : شردت لى إبل جئت إلى خراش فسألته عنها فأمر بنته أن تخط لى فى الأرض فخطت ثم قامت فضحك خراش ثم قال أتدرى قيامها لأى شىء ؟ قلت لا قال قدعلمت أنك تجد إبلك وتتزوجها فاستحييت ثم خرجت فوجدت إبلى ثم تزوجتها . وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعى غازيين فمرا بامرأة وهى تخط للناس فى الأرض فضحك منها مالك هزوا وقال ماهذا ؟ فقالت أما والله لاتخرجن من سجستان حتى تموت ويتزوج عمرو هذا زوجتك فكان كما ذكرت .

وأما الزجر والعرافة فأحسنه ماروى أن كسرى أبرويز بعث إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم حين بعث زاجرا ومصوّرا فقال للزاجر انظر ماترى فى طريقك وعنده وقال للمصوّر ائتنى بصورته فلما عاد إليه أعطاه المصوّر صورته صلى الله عليه وسلم فوضعها كسرى على وسادته ، ثم قال للزاجر ماذا رأيت قال مارأيت ماأزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك وبعث صاحب الروم إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم رسولا وقال له انظر إليه ومل إلى جانبه وانظر إلى مابين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة ، فقدم الرسول فرأى النبىّ صلى الله عليه وسلم على نشز عال واضعا قدميه فى الماء وعن يمينه علىّ رضى الله تعالى عنه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له تحوّل فانظر ما أمرت به ، فنظر الرسول ، فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر فقال ليعلونّ أمره وليملكنّ ماتحت قدمى ، فتفاءل بالنشز العلوّ وبالماء الحياة .

وصح وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم فى رقعة الأرض كأنهم لم يعلموا بأن الطارقة عالية وتالله لقد حرست بقوم لم يتدرعوا بغير آية الحرس فى الأسحار وقد استيقظوا لحل قسيهم ولم تنم أعينهم عن الأوتار فأعيد رواسيها التى هى كالجبال الشامخة بمن أسس رواسى المحجوج وأحصنها قلعة بالسماء ذات البروج وتطاولت إلى السور المشرف وقد فضل فى علم الحرب وحفظ أبوابه المقفلات فما وقفنا على باب إلا وجدناه لم يترك خلفه لصاحب الفتاح تلخيصا لما أبداه من المشكلات وما أحقه بقول القائل :

وبالله سور على المجد حائط ... وبالعز هذا السور أضحى مشرفا

كم حملوا عليه وظنوا فى طريق حملاتهم نصرا ونصوا دست الحرب ولم يعلموا بأنه قد طبخ لهم على كل باب قدرا فلا وأبيك لو نظرته يوم الحرب قد تصاعدت فيه أنفاس الرجال لقلت : ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد وإلى الحاصرين وقد جاءوا راجلا وفارسا ليشهدوا القتال لقلت : وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وإلى كواكب الأسنة وقد انتثرت وإلى قبور الشهداء وهى تحت أرجل الخيل قد بعثرت وإلى كرّ الفوارس وفرّها لقلت : علمت نفس ماقدّمت وأخرت وإلى نار النفط وقد نفطت من غيظها وإلى ذكور السيوف وقد وضعت لمنايا السعود وصفرت من شدة الصدأ لكثرة حيضها ، ومن العجائب أن يبيض سيوفهم تلك المنايا السود وهى ذكور وإلى فارس الغبار

وقال المدايني : وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان حين أتاها فخرج هاربا ونزل بقرية من قرى الصعيد فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان فقال للرسول ما اسمك قال طالب بن مدرك فقال أوّاه ما أظنّ أني أرجع إلى الفسطاط فمات ولم يرجع . وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية فقال لفاختة بنت قرظة اذهبي فانظري إليها فذهبت ونظرت فقالت ما رأيت مثلها ولكني رأيت تحت سرتها خالا ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها فطلقها معاوية وتزوجها بعده رجلان حبيب بن مسلمة والنعمان بن بشير فقتل أحدهما ووضع رأسه في حجرها . وبينما مروان ابن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الايوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان وكان هناك عراف وقيل قياف فقام فتبعه ثوبان مولى مروان فسأله فقال صدع الزجاج صدع السلطان ستذهب الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندي واضح البرهان فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان . وروى المدايني أن عليا رضي الله تعالى عنه بعث معقلا في ثلاثة آلاف ليقيم بالرقة وذلك في وقعة صفين فسار حتى نزل الحديبية فبينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين ينتطحان فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشا فذهب به فقال شداد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر إنكم لتنصرفون من موجهكم هذا لا تغلبون ولا تغلبون أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتفرّقا ولا فضل لأحدهما على الآخر . وحكى أن الاسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوبا فلما رأته قالت له أيها الملك قد أعطيت ملكا ذا طول وعرض ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت ستعزل من الملك قال فغضب عند ذلك فقالت له لا تغضب فانك في المرة الأولى دخلت عليّ والشقة بيدي أدير طولها وعرضها ودخلت عليّ الآن والشقة في يدي أريد قطعها لأني قد فرغت من نسجها فلا تغضب فان النفوس تعلم أشياء بعلامات قال الراوي فكان كذلك . وحكى أن سيف بن ذي يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم فخرج إليه ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم قال وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له زهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره اصبر لننظر ما يكون من أمره قال فتحوّل مسروق من الفيل إلى جمل فقال اصبر فتحول بعد ذلك إلى فرس ثم إلى بغل ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار لما أنه استصغرهم واستحقرهم وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى وقال احملوا عليهم فان ملكهم قد ذهب فانه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك . وحكى أنه كان عراف من الطرقيين ببغداد يخبر بما يسئل عنه فلم يخطئ فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق قال نعم ويخلع عليه قال فقلت له بأي شيء عرفت ذلك فقال إنك لما سألتني التفت يمينا وشمالا فوجدت رجلا على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس وتفريغه بالانطلاق ووضعها على كتفه بالخلعة قال وكان الأمر كذلك . وأما الفأل فقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له يا بشار ويا سالم فقال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله تعالى عنه أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار . وقال الأصمعي سألت ابن عون عن الفأل فقال هو أن يكون

وقد ركب صهوات الجو ولحق بعنان السماء وإلى أهداب السهام وقد بكت لما تخضبت بالدماء وإلى كل هارب سلب عقله وكيف لا وخصمه له وإلى كلّ مدفع وماله عند حكم القضاء دافع وإلى قامات أقلام الخط وقد صار لها في طروس الأجسام مشق فاستصوبت عند ذلك رأى من قال عرّج ركابك عن دمشق ونظرت بعد ذلك إلى العشير وقد استحلّ في ذي الحجة المحرم وحمل كل قيسي يمانيا وتقدم نحر النساء وقد أنكرن منهم هذا الأمر العسير فقلت :

وغير بدع للفنا ٭ إذا تنكرن العشير

وتصفحت بعد ذلك فاتحة باب النصر فعوذته بالاخلاص وزدت لله شكرا وحمدا وتأملت أهل الباب وهم يتلون لأهل البلدة في سورة الفتح وللحاصرين وجعلنا من بين أيديهم سدا كم طلبوا فتحه فلم يجدوا لهم طاقة وضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ونظرت إلى ما تحت القلعة من أسواق التجار فوجدت كلا قد محت النار آثاره وأهله يتلون ـ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ـ فمنهم من هم شأنه على صاحبته وبنيه وآخر قد استغنى بشأن نفسه فهم كما قال الله لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه فوقفت أنشد في تلك الأسواق وقد سعرت ٭ ألاموت يباع فاشتريه ٭

ونظرت إلى المؤمنين الركع السجود وهم يتلون هل من ترك في يومهم أخمدوا من وقود النار وقد حريهم فحكه اليوم الشهيد

يكون مريض فيسمع ياسالم أو طالب حاجة فيسمع ياواجد وما أشبه ذلك وأما الطيرة فقد كان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطيرة . وقيل ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل اللهم لاطير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له» وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه «من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر» . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «من أتى كاهنا فصدقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضا في دبرها فقد برئ مما نزل على محمد» . وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول :

لايعلم المرء ليلا ما يصبحه … إلا كواذب ما يجرى به الفال
والفأل والزجر والكهان كلهم … مضللون ودون الغيب أقفال

وقال لبيد : لعمرى ماتدرى الطوارق بالحصى … ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال آخر : تعلم أنه لا طير إلا … على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء … أحايينا وباطله كثير

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها وكانوا إذا أرادوا سفرا خرجوا من الغلس والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها فإن أخذت يمينا أخذوا يمينا وإن أخذت شمالا أخذوا شمالا ، ومنه قول امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها … بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا … كجلمود صخر حطه السيل من عل

والعرب أعظم مايتطيرون منه الغراب فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ويسمونه حاتما لأنه يحتم عندهم بالفراق ويسمونه الأعور على جهة التطير إذ كان أصح الطير بصرا وفيه يقول بعضهم

إذا ماغراب البين صاح فقل له … ترفق رماك الله يا طير بالبعد
لأنت على العشاق أقبح منظر … وأبشع في الأبصار من رؤية اللحد
تصيح ببين ثم تعثر ماشيا … وتبرز في ثوب من الحزن مسود
متى صحت صح البين وانقطع الرجا … كأنك من يوم الفراق على وعد

وأعرض بعضهم عن الغراب وتطير بالإبل وذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل ، وفي ذلك قال بعضهم مفردا وأجاد :

زعموا بأن مطيهم سبب النوى … والمؤذنات بفرقة الأحباب

وقالوا من تطير من شيء وقع فيه . وحكى عن إبراهيم بن المهدى قال أرسل إلى محمد بن زبيدة في ليلة من ليالى الصيف مقمرة يقول ياعم إنى مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا فجئته وقد بسط له على سطح زبيدة وعنده سليمان بن أبي جعفر وجاريته نعيم فقال لها غنينا شيئا فقد سررت بعمومتى فغنت وهي تقول هذه الأبيات :

هموا قتلوه كى يكونوا مكانه … كما فعلت يوما بكسرى مرازبه
بنى هاشم كيف التواصل بيننا … وجند أخيه سيفه ونجائبه

قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود هذا وكم مؤمن قد خرج من دياره حذر الموت وهو يقول النجاة وطلب الفرار وكلما دعا قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاصطبار ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ونظرت ضواحى البلد وقد استدت في وجوههم المذاهب ومالهم من الضيق مخرج وضاقت عليهم الأرض بما رحبت لما غلق في وجوههم باب الفرج فقلت اللهم اجعل لهم من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ولعدم أموالهم من كل عسر يسرا ولانتهاك مخدراتهم من كل فاحشة سترا ولقطع الماء عنهم إلى كل خير سبيل فانك حسبنا ونعم الوكيل هذا وكم نظرت إلى سماء ربع غربت شمسه بعد الاشراق فأنشدت وقد ازددت كربا من شدة الاحتراق :

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا … فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

وانتهيت إلى الطواقين وقد أسبل عليهم الحريق شدته فكشفوا الرءوس لعالم السرائر وكم ذات ستر خرجت بفرق مكشوف ورمت العصائب وبعلها بعينه دائر هذا وكم ناهدات أسبلن من فوق النهود دوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا ووصلت إلى ظاهر الفراديس وقد قام كل إلى فردوس بيته فاطلع فرآه في سواء الجحيم واندهشت تلك الأنفس التي ماتت من شدة الخوف وهي تستغيث بالذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ونظرت إلى ظاهر باب السلامة

وقد أخفت النار أعلامه ولقد كان أهله من صحة أجسامهم ومن اسمه كما يقال بالصحة والسلامة و إلى الشلاحة وقد لبست ثياب الحزن وذابت من أهلها الكبود

وقعدوا بعد تلك الربوع على أديم الأرض ونضجت منهم الجلود ولقد والله عدمت لذات الحواس الخمس وضاقت على الجهات الست فلم ترق لي دمعة وأكلت الأنامل من الأسف لما سمعت بحريق أطراف السبعة فأعيذ مابقي من السبعة بالسبع المثاني والقرآن العظيم فكم رأينا بها يعقوب حزن رأى سواد بيته فاصفر لونه وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم وتغربت إلى ظاهر الباب الشرقي فتشرقت بالدمع من شدة الالتهاب فلقد كان أهله من دارعينه وكرومه الكريمة في جنتين من نخيل وأعناب وتوسلت إلى ظاهر باب كيسان فأنفقت كيس الصبر لما افتقرت من دنانير تلك الأزهار والدراهم رباها وصحت بعد ذلك بالعين واستخدمت فقلت بسم الله مجراها وكابرت إلى أطراف الباب الصغير فوجدت فاضل النار لم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فيالهفي على عروس دمشق التي لم تذكر محاسنها أسماء ولا الجيداء لقد كانت ست الشام فاستعبدها ملك النار حتى صارت جارية سوداء، ولقد وقفت بين ربوعها وقد التهبت أحشاؤها بالاضطرام وفطم جنين نبتها عن رضاع ثدي الغمام فاستسقيت لها بقول ابن أسعد حيث قال :

قال فغضب وتطير وقال لها ماقصتك ويحك انتبهي وغني مايسرني فغنت تقول :

كليب لعمري كان أكثر ناصرا ... وأكثر جرما منك ضرج بالدم

فقال لها ويحك ماهذا الغناء في هذه الليلة غني غير هذا فغنت تقول هذه الأبيات :

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم ... حتى تفانوا وريب الدهر عداء

تبكي فراقهم عيني فأرقها ... إن التفرق للمشتاق بكاء

قال فانتهرها وقال لها قومي إلى لعنة الله فقالت والله يامولاي لم يجر على لساني غير هذا وماظننت إلا أنك تحبه ثم إنها قامت من بين يديه وكان بين يديه قدح بلور كان أبوه يحبه فأصابه طرف ردائها فانكسر قال إبراهيم بن المهدي فالتفت إلي وقال ياعمي أرى أن هذا آخر أمرنا فقلت كلا بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرك فسمعت هاتفا يقول قضي الأمر الذي فيه تستفتيان فقال لي أسمعت ماسمعت ياعم فقلت ماسمعت شيئا وماهذا إلا توهم فاذا الصوت قد علا فقال ياعم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع قال فانصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدي به . وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه في أول درب منها فتطير لذلك فأنشده أبو الشمقمق يقول :

ماكان مندق اللواء لريبة ... تخشى ولا أمر يكون مبذلا

لكن هذا الرمح ضعف متنه ... صغر الولاية فاستقل الموصلا

فسر خالد وأمر لأبي الشمقمق بعشرة آلاف درهم . ودخل الحجاج الكوفة متوجها إلى عبدالملك فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه لوح فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال شاهت الوجوه وتبت الأيدي و بؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم وإني على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع وأشأم من يوم نحس مستمر وإني لأعجب من لوط وقوله لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد فأي ركن أشد من الله تعالى أوما علمتم ماأنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين وقد وليت عليكم أخي محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ماأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا في أهل اليمن فانه أمره أن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وقد أمرته أن يسيء إلى محسنكم وأن لايتجاوز عن مسيئكم وأنا أعلم أنكم تقولون بعدي لاأحسن الله له الصحابة وأنا معجل لكم الجواب لاأحسن الله عليكم الخلافة أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم . وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه ثم ذهب للصيد فاصطاد صيدا كثيرا فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال فقال لاحاجة لي به ولكن ائذن لي في الكلام فقال تكلم فقال أيها الملك إنك تلقيتني فضربتني وحبستني وتلقيتك فصدت وسلمت فأينا أشأم صباحا على صاحبه فضحك منه وأمر له بصلة .

وحكي أيضا أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت :

هذي الليالي علمنا أن ستطوينا ... فشعشعيتا بماء المزن واسقينا

قال فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات .

وحكي أن نور الدين محمودا وهمام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرج فتجاولا في الكلام ثم قال

محمود

محمود يامن درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم فقال له همام الدين هل نعيش إلى آخر هذا الشهر فإن العام كثير ، قال فأجرى الله على منطقهما ما كان مقدرا فى الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ومات الآخر قبل تمام العام .

وأما الفراسة فقد قال الله تعالى : إنّ فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وقال علىّ رضى الله تعالى عنه : ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه وقيل : أشار ابن عباس رضى الله تعالى عنهما على علىّ رضى الله تعالى عنه بشىء فلم يعمل به ثم ندم فقال : يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان فى الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته ، فأنفت نفسى منه ، فتفرّس ذلك منى فقرأ : واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، فندمت واستغفرت الله فى قلبى ، فتفرّس ذلك أيضا فقرأ : وهو الذى يقبل التوبة عن عباده .

وحكى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلا فقال أحدهما إنه نجار وقال الآخر إنه حدّاد فسألاه عن صنعته فقال كنت حدّادا وأنا الآن نجار .

وحكى أن شخصا من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسئلة فقال له اجلس فإنى أشم من كلامك رائحة الكفر فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل فوصل إلى القسطنطينية فدخل فى دين النصرانية قال من رآه ولقد رأيته متكئا على دكة وبيده مروحة يروّح بها عليه ، فقلت السلام عليك يافلان ، فسلم علىّ وتعارفنا ، ثم قلت له بعد ذلك : هل القرآن باق على حاله أم لا ؟ فقال لى لا أذكر منه إلا آية واحدة وهى قوله تعالى : ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، قال فبكيت عليه وتركته وانصرفت . وكان الحسن بن السقاء من موالى بنى سليم ولم يكن فى الأرض أحرز منه كان ينظر إلى السفينة فيحرز ما فيها فلا يخطىء ، وكان حرزه للمكيول والموزون والمعدود سواء ، كان يقول فى هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ، ويأخذ العود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطىء . وقالوا : إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشىء ما عند الله خير وأبقى فاعلم أن فى جواره وليمة ولم يدع إليها وإذا رأيت قوما يخرجون من عند قاض وهم يقولون ما شهدنا إلا بما علمنا فاعلم أن شهادتهم لم تقبل وإذا قيل للمتزوّج صبيحة البناء على أهله كيف ما تقدّمت عليه فقال الصلاح خير من كل شىء فاعلم أن امرأته قبيحة وإذا رأيت إنسانا يمشى ويلتفت فاعلم أنه يريد أن يحدث وإذا رأيت فقيرا يعدو ويهرول فاعلم أنه فى حاجة غنى ، وإذا رأيت رجلا خارجا من عند الوالى وهو يقول : يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع . ويقال : عين المرء عنوان قلبه . وكانوا يقولون : عظم الجبين يدل على البله وعرضه تدل على قلة العقل وصغره يدل على لطف الحركة وإذا وقع الحاجب على العين دلّ على الحسد والعين المتوسطة فى حجمها دليل الفطنة وحسن الخلق والمروءة والتى يطول تحديقها تدل على الحمق والتى يكسر طرفها تدل على خفة وطيش والشعر فى الأذن يدل على جودة السمع والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان . وكانت الفرس تقول : إذا فشا الموت فى الوحوش دل على ضيقة وإذا فشا فى الفأر دل على الخصب وإذا نعق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب وإذا توّقت دجاجة فجاوبها غراب خرب العمار والله أعلم بكل شىء ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا

سقى دمشق وأياما مضت فيها ... والطر السحب ساريها وغاديها
ولا يزال جنين النبت ترضعه ... حوامل المزن فى أحشا أراضيها
فما نضا حبها قلبى لنيربها ... ولا قضى نحبه ودّى لواديها
ولا تسليت عن سلسال ربوتها (٩٧) ولا نسيت مبيت جار جاريها

هذا وكم خائف قبل اليوم آويناه بها إلى ربوة ذات قرار وكم كان بها مطرب طير خرج بعد ما كان يطرب على عود وطار وبطل الجنك لما انقطعت أوتار أنهاره فلم يبق له مغنى وكسر الدف لما خرج نهر المغنية عن العنق واستسمح الناس من قال :

انهض إلى الربوة مستمتعا ... تجد من اللذات ما يكفى
فالطير قد غنى على عوده ... فى الروض بين الجنك والدف

وأصبحت أوقات الربوة بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيرة ولقد كان أهلها فى ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة فعبس بعد ذلك ثغر روضها الباسم وضاع من غير تورية عطره الباسم ولم ينتظر لزهره المنثور على ذلك الوشى المرقوم رسالة من النسيم سحر به وكيف لا وقد محى سجع للطوق من طروس تلك الأوراق النباتية هذا وكم عروس روض بدور معصمها النقش فلما انقطع نهرها صح أنها كسرت السوار وكم دولاب نهر بطل غناؤه على تشبيب النسيم بالقصب وعطلت نوبته من تلك الأدوار فوقفت أندب ذلك العيش الذى كان بذلك التشبيب موصولا وأنشد ولم أجد بعد تلك

وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البرّ والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين .

وأما النوم والسهر وماجاء فيهما ، فقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشرف أمتى حملة القرآن وأصحاب الليل » . وروى أن أم سليمان ابن داود عليهما الصلاة والسلام قالت له : يابنىّ لاتكثر النوم بالليل فان صاحب النوم يجىء يوم القيامة مفلسا . وكان زمعة بن صالح يصلى ليلا طويلا فاذا أسحر نادى أهله :

يا أيها الركب المعرسونا ... أكل هذا الليل ترقدونا

فيتواثبون بين باك وداع ومتضرّع ، فاذا أصبح نادى: * عند الصباح يحمد القوم السرى *

وأنشدوا :

يا أيها الراقد كم ترقد ... قم ياحبيبى قد دنا الموعد
وخذ من الليل وساعاته ... حظا إذا ماهجع الرقد
من نام حتى ينقضى ليله ... لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذى الألباب أهل التقى ... قنطرة الحشر لكم موعد

وقيل : إن نومة الضحى تورث الغم والخوف ونومة العصر تورث الجنون ، وأنشد بعضهم :

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى ... غموما ونومات العصير جنون

زعن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يوما بابنه وهونائم نومة الضحى فوكزه برجله وقال له قم لاأنام الله عينك أتنام فى ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد أوماسمعت ماقالت العرب إنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة . والنوم على ثلاثة أنواع : نومة الخرق ونومة الخلق ونومة الحق ، فنومة الخرق نومة الضحى ونومة الخلق هى التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بها أمته فقال : « قيلوا فانّ الشياطين لاتقيل » ونومة الحق النومة بعد العصر لاينامها إلاسكران أومجنون . وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده : لاتصطبح بالنوم فانه شؤم ونكد . وقال الثورى لطبيب : دلنى على شىء إذا أردت النوم جاءنى فقال ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله . وكان طاوس يقول : لأن تختلف السياط على ظهرى أحبّ إلىّ من أن أنام يوم الجمعة والإمام يخطب . وكان شدّاد ابن أوس يتلوّى على فراشه كالحية على المقلى ويقول اللهم إن النارمنعتنى النوم ، وأنشدوا فى المعنى:

غيرت موضع مرقدى ... يوما ففارقنى السكون
قل لى فأوّل ليلة ... فى حفرتى أنى أكون

وأنشد أبودلف :

أمالكى ردّى علىّ رقاديا ... ونومى فقد شردته عن وساديا
أما تتقين الله فى قتل عاشق ... أمت الكرى عنه فأحيا اللياليا

وأنشد أبوغانم الثقفى :

رقدت رقاد الهيم حتى لوانى ... يكون رقادى مغنما لغنيت

فقيل لمن هذا ؟ فقال لرقاد من رقاد العرب . وقيل إن نوم عبود يضرب به المثل ، وكان عبود هذا عبدا أسود قيل إنه نام أسبوعا ، وقيل إنه تماوت على أهله وقال اندبونى لأعلم كيف تندبونى إذا أنامت ، فسجى ونام وتنبب فاذا هو قد مات .

النوبة المطربة إلى مغنى الربوة دخولا : لم لا أشبب بالعيش الذى انقرضت ... أوقاته وهو باللذات موصول
ونقص يزيد فاحترق ولاينكر لزيد الحريق على صنعه وانقطع ظهر نور فأهلك الحرث والنسل بقطعه وذاب بردى وحمى مزاجه لما شعر بالحريق ولم يبق فى ثمره إلا شنب برد حصبائه مابل الريق وانقطع وقد اعتل من غيضه بايناس ولم يظهر عند قطعه خلاف ولا بان آس وجرى الدم من شدة الطعن بالقنوات وكسرت قناة المرجة فذاقت مرّ العيش بعد حلاوة تلك القطوف الدانيات وكسر الخلخال لما قام الحرب على ساقه وسقط رأس كل غصن على الجبهة فهاجت البلابل على أوراقه وخر نهر حمص خاضعا وتكدّر بعد ما كان يصفو لنا قلبه وافتقر أغنياء غصونه من حبات تلك الثمار فصاروا لايملكون حبه طالما كان أهله فاكهين ولكنهم اعترفوا بذنوبهم فقالوا : وكنا نخوض مع الخائضين وذبلت عوارض تلك الجزيرة التى كانت على وجنات شطوطه مستديرة فقلنا بعد عروس دمشق وحماتها لاحاجة لنا بحمص والجزيرة فيالهفى على منازل الشرف وذلك الوادى الذى نعق به غراب البين وياشوق إلى رأس تلك المرحلة التى كانت مجالسنا قبل اليوم على الرأس والعين وأما هنا وقد اسودّت الشقراء فأمست كابية لما حصل على ظهرها من الجولان وبانسها العكس فأضحت باكية على فراق الأبلق

وأما الرؤيا فقد قيل فيها أقاويل . وهو أنهم قالوا : إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح ومنهم من زعم أن ما يجده الانسان فى نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية والطبائع وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط وأن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته فالذى يغلب عليه الصفراء يرى بحورا وعيونا ومياها كثيرة ويرى أنه يسبح ويصيد سمكا ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى فى منامه أجداثا وأمواتا مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة ومن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهى والثياب المصبغة والذى يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزءا من النبوة وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم أول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . والرؤيا على ضربين فمنهم من يرى رؤيا فتجىء على حالها لا تزيد ولا تنقص ومنهم من يرى الرؤيا فى صورة مثل ضرب له .

فمن ذلك ما حكى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى الجنة غرفا فقال لمن هذه فقيل لأبى جهل ابن هشام فقال ما لأبى جهل والجنة والله لا يدخلها أبدا قال فأتاه عكرمة ولده مسلما فتأولها به وكذلك تأول فى قتل الحسين لما رأى أن كلبا أبقع يلغ فى دمه وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عاما وكذلك حين قال لأبى بكر رضى الله تعالى عنه إنى رأيت كأنى رقيت أنا وأنت درجا فى الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه يا رسول الله أقبض بعدك بسنتين ونصف ورأت عائشة رضى الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار فى حجرتها فأولها أبوها بموته وموت النبى صلى الله عليه وسلم وموت عمر رضى الله تعالى عنهما ودفنهم فى حجرتها فكان الأمر كذلك .

وحكى أن أم الشافعى رضى الله تعالى عنه لما حملت به رأت كأن المشترى خرج من فرجها وانقضّ بمصر ثم تفرق فى كل بلد قطعة فأول بعالم يكون بمصر وينتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك .

وحكى أيضا أن عاملا أتى عمر رضى الله تعالى عنه فقال رأيت الشمس والقمر اقتتلا فقال له عمر مع من كنت ؟ قال مع القمر فقال مع الآية الممحوة والله لا وليت لى عملا فعزله ، ثم اتفق أن عليا رضى الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية .

وأما من مهر فى تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين جاءه رجل فقال له رأيت كأنى أسقى شجرة زيتون زيتا فاستوى جالسا فقال ما التى تحتك قال علجة اشتريتها وفى رواية جارية وأنا أطؤها فقال أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدها أمه ، وجاءه رجل فقال رأيت كأن فى يدى خاتما أختم به فروج النساء وأفواه الرجال فقال له أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء ، وجاءه رجل فقال رأيت جارية لى قد ذبحت فى بيت من دارها فقال هى امرأة نكحت فى ذلك البيت وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتمّ لذلك ثم بلغه أن الرجل قدم فى تلك الليلة وجامع زوجته فى ذلك البيت ، وجاء رجل ومعه جراب فقال له رأيت فى النوم كأنى أسد الزقاق سدا وثيقا شديدا فقال له أنت رأيت هذا قال نعم فقال لمن حضره ينبغى أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان وربما يكون فى جرابه آلة الخنق فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتارا وحلقا فسلموه إلى السلطان ، وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له رأيت فى النوم كأن القمر دخل

واخضر ذلك الميدان ، يامولانا لقد بكى المملوك من الأسف بدمعة حمراء على ماجرى من أهل الشهباء هل فى الميدان على الشقراء حتى كذب الناس من قال : قل للذى قايس بين حلب وجلق بمقتضى عيانها ما تلحق الشهباء فى حلبتها تعثر الشقراء فى ميدانها فقال لسان الحال والله ما كذب ولكنه قد يخبو الزناد وقد يكبو الجواد وقد يصاب الفارس بالعين التى تغمز قناته غمزا وأنشد :

ومن ظنّ أن سيلاقى الحروب
وأن لا يصاب فقد ظنّ عجزا

ودخلت بعد ذلك إلى البلد فوجدت على أهله من دروع الصبر سكينة فقلت يارب مكة والحرم انظر إلى أحوال أهل المدينة ولكن ما دخلت بها إلى حمام إلا وجدته قد ذاق لقطع الماء عنه حماما وأعلم القوّام والقاعدون بأرضه أنها ساءت مستقرا ومقاما وتلا على بيت ناره قلنا يا نار كونى بردا وسلاما فحين أن أنشد قول ابن الجوزى من كان وكان :

الحارّ عندك بارد
والنهر أمسى منقطع
والعين لا ماء فيها
ما حيلة القوام

وأتيت بعد ذلك إلى الجامع الأموى فإذا هو لأشتات المحاسن جامع وأتيته طالبا لبديع حسنه فظفرت بالاستضاءة والاقتباس من ذلك النور الساطع وتمسكت بأذيال حسنه لما نشقت تلك النفحات السحرية وتشوقت إلى النظم والنثر لما نظرت إلى تلك الشفور النحية وآنست من جانب طوره نارا فرجع إلىّ ضياء حسى

واندهشت لذلك الملك السليماني وقد زها بالبساط والكرسي وقلت هذا ملك سعد من وقف في خدمته خاشعا وشقي من لم يحس
بساطه و بأنه طائعا ولقد صدق من قال : أرى الحسن مجموعا بجامع جلق وفي صدره معنى الملاحة مشروح

في الثريا ونادى مناد من خلق أن ائت ابن سيرين فقصي عليه فتقلصت يده وقال ويلك كيف رأيت هذا فأعادت عليه فقال لأخته هذه تزعم أني أموت لسبعة أيام وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع ومات بعد سبعة أيام ، وجاءه رجل فقال رأيت كأني آخذ البيض وأقشره فآكل بياضه وألقي صفاره فقال إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان كذلك .

وحكي أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصي وقال يموت الحسن وأموت بعده وهو أشرف مني فمات الحسن ومات هو بعده بمائة يوم .

وحكي أن رجلا رأى عيسى عليه السلام فقال له يانبي الله صلبك حق قال نعم فعبره على بعضهم فقال تكذب رؤياك بقوله تعالى ـ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ـ ولكن هو عائد على الرائي فكان كذلك . ورأى ابنة مغيث آت فقال لها :

لك البشرى بولد أشبه شيء بالأسد إذا الرجال في كبد
تغالبوا على بلد كان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبي عبيد وذلك في عام الهجرة . وقال رجل لسعيد بن المسيب رأيت كأني بلت خلف المقام أربع مرات قال كذبت لست صاحب هذه الرؤيا قال هو عبد الملك فقال يلي أربعة من صلبه يلون الخلافة . وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه رأيت عليا رضي الله تعالى عنه في المنام فقال لي ناولني كتبك فناولته إياها فأخذها و بددها فأصبحت أخا كآبة فأتيت الجعد فأخبرته فقال سيرفع الله شأنك وينشر علمك . وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من رآني في منامه فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي » وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال رأيت كأن رأسي قد قطع وأنا أنظر إليه فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بأي عين كنت تنظر إلى رأسك فلم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن توفي وأولوا رأسه به بنبيه ونظره إليه باتباع سنته . وقال رجل لعلي بن الحسين رأيت كأني أبول في يدي فقال تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع . وقال أبو حنيفة رضي الله عنه رأيت كأني نبشت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فضممت عظامه إلى صدري فهالني ذلك فسألت ابن سيرين فقال ماينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا قلت أنا رأيتها قال إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك صلى الله عليه وسلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم «الرؤيا الصالحة بشارة المؤمن بماله عند الله من الكرامة في الدنيا والآخرة » وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال تضرعت إلى ربي سنة أن يريني أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه فسألته فقال لولا رحمة الله لهلك أبوك إنه سألني عن عقال بعير الصدقة فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال فعل هذا بالتقي الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهم أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الحادي والستون في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة مالم يستبح بها محظور وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل في الفقه فقال علمكم الله ذلك فإنه قال وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وكان صلى الله عليه وسلم

فإن يتغالى بالجوامع معشر فقل لهم باب الزيادة مفتوح

معبد له قصبات السبق ولكن كسرت عند قطع الماء قناته ورأيته في القبلة من شدة الظمأ وقد قويت من ضجيج المسلمين أناته وخفض النسر جناح الذل وود بأن يكون النسر الطائر وطمست مقل تلك المصابيح فاندهش لذلك الناظر هذا وكم نظرت إلى حجر مكرم ليس له بعد إكسير الماء جابر واختفت نجوم تلك الأطباق التي كانت كالقلائد في جيد الغسق ومرت حلاوة نارها بعد ماركبت طبقا عن طبق وأصبح دوحه وهو بعد تلك النضارة والنعيم ذابل وكادت قناديله وقد سلبت لفقد الماء أن تقطع السلاسل ولم تشر الناس بأصابعها إلى فصوص تلك الخواتم الذهبية ولم يبق على ذلك الصحن طلاوة بعد الماء وحلاوة سكبه الطيبة وتذكر النسر عند قطع الماء أوقاته بالروضة وتذكرت أفراخه لما ذكر أمه تلك النيضة وأنشد لسان حاله :

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر

إذا

ودت العروس أن تكون مجاورة لحاتها لتبل ريقها برحيق

إذا أراد غزوة ورّى بغيرها وكان يقول «الحرب خدعة» ولما أراد عمر رضى الله تعالى عنه قتل الهرمزان استسق ماء فأتوه بقدح فيه ماء فأمسكه فى يده واضطرب فقال له عمر لا بأس عليك حتى تشربه فألقى القدح من يده فأمر عمر بقتله فقال أولم تؤمنى قال كيف أمنتك قال قلت لا بأس عليك حتى تشربه وقولك لا بأس عليك أمان ولم أشربه فقال عمر قاتلك الله أخذت منى أمانا ولم أشعر . وقيل كان دهاة العرب أربعة كلهم ولدوا بالطائف معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والسائب ابن الأقرع . وكان يقال الحاجة تفتح أبواب الحيل . وكان يقال ليس العاقل الذى يحتال للأمور إذا وقع فيها بل العاقل الذى يحتال للأمور أن لا يقع فيها . وقال الضحاك بن مزاحم لنصرانى لو أسلمت فقال مازلت محبا للاسلام إلا أنه يمنعنى منه حبى للخمر فقال أسلم واشربها فلما أسلم قال له قد أسلمت فان شربتها حددناك وإن ارتددت قتلناك فاختر لنفسك فاختار الاسلام وحسن إسلامه فأخذه بالحيلة . وقيل دليت من السماء سلسلة فى أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التى فى وسط بيت المقدس وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مدّيده إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذبا لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة فارتفعت وذلك أن رجلا أودع رجلا جوهرة فخبأها فى مكانه فى عكازة ثم إن صاحبها طلبها من الذى أودعها عنده فأنكرها فتحا كما عند السلسلة فقال المدعى اللهم إن كنت صادقا فلتدن منى السلسلة فدنت منه فمسها فدفع المدعى عليه العكازة للمدعى وقال اللهم إن كنت تعلم أنى رددت الجوهرة إليه فلتدن منى السلسلة فدنت منه فمسها فقال الناس قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم فارتفعت بشؤم الخديعة وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن احكم بين الناس بالبينة واليمين فبقى ذلك إلى قيام الساعة وكان المختار بن أبى عبيد الثقفى من دهاة ثقيف وثقيف دهاة العرب قيل إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد ثم دعا برجل من خواصه فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له إن رأيت الأمر عليكم فأرسلها ثم قال للناس إنى لأجد فى محكم الكتاب وفى اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب تأتى فى صور الحمام تحت السحاب . فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة فأرسلها فتصايح الناس الملائكة الملائكة وحملوا فانتصروا وقتلوا ابن زياد . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبى إحداهما فأكله فاختصما فى الصبى الباقى إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال كيف أمركما فقصتا عليه القصة فحكم به للكبرى منهما فاختصما إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال ائتونى بسكين أشق الغلام نصفين لكل منهما نصف فقالت الصغرى أتشقه يانبى الله قال نعم قالت لا تفعل ونصيبى فيه للكبرى فقال خذيه فهو ابنك وقضى به لها» وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وقال يانبى الله إن لى جيرانا يسرقون أوزى فلا أعرف السارق فنادى الصلاة جامعة ثم خطبهم وقال فى خطبته وإن أحدكم ليسرق أوز جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه فمسح الرجل رأسه فقال سليمان خذوه فهو صاحبكم . وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة وكان شابا جميلا فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما فلما رأى المغيرة ذلك الشاب وعاين جماله علم أنها تؤثره عليه فأقبل على الفتى وقال لقد أوتيت جمالا فهل عندك غير هذا قال نعم فعدد محاسنه ثم سكت فقال المغيرة كيف حسابك مع

الأمن إنما نظرت إلى عاصى المحمدية وقد دخل جناتها ونظرت إلى فوار أبى نواس وقد انقطع قلبه بعد ما كان يخب ويتجرأ وكاد أن ينشد من شعره لعدم الماء: ألا فاسقنى خمرا، ودخلت إلى الكناسة وقد علا بها غبار الحزن فتنهدت من الأسف على كل ناهدة ورثيت للنساء وقد فقدن بعد تلك الأنعام المائدة واستطردت إلى باب البريد فوجدت خيول الماء الجارية قد انقطعت عن تلك المراكز ونظرت إلى السراج الأكبر وقد انعقد لسانه لما شعر من ممدوح الماء بعدم تلك الجوائز ونظرت إلى أهل الصلاة وعليهم فى هذه الواقعة من الصبر دروع وقد استعدوا بسهام من الأدعية أطلقوها عن قسى الركوع مريشة بالهدب من جفن ساهر متصلة أطرافها بدموع ونظرت إلى الريان من العلم وقد اشتد لفقد الماء ظماه وتبلد ذهنه حتى صار مايعرف من أين الطريق إلى باب المياه ومشيت بحكم القضاء إلى الشهود فوجدت كلا منهم قد راجع سهاده وطلق وسنه وتأملت أهل الساعات وقد صار عليهم كل يوم بسنة ونزلت فى ذلك الوقت من الساعات إلى الدرج فى دقيقة فانتهيت إلى مجاز طريق الفوار فوجدته كأن لم يكن له حقيقة كم وردته وهو كأنه سنان يطعن فى صدر الظماء أو شجرة كدناء تقول إنها طوبى لما ظهرت وأصلها ثابت وفرعها فى السماء أو مغترف بيده الماء وقد أفاض عليه عطاياه فيضا فرفع له لأجل ذلك فوق قناته راية بيضاء أو عمود وفاء أشارت الناس إليه بالأصابع أو ملك

طالب السماء بودائع حتى كان إكليل الجوزاء له من جملة البضائع أو أبيض طائر علا حتى قلنا إنه يلتقط حبات النجوم الثواقب أو شجاع ذو همة عالية يحاول ثأرا عند بعض الكواكب نخفض لفقد الماء مناره وخفى بعد ما كان به أشهر من علم وجدع أنفه وطالما ظهر وفى عرنينه شمم فقلت لست أنسى الفوار وهو ينادى :

غيض مائى وعطل الدهر حالى

فتمنيت من لهيبى بأنى أشترى غيضه بروحى ومالى

فلا والله ما كانت إلا أيسر مدة حتى رجع الماء إلى مجاريه وابتسم ثغر دمشق عن شنب الرى بعدما نشف ريقه فى فيه هذا وقد خمدت نار الحرب وقعدت بعدما قامت على ساق وقدم وبطلت آلتها التى كانت لها على تحريك الأوتار وجس الميدان نغم واعتقل الرمح بسجن السلم وعلى رأسه لواء الحرب معقود وهجعت مقل السيوف فى أجفانها لما علمت أن الزيادة فى الحد نقص فى المحدود وفاضت غدران الرحمة على رياض الأمن فظهر لها من المسرة نبات حسن فالحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وبعد فالمعذرة من فهاهة هذه الرسالة التى هى فى رياض الأدب باقلية والصفح عن علوها وقصر بلاغتها بين يدى تلك المواقف السحبانية وليكون محمولا على متن الحلم كلامها الموضوع فقد علم الله أنها صدرت من قلب مكسور وفؤاد مصدوع

أهلك قال ما يخفى علىّ منه شئ وإنى لأستدرك منه أدق من الخردل فقال المغيرة لكنى أضع البذرة فى بيتى فينفقها أهلى على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألونى غيرها فقالت المرأة والله لهذا الشيخ الذى لا يحاسبنى أحب إلىّ من هذا الذى يحصى علىّ مثقال الذرة فتزوجت المغيرة . وبلغ عضد الدولة أن قوما من الأكراد يقطعون الطريق ويقيمون فى جبال شامخة ولا يقدر عليهم فاستدعى بعض التجار ودفع إليه بغلا عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب فى ظروف فاخرة ودنانير وافرة وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة فنزل القوم فأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهم بالبغل وصعد به الجبل فوجد به الحلوى فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه فاستدعاهم فأكلوا على مجاعة فماتوا عن آخرهم وأخذ أرباب الأموال أموالهم . وأتى لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة فأقامهما بين يديه ثم دعا بشربة ماء فجئ له بكوز فرماه بين يديه فارتاع أحدهما وثبت الآخر ، فقال للذى ارتاع اذهب إلى حال سبيلك ، وقال للآخر أنت أخذت المال وتلقدت به وتهدده فأقر فسئل عن ذلك فقال إن اللص قوى القلب والبرئ يجزع ولو تحرك عصفور لفزع منه . وقصد رجل الحج فاستودع إنسانا مالا فلما عاد طلبه منه فجحده المستودع فأخبر بذلك القاضى إياسا فقال أعلم بأنك جئتنى قال لا قال فعد إلى بعد يومين ، ثم إن القاضى إياسا بعث إلى ذلك الرجل فأحضره ، ثم قال له اعلم أنه قد تحصلت عندى أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإنى مسافر سفرا بعيدا وأريد أن أودعها عندك لما بلغنى من دينك وتحصين منزلك فقال حبا وكرامة قال فاذهب وهيئ موضعا للمال وقوما يحملونه فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة ، فقال له القاضى إياس امض إلى صاحبك وقل له ادفع إلىّ مالى وإلا شكوتك للقاضى إياس ، فلما جاء وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه فأخذه وأتى إلى القاضى إياس وأخبره ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التى ذكرها له القاضى ، فقال له القاضى بعد أن أخذ الرجل ماله منه بدا لى ترك السفر امض لشأنك لا أكثر الله فى الناس مثلك ، ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للداخل عليه ليقتله إنى لأدلك على شئ فيه غناك لوجوب حقك علىّ قال وما هو قال الصندوق الفلانى ، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر فأخرج الصندوق فاذا فيه حق فيه حب ورقعة مكتوب فيها من تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أبكار وكان لشيرويه غرام فى الباه فتناول منه حبة فهلك من ساعته فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله . ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء فقال له الرشيد لم تخلفت فقال عاقنى عائق فقال اقرءوا عليه كتاب البيعة فقال يا أمير المؤمنين هذه البيعة فى عنقى إلى قيام الساعة فلم يفهم الرشيد ما أراد وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس . وقال المغيرة بن شعبة لم يخدعنى غير غلام من بنى الحرث بن كعب فانى ذكرت امرأة منهم لأتزوجها فقال أيها الأمير لا خير لك فيها فقلت ولم قال رأيت رجلا يقبلها فأعرض عنها فتزوجها الفتى فلمته وقلت ألم تخبرنى أنك رأيت رجلا يقبلها قال نعم رأيت أباها يقبلها . وأتى رجل إلى الأحنف فلطمه فقال ما حملك على هذا فقال جعل لى جعل على أن ألطم سيد بنى تميم فقال لست بسيدهم

عليك

وذهن ضعيف ، وليس لكبير ضعفه عاصم ولا نافع ، وراحلة فكر أمست وهى عند سيرها إلى غايات المعانى ضالع :

فسيروا على سيرى فإنى ضعيفكم   وراحلتى بين الرواحل ضالع

عليك بحارثة بن قدامة فإنه سيدهم ، فمضى إليـه فلطمه فقطعت يده . وقال الشعبى : وجهنى عبد الملك إلى ملك الروم فقال لى : من أهل بيت الخلافة أنت ؟ قلت : لا ولكنى رجل من العرب فكتب إلى عبد الملك رقعة دفعها إلىّ ، فلما قرأها عبد الملك قال لى : أتدرى مافيها ؟ قلت : لا . قال فيها : العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره . قال : أتدرى ماأراد بهذا ؟ قلت لا قال : حسدنى عليك فأراد أن أقتلك ، فقلت : إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئا إلا سألنى عنه وأنا أجيبه ، فبلغ ملك الروم ماقاله عبد الملك للشعبى ، فقال لله أبوه ماعدا مافى نفسى.

ولما ولى عبد الملك بن مروان أخاه بشرا الكوفة وكان شابا ظريفا غزلا بعث معه روح بن زنباع وكان شيخا متورّعا فثقل على بشر مرافقته فذكر ذلك لندمائه فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلا فى خفية ، فكتب على حائط قريب من مجلسه هذه الأبيات :

ياروح من لبنيات وأرملة   إذا نعاك لأهل المغرب الناعى
إنّ ابن مروان قد حانت منيته   فاحتل بنفسك ياروح بن زنباع

فتخوّف من ذلك وخرج من الكوفة ، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك ، فاستلقى على قفاه من شدّة الضحك وقال : ثقلت على بشر وأصحابه فاحتالوا لك .

ومن الحيل الظريفة ماحكى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما فتح خيبر وأعرس بصفية وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن علاط السلمى وكان أوّل من أسلم فى تلك الأيام وشهد خيبر ، فقال : يارسول الله إنّ لى بمكة مالا عند صاحبتى أمّ شيبة ، ولى مال متفرّق عند تجار مكة فأذن لى يارسول الله فى العود إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامى إليهم فإنى أخاف إن علموا بإسلامى أن يذهب جميع مالى بمكة فأذن لى لعلى أخلصه ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله إنى أحتاج إلى أن أقول ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل وأنت فى حلّ . قال الحجاج : فخرجت فلما انتهيت إلى الثنية ثنية البيضاء وجدت بها رجالا من قريش يتسمعون الأخبار وقد بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إلى خيبر ، فلما أبصرونى قالوا : هذا لعمر الله عنده الخبر أخبرنا ياحجاج فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم قد سار إلى خيبر ؟ قال : قلت إنه سار إلى خيبر وعندى من الخبر مايسركم . قال : فأحدقوا حول ناقتى يقولون إيه ياحجاج . قال : فقلت هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وأسر محمد ، وقالوا لانقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم . قالوا فصاحوا بمكة : قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم . قال : فقلت أعينونى على جمع مالى من غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر فأغتنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك فقاموا معى فجمعوا لى مالى كأحسن ما أحبّ ، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل علىّ حتى وقف إلى جانبى وأنا فى خيمة من خيام التجار ، فقال ياحجاج ماهـذا الخبر الذى جئت به . قال : فقلت وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السرّ ؟ فقال : نعم والله . قال : قلت استأخر عنى حتى ألقاك على خلاء فإنى فى جمع مالى كما ترى فانصرف عنى حتى إذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة وأجمعت على الخروج لقيت العباس فقلت له احفظ علىّ حديثى ياأبا الفضل فإنى أخشى أن يتبعونى فاكتم علىّ ثلاثة أيام ثم قل ماشئت . قال : لك علىّ ذلك . قال : قلت والله

هذا وكم توالت للملوك فى طريق الرمل من عقله وكم ذاق من قطاع الطريق أنكادا حتى ظن أنه لعدم النصرة ليس له إلى الاجتماع وصلة وكلما زعق عليه غراب تألم لسهام البين وفقد مصر التى هى نعم الكنانة وأنشد وقد تحير فى الرمل لفراق ذلك التخت الذى أعز الله سلطانه من زعقة الغراب بعد الملتقى :

فارقت مصرا وبها أحبابى
وفى طريق الرمل صرت حائرا
مروعا من زعقة الغراب

واستقبل الملوك بعد ذلك بلاد الشام فبئس الحال وبئس الاستقبال فوالرحمن ماوصل بها إلى مكان إلا وجده قد وقعت فيه الواقعة واشتدّ القتال وحصدوا سنبل الرشاد فدرست فلا أعيد لعيد حربهم دروس وأداروا رحى الحرب بقلوب كالأحجار فطحنت عند ذلك الرؤوس . وأنشد لسان الحال :

من كل عاد كعاد فى تجبره
من فوق ذات عماد شادها لإرم
لايجمعون على غير الطرائم إذا
تجمعوا كحباب الراح وانتظموا

وانتهت الغاية بالملوك إلى أنه شلح بقرب الكسوة فى الشتاء ، وانتظرت ملك الموت وقد أمسيت

لى مهجة فى النازعات وعبرة   فى المرسلات وفكرة فى هل أتى

هذا والليل قد انطفأت مصابيح أنواره وصعصع حتى

أيقنت بموت الصبح وقلت : لو كان فى قيد الحياة تنفس فذهب المملوك وقد تزوّد عند قسم الغنيمة بسهم فخرج ولم يجد له تعديلا

ولكنه صبر على الألم بعد ما كاد يدمى من الوهم ولم يلق له مجبرا لما قوى ألمه وضعف منه الحيل إلا أنه

دخل تحت ذيل الليل فوصل إلى البلد وقد ودّ يومه لو تبدّل بالأمس ولم يسلم له فى وقعة الحرب غير الفرس والنفس ولكنه أنشد :

ما تفعل الأعداء فى جاهل ما يفعل الجاهل فى نفسه

فأعاذ الله مولانا وبلاده من هذه القيامة القائمة وبدأ به فى الدنيا ببراعة الأمن وفى الآخرة بحسن الخاتمة .

قلت : قد استوعبت هنا تراجم كتاب الإنشاء ونبذة من فوائدهم ونبذة مما تخيرته من إنشائهم وقد تعين أن أذكر بعد ذلك ما يحتاج إليه المنشئ الكامل الأدوات من المحاسن اللائقة به وبالله المستعان قال أبو حيان التوحيدى: يجب على المنشئ أن يكون حافظا لكتاب الله لينتزع من آياته الشريفة وأن يعرف كثيرا من السنة والأخبار والتواريخ والسير ويحفظ كثيرا من الرسائل والكتب ويكون متناسب الألفاظ متشاكل المعانى عارفا بما يحتاج إليه ماهرا فى نظم الشعر ، نظيف الثوب ، لطيف المركب ، ظريف الغلام ، ليق الدواة ، حادّ السكين ، الخف

متوددا إلى الناس ، مخالطهم غير متكبر عليهم ، دمث الأخلاق ، رقيق الحواشى ، ترف الأطراف ، عذب السجايا ، حسن

ما ترك ابن أخيك إلا عروسا على ابنة ملكهم يعنى صفية وقد افتتح خيبر وغنم ما فيها وصارت له ولأصحابه . قال : أحقّ ما تقول يا حجاج ؟ قال : قلت إى والله ولقد أسلمت وما جئت إلا مسلما لآخذ مالى خوفا من أن أغلب عليه فإذا مضت ثلاثة فأظهر أمرك فهو والله على ما تحبّ . قال فلما كان فى اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رأوه قالوا يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحرّ المصيبة . قال : كلا والذى حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروسا على ابنة ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ولقد دخل عليكم مسلما ، وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمدا وأصحابه ليكون معهم قالوا : تفلت عدوّ الله أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن . قال : ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك ، فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله .

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الخندق وقصدوا المدينة وتظاهروا وهم فى جمع كثير وجمّ غفير من قريش وغطفان وقبائل العرب وبنى النضير وبنى قريظة من اليهود ونازلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ، واشتدّ الأمر واضطرب المسلمون ، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى فى قوله تعالى - إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا - فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفانى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذل عنا إن استطعت فإنّ الحرب خدعة ، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان نديما لهم فى الجاهلية ، فقال يا بنى قريظة قد علمتم ودّى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم . قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إنّ قريشا وغطفان ليسوا كأنتم فإنّ البلد بلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه إلى غيره وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وأموالهم وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا . قالوا : أشرت بالرأى ، ثم أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حرب وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش قد علمتم ودّى لكم وفراقى محمدا وأنه قد بلغنى أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموه علىّ قالوا نعم قال : اعلموا أن معشر يهود بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على نقض العهد الذى بيننا وبينك فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنسلمهم إليك فتضرب رقابهم ثم نكون معك على من بقى منهم فتستأصلهم فأرسل يقول نعم فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس بنى غطفان إلى بنى قريظة يقولون لهم : إنا لسنا بدار مقام وقد هلك

المحاضرة ، مليح النادرة ، غير قنف ولا متجرف ولامتكلف الألفاظ الغريبة ، ولا متعسف اللغة العويصة .

[آداب الكتابة] روى الشعبي أنه قال : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كتب أولها باسمك اللهم فنزلت سورة هود وفيها بسم الله مجراها ومرساها فكتب بسم الله ثم نزلت سورة بني إسرائيل وفيها : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت سورة النمل وفيها : إنه من سليمان و إنه بسم الله الرحمن الرحيم فكتبها ، وروى أن فصل الخطاب الذى أعطيه داود عليه السلام أما بعد . وروى أن أوّل من قالها كعب ابن لؤى وهو أوّل من سمى يوم الجمعة . وعن جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا كتب أحدكم كتابا فليترّ به فان التراب مبارك وهو أنجح » وروى عنه عليه الصلاة والسلام « أنه كتب كتابين إلى قريتين فأترب أحدهما ولم يترب الآخر فأسلمت القرية التى أترب كتابها » . (وقال الحسن بن وهب) كاتب رئيسك بما يستحق ومن دونك بما يستوجب وكاتب صديقك بما تكاتب به حبيبك فان غزل المودّة أرقّ من غزل الصبابة . ورأيت فى تذكرة الوداعى أن القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز كان إذا كتب كتابا بدأ فى ترسله بالبسملة لتم بركتها سائر الكتاب ورمله ويخزن ذلك الرمل ويحترز عليه .

الخف والحافر فاعتدّوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ فيما بيننا و بينه فأرسلوا يقولون لهم إن اليوم يوم السبت وهو يوم لانعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا فإنا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتدّ عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا به ، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان والله إن الذى حدّثكم به نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون إنا لاندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا فقالت بنوقريظة حين انتهت إليهم الرسل إن الكلام الذى ذكره نعيم بن مسعود لحق وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا فان رأوا فرصة انتهزوها و إن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم و بين الرجل فى بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان أنا لانقاتل حتى تعطونا رهنا ، فأبوا عليهم ، فخذل الله تعالى بينهم وأرسل عليهم الريح فتفرّقوا وارتحلوا وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التى عمّ نفعها وحسن وقعها .

وأما ماجاء فى التيقظ والتبصر فى الأمور ، فقد قالت الحكماء : من أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ أيس عدوّه من كيده له وقطع عنه أطماع الماكرين به . وقالوا : اليقظة حارس لاينام وحافظ لايغسام وحاكم لايرتشى فمن تدرّع بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر وقيل إن كسرى أنوشروان كان أشدّ الناس تطلعا فى خفايا الأمور وأعظم خلق الله تعالى فى زمانه تفحصا و بحثا عن أسرار الصدور وكان يبث العيون على الرعايا والجواسيس فى البلاد ليقف على حقائق الأحوال و يطلع على غوامض القضايا فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب والمصلح فيجازيه بالإحسان و يقول متى غفل الملك عن تعرف ذلك فليس له من الملك إلا اسمه وسقطت من القلوب هيبته .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ليلة من الليالى يطوف يتفقد أحوال المسلمين فرأى بيتا من الشعر مضروبا لم يكن قد رآه بالأمس فدنا منه فسمع فيه أنين امرأة ورأى رجلا قاعدا فدنا منه وقال له من الرجل فقال له رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله ، قال فما هذا الأنين ؟ قال امرأة تمخض قد أخذها الطلق ، قال فهل عندها أحد ، قال لا ، فانطلق عمر لرجل لايعرفه فجاء إلى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب بنت فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنهما هل لك فى أجر قد ساقه الله تعالى لك ، قالت وماهو ؟ قال امرأة تمخض ليس عندها أحد ، قالت إن شئت ، قال فخذى معك مايصلح للمرأة من الخرق والدهن وائتنى بقدر وشحم وحبوب ، فجاءت به فحمل القدر ومشت خلفه حتى أتى البيت ، فقال ادخلى إلى المرأة ، ثم قال للرجل أوقد لى نارا ، ففعل ، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها ، وولدت المرأة ، فقالت أم كلثوم رضى الله تعالى عنها بشر صاحبك ياأمير المؤمنين بغلام ، فلما سمعها الرجل تقول ياأمير المؤمنين ارتاع وخجل وقال واخجلتاه منك ياأمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك ، قال ياأخا العرب من ولى شيئا من أمور المسلمين ينبغى له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره فانه عنها مسئول ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة ، ثم قام عمر رضى الله تعالى عنه

وأخذ القدر من فوق النار وحملها إلى باب البيت وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة ، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه للرجل قم إلى بيتك وكل مابقى فى البرمة وفى غد ائت إلينا ، فلما أصبح جاءه فجهزه بما أغناه به وانصرف ، وكان رضى الله تعالى عنه من شدة حرصه على تعرّف الأحوال وإقامة قسطاس العدل وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعسّ بنفسه ويباشر أمور الرعية سرا فى كثير من الليالى ، حتى إنه فى ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى فى بعض البيوت ضوء سراج وسمع حديثا ، فوقف على الباب يتجسس ، فرأى عبدا أسود قدّامه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة ، فهمّ بالدخول من الباب فلم يقدر من تحصين البيت فتسوّر على السطح ونزل إليهم من الدرجة ومعه الدرّة ، فلما رأوه قاموا وفتحوا الباب وانهزموا فمسك الأسود ، فقال له ياأمير المؤمنين قد أخطأت وإنى تائب فاقبل توبتى ، فقال أريد أن أضربك على خطيئتك ، فقال ياأمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت فى واحدة فأنت قد أخطأت فى ثلاث فان الله تعالى قال : ولاتجسسوا وأنت تجسست وقال تعالى : وأتوا البيوت من أبوابها وأنت أتيت من السطح وقال تعالى : لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها وأنت دخلت وماسلمت فهب هذه لهذه وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لاأعود ، فاستتوبه واستحسن كلامه . وله رضى الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه . وكان معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ذلك . وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية فى ذلك حتى نقل عنه أن رجلا كلمه فى حاجة له وجعل يتعرّف إليه ويظنّ أن زيادا لايعرفه فقال أنا فلان بن فلان ، فتبسم زياد وقال له أتتعرف إلىّ وأنا أعرف بك منك بنفسك والله إنى لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك وأعرف جدك وجدتك وأعرف هذه البردة التى عليك وهى لفلان وقد أعارك إياها ، فبهت الرجل وارتعد حتى كاد يغشى عليه ، ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم وهو عبد الملك بن مروان والحجاج ، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق واقتفى آثار ذلك الفريق إلا المنصور ثانى خلفاء بنى العباس ولى الخلافة بعد أخيه السفاح وهى فى غاية الاضطراب ، فنصب العيون وأقام المتطلعين وبثّ فى البلاد والنواحى من يكشف له حقائق الأمور والرعايا ، فاستقامت له الأمور ودانت له الجهات ، ولقد ابتلى فى خلافته بأقوام نازعوه وأرادوا خلعه وتمردوا عليه وتكاثروا ، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره مائبت له فى الخلافة قدم ولارفع له مع قصد أولئك القاصدين علم ، لكنه بثّ العيون فعرف من انطوى على خلافه فعالجه باتلافه واطلع على عزائم المعاندين فقطّ رءوس عنادهم بأسيافه ، وكان بكمال يقظته يتلق المحذور بدفعه دون رفعه ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه ، فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب وقرّر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب ، فمن آثار يقظته وفطنته مانقل عنه عقبة الأزدى قال : دخلت مع الجند على المنصور فارتابنى ، فلما خرج الجند أدنانى وقال لى من أنت ؟ فقلت رجل من الأزد وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص ، فقال إنى لأرى لك هيبة وفيك نجابة وإنى أريدك لأمر وأنا به معنى فان كفيتنيه رفعتك ، فقلت إنى لأرجو أن أصدق ظنّ أمير المؤمنين فىّ ، فقال أخف نفسك واحضر فى يوم كذا ، قال فغبت عنه إلى ذلك اليوم وحضرت

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : إنى ألقى إلىّ كتاب كريم قال مختوم ، وفض الكتاب إذا كسر ختمه (والعنوان) فيه خمس لغات أفصحها عنوان وجمعه عناوين وعلوان وعلاوين ، والعنوان الأثر وهو أثر الكتاب عمن وإلى من هو كما قيل :

صحوا بأشمط عنوان السجود به

(والقلم) لايقال له قلم إلا إذا برى وإلا فهو أنبوبة . ومن بديع ماسمعته فى وصف القلم من النظم قول الفاضل شمس الدين ابن الصاحب موفق الدين على بن الآمدى منقول من خط الوداعى :

تمشى البراعة والمداد وراءها ظل على شمس الطروس يروع
عوض الدوانى لو تلوح لمسلم هدى المعانى راح وهو صريع
لو لم تكن ألفاظه خطية ماراح سرب اللفظ وهو منيع
ألفاظه رقت بوجنة طرسه فكأنهن وقد جرين دموع
قلم مسيحى الخطاب لنطقه فى المهد من عناه وهو رضيع
وغدا كليميا وقد ضاهى العصا فغدا يروق بفعله ويروع
بالنقط حاكته الشموع وبالضيا حاكته فى حلك المداد شموع
قد لازم القرطاس وهو منور والظل يهوى الروض وهو صريع
نور ونور خطه وكلامه هذا يضىء به وذاك يضوع

وحضرت فلم يحرك عنده أحدا ثم قال لى اعلم أن بنى عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتياله ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم فخذ معك عينا من عندى وألطافا وكتبا واذهب حتى تأتى عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فاقدم عليه متخشعا والكتب على ألسنة أهل تلك القرية والألطاف من عندهم إليه فإذا رآك فإنه سيردك ويقول : لا أعرف هؤلاء القوم فاصبر عليه وعاوده وقل له : قد سيرونى سرا وسيروا معى ألطافا وعينا ، وكلما جبهك وأنكر اصبر عليه وعاوده وا كشف باطن أمره . قال عقبة : فأخذت كتبه والعين والألطاف وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن فلقيته بالكتب فأنكرها ونهرنى وقال : ما أعرف هؤلاء القوم . قال عقبة : فلم أنصرف وعاودته القول وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم وأن معى ألطافا وعينا فأنس بى وأخذ الكتب وما كان معى . قال عقبة : فتركته ذلك اليوم ثم سألته الجواب فقال : أما كتاب فلا أكتب إلى أحد ولكن أنت كتابى إليهم فأقرئهم السلام وأخبرهم أن ابنى محمدا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا . قال عقبة : فخرجت من عنده وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك ، فقال لى المنصور : إنى أريد الحج فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقانى بنو الحسن وفيهم عبد الله فإنى أعظمه وأكرمه وأرفعه وأحضر الطعام فإذا فرغ من أكله ونظرت إليه فتمثل بين يدى وقف قدامه فإنه سيصرف وجهه عنك فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك ثم انصرف عنه وإياك أن يراك وهو يأكل ، ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن فأجلس عبد الله إلى جانبه خادثه فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه فلما فرغوا أمر برفعه فرفع ، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال يا أبا محمد : قد علمت أن ما أعطيتنى من العهود والمواثيق أنك لاتريدنى بسوء ولا تكيد لى سلطانا قال : فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين . قال عقبة : فلحظنى المنصور بعينه فقمت حتى وقفت بين يدى عبد الله بن الحسن فأعرض عنى فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلى فرفع رأسه وملأ عينيه منى ، ثم وثب حتى جثا بين يدى المنصور وقال : أقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله ، فقال له المنصور : ولا أقالنى الله إن لم أقتلك ، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمدا وإبراهيم ويستعلم أخبارهما . قال على الهاشمى صاحب غدائه : دعانى المنصور يوما فإذا بين يديه جارية صفراء وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها : ويلك أصدقينى فوالله ما أريد إلا الألفة ولئن صدقتينى لأصلن رحمه ولأتابعن البر إليه وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب وهى تقول : لاأعرف له مكانا فأمر بتعذيبها ، فلما بلغ العذاب منها أغمى عليها فقال : كفوا عنها ، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال : مادواء مثلها ؟ قالوا : شم الطيب ، وصب الماء البارد على وجهها ، وأن تسقى السويق ففعلوا بها ذلك وعالج المنصور بعضه بيده ، فلما أفاقت سألها عنه فقالت لاأعلم ، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها : أتعرفين فلانة الحجامة ؟ فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت نعم يا أمير المؤمنين تلك فى بنى سليم قال صدقت هى والله أمتى ابتعتها بمالى ورزق يجرى عليها فى كل شهر وكسوة شتائها وصيفها من عندى سيرتها وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركم ، ثم قال لها : أتعرفين فلانا البقال ؟ قالت : نعم يا أمير المؤمنين هو فى بنى فلان

وقال فيه وأجاد إلى الغاية : لجناه ذو طرف كحيل إذا بكى تبسم ثغر الخط من دمعه عجبا
وقد راح مشقوق اللسان متى جرى بثغر النوى للمسول أبدى اللمى العذبا

وقلت من قصيدة رائية :

له يراع سعيد فى تقلبه إن خط خطا أطاعته المقادير
مجبر وبتحرير العلوم إذا جرى يرى منه تحرير وتحبير
غصن عليه طيور العلم عاكفة وجانس النور من أوراقه النور
وأشقر يده البيضاء غرته له إلى الرزق فوق الطرس تيسير
بل أسمر عينه السوداء تلحظنا وهدب أجفانها تلك الشاعير
أو سهم عدل بأطراف السطور غدا مريشا وله فى الضد تأثير
كذا محابره سود العيون فإن دانت أياديه فهى الأعين الحور

ويعجبنى قول الشيخ شمس الدين بن المزنى فى الدواة :

أنا دواة يضحك الجود من بكا يراعى جل من قد براه
دلوا على مثلى من شفه داء من الفقر فأنى دواه

وقلت فيما يكتب على دواة فولاذ : كنانة الفضل دواتى ولها سهم يراعى نصله نفاذ
وأسمر الخط لديها قاصر لأنها على الحى فولاذ

قلت : ويتعين بعد وصف أقلام المنشئين والدواة وصف السكين فإنهم

قال صدقت هو والله غلامى دفعت إليه مالا وأمرته أن يبتاع به مايحتاج إليه من الأمتعة وأخبرنى أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء وحوائج ، فقال لها ماتصنعين بهذا ؟ قالت : كان محمد بن عبد الله بن الحسن فى بعض الضياع بناحية البقيع وهو يدخل الليلة وأردنا هذا ليتخذ النساء مايحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب ، فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدّة الخوف ، وأذعنت له بالحديث وحدّثته بكلّ ماأراد والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثانى والستون فى ذكر الدوابّ والوحوش والطير والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتبا على حروف المعجم

حرف الهمزة

الأسد : من السباع والأنثى أسدة ، وله أسماء كثيرة : فمن أشهرها أسامة ، والحرث ، وقسورة والغضنفر ، وحيدرة ، والليث ، والضرغام ، ومن كناه أبو الأبطال ، وأبو شبل ، وأبو العباس ، وهو أنواع : منها ماوجهه وجه إنسان وشكل جسده كالبقر ، وله قرون سود نحو شبر . ومنها ماهو أحمر كالعناب وغير ذلك ، وتلده أمه قطعة لحم وتستمرّ تحرسه ثلاثة أيام ثم يأتى أبوه فينفخ فيه فتنفرج أعضاؤه وتتشكل صورته ثم ترضعه ، وتستمرّ عيناه مغلوقة سبعة أيام ثم تفتح ، ويقيم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر ثم يتكلف الكسب بعد ذلك ، وله صبر على الجوع والعطش وعنده شرف نفس ، يقال : إنه لايعاود فريسته ولا يأكل من فريسة غيره ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب . وفى ذلك يقول بعضهم :

سأترك حبكم من غير بغض وذاك لكثرة الشركاء فيه إذا وقع الذباب على طعام
رفعت يدى ونفسى تشتهيه وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب يلغن فيه

وإذا أكل نهش نهشا ، وريقه قليل جدّا ولذلك يوصف بالبخر ، وعنده شجاعة وجبن وكرم ، فمن شجاعته : الإقدام على الأمور ، وعدم الاكتراث بالغير ، ومن جبنه : أنه يفرّ من صوت الديك ، والسنور ، والطست ، ويتحير عند رؤية النار . ومن كرمه أنه لايقرب المرأة خصوصا إذا كانت حائضا . وقيل : أربع عيون تضىء بالليل : عين الأسد ، وعين النمر ، وعين السنور ، وعين الأفعى . وروى أنه لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ والنجم إذا هوى ـ قال عتبة ابن أبى لهب : كفرت بربّ النجم يعنى نفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهمّ سلط عليه كلبا من كلابك ينهشه ، فخرج مع أصحابه فى عير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له الزرقاء زأر الأسد ، فجعلت فرائصه ترتعد ، فقالوا له : من أىّ شىء ترتعد فرائصك ، فوالله مانحن وأنت إلا سواء ، فقال : إنّ محمدا دعا علىّ ، ووالله ما أظلت السماء من ذى لهجة أصدق من محمد ، ثم وضعوا العشاء فلم يدخل يده فيه ، ثم جاء النوم فحاطوا أنفسهم بمتاعهم وجعلوه بينهم وناموا فجاء الأسد يتهمس ويشمهم رجلا رجلا حتى انتهى إليه فضغطه ضغطة كانت إياها فسمع وهو بآخر رمق يقول : ألم أقل لكم إن محمدا أصدق الناس . ولبعضهم فى الأسد :

أنشأوا فى وصف السيف والقلم وما ألموا بها ، وهى أحق بذلك من غيرها لقربها من القلم ، وقد تقدّم أن أبا طاهر كمال الدين إسماعيل بن عبد الرزاق الأصفهانى انفرد برسالة القوس والشيخ جمال الدين بن نباتة انفرد برسالة السيف والقلم وقد انفردت برسالة السكين ، وهى : يقبل الأرض التى قامت حدود مكارمها وقطعت عنا مكروه الفقر بمسنون عزائمها وينهى وصول السكين التى قطع بها أوصال الجفا وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء وتالله ماغابت إلا بلغت الأقلام من تعثرها إلى الحفا زرقاء وكم شاهدت منها البيض ألوان خرساء . ومن العجائب أن لها لسانا لكل عنوان ماشاهدها موسى إلاسجد فى محراب النصاب وذلّ بعد ماخضعت له الرءوس والرقاب كم أيقظت طرف القلم بعد ماخطّ وعلى الحقيقة ماروى مثلها قط وكم وجد بها الصاحب فى المضايق نفعا وحكم بصدق محبتها قطعا ماضية العزم قاطعة السنّ فيها حدّة الشباب من وجهين لأنها بالناب والنصاب معلمة من الطرفين أعلة صبح تقمصت بسواد الدجى ولسان برق امتدّ فى لهوات الليل فتنكرت أشعة الأنجم حتى ماعرف منها سهيل ، هذا وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز فى عروض ضربها الحدّ ، ومعلوم أن السيف والرمح لم يعرفا غير الحذر والله من أجلنا تدخل فى مضايق ابس لسيف قط فيها مدخل

عيون

كلما ندماء تزجره

والرمح فى تعقيده يطول إن هجعت بجفنها كانت أمضى من الطيف وكم لها من خاصة جازت بها الحد على السيف تنسى حلاوة
المال فلا يظهر لطوله طائل وتغنى عن آلة الحرب بايقاع ضربها الداخل إن مرت بشكلها المحلى تركت

عبوس شموس مصلخد مكابد — جرى على الأقران للقرن قاهر
برئته شـثن وعيناه فى الدجى — كجمر الغضى فى وجهه الشر ظاهر
يدل بأنياب حداد كأنها — إذا قلس الاشداق عنها خناجر

فائدة : إذا أقبلت على واد مسبع فقل أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد وسبب ذلك على ماقيل أن بختنصر رأى فى نومه أن هلاكه يكون على يد مولود فجعل يأمر بقتل الأطفال فخافت أم دانيال عليه فجاءت إلى بئر فألقته فيه فأرسل الله له أسدا يحرسه وقيل إن بختنصر توهم ذلك فى دانيال فضرى له أسدين وجعلهما فى الجب وألقاه عليهما فلم يؤذياه وصارا يبصبصان حوله ويلحسانه فأقام ماشاء الله تعالى أن يقيم ثم اشتهى الطعام والشراب فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشام أن اذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا بمكان كذا قال أرمياء فسرت إلى ذلك الموضع فلما وقفت على رأس ذلك الجب ناديته فعرفنى فقال من أرسلك إلى قلت أرسلنى إليك ربك بطعام وشراب فقال الحمد لله الذى لاينسى من ذكره والحمد لله الذى لا يخيب من قصده والحمد لله الذى من وثق به لايكله إلى غيره والحمد لله الذى يجزى بالاحسان إحسانا وبالصبر نجاة وغفرانا والحمد لله الذى يكشف ضرنا بعد كربنا والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا قال ثم صعد به أرمياء من الجب وأقام عنده مدة ثم فارقه ورجع .

وحكى أن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام مر بقبر دانيال عليه الصلاة والسلام فسمع منه صوتا يقول سبحان من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت ، قال بعض الصالحين من قال هذه الكلمات استغفر له كل شىء .

وحكى أن إبراهيم بن أدهم كان فى سفر ومعه رفقة فخرج عليهم الأسد فقال لهم قولوا : اللهم احرسنا بعينك التى لاتنام واحفظنا بركنك الذى لا يرام وارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت رجاؤنا ياالله ياالله ياالله قال فولى الأسد هاربا . وقيل لما حمل نوح عليه الصلاة والسلام فى سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه كيف نطمئن ومعنا الأسد فسلط الله عليه الحمى وهى أول حمى نزلت فى الأرض ثم شكوا إليه العذرة فأمر الله تعالى الخنزير فعطس فخرج منه الفأر فلما كثر ضرره شكوا ذلك إلى نوح عليه الصلاة والسلام فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد فعطس فخرج منه الهر فحجب الفأر عنهم ويحرم أكل السبع لنهيه عليه الصلاة والسلام عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير .

خواصه : فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح وشحمه من طلى به بدنه لم يقربه سبع ومرارة الذكر منه تحل المعقود ولحمه ينفع من الفالج وإذا وضعت قطعة من جلده فى صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره وهو من الحيوان الذى يعيش ألف سنة على ماذكر وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه .

الابل — قيل ماخلق الله شيئا من الدواب خيرا من الابل إن حملت أثقلت وإن سارت أبعدت وإن حلبت أروت وإن نحرت أشبعت وفى حديث « الابل عز لأهلها والغنم بركة والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » وهى من الحيوان العجيب وإن كان عجيبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس وقد أطاعها الله للآدمى وغيره حتى قيل إن قطارا كان ببعض حبله دهن فمرت فأرة فجذبته فسار معها القطار بواسطة جذبها له وهى مراكب البر ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى : وعليها

المعادن عاطلة ولم يسمع الحديد فى هذه الواقعة مجادلة شهد الرمح بعدالته أنها أقرب للصواب وحكم بصحة ذلك قبل أن يتكامل لها النصاب ماطال فى رأس القلم شعرة إلا سرحتها باحسان ولا طالعت كتابا إلا أزالت غلطه بالكشط من رأس اللسان تعقد عليها الخناصر لأنها عدة وعده وتالله ماوقعت فى قبضة إلا أطالت لسانها وكلت بحده إن أدخلت إلى القراب كانت قد سبقت على الدخول أو أبرزت من غيمه كان على طلعتها الهلالية قبول تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس وباقامتها الحد حافظت الأقلام على مواظبة الخمس وكم لها من عجائب تركت جدول السيف وهو فى بحر غمده غريق ولو سمع بها من قبل ضربه ماحمل التطريق فلو عاصرها الكمال لعرك من قوسه الأذنين وقال له جحدت رسالتك ياذا القرنين فان جذبت إلى مقاومتها كانت لك يد تمتد ووصلت السكين منك العظم وصار عليك قطع

وانتهى أمرك إلى ذا الحد وهل تعاند السكين صورة ليس لها من تركيب النظم إلا ماحملت ظهورها أو الحوايا أوما اختلط بعظم ولولها الفاضل تحقق قوله إن خاطر سكينه كل أو أدركها ابن نباتة ماأقر برسالة السيف وفل وقال لقد رسالته أطلق لسانك بشكر

مواليك وأخلص الطاعة لباريك ولم يقصد الملوك الإيجاز فى رسالة السكين ونظمها إلا لتكون مختصرة لحجمها لازالت صدقات مهديها تتحف بما يذبح نحر فقرى وتأتى فى كل وقت بما يبرى من داء الاحتياج ويبرى . قلت وعلى ما وقع من الضرب فى رسالة السكين يتعين أن نورد ماوقع من غريب النظم فى السيف فإن الشيخ جمال الدين ابن نباتة ذكر من نثره فى رسالة السيف بدائع ولكنها مشهورة لتنقيب الناس عنها والاقتباس منها . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لعمرو بن معديكرب : كيف تقول فى الرمح قال أخوك وربما خانك فانقصف قال فالترس قال هو المجن وعليه تدور الدوائر قال فالنبل قال منه مايخطىء ومايصيب قال فما تقول فى الدرع قال مثقلة للراجل مشغلة للفارس وإنها حصن حصين قال فما تقول فى السيف قال هنالك لاأم لك ياأمير المؤمنين فعلاه عمر بالدرة وقال لم تقول لا أم لك قال الحمى أصرعتنى ياأمير المؤمنين

(الشريف البياضى) :

وإنا إذا الأرواح ذابت مخافة   فتحنا بأشطان الرماح ركابها
متى ماأردنا أن يذاق حديدنا   خلقنا بحد المشرفية أفواها .

(وقال أبو العلاء المعرى) :

غداه لسانا مشرفى   يقول غرائب للموت ارتجالا
وديت فوقه حمر المنايا   ولكن بعد مامسخت نمالا

فائدة

وعلى الفلك تحملون ، ولما كانت مراكب البر والبر فيه ماماؤه قليل وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبرا على العطش حتى قيل إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر ، وفى الحديث « لاتسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى » أى مما يوسع به على الناس حكاه ابن سيده ، والذى يعرف : لاتسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان ليس لشىء من الفحول مثل ماللجمل عند هيجانه فإنه يسوء خلقه فيظهر زبده ويقل رغاؤه فلوحمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل ، ويقل أكله ، ويخرج له عند رغائه شقشقة لاتعرف من أى شىء هى من أجزائه ، وهو من الأحرار حتى قيل إنه لاينزو على أمه ولاعلى أخته حتى قيل إن بعض العرب ستر ناقة بثوب ثم أرسل عليها ولدها ، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله فأكله ثم حقد على صاحبه حتى قتله ، وليس له مرارة ولذلك كثر صبره . وقيل يوجد على كبده شىء رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة فى العين كحلا ، وفى معدته قوة حتى أنها تهضم الشوك وتستطيبه ، ويحل أكله بالنص والإجماع . وأما تحريم يعقوب عليه الصلاة والسلام أكلها فباجتهاد منه ، وذلك أنه كان يسكن البوادى فاشتكى عرق النسا فلم يجد مايلائمه إلا ترك أكل لحومها فلذلك حرمها . وأما انتقاض الوضوء بأكل لحمها فاختلف العلماء فى ذلك فذهب الأكثرون إلى أنه لاينقض وعليه الخلفاء الأربعة وابن مسعود وأبى وابن عباس وأبو الدرداء وأبو طلحة وعامر بن ربيعة وأبو أمامة وجماهير التابعين وبه أخذ مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم ، وخالف فى ذلك أحمد وإسحق ويحيى بن يحيى وابن المنذر وابن خزيمة واختاره البيهقى وهومذهب الشافعى القديم .

خواصه — قال ابن زهير وغيره : أكل لحمه يزيد فى الباه وفى الإنعاظ بعد الجماع وبوله يفيق السكران ، ووبره إذا أحرق وذر على دم سائل قطعه ، وقراده إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه .

الأرضة — بفتح الهمزة والراء دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق ، ولما كان فعلها فى الأرض أضيف اسمها إليها . قال القزوينى : إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما ويقال إنها الدابة التى دلت الجن على موت سليمان عليه الصلاة والسلام . ومن شأنها أنها تبنى لنفسها بيتا من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطا من أسفله إلى أعلاه ، وله فى إحدى جهاته باب مربع ومنه تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم ، والنمل عدوها وهو أصغر منها فيأتى من خلفها ويحملها ويمشى بها إلى جحره لأنه إذا أتاها مستقبلا لايقلها .

الأرنب — حيوان شبه العناق قصير اليدين طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى ، وله شدة شبق وربما تسفد وهى حبلى ويكون عاما ذكرا وعاما أنثى . ومن عجائبها أنها تنام وعيناها مفتوحتان فيأتى الصياد فيظنها مستيقظة . قيل : من رأى أرنبا عند خروجه من بيته أول مايخرج أو رآه عند قيامه من نومه واصطبح به لم تقض له حاجة فى ذلك اليوم . ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة ولاتلد إلا تحت الأرض خوفا على أولادها من الإنسان وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى أنها تخرب الجدران وعند ولادتها ينتحل شعرها وهى تحضن الأولاد إلى عشرين يوما ، ومن طبعه أنه أبله وفيه قوة وشدة وفى سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالسنانير فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة وعند سفاده تدير لها وجهها فإذا ملكها بعد ذلك فإنها تجرى به وهو راكب عليها ويجرى معها .

يذيب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا . (وقال النامى) ذو مدمع من غير ماستعبر وتبسم من ثغره متوالى
يريك من لألائه متوقدا حتق المنون به على الآجال . (ربيعة الغنوى) كأن على افرنده موج لجة

فائدة : ذكر ابن الأثير فى الكامل أن صديقا له اصطاد أرنبا وله أنثيان وذكر وفرج ، وقيل التقطت الأرنب تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضب فقال الأرنب ياأبا حسل قال سميعا دعوت قالت أتيناك لنختصم قال عادلا حكيا قالت فاخرج إلينا قال فى بيته يؤتى الحكم قالت : إنى وجدت تمرة حلوة قال فكليها قالت : قد اختلسها الثعلب قال لنفسه بغى الخير . قالت : فلطمته قال بحقك أخذت قالت فلطمنى قال انتصر قالت فاقض بيننا قال قد قضيت فذهبت أقواله أمثالا . ومن ذلك ماحكى أن عدى بن أرطاة أتى شريحا القاضى فى مجلس حكمه فقال له أين أنت؟ قال بينك و بين الحائط قال فاسمع منى قال للاستماع جلست قال إنى تزوجت امرأة قال بالرفاء والبنين قال فشرط أهلها أن لاأخرجها من بينهم قال أوف لهم بالشرط قال فأنا أريد الخروج قال الشرط أملك قال أريد أن أذهب قال فى حفظ الله قال فاقض بيننا قال قد فعلت قال فعلى من قضيت قال على ابن أمك قال بشهادة من قال بشهادة ابن أخت خالك .

الخواص — قال الجاحظ : من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش العارض من البرد ، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر ولدت ذكرا ، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى ، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل ، والأرنب البحرى من السموم فلا يحل أكله .

سقنقور — دابة شكلها كالوزغة إذا أخذت وسلخت وملحت وشرب منها مثقال زاد فى الباه من الأشياء النفيسة عند أهل الهند ، يقال إنه يهدى إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب ويحشونه من ملح مصر فإذا وضعوا منه مثقالا على لحم أو بيض نفع نفعا عظيما .

الأفعى — الأنثى من الحيات ، والذكر أفعوان ، وهو يعيش ألف سنة على مايقال ، ويعرف بالشجاع والأسود وهو أشر الحيات ، وأشرها حيات وأفاعى سجستان . ومن عجيب مايحكى عنها أنها لدغت إنسانا فى رجله فانصدعت جبهته .

وحكى أنها نهشت ناقة وفصيلها يرضع فمات قبل أمه ، وقيل : لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له ياشبيب أدخلت سجستان ؟ فقال له نعم . قال صف لى أفاعيها . قال يا أمير المؤمنين هى دقاق الأعناق صغار الأذناب مفلطحة الرءوس رقش برش كأنما كسين أعلام الحبرات كبارهن حتوف وصغارهن سيوف . وقيل إنها تندفن فى التراب أربعة أشهر فى البرد ثم تخرج وقد أظلمت عيناها فتمر بشجر الرازيانج وهو الشمر الأخضر فتحك عينيها به فيرجع إليها بصرها ، فسبحان من ألهمها ذلك . وقال الزمخشرى : إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن تأتى البساتين وتلق نفسها على هذه الشجرة وتحك عينيها بها فتبصر . وقيل : إذا قطع ذنبها عاد كما كان وإذا قلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام وهى أعدى عدو للانسان . وقال بعضهم : رأيت حية قد ابتلعت كبشا عظيم القرنين فجعلت تضرب به الحجارة يمينا ويسارا حتى كسرت القرنين وابتلعته وقرنيه والله تعالى أعلم وقيل : إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر . وقيل إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها . وقيل : إن جلدها ينسلخ عنها فى كل سنة مرة . وقيل : إن الجلد لاينسلخ وإنما الذى ينسلخ قشر فوق الجلد وغلاف يخلق لها كل عام ، وهى تبيض على عدد أضلاعها : أى ثلاثين بيضة فيجتمع عليها النمل فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادرا .

تقاطر فى حافاته وتجول
حسام غذاه الروح حتى كأنه
من الله فى قبض النفوس رسول
(وقال وحيد الدين ابن الذروى)
فتقت بأجساد الأسود لواحظا
رنت للمنايا عن عيون الثعالب
وأنطقت أفواها إلى فم العدا
بألسنة البيض الرقاق المضارب
بحيث الوغى روض تغنى ذبابه
وسال على نور الطلا كالمذانب
وقد رشفت ورد الكلوم صغاره
وما شربت إلا دماء الترائب .
وله :
سكران من شربه خمر الدماء فان
حياه نور الطلا غنى لها هزجا
(لسان الدين بن الخطيب)
وخليج هند راق حسن صفائه
حتى يكاد يعوم فيه الصيقل

غرقت بصفحته النمال فأوشكت تبغى النجاة فأوثقتها الأرجل فالصرح منه ممرد والصفح منه مورد والشط منه مهدل
(القاضى الفاضل) عد إلى الأعداء منها معاصما فترجع من ماء الكلى بأساور . وله من أخرى :

ومن عجيب أمرها أنها لاترد الماء ولا تريده ولكنها إذا شمت رائحة الخمر فلا تكاد تصبر عنه مع أنه سبب هلاكها لأنها إذا شربت سكرت فتعرّضت للقتل ، والذكر لايقيم فى الموضع وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوّة ، فإذا قويت أخذتهم وانسابت ، فأىّ جحر وجدته دخلت فيه وأخرجت صاحبه منه وعينها لاتدور وإذا قلعت عادت .

ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان وتفرح بالنار وتقرب منها وتحبّ اللبن حبا شديدا وإذا دخلت بصدرها فى جحر لايستطيع أقوى الناس إخراجها منه ولو قطعت قطعا وليس لها قوائم ولا أظفار وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها .

وحكى عمر بن يحيى العلوى قال : كنا فى طريق مكة فأصاب رجلا منا استسقاء ، فاتفق أن العرب سرقوا منا قطار جمال على أحدها ذلك الرجل . قال : ثم بعد أيام جمعتنا المقادير فوجدته قد برئ فسألناه عن حاله ، فقال : إن العرب لما أخذونى جعلونى فى أواخر بيوتهم فكنت فى حالة أتمنى فيها الموت ، وبينما أنا كذلك إذ أتونى يوما بأفاعى اصطادوها وقطعوا رءوسها وأذنابها وشووها بعد ذلك ، فقلت فى نفسى : هؤلاء اعتادوها فلا تضرّهم فلعلى إن أكلت منها متّ فاسترحت ، فاستطعمتهم فأطعمونى واحدة ، فلما استقرّت فى بطنى أخذنى النوم فنمت نوما ثقيلا ثم استيقظت وقد عرقت عرقا شديدا واندفعت طبيعتى نحو مائة مرّة ، فلما أصبحت وجدت بطنى قد ضمر وقد انقطع الألم فطلبت منهم مأكولا فأكلت وأقمت عندهم أياما فلما نشطت ووثقت من نفسى بالحركة أخذت فى الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة .

فائدة : قيل إن الريحان الفارسى لم يكن قبل كسرى وإنما وجد فى زمانه ، وسببه أن كسرى كان ذات يوم جالسا فى بعض متفرجاته إذ جاءته حية فانسابت بين يديه وتمرّغت وصارت تتقلق مثل الذى يشتكى فأراد بعض الجند قتلها فمنعهم الملك ثم قال لهم انظروا أمرها فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذى تريده . قال فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه . قال فنظروا فإذا فيه حية عظيمة وعلى ظهرها عقرب أسود فنخسها بعضهم برمح فقتلها وتركوها ورجعوا فأخبروا الملك بذلك ، فلما كان الغد جاءت الحية للملك وفى فمها بزر فنثرته بين يدى الملك وذهبت فقال الملك : إنها أرادت مكافأتنا اجعلوه فى الأرض لننظر مايكون من أمره . قال ففعلوا ذلك فطلع منه الريحان . قال : فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك . قال : وكان به زكام فشمه فبرئ .

لطيفة : من غريب ما اتفق لعماد الدولة أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه وطلبوا منه مالا ولم يكن عنده مايرضيهم به فاغتمّ لذلك ونام مستلقيا على قفاه مفكرا فى ذلك وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت فى سقف آخر . قال : فطلب سلما وصعد لينظر المكان الذى خرجت منه فلما رآه وجد كوة فنظر فى داخلها فإذا هى مطمورة فدخلها فوجد فيها صندوقا فيه خمسمائة ألف دينار فأمر بإخراجه وإنفاقه على عسكره .

ومن ألطف ما اتفق له أيضا : أنه كان بتلك البلد خياط أطروش وكان الملك الذى قبله قد أودع عنده وديعة مال ، قال : فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذى يخيط للملوك . قال: فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة ، فلما حضر بين يدى عماد الدولة قال له : إن فلانا الملك لم يدع عندى سوى اثنى عشر صندوقا ولم أدر مافيها ، فأمر بإحضارها فأحضرها فأخذها

وكلاهما جفن منعت قراره
لكن ذا عضب وذاك سنام
(وقال ابن سناء الملك) :
له منصل لاينقضى فرض حجه
فبالضرب لى حين بالنسك أحرما
تنسك بالإسلام لكن رأيته
يحلّ له فى الشرع أن يشرب الدما
فكم سلّ لما سال من بطن غمده
لسان دم من ضربة خلقت فما
(مجير الدين بن تميم) :
لما فنيت من الصوارم أعوجا
يجرى القضاء بنهره المتموّج
جبت القفار وما حملت أوانيا
للماء من تفق بنهر الأعوج
(وقال الغزى) :
وقد سلب الطعن الأسنة لونها
فعصفر فى اللبات ما كان أزرقا
وأسيافنا فى السابغات كأنها
جداول تجرى بين زهر تفتقا
(ابن خفاجة) :
موسد تحت ظلّ السيف تحسبه   مستلقيا فوق شاطئ جدول ثملا
(جمال الدين بن نباتة) :
وصارم كعباب اللوج ملتطم   يكاد يغرق رائيه ويحترق   لما غدا جدولا يسقى المنون به   أضحى يشفّ على حافاته العلق

عماد الدولة ووسع بها على جنده وتعجب من هاتين القضيتين فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له . وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتل الحيات بعد أن تنذر ثلاث مرات وقيل ثلاثة أيام ، وأما سكان البيوت فالإنذار لها متعين . وفى الحديث : « من قتل حية فكأنما قتل مشركا ومن لبس خفا فلينفضه ومن آوى إلى فراشه فلينظفه » .

الخواص : يقال إن دمها يجلو البصر ، وقلبها إذا علق على إنسان لايؤثر فيه السحر ، وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن الأيمن للأيمن والأيسر للأيسر ، ولحمها قال بقراط الحكيم : من أكله أمن من الأمراض الصعبة .

الأنيس — وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم ، وهو طير له لون حسن ، غذاؤه الفاكهة ، ومأواه الأنهار والبساتين والغياض ، وله صوت حسن كالقمرى .

الأوزّ — طير يحب السباحة وفراخه تخرج من البيضة تسبح .

الخواص : فى جوفه حصاة تنفع المبطون ، ودهنه ينفع من ذات الجنب وداء الثعلب إذا طلى به ولسانه ينفع لقطار البول ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطىء الهضم .

الأيل — بتشديد الياء المكسورة ذكر الوعل وله أسماء باختلاف اللغات ، وهو يشبه بقر الوحش ، وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ولايتضرّر بذلك ، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر فأكل السرطان فيشفى .

خواصه : إن السمك يحب رؤيته وهو يحب ذلك ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر والصيادون يعرفون ذلك فيلبسون جلده لبراجم السمك فيأتى لهم وهو مولع بأكل الحيات وربما لسعته فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع فتؤخذ وتجعل دواء للسم ، وهو الذى يسمى بالبزهير الحيوانى ، وأجوده الأصفر وأكثر ما يكون ببلاد الهند والسند وفارس ، واذا وضع على لسعة الحيات أبرأها وإن وضعه الملسوع فى فيه نفعه ، وهذا الحيوان لاتنبت قرناه إلا بعد سنتين وينبتان فى أوّل الأمر مستقيمين ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب ولايزالان يزيدان إلى ست سنين فحينئذ يصيران كنخلتين ثم بعد ذلك يلقيهما فى كل سنة مرة ثم ينبتان . قال أرسطو : وهذا النوع يصاد بالصفير والأصوات المطربة فانه يحب الطرب والصيادون يشغلونه بذلك ويأتونه من ورائه فاذا رأوه قد استرخت أذناه وثبوا عليه ، وقرنه مصمت وإحليله من عصب لاعظم فيه ولالحم ، وهو من الحيوان الذى يزيد فى السمن ، فاذا حصل له ذلك فرّ من مكانه خوفا من الصيادين وحكمه حل أكله .

ومن خواصه : إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوامّ التى فيه وإذا أحرق واستاك به الذى به صفرة الأسنان زال ذلك عنه ومن علق عليه شىء منه ذهب نومه . ومن خواصه أن دمه يفتت الحصاة التى بالمثانة شربا ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حرف الباء الموحدة

باز — كنيته أبو الأشعث وهو من أشد الحيوان تكبرا وأضيقها خلقا . قال القزوينى : إنها لاتكون إلا أنثى وذكرها من غيرها إما من جنس الحدأة أو الشواهين ولأجل ذلك تختلف ألوانها وهو أصناف منها البازى والباشق والشاهين والبيدق والصقر والبازى أحرّها مزاجا لأنه لايصبر على

(برهان الدين القيراطى) : قوم مناديلهم بيض فكم مسحت رقاب أعدائهم تلك المناديل وقلت :

وسيف له فى الحرب حسن تغزل إذا مارآنى قد علوت على نهد فكم خد خدا فوق صدر مدرّع فبان احمرار الورد فى ذلك الخد

وكم مال قدّ فى الوغى ميل معجب فقابله ذاك المهند بالقدّ

وكم أعجموا ألفاظهم ساعة اللقا فكلمهم ذاك المهند بالهندى .

قلت : وقد وجب أن نذكر هنا ماوقع بعد السيف من غريب النظم فى الرمح .

(ذكر القاضى الرشيدى ابن الزبير) فى كتابه العجائب والطرف : أنه كان فى خزانة السلاح أيام السفاح خمسون ألف درع وخمسون ألف سيف وثلاثون ألف جوشن ومائتا ألف رمح (وقال الفضل بن الربيع) لما ولى الأمين الخلافة سنة ثلاث وتسعين ومائة أمرنى أن أحضر ماق خزانة السلاح فكان فيها من السيوف المحلاة بالذهب عشرة آلاف وخمسون ألف سيف للشاكرية والغلمان ومائة وخمسون ألف رمح ومائة ألف قوس وألف درع محلاة بالذهب وألف درع عامة وعشرون ألف بيضة وعشرون ألف جوشن ومائة ألف وخمسون ألف ترس وأربعة آلاف سرج محلاة بالذهب وثلاثون ألف سرج عامة انتهى .

قلت : و يعجبنى قول القاضى الفاضل فى بيت من قصيدة : أمنصل الرمح الطويل بكوكب من ذا يطاعن والسماك سنان .

ومثله فى الحسن قول ابن سناء الملك : ملوك يحوزون الغنائم عنوة بسمر العوالى أو ببيض القواضب

العطش فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة والظل الظليل وهو خفيف الجناح سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه لأنه كلما طار انحط لحمه وهزل ، وأحسن أنواعه ما قل ريشه واحمرت عيناه مع حدة فيهما . قال الشاعر :

لو استضاء المرء فى إدلاجه بعينه كفته عن سراجه

ودونه الأزرق الأحمر العينين والأصفر دونهما . ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين شديد الانحطاط من الجو غليظ الذراعين مع قصر فيهما .

لطيفة : من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد فأرسل بازا فغاب قليلا ثم أتى وفى فمه سمكة فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك فقال مقاتل يا أمير المؤمنين روينا عن جدك ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال «إن الجو معمور بأمم مختلفة الخلق وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش» فأجاز مقاتلا على ذلك وأكرمه .

بالة — سمكة عظيمة . قال القزوينى يقال إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع وقال غيره خمسون و يقال لها العنبر وهى تظهر فى بعض الأحايين لأصحاب المراكب فإذا رأوها طبلوا بالطبول حتى إنها لا تنفر لأن لها جناحين كالقناطر إذا نشرتهما أغرقتهم فإذا بغت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها فتنزل إلى قعر البحر وتضرب رأسها به حتى تموت ثم تطفو بعد ذلك فيقذفها الريح إلى الساحل فيأخذها أهله و يشقون جوفها و يستخرجون منها العنبر .

ببغاء — هى أصناف كثيرة منها الأخضر والرمادى والأصفر والأبيض يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها وصوتها وفصاحتها .

حكى أنه أهدى لمعز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمنقار و يقال ان نوعا منها يقرأ القرآن .

الخواص : من أكل لسانها تفصح و إذا جفف دمها وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة وزبلها يخلط بماء الحصرم و يكتحل به ينفع من الرمد وظلمة البصر .

بجع — طائر أبيض اللون يميل إلى صفرة طويل المنقار كبير البطن أكثر أكله السمك .

بح — طائر لطيف يأوى أطراف الماء وهو خلقة شريفة لم يوجد غالبا إلا اثنين فقط .

براق — هو الدابة التى ركبها النبى صلى الله عليه وسلم وهو دون البغل وفوق الحمار أبيض اللون .

برذون — نوع من الخيل دون الفرس العربى ، وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ركبه وكذا عمر رضى الله تعالى عنه فلما ركبه عمر جعل يتخلخل به فنزل عنه وضرب وجهه وقال لا علم الله علمك هذه الخيلاء ، ولم يركب برذونا قبله ولا بعده ، وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه .

وأنشد السراج الوراق فى ذم البراذين يقول :

لصاحب الأحباس برذونة بعيدة العهد عن القرط
إذا رأت خيلا على مربط تقول سبحانك يا معطى
تمشى إلى خلف إذا ما مشت كأنما تكتب بالقبطى

الخواص : إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبدا وزبله يخرج المشيمة والجنين الميت وإذا جفف وذر منه على من به الرعاف انقطع رعافه وكذا الجرح .

رماح بأيديهم طوال كأنما
أرادوا بها تثقيب درّ الكواكب
(ابن قلاقس وأجاد)

وقد كحلت بأميال العوالى
أساة الحرب أحداق الدروع
وشبّ البأس نيران المواضى
وأسبل غيث أمواه النجيع
فللفرسان من محل ووحل
حديث عن مصيف أو ربيع

و يعجبنى أيضا قول القاضى الفاضل من قصيدة :

فيا عجبا للملك قرّ قراره
بمختلفات من قنا السواهر
طواعن أسرار القلوب نواظر
كأنك قد نصلتها بنواظر
(ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب وأجاد)

و بكل أزرق إن شكت الحائله
مرة العيون فبالعجاجة تكحل
متأود أعطافه فى نشوة
مما يعل من الدماء وينهل
عجبا له أن النجيع بطرفه
رمد ولا يخفى عليه مقتل
(السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين بن الآمدى)

برغوث

غصون بها طير النفوس تناقرت وعهدى أن الطير للغصن يألف
فلا ورق إلا من التبر حولها ولا زهر إلا من النصر يقطف

برغوث — تفتح منه الباء وتضم وكنيته أبوطامر وأبوعدى وأبووثاب وهو يثب إلى ورائه . وحكى أنه يعرض له الطيران كالنمل وهو يطيل السفاد ويبيض ويفرخ وأصله أولا من التراب لاسيما فى الأماكن المظلمة وسلطانه فى أواخر الشتاء وأول فصل الربيع ، ويقال إنه على صورة الفيل له أنياب وخرطوم وقال بعضهم دبيبها من تحقق أشد من عضها وليس ذلك بدبيب ولكن البرغوث خبيث يستلق على ظهره ويرفع قوائمه فيزغزغ بها فيظن من لاعلم له أنه يمشى تحت جنبيه ، وكان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يفلى ثوبه فيلتقط البراغيث ويدع القمل فقال له أنس فى ذلك فقال أبدأ بالفرسان وأكر على الرجالة وأنشد أعرابى :

لبل البراغيث أعيانى وأنصبنى ... لا بارك الله فى ليل البراغيث
كأنهن وجلدى إذ خلون به ... أيتام سوء أغاروا فى المواريث

وقال أبو الرماح الأزدى :

تطاول بالفسطاط ليلى ولم يكن ... بوادى الغضى ليلى علىّ يطول
تؤرقنى حدب قصار أذلة ... وإن الذى يؤذينه لذليل
إذا جلت بعض الليالى منهن جولة ... تعلقن فى رجلى حيث أجول
إذ ما قتلناهن أضعفن كثرة ... علينا ولا ينعى لهن قتيل
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... وليس لبرغوث علىّ سبيل

وقال ابن أيبك الصفدى :

أشكو إلى الرحمن ما نالنى ... من البراغيث الخفاف الثقال
تعصبوا بالليل لما دروا ... أنى تقنعت بطيف الخيال

ولا يسبّ البرغوث لما ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يسبّ برغوثا فقال لاتسبه فانه أيقظ نبيا إلى صلاة الفجر .

فائدة : سئل مالك عن البرغوث من يقبض روحه فقال أله نفس قيل نعم قال الله يتوفى الأنفس حين موتها . ولقد شكا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام فكتب إليه إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقرأ — ومالنا أن لانتوكل على الله — الآية . وقال حنين بن إسحق الحيلة فى دفع البرغوث أن تأخذ شيئا من الكبريت فتدخن به فى البيت فانها تفرّ من ذلك وقيل يرشّ البيت بماء السذاب وقيل مشاق المراكب يحرق فى البيت مع قشور النارنج .

بعوض — قيل إنه على خلقة الفيل إلا أنه أكثر أعضاء منه فان للفيل أربعة أرجل وللبعوض ستة أو يزيد عليه بأربعة أجنحة وله خرطوم مجوّف نافذ فاذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهوله كالبلعوم والحلقوم ، ومما ألهمه الله تعالى أنه إذا جلس على عضو إنسان يتتبع مسام العروق فانها أرق وأسرع له فى إخراج الدم وعنده شره فى مصه حتى قيل إنه لايمصّ شيئا فيتركه باختياره إلى أن ينشق أو يطار . ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيتركه طريحا . وقال الجاحظ من علم البعوض أن وراء جلد الجاموس دما وأن ذلك الدم غذاء لها وأنها إذا طعنت فى ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيفة الحدّ لانكسرت فسبحان من رزقها على ضعفها بقوّته وقدرته . قال بعضهم :

(ابن نباتة السعدى) وولوا عليها يقدمون رماحنا ... وتقدمها أعناقهم والمناكب
حلقنا بأطراف القنا لظهورهم ... عيونا لها وقع السيوف حواجب

قلت : رسم كافل المملكة الشريفة الشامية وهو المقر الرحوى العلائى تغمده الله برحمته ورضوانه للفضلاء بدمشق المحروسة وغيرهم من الفضلاء بالبلاد الشامية أن ينظموا أبياتا تكتب على أسنة الرماح وتكون عدة الأبيات أربعة . فنظم المقرّ الرحوى الفتحى بن الشهيد قوله :

إذا الغبار علا فى الجوّ عثيره ... فأظلم الجو ما للشمس أنوار
هذا سنانى نجم يستضاء به ... كأنه علم فى رأسه نار
والسيف إن نام ملء الجفن فى غلق ... فاننى بارز للحرب خطار
إن الرماح لأغصان وليس لها ... سوى النجوم على الميدان أزهار

ونظم الرئيس شمس الدين ابن المزين :

أنا أسمر والراية البيضاء لى ... لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحل بى عيش العداة لأننى ... نوديت يوم الجمع بالمران
وإذا تفاهت الكماة بجحفل ... كلهم فيه بكلّ لسان
فتظلم عنا تساق إلى الردى ... قهر المعظم سطوة الجوبان

ونظم المقر الرحوى وهو إذ ذاك كاتب السر بحمص المحروسة :

عروس سنانى حين تجلى على العدا ... وتظهر تبدى مالهم من بواطن
وقد صيغ من هم فين صدورهم ... مجال له رحب فسيح المواطن

أقول لنازل البستان طوبى | لعيشك لم تشك فيه البعوض
يعاجله فليس له قرار | ويثخنه فليس له نهوض
حماه قرصه وطنينه أن | يبيت وعينه فيها غموض
كأنك حين تهدى بالأغانى | تكرر فى مسامعك العروض

ومن الحكم التى أودعها الله تعالى إياها أن جعل الله فيها قوة الحافظة والفكر وحاسة اللمس والبصر والشم ومنفذ الغذاء وجوفا ومخا وعروقا وعظاما فسبحان من قدر فهدى ولم يترك شيئا سدى . وقال الزمخشرى فى تفسير سورة البقرة فى ذلك :

يامن يرى مد البعوض جناحها | فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها فى نحرها | والمخ من تلك العظام النحل
ويرى خرير الدم فى أوداجها | متنقلا من مفصل فى مفصل
ويرى وصول غذا الجنين ببطنها | فى ظلمة الأحشا بغير تمقل
ويرى مكان الوطء من أقدامها | فى سيرها وحثيثها المستعجل
ويرى ويسمع حس ماهو دونها | فى قاع بحر مظلم متهول
امنن علىّ بتوبة تمحو بها | ماكان منى فى الزمان الأول

بغل — معروف وكنيته أبو قموص وأبو حرون وله كنى غير ذلك كثيرة ، وهو مركب من الفرس والحمار ولذلك صار له صلابة الحمار وعظم الخيل وهو عقيم لا نسل له روى ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن على كرم الله وجهه أنها كانت تتناسل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع فى نقل الحطب لنار المنجنيق فقطع الله نسلها وهو أشر الطباع لأنه تجاذبه الأعراق المتضادة والأخلاق المتباينة والعناصر المتباعدة ، ومن العجيب أن كل عضو فرضته منه كان بين الفرس والحمار .

الخواص : يقال إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرد الفأر إذا بخر به البيت و إذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بدهن الآس وجعل على رأس الأقرع نبت شعره وزبله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكروه .

بقر — هو حيوان شديد القوة خلقه الله تعالى لمنفعة الانسان وهو أنواع منها الجواميس وهى أكثر ألبانا وكل حيوان إناثه أرق أصواتا من ذكوره إلا البقر وأنثاه يضربها الفحل فى السنة مرة و إذا اشتد شبقها تركت الرعى وذهبت و إذا طلع عليها الفحل التوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صلابة ذكره قال المسعودى رأيت بالرى البقر تحمل كالبعير فتبرك على ركبتها ثم تثور بالحمل .

عجيبة — حكى فى الإحياء أن شخصا كان له بقرة وكان يشوب لبنها بالماء و يبيعه فجاء السيل فى بعض الأودية وهى واقفة ترعى فمر عليها فغرقها فجلس صاحبها يندبها فقال له بعض بنيه يا أبت لا تندبها فان المياه التى كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فغرقتها .

فائدة : ذكر ابن الفضل فى كتابه عن وهب بن منبه أنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينة فخلق الله تعالى ملكا فى نهاية العظم والقوة وأمره أن يدخل تحتها و يجعلها

سيلقون يوم الجمع غبنا لمونهم | بطعنى و يوم الجمع يوم التغابن
وإن شهدوا بالجور فى وعدلوا | فانى قد بينت فيهم سطاعنى

(ونظم قاضى القضاة صدر الدين بن الآمدى سامحه الله) :

النصر مقرون بضرب أسنة | لمعانها كوميض برق يشرق
سبكت لتسبك كل خصم مارد | وتطرقت لمعاند يتطرق
زرق تفوق البيض فى الهيجاء إذ | يحمر من دمه العدو الأزرق
يثخن يوم الحرب كل كتيبة | تحت الغبار فتسخهن عقق

وقلت :

أنا رمح ورامح الأفق يخشى | من سموى إليه يوم الطعان
و إذا أنكروا عدالة قدى | يوم حكم جرحتهم بلسانى
وسنانى كالبرق بل صار منه | قلب سيف البروق فى خفقان
رعه للردين ينسب لكن | صلاح لما علاه بالسنان

(مجير الدين بن تميم) :

لو كنت تشهدنى وقد حمى الوغى | فى موقف ما الموت فيه بمعزل
لترى أنابيب القناة على يدى | تجرى دما من تحت ظل القسطل

(ابن شرف القيروانى) :

وقد خطت أرماحهم مفرق الدجى | فبان بأطراف الأسنة شائبا

ذكر الثعالبى فى لطائف المعارف أن أول من عمل على

السنان من حديد ديرون الحميري وإليه تنسب الرماح اليزنية وإنما كانت أسنة العرب من صياصي البقر . قلت : لم يبق بعد السيف والرمح غير القوس ولو أن رسالة القوس مشتملة بكمالها على إصابة الغرض لأثبتها هنا ولكن

على منكبيه فدخل وأخرج يدا من المشرق و يدا من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ثم لم يكن لقدميه قرار فخلق الله تعالى صخرة من ياقوتة حمراء في وسطها سبعة آلاف ثقب يخرج من كل ثقب بحر لايعلم عظمه إلا الله تعالى ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمى الملك ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثورا عظيما يقال له كيوثاء(١) له أربعة آلاف عين ومثلها أنوف وآذان وأفواه وألسنة وقوائم مابين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام وأمر الله تعالى هـذا الثور فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونه ثم لم يكن للثور قرار فخلق الله تعالى حوتا يقال له بهموت ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته ثم جعل الحوت على ماء ثم جعل الماء على الهواء ثم جعل الهواء على ماء أيضا ثم جعل الماء على الثرى ثم الثرى على الظلمة ثم انقطع علم الخلائق .

الخواص — شحم البقر إذا خلط بزرنيخ أحمر طرد العقارب ، وإذا طلى به إناء اجتمعت البراغيث إليه وإذا شرب لبنها زاد في الانعاظ وقرنها إذا سحق وجعل في طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء ، وإذا طلى به على الأثر الأسود في البدن أزاله وخصية الفحل إذا جففت وسحقت وجعلت في عسل وأكلت فإنها تزيد في الباه وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان وإذا خلط مع السكنجبين وشرب نفع من الطحال على ماذكروه .

بومة — وكنيتها أم الخراب وأم الصبيان ومن طبعها أن تدخل على كل طير في وكره وتأكل أفراخه ولمعاداة الطيور لها يجعلها الصيادون في أشراكهم حتى يقع عليها الطير . ونقل المسعودي عن الجاحظ أن البومة لاتخرج بالنهار خوفا من العين لأنها تظن أنها حسناء وهي أصناف وكلها تحب الخلوة بنفسها .

الخواص — من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها والأخرى مفتوحة فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فص خاتم فمن لبسه لم ينم مادام في يده وعكسها المغموضة وإذا أردت معرفة ذلك فألقهما في الماء فالراسبة للنوم والطافية لليقظة وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة وهي نائمة تحدثت بجميع مافعلته في نومها .

بوقير — طير أبيض يأتي منه في كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد يقال له جبل الطير فيه كوة فتدخل من تلك الكوة فيمسك منها شيء فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب وإن أمسكت ثنتين كان كثير الخصب وإن لم تمسك شيئا كانت السنة مجدبة وأهل تلك الناحية تعرف ذلك وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم .

حرف التاء

تمساح — حيوان عجيب على صورة الضب له فم واسع وفيه ستون نابا وقيل ثمانون و بين كل نابين سن صغيرة وهي أنثى في ذكر إذا أطبق فمه على شيء لايفلته حتى يخلعه من موضعه وله لسان طويل وظهر كالسلحفاة ولايعمل الحديد فيه وله أربعة أرجل وذنب طويل وهو لايوجد إلا بنيل مصر وقال المسافرون إنه يوجد ببحر الهند وطوله في الغالب ستة أذرع إلى عشرة في عرض ذراعين أوذراع ويقيم في البحر تحت الماء أربعة أشهر لايظهر وذلك في زمن الشتاء و يتغوط من فيه

(١) قوله كيوثاء بهامش ابن خلدون لوتياه كما في الزهر وروح البيان واللهجة انتهى وليحرر .

جمع في نظم عقدها بين الجوهر والعرض وبراعة استهلالها غاية لاتدرك ، وهي : ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا .

ومن غاياتها بعد ذلك قوله منها : صورة مركبة ليس لها من تركيب النظم إلا ماحملت ظهورها أو الحوايا أوما اختلط بعظم .

ومن أصاب الغرض بالألغاز في القوس الشهاب الاعزازي بقوله :

ماعجوز كبيرة بلغت عمـ
ـرا طويلا وتتقيها الرجال
قد علا جسمها صفار ولم تشـ
ـك سقاما ولاعراها هزال
ولها في البنين سهم وقسم
و بنوها كبار قدر نبال

(صفي الدين الحلي ملغزا فيه) :

وما اسم مسراه في البروج وإنما
يحل به الربع دون الكواكب
إذا قدر الباري عليه مصيبة
مده وحلت في صدور الكتائب

(الشيخ بدر الدين بن الصاحب) :

قد ملوك إذا
ماثم في الشغل اعترض
تحكمه في ساعة
تحصل له الغرض .

ومن الغايات التي لاتدرك لقاضي القضاة صدر الدين بن الآمدي رحمه الله تعالى

فى الكستوان : مارفيق وصاحب اك نلقا • معينا على بلوغ المرام هو المبين واضح وجلى وتراه فى غاية الإبهام

قلت ومن نظمى فى القوس : قوسى إذا جذبته يطربنى بحس عوده وتحريك الوتر

فى الغالب ويحصل فى فيه الدود فيؤذيه فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيرا يقال له القطقاط فيدخل فى فيه فيأكل مافيه من الدود فيحصل له راحة فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى فى جناحيه كريشة الفصاد فيؤلمه فيفتح فاه فيخرج ولذلك يضرب به المثل فيقال جازاه مجازاة التمساح . وزعم بعض الباحثين عن أحوال التمساح أن له ستين نابا وستين عرقا ويسفد ستين مرة ويبيض ستين بيضة ويحضن ذلك ستين يوما ويعيش ستين سنة فاذا أفرخ فما صعد الجبل صار ورلا وما نزل البحر صار تمساحا وفكه الأسفل لايستطيع تحريكه لأن فيه عظما متصلا بصدره وإذا أراد السفاد أخذ أنثاه وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها فاذا قضى حاجته قلبها ثانيا لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت وما ذلك إلا أنها لاتستطيع الانقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان وهو كلب الماء يقال إنه يتلبط بالطين ويغافل التمساح ويقذف بنفسه فى فيه فيبتلعه لنعومته فاذا حصل فى جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مراق بطنه فيقتله .

الخواص : عينه تشد على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر فى أذن من به صمم نفعه .

تنين — ضرب من الحيات وهو طويل كالنخلة السحوق وجسده كالليل أحمر العينين لهما بريق واسع الفم والجوف يبتلع الحيوان وأول أمره يكون حية متمردة ثم تطغى وتتسلط على حيوان البر فيستغيث منها فيأمر الله تعالى ملكا فيحملها ويلقيها فى البحر فتقيم فيه مدة ثم تتسلط على حيوانه أيضا فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بالقائها فى النار فيعذب بها الكافرين وقيل يأمر الله تعالى بالقائها على يأجوج ومأجوج . وروى ابن أبى شيبة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يسلط الله على الكافر فى قبره تسعة وتسعين تنينا تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولوأن تنينا منها نفخ على الأرض ماأنبتت فيها خضراء » .

حرف الثاء

ثعلب — وهو معروف ذو مكر وخديعة وله حيل فى طلب الرزق . فمن ذلك أنه يتماوت وينفخ بطنه ويرفع قوائمه حتى يظن أنه مات فاذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده وحيلته هذه لاتتم على كلب الصيد . ومن حيلته أنه إذا تعرض للقنفذ نفش القنفذ شوكه فيسلح هو عليه فيلم شوكه فيقبض على مراق بطنه ويأكله وسلحه أنتن من سلح الحبارى .

ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها فى فيه ونزل فى الماء والبراغيث تطير قليلا حتى تجتمع فى تلك الصوفة فيلقيها فى الماء ويخرج وفروه أدفق الفراء وفيه الأبيض والرمادى وغير ذلك . وذكر فى عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبى منصور السامانى ثعلب له جناحان من ريش إذا قرب الانسان منه نشرهما وإذا بعد لصقهما .

لطيفة : ذكر ابن الجوزى فى آخر كتاب الأذكياء والحافظ أبو نعيم فى حلية الأولياء عن الشعبى أنه قال : مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ماخلا الثعلب فنم عليه الذئب فقال الأسد إذا حضر فأعلمنى فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبره بما قاله الذئب فقال الأسد

ونجم ذلك السهم إن فوقته
يرى له فى طارة البدر أثر

(الشيخ جمال الدين ابن نباتة)

فديتك أيها الرامى بقوس
ولحظ ياضنى قلبى عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب
وشبه الشىء منجذب إليه

قلت : لم يبق بعد وصف آلة الحرب وصف غير الخيول المسومة التى لابد لفحول كتاب الإنشاء من الجولان فى ميدان وصفها وجرى السوابق الذى جمعته فى هذا الباب قد تقدم فى الجزء الأول من بلوغ المراد ولكن إذا كنت منشىء دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية المحروسة يتعين على أن أوردهنا لكتاب الإنشاء من فقه هذا الفن مايحتاجون إلى معرفته .

قلت : السجع مأخوذ من سجع الحمام واختلف فيه هل يقال فى فواصل القرآن أسجاع أم لا فمنهم من منعه ومنهم من أجازه والذى منع تمسك بقوله تعالى — كتاب فصلت آياته — فقال قد سماه فواصل فليس لنا أن نتجاوز ذلك ، والسجع ينقسم إلى أربعة أقسام : المرصع والمطرف والمتوازى والشطر . فالمرصع عبارة عن مقابلة كل لفظة

أين

أين كنت يا أبا الفوارس قال كنت أتطلب لك الدواء قال وأي شيء أصبته ؟ قال قيل لي خرزة في عرقوب أبي جعد قال فضرب الأسد بيده في ساق الذئب فأدماه ولم يجد شيئا فخرج ودمه يسيل على رجله وانسل الثعلب فمر به الذئب فناداه ياصاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر مايخرج منك فإن المجالس بالأمانات . وقيل خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش وضبا وغزالا ثم جلسوا يقتسمون فقال الأسد للذئب اقسم علينا فقال حمار الوحش لي والغزال لأبي الحرث والضب للثعلب فضربه الأسد في رأسه فرضخها فقال الثعلب أنا أقسم حمار الوحش لأبي الحرث يتغدى به والغزال لأبي الحرث يتعشى به والضب لأبي الحرث يتنفل به فيما بين ذلك فقال له الأسد لله درك من فرضي ماأعلمك بالفرائض من علمك هذا قال علمني التاج الأحمر الذي ألبسته هذا وأشار إلى الذئب .

وحكي أن الثعلب مر في السحر بشجرة فرأى فوقها ديكا فقال له أما تنزل نصلي جماعة فقال إن الإمام نائم خلف الشجرة فأيقظه فنظر الثعلب فرأى الكلب فضرط وولى هاربا فناداه أما تأتي لتصلي فقال قد انتقض وضوئي فاصبر حتى أجدد لي وضوءا وأرجع . ومن العجيب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها والأفعى تصيد العصفور والعصفور يصيد الجراد والجراد يصيد الزنابير والزنابير تصيد النحل والنحل تصيد الذباب والذباب يصيد البعوض والبعوض يصيد النمل والنمل يأكل كل ماتيسر من صغير وكبير فتبارك الله الذي أتقن ماصنع .

الخواص : رأسه إذا ترك في برج حمام هرب الحمام منه ونابه يشد على الصبي يحسن خلقه ومرارته يجعل منها في أنف المصروع يبرأ ولحمه ينفع من اللقوة والجذام وخصيته تشد على الصبي تنبت أسنانه وفروه أنفع شيء لمربوط ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون بلوغ وطحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ .

ثعبان — هو الكبير من الحيات ذكرا كان أو أنثى وهو عجيب الشأن في هلاك بني آدم يلتوي على ساق الانسان فيكسرها وليس له عدو إلا النمس ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر .

لطيفة : قيل إن عبد الله بن جدعان كان في ابتداء أمره صعلوكا وكان شريرا يفتك ويقتل وكان أبوه يعقل عنه فضجر من ذلك وأراد قتله فخرج هاربا على وجهه فتوصل لجبل فوجد فيه شقا فدخل فيه فوجد في صدره شيئا كهيئة الثعبان فدنا منه وقال لعله يثب علي فيقتلني وأستريح قال فدنا منه فوجده مصنوعا من ذهب وعيناه ياقوتتان ثم وجد من داخله بيتا فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة وعند رءوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم وإذا بهم رجال من جرهم وفي وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر والزمرد والذهب والفضة واللؤلؤ فأخذ منه قدر مايحمل وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم ورجع فلم يدر مكان الشق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد كنت أستظل بجفنة عبد الله بن جدعان من الهجير قالت عائشة يارسول الله هل ينفعه ذلك شيئا قال لا لأنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» .

حرف الجيم

جراد — حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة وإنما يكون هائما هاربا وإذا أراد أن يبيض

من صدر البيت أوفقرة النثر بلفظة على وزنها ورويها وهو مأخوذ من مقابلة العقد في ترصيعه . ومن أمثلته الشريفة في الكتاب العزيز - إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم - ومثله قوله تعالى - إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم - ومنه قول الحريري في المقامات : يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه. والمطرف: هو أن يأتي المتكلم في آخر كلامه أو في بعضه بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية ولا محصورة في عدد معين بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية كقوله تعالى - مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا - وكقولهم جنابه محط الرحال ومخيم الآمال . ومن أمثلته الشعرية قول أبي تمام :

تجلى به رشدي
وأثرت به يدي
وفاض به ثمدي
وأورى به زندي

الثالث المتوازي : وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي كقوله تعالى - فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة - ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا» ومنه قول الحريري في المقامات : وأودى بي الناطق والصامت ورثى لي الحاسد والشامت انتهى . القسم الرابع : السجع المشطر وهو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافية النصف الآخر ولكن هذا القسم مختص بالنظم كقول أبي تمام يمدح أمير المؤمنين المعتصم رحمهما الله تعالى :

ذهب إلى بعض الصخور فضربها بذنبه فتفرج له فيلق بيضه فيها وله ستة أرجل وأطراف أرجله كالمنشار وهو ألوان عديدة وفيه خلقة عشرة من الجبابرة وجه فرس وعينا فيل وعنق ثور وقرنا أيل وصدر أسد و بطن عقرب وجناحا نسر وفخذا جمل ورجلا نعامة وذنب حية وهو من الحيوان الذي ينقاد إلى رئيسه كالعسكر إذا ظعن أميره تتابع خلفه وفي الحديث « أن جرادة وقعت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا مكتوب على جناحها بالعبرانية نحن جند الله الأكبر ولنا تسعة وتسعون بيضة ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها فقال عليه الصلاة والسلام اللهم أهلك الجراد اللهم اقتل كبارها وأمت صغارها وأفسد بيضها وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معايشهم إنك سميع الدعاء، قال فجاء جبريل فقال إنه قد استجيب لك في بعضها» وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى خلق ألف أمة ستمائة منها في البحر وأربعمائة في البر وأن أول هلاك هذه الأمة الجراد فاذا هلك الجراد تتابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه» قيل كان طعام يحيي ابن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد وقلوب الشجر وكان يقول من أنعم منك يايحيي وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه ومن خواصه أن الانسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول .

جرو — بكسر الجيم وفتحها وضمها وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع وقد كان صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب وسببه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه فتأخر قال فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فقال ما أخرك عن وعدك فقال ما أخرت ولكن لا ندخل بيتا فيه صورة ولا كلب فأمر بقتلها وروى مسلم والطبراني عن خولة بزيادة ولفظها أن جروا دخل تحت سرير في بيته صلى الله عليه وسلم فمات فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أياما لايأتيه الوحي قال لعله حدث في البيت شيء فخرج للمسجد فنزل عليه الوحي قالت خولة فقممت البيت فوجدت الكلب تحت السرير .

عجيبة — حكي أن رجلا لم يولد له ولد فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهته زوجته عن ذلك وقالت يؤاخذك الله بذلك فقال لوآخذ لفعل في يوم كذا وصار يعدد أفعاله لها فقالت له إن صاعك لم يمتلئ ولو امتلأ آخذك قال فخرج ذات يوم و إذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلهما وطرد الجرو قال فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فانطلق إلى نبي لهم فأخبره بذلك فقال ألهما لعبة كانا يلعبان بها قال جرو كلب قال ائتني به فأتاه به فجعل خاتمه بين عينيه ثم قال له اذهب خلفه فأي بيت دخله ادخل معه فان أولادك فيه قال فجعل الجرو يجوز الدروب والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه و إذا بالغلامين متعفران بدمهما وهو قائم يحفر لهما مكانا يدفنهما فيه فأمسكوه وأتوابه لنبيهم فأمر بصلبه ، فلما رأته زوجته على الخشبة قالت ألم أحذرك هذا اليوم وتقول ماتقول الآن امتلأ صاعك وسيأتي الكلام على الكلب في حرف الكاف إن شاء الله تعالى .

جعل — دويبة معروفة تسمى أباجعران والزعقوق يعض البهائم في وجهها فتهرب منه وهو أكبر من الخنفساء شديد السواد في بطانه لون حمرة للذكر قرنان يوجد كثيرا في مراح البقر والجاموس ، قيل إنه يتولد من أخثائهما ومن شأنه جمع الروث وادخاره ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات ويعيش بعوده للروث وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار وله ستة أرجل وسنام

شهير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتقب انتهى باب السجع . قلت : وقالت علماء هذا الفن إن قصر الفقرات في الانشاء يدل على قوة المنشى وأقل ماتكون من كلمتين كقوله تعالى – يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر – وأمثال ذلك كثيرة في الكتاب العزيز لكن الزائد على ذلك هو الأكثر وكان بديع الزمان يكثر من ذلك كقوله كيف نهد كأن راكبه في مهد يلطم الأرض بزبر وينزل من السماء بخبر لكن قالوا التذاذ السامع بما زاد على ذلك أكثر لتشوقه إلى مايرد منه متزايدا على سمعه انتهى ، وأما الفقر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى بقدر غير كثير لئلا يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة فان زادت القرائن على اثنتين فلا يضر تساوي القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة عليهما وإن زادت الثانية على الأولى يسيرا والثالثة على الثانية فلا بأس ولكن لا يكون أكثر من المثل مثاله في القرينتين قوله تعالى – وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدًا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا – فالثانية أطول من الأولى ، ومثاله في الثانية قوله تعالى : وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . ومن فوائد الانشاء أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها

مرتفع

مرتفع جدا وهو يمشى القهقرى ، ومن طبعه أنه يحرس النيام فاذا قام أحدهم يتغوط تبعه ليأكل من رجيعه ، وذلك من شدة شهوته للغائط .

حرف الحاء

حجل — طير فوق الحمامة أغبر اللون أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البر ، وهو صنفان نجدى وتهامى النجدى أغبر والتهامى أبيض وله شدة فى الطيران وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب وله شدة شبق وأفراخه تخرج من البيض كاسية ويعمر فى الغالب عشرين سنة وإذا قوى على غيره أخذ بيضه فحضنه ، ومن سر الله تعالى أنه إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التى باضته ، ومن طبعه أنه يخدع غيره فى قرقرته ولذلك يتخذه الصيادون فى أشراكهم .

غريبة : قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمى الأكراد فأتى على سماطه بحجلتين مشويتين فلما رآهما ضحك فقال مم تضحك ؟ قال كنت أقطع الطريق فى عنفوان شبابى فمر بى تاجر فأخذته ، فلما أردت قتله تضرع إلىّ فلم أقتله ، فلما علم أنه لابد لى من قتله التفت يمينا وشمالا فرأى حجلتين كانتا بقربنا فقال اشهدا لى أنه قتلنى ظلما فقتلته ، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حمقه فى استشهاده بهما ، فقال أبو نصر والله لقد شهدتا عليك عند من أقادك بالرجل ، ثم أمر به فضربت عنقه .

الخواص : لحمها جيد معتدل الهضم ومرارتها تنفع الغشاوة فى العين وإذا سعط بها إنسان فى كل شهر مرة جاد ذهنه وقل نسيانه وقوى بصره .

حدأة — بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة أخس الطير تبيض بيضتين وربما باضت ثلاثا وتحضن عشرين يوما ومن ألوانها الأسود والرمادى وهى لا تصيد إلا خطفا وفى طبعها أنها تقف فى الطيران ، وهى أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل أفراخ جارها . ويقال إنها طرشاء وفى طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء وهى سنة ذكر وسنة أنثى كالأرنب .

عجيبة : روى الحافظ النسفى فى فضائل الأعمال أن عاصم بن أبى النجود شيخ القراء فى زمانه قال أصابتنى خصاصة فجئت إلى بعض إخوانى فأخبرته بأمرى فرأيت فى وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة فصليت ما شاء الله ثم وضعت رأسى على الأرض وقلت يا مسبب الأسباب يا فاتح الأبواب يا سامع الأصوات يا مجيب الدعوات يا قاضى الحاجات اكفنى بحلالك من حرامك وأغننى بفضلك عمن سواك قال فوالله ما رفعت رأسى حتى سمعت وقعة بقربى فاذا بحدأة قد طرحت كيسا أحمر نقمت فأخذته فاذا فيه ثمانون دينارا وجوهرة ملفوفة فى قطن قال فاتجرت بذلك واشتريت لى عقارا وتزوجت .

الخواص : مرارتها تجفف فى الظل وتنقع فى إناء زجاج فمن لسع وقطر منها فى ذلك الموضع واكتحل مخالفا لجهة اللسع ثلاثة أميال أبرأته ودمعها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس وإذا وضع فى بيت لم تدخله حية ولا عقرب .

حرباء — دويبة صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس الحجل ، إذا رأت الانسان انتفخت وكبرت ولها أربعة أرجل وسنام كهيئة الجمل ولها كنى كثيرة منها أم قرة . ويقال لها جمل اليهود وهى أبدا تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال إنها مجوسية وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت

فى المعنى لأن اللفظ إذا كان من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى لم يحسن كقول الصاحب بن عباد فى وصف منهزمين : طاروا واقين بظهورهم صدورهم وبأصلابهم نحورهم فالظهور بمعنى الأصلاب والصدور بمعنى النحور ، ومنه قول الصابئ : يسافر رأيه وهو دان لا يبرح ويسير وهو باق لا ينزح فلا يبرح ولا ينزح بمعنى واحد ويسافر ويسير كذلك .

ومن فوائد الإنشاء التى يتسع فيها المجال على المنشئ أن السجع مبنى على الوقف وكانت الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفا عليها لأن الغرض أن يجانس المنشئ بين القرائن ويزاوج ولا يتم له ذلك إلا بالوقف إذ لو ظهر الإعراب لفات ذلك الغرض وضاق المجال على قاصده فان قافية السجعة إذا كانت فى محل نصب وأختها فى محل رفع ساوى بينهما السكون وصار الإعراب مستترا فلو أثبتوا الإعراب فى قول من قال ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت لزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة والثانية مكسورة منونة فيفوت غرض المنشئ . ومن ذلك أن السجع مبنى على التغيير فيجوز أن يغير لفظ القافية الناصلة لتوافق أختها فيجوز فيها حالة الازدواج ما لا يجوز فيها حالة الانفراد . فمن ذلك الإمالة فقد يكون فى الفواصل ما هو من ذوات الياء وما هو من ذوات الواو فتمال التى هى من ذوات الواو وتكتب بالياء حملا على

ما هو من ذوات الياء لأجل الموافقة كقوله تعالى : والضحى ، فالضحى أميلت وكتبت بالياء حملا على ما فى السورة الشريفة من ذوات الياء لأجل الموافقة . وكذلك سورة والشمس وضحاها أميلت فيها ذوات الواو وكتبت بالياء حملا

فاذا غابت الشمس أخذت فى كسبها ومعاشها و يقال إن لسانها طو يل نحو ذراع وهو مطوى فى حلقها فلذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتلعه والأنثى من هذا النوع تسمى أم حبين و يقال إن الصبيان ينادونها : أم حبين انشرى برديك إن الأمير ناظر إليك وضارب بسوطه جنبيك ، فاذا زادوا عليها نشرت جناحيها وانتصبت على رجليها ، فاذا زادوا عليها أيضا نشرت أجنحة أحسن من تلك ملوّنة ، و إذا مشت تطأطئ برأسها وتتلوّن ألوانا ولذا يقال يتلوّن كالحرباء .

حمار أهلى — معروف ليس فى الحيوان من ينزو على غير جنسه إلا هو والفرس ونزوه بعد تمام ثلاثين شهرا وكنيته أبو محمود وأبو جحش وغير ذلك ، وهو أنواع فمنه ماهو لين الأعطاف سريع الحركة ، ومنه ماهو بضد ذلك و يوصف بالهداية إلى سلوك الطريق .

لطيفة : فى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه لما فتح خيبر أصاب حمارا أسود فكلمه فقال ما اسمك ؟ فقال يزيد بن شهاب أخرج الله تعالى من نسل جدى ستين حمارا كلها لا يركبها إلا نبىّ ولم يبق من الأنبياء غيرك وكنت أتوقعك لتركبنى وأنا عند يهودى يجيع بطنى و يضرب ظهرى وكنت أعثر به عمدا فسماه النبىّ صلى الله عليه وسلم يعفورا وقال له أتشتهى الإناث قال لا وكان صلى الله عليه وسلم يركبه فى حوائجه و إذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه و يقضى حاجته ، فلما توفى النبىّ صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بئر كانت لأبى الهيثم فتردّى فيها جزعا على النبىّ صلى الله عليه وسلم فكانت قبره . وقيل هذا الحديث منكر وقد ذكره السهيلى فى التعريف والأعلام ، والناس فى ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض ، فمن مدحه أن أبا صفوان وجد راكبا على حمار فقيل له فى ذلك فقال عيرهنى من نسل الأكراد يحمل الرحل و يبلغ العقبة و يمنعنى أن أكون جبارا فى الأرض ، وقال آخر هو أقل الدواب مؤنة وأكثرها معونة وأخفضها مهوى وأقربها مرتعا وكان حمار أبى يسارة مثلا فى الصحة والقوّة وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشى يختاران ركوب الحمار و يجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة . ومن ذمه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال لا تركب الحمار فانه إن كان فارها أتعب يدك و إن كان بليدا أتعب رجلك . وقيل ما ينبغى لمركب الدجال أن يكون مركبا للرجال . وقال أعرابىّ : الحمار بئس المطية إن أوقفته أدلى و إن تركته ولى كثير الروث قليل الغوث سريع إلى الفرارة بطىء فى الغارة لا ترقى به الدماء ولا تمهر به النساء ولا يحلب فى الإناء . قال الزمخشرى :

إنّ الحمار ومن فوقه حماران شرّهما الراكب

ومن العرب من لا يركبه أبدا ولو بلغت به الحاجة والجهد . قيل : كان لرجل بالبادية حمار وكلب وديك فالديك يوقظه للصلاة والكلب يحرسه إذا نام والحمار يحمل أثاثه إذا رحل قال فجاء الثعلب فأكل الديك فقال عسى أن يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال لا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم عسى أن يكون خيرا ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال عسى أن يكون خيرا قال ثم إن جيرانه من الحىّ أغير عليهم فأخذوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلت فقيل لهم إنما أخذوا بأصوات دوابهم فقال إنما كانت الخيرة فى هلاك ما عندى فمن عرف لطف الله رضى بفعله .

على ما فيها من ذوات الياء . ومن ذلك حذف المفعول نحو قوله تعالى : ما ودّعك ربك وما قلى ، الأصل وما قلاك ولكن حذفت الكاف لتوافق الفواصل .

ومن ذلك صرف ما لا ينصرف كقوله تعالى : قواريرا ، صرفه بعض القرّاء السبعة ليوافق فواصل السورة الشريفة ولو تتبع المتأمل ذلك فى الكتاب العزيز لوجده كثيرا . ومما جاء من ذلك فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : « أعيذه من الهامة والسامة ومن كل عين لامة » الأصل عين ملمة . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « مأزورات غير مأجورات » الأصل موزورات بالواو ولكن همز ليوافق مأجورات . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم » الأصل ما وادعوكم ولكن حذفت الألف لتحصل الموافقة . قلت : وهذا نوع من المشاكلة لأن المشاكلة فى اللغة هى المماثلة وهى فى المصطلح ذكر الشىء بغير لفظه لموافقة القرائن ومشاكلتها كقوله تعالى : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فالجزاء عن السيئة فى الحقيقة غير سيئة والأصل وجزاء سيئة عقوبة .

ومنه قوله تعالى — تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك — والأصل تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما عندك لأن الحق تعالى وتقدس لا تستعمل لفظة النفس فى حقه إلا أنها استعملت هنا للمماثلة والمشاكلة كما

تقدم . ومنه قوله تعالى — ومكروا ومكر الله — والأصل وأخذهم الله . وفى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم «فإن الله لا يمل حتى تملوا» الأصل فإن الله لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا من مسئلته فوضع لا يمل موضع لا يقطع لأجل المشاكلة وهو مما وقع فيه لفظ المشاكلة أولا . ومنه قول الشاعر :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه
قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

أراد خيطوا لى جبة وقميصا وذكره بلفظ اطبخوا لوقوعه فى صحبة طبخه . انتهى . قلت : ومن غايات الإنشاء البلاغة فى المقاصد والبلاغة هى أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده مع إيجاز بلا إخلال وإطالة من غير إملال . والفصاحة خلوص الكلام من التعقيد وقيل البلاغة فى المعانى والفصاحة فى الألفاظ يقال معنى بليغ ولفظ فصيح والفصاحة خاصة تقع فى المفرد يقال كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة فصاحة المفرد خلوصه من التعقيد وتنافر الحروف والفصاحة أعم من البلاغة لأن الفصاحة تكون صفة الكلمة والكلام يقال كلمة فصيحة وكلام فصيح والبلاغة لا يوصف بها إلا الكلام فيقال كلام بليغ ولا يقال كلمة بليغة واشتركا فى وصف المتكلم بهما فيقال متكلم فصيح بليغ . فمن الإنشاء البليغ

حمام — هو أنواع كثيرة والكلام فى الذى ألف البيوت وهو قسمان : أحدهما برى وهو الذى يوجد فى القرى والآخر أهلى ، وهو أنواع وأشكال فمنه الرواعب والمراعيش والشداد والغلاب والمنسوب ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان فى مسافة بعيدة ولأجل ذلك يحمل الأخبار ومنه من يقطع عشرة فراسخ فى يوم واحد وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين وهو على ثبات عقله وقوة حفظه حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه وسباع الطير تطلبه أشد الطلب وخوفه من الشاهين أشد من غيره وهو أطير منه لكن إذا أبصره يعتريه ما يعترى الحمار إذا رأى الأسد والشاة إذا رأت الذئب والفأر إذا رأى الهر ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما ويحب الملاعبة والتقبيل ويسفد لتمام أربعة أشهر ويحمل أربعة عشر يوما ويبيض بيضتين ويحضن عشرين يوما ويخرج من إحدى البيضتين ذكر والأخرى أنثى واتخاذها فى البيوت لا بأس به غير أنه لا يجوز تطييرها والاشتغال بها والارتقاء بها على الأسطحة وعليه حمل أهل العلم قوله عليه الصلاة والسلام «شيطان يتبع شيطانة حين رأى شخصا يتبع حمامة» فإن لم يحصل شىء مما ذكر جاز اتخاذها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اتخذوا الحمام فى بيوتكم فإنها تلهى الجن عن صبيانكم» واللعب بها من عمل قوم لوط . وقال النخعى : من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر ولم يوجد شىء أبله من الحمام فإنه تؤخذ أفراخه فتذبح فى مكان ثم يعود فى ذلك المكان ويبيض فيه ويفرخ . وقال الجاحظ وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تباع بخمسمائة دينار ولم يبلغ ذلك القدر شىء من الطير غيره وهو الهادر الذى جاوز الغاية قالوا ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة ولو حدث أن برذونا أو فرسا بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك حمرا وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنانير والفرخ بعشرين فمن كان له زوج منه قام فى الغلة مقام ضيعة وأصحابه يبنون من أثمانه الدور والحوانيت وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق .

الخواص : دمه ينفع الجراحات العارضة للعين والغشاوة ويقطع الرعاف ويبرئ حرق النار إذا خلط بالزيت وزبل الأحمر منه ينفع لسع العقرب إذا وضع عليه وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دارصينى نفع من الحصاة .

حرف الخاء

الخطاف — أنواع كثيرة فمنه نوع دون العصفور رمادى اللون يسكن ساحل البحر ومنه ما لونه أخضر وتسميه أهل مصر الخطار ونوع طويل الأجنحة رقيق يألف الجبال ونوع أصفر يألف المساجد يسميه الناس السنونو وزعم بعضهم أنه الطير الأبابيل ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة فخلق الله له هذا الطير يؤنسه فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت وهى تبنى بيتها فى أعلى مكان بالبيت وتحكم بنيانه وتطيينه فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرغت فى التراب والماء وأتت فطينته وهى لا تزبل داخله بل على حافته أو خارجا عنه وعنده ورع كثير لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها فى أقواتهم ولا يلتمس منهم شيئا ولقد أحسن واصفه حيث يقول :

كن زاهدا فيما حوته يد الورى — تبقى إلى كل الأنام حبيبا
وانظر إلى الخطاف حرم زادهم — أضحى مقيما فى البيوت ربيبا

ومن شأنه أن لا يفرخ في عش عتيق بل يجدد له عشا وأصحاب اليرقان يلطخون أفراخه بالزعفران فيذهب فيأتي بحجر اليرقان ويلقيه في عشه لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس فعند ذلك يأخذه من به اليرقان ويحكه ويستعمله ، ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد وإذا عمي ذهب إلى شجرة يقال لها عين شمس فيتمرغ فيها فيفيق من غشوته ويفتح عينيه .

لطيفة : قيل إن خطافا وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافة وراودها عن نفسها فامتنعت فقال لها تمتنعين مني ولو شئت قلبت هذه القبة قال فسمع سليمان فدعاه وقال ما حملك على ما قلت فقال يا نبي الله إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم .

الخواص : مرارته تسود الشعر ولحمه يورث السهر وقلبه يهيج الباه إذا أكل جافا ودمه يسكن الصداع .

خفاش — طير يوجد في الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهارا ولا في ضوء القمر وقوته البعوض وهذا الوقت الذي يخرج فيه البعوض أيضا لطلب رزقه فيأكله الخفاش فيتسلط طالب رزق على طالب رزق ، وهو من الحيوان الشديد الطيران قيل إنه يطير الفرسخين في ساعة وهو يعمر مثل النسر وتعاديه الطيور فتقتله لأنه قيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله النصارى في طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى فهي تكرهه لأنه مباين لخلقتها ومن طبعه الحنو على ولده حتى قيل إنه يرضعه وهو طائر .

خنزير — حيوان معروف وله كنى كثيرة منها أبو جهم وأبو زرعة وأبو دلف وهو مشترك بين البهيمة والسبع لأنه ذو ناب ويأكل العشب والعلف وهو كثير الشبق حتى قيل إنه يجامع الأنثى وهي سائرة فيرى في مشيها ستة أرجل فيتوهم الرائي أنه حيوان بستة أرجل وليس كذلك والذكر منها يطرد الذكر مثله فمن غلب استقل بالنزو على الأنثى وتحرك أذنابها في زمن هيجانها وتطأطىء رأسها وتغير أصواتها وتحمل من نزوة واحدة وتحمل ستة أشهر وتضع عشرين ولدا وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر وقيل أربعة باختلاف البلاد وقيل ثمانية وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل وهذا الجنس أسفد الحيوان والذكر أقوى الفحول وليس لذوات الأربع ما للخنزير في نابه من القوة حتى قيل إنه يضرب به السيف والرمح فينقطع ما لاقاه وإذا التقى ناباه من الطول مات لأنهما حينئذ يمنعانه من الأكل ، ومن عجيب أمره أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها وإذا عض كلبا سقط شعره وإذا مرض وأطعم السرطان يفيق ، ومن عجيب أمره أنه إذا ربط على ظهر حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات ولا يسلخ جلده إلا بالقلع مع شيء من لحمه على ما ذكروا .

خنفساء — دويبة تتولد من عفونات الأرض وبينها وبين العقرب مودة وكنيتها أم فسو لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة .

فائدة : قيل إن رجلا رأى خنفساء فقال ما يصنع الله بهذه فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها فبينما هو ذات يوم وإذا بطرقي يقول من به وجع كذا إلى أن قال من به قرحة تخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به قال ائتوني بخنفساء فضحك منه الحاضرون فقال ائتوه بالذي يطلب فأتوه بها فأخذها فأحرقها وأخذ رمادها وجعل منه على تلك القرحة فبرئت فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئا سدى وأن في أخس المخلوقات أهم الأدوية فسبحان القادر على كل شيء .

الفصيح قول عبدالحميد عند ظهور الخراسانية بشعار السواد : فاثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة وتصحو من هذه السكرة سينضب السيل وتمحى آية الليل . ومثله قول أبي نصر العتبي دب الفشل في تضاعيف أحشائهم وسرى الوهن في تفاريق أعضائهم فجيوب الأقطار عنهم مزروره وذيول الخذلان عليهم مجروره ومثله قول الصابي نزغ به شيطانه وامتدت في الغي أشطانه . ومثله قول بديع الزمان : كتابي إلى البحر وإن لم أره فقد سمعت خبره والليث وإن لم ألقه فقد تصورت خلقه ومن رأى من السيف أثره فقد رأى أكثره . ومثله قول القاضي الفاضل ووافينا قلعة نجم وهي نجم في سحاب وعقاب في عقاب وهامة لها الغمام عمامه وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامه . قلت : ويعجبني في هذا الباب من إنشاء الشهاب محمود قوله في وصف مقدم سرية كشف الإزار في مقاصده أخف من وطأة ضيف وفي مطالبه أخفى من زورة طيف وفي تنقله أسرع من سحابة صيف وأروع للعدا من سلة سيف . ومثله في الحسن قوله في صدر مثال شريف سلطاني أصدرناها والسيوف قد أنفت من الغمود ونفرت من قربها والأسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب وتشوقت إلى الارتواء من قلبها والحماة ما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه والأبطال ليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه

الخواص : إذا قطعت رءوس الخنافس وجعلت في برج الحمام كثر الحمام في ذلك البرج والاكتحال بما في جوفهما من الرطوبة يحد البصر ويجلو الغشاوة والبياض وإذا بخر المكان بورق الدلب هربت منه الخنافس على ما ذكر .

خيل — جماعة الأفراس وسميت بذلك لأنها تختال في مشيتها وهي من الحيوان المشرف ولقد مدحها الله تعالى ووصى بها النبي عليه الصلاة والسلام فقال « الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة » وقال « عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها عز وبطونها كنز » ، وروي عن ابن عباس أو علي رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لما أراد الله تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب وقال إني خالق منك خلقا فاجتمعي فاجتمعت فأتى جبريل فأخذ منها قبضة فخلق الله منها فرسا كميتا وقال خلقتك عربيا وفضلتك على سائر البهائم فالرزق بناصيتك والغنائم تقاد على ظهرك وبصهيلك أرهب المشركين وأعز المؤمنين ثم وسمه بغرة وتحجيل ، فلما خلق الله تعالى آدم قال له يا آدم اختر أي الدابتين الفرس أو البراق ، فقال الفرس يارب ، فقال الله تعالى اخترت عزك وعز أولادك » وفي الحديث « ما من فرس إلا ويقول في كل يوم اللهم من جعلتني له فاجعلني أحب أهله إليه » وقيل الخيل ثلاثة فرس للرحمن وهي للغزو عليها وفرس لك وهي التي تسابق عليها وفرس للشيطان وهي التي جعلت للخيلاء ، وفي الحديث « إن الملائكة لا تحضر شيئا من اللهو إلا في مسابقة الخيل وملاعبة الرجل أهله » ولقد سابق النبي صلى الله عليه وسلم على الخيل ، وقيل إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى ، ولا يرد علينا ركوب جبريل في قصة موسى وفرعون الأنثى لأن ذلك من حكمة الله تعالى حتى تبعتها أحصنتهم فأغرقوا لأن الحصان إذا رأى الحجرة تبعها ، وقيل إن الله تعالى أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يعبر البحر بقومه وهم خلفه فأعمى أعينهم عن الماء فكانوا يرون بلقعا والخيل تراه ماء فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم ، وهي أصناف منها الصافنات وهي التي إذا ربطت في مكان وقفت على إحدى رجليها وقلبت بعض الأخرى في الوقوف ، وقيل غير ذلك ، وكانت الصافنات ألف فرس لسليمان عليه الصلاة والسلام فعرضها يوما ففاتته الصلاة . قيل صلاة العصر فأمر بعقرها فعوضه الله عنها الريح فكانت فرسه ، وقيل إنما عقرها على وجه القربى كالهدي ، وقيل إن الفرس لا يحب الماء الصافي ولا يضرب فيه بيده كما يضرب بها في الماء الكدر فرحا به فإنه يرى شخصه في الماء الصافي فيفزعه ولا يراه في الماء الكدر ، وقد قيل في الحث على حب الخيل .

أحبوا الخيل واصطبروا عليها ... فإن العز فيها والجمالا
إذا ما الخيل ضيعها أناس ... ربطناها فأشركت العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم ... ونكسبنا الأباعر والجلالا

حرف الدال

دابة — اسم لكل ما دب على الأرض وأما التي ذكرها الله تعالى في سورة سبأ ، فقيل الأرضة وقيل السوسة وسبب ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه ودخل فيه وأراد أن يصفو له يوم واحد من دهره فدخل عليه شاب فقال له كيف دخلت

ومنه في الحسن ما كتب به جوابا عن مولانا السلطان الملك المؤيد سقى الله ثراه إلى قرا يوسف ملك العراق يتضمن خطاب الإيناس نظير ما خاطب في مكاتبته ، فمن الجواب قولي وهذه ألفة خولتنا في نعم الله وزمام الأخوة منقاد إلينا وقد تعين على المقر أن يقول أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا وقد سرتنا الإشارة الكريمة بالتمكن من أرض العدا ومطابقة الطول بالعرض وهذا الاسم قد شملته العناية قديما بقوله تعالى ـ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ـ وأما قرا عثمان فقل سيوفنا ما غمضت عنه في أجفانها وأنامل أسنتنا ما ذكرت نوبته إلا شرعت في جس عيدانها وجوارح سهامنا ما برحت تنفض ريش أجنحتها للطيران إليه وإن كان معنى سافلا فلا بد لأجل المقر أن نخيم عليه وينزل سلطان قهرنا بأرضه ويغرس فيها عيدان المران وإن كانت من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان ولم يهمل إلا لاشتغال الدولتين بالدخول في تطهير الأرض من الخوارج وإيقاع الضرب الداخل من حبس العيدان في كل خارج ويدهمه من ابن أبي النصر أبناء حرب شرف في أنساب الوقائع جدهم ورد الجموع الصحيحة إلى التكسير قودهم وإذا كثرت الحدود وتوردت بالدماء عذرت بورق الحديد الأخضر مردهم وإذا امتدوا إلى آمد تلا لهم حصنها في سورة الفتح قبل القتال فإنهم مريدون ولهم شيخ منحه الله بكثرة الفتوح والإقبال وإذا

من غير استئذان فقال أذن لى رب البيت فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه ، فقال سبحان الله هذا اليوم طلبت فيه الصفاء ، فقال طلبت مالم يخلق ، قال وكان قد بقى من بناء المسجد الأقصى بقية ، فقال له يا أخى ياعزرائيل أمهلنى حتى يفرغ قال ليس فى أمر ربى مهلة قال فقبض روحه وكان من عادته الانقطاع فى التعبد شهرين وثلاثة ، ثم يأتى فينظر ماصنعت الجن ، فلما قبض كان متوكئا على عصاه واستمر ذلك مدة والجن تتوهم أنه مشرف عليها فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام حتى أراد الله ما أراد فسلط على العصا الأرضة فأكلتها فخر ميتا فتفرقت الجن عنه ، وقيل إن واحدا منهم مر عليه فسلم فلم يجبه فدنا منه فلم يجد له نفسا فحركه فسقطت العصا فاذا هو ميت قال وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة والعصا التى اتكأ عليها من خرنوب قال الله تعالى ـ فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين ـ قال فشكرت الجن الأرضة حتى قيل إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت . وأما الدابة التى من أشراط الساعة فاختلف فى أمرها فقيل تخرج من الصفا وهو الصحيح وقيل من الطائف ، وقيل من الحجر وطولها ستون ذراعا ذات قوائم وهى مختلفة الألوان وذلك فى ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى أو سائرين إلى منى ومعها عصا موسى وخاتم سليمان لايدركها طالب ولا يفوتها هارب تلحق المؤمن فتضربه بالعصا فتكتب فى وجهه مؤمن وتدرك الكافر فتسمه بالخاتم وتكتب فى وجهه كافر ، وروى أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقل الخير .

داجن — هو مايربيه الناس فى البيوت من صغار الغنم والحمام والدجاج وغير ذلك وفى حديث الإفك «مانعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن تعجن وتنام فتأتى الداجن فتأكل العجين» .

دب — من السباع وكنيته أبو جهينة وأبو جهل وغير ذلك ولايخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء وإذا جاع يمص يديه ورجليه فيندفع جوعه وهو كثير الشبق وينعزل بأنثاه وتضع جروا واحدا وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفا عليه من النمل لأنها تضعه قطعة لحم ثم لاتزال تلحسه وترفعه فى الهواء أياما حتى تنفرج أعضاؤه وتخشن ويصير له جلد وفى ولادتها صعوبة وربما ماتت منها وتضعه ناقص الخلق شوقا منها للسفاد وهى من الحيوان الذى يدعو الانسان للفعل به وقيل إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز ثم يصعد فيرمى بالجوز إليها إلى أن تشبع وربما قطع من الشجرة الغصن العتل الضخم الذى لايقطع إلا بالفأس والجهد ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحدا إلا قتله .

دجاجة — وكنيتها أم ناصر الدين وأم الوليد وغير ذلك وإذا هرمت لم يبق لبيضها مح وتوصف بقلة النوم قيل إن نومها بقدر ماتتنفس وعندها خوف فى الليل ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكانا عاليا وتخشى الثعلب قيل إنها إذا رأته ألقت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع وقيل يعرف الذكر من الأنثى بامساك منقاره فان تحرك فذكر وإلا فأنثى ومن الدجاج مايبيض فى اليوم مرتين وهو من أسباب موتها ويتشكل خلق البيضة فى بطن الدجاجة فى عشرة أيام وفى الحديث «أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر باتخاذ الغنم للأغنياء وباتخاذ الدجاج للفقراء» ومن العجيب فى صنعة الله تعالى أن خلق الفروخ من البياض وجعل الصفار غذاء له كما خلق الطفل من المنى وجعل دم الحيض غذاء له فتبارك الله أحسن الخالقين .

صرفوا الهمم المؤيدية لم تكن حصونهم عند ذلك الصرف مانعة ولم يسمع لسكانها مجادلة إذا صدموا بالحديد وتلت حصونهم فى الواقعة وما خفى عن كريم علمه ماجمعه الناصر من الجموع التى فرقها الله أيدى سبا وكم سئل سائل وقد رآهم فى النازعات عن ذلك العصر بالنبأ وقد أشار منشئ دولتنا الشريفة إلى ذلك فى قصيد كامل بحره مديد والقصد هنا من أبيات ذلك القصيد قوله :

ياحامى الحرمين والأقصى ومن ... لولاه لم يسمر بمكة سامر

والله إن الله نحوك ناظر ... هذا وما فى العالمين مناظر

زحف على الخبون نظم عسكر ... وأطاعه فى النظم بحر وافر

فأبنت منه زحافه فى وقعة ... يامن بأحوال الوقائع شاعر

وجميع هاتيك البغاة بأسرهم ... دارت عليهم من سطاك دوائر

وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة ... فكان هاتيك السروج مقابر

وماخفى عن علمه الكريم أمر الذين نقضوا بيعتنا واشتروا الضلالة بالهدى ودعوا سيوفهم الصقيلة لما حاق بهم المكر السيئ فأجابهم الصدى ولم يكن فى حرارة عزمنا الشريف عند عصيانهم البارد فترة حتى أظهرنا بألوان الشام من دمائهم على تدبيج المروع ألوان البصرة وأخذوا سريعا بشبان حرب ماشابت عوارضهم إلا بغبار الوقائع وحكم برشدهم ولم يخرجوا من تحت حجر الطابع

الخواص

الخواص : لحم الدجاج الفتي يزيد في العقل ويصفي اللون ويزيد في المنيّ ويقيم الباه والمداومة عليه تورث النقرس والبواسير على ماذكر .

دج — طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيرا ، وبالقرب من الاسكندرية ، والناس يصطادونه ويأكلونه .

دود — اسم جنس ومنه دود القزّ ويقال لها الهندية . ومن عجيب أمرها أنها تكون أوّلا مثل بزرالتين ثم تصير دودا وذلك في أوائل فصل الربيع ويكون عند خروجه مثل الذرّ في قدره ولونه ويخرج في الأماكن الدافئة إذا كان مصرورا في حق وربما تأخرخروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصرته فيخرج وغذاؤه ورق التوت الأبيض . قال : ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر أصبع وينتقل من السواد إلى البياض وكل ذلك في مدّة ستين يوما . قال : ثم يأخذ في النسج بما يخرجه من فيه إلى أن ينفد مافي جوفه ثم يخرج شيئا كهيئة الفراش له جناحان لايسكنان من الاضطراب وعند خروجه يهيج إلى السفاد ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتحمان مدّة ثم يفترقان قال : ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء فينثران البزر عليها ثم يموتان : هذا إذا أريد منهما البزر ، وإن أريد الحرير تركا في الشمس بعد فراغهما من النسج فيموت وهو سريع العطب حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس ومسّ المرأة الحائض والرجل الجنب ورائحة الدخان والحرّ الشديد والبرد الشديد ونحو ذلك . قال أبو الفتح البستي :

ألم تر أن المرء طول حياته ... معنى بأمر لايزال يعالجه
كذلك دود القزّ ينسج دائما ... ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

وقال آخر :

يفنى الحريص بجمع المال مدّته ... وللحوادث مايبقى وما يدع
كدودة القزّ ماتبنيه يهلكها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

ديك — وكنيته أبو حسان وأبو حماد وغير ذلك ويسمى الأنيس والمؤانس ، ومن طبعه لايألف زوجة واحدة وهو أبله الطبيعة لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لايهتدى إلى الرجوع إليه وفيه من الخصال الحميدة مالايحصر : منها أنه يساوى بين أزواجه في الطعمة ويذكر الله تعالى في الليل حتى قيل إنه ليوقته ويقسمه وربما لايخرم في توقيته . وفي الحديث «إذا سمعتم صياح الديك فاذكروا الله تعالى فإنه يصيح بصياح ديك العرش» . وروى الغزالى عن ميمون بن مهران : إن لله ملكا تحت العرش على صورة الديك ، فإذا مضى ثلث الليل الأوّل ضرب بجناحه وقال ليقم المصلون ، فاذا مضى الثلث الثاني ضرب بجناحيه وقال ليقم الذاكرون ، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم . وفي الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « إنّ لله ديكا أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ورأسه تحت العرش وقوائمه في الهواء فإذا كان ثلث الليل الأوّل خفق بجناحيه وقال : سبحان الملك القدّوس ، فإذا كان الثلث الثاني خفق بجناحيه وقال : قدّوس قدّوس ، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحيه وقال : ربنا الرحمن الرحيم لاإله إلاهو » . وروى الثعلبي بإسناده عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت قارئ القرآن ، وصوت المستغفر بالأسحار » . وفي الحديث « لاتسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة »

وقد أسبغ الله ظلال الملك وخيم به على الدولتين ولم يظهر لخراب بهجة إلا بهاتين القبيلتين ولوصلت السيوف لغيرهما ماقبلت أوصرفت العوامل إلى غير نحوهما ماعملت ، فقد فهمنا كريم الالتفات إلى أن تدار كؤوس الإنشاء بيننا ممزوجة بصافي المودّة وعلمنا أنها أحكام صحيحة في شرع الأخوّة ولهذه الأحكام عندنا عمده وقد سابق القصد اليوسفي بسهام مراده إلى الغرض وقضى حاجته في نفس يعقوب المحبة ليس عنها عوض ولم يبق إلا اتصال شمل الأوصال بكلّ رسالة سطورها فيرفاع الأخوّة محققة وتصديق مايقصه في كريم جوابه فإن القصة اليوسفية مابرحت مصدقه والله تعالى يمنع الأبصار والأسماع بمشاهدة أمثلته وطيب أخباره ويفكهنا من بين أوراقها بشهي ثماره إن شاء الله تعالى . انتهى مادنت قطوفه من ثمرات الأوراق وحلا في الأذواق السليمة وراق . وهذا

[ذيل ثمرات الأوراق]

للإمام تقي الدين بن حجة رحمه الله تعالى وهي محاضرات لايستغنى عنها وعليها يعوّل فلذلك ألحقت بالأصل في الطبع وجعلت تتمة الأوّل .

بسم الله الرحمن الرحيم

يحكى أن هرون الرشيد حج ماشيا وأن سبب ذلك أن أخاه موسى الهادى كانت له جارية تسمى غادر وكانت أحظى الناس عنده وكانت من أحسن النساء وجها وغناء فغنت يوما وهو مع جلسائه على الشراب إذ عرض له سهو وفكر وتغير لونه وقطع الشراب فقال الجلساء : ماشأنك

يا أمير المؤمنين ؟ قال : قد وقع فى قلبى أن جاريتى غادر يتزوّجها أخى هرون بعدى ، فقالوا يطيل الله بقاء أمير المؤمنين وكلنا فداؤه ، فقال ما يزيل هذا ما فى نفسى وأمر باحضار هرون وعرّفه ما خطر بباله فاستعطفه وتكلم بما يطيب

وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب فى أهله وماله .

نادرة : قيل كان لإبراهيم بن مزيد ديك وكان كريما عليه فجاء العيد وليس عنده شىء يضحى عليه فأمر امرأته بذبحه واتخاذ طعام منه وخرج إلى المصلى فأرادت المرأة أن تمسكه ففرّ فتبعته فصار يخترق من سطح إلى سطح وهى تتبعه فسألها جيرانها وهم قوم هاشميون عن موجب ذبحه فذكرت لهم حال زوجها فقالوا ما نرضى أن يبلغ الاضطرار بأبى إسحق إلى هذا القدر فأرسل إليه هذا شاة وهذا شاتين وهذا بقرة وهذا كبشا حتى امتلأت الدار فلما جاء رأى ذلك قال ما هذا ؟ فقصت عليه زوجته القصة ، فقال : إنّ هذا الديك لكريم على الله فإنّ إسماعيل نبىّ الله فدى بكبش واحد وهذا فدى بما أرى .

حرف الدال

ذباب — وكنيته أبو جعفر وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة . ومن عجيب أمره أنه يلقى رجيعه على الأبيض يسودّ وعلى الأسود يبيض ولا يقعد على شجرة الدباء . وفى الحديث « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه فإنّ فى أحد جناحيه دواء وفى الآخر داء » ، وإنّ من طبعه أن يلقى نفسه بالجناح الذى فيه الداء

وحكى أن المنصور كان جالسا فألحّ عليه الذباب حتى أضجره فقال انظروا من بالباب من العلماء ؟ فقالوا مقاتل بن سليمان فدعا به ثم قال له هل تعلم لأى حكمة خلق الله الذباب ؟ قال ليذلّ به الجبابرة قال صدقت ثم أجازه . ومن خصائص النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يقع عليه ذباب قط . وقال المأمون : قالوا إنّ الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه فلسعنى زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن له ألم ، فقالوا هذا كان حتفا قاضيا ولولا هذا العلاج لقتلك . وقال الجاحظ : من منافع الذباب أنها تحرق وتخلط بالكحل فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما يكون . وقيل : إنّ للمواشط تستعمله ويأمرن به العرائس . وقيل إن الذباب إذا مات وألقى عليه برادة الحديد عاش وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب .

ذئب — حيوان معروف وكنيته أبو جعدة وأبو جاعد وأبو غيانة لونه رمادى ، وهو من الحيوان الذى ينام بإحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تملّ فيغمضها ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه :

ينام بإحدى مقلتيـــه ويتقى   بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وإذا أراد السفاد اختفى ويطوّل فى سفاده كالكلب وإذا جاع عوى فتجتمع الذئاب حوله ، فمن هرب منها أكلوه ، وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه ، وليس فى الأرض أسد بعضّ على عظم إلا ويسمع لتكسيره صوت بين لحييه إلا الذئب فإنّ لسانه يبرى العظم برى السيف ولا يسمع له صوت . وقيل : إذا أدماه الإنسان فشمّ الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه وإن كان أشدّ الناس قلبا وأتمهم سلاحا ، كما أن الحية إذا خدشت طلبها الذرّ فلا تكاد تنجو منه ، وكالكلب إذا عضّ الإنسان يطلبه الفأر فيبول عليه فيكون فى ذلك هلاكه فيحتال له بكل حيلة . قيل : ولا يعرف الالتحام عند السفاد إلا فى الكلب والذئب ، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلهما كيف شاء والله أعلم

أن يتكلم به فى تطييب نفسه فلم يقنع بذلك وقال لابدّ أن تحلف لى قال أفعل وحلف له بكل يمين يحلف بها الناس من طلاق وعتاق وحجّ وصدقة وأشياء مؤكدة فسكن ثم قام فدخل على الجارية فأحلفها بمثل ذلك ولم يلبث إلا شهرا ثم مات فلما أفضت الخلافة إلى هرون أرسل إلى الجارية يخطبها فقالت : ياسيدى كيف بأيمانك وأيمانى فقال أحلف بكل شىء حلفت به من الصدقة والعتق وغيرهما إلا تزوّجتك فتزوّجها وحج ماشيا ليمينه وشغف بها أكثر من أخيه حتى كانت تنام فيضجع رأسها فى حجره ولا يتحرك حتى تنتبه فبينا هى ذات ليلة نائمة إذ انتبهت فزعة فقال لها مالك ؟ قالت رأيت أخاك فى المنام الساعة وهو يقول :

أخلفت وعدك بعد ما   جاورت سكان المقابر
ونسيتنى وحنثت فى   أيمانك الكذب الفواجر
فظللت فى أهل البلا   د وغدوت فى الحور الغرائر
ونكحت غادرة أخى   صدق الذى سماك غادر
لايهنك الالف الجديـد   ولا تدر عنك الدوائر
ولحقت بى قبل الصبا   ح وصرت حيث غدوت صائر

حرف

حرف الراء

رخ — طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين . قال أبو حامد الأندلسي : ذكر لي بعض المسافرين في البحر أنهم أرسوا بجزيرة ، فلما أصبحوا وجدوا في طرفها لمعانا وبريقا فقدموا إليه وإذا هم بشيء مثل القبة قال فجعلوا يضربون فيه بالفؤوس إلى أن كسروه فوجدوه كهيئة البيضة وفيه فرخ عظيم قال فتعلقوا بريشه وجرّوه ونصبوا القدور وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطبا يقال له حطب الشباب ، فلما أكلوا ذلك الطعام اسودّت لحية ولمة كل ذي شيب ، قال فلما أصبحوا جاءهم الرخ فوجدهم قد صنعوا بفرخه ماصنعوا ، فذهب وأتى في رجليه بحجر عظيم وتبعهم بعد ماساروا في البحر وألقاه على سفينتهم فسبقت السفينة وكانت مشرعة بتسع قلوع ووقع الحجر في البحر فنجاهم الله تعالى منه وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم ، قال وقد كان بقي معهم أصل ريشة قيل إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قربة ، فسبحان الخالق الأكبر .

رخم — طير أغبر أصفر المنقار معروف وهو من أشرّ الطيور ، ويقال إنها صماء وسبب ذلك ماقيل في بعض الحكايات أن موسى عليه الصلاة والسلام لما توفي تكلمت بوفاته وكانت تعرف مكانه فأصمها الله تعالى حتى لاترشد أحدا إلى موضعه .

حرف الزاي

زرافة — حيوان غريب الخلقة ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق الله تعالى يديها أطول من رجليها ، وهي ألوان عجيبة يقال إنها متولدة من ثلاث حيوانات : الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والضبع فينزو الضبع على الناقة فتأتي بذكر فينزو ذلك الذكر على البقرة فتتولد منه الزرافة والصحيح أنها خلقة بذاتها ذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا لحكمة .

زنبور — حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه الله حكمة في بنيانه بيته ، وذلك أنه يبنيه مربعا له أربعة أبواب كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربع ، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض ويبقى إلى أيام الربيع فينفخ الله تعالى فيه الروح فيخرج ويطير ، وفي طبعه التهافت على الدم واللحم . ومن خاصيته أنه إذا وضع في الزيت مات وفي الخل عاش ولسعته تزال بعصارة الملوخية .

حرف السين

سعلاة — نوع من المتشيطنة . قال السهيلي : هو حيوان يتراءى للناس بالنهار ويغول بالليل وأكثر مايوجد بالغياض ، وإذا انفردت السعلاة بانسان وأمسكته صارت ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر قال وربما صادها الذئب وأكلها وهي حينئذ ترفع صوتها وتقول : أدركوني فقد أخذني الذئب وربما قالت من ينقذني منه وله ألف دينار وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك فلايلتفتون إلى كلامها .

سمندل — حيوان يوجد بأرض الصين . ومن عجيب أمره أنه يبيض في النار ويفرخ فيها ويؤخذ وبره فينسج ويجعل منه المناشف وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت في النار فتأكل النار وسخها ولاتحرقها .

حكي أن شخصا بلّ واحدة من هذه المناشف بالزيت وجعلت في النار وأوقدت ساعة ولم تحترق .

سنجاب — حيوان كهيئة الفأر يوجد في بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الانسان هرب

والله يا أمير المؤمنين فكأنها مكتوبة في قلبي مانسيت منها كلمة فقال الرشيد هذه أضغاث أحلام فقالت كلا والله ماأملك نفسي وما زالت ترتعد حتى ماتت بعد ساعة . وحكى ابن أبي حجلة في كتابه «سلوك السنن إلى وصف السكن» : أخبرني شمس الدين محمد ابن فراج الحسيني أخبرنا شيخنا أثير الدين أبو حيان أنبأنا فتح الدين بن الدمياطية قال رأيت في المنام شيخا حسن الصورة والشيبة وعليه مزدوجة كأنما يمشي في طريق وأنا راكب دابة فقلت له رافقني فقال ليس الماشي برفيق الراكب فقلت اركب أنت وأمشي أنا فقال المسئلة بحالها ثم أخذنا في الحديث فسألني ماصنعتك ؟ فقلت كاتب فقال كاتب إحسان أو كاتب إنشاء ؟ فقلت شيء من هذا وشيء من هذا فقال ما يدري دعوك عبد الرحيم ولا عبد الحميد ثم قال هل تنظم الشعر ؟ قلت نعم قال أنشدني وكنت قد عملت قصيدا حجازيا وكنت أستجيده فأنشدته إلى أن بلغت قولي :

تركوا إعباء النيل ماء سلسلا
وترشفوا ماء الثمار مكدرا

فقال لي لا شيء ، فقلت لم قلت ذلك وماعيب هذا البيت فقال لو قلت صافيا لكان حسنا وكان طباقا لأن الكدر يقابله الصافي قلت له هذا حسن فمن أنت يرحمك الله قال أبو مرة قلت لاخير ولامير قال بك ثم بعد ذلك بشهر رأيته في المنام على الهيئة المتقدمة فسلم علي سلام من يعرفني ثم قال هل تعرف من الشعر المشوم شيئا قلت نعم قال فأنشدني وكنت قد عملت قطعة شعر حال ضعف

منه وشعره كشعر الفأر وهو ناعم فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فروا يلبس وطبعه موافق لكل طبع وأحسنه الأزرق .

سنور — حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات كناه وأسماؤه كثيرة . حكى أن أعرابيا صاد سنورا فرآه شخص فقال ماتصنع بهذا القط ؟ ولقيه آخر فقال ماتصنع بهذا الخيدع ولقيه آخر فقال ماتصنع بهذا الخيطل ولقيه آخر فقال ماتصنع بهذا الهر قال أبيعه ؟ قال له بكم قال بمائة درهم فقال إنه يساوى نصف درهم قال فرمى به وقال لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل قيمته ، وهذا الحيوان يهيج فى زمان الشتاء فى شهرين منه ، وتراهن يترددن صارخات فى طلب السفاد ، فكم من حرة خجلت وذى غيرة هاجت حميته وعزب تحركت شهوته ، وطيب فم السنور كطيب فم الكلب فى النكهة ، وقيل إن الهرة تحمل خمسين يوما وهو يجمع بين العض بالناب والخمش بالخلاب ولبس كل سبع كذلك ، وهو يناسب الإنسان فى بعض الأحوال فيعطس ويتمطى ويغسل وجهه بلعابه ويلطخ وبر ولده بلعابه حتى يصير كأن الدهن يسرى فى جلده . وقيل إذا بال الهر ثم بوله ودفنه ، قيل لأجل الفأر فإذا شمه علم أن هناك هرا فلم يخرج ، وأما سنور الزباد فهو بأرض الهند ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذيه .

سوس — هو دود الحبوب والفاكهة ، ومن الفوائد التى تكتب فى الحبوب فلا تسوس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة ، وقد نظمها بعضهم فقال :

ألا كل من لايقتدى بأئمة   فقسمته ضيزى عن الحق خارجه
فخذهم عبيد الله عروة قاسم   سعيد أبو بكر سليمان خارجه

حرف الشين

شادهوار — حيوان يوجد بأرض الترك يقال إن له قرنا عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوفة فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش ويقال إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن وأخرى تورث الفرح والضحك وأنه أهدى إلى بعض الملوك شىء من شعبها فرأى فيه ذلك ويقال إن من الحيوان شيئا يوجد بالغياض فى قصبة أنفه اثنا عشر ثقبا إذا تنفس يسمع له صوت كصوت الزمار فتأتيه الحيوانات لتسمعه فتدهش فيغفل بعضها من الطرب فيثب عليه فيأخذه ويأكله وهى تعلم ذلك منه وتحترز فإذا لم يمسك منها شيئا ضاق خلقه وصاح بها صيحة فتهرب وتتركه .

شاهين — طير يكون كهيئة الصقر إلا أنه عظيم الهامة واسع العينين ومزاجه أيبس من مزاج الصقر وحركته من العلو إلى أسفل أقوى ولذلك ينقض على الطير بشدة فربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة فيموت ، وقيل أول من صاده قسطنطين وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار فاتفق فى بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه وسار قال فطار واحد منها وانقض على صيد فأخذه فأعجب الملك ذلك وصار يتصيد به .

شحرور — طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات عجيبة مطربة .

حرف الصاد

صرد — حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له الصوام لأنه أول طير صام يوم عاشوراء . صعو — طير من صغار العصافير أحمر الرأس .

حرف

بالنزلة فأنشدته إياها : لله ماأشكوه من نزلة   قد ضر منها ضيق أنفاسى   ومن صداع ضقت ذرعا به   بانت يدى منه على راسى
فقال هذا والله الشعر ثم قال أضف إليهما : فاعجب إلى داءين قد عززوا   بثالث من داء إفلاس

وحكى فى مرآة الزمان وغيرها فى ترجمة شمس الدين توران شاه بن أيوب أخى السلطان صلاح الدين قال محمد بن على الحكيم الأديب : رأيت شمس الدولة بعد موته فمدحته بأبيات ، فلف كفنه ورمى به إلى وقال :

لاتستقلن معروفا سمحت به   ميتا فأمسيت منه عارى البدن
ولاتظنن جودا شأنه بخل   من بعد بذلى ملك الشام واليمن
إنى خرجت من الدنيا وليس معى   من كل ماملكت كفى سوى الكفن

حكى أنه كان ببغداد شخص يعرف بأبى القاسم الطنبورى صاحب نوادر وحكايات وله مداس له مدة سنين كلما انقطع منه موضع جعل عليه رقعة إلى أن صار فى غاية الثقل وصار يضرب به المثل فيقال أثقل من مداس أبى القاسم الطنبورى فاتفق أنه دخل سوق الزجاج فقال له سمسار ياأبا القاسم قد وصل تاجر من حلب ومعه حمل زجاج مذهب قد كسد فابتعه منه وأنا أبيعه لك بعد مدة بمكسب المثل مثلين فابتاعه بستين دينارا ثم دخل سوق العطارين فقال له سمسار آخر قد ورد تاجر من نصيبين بماورد فى غاية الحسن والرخص

حرف الضاد

ضأن — نوع من الحيوانات ذوات الأربع وهو من الحيوانات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد واثنين وفيها البركة وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة وليس فيها بركة وإذا رعت زرعا نبت عوضه وذلك لبركتها بخلاف غيرها من ذوات الأربع ، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ولا تخاف من سائر السباع . قال بعض القصاص : مما أكرم الله تعالى به الكبش أن خلقه مستور العورة من قبل ومن دبر ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك الستر مكشوف العورة من قبل ومن دبر ويقال الضأن من دواب الجنة وهي صفوة الله من البهائم ويقال في المدح هو كبش من الكباش وفي الذم هو تيس من التيوس . وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال :

تقول لي الاخوان حين طبختها ... أتطبخ شطرنجا عظاما بلا لحم

ومن العجب أنه يأتي غنم من الهند للكبش منها ألية في صدره وأليات في كتفيه وألية على ذنبه وربما تكبر ألية الضأن حتى تمنعه من المشي ، ومن عجيب أمرها أنها إذا تسافدت وقت المطر لاتحمل وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكرا أو جنوبية حملت أنثى والله أعلم .

ومن خواصها أن لحمها ينفع للسوداء ويزيد في المني والباه وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه وإذا دفن قرن كبش تحت شجرة كثر حملها على ماذكر والله أعلم

ضب — حيوان يجعل جحره في الأرض الصلدة وعنده بله فربما لايهتدي لجحره إذا خرج منه فلذلك لايحفره إلا بقرب كودية أو إشارة وهو من الحيوان الذي يعمر ، قيل إنه يعيش سبعمائة سنة ومن طبعه أنه يصبر على الماء يقال إنه لايشرب فانه يبول في كل أربعين يوما قطرة والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر وتجعلها في الأرض وتتعاهدها في كل يوم إلى أربعين يوما فيخرج وبيضها قدر بيض الحمام وهذا الحيوان شديد الخوف من الآدمي ولذلك يجعل العقارب في جحره حتى يمتنع بها ويخرج من جحره كليل البصر فيستقبل الشمس فيحصل له بذلك حدة في بصره وإذا عطش تنشق النسيم فيروى وبينه وبين الأفاعي مناسبة وذلك أنه لايخرج زمن الشتاء .

فائدة : قيل إن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وفي كمه ضب قد صاده وقال لولا أن تسميني العرب عجولا لقتلتك وسررت الناس بقتلك فقال عمر دعني يا رسول الله أقتله فقال عليه الصلاة والسلام مهلا ياعمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيا قال ثم أقبل الأعرابي على النبي صلى الله عليه وسلم وقال والله لا آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب وأخرجه من كمه قال فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ياضب فأجابه بلسان فصيح لبيك وسعديك يارسول رب العالمين فقال من تعبد قال الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الجنة رحمته وفي النار عذابه فقال من أنا ياضب قال رسول رب العالمين قد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك قال فقال الأعرابي عند ذلك ياويلاه ضب اصطدته بيدي من البرية يشهد لك بالرسالة أنا أولى منه بذلك هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقا ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضا مني لك ولقد صرت الآن أذهب من عندك وما على وجه الأرض أحد أكثر محبة مني لك ولأنت الساعة أحب إلي من أهلي وولدي وما تملك يدي فقد آمن بك شعري وبشري

ابتعه منه وأنا أبيعه لك بفائدة كثيرة فابتاعه بستين دينارا أخرى ثم جعله في الزجاج المذهب ووضعه على رف في صدر البيت ثم دخل الحمام بغلس فقال له بعض أصدقائه يا أبا القاسم أشتهي أن تغير مداسك فانه في غاية الوحاشة وأنت ذو مال فقال السمع والطاعة ولما خرج من الحمام ولبس ثيابه وجد إلى جانب مداسه مداسا جديدا فلبسه ومضى إلى بيته وكان القاضي دخل الحمام يغتسل ففقد مداسه فقال الذي لبس مداسي ماترك عوضه شيئا فوجدوا مداس أبي القاسم فانه معروف فكبسوا بيته فوجدوا مداس القاضي عنده فأخذ منه وضرب أبو القاسم وحبس وغرم جملة مال حتى خرج من الحبس فأخذ المداس وألقاه في الدجلة فغاص في الماء فرمى بعض الصيادين شبكة فطلع فيها المداس فقال هذا مداس أبي القاسم والظاهر أنه سقط منه فحمله إلى بيت أبي القاسم فلم يجده فرماه من الطاق إلى بيته فسقط على الرف الذي عليه الزجاج فتبدد ماء الورد وانكسر الزجاج فلما رأى أبو القاسم ذلك لطم على وجهه وصاح وافقراه وأفقرني هذا المداس ثم قام يحفر له في الليل حفرة فسمع الجيران حس الحفر فظنوا أنه نقب فشكوه إلى الوالي فأرسل إليه من اعتقله وقال له تنقب على الناس حائطهم اسجنوه ففعلوا فلم يخرج من السجن إلى أن غرم جملة مال فأخذ المداس ورماه في مستراح الخان فسد قصبة المستراح وفاض فكشف الصناع ذلك حتى وقفوا على موضع السد فوجدوا

مداس أبي القاسم فحملوه إلى الوالي وحكوا له ما وقع فقال غرّموه المصروف جملة فقال مابقيت أفارق هذا المداس وغسله وجعله على السطح حتى يجف فرآه كلب فظنه رمة فحمله وعبر به إلى سطح آخر فسقط على امرأة حامل فارتجفت

وأسقطت ولدا ذكرا فنظروا ما السبب فاذا مداس أبي القاسم فرفع إلى الحاكم فقال يجب عليه غرة فابتاع لهم غلاما وخرج وقد افتقر ولم يبق معه شيء فأخذ المداس وجاء به إلى القاضي وحكى له جميع ما اتفق له فيه وقال أشتهي أن يكتب مولانا القاضي بيني و بين هذا المداس مبارأة بأنه ليس مني ولست منه وإني بريء منه ومهما فعله يؤاخذ به ويلزمه فقد أفقرني فضحك القاضي ووصله بشيء ومضى انتهى. (هذه قصيدة ليزيد بن معاوية وهي عزيزة الوجود) :

وسرب كعين الديك ميل إلى الصبا
روائع بالحادي سود المدامع
سمعن غناء بعد ما عنّ نومة
من الليل يلهن فوق المضاجع
أيادهن هل شرخ الشبيبة راجع
مع الخفرات البيض أو غير راجع
قنعت بزور من خيال بعثته
وكنت بوصل منهم غير قانع
إذا رمت من ليلى على البعد نظرة
لتطفى جوى بين الحشا والأضالع

وداخلي وخارجي وسرّي وعلانيتي فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي هداك لهذا الدين الذي يعلو ولا يعلى عليه ولكن لايقبله الله إلا بصلاة ولايقبل الصلاة إلا بقراءة قال فعلمني ياحبيبي قال فعلمه سورة الفاتحة وسورة الإخلاص وقال من قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن وقال إلهنا يقبل اليسير ويعفو عن الكثير ثم سأله ألك مال فقال ياحبيبي ليس في بني سليم أفقر مني فقال لأصحابه أعطوه فأعطوه حتى أثقلوه فقال عبد الرحمن بن عوف يارسول الله عندي ناقة عشارية أعطيها له فقال إن الله يعطيك ناقة في الجنة من درة قوائمها من الزبرجد الأخضر وعيناها من الياقوت الأحمر وعليها هودج من السندس تخطفك من الصراط كالبرق قال فخرج الأعرابي من عنده فتلقاه ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرهم بقصته فأسلموا عن آخرهم وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد عليهم وهذه القصة ذكرها الدارقطني بتمامها والبيهقي والحاكم وابن عدي .

الخواص : قلبه يذهب الحزن والخفقان وشحمه يطلى به الذكر يزيد في الباه وكعبه يشد على وجع الضرس يبرأ وإذا جعل على وجه فرس لايسبقه شيء وبعره يذهب البرص والكلف طلاء ومن أكل لحمه لايعطش زمانا طويلا .

ضبع — حيوان معروف ومن كناه أم عامر ومن طبعه حبّ لحم الآدمي حتى قيل إنه ينبش القبور وإذا مرّ بانسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه وبقر بطنه وشرب دمه .

الخواص : من شرب دمه ذهب وسواسه ومن علق عليه عينه أحبه الناس وإذا جعلها في خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم فكل من كان به سحر وجعل الخاتم في قليل ماء وشربه زال سحره .

ضفدع — حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجرى ومن العفونات وعقيب الأمطار وأول مايظهر مثل الحب الأسود ثم ينمو ثم تتشكل له الأعضاء وإذا نقّ جعل فكه الأسفل في الماء والأعلى من خارج وفي صوته حدة . قال سفيان ليس من الحيوان أكثر ذكرا لله تعالى من الضفدع . وفي الآثار أن داود عليه الصلاة والسلام قال لأسبحن الله تعالى بتسبيح ماسبحه أحد قبلي فنادته ضفدعة ياداود تمنّ على الله تعالى بتسبيحك وأنا لي تسعون سنة ماجف لساني عن ذكر الله تعالى قال فما تقولين في تسبيحك ؟ قالت أقول : سبحان من هو مسبح بكل لسان سبحان من هو مذكور بكل مكان فقال داود وما عسى أن أقول . وقال بعضهم : إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل والله سبحانه وتعالى أعلم .

حرف الطاء

طاوس — طير مليح ذو ألوان عجيبة وعنده الزهوّ في نفسه والعجب ومن طبعه العفة وهو من الطير كالفرس من الحيوان والأنثى تبيض حين يمضي لها من العمر ثلاث سنين وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذكر ويتم لونه وتبيض الأنثى مرة واحدة في كل شهر ففي السنة اثنتا عشرة بيضة أو أقل أو أكثر ويسفد الذكر في أيام الربيع ويرمي ريشه في أيام الخريف كالشجر فاذا بدا طلوع الورق طلع ريشه ومدة حضنه ثلاثون يوما .

فائدة : قيل إن آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس لعنه الله فذبح عليها طاوسا فشربت دمه فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قردا فشربت دمه فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسدا فشربت دمه فلما انتهت

ثمرتها

ثمرتها ذبح عليها خنزيرا فشربت دمه فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه ويميس عجبا كالطاووس فاذا جاء مبادى السكر لعب وصفق بيديه كالقرد فاذا قوى سكره قام وعربد كهيئة الأسد فاذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير ثم يطلب النوم والناس تتشاءم باقامته بالدور قيل لأنه كان سببا لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها والله على كل شيء قدير .

حرف الظاء

ظبي — واحد الغزلان وهو ثلاثة أصناف الأول الآرام وهو ظباء الرمل ولونها رمادي وهي سمينة العنق والثاني العفر ولونها أحمر وهي قصيرة العنق والثالث الأدم وهي طويلة العنق وتوصف بحدة البصر وقيل إن الظبي يقضم الحنظل قضما ويمضغه مضغا وماؤه يسيل من شدقيه ويرد الماء الملح فيشرب الماء الأجاج ويغمس خرطومه فيه كما تغمس الشاة لحييها في الماء العذب ، فأي شيء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلى مرارة الحنظل .

الخواص : لسانه يجفف ويطعم المرأة السليطة تزول سلاطتها وبعره وجلده يحرقان ويسحقان ويجعلان في طعام الصبي يزيد ذكاؤه ويصير فصيحا ذلقا حافظا .

ظربان — دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح تزعم العرب أن من صادها وفست في ثوبه لا تزول الرائحة منه حتى يبلى الثوب ويحكى من شؤمها أنها تأتي بيت الظبي فتفسو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه وتأكله بعد ذلك .

حرف العين

عجل — حيوان معروف وهو ذكر البقر وسمي بذلك لاستعجال بني إسرائيل بعبادته ، والسبب في ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام وقت الله له ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامري في قلبه من حب عبادة البقر شيء فابتلى الله به بني إسرائيل فقال ائتوني بحلي قال فأتوه بجميع حليهم فصنع منه عجلا جسدا وألقى عليه قبضة من التراب الذي كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار كما أخبر الله تعالى فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون فيخرج منه تصويت كهيئة الكلام فيتعجبون من ذلك ويظنون أنه تكلم وإنما فعل ذلك باغواء إبليس لعنه الله حتى يطغيهم .

فائدة : نقل القرطبي عن سيدي أبي بكر الطرطوشي رحمهما الله أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان فيقرءون من القرآن ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ويطربون ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة هل الحضور معهم حلال أم حرام ؟ فقال : مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة وضلالة وما الاسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذوا العجل فهذه الحالة هي حالة عباد العجل ، وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في جلوسهم كأنما على رؤوسهم الطير مع الوقار والسكينة فينبغي لولاة الأمر وفقهاء الاسلام أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم هذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى

وما عهد ليلى إن تناءت بضائع

ومن غريب ما يحكى : أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان والمتزوجة بعبد الملك بن مروان حرمت على اثنى عشر من الخلفاء من بني أمية معاوية جدها ويزيد أبوها ومروان أبو زوجها والوليد وسليمان وهشام بنو عبد الملك أولاد زوجها والوليد بن يزيد ابن ابنها ويزيد بن الوليد ابن زوجها وإبراهيم بن مروان بن الوليد بن زوجها أيضا ويزيد بن عبد الملك ابنها ومعاوية بن يزيد ابن معاوية أخوها وزوجها عبد الملك بن مروان ولم يتفق ذلك لامرأة غيرها انتهى .

وجد بخط قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر حافظ العصر قال : وجد بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى ابن أبي حجلة التلمساني قال أنشدني القاضي فخر الدين عبد الوهاب المصري لنفسه في الأهرام سنة خمس وخمسين وسبعمائة وأجاد :

أهرام مصر كم من واعظ صدع القلوب ولم يفه بلسانه
أذكرني قولا تقادم عهده أين الذي الهرمان من بنيانه
هن الجبال الشامخات تكاد أن تمتد فوق الأفق عن كيوانه

عقرب — هو من الحشرات قال الجاحظ إنها تلد من فيها مرتين وتحمل أولادها على ظهرها وهم كهيئة القمل كثيرو العدد ، وقال غيره إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا كهيئة الذر ثم يكبرون ويطوفون بالأرض ولها ثمانية أرجل ، ومن عجيب أمرها أنها لا تضرب النائم إلا إذا تحرك شئ منه والخنافس تأوى إليها وربما لسعت التنين العظيم فقتلته .

غريبة — قال ذو النون المصرى بينما أنا فى بعض سياحتى إذ مررت بشاطئ البحر فرأيت عقربا أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطئ البحر فظننت أنه يشرب فقمت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء وأتاه فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب قال ذو النون فاتزرت بمئزرى وعمت خلفه حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة فوجدت تحتها غلاما نائما من شدة السكر قد أقبل عليه تنين عظيم قال فلصقت العقرب برأس التنين ولسعته فقتلته ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعبر بها الماء وسار بها إلى المكان الذى جاءت منه قال ذو النون فتعجبت من ذلك وأنشدت :

يا راقدا والجليل يحفظه ... من كل سوء يكون فى الظلم
كيف تنام العيون عن ملك ... يأتيك منه فوائد النعم

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك قال فلما سمع ذلك قال أشهدك على أنى قد تبت عن هذه الخصلة ثم جرينا ذلك التنين ورميناه فى البحر ولبس ذلك الغلام مسحا وساح إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه وما أحسن ما قال بعضهم :

إذا لم يسالمك الزمان فحارب ... وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب
ولا تحتقر كيد الضعيف فربما ... تموت الأفاعى من سموم العقارب
فقد هدّ قدما عرش بلقيس هدهد ... وخرّب فأر قبل ذا سد مأرب
إذا كان رأس المال عمرك فاحترز ... عليه من التضييع فى غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك ... يكر علينا جيشه بالعجائب

فائدة : إذا لدغ أحد فاقرأ عليه هذه الكلمات وهى سلام على نوح فى العالمين وصلى الله على سيدنا محمد فى المرسلين من حاملات السم أجمعين لا دابة بين السماء والأرض إلا ربى آخذ بناصيتها كذلك يجزى عباده المحسنين إن ربى على صراط مستقيم نوح قال لكم من ذكرنى لا تلدغوه إن ربى بكل شئ عليم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم . وقال بعض العلماء من قال عقدت زبان العقرب ولسان الحية ويد السارق بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أمن من العقرب والحية والسارق ، وفى البخارى « أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال يا رسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتنى البارحة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أما إنك لو قلت إذا أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك » وروى الترمذى « أن من قال حين يمسى أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات ثم قال سلام على نوح فى العالمين لم تضره الحية والعقرب » والسر فى ذكر نوح دون غيره هو أنه لما ركب فى السفينة سألته الحية والعقرب أن يحملهما معه فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك .

لو أن كسرى جالس فى سفحها ... لأجل مجلسه على إيوانه
ينبث على حر الزمان وبرده ... مددا ولم تأسف على حدثانه
والشمس فى إحراقها والريح عند ... هبوبها والسيل فى جريانه
هل عابد قد خصها بعبادة ... فبانى الاهرام من أوثانه
أو قائل يقضى برجعة نفسه ... من بعد فرقته إلى جثمانه
فاختارها الكنوزه ولجسمه ... قبرا ليأمن من أذى طوفانه
أو أنها للسائرات مراصد ... يختار راصدها أعز مكانه
او أنها وضعت بيوت كواكب ... أحكام فرس الدهر أو يونانه
أو أنهم نقشوا على حيطانها ... علما يحار الفكر فى بيانه
فى قلب رائيها ليعلم نقشها ... فكرٌ يعض عليه طرف بنانه

يحكى أن القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى كان يمر على الناس ولا يسلم عليهم فلامه بعض أصحابه فى ذلك فقال :

يقولون لى فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وإنى إذا ما فاتنى الأمر لم أكن ... أقلب كفى إثره متندما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا مطمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى ... ولا كل من فى الأرض أرضاه منعما

الخواص : من بخر البيت بزرنيخ أحمر وشحم بقرهربت منه العقارب ، ومن شرب مثقالين من حبّ الأترج أبرأه من سمها ، ومن علق عليه شيء من ورق الزيتون برئ أيضا لوقته .

عقعق — طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة وهو لا يأوى إلا الأماكن العالية وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب خوفا عليه من الخفاش لا يفسده .

الخواص : دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل والشوكة الغائبة فى البدن أخرجه.

علق — دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والآدمى فإذا علقت بك فرش عليها ماء وملحا ، وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه .

ومن خواصه : أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البقّ والبعوض وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطلى به مكانه منع نباته .

عنقاء — اختلف فيها ، فقال بعضهم هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان وفيه من كل حيوان لون . وقال بعضهم هو طائر غريب الشكل يبيض بيضا كالجبال ويبعد فى طيرانه ، وسميت بذلك لأنه كان فى عنقها طوق أبيض . قال القزوينى : إنها تخطف الفيلة لعظمها وكبر جثتها كما تخطف الحدأة الفأر . وقال : وكانت فى قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروسا بحليها فذهب أهلها إلى نبيّ ذلك الزمان فشكوها إليه فدعا عليها فذهب بها إلى بعض الجزائر التى خلف خط الاستواء وهى جزيرة لا يصل إليها أحد وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالفيل والكركند وغير ذلك وقال أصحاب التواريخ : إن هذا الطير يعمر حتى قيل إنه يعيش ألفى سنة ويتزوّج إذا مضى عليه خمسمائة .

وحكى الزمخشرى فى ربيع الأبرار أن الله تعالى خلق فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيرا يقال له العنقاء له وجه كوجه الإنسان وأربعة أجنحة من كل جانب وخلق له أنثى مثله ، ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أنى خلقت خلقا كهيئة الطير وجعلت رزقه الوحوش والطير التى حول بيت المقدس . قال : فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفى موسى عليه الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العبسى فشكوها له فدعا عليها فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت .

عنكبوت — دويبة لها ثمانية أرجل وستة عيون وهو من الحيوان الذى صيده الذباب وولده يخرج قويا على النسج من غير تعليم ولا تلقين ويخرج أولاده دودا صغيرا ثم يتغير ويصير عنكبوتا وتكمل صورته .

فائدة : قيل إن امرأة ولدت جارية ثم قالت الخادم لها : اقتبس لنا نارا ، فخرج فوجد بالباب سائلا فقال له ما ولدت سيدتك ؟ فقال بنتا ، فقال لا تموت حتى تبغى بألف رجل ويتزوّجها خادمها ويكون موتها بالعنكبوت ، فقال الخادم : وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل فصبر حتى قامت أمها لتقضى بعض شئونها وعمد إلى البنت فشقّ بطنها بسكين وهرب . قال : فجاءت أمها فوجدتها على تلك الحالة فدعت بمن يعالجها حتى شفيت فلما كبرت بغت . قال : ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر فأقامت هناك تبغى . قال وأما الرجل فإنه صار من التجار

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما أنهنهها عن بعض ما لا يشينها مخافة أقوال العدا فيم أو لما ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيت لكن لأخدما أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما قال شيخ الإسلام تاج الدين عبد الوهاب بن شيخ الإسلام تقىّ الدين السبكى الشافعى سقى الله عهده : لقد صدق هذا القائل لو عظموا العلم عظمهم قال : وأنا أقرأ قوله لعظم بفتح العين فإن العلم إذا عظم تعظم وهو فى نفسه عظيم ولكن أهانوه فهانوا ولكن الرواية فهان وعظم بضمّ العين والأحسن ما أشرف إليه انتهى قال الشيخ الإمام العالم العلامة تاج الدين عبد الوهاب بن السبكى فى أجوبته عن الاعتراضات التى على جمع الجوامع : ومن ظريف ما يستفاد قول أبى نواس : أباح العراقى النبيذ وشربه وقال حرامان المدامة والسكر وقال الحجازى الشرابان واحد فحلت لنا من بين قوليهما الخمر سآخذ من قوليهما طرفيهما وأشربها لا فارق الوازر الوزر وقد سألنى الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى رحمه الله عن معنى هذه الابيات ومعناها أن العراق وهو أبو حنيفة رحمه الله أباح النبيذ وحرم المدامة

وهى الخمر أسكرت أم لم تسكر وحرم أيضا المسكر من كل شىء ، وأن الحجازى وهو الشافعى رحمه الله قال الشرابان واحد فأخذ أبو نواس بالموجب فكأنه قال إنهما واحد ولكن فى الحل لا فى الحرمة وإليه الإشارة بقوله * خلت لنا من بين قوليهما الخمر * ثم هذا إنما ذكره أبو نواس على عادة الشعراء فى الكيس والظرافة ولا يقصد حقيقته فانه لايقول به أحد ولعله أشار بقوله سآخذ من قوليهما طرفيهما إلى آخره أنه لايعتقده بل هو شاعر كما يقول ولا يفعل كذلك لايعتقد فهو على مازعم يشربها وإن لم يعتقد الحل إذ كيف يعتقد مالم يقله مسلم وكيف يمكن أن يقال إنه يعتقد الحل وقد قال : لافارق الوازر الوزر ، فهذا إنشاء معنى هذه الأبيات وهى على كل حال من كلمات الشعراء التى لايحتج بها فى دين الله تعالى .

اعتل ذو الرياستين الفضل بن سهل بخراسان مدة طويلة ثم أبل واستقبل وجلس للناس فدخلوا إليه وهنأوه بالعافية فأنصت لهم حتى انقضى كلامهم ثم اندفع فقال : إن فى العلل لنعما لاينبغى للعقلاء أن يجهلوها منها تمحيص الذنوب وثواب الصبر وإيقاظ من الغفلة وإذكار بالنعمة فى حال الصحة واستدعاء للتوبة وحض على الصدقة ورضاء بقضاء الله وقدره ، فانصرف الناس بكلامه ونسوا ماقاله غيره اهـ .

حكى عن ابن المبارك أنه قال : حججت إلى بيت الله الحرام ، فبينما أنا فى الطواف وإذا

وقدم بتلك المدينة ومعه مال كثير فقال لامرأة عجوز هناك : اخطبى لى امرأة حسنة أتزوج بها . قال : فوصفتها له وقالت ليس هنا أحسن منها ولكنها تبغى ، فقال للعجوز ائتنى بها . قال فذهبت وأخبرتها بالقصة ، فقالت لها حبا وكرامة فإنى قد تبت عن البغى ، فتزوج الرجل بها وأحبها حبا شديدا وأقام معها أياما ، وكان يود أن يراها متجردة فلم يمكنه ذلك حتى إذا كان فى بعض الأيام خرج على عادته لقضاء أشغاله ودخلت هى الحمام وعرضت له حاجة فرجع إلى الدار وصعد إلى قصرها فلم يرها ، فسأل عنها فقيل له هى فى الحمام فدخل عليها فرآها متجردة ورأى فى بطنها أثرا كالخياطة ، فقال ماهذا ؟ قالت له : لا أعلم إلا أن أمى أخبرتنى أنه كان لنا خادم وأنه كان يوم ولادتى غافل أمى وشق بطنى بسكين وهرب ، وأنها حين رأتنى كذلك دعت بعض الأطباء فخاط بطنى وعالجنى حتى اندمل جرحى وشفيت وبقى هذا الأثر ، فقال لها : أنا ذلك الخادم وحكى لها السبب وأن ذلك السائل أخبره أنها تموت بالعنكبوت ، ثم إنه اهتم بأمرها وجمع مهندسى البلدة التى هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لاينسج عليه العنكبوت ، فقالوا : كل بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لنعومته لاينسج عليه ، فأمرهم أن يصنعوا لها قصرا من البلور وبذل لهم ماأرادوا فعملوه وفرشه ، وأمرها أن تقيم فيه ولا تخرج منه خوفا عليها من العنكبوت . قال : فبينما هو ذات يوم إذ رأى عنكبوتا قد نسج فى ذلك القصر ، فقام إليه فرماه وقال لها : هذا الذى يكون موتك منه . قال : فداسته بإبهامها وقالت كالمستهزئة أهذا الذى يقتلنى ! فشدخته فتعلق بطرف إبهامها من مائه شىء فعمل بها حتى ورمت ساقها ثم وصل الورم إلى قلبها فقتلها فما أفاده قصره ولا صرحه شيئا . قال الله تعالى ـ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ـ .

فائدة : نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع : على غار النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعثه النبى صلى الله عليه وسلم لخالد الهذلى فقتله وحمل رأسه ودخل به فى غار خوفا من أهله ونسج على عورة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم لما صلب عريانا . وقيل إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه .

الخواص : نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها ويجلو الفضة إذا دلكت به والذى يوجد من نسجها فى بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به .

ابن عرس — حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ويسمى العرسة وهو عدو للفار وعنده الحيل قيل إنه عدا خلف فأر فصعد منه على شجرة فصعد خلفه وأمر أنثاه أن تقف تحت الشجرة ثم قطع الغصن الذى كان عليه الفأر فسقط فأخذته أنثاه . ومما يحكى عنه أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه .

عجيبة : قيل إن رجلا صاد فرخا من أولاده وحبسه تحت طاسة فجاء أبوه فوجده فذهب وأتى بدينار فوضعه فلم يفلته ، ثم ذهب وأتى بآخر وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنانير فلم يفلته ، ثم أتى بخرقة فأراد ابن عرس أن يأخذ مابرطله به . فلما علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شىء فأفلته له .

حرف الغين

غراب — وكنيته أبو حاتم وله كنى غير ذلك وهو أنواع كثيرة : منها الأكحل وغراب الزرع والأزرق وهذا النوع يحكى جميع ماسمعه والعرب تتفاءل بصياح الغراب فتقول إذا صاح مرتين فشر

وإذا صاح ثلاثة فخير وهو كالإنسان عند الجماع وفي طبعه الاستتار عن الناس عند مجامعته والأنثى تبيض ثلاثا أو أربعا أو خمسا وتحضن ذلك والأب يسعى في طعمتها إلى أن تفرخ ، فإذا فرخت خرجت أفراخها قبيحة المنظر فتتفرق عنها وتتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتتغذى به ، ثم لا تزال تتعاهدها حتى ينبت لها الريش فتأتيها ، ومنه قول الحريري :

يارازق النعاب في عشه   وجابر العظم الكسير المهيض

ومن طبعه أنه لايتعاطى الصيد بل إن وجد رمة أكل منها و يقم من الأرض ماوجد و يسمى بالفاسق لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء فوجد في طريقه رمة فسقط عليها وترك ماأرسل إليه و يسمى بالبين لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق في أثرهم . ومن الغرائب أن بين الغراب و بين الذئب ألفة وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها معه والذئب لايضره .

الخواص : إذا غمس الغراب في الخل ثم جفف وسحق ريشه وطلى به الشعر سوده ، وإذا علق منقاره على إنسان زالت عنه العين ، وزبل الغراب الأبقع ينفع الخوانيق والخنازير طلاء ، وإن صر في خرقة على من به السعال زال .

غرغر — دجاج بني إسرائيل ، يقال إن فرقة من بني إسرائيل كانت بتهامة فطغت و بغت وتجبرت وكفرت فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة وكلابهم الأسود وعنبهم الأراك وجوزهم القل ودجاجهم الغرغر وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه لرائحته الكريهة وهذا مشاهد في زماننا هذا الآن على مانقل والله سبحانه وتعالى أعلم .

حرف الفاء

فاختة — طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت ، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها وفي طبعها الأنس ، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها في البيوت وهي من الحيوان الذي يعمر وقد ظهر منها ماعاش خمسا وعشرين سنة .

الخواص : دمها ينفع من الآثار في العين من ضربة أوقرحة إذا قطر فيها .

فأرة — وكنيتها أم خراب وغير ذلك وتسمى بالفويسقة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم انتبه ليلة فوجدها قد جذبت الفتيلة وأحرقت طرف سجادته فقتلها وأمر بقتلها ، وهي التي قطعت حبل سفينة نوح عليه السلام وأذاها لايكاد ينحصر ومنه أنها تأتي إلى إناء الزيت فتشرب منه فإذا نقص صارت تشرب بذنبها فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت في فيها بماء وأفرغته فيه حتى يعلو لها الزيت فتشربه وربما وضعت فيه حجرا فكسرته و يقال إنها من بقايا الممسوخين الذين كانوا يهودا ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة في إناء فإن لم تشربه فهي منهم .

الخواص : عينه تشد على الماشي يسهل تعبه وإذا بخر البيت بزبل الذئب أو الكلب ذهب منه الفأر

فرس البحر — حيوان غليظ ووجها فطس الوجه ناصيته كالفرس ورجلاه كالبقر وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير وجلده يوجد بالنيل ووجهه أوسع من وجه الفرس ، يصعد البر و يرعى الزرع وربما قتل الإنسان وغيره .

فهد — حيوان شرس الأخلاق . قال أرسطو : هو متولد من الأسد والنمر وفي طبعه مشابهة بطبع الكلب ونومه ثقيل ، وفي طبعه الحنو على أنثاه ، وقيل أول من صاد به كليب بن وائل ،

إذ عييت فجلست أستريح ووضعت رأسي على ركبتي فغلبني النوم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول يا ابن المبارك إذا أنت قضيت حجك وحللت عقدك ورجعت إلى أرض العراق ودخلت دار السلام فاقصد المحلة التي بها بهرام المجوسي فإذا لقيته فأخبره أن النبي العربي محمدا صلى الله عليه وسلم يسلم عليك وهو يقول لك أبشر فإن قصرك في الجنة غدا من أقرب القصور إلى قصري ، قال عبد الله فانتبهت لذلك فزعا مرعوبا وتفكرت ساعة فغلبني النوم ثانيا فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أيضا يقول يا ابن المبارك لاتشك في منامك فهو حق والشيطان لايتمثل بصورتي قط فإذا قضيت حجك وحللت عقدك وانصرفت إلى العراق فاطلب هذا المجوسي بهرام وبشره بما قلت لك ، فانتبهت أيضا فزعا مرعوبا واستعذت بالله واستغفرته وتفكرت ساعة فغلبني النوم فنمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ثالث مرة وهو يقول يا ابن المبارك أنا محمد رسول الله فلا ترتبك في ذلك وامتثل أمري فهو حق فقلت يا رسول الله أريد بذلك علامة ألقاه بها فأخذ رسول الله كفي بيمينه ثم قال يا ابن المبارك هذا المجوسي شيخ زمن قد أتى عليه مائة وأربعون سنة وقد ضعف بصره وثقل سمعه وابيض شعره ودق عظمه ويبس عصبه وجلده . فإذا أتيته وسلمت عليه وبشرته بما قلت لك وطلب منك علامة فامسح بيدك هذه التي أخذتها بيميني

وأوّل من حمله على الحيل يزيد بن معاوية وأكثر من اشتهر باللعب به أبومسلم الخراسانى .

فيل — حيوان يوجد بأرض الهند وكنيته أبوالحجاج والأنثى أم سبل ، وهو ينزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين وتحمل أنثاه سنتين ثم تضع ولايقربها الذكر فى مدة حملها ولابعده بثلاث سنين ولايلقح إلا ببلاده ، وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجليها لاينثنيان فتخاف عليه والذكر يحرسها خوفا على ولده من الحيات فانها تأكله وهو عند شدة غلمته كالجمل ويهيج فى زمن الربيع ، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه ، وقيل إن ثديه فى صدره كالانسان وهو أضخم الحيوان وأعظمه جرما وماظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلثمائة منّ وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم رشيق وربما مرّ الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد فلا يشعر برجله ولا يحس بمروره لخفة همسه واحتمال بعض جسده لبعض ، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل قرناه يخرجان مستبطنين حتى يخرقان وخرطوم الفيل أنفه ويده وبه يتناول الطعام إلى جوفه وبه يقاتل وبه يصيح وصياحه ليس فى مقدار جرمه ، وقيل إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه كما يغيب الجاموس جميع بدنه إلا منخريه ويقوم خرطومه مقام عنقه والخرق الذى فى خرطومه لاينفذ وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أوماء أولجه فى فيه لأنه قصير العنق لاينال ماء ولامرعى وأهل الهند تجعله فى القتال وهو أيضا يقاتل مع جنسه فمن غلب دخلوا تحت أمره ، وقيل جعل الله فى طبع الفيل الهرب من السنور .

حكى عن هرون مولى الأزد أنه خبأ معه هرا ومضى بسيف إلى الفيل ، فلما دنا منه رمى بالهر فى وجهه فأدبر هاربا وكبر المسلمون وظنوا أنه هرب منه . قال أبوالشمقمق .

ياقوم إنى رأيت الفيل بعدكم ... تبارك الله لى فى رؤية الفيل
رأيت بيتا له شىء يحركه ... فكدت أفعل شيئا فى السراويل

وقيل : إذا اغتم الفيل لم يكن لسواسه همّ إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه ، ومن عجيب أمره أن سوطه الذي به يحث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه فى جبهته والآخر فى يد راكبه فاذا أراد شيئا غمزه به فى لحمه ، وأول شىء يؤدّبون به الفيل يعلمونه السجود للملك . قيل : خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل وأحدق به ثلاثون ألف فارس ، فلما رأته الفيلة سجدت له فما رفعت رءوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيالون ، وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقا غليظا سائلا أطيب من رائحة المسك ولا يعرض ذلك العرق إلا فى بلادها خاصة وأن عظام الفيل كلها عاج إلا أن جوهر نابه أكرم وأمتن ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة فى قوله : نحن أكثر منكم عاجا وساجا وديباجا وخراجا . وقيل إن الفيلة لاتتسافد فى غير بلادها .

فائدة : من قرأ سورة الفيل ألف مرة فى كل يوم عشرة أيام متوالية ثم جلس على ماء جار وقال : اللهم أنت الحاضر المحيط بمكنونات الضمائر ، اللهم عزّ الظالم وقلّ الناصر وأنت المطلع العالم اللهم إن فلانا ظلمنى وأساءنى ولايشهد بذلك غيرك أنت مالكه فأهلكه ، اللهم سربله سربال الهوان وقمصه قميص الردى ، اللهم اقصفه ست مرات ، اللهم اخفضه مرتين ، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، فان الله يستجيب له مالم يكن ظالما .

على رأسه ومرّ بها على وجهه وسائر جسده وبدنه فانه يعود شابا ويرجع إليه بصره وسمعه ويسودّ شعره ويطرى جسده ويقوى عصبه وتعود إليه قوته فانتبهت وأنا كالولهان ، فلما أن قضيت حجى وحللت عقدى وانصرفت إلى العراق ودخلت بغداد سألت عن دار المجوسى فقلت ياغلام استأذن لى على مولاك فقال الغلام أغريب أنت ؟ قلت أجل قال ادخل ليس هنا من يحجبك قال فدخلت إلى دار لم أر مثلها وإذا بكتبة ومجوس وصيارف قعود وهم يقتضون الرهون ويعطون الدنانير والدراهم فقلت ياقوم أفيكم بهرام فقيل ادخل الدار الثانية فدخلتها فاذا ليس بينها وبين الدار الأولى نسبة بل تفاوت وإذا بشيخ قاعد على دست ومرتبة على الصفة التى وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله جماعة من الكتاب والحساب وبين أيديهم الدنانير والدراهم كالبيادر الصغار وهم فى الحساب فسلمت كما أمرنى النبىّ صلى الله عليه وسلم فردّ علىّ السلام وكان قد شدّ حاجبيه بعصابة فرفعها عن عينه ثم قال من الرجل ؟ قلت عبد الله بن المبارك فقال مرحبا بك لقد شممت بك رائحة زال بها الهم عن قلبي ادن منى ، فجلست إلى جانبه فقال هل لك من حاجة ؟ قلت نعم قال وماهى قلت أرى أن أخلو بك ساعة فقال نعم وأمر من هناك بالخروج فنهضوا ثم خرجوا فبقيت أنا وهو وثلاثة شبان قلت هؤلاء اصرفهم يابهرام كم تعد من السنين

الخواص

الخواص : جلده إذا بخر به بيت هرب بقه وإذا سقى إنسان من وسخ أذنه نام نومة طويلة وإذا علق من نابه شىء على شجرة لم تثمر وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس .

حرف القاف

قاقم — دويبة تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجا وهو أبيض يقق وجلده أعزّ قيمة من السنجاب .

قاوند — طير يكون بساحل البحر يبيض فى الرمل ويحضن بيضه سبعة أيام ثم تخرج أفراخه بعد ذلك فيزقها بعد سبعة أيام ويقال مايمسك الله البحر فى هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكراما له لأنه يقال إنه يبرّ والديه .

خواصه : أنه يقيم المقعد ويحلل البلاغم الزمنة وينفع الأمراض الباردة وأوجاع الأعصاب .

قرد — حيوان معروف وكنيته أبو خالد وغير ذلك وهو قبيح المنظر مليح الذكاء سريع الفهم يتعلم الصنائع قيل إنه أهدى للمتوكل قرد خياط وآخر صائغ وأهل اليمن يعلمون القردة البيع والجلوس فى الدكاكين حتى قيل إنه يخرز النعل ويصرّ القرطاس وهو ذو غيرة وعنده لواط حتى قيل إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة والتفت ابن الرومى يوما إلى أبى الحسن الأخفش وهو يحاكى مشية القرد فقال :

هنيئا يا أبا الحسن المفدى بلغت من الفضائل كلّ غايه
شركت القرد فى قبح وسخف وما قصرت عنه فى الحكايه

قنفذ — بالذال المعجمة وكنيته أبو سفيان ومن عجيب أمره أنه يصعد الكرم فيرمى العنقود ثم ينزل فيأكل منه ماأطاق فان كان له أفراخ تمرغ فى الباقى فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده وهو مولع بأكل الأفاعى فاذا لدغته لايؤثر فيه سمها لمنع ذلك بشوكه وإذا تأذى منها ذهب فأكل السعتر البرى فيزول أذاها وهو من الحيوان الذى يسفد مباطنة كالرجل وله خمسة أرجل .

حرف الكاف

كركند — حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة وهو دون الجاموس وله قرن واحد عظيم لايستطيع رفع رأسه منه لثقله وهو مصمت قوىّ يقاتل به الفيل فيغلبه ولا تعمل أنيابه شيئا معه وعرض قرنه شبران وليس بطويل جدا وهو محدد الرأس شديد الملاسة وإذا نشر قرنه ظهرت فى معاطفه صور عجيبة كالطواويس والغزلان وأنواع الطير والشجر وبنى آدم ولذلك يتخذ منه مقابض الأسرة والمناطق للملوك ويتغالون فى ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف أو أكثر والأنثى تحمل ثلاث سنين ويخرج ولدها نابت الأسنان والقرون قوى الحافر ويقال إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها وصار يرعى أطراف الشجر فاذا شبع أدخل رأسه فى بطن أمه ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئا حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هيبة له وهربا منه ويسمى الحمار الهندى وهو شديد العداوة للانسان يتبعه إذا سمع صوته فيقتله ولا يأكل منه شيئا .

كروان — طير معروف لاينام غالب الليل خصوصا فى القمر وعنده ذكاء ، قيل إنه يتكلم بجميع مايبصره ولا يحتمل المعاينة .

قال أعد مائة وأربعين سنة قلت فهل تعرف أنك عملت شيئا استوجبت به من الله الجنة قال لاأدرى إلا أنى رزقت ثلاثة بنين وثلاث بنات فزوّجت بعضهم من بعض وأعطيت مهورهن من عندى وأفردت لكلّ واحد منهم مالا ودارا وعقارا . قلت لاتستوجب الجنة بل تستوجب النار فهل عملت شيئا صالحا لآخرتك قال قسمت ليلى ثلاثة أجزاء أما الجزء الأول فانى أقعد للسامرة وتقرأ علىّ سير الأول فأتفرج بذلك والجزء الثانى أعبد فيه النار وأسجد لها من دون الله الواحد القهار والجزء الثالث أتفكر فيه فى أمر معاشى ومعادى وأمنع نفسى عن النوم فى ذلك الجزء فان النوم فيه جهل وخمول ودماء إلا الضرورة فقلت هل لك فعل غير هذا قال لا قلت يفعل مايشاء ويحكم مايريد فبم استحقيت يابهرام الجنة قال ويحك يا ابن المبارك أتقطع لى بالجنة وأنت عالم المسلمين من أخبرك بذلك قلت أخبرنى الصادق الأمين الذى لاينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم قال فما القصة فحدثته بالمنام الذى رأيته وبما قاله النبى صلى الله عليه وسلم سرارا فقال يا ابن المبارك وهل لذلك علامة ظاهرة قلت نعم ادن منى فدنا فمسحت بيدى رأسه ووجهه وصدره وبدنه وأولاده ينظرون فصار شابا حسنا طريا صحيحا بصيرا واسود شعره وابيضت بشرته فلما عاين ذلك قال امدد يدك يا شيخ أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم قال ياشيخ أخبرك السبب الذى أوجب الله لى به هذه المنزلة قلت نعم قال كنت

كركى — طير محبوب للملوك وله مشتى ومصيف فمشتاه بأرض مصر ومصيفه بأرض العراق وهو من الحيوان الرئيس ، قيل إنه إذا نزل بمكان اجتمع حلقة ونام وقام عليه واحد يحرسه وهو يصوت تصويتا لطيفا حتى يفهم أنه يقظان فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته . قال القزوينى وإذا مشى وطىء الأرض باحدى رجليه وبالأخرى قليلا خوفا من أن يحس به . وإذا طار سار سطرا يقدمه واحد كهيئة الدليل ثم تتبعه البقية .

كلب — معروف وهو نوعان أهلى وسلوقى وهذان النوعان سواء إلا أن أنثى السلوقى أسرع فى التعلم من ذكره وهذا الحيوان حليم وعنده رياضة وفى طبعه إكرام الأجلاء من الناس .

حكى أن رجلا عزم جماعة فتخلف شخص منهم فى منزله ودخل على زوجة صاحب المنزل فضاجعها فوثب الكلب عليهما فقتلهما فرجع صاحب المنزل فوجدهما قتيلين فأنشد يقول :

وما زال يرعى ذمتى ويحوطنى ... ويحفظ عهدى والخليل يخون
فواعجبا للخل يهتك حرمتى ... وواعجبا للكلب كيف يصون

وحكى أبو عبيدة قال : خرج رجل إلى الجبانة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس فتبعه كلب له فضربه ورماه بحجر فلم ينثه ولم يرجع ، فلما قعد ربض الكلب بين يديه فجاء عدو له فى طلبه ، فلما رآه خاف على نفسه فإذا بئر هناك قريبة القعر فنزل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب ، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سبيلهما وصار الكلب ينبح حوله ، فلما انصرف العدو أتاه الكلب فمازال يبحث فى التراب إلى أن كشفه عن رأسه فتنفس الرجل ومر به أناس فتناولوه وردوه إلى أهله ، فلما مات ذلك الكلب عمل له قبرا ودفنه فيه وجعل عليه قبة وسمى ذلك قبر الكلب وفى ذلك قيل :

تفرق عنه جاره وشقيقه ... وماحاد عنه كلبه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكى أن رجلا قتل ودفن وكان معه كلب فصار يأتى كل يوم إلى الموضع الذى دفن فيه وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك فقال الناس إن لهذا الكلب شأنا فكشفوا عن ذلك وحفروا ذلك الموضع ، فوجدوا قتيلا ، فقبضوا على ذلك الرجل الذى ينبح عليه الكلب وضربوه فأقر بقتله فقتل . وهو من الحيوان الذى يعرف الحسنة . وقيل إن الأنثى تحيض فى كل شهر سبعة أيام ، وأكثر ماتضع اثنا عشر جروا وذلك فى النادر والغالب خمسة أوستة وربما ولدت واحدا ، ويعيش الكلب فى الغالب عشر سنين وربما بلغ عشرين سنة . وصف للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد فأرسل من جاء به إليه فجوع أسدا وأطلقه عليه فتهارشا وتواثبا حتى وقعا ميتين . وقيل كلب الصياد يشبه به الفقير المجاور للغنى لأنه يرى من نعمته ويؤس نفسه مايفتت كبده وقيل لرجل مابال الكلب يرفع رجله إذا بال قال يخاف أن يلوث ذراعيه قيل أو للكلب ذراعان قال هو يتوهم ذلك .

فائدة : حكى أن الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه سمع شخصا من وراء النهر يروى أحاديث مثلثة ، فسار إليه ودخل عليه فوجده يطعم كلبا وهومشتغل به قال الامام أحمد فأخذت فى نفسى وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلى ، ثم قال حدثنى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله

رجاءه

من مدة قد أولمت وليمة عامة للمسلمين والنصارى واليهود والمجوس على خاصة فأكلوا وانصرفوا وانقضت الوليمة فلما كان فى بعض الليل طرق طارق الباب وقد هدأ الناس ونام الخدام لما أصابهم من التعب بسبب الوليمة وأنا جالس منتبه فقلت من بالباب فقالت يابهرام أنا امرأة من جيرانك فأوقدلى هذا السراج قال بهرام والمجوس لا ترى إخراج النار من بيوتهم ليلا فتحيرت فى أمرى وقت ولم أنبه أحدا فأسرجت لها السراج فانصرفت وأطفأت السراج وعادت وقالت يابهرام قد انطفأ فأسرجه لى فلما أسرجته قالت يابهرام والله ما جئتك لأجل سراج ولكن جئتك من أجل ثلاث بنات شممن روائح طعامك فهن ملقيات على وجوههن يتضاوون كالمرأة الثكلى أو كالحبة فى المقلى فان كان قد بقى فى دارك فضل طعام فأعطنى فانك إن شاء الله تملك بذلك الجنة فقلت حبا وكرامة فأخذت منديلا كبيرا فجعلت فيه من كل شىء كان فى البيت من الحلو والحامض وأخرجت كيسا فيه ألف دينار وكيسا فيه ستة آلاف درهم وستة أثواب من ديباج وستة أثواب مروزية وشددت الجميع وقلت احملى هذا الى عيالك واقسمى عليهم فمدت يدها فلم تطق حمله لضعفها فقالت يابهرام أعنى أعانك الله على الوقوف بين يديه وخفف عليك الحساب فى ذلك اليوم الشديد فقلت ياهذه كيف أفعل وأنا شيخ كبير وقد مضى على مائة ونيف وثلاثون سنة ثم تفكرت لحظة وقلت

رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة» وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب وقد قصدني هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه قال فقال الامام أحمد رحمه الله هذا الحديث يكفيني ثم رجع قافلا إلى أهله

فائدة أخرى : قال الترمذى لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليس السباع وكان أشدها الكلب قال فنزل عليه جبريل عليه السلام وأمره أن يضع يده عليه ففعل واطمأن إليه وألفه وصار يحرسه وبقيت الألفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة ، وقيل إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليهما الصلاة والسلام وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل فيفسدون ماصنعه فى السفينة بالنهار فأمره الله أن يتخذ كلبا حارسا ففعل قال فكان الكلب إذا أتاه مفسد قام عليه فيتيقظ نوح عليه الصلاة والسلام فيدفعه .

فائدة أخرى : قيل كان كلب أهل الكهف أحمر واسمه قطمير وقيل أصفر وقيل خلنجى اللون وليس فى الحيوان مايدخل الجنة إلا هو وكبش إسمعيل وناقة صالح وحمار العزير وبراق النبي صلى الله عليه وسلم .

فائدة أخرى : إذا نبح عليك كلب وخفت منه فاقرأ : يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان وقل بعد ذلك : لا إله إلا الله فانك تكفاه

حرف اللام

لقلق — طير معروف قيل إنه من طيور الفواخت ويأتى إلى أرض مصر فى أيام الشتاء فيأكل ما قسم الله له من الرزق ويأكل منه من له فيه رزق ثم يرحل إلى بلاده

حرف الميم

مالك الحزين — طير يوجد بالضحضاح غذاؤه السمك وسمى بذلك لأنه قيل إنه لايشرب حتى يروى خوفا من أن ينقص الماء وإذا نشف الضحضاح حزن لأنه لا يستطيع العوم ونظيره دويبة بأرض فارس معروفة عندهم يقال إن غذاءها التراب فاذا أكلت لاتشبع خوفا من أن يفرغ .

حرف النون

نمل — قال عليه الصلاة والسلام « ألا تنظرون إلى صغير من خلق الله كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه وفلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر انظروا إلى النملة فى صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على الأرض وسعت فى مناكبها وطلبت رزقها تنقل الحبة إلى جحرها تجمع فى حرها لبردها وفى وردها لصدرها لاتغفل عنها المنان ولا يحرمها الديان ولو فكرت فى مجارى أكلها فى علوها وسفلها وما فى الجوف من شراسيف بطنها وما فى الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجبا ولقيت من وصفها تعبا فتعالى الله أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها لم يشركه فى فطرتها فاطر ولم يعنه على خلقها قادر لا إله إلا هو ولا معبود سواه» ، وقيل إذا خافت على حبها أن يعفن أخرجته إلى ظهر الأرض ليجف ، وقيل إنها تفلق الحبة نصفين خوفا من أن تنبت فتفسد إلا الكزبرة فانها تفلقها أربعا لأنها من دون الحب ينبت نصفها وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا فسبحان من ألهمها ذلك وقيل إنها

ذلك قلبي فقلت لها شيلي على رأسي فشالته واستقل على رأسي فسال لذلك عرق حتى صرت فى منزلها فحططت الطعام ووضعت الرزمة وجعلت ألقم البنات إلى أن شبعن ونشطن ، ثم قسمت عليهن الثياب والدراهم والدنانير ففرحن وتبسمن فلما أردت القيام قلن بأجمعهن يابهرام أصلح الله لك أمورك وأدام سرورك كما أصلحت أمورنا وأدمت سرورنا وفرحك يوم القيامة كما فرحتنا وختم لك بخير وأنزلك أقرب قصر من قصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى دار الجنان ، وأنا أقول آمين وما زلت أرجو استجابة دعائهن ، قلت يابهرام أبشر فان الله حقق لك ذلك ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تحقر من المعروف شيئا ولو أنك تفرغ من دلوك فى إناء أخيك ماء» قال عبد الله ابن المبارك فتصدق بهرام فى ذلك اليوم بمائة ألف درهم وبمائة ألف دينار وبمائة ألف ثوب مروزيات وبألفى ثوب ديباج وفرق سائر أمواله على أولاده وبناته وأسلموا جميعا وتفرق الاخوة عن الأخوات وزوج أولاده بالمسلمات وبناته بالمسلمين وأسلم فى ذلك اليوم خلق كثير من المجوس ثم انفرد عن أهله ولزم المحراب يعبد الله فلم يلبث إلا قليلا حتى توفى رحمة الله عليه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . روى عن سعد بن سعيد أنه قال كان فى جوار معروف الكرخى رجل مجوسى من أبناء الأغنياء وجد الخليفة عليه فصادره وأخذ منه ألف ألف دينار فافتقر بعد الغنى وذل بعد العز وكان له أعداد

تشم رائحة الشئ من بعيد ولو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة وإذا عجزت عن حمل الشئ استعانت برفقتها فيحملونه جميعا إلى باب جحرها ، وقيل إذا انفتح باب قرية النمل جعلت فيه زرنيخا أو كبريتا هجرتها والله أعلم .

نحل — حيوان ليس له نظر فى العواقب وله معرفة بفصول السنة وأوقاتها وأوقات المطر وفى طبعه الطاعة لأميره والانقياد له ومن شأنه فى تدبير معاشه أنه يبنى له بيتا من الشمع شكلا مسدسا لايوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة وإذا طار ارتفع فى الهواء وحط على الأماكن النظيفة وأكل نوار الزهر والأشياء الحلوة وشرب من الماء الصافى وأتى فأخرج ذلك فأول مايخرج الشمع ليكون كالوعاء ثم العسل ، وقيل إنه يقسم الأعمال فبعضه يعمل البيوت وبعضه يعمل الشمع وبعضه يعمل العسل ، وفى طبعه النظافة فيجعل رجيعه خارج الخلية وما مات منه أخرجه ورماه وعنده الطرب فيحب الأصوات اللذيذة وله آفات تقطعه كالظلمة والغيم والريح والمطر والدخان والنار وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة وغيم الشك وريح الفتنة ودخان الحرام ونار الهوى .

فائدة : قيل مرض شخص فقال ائتونى بماء وعسل فأتوه بذلك فخلط الجميع وشرابه فشفى ، وروى « أن شخصا شكا للنبى صلى الله عليه وسلم بطن أخيه فأمره بشرب العسل فشربه ، ثم جاء ثانيا فأمره بشربه ثم جاء فى الثالثة ، فقال يارسول الله إن بطنه لم يزل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا فسقاه الثالثة فشفى » .

نادرة : قيل إن بعضهم حضر مجلس المنصور ، فقال بعض الحاضرين المراد من قوله تعالى - يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس - أهل البيت فإنهم النحل والشراب القرآن فقال له بعض من حضره من الظرفاء جعل الله طعامك وشرابك مايخرج من بطون بنى هاشم فضحك الحاضرون عليه وأبهته .

الخواص : إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص واكتحل به نفع من نزول الماء فى العين والتلطخ به يقتل القمل ولعقه علاج لعضة الكلب والمطبوخ منه نافع للسموم .

نسر — هو سيد الطيور ويعمر طويلا ، قيل إنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل إنه يقطع من المشرق إلى المغرب فى يوم وجثته عظيمة حتى قيل إنه يحمل أولاد الفيلة وله قوة حاسة الشم حتى قيل إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هيبة له حتى يفرغ من الأكل وعنده شره قيل إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إمساكه فى تلك الحالة أمسكه وإذا باض ذهب وأتى بورق الدلب فجعله فى عشه خوفا من الخفاش أن يفسد بيضه وهو لايحضن البيض وإنما يبيض فى الأماكن العالية ويبقيه فى الشمس فتكون حرارتها له بمنزلة الحضن ومن طبعه أنه لوشم الطيب مات وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل إنه ليموت كمدا ويقال للأنثى منه أم قشعم وفى الحديث « أتانى جبريل عليه الصلاة والسلام فقال يامحمد لكل شئ سيد فسيد البشر آدم وسيد ولد آدم أنت وسيد الروم صهيب وسيد فارس سلمان وسيد الحبش بلال وسيد الطيور النسر وسيد الشهور رمضان وسيد الأيام الجمعة وسيد الكلام العربى وسيد العربى القرآن وسيد القرآن سورة البقرة » .

الخواص

وحساد فقالوا للخليفة إنه قد بقى له مال جسيم فلا نظن أنه عديم فأمر بمصادرته ثانيا فلما علم المجوسى ذلك دخل بيت النار وقصد ما كان يعبد من دون الجبار وقال إن لم تخلصنى آمنت برب معروف فلم يجبه أحد ولم ينتفع بسجوده للنار ولا للنور ، فلما جن عليه الليل اغتسل وأتى مسجد معروف الكرخى فلم يجده فى المسجد فرفع رأسه وقال ياإله إبراهيم وعيسى ومحمد وإله معروف ويامن لا إله إلا هو تحققت أن ماعبدته من دونك باطل لايضر ولا ينفع وأتى جئتك تائبا مما فعلت متبرئا مما عبدت منفصلا عما اعتقدت موقنا بك شاهدا بأن لا إله إلا أنت إله الأولين والآخرين وأنت المعبود الحق تفعل ماتشاء ولا يكون إلا ماتريد إنك على كل شئ قدير فاغفر لى ماتقدم من ذنبى وجهلى وإسرافى ولا تنظر إلى سوء عملى ومعصيتى واصرف شر الخليفة وأعوانه عنى فقد وجهت وجهى إليك ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله يامحمد تشفعت بك إلى الله فاقبلنى ، ثم سجد وأطال سجوده وهو يناجى ربه ويبكى فأتى معروف المحراب فرآه كذلك فبقى متفكرا فى أمره لايتحقق من هو وإذا هو بغلام من خواص الخليفة قد دخل المسجد يسأل عن المجوسى باسمه ونسبه فقال معروف بيته فى موضع كذا وكذا فقال من هناك جئت وقيل لى إنه فى مسجد معروف فوالله لابأس عليه

الخواص : إذا أخذ قلب النسر وجعل في جلد ذئب وعلق على شخص كان مهابا عند الناس مقضي الحاجة ، وإذا عسر على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها .

نعام — يذكر ويؤنث ، وتسمى الأنثى بأم البيض والذكر بالظليم . ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضا طوالا متساوية القدر وتجعلها أثلاثا : ثلثا للحضن ، وثلثا تأكله في حضنها ، وثلثا تكسره وتفتحه فيتعفن ويدوّد فيكون منه غذاء أولادها وعندها الحمق ، يقال إنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها فتحضنه وتترك بيض نفسها .

فائدة : روى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه : أن الله تعالى لما خلق القمح وأنزله على آدم كان على قدر بيض النعام وقال له هذا رزقك ورزق أولادك قم فاحرث وازرع . قال ولم يزل الحب على ذلك مدة ثم نزل إلى بيض الدجاجة ثم الحمامة ثم النبق ، وكان في زمن العزيز على قدر الحمص وقيل كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالأخرى إلا النعام فإنه يبرك إلى أن يموت ، وخلق الله تعالى له قوة الشم البليغ حتى قيل إنه يشم رائحة القناص من مسيرة نصف ميل وهي لا تشرب الماء كالضب ، ويقال إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها في شيء إما شعب أو حجر تظن أنها قد استترت منه ، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصوان والجمر وفي طبعها الأذى يقال إنها تخطف الحلق من أذن الصغير . وقيل إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه مادام الأبوان حاضرين لأنهما إذا رأياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ولا يزالان به حتى يقتلاه أو يعجزهما هربا ، وقيل أشد ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح ، وتقول العرب : صنفان من الحيوان أصمان لا يسمعان : النعام والأفاعي ، وسأل أبو عمرو الشيباني بعض العرب عن الظليم هل يسمع ؟ فقال يعرف بعينيه وأنفه ولا يحتاج معهما إلى سمع .

نمر — حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب ، وهو صنفان : صنف عظيم الجثة صغير الذنب ، والآخر بالعكس . قال الجاحظ : وهو يحب الشراب وعنده شراسة في خلقه ، ويقال : إن أنثاه لا تدع ولدها إلا مطوقا بحية ولا يضره نهشها وذلك لأجل الصياد حتى لا يظفر به ، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ ، وفي طبعه عداوة الأسد ، وعنده شرف في نفسه ، يقال : إنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره ولا يملك نفسه عند الغضب وأدنى وثبته عشرون ذراعا وأكثرها أربعون .

الخواص : من حمل من جلده شيئا صار مهابا عند الناس ، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت بواسيره .

حرف الهاء

هدهد — طير معروف وهو من رسل سليمان عليه الصلاة والسلام وعنده حدة البصر حتى قيل إنه يرى الماء تحت الأرض ، وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده هو أن هدهدا من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا ، فذهب لينظره فدخلت الشمس من مكانه فرآها سليمان عليه الصلاة والسلام فتفقده وطلبه فلما حضر قال : يانبي الله إني رأيت كيت وكيت وقص عليه القصة ، ويقال إنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه يانبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه .

فإن الخليفة قد بعثني إليه برسالة لطيفة تسر قلبه وهو منتظره على أن يؤمنه و يرد عليه ما أخذه منه وكفى بالله شهيدا ، فقال معروف : لست أرى في المسجد أحدا يشبه من تذكره إلا هذا الساجد لله الناجي لربه فاصبر له حتى يرفع رأسه فوقف صاحب الخليفة على رأسه ساعة ثم قال ياهذا ارفع رأسك ولا تبك أمير المؤمنين قد قضى حاجتك و بعثني برسالة لطيفة لتصير إليه حتى يرد عليك ما أخذه منك فرفع رأسه و إذا معروف واقف فقال يامعروف ما أكرم هذا الباب وما أحلم صاحبه وما أقربه إلى من دعاه ثم قال يامعروف امدد يدك إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله و إني رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا وأن القرآن كلام الله جاء به محمد ابن عبد الله وأنا مؤمن بذلك كله ثم تبع الرسول وذهب معروف الكرخي معه فلما وصلوا إلى دار الخليفة و إذا به واقف على الباب فاستقبلهما وسلم عليهما وصافح كلا منهما ومشى معهما إلى مجلسه وأقعدهما إلى جنبه وأقبل يعتذر إليهما مما وقع منه وأمر بالأموال التي أخذت من المجوسي فأحضرت بين يديه عن آخرها ثم قال له تأمل هذه الأموال أليست هي التي أخذت منك ؟ قال نعم . قال : خذها بارك الله لك فيها واجعلني في حل مما وقع مني واستغفر الله لي ، فقال يغفر الله لك ، ثم قال ياأمير المؤمنين : أما الأموال فهي لك حلال بعد أن هداني الله إلى دين الإسلام

الخواص : إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام عنه ، وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه ، وريشه إذا حمله إنسان وخاصم غلب خصمه وقضيت حاجته وظفر بما يريد ، ولحمه إذا أكل مطبوخا نفع من القولنج ، وإن بخر بمخه برج حمام لم يقرب به شيء يؤذيه ، ومن علق عليه لحيه الأسفل أحبه الناس ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

حرف الواو

ورشان — طير يتولد بين الحمام والفاختة وهو حسن شديد الحنو يقال إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدّة حنوه . وقال بعضهم إنه يقول في صياحه : لدوا للموت وابنوا للخراب ، والهدهد يقول : إذا نزل القضاء عمي البصر ، والفاختة تقول : ليت هذا الخلق ما خلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا وليتهم عملوا لما علموا ، والخطاف يقول قدموا خيرا تجدوه عند ربكم والحمامة تقول : سبحان ربي الأعلى ، والبازي يقول : سبحان ربي وبحمده ، والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان ، والدراج يقول : الرحمن على العرش استوى ، والعقاب يقول : البعد عن الناس رحمة ، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ويمدّ صوته في الضالين كالقارئ .

حرف الياء

يأجوج ومأجوج — سموا بذلك لكثرتهم وقيل بل هو اسم أعجمي غير مشتق . قال مقاتل : هم ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وقول من قال إن آدم نام فاحتلم فالتصق منيه بالتراب فتولد منه هذا الحيوان مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وفي الحديث « يأجوج ومأجوج أمّة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة » انتهى . وهم أصناف : منهم ما طوله عشرون ذراعا وما طوله ذراع وأقل وأكثر . وعن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أن لهم مخالب الطير وأنياب السباع وتداعي الحمام وتسافد البهائم ولهم شعور تقيهم الحر والبرد وإذا مشوا في الأرض كان أولهم بالشام وآخرهم بخراسان يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية ويمنعهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة وبيت المقدس ويأكلون كل شيء يمرون به ومن مات منهم أكلوه ويقال إن صنفا منهم له أذنان إحداهما صلدة والأخرى وبرة فهو يلتحف بإحداهما ويفترش الأخرى وفي الحديث « أنه عليه الصلاة والسلام سئل هل بلغتهم الدعوة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : دعوتهم ليلة أسري بي فلم يجيبوا فهم خلق النار » . وفي الحديث أيضا « إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة قال يا آدم أرسل بعث النار فيقول يارب وما بعث النار ؟ فيقول الله تعالى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار وواحد للجنة قال فاشتدّ الأمر على المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم واحدا » وفي الحديث « أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بالردم فقال صفه فقال يا رسول الله انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه فدخلت في بيت ، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعتني فارتعدت منها قال فقال صاحب البيت لا بأس عليك إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم أتريد أن تنظر إليه فإذا لبنه مثل الصخرة ومساميره مثل جذوع النخل كله من حديد كأنه البرد المحبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر إلى من رأى الردم فلينظر هذا الرجل

قال

ولكن أعلمني ما الذي دعاك إلى طلبي في هذا الوقت وردّ هذا المال عليّ ؟ قال نعم كنت نائما وإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل عليّ ومعه صفّ من الملائكة وصفّ من الصحابة فسلم عليّ وقال : إنّ الله تبارك وتعالى يقرئك السلام ويقول لك : إن عبدنا فلانا المجوسي كنا قد دعوناه في الذرّ فأجابنا وكان في المجوسية مستترا ولنا معه عناية وقد جاء الآن إليّ تائبا وعما كان منه تائبا وهو في مسجد معروف الكرخي مستجيرا بجنابنا منك فابعث في طلبه وردّ عليه ما أخذه منه ولا تقطع المعاملة بيننا فانتبهت مرعوبا فأرسلت في طلبك وها هو مالك قد رددناه عليك ودفعناه إليك فخرّ الرجل ساجدا لله تعالى ثم رفع رأسه وبكى وقال : واندماه وا أسفاه والهفاه كيف تركت عبادة الرحمن الرحيم واشتغلت بعبادة النيران وضيعت العمر والزمان ثم قال : يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في هذا المال خذه فهو حلال لك فقال أمير المؤمنين لا أرجع بشيء أمرني ربي بإخراجه فقال : يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في المال أشهدك أني قد جعلته صدقة في فقراء المسلمين لا حظّ لي فيه ولا لأحد من أهلي ، فقال الخليفة : يا معروف بقي الأمر إليك فاحمل المال وتصدق به على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأيتام والأرامل ، فدعا له معروف وأخذ بيد الرجل وحمل المال على البغال وصاحبها

قال المفسرون : وهذا هو السد الذى بناه ذو القرنين وهذه الأمة خلفه تطلب المجىء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم فيعيده الله كما كان إلى أن يقضى الله أمره ثم يسلط الله عليهم بعد ذلك دودا يطلع فى حلاقيمهم فيهلكهم الله به ، والأخبار فى ذلك كثيرة .

يحمور — دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر ، وقيل هو كالإبل يلقى قرنيه فى كل سنة وهما صامتان . وقال الجوهرى هو الحمار الوحشى .

نادرة : قيل : ترافق رجلان فى طريق فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر قد صار لى عليك حق وإنى رجل من الجان ولى إليك حاجة قال وماهى ؟ قال إذا وصلت إلى المكان الفلانى من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك فاشتره منها واذبحه فقال له الآخر وأنا أيضا لى إليك حاجة قال وماهى ؟ قال إذا ركب الجنى إنسانا مايعمل له قال تشد إبهاميه بسير من جلد اليحمور وتقطر فى أذنيه من ماء السذاب فى اليمنى أربعا وفى اليسرى ثلاثا فإن الراكب له يموت ثم تفرقا ودخل الإنسى ففعل ماأمره به الجنى من شراء الديك وذبحه فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له أنت ساحر ومن حين ذبحك الديك سلبت من صبية عندنا عقلها فلا نفلتك إلا إلى صاحب المدينة قال فقلت لهم ائتونى بسير من جلد اليحمور وقليل من ماء السذاب ودخلت على الصبية فربطت إبهاميها وقطرت ماء السذاب فى أذنيها فسمعت صوتا يقول : آه علمتك على نفسى ، ثم مات من ساعته ، وشفى الله تلك الشابة .

فصل فى خواص الطير والحيوان على الإجمال

الضب والخنزير لايلقيان شيئا من أسنانهما أبدا وكل حيوان يعوم بالطبع إلا الانسان والقرد وكل ذى عين فإن أهداب عينه فى الجهة العليا فقط إلا الانسان فإنه من الجهتين والفرس لاطحال له والبعير لامرارة له والظليم لامخ لعظمه والحيات لاألسنة لها والسمكة لارئة لها لأنها تتنفس من كبدها وكل حيوان لاحافر له فله قرن ومالاقرن له فله حافر ، والحيوان المتهم باللواط القرد والخنزير والحمار والسنور ، والعيون التى تضىء بالليل عين الأسد والنمر والأفعى والسنور ، والذى يدخر القوت من الحيوان الانسان والفأر والغراب والنحل والنمل ، والذى يحيض من الحيوان الانسان والفرس والكلب والأرنب والضبع والخفاش ، ويقال أيضا الرعاد من السمك ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وهذا آخر ماقصدت إيراده فى هذا الباب والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

الباب الثالث والستون فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودى فى كتابه عن بعض العلماء أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانيا وعشرين أمة على خلق مختلفة ، وهى أنواع ، منها ذوات أجنحة وكلامهم قرقعة ، ومنها ماله أبدان كالأسود ورءوس كالطير ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوى ، ومنها ماله وجهان واحد من قبله والآخر من خلفه وأرجل كثيرة ، ومنها مايشبه نصف الانسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرانيق ، ومنها ماوجهه كالآدمى وظهره كالسلحفاة وفى رأسه قرن وكلامهم مثل عواء الكلاب ، ومنها ماله شعر أبيض وذنب كالبقر ، ومنها ماله أنياب بارزة كالخناجر وآذان طوال ويقال إن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الانسان . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : خلق الله تعالى

أمير المؤمنين وسأل الرجل أن يحالله عما وقع منه ولازم الرجل معروفا الكرخى إلى أن مات تغمده الله برحمته .

وحكى عن معن بن زائدة الشيبانى أن شاعرا قصده فأقام مدة يريد الدخول إليه فلم يتهيأ له ذلك فلما أعياه ذلك قال لبعض خدمه إذا دخل الأمير البستان فعرفنى ، فلما دخل معن البستان عرفه الخادم به فكتب الشاعر بيتا من الشعر على خشبة وألقاها فى الماء الداخل إلى البستان ، فاتفق أن معنا كان جالسا فى ذلك الوقت على رأس الماء فمرت به فأخذها فإذا فيها كتابة فقرأها وهى :

أياجود معن ناج معنا بحاجتى
فمالى إلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه فدعى الرجل فقال له كيف قلت فأنشد البيت فأمر له بمائة ألف درهم ، فأخذها وأخذ الأمير الخشبة فوضعها تحت بساطه . فلما كان اليوم الثانى قرأها ودعا بالرجل فدفع له مائة ألف درهم على العادة ، ثم دعاه ثالث مرة فقرأ البيت ودفع له مائة ألف درهم فلما أخذ الجائزة الثالثة خشى الشاعر أن يندم فيأخذ منه مادفع إليه فسافر ، فلما كان فى اليوم الرابع طلبه معن فلم يجده فقال معن حق علىّ لومكث لأعطيته حتى لايبقى فى بيتى درهم ولا دينار . وحكى عنه أيضا أنه أتى بجملة من الأسرى فعرضهم على السيف فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير نحن أسراك وبنا جوع وعطش فلا تجمع

علينا الجوع والعطش والقتل فأمر لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا ومعن ينظر إليهم ، فلما فرغوا قال الرجل أصلح الله الأمير كنا أسراك ونحن الآن أضيافك فانظر ماتصنع بأضيافك ، قال قد عفوت عنكم فقال الرجل أيها الأمير

ماندرى أي يوم أشرف يوم ظفرك بنا أو يوم عفوك عنا ؟ فأمر لهم بمال وكسوة .

وحكى أن المنصور أهدر دم رجل كان يسعى فى فساد دولته من الخوارج من أهل الكوفة وجعل لمن دلّ عليه وجاء به مائة ألف درهم ثم إنه ظهر فى بغداد فبينما هو يمشى مختفيا فى بعض نواحيها إذ بصر به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأخذ بمجامع ثيابه وقال هذا بغية أمير المؤمنين فبينما الرجل على تلك الحالة إذ سمع وقع حوافر الخيل فالتفت فإذا معن بن زائدة فقال ياأبا الوليد أجرنى أجارك الله ، فوقف وقال للرجل المتعلق به ماشأنك قال بغية أمير المؤمنين الذى أهدر دمه وجعل لمن دلّ عليه وأتى به مائة ألف درهم فقال دعه ياغلام انزل عن دابتك واحمل الرجل عليها ، فصاح الرجل بالناس وقال أيحال بينى وبين من طلبه أمير المؤمنين فقال له معن اذهب إليه وأخبره أنه عندى فانطلق إلى باب المنصور فأخبره فأمر المنصور باحضار معن ، فلما أتى الرسول إلى معن دعا أهل بيته ومواليه وقال أعزم عليكم لايصل إلى هذا الرجل مكروه وفيكم عين تطرف ، ثم سار إلى المنصور فدخل عليه وسلم فلم يردّ عليه

ألف أمة وعشرين أمة منها ستمائة فى البحر وأربعمائة وعشرون فى البرّ وفى الانسان من كل خلق ، فلذلك سخر الله له جميع الخلق واستجمعت له جميع اللذات وعمل بيده جميع الآلات وله النطق والضحك والبكاء والفكرة والفطنة واختراعات الأشياء واستنباط جميع العلوم واستخراج المعادن وعليه وقع الأمر والنهى والوعد والوعيد والنعيم والعذاب وإياه خاطب وله قرّب ، وخلق الله تعالى إسرافيل عليه السلام على صورة الانسان ، وهو أقرب الملائكة إليه ، وفى الحديث : « لاتضربوا الوجوه فانها على صورة إسرافيل » وآيات الله تعالى فى البشر أكثر من أن تحصر – فتبارك الله أحسن الخالقين – وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب تحفة الألباب : دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد فوجدت سنّ أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران وكان عندى فى باشقرد نصف ثنية أخرجت لى من فك أحدهم الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ألف ومائتا مثقال وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعا وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام ، قال : ولقد رأيت فى بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلا طويلا طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعا كان يسمى دنق أودبق كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الانسان الولد الصغير وكان من قوّته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعا تحمل على عجلة وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل وكان يأخذ فى يده شجرة من البلوط كالعصا لوضرب بها الفيل لقتله وكان خيرا متواضعا ، كان إذا لقينى يسلم علىّ ويرحب بى ويكرمنى وكان رأسى لايصل إلى ركبته رحمة الله تعالى عليه ولم يكن فى بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات فى بلغار وقال لى قاضى بلغار يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان أقوى أهل بلغار ، قيل إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته . وروى عن وهب بن منبه فى عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم إلا أنه كان لايوصف طوله ، قيل إنه كان يخوض فى الطوفان فلم يبلغ ركبتيه ، ويقال إن الطوفان علا على رءوس الجبال أربعين ذراعا وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير وعمره الله دهرا طويلا حتى أدرك موسى عليه الصلاة والسلام ، وكان جبارا فى أفعاله يسير فى الأرض برا وبحرا ويفسد ماشاء ، ويقال إنه لما حصر بنو إسرائيل فى التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم ، فبعث الله طيرا فى منقاره حجر مدوّر فوضعه على الحجر الذى على رأسه فانثقب من وسطه وانخرق فى عنقه وأخبر الله عزّ وجل نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بذلك فخرج إليه وضربه بعصاه فقتله ، ويقال إن موسى عليه الصلاة والسلام كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع وقفز فى الهواء عشرة أذرع وضربه فلم يصل إلى عرقوبه – فتبارك الله أحسن الخالقين – ، ومن ذلك ماقيل عن أمه عنق بنت آدم عليه الصلاة والسلام وكانت مفردة بغير أخ وكانت مشوّهة الخلقة لها رأسان وفى كل يد عشرة أصابع ولكل أصبع ظفران كالمنجلين . وقال علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه هى أوّل من بغى فى الأرض وعمل الفجور وجاهر بالمعاصى واستخدم الشياطين وصرفهم فى وجوه السحر وكان قد أنزل الله على آدم عليه الصلاة والسلام أسماء عظيمة تطيعه الشياطين بها وأمره أن

يدفعها

بدفعها إلى حوّاء لتحترز بها فغافلتها عنق وسرقتها واستخدمت بها الشياطين وتكلمت بشيء من الكهانة فدعا عليها آدم وأمنت على ذلك حواء فأرسل الله عليها أسدا أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها وذلك بعد ولادتها عوجا بسنتين . ومن ذلك ما حكى عن بعض فقهاء الموصل أنه شاهد ببلاد الأكراد الحمدية فى جبل من جبال الموصل إنسانا طوله تسعة أذرع وهو صبىّ لم يبلغ الحلم وكان يأخذ بيده الرجل القوى ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه فقيل له فى عقله خبل فتركه . وروى عن الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه قال : دخلت بلدة من بلاد اليمن فرأيت بها إنسانا من وسطه إلى أسفله بدن واحد ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأربع أيد وهما يأكلان ويشربان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان قال ثم غبت عنهما قليلا ورجعت فقيل لى أحسن الله عزاءك فى أحد الشقين فقلت وكيف صنع به فقيل ربط فى أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهبا وراجعا . ومنه ما أرسله بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة وهو رجلان فى جسد واحد فأحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تجوعان معا وتعطشان معا قالا نعم فقالوا له لا يمكن فصلهما ويقال إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما فأخبر أنهما يختصمان فى بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما . ومن ذلك ما ذكر أنه أهدى إلى أبى منصور السامانى فرس له قرنان وتعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما وإذا بعد ألصقهما . وذكر القاضى عياض رحمة الله تعالى عليه أنه ولد له مولود على أحد جنبيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله وهذا لا يبعد فانه يوجد كثيرا فى السنور الدركى وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل ومثلها أيد وذكر أنه كان لبعض ولاة مصر مملوك يدعى طقطو فولاه قوص من أعمال الصعيد فتزوج بها وولد له ولد ثم انقلب امرأة فتزوج بها وولدت ولدين ، وأما كبش بأربعة قرون ودجاجة بأربعة أرجل وحيوان برأسين والمخرج واحد فكثير وعجائب الله تعالى فى مصنوعاته غير متناهية فلله الحمد على ما أنعم به علينا لا نحصى ثناء عليه . ومن ذلك إنسان الماء وهو حيوان يشبه الآدمى وفى بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء ويستبشر الناس برؤيته فى تلك السنة بالخصب . ومن ذلك بنات الماء وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدىّ وفروج ولهن حسان ولهن كلام لا يفهم وضحك ولعب ولهن رجال من جنسهن ويقال إن الصيادين يصطادونهن ويجامعوهن فيجدون لذة عظيمة لا توجد فى غيرهن من النساء ثم يعيدونهن فى البحر ثانيا ويقال إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد على ما ذكر . وحكى عن الشيخ أبى العباس الحجازى قال حدثنى بعض التجار أنه فى سنة من السنين خرجت إليه سمكة عظيمة فنقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وأخرجوها ففتحت أذنها فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر حمراء الخدين كحلاء العينين من أحسن ما يكون من النساء ومن سرّتها إلى نصف ساقيها شىء كالثوب يستر قبلها ودبرها ودائر عليها كالإزار فأخذها الرجال إلى البر فصارت تلطم وجهها وتنتف شعرها وتعض يدها وتصيح كما تصيح النساء حتى ماتت فى أيديهم فألقوها فى البحر فتبارك الله أحسن الخالقين . وحكى القزوينى عن بعض البحريين أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار وأنهار فأقاموا بها مدة وكانوا إذا جاء الليل يسمعون همهمة وأصواتا وضحكا ولعبا فخرج من المركب جماعة وكمنوا فى جانب البحر فلما جاء الليل

السلام وقال يامعن أتتجرأ علىّ قال نعم يا أمير المؤمنين قال ونعم أيضا واشتدغضبه فقال يا أمير المؤمنين مضت أيام كثيرة قد عرفتم بها حسن بلائى فى خدمتكم فما رأيتمونى أهلا أن يوهب إلىّ رجل واحد استجار بى بين الناس وتوسم أنى عند أمير المؤمنين من بعض عبيده وكذلك أنا فمر بما شئت ها أنا بين يديك فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقد سكن ما به من الغضب وقال قد أجرنا من أجرت يامعن قال فان رأى أمير المؤمنين أن يجمع بين الأجرين فيأمر له بصدقة فيكون قد أحياه وأغناه قال قد أمرنا له بخمسين ألف درهم قال يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له الصلة قال قد أمرنا له بمائة ألف درهم قال فعجلها يا أمير المؤمنين فان خير البرّ تعجيله فانصرف معن بالمال للرجل وقال له خذ صلتك والحق بأهلك وإياك ومخالفة خلفاء الله فى أمورهم . حكى الجاحظ قال أخبرنى فتى من أصحاب الحديث قال : دخلت ديرا فى بعض المنازل لما ذكر لى أن به راهبا حسن المعرفة بأخبار الناس وأيامهم فسرت له لأسمع كلامه فوجدته فى حجرة معتزلة بالدير وهو على أحسن هيئة فى زى المسلمين فكلمته فوجدت عنده من المعرفة أكثر مما وصفوا فسألت عن سبب إسلامه فحدثنى أن جارية من بنات الروم كانت فى هذا الدير نصرانية كثيرة المال بارعة الجمال بديعة الشكل والمثال فأحبت غلاما مسلما خياطا وكانت

خرج بنات الماء على عادتهن فوثبوا عليهن فأخذوا منهن ثنتين فتزوج بهما شخصان فأما أحدهما فوثق بصاحبته فأطلقها فوثبت فى البحر وأما الآخر فبقى مع صاحبته زمانا وهو يحرسها حتى ولدت له ولدا كأنه القمر فلما طاب الهواء وركبوا البحر ووثق بها فأطلقها فأغفلته وألقت نفسها فى البحر فتأسف عليها تأسفا عظيما فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر ودنت من المركب وألقت لصاحبها صدفا فيه درّ وجوهر فباعه وصار من التجار . ونظير هذه الحكاية ماذكره ابن زولاق فى تاريخه أن رجلا من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسناء الوجه سوداء الشعر حمراء الخدين نجلاء العينين كأنها البدر ليلة التمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين وأحبها حبا شديدا وأولدها ولدا ذكرا وبلغ من العمر أربع سنين ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه ووثق بها فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها فى البحر فكاد أن يلقى نفسه خلفها حسرة عليها فلم يمكنه أهل المركب من ذلك فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفا كثيرا فيه درّ ثم سلمت عليه وتركته فكان ذلك آخر العهد بها فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه ومالم نشاهده ونسمع به أكثر فسبحان القادر على كلّ شىء لا إله إلا هو ولا معبود سواه فالعاقل يعرف الجائز والمستحيل ويعلم أن كل مقدور بالاضافة إلى قدرة الله تعالى قليل وإذا سمع عجبا جائزا استحسنه ولم يكذب قائله والجاهل إذا سمع مالم يشاهده قطع بتكذيب قائله وتزييف ناقله وذلك لقلة عقله وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى ـ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ـ وقد أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات فى الآفاق والسموات مايدل عليه قوله تعالى ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ـ فلا تكن منكر العجائب فكل الأشياء من آياته .

فياعجبا كيف يعصى الإلــــه أم كيف يجحده الجاحد
وفى كلّ شىء له آية تدلّ على أنه الواحــد

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد وكذلك حجر الماس الذى يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ويثقب الياقوت والفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذى أودعه هذا السر قادر على كل شىء فلا تكن مكذبا بما لاتعلم وجه حكمته فان الله تعالى قال : بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله قال صاحب تحفة الألباب إن فى بلاد السودان أمة لارءوس لهم وقد ذكرهم الشعبى فى كتاب سير الملوك وذكر أن فى بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يعيش فى أرضهم ذكر وأن هؤلاء النساء يدخلن فى ماء عندهن فيحبلن من ذلك الماء وتلد كل امرأة منهن بنتا ولايلدن ذكرانا أبدا ، وقيل إن ولد تبع اليمانى وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التى دخلها ذو القرنين وإن ولد تبع هذا كان اسمه إفريقش وهو الذى بنى إفريقية وسماها باسمه وأنه وصل إلى واد السبت وهو واد يجرى فيه الرمل كما يجرى السيل لايمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك فلما رآه استعجل الرجوع وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت فسكن جريانه فعبره إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال والله سبحانه وتعالى أعلم . وتلك الأمة التى لا رءوس لهم أعينهم فى مناكبهم وأفواههم فى صدورهم وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرّة على أحد منهم . وأما الملك العظيم والعدل الكثير والنعم الجزيلة والسياسة الحسنة والرخاء

تبذل له مالها ونفسها والغلام يعرض عن ذلك ولا يلتفت إليها وامتنع عن المرور بالدير فلما أعيتها الحيلة فيه طلبت رجلا ماهرا فى التصوير وأعطته مائة دينار على أن يصوّر لها صورة الغلام فى دائرة على شكله وهيئته ففعل المصور فلم تخطئ الصورة شيئا منه غير النطق وأتى بها إلى الجارية فلما أبصرتها أغمى عليها فلما أفاقت أعطت المصور مائة دينار أخرى وأخرج الراهب لى الصورة فرأيتها فكاد أن يزل عقلى فلما خلت الجارية بالصورة رفعتها إلى حائط حجرتها ومازالت كل يوم تأتى الصورة وتقبلها وتلثم ماتحب منها ثم تجلس بين يديها وتبكى فاذا أمست قبلتها وانصرفت فما زالت على تلك الحال شهرا فمرض الغلام ومات فعملت الجارية مأتما وعزاء سار ذكره فى الآفاق وصارت مثلا بين الناس ثم رجعت إلى الصورة وصارت تلثمها وتقبلها إلى أن أمست فباتت إلى جانبها فلما أصبحنا دخلنا عليها لنأخذ من خاطرها فوجدناها ميتة ويدها ممدودة إلى الحائط نحو الصورة وقد كتب عليه هذه الأبيات :

ياموت حسبك نفسى بعد سيدها خذها إليك فقد أودت بما فيها
أسلمت وجهى إلى الرحمن مسلمة ومتّ موت حبيب كان يعصيها
لعلها فى جنان الخلد يجمعها بمن تحبّ غدا فى البعث باريها
مات الحبيب وماتت بعده كمدا محبة لم تزل تشقى محبيها

والرخاء والأمن الذى لاخوف معه ، ففى بلاد الهند و بلاد الصين وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب وعلم النجوم والهندسة والصناعات العجيبة التى لايقدر أحد سواهم على أمثالها ، وفى بلادهم وجزائرهم ينبت العود وشجر الكافور وجميع أنواع الطيب كالقرنفل والسنبل والدارصينى والكبابة والبسباسة وأنواع العقاقير والأدوية ، وعندهم حيوان المسك وهو حيوان كالغزال يجتمع المسك فى سرته ، وعندهم حيوان الزباد وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق كالقطران أسود ثخين يسيل من جسده وتزيد رائحته بالتعرق بحيث يكون أذكى من المسك الأذفر ، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت وأكثرها فى جزيرة سرنديب وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال .

وحكى أنه كان ببابل سبع مدائن كل مدينة فيها أعجوبة ، كان فى إحداها تمثال الأرض فإذا التوى على الملك بعض أهل مملكته وامتنعوا عن القيام بالخراج خرق أنهارها عليهم فى التمثال فلا يطيق أهل تلك الناحية سد الماء حتى يعتدلوا وما لم يسد فى التمثال لايسد فى ذلك البلد ، وفى الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحب من الشراب فصبه فى ذلك الحوض فاختلطت الأشربة فكل من سقى من ذلك الحوض كان شرابه الذى جاء به ، وفى الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه فان كان حيا سمع له صوت و إن كان ميتا لم يسمع له صوت ، وفى الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها فأبصروه على أى حالة هو عليها كأنهم يشاهدونه ، وفى الخامسة أوزة من نحاس فاذا دخل الغريب صوتت الأوزة صوتا يسمعه أهل المدينة ، وفى السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتى الخصمان فيمشى المحق على الماء حتى يجلس مع القاضيين ويقع المبطل فى الماء ، وفى السابعة شجرة ضخمة لاتظل إلا ساقها ، فان جلس تحتها أحد أظلته إلى ألف شخص ، فاذا زادوا على الألف واحدا جلسوا فى الشمس كلهم ، ولو بسطت المقال فى ذلك لاتسع المجال .

وقد اقتصرت فى ذلك على ماذكرت ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والستون فى خلق الجان وصفاتهم

روى عن الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب أنه قال : قرأت فى بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجان خلق نار السموم وخلق من مارجها خلقا سماه جانا كما قال الله تعالى ـ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ـ وقال الله تعالى فى موضع آخر ـ وخلق الجان من مارج من نار ـ . وقيل إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار والجان من لهبها والشياطين من دخانها وقد جاء فى بعض الأخبار أن نوعا من الجن فى قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكانا فى الأرض قد طبقوها برا و بحرا سهلا وجبلا وكان فيهم الملك والنبوة والدين والشريعة وكانوا يطيرون إلى السماء و يسلمون على الملائكة و يستعلمون منهم خبر مافى السماء وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبيائهم فأرسل الله تعالى عليهم جندا من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة وغلبوا الجن وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أمما كثيرة . وذكر المسعودى أن الفرس واليونان قالوا كان الجن بالأرض قبائل منهم من يسترق السمع ومنهم من ينط مع لهب النار ومنهم من يطير ولكل قبيلة ملك وكان من جملتهم إبليس لعنه الله

قال الراهب : فشاع الخبر وحملها المسلمون ودفنت إلى جانب قبر الغلام ، فلما أصبحنا دخلنا حجرتها فرأينا تحت شعرها مكتوبا :

أصبحت فى راحة مما جنته يدى ... وصرت جارة رب واحد صمد
محا الإله ذنوبى كلها وغدا ... قلبى خليا من الأحزان والكمد
لما قدمت إلى الرحمن مسلمة ... وقلت إنك لم تولد ولم تلد
أثابنى رحمة منه ومغفرة ... وأنعما باقيات آخر الأبد

قيل : اجتمع الصوفية إلى أبى القاسم الجنيد وقالوا يا أستاذ أنخرج ونسعى فى طلب الرزق قال لهم : إن علمتم أين هو فاطلبوه . قالوا فنسأل الله أن يرزقنا قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه قالوا فنجلس إذا ونتوكل قال التجربة شك . قالوا فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة . قيل : اجتمع أربعة من الأئمة الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو ثور ومحمد بن الحكم رضى الله تعالى عنهم عند أحمد ابن حنبل يتذاكرون فصلوا صلاة المغرب وقدموا الشافعى ثم مازالوا يصلون فى المسجد إلى أن صلوا العتمة ثم دخلوا بيت أحمد بن حنبل ودخل أحمد على امرأته ثم خرج على أصحابه وهو يضحك ، فقال الشافعى مم تضحك يا أبا عبد الله ؟ قال خرجت إلى الصلاة ولم يكن فى البيت لقمة من طعام والآن فقد وسع الله علينا . قال الشافعى فما سببه ؟ قال أحمد : قالت لى أم عبد الله إنكم لما خرجتم إلى الصلاة جاء رجل عليه ثياب بيض

حسن الوجه عظيم الهيئة ذكىّ الرائحة ، فقال يا أحمد بن حنبل ، فقلنا : لبيك ، قال : ها كم خذوا هـذا ، فسلم إلينا زنبيلا

أبيض وعليه منديل طيب الرائحة وطبق مغطى بمنديل آخر وقال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، فقال الشافعى يا أبا عبدالله فما فى الزنبيل والطبق ؟ فقال : عشرون رغيفا قد عجنت باللبن واللوز المقشور أبيض من الثلج وأذكى من المسك مارأى الراءون مثله وخروف مشوى مزعفر حار وملح فى سكرّجة وخلّ فى قارورة على الطبق وبقل وحلواء متخذة من سكر طبرزذ ثم أخرج الكلّ ووضعه بين أيديهم فتعجبوا من شأنه وأكلوا ماشاء الله قال : فلم تذهب حلاوة ذلك الطعام والحلواء مدّة طويلة وكلّ من أكل من ذلك الطعام مااحتاج إلى طعام غيره مدة شهر فلما أن فرغوا من الأكل حمل أحمد مابقى منه وأدخله إلى أهله فأكلوا وشبعوا وبقى منه شىء فأجمع أمرهم على أن الطعام كان من غيب الله وأن الرسول كان ملكا من الملائكة . قال صالح ابن أحمد بن حنبل : ماأصابتنا مجاعة قط مادام ذلك الزنبيل فى بيتنا وكان يأتينا الرزق من حيث لانحتسب رضى الله تعالى عنهم وأعاد علينا من بركاتهم . قيل إن عبد الله بن معمر القيسى كان أميرا من أمراء العرب وكان بطلا شجاعا جوادا ذامروءة وافرة قال : حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام وحجبت

ثم بعد خمسة آلاف سنة افترقوا وملكوا عليهم ملوكا وأقاموا على ذلك مدّة طويلة ثم تحاسدوا على الملك وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب ، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء ويختلط بالملائكة فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة فهزم الجنّ وقتلهم وتملك الأرض مدّة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه مااتفق وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك ثم ألقى عليه قوّة شهوة السفاد فهو لايلد لكنه يلقح كالطير ويبيض ويفرخ . قيل إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان فيسلطهم على الخلق وأقربهم إليه وأدناهم منه ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق . وفى الحديث «إنّ إبليس لعنه الله قال يارب أنزلتنى إلى الأرض وطردتنى وجعلتنى رجيما فاجعل لى مسكنا ، قال مسكنك الأسواق ، قال فاجعل لى طعاما قال مالم يذكر اسمى عليه ، قال فاجعل لى شرابا قال كل مسكر ، قال فاجعل لى مؤذنا ، قال المزامير ، قال فاجعل لى صيدا أوقال مصايد قال النساء » .

[فصل فى مكايده لعنه الله] منها أنه كان فى بنى إسرائيل عابد يدعى برصيصا وله جار له بنت فحصل لها مرض فقال له جيرانه لوحملتها إلى جارك برصيصا ليدعولها قال فجاء إبليس إلى العابد وقال إنّ لجارك عليك حق الجوار وإنّ له بنتا مريضة فما ضرك لوجعلتهاعندك فى جانب البيت ودعوت الله لها عقب عبادتك فعسى أن تشفى من مرضها قال فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد دعها وانصرف قال فتركها عنده مدّة حتى شفيت فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئهافحملت منه فلماحملت جاءله إبليس لعنه الله فقال له اقتلها لئلا تفتضح قال فقتلها ودفنها قال فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه فعارضه إبليس اللعين فى الطريق فقال له إن سجدت لى خلصتك منهم فسجد له فعند ذلك تبرّأ منه ومات الرجل كافرا اللهمّ اعصمنا من مكايد الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين . ومن ذلك مااتفق أن بنى إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها ، فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها فعارضه إبليس لعنه الله وقال له تركت عبادتك وجئت لشىء لايعود عليك نفعه ولم يزل به حتى تقاتل معه فصرعه العابد وجلس على صدره ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك فى كل يوم إلى ثلاثة أيام فلما رآه لايرجع قال له اترك قطعها وأنا أجعل لك فى كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك وعاهده على ذلك فرجع قال فجعل له تحت وسادته دينارين ثم دينارين ثم قطع ذلك عنه فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة فعارضه إبليس فى الطريق وتحاورمعه وتجاذبا فصرعه إبليس وجلس على صدره وقال له إن لم ترجع عن قطعها وإلا ذبحتك فقال له العابد خلّ عنى وأخبرنى كيف غلبتنى فقال له لما غضبت لله غلبتنى ولما غضبت لنفسك غلبتك . ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محلّ استيفائها قال الله تعالى _ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلا _ .

[فصل فى المتشيطنة وهم أنواع كثيرة]

منها الولهان يوجد فى جزائر البحار على صورة الإنسان . حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجوههم وأخذ بعض من فى المركب ، ومنها السعلاة يحكى أن صنفا منها يتزيا بزىّ النساء ويتراءى للرجال ،

وحكى

وحكى أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم فأقامت معه مدة وولدت منه أولادا ذكورا وإناثا فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح فنظرت فرأت نارا من بعد عند الجبانة فاضطربت وقالت ألم تر نيران السعالى وتغيرلونها وقالت بنوك و بناتك أوصيك بهم خيرا ، ثم طارت، ولم تعد إليه . ومنها نوع يقال له المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم . حكى أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها فأتاه شخص بسراج وطعام فتعجب العابد من ذلك فقال له شخص بالصومعة إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتى والله إنى لأعلم أنه شيطان . وقال بعض الصوفية للمذهب أصناف منهم من يحمل الفانوس بين يدى الشيخ ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك ومنهم من ينشد الشعر . وقال بعض المسافرين أبق لى غلام فخرجت فى أثره فاذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق وجرير قال فدنوت منهم وسلمت عليهم فقالوا ألك حاجة قلت لا فقال بعضهم تريد غلامك قلت وما أعلمك بغلامى ؟ قال كعلمى بجهلك قلت أو جاهل أنا ؟ قال نعم وأحمق قال ثم غاب وأتانى بالغلام مقيدا فلما رأيته غشى على فلما أفقت قال انفخ فى يده ففعلت فانفرج القيد عنه وصرت لا أنفخ فى شىء من ذلك ولا فى وجع من الأوجاع إلا برىء وخلص صاحبه . ومنها نوع يقال له العفريت يختطف النساء يقال إن رجلا اختطفت ابنته فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وقال بعض المسافرين بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لى قضاء الحاجة فانفردت عن رفقتى وضللت عنهم فبينما أنا سائر فى أثرهم إذ رأيت نارا عظيمة وخيمة فجئت إلى جانبها و إذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها فسألتها عن حالها ، فقالت أنا من فزارة اختطفنى عفريت يقال له ظليم وجعلنى ههنا فهو يغيب عنى بالليل و يأتينى بالنهار ، فقلت لها امضى معى ، فقالت أهلك أنا وأنت فانه يتبعنا و يأتينا فيأخذنى ويقتلك ، فقلت لا يستطيع أخذك ولا قتلى وما زلت أرددها الحديث حتى رضيت فأنخت لها ناقتى فركبتها وسرت بها حتى طلع الفجر فالتفت فاذا أنا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان فى الأرض ، فقالت هاهو قد أتانا فأنخت ناقتى وخططت حولها خطا وقرأت آيات من القرآن وتعوذت بالله العظيم فتقدم وأنشأ يقول :

ياذا الذى للحين يدعوه القدر خلّ عن الحسناء رسلا ثم سر وإن تكن ذا خبرة فينا اصطبر

قال فأجبته :

ياذا الذى للحين يدعوه الحمق خل عن الحسناء رسلا وانطلق ما أنت فى الجن بأول من عشق

قال فتبدى لى فى صورة أسد وجاذبنى وجاذبته ساعة فلم يظفر أحد منا بصاحبه فلما أيس منى قال هل لك فى جزاصيق أو إحدى ثلاث خصال قلت وماهن قال مائتان من الابل أو أخدمك أيام حياتى أو ألف دينار الساعة وخل بينى و بين الجارية ، فقلت لا أبيع دينى بدنياى ولا حاجة لى بخدمتك فاذهب من حيث أتيت قال فانطلق وهو يتكلم بكلام لا أفهمه وسرت بالجارية إلى أهلها وتزوجت بها وجاءنى منها أولاد . وقيل لما سخر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام أيها الجن والشياطين أجيبوا نبى الله سليمان بن داود باذن الله تعالى قال فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والغيران والأودية والفلوات والآجام وهم يقولون لبيك لبيك والملائكة تسوقهم سوق الراعى للغنم حتى حشرت بين يدى سليمان عليه الصلاة والسلام

مالا كثيرا ومتجرا عزيزا ، فلما قضيت حجى عدت لزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا ذات ليلة بين القبر والمنبر فى الروضة إذ سمعت أنينا عاليا وحسا باديا فأنصت إليه فاذا هو يقول :

أشجاك نوح حمائم السدر فأهجن منك بلابل الصدر
أم زاد نومك ذكر غانية أهدت إليك وساوس الفكر
فى ليلة نام الخلى بها وخلفت بالأحزان والذكر
ياليلة طالت على دنف يشكو الغرام وقلة الصبر
أسلمت من يهوى لحرّ جوى متوقد كتوقد الجمر
فالبدر يشهد أننى كلف بجمال حب مشبه البدر

قال ثم انقطع الصوت ولم أر من أين جاء فبهت حائرا وإذا به قد أعاد البكاء والنحيب وهو يقول :

أشجاك من ريا خيال زائر والليل مسودّ الذوائب عاكر
واعتاد مهجتك الهوى فأبادها واهتاج مقلتك المنام الباتر
ناديت ليلى والظلام كأنه يمّ تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسرى فى السماء كأنه ملك تبدى والنجوم عساكر
وإذا تعرضت الثريا خلتها كأسا بها حثو السلافة دائر
وترى يد الجوزاء ترقص فى الدجا رقص الحبيب علاه سكر ظاهر
ياليل طلت على حبيب ماله إلا الصباح موازر ومسامر

فأجابنى : مت حتف أنفك واعلمن أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال عبد الله فنهضت عند ابتدائه بالأبيات أؤم

طائفة ذليلة وكانوا إذ ذاك أربعا وعشرين فرقة فنظر إلى ألوانها فاذا هى سود وشقر ورقط وبيض وصفر وخضر وعلى صور جميع الحيوانات ومنهم من رأسه رأس الأسد وبدنه بدن الفيل ومنهم من له خرطوم وذنب ومنهم من له قرون وحوافر وغير ذلك من الأنواع ، قال فعند ذلك تعجب نبى الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال وسجد شكرا لله تعالى وقال : إلهى ألبسنى هيبة من عندك وجعل يسألهم عن طباعهم وعن طعامهم وشرابهم وهم يجيبونه ، ثم فرقهم فى الصنائع من قطع الصخور والأحجار والأشجار والغوص فى البحار وأبنية الحصون وفى استخراج المعادن والجواهر . قال الله تعالى ـ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ـ ونكتفى من ذلك بهذا القدر اليسير والله المسئول فى تيسير كل عسير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والستون فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

الفصل الأول فى ذكر البحار

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء لايعلم طولها وعرضها إلا الله سبحانه وتعالى ثم نظر إليها بعين الهيبة فذابت وصارت ماء فاضطرب الماء فخلق الريح ووضع عليها الماء ، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء وعليه قوله تعالى : وكان عرشه على الماء . واعلم أن بحر الظلمات لايدخله شمس ولا قمر وأن بحر الهند خليج منه وبحر اللاذقية خليج منه وبحر الصين خليج منه وبحر الروم خليج منه وبحر فارس خليج منه وكل هذه البحار التى ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذى يقال له البحر المحيط. وأما بحر الخزر وبحر خوارزم وبحر أرمينية والبحر الذى عند مدينة النحاس وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود ولذلك ليس فيها جزر ولا مد ، وقيل «سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الجزر والمد فقال هو ملك عال قائم بين البحرين إن وضع رجله فى البحر حصل له المد وإذا رفعها حصل له الجزر» وقيل إنما سمى البحر الأسود لأن ماءه فى رأى العين كالحبر الأسود فان أخذ منه الانسان فى يده شيئا رآه أبيض صافيا إلا أنه أمر من الصبر مالح شديد الملوحة فاذا صار ذلك الماء فى بحر الروم تراه أخضر كالزنجار والله تعالى يعلم لأى شىء ذلك وكذلك يرى فى بحر الهند خليج أحمر كالدم وبحر أصفر كالذهب وخليج أبيض كاللبن تتغير هذه الألوان فى هذه المواضع والماء فى نفسه أبيض صاف وقيل إن تغير الماء بلون الأرض . وأما مايخرج من البحر من السمك وغيره فقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال «بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ساحل البحر وأمر علينا أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه نتلقى عير قريش وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره ، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل فأشرفنا على ساحل البحر فرأينا شيئا كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه فاذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر فأقمنا شهرا نأكل منها ونحن ثلثمائة حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذى فى وقب عينيها بالقلال ونقطع منه القطعة كالثور ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقب عينها وأخذ ضلعا من أضلاعها فأقامها ، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها وتزودنا

من

الصوت فما انتهى إلى آخرها إلا وأنا عنده فرأيت غلاماً جميلا قد نزل عذاره لكن قد علا محاسنه الأصفرار والدموع تجرى على خده كالأمطار فقال نعمت ظلاما من الرجل قلت عبدالله بن معمر القيسى فقال ألك حاجة يافتى قلت إنى كنت جالسا فى الروضة فما راعنى فى هذه الليلة إلا صوتك فبنفسى أقيك وبروحى أفديك وبمالى أواسيك ما الذى تجد قال إن كان ولابد فاجلس فجلست فقال أنا عتبة بن الحباب ابن المنذر بن الجموح الأنصارى غدوت إلى مسجد الأحزاب ولم أزل فيه راكعا ساجدا ثم اعتزلت غير بعيد فاذا نسوة يتهادين كأنهن القطا وفى وسطهن جارية بديعة الجمال فى نشرها بارعة الكمال فى عصرها نورها ساطع يتشعشع وطيبها عاطر يتضوع فوقفت على وقالت ياعتبة ما تقول فى وصل من طلب وصلك ثم تركتنى وذهبت فلم أسمع لها خبرا ولا قفوت لها أثرا فأنا حيران أنتقل من مكان إلى مكان ، ثم صرخ صرخة عظيمة وأكب على الأرض مغشيا عليه ثم أفاق بعد ساعة وكأنما صبغت ديباجة خده بورس وأنشد يقول :

أراك بقلبى من بلاد بعيدة ... تراكم ترونى بالقلوب على بعد
فؤادى وطرفى يأسفان عليكم ... وعندكم روحى وذكركم عندى
ولست ألذ العيش حتى أراكم ... ولو كنت فى الفردوس أوجنة الخلد

قال فقلت يا أخى تب إلى ربك واستقل من ذنبك

واتق هول المطلع وسوء المضجع ، فقال هيهات هيهات ما أنا مبال حتى يكون ما يكون ولم أزل به إلى طلوع الصباح ، فقلت له قم بنا إلى مسجد الأحزاب فلعل الله أن يكشف عنك ما بك قال أرجو ذلك ببركة طلعتك إن شاء الله فنزلنا إلى أن وردنا مسجد الأحزاب فسمعته يقول :

يا للرجال ليوم الأربعاء أما ينفك يحدث لي بعد النهى طربا

ما إن يزال غزال فيه يظلمني يهوى إلى مسجد الأحزاب منتقبا

يخال الناس أن الأجر همته وما أنا طالبا للأجر مكتسبا

لو كان يبغي ثوابا ما أتى ظهرا مضمخا بفتيت المسك مختضبا

فجلسنا ثم صلينا به الظهر فإذا النسوة أقبلن وما الجارية بينهن فلما بصرن به قلن يا عتبة وما ظنك بطالبة وصالك وكاسفة بالك قال ومالها قلن قد أخذها أبوها وارتحل بها إلى السماوة فسألتهن عن الجارية فقلن هي ريا ابنة الغطريف السلمي ، فرفع الشاب رأسه إليهن ، وأنشد يقول :

خليلي ريا قد أجد بكورها وسار إلى أرض السماوة عيرها

خليلي ما تقضى به أم مالك لنا يصفو على أميرها

خليلي إني قد خشيت من البكاء فهل عند غيري مقلة أستعيرها

فقلت يا عتبة طب قلبا وقر عينا فقد وردت الحجاز بمال جزيل وطرف وتحف وقماش ومتاع

من لحمها ، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم شيء من لحمها فتطعمونا فأرسلناه منه فأكله» . وقيل يخرج من البحر سمكة عظيمة فتتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها فتهرب منها إلى مجمع البحرين فتتبعها فيضيق عليها مجمع البحرين لعظمها وكبرها فترجع إلى البحر الأسود وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ فتبارك الله رب العالمين . وقال صاحب تحفة الألباب : ركبت في سفينة مع جماعة ، فدخلنا إلى مجمع البحرين ، فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى فكاد قلبي ينخلع وسقطت على وجهي أنا وغيري ثم ألقت السمكة نفسها في البحر فاضطرب البحر اضطرابا شديدا وعظمت أمواجه وخفنا الغرق فنجانا الله تعالى بفضله ، وسمعت الملاحين يقولون هذه سمكة تعرف بالبغل . قال ورأيت في البحر سمكة كالجبل العظيم ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار كل عظم أطول من ذراعين وكان بيننا وبينها في البحر أكثر من فرسخ فسمعت الملاحين يقولون هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قسمتها نصفين . ولقد سمعت أنا من يقول إن جماعة ركبوا سفينة في البحر ، فأرسوا على جزيرة ، فخرجوا إلى تلك الجزيرة فغسلوا ثيابهم واستراحوا ثم أوقدوا نارا ليطبخوا فتحركت الجزيرة وطلبت البحر وإذا بها سمكة فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه . وقيل إن في البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها يقال إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة فتلقي نفسها عليها فتحطمها وتهلك من فيها ، فإذا أحس بها أهل السفينة صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا الطبول ونقروا الطسوت والسطول والأخشاب لأنها إذا سمعت تلك الأصوات ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضله ورحمته . وقال الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب : كنت يوما في البحر على صخرة فإذا أنا بذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع فطلبت أن تقبض على رجلي فتباعدت عنها فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت تلك الصخرة فسللت خنجرا كبيرا كان معي فطعنت به رأسها فغار فيه فلم أقدر على خلاصه منها فأمسكت نصابه بيدي جميعا وجعلت أجره حتى ألصقتها بباب الجحر فتركت الجحر وخرجت من تحت الصخرة فإذا هي خمس حيات في رأس واحد ، فتعجبت من ذلك وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية فقال هذه تعرف بأم الحيات ، وذكروا أنها تقبض على الآدمي في الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعا وأنها تقلب الزوارق وتأكل من قدرت عليه من أصحابها وأن جلدها أرق من جلد البصل ولا يؤثر فيها الحديد شيئا . قال ورأيت مرة في البحر صخرة عليها شيء كثير من النارنج الأحمر الطري الذي كأنه قطع من شجره فقلت في نفسي هذا قد وقع من بعض السفن ، فذهبت إليه فقبضت منه نارنجة فإذا هي ملتصقة بالحجر فجذبتها فإذا هي حيوان يتحرك ويضرب في يدي فلففت يدي بكم ثوبي وقبضت عليه وعصرته فخرج من فيه مياه كثيرة وضمر فلم أقدر أن أقلعه من مكانه فتركته عجزا عنه وهو من عجائب خلق الله تعالى وليس له عين ولا جارحة إلا الفم والله سبحانه وتعالى أعلم لأي شيء يصلح ذلك . قال ولقد رأيت يوما على جانب البحر عنقود عنب أسود كبير الحب أخضر العرجون كأنما قطف من كرمه ، فأخذته وكان ذلك في أيام الشتاء وليس في تلك الأرض التي كنت فيها عنب ففرحت أن آكل منه فقبضت على حبة منه وجذبتها فلم أقدر

أريد به أهل السفر والله لأبذلنه أمامك وبين يديك وفيك وعليك حتى أوصلك إلى المنى وأعطيك الرضا وفوق الرضا فتقدم بنا إلى مجلس الأنصار، فقمنا حتى أشرفنا على ناديهم فسلمت فأحسنوا الرد ثم قالت أيها الملأ الكرام ما تقولون فى عتبة وأبيه قالوا خيران من سادات العرب قالت فإنه قد رمى بفؤاده الجوى وما أريد منكم إلا المعونة فركبنا وركب القوم حتى أشرفنا على منازل بنى سليم من السماوة فقلنا أين منزل الغطريف فخرج بنفسه مبادرا فاستقبلنا استقبال الكرام وقال حييتم بالإكرام والرحب والإنعام قلنا وأنت حييت ثم حييت أتيناك أضيافا قال نزلتم أفضل معقل ثم نادى يامعشر العبيد أنزلوا القوم وسارعوا إلى الإكرام ففرشت فى الحال الأنطاع والنمارق والزرابى فنزلنا وأرحنا ثم ذبحت الذبائح ونحرت النحائر وقدمت الموائد فقلنا ياسيد القوم لسنا بذائقين لك طعاما حتى تقضى حاجتنا وترد لنا بمسرتنا قال وما حاجتكم أيها السادة؟ قلنا نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة ابن الحباب بن المنذر الطيب العنصر العالى الفخر فأطرق وقال ياإخوتاه إن التى تخطبونها أمرها إلى نفسها وها أنا داخل إليها أخبرها، ثم نهض مغضبا فدخل على ريا وكانت كاسمها فقالت ياأبتاه إنى أرى الغضب بينا عليك فما الخبر؟ قال لها ورد الأنصار يخطبونك منى قالت سادات كرام وأبطال عظام استغفر لهم النبى صلى الله عليه وسلم فلمن الخطبة منهم قال لفتى يعرف بعتبة بن الحباب ومن

أن أقلعها من العنقود حتى كأنها من الحديد قوة وصلابة فجذبتها جذبة أقوى من الأولى فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب وفى داخلها عجم كعجم العنب فسألت عن ذلك فقيل لى هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك. وفى البحر أيضا حيوان رأسه يشبه رأس العجل وله أنياب كأنياب السباع وجلده له شعر كشعر العجل وله عنق وصدر وبطن وله رجلان كرجل الضفدع وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودى، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر ويلقى نفسه فى البر ولا يتحرك ولا يأكل ولو قتل ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد فحينئذ يدخل البحر، ولا تلحقه السفن لخفته وقوته، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس فلا يجد له ألما مادام ذلك الجلد عليه وهو من العجائب. وقيل إن فى بحر الروم سمكا طويلا طول السمكة مائة ذراع وأكثر وله أنياب كأنياب الفيل تؤخذ وتباع فى بلاد الروم وتحمل إلى سائر البلاد وهى أحسن وأقوى من أنياب الفيل وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة ويسمونه الجوهر ويتخذون منه نصبا للسكاكين وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص. وفى البحر أيضا سمك يسمى الرعاد إذا دخل فى شبكة فكل من جر تلك الشبكة أو وضع يده عليها أو على حبل من حبالها تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئا كما يرعد صاحب الحمى فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة فإن أعادها عادت إليه الرعدة وهذا أيضا من العجائب فسبحان الله جلت قدرته.
وقال صاحب تحفة الألباب: حدثنى الشيخ أبو العباس الحجازى قال حدثنى رجل يعرف بالهارونى من ولد هرون الرشيد أنه ركب سفينة فى بحر الهند فرأى طاوسا قد خرج من البحر أحسن من طاوس البر وأجمل ألوانا قال فكبرنا لحسنه فجعل يسبح وينظر لنفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص فى البحر. وفى البحر دابة يقال لها الدرفين تنجى الغريق لأنها تدنو منه حتى يضع يده على ظهرها فيستعين بالاتكاء عليها ويتعلق بها فتسبح به حتى ينجيه الله بقدرته، فسبحان من دبر هذا التدبير اللطيف وأحكم هذه الحكمة البالغة. وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن ويصبو لسماعه وربما قيل إن بعض الصيادين يحفرون فى البحر حفائر ثم يجلسون فيضربون بالمعازف وآلات الطرب فيجتمع السمك ويقع فى تلك الحفائر، وقيل إن الدرفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر، وقيل إن خيل البحر توجد بنيل مصر وهى صفة خيل البر وقيل إنها تأكل التماسيح وربما خرجت فرعت الزرع، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيل ينتهى فى طلوعه إلى ذلك المكان، وقيل إن فى البحر المحيط شيئا يتراءى كالحصون فيرتفع على وجه الماء ويظهر منه صور كثيرة ويغيب. ومن عجيب ما حكى أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة وهى كثيرة الأمطار وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم ويجعلونه فى بيت ويوقدون حوله النيران حتى يجف وعجائبه لا تحصى ولا يمكن حصرها. ويقال إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مر بجزيرة بها أمة رءوسهم مثل رءوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار وخرجوا إلى مراكبه وحاربوه ثم تخلص منهم وسار فرأى صورا متلونة بألوان شتى وسمكا طوله مائة ذراع وأكثر وأقل فسبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه. ويقال إنه مر فى بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قناديل لا تطفأ.

قالت بالله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفي بما وعد ويدرك إذا قصد ويأكل ما وجد ولا يأسف على ما فقد قال الغطريف أقسم بالله لاأزوجك به أبدا فقد نمى إلى بعض حديثك معه فقالت ما كان ذلك ولكن إذ أقسمت فإن الأنصار لايردون ردًّا قبيحا فأحسن لهم الرد وادفع بالتي هي أحسن قال يا ربا فأى شيء أقول قالت : أغلظ لهم المهر ما استطعت فإنهم يرجعون ولا يجيبون وقد أبررت قسمك وبلغت مأربك وراعيت أضيافك . قال ما أحسن ماقلت ثم خرج مبادرا فقال ياإخوتاه إن فتاة الحى قد أجابت ولكن أريد لها مهر مثلها فمن القائم به قال عبد الله فقلت أنا القائم بما تريد فقال أريد ألف مثقال من الذهب الأحمر قلت لك ذلك قال وخمسة آلاف درهم من ضرب هجر قلت لك ذلك قال ومائة ثوب من الأبراد والحبر قلت لك ذلك قال وعشرين ثوبا من الوشى المطرز قلت لك ذلك قال وأريد خمسة أكرشة من العنبر قلت لك ذلك قال وأريد مائة نافجة من المسك الأذفر قلت لك ذلك قال فهل أجبت قلت أجل ثم أجل قال عبد الله فأنفذت نفرا من الأنصار أتوا بجميع ماضمنته وذبحت النعم والغنم واجتمع الناس لأكل الطعام فأقمنا هناك نحو أربعين يوما على الحال ، ثم قال الغطريف : ياقوم خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين السلامة ، ثم حملها في هودج وجهز معها ثلاثين راحلة عليها التحف والطرف ، ثم ودعنا ورجع فسرنا حتى إذا بقى بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا

ومن جزائر البحر جزيرة القمر ، يقال : إن بها شجرا طول الشجرة مائتا ذراع ، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعا ، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم ، ويقال إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر وإن هذه الأمة التى بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه وهم فى غاية اللطافة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبالقرب منهم معدن الذهب والياقوت وبها الفيلة البيض وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها ، وبها العود القمارى والآبنوس والطواويس ، وبها مدن كثيرة ، ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال له اصطفيون داخل البحر الجنوبى ، ويقال إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة وأن بعض المسافرين وصل إليها ودخلها ورأى هذه الملكة وهى جالسة على سرير وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربعمائة وصيفة كلهن أبكارا ، وفى هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز وخيار الشنبر ويحمل حملا كهيئة الإنسان فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق ثم يسقط ، وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيلهم ومقاود كلابهم وأطواقها من الذهب . ومنها جزيرة الصين يقال إن بها ثلثمائة مدينة ونيفا سوى القرى والأطراف وأبوابها اثنا عشر بابا وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة وهذه الجبال تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت فى ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذى تريده وفيها من الأودية والأشجار والأنهار مالا يمكن وصفه فتبارك الله رب العالمين ، وقيل إن الاسكندر لما فرغ من بناء سده حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نام وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أن علا وسد الأفق فظن من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم ففزعوا فانتبه فقال مالكم فقالوا له انظر ماحل بنا فقال ما كان الله ليأخذ نفسا قبل انقضاء أجلها وقد منعنى من العدو فلا يسلط علىّ حيوانا من البحر قال فإذا بالحيوان قد دنا من الملك وقال أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر وقد رأيت هذا السد بنى وخرب سبع مرات ولم يزد على ذلك ثم غاب فى البحر فتبارك من له هذا الملك العظيم لا إله إلا هو العزيز الحكيم . وقيل إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر وطولها نحو ستة فراسخ وهى حصينة ذات كروم ونخيل وأشجار وغير ذلك وإذا أراد إنسان الدخول فيها حثى فى وجهه التراب فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع ، وقيل إنها معمورة بالجان وقيل بخلق من النسناس ويقال إنهم من بقايا عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم وكل واحد منهم شق إنسان . ونقل عن بعض المسافرين أنه قال بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد فلما أصبح الصباح سمعنا قائلا يقول من الشجر يا أبا مجير : الصبح قد أسفر والليل قد أدبر والقناص قد حضر فالحذر الحذر . قال : فلما ارتفع النهار أرسلنا كلبين كانا معنا نحو الشجرة فسمعت صوتا يقول ناشدتك . قال : فقلت لرفيق دعهما . قال : فلما وقفا منا نزلا هاربين تتبعهما الكلبان وجدًّا فى الجرى فأمسكا شخصا منهما . قال : فأدركناه وهو يقول :

الويل لى مما به دهانى ... دهرى من الهموم والأحزان
قفا قليلا أيها الكلبان ... الى متى الىّ تجريان

قال : فأخذناه ورجعنا فذبحه رفيقى وسواه فعفته ولم آكل منه شيئا فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه لا إله إلا هو ولا معبود سواه .

خيل تريد الغارة وأحسب أنها من بني سليم فحمل عليها عتبة بن الحباب فقتل منها عدّة من رجالها وردّها وانحرف راجعا وبه طعنة تفور دما حتى سقط إلى الأرض فلم يلبث عتبة أن قضى نحبه فقلنا ياعتباه فسمعت الجارية فألقت نفسها عليه وجعلت تقبله وتصيح بحرقة وتقول :

تصبرت لا أني صبرت وإنما أعلل نفسي أنها بك لاحقه
ولو أنصفت نفسي لكانت إلى الردى أمامك من دون البرية سابقه
فما واحد بعدي وبعدك منصف خليلا ولا نفس لنفس مصادقه

ثم شهقت شهقة واحدة قضت فيها نحبها فاحتفرنا لهما مكانا وجدنا وواريناها فيه ورجعت إلى ديار قومي وأقمت سبع سنين بعدها ثم عدت إلى الحجاز ووردت إلى زيارة قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت والله لأعودنّ إلى قبر عتبة فأزوره فأتيت إلى القبر فإذا عليه شجرة نابتة عليها أوراق حمر وصفر وخضر وبيض فقلت لأرباب الجهة مايقال لهذه الشجرة فقالوا شجرة العروسين فأقمت عند القبر يوما وليلة وانصرفنا .

حكي أن شخصا جاء إلى الشيخ عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي رحمه الله تعالى سلطان العلماء ، فقال رأيتك في المنام تنشد :

وكنت ذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

قال فسكت ثم قال أعيش ثلاثا وثمانين سنة فإن هذا الشعر لكثير عزة وهو

[الفصل الثاني في ذكر الأنهار والآبار والعيون]

قال الله تعالى ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ـ . قال المفسرون هو المطر ، ومعنى سلكه أدخله في الأرض وجعله عيونا ومسايل ومجاري كالعروق في الجسد ، فمن الأنهار ماهو من الأمطار المجتمعة ولهذا ينقطع عند فراغ مادّته ومنها ماينبع من الأرض وأطول مايكون من الأنهار ألف فرسخ وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة وبين ذلك وكلها تبتدئ من الجبال وتنتهي إلى البحار والبطائح وفي ممرّها تسقي المدن والقرى وما فضل منها ينصبّ في البحر الملح ويختلط به ولا يمكن استيفاء عددها لكنا نشير إلى بعضها فنقول : (النيل المبارك) ليس في الأنهار أطول منه لأنه مسيرة شهرين في بلاد الإسلام وشهرين في بلاد النوبة وأربعة في الخراب وقيل إن مسافته من منبعه إلى أن ينصبّ في البحر الرومي ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخا . قال ذلك صاحب «مباهج الفكر ومناهج العبر» واختلف في زيادته ، فقيل : إن الأنهار والعيون تمدّه في الوقت الذي يريده الله تعالى . وفي الحديث أنه من أنهار الجنة . وقال أهل الأثر : إن الأنهار التي من الجنة تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب ثم تمرّ بالبحر المحيط وتشقّ فيه . قالوا : ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور . (نهر الفرات) يوجد بأرض أرمينية فضائله كثيرة والنيل أصدق حلاوة منه ، وبه من السمك الأبيض ماتكون الواحدة قنطارا بالدمشقي ، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن يأتي إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخا ، وفي وسطه مدن وجزائر تعدّ من أعمال الفرات . (جيحون) نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة ويمرّ على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم ولا ينتفع به شيء من البلاد سوى خوارزم لأنها متسفلة عنه ثم ينصبّ في بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام وهو يجمد في الشتاء خمسة أشهر ، والماء يجري من تحت الجمد فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها وإذا اشتدّ جموده مروا عليه بالقوافل والعجل المحملة ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين . (سيحون) نهر عظيم . قيل : إن مبدأه من حدود الترك ويجري حتى يتصل ببلاد الفرغانة وربما يجتمع مع جيحون في بعض الأماكن . (الدجلة) نهر بغداد وله أسماء غير ذلك ، وماؤه أعذب المياه بعد النيل وأكثرها نفعا . قيل مقداره ثلثمائة فرسخ وفي بعض الأوقات يفيض حتى قيل إنه يخشى على بغداد الغرق منه وهو نهر مبارك كثيرا ماينجو غريقه . حكي أنه وجد به غريق فيه الروح فلما أفاق سألوه عن حاله فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأنّ أحدا يحمله ويصعد به . وروي في الأثر : أن الله تعالى أمر دانيال عليه الصلاة والسلام أن يحفر لعباده مايستقون منه وينتفعون به فكان كلما مرّ بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات . وأما الأنهار الصغار فكثيرة ولكنا نذكر منها طرفا فنقول : (نهر حصن المهدي) قال صاحب تحفة الألباب : إنه بين البصرة والأهواز وأنه يرتفع منه في بعض الأوقات شيء يشبه صورة الفيل ولا يعرف أحد شأنه . (نهر أذربيجان) قيل : إن بالقرب منه نهرا يجري فيه الماء سنة ، ثم ينقطع ثمان سنين ، ثم يعود في التلعة ، وقيل : إنه ينعقد حجرا ويستعمل منه اللبن ويبنى به . وقيل إن في تلك الأرض بحيرة تجفّ فلا يوجد فيها ماء ولا سمك ولا طين سبع سنين ثم يعود الماء والسمك والطين فتبارك الذي بيده الملك

وهو على كل شيء قدير . (نهر صقلاب) يجرى فيه الماء يوما واحدا فى كل أسبوع ثم ينقطع ستة أيام . (نهر العاصى) بأرض حماة وقيل بحمص وهو نهر معروف وفيه يقول بعضهم :

مدينة حمص كعبة القصف أصبحت ... يطوف بها الدانى ويسعى لها القاصى

بها روضة من حسنها سندسية ... تعلق فى أكناف أذيالها العاصى

(نهر العمود) بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد وقيل من نحاس وتحتها عمود من نحاس وقيل من حديد طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محددة وعنده رجل يقرأ كتاب الله تعالى ويقول يا عظيم البركة طوبى لمن صعد هذه الشجرة وألقى بنفسه على هذا العمود فيدخل الجنة ، وقال أهل تلك الناحية من يريد ذلك فيصعد على تلك الشجرة ويلقى نفسه فيتقطع . (نهر باليمن) قال صاحب تحفة الألباب إنه عند طلوع الشمس يجرى من المشرق إلى المغرب وعند غروبها يجرى من المغرب إلى المشرق (نهر ببلاد الحبشة والسودان) يجرى إلى المشرق يشبه النيل فى زيادته ونقصانه وأرضه بها الخصب والبركة وبها شجر كالأراك يحمل ثمرا كالبطيخ داخله شيء يشبه القند فى الحلاوة ولكن فيه بعض حموضة وهذا النهر يجرى فى بلادهم ثمانية أشهر ثم ينصب فى البحر المحيط فسبحان من دبر هذا التدبير وأحكم هذه الصنعة لا إله إلا هو الحكيم الخبير .

[الفصل الثالث فى ذكر الآبار]

قال مجاهد : كنت أحب أن أرى كل شيء غريب ، فسمعت أن ببابل بئر هاروت وماروت فسرت إليها ، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتا فدخلت فى بعضها فوجدت شخصا فسلمت عليه فرحب بى وسألنى عن حاجتى ، فذكرت له غرضى فأمر يهوديا يذهب معى فيوقفنى على البئر ويطلعنى على الملكين . قال فسرنا إلى البئر ففتح سردابا ونزلنا ، فأمرنى أن لا أذكر اسم الله تعالى . قال فلما رأيت الملكين رأيت شيئا كالجبلين العظيمين منكسين على رءوسهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما . قال مجاهد فلما رأيت ذلك ذكرت الله تعالى قال فاضطربا اضطرابا شديدا حتى كادا يقطعان السلاسل . قال ففر اليهودى فتعلقت به فقال أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك . (بئر برهوت) بقرب حضرموت وهى التى قال النبى صلى الله عليه وسلم إنها تجمع أرواح الكفار . قال على كرم الله وجهه : أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود منتن تأوى إليها أرواح الكفار ، والموكل بها ملك يسمى دومة . (بئر عسفان) ماؤها يستشفى به قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فيها . قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما كنا نغسل المريض منها فيعافى ، وقيل إن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ منها . (بئر معروفة بأرض حلب) خاصيتها أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه مالم يجاوز الأربعين ، وبنيسابور آبار كثيرة وهى معادن الفيروزج وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها . وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء فى وقت من السنة ، فيرتفع على وجه الأرض لحظة واحدة ويجرى فينتفع به فى سقى الزرع ثم يعود إلى ما كان ، وعجائب الله كثيرة لاتكاد تنحصر لا إله إلا هو ولا معبود سواه .

وقد نظرت فلم أجد بينى وبينه نسبة فأنى سنى وهو شيعى وطويل وهو قصير وشاعر ولست بشاعر وأنا سلمى وهو خزاعى وشامى وهو حجازى فلم يبق إلا السن فأعيش مثله فكان ذلك انتهى . ومن ظرف مايحكى أن الجاحظ قال : عبرت يوما على معلم كتاب فوجدته فى هيئة حسنة وقماش مليح فقام إلىّ وأجلسنى معه ففاتحته فى القرآن فاذا هو ماهر ففاتحته فى شيء من النحو فوجدته ماهرا ثم أشعار العرب واللغة فاذا به كامل فى جميع مايراد منه فقلت قد وجب علىّ تقطيع دفتر المعلمين فكنت كل قليل أتفقده وأزوره قال فأتيت بعض الأيام إلى زيارته فوجدت الكتاب مغلقا فسألت جيرانه فقالوا مات عنده ميت فقلت أروح أعزيه فجئت إلى بابه فطرقته فخرجت إلىّ جارية وقالت ماتريد قلت مولاك فقالت مولاى جالس وحده فى العزاء مايعطى لأحد الطريق قلت قولى له صديقك فلان يطلب يعزيك فدخلت وخرجت وقالت بسم الله فعبرت إليه فاذا هو جالس وحده فقلت أعظم الله أجرك لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة وهذا سبيل لابدمنه فعليك بالصبر ثم قلت أهذا الذى توفى ولدك قال لا قلت فوالدك قال لا قلت فأخوك قال لا قلت فمن قال حبيبتى فقلت فى نفسى هذا أول المناحس وقلت له سبحان الله تجد غيرها وتقع عينك على أحسن منها فقال وكأنى بك وقد ظننت أنى رأيتها فقلت فى نفسى هذه منحسة ثانية ثم قلت وكيف عشقت من لارأيته فقال اعلم أنى كنت جالسا وإذا

الباب السادس والستون فى ذكر عجائب الأرض ومافيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

الفصل الأول فى ذكر الأرض ومافيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم الدنيا منها عالم واحد وما العمران فى الخراب إلا كخردلة فى كف أحدكم» وقال رواة الأثر : إن لله عز وجل دابة فى مرج من مروجه فى غامض علمه رزقها فى كل يوم بقدر رزق العالم بأسره وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وست وخمسون مدينة وقيل غير ذلك . وأقاليم الأرض سبعة الاقليم الأول الهند الثانى الحجاز الثالث إقليم مصر الرابع إقليم بابل الخامس إقليم الروم والشام السادس إقليم الترك السابع إقليم الصين وأوسط الأقاليم إقليم بابل وهو أعمرها وفيه جزيرة العرب وفيه العراق الذى هو سرة الدنيا و بغداد فى وسط هذا الإقليم فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله فسلموا من شقرة الروم وسواد الحبشة وغلظ الترك وجفاء أهل الجبال ودمامة أهل الصين . والممالك المشهورة التى ضبطت عدتها فى زمن المأمون ثلثمائة وثلاث وأربعون مملكة أوسعها ثلاثة أشهر وأضيقها ثلاثة أيام وقال أهل الهيئة إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان فى سنة واحدة وأنه يكون فى بعض البلاد ستة أشهر ليل وستة أشهر نهار وبعضها حرّ وبعضها برد فسبحان من خلق كلّ شىء فأتقنه لا إله إلا هو ولا معبود سواه .

[الفصل الثانى فى ذكر الجبال]

قيل إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت فخلق الجبال وأرساها بها فاستقرّت ومجموع ماعرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلا فمنها ماطوله عشرون فرسخا ومنها ماطوله مائة فرسخ إلى ألف فرسخ . ولنذكر منها ماهو مشهور معروف بين الناس . (فمن أعجبها جبل سرنديب) وطوله مائتان ونيف وستون ميلا وفيه أثر قدم آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط وحوله الياقوت وفى أوديته الماس الذى يقطع به الصخور ويثقب به اللؤلؤ وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد . (جبل الروم) الذى فيه السد طوله سبعمائة فرسخ وينتهى إلى بحر الظلمات . (جبل أبى قبيس) سمى بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كناه بذلك حين اقتبس منه النار التى بين أيدى الناس وقيل غير ذلك . (جبل القدس) جبل شريف مبارك فيه غار يضىء بالليل من غير سراج ويزوره الناس . (جبل أروند بهمذان) برأسه عين تخرج من صخرة أياما معدودة فى السنة تقصد من كلّ وجه يستشفى بها . (جبل بالشام) لونه أسود كالفحم وترابه أبيض تبيض به الثياب . (جبل الأندلس) فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلتها فيه أوقدت وبها جبل به عينان إحداهما باردة والأخرى حارة والمسافة التى بينهما مقدار شبر وجبل به معدن الكبريت والزئبق والزنجفر . (جبل سمرقند) يقطر منه ماء فى الصيف يصير جامدا وفى الشتاء يحرق من حرارته (جبل الصور) بكرمان يكسر حجره فيخرج منه كصور الآدميين قائمين وقاعدين ومضطجعين وإذا سحق وطرح فى الماء يرى كذلك (جبل الأرجان) بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجرا مسدسا أو مثمنا . (جبل هرمز) ينزل منه ماء إلى وهدة فإن صاح إنسان صيحة وقف فإن ثنى جرى . (جبل الطير) باقليم الصعيد يجتمع عنده الطير فى كل سنة مرة

رجل عابر يغنى وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ... ردى على فؤادى أيما كانا

فقلت فى نفسى لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا مثلها ما كان الشعراء يتغزلون فيها فلما كان بعد يومين عبر على ذلك الرجل وهو يغنى ويقول :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها وقعدت فى العزاء منذ ثلاثة أيام ، فقال الجاحظ فعادت عزيمتى وقويت على كتابة الدفتر لحكاية أم عمرو . ومن غريب مايحكى ما حكاه القاضى أبو على المحسن ابن على التنوخى فى كتاب الفرج بعد الشدة أن منارة صاحب الخلفاء قال رفع إلى هرون الرشيد أن رجلا بدمشق من بقايا بنى أمية عظيم المال كثير الجاه مطاع له فى البلدان جماعة وأولاد ومماليك وموال يركبون الخيول ويحملون السلاح ويغزون الروم وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة وأنه لايؤمن من فتق بعد رتقه فعظم ذلك على الرشيد قال منارة وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة فى بعض حججه فى سنة مائة وست وثمانين وقد عاد من الموسم وبايع للأمين والمأمون والمؤتمن أولاده فدعانى وهو خال وقال إنى دعوتك لأمر يهمنى وقد منعنى النوم فانظر كيف تعمل ثم قص على خبر الأموى وقال اخرج الساعة فقد أعددت لك الجائزة والنفقة والآلة ويضمّ إليك مائة غلام واسلك البرّية وهذا كتابى إلى أمير دمشق

ويدخل

وهذه قيود فادخل فابدأ بالرجل فان سمع وأطاع فقيده وجئني به وإن عصى فتوكل به أنت ومن معك وأنفذ هذا الكتاب إلى
نائب الشام ليركب في جيشه ويقبضوا عليه وجئني به وقد أجلتك لذهابك ستا ولمجيئك ستا وهذا محل
تجعله في شقة إذا قيدته وتقعد أنت في الشق الآخر ولا تكل حفظه إلى غيرك حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك فاذا دخلت داره فتفقدها وجميع مافيها وأهله وولده وحشمه وغلمانه وقدر النعمة والحال والمحل واحفظ مايقوله الرجل حرفا بحرف من ألفاظه من حين وقوع طرفك عليه إلى أن تأتيني به وإياك أن يشذ عنك شيء من أمره انطلق قال منارة فودعته وخرجت وركبت الابل وسرت أطوى المنازل أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس النفس قليلا إلى أن وصلت دمشق في أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة فكرهت الدخول ليلا فنمت بظاهر البلد إلى أن فتح الباب فدخلت على هيئتي حتى أتيت دار الرجل وعليها صف عظيم وحاشية كثيرة فلم أستأذن ودخلت بغير إذن فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض غلماني فقالوا هذا منارة رسول أمير المؤمنين
إلى صاحبكم ، فلما صرت في صحن الدار أنزلت ودخلت مجلسا رأيت فيه قوما جلوسا فظننت أن الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بي فقلت أفيكم فلان قالوا لا نحن أولاده وهو في الحمام فقلت استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية

ويدخل في كوة هناك فتمسك الكوة على واحدة وتطير البقية ويكون ذلك علامة الخصب في تلك السنة . ولنقتصر على ذلك ومن أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرآة الزمان .

[الفصل الثالث في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها]

قال أهل التواريخ ونقلة الأخبار : إن أول بناء بني على وجه الأرض الصرح الذي بناه نمروذ الأكبر ابن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام وبقعته بكوثى من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات قالوا وكان طوله خمسة آلاف ذراع بناه بالحجارة والرصاص والشمع واللبان ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة فتبلبلت بها ألسنة الناس فسميت أرض بابل . (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) حكى الشعبي في كتاب سير الملوك أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا من أشد منا قوة قال الله تعالى ـ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ـ وأن الله تعالى بعث إليهم هودا نبيا عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى فقال له شداد إن آمنت بالمك فماذا لي عنده ؟ قال يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر قال شداد أنا أبني مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ماتعدني به قال فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضا واسعة كثيرة الماء طيبة الهواء بعيدة من الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب قال فخرج أولئك الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه فساروا في الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن فرأوا هناك أرضا واسعة طيبة الهواء فأعجبتهم تلك الأرض فأمروا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها أربعون فرسخا من كل جهة عشرة فراسخ فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر على وجه الأرض ثم أحاطوا به سورا ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب واتخذه لبنا ولم يترك في يد أحد من الناس في جميع الدنيا شيئا من الذهب إلا غصبه واستخرج الكنوز المدفونة ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع وأجرى في وسطها أنهارا وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلى قصورها بصفائح الذهب والفضة وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلئ وطلى حيطانها بالمسك والعنبر وجعل فيها جنة مزخرفة له وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرد وغير ذلك ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة ، فلما كمل بناؤها أمر في مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطا وستورا وفرشا من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف وأمر باتخاذ أواني الذهب والفضة فاتخذوا جميع ما أمر به فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت في أهل مملكته وقصد مدينة إرم ذات العماد فلما أشرف عليها ورآها قال قد وصلت إلى ما كان هود يعدني به بعد الموت وقد حصلت عليه في الدنيا فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكا فصاح

فوجدتها قد ماجت بأهلها موجا شديدا فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال واستربت به واشتد قلقى وخوفى من أن يتوارى إلى أن رأيت شيخا بزى الخدام يمشى فى الصحن وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان وهم أولاده وغلمانه فعلمت أنه الرجل فجاء حتى جلس فسلم على سلاما خفيا وسألنى عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته فأخبرته كما وجب وماقضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة فقال تقدم يامنارة فكل معنا فقلت مالى إلى ذلك من حاجة فلم يعاودنى وأقبل يأكل هو ومن عنده ثم غسل يديه ودعا بالطعام فجاءوا بمائدة عظيمة لم أر مثلها إلا للخليفة فقال تقدم يامنارة فساعدنا على الأكل لايزيدنى على أن يدعونى باسمى كما يدعونى الخليفة فامتنعت عليه فما عاودنى وأكل هو ومن عنده وكانوا تسعة من أولاده فتأملت أكله فى نفسه فوجدته أكل الملوك ووجدت جأشه رابطا وذلك الاضطراب الذى فى داره قد سكن ووجدتهم لايرفعون من بين يديه شيئا قد وضع على المائدة إلا نهبا وقد كان غلمانه أخذوا المال لما نزلت الدار جمالى وجميع غلمانى بالمنع من الدخول فما أطاقوا ممانعتهم وبقيت وحدى ليس بين يدى إلا خمسة أوستة غلمان وقوف على رأسى فقلت فى نفسى هذا جبار عنيد وإن امتنع على من الشخوص لم أطق إشخاصه بنفسى ولابمن معى ولا أطيق حفظه إلى أن يلحقنى أمير البلد فجزعت جزعا شديدا ورابنى منه استخفافه فى

وتعجب

بهم صيحة الغضب وقبض ملك الموت أرواحهم فى طرفة عين فخروا على وجوههم صرعى قال الله تعالى ـ وأنه أهلك عادا الأولى ـ وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس فكانوا يرون بالليل فى تلك البرية التى بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضىء كالمصابيح فاذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئا . وقد نقل أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى دخل إليها وذلك أنه ضلت له إبل فخرج فى طلبها فوصل إليها فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره وقال فى نفسه هذه تشبه الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين فى الآخرة فقصد بابا من أبوابها ، فلما وصل إليه أناخ راحلته ودخل المدينة فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار ولم ير فى المدينة أحدا فقال أرجع إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها ثم حمل معه شيئا من تلك الجواهر واليواقيت فى وعاء وجعله على راحلته وعلم على المدينة علامة وقال قربها من جبل عدن كذا ومن الجهة الفلانية كذا ثم انصرف عنها بعد ماظفر بإبله ثم دخل على معاوية رضى الله تعالى عنه بدمشق وأخبره بجميع مارآه فقال له معاوية فى اليقظة رأيتها أم فى المنام قال بل فى اليقظة وقد حملت معى من حصبائها وأخرج له شيئا مما حمله من الجواهر واليواقيت فتعجب معاوية من ذلك ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه فلما دخل عليه قال له معاوية ياأبا إسحق هل بلغك أن فى الدنيا مدينة من ذهب قال نعم ياأمير المؤمنين وقد ذكرها الله عز وجل فى القرآن لنبيه صلى الله عليه وسلم بقوله عز من قائل ـ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ـ وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى ثم التفت فرأى عبد الله بن قلابة فقال هاهو يا أمير المؤمنين وصفته واسمه فى التوراة ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة وقيل إن ذلك كان فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وأن الرجل الذى دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ولا من كان حاضرا بل قال إن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخلها بعض أمتى والله سبحانه وتعالى أعلم (ومن المبانى العجيبة الخورنق) الذى بناه النعمان بن امرىء القيس وهو النعمان الأكبر بناه فى عشرين سنة فلما انتهى أعجبه فخشى أن يبنى لغيره مثله فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه فألقوه فتقطع واسم بانيه سنمار فصارت العرب تضرب به المثل : جزاء جزاء سنمار قال الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر ... وحسن فعل كما يجزى سنمار

(ومن المبانى العجيبة حائط العجوز) واسمها دلوك القبطية وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولدا فأخذت له الرصد ، فقيل لها يخشى عليه من التمساح ، فلما شب الغلام خافت عليه فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى أسوان شاملا لكورة مصر من الجانب الشرقى وقيل بنته خوفا على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها وقد قيل إنها أرادت أن تخوف ولدها من التمساح حتى لاينزل البحر فصورت له صورة التمساح فرآه شكلا مهولا فأذهله وأخذه الفزع والهم فضعف واتصل إلى أن مات لامفر من قضاء الله تعالى . (ومن المبانى العجيبة الأهرام) وهى بالجانب الغربى من مصر مشاهدة فى زماننا هذا قيل إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة ألفا ذراع من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ماذكر وفتح منها هرما

فى الأكل ولا يسألنى عما جئت به ويأكل مطمئنا وأنا مفكر فى ذلك ، فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا ببخور فتبخر وقام إلى الصلاة فصلى الظهر وأكثر من الدعاء والابتهال فرأيت صلاته حسنة ، فلما (١٦١) انتقل من المحراب أقبل على وقال ماأقدمك يامنارة ؟ فقلت أمر لك من أمير المؤمنين وأخرجت الكتاب ودفعته إليه فقرأه ، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أن يوقع بى ، فلما تكاملوا ابتدأ فحلف أيمانا غليظة فيها الطلاق والعتاق والحج وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ولا يجتمع منهم اثنان فى مكان واحد ولا يظهروا إلى أن يظهر لهم أمر يعملون عليه وقال هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرنى بالتوجه إليه ولست أقيم بعد نظرى فيه لحظة واحدة فاستوصوا بمن ورائى من الحرم خيرا ومابى حاجة من أن يصحبنى غلام هات قيودك يامنارة ، فدعوت بها وكانت فى سفط فأحضر حدادا فمد ساقيه فقيدته وأمرت غلمانى بحمله فى المحمل وركبت فى الشق الآخر وسرت من وقتى ولم ألق أمير البلد ولا غيره فسرت بالرجل ليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدثنى بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن فى الغوطة فقال لى ترى هذا ؟ قلت نعم قال إنه لى وقال إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ، ثم انتهى إلى آخر فقال مثل ذلك ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى سفنة

وتعجب من بنيانها وصفتها . قيل إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعا فى عرض عشرة أذرع وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقا صغيرا على إحكامه وهى من عجائب الدنيا . قال بعضهم :

أين الذى الهرمان من بنيانه ماقومه مايومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن سكانها حينا ويدركها الفناء فتصرع

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم كما تميزوا عنهم فى حياتهم ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العصور . ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بنقبها فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل فوجد داخله مزاليق ومهاوى يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجد فى أعلاه بيت وفى وسطه حوض من رخام مطبق ، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه . ويقال إن الذى بناها اسمه سوريد بن سهراق بن سرياق لرؤيا رآها وهى آفة تنزل من السماء وهى الطوفان فقالوا إنه بناها فى ستة أشهر وقال : قل لمن يأتى بعدنا يهدمها فى ستمائة سنة والهدم أيسر من البنيان وكسوناها الديباج الملوّن فليكسها حصرا والحصر أهون من الديباج والأمر فيها عجيب جدا والله سبحانه وتعالى أعلم . (ومن المبانى العجيبة منارة الاسكندرية التى بناها ذوالقرنين) قيل إنها كانت مبنية بحجارة مهندمة مغموسة فى الرصاص فيها نحو من ثلثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت وللبيوت طاقات تطل على البحر ويقال إن طولها كان ألف ذراع وفى أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر فاذا صار العدوّ على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة بمجىء العدوّ فيستعدون له ، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوّت صوتا مطربا ويقال إنه كان بأعلاها مرآة من الحديد الصينى عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرس ، وقيل كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم فان كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من المدينة فاذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق فى البحر ويهلك كل من فيها ، وكانت الروم تؤدّى الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك . قال المسعودى : قيل إن ملكا من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الاسلام وأرسل إليه تحفا وهدايا وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن ببلاده دفائن وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه وأرسل معهم أموالا ، قيل إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال وقالوا للوليد إن تحت المنارة كنوزا لاتنفد وبازائها خبية بها كذا وكذا ألف دينار فأمرهم باستخراج مابالقرب من المنارة فان كان ذلك حقا استخرجوا ماتحت المنارة بعد هدمها ، فحفروا واستخرجوا مادفنوه بأيديهم ، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ماتحتها ، فهدموها فلم يجدوا تحتها شيئا وهرب أولئك القسيسون ، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه فندم على ذلك غاية الندم ، ثم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة ، فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت ، فصدئت ولم يروا فيها شيئا مثل ماكانوا يرون أوّلا وبطل إحراقها فندموا على مافعلوا وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم ولاحول ولاقوّة إلابالله العلىّ العظيم .

وقال هذه لى فاشتدّ غيظى منه فقلت له اعلم أنى شديد التعجب منك ! قال ولم تعجب ؟ قلت أليس تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك وأخرجك عن جميع مالك فريدا وحيدا مقيدا ماتدرى إلى مايصير إليه أمرك ولا كيف يكون وأنت فارغ القلب من هذا تصف ضياعك وبساتينك هذا ، وقد رأيتك وقد جئت وأنت لاتعلم فيم جئت وأنت ساكن القلب قليل الفكر لقد كنت عندى شيخا فاضلا ، فقال لى مجيبا : إنا لله وإنا إليه راجعون أخطأت فراستى فيك ظننتك رجلا كامل العقل وأنك ماحللت من الخلفاء هذا المحل إلا بعد أن عرفوك بذلك فأنا والله رأيت عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم والله المستعان ، أما قولك فى أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياى إلى بابه على صورتى هذه فإنى على ثقة من الله عزّ وجل الذى بيده ناصيتى ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرّا إلا بإذن الله ومشيئته ولا ذنب لى عند أمير المؤمنين أخافه ، وبعد فإذا عرف أمرى وعلم سلامتى وصلاحى وبعد ناحيتى وأن الحسدة والأعداء رمونى عنده بما ليس فىّ وتقوّلوا علىّ الأباطيل الكاذبة لم يستحل دمى وتحلل من أذاى وإزعاجى وإذا ردّنى مكرّما وأقامنى ببابه معظما وإن كان سبق فى علم الله عزوجل أنه يبدر إلىّ منه بادرة سوء وقد حضر أجلى وكان سفك

وقد عملت الجن لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى الاسكندرية مجلسا على أعمدة من الجزع اليمانى المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشى خلفه لصفائها وفى وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعا وفى تلك الأعمدة عمود واحد يتحرّك شرقا وغربا بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولايعلمون ماسببه . وفى مدينة حمص مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والماء الجارى فى كل طريق من طرقها مالايعلمه إلا الله تعالى . وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها اللجاة فيها من البنيان مايعجز عن وصفه ألسنة العقلاء كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت ليس فى الدار خشبة واحدة بل أبوابها وغرفها وسقوفها وبيوتها من الصخر المنحوت الذى لايستطيع أحد أن يعمله من الخشب وفى كل دار بئر وطاحون وكل دار مفردة لايلاصقها دار أخرى وكل دار كالقلعة الحصينة إذا خاف أهل تلك النواحى من العدوّ دخلوا إلى تلك المدينة فينزل كل إنسان فى دار بجميع عياله وخيله وغنمه وبقره ويغلق بابه ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه ، وفى هذه المدينة أكثر من مائتى ألف دار فيما يقال ولا يعلم أحد من بناها ، وسمتها العرب اللجاة لأنهم يلجئون إليها عند الخوف . (ومن المبانى العجيبة إيوان كسرى أنوشروان) بناه سابور ذو الأكتاف فى نيف وعشرين سنة وطوله مائة ذراع فى عرض خمسين بناه بالآجر والجص وجعل طول كل شرافة من شرافيه خمسة عشر ذراعا ، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهبا . وحكى أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه وأن يجعل آلته فى بنائه فقيل له إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع وهدم شرافة وحسب ماأنفق عليها فوجد الأمر كذلك . وقيل إنّ بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه هو آية الاسلام فلا تهدمه . وحكى أنه كان بمدينة قيسارية كنيسة بها مرآة إذا اتهم الرجل امرأته بزنا نظر فى تلك المرآة فيرى صورة الزانى ، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه فعمد أهله إليها فكسروها ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقد اقتصرت من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والستون فى ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لاتكاد تحصى لكن منها مايعرفه الناس ومنها مالايعرفونه وهى مقسومة إلى مايذوب وإلى مالايذوب ، والذى اشتهر بين الناس من المعادن سبعة : وهى الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والأسرب والخارصينى (ولنبدأ أوّلا بذكر الذهب) فقيل طبعه حارّ لطيف ولشدّة اختلاط أجزائه المائية بالترابية قيل إن النار لاتقدر على تفريق أجزائه فلايحترق ولايبلى ولايصدأ وهو لين برّاق حلو الطعم أصفر اللون ، فالصفرة من ناريته والليونة من دهنيته والبرّاقة من صفاء مائه . خواصه : يقوّى القلب ويدفع الصرع تعليقا ويمنع الفزع والخفقان ويقوّى العين كحلا ويجلوها إذا كان ميلا ويحسن نظرها وإذا ثقبت به الأذن لم تلتحم وإذا كوى به لم ينفط ويبرأ سريعا وإمساكه فى الفم يزيل البخر (الفضة) قريبة منه وتصدأ وتحترق وتبلى بالتراب وإذا أصابتها رائحة الرصاص والزئبق تكسرت أو رائحة الكبريت اسودّت . ومن خواصها أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه

دى على يده ، فلو اجتمعت الإنس والجنّ والملائكة وأهل الأرض وأهل السماء على صرف ذلك عنى مااستطاعوه ، فلم أتعجل الغمّ وأتسلف الفكر فيما قد فرغ الله منه ؟ وإنى حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ الذى خلق ورزق وأحيا وأمات وأحسن وأجمل وإن الصبر والرضا والتفويض والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا فإذ قد عرفت مبلغ فهمك فإنى لا أكلمك بكلمة واحدة حتى تفرق حضرة أمير المؤمنين بيننا إن شاء الله تعالى . قال ثم أعرض عنى فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح أو حاجة أو مايجرى مجراها حتى شارفنا الكوفة فى اليوم الثالث عشر بعد الظهر والنجب قد استقبلتنى على فراسخ من الكوفة يتجسسون خبرى فحين رأونى رجعوا عنى بالخبر إلى أمير المؤمنين فانتهينا إلى الباب فى آخر النهار فحططت ودخلت على الرشيد فقبلت الأرض بين يديه ووقفت فقال هات ماعندك يامنارة وإياك أن تغفل منه لفظة واحدة فسقت الحديث من أوّله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور والصلاة وما حدّثت به نفسى من امتناعه والغضب يظهر فى وجه الرشيد ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأموى من الصلاة والتفاته ومسئلته عن سبب قدومى ودفعى الكتاب إليه ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وحلفه عليهم أن لايتبعه أحد منهم وصرفه إياهم ومدّ رجليه حتى قيدته ، فما زال وجه الرشيد

وإذا أذيبت مع الزئبق وطلى بها البدن نفع ذلك من الحكة والجرب وعسر البول (النحاس) قريب منها لكنه أيبس وأغلظ فى الطبع . ومن خواصه إذا صدئ وطلى بالحامض زال صدؤه والأكل فى آنيته يولد أمراضا لادواء لها (الحديد) كثير الفائدة إذ مامن صنعة إلاوله فيهامدخل . ومن خواصه أنه يمنع غطيط النائم إذا علق عليه ، وحمله يقوّى القلب ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة ويسرّ النفس ، وصدؤه ينفع أمراض العين كحلا والبواسير تحملا (القصدير) صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض . ومن خواصه أنه إذا ألقى فى قدر لم ينضج مافيها (الأسرب) هو الرصاص . ومن خواصه أنه يكسر الماس ، ومن خواصّ الماس الدخول فى كلّ شىء ، وإذا شدّ من الرصاص قطعة على الخنازير والغدد أبرأتها (الخارصينى) حجر لونه أسود يعلى حمرة . ومن خواصه إذا عمل منه مرآة ونظر فيها فى الظلمة نفعت للقوة وإذا نتف الشعر بملقاط منه لم ينبت .

(الأحجار الجوهرية) أصل الجوهر وهو الدرّ على ماقيل إن حيوانا يصعد من البحر على ساحله وقت المطر ويفتح أذنه يلتقط بها المطر ويضمها ويرجع إلى البحرفينزل إلى قراره ولا يزال طابقا أذنه على مافيها خوفا أن يختلط بأجزاء البحر حتى ينضج مافيها ويصير درا فإن كانت القطرة صغيرة كانت الدرّة صغيرة وإن كانت كبيرة فكبيرة فإن كان فى بطن هذا الحيوان شىء من الماء المرّ كانت الدرّة كدرة وإن لم يكن كانت صافية وقيل غير ذلك والدرّ نوعان كبير وصغير . قيل إنه يصل الواحدة إلى مثقال . ومن خواصه أنه يفرح القلب ويبسط النفس ويحسن الوجه ويصفى دم القلب ، وإذا خلط مع الكحل شدّ عصب العين (الياقوت) سيد الأحجار وأصول ألوانه أربعة : الأحمر والأصفروالأزرق والأسمانجونى ويتولد منها ألوان كثيرةوأعدلها الأحمرالخالص الرمانى الشبيه بحبّ الرمان الأحمر ودونه الأحمرالمشرب ببياض ثم الوردى ثم الخمرى ثم العصفرى وأردؤه الأزرق الذى لونه يشبه زهر السوسن وأقله قيمة الأبيض . خواصه أنه لايعمل فيه الفولاذ ولاحجرالماس ولا تدنسه النار ويورث لابسه مهابة ووقارا ويسهل قضاء الحوائج ويدرّ الريق فى الفم ويقطع العطش ويدفع السمّ ويقوّى القلب وجميعه ينفع المصروع تعليقا والأبيض منه يبسط النفس ويوجد من الأصفر ماوزنه ثلاثون مثقالا على ماقيل (البلخش) هومقارب للياقوت فى القيمة ودونه فى الشرف . ومن خواصه أنه يورث قبض النفس وسوء الخلق والحزن وهو ألوان أحمر وأخضر وأصفر (البنفش) أصناف أحمرمفتوح اللون صاف وأحمرقوىّ الحمرة وأسود يعلوه حمرة مطوّسة بزرقة خفيفة ثم أصفر مفتوح اللون (عين الهرّ) حجر يتكوّن من معدن الياقوت والغالب عليه البياض الناصع باشراق مفرط ومائيته رقيقة شفافة وفى مائيته سرّ إذا حرّك يمينا تحركت يسارا وبالعكس . ومن خواصه إذا علق على العين أمن عليها من الجدرى على ماقيل (الماس) يوجد بواد بالهند يقال إنه مشحون بالحيات فيأتى من يريد استخراجه من ذلك الوادى فيضع فى الوادى مرآة كبيرة فتأتى الحيات فتنظر إلى خيالها فى المرآة فتفرّ من ذلك الجانب فينزل فيأخذ ماله فيه رزق وقيل إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها فى ذلك الوادى فيلتصق الماس وغيره باللحم فتأتى الطير فتخطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر فيأخذه صاحب اللحم . وقيل إن الحيات لهامشتى ستة أشهر فى مكان ومصيف ستة أشهر فى مكان آخرفإذا ذهبت إلى مشتاهاومصيفها

يسفر حتى انتهيت إلى ماخاطبني به عند توبيخه إياى لما ركبنا المحمل قال صدق والله ماهذا إلا رجل محسود على النعمة مكذوب عليه ، ولعمرى لقد أزعجناه وآذيناه وروّعنا أهله فبادر بنزع قيوده عنه وائتنى به . قال فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول فى وجه الرشيد فسأله عن حاله ثم قال بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك فاذكر حاجتك فأجاب الأموى جوابا جميلا وشكر ودعا فقال مالى إلا حاجة واحدة قال مقضية ماهى؟ قال ياأمير المؤمنين تردّنى إلى بلدى وأهلى وولدى قال نحن نفعل ذلك إن شاء الله تعالى ولكن سل ماتحتاج إليه فى مصالح جاهك ومعاشك فإن مثلك لايخلو أن يحتاج إلى شىء من هذا فقال عمال أمير المؤمنين متصفون وقد استغنيت بعدله عن مسألته فأمورى منتظمة وأحوالى مستقيمة وكذلك أمور أهل بلدى بالعدل الشامل فى ظل أمير المؤمنين فقال الرشيد انصرف محفوظا إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك فودّعه فلما ولى خارجا قال الرشيد يامنارة احمله من وقتك وسر به راجعا إلى أهله كما جئت به حتى إذا أوصلته إلى محله الذى أخذته منه فدعه فيه وانصرف ففعلت والله أعلم .

أخذ الحجر فى غيبتها والله أعلم بصحة ذلك، ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل فى أنبوبة قصب وضرب فانه يتفتت وكذا إذا جعل فى شمع أو قار و إذا جعل عليه دم تيس وقرّب من النار ذاب . ومن خواصه أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه وهو من السموم القاتلة القطعة الصغيرة منه إذا حصلت فى الجوف ولو بقدر السمسمة خرقت الأمعاء . ومن خواصه الجليلة أنه يعرق عند وجود السمّ أو الطعام المسموم . (الزمرّذ) ويسمى الزبرجد وهو ألوان أخضر وزنجارى وصابونى ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقلّ . ومن خواصه أنه يدفع العين ويفرح القلب ويقوّى البصر ويصفى الذهن وينشط النفس (الفيروزج) نوعان : إسحاقى وخلنجى وأجوده الاسحاقى الأزرق الصافى . خواصه : النظر فيه يجلو البصر ويقوّيه وينشط النفس ولا يصيب المتختم به آفة من قتل أوغرق . وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه : ما افتقرت يد تختمت بفيروزج و إذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه ولا يزال كذلك حتى ينطفئ (العقيق) معدن بأرض صنعاء اليمن وهو ألوان ويوجد عليه غشاوة ويحمى عليه ببعر الإبل ثم يبرد ويكسر . وقيل يوجد بالهند ولكن اليمنى أجود . خواصه : التختم به وحمله يورث الحلم والأناة وتصويب الرأى ويسرّ النفس ويكسب حامله وقارا وحسن الخلق ويسكن الحدّة عند الخصومة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تختم بالعقيق لم يزل فى بركة » (الجزع) هو حجر أيضا يؤتى به من اليمن والصين وألوانه كثيرة والناس يكرهونه لأنه يورث الهمّ والأحلام الرديئة وسوء الخلق وتعسر قضاء الحوائج ويكثر بكاء الصبىّ وسيلان لعابه ، ويثقل اللسان إذا سحق وشرب ماؤه و إذا وضع بين قوم لاعلم لهم به حصلت بينهم العداوة لكنه يسهل الولادة تعليقا . (البلور) هو صنف من الزجاج . يحكى أن ببلاد كيسان جبلين : أحدهما بلور و إذا أريد قطع البلور فى ذلك الوضع قطع فى الليل لأنه فى النهار يكون له شعاع عظيم . خواصه : النظر فيه يشرح القلب ويبسط النفس ويسكن وجع الضرس . (المرجان) هو واسطة بين النبات والمعدن لأنه بتشجره يشبه النبات وبتحجره يشبه المعدن ولا يزال لينا فى معدنه ، فإذا فارقه تحجر ويبس . خواصه : النظر فيه يشرح الصدر ويبسط النفس ويفرح القلب ويذهب بالداء المحتبس فى العين ويسكن الرمد ، وسحاقته المخلوطة بالخلّ تجلو قلح الأسنان ، و إذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ . وأنواعه كثيرة : أحمر وأزرق وأبيض وأصله من البحر . قيل : إنه شجر ينبت . وقيل : إنه من حيوانه . (حجر المناطيس) هو حجر هندى لايعمل فيه الحديد ، والبيت الذى يكون فيه لايدخله السحر ولا الجنّ ، ولأجل ذلك كان الاسكندر يجعله فى عسكره . (الحجر الماهانى) من تختم به أمن من الروع والهمّ والحزن والغم ، ولونه أبيض وأصفر ويوجد بأرض خراسان . (حجر مهاد) يوجد بناحية الجنوب . وخاصيته : أن الجنّ تتبع حامله وتعمل له ماأراد . (الدهنج) خاصيته : أنه إذا سقى إنسان من محكه يفعل فعل السمّ ، و إذا سقى شارب السمّ منه نفعه ، و إذا مسح به موضع اللدغ سكن ، وينفع من خفقان القلب ، و إذا طلى بمحاكته بياض البرص أزاله و إن علق على إنسان غلب عليه الباه . (السبج) خواصه : أنه يقوّى النظر الضعيف من الكبر أو نزول الماء ، ولبسه ينفع عسر البول و إدمان النظر فيه يحدّ البصر وسحاقته تجلو البصر و إذا علق على من به صداع زال عنه (المغناطيس) يوجد فى بحر الهند وهناك لايتخذ فى السفن حديد

ويوجد

ويوجد ببلاد الأندلس أيضا وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب إلى حمرة . خواصه الاكتحال بسحاقته يورث ألفة بين المكتحل و بين من يحبه و يسهل الولادة تعليقا ومن تختم به كانت حاجته مقضية وتعليقه فى العنق يزيد فى الذهن و إذا سحق وشرب من سحاقته من به سم بطل سمه و إذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته و إذا غسل بالخل عاد إلى حالتـه وأجوده ماجذب نصف مثقال من الحديد . (حجر الخطاف) الخطاف يوجد فى عشه حجران أحدهما أحمر والآخر أبيض فالأحمر إذا علق على من يفزع فى نومه زال فزعه والأبيض إذا علق على من به صرع زال عنه . (حجر الزاج) إذا دخن البيت بسحاقته هرب منه الفأر والذباب . (حجر الزنجفر) أصله من الزئبق استحال (وخاصيته) أنه يدمل الجراحات و ينبت اللحم . (حجرالملح) هو أنواع وأجوده مايوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط وقد جعله الله قواما للدنيا . ومن خاصيته أنه يحسن الذهب و يزيد فى صفرته وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ياعلى ابدأ بالملح واختم به فان فيه شفاء من سبعين داء» (حجر النطرون) قال أرسطو : ينفع الأرحام التى غلبت عليها الرطوبة ينشفها و يقويها و إذا ألقى فى العجين طيبه و بيضه ونشفه وهو نوعان أبيض وأحمر . (حجر اللازورد) مشهور قال أرسطو : من تختم به عظم فى أعين الناس و ينفع من السهر والله أعلم . ومن أراد التعمق فى ذلك فعليه بالكتب الموضوعة له ولكن قد ذكرنا ماهو معروف والحمد لله على كل حال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن والستون فى الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنه

وما ذكرت هذا إلا لأنى كرهت أن يكون كتابى هـذا بعد اشتماله على فنون الأدب والتحف والنوادر والأمثال عاطلا من هـذه الصناعة التى هى مراد السمع ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب وأنس الوحيد وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس .

فصل فى الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى ـ يزيد فى الخلق مايشاء ـ هو الصوت الحسن ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «أتدرون متى كان الحداء ؟ قالوا لا بأبينا أنت وأمنا يارسول الله قال إن أباكم مضر خرج فى طلب مال له فوجد غلاما له قد تفرقت إبله فضربه على يده بالعصا فعدا الغلام فى الوادى وهو يصيح و يداه فسمعت الإبل صوته فعطفت عليه فقال مضر لو اشتق من الكلام مثل هذا لكان كلاما تجتمع عليه الإبل فاشتق الحداء» وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه لما أعجبه حسن صوته « لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود » وقيل : إن داود عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوما فى الأسبوع وتجتمع عليه الخلق فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة وكان له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا يضبطان جسده ضبطا شديدا خيفة أن تنخلع أوصاله مما كان ينتحب وكانت الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته . قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول ياداود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم .

وحكى فى الكتاب المذكور : قال حدثنى أبو الربيع سليمان بن داود قال : كان فى جوار القاضى قديما رجل انتشرت عنه حكاية وظهر فى يده مال جليل بعد فقر طويل وكنت أسمع أن أبا عمر حماه من السلطان فسألته عن الحكاية فأطرق طويلا ثم حدثنى قال ورثت مالا جزيلا فأسرعت فى إتلافه وأتلفته حتى أفضيت إلى بيع أبواب دارى وسقوفها ولم يبق لى حيلة وبقيت مدة لاقوت لى إلا من بيع والدتى لما تغزله وتطعمنى وتأكل منه فتمنيت الموت فرأيت ليلة فى منامى كأن قائلا يقول لى غناك بمصر فاخرج : إليها فبكرت إلى دار أبى عمر القاضى وتوسلت إليه بالجوار وبالخدمة وكان أبى قد خدمه أياما وسألته أن يزودنى كتابا إلى مصر لأتصرف فيها ففعل وخرجت فلما حصلت بمصر أوصلت الكتب وسألت التصرف فسد الله على باب الرزق حتى لم أظفر بتصرف ولا لاح لى شغل ونفدت نفقتى فبقيت متفكرا فى أن أسأل الناس فلم أستبح المسئلة ولم يحملنى الجوع عليها وأنا ممتنع إلى أن مضى من الليل صدر صالح فلقينى الطائف فقبض على ووجدنى غريبا فأنكر حالى فسألنى فقلت رجل ضعيف فلم يصدقنى وبطحنى وضربنى مقارع فصحت وقلت أنا أصدقك فقال هات فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها وحديث المنام فقال مارأيت أحمق منك والله لقد رأيت منذ كذا وكذا سنة فى النوم كأن رجلا يقول لى ببغداد فى الشارع الفلانى فى المحلة الفلانية قال فذكر

وقال سلام الحادي للمنصور وكان يضرب المثل بحدائه : مر يا أمير المؤمنين بأن يظمئوا إبلا ثم يوردوها الماء، فإني آخذ في الحداء، فترفع رءوسها وتترك الشرب . وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق فيصفو له الدم وتنمو له النفس ويرتاح له القلب وتهتز له الجوارح وتخف له الحركات ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء حتى يرقص ويطرب . وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من النطق لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع فلما ظهر عشقته النفس وحنت إليه الروح ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان واستراحت إليها أنفسهم وليس من أحد كائنا من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ويعجبه طنين رأسه ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاناة على البدن وتعب على الجوارح ما خلا السماع فانه لا معاناة فيه على البدن ولا تعب على الجوارح وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيري الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الأرحام والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره ولأهل الرهبانية نغمات وألحان شجية يمجدون الله تعالى بها ويبكون على خطاياهم ويتذكرون نعيم الآخرة وكان أبو يوسف القاضي يحضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر نعيم الآخرة وقد تحن القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم ، وكان صاحب الفلاحات يقول إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء قال الشاعر :

والطير قد يسوقه للموت ... إصغاؤه إلى حنين الصوت

وزعموا أن في البحر دواب ربما زمرت أصواتا مطربة ولحونا مستلذة يأخذ السامعين الغشي من حلاوتها فاعتنى بها وضعة الألحان بأن شبهوا بها أغانيهم فلم يبلغوا وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطافة وصوله إلى الدماغ وممازجته للقلب ألا ترى إلى الأم كيف تناغي ولدها فيقبل بسمعه على مناغاتها ويتلهى عن البكاء والإبل تزداد في نشاطها وقوتها بالحداء فترفع آذانها وتلتفت يمنة ويسرة وتتبختر في مشيتها وزعموا أن السماكين بنواحي العراق يبنون في جوف الماء حظائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك في الحظائر فيصيدونه وقد نبهت على ذلك في باب ذكر البحار وما فيها من العجائب ، والراعي إذا رفع صوته ونفخ في يراعته تلقته الغنم بآذانها وجدت في رعيها والدابة تعاف الماء فاذا سمعت الصفير بالغت في الشرب وليس شيء مما يستلذ به أخف مؤنة من السماع . قال أفلاطون : من حزن فليسمع الأصوات الحسنة فان النفس إذا حزنت خمدت نارها فاذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمدت ، وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع وتعلل به المريض وتشغله عن التفكر ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيباني :

وسماع مسمعة يعللنا ... حتى ننام تناوم العجم

وحكى أن البعلبكي مؤذن المنصور رجع في أذانه ليلة وجارية تصب الماء على يد المنصور فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها فقال له المنصور خذ هذه الجارية فهي لك ولا تعد ترجع هذا الترجيع

وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمارة في قينة :

شارعى وبحلق وأصغيت فتم الشرطي الحديث فقال دار يقال لها دار فلان فذكر داري واسمي وفيها بستان وفيه سدرة تحتها مدفون ثلاثون ألف دينار فامض وخذها فما فكرت في هذا الحديث ولا التفت إليه وأنت يا أحمق فارقت وطنك وجئت إلى مصر بسبب منام فقوى قلبي وأطلقني الطائف فبت في مسجد وخرجت من الغد من مصر وقدمت بغداد فقلعت السدرة وأثرت مكانها فوجدت جرابا فيه ثلاثون ألف درهم فأخذتها وأمسكت يدي ودبرت أمري وأنا أعيش من تلك الدنانير ومن فضل ما ابتعته منها من ضياع وعقار إلى الآن.

وحكى القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي في كتابه في أخبار المذاكرة ونشوار المحاضرة قال : حدثني أبو محمد يحيى بن محمد بن فهمة قال حدثني بعض الكتاب قال سافرت أنا وجماعة من أصدقائي نريد مصر للتصرف فلما حصلنا بدمشق وكان معنا عدة بغال عليها ثقل غلمان لنا ونحن على دوابنا أقبلنا نخترق الطرق لا ندري أين ننزل فاجتزنا برجل شاب حسن الوجه جالس على باب دار شاهقة وبناء فسيح وغلمان بين يديه فقام إلينا وقال أظنكم سفرا ووردتم الآن فقلنا نعم كذلك قال فتنزلون علينا وألح علينا فاستحيينا ألم
من محله وحسن ظاهره وهيئته ، فحططنا على بابه ودخلنا وأقبل أولئك الغلمان يحملون ثقلنا ويدخلونه الدار ولا يدخلون

ألم ترها لا أبعـد الله دارها   إذا رجعت فى صوتها كيف تصنع
تدير نظام القـول ثم ترده   إلى صلصل من صوتها يترجـع

وبعد ، فهل خلق الله شيئا أوقع بالقلوب وأشد اختلاسا للعقول من الصوت الحسن لاسيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر :

رب سماع حسن   سمعته من حسن   مقرّب من فرح
مبعـد من حزن   لا فارقانى   أبدا   فى صحـة من بدن

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغنى بقول جرير :

قل للجبان إذا تأخر سرجـه   هل أنت من شرك المنية ناجى

إلا شاجن شجعت نفسه وقوى قلبه ، أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوما يغنى بقول حاتم الطائى :

يرى البخيل سبيل المـال واحدة   إن الجواد يرى فى ماله سـبلا

إلا انبسطت أنامله ورشحت أطرافه . واختلف الناس فى الغناء فأجازه عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق فمن حجة من أجازه ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لحسان «شن الغطاريف على بنى عبد مناف فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام» واحتجوا فى إباحة الغناء واستحسانه بقول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها : أهديتم الفتاة إلى بعلها قالت نعم قال فبعثتم معها من يغنى ؟ قالت لم نفعل قال أوما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول ؟ ألا بعثتم معها من يقول :

أتينا كم أتينا كم   فحيونا نحييكم   ولولا الحبة السمرا   ء لم نحلل بواديكم

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرّم ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة وغيرها فإن فيه تحريكا لزيادة سرور مباح أومندوب ويدل عليه ماروى من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم حيث قلن :

طلع البـدر علينا   من ثنيات الوداع   وجب الشكر علينا
مادعا لله   داع   أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

ويدل عليه ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت «رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد الحرام حتى أكون أنا التى أسأمه» ويدل عليه أيضا ماروى فى الصحيحين من حديث عقيل عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله تعالى عنها «أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى يدففان ويضربان والنبى صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد» وعن قرة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه للنابغة الجعدى أسمعنى بعض ماعفا الله لك عنه من هناتك فأسمعه كلة فقال له وإنك لقائلها قال نعم قال طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب ، وعن عبد الله بن عوف قال أتيت باب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فسمعته يغنى بالركابية يقول :

فكيف ثوائى بالمدينة بعدما   قضى وطرا منها جميل بن معمر

أحدا من غلماننا يخدمنا حتى حملوه بأمره فى أسرع وقت وجاءونا بالطسوت والأباريق فغسلنا وجوهنا وأجلسونا فى مجلس حسن مفروش بأنواع الفرش التى لم تر مثلها وإذا الدار فى نهاية الحسن والفخر والكبر وفيها دور وبستان عظيم وصاحب الدار يخدمنا بنفسه وعرض علينا الحمام فقلنا نحن إليه محتاجون فأدخلنا إلى الحمام فى الدار فى غاية السرور ودخل إلينا غلامان أمردان وصبيان فى نهاية الحسن فخدمونا بدلا من القيم وأخرجنا من الحمام إلى غير ذلك المجلس فقدم إلينا مائدة حسنة جليلة عليها من الحيوان وفاخر الطعام والألوان ونادر الخبز وغريب البوادر من كل شىء وإذا بغلامين أمردين فى نهاية الحسن والزى قد دخلوا إلينا فغمزوا أرجلنا فلحقنا من ذلك مع الغربة وطول العهد بالجماع عنت فأمرناهم بالانصراف وفينا من لم يستحل التعرض لهم وتعففنا عن ذلك لنزولنا على صاحبهم ثم انتهينا إلى مجلس فى بستان حسن وأخرج إلينا من آلات النبيذ كل ظريف وأحضر من الأنبذة كل شىء طيب حسن وشربنا أقداحا يسيرة ثم ضرب بيده على ستارة ممدودة وإذا جوار خلفها فقال غنين فغنت الجوارى اللواتى كن خلفها أحسن غناء وأطيبه فلما توسطنا الشرب قال ماهذا الاحتشام لأضيافنا أعزم الله اخرجن وهتك الستارة قال فخرج علينا جوار لم ير قط أحسن ولا أملح ولا أظرف منهن مابين عوّادة وطنبورية زامرة وصناجة ورقاصة ودفافة بفاخر الثياب والحلى

فغنين واحتطن بنا فى المجلس فاشتدت محبتنا ولكن ضبطنا أنفسنا فلما كدنا أن نسكر ومضى قطعة من الليل أقبل صاحب الدار علينا وقال ياسادة إن تمام الضيافة وحقها الوفاء بشرطها وان يقوم المضيف بحق الضيف فى جميع مايحتاج إليه من طعام وشراب وجماع وقد أنفقت إليكم نصف النهار الغلمان فأخبرونى بعفافكم عنهم فقلت هم أصحاب نساء فأخرجت هؤلاء فرأيت من انقباضكم عن ممازحتهن مالو خلوتم بهن كانت الصورة واحدة فما هذا فقلنا ياسيدى أجللناك عن تبذل مافى دارك وفينا من لم يستحل الحرام فقال هؤلاء مماليكى وهن أحرار لوجه الله تعالى إن كان بدمن أن يأخذ كل واحد منكم بيد واحدة يتمتع بها ليلة فمن شاء زوجته بها ومن شاء غير ذلك فهو أبصر لأكون قد قضيت حق الضيافة فلما سمعنا بهذا وقد انتشينا طربا أخذ كل واحد منا بيد واحدة فأجلسها إلى جانبه وأقبل يقبلها ويقرصها ويمازحها فتزوجت أنا بواحدة منهن وغيرى ممن رغب فى ذلك وبعضنا لم يفعل وجلس معنا بعد ذلك ساعة ثم نهض فاذا بخدم قد جاءوا فأدخلوا كل واحد وصاحبته إلى بيت فى نهاية الحسن والطيب مفروش بفاخر الفرش الوطيئة فبخرونا عليها وغنا دخل والجوارى إلى جنوبنا وتركوا معنا شمعة فى البيت ومانحتاج إليه من آلة البيت وأغلقوا علينا وانصرفوا فبتنا فى أرغد عيش ليلتنا

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر قال فلما استأذنت عليه قال لى أسمعت ماقلت ؟ قلت نعم قال إنا إذا خلونا قلنا مايقول الناس فى بيوتهم ، وقد أجازوا تحسين الصوت فى القراءة والأذان فان كانت الألحان مكروهة فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها و إن كانت غير مكروهة فالشعر أحوج إليها لاقامة الوزن وماجعلت العرب الشعر موزونا إلا لمد الصوت والدندنة ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور ، ومن حجة من كره الغناء أنه قال إنه ينفر القلوب و يستفز العقول و يبعث على اللهو و يحض على الطرب وهذا باطل فى أصله وتأولوا فى ذلك قوله تعالى ـ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم و يتخذها هزوا ـ وأخطأ من أول هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير والأحاديث القديمة و يضاهون بها القرآن و يقولون إنها أفضل منه وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزوًا . وقال رجل للحسن البصرى ماتقول فى الغناء يا أبا سعيد فقال نعم العون على طاعة الله تعالى يصل الرجل به رحمه و يواسى به صديقه قال ليس عن هذا أسألك قال وعم سألتنى قال أن يغنى الرجل قال وكيف يغنى فجعل الرجل يلوى شدقيه و يفتح منخريه ، فقال الحسن والله يا ابن أخى ماظننت أن عاقلا يفعل بنفسه هذا أبدا فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه وتعويج فمه ، وسمع ابن المبارك سكران يغنى هذا البيت :

أذلنى الهوى فأنا الذليل ... وليس إلى الذى أهوى سبيل

قال فأخرج دواة وقرطاسا وكتب البيت فقيل له أتكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران فقال أما سمعتم المثل : رب جوهرة فى مزبلة . وكان لأبى حنيفة جار من الكيالين مغرم بالشراب وكان يغنى على شرابه بقول العرجى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

قالوا فأخذه العسس ليلة وحبسه ، ففقد أبو حنيفة صوته واستوحش له فقال لأهله مافعل جارنا الكيال قال أخذه العسس وهو فى الحبس ، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى فاستأذن عليه فأسرع إذنه وكان أبو حنيفة قليلا مايأتى أبواب الملوك فأقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه فقال أصلح الله الأمير إن لى جارا من الكيالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا فوقع فى حبسه فأمر عيسى بن موسى باطلاق كل من فى الحبس إكراما لأبى حنيفة فأقبل الكيال على أبى حنيفة يتشكر له فلما رآه أبو حنيفة قال له هل أضعناك يافتى ؟ يعرض له بشعره الذى ينشده قال لا والله ولكنك بررت وحفظت . وكان عروة بن أذينة ثقة فى الحديث روى عنه مالك بن أنس وكان شاعرا مجيدا لبقا غزلا وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره و ينحلها للمغنين قيل إنه وقفت عليه امرأة يوما وحوله التلامذة فقالت له أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقول :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى ... عمدت نحو سقاء القوم أبترد

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره ... فمن لنار على الأحشاء تتقد

وكان عبدالملك الملقب بالقس عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبى رباح فى العبادة قيل إنه مر يوما بسلامة وهى تغنى فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها فقال له هل لك أن تدخل وتسمع فأبى فلم يزل به حتى

دخل فغنته فأعجبته ولم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها ، فلما شعرت بلحظه إياها غنته :

رب رسولين لنا بلغا   رسالة من قبل أن نبرحا
الطرف للطرف بعثناهما   فقضيا حاجا وما صرحا

قال فأغمى عليه وكاد يهلك فقالت له إنى والله أحبك قال أنا والله أحبك قالت وأحب أن أضع فمى على فمك قال وأنا والله كذلك قالت فما يمنعك من ذلك ؟ قال أخشى أن تكون صداقة مابينى وبينك عداوة يوم القيامة أما سمعت قوله تعالى : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، ثم نهض وعاد إلى طريقته التى كان عليها وأنشأ يقول :

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها   فاعجب لما تأتى به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما   سبل الضلالة والهدى أقسام

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام فأنزله فى دار عياله وأظهر من إكرامه مايستحقه فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر فجاءت إلى معاوية فقالت هلم فاسمع مافى منزل الذى جعلته من لحمك ودمك وأنزلته بين حرمك ، فجاء معاوية فسمع شيئا حركه وأطربه فقال والله إنى لأسمع شيئا تكاد الجبال أن تخر له ثم انصرف فلما كان فى آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر وهو قائم يصلى فنبه فاختة وقال لها اسمعى مكان ماأسمعتنى هؤلاء قومى ملوك بالنهار ورهبان بالليل ثم إن معاوية أرق ذات ليلة فقال لخادمه اذهب فانظر من عند عبد الله بن جعفر وأخبره أنى قادم عليه فذهب وأخبره فأقام عبد الله كل من كان عنده فلما جاء معاوية لم ير فى المجلس غير عبد الله فقال مجلس من هذا ؟ قال عبد الله هذا مجلس فلان ياأمير المؤمنين فقال معاوية مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد قال مجلس من هذا ، قال مجلس رجل يداوى الآذان ياأمير المؤمنين قال إن أذنى عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه وكان مجلس بديح المغنى ، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه فقال له معاوية داو أذنى من علتها ، فتناول العود وغنى وقال :

ودع سعاد فإن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعا أيها الرجل

قال فحرك عبد الله بن جعفر رأسه فقال له معاوية لم حركت رأسك ياابن جعفر قال أريحية أجدها ياأمير المؤمنين لو لقيت لأبليت ولو سئلت لأعطيت وكان معاوية قد خضب قال فقال ابن جعفر لبديح هات غير هذا وكان عند معاوية جارية أعز جواريه عليه وكانت تتولى خضابه فغنى بديح وقال :

أليس عندك شكر للتى جعلت   ماابيض من قادمات الرأس كالحمم
وجددت منك ماقد كان أخلقه   صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طربا شديدا وجعل يحرك رجله فقال له ابن جعفر ياأمير المؤمنين إنك سألتنى عن تحريك رأسى فأجبتك وأخبرتك وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال كل كريم طروب ثم قام وقال لايبرح أحد منكم حتى يأتى له إذنى ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كسوته وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب .
وحدث ابن الكلبى والهيثم بن عدى قالا : بينما عبد الله بن جعفر فى بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء فأصغى إليه فإذا صوت رقيق لقينة تغنى وتقول :

فلما كان السحر بادر الخدم فقالوا ماأربكم فى الحمام فقد أصلح فقمنا ودخلنا ودخل المردان معنا فمنا من أطلق نفسه معهم فيما كان امتنع منه بالأمس وخرجنا فبخرنا بالند القتيق وأعطينا الماورد والمسك والكافور وقدمت إلينا المرآة المجلاة وأخبرنا غلماننا أن دورتهم فى ليلتهم كدورتنا وأنهم أتوا بجوارى الخدمة الروميات فوطئوهن فأقبل بعضنا على بعض يعجب من قضيتنا وبعضنا يقول هذا فى النوم نراه ونحن فى الحديث إذ أقبل صاحب الدار فقمنا إليه وعظمناه فأكبر بذلك وأخذ يسألنا عن ليلتنا فوصفناها له وسألنا عن خدمة الجوارى لنا فأجبناه بحسنها فقال أيما أحب إليكم الركوب إلى بعض البساتين للتفرج إلى أن يدرك الطعام أو اللعب بالشطرنج والنرد أو النظر فى الدفاتر فقلنا أما الركوب فلا نؤثره ولكن الشطرنج والنرد والدفاتر ، فأحضر لنا ذلك وتشاغل كل منا بما اختاره ولم يكن إلا ساعتان أو ثلاثة من النهار حتى أحضر لنا مائدة كالمائدة الأمسية فأكلنا وقمنا إلى الفرش وجاء المردان فغمزونا وغمزهم منا من كان يدخل فى ذلك وزالت المراقبة فلما انتبهنا حملنا إلى الحمام وخرجنا فتبخرنا وجلسنا لمجالسنا بالأمس وجاء أولئك الجوارى ومعهن غيرهن ممن هو أحسن منهن وقصدت كل واحدة صاحبها بالأمس بغير احتشام وشربنا إلى نصف الليل وحملوا معنا إلى الفراش وكانت هذه حالتنا مدة الأسبوع

قل للكرام ببابنا يلجوا ... ما فى التصابى على الفتى حرج

فنزل عبدالله عن دابته ودخل على القوم بلا إذن فلما رأوه قاموا إجلالا له ورفعوا مجلسه فأقبل عليه صاحب المجلس وقال يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدخل مجلسنا بلا إذن وليس هذا من شأنك فقال عبد الله لم أدخل إلا باذن فقال ومن أذن لك قال قينتك هذه سمعتها تقول :

* قل للكرام ببابنا يلجوا * فولجنا فان كنا كراما فقد أذن لنا و إن كنا لئاما خرجنا مذمومين فقبل صاحب المنزل يده وقال جعلت فداك والله ما أنت إلا من أكرم الناس فبعث عبد الله إلى جارية من جوار به فحضرت ودعا بثياب وطيب فكسا القوم وطيبهم ووهب الجارية لصاحب المنزل وقال هذه أحذق بالغناء من جاريتك . وسمع سليمان بن عبد الملك مغنيا فى عسكره فقال اطلبوه، فجاءوا به فقال أعد على ما غنيت به فغنى واحتفل وكان سليمان أغير الناس فقال لأصحابه كأنها والله جرجرة الفحل فى الشوك وما أظن أنثى تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به فخصى .

[أصل الغناء ومعدنه] قال أبو المنذر هشام : الغناء على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج ، فأما النصب فغناء الفتيان والركبان ، وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات ، وأما الهزج فالخفيف كله وهو الذى يستفز القلوب و يهيج الحليم . وقيل كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى فاشيا ظاهرا وهى المدينة والطائف وخيبر وفدك ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه القرى مجامع أسواق العرب . و يقال إن أول من صنع العود لامك بن قاين بن آدم و بكى به على ولده . و يقال إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى وهو كتاب الألحون الثمانية ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب التاسع والستون فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء فى مجالس الرؤساء

قيل : إن أول من غنى فى العرب قينتان للنعمان يقال لهما الجرادتان ومن غنائهما :

ألا يا قين و يحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غماما

و إنما غنتا هذا حين حبس الله عنهم المطر . وقيل أول من غنى فى الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذى علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى ، وكان يكنى أبا عبد النعيم ، ومن غنائه وهو أول صوت غنى به فى الإسلام هذا البيت :

قد برانى الشوق حتى ... كدت من وجدى أذوب

ثم نجم بعد طويس ابن طنبور وأصله من اليمن وكان أهزج الناس وأخفهم غناء ومن غنائه :

وفتيان على شرب جميعا ... دلفت لهم بباطية هدور

فلا تشرب بلا طرب فانى ... رأيت الخيل تشرب بالصفير

ومنهم حكم الوادى ، ومن غنائه :

أمدح الكاس ومن أعملها ... واهج قوما قتلونا بالعطش

إنما الراح ربيع باكر ... فاذا ما وافت المرء انتعش

وكان لهرون الرشيد جماعة من المغنين منهم إبراهيم الموصلى وابن جامع السهمى وغيرهما وكان له زامر يقال له برصوما وكان إبراهيم أشدهم تصرفا فى الغناء وابن جامع أحلاهم نغمة ، فقال الرشيد

فقلت لأصحابى و يحكم أرى الأمر متصلا ومن المحال أن يقول لنا الرجل ارتحلوا عنى وقد استبطنتم أتم مواضعكم وانقطعتم عن سفركم فى هذا فقالوا ما ترى ؟ فقلت أرى أن نستأنس الرجل فننظر أى شىء هو فان كان ممن يقبل هدية أو برا عملنا على تكرمته وارتحلنا عنه و إن كان بخلاف ذلك كنا معتقدين له المكافأة فى وقت ثان وسألناه أن يحضر لنا من نكرى منه رواحلنا فتقرر رأينا على ذلك فلما جلسنا تلك الليلة على الشرب قلنا له قد طال مقامنا عندك وما أضاف أحد أحدا أحسن مما ضفتنا ونريد الرحيل إلى مصرلما أردناه من طلب التصرف وأنا فلان بن فلان فعرفته نفسى والجماعة وقد حملتنا من أياديك ومننك ما لا يسعنا معه أن نجهلك ونحب أن تعرفنا بنفسك لنأتى بشكرك ونقضى حقك ونعمل على الرحيل فقال أنا فلان بن فلان أحد أهل دمشق فلم نعرفه فقلنا إن رأيت تزيدنا فى الشرح فقال جعلت فداءكم إن لقادتى خبرا أظرف مما شاهدتموه فقلت إن رأيت أن تخبرنا فقال نعم أنا رجل كان أبى تاجرا عظيم النعمة والأموال وانتهت النعمة إليه وكان ممسكا مكثرا ونشأت له فكنت متخرقا مبذرا محبا للفساد والنساء والمغنيات والشراب فأتلفت مالا عظيما من مال أبى إلا أنه لم يؤثر فى ماله لعظمه ثم اعتل وأيس من نفسه فدعانى فقال يا بنى إنى قد خلفت لك النعمة وقيمتها مائة ألف دينار بعد أن أتلفت

يوما لبرصوما ماتقول فى ابن جامع ؟ قال ياأمير المؤمنين وماأقول فى العسل الذى من حيثما ذقته فهو طيب قال فابراهيم الموصلى ؟ قال بستان فيه جميع الأزهار والرياحين. وكان ابن محرز يغنى كل إنسان بما يشتهيه كأنه خلق من قلب كل إنسان . وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدعا

فليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا

بكت عينى اليسرى فلما نهيتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

قال فاستخف الرشيد الطرب فأمر له بمائة ألف درهم . وحدث ابن الكلبى عن أبيه قال كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء وأنبههم فيه وكان من أضيق الناس خلقا إذا قيل له غن قال ألمثلى يقال غن على عتق رقبة إن غنيت يومى هذا فلما كان فى بعض الأيام سال وادى العقيق فلم يبق فى المدينة مخباة ولا مخدرة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره وكان فيمن خرج ابن عائشة المغنى وهو معتجر بفضل ردائه فنظر إليه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته فقال لهما أقسم بالله إن لم تفعلا ما آمركما به لأنكلن بكما فقالا يامولانا قل ماتأمرنا به فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا قال اذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه فأمسكاه فان لم يفعل ما آمره به وإلا فاقذفاه فى العقيق قال فمضيا والحسن يقفوهما فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه فقال من هذا فقال له الحسن أنا هذا ياابن عائشة فقال لبيك وسعديك بأبى أنت وأمى قال اسمع منى ماأقول لك واعلم أنك مأسور فى أيديهما وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطرحانك فى العقيق قال فصاح ابن عائشة واويلاه واعظم مصيبتاه فقال له الحسن دعنا من صياحك وخذ فيما ينفعنا قال اقترح وأقم من يحصى ثم أقبل يغنى فترك الناس العقيق وأقبلوا عليه فلما تمت أصواته مائة كبر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض وقالوا للحسن صلى الله على جدك حيا وميتا فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت فقال له الحسن مافعلت هذا بك ياابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة فقال ابن عائشة والله مامرت بى شدة أعظم من هذه لقد بلغت أطراف أعضائى فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له ما أشد يوم مر عليك يقول يوم العقيق .

وحدث أبو جعفر البغدادى قال: حدثنى عبدالله بن محمد كاتب بغداد عن أبى عكرمة قال خرجت يوما إلى المسجد الجامع فمررت بباب أبى عيسى بن المتوكل فاذا على بابه الشدود وهو أحمق خلق الله تعالى بالتناء فقال أين تريد ياأبا عكرمة قلت للمسجد الجامع لعلى أستفيد حكمة أكتبها فقال ادخل بنا إلى أبى عيسى قلت أمثل أبى عيسى فى قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن فقال للحاجب أعلم أمير المؤمنين بمكان أبى عكرمة فمالبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إلى فحملونى حملا فدخلت إلى دار مارأيت أحسن منها بناء ولا أظرف منها هيئة فلما نظرت إلى أبى عيسى قال لى مايعيش من يحتشم اجلس فجلست فأتينا بطعام كثير فلما انقضى أتينا بشراب وقامت جارية تسقينا شرابا كالشعاع فى زجاجة كأنها كوكب درى فقلت أصلحك الله الأمير وأتم عليه نعمه ولا سلبه ماوهبه قال فدعا أبو عيسى بالمغنين وهم الشدود وديس ورقيق ولم يكن فى ذلك الزمان أحمق من هؤلاء الثلاثة بالتناء فابتدأ الشدود وغنى يقول :

على خمسين ألف دينار وإن الانفاق لا آخر له إذا لم يكن بازائه داخل ولو أردت أن أتلف هذا المال عليك فى حياتى أو الآن حتى لا تصل إلى شئ منه لفعلت ولكن هو ذا أتركه عليك فاقض حتى بحاجة تقضيها إلى لاضرر عليك فيها فقلت أفعل فقال أنا أعلم أنك ستتلف المال فى مدة يسيرة فعرفنى إذا افتقرت ولم يبق معك شئ أتقتل نفسك ولا تعيش فى الدنيا فقلت لا قال فعرفنى من أين تعيش قال ففكرت ساعة فلم يقع لى إلا أن قلت أصير قوادا قال فبكى ساعة ثم مسح عينيه وقال لست بصارف عنك هذه الصناعة فانها ماجرت على لسانك إلا وقد دارت فى فكرك ولا دارت فى فكرك إلا وأنت لاتنصرف عنها أبدا بعدى ولكن أخبرنى كيف يستتم لك المعاش منها فقلت قد تدبرت بكثرة دعواتى القحبات والمغنيات ومعاشرتى لشراب النبيذ فأجمعهم على الرسم فيقيمون فى بيتى ويصلون مايريدون وآخذ أنا منهم الدراهم وأعيش بها فقال إذا بلغ السلطان خبرك فى جمعة فيحلقون رأسك ولحيتك وينادى عليك ويفرق جمعك ويبطل معاشك ويقول أهل بلدك انظروا إلى فلان كيف ينادى عليه وقد صار بعد موت أبيه قوادا ولكن إذا أردت هذه الصناعة فأنا أعلمك إن كنت لاأحسنها فلا تستحى فيها ولا تفتقر ولا يتطرق عليك السلطان بشئ فقلت أفعل قال إذا أنا مت فاحتل على أنك قد أنفقت جميع مالك وافتقرت وتكون قوادا ولك ضياع وعقار وأثاث

لما استقل بأرداف تجاذبه ... واخضرّ فوق بياض الدر شاربه
وأشرق الورد من نسرين وجنته ... واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة ... فكان من رده ماقال حاجبه

ثم سكت وغنى دبيس :

الحب حلو أمرته عواقبه ... وصاحب الحب صب القلب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودعنى ... يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرفت وداعى الشوق يهتف بى ... ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكت وغنى رقيق :

بدر من الانس حفته كواكبه ... قد لاح عارضه واخضر شاربه
إن يوعد الوعد يوما فهو مخلفه ... أو ينطق القول يوما فهو كاذبه
عاطيته كدم الأوداج صافية ... فقام يشدو وقد مالت جوانبه

ثم سكت وابتدأ الشدود يقول :

يادير حنة من ذات الأكيراح ... من يصح عنك فانى لست بالصاحى

ثم سكت وغنى دبيس :

دع البساتين من آس وتفاح ... واعدل هديت إلى شيخ الأكيراح
واعدل إلى فتية ذابت لحومهم ... من العبادة إلا نضو أشباح
وخمرة عتقت فى دنها حقبا ... كأنها دمعة فى جفن سياح

ثم سكت وغنى رقيق :

لا تحفلن بقول اللائم اللاحى ... واشرب على الورد من مشمولة الراح
كأسا إذا انحدرت فى حلق شاربها ... أغناه لألاؤها عن كل مصباح
مازلت أسقى نديمى ثم ألثمه ... والليل ملتحف فى ثوب أمساح
فقام يشدو وقد مالت سوالفه ... يادير حنة من ذات الأكيراح

ثم أقبل أبو عيسى على الشدود وقال له غن لى شعرى فغناه :

ياجلة الدمع هل للغمض مرجوع ... أم الكرى من جفون العين ممنوع
ماحيلتى وفؤادى هائم دنف ... بعقرب الصدغ من مولاى ملسوع
لا والذى تلفت نفسى بفرقته ... فالقلب من فرق الأحزان مصدوع
ما أرّق العين إلا حب مبتدع ... ثوب الجمال على خديه مخلوع

قال أبو عكرمة فوالله لقد حضرت من المجالس ما لايحصى عدده إلا الله تعالى فما حضرت مثل ذلك المجلس ولولا أن أبا عيسى قطعهم ماانقطعوا . وحكى عن الرشيد أنه قال يوما للفضل بن الربيع من بالباب من الندماء قال جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بنى أمية وأمير المؤمنين يشتهى سماعه قال فأذن له وحده فدخل فقال هات ياهاشم فغناه من شعر جميل حيث يقول :

إذا ما تراجعنا الذى كان بيننا ... جرى الدمع من عينى بثينة بالكحل
فيا ويح نفسى حسب نفسى الذى بها ... ويا ويح عقلى ما أصبت به أهلى

ودور وجوار وآلة وقماش وخدم وجاه وعقارات واعمل على ما كان فى نفسك أن تعمله إذا افتقرت فاعمله وأنت مستظهر على زمانك بما معك وهبه عند اخوانك واعمل على أنك قدأنفقته واجعل معيشتك ماتريد أن تجعله إذا افتقرت فانك تستفيد بذلك أمورا منها أنك تبتدئ أمرك بهذا فلا ينكر عليك فى آخره ومنها أنك تفعل ذلك بجاه وعقار وضياع وأحوال قوية فلا يطمع فيك سلطان وإن طمع فيك سلطان بذلت أوأعطيت من ناوأك فتخلصت فقلت كيف أفعل قال تجلس إذا أنامت ثلاثة أيام للعزاء إلى أن تنقضى المصيبة فاذا انقضت نفذت وصيتى وتجملت بذلك عند الناس وقضيت حق ثم تظهر أنك قد تركت اللعب وأنك تريد حفظ مالك مع ضرب من اللذة ثم تبتدئ فتشترى من الجوارى للغنيات والسرارى كل لون ومن الغلمان المرادن والخدم السود والبيض ماتحتاج إليه وتشتهيه ودارك كما تحب فى السرور وتنوف على سرور من تريد أن تعاشره ولا تدخل إلا الأمير والعاقل وادعهما مرة فى شهر أو شهرين وهادهما أيام الأعياد بالألطاف الحسنة والقهما فى كل أسبوع مرة واجتهد أن تعاشرهما على النبيذ فى دورهما والقهما بالسلام وقضاء الحاجة واتخذ فى كل يوم مائدة حسنة وادع القوم ومن ينفق معهم ، وليكن ذلك بعقل وترتيب فان ذلك أولا لايظهر مدة فاذا ظهر

خليلى

متق به أعداؤك وكذب به إخوانك وقالوا هذه على سبيل المجون والشهوة على طريق التخالع أو مساعة الإخوان ، وإلا فأىّ لذة له فى ذلك وليس هو مجنونا ولا مخنثا ولا فقيرا ولا محتاجا إلى هذا فيبق الخلاف فيك مدة أخرى وقد اتصلت مع سلطانك ولعلّ العشرة بينكما قد وقعت فيستدعى مغنياتك ويسمعهن فى منزله فيصير لك بمنادمته رسم وجاهك باق بعلاقاتك لهم فهم محتاجون إليك وسيحافظ عليك الأمير فتصير فى مراتب ندمائه وفى جملته وتصير قيادتك نفعا عليك بغير ضرر وتخرج عن حدّ القواد المحض الذين يؤذون وتكبس منازلهم قال فاعتقدت فى الحال أن الصواب ماقاله ومات فى علته فجلست ثلاثة أيام ثم أنفذت وصيته وما فيها كما أمرنى ثم بيضت الدور وهى هذه وزدت فيها ما اشتهيت واستزدت فى الآلات والفرش والأبنية كما أردت وابتعت هذه الجوارى والغلمان والخدم من بغداد ودبرت أمرى على ماقاله لى من غير مخالفة لشىء منه وأنا أفعل هذا منذ سنين كثيرة ما لحقنى منه ضرر ولا خسران ولا فيه أكثر من إسقاط المروءة وقلة الاكتراث بالعيب وأنا أعيش أطيب عيش وأهنأه وأمر معاشى عليهم ودخلى بهم أكثر من خرجى ونعمتى الموروثة باقية بأسرها ما بعت منها شيئا بحبة قط فما فوقها ، وقد اشتريت من هذه الصناعة عقارا جليلا أضفته إلى ما خلفه علىّ وأمرى يمشى كما ترون فقلنا يا هذا فرجت واقمعنا وأريتنا طريقا إلى قضاء حقكم أخذنا

خليلى فيما عشتما هل رأيتما … قتيلا بكى من حبّ قاتله قبلى

قال : فطرب الرشيد طربا شديدا وقال أحسنت لله أبوك ثم قلده عقدا نفيسا فلما رآه هاشم ترقرقت عيناه بالدموع فقال له الرشيد ما يبكيك ياهاشم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنّ لهذا العقد حديثا عجيبا إن أذن لى أمير المؤمنين حدثته به . قال : قد أذنت لك قال يا أمير المؤمنين قدمت يوما على الوليد وهو على بحيرة طبرية ومعه قينتان لم ير مثلهما جمالا وحسنا ، فلما وقعت عينه علىّ قال هذا أعرابى قد ظهر من البوادى أدعو به لنسخر به فدعانى فسرت إليه ولم يعرفنى فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لى فأخطأته الجارية، فقلت لها أخطأت ياجارية ، فضحكت ثم قالت : يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابى يعيب علينا غناءنا فنظر إلىّ كالمنكر فقلت يا أمير المؤمنين أنا أبين لك الخطأ فلتصلح وتر كذا ووتر كذا ففعلت وغنت شيئا ما سمع منها إلا فى هذا اليوم فقامت الجارية مكبة علىّ وقالت أستاذى هاشم ورب الكعبة فقال الوليد أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين وكشفت عن وجهى وأقمت معه بقية يومنا فأمر لى بثلاثين ألف درهم فقالت الجارية يا أمير المؤمنين أتأذن لى فى برّ أستاذى ؟ فقال الوليد ذلك إليك ، قلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعته فى عنق وقالت هو لك ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه فركب فى السفينة وطلعت معه إحدى الجاريتين واتبعتها صاحبتى فأرادت أن ترفع رجلها وتطلع السفينة فسقطت فى الماء فغرقت لوقتها وطلبت فلم يقدر عليها ، فاشتدّ جزع الوليد عليها وبكى بكاء شديدا وبكيت أنا عليها أيضا بكاء شديدا فقال لى ياهاشم ما نرجع عليك بما وهبناه لك ولكن نحبّ أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به فبعنى إياه فعوّضنى عنه ثلاثين ألف درهم ، فلما وهبتنى العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته وهذا سبب بكائى ، فقال الرشيد لاتعجب فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم . وقال على ابن سليمان النوفلى غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يوما فأنشده :

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا … كفى لمطايانا برؤياك هاديا
ذكرتك بالديرين يوما فأشرفت … بنات الهوى حتى بلغنا التراقيا
إذا ما طواك الدهر يا أمّ مالك … فشأن المنايا القاضيات وشانيا

قال : فطرب الرشيد طربا شديدا واستعادة منه مرات ، ثم قال له تمنّ علىّ قال أتمنى المنىء والمرىء وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار فى كل سنة فأمر له بهما فقيل له يا أمير المؤمنين إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما ، فقال الرشيد : لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت ولكن احتالوا فى شرائهما منه فساوموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار فرضى بذلك ، فقال الرشيد ادفعوها له ، فقالوا يا أمير المؤمنين فى إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن ولكن قطعها له فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها .

ومن ذلك ما حكى إسحق الموصلى قال : كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء وكان يضع الألحان العجيبة ويغنى بها شعره وشعر غيره ، فقال له يوما يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر فى كل شىء فغننى شعرا أرتاح إليه وأطرب عليه يومى هذا . قال إسحق فغنيته هذه الأبيات :

ما كنت أعلم ما فى البين من حرق … حتى تنادوا بأن قد جىء بالسفن
قامت تودّعنى والدمع يغلبها … فهمهمت بعض ما قالت ولم تبن

تمازحه ونقول فضلك فى هذه الصناعة غير مدفوع لأنك قواد بن قواد وما كان الشيخ ليدبر لك هـذا الأمر إلا وهو بالقيادة أحق منك فضحك وضحكنا وكان الفتى أديبا خفيف الروح و بتنا ليلتنا على تلك الحالة ، فلما كان من الغد جمعنا له من بيننا ثلثمائة دينار وحملناها إليه ورحلنا عنه .

وحكى أحمـد بن يحيي ابن فضل العمرى فى كتابه المسمى مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار فى ترجمة صفىّ الدين عبد المؤمن ابن يوسف بن فاخر الورميق قال ذكر الحمّ حسن الأربلى فى تاريخه قال جلست مع صفىّ الدين عبـد المؤمن بالمدرسة المستنصرية وجرى ذكر واقعة بغداد فأخبرنى أن هلاكو طلب رؤساء البلد وعرفاءها وطلب منهم أن يقسموا دروب بغداد ومحالها و بيوت ذوى يسارها على أمراء دولته فقسموها وجعلوا كلّ محلة أو محلتين أو سوقين باسم أمير كبير فوقع الدرب الذى كنت أسكنه فى حصة أمير مقدم على عشرة آلاف فارس اسمه نانونين وكان هلاكو قد رسم لبعض الأمراء أن يقتل ويأسر وينهب مدة ثلاثة أيام ولبعضهم يومين ولبعضهم يوما واحدا على حسب طبقاتهم فلما دخل الأمراء إلى بغداد كان أول درب جاء إليه الأمير الدرب الذى أنا ساكنه وقد اجتمع فيه خلق كثير من ذوى اليسار ، واجتمع عندى نحو خمسين جارية من أرباب المغانى وذوات الحسن والجمال

أمير

مالت إلىّ وضمتنى لترشفنى ... كما يميل نسيم الريح بالغصن
وأعرضت ثم قالت وهى باكية ... ياليت معرفتى إياك لم تكن

قال : فخلع علىّ خلعة كانت عليه وأمر لى بمائة ألف درهم . قال وغنيته يوما :

فتى ودّعينا ياسعاد بنظرة ... فقد حان منا ياسعاد رحيل
فياجنة الدنيا وياغاية المنى ... ويا سؤل نفسى هل إليك سبيل
وكنت إذا جئت جئت لعلة ... فأفنيت علاتى فكيف أقول
فما كلّ يوم لى بأرضك حاجة ... ولا كلّ يوم لى إليك وصول

فقال : والله لاسمعت يومى غيره وألقى علىّ خلعة من ثيابه وأمر لى بصلة ماأمر لى قبلها بمثلها .

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم ماحكى عن إبراهيم بن المهدى قال : قال جعفر بن يحيي يوما لبعض ندمائه إنى قد استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غدا فهل من مساعد ؟ فقلت جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك وأسرّ بمشاهدتك ، فقال : بكر بكور الغراب . قال فأتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرنى فى الميعاد ، فما زلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى ، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أنفر الطعام وأطيبه فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم خلعت علينا ثياب المنادمة وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدّت الستائر وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم ، ثم إنه داخله الطرب فدعا بالحاجب وقال له إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ولو كان عبدالملك ابن صالح بنفسه فاتفق بالأمر المقدّر أن عمّ الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا فى ذلك الوقت وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعة وعنده من الورع والزهد والعبادة مالامزيد عليه ، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لايطلعه على ذلك لشدّة ورعه فلما قدم دخل به الحاجب علينا ، فلما رأيناه رمينا مافى أيدينا وقمنا إجلالا له نقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا وزاد بنا الحياء فقال لابأس عليكم كونوا على ماأنتم عليه ، ثم صاح بغلام فدفع له ثيابه ثم أقبل علينا وقال اصنعوا بنا ماصنعتم بأنفسكم قال فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خزّ معلم وقدّمت له موائد الطعام والشراب فطعم وشرب الشراب لساعته ثم قال خففوا عنى فانه شىء والله مافعلته قط . قال فتهلل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك فقال له جعلت فداءك قد علوت علينا وتفضلت فهل من حاجة تبلغنها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لك على ماصنعت قال بلى إنّ فى قلب أمير المؤمنين بعض تغير علىّ فتسأله الرضا عنى فقال جعفر قد رضى عنك أمير المؤمنين قال وعلىّ عشرة آلاف دينار فقال جعفر هى حاضرة لك من مالى ولك من مال أمير المؤمنين مثلها قال وأريد أن أشدّ ظهر ابنى إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين قال قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال وأحب أن تخفق الألوية على رأسه قال وقد ولاه أمير المؤمنين مصر فانصرف عبدالملك بن صالح و بقيت متعجبا من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ماسأله من الولاية والمال والرضا عنه إلا المصاهرة . قال: فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم ، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ، ثم إبراهيم بن عبد الملك بن صالح ، فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد وعقد له على مصر والرايات والألوية تخفق على رأسه وخرج كلّ من فى القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح قال ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال أظنّ أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح وأحببتم سماع ذلك قلنا هو كما ظننت قال لما دخلت على

فوقف نأونين على باب الدرب وهو متترس بالأخشاب والتراب وطوّقوا الباب وقالوا افتحوا لنا وادخلوا فى الطاعة ولكم الأمان وإلا أحرقنا الباب وقتلناكم ومعه النجارون وخلافهم وأصحابه بالسلاح قال صفى الدين عبد المؤمن فقلت السمع والطاعة أنا أخرج إليـه ، ففتحت البـاب وخرجت إليه وحدى وعلىّ أثواب وسخة وأنا أنتظر الموت فقبلت الأرض بين يديه فقال الترجمان قل له أنت كبير هذا الدرب فقلت نعم فقال إن أردتم السلامة من الموت فاحملوا لنا كذا وكذا وطلب شيئا كثيرا فقبلت الأرض مرة ثانية وقلت كل ما طلبه الأمير يحضر وصار كل ما فى هـذا الدرب بحكمك ومن تريد من خواصـك فانزل لأجمع لك كل ماطلبت فشاور أصحابه ونزل فى نحو ثلاثين رجلا من خواصه فأتيت بهم بدارى وفرشت له الفرش الخليفية الفاخرة والسرر المطرزة بالزركش وأحضرت له فى الحال أطعمة فاخرة وشـواء وحلواء وجعلتها بين يديه ، فلما فرغ من الأكل عملت له مجلسا ملوكيا وأحضرت الأوانى المذهبة من الزجاج الحلبي وأوانى فضـة فيها شراب مروق فلما دارت الأقداح وسكر قليـلا أحضرت عشر مغنيات كل واحدة تغنى بملهاة غير ملهاة الأخرى فغنين كلهن فارتج المجلس وطرب وانبسطت نفسه فضم واحدة من المغنيات أعجبته فواقعها فى المجلس ونحن نشاهده وأتم يومه فى غاية الطيبة ، فلما كان وقت العصر وحضر أصحابه بالنهب والسبايا قدّمت له ولأصحابه الذين كانوا معه تحفا جليلة

أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال : كيف كان يومك ياجعفر بالأمس ؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح فكان متكئا فاستوى جالسا وقال : لله أبوك ماسألك ؟ قلت سألنى رضاك عنه ياأمير المؤمنين قال بم أجبته قلت قد رضى عنك أمير المؤمنين قال قد رضيت عنه ثم ماذا قلت وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار قال فبم أجبته قلت قد قضاها عنك أمير المؤمنين قال وقد قضيتها ثم ماذا ؟ قلت ورغب أن يشدّ أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه قال فبم أجبته قلت قد زوّجه أمير المؤمنين ابنته العالية قال قد أجبته إلى ذلك ثم ماذا ؟ قلت قال وأحب أن تخفق الألوية على رأسه قال فبم أجبته قلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر قال قد وليته إياها ثم نجز له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم بن المهدى فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلا بالابتداء عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعـل ذلك قط أم إقدام جعفر على الرشيد أم إمضاء الرشيد جميع ماحكم به جعفر فهكذا تكون مكارم الأخلاق . وحكى أبو العباس عن عمر الرازى قال : أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير فى جدد من الأرض فسمعت غناء لم أسمع مثله فقلت والله لأتوصلن إليه فاذا هو عبـد أسود فقلت له أعد علىّ ماسمعت فقال والله لو كان عندى قرى أقريكه لفعلت ولكنى أجعله قراك فانى والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط أو عطشان فأروى ، ثم اندفع يغنى ويقول :

وكنت إذا جئت سـعدى أزورها ... أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

قال عمر فحفظته منه ثم تغنيت به على الحالات التى وصفها لى فاذا هى كما ذكر ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السبعون فى ذكر القينات والأغانى

حكى علىّ بن الجهم قال : لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبـد الله ابن طاهر من خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت فى الجمال والأدب وأجادت قول الشعر وحـذاقة الغناء فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لاتفارق مجلسه ساعة واحدة ثم إنه حصـل منه عليها بعد ذلك جفاء فهجرها ، قال علىّ بن الجهم فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظنى فقال ياعلى قلت لبيك ياأمير المؤمنين قال قد رأيت الليلة فى منامى كأنى رضيت على محبوبة وصالحتها فقلت خيرا رأيت ياأمير المؤمنين أقرّ الله عينـك إنما هى جاريتك والرضا والجفاء بيدك فوالله أنا لفى حديثها إذ جاءت وصيفة فقالت ياأمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة ، فقال قم بنا ياعلى ننظر ماتصنع ، فنهضـنا حتى أتينا حجرتها فاذا هى تضرب بالعود وتقول :

أدور فى القصر لاأرى أحدا ... أشكو إليـه ولا يكلمنى
كأننى قد أتيت معصـية ... ليس لهـا توبة تخلصـنى
فهـل شـفيع لنا إلى ملك ... قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح لاح لنا ... عاد إلى هجره وصارمنى

قال فصاح أمير المؤمنين فلما سمعته تلقته وأكبت على رجليه تقبلهما فقال ماهذا قلت يامولاى رأيت

فى منامى هذه الليلة كأنك قد رضيت عنى فأنشدت ماسمعت قال وأنا والله رأيت مثل ذلك ، ثم قال ياعلى هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان. قيل : وكان أمير المؤمنين الواثق إذا شرب رقد فى موضعه الذى شرب فيه ومن كان معه من ندمائه شرب ورقد ولم يخرج فشرب يوما وخرج من كان عنده إلا مغنيا واحدا أظهر التراقد فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة ، فلما خلا المجلس كتب الفتى رقعة ورمى بها إليها فاذا فيها :

إنى رأيتك فى المنام ضجيعى   مسترشفا من ريق فيك البارد
وكأن كفك فى يدى وكأننا   بتنا جميعا فى لحاف واحد
ثم انتبهت ومنكباك كلاهما   فى راحتى وتحت خدك ساعدى
فظلت يومى كله متراقدا   لأراك فى نومى ولست براقد

فكتبت إليه على ظهرها تقول :

خيرا رأيت وكل ما أملته   ستناله منى برغم الحاسد
وتبيت بين خلاخلى ودمالجى   وتحل بين مراشفى ونواهدى
ونكون أنعم عاشقين تعاطيا   ملح الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدت يدها لترمى إليه بالرقعة رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها وقال ماهذا فحلفا له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام ولا كتاب ولا رسول إلا أن العشق قد خامرهما قال فأعتقها من وقتها وزوجها به وقال خذها ولا تقربنا بعد اليوم. وكان لأسماء بنت المهدى جارية يقال لها كاعب وكانت بكرا ناهدا بنت ثلاث عشرة سنة قال فتلاعب عليها أبو نواس فتمنعت فوقع فى قلبه منها ماوقع وأحبته هى أيضا فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت ، فظفر بها ليلة من الليالى فى ناحية من القصر فأمسكها فبكت وقالت له ياسيدى الموت دون ذلك فقال أبو نواس هذا جزع الأبكار فاتفق أنه خرج يوما من القصر وقد ترقرق الدجا فوجدها نائمة فى سدلة وهى سكرى لاتفيق ، فتقرب منها وحل سراويلها ووقع عليها فاذا هى خالية من البكارة فارتاع وظن أن يكون أتاها دم فلم يجد فقام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول :

وناهدة الثديين من خدم القصر   مرقرقة الخدين ليلية الشعر
كلفت بها دهرا على حسن وجهها   طويلا وماحب الكواعب من أمرى
فما زلت بالأشعار حتى خدعتها   ورومتها والشعر من خدع السحر
أطالبها شيئا فقالت بعبرة   أموت ولا هذا ودمعتها تجرى
فلما تعارضنا توسطت لجة   غرقت بها ياقوم فى لجج البحر
فصحت أغثنى ياغلام بجاءنى   وقد زلقت رجلى وصرت إلى الصدر
ولولا صياحى بالغلام وأنه   تداركنى بالحبل صرت إلى القعر
فأقسمت عمرى لاركبت سفينة   ولا سرت طول الدهر إلا على ظهر

ومن ذلك ماحدث الشيبانى قال : كان عند رجل بالعراق قينة وكان أبو نواس يختلف إليها وكانت تظهر له أنها لاتحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شابا يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات :

من أوانى الذهب والفضة ومن النقد ومن الأقمشة الفاخرة شيئا كثيرا سوى الطيق ووهبت له الغوانى التى كن بين يديه واعتذرت من التقصير وقلت جاء الأمير على غفلة لكن غدا إن شاء الله تعالى أعمل للأمير دعوة أحسن من هذه فركب وقبلت ركابه ورجعت فجمعت أهل الدرب من ذوى النعمة واليسار وقلت لهم انظروا لأنفسكم هذا الرجل غدا عندى وكذا بعد غد وكل يوم أزيد أضعاف اليوم المتقدم فجمعوا لى من بينهم مايساوى خمسين ألف دينار من أنواع الذهب والأقمشة الفاخرة والسلاح فما طلعت الشمس إلا وقد وافانى فرأى ماأذهله وجاء فى هذا اليوم ومعه نساؤه فقدمت له ولنسائه من الذخائر والذهب النقد ماقيمته عشرون ألف دينار وقدمت له فى اليوم الثالث لآلى نفيسة وجواهر ثمينة وبغلة جليلة بآلات خليفية وقلت هذه من مراكب الخليفة وقدمت لجميع من معه وقلت هذا الدرب صار بحكمك وإن تصدقت على أهله بأرواحهم فيكون لك وجه أبيض عند الله وعند الناس فما بقى عندهم سوى أرواحهم فقال قد عرفت ذلك من أول يوم، وهبتهم أرواحهم وماحدثتنى نفسى بقتلهم ولا سلبهم لكن أنت تجهز معى إلى حضرة الأمير فقد ذكرتك وقدمت له شيئا من المستظرفات التى قدمتها إلى فأعجبته ووعدهم بحضورك فخفت على نفسى وعلى أهل الدرب وقلت هذا يخرجنى إلى خارج بغداد ويقتلنى وينهب الدرب فظهر على الخوف

ومظهرة

ومظهرة لخلق الله ودّا   وتلقى بالتحيـة والسـلام

أتيت لبابها أشكو إليها   فلم أخلص إليه من الزحام

فيامن ليس يكفيها خليل   ولا ألفا خليل كل عام

أراك بقيـة من قوم موسى   فهم لايصـبرون على طعام

وقال أبوسويد : حدثنى أبو زيد الأسدى قال دخلت على سليمان بن عبدالملك وهوجالس فى إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر فى وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهنّ أحسن من صاحبتها وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت فقلت السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته وكان مطرقا فرفع رأسه وقال أبا زيد فى مثل هذا الحين تصاحبنا ؟ فقلت أصلح الله الأمير أوقامت القيامة ؟ قال نعم على أهل المحبة ، ثم أطرق مليا ورفع رأسه وقال أبا زيد مايطيب فى يومنا هذا ؟ قلت أصلح الله الأمير قهوة حمراء فى زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة لفاء أشربها من كفها وأمسح فى بختها ، فأطرق سليمان مليا لايردّ جوابا تنحدر من عينيـه عبرات بلاشهيق ، فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه ، ثم رفع رأسه فقال أبا زيد حضرت فى يوم فيه انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرّم عمرك والله لأضربنّ عنقك أولتخبرنى ماأثار هذه الصفة من قلبك . قلت نعم أصلح الله الأمير كنت جالسا عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب اسكندرانى يبين منه بياض بدنها وتدوير سرّتها ونقش تكتها وفى رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بذؤابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوّسا على محاجر عينيها وعينان مملوءتان سحرا وأنف كأنه قصبة بلور وفم كأنه جرح يقطر دما وهى تقول عباد الله من لى بدواء مالايشتكى وعلاج مالايسمى طال الحجاب وأبطأ الجواب والقلب طائر والعقل عازب والنفس والهة والفؤاد مختلس والنوم محتبس رحمة الله على قوم عاشوا تجلدا وماتوا كمدا ولوكان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمرا جميلا ، ثم أطرقت طويلا ورفعت رأسها فقلت لها أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية سماوية أنت أم أرضيـة فقد أعجبنى ذكاء عقلك وأذهلنى حسن منطقك ، فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترنى ثم قالت اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد والمقاساة لصب معاند ، ثم انصرفت فوالله ماأكلت طعاما طيبا إلا غصصت به لذكرها ولا رأيت حسنا إلا سمج فى عينى لحسنها ، فقال سليمان أبا زيد كاد الجهل يستفزنى والصبا يعاودنى والحلم يعزب عنى لشجو ماسمعت ، اعلم ياأبا زيد أن تلك التى رأيتها هى الذلفاء التى قيل فيها :

إنمـا الذلفاء ياقوتة   أخرجت من كيس دهقان

شراؤها على أخى ألف ألف درهم وهى عاشقة لمن باعها والله إن مات مايموت إلا بحبها ولايدخل القبر إلا بغصتها وفى الصبر سلوة وفى توقيع الموت نهية قم أبا زيد فى دعة الله تعالى ، ثم قال ياغلام نفله ببدرة فأخذتها وانصرفت ، قال فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة وضرب فى روضـة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر مابين أصـفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع . وكان لسليمان مغنّ يقال له سـنان به يأنس

وقال يلخوتد هلاكو ملك كبير وأنا رجل حقير معنّ أخشى منه ومن هيبته فقال لاتخف مايصيبك إلا الخير فانه رجل يحب أهل الفضائل فقلت فى ضمانك أنه لايصيبنى مكروه قال نعم فقلت لأهل الدرب ماعندكم من النفائس فأتونى بكل ماتقدرون عليه فأخذت معى من المغنيات الجليلة ومن النقد الكثير من الذهب والفضة وهيأت ما كل كثيرة طيبة وشرابا كثيرا عتيقا فائقا وأوانى فاخرة كلها من الفضة المنقوشة بالذهب وأخذت معى ثلاث جوار مغنيات من أجل من كان عندى وأنفسهنّ للضرب ولبست بدلة من القماش الخليق وركبت بغلة جليلة كنت أركبها إذا ذهبت إلى الخليفة ، فلما رآنى نانونوين بهذه الحالة قال لى أنت وزير قلت لا أنا مغنى الخليفة ونديمه ولكن لما خفت منك لبست القماش الوسخ ولما صرت من رعيتك أظهرت نعمتى وأمنت وهذا الملك هلاكو ملك عظيم وهو أعظم من الخليفة فما ينبغى أن أدخل عليه إلا بالحشمة والوقار فأعجبه منى هذا وخرجت معه إلى مخيم هلاكو فدخل عليه وأدخلنى معه وقال لهلاكو هذا الرجل الذى ذكرته لك وأشار إلىّ ، فلما وقعت عين هلاكو علىّ قبلت الأرض وجلست على ركبتى كما هو من عادة التتار فقال نانونوين هذا كان مغنى الخليفة وقد فعل معى كذا وكذا وقد أتاك بهدية فقال قد قبلتها فقبلت الأرض مرة ثانية ودعوت له وقدمت له ولخواصه الهدايا التى كانت معى فكلما قدمت شيئا منها يفرقه

ثم لعل بالماكول كذلك ثم قال لى أنت مغنى الخليفة فقلت نعم فقال أى شىء أجود ما تعرف قلت أحسن أن أغنى غناء إذا سمعه الانسان ينام فقال غنّ لى الساعة حتى أنام فندمت وقلت إن غنيت له ولم ينم قال هذا كذّاب وربما قتلنى ولابد من الخلاص منها بحيلة فقلت يا خوند الطرب بأوتار العود لا يطيب إلا بشرب الخمر ولا بأس بأن يشرب الأمير قدحين أو ثلاثة حتى يقع الطرب فى موقعه فقال أنا مالى فى الخمر رغبة لأنه يشغلنى عن مصالح ملكى ولقد أعجبنى من نبيكم تحريمه ثم شرب ثلاثة أقداح كبار فلما احمرّ وجهه أخذت عودا وغنيته وكان معى مغنية اسمها ضياء لم يكن فى بغداد أحسن منها صورة ولا أطيب منها صوتا فأصلحت أنغام العود وضربت ضروبا جالبة للنوم مع زمير رخيم الصوت وغنيت لم أتمّ النوبة حتى رأيته قد نعس فقطعت الغناء بغتة وقويت ضرب الأوتار فانتبه فقبلت الأرض وقلت نام الملك فقال صدقت تمت تمنّ علىّ فقلت أتمنى على الملك أن يطلق لى على السمكية قال وأىّ شىء هى السمكية قلت بستان الخليفة فتبسم وقال لأصحابه هذا مسكين مغنّ قصير الهمة وقال للترجمان قل له لم لا تمنيت قلعة أو مدينة أى شىء هذا البستان فقبلت الأرض وقلت يا ملك العالم هذا البستان يكفينى وأنا ما يجىء منى صاحب قلعة ولا صاحب مدينة فرسم لى بالبستان وبجميع ما كان لى من الراتب فى أيام الخليفة وزادنى قال

وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه وكانت الدلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتنزه فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان فى أكمل سرور وأتمّ حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له نريد قرى أصلحك الله قال وما قراكم قالوا أكل وشرب وسماع قال أما الأكل والشرب فمباحان لكم وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلا ما كان فى مجلسه قالوا لاحاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا قال فاختاروا صوتا واحدا أغنيكوه قالوا غننا صوته كذا فرفع صوته يغنى بهذه الأبيات :

محجوبة سمعت صوتى فأرقها   من آخر الليل لما نبه السحر
فى ليلة البدر مايدرى مضاجعها   أوجهها عنده أبهى أم القمر
لم يحجب الصوت أحراس ولاغلق   فدمعها لطروق الصوت منحدر
لو مكنت لمشت نحوى على قدم   تكاد من لينها فى المشى تنفطر

قال فسمعت الدلفاء صوت سنان فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع فجعلت لاتسمع شيئا من حسن خلق ولطافة قدّ إلا رأت ذلك كله فى نفسها وهيئتها فحرّك ذلك ساكنا من قلبها فهملت عيناها وعلا نحيبها فانتبه سليمان فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحالة فقال ما هذا يا دلفاء فقالت :

ألا ربّ صوت رائع من مشوّه   قبيح المحيا واضع الأب والجد
يروعك منه صوته ولعله   إلى أمة يعزى معا وإلى عبد

فقال سليمان دعينى من هذا فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر ثم قال ياغلام علىّ بسنان فدعت الدلفاء خادما لها فقالت له إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرته فلك عشرة آلاف درهم وأنت حر لوجه الله تعالى فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان فلما أتى به قال ياسنان ألم أنهك عن مثل هذا قال يا أمير المؤمنين حملنى على ذلك حلمك وأنا عبد أمير المؤمنين وغرس نعمته فان رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده فليفعل قال قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل ودقت له الحجرة وأن الفحل إذا هدر ضبث له الناقة وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة إياك إياك والعود إلى ما كان منك فيطول غمك .

وحكى أن الرشيد فصد يوما فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحا فيه شراب مع وصيفة لها حسنة الوجه جميلة الطلعة بديعة الحيا وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات .

فصدت عرقا تبتغى صحة   ألبسك الله به العافيه
فاشرب بهذا الكأس يا سيدى   واهنأ به من كف ذى الجاريه
واجعل لمن أنفذه خلوة   تحظى بها فى الليلة الآتية

قال فنظر الرشيد إلى الوصيفة التى جاءت بالقدح فاستحسنها فافتضها ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات .

بعثت الرسول فأبطا قليلا   على الرغم منى فصبرا جميلا
وكنت الخليل وكان الرسولا   فصرت الرسول وصار الخليلا
كذا من يوجه فى حاجة   إلى من يحب رسولا جميلا

قال فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها أنا عندك الليلة . وأهدى داود بن روح المهلبي إلى المهدي جارية فحظيت عنده فواعدته المبيت عنده ليلة فمنعها الحيض فكتب إليها يقول :

لأهجرنّ حبيبا خان موعده ... وكان منه لصفو العيش تكدير

فأرسلت إليه تجيبه :

لا تهجرن حبيبا خان موعده ... ولا تذممنّ وعدا فيه تأخير
ما كان حبسي إلا من حدوث أذى ... لا يستطاع له بالقول تفسير

وقال محمد بن مروان يصف جارية له :

أمست تباع ولو تباع بوزنها ... دررا بكى أسفا عليها البائع

وكان للمأمون جويرية من أحسن الناس وأسبقهم إلى كلّ نادرة فحظيت عنده فحسدها الجواري وقلن لا حسب لها فنقشت على خاتمها حسبي حسبي فازداد بها المأمون عجبا فسمتها الجواري فماتت فجزع عليها المأمون جزعا شديدا وقال :

اختلست ريحانتي من يدي ... أبكي عليها آخر الأبد
كانت هي الأنس إذا استوحشت ... نفسي من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها مرتعي ... ومنهلا كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوتي ... فاختلس الدهر يدي من يدي

وللمتوكل في قينة :

أمازحها فتغضب ثم ترضى ... فكلّ فعالها حسن جميل
فإن غضبت فأحسن ذي دلال ... وإن رضيت فليس لها عديل

وحدث أبو عبد الله بن عبد البر قال حدثني إسحق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدي قال كان في المدينة رجل من بني هاشم وكان له قينتان يقال لإحداهما رشا وللأخرى جؤزر ، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به فلما أتاه قال له أصلحك الله إنك لي لذتك ولا لذة لي قالوا وما لذتك قال تحضر لي نبيذا فإنه لا يطيب لي عيش إلا به فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمي وغمز جاريتيه عليه فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرّز قال في نفسه ما أظنّ هاتين المغنيتين إلا يمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض فقال لهما ياحبيبقّ أين المرحاض فقالت إحداهما لصاحبتها مايقول سيدنا قالت يقول غنياني :

رحضت فؤادي فخليتني ... أهيم من الحبّ في كلّ وادي

فاندفعتا تغنيانه فقال في نفسه والله ما أظنهما فهمتا عني وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج فقال ياحبيبق أين المخرج فقالت إحداهما لصاحبتها مايقول سيدنا قالت يقول غنياني :

خرجت لها من بطن مكة بعدما ... أقام المنادي بالعشى فأعتما

فاندفعتا تغنيانه فقال في نفسه لم يفهما عني وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب فقال ياحبيبق أين المذاهب فقالت إحداهما لصاحبتها مايقول حبيبنا قالت يقول غنياني :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ... ولم يك حقا كلّ هذا التجنب

حلوفة تشتمل على خبز ولحم وحليق دواب تساوي دينارين وكتب بذلك فرمانا بكل العلائم وخرجت من بين يديه وأخذ لي نانونو بن أميرا بخمسين فارسا ومعهم علم أسود هو كان علم هلاكو الخاص به برسم حماية داري لجلس الأمير على باب الدرب ونصب العلم الأسود على أعلى باب الدرب فبقي الأمر كذلك إلى أن رحل هلاكو عن بغداد قال الاربلي فقلت له كم نابك من المغارم في الثانية قال أكثر من ستين ألف دينار وذهب أكثرها بمن كان انزوى إلى دربي ذوي اليسار والباقي من نعم موفرة كانت عندي من صدقات الخليفة فسألته عن المرتب والبستان فقال البستان أخذه مني أولاد الخليفة وقالوا هذا إرث من أبينا والحلوفة قطعها عني الصاحب شمس الدين الجويني وعوّضني عنها وعن البستان في السنة مائة ألف درهم. وقال كان بمدينة السلام مغن يعرف بالنيور وكان عنده من الجواري عدد كثير ذوات حسن وكان خبره فاشيا يقصده المتصون وغيره فبلغ رجلا من الكتاب المشهورين خبره فتشوقت نفسه إلى قصده ثم تجنبته لما شهر به فحمل نفسه على أن جعل بينه وبين الرجل حالا بأن دعاه وبره ووصله وكان قصد الناس منزله آثر عندهم من دعاء من يدعونه من جواريه لما يجتمع لهم فيه قال الكاتب فكان يسألني المصير إليه وأتشعر لشناعة لقبه إلى أن لقيني بالقرب من منزله فحلف علي أن لا أفارقه فكان ذلك صادف مني موافقة فحنبت معه فرأيت

أحسن منزل وآلة فلما استقر بنا الجلوس قال لغلمانى إذا كان فى غد بكروا فجيئوا بالصواب فاستوحشت وقلت يلى فيم بعضهم عندى ويعود الباقون ليلا للانصراف إلى منزلى فأبى وحلف فاتبعت ما أراد فأحضر أحسن طعام وألطفه وأسنى وأتى بأنواع الأشربة والفواكه والرياحين وأخذنا فى أمرنا وخرجت وجوه كالشموس وكنت عند دخولى إلى الدار قد رأيت على بعض الأبواب طبلا معلقا فظننته لبعض الجوارى فلم أسأل عنه فلما صرنا على حالنا وأخذ النبيذ منا أحضر عمودا فجعله بين يديه فأوحشنى جدا وقلت رجل غيور كما لقب وجوار حسان ونبيذ شديد ولست آمن أن أعبث بهن فيضربنى بالعمود قال أخبرك بأنى أنى رجل غيور كما قد بلغك ويحضر منزلى قوم منهم سوء أدب فما هو إلا أن تغنى الجارية حتى أرى الواحد منهم قد لاحظها وضحك فى وجهها وضحكت فى وجهه فأقول أقوم بهذا العمود فإنما هى ضربة له وضربة لها فأقتلهما وأستريح إلا أنى على ما ترى رجل منى تأن شديد فأقول شرب الرجل فسر وضحك ولعله بعد يعرفها وتعرفه فضحكت إليه وضحك إليها قال فلما ذكر هذا الحديث طابت نفسى وأصغيت إلى حديثه قلت ثم ماذا قال ثم إن الأمر يزيد حتى أراه قد دنا فسارها وسارته فتقوم على القيامة وأقول ضحك إليها وضحكت إليه للمعرفة فما موضع السر ثم أهم بالعمود والثانى الذى فى يقول لنا طالبنا بصوت فلنبه

فغنتاه الصوت فقال لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم لم يفهما عنى وما أظن القحبتين إلا مدنيتين وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء فقال ياحبيبق أين بيت الخلاء فقالت إحداها لصاحبتها مايقول سيدنا قالت يقول غنيانى :

خلا علىّ بقاع الأرض إذ ظعنوا　　　من بطن مكة واستزعانى الحزن

قال فغنتاه فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين وأهل البصرة يسمونها الحشوش فقال ياحبيبق أين الحشوش فقالت إحداها لصاحبتها مايقول سيدنا قالت يقول غنيانى :

أوحشونى وعز صبرى فيهم　　　ما احتيالى وما يكون فعالى

قال فاندفعتا تغنيانه فقال ماأراهما إلا كوفيتين وأهل الكوفة يسمونها الكنف فقال لهما ياحبيبق أين الكنيف فقالت إحداها لصاحبتها بعيش سيدنا مارأيت أكثر اقتراحا من هذا الرجل قالت مايقول قالت يسأل أن تغنى له :

تكنفنى الهوى طفلا　　　فشيبنى وما اكتهلا

فقال واو يلاه واعظم مصيبتاه هذا والهاشمى يتقطع ضحكا فقال لهما يازانيتان إن لم تعلمانى به أنا أعلمكما ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش فانتبه الهاشمى وقد غشى عليه من شدة الضحك وقال ويلك ماهذا تسلح على وطائى فقال الرجل حياة نفسى أعز علىّ من وطائك ، وقيل إنه لما قيل له ويلك ماهذا قال الضحك هذه الأبيات :

تكنفنى اللاح وأضجرونى　　　على مابى بنيات الزوانى
فلما قل عن ذاك اصطبارى　　　قذفت به على وجه الغوانى

قال فانبسط الهاشمى ودفع إليه مالا ومضى إلى سبيله . وقال على بن الجهم قلت لقينة :

هل تعلمين وراء الحب منزلة　　　تدنى إليك فان الحب أقصانى

قالت تأتى من باب الذهب وأنشدت :

اجعل شفيعك منقوشا تقدمه　　　فلم يزل مدنيا من ليس بالدانى

وكان أشعث يختلف إلى قينة بالمدينة فجلس عندها يوما يطارحها الغناء فلما أراد الخروج قال لها ناولينى خاتمك أذكرك به قالت إنه ذهب وأخاف أن تذهب ولكن خذ هذا العود فلعلك أن تعود وناولته عودا من الأرض . وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانب ثم أصابتها علة فتغير حالها فكانت تنشد :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى　　　بها كبدا ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها　　　ومن يشترى ذا علة بصحيح

وكان للمعتصم يحب قينة من حظاياه فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها فى بعض الطريق فاشتاق إليها فغلبه الوجد فدعا مغنيا وقال ويحك قد ذكرت جاريتى فلانة فأقلقنى الشوق إليها فعسى أن تغنينى شيئا فى معنى ماذكرته لك فأطرق مليا ثم غناه :

وددت من الشوق المبرح أننى　　　أعار جناحى طائر فأطير
فما لنعيم ليس فيه بشاشة　　　وما لسرور ليس فيه سرور
وإن امرأ فى بلدة نصف قلبه　　　ونصف بأخرى غيرها لصبور

والحكايات فى معنى ذلك كثيرة ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات ولكن ماقل وجل خير من

كثير

كثير بل وفيما ذكرته كفاية والله المسئول أن يمدنى منه باللطف والعناية ونسأله التوفيق والهداية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الحادى والسبعون فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق وما فى معنى ذلك وفيه فصول

الفصل الأول فى وصف العشق

قال الجاحظ : العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود. وقال أعرابى العشق خفى أن يرى وجل أن يخفى فهو كامن ككمون النار فى الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى ، وقيل أول العشق النظر وأول الحريق الشرر ، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته والمرأة تشق رداء حبيبها ويقولون إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما ، وقال عبد بنى الحسحاس :

وكم قد شققنا من رداء محبر ... ومن برقع عن طفلة غير عانس

إذا شق برد شق بالبرد برقع ... من الحب حتى كلنا غير لابس

وقيل لأعرابى مابلغ من حبك لفلانة قال إنى لأذكرها وبينى وبينها عقبة الطائف فأجد من ذكرها رائحة المسك ، وقيل رأى شبيب أخو بثينة جميلا عندها فوثب عليه وآذاه ثم إن شبيبا أتى مكة وجميل فيها فقيل لجميل دونك شبيبا فخذ بثأرك منه فقال :

وقالوا ياجميل أتى أخوها ... فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب

وأنشد الأخفش الحداد يقول :

مطارق الشوق منها فى الحشى أثر ... يطرقن سندان قلب حشوه الفكر

ونار كور الهوى فى الجسم موقدة ... ومبرد الحب لا يبقى ولا يذر

وفى «الجليس الأنيس» لأبى العالية الشامى قال سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ماهو فقال هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه. وقال ثمامة العشق جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه ضيقة ومذاهبه غامضة وأحكامه جائرة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها وقوة تصريفها توارى عن الأبصار مدخله وخفى فى القلوب مسلكه. وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال سليمان بن عمرو ومن معه أنتم أدباء وقد سمعتم الحكمة ولكم حداء ونعم فهل فيكم عاشق قالوا لا قال اعشقوا فإن العشق يطلق اللسان ويفتح جبلة البليد والبخيل ويبعث على التلطف وتحسين اللباس وتطييب المطعم ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة. وقال المجنون :

قالت جننت على ذكرى فقلت لها ... الحب أعظم مما بالمجانين

الحب ليس يفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون فى الحين

قال ذوالرياستين إن بهرام جور كان له ابن وكان قد رشحه للأمر من بعده فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة خامل النفس سيىء الأدب فغمه ذلك فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه فيحكون له مايغمه من سوء فهمه وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوما فقال له المؤدب قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ماصيرنا إلى الرجاء فى فلاحه

فأمسك فلا يطول الأمر بينهما حتى أراه قد أدخل يده فى ثوبها فقرصها وعبث بثديها فتداخلنى الغيرة وأقول مابعد هذا شىء وأهم بضربهما بالعمود لكن على ماترى عندى تأن فأقول بعد لم يبلغ الأمر بهما إلى القتل وهى أوائل وسيكون لها أواخر فإن أتى بموجب القتل قتلتهما فاسترحت فأمسك فيطول الأمر حتى أرى الواحدة قد قامت وقام الرجل فى أثرها فيدخلان ذلك البيت وبابه ونيل جدا فأسعى خلفهما بهذا العمود لأقتلهما ألبتة فيسبقانى فيغلقان الباب وأبقى أنا خارجه وأنا غيور كما قد علمت فأقول متى علمت حركتهما مت أو قتلت نفسى فلا يكون والله يا أخى لى اعتصام إلا بذلك الطبل المعلق فأتناوله وأضعه فى عنقى فلا أزال أضرب أبدا حتى يخرجا قال فما قمت والله وأنا أرى أوفى منه قولا وفعلا .

قال صلاح الدين الصفدى فى الجزء الخامس والثلاثين من التذكرة ومن خطه نقلت : حجت جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبى محمد بن حمدان أخت أبى تغلب سنة ست وثمانين وثلثمائة فسقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزذ والثلج واستصحبت البقول المزروعة فى المراكب وعلى الجمال وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ولم تستصبح عندها وفيها إلا بشموع العنبر وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتى جارية وأغنت الفقراء والمجاورين . وحج عبد الله بن جعفر ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشى على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكا وحملهم

قال وما ذاك الذى حدث ؟ قال رأى ابنة فلان المرزبان فعشقها فغلبت عليه فهو لايهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها ، فقال بهرام الآن رجوت فلاحه ثم دعا بأبى الجارية فقال له إنى مسرّ إليك سرا فلا يعدوك فضمن له ستره فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته وأنه يريد أن ينكحها إياه وأمره أن يأمرها باطماعه فى نفسها ومراسلته من غير أن يراها وتقع عينه عليها فاذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره فان استعطفها أعلمته أنها لاتصلح إلا للملك ثم لتعلمنى خبرها وخبره ولا تطلعهما على ماأسررته إليك فقبل أبوها ذلك منه ثم قال للمؤدّب للوكل بأدبه حضه وشجعه على مراسلة المرأة ففعل ذلك وفعلت المرأة كما أمرها أبوها فلما انتهت إلى التجنى عليه وعلم الفتى السبب الذى كرهته لأجله أخذ فى الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصولجان حتى مهر فى ذلك ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء وما أشبه ذلك فسر الملك بذلك وأمر له بما طلب ، ثم دعا مؤدّبه فقال له : إن الموضع الذى وضع به ابنى نفسه من خبر هذه المرأة لايدرى به فتقدّم إليه ومره أن يرفع أمرها إلىّ ويسألنى أن أزوّجه إياها ففعل المؤدب ذلك فرفع الفتى ذلك لأبيه فدعا بأبيها فزوّجه إياها وأمر بتعجيلها إليه وقال له إذا اجتمعت أنت وهى فلا تحدث شيئا حتى أصير إليك فلما اجتمعا صار إليه فقال يابنىّ لايضعن قدرها عندك مراسلتها إياك وليست فى خبائك فانى أمرتها بذلك وهى أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحدّ الذى تصلح معه للملك من بعدى فزدها من التشريف والإكرام بقدر ماتستحق منك ففعل الفتى وعاش مسرورا بالجارية وعاش أبوه مسرورا به وأحسن ثواب أبيها ورفع منزلته لصيانة سرّه وأحسن جائزة المؤدّب لامتثال أمره به . وكان عبد الله بن عبيدة الريحانى يهوى جارية فزارته يوما فقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق فحان وقت الظهر فناداه إنسان الصلاة ياأبا الحسن فقال له رويدك حتى تزول الشمس أى حتى تقوم الجارية . وقالت ليلى العامرية فى قيسها :

لم يكن المجنون فى حالة ... إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسرّ الهوى ... وإنى قد ذبت كتمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب :

وإنى ليرضينى للمرّ ببابها ... وأقنع منها بالشتيمة والزجر

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل :

أيها العاشق المعذّب صبرا ... فخطايا أخى الهوى مغفوره
زفرة فى الهوى أحطّ لذنب ... من غزاة وحجة مبروره

وقال عمر بن أبى ربيعة : كنت بين امرأتين هذه تساررنى وهذه تعضنى فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه . وأنشد شيبان العذرى يقول :

لوحزّ بالسيف رأسى فى محبتها ... لطار يهوى سريعا نحوها راسى

وقال يحيى بن معاذ الرازى : لو أمرنى الله أن أقسم العذاب بين الخلق ماقسمت للعاشقين عذابا .

[الفصل الثانى من هذا الباب فيمن عشق وعفّ والافتخار بالعفاف]

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من عشق فعفّ فمات فهو شهيد» وقال صلى الله عليه وسلم «عفوا تعف نساؤكم» وقال بعضهم رأيت امرأة مستقبلة فى غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو فقلت لها هل من حاجة فقالت حاجتى أن تنادى فى الموقف بقولى :

على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفا وقال أعتقتهم لله تعالى لعلّ الله أن يعتقنى من النار . وكان حكيم بن حزام رضى الله عنه يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر . وكان يطوف بالبيت ويقول لا إله إلا الله وحده لاشريك له نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه .

(عمر بن زر الهمدانى) لما قضى مناسكه أسند ظهره إلى الكعبة الشريفة ثم قال مودّعا للبيت مازلنا نحلّ إليك عروة ونشد أخرى ونصعد أكمة ونهبط واديا وتخفضنا أرض وترفعنا أخرى حتى أتيناك غير محجوبين فليت شعرى بم يكون منصرفنا أبذنب مغفور فأعظم بها من نعمة أم بعمل مردود فأعظم بها من مصيبة فيامن إليه خرجنا وإليه قصدنا وبحرمه أنخنا ارحم إملاق الوفد بفنائك فقد أتيناك بعيسنا معراة جلودها ذابلة أسنمتها نقبة أخفافها وإن أعظم الرزية أن نرجع وقد اكتنفتنا الخيبة ، اللهم وإن للزائرين حقا فاجعل حقنا غفران ذنوبنا فانك جواد ماجد لاينقصك نائل ولا يخيبك سائل .

ونقلت من خط الشيخ صلاح الدين الصفدى من الجزء الثامن والثلاثين من تذكرته ماصورته نقلت من خط شيخنا الشيخ الإمام الحافظ علم الدين البرزالى رحمه الله تعالى ماصورته قرأت فى بعض الكتب الواردة من القاهرة المحروسة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس

تزود كلّ الناس زادا يقيهم ... ومالى زاد والسلام على نفسى

فناديت كما أمرتنى وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إلىّ فقال أنا الزاد فمضيت به إليها ، فما زاد على النظر والبكاء، ثم قالت له انصرف بسلام ، فقلت : ماعلمت أن لقاءكما يقتصر على هذا ، فقالت أمسك ياهذا أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد . قال إبراهيم بن محمد المهلبى :

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعنى ... منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بمن أهوى فيقنعنى ... منه الفكاهة والتأنيس والنظر
أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم ... وليس لى فى حرام منهم وطر
كذلك الحبّ لا إتيان معصية ... لاخير فى لذّة من بعدها سقر

وقال بعض بنى كلب :

إن أكن طامح اللحاظ فإنى ... والذى يملك الفؤاد عفيف

ونحو ذلك قول القائل :

فقالت بحق الله إلا أتيتنا ... إذا كان لون الليل شبه الطيالس
فجئت ومافى القوم يقظان غيرها ... وقد نام عنها كلّ واش وحارس
فبتنا بليل طيب نستلذّه ... جميعا ولم أقلب لها كفّ لامس

ونزل رجل على صديق له مستترا خائفاً من عدوّ له فأنزله فى منزله وتركه فيه وسافر لبعض حوائجه وقال لامرأته أوصيك بضيفى خيرا ، فلما عاد بعد شهر قال لها كيف ضيفنا ؟ قالت ماأشغله بالعمى عن كل شىء وكان الضيف قد أطبق عينيه فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره . وكان عمر بن أبى ربيعة عفيفا يصف ويعف ويحوم ولا يرد . ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها : يابثينة ما أرى فيك شيئا مما كان يقوله جميل ، فقالت ياأمير المؤمنين إنه كان يرنو إلىّ بعينين ليستا فى رأسك . قال : فكيف رأيتيه فى عشقه ؟ قالت كان كما قال الشاعر :

لاوالذى تسجد الجباه له ... مالى بما تحت ذيلها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلا الحديث والنظر

وقد قدمت هذين البيتين فى الجزء الأوّل فيما جاء فى الكتابة على سبيل الرمز . وعن أبى سهل الساعدى قال : دخلت على جميل وبوجهه آثار الموتُ فقال لى ياأباسهل إنّ رجلا يلقى الله ولم يسفك دما ولم يشرب خمرا ولم يأت فاحشة أفترجو له الجنة ؟ قلت : إى والله فمن هو ؟ قال : إنى لأرجو أن أكون ذلك فذكرت له بثينة فقال إنى لفى آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة لانالتنى شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن كنت حدّثت نفسى بريبة قط . وعن عبد الله بن عبد المطلب أبى النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه دعته بغىّ إلى نفسها وبذلت له مالا ، وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت جميلة فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم منها للنور الذى رأته بين عينيه فأبى وقال :

أما الحرام فالحمام دونه ... والحلّ لاحلّ فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه ... يحمى الكريم عرضه ودينه

رابع جمادى الآخرة فى سنة اثنتين وسبعمائة ظهرت دابة عجيبة من بحر النيل إلى أرض المنوفية صفة لونها لون الجاموس بلاشعر وآذانها كآذان الجمال وعيناها وفرجها مثل الناقة يغطى فرجها ذنب طوله شبر ونصف طرفه كذنب السمكة ورقبتها مثل غلظ التيس المحشوّ تبنا وفمها وشفاهها مثل الكربال ولها أربعة أنياب اثنان من فوق واثنان من أسفل طولهنّ دون الشبر وعرض أصبعين وفى فمها ثمانية وأربعون ضرسا وسنا مثل بيادق الشطرنج وطول يديها من باطنها إلى الأرض شبران ونصف ومن ركبتها إلى حافرها مثل بطن الثعبان أصفر مجعد ودور حافرها مثل السكرّجة بأربعة أظافير مثل أظافير الجمل وعرض ظهرها مقدار ذراعين ونصف وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدما وفى بطنها ثلاث كروش ولحمها أحمر وزفرته مثل السمك وطعمه كطعم الجمل وغلظ جلدها أربعة أصابع ماتعمل فيه السيوف وحمل جلدها على خمسة جمال فى مقدار ساعة من نقله على جمل بعد جمل وأحضروه إلى القلعة المعمورة بحضرة السلطان وحشوه تبنا وأقاموه بين يديه . ونقلت منه أيضا كتب إلى زين الدين الرحبى أنه وجد بالقاهرة بالقرب من المشهد كلبة ميتة ولها جروان يرضعان مقدار عشرين يوما بعد موتها ويلعبان حولها واللبن يخرج من أبزازها من الجانب الأعلى وأما الجانب الأسفل فإنه يبس وكان الناس يمرون بها ويتعجبون فسبحان من لايعجزه شىء وهو على كل شىء قدير.

وقال آخر : وأحور مخضوب البنان محجب ... دعاني فلم أعرف إلى مادعا وجها
بخلت بنفسي عن مقام يشينها ... ولست مريدا ذاك طوعا ولا كرها

وراود شاب ليلى الأخيلية عن نفسها فاشمأزت وقالت :

وذي حاجة قلنا له لاتبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لاينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

وقال ابن ميادة :

موانع لايعطين حبة خردل ... وهن دوان في الحديث أوانس
ويكرهن أن يسمعن في اللهو ريبة ... كما كرهت صوت اللجام الشوامس

وقال آخر : حور حرائر ماهممن بريبة ... كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواسقا ... ويصدهن عن الخنى الإسلام

وكان الأصمعي يستحسن بيتي العباس بن الأحنف :

أتأذنون لصب في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر
لايظهر الشوق إن طال الجلوس به ... عف الضمير ولكن فاسق النظر

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب طلبت منها بخمسمائة ألف درهم فهويها إبراهيم وكره أن يراودها عن نفسها فغنى يوما وهي قائمة على رأسه :

ياغزالا لي إليه ... شافع من مقلتيه
أنا ضيف وجزاء ... الضيف إحسان إليه

ففهمت الجارية ما أراد فحكت ذلك لمولاتها فقالت اذهبي إليه فأعلميه أني قد وهبتك له فعادت إليه فلما رآها أعاد البيتين فأكبت عليه فقال لها كفي فلست بخائن فقالت قد وهبتني لك مولاتي وأنا الرسول فقال أما الآن فنعم . وأنشد المبرد .

ما إن دعاني الهوى لفاحشة ... إلا نهاني الحياء والكرم
فلا إلى فاحش مددت يدي ... ولا مشت بي لزلة قدم

وقال آخر : يقولون لاتنظر فذاك بلية ... بلى كل ذي عينين لابد ناظر
وهل باكتحال العين بالعين ريبة ... إذا عف فيما بينهن السرائر

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لاينشد شعرا ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة قال فبينما هو في الطواف يوما إذ نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه فقال له ياهذا اتق الله أفي مثل هذا المكان فقال يا أمير المؤمنين والله ماذاك لخنى ولكنها ابنة عمي وأعز الناس علي وإن أباها منعني من تزوجها لفقري وفاقتي وطلب مني مائة ناقة ومائة أوقية من الذهب ولم أقدر على ذلك قال فطلب الخليفة أباها ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر فقالت له جارية من حظاياه أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر أفنسيت مانذرت أم تراك قد هويت فأنشد هذه الأبيات يقول :

تقول وليدتي لما رأتني ... طربت وكنت قد أسليت حينا
أراك اليوم قد أحدثت عهدا ... وأورثك الهوى داء دفينا

وذكر الشيخ في حوادث سنة سبعمائة وست وعشرين قال قال شيخنا علم الدين رحمه الله تعالى نقلت من خط الصدر بدر الدين الفزاري قال في السابع من ذي الحجة سنة سبعمائة وإحدى وعشرين أخبرني شخص أن كلبة ولدت بالقاهرة ثلاثين جروا وأنها أحضرت بين يدي السلطان فلما رآها أعجب من أمرها وسأل المنجمين عن ذلك فاعترفوا أنهم ليس لهم علم بذلك .

يحكى أن المهدي خرج يتصيد فلقيه الحسين بن مطير الأسدي فأنشده :

أضحت يمينك من جود مصورة ... لا بل يمينك منها صورة الجود
من حسن وجهك تضحى الأرض مشرقة ... ومن بنانك يجري الماء في العود

فقال المهدي كذبت يافاسق وهل تركت في شعرك موضعا لأحد مع قولك في معن بن زائدة :

ألما بمعن ثم قولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن كنت أول حفرة ... من الأرض خطت للمكارم مضجعا
وياقبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا
ولكن حويت الجود والجود ميت ... ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
وما كان إلا الجود صورة وجهه ... فعاش ربيعا ثم ولى فودعا
فلما مضى معن مضى الجود والندى ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا

بحقك

بحقك هل سمعت لها حديثا ... فشاقك أو رأيت لها جبينا
فقلت شكا إلى أخ محب ... كمثل زماننا إذ تعلمينا
وذو الشجو القديم وإن تعزى ... محب حين يلقى العاشقينا

ثم عد الأبيات فإذا هي خمسة أبيات فأعتق خمس رقاب ثم قال لله درك من خمسة أعتقت خمسة وجمعت بين رأسين في الحلال . وروى عن عثمان الضحاك قال خرجت أريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب ... وقل لا تملينا فما ملك القلب

فقالت يا هذا أتعرف قائل هذا البيت قلت بلى هو نصيب فقالت أتعرف زينبه قلت لا قالت أنا زينبه قلت حياك الله وحباك قالت أما والله إن اليوم موعده وعدني العام الأول بالاجتماع في هذا اليوم فلعلك أن لاتبرح حتى تراه قال فبينما هي تكلمني إذا أنا براكب قالت ترى ذلك الراكب قلت نعم قالت إني لأحسبه إياه فأقبل فإذا هو نصيب فنزل قريبا من الخيمة ثم أقبل فسلم ثم جلس قريبا منها فسألته أن ينشدها فأنشدها فقلت في نفسي محبان قد طال التنائي بينهما فلابد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة فقمت إلى بعيري لأشد عليه فقال على رسلك إني معك فجلست حتى نهض معي فسرنا وتسامرنا فقال لي أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة قلت نعم قد كان ذلك قال ورب هذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلسا هو أقرب من مجلسي هذا فتعجبت لذلك وقلت والله هذه هي العفة في المحبة . وعن محمد بن يحيى المدني قال سمعت بعض المدنيين يقول كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولا يفرح أن يرى من يراها فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار واليوم هو يشير إليها وتشير إليه ويعدها وتعده فإن التقيا لم يتشاكيا حبا ولم يتناشدا شعرا بل يقوم إليها ويجلس بين شعبيها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة .

وقال الأصمعي قلت لأعرابية ما تعدون العشق فيكم قالت الضمة والغمزة والقبلة ثم أنشأت تقول :

ما الحب إلا قبلة ... وغمز كف وعضد ... ما الحب إلا هكذا ... إن نكح الحب فسد

ثم قالت كيف تعدون أنتم العشق قلت نمسك بقرنيها ونفرق بين رجليها قالت لست بعاشق أنت طالب ولد ثم أنشأت تقول :

قد فسد العشق وهان الهوى ... وصار من يعشق مستعجلا
يريد أن ينكح أحبابه ... من قبل أن يشهد أو ينحلا

وقيل لرجل وقد زفت عشيقته على ابن عم لها أيسرك أن تظفر بها الليلة قال نعم والذي أمتعني بحبها وأشقاني بطلبها قيل فما كنت صانعا بها قال كنت أطيع الحب في لثمها وأعصي الشيطان في إثمها ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره وينشر قبيح أخباره إني إذن للئيم لم يلدني كريم . ومر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه ليلة في بعض سكك المدينة فسمع امرأة تقول :

ألا طال هذا الليل وازور جانبه ... وليس إلى جنبي خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يعفني ... وإكرام بعلي أن تنال مراتبه

فأطرق الحسين وقال يا أمير المؤمنين وهل معن إلا حسنة من حسناتك فرضى عنه وأمر له بألفي دينار . قال سعيد بن مسلم لما ولى المنصور معن بن زائدة أذربيجان قصده قوم من أهل الكوفة فلما صاروا ببابه استأذنوا عليه فدخل الآذن فقال أصلح الله الأمير وفد من أهل العراق قال من أي أهل العراق قال من الكوفة قال ائذن لهم فدخلوا عليه فنظر إليهم معن في هيئة مزرية ووثب على أريكته وأنشد يقول :

إذا نوبة نابت صديقك فاغتنم ... ترقبها فالدهر بالناس قلب
فأحسن ثوبيك الذي هو لابس ... وأفره مهريك الذي هو راكب
وبادر بمعروف إذا كنت قادرا ... زوال اقتدار فهو عنك بعقب

قال فوثب إليه رجل من القوم فقال أصلح الله الأمير ألا أنشدك أحسن من هذا قال لمن قال لابن عمك هرمة قال هات فأنشد يقول :

وللنفس تارات تحل بها العرى ... وتسخو عن المال النفوس الشحائح
إذا المرء لم ينفعك حيا فنفعه ... أقل إذا ضمت عليك الصفائح
لأية حال يمنع المرء ماله ... غدا فغدا والموت غاد ورائح

فقال معن أحسنت والله وإن كان الشعر لغيرك يا غلام أعطهم أربعة آلاف يستعينون بها على أمورهم إلى أن يتهيأ لنا فيهم

قال فسأل عمر رضى الله تعالى عنه عنها فقيل له إنها امرأة فلان وله فى الغزاة ثمانية أشهر فأمر عمر رضى الله تعالى عنه أن لايغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر . ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزى فى كتاب «تلقيح فهوم الأثر» عن محمد بن عثمان بن أبى خيثمة السلمى عن أبيه عن جده قال بينما عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة فى سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل ... سهل المحيا كريم غير ملجاج
تميه أعراق صدق حين تنسبه ... أخى وفاء عن المكروب فرّاج

فقال عمر رضى الله تعالى عنه لاأرى معى بالمدينة رجلا تهتف به العواتق فى خدورهنّ علىّ بنصر ابن حجاج ، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فاذا هو من أحسن الناس وجها وأحسنهم شعرا فقال عمر عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك فأخذ من شعره فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر فقال له اعتم فاعتم فافتتن الناس بعينيه فقال له عمر والله لاتساكننى فى بلدة أنا فيها فقال ياأمير المؤمنين ماذنبى قال هو ما أقول لك ثم سيره إلى البصرة ، وخشيت المرأة التى سمع منها عمر ماسمع أن يبدر من عمر إليها شىء ، فدست إليه المرأة أبياتا وهى :

قل للامام الذى تخشى بوادره ... مالى وللخمر أو نصر بن حجاج
لاتجعل الظن حقا أن تبينه ... إن السبيل سبيل الخائف الراجى
إن الهوى زم بالتقوى فتحبسه ... حتى يقرّ بالجام وإسراج

قال فبكى عمر رضى الله تعالى عنه وقال الحمد لله الذى زم الهوى بالتقوى ، قال وطال مكث نصر ابن حجاج بالبصرة فخرجت أمه يوما بين الأذان والإقامة متعرّضة لعمر فاذا هو قد خرج فى إزار ورداء و بيده الدرّة فقالت له ياأمير المؤمنين والله لأقفنّ أنا وأنت بين يدى الله تعالى وليحاسبنك الله أيبيتنّ عبد الله وعاصم إلى جنبيك و بينى و بين ابنى الفيافى والأودية فقال لها إن ابنىّ لم تهتف بهما العواتق فى خدورهنّ ثم أرسل عمر إلى البصرة بريدا إلى عتبة بن غزوان فأقام أياما ثم نادى عتبة من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فان البريد خارج ، فكتب نصر بن حجاج بسم الله الرحمن الرحيم : سلام عليك ياأمير المؤمنين ، أما بعد فاسمع منى هذه الأبيات :

لعمرى لئن سيرتنى أوحرمتنى ... ومانلت من عرضى عليك حرام ... فأصبحت منفيا على غير ريبة
وقد كان لى بالمكتين مقام ... لئن غنت الذلفاء يوما بمنية ... و بعض أمانى النساء غرام
ظننت بى الظن الذى ليس بعده ... بقاء ومالى جرمة فألام ... فيمنعنى مما تقول تكرّمى
وآباء صدق سالفون كرام ... ويمنعها مما تقول صلاتها ... وحال لها فى قومها وصيام
فهاتان حالان فهل أنت راجى ... فقد جب منى كاهل وسنام

قال فلما قرأ عمر رضى الله تعالى عنه هذه الأبيات قال أما ولى السلطان فلا وأقطعه دارا بالبصرة فى سوقها ، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة والله سبحانه وتعالى أعلم .

[الفصل الثالث من هذا الباب فى ذكر من مات بالحب والعشق]

حدث أبو القاسم بن اسماعيل بن عبد الله المأمون قال حدثنى أبى قال كانت بالمدينة قينة من أحسن الناس وجها وأكملهم عقلا وأكثرهم أدبا ، قد قرأت القرآن وروت الأشعار وتعلمت العربية ،

مائريد فقال الغلام أجعلها دنانير أم دراهم فقال معن والله لاتكون همتك أرفع من همتى . مدح مطيع بن إياس معن بن زائدة فقال له معن إن شئت مدحتك وإن شئت أثبتك فاستحى من اختيار الثواب وكره اختيار المدح فقال :

ثناء من أمير خير كسب ... لصاحب مغنم وأخى ثراء
ولكن الزمان برى عظامى ... ومامثل الدراهم من دواء

فأمر له بألف دينار . ولما قدم معن بن زائدة أتاه الناس فأتاه ابن أبى جحفة فاذا المجلس غاص بأهله فدقّ بعصاه الباب ثم قال :

وماأحجم الأعداء عنك تقية ... عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا
له راحتان الجود والحتف فيهما ... أبى الله إلا أن يضرّ وينفعا

فقال معن تحكم ياأبا السمط فقال عشرة آلاف فقال معن ونزيد لك ألفا .

أتى أعرابىّ إلى معن ابن زائدة ومعه نطع فيه صبىّ حين ولد فاستأذن عليه فلما دخل جعل الصبى بين يديه وقال :

سميت معن بمعن ثم قلت له ... هذا سمى فتى فى الناس محمود
أنت الجواد ومنك الجود نعرفه ... وميل جودك فينا غير معهود
أمست يمينك من جود مصوّرة ... لابل يمينك منها صورة الجود

قال كم الأبيات ؟ قال ثلاثة ، قال أعطوه ثلثمائة دينار ولو كنت زدتنا لزدناك ، قال حسبك ماسمعت وحسبى ماأخذت

فوقعت

توقعت عند يزيد بن عبد الملك فأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه وأسدى إليه معروفا ؟ قالت يا أمير المؤمنين أما قرابة فلا ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاى وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه فكتب إلى عامله بالمدينة فى إحضارهم إليه وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم فى الدخول عليه فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم ، فأما اثنان منهم فذكروا حوائجهما فقضاها ، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال يا أمير المؤمنين مالى حاجة قال ويحك أولست أقدر على حوائجك ؟ قال بلى يا أمير المؤمنين ولكن حاجتى ماأظنك تقضيها فقال ويحك فاسألنى فانك لاتسألنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتها . قال فلى الأمان يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم . قال إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة التى أكرمتنا بسببها أن تغنى ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل . قال فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها ، فقالت وما عليك يا أمير المؤمنين ، فأمر بالفتى فأحضر وأمر بثلاثة كراسى من ذهب فنصبت فقعد يزيد على أحدها والجارية على الآخر والفتى على الثالث ، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت ، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ، ثم قال للفتى سل حاجتك فقال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر :

لا أستطيع سلوا عن مودتها ... أو يصنع الحب بى فوق الذى صنعا
أدعو إلى هجرها قلبى فيسعدنى ... حتى إذا قلت هذا صادق نزعا

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ، ثم أمر بالأرطال فملئت وقال للفتى سل حاجتك ، فقال مرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر :

تخيرت من نعمان عود أراكة ... لهند ولكن من يبلغه هندا
ألا عرجا بى بارك الله فيكما ... وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ، ثم أمر بالأرطال فملئت ، ثم قال للفتى سل حاجتك . قال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر :

منى الوصال ومنكم الهجر ... حتى يفرق بيننا الدهر
والله لا أسلوكم أبدا ... مالاح بدر أو بدا فجر

فأمرها فغنت . قال فلم تتم الأبيات حتى خر الفتى مغشيا عليه ، فقال يزيد للجارية قومى انظرى ماحاله ، فقامت إليه فحركته فاذا هو ميت ، فقال لها يزيد ابكى ، فقالت لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حى ، فقال لها ابكيه فوالله لو عاش ماانصرف إلا بك ، فبكت الجارية وبكى أمير المؤمنين وأمر بالفتى فجهز ودفن ، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياما قلائل وماتت . وحكى عن عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكرا النساء والجوارى المغنيات والعشق فقال عبد الملك لعبد الله حدثنى بأمر ماض لك فى هذه الأغانى وما رأيت من الجوارى قال نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إلى فى شأنها ، فكتبت إليه والله لاتخرج منى ببيع ولا هبة فأمسك عنى فكانت عندى على تلك الحالة لاأزداد فيها إلا حبا ، فبينا أنا ذات ليلة إذ أتتنى عجوز من عجائزنا فذكرت لى أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه ويراها

أخبرنا الشيخ الجليل العدل الأصيل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن غانم بن وافد المهدى قال : أخبرنا المشايخ الثلاثة الإمام فخر الدين أبو الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد البخارى وأبو العباس أحمد بن شيبان بن ثعلب الشيبانى وأم حميد زينب بنت مكى بن على ابن كامل الحرانى قال : أخبرنا أبو حفص عمر ابن عمر بن محمد بن أبى نصر الجيدى قال : أنشدنى أبو غالب محمد بن سهل النحوى الواسطى المعروف بابن شبران بواسط قال : أنشدنى الأمير أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين قال أنشدنى على بن رزيق الكاتب البغدادى لنفسه هذه القصيدة إلى آخره وقد أنشدنيها جماعة بالمغرب وقال لى أبو محمد على بن أحمد بن سعيد وغيره يقال : من تختم بالعقيق وقرأ لأبى عمرو وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف وهى :

لا تعذليه فإن العذل يوجعه ... قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت فى لومه حدا أضر به ... من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
فاستعملى الرفق فى تأنيبه بدلا ... من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعا بالبين يحمله ... فضلعت بخطوب البين أضلعه
يكفيه من لوعة التفنيد أن له ... من النوى كل يوم مايروعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه ... رأى إلى سفر بالرغم يقبعه
كأنما هو فى حل ومرتحل ... موكل بفضاء الأرض يذرعه

وتراه وأنه يجىء كل ليلة متنكرا فيقف بالباب فيسمع غناءها ويبكى شغفا وحبا ، فراعيت ذلك الوقت الذى قالت عليه العجوز فاذا به قد أقبل مقنعا رأسه وقعد مستخفيا فلم أدع بها فى تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعه فاذا بها تكلمه ويكلمها ولم أر بينهما إلا عتبا ، ولم يزالا كذلك حتى ابيض الصبح فدعوت بها وقلت لقيمة الجوارى أصلحى فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزينتها ، فلما جاءت بها قبضت على يدها وفتحت الباب وخرجت لجئت إلى الفتى لحركته فانتبه مذعورا ، فقلت لابأس عليك ولاخوف هى هبة منى إليك فدهش الفتى ولم يجبنى فدنوت إلى أذنه وقلت : قد أظفرك الله تعالى ببغيتك فقم وانصرف بها إلى منزلك فلم يرد جوابا فحركته فاذا هو ميت فلم أر شيئا قط كان أعجب من أمره . قال عبد الملك : لقد حدثتنى بعجب فما صنعت الجارية ؟ قلت : ماتت والله بعده بأيام بعد تحول عظيم وتعليل وماتت كمدا ووجدا على الغلام . وقيل : إن عبدالله ابن عجلان الهندى رأى أثر كف عشيقته فى ثوب زوجها فمات . وذكر محمد بن واسع الهيق أن عبد الملك بن مروان بعث كتابا إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد إذا ورد عليك كتابى هذا وقرأته فسير لى ثلاث جوار مولدات أبكارا يكون إليهن المنتهى فى الجمال ، واكتب لى بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض ، وأعطاهم المال وكتب لهم كتبا إلى كل الجهات فساروا يطلبون ماأراد أمير المؤمنين فلم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل . قال وكان الحجاج فصيحا فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها فوجدهن لايقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتابا إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل : وصلنى كتاب أمير المؤمنين أمتعنى الله تعالى ببقائه يذكر فيه أنى أشترى له ثلاث جوار مولدات أبكارا وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثمنها ، فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين فانها جارية عيطاء السوالف عظيمة الروادف كحلاء العينين حمراء الوجنتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذاها كأنها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل :

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج ... كأنها فضة قد شابها ذهب

وثمنها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم ، وأما الثانية فانها جارية فائقة فى الجمال معتدلة القد والكمال تشفى السقيم بكلامها الرخيم وثمنها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم ، وأما الثالثة فانها جارية فاترة الطرف لطيفة الكف عميمة الردف شاكرة للقليل مساعدة للخليل بديعة الجمال كأنها خشف الغزال وثمنها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطنب فى الشكر والثناء على أمير المؤمنين (لوى) الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى إلى أمير المؤمنين فقال أحد النخاسين أيد الله الأمير إنى رجل كبير ضعيف عن السفر ولى ولد ينوب عنى أفتأذن لى فى ذلك قال نعم فتجهزوا وخرجوا فى بعض مسيرهم نزلوا يوما ليستريحوا فى بعض الأماكن فدارت الجوارى فهبت الريح فانكشف بطن إحداهن وهى الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم ، فنظر إليها ابن النخاس وكان شابا جميلا ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول :

إذا الزمان أراه بالرحيل غنى ... ولو إلى السد أضحى وهو يزمعه

تأبى المطامع إلا أن تجشمه ... للرزق كدا وكم ممن يودعه

وماتجاهدة الإنسان واصلة ... رزقا ولادعة الإنسان تقطعه

والله قسم بين الناس رزقهم ... لم يخلق الله مخلوقا يضيعه

لكنهم ملئوا حرصا فلست ترى ... مسترزقا وسوى الغايات تقنعه

والحرص فى المرء والأرزاق قد قسمت ... بغى ألا إن بغى المرء يصرعه

والدهر يعطى الفتى ماليس يطلبه ... حقا ويطمعه من حيث يمنعه

أستودع الله فى بغداد لى قمرا ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعته وبودى لو يودعنى ... طيب الحياة وأنى لاأودعه

كم قد تشفع بى أن لاأفارقه ... وللضرورات حال لاتشفعه

وكم تشبث بى يوم الرحيل ضحى ... وأدمعى مستهلات وأدمعه

لاأكذب الله ثوب العذر منخرق ... عنى برقته لكن أرقعه

إنى أوسع عذرى فى جنايته ... بالبين عنه وقلبى لايوسعه

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته ... كذاك من لايسوس الملك يخلعه

ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا ... شكر عليه فإن الله ينزعه

اعتضت من وجه خلى بعد فرقته ... كأسا تجرع منها ماأجرعه

كم قائل لى ذنب البين قلت له ... الذنب والله ذنبى لست أدفعه

أمختوم

إلا أقمت مكان الرشد أجمعه لو أنني يوم بان الرشد أتبعه
أن لا أقطع أياما وأنفذها بحسرة منه فى قلبى تقطعه
بمن إذا هجع النوام بت به بلوعة منه ليلى لست أهجعه
لايطمئن بجنبي مضجع وكذا لايطمئن له مذ بنت مضجعه

ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعنى به ولا أظن بى الأيام تفجعه
حتى جرى البين فيما بيننا بيد عسراء تمنعنى حظى وتمنعه
وكنت من ريب دهرى جازعا فرقا فلم أوق الذى كنت أجزعه
بالله يامنزل الأنس الذى درست آثاره وعفت مذ بنت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالى التى أمضته ترجعه
فى ذمة الله من أصبحت منزله وجادت غيث على مغناك يمرعه
من عنده لى عهد لايضيع كما عندى له عهد ود لاأضيعه
ومن يصدع قلبى ذكره وإذا جرى على قلبه ذكرى يصدعه
لأصبرن لدهر لايمتعنى به ولابى فى حال يمتعه
علما بأن اصطبارى معقب فرجا فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
عسى الليالى التى أضنت بفرقتنا جسمى ستجمعنا يوما وتجمعه
وإن تنل أحدا منا منيته فما الذى بقضاء الله يصنعه

أمكنوم عينى لاتمل من البكا وقلبى بأسهام الأسى يترشق
أمكنوم كم من عاشق فى الهوى قتل وقلبى رهين كيف لا أتعشق

فأجابته تقول :

لوكان حقا ماتقول لزرتنا ليلا إذا هجعت عيون الحسد

قال فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسورا معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان ، فلما مثلوا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجوارى ولم توافق الثالثة ورأى فى وجهها صفرة وهى الجارية الكوفية فقال للنخاسين مابال هذه الجارية لم توافق حليتها التى ذكرها الحجاج فى كتابه وماهذا الاصفرار الذى بها والاتحال ؟ فقالوا ياأمير المؤمنين نقول ولنا الأمان قال إن صدقتم أمنتم وإن كذبتم هلكتم ، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد ، فلما قدموه بين يدى أمير المؤمنين بكى بكاء شديدا وأيقن بالعذاب ، ثم أنشأ يقول :

أمير المؤمنين أتيت رغما وقد شدت إلى عنق يديا
مقرا بالقبيح وسوء فعلى ولست بما رميت به بريا
فإن تقتل ففوق القتل ذنبى وإن تعفو فمن جود عليا

فقال عبد الملك يافتى ماحملك على ماصنعت ، أاستخفاف بنا أم هوى الجارية ؟ قال وحق رأسك ياأمير المؤمنين وعظم قدرك ماهو إلاهوى الجارية فقال هى لك بما أعددته لها ، فأخذها الغلام بكل ماأعده لها أمير المؤمنين من الحلى والحلل وسار بها فرحا مسرورا إلى نحو أهله حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلا فتعانقا وناما ، فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهما فوجدوهما ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك . ومن ذلك ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومى رضى الله تعالى عنه إلى مشركى خزاعة قال خالد فأخرجنى إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس ، قال فجدبنا السير إليهم فسبق إليهم الخبر فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالا شديدا حتى تعالى النهار وطار الشرار وهاجت الفرسان وتلاحمت الأقران ، فلولا أن الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركنا الله برحمة منه فهزمناهم وقتلناهم قتلا ذريعا ولم ندع لهم فارسا إلاقتلناه ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا ، فلما هدأ القتال والنهب أمرت أصحابى بجمع السبايا لنقدم بهن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهق الحلم ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشابة جميلة ، فقلنا له ياغلام انعزل عن النساء ، فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا فوالله لقد قتل منا فى بقية نهارنا مائة رجل ، قال خالد فرأيت أصحابى قد كرهوا قتاله وتأخروا عنه ، فملك منهم جوادا وعلا على ظهره ونادى البراز ياخالد ، قال فبرزت إليه بنفسى بعد أن أنشدت شعرا ، فوالله لم يمهلنى حتى أتم شعرى بل حمل على فتطاعنا حتى تكسرت القنا وتضاربنا بالسيوف حتى تفللت فوالله لقد اقتحمت الأهوال ومارست الأبطال ، فما رأيت أشد من حملاته ولا أسرع من هجماته ، فبينما نحن نعترك إذ كبا به فرسه فصار بين قوائمه ، فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له افد نفسك بقول أشهد أن لاإله إلا الله وأن

يحكى أنه وقع فى ليلة الجمعة خامس عشر المحرّم سنة ٨٣١ هـ أن حضرت صلاة العشاء بالجامع النورى بحماة فتقدم إمامه للصلاة بعد الإقامة وكبر تكبيرة الافتتاح وقرأ دعاء الافتتاح والفاتحة ثم قرأ الم السجدة ولما أتى على آية السجدة سجد ثم أتمها إلى آخرها وركع وسجد السجدتين ، ثم قام إلى الركعة الثانية وقرأ الفاتحة ثم قرأ سورة النحل وبنى إسرائيل والكهف ومريم وجانبا من طه ، فارتج عليه فركع ثم اعتدل واقفا ثم سجد السجدتين وتشهد وسلم على رأس الركعتين .

حكى الدينورى فى المجالسة فى ترجمة أبى عبد الله سعيد بن يزيد البناجى قال سمعت أبى يقول قال : قال خالى أحمد ابن محمد بن يوسف سمعت محمد بن يوسف يقول : كان أبو عبد الله البناجى مجاب الدعوة وله آيات وكرامات بينما هو فى بعض أسفاره إما حاجا وإما غازيا على ناقة وكان فى الطريق رجل عائن قلما ينظر إلى شىء إلا أتلفه وأسقطه وكانت ناقة أبى عبد الله ناقة فارهة فقيل له احفظها من العائن فقال أبو عبد الله ليس له إلى ناقتى سبيل ، فأخبر العائن بقوله فتحين غيبة أبى عبد الله فجاء إلى رحله وعان ناقته فاضطربت وسقطت تضطرب ، فأتى عبد الله فقيل قد عان ناقتك وهى كما تراها تضطرب قال دلونى على العائن فدل عليه فقال بسم الله حبس حابس وحجر يابس وشهاب قابس رددت عين العائن عليه وعلى أحب الناس

محمدا رسول الله وأنا أردك من حيث جئت قال ياخالد ماأنصفتنى اتركنى حتى أجد من نفسى القوة قال خالد فتركته وقلت لعله أن يسلم ثم شددته وثاقا وصفدته بالحديد وأنا أبكى إشفاقا على حسن شبابه ثم أوثقته على بعير لى ، فلما علم أن لاخلاص له قال ياخالد سألتك بحق الملك إلا ماشددت ابنة عمى على ناقة أخرى إلى جانبى ، قال خالد فأخذتها وشددتها على ناقة أخرى إلى جانبه ووكلت بهما جماعة من أشدّ القوم بالقواضب والرماح ومررنا ، فلما استقامت مطاياهما جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار ويبكيان إلى آخر الليل فسمعته يذكر قصيدة يسبّ فيها الإسلام ويذكر أن لايسلم أبدا ، فأخذت السيف وضربته فرميت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحرّكتها فوجدتها ميتة ، فأبركنا الأباعر وحفرنا ودفناهما ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبلنا نحدّثه بعجيب مارأينا مع الغلام فقال لاتحدّثونى شيئا أنا أحدّثكم به ، فقلنا من أعلمك به يارسول الله قال أخبرنى جبريل عليه السلام وتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من موافقتهما وموافقة أجلهما .

ومن ذلك ماحكاه الثورى قال حدّثنى جبلة بن الأسود وما رأيت شيخا أصبح ولا أوضح منه قال : خرجت فى طلب إبل لى ضلت فما زلت فى طلبها إلى أن أظلم الظلام وخفيت الطريق فسرت أطوف وأطلب الجادّة فلا أجدها ، فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتا حسنا بعيدا وبكاء شديدا ، فشجانى حتى كدت أن أسقط عن فرسى ، فقلت لأطلبنّ الصوت ولو تلفت نفسى ، فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت واديا ، فاذا راع قد ضم غنما له إلى شجرة وهو ينشدو يترنم :

وكنت إذا ماجئت سعدى أزورها ... أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

قال فدنوت منه وسلمت عليه ، فردّ علىّ السلام وقال من الرجل ؟ فقلت منقطع به المسالك أتاك يستجير بك ويستعينك ، قال مرحبا وأهلا انزل على الرحب والسعة فعندى وطاء وطىء وطعام غير بطىء ، فنزلت ، فنزع شملته وبسطها تحتى ثم أتانى بتمر وزبد ولبن وخبز ثم قال اعذرنى فى هذا الوقت ، فقلت والله إنّ هذا لخير كثير ، فمال إلى فرسى فربطه وسقاه وعلفه ، فلما أكلت توضأت وصليت واتكأت فانى لبين النائم واليقظان إذ سمعت حس شىء وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادى فضحت الشمس حسنا فوثب قائما إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعلا يتحادثان ، فقلت هذا رجل عربىّ ولعلها حرمة له ، فتناومت ومابى نوم ، فما زالا فى أحسن حديث ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنهما لايهم أحدهما لصاحبه بقبيح ، فلما طلع الفجر عانقها وتنفسا الصعداء وبكى وبكت ، ثم قال لها ياابنة العم سألتك بالله لاتبطئى عنى كما أبطأت الليلة ، قالت ياابن العم أما علمت أنى أنتظر الواشين والرقباء حتى يناموا ، ثم ودّعته وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويبكى ، فبكيت رحمة لهما وقلت فى نفسى والله لاأنصرف حتى أستضيفه الليلة وأنظر ما يكون من أمرهما ، فلما أصبحنا قلت له جعلنى الله فداءك الأعمال بخواتيمها ، وقد نالنى أمس تعب شديد فأحب الراحة عندك اليوم ، فقال على الرحب والسعة ، لوأقمت عندى بقية عمرك ماوجدتنى إلا كما تحبّ ، ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلىّ ، فأكلت وأكل معى ، إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل

الأكل فلم أزل معه نهاري ذلك ولم أر أشفق منه على غنمه ولا ألين جانبا ولا أحلى كلاما إلا أنه كالولهان ولم أعلمه بشيء مما رأيت فلما أقبل الليل وطأت وطائي فصليت وأعلمته أني أريد الهجوع لما مرّ بي من التعب بالأمس فقال لي نم هنيئا فأظهرت النوم ولم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقا شديدا وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوي فحركني فأوهمته أني كنت نائما فقال يا أخي هل رأيت الجارية التي كانت تتعهدني وجاءتني البارحة قلت قد رأيتها قال فتلك ابنة عمي وأعز الناس عليّ وإني لها محبّ ولها عاشق وهي أيضا محبة لي أكثر من محبتي لها وقد منعني أبوها من تزويجها إليّ لفقري وفاقتي وتكبر عليّ فصرت راعيا بسببها فكانت تزورني في كلّ ليلة وقد حان وقتها الذي تأتي فيه واشتغل قلبي عليها وتحدثني نفسي أن الأسد قد افترسها ثم أنشأ يقول :

مابال مية لا تأتي كعادتها ... أعاقها طرب أم صدها شغل
نفسي فداؤك قد أحللت بي سقما ... تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل

قال ثم انطلق فغاب عني ساعة وأتى بشيء فطرحه بين يدي فإذا هي الجارية قد قتلها الأسد وأكل أعضاءها وشوه خلقتها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحه ثم أنشأ يقول :

ألا أيها الليث المدلّ بنفسه ... هلكت لقد جريت حقا لك الشرا
وخلفتني فردا وقد كنت آنسا ... وقد عادت الأيام من بعدها غبرا

ثم قال بالله يا أخي إلا ماقبلت ما أقول لك فإني أعلم أن المنية قد حضرت لامحالة فإذا أنا مت فخذ عباءتي هذه فكفني فيها وضم هذا الجسد الذي بقي منها معي وادفنا في قبر واحد وخذ شوبهاتي هذه وجعل يشير إليها فسوف تأتيك امرأة عجوز هي والدتي فأعطها عصاي هذه وثيابي وشوبهاتي وقل لها مات ولدك كمدا بالحب فإنها تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا مني السلام قال فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح صيحة ووضع يده على صدره ومات لساعته فقلت والله لأصنعن له ما أوصاني به فغسلته وكفنته في عباءته وصليت عليه ودفنته ودفنت باقي جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكيا حزينا فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهي كالولهانة فقالت لي هل رأيت شابا يرعى غنما فقلت لها نعم وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي وأنا ألاطفها إلى أن أقبل الليل ومازالت تبكي بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هي مكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك فحركتها فإذا هي ميتة فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسي وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول :

كنا على ظهرها والدهر يجمعنا ... والشمل مجتمع والدار والوطن
ففرّق الدهر بالتفريق ألفتنا ... وصار يجمعنا في بطنها الكفن

قال فأخذت الغنم ومضيت إلى الحي لبني عمهم فأعطيتهم الغنم وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحي بكاء شديدا ثم مضيت إلى أهلي وأنا متعجب مما رأيت في طريقي . ومن ذلك ما حكي أن زوج عزّة أراد أن يحج بها فسمع كثير الخبر فقال والله لأحجنّ لعلي أفوز من عزّة بنظرة قال

إليه في كليتيه رشيق وفي ماله يليق فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير فخرجت حدقة العائن وقامت الناقة لابأس بها . وله في أسماء الولائم :

وليمة أعراس وخرس ولادة
عقيقة مولود نقيعة قادم
وضيمة حزن والبناء وكيرة
عذيرة ختن مأدبات المكارم

وله أيضا في أسماء أيام العجوز على الترتيب :

بصن وصنبر ووبر معلل
بمطفئ جمر آمر نعم مؤتمر
تولت عجوز ثم أعقب بعدها
شباب ربيع زهره يانع نضر

ولغيره في أسماء خيل الحلبة :

سبق المجلي والمصلي والمسلي بعد تاليه ترى المرتاحا
وبعاطف وبفسكل وحظيه حلب اللطيم على الكميت صباحا

(لأبي العلاء المعري)

سألن فقلت مقصدنا سعيد
فكان اسم الأمير لهن فالا
إذا ما الغيم لم يمطر بلادا
فإن له على يدك اتكالا
ولو أنّ الرياح تهبّ غربا
وقلت لها هلا هبت شمالا
وأقسم لو غضبت على ثبير
لأزمع عن محله ارتحالا

(نبذة لغوية يفتقر كلّ متأدب إليها) (البلج) هو أن ينقطع الحاجبان فلا يكون بينهما تضامّ الشعر وكانت العرب تمدح البلج ويقال رجل أبلج وامرأة بلجاء (ثم العين) فجملة العين المقلة وهي الشحمة التي تجمع البياض والحدقة والناظر وهو موضع البصر وفيه الإنسان والإنسان ليس يخلق له حجم والحجم ماوجدت مسه والعين كالمرآة إذا استقبلتها

فبينما الناس فى الطواف إذ نظر كثير لعزة وقد مضت إلى جمله حيته ومسحت بين عينيه وقالت حييت ياجمل فبادر ليلحقها ففاتته فوقف على الجمل وقال :

حيتك عزة بعد الحج وانصرفت ... فحى ويحك من حياك ياجمل

لو كنت حييتها ما كنت ذا سرف ... عندي ولا مسك الإدلاج والعمل

قال فسمعه الفرزدق فتبسم وقال له من تكون يرحمك الله قال أنا كثير عزة فمن أنت يرحمك الله قال أنا الفرزدق بن غالب التميمي قال أنت القائل :

رحلت جمالهم بكل أسيلة ... تركت فؤادى هائما مخبولا

لو كنت أملكهم إذا لم يرحلوا ... حتى أودع قلبى المتبولا

ساروا بقلبى فى الحدوج وغادروا ... جسمى يعالج زفرة وعويلا

فقال الفرزدق نعم فقال كثير والله لولا أنى بالبيت الحرام لأصيحن صيحة أفزع هشام بن عبدالملك وهو على سرير ملكه فقال الفرزدق والله لأعرفن بذلك هشاما ثم تواد عا وافترقا فلما وصل الفرزدق الى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كثير فقال له اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها ونزوجه إياها فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلا رأى غرابا على بانة وهو يفلى نفسه وريشه يتساقط فاصفر لونه وارتاع من ذلك وجد فى السير ثم إنه مال ليسقى راحلته من حى بنى فهد وهم زجرة الطير فبصر به شيخ من الحى فقال يا ابن أخى أرأيت فى طريقك شيئا فراعك قال نعم ياعم رأيت غرابا على بانة يتفلى وينتف ريشه فقال له الشيخ أما الغراب فانه اغتراب والبانة بين والتفلى فرقة فازداد كثير حزنا على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجد فى السير الى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فنزل وصلى معهم فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كثير عن هذا اليوم فقال ماهذا اليوم ياسيدى فقال إن هذه عزة قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشيا عليه فلما أفاق أنشأ يقول :

فما أعرف الفهدى لادر دره ... وأزجره للطير لاعز ناصره

رأيت غرابا قد علا فوق بانة ... ينتف أعلى ريشه ويطايره

فقال غراب اغتراب من النوى ... وبانة بين من حبيب تعاشره

ثم شهق شهقة فارقت روحه الدنيا ومات من ساعته ودفن مع عزة فى يوم واحد .

وحكى الأصمعى قال بينما أنا أسير فى البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت :

أيا معشر العشاق بالله خبروا ... إذاحل عشق بالفتى كيف يصنع

فكتبت تحته : يدارى هواه ثم يكتم سره ... ويخشع فى كل الأمور ويخضع

ثم عدت فى اليوم الثانى فوجدت مكتوبا تحته :

فكيف يدارى والهوى قاتل الفتى ... وفى كل يوم قلبه يتقطع

فكتبت تحته : إذا لم يجد صبرا لكتمان سره ... فليس له شىء سوى الموت أنفع

ثم عدت فى اليوم الثالث فوجدت شابا ملقى تحت ذلك الحجر ميتا فقلت لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقد كتب قبل موته :

بشىء رأيت شخصه فيها وفيها الناظران وهما عرقان على حرف الأنف يسيلان من الموقين إلى الوجه وفيها الأجفان وهى غطاء للمقلة من أعلى وأسفل وفيها الأشفار وهى حروف الأجفان التى تلتقى عند الغمض الواحد شفر والشفر الذى ينبت فيه الهدب الواحد هدب فاذا طالت الأهداب قيل رجل أهدب وامرأة هدباء ورجل أوطف وامرأة وطفاء وكذلك أذن هدباء إذا كانت كثيرة الشعر ووطفاء والكل دليل على الطول والمحجر ماخرج من النقاب من الرجل والمرأة من الجفن الأسفل وفى العين الحماليق والواحد حملاق والحماليق النواحى وفيها اللحاظ وهى مؤخرها الذى يلى الصدغ والموق طرفها الذى يلى الأنف وهو مخرج الدمع وفى العين الحوص وهو ضيق فى مؤخرها يقال رجل أحوص وامرأة حوصاء وفيها النجل وهو سعة العين وعظم المقلة وكثرة البياض وفيها الخنس وهو ضعف فى النظر وفيها الكحل وهو سواد العين بين الحمرة والسواد والشهل أن يشوب سوادها زرقة يقال رجل أشهل وامرأة شهلاء ويقال نظر الى شزرا وذلك إذا نظر عن يمينه أو عن شماله ولم يستقبله بنظره وفى النظر الإغضاء وهو أن يطبق جفنه على حدقته فيقال رأيته مغضيا (ثم الفم) وفى الفم الثنايا والرباعيات والضواحك والارحاء والنواجذ فالضواحك أربعة أضراس تلى الأنياب إلى جنب كل ناب من أسفل الفم وأعلاه ضاحك وأما الأرحاء فهى

سمعنا

ثمانية أضراس من أسفل الفم وأعلاه وفى الأسنان الظلم ساكن وهوماء الأسنان وفى الأسنان الشنب وهو برد وعذوبة فى الفلق والفلج تباعد مابين الأسنان ، ثم اللثة وهواللحم ينبت فيه الأسنان ، وفى

اللثة اللمى وهو سمرة تضرب إلى سواد وكذلك الحوة واللهاة اللحمة الحمراء المعلقة على الحنك .

سمعنا أطعنا ثم متنا فبلغوا سلامى على من كان للوصل يمنع

وحكى أيضا عن الأصمعى رحمه الله تعالى أنه قال : بينما أنا نائم فى بعض مقابر البصرة إذ رأيت جارية على قبر تندب وتقول :

بروحى فتى أوفى البرية كلها وأقواهم فى الحب صبرا على الحب

قال فقلت لها ياجارية بم كان أوفى البرية وبم كان أقواها؟ فقالت ياهذا إنه ابن عمى هوينى فهويته فكان إن أباح عنفوه وإن كتم لاموه ، فأنشد بيتى شعر ، وما زال يكررهما إلى أن مات والله لأندبنه حتى أصير مثله فى قبر إلى جانبه . فقلت لها ياجارية فما البيتان ؟ قالت :

يقولون لى إن بحت قد غرّك الهوى وإن لم أبح بالحب قالوا تصبرا
فما لامرئ يهوى ويكتم أمره من الحب إلا أن يموت فيعذرا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت روحها الدنيا رحمة الله تعالى عليها ، والحكايات فى ذلك كثيرة وفى الكتب مشهورة ، ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا فى هذا المعنى أشياء كثيرة ، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثانى والسبعون : فى ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والحماق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول فى الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام : مرقص كقول أبى جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس :

والشمس لاتشرب خمر الندى فى الروض إلا من كؤوس الشقيق

ومطرب كقول زهير :

تراه إذا ماجئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ومقبول كقول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجه الطبع كقول ابن المعتز :

سقى المطيرة ذات الظلّ والشجر ودير عبدون هطال من المطر

ومتروك وهوما كان كلا على السمع والطبع كقول الشاعر :

تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل همّ كلهنّ قلاقل

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حسبما بوّب أبوتمام فى الحماسة . وقال عبد العزيز ابن أبى الأصبع الذى وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فنا وهى : غزل ووصف وفخر ومدح وهجاء وعتاب واعتذار وأدب وزهد وخمريات ومراث وبشارة وتهان ووعيد وتحذير وتحريض وملح وباب مفرد للسؤال والجواب ، ولنذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ماتيسر على سبيل الاختصار ، ولنبدأ من ذلك بذكر (الغزل المذكر) .

(ابن نباتة) : أأغصان بان ما أرى أم شمائل وأقمار تم مانضم الغلائل
وبيض رقاق أم جفون فواتر وسمر دقاق أم قدود قواتل
وتلك نبال أم لحاظ رواشق لها هدف منى الحشا والمقاتل

(نقلت من الجزء الثالث والعشرين من التذكرة للصفدى) أن شهاب الدين أحمد الحموى النقاش ورد إلى القاهرة سنة ٧٣٢ هـ وكتب الختمة الشريفة على خوصة من أولها إلى آخرها مفصلة الأجزاء والسور ، أخبرنى بذلك الموالى السادة الموقعون بالباب الشريف وقدمها لمولانا السلطان الملك الصالح وسألته عن مولده فقال فى سنة ٦٩٩ وله نظم رائق . عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه: عشر تورث النسيان كثرة الهمّ والحجامة فى النقرة والبول فى الماء الراكد وأكل التفاح الحامض وأكل الكسفرة وأكل سؤر الفأرة وقراءة ألواح القبور والنظر إلى المصلوب والمشى بين القطارين وإلقاء القملة حية ، والله أعلم ، هذا آخر الذيل الأول .

وهذا ذيل آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله على نعمائه والصلاة والسلام على خير أنبيائه ، فيقول العبد الفقير إلى عفومولاه الكريم محمد بن إبراهيم بن الحاج على الأحدب قد رأيت أن أذيل الثمرات بما جنيته من الثمار الدانية والفوائد العالية وبالله التوفيق . فمن ذلك مايحكى أن الصاحب بدر الدين

بروحى أفدى شادنا قد ألفته　　غدوت وبى شغل من الوجد شاغل
أمير جمال وللاح جنوده　　يجور علينا قدّه وهو عادل
له حاجب عن مقلق حجب الكرى　　وناظره الفتان فى القلب عامل
رفعت إليه قصة الدمع شاكيا　　فوقع يجرى فهو فى الخدّ سائل
شكوت فما ألوى وقلت فما صغى　　وجدّ بقلبى حبه وهو هازل
طويل التوانى دله متواتر　　مديد التجنى وافر الحسن كامل
أطارحه بالنحو يوما تعللا　　فيبدو وللإعراب فيه دلائل
ويرفع وصلى وهو مفعول فى الهوى　　وينصب هجرى عامدا وهو فاعل
تفقهت فى عشق له مثل ماغدا　　خبيرا بأحكام الخلاف يجادل
فيامالكى ماضرّ لو كنت شافعى　　بوصلك فافعل بى كما أنت فاعل
فانى حنيف الهوى متحنبل　　بعشقك لاأصغى وإن قال قائل

(كمال الدين بن النبيه) :

الله أكبر كل الحسن فى العرب　　كم تحت لمة ذا التركى من عجب
صبح الجبين بليل الشعر منعقد　　والخدّ يجمع بين الماء واللهب
تنفست عن عبير الراح ريقته　　وافترّ مبسمه الشهدىّ عن حبب
لافى العذيب ولافى بارق غزلى　　بل فى جنى فمه أو ريقه الشنب
كأنه حين يرمى عن حنيته　　بدر رمى عن هلال الأفق بالشهب
ياجاذب القوس تقريبا لوجنته　　والهائم الصب منها غير مقترب
ألبس من نكد الأيام يحرمها　　فمى ويلثمها سهم من الخشب
من لى بأغيد قاسى القلب مبتسم　　لاعن رضا معرض عنى بلا غضب
فكم له فى وجود الذنب من سبب　　وليس لى فى قيام العذر من سبب
تميل أعطافه تيها بطرّته　　كما تميل رماح الخط بالعذب
أشار نحوى وجنح الليل معتكر　　بمعصم بشعاع الكأس مختضب
بكر جلاها أبوها قبل ماجليت　　فى حجرة الدن أوفى قشرة العنب

(البها زهير) :

يعاهدنى لاخاننى ثم ينكث　　وأحلف لا كلمته ثم أحنث
* وذلك دأبى لايزال ودأبه　　فيامعشر العشاق عنا تحدثوا
أقول له صلنى يقول نعم غدا　　ويكسر جفناها ذنابى ويعبث
وماضرّ بعض الناس لو كان زارنى　　وكنا خلونا ساعة نتحدث
أمولاى إنى فى هواك معذب　　وحتام أبقى فى الغرام وأمكث
فخذ مرة روحى ترحنى ولاأرى　　أموت مرارا فى النهار وأبعث
فانى لهذا الضيم منك لحامل　　ومنتظر لطفا من الله يحدث
أعيذك من هذا الجفاء الذى بدا　　خلائقك الحسنى أرقّ وأدمث
تردد ظنّ الناس فىّ فأكثروا　　أحاديث فيها مايطيب ويخبث

وزير الجن كان له أخ بديع الجمال وكان شديد الحرص عليه فأتى له بشيخ ذى دين وعفة وهيبة وعقل ليعلمه ، فأسكنه فى منزل قريب منه ، فأقام على ذلك مدة (١٩٤) ثم إن الشيخ امتحن بمحبة ذلك الشاب وقوى غرامه فيه فشكا يوما له حاله فقال له ماحيلتى وأنا لاأستطيع مفارقة أخى لاليلا ولانهارا ، أما الليل فإن سريرى بجانب سريره وأما النهار فكما ترى تلازمنا فقال الشيخ إن منزلى ملاصق لداركم فيمكن إذا غمضت عين أخيك أن تقوم لتستعمل ماء فتأتى إلى الحائط وأنا أتناولك من وراء الجدار فتجلس عندى لحظة لطيفة من غير أن يشعر أخوك بشىء فقال السمع والطاعة وتواعدا على ليلة فهيأ له الشيخ من التحف والطرف مايليق بمقامه فلما نام الصاحب واستغرق فى النوم وأمن انتباهه قام الشاب ومشى خطوات وفتح بابا يتوصل منه إلى الحائط فوجد شيخه واقفا ينتظره فتناوله وصار عنده فى المنزل وكانت ليلة البدر وتنادما ودارت بينهما كؤوس الشراب ممزوجة ببرد الرضاب وانتشى الشيخ وأخذ فى الغناء وقد رمى القمر جرمه عليهما وانتبه الصاحب فلم يجد أخاه فقام فزعا مرعوبا ووجد الباب الذى استطرق منه أخوه مفتوحا فقال من ههنا جاء الشرّ فدخل منه وصعد الحائط فوجد نورا ساطعا من البيت ونظر فرآهما على هذه الحالة والكأس بيد الشيخ ، وهو ينشد بأحسن صوت : وقد

سقانى خمرة من ريق فيه　　وحيا بالعذار وما يليه

وبات معانقا خدّا بخدّ　　غزال فى الأنام بلا شبيه　　وبات البدر مطلعا علينا　　سلوه لاينمّ على أخيه
فكان من لطافة الصاحب أن قال : والله لانمّ عليكما وتركهما وانصرف انتهى.

وقد كرمت فى الحبّ منى شمائل　　ويسأل عنى من أراد ويبحث

(النابلسى) :

ما كنت أعلم والضمائر تصدق　　أنّ المسامع كالنواظر تعشق
حتى سمعت بذكركم فهويتكم　　وكذاك أسباب المحبة تعلق
ولقد قنعت من اللقاء بساعة　　إن لم يكن لى للدّوام تطرّق
قد ينعش العطشان بلّة ريقه　　وينصّ بالماء الكثير ويشرق
فعسى عيونى أن ترى لك سيدى　　وجها يكاد الحسن فيه ينطق

(أبو الحسن الجزار) :

فى خدّه من بقايا النمّ تخميش　　وبى التشويش ذاك الصدغ تشويش
ظبى من الترك أغنته لواحظه　　عما حوته من النبل التراكيش
إذا تثنّى فقلب الغصن منكسر　　وإن تبدّى فطرف البدر مدهوش
ياعاذلى إن تكن عن حسن صورته　　أعمى فإنى عما قلت أطروش
كم ليلة بات يسقينى المدام على　　روض له بثياب الغيم ترقيش
والغيث كالجيش يرتجّ الوجود له　　والبرق رايته والرعد جاويش
فى مجلس ضحكت أرجاؤه طلبا　　لأنه ببديع الزهد مفروش

(سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء) :

ترى متى من فتور اللحظ ينتشط　　من قلبه بحبال الشعر مرتبط
قد رقّ لى خصره المضنى فناسبنى　　فقلت خير الأمور الأنسب الوسط
وقد خفى الردف عنى من تثاقله　　فقلت هذا على ضعفى هو الشطط
وصدره الرحب قد عانقته سحرا　　والقلب منبعث الآمال منبسط
وفيه تلك النهود المشتهاة ترى　　رمانها فيه قلبى أمره فرط
إنّ الصواب لتعجيل السرور فقم　　قبل الفوات فأوقات المنا غلط

(القاضى مجد الدين بن مكانس) :

أهدى تحيته وجاد بوعده　　أفديه من قمر بدا فى سعده
بدر جرى ماء الحياة بثغره　　وتردّدت فضلاته فى خدّه
أسكنته قلبى فأوقد خدّه　　نيران أحشائى عليه ووجده
من لى به حلو الشمائل أهيف　　روت العوالى عن مثقف قدّه
ياعاذلى فى حبه لو أبصرت　　عيناك فوق الردف مسبل جعده
لعذرت كلّ متيم فى حبه　　وعلمت أن ضلاله فى رشده
فوحقّ موتى فى هواه صبابة　　وحياة مبسمه الشهىّ وبرده
ماجاد غيث الدمع إلا عن هوى　　خلع القلوب ببرقه وبرعده
قم يارسول وأبلغ العشاق ما　　ألقاه من جور الحبيب وبعده
وإذا سألتك أن تؤدّى فى الهوى　　خبرى فصف فعل الغرام وأبده

(عزّ الدين الموصلى) : والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها فى ديوانه .

ومن بديع ذلك ماحكاه ابن خلكان فى تاريخه فى ترجمة شرف الدين المعروف بابن المستوفى . قال : قد وصل إلى أربل بعض الشعراء، وهو الشريف عبد الرحمن ابن أبى الحسين بن عيسى ابن على بن يعرب فى سنة ثمان وعشرين وستمائة وشرف الدّين يومئذ وزير فسيّر له مثلوما على يد شخص كان فى خدمته يقال له الكمال بن الشعار الموصلى صاحب التاريخ والمثلوم عبارة عن دينار يقطع منه قطعة صغيرة وقد جرت عادتهم فى العراق وتلك البلاد أن يفعلوا مثل هذا لأنهم يتعاملون بالقطع الصغار ويسمونها القراضة ويتعاملون أيضا بالمثلوم وهذا كثير الوجود بأيديهم فجاء الكمال إلى ذلك الشاعر وقال له : الصاحب يقول لك أنفق الساعة هذا حتى يجهزلك شيئا فتوهم الشاعر أن الكمال يكون قد قرض القطعة من الدينار وأن شرف الدين ماسيره إلا كاملا وقصد استعلام الحال من جهة شرف الدين فكتب إليه :

ياأيها المولى الوزير ومن به　　فى الجود حقا تضرب الأمثال　　أرسلت بدرالتمّ عند كماله　　حسنا فوافى العبد وهو هلال
ماغاله النقصان إلا أنه　　بلغ الكمال كذلك الآجال. فأعجب شرف الدين بهذا المعنى وحسن الاتفاق وأجاز الشاعر وأحسن إليه له

ومنه ماحكى أن إبراهيم بن سهل الأشبيلى كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه حتى إنه مدح النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وكان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم

وكان يحبّ يهوديا اسمه موسى وأكثر شعره فيه ، فلما أسلم أحبّ شابا اسمه محمد وترك هوى اليهودى فقيل له فى ذلك فأنشد :

تركت هوى موسى بحب محمد ... هديت ولولا الله ما كنت أهتدى
وما عن قلى تركت هواه وإنما ... شريعة موسى عطلت بمحمد

وكان إبراهيم هذا شاعرا مجيدا اتفق له فى صباه أن الهيثم نظم قصيدة مدح بها المتوكل على الله ابن يوسف بن هود ملك الأندلس وقد كانت أعلامه سودا لأنه كان بايع الخليفة ببغداد فأرسل إليه بالتولية والألوية والنيابة ولا يعلم أحد من ملوك الأندلس قبله ولا بعده بايع بنى العباس قط فوقف إبراهيم بن سهل والهيثم ينشد قصيدته لبعض أصحابه فقال إبراهيم للهيثم زد بين البيت الفلانى والبيت الفلانى :

أعلامه السود أعلام بسودده ... كأنهن بخدّ الملك خيلان

فقال الهيثم أهذا البيت شىء ترويه أم نظمته ؟

نفس عن الحبّ ما أغفت وما غفلت ... بأىّ ذنب وقاك الله قد قتلت
دعها ومدمعها الجارى لقد لقيت ... ماقدّمت من أسى قلبى وما عملت
أفديك من ناشط الأجفان فى تلق ... والسحر يوهم طرفى أنها كسلت
وأوضح الحسن لو شامت ذوائبه ... فى الأفق وصل دجا الظلماء لاتصلت
معسول بنعاس فى لواحظه ... أما تراها إلى كلّ القلوب حلت
من لى بألحاظ ظبى يدّعى كسلا ... وكم ثياب ضنى حاكت وكم غزلت
وحمرة فوق خدّيه ومرشفه ... هذى محاسنها تزهو وذى ذبلت
أما كفانى تكحيل الجفون أسى ... حتى المراشف منه باللمى كحلت
أستودع الله أعطافا شوت كبدى ... وكلما رمت تجديد الوصال قلت
ومهجة لى كم ألقت بمسمعها ... إلى السلام ولا والله ماقبلت

(غيره للفاضل) :

شرخ الشباب بحبكم أفنيته ... والعمر فى كاف بكم قضيته
وأنا الذى لو مرّ بى من نحوكم ... داع وكنت بحفرتى لبيته
كيف التعرّض للسلوّ وحبكم ... حبّ بأيام الشباب شربته
لله داء فى الفؤاد أجنه ... يزداد نكسا كلما داويته
قالوا حبيبك فى التجنى مسرف ... قاس على العشاق قلت فديته
أأروم من كلفى عليه تخلصا ... لا والذى بطحاء مكة بيته
ولو استطعت بكلّ إسم فى الورى ... من لذّة الذكرى به سميته

(وللشيخ بدر الدين الدماميني) :

سلّ سيفا من الجفون صقيلا ... مذ تصدّى جلاه رحت قتيلا
صحّ عن جفنه حديث فتور ... وهو مازال من قديم عليلا
من أبدى لنا من الخصر ردفا ... فأرانا مع الخفيف ثقيلا
ذو قوام كأنه الغصن لكن ... بالهوى نحو وصلنا لن يميلا
كامل الحسن وافر ظلّ وجدى ... فيه ياعاذلى مديدا طويلا
فاتك الجفن ذو جمال كثير ... ألف العاشقين إلا قليلا
قلت إذ لاح طرفه ولماه ... فاتر اللحظ بكرة وأصيلا
كيف حالى وهل لصبّ إليه ... من سبيل فقال لى سل سبيلا

وقال آخر :

لو أن قلبك لى يرقّ ويرحم ... مابتّ من ألم الجوى أتألم
ومن العجائب أننى لاسهم لى ... من ناظريك وفى فؤادى أسهم
ياجامع الضدّين فى وجناته ... ماء يرقّ عليه نار تضرم
عجبى لطرفك وهو ماض لم يزل ... فعلام يكسر عند ماتتكلم
ومن المروءة أن تواصل مدنفا ... والدهر سمح والحوادث نوم

وقال آخر :

تصدّق بوعد إنّ دمعى سائل ... وزوّد فؤادى نظرة فهو راحل

فقال بل نظمته الساعة ، فقال الهيثم : إن عاش هذا الغلام فسيكون أشعر أهل الأندلس .

ومنه ما اتفق سنة ثمان وستمائة أن الملك المعظم عيسى سار إلى أخيه الملك الأشرف فاستعظمه على أخيه الكامل محمد

غفدك

وكان فى نفسه موجدة عليه فأزالها وسارا جميعا نحو الديار المصرية لمعاونة الكامل على الإفرنج الذين قد أخذوا دمياط واستحكم أمرهم هناك من سنة أربع عشرة بعد حروب كثيرة يطول شرحها حتى

عرض عليهم فى بعضها أن يردّ عليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه فى الساحل ويتركوا دمياط فامتنعوا من ذلك فقدر الله سبحانه وتعالى أن قدمت عليهم مراكب فيها ميرة لهم فأخذتها مراكب المسلمين وأرسلت من أراضى دمياط المياه من كل ناحية فلم يمكن الإفرنج أن ينصرفوا بأنفسهم وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطرّوهم إلى أضيق الأماكن فعند ذلك أنابوا إلى المصالحة من غير مفاوضة فجاء مقدمهم إلى الملك الكامل وعنده أخواه المذكوران وكانا قائمين بين يديه وكان يوما مشهورا وأمرا محمودا فوقع الصلح على ما أراد الكامل محمد وملوك الإفرنج والعساكر كلها واقفة بحضرته ومد سماطا عظيما اجتمع عليه المؤمن والكافر والبرّ والفاجر فقام الحلى الشاعر وأنشد :

هنيئا فإن السعد راح مخلدا ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحا بدا لنا ... مبينا وإنعاما وعزا مؤيدا
تهلل وجه الأرض بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الط ... غاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام بهذا الدين من سل عزمه ... صقيلا كما سلّ الحسام مجرّدا

خدك موجود به التبر دائما ... وحسنك معدوم لديه المماثل
أياقمرا من شمس طلعة وجهه ... وظل عذاريه الدجا والأصائل
تنقلت من طرف لقلب مع الهوى ... وهاتيك للبدر المنير منازل
جعلتك للتمييز نصبا لخاطرى ... فهلا رفعت الهجر والهجر فاعل

وقال ابن صابر :

قبلت وجنته فألفت جيده ... خجلا ومال بعطفه المياس
فانهلّ من خديه فوق عذاره ... عرق يحاكى الطل فوق الآس
فكأننى استقطرت ورد خدوده ... بتصاعد الزفرات من أنفاسى

وقال آخر : وغزال كلّ من شبهه ... بهلال أو ببدر ظلمه
قال إذا قبلت وهما فمه ... قد تعديت وأسرفت فمه

وقال آخر : بأبى غلام لست غير غلامه ... مذ جاد لى بسلامه وكلامه
ذو حاجب ما إن رأيت كنونه ... أبدا وصدغ ما رأيت كلامه

وقال جمال الدين بن مطروح :

ذكر الحمى فصبا وكان قد ارعوى ... صب على عرش الغرام قد استوى
تجرى مدامعه ويخفق قلبه ... مهما جرى ذكر العقيق مع اللوى
وإذا تألق بارق من بارق ... فهناك ينشر من هواه ما انطوى
خذوا أحاديث الهوى عن صادق ... ما ضل فى شرع الغرام وما غوى
وبمهجتى رشأ أطالت عذّلى ... فيه الملام وقد حوى ما قد حوى
قالوا أفيه سوى رشاقة قدّه ... وفتور عينيه وهل موتى سوى
ما أبصرته الشمس إلا واكتست ... خجلا ولا غصن النقا إلا التوى
يروى الأراك محاسنا عن ثغره ... يا طيب ما نقل الأراك وما روى

وقال آخر : عبث النسيم بقده فتأوّدا ... وسرى الحياء بخده فتورّدا
رشأ تفرّد فيه قلبى بالهوى ... لما غدا بجماله متفرّدا
قاسوه بالغصن الرطيب جهالة ... تالله قد ظلم المشبه واعتدى
حسن الغصون إذا اكتست أوراقها ... وتراه أحسن ما يكون مجرّدا

وقال غيره :

يا حسنا مالك لم تحسن ... إلى قلوب فى الهوى متعبه ... رقمت بالورد وبالسوسن
صفحة خد بالسنا مذهبه ... وقد أبى خدك أن أجتنى ... منه وقد ألسعنى عقربه
يا حسنه إذ قال ما أحسنى ... ويا لذاك اللفظ ما أعذبه ... قلت له كلك عندى سنا
وكلّ ألفاظك مستعذبه ... ففوّق السهم ولم يخطنى ... ومذ رآنى ميتا أعجبه

وقال : كم من عاشق حبنى ... وحبه إياى قد أتعبه
يرحمه الله على أننى ... قتلى له لم أدر ما أوجبه

وقال آخر : مليح يغار الغصن عند اهتزازه ... ويخجل بدر التمّ عند شروقه

فلم ينج إلا كل شلو مجدل ثوى منهم أو من تراه مقيدا وناديلسان الكون في الأرض رافعا عقيرته في الخافقين مشيدا
أعباد عيسى إن عيسى وقومه وموسى جميعا يخدمون محمدا قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة بلغنى

أنه وقت الإنشاد أشار عندقوله عيسى إلى المعظم وعند قوله موسى إلى الأشرف وعند قوله محمد إلى الكامل وهذا من أحسن الاتفاق انتهى . ومنه ما حكى عن جمال الدين كاتب سر الملك المعظم عيسى أنه كان بينه و بين السلطان مداعبة ومنادمة فاتفق أنه حضر فى بعض الليالى عنده فلما رجع إلى منزله قالت له زوجته أين إنعام السلطان فقال ماأنعم على الليلة بشيء فقالت أنا أعوض عنه وقامت إليه هى وجواريها فى الحال وتناولته بالخفاف الثقال إلى أن ألانت أعطافه وأدارت فى حالة الصفع سلافه فكتب للمعظم رقعة فى ذلك منها :

وتخالفت بيض الأكف كأنها الـ
صفيق عند مجالس الأعراس
وتتابعت سود الخفاف كأنها
وقع المطارق من يدى نحاس

وقال أجب عنها فأجابه بما فى آخره :

فما فيه معنى ناقص غير خصره وما فيه شيء بارد غير ريقه

وقال يحيى بن أكثم :

دنا هاجرى نحوى بمقلته الكحلا فلما رأى ذلى ثنى عطفه دلا
فتيمنى شوقا وأعلنى أسى وأفقدنى صبرا وأعدمنى عقلا
شكوت فما ألوى وولى وما لوى وأعرض مزورا فسل الحشا سلا
إذا ما دعاه فرط سقمى لزورة يناديه فرط العجب من عطفه كلا

وقال أيضا :

بأبى غزالا غازلته مقلتى بين العذيب و بين شطى بارق
وسألت منه زورة تشفى الجوى فأجابنى عنها بوعد صادق
بتنا ونحن من الدجا فى خيمة ومن النجوم الزهر تحت سرادق
عاطيته والليل يسحب ذيله صهباء كالمسك الذكى لناشق
وضممته ضم الكمى لسيفه وذؤابتاه حمائل فى عاتق
حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته عنى وكان معانقى
أبعدته عن أضلع تشتاقه كى لاينام على فراش خافق
لما رأيت الليل آخر عمره قد شاب فى لمم له ومفارق
ودعت من أهوى وقلت تأسفا صعب على بأن أراك مفارق

وقال ابن نباتة:

بدا ورنت لواحظه دلالا فما أبهى الغزالة والغزالا
وأسفر عن سنا قمر منير ولكن قد وجدت به الضلالا
صقيل الخد أبصر من رآه سواد العين فيه فخال خالا
وممنوع الوصال إذا تبدى وجدت له من الألفاظ لالا
عجبت لثغره البسام أبدى لنا درا وقد سكن الزلالا
شهدت بشهد ريقته لأنى رأيت على سوالفه نمالا
فياعجبا لحسن قد حواه وقد أهدى إلى قلبى الوبالا
سأشكو الحسن مابقيت حياتى وأشكو من صنائعه الجمالا

(القاضى فخر الدين بن مكانس) :

ياغصنا فى الرياض مالا حملتنى فى هواك مالا
ياراشا بعد أن سبانى حسبك رب السما تعالى

وله أيضا :

أجارك الله قد رثت لى بما ألاقى عدا وحسد
وعاذلى مذ رأى ضناى تمد سقما بكى وعدد

(ابن رفاعة):

يقولون هل من الحبيب بزورة ومناكم المطلوب قلنا لهم منا
فقالوا لنا غوصوا على قده وما يحاكى إذا ما اهتز قلنا لهم غصنا

(الشيخ برهان الدين القيراطى) :

وورد خد نرجسى لواحظ مشايخ علم السحر عن لحظه رووا
وواوات صدغيه حكين عقاربا من المسك فوق الجلنار قد التووا
ووجنته الحمرا تلوح بجمرة عليها قلوب العاشقين قدا كتووا
وودى له باق ولست بسامع لقول حسود والعواذل إذ عووا

فاصبر على أخفافهن ولاتكن متخلقا إلا بخلق الناس وواقه
واعلم إن اختلفت عليك بأنه مالى وقوفك ساعة من باس وضمنه أبو جعفر الأندلسى فقال :

ومورّد الوجنات دب عذاره فكأنه خطّ على قرطاس لما رأيت عذاره مستعجلا قد رام يخف الورد منه بآس
ناديته قف كي أودع ورده ما في وقوفك ساعة من باس ومن البديع ما يحكى أن الشيخ بن كثير

ووالله ما أسلو ولو صرت رمة — فكيف وأحشائي على حبه انطووا

والشيخ برهان الدين القيراطي أيضا :

شبه السيف والسنان بعيني — من لقتلي بين الأنام استحلا
فأبى السيف والسنان وقالا — حدنا دون ذاك حاشى وكلا

وله أيضا : بأبي أهيف المعاطف لدن — حد الأسمر المثقف قده
ذو جفون مذ رمت منها كلاما — كلمتني سيوفهن بحده

وقال آخر : تملك رقي شادن قد هويته — من الهند معسول اللمى أهيف القد
أقول لصحبي حين يرنو بطرفه — خذوا حذركم قد سل صارمه الهندي

(ومما قيل في الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديري) :

خيال سلمى عن الأجفان لم يغب — وطيفها عن عياني غير محتجب
وذكرها أنس روحي وهي نائية — والقلب ما زال عنها غير منقلب
لم أصغ فيها للاح راح يعذلني — ولا لواش خليّ بات يلعب بي
عذابها في الهوى عذب ألذّ به — ومرّ هجرانها أحلى من الضرب
فإن نأت أودنت وجدي كما علمت — تشيب فيه الليالي وهو لم يشب
دعها فأمر هوى المحبوب متبع — وغير طاعته في الحب لم يجب

وقال عفا الله عنه :

سقى طللا حلته سلمى معاهد — وحياه من دمعي مذاب وجامد
فربع به سلمى مصيف ومربع — وأرض نأت عنها قفار جلامد
وحيث ثوت أرضا فأعذب مورد — ولو كدرت منها عليّ الموارد
رعى الله دهرا سالمتني صروفه — وظلت لياليه بسلمى تساعد
وقد غفل الواشون عني ولم أزل — ويقظان طرف البين عني راقد
وأيامنا بالقرب بيض أزاهر — وأوقاتنا بالوصل خضر أمالد
وأرواحنا ممزوجة وقلوبنا — ونحن كأنا في الحقيقة واحد
وكم قد مرحنا في مروج صبابة — ولم يطرد فينا من البين طارد
تجرّ ذيول اللهو في قمص الهوى — تلوح علينا للغرام شواهد
ولم يخطر التفريق منا بخاطر — ولم تحسب الأيام فينا تعاند
فهل أنت ياسلمى وقد حكم الهوى — كما كنت لي أم حاد بالقلب حائد
وهل ودّنا باق وإلا تغيرت — على عادة الأيام منك العوائد
وهل محيت آثار رسم حديثنا — وأنساك حفظ الودّ هذا التباعد
وهل تذكرين العهد إذ نحن باللوى — وقولك لاعاش الخئون المعاهد
وهل أنت غيرت الذي أنا حافظ — وهل أنت أحللت الذي أنا عاقد
وهل بدلت منك المودّة بالجفا — وفيك يقيني بالوفا منك شاهد
وإني ما بدلت عهدك في الهوى — ولا اختلفت فيما علمت العوائد

صاحب التاريخ كان له صفة على باب داره يجلس ويطالع فيها استئناسا بالمارة لسآمة الوحدة وإلى جواره جار له رثّ الثياب وكان إذا رأى الشيخ جالسا على الصفة يجيء ويركب أكتافه فتفوح منه رائحة فيتأذى منها ويستحي أن يصرفه فاشتد غيظه يوما فقال له يا شيخ أما تستحي كلما تراني جالسا تجيء تركب أكتافي وأنت لست تعرف ما أطالعه ولا لك شعور به فلما أخجله بهذا التعنيف قال له يا سيدي الشيخ ماهذا الذي تطالع فيه من العلوم فقال شيء في الاقتباس فقال له أنشدني منه شيئا ففكر ابن كثير ساعة واقتبس في مطابقة الحال وقال :

كيد حسردي وهنا — ولي سرور وهنا
الحمد لله الذي — أذهب عنا الحزنا

فلما فرغ من إنشاده قال له هذا الذي أفكرت فيه وتتكثر به اسمع ما أقول فأنشد ارتجالا من غير وقفة :

قلبي إلى الرشد يسير — وعنده النظم يسير
الحمد لله الذي — فضلنا على كثير

فقام الشيخ له إجلالا وأجلسه واعتذر له وقال له إياك أن تزدري بأحد فإن مواهب الله تعالى في الصدور لا في الثياب اهـ . ومن اللطائف ما حكي أن بعض الملوك حاصر ملكا وأطال

فى حصاره ، فلما اشتدت به المحاصرة استدعى بوزرائه فقال مأترون وقد تأخرت بنا هذه الحال هل نسلمه أم نخرج عليه ليلا ويفعل الله بنا مايشاء فقال بعض وزرائه : قد بدى لى رأى أرى أنهم ينصرفون به عنا من غير قتال ، فقال ماهو ؟ قال يجمع مولاى مافى خزائنه من الذهب ويحضره ، فلما أحضره استدعى بالصياغ وأمرهم أن يصوغوه جميعه سهاما زنة كل سهم قدر معلوم فعملت على الأمر المذكور فكتب الوزير على كل نصل سطرين ثم أمر أن تركب السهام ، فلما ركبت أمر حاشية الملك بأن يأخذ كل واحد سهما وأمرهم أن يرموها عن قوس واحد على العسكر المحاط بهم فتلألأ لمعان نصالها حتى أدهش العيون فأمر الملك أن تجمع فلما جمعت بين يديه أمر أن يقرأ ماعليها فاذا هو مكتوب :

ومن جوده يرمى العفاة بأسهم
من الذهب الإبريز صيغت نصولها
لينفقها مجروحها فى دوائه
ويشترى الأكفان منها قتيلها

فلما سمع ذلك أمر بالرحيل من ساعته وقال مثل هذا لايحاصر ولا يقاتل .

ومن ذلك مايحكى أن الشيخ شمس الدين المعروف بالدجوى رحمه الله تعالى كان يتعشق مليحا فرآه بعد مدة وهو يتوجع من دمل طلعت فى دبره ، فسأله . فقال دمل فى ذلك المحل فضحك الشيخ ضحكا شديدا وقال مارأيت أعجب من هذا الدمل ، فقال له الشاب ولم ؟ قال الدمامل تطلع

ولا بت مسرورا وعيشك ليلة   وكيف سلوى والحبيب مباعد
فان كنت حبل الود صرمت طرفه   فودى طريف فى هواك وتالد
وإن قلت إن الحب غيره النوى   لعمرى وجدى بالحشاشة واقد
وإن أوردوا يوما صبابة عاشق   فبى يضرب الأمثال من هو وارد
فما شئت كونى إننى بك مدنف   صبور على البلوى شكور وحامد
ومنك تساوى عندى الوصل والجفا   وفيك لقد هانت على الشدائد
ولو رمت ألوى عن هواك أعنتى   لقاد زمامى نحو حبك قائد
نصبت شراك الحب صدت حشاشتى   فكيف خلاصى والهوى منك صائد
بعدت وقالت البين يسلى أخا الهوى   وهل يسلى ذا الأشجان هذا التباعد
وماغير التفريق ماتمهدينه   وسوق سلوى فى المحبين كاسد
وجل مناى القرب منك وإنما   إذا عظم المطلوب قل المساعد

وقال عفا الله عنه :

تهددنى بتبريح وبين   وتوعدنى بتفريق وصد   وتحلف لى لتلبسنى سقاما
تهى جلدى به وتذيب جلدى   وترمينى بنبل من جفون   فتضنينى وتصمينى وتردى
وتحرقنى بنار الصد حتى   تذيب حشاشتى كمدا وكبدى   نقلت لها ودمعى فى انسكاب
يفيض دما على صفحات خدى   ومن لى أن يقال قتيل وجد   وأذكر فى هواك ولو بصدى

وقال عفا الله عنه :

سلوى عنك شىء ليس يروى   وحبى فيك سار مع الركاب   ولم يمرر سواك على ضميرى
ووجدى فيك أيسره عذابى   ومالك عن سواد العين يوما   وما لسواد قلبى من حجاب
وما اخضرت دواعى الشوق إلا   هززت إليك أجنحة التصابى

وقال عفا الله عنه :

قفا نبك دارا شط عنا مزارها   وأعلنا بعد البعاد ادكارها
وعوجا بأطلال محتها يد النوى   فأظلم بالنأى المشت نهارها
فقدنا بها ريما من الإنس إن رنت   بمقلتها يصمى القلوب احورارها
تصيد قلوب العاشقين أنيسة   ويحسن منها صدها ونفارها
ويهزأ بالأغصان لين قوامها   إذا مال فوق الغصن منها خمارها
وليس لبدر التم قامة قدها   وما هو إلا حجلها وسوارها
منازلها منى الفؤاد وإن نأى   عن العين مثواها ففى القلب دارها
يمثلها بالوهم فكرى لناظرى   وأكثر مايضنى النفوس افتكارها
وهيج دمعى حر نار صبابتى   وماخمدت بالدمع منى نارها
وساعدنى بالأيك ليلا حمائم   تهاتف شجوا لايقر قرارها
بكين ولم تسفح لهن مدامع   وعينى فاضت بالدموع بحارها

ولمؤلفه

فى أضيق المواضع وهذا على غير القياس جاء فى أوسع المواضع ، فتبسم الشاب خجلا ومضى انتهى .

لطيفة : يحكى أن نقيب الأشراف ببغداد كان يهوى غلاما اسمه صدقة ، فأخذه ابن المنير الطرابلسى يوما وأضافه وجلس فى طبقة له فذهب إليهم على خفية وقال :

يامن هم فى الطبقه
هل عندكم من شفقه
لسائل متيم
يطلب منكم صدقه

فأجابه ابن المنير ارتجالا فى الحال بقوله :

يامن أتانا سرقه
بمهجة محترقه
جدك ياذا لم يجز
أخذك منا صدقه

فخجل الشريف وذهب انتهى .

ومن المستعذب مايحكى عن الفضل قال : دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد وعنده جاريته مارية وكانت تحسن الشعر والأدب مع الحسن والجمال فقال يافضل قل فى هذا الورد فأنشدته بديها :

كأنه فم محبوب يقبله
فم الحبيب وقد أبدى به خجلا

فقال الرشيد ماتقولين يامارية ؟ فأنشدته :

كأنه لون خدى حين تدفعنى
كف الرشيد لأمر يوجب الغسلا

فقال الرشيد قم يافضل فقد هيجتنى هذه الماجنة فقمت وقد أرخيت الستور انتهى . ومن الغايات التى لاتدرك ماحكاه الشريف المقرى فى شرح بديعته أن صائغا نصرانيا اسمه نجم صاغ خاتما لبعض أولاد وزراء

ولمؤلفه رحمه الله تعالى وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من إفضاله ستر مايراه من عيوبه وأن يدعو له بمغفرة ذنوبه :

نسيم الصبا بلغ سليمى رسائلى … بلطف وقل عن حال صبك سائلى
فقد صار بالأسقام صبا معذبا … قريح جفون من دموع هوامل
صبورا على حر الغرام وبرده … حليف الضنى لم يصغ يوما لعاذل
يبيت على جمر الغضى متقلبا … يئن غراما فارحميه وواصلى
ألا ياسليمى قد أضر بى الهوى … وهاجت بتبريح الغرام بلابلى
رميت بسهم من لحاظك قاتل … فلم يخط قلبى والحشا ومقاتلى
كتمت غرامى فى هواك ولم أبح … بسر فباحت أدمعى برسائلى
سليمى سلى ماقد جرى لى من النوى … فقد عاد لى حال له رق عاذلى
لعل تجودى للكئيب وتسمحى … بوعد وبعد الوعد إن شئت ماطلى
عسى تنطفى بالوعد نارى وأشتفى … فبالسقم أعضائى وهت ومفاصلى
خفيت عن العواد لولا تأوهى … وعظم أنينى لايرانى سائلى
فرق فقد رقت عداى لذلتى … وفاضت على حالى عيون عواذلى
قطعت زمانى فى عسى ولعلها … ومافزت فى الأيام منك بطائل
فما آن أن ترضى على وترحمى … ضنى جسدى فالوجد لاشك قاتلى
توسلت بالمختار فى جمع شملنا … نبى له فضل على كل فاضل

وله رحمه الله تعالى :

ياربة الحسن من بالصد أوصاك … حتى قتلت بفرط الهجر مضناك
ويافتاة بخثان القوام سبت … من فى الورى ياترى بالقتل أفتاك
لقد جننت غراما مذ رأى نظرى … فى النوم طيف خيال من محياك
ومذ رآه جفا طيب المنام وقد … أضحى عليلا حزينا لم يزل باكى
عذبتنى بالتجنى وهو يعذب لى … فهل ترى تسمحى يوما برؤياك
إن كنت لم تذكرينا بعد فرقتنا … فالله يعلم أنا مانسيناكى *
ما آن أن تعطفى جودا على فقد … أضحى فؤادى أسيرا لحظ عيناكى
ما كنت أحسب أن العشق فيه ضنى … ولا عذاب نفوس قبل أهواكى
حتى تولع قلبى بالغرام فما … أمسى أسيرا سوى فى حسن معناكى
رقى لعبدك جودا واعطفى وذرى … ولا تطيلى بحق الله جفواكى
ياهند رفقا بقلب ذاب فيك أسى … ومهجة تلفت ياهند ماأقساكى
رق العذول لحالى فى الهوى ورثى … وأنت ياهند لاترثى لمضناكى
والله لومت ماأسلاك يأملى … ولو فنيت غراما لست أنساكى

وقال آخر :

كأن فؤادى يوم سرت دليل … يسير أمام العيس وهو ذليل

بيت المقدس وكان اسمه يحيى فنقش عليه نجم عشق يحيى ودفعه له ، فلما قرأه طاش عقله وامتلأ غيظا وذهب إلى أبيه وقال له اقرأ ماعلى هذا الخاتم ، فلما قرأه

حصل فى نفسه تأثير فأرسل خلفه وعقد مجلسا لدى القاضى وأراد قتله ، فلما حضر أعلم بذلك فقال ماذنبى وأنتم تروون عن نبيكم « من قتل ذمّيا كنت خصمه يوم القيامة » فقيل له أوتتكلم وخطك يشهد عليك كيف تكتب نجم عشق يحيى فقال والله ما كتبت إلا ماتتبركون به فى كتابكم فكتبت بجم عسق يحيى ، فطرب المجلس بذلك واستحسنوا ذكاءه وأشاروا عليه بالإسلام فهذا من الاتفاق العجيب انتهى .

ومثل ذلك قول أبى نواس يهجو خالصة جارية الرشيد :

لقد ضاع شعرى على بابكم
كما ضاع درّ على خالصه

فلما بلغ الرشيد أنكر عليه وهدده فقال لم أقل إلا ضاء فاستحسن مواربته وقال بعض من حضر هذا البيت قلعت عينه فأبصر اه .

حكى عن أبى العيناء أنه قال رأيت جارية مع النخاس وهى تحلف أن لاترجع لمولاها فسألتها عن ذلك فقالت ياسيدى إنه يواقعنى من قيام ويصلى من قعود ويشتمنى بإعراب ويلحن فى القرآن ويصوم الخميس والاثنين ويفطر رمضان ويصلى الضحى ويترك الفرض ، فقلت لا أكثر الله مثله فى المسلمين اه .

خليل

وقيل زنى رجل بجارية فأحبلها فقيل له ياعدوّ الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت قال قد بلغنى أن العزل مكروه قالوا فما بلغك أن الزنا حرام

فسرت عقيب الظاعنين لكى أرى ... فؤادى سرى فى الركب وهو عجول
وقائلة لى كيف حالك بعدنا ... لتعلم ماهذا إليه يئول
فقلت لها قد متّ قبل ترحلى ... فمن باب أولى أن يجدّ رحيل
وقلت فليلى طال هما فأنشدت ... وما زال ليل العاشقين طويل
فقلت وجسمى لم يزل مترجفا ... فقالت وجسم العاشقين نحيل
فقلت لها لو كنت أدرى فراقنا ... بيوم وداع ما إليه سبيل
قلعت لعينى فى هواك بأصبعى ... لكيلا أرى يوما علىّ ثقيل

وقال الوأواء الدمشقى عفا الله عنه :

يامن نفت عنى لذيذ رقادى ... مالى ومالك قد أطلت سهادى
* فبأى ذنب أم بأية حالة ... أبعدتنى ولقد سكنت فؤادى
وصددت عنى حين قد ملك الهوى ... روحى وقلبى والحشا وقيادى
ملكت لحاظك مهجتى حتى غدا ... قلبى أسيرا ماله من فادى
لاغرو أن قتلت عيونك مغرما ... فلكم صرعت بها من الآسادى
يامن حوت كل المحاسن فى الورى ... والحسن منها عا كف فى بادى
رفقا بمن أسرت عيونك قلبه ... ودعى السيوف تقرّ فى الأغمادى
* وتعطفى جودا علىّ بقبلة ... نبميم مبسمكى شفاء الصادى
ماتت أطال الله عمرك سلوتى ... ولقد فنى صبرى وعاش سهادى
ومن اللى لو دام لى فيك الضنى ... ياحبذا لأراك من عوّادى *
وأجيل منك نواظرى فى ناضر ... من خدّك المترقرق الوقاد *
وأقول ماشئت اصنعى يامنيتى ... مالى سواك ولو حرمت مرادى
إلا مديح المصطفى هو عمدتى ... وبه سألقى الله يوم معادى

وقال البها زهير :

إذا جنّ ليلى هام قلبى بذكركم ... أنوح كما ناح الحمام المطوّق
وفوقى سحاب يمطر الهمّ والأسى ... وتحتى بحار بالجوى تتدفق
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها ... تفك الأسارى دونه وهو موثق
فلا أنا مقتول ففى القتل راحة ... ولا أنا ممنون عليه فيعتق

(مجنون ليلى) :

وقد خبرونى أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الليل ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا ستنقضى ... فما للنوى يرمى بليلى المراميا
أعدّ الليالى ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهرا لا أعدّ اللياليا
وأخرج من بين البيوت لعلنى ... أحدّث عنك النفس بالليل خاليا
ألا أيها الركب اليمانون عرّجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
يمينا إذا كانت يمينا فان تكن ... شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا
أصلى فما أدرى إذا ماذكرتها ... أثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

وقيل لأعرابى كان يتعشق قينة مايضرك لواشتريتها ببعض ماتنفق عليها قال فمن لى إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء السارقة وانتظار الموعد

وحكى أن علية بنت المهدى كانت تهوى غلاما خادما اسمه طل فحلف الرشيد أن لاتكلمه ولاتذكره فى شعرها

فاطلع الرشيد يوما عليها وهى تقرأ فى سورة البقرة فإن لم يصبها وابل فالذى نهى عنه أمير المؤمنين . قيل : دخلت امرأة على هرون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت : ياأمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت فقال لها من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم ؟ فقال أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره ، وأما المال فمردود إليك ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال أتدرون ماقالت المرأة فقالوا : مانراها قالت إلا خيرا قال ما أظنكم فهمتم ذلك ، أما قولها أقر الله عينك فتعنى أسكنها عن الحركة وإذا أسكنت العين عن الحركة عميت ، وأما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى ـ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ـ وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه ... ترقب زوالا إذا قيل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى ـ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ـ فتعجبوا من ذلك . وحكى أن المأمون ولى عاملا على بلاد وكان يعرف منه الجور فى حكمه فأرسل إليه رجلا من أرباب

خليلى لا والله لا أملك الهوى ... إذا علم من أرض ليلى بدا ليا
خليلى لا والله لا أملك الذى ... قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها ... فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا
ولو أن واش باليمامة داره ... ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وددت على حبى الحياة لو انه ... يزاد لها فى عمرها من حياتيا
على أننى راض بأن أحمل الهوى ... وأخلص منه لا على ولا ليا
إذا ماشكوت الحب قالت كذبتنى ... فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا ... وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وقال آخر :

قالت لطيف خيال زارنى ومضى ... بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظمأ ... وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت عهدت الوفا والصدق شيمته ... يابرد ذاك الذى قالت على كبدى

(كمال الدين بن النبيه) :

أما وبياض مبسمك النقى ... وسمرة مسكة اللعس الشهى ... ورمان من الكافور تعلو
عليه طوالع الند الندى ... وقد كالقضيب إذا تثنى ... خشيت عليه من ثقل الحلى
لقد أسقمت بالهجران جسمى ... وأعطشنى وصالك بعد رى ... إلى كم أكتم البلوى ودمعى
يبوح بمضمر السر الخفى ... وكم أشكو للاهية غرامى ... فويل للشجى من الخلى

(صفى الدين الحلى) :

أبت الوصال مخافة الرقباء ... وأتتك تحت مدارع الظلماء ... أصفتك من بعد الصدود مودة
وكذا الهواء يكون بعد الداء ... أحيت بزورتها النفوس وطالما ... ضنت بها فقضت على الأحياء
أمست بليل والنجوم كأنها ... در بباطن خيمة زرقاء ... أمست تعاطينى المدام وبيننا
عتب غنيت به عن الصهباء ... آبت إلى جسدى لتنظر ماانتهت ... من بعدها فيه يد البرحاء
ألفت به وقع الصفاح فراعها ... جزعا ومانظرت جراح أحشائى ... أمصيبة منا بنبل لحاظها
ما أخطأته أسنة الأعداء ... أعجبت مما قد رأت وفى الحشا ... أضعاف ماعاينت فى الأعضاء
أمسى ولست بسالم من طعنة ... نجلاء أو من مقلة نجلاء

وله رحمه الله تعالى :

قفى ودعينا قبل وشك التفرق ... فما أنا من يحيا إلى حين نلتقى
قضيت وما أودى الحمام بمهجتى ... وشبت وما حل البياض بمفرق
قنعت أنا بالذل فى مذهب الهوى ... ولم تفرق بين النعم والشقى
قرنت الرضا بالسخط والقرب بالنوى ... ومزقت شمل الوصل كل ممزق
قبلت وصايا الهجر من غير ناصح ... وأحييت قول الهجر من غير مشفق
قطعت زمانى بالصدود وزرتنى ... عشية زمت للترحل أينق
قضى الدهر بالتفريق فاصطبرى له ... ولا تذمى أفعاله وترفقى

وقال عفا الله عنه :

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج ... فعطرت سائر الأرجاء بالأرج
جلت علينا محيا لو جلته لنا ... فى ظلمة الليل أغنتنا عن السرج
جورية الخدّ تحمى ورد وجنتها ... بحارس من نبال الغنج والدعج
جــزت إساءة أفعالى بمغفرة ... فكان غفرانها يغنى عن الحجج
جادت لعرفانها أنى المريض بها ... فما علىّ إذا أذنبت من حرج
جست يدى لترى مابى فقلت لها ... كنى فذاك جوى لولاك لم يهج
جفوتنى فرأيت الصبر أجمل بى ... والصمت فى الحبّ أولى بى من اللهج
جارت لحاظك فينا غير راحمة ... ولذّة الحبّ جور الناظر الغنج

وقال ابن نباتة :

رقت لنا حين همّ السفر بالسفر ... وأقبلت فى الدجى تسعى على حذر
راض الهوى قلبها القاسى فجاد لنا ... وكان أبخل من تموز بالمطر
رأت غداة النوى نار الكليم وقد ... شبت فلم تبق من قلبي ولم تذر
رشيقة لو تراها عنــد ماسفرت ... والبدر ساه إليها سهو معتذر
رأيت بدرين من وجه ومن قمر ... فى ظلّ جنحين من ليل ومن شعر
رشفت درّ الحيا من مقبلها ... إذ نبهتنى إليها نسمة السحر
رنت نجوم الدجى نحوى فما نظرت ... من يرشف الراح قبلى من فم القمر
راق العتاب وأبدت لى سرائرها ... فى ليلة الوصل بل فى غرّة القمر

وقال ابن الساعاتى :

قبلتها ورشفت خمرة ريقها ... فوجدت نار صبابة فى كوثر
ودخلت جنةُ وجهها فأباحنى ... رضوانها المرجوّ شرب السكر

وقال آخر :
بكت للفراق وقد راعها ... بكاء المحبّ لبعد الديار
كأنّ الدموع على خدّها ... بقية طلّ على جلنار

الوأواء الدمشقى (تضمين) :

قالت متى الظعن ياهذا فقلت لها ... إما غدا زعموا أولا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ... وردا وعضت على العناب بالبرد

لابن نباتة :
عذولى لمت أسمع منه قولا ... على غيداء مثل البدر تما
له طرف ضرير عن سناها ... ولى أذن عن الفحشاء صما

وقال آخر :
وربّ ليال فى هواها سهرتها ... أراعى نجوم الليل فيها إلى الفجر
حديثى عال فى السهاد لأننى ... رويت أحاديث السهاد عن الزهرى

(السراج الوراق) :

يالائمى فى هواها ... أسرفت فى اللوم جهلا
مايعلم الشــوق إلا ... ولا الصبابة إلا

وقال آخر :

دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم فى تجارة فى نفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن إليه وسأله أن يكتب كتابا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتابا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنــين : أما بعد فقد قدمنا عــلى فلان فوجــدناه آخذا بالعــزم عاملا بالحزم قد عدل بين رعيته وساوى فى قضيته أغنى القاصــد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الأولاد وأذهب مابينهم من الضــغائن والأحقاد وعمر منهم المساجد الداثرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة ، يعنى أن الكلّ صاروا فقــراء لايملكون شيئا من الدنيا يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين أى ليشكوا حالهم وما نزل بهم ، فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره .

وحكى أن بعض الملوك طلع يوما إلى أعلى قصره يتفرّج فلاحت منــه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراءون أحسن منها ، فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها لمن هذه ؟ فقالت يامولاى هذه زوجة غلامك فيروز قال فنزل الملك وقد خامره حبها وشغف بها فاستدعى بفيروز وقال له خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية وائتنى بالجواب فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه ، فلما أصبح ودّع أهله وسار طالبا لحاجة الملك ولم يعلم بما قد دبره الملك

فانه لما توجه فيروز قام مسرعا وتوجه مختفيا إلى دار فيروز فقرع الباب قرعا خفيفا فقالت امرأة فيروز من بالباب قال أنا الملك سيد زوجك ففتحت له فدخل وجلس فقالت له أرى مولانا اليوم عندنا فقال جئت زائرا فقالت أعوذ بالله من هذه الزيارة وماأظن فيهاخيرا فقال لها ويحك إنى أنا الملك سيد زوجك وماأظنك عرفتينى فقالت يامولاى لقد علمت أنك الملك ولكن سبقتك الأوائل فى قولهم :

سأترك ماء كم من غير ورد
وذاك لكثرة الورّاد فيه
إذا سقط الذباب على طعام
رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء
إذا كان الكلاب ولغن فيه
ويرتجع الكريم خميص بطن
ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاى قول الشاعر :

قل للذى شفه الغرام بنا
وصاحب الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائل أبدا
قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت أيها الملك تأتى إلى موضع شرب كلبك تشرب منه فاستحى الملك من كلامها وخرج وتركها فنسى نعله فى الدار ، هذا ما كان من الملك وأما فيروز فانه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه فى رأسه فتذكر أنه نسيه تحت فراشه فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره فوجد نعل الملك فى الدار فطاش عقله وعلم أن الملك لم يرسله فى هذه السفرة إلا لأمر يفعله فسكت ولم يبد كلاما وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار فمضى فيروز

وعدت أن تزور ليلا فألوت ... وأتت فى النهار تسحب ذيلا
قلت هلا صدقت فى الوعد قالت ... كيف صدقت أن ترى الشمس ليلا

لعزّ الدين الموصلى :

قد سلونا عن الغزال بخود ... ذات وجه بها الجمال تفتن
ورجعنا عن التهتك فيه ... ودفعناه بالتى هى أحسن

وقال آخر :

قالت وناولتها سواكا ... ساد بفيها على الأراك
سواى ماذاق طعم ريقى ... قلت لها ذاقه سواكى

وقال آخر :

سألتها أن تعيد لفظا ... قالت محبّ دعوه بعذر
حديثها سكر شهىّ ... وأحسن السكر المكرّر

(ابن نباتة) :

وملولة فى الحبّ لما أن رأت ... أثر السقام بجسمى المتهاض
قالت تغيرنا فقلت لها نعم ... أنا بالسقام وأنت بالإعراض

وقال أبو الطيب المتنبى :

بأبى الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلاببا
المنهبات عيوننا وقلوبنا ... وجناتهن الناهبات الناهبا
الناعمات القاتلات المحييا ... ت المبديات من الدلال غرائبا
حاولن تفديتى وخفن مراقبا ... فوضعن أيديهن فوق ترائبا
وبسمن عن برد خشيت أذيبه ... من حر أنفاسى فكنت الذائبا
يا حبذا المتحملون وحبذا ... واد لثمت به الغزالة كاعبا
كيف الرجاء من الخطوب تخلصا ... من بعد أن أنشبن فىّ مخالبا

وله أيضا من جملة قصيدة :

ولما التقينا والنوى ورقيبنا ... غفولان عنا ظلت أبكى وتبسم
فلم أر بدرا ضاحكا قبل وجهها ... ولم تر قبلى ميتا يتكلم

(الشريف الرضى) :

وتميس بين مزعفر ومعصفر ... ومعنبر وممسك ومصندل
هيفاء إن قال الشباب لها انهضى ... قالت روادفها اقعدى وتمهلى
وإذا سألت الوصال قال جمالها ... جودى وقال دلالها لا تفعلى

(ابن إسرائيل) :

وعدت بوصل والزمان مسوّف ... حوراء ناظرها حسام مرهف
نشوانة خصباء منهل ثغرها ... درّ وريقتها سلاف قرقف
وتخال بين البدر منها والنقا ... غصنا يميس به النسيم مهفهف
لاتحسبنّ الخلف شيمة مثلها ... وعدت ولكن الزمان يسوّف
يابانة قد أطلعت أغصانها ... وردا جنيا باللواحظ يقطف
وغزالة يحكى الغزالة وجهها ... ويصير ناظرها الحسام الأوطف
ما تأمرين لمغرم تسطو به ... أجفانك المرضى ولا تستعطف
قسما بوجهك وهو صبح مشرق ... وسواد شعرك وهو ليل مسدف
وبهز غصن البان منك على النقا ... مالى إلى أحد سواك تشوّق

إلى زوجته فسلم عليها وقال لها قومى إلى زيارة بيت أبيك قالت وماذاك ؟ قال إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهرى ولأهلك ذلك قالت حبا وكرامة ، ثم قامت من ساعتها إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها فأقامت عند أهلها مدة أشهر فلم يذكرها زوجها ولا ألمّ بها فأتى إليه أخوها وقال له يافيروز إما أن تخبرنا بسبب غضبك وإما أن تحا كمنا إلى الملك فقال إن شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها علىّ حقا فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم وكان القاضى إذ ذاك عند الملك جالسا إلى جانبه فقال أخو الصبية أيد الله مولانا قاضى القضاة إنى أجرت هذا الغلام بستانا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة وأشجار مثمرة فأكل ثمره وهدم حيطانه وخرب بئره ، فالتفت القاضى إلى فيروز وقال له ماتقول ياغلام فقال فيروز أيها القاضى قد استلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان ، فقال القاضى هل سلم إليك البستان كما كان قال نعم ولكن أريد منه السبب لرده. قال القاضى ماقولك قال والله يامولاى مارددت البستان كراهية فيه وإنما جئت يوما من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يغتالنى فحرمت دخول البستان إكراما للأسد ، قال وكان الملك متكئا فاستوى جالسا وقال له يافيروز ارجع إلى بستانك آمنا مطمئنا فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرا ولا التمس منه ورقا ولاثمرا ولاشيئا ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير

وقال

ولنذكر إن شاء الله تعالى فى هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب للشيخ شمس الدين بن البديوى :

ولما نأت سلمى وشط بها النوى   وأيقنت أنى بالغرام أذوب   علقت بأخرى غيرها متلاهيا
ليطفى ضرام فى الحشا ولهيب   وكان هيامى والهوى وصبابتى   لمن هو فى الأولى إلىّ حبيب

وله فى المعنى :
تلاهيت عنها فى الغرام بغيرها   وقلت لقلبى هـذه هى زينب
وقبلت فاها مبردا لصبابتى   فأضرمت نارا فى الحشا تتلهب
فكنت كمن هو غريقا بلجة   تمسك بالموج الذى يتقلب

وقال أيضا :
سألت القلب هل ميل لليلى   وهل عند الفؤاد لها التفات   فقال الآن لا لكن تأنى
فقلت الحب فيـه تقلبات   فإن الحب يهجم بعد يأس   ويعتاد المحب تغـيرات
فلا تظهر لها يوما سلوّا   فتفضحك التصابى الواردات   وترمى بالصدود وبالتجنى
وتنحلك الوعود الكاذبات   فكن جلدا ولا تك ذا لجاج   فما يغنيك إن فات الفوات

وقال البيطار : يقولون هذى أم عمرو قريبة   دنت بك أرض نحوها وسماء
ألا إنما قرب الحبيب وبعده   إذا هو لم يوصل إليه سواء

وقال غيره : وقالوا بع حبيبك وابغ عنه   حبيبا آخر تحيا سعيدا
إذا كان القديم هو المصافى   وخان فكيف آمن الجديدا

وقال آخر : لم أنس إذ قلت من وجدى لها غلطا   ووجهها مشرق فى حندس الظلم
سلوت عنك فقالت وهى ضاحكة   لتقرعنّ علىّ السن من ندم

وقال آخر : أمن المروءة أن أبيت مسهدا   قلقا أبلّ ملابسى بدموعى
وتبيت ريان الجفون من الكرى   وأبيت منك بليلة الملسوع

وقال آخر : إلى الله أشكو جور أهيف شادن   وقعت فمالى من يديه خلاص
جرحت بعينى خدّه وهو جارح   بعينيه قلبى والجروح قصاص

وقال آخر : قد كنت أسمع بالهوى فأكذب   وأرى المحب ومايقول فأعجب
حتى رميت بطلوه وبمرّه   من كان يتهم الهوى فيجرب

وقال آخر : سألتها التقبيل من خدها   عشرا وما زاد يكون احتساب
فمذ تلاقينا وقبلتها   غلطت فى العد وضاع الحساب

وقال آخر : يامن سقامى من سقام جفونه   وسواد حظى من سواد عيونه
قد كنت لاأرضى الوصال وفوقه   واليوم أقنع بالخيال ودونه

وقال آخر : صبحته عند المساء فقال لى   تهزى بقدرى أوتريد مزاحا
فأجبته إشراق وجهك غرّنى   حتى توهمت المساء صباحا

(أبو عبد الله الغوّاص) :
من عذيرى من عذول فى رشا   قاس القلب هواه فقمر
قمر لم يبق منى حسنه   وهواه غير مقلوب قمر

بأس والله ما رأيت مثل بستانك ولا أشد احترازا من حيطانه على شجره ، قال فرجع فيروز إلى داره وردّ زوجته ولم يعلم القاضى ولا غيره بشىء من ذلك اه . وحكى أن الحجاج سأل يوما الغضبان

ابن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له من أكرم الناس ؟ قال له أفقههم فى الدين وأصدقهم لليمين وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهانين وأطعمهم للمساكين ، قال فمن ألأم الناس قال المعطى على الهوان المقتر على الإخوان الكثير الألوان ، قال فمن شرّ الناس ؟ قال أطولهم جفوة وأدومهم صبوة وأكثرهم خلوة وأشدهم قسوة ، قال فمن أشجع الناس قال أضربهم بالسيف وأقراهم للضيف وأتركهم للحيف ، قال فمن أجبن الناس قال المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف المرتعش عند الوقوف المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف ، قال فمن أثقل الناس قال المتفنن فى الملام الضنين بالسلام المهذار فى الكلام المتقبقب على الطعام قال فمن خير الناس قال أكثرهم إحسانا وأقومهم ميزانا وأدومهم غفرانا وأوسعهم ميدانا ، قال لله أبوك فكيف يعرف الرجل الغريب أحسيب هو أم غير حسيب ؟ قال أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداراته على أصله ، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله والنذل الجاهل يجهله ، فمثله كمثل الدرّة إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها

وقال آخر : جاذبتها والريح تجذب برقعا ... من فوق خد مثل قلب العقرب
وطفقت ألثم ثغرها فتحجبت ... وتسترت عنى بقلب العقرب

وقال آخر :
لومت من كثرة الأشواق وانبدلت ... مدامعى بدم من كثرة السهر
ما اخترت عنك سلوّا لا ولا نظرت ... عينى لغير محيا وجهك القمر

(إبراهيم بن العباس) :
تمر الصبا صفحا بساكن ذى الغضا ... ويسرع قلبى إذ يهبّ هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس أين حلّ حبيبها

وقال النوفلى :
إذا اختلجت عينى رأت من تحبه ... فدام لعينى ما حييت اختلاجها
وما ذقت كأسا مذ علقت بحبها ... فأشربه إلا ودمعى مزاجها

وقال آخر رحمه الله تعالى :
ياذا الذى زارا ومازارا ... كأنه مقتبس نارا
قام بباب الدار من تيهه ... ماضرّه لودخل الدارا

وقال آخر : ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت منى ظاهرى لجليسى
فالكل منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

(ابن نباتة) : أناشده الرحمن فى جمع شملنا ... فيقسم هذا لا يكون إلى الحشر
إذا ماغدا مثل الحديد فؤاده ... فوالعصر إنّ العاشقين لفى خسر

(أمين الدين بن أبى الوفاء) :
يانازلا منى فؤادا راحلا ... ومن العجائب نازلا فى راحل
أضرمت قلب متيم أهلكته ... وسكنته والنار مثوى القاتل

وقال آخر :
ياعاذلى فى هواه إذا بدا كيف أسلو ... يمرّ بى كل وقت وكلما مرّ يحلو

(الحاجبى) : ملأت فؤادى من محبة فاتن ... أميل إليه وهو كالظبى رائغ
وقلت لقلبى قم لتعشق شادنا ... سواه فقال القلب ما أنا فارغ

وقال ديك الجنّ :
ولى كبد حرى ونفس كأنها ... بكف عدوّ ما يريد سراحها
كأنّ على قلبى قطاة تذكرت ... على ظمإ وردا فهزت جناحها

وقال عبد الله بن طاهر :
أقام ببلدة ورحلت عنه ... كلانا بعد صاحبه غريب
أقلّ الناس فى الدنيا سرورا ... محب قد نأى عنه الحبيب

وقال آخر : ما اخترت تركك وداعكم يوم النوى ... والله لا مللا ولا لتجنب *
لكن خشيت بأن أموت صبابة ... فيقال أنت قتلته فتقاد بى

فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة عظيمة ، فقال الحجاج لله أبوك فمن العاقل والجاهل ؟ قال أصلح الله الأمير العاقل الذى لا يتكلم هذرا ولا ينظر شزرا ولا يضمر غدرا ولا يطلب عذرا ، والجاهل هو الهذار فى كلامه المنان بطعامه الضنين بسلامه المتطاول على إمامه الفاحش على غلامه ، قال لله أبوك فمن الحازم الكيس ؟ قال المقبل على شانه التارك لما لا يعنيه . قال فمن العاجز ؟ قال المعجب بآرائه الملتفت إلى ورائه قال : هل عندك من النساء خبر ؟ قال أصلح الله الأمير إنى بشأنهن خبير إن شاء الله إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه ، ومن شاورهن كدرن عيشته وتكدرت عليه حياته وتنغصت لذاته فأكرمهن أعفهن وأفخر أحسابهن العفة فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة ، فقال له الحجاج ياغضبان إنى موجهك إلى ابن الأشعث وافدا فماذا أنت قائل له ؟ قال أصلح الله الأمير أقول مايرديه ويؤذيه ويضنيه ، فقال إنى أظنك لاتقول له ماقلت وكأنى بصوت خلاخلك تجلجل فى قصرى هذا قال كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لسانى وأجريه فى ميدانى ، فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينا عليه أى جاسوسا وكان يفعل ذلك مع جميع رسله فلما قدم الغضبان

فكيف

وقال ابن المعتز :

هب لعينى رقادها ... وانف عنها سهادها
وارحم المقلة التى ... كنت فيها سوادها
كن صلاحا لها كما ... كنت دهرا فسادها

وقال آخر :

وقالوا دع مراقبة الثريا ... ونم فالليل مسود الجناح
فقلت وهل أفاق القلب حتى ... أفرق بين ليلى والصباح

وقال آخر :

ولى فؤاد إذا طال النزاع به ... طار اشتياقا إلى لقيا معذبه
يفديك بالنفس صب لو يكون له ... أعز من نفس شىء فداك به

وقال آخر :

وما هجرتك النفس يامى أنها ... قلتك ولا أن قل منك نصيبها
ولكنهم ياأحسن الناس أولعوا ... بقول إذا ماجئت هذا حبيبها

وقال الحارثى :

إذا أنت لم توقن بما صنع الهوى ... بأهل الهوى فافقد حبيبا وجرب
ترى حرقات يلدغ القلب حرها ... بأنضج من كى الغضى المتلهب

وقال الأقرع بن معاذ :

أقول لمفت ذات يوم لقيته ... بمكة والأنضاء ملقى رحالها
بحقك أخبرنى أما تأثم التى ... أضر بجسمى منذ مر خيالها
فقال بلى والله أو سيصيبها ... من الله بلوى فى الزمان تنالها
فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... سريع على جيب القميص انهمالها
عفا الله عنها كل ذنب ولقيت ... مناها وإن كانت قليلا نوالها

وقال آخر :

بالله ربكما عوجا على سكنى ... وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضابى وقولا فى حديثكما ... ماضر لو بوصال منك تسعفه
فإن تبسم قولا عن ملاطفة ... مابال عبدك بالهجران تتلفه
وإن بدا لكما من سيدى غضب ... فغالطاه وقولا ليس نعرفه

وقال عبد الله بن أبى الشيص :

ومعرضة تظن الهجر فرضا ... تخال لحاظها للضعف مرضى
كأنى قد قتلت لها قتيلا ... فما منى بغير الهجر ترضى

وقال الحسين بن الضحاك :

بعضى بنار الهجر مات حريقا ... والبعض أضحى بالدموع غريقا
لم يشك عشقا عاشق فسمعته ... إلا ظننتك ذلك المعشوقا

وقال آخر :

وأجيل فكرى فى هوا ... ك بلا لسان ناطق
أدعو عليك بحرقة ... من غير قلب صادق

وقال آخر :

ياويح من خبل الأحبة قلبه ... حتى إذا ظفروا به قتلوه
عزوا ومال به الهوى فأذله ... إن العزيز على الذليل يتيه
انظر إلى جسد أضر به الجوى ... لولا تقلب طرفه دفنوه
من كان خلوا من تباريح الهوى ... فأنا الهوى وحليفه وأخوه

وقال أحمد بن طاهر :

تقول العاذلات تسل عنها ... وداو عليل صبرك بالسلو

على ابن الأشعث قال له إنّ الحجاج قدمّ بخلعك وعزلك فخذ حذرك وتغدّ به قبل أن يتعشى بك ، فأخذ حذره عند ذلك أمر للغضبان بجائزة سنية وخلع فاخرة فأخذها وانصرف راجعا ، فأتى إلى رملة كرمان فى شدّة الحرّ والقيظ وهى رملة شديدة الرمضاء فضرب قبته بها وحطّ عن رواحله فبينما هو كذلك إذا بأعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدا نحوه وقد اشتدّ الحرّ وحميت الغزالة وقت الظهيرة وقد ظمئ ظمأ شديدا فقال السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال الغضبان هذه سنة وردّها فريضة فاز قائلها وخسر تاركها ما حاجتك يا أعرابى قال أصابتنى الرمضاء وشدّة الحرّ والظمأ فتيممت قبتك أرجو بركتها قال الغضبان فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم قال أيتهن تعنى ؟ قال قبة الأمير ابن الأشعث ، قال تلك لا يوصل إليها ، قال إنّ هذه أمنع منها ، فقال الأعرابىّ ما اسمك يا عبد الله ؟ قال آخذ ، فقال وما تعطى ؟ قال أكره أن يكون لى اسمان قال بالله من أين أنت ؟ قال من الأرض ، قال فأين تريد ؟ قال أمشى فى مناكبها ، فقال الأعرابى وهو يرفع رجلا ويضع أخرى من شدّة الحرّ أتقرض الشعر ؟ قال إنما يقرض الشعر الفأر ، فقال أفتسجع ؟ قال إنما تسجع الحمامة ، فقال ياهذا ائذن لى أن أدخل قبتك قال خلفك أوسع لك ، فقال قد أحرقتنى الشمس قال مالى عليها من سلطان ، فقال الرمضاء

فكيف ونظرة منها اختلاسا ألذّ من الشماتة بالعدوّ

وقال إسحق بن مولى المهلب :

هبينى يامعذّبتى أسأت وبالهجران قبلكم بدأت
فأين الفضل منك فدتك نفسى علىّ إذا أسأت كما أسأت

وقال أبو العتاهية :

يقول أناس لو نعتّ لنا الهوى ووالله ما أدرى لهم كيف أنعت
سقام على جسمى كثير موجع ونوم على عينى قليل مفوّت
إذا اشتدّ ما بى كان أفضل حيلتى له وضع كفى فوق خدّى وأسكت

وقال بشار :

ياقرّة العين إنى لا أسميك أكنى بأخرى أسميها وأعنيك
أخشى عليك من الجارات حاسدة أو سهم عيران يرمينى ويرميك
لولا الرقيبان إذ ودّعت غادية قبلت فاك وقلت النفس تفديك
ياأطيب الناس ريقا غير مختبر إلا شهادة أطراف المساويك
قد زرتنا مرّة فى الدهر واحدة بالله لا تجعليها بيضة الديك

وقال آخر : ألم تعلم يا أحسن الناس أننى أحبك حبا مسكنا وباديا
أحبك مالو كان بين قبائل من الناس أعداء لجرّ التصافيا

وقال آخر : أقول لشادن فى الحسن أضحى يصيد بطرفه قلب الكمى
ملكت الحسن أجمع فى نصاب فأدّ زكاة منظرك البهى
وذاك بأن تجود لمستهام برشف من مقبلك الشهى
فقال أبو حنيفة لى إمام يرى أن لا زكاة على الصبى

وقال آخر : سقى الله ربعا كنت أخلو بوجهكم وثغر الهنا فى روضة الحسن ضاحك
أقمنا زمانا والعيون قريرة وأصبحت يوما والجفون سوافك

وقال آخر : ألم تعلمى ياعذبة الماء أننى أظلّ إذا لم أسق ماءك صاديا
وما زلت بى يابين حتى لوانى من الوجد أستبكى الحمام بكا ليا

أبو العباس الشهير بالنفيس :

ياراحلا وجميل الصبر يتبعه هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ماأنصفتك جفونى وهى دامية ولا وفى لك قلبى وهو يحترق

الوزير ظهير الدين الملقب بأبى شجاع :

لأعذبنّ العين غير مفكر فيها بكت بالدمع أوفاضت دما
ولأهجرنّ من الرقاد لذيذه حتى يعود على الجفون محرما
هى أوقعتنى فى حبائل فتنة لولم تكن نظرت لكنت مسلما
سفكت دمى فلأسفحنّ دموعها وهى التى بدأت فكانت أظلما

وقال العتبى : أضحت بخدّى للدموع رسوم أسفا عليك وفى الفؤاد كلوم
والصبر يحمد فى المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم

(الرفاء الأندلسى) : ومهفهف كالغصن إلا أنه تتحير الألباب عند لقائه

أحرقت قدمي، قال بل عليها تبرد، فقال إني لا أريد طعامك ولا شرابك ، قال لا تتعرّض لما لا تصل إليه ولو تلفت روحك ، فقال الأعرابي سبحان الله ، قال نعم من قبل أن تطلع أضراسك ، فقال الأعرابي مارأيت رجلا أقسى منك أتيتك مستغيثا فحجبتني وطردتني هلا أدخلتني قبتك وطارحتني القريض ؟ قال مالي بمحادثتك من حاجة فقال الأعرابي بالله ما اسمك ومن أنت ؟ فقال أنا الغضبان بن القبعثري، فقال اسمان منكران خلقا من غضب ، قال قف متوكئا على باب قبتي برجلك هذه العوجاء ، فقال قطعها الله إن لم تكن خيرا من رجلك هذه الشنعاء ، فقال الغضبان لو كنت حاكما لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظلّ قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة ، فقال الأعرابي إني لأظنك حروريا قال اللهمّ اجعلني ممن يتحرّى الخير ويريده فقال إني لأظنّ عنصرك فاسدا ، قال ما أقدرني على إصلاحه ، فقال الأعرابي لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى وهو يقول :

لا بارك الله في قوم تسودهم
إني أظنك والرحمن شيطانا
أتيت قبته أرجو ضيافته
فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ماجرى بينه و بين ابن الأشعث و بين الأعرابي قال له الحجاج يا غضبان: كيف وجدت أرض كرمان؟ قال أصلح الله الأمير أرضا يابسة الجيش بها ضعاف هزلاء ان كثروا جاعوا و إن قلوا ضاعوا،

أضحى ينام وقد تكال خدّه ... عرقا فقلت الورد رشّ بمائه

وقال آخر : اخضرّ واصفر لاعتلال ... فصار كالنرجس للضعف
كأنّ نسرين وجنتيه ... بشعر أصداغه مغلف
يرشح منه الجبين ماء ... كأنه لؤلؤ منصف

وقال آخر : مازال ينهل من صرف الطلا قمرى ... حتى غدت وجنتاه البيض كالشفق
وقام يخطر والأرداف تقعده ... طورا وحاول أن يسعى فلم يطق
فمائل فعلت فعل الشمول به ... فعل النسيم بغصن البانة الورق
جاذبته لعناق فانثنى خجلا ... وكللت وجنتاه الحمر بالعرق
وقال لي بفتور من لواحظه ... إنّ العناق حرام قلت في عنق

وقال آخر : بأركان هذا البيت إني لطائف ... وفي السكون أسرار وفيه لطائف
رعى الله أياما وناسا عهدتهم ... جيادا ولكنّ الليالي صيارف
وبي ذهبي اللون صيغ لحتفي ... يريد امتحاناتي وما أنا زائف
يذيب فؤادا وهو لاغشّ عنده ... فياذهبي اللون إنك حائف

وقال آخر : أسنى ليالي الدهر عندي ليلة ... لم أخل فيها الكأس من إعمالي
فرقت فيها بين جفني والكرى ... وجمعت بين القرط والخلخال

(ومما قيل في الرقباء) :

لو أنّ لي في الحبّ أمرا نافذا ... وملكت بسط الأمر في التعذيب
لقطعت ألسنة العواذل كلها ... ولكنت أقلع عين كل رقيب

وقال أعرابي : بسهم الحبّ كلم في فؤادي ... ولا كالكلم من عين الرقيب
تمكن ناظراه به وأضحى ... مكان الكاتبين من الذنوب
ومن حذر الرقيب إذا التقينا ... نسلم كالغريب على الغريب
ولولاه تشاكينا جميعا ... كما يشكو المحبّ إلى الحبيب

وقال آخر : من عاش في الدنيا بغير حبيب ... فحياته فيها حياة غريب
عين الرقيب غرقت في البحر العمى ... لا أنت لا بل عين كلّ رقيب

وقال أحمد بن أبي سلمة :

يعذلني فيه جميع الورى ... كأنني جئت بأمر عجيب
ظنّ نفسي لو تعشقتها ... بليت فيها بعلام الرقيب
وأنا الغريب فلا ألام على البكا ... إنّ البكا حسن بكلّ غريب

وقال آخر : وما فارقت سعدى عن قلاها ... ولكن شقوة بلغت مداها
بكيت نعم بكيت وكلّ إلف ... إذا بانت حبيبته بكاها

وقال آخر : وقائلة مابال دمعك أبيض ... فقلت لها ياعلو هذا الذي بقي
ألم تعلمي أن البكا طال عمره ... فشابت دموعي عند ماشاب مفرقي
وعما قليل لادموع ولا دما ... ولم يبق إلا لوعتي وتحرّقي

وقال آخر : ولم أر مثلي غار من طول ليله ... عليه لأن الليل يعشقه معي
ومازلت أبكي في دجى الليل صبوة ... من الوجد حتى ابيضّ من فيض أدمعي

وقال آخر : رجوت طيف خيال ... وكيف لي بهجوع
والذاريات جفوني ... والمرسلات دموعي

وقال

وقال آخر: يا نازح الطيف من نوى يعاودني ... فقد بكيت لفرط النازحين دما
أوجبت غسلا على عيني بأدمعها ... فكيف وهي التي لم تبلغ الحلما

وقال آخر: ارحم رحمت الموعق ... وابعث خيالك في الكرى
ودموع عيني لا تسل ... عن حالها يا ما جرى

وقال آخر: أملت أن تتعطفوا بوصالكم ... فرأيت من هجرانكم ما لا أرى
وعلمت أن فراقكم لا بد أن ... يجري به دمعي وهكذا جرى

وقال آخر: إن عيني مذ غاب شخصك عنها ... يأمر السهد في كراها وينهى
بدموع كأنهن الغوادي ... لا تسل ماجرى على الخد منها

وقال آخر: يقولون لي والدمع قرّح مقلتي ... بنار أسى من حبة القلب تقدح
أدمعك جمر قلت لا تعجبوا ... فكلّ وعاء بالذي فيه ينضح

وقال البدر الذهبي:

قالوا تباكى بالدموع وما بكى ... بدم على عيش تصرم وانقضى
فأجبتهم هو من دمي لكنه ... لما تصاعد صار يقطر أبيضا

(قال ابن مطروح في الغيرة):

ولو أمسى على تلفي مصرًّا ... لقلت معذّبي بالله زدني
ولا تسمح بوصلك لي فإني ... أغار عليك منك فكيف مني

وقال آخر: أغار عليك من نظري ومني ... ومنك ومن مكانك والزمان
ولو أني خبأتك في جفوني ... إلى يوم القيامة ما كفاني

(المظفر بن عمر الآمدي):

قلت للذين جفوني إذ لهجت بهم ... دون الأنام وخير القول أصدقه
أحبكم وهلاكي في محبتكم ... كعابد النار يهواها وتحرقه

وقال غيره: لم أنس أيام الصبا والهوى ... لله أيام الصبا والنجاح
ذاك زمان مرّ حلو الجنى ... ظفرت فيه بحبيب وراح

(الشريف الرضي):

عللاني بذكركم واسقياني ... وامزجا لي دمعي بكأس دهاق
وخذا النوم من جفوني فإني ... قد خلعت الكرى على العشاق

وقال آخر: قالوا أترقد مذ غبنا فقلت لهم ... نعم وأشفق من دمعي على بصري
ماحق طرف هداني نحو حسنكم ... أني أعذبه بالدمع والسهر

(عزّ الدين الموصلي):

فسدت لطول بعادكم أحلامنا ... وعقولنا وجفا الجفون منام
والطيف قد وعد الجفون بزورة ... ياحبذا إن صحت الأحلام

(ومما قيل في السهر وطول الليل ونحو ذلك) قال الشاعر:

. وربّ ليل سهرناه وقد طلعت ... بقية البدر في أولى تباشيره

فقال له الحجاج ألست صاحب الكلمة التي بلغتني أنك قلتها لابن الأشعث تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك فوالله لأحبسنك عن الوساد ولأنزلنك عن الجياد ولأشهرنك في البلاد قال الأمان أيها الأمير فوالله ماضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له، فقال له ألم أقل لك كأني بصوت خلاخلك تجلجل في قصري هذا اذهبوا به إلى السجن فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها فقال لمن حوله كيف ترون قبتي هذه وبناءها فقالوا أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة قليل عيبها كثير خيرها قال لم تخبروني بنصح قالوا لا يصفها لك إلا الغضبان فبعث إلى الغضبان فأحضره وقال كيف ترى قبتي هذه وبناءها قال أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بباق فقال الحجاج قد صدق الغضبان ردوه إلى السجن فلما حملوه قال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين فقال أنزلوه فلما أنزلوه قال ربّ أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين فقال اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض قال منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى فقال جرّوه فأقبلوا يجرّونه وهو يقول بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم فقال الحجاج ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاء وخبثا ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلى سبيله . وقيل بينما كثير عزة مار بالطريق يوما إذا هو بعجوز عمياء

كأنما أدهم الظلماء حين نجا ... من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

وقال آخر : ليل المحبين مطوى جوانبه ... مشمر الذيل منسوب إلى القصر
ماذاك إلا لأن الصبح نم بنا ... فأطلع الشمس من غيظ على القمر

وقال غيره : لم أر مثل ليل ذوى التصابى ... وكل يشتكيه بكل حال
فيشكو طوله أهل التجافى ... ويشكو قصره أهل الوصال

وقال آخر : ليلى وليلى سواء فى اختلافهما ... قد صيرانى جميعا فى الهوى مثلا
يجود بالطول ليلى كلما بخلت ... بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

وقال آخر : إن الليالى للأنام مناهل ... تطوى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

وقال غيره : رب ليل لم أذق فيه الكرا ... حظ عينى فيه دمع وسهر
كلما هيج ليلى حرق ... صحت ياليل أما فيك سحر

وقال آخر : ياليل طل أو لا تطل ... لا بد لى من سهرك
لو بات عندى قمرى ... ما بت أرعى قمرك

وقال بشار بن برد :

خليلى ما بال الدجى لا يزحزح ... وما بال ضوء الصبح لايتوضح
أضل إليها المستنير طريقه ... أم الدهر ليل كله ليس يبرح

وقال آخر : كأن الثريا راحة تشبر الدجى ... ليعلم طال الليل أم قد تعرضا
فليلى تراه بين شرق ومغرب ... يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا

وقال ابن منقذ :

لما رأيت النجم ساه طرفه ... والقطب قد ألقى عليه سباتا
وبنات نعش فى الحداد سوافر ... وأيقنت أن صباحهم قد ماتا

وقال آخر فى ليلة ممطرة :

أقول والليل فى امتداد ... وأدمع الغيث فى انسفاح
أظن ليلى بغير شك ... قد بات يبكى على الصباح

(ومما جاء فى الأشعار الخمرية قول صفى الدين الحلى) :

بدت لنا الراح فى تاج من الحبب ... فمزقت حلة الظلماء باللهب
بكر إذا زوجت بالماء أولدها ... أطفال در على مهد من الذهب
بقية من بقايا قوم نوح اذا ... لاحت جلت ظلم الأحزان والكرب
بعيدة العهد بالمعصار لو نطقت ... لحدثتنا بما فى سالف الحقب
باكرتها برفاق قد ذهلت بهم ... قبل السلاف سلاف العلم والأدب
بكل متشح بالفضل مؤتزر ... كأن فى لفظه ضربا من الضرب
بل رب ليل غدا فى الإهاب غدت ... تنقض فيه كؤوس الراح كالشهب
بذلت عقلى صداقا حين بت به ... أزوج ابن سحاب بابنة العنب

على قارعة الطريق تمشى فقال لها تنحى عن الطريق فقالت له ويحك ومن تكون قال أنا كثير عزة قالت قبحك الله وهل مثلك يتنحى له عن الطريق قال ولم قلت ألست القائل : وماروضة بالحسن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها بأطيب من أردان عزة موهنا إذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها ويحك ياهذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلى ومثل أمك لطاب ريحها لم لا قلت مثل سيدك امرئ القيس :

وكنت إذا ماجئت بالليل طارقا ... وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فقطعته ولم يرد جوابا . حكى عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى قال : خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا فى الطريق إذ أنا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فاذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت سلام قولا من رب رحيم قال فقلت لها رحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان قالت ومن يضلل الله فلا هادى له فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تريدين قالت سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فعلمت أنها قد قضت حجها وهى تريد بيت المقدس فقلت لها أنت منذ كم فى هذا الموضع قالت ثلاث ليال سويا فقلت ما أرى بدنا

بنا بكاساتها صرعى ومطربنا يعيد أرواحنا من شدة الطرب
بعث ألم فلم نعلم لفرحتنا من نفخة الصور أم من نفخة القصب
بروضة ملل فيها الطل أدمعه والزهر مبتسم عن ثغره الشنب

وقال أيضا :

تاب الزمان من الذنوب فوات واغتم لذيذ العيش قبل فوات تم السرور فقم بنا ياصاحى
نستدرك الماضى بنهب الآتى توج بكاسات الطلاهام الربا فى روضة مطلولة الزهرات
تغدو سلاف القطر دائرة بها والكأس دائرة بكف سقاة تلف النضار على العقار غنيمة
وقراع راحاتى على الراحات ترى لأكياس النضار جهالة من ذا أحق بها من الكاسات
نعت بدا من تاب عن رشف الطلا والكأس متقد كخد فتاة تابع إلى أوقاتها داعى الصبا
واعجب لما فيها من الآيات تم بها نقص السرور فانها عند الكرام تتمة اللذات

وقال أيضا :

حى الرفاق وطف بكأس الراح واطرز بكأسك حلة الأفراح
حث الكؤوس على جسوم أصبحت فيها المدام شريكة الأرواح
حاش الأنام وعاطنى مشمولة ظنت فسادى وهى عين صلاحى
حمراء لو ترك السقاة مزاجها أغنى تلألؤها عن المصباح
حبب تظل به الكؤوس كأنها خصر الفتاة ممنطق بوشاح
حجب الحباب شعاعها فكأنه شفق تلهب تحت ذيل صباح
حكم الزمان وغض عنا طرفه ياصاح لاتقنع بأنك صاح

وقال آخر : قد قلت إذ أضحى يعبس كلما دارت عليه بالمدام الأكؤس
تالله ما أنصفتها ياسيدى تأتيك باسمة وأنت تعبس

(عز الدين الموصلى) :

لئن شبه الساق المدام بعسجد فقد مال بالتشبيه عن صيغة الأدب
ولكن رآها جوهرا سميت طلا فميز ماقد حلت الكأس بالذهب

(يزيد بن معاوية) :

وشمسة كرم برجها قعر دنها وطلعتها الساقى ومغربها فمى
مدام كتبر فى إناء كفضة وساق كبدر مع ندامى كأنجم

وقال آخر : كأن الندامى والسقاة ودننا وكاساتنا فى الروض تملى وتشرب
شموس وأقمار وفلك وأنجم ونور ونوار وشرق ومغرب

وقال آخر :

فكأنها وكأن حامل كأسها إذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها بدر الدجى بكواكب الجوزاء

وقال كشاجم :

صدح الديك فى الدجى فاسقنيها خمرة تترك الحليم سفيها

معك طعاما تأكلين ؟ قالت هو يطعمنى ويسقينى ، فقلت فبأى شئ تتوضئين ؟ قالت : فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ، فقلت لها إن معى طعاما فهل لك فى الأكل ؟ قالت : ثم أتموا الصيام إلى الليل ، فقلت قد أبيح لنا الإفطار فى السفر قالت : وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ، فقلت لم لاتكلمينى مثل ما أكلمك قالت : مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، فقلت فمن أى الناس أنت ؟ قالت : ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا فقلت قد أخطأت فاجعلينى فى حل ، قالت : لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم فقلت فهل لك أن أحملك على ناقتى تدركى القافلة ، قالت : وماتفعلوا من خير يعلمه الله ، قال فأنخت الناقة ، قالت : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، فغضضت بصرى عنها وقلت لها اركبى ، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت : وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، فقلت لها اصبرى فلما ركبت قالت : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، قال فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح ، فقالت : واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، فجعلت أمشى رويدا رويدا وأترنم بالشعر ، فقالت : فاقرءوا ماتيسر من القرآن ، فقلت لها : لقد أوتيت خيرا كثيرا ، قالت : وما يذكر إلا أولوا الألباب ، فلما مشيت بها قليلا قلت ألك زوج قالت : ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، فسكت

ولم آكلها حتى أدركت بها القافلة ، فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها ؟ فقالت : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، فعلمت أن لها أولادا . فقلت وماشأنهم فى الحج قالت : وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت القباب والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها قالت : واتخذ الله إبراهيم خليلا . وكلم الله موسى تكليما . يايحيى خذ الكتاب بقوة ، فناديت ياإبراهيم ياموسى يايحيى فاذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا ، فلما استقر بهم الجلوس قالت : فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه ، فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يدى ، فقالت : كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، فقلت : الآن طعامكم على حرام حتى تخبرونى بأمرها ، فقالوا هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على مايشاء . فقلت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قيل إن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له هيه يامعن تعطى مروان ابن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله :

معن بن زائدة الذى زادت به ... شرفا على شرف بنو شيبان ... حمرا

فقال كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله : مازلت يوم الهاشمية معلنا ... بالسيف دون خليفة الرحمن

لست أدرى من رقة وصفاء ... هى فى الكأس أم هو الكأس فيها

(كمال الدين بن النبيه) :

قم ياغلام ودع مقالة من نصح ... فالديك قد صدع الدجى لما صدح
خفيت تباشير الصباح فاسقنى ... ماضل فى الظلماء من قدح القدح
صهباء مالمعت بكف مديرها ... لمقطب إلا تهلل وانشرح *
* تالله مامزج المدام بمائها ... لكنه مزج المسرة بالفرح
هى صفوة الكرم الكريم فماسرت ... سراؤها فى باخل إلا سمح
من كف فتان اللحاظ بوجهه ... عذر لمن خلع العذار أو افتضح

وقال غيره :

وليلة أوسعتنى حسنا ولهوا وأنسا ... مازلت ألثم بدرا بها وأشهد شمسا

(عبد الله بن محمد العطار . وقيل يزيد بن معاوية) :

وكأس برينا آية الصبح فى الدجى ... فأولها شمس وآخرها بدر
مقطبة مالم يزرها مزاجها ... فإن جاءها جاء التبسم والبشر
فياعجبا للدهر لم يخل مهجة ... من العشق حتى الماء يعشقه الخمر

قال ابن تميم :

وليلة بت أسقى من غياهبها ... راحا تسل شبابى من يد الهرم
مازلت أشربها حتى نظرت إلى ... غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

(ابن مكانس) :

نزل الطل بكرة وتوالى تجددا ... والندامى تجمعوا فأجل كأسى على الندى

(الشيخ شهاب الدين الحجازى) :

كأسنا ياصاح صرفا جليت بين الندامى ... لم نجد ماء لمزج فقنعنا بالندامى

(صفى الدين الحلى) :

كيف لاتخضع العقول لديها ... وهى سلطان سائر السكرات
ألفوا فى الكؤوس إذ مزجوها ... بين ماء الحيا وماء الممات

(غيره) :

صبهافى الكأس صرفا غلبت ضوء السراج ... ظنها فى الكأس نارا فطفاها بالمزاج

(مجد الدين بن تميم) :

نديمى لاتسقنى سوى الصرف فهو المنى ... ودع كأسها أطلسا ولا تسقنى مع دنى

(تقى الدين بن حجة) :

حيا بها عاصرها فى كأسها ... مشرقة باسمة كالثغر
وقال هذى تحفة فى عصرنا ... قلت اسقنيها ياإمام العصر

(أبو الطيب المتنبى) :

ياصاحبى امزجا كأس المدام لنا ... كيما يضىء لنا من أفقها الغسق

لمنت حوزته وكنت وقاءه   من وقع كل مهند وسنان   فقال أحسنت والله يامعن وأمر له بالجوائز والخلع .

ووفد ابن أبى محجن على معاوية فقام خطيبا فأحسن فحسده معاوية فقال له أنت الذى أوصاك أبوك بقوله :

خمرا إذا ما نديمى هم يشربها   أخشى عليه من اللألاء يحترق
لو راح يحلف إن الشمس ماغربت   فى فيه كذّبه فى وجهه الشفق

وقال آخر : بنت كرم يتموها أمها   وأهانوها بدوس بالقدم
ثم داروا حكموها فيهم   ويلهم من جور مظلوم حكم

وقال آخر : عناقيد على قضب تدلت   حكى منظومها عقد اللآلى
إذا عصرت بدا فى الكأس منها   دوالى قد تربت فى دوالى

(برهان الدين بن المعمار) :

باكر لكرم العنب المجتنى   واستجنه من عند عنابه
واعصره واستخرج لنا ماءه   لكى تزيل الهم عنا به

(جولان العاقل) إذا ما الخمر فى الكاسات صبت   رأيت لها شموسا فى بروج
وإن جليت على الندمان يوما   تزاحمت الهموم على الخروج

(وقال فى الشراب المطبوخ) :

يامن يعذب ماء الكرم يحرقه   بالنار فى أى شىء تظلم العنبا
إن التى طبختها الشمس أنفع لى   ولست أخسر لا قدرا ولا حطبا

وقال أيضا : وعتيقة رقت وراق مزاجها   لطفا وأعلها الزمان الغابر
لم يبق منها غير نور ساطع   لا يستطيع يجول فيه الناظر
ترنو إليك من الحباب بأعين   خلقت ولم تخلق لهن محاجر

وقال غيره : لا تعصرن زبيبا واعتصر عنبا   فبين هذين فرقنا بتصريح
هذا من الحى للأحياء معتصر   وذاك يعصر من جسم بلا روح

وقال غيره :

عابوا على مداما أخرتها لصبوحى   واستنكروها وقالوا تخللت قلت روحى

(وقال آخر فى الشراب على الرعد والبرق) :

أما ترى الرعد بكى فاشتكى   والبرق قد أومض فاستضحكا
فاشرب على غيم كصبغ الدجى   أضحك وجه الروض لما بكى
وانظر لماء النيل فى مده   كأنه صندل أو مصطكا

وقال آخر : يا ليلة جمعت لنا الأحبابا   لو شئت دام لنا النعيم وطابا
بتنا بها نسقى سلافا قرقفا   يذر الصحيح بعقله مرتابا
من كف غانية كأن بنانها   من فضة قد قمعت عنابا

وقال آخر : أما ترى الغيث كالباكى بأدمعه   والأرض تضحك والأزهار فى فرح
فقم فديتك نشكو مانكابده   من الزمان وما نلقى إلى القدح

(ابن نباتة) : أما ترى الليل قد ولت غياهبه   وعارض الفجر بالإشراق قد طلعا
فاشرب على وردة وردية قدمت   كأنها خد ريم ريم فامتنعا

ومن شعر عضد الدولة :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة
تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة فإننى
أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

قال :

بل أنا الذى يقول أبى

لاتسأل الناس ما مالى وكثرته
وسائل الناس ما جودى وما خلق
أعطى الحسام غداة الروع حصته
وعامل الرمح أرويه من العلق
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض
وأكتم السر فيه ضربة العنق
ويعلم الناس أنى من سراتهم
إذا سما بصر الرعديد بالفرق

فقال له معاوية أحسنت والله يابن أبى محجن وأمر له بصلة وجائزة . وقيل دخل مجنون الطاق يوما إلى الحمام وكان بغير مئزر فرآه أبوحنيفة رضى الله تعالى عنه وكان فى الحمام فغمض عينيه فقال له المجنون متى أعماك الله فقال منذ هتك سترك . ومن ذلك ما يحكى أن الحجاج خرج يوما متنزها فلما فرغ من نزهته انصرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فإذا هو بشيخ من بنى عجل فقال له من أين أيها الشيخ قال من هذه القرية قال كيف ترون عمالكم

قال شرّ عمال يظلمون الناس ويستحلون أموالهم قال فكيف قولك فى الحجاج قال ذاك ما ولى العراق شرّ منه قبحه الله وقبح من استعمله قال أتعرف من أنا قال لا قال أنا الحجاج قال جعلت فداك أو تعرف من أنا قال لا قال أنا فلان بن فلان مجنون بنى عجل أصرع فى كل يوم مرتين قال فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة . وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال : كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فانتبه منزعجا وقال ياخدم فأسرعنا الجواب فقال ويلكم أعينونى والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرا فى سفينة فارغة فاقبضوا عليه وائتونى به ووكلوا بالسفينة من يحفظها فأسرعنا فوجدنا ملاحا فى سفينة فجئنا به للمعتضد فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال أصدقنى يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك فتلعثم وقال نعم كنت سحرا فى المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلى كثيرة وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها وغرّقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها فى الماء ولم أجسر على حمل سلبها إلى دارى لئلا يفشو الخبر علىّ فعوّلت على الهروب والانحدار الى واسط فصبرت إلى أن خلا الشطّ فى هذه الساعة من الملاحين فأخذت فى الانحدار فتعلق فى

طربت إلى الصبوح مع الصباح ... وشرب الراح والقمر اللاح
وكان الثلج كالكافور نثرا ... وناري بين نار نجى وراحى
فشمومى ومشروبى وناري ... وثلجى والصباح مع الصباح
لهيب فى لهيب فى لهيب ... صباح فى صباح فى صباح

(ابن وكيع): وصفراء من ماء الكروم كأنها ... فراق عدوّ أو لقاء صديق
كأن الحباب المستدير بطوقها ... كواكب درّ فى سماء عقيق
صبت عليها الماء حتى تعوضت ... قميص بهار من قميص شقيق

وقال آخر : وحمراء قبل المزج صفراء بعده ... أتت بين ثوبى نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا ... عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

وقال آخر : إذا الكروان صاح على الرمال ... وحلّ البدر فى برج الكمال
وجعد وجه بركتنا هبوب ... تمرّ به الجنوب مع الشمال
وحرّكت الغصون فشابهتها ... قدود سقاتنا فى كلّ حال
فهات الكأس مترعة ودعنى ... أبادر لذّتى قبل ارتحالى
فكلّ جماعة لاشكّ يوما ... يفرق بينهم صرف الليالى

وقال آخر فى الشراب على الغيم :

أرى غيما تؤلفه جنوب ... ويوشك أن يوافقنا بهطل
فوجه الرأى أن تدعو برطل ... فتشربه وتدعو لى برطل

وقال آخر : فيا بكر باكر بكرة بكر كرمة ... تفز ببكور باكرتك بها بكر
وداو خمار الخمر بالخمر إنما ... دواء خمار الخمر من دائها الخمر

وقال الصنوبرى : لا تبكينّ على الأطلال والدمن ... ولا على منزل أقوى من السكن
وقم بنا نصطبح صهباء صافية ... تنفى الهموم ولاتبقى على الحزن
بكرا معتقة عذراء واضحة ... تبدو فتخبرنا عن سالف الزمن
حمرا مروقة صفراء فاقعة ... كأنما مزجت من طرفك الوسنى
يسعى بها غنج فى خده ضرج ... فى ثغره فلج يجنى إلى اليمن
فى ريقه عسل قلبى به خبل ... فى مشيه ميل أربى على الغصن
كأنه قمر ما مثله بشر ... فى طرفه حور يرنو فيجرحنى
سبحان خالقه ياويح عاشقه ... يهدى لرامقه صنفا من الشجن
فى روضة زهرت بالنبت قد حسنت ... كأنها فرشت من وجهه الحسن
بالطيب مجلسنا والطير يطربنا ... والعود يسعدنا مع منشد لسن

(كمال الدين بن النبيه) :

طاب الصبوح لنا فهاك وهات ... واشرب هنيئا يا أخا اللذات
كم ذا التوانى والزمان مساعد ... والدهر سمح والحبيب مواتى
قم واغتبق من شمس كأسك واصطبح ... بكواكب طلعت من الكاسات

هؤلاء القوم حملونى إليك فقال أين الحلى والسلب قال فى صدر السفينة تحت البوارى ، قال المعتضد علىّ به الساعة ، فحضروا به ، فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد : من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرا وعليها ثياب فاخرة وحلى فليحضر ، فحضر فى اليوم الثانى أهلها وأعطوا صفاتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم ، قال فقلت يامولاى من أعلمك أأوحى إليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية ، فقال بل رأيت فى منامى رجلا شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى ياأحمد أوّل ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرّره على المرأة التى قتلها اليوم ظلما وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك فكان ماشهدتم .

وحكى أن بهرام الملك خرج يوما للصيد فانفرد عن أصحابه فرأى صيدا فتبعه طامعا فى لحاقه حتى بعد عن عسكره فنظر إلى راع تحت شجرة فنزل عن فرسه يبول وقال للراعى احفظ علىّ فرسى حتى أبول ، فعمد الراعى إلى العنان وكان ملبسا ذهبا كثيرا ، فاستغفل بهرام وأخرج سكينا فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذى عليه ، فرفع بهرام نظره إليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه إلى الأرض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته ، ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعى قدم إلى فرسى فانه قد دخل فى عينىّ من سافى الريح فلا أقدر على فتحهما ، فقدمه إليه فركب وسار

حمراء صافية توقد نورها ... فعجبت للنيران فى الجنات
ينسلّ فى قار الظروف حبابها ... والدرّ مجتلب من الظلمات
عذراء واقعها المزاج أما ترى ... منديل عذرتها بكف سقاة
يسعى بها عبل الروادف أهيف ... خنث الشمائل شاطر الحركات
يهوى فتسبقه ذوائب شعره ... ملتفة كأساود الحيات
لو قسمت أرزاقنا بيمينه ... عدل الزمان على ذوى الحاجات

وقال أيضا :

باكر صبوحك أهنى العيش باكره ... فقد ترنم فوق الأيك طائره
والليل تجرى الدرارى فى مجرته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب على يده ... مخلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبب ... تنوب عن ثغر من تهوى جواهره
حمراء من وجنة الساقى لها شبه ... فهل جناها من العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق ... فابيض خداه واسودّت غدائره
بيض سوالفه لعس مراشفه ... نعس نواظره خرس أساوره
مفلج الثغر معسول اللمى غنج ... مؤنث الجفن فحل اللحظ شاطره
مهفهف القدّ يبدى جسمه ترفا ... مخصر الخصر عبل الردف وافره
تعلمت بانة الوادى شمائله ... وزوّرت سحر عينيه جآذره
كأنه بسواد اللحظ مكتحل ... وركبت فوق صدغيه محاجره
فلو رأت مقلتا هاروت آيته الـ ... كبرى لآمن بعد الكفر ساحره
خذ من زمانك ماأعطاك مغتنما ... وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله ... لكنه ربما مرّت أواخره
واجسر على فرص اللذات محتقرا ... عظيم ذنبك إنّ الله غافره

وقال آخر :

شربنا بالبواطى ثم رحنا ... نعلّ بالكؤوس وبالقنانى
ولولا ضيقة الأجرام قلنا ... لساقيها أدرها بالدنان

(برهان الدين القيراطى) :

أرى جرار الخمر تغلو وقد ... عزت وبالإفلاس حالى عجيب
جئنا لخمار وقلنا له ... احمل إلينا جرة كى نطيب
قال زبيب تريدون أم ... خمرا فان الكل منى قريب
قلنا له خمرا فنادى زنوا ... فى جرة عشرين قلنا الزبيب

وقال أيضا :

ضرف الزبيب لصرف همى ... نص على نفعه طبيبى
آها على سكرة لعلى ... أن أخلط الهمّ بالزبيب

وقال :

قالوا اترك الخمر واجتنبها ... لاتتعدّ الحرام حدّا
قلت أراها للروح قوتا ... وطالب القوت ماتعدّى

(ومما قيل فى شرب الفقهاء) :

يحمون بالفقه عرض الدين من سفه ... علما بتصريف أحوال وتحقيق

وبعضهم يكرع الصهباء مغتنما ... تحت الظلام بأفواه الأباريق

(ومما قيل فيمن يطيل الحديث والكأس فى يده) :

وشادن نطقه جار إذا شغفت ... فى مجلس الشرب كاسات بطاسات
يظل يحكى وكاسات الراح فى يده ... حكاية عرضها عرض السموات

(ومما قيل فى كريم السكر لئيم الصحو) :

إذا هزّ اللئيم السكر يوما ... بدا فى بذل مال فيه ضنا
يجود بماله فى الشرب سكرا ... ويأكل كفه فى الصحو حزنا

(ومما قيل فى شجاع السكر) :

إذا شرب الجبان الخمر يوما ... أعارته الشجاعة باللسان
وعند الصحو تلقاه جزوعا ... إذا اشتدّ اللقا يوم الطعان

وفيه أيضا :

يقول جبان القوم فى حال سكره ... وقد شرب الصهباء هل من مبارز
وأين الخيول الأعوجيات فى الوغى ... أناقل فيها كل ليث مناهز
ومن لى بحرب ليس تخمد ناره ... لعمرى إنى لست فيها بعاجز
ففى السكر قيس وابن معدى وعامر ... وفى الصحو تلقاه كبعض العجائز

وقال فى شرب الثلاثة :

ثلاثة فى مجلس طيب ... وعيشهم مافيه تكدير
هذا يغنى ذا وهذا الذى ... يسقى وذا بالشرب مسرور

وقيل فى شرب الأربعة :

ألا إنما خير المجالس مجلس ... به وله صفو الزمان مساعد
فتاة وساق والمغنى وصاحب ... وخامسهم هم على الكل زائد

وقيل فى شرب الستة :

خير المجالس خمسة أوستة ... أوسبعة وعلى الكثير ثمانيه
فاذا تعدى صار شغلا شاغلا ... وتكسرت بين الرجال الآنيه
فاهرب إذا ما كنت تاسع مجلس ... ولئن أتيت به فأمك زانيه

(ومما قيل فى الشرب مع التجار) :

شربت مع التجار وكان يوما ... جعلت حضورنا فيه وداعا ... فذاك يقول كم أطلقت بيعا
ووفيت الذى بعت الذراعا ... وهذا قال عندى كل شىء ... ولكن لا أبيع ولا أباعا
فلا تجعلهموا أبدا ندامى ... فتكسب من مجالسهم صداعا

(ومما قيل فيمن أكل على الشراب) :

وندمان إذا ما الكأس دارت ... بغير الأكل ارتعدت يداه
يديم دأبه فى السكر أكل ... فلا يبقى على شىء يراه

وقيل فى قدح :

غرامى

إلى أن وصل إلى عسكره فقال لصاحب مراكبه إن أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحدا . قيل مرض أحمد بن أبى دؤاد فعاده المعتصم وقال نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدّق بعشرة آلاف دينار فقال له أحمد يا أمير المؤمنين فاجعلها فى أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة ، فقال نويت أن أتصدّق بها على من ههنا وأطلق لأهل الحرمين مثلها ، فقال أحمد متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين فانك كما قال النميرى لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه :

إنّ المكارم والمعروف أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصما ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

ومن محاسن الأخلاق ماحكى عن القاضى يحيى ابن أكثم قال : كنت نائما ذات ليلة عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص علىّ نومى فرأيته قد قام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة فأخذ منها كوزا فشرب ثم رجع على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى أنا عليه فخطى خطوات خائفا لئلا ينبهنى حتى صار إلى فراشه ، ثم رأيته آخر الليل قام يبول وكان يقوم فى أوّل الليل وآخره ، فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام ، فلما تحركت وثب قائما وصاح باغلام وتأهب

غرامي ووجدي بالذي كان في الثرى ... مهانا فأضحى في المجالس حاكما
قضى ما عليه من ورود جهنم ... فصار لجنات النعيم ملازما

محمد بن جعفر الأنصاري يستدعي بعض أصدقائه إلى الشراب :

بساط الأرض مسك أو عبير ... وزهر الروض وشي أو حرير ... وقد صفق الدنان الخمر حتى
لقد عادت لدينا وهي نور ... ومن يرد السرور يعش هنيئا ... إذ العيش المهنّى هو السرور
وعندي اليوم فتيان كرام ... وجوههمو شموس أو بدور ... وقطب الأمر أنت وهل لأمر
بغير القطب فيه رحى تدور ... فرأيك في الحضور فحق يومي ... عليك وقد دعاك له الحضور

وقال آخر :

باكر صبوحك وانعم بها مشعشعة ... واهنأ بعيش حميد غير مذموم
حمراء من بعد ما احمرت موردة ... طافت علينا فسرّت كل مهموم
كأن في كأسها والماء يقرعها ... أكارع النمل أو نقش الخواتيم
لا صاحبتني يد لم تغن ألف يد ... ولم ترد القنا حمر الخياشيم
بادر بجودك بادر قبل عائقه ... فإن خلف الفتى عندي من اللوم

سيف الدولة بن حمدان في ساق :

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فما بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدي النجوم مطارفا ... على الجوّ دكنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السماء بأصفر ... على أحمر في أخضر تحت مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

(ابن نباتة) : سقى وواعدني وصلا ألذ به ... عند المنام ولا والله ما وصلا
قبيلة الله من ساق مواعده ... كانت مواعيد عرقوب لها مثلا

وقال آخر في ساق :

وساق كالهلال سقى بكأس ... لربة نرجس فسقى وحيا
فقلت تأملوا بدرا منيرا ... سقى شمسا وحيا بالثريا

وفيه لابن النبيه :

ساق صحيفة خده ما سوّدت ... عبثا بلام عذاره ونونه
جمد الذي بجبينه في خده ... وجرى الذي في خده بجبينه

(في جارية ساقية) :

نديمتي جارية ساقيه ... ونزهتي ساقية جاريه
جارية أعينها جنة ... وجنة أعينها جاريه

(فيمن حبس الكأس في يده) :

قالوا الذي تهواه يحبس كأسه ... في كفه من غير ذنب موجب
فأجبتهم كفوا الملام فإنه ... قمر يزه طرفه في كوكب

الصلاة ثم جاءني فقال لي كيف أصبحت يا أبا محمد وكيف كان مبيتك ؟ قلت خير مبيت جعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين قد جمعك الله تعالى بأخلاق الأنبياء وأحب لك سيرتهم فهناك الله تعالى بهذه النعمة وأتمها عليك ، فأمر لي بألف دينار فأخذتها وانصرفت ، قال وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال حتى غلبه فعل وأكبّ على الأرض لئلا يعلو صوته فأنتبه. وكنت معه يوما في بستان ندور فيه ، فجعلنا نمرّ بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان أصلح هذا الحوض ولا تغرس في هذا الحوض شيئا من البقول قال يحيى ومشينا في البستان من أوله إلى آخره وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل فكان يجذبني أن أتحوّل أنا في الظل ويكون هو في الشمس فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان ، فلما رجعنا قال يا يحيى والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي ، فقلت والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت ، فلم يزل بي حتى تحوّلت إلى الظل وتحوّل هو إلى الشمس ووضع يده على عاتقي وقال بحياتي عليك إلا وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف له

وحكي أن أحمقين اصطحبا في طريق ، فقال أحدهما : تعال نتمنّ على الله فإن الطريق تقطع بالحديث فقال أحدهما أنا أتمنى

قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها . وقال الآخر أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لاتترك منها شيئا قال ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة ؟فتصايحا واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكما بينهما فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ثم قال صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين . وقال الأصمعي بينا أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شابا متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول :

يامن يجيب دعا المضطر في الظلم ... يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت ياحي ياقيوم لم تنم
أدعوك ربي حزينا هائما قلقا ... فارحم بكائي بحق البيت والحرم
إن كان جودك لايرجوه ذوسفه ... فمن يجود على العاصين بالكرم

ثم بكى بكاء شديدا وأنشد يقول :

ألا أيها المقصود في كل حاجة ... إليك شكوت الضر فارحم شكايتي
ألا يارجائي أنت تكشف كربتي ... فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة ... وما في الورى عبد جنى كجنايتي

وقال آخر في مجلس أنس :

ومجلس راق من واش يكدره ... ومن رقيب له باللوم إيلام
مافيه ساع سوى الساقي وليس له ... على الندامى سوى الريحان نمام

(صفي الدين في عود) :

ولي عود به عاد السرور لأنه ... حوى اللهو قدما وهو ريان ناعم
يغرب في تغريده فكأنه ... يعيد لنا مالقنته الحمائم

وقال آخر في زامرة :

وناطقة بالنفخ عن روح ربها ... تعبر عما دوننا وتترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت ... فنحن سكوت والهوى يتكلم

(ومما قيل في فانوس لابن تميم) :

انظر إلى الفانوس تلق متيما ... ذرفت على فقد الحبيب دموعه
يبدو تلهب جسمه لنحوله ... وتعد من تحت القميص ضلوعه

وفيه لابن قزل :

وكأنما الفانوس في غسق الدجى ... دنف براه شوقه وسهاده
أضلاعه خفيت ورق أديمه ... وجرت مدامعه وذاب فؤاده

ولبعضهم في شمعة :

حكتني وقد أودى بي السقم شمعة ... وإن كنت صبا دونها متوجعا
ضنى وسهاد واصفرار ورقة ... وصبرا وصمتا واحتراقا وأدمعا

(ومما قيل في الربيع والرياض والبساتين والمياه والنواعير ونحو ذلك) . قال الشاعر :

هذا الربيع وهذه أزهاره ... متجاوب في أيكه أطياره
وبدا البنفسج والشقائق مونق ... والورد يضحك بينها وبهاره
فاشرب على وجه الحبيب وغن لي ... هذا هواك وهذه آثاره

وقال غيره : غدونا على الروض الذي طله الندى ... سحيرا وأوداج الأباريق تسفك
فلم تر شيئا كان أحسن منظرا ... من النور يجري دمعه وهو يضحك

وقال آخر : أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها ... بخضرة واكتسى بالنور عاريها
فللسماء بكاء في جوانبها ... وللربيع ابتسام في نواحيها

(غيره) : إن السماء إذا لم تبك مقلتها ... لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر
والأرض لاتنجلي أنوارها أبدا ... إلا إذا رمدت من شدة المطر

وقال ابن قرناص : أياحسنها من رياض غدا ... جنوني فنونا بأفنانها
مشى الماء فيها على رأسه ... لتقبيل أقدام أغصانها

وقال آخر : انظر إلى الأغصان كيف تعانقت ... وتفارقت بعد التعانق رجعا
كالصب حاول قبلة من إلفه ... فرأى المراقب فانثنى متوجعا

وقال ابن تميم : وحديقة يغتاب فيها جدول ... طرفي برونق حسنها مدهوش

يبدو

يبدو خيال غصونها فى مائه   فكأنما هو معصم منقوش

وقال أيضا عفا الله عنه :

لم لا أهيم إلى الرياض وحسنها   وأظل منها تحت ظل ضاف
والزهر حيانى بثغر باسم   والماء وافانى بقلب صاف

وقال آخر :

قد سعينا نبغى زيارة دوح   قد حبانا باللطف والإكرام
ناولتنا أيدى الغصون ثمارا   أخرجتها لنا من الأكمام

(ومما قيل فى الأزهار والثمار) . قال بعضهم فى الورد :

ياراقدا ونسيم الصبح منتبه   فى روضة القصف والأطيار تنتحب
الورد ضيف فلا تجهل كرامته   فهاتها قهوة فى الكأس تلتهب
سقيا له زائرا تحيا النفوس به   يجود بالوصل شهرا ثم يحتجب

وقال آخر فيه :

طاب الزمان وجاء الورد فاصطبحا   مادام للورد أنوار وأزهار
واستقبلا عيشنا بالكأس مترعة   لا طوّلت للئام الناس أعمار

وقال آخر :

اشرب على الورد من حمراء صافية   شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا
واستوف بالكاس من لهو ومن طرب   فلست تأمن صرف الحادثات غدا

وقال آخر :

اشرب على ورد الخدود فانها   أيام ورد والصبوح يطيب
ما الورد أحسن منظرمن وجنة   حمراء جاد بها عليك حبيب

وقال بعضهم :

ولقد رأيت الورد يلطم خدّه   ويقول وهو على البنفسج يحنق
لاتقربوه وإن تضوّع نشره   من بينكم فهو العدوّ الأزرق

(ومما قيل فى البنفسج) . قال ابن المعتز :

ولا زوردية وافت بزورتها   بين الرياض على زرق اليواقيت
كأنها فوق طاقات ضعفن بها   أوائل النار فى أطراف كبريت

وقال آخر :

اشرب على زهر البنفسج قهوة   تهدى السرور لكل صبّ مكمد
فكأنه قرص بخدّ مهفهف   أو أعين زرق كحلن بإثمد

(ولبعضهم فى الورد) :

للورد فضل على زهر الربيع سوى   أنّ البنفسج أزكى منه فى المهج
كأنه وعيون الناس ترمقه   آثار قرص يد فى خد ذى غنج

وقال آخر :

يامهديا لى بنفسجا أرجا   يرتاح صدرى له وينشرح
بشرنى عاجلا مصحفه   بأن ضيق الأمور ينفسح

(وقال غيره فى النرجس) :

وقضب زمرد تعلو عليها   عيون لم تذق طعم الغماض
توهمت الغمام لها رقيبا   فنكست الرءوس إلى الرياض

وقال آخر فيه :

أنت يانرجس روض   لزهور الأرض ستّ
ودليل القول فيك   أن أوراقك ستّ

أحرقنى بالنار ياغاية المنى   فأين رجائى ثم أين مخافتى ثم سقط على الأرض مغشيا عليه فدنوت منه فاذا هو زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم أجمعين فرفعت رأسه فى حجرى و بكيت فقطرت دمعة من دموعى على خدّه ففتح عينيه وقال من هذا الذى يهجم علينا قلت عبيدك الأصمعى سيدى ماهذا البكاء والجزع وأنت من أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة أليس الله تعالى يقول - إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا - قال هيهات هيهات ياأصمعى إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرّا قرشيا أليس الله تعالى يقول - فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون - انتهى .

وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضا فحضر عنده ذات ليلة الأهيم ابن مخزمة الكندى وخالد ابن صفوان بن الأهيم فخاضوا فى الحديث وتذاكروا مضر واليمن فقال إبراهيم ابن مخرمة ياأمير المؤمنين انّ أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكا ورثوا الملك كابرا عن كابر وآخرا من أوّل : منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ، ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصبا وليس من شىء له خطر إلا إليهم ينسب إن سئلوا أعطوا

وإن نزل بهم ضيف أقروه فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة ، فقال أبو العباس ما أظن التميمي رضي بقولك ثم قال ماتقول أنت يا خالد قال إن أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت قال تكلم ولا تهب أحدا قال أخطأ المقتحم بغير علم ونطق بغير صواب وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فلله المنة به علينا وعليهم فمنا النبي المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور وزمزم والحطيم والمقام والحجابة والبطحاء وما لا يحصى من المآثر ومنا الصدّيق والفاروق وذو النورين والوصيّ والوليّ وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرف الدين وأتانا اليقين فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال ألك علم بلغة قومك ؟ قال نعم قال فما اسم العين عندكم قال الجمجمة قال فما اسم السن قال الميذن قال فما اسم الأذن قال الصنارة قال فما اسم الأصابع ؟ قال الشناتير قال فما اسم الذئب قال الكتع قال أفعالم أنت بكتاب الله عزّ وجلّ قال نعم قال فإن الله تعالى يقول إنا أنزلناه قرآنا عربيا وقال بلسان عربي مبين وقال تعالى وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل ألم تر أن الله تعالى قال والعين بالعين ولم يقل والجمجمة بالجمجمة وقال تعالى

هذا

وقال آخر :

أقول وطرف النرجس الغض شاخص   إليّ وللنمام حولي إلمام
أيا ربّ حتى في الحدائق أعين   علينا وحتى في الرياحين نمام

وقال أيضا فيه : لما تمادى الورد في زهره   وراح من إعجابه برأس
تلوّن المنثور مما به   واصفرّ من غيظ به النرجس

(ومما قيل في الينوفر لابن المعزّ المصري) :

وبركة تزهو بلينوفر   نسيمه يشبه نشر الحبيب   مفتح الأجفان في نومه
حتى إذا الشمس دنت للمغيب   أطبق جفنيه على خده   وغاص في البركة خوف الرقيب

وقال تميم بن المعز المصري :

رأيت في البركة لينوفرا   فقلت ماشأنك وسط البرك   فقال لي غرقت في أدمعي
وصادني ظبي الفلا بالشرك   فقلت ما بال اصفرار بدا   فيك وما هذا الذي غيرك
فقال لي ألوان أهل الهوى   صفر ولو ذقت الهوى صفرك

(ومما قيل في البان) :

قد أقبل الصيف وولى الشتا   وعن قليل تسأم الحرّا
أما ترى البان بأغصانه   قد قلب الفرو إليّ برا

وقال آخر فيه :

أما ترى على البان الذي يزهو على   كلّ الغصون بقده المياس
وافى يبشر بالربيع وقربه   يختال في السنجاب والبرطاس

(وقال في الشقيق) :

حييته بشقائق في مجلس   ورأى الرقيب فشقّ ذاك عليه
فاحمر من خجل فأنبت خده   أضعاف ما حملت يداي إليه

وقال آخر : لو لم أعانق من أحبّ بروضة   أحداق نرجسها إلينا تنظر
ما انشق جيب شقيقها حسدا ولا   بات النسيم بذيله يتعثر

وقيل إن ابن الرومي الشاعر زار قبر أخيه يوما فوجد الشقائق قد نبتت على قبره فأنشد يقول :

قالت شقائق قبره   ولربّ أخرس ناطق   فارقته ولزمته   فأنا الشقيق الصادق

(ومما قيل في المنثور) :

تخال منثورها في الدوح منتثرا   كأنما صيغ من درّ وعقيان
والطير ينشد في أغصانه سحرا   هذا هو العيش إلا أنه فاني

وقال آخر : قد أقبل المنثور يا سيدي   كالدرّ والياقوت في نظمه
ثناك لازال كأنفاسه   ومخّ من يشناك مثل اسمه

ولبعضهم فيه :

ولقد خلوت مع الأحبة مرّة   في روضة الزهر فيها معرك
ما بين منثور أقام ونرجس   مع أقحوان وصفه لا يدرك

والسنّ بالسنّ ولم يقل والميدن بالميدن وقال تعالى والأذن بالأذن ولم يقل والصنارة بالصنارة وقال تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم
ولم يقل شناتيرهم فى صناراتهم وقال تعالى فأكله الذئب ولم يقل فأكله الكنع ثم قال لإبراهيم إنى أسألك

هذا يشير بأصبع وعيون ذا ... ترنو إليه وثغر هذا يضحك

(ومما قيل فى الياسمين) :

والأرض تبسم عن ثغور رياضها ... والأفق يسفر تارة ويقطب
وكأن مخضرّ الرياض ملاءة ... والياسمين لها طراز مذهب

وقال آخر : رأيت الفأل بشرى بخير ... وقد أهدى إلىّ الياسمين
فلا تحزن فان الحزن شين ... ولا تيأس فان اليأس مين

(ومما قيل فى السوسن للأخطل الأهوازى) :

سقيا لأرض إذا ما نمت نبهنى ... بعد الهدوّ بها قرع النواقيس
كأنّ سوسنها فى كلّ شارقة ... على الميادين أذناب الطواويس

(ومما قيل فى الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربى) :

أفدى الذى زارنى سرّا فأتحفنى ... بأقحوان يحاكى ثغر مبتسم
فبتّ من فرحى أفنى مقبله ... لثما وأرشف من ريق له شبم

ولبعضهم فيه :

إن فاه ثغر الأقاحى فى تشبهه ... بثغر حبك واستولى به الطرب
فقل له عند ما يحكيه مبتسما ... لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

(ومما قيل فى الجلنار) :

وجلنار مشرق ... على أعالى شجره ... كأن فى غصنه
أحمره وأصفره ... قراضة من ذهب ... فى خرقة معصفره

(ومما قيل فى الآس) :

أهديت مشبه قدك المياس ... غصنا نضيرا ناعما من آس
فكأنما يحكيك فى حركاته ... وكأنما تحكيه فى الأنفاس

(ومما قيل فى الريحان) :

وغصن من الريحان أخضر ناضر ... نما بين غصنى نرجس وشقائق
يريك إذا كفّ الصبا عبثت به ... شمائل معشوق وذلة عاشق

وفيه أيضا : وريحان يميس بحسن قدّ ... يلذ بشمه شرب الكؤوس
كسودان لبسن ثياب خز ... وقد قاموا مكاشيف الرءوس

وقال آخر : قضيب من الريحان شاكل لونه ... إذا ما بدا للعين لون الزبرجد
فشبهته لما بدا متجعدا ... عذار تبدى فى سوالف أغيد

(ومما قيل فى الفواكه والثمار على اختلافهما) قال ابن الرومى فى الأترج :

كل الخلال التى فيكم محاسنكم ... تشابهت منكم الأخلاق والخلق
كأنكم شجر الأترج طاب معا ... حملا ونشرا وطاب العود والورق

ولبعضهم فيه : حياك من تهوى بأترجة ... ناعمة مقدودة غضه
جلدها من ذهب أصفر ... وجسمها الناعم من فضه

عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت قال وما هن قال الرسول منا أو منكم قال منكم قال والقرآن أنزل علينا أو عليكم قال عليكم قال فالمنبر فينا أو فيكم قال فيكم قال فالبيت لنا أو لكم قال لكم قال فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنت إلا سائس قرد أو دابغ جلد أو ناسج برد قال فضحك أبو العباس وأقر لخالد وحباهما جميعا . وحكى أن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستماله وهرب هو والسجان وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه وأقامه عنده فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخى أمير المؤمنين وولىّ عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأيا فكتب الوليد
إلى أخيه سليمان بذلك فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين إنى ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجر عدوا لأمير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وغرمه أربعة آلاف درهم ظلما ثم طالبه بثلاثة آلاف

وقال آخر :

يا حبـــذا أترجة تحدث للنفس الطرب ... كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

(فى الليمون قول أبى الحسن رئيس الرؤساء) :

يا حسن ليمونة حيا بها قمـر ... حلو المقبل ألمى بارد الشنب
كأنها أكرة من فضة خرطت ... واستودعوها غلافا صيغ من ذهب

وفيه أيضا :

وصاحب ناديتـــه والطير لم يغـرّد ... انهض إلى الراح ولا ترضى بعيش نكد
واشرب سلافا قرقفا من كفّ ساق أغيد ... قد اكتست تلهبا من خدّه المورّد
ولا تدع مجتهـــدا لذّة يوم لغـــد ... أما ترى الليمون فى غصن من الزبرجد
كأكرة من فضة ... مملوءة من عسجد

(فى النارنج لعبد الله بن المعتزّ) :

نظرت إلى نارنجه فى يمينه ... كجمرة نار وهى باردة اللمس
فقرّبها من خده فتألفت ... فشبهتها المريخ فى دارة الشمس

وقال آخر :

ونارنجة بين الرياض نظرتها ... على غصن رطب كقامة أغيد
إذا ميلتها الريح مالت كأكرة ... بدت ذهبا فى صولجان زبرجد

وقال آخر :

ونارنج يلوح عـلى غصون ... ومنـه مارى كالصولجان
أشبهها ثديا ناهـدات ... غلائلها صبغن بزعفـران

وقال آخر :

وأشجار نارنج كأنّ ثمارها ... حقاق عقيق قد ملئن من الدرّ
تطالعها بين الغصون كأنها ... قدود عذارى فى ملاحفها الخضر
أتت كلّ مشتاق بريا حبيبـه ... فهاجت له الأشجان من حيث لا يدرى

(فى التفاح لبعضهم) :

ولما بدا التفاح أحمر مشرقا ... دعوت بكأسى وهى ملأى من الشفق
وقلت لساقيها أدرها فعندنا ... خدود الأغانى قد جمعن على طبق

وقال آخر فى تفاحة :

وتفاحة من سندس صيغ نصفها ... ومن جلنار نصفها وشقائق
كأن الهوى قد ضمّ من بعد فرقة ... بها خدّ معشوق إلى خدّ عاشق

ولبعضهم فيه :

تفاحة كسيت لونين خلتهما ... خدّى محبّ ومحبوب قد التصقا
تعانقا فبدا واش فراعهما ... فاحمرّ ذا خجلا واصفرّ ذا فرقا

وقال آخر :

وتفاحة وردية ذهبيـــة ... تجلى عن المهموم ليل همومه
كأنّ سلاف الخمر روّى أديمها ... بخمر تجلت باحمـرار أديمه
تذكرنى شكل الحبيب وحسنه ... وتوريد خدّيه وطيب نسيمه

وقال

ألف درهم وقد صار إلىّ واستجار بى فأجرته وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف درهم فان رأى أمير المؤمنين أن لا يخزينى فى ضيفى فليفعل فانه أهل الفضل والكرم فكتب إليه الوليد أنه لابدّ أن ترسل إلىّ يزيد مغلولا مقيدا فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده ثم شدّ قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعا بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد وكتب إليه أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممت أن أكون ثالثهما فان هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانيا واجعلنى إذا شئت ثالثا والسلام . فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان فى سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال لقد أسأنا إلى أبى أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد يتكلم ويحتجّ لنفسه فقال له الوليد ما نحتاج إلى الكلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج ثم إنه أحضر حدّادا وأزال عنهما الحديد وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما إلى سليمان وكتب كتابا إلى الحجاج يقول له لا سبيل لك على يزيد بن المهلب فإياك أن تعاودنى فيه بعد اليوم فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده فى أعلى المراتب وأرفع المنازل انتهى

وقال آخر : حمرة التفاح فى خضرته   أشبه الألوان من قوس قزح
فعلى التفاح فاشرب قهوة   واسقنيها بنشاط وفرح

وفيه أيضا : أهدى لنا التفاح من كفه   من لم يزل يجنيه من خده
وخط بالمسك على بعضها   قد عطف المولى على عبده

(ومما قيل فى السفرجل) :

حاز السفرجل لذات الورى فغدا   على الفواكه بالتفضيل مشهورا
كالراح طعما وشم المسك رائحة   والتبر لونا وشكل البدر تدويرا

وقال آخر : سفرجلة صفراء تحكى بلونها   محبا شجاه للحبيب فراق
إذا شمها المشتاق شبه ريحها   بريح حبيب لذ منه عناق
وطيبة عند المذاق كطعمها   كريق حبيب طاب منه مذاق

وقال آخر : سفرجلة جمعت أربعا   فكان لها كل معنى عجيب
صفار النضار وطعم العقار   ولون المحب وريح الحبيب

(وقيل فى الكمثرى) :

وكمثرى لذيذ الطعم حلو   شهىّ جاء من دوح الجنان
مناقير الطيور إذا اقتلنا   مغبرة بلون الزعفران

ابن برغش متغزلا :

وكمثرى سبانى منه طعم   كطعم الشهد شيب بماء ورد
* لذيذ خلقه لما أتانا   نهود السمر فى معنى وقدّ

(ماقيل فى المشمش) :

بدا مشمش الأشجار يذكو شهابه   على غض أغصان من الروض ميد
حكى وحكت أشجاره فى اخضراره   جلاجل تبر فى قباب زبرجد

(ماقيل فى الإجاص) :

انظر إلى شجر الإجاص قد حملت   أغصانه ثمرا ناهيك من ثمر
تراه فى أخضر الأوراق مستترا   كما اختبى الزنج فى خضر من الأزر

(ماقيل فى الخوخ) :

أهدى إلىّ الصديق خوخا   منظره منظر أنيق   من كل مخصوصة بحسن
معناه فى مثلها دقيق   حمراء صفراء مستعير   بهجتها التبر والعقيق
كوجنة مسها خلاوق   فزال عن بعضها الخلوق

(ماقيل فى الفستق) :

تفكرت فى معنى الثمار فلم أجد   لها ثمرا يبدو بحسن مجرّد
سوى الفستق الرطب الجنىّ فإنه   زها بمعان زينت بتجرّد *
غلالة مرجان على جسم فضة   وأحشاء ياقوت وقلب زبرجد

(ماقيل فى البندق) :

وحكى أبو على المصرى قال : كان لى جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوما حدثنى بأعجب مارأيت من الموتى فقال جاءنى شاب فى بعض الأيام مليح الوجه حسن الثياب فقال لى أتغسل لنا هذا الميت ؟ قلت نعم ، فتبعته حتى أوقفنى على باب ، فدخل هنيهة فإذا بجارية هى أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهى تمسح عينيها فقالت أنت الغاسل قلت نعم قالت بسم الله ادخل ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فدخلت الدار وإذا بالشاب الذى جاءنى يعالج سكرات الموت وروحه فى لبته وقد شخص بصره وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه فلم أجلس إليه حتى قبض فقلت سبحان الله هذا ولىّ من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته ، فأخذت فى غسله وأنا أرتعد ، فلما أدرجته أتت الجارية وهى أخته فقبلته وقالت أما إنى سألحق بك عن قريب ، فلما أردت الانصراف شكرت لى وقالت أرسل إلىّ زوجتك إن كانت تحسن ماتحسنه أنت ، فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به ، فلما فرغت من دفنه جئت أهلى فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت بسم الله تدخل زوجتك ، فدخلت زوجتى فإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت ، فغسلتها زوجتى وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما

أحبابنا بنتم عن الدار فاشتكت   لبعدكم آصالها وضحاها

ولقد شربت مع الحبيب مدامة   حمراء صافية بغير مزاج
فتفضل الظبي البهيّ ببندق   شبهته ببنادق من ساج
فكسرته فوجدت ثوبا أحمرا   قد لفّ فيه بنادق من عاج

ومما قيل فى البندق :

وسدرة كل يوم   من حسنها فى فنون   كأنما النبق فيها
وقد حلا فى العيون   جلاجل من نضار   قد علقت فى الغصون

(ومما قيل فى اللوز) :

ومهد إلينا لوزة قد تضمنت   لمبصرها قلبين فيها تلاصقا
كأنهما حبان فازا بخلوة   على رقبة فى مجلس فتعانقا

(فى العنب لبعضهم) :

هدية شرّفتنا من أخ ثقة   نعم الهدية إذ وافتك من يده
نوعان من عنب جاآ على طبق   كأنّ طيبهما من طيب محتده
فأبيض العين يحكى لون أبيضه   وأسود العين يحكى لون أسوده

(فى قصب السكر) :

ورماح لغير طعن وضرب   بل لأكل ومص لب ورشف
كملت فى استوائها واستقامت   باعتدال وحسن قدّ ولطف

(ومما قيل فى البطيخ الأصفر) :

أتانا غلام فاق حسنا على الورى   ببطيخة صفراء فى لون عاشق
فشبهته بدرا يقدّ أهلة   من الشمس مابين النجوم ببارق

وقال آخر :   وبطيخة وفى بها فوق كفه   إلينا غلام فاق كل غلام
فخيل لى شمس الأصيل أهلة   يقطعها بالبرق بدر تمام

(ومما قيل فى البطيخ الأخضر) :

وظبى أتى فى الكف منه بمدية   وقد لاح فى خدّيه شبه شقيق
فمال إلى بطيخة ثم شقها   وفرّقها مابين كل صديق
فشبهتها لما بدت فى أكفهم   وقد عملت فيهم كؤوس رحيق
صفائح بلور بدت فى زبرجد   مرصعة فيها فصوص عقيق

وقال آخر :   وبطيخة خضراء فى كف أغيد   أتانا بها فارتاح ذوالهم وابتهج
وأقبل يفريها بمديته وقد   فرى طرفه الساجى القلوب مع المهج

(ومما قيل فى القثاء) :

انظر إليها أنابيبا منضدة   من الزمرد خضرا مالها ورق
إذا قلبت اسمها بانت ملاحتها   وصار فى عكسه أنى بكم أثق

(ومما قيل فى الباذنجان) :

وكأنما الأبذنج سود حمائم   أوكاره حمل الربيع المبكر

وفارقتم الدار الأنيسة فاستوت   رسوم مبانيها وفاح كلاها
كأنكم يوم الفراق رحلتم   بنومى فعينى لاتصيب كراها
وكفكفت شجيها من دموعى بقطرة   فقد صرت سمحا بعدكم بدماها
يرانى بساما خليلى يظنّ بى   سرورا وأحشاء السقام ملاها
وكم ضحكة فى القلب منها حرارة   يشبّ لظاها لو كشفت غطاها
رعى الله أياما بطيب حديثكم   تقضت وحياها الحيا وسقاها
فما قلت إيها بعدها لمسامر   من الناس إلا قال قلبى آها

قيل لقيس بن سعد هل رأيت قط أسخى منك ؟ قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له إنه نزل بنا ضيفان ، فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم ، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال شأنكم فقلنا ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا القليل فقال إنى لاأطعم ضيفانى البائت ، فبقينا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك ، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته وقلنا للمرأة اعتذرى لنا إليه ومضينا فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قفوا فوقفنا فلما دنا منا قال خذوا دنانيركم فإنى لا آخذ على إكرامى ثمنا   نقرت
وإن لم تأخذوها طعنتكم برمحى هذا فأخذناها وانصرفنا . وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء . وله أخبار فى الجود عجيبة

من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته فقلت أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي فأصحبك قال إذا قدمت واسط فائتنا إن شاء الله تعالى فسافر وأقمت فقال لي بعض إخواني اذهب إليه فقلت كان جوابه فيه ضعف قال أتريد من يزيد جوابا أكثر مما قال فسرت حتى قدمت عليه فلما كان في الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري فالتفت إلى يزيد وقال إيه ياعقيل فقلت :

أفاض القوم في ذكر الجواري

فأما الأعزبون فلن يقولوا

قال إنك لاتبقى عزبا فلما رجعت إلى منزلي إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم وفي الليلة الثانية كذلك فمكثت عشر ليال وأنا على هذه الحالة فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر فقلت أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت فان رأيت أن تأذن لي في الرجوع فأكبت عدوي وأسر صديقي فقال إنما أخبرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك أو ترحل فنغنيك فقلت أولم تغنني أيها الأمير ؟ قال إنما هذا أثاث المنزل ومصلحة القدوم فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه .

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال : حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقا يحلق رأسه فجاءوه بحلاق فحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم فتحير الحلاق ودهش وقال آخذ هذه الخمسة آلاف وأمضي إلى أم فلان أخبرها أني قد استغنيت فقال أعطوه خمسة آلاف

نقرت مناقره الزمرذ سمسما   فاستودعته حواصلا من عنبر

(ومما قيل في الأنهار والبرك والنواعير) :

أما ترى البركة الغراء قد كسيت   نورا من الشمس في حافاتها طلعا
والنهر من فوقه يلهيك منظره   شهب سماوية فارتج والتمعا
كأنه السيف مصقولا يقلبه   كف الكمي إلى ضرب الكماة سعى

وقال آخر في البركة :

يامن يرى البركة الحسناء رؤيتها   والآنسات إذا لاحت معانيها
فلو تمر بها بلقيس عن عرض   قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها
كأنها الفضة البيضاء سائلة   من السبائك تجري في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا   مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها   ورونق الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها   ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وقال آخر :

وبركة للعيون تبدو   في غاية الحسن والصفاء
كأنها إذ صفت وراقت   في الأرض جزء من السماء

وقال محمد بن سارة المغربي :

النهر قد رقت غلالة صبغه   وعليه من صبغ الأصيل طراز
تترقرق الأمواج فيه كأنها   عكن الخصور تهزها الأعجاز

وقال آخر :

يوم لنا بالنيل مختصر   ولكل وقت مسرة قصر
فكأنما أمواجه عكن   وكأنما داراته سرر

وقال آخر في نهر يسبح فيه الغلمان :

خليج كالحسام له صقال   ولكن فيه للرائي مسره
رأيت به الملاح تجيد عوما   كأنهم نجوم في المجره

وقال آخر في النيل :

النيل قال وقوله   إذ قال ملء مسامعي   في غيظ من طلب العلا
عم البلاد منافعي   وعيونهم بعد الوفا   قلعتها بأصابعي

وقال آخر :

كأن النيل ذو فهم ولب   لما يبدو لعين الناس منه
فيأتي عند حاجتهم إليه   ويمضي حين يستغنون عنه

وقال آخر فيه :

وفت أصابع نيلنا   وطفت وطافت في البلاد
وأتت بكل مسرة   ماذي أصابع ذي أيادي

وقال آخر :

سد الخليج بكسره جبر الورى   طرا فكل قد غدا مسرورا
والماء سلطانا فكيف تواترت   عنه البشائر إذ غدا مكسورا

وقال آخر :

ونهر خالف الأهواء حتى   غدت طوعا له في كل أمر
إذا عصفت على الأغصان ألقت   إليه بها فيأخذها ويجري

آخرى فقال امرأته طالق إن حلقت رأس أحد بعدك . وقيل إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم

جمعت له وهو فى السجن فجاءه الفرزدق يزوره فقال للحاجب استأذن لى عليه فقال إنه فى مكان لا يمكن الدخول عليه فيه فقال الفرزدق إنما أتيت متوجعا لما هو فيه ولم آت ممتدحا فأذن له فلما أبصره قال :

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم
وقال ذوو الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة
ولا اخضرّ بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزك بهجة
وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب ادفع إليه المائة ألف درهم التى جمعت لنا ودع الحجاج ولحمى يفعل فيه ما يشاء فقال الحاجب للفرزدق هذا الذى خفت منه لما منعتك من دخولك عليه فأخذها وانصرف .

ومرّ يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عنزا فقال لابنه ما معك من النفقة ؟ قال مائة دينار قال ادفعها إليها فقال هذه يرضيها اليسير وهى لا تعرفك قال إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى . وقال أبو العيناء : تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب فى الدولة المروانية وعلى البرامكة فى الدولة العباسية . ثم اتفقوا على أن أحمد بن داود أسخى منهم جميعا وأفضل .

وقال آخر فى ناعورة :

وكريمة سقت الرياض بدرّها ... فغدت تنوب عن الغمام الهامع
بلسان محزون ومدمع عاشق ... ومسير مشتاق وأنة جازع

وقال آخر :

وناعورة قالت وقد حال لونها ... وأضلعها كادت تعدّ من السقم
أدور على قلبى لأنى فقدته ... وأمادموعى فهى تجرى على جسمى

وفيها أيضا :

وحنانة من غير شوق ولا وجد ... يفيض لها دمع كمنتثر العقد
أحنّ إذا حنت وأبكى إذا بكت ... فليس لنا من ذلك الفعل من بدّ
ولكنها تبكى بغير صبابة ... وأبكى بأفراط الصبابة والوجد
وأدمعها من جدول مستعارة ... ودمعى من عينى يفيض على خدّى

وفيها أيضا قال الخطيرى :

ربّ ناعورة كأنّ حبيبا ... فارقته فقد غدت لى تبكى
أبدا هكذا تئنّ بشجو ... وعلى إلفها تدور وتبكى

ابن تميم :

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ... ودمعهما بين الرياض غدير
كأن نسيم الجوّ قد ضاع منهما ... فأصبح ذا يجرى وذاك يدور

[فصل فى ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك]

لابن عفيف فى قاض مليح :

وربّ قاض لنا مليح ... يعرب عن منطق لذيذ
إذا رنا لى بسهم لحظ ... قلنا له دائم النفوذ

وقال فى فقيه مليح :

وبمهجتى ظبى غدا متفقها ... وهو المهذّب فى الرشاقة والحور
أمسى بسيط الشعر منه مطوّلا ... لكن وجيز الخصر منه المختصر

وقال فى محدث مليح :

علقته محدثا ... شرّد عن جفنى الوسن
حديثه ووجهه ... كلاهما عندى حسن

وقال فى إمام :

جاء يسعى إلى الصلاة بوجه ... يخجل البدر فى ليالى السعود
فتمنيت أن وجهى أرض ... حين يومى بوجهه للسجود

ابن الرومى فى عروضى وأجاد :

بى عروضى مليح ... موتى فيه حياة
عاذلاتى فى هواه ... فاعلات فاعلات

فى مؤذن مليح :

ومؤذن أضحى كريما وجهه ... لكنه بالوصل أىّ شحيح
أبدا أموت بهجره لكننى ... من بعد ذاك أعيش بالتسبيح

لابن عربى :

وبنفسى مؤذن قد سبانى ... لم يفدنى شكوى الغرام إليه

وسئل إسحق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد ، فقال أما الفضل فيرضيك فعله وأما جعفر فيرضيك قوله وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وفي يحيى يقول القائل : سألت الندى هل أنت حر فقال لا (٢٢٩) ولكنني عبد ليحيى بن خالد

كيف أصغي لما يقول حبيب واضع أصبعيه في أذنيه

وقال آخر في مزيد :

مراد قلبي مزيد مخبأ في الزوايا ولبس ذا بعجيب ففي الزوايا خبايا

(وفي فقير مليح) :

لي فقير يتغنى بسنا وجه منير لاتلمني في افتضاحي فغرامي بالفقير

(في أمير شكار لابن دانيال) :

لي من أمير شكار وجد بذيب الجوارح لما حكى الظبي حسنا حنت إليه الجوارح

(في مليح مغن) :

أضحى يخجل لوجهه قمر الدجى وغدا يلين لحسنه الجلمود
فإذا بدا فكأنما هو يوسف وإذا شدا فكأنه داود

(في مليح عواد) :

غنى على العود ظبي سهم ناظره أمسى به قلبي المضنى على خطر
دنا إلي وجست كفه وترا فراحت الروح بين السهم والوتر

(في مليح كاتب) :

بروحي كاتبا كالبدر حسنا بديعا مارأينا منه أجمل
على ريحان عارضه المفدى بوجنته غدا دمعي مسلسل

(غيره) :

وراقنا ذا المفدى فيه زايد عشقي فلو يجود بوصل لكان مالك رقي

وفيه أيضا : ياحسن وراق أرى خده قد راق في التقبيل عندي ورق
يميل في الدكان أعطافه ماأحسن الأغصان بين الورق

(السيد الشريف صلاح الدين الأسيوطي فيه أيضا) :

فديتك أيها الوراق قلبي لمطلك بالوصال يكاد يبلى
وقد طلب الوفاء وغير بدع محب يسأل الوراق وصلا

(في مليح صيرفي) :

ياسائلا عن حالي ماحال من أمسى بعيد الدار فاقد إلفه
لي صيرفي لايرق لحالتي قد مت من جور الزمان وصرفه

(في مليح بخانقي) :

تسلطن في الملاح بخانقي ولايرضى ببدر التم نائب
وقد وصفت له الأتراك جندا وأصبح راكبا تحت العصائب

(في مليح فراء) :

قلت لفراء فرى أديمي وزاد صدا وطال هجرا قطع نومي وفر صبري فقال لما عشقت فرا

(سيدي أبوالفضل بن أبي الوفاء في مزين) :

حبي المزين وافى بعد البعاد بمشطه ومص دمل قلبي بكأس راح وبطه

فقلت شراء قال لا بل وراثة توارثني عن والد بعد والد
وفي الفضل يقول القائل :
إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة رأيت بها غيث السماحة ينبت
فليس بسمال إذا سيل حاجة ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت
وفي محمد يقول القائل :
سألت الندى والجود مالي أراكما تبدلتما عزا بذل مؤبد
ومابال ركن المجد أمسى مهدما فقالا أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلا متما بعد موته وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالا أقمنا كي نعزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه في غد
وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه : من كانت له إلي حاجة فليرفعها إلي في كتاب لأصون وجهه عن المسئلة . وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي فقال له : ياأمير المؤمنين إن لي إليك حاجة الحياء يمنعني أن أذكرها ، فقال خطها في الأرض ، فكتب إني فقير ، فقال ياقنبر اكسه حلتي ، فقال الأعرابي :

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة ولست تبغي بماقدمته بدلا

إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به

كل امرئ سوف يجزى بالذى فعلا فقال يا قنبر زده مائة دينار فقال يا أمير المؤمنين لو فرقتها فى المسلمين لأصلحت بها من شأنهم فقال رضى الله تعالى عنه صه يا قنبر فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» . وسئل إسحق الموصلى عن المخلوع فقال كان أمره كله عجبا كان لايبالى أين يقعد مع جلسائه وكان عطاؤه عطاء من لايخاف الفقر ، كان عنده سليمان ابن أبى جعفر يوما فأراد الرجوع إلى أهله فقال له سفر البر أحب إليك أم سفر البحر قال البحر ألين علىّ فقال أوقروا له زورقه ذهبا وأمر له بألف ألف درهم . وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان موسى بن شهوان إلى عبدالملك وقال قد هجانى ياأميرالمؤمنين فاستحضره عبدالملك . فقال لأم لك تهجو سعيدا قال يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر عشقت جارية مدنية وأتيت سعيدا فقلت إنى أحب هذه الجارية وإن مولاتها أعطيت فيها مائتى دينار وقد أتيتك فقال لى بورك فيك قال فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالى فقال ياجارية هاتى مطرفا فأتته بمطرف وبات من مصر لى فى زاويته مائتى دينار فخرجت وأنا أقول : أبا خالد أعنى سعيد بن خالد أخا العرف لا أعنى ابن بنت سعيد

(فى مليح قصاص) :

أشكو إلى الله قصاصا يجرعنى بالهجر والصدّ أنواعا من الغصص
إن تحسن القصّ يمناه فمقلته أيضا تقصّ علينا أحسن القصص

(فى مليح صياد) :

ومولع بفخاخ يمدّها وشراك قالت له العين ماذا تصيد قال كراكى

(فى مليح رامى بندق) :

وأهيف القد ذى دلال طائر قلبى عليه واجب
كالشمس فى كفه هلال يرمى إلى البدر بالكواكب

وقال آخر فى راع :

أفديه من راع كبدر الدجى قوامه فاق الغصون الرشاق
ضيفنى بالجدى ناديته ماالقصد يامولاى إلا العناق

(القيراطى فى مليح طحان) :

حسن طحان سبانى بلحاظ وبقامه خاف من واش فأضحى يجعل الغمز علامه

(القاضى بدرالدين البلقينى فى تراب) :

ربّ تراب مليح أورث القلب عذابا قلت لما أن بدا لى ليتنى كنت ترابا

وقال آخر فى مليح عوام :

ياحسن عوام كغصن النقا يبخل بالوصل لمن هاما
وتقنع العشاق منه بأن يريهم الأرداف إن عاما

(ابن نباتة فى مليح حبشى) :

بروحى مشروطا على الخد أسمرا دنا ووفى بعد التجنب والسخط
وقال على اللثم اشترطنا فلا تزد فقبلته ألفا على ذلك الشرط

وله أيضا : ومن عجب تدعى لطفك سنبلا ونشرك كافور وذكرك عنبر
وسعدك إقبال وحسنك مرشد وخلقك ريحان ولفظك جوهر

وقال آخر فيمن به صفرة :

قالوا به صفرة شانت محاسنه فقلت ما ذاك من عيب به نزلا
عيناه مطلوبة فى ثأر من قتلت فلست تلقاه إلا خائفا وجلا

للشيخ شهاب الدين بن حجر فى مليح اسمه زائد :

وزائر قال قلبى للطرف بالطرف شاهد مدحته فتجنى تيها علىّ بزائد

وقال آخر فى مليح أرمد :

شكا رمدا فقلت الآن كلت لواحظه من الفتكات فينا
وقالوا سيف مقلته تصدى فقلت نعم لقتل العاشقينا

(لمجد الدين بن مكانس فيه) :

تورمت مقلة المحبوب من رمد وبات يشكو لهيب القلب والألما

وبات يرمى محبيــه بأسهمه   فياله من حبيب قد شكا ورما

(لابن أبى حجلة فى أعور) :

ماشان من أهواه عين أصبحت   مقلوعــة بمحاسن متزايده
لولا استخف العالمين بأسرهم   ما ظل ينظرهم بعين واحــده

وقال آخر فى مليح راهب :

رأيته يضرب الناقوس قلت له   من علم البدر ضربا بالنواقيس
وقلت للنفس أى الضرب يؤلمكى   ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسى

(القيراطى فى مليح اسمه بدر) :

سموه بدرا وذاك لما   أن فاق فى حسنه وتما   وأجمع الناس إذ رأوه   بأنه اسم على مسمى

(وآخر فى مليح اسمه حمزة) :

متى يبدو لحمزة ما بقلبي   ويرثى لى وينظر فى بلائى
وأشفى بالمبرد من لماه   وأجمع بين حمزة والكسائى

وقال آخر : كلفت به ولم أبلغ مرادى   غزال قد تحكم فى قيادى
فتصحيف اسمه فى وجنتيه   وفى معسول فيه وفى فؤادى

(فى مليح سروجى) :

فتنت به سروجيا بديعا   به قد ذبت وجدا من ضجيجى
إذا جــذب الغرام له عنانى   يلذ لى الركوب على السروج

وقال آخر فى مليح محموم :

قالوا حبيبك محموم فقلت لهم   أنا الذى كنت فى حمائه السببا
عانقته ولهيب النار فى كبدى   فأثرت فيــه تلك النار فالتهبا

(لأبى نواس فى مليح ألثغ) :

ومهفهف دنف الصبا ذى لثغة   تصبو إليه ذوى العقول الرجح
قبلت فاه فقال لى متخوفا   من كاشــح متدللا بالثا اثتحى

وقال فى مليح خباز :

إن خبازنا المليح المفــدى   فى حشا الصب من جفاه كلوم
خلت دكانه البديع سماء   وهو بدر والخبز فيــه نجوم

وقال فى مليح حائك :

وحائك يا صاح أبصرته   كالبــدر فى كفيه ماسوره
فلم أرح إلا وروحى لما   عاينت فى كفيه ماسوره

وقال فى مليح لاعب شطرنج :

لعبت بالشطرنج مع أهيف   رشاقة الأغصان من قده
أحل عقد البند من خصره   وألثم الشامات من خــده

وفيه أيضا قال :

ولكنى أعنى ابن عائشة الذى   أبوأبوه خالد بن أسيد   عقيد الندى ماعاش يرضى به الندى   فان مات لم يرض الندى بعقيد
دروه ذروه إنكم قد رقدتمو   وما هو عن إحسانكم برقود   فقال عبد الملك قل ما شئت .

وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرما رقعة فيها :

إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم   تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا يمنعك قلته   فكل ماسد فقرا فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفرد نعله . ودخل طلحة بن عبد الله ابن عوف السوق يوما فوافق فيه الفرزدق فقال ياأبافراس اختر عشرا من الإبل ففعل فقال ضم إليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة فقال هى لك فقال :

يا طلح أنت أخو الندى وعقيده   إن الندى مامات طلحة ماتا
إن الندى ألقى إليك رحاله   فبحيث بت من المنازل باتا

ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد ابن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده فى دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع فلما رآه محمد قال :

ولقد قدمت على رجال طالما   قدم الرجال عليهم فتمولوا
أخنى الزمان عليهم فكأنما   كانوا بأرض أقفرت فتحولوا

فقال أبو الشمقمق :

الجود أفلسهم وأذهب مالهم   فاليوم إن راموا السماحة يبخلوا

قال فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه فكتب بذلك مستوفى الخراج إلى الخليفة فوقع

إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام تلك السنة وإسقاط ما عليه من البقايا وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروءته . وحكى عن أبي العيناء أنه قال حصلت لي ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائي فدخلت يوما

على يحيى بن أكثم القاضي فقال إن أمير المؤمنين للمأمون جلس للمظالم وأخذ القصص فهل لك في الحضور قلت نعم فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني ثم قال يا أبا العيناء بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم
والرجاء حقوق كلها تجب
إن لم يكن لي أسباب أعيش بها
ففي العلا لك أخلاق هي السبب

فقال يا سلامة انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين ، فقال بقية من مال قال فادفع له مائة ألف درهم وابعث له بمثلها في كل شهر فلما كان بعد أحد عشر شهرا مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه فدخل عليه بعض أولاده فقال يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فأنشأ أبو العيناء يقول :

شيئان لو بكت الدماء عليهما
عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما
فقد الشباب وفرقة الأحباب

فقاك

وقال الأعمش : كانت عندي شاة فمرضت وفقدت الصبيان لبنها فكان خيثمة بن عبد الرحمن

تلاعبت بالشطرنج مع من أحبه ... فنادمني حتى سكرت من الوجد
وأنشدني مالي أراك مفكرا ... تدور على الشامات وهي على الخد

(في مليح خياط) :

خياطنا الفاتن المفدى ... بديع حسن فريد شكل
فصل للجسم ثوب سقم ... لما جفاني وكف وصلي

وقال غيره : فتنت بخياط بديع ملاحة ... له طلعة أبهى ضياء من الشمس
تراه على الكرسي للثوب خائطا ... فتقسم حقا أنه آية الكرسي

(الصفي الحلي في مليح قلع ضرسه) :

لحا الله الطبيب لقد تعدى ... وجاء لقلع ضرسك بالمحال
أعاق الظبي في كلتا يديه ... وسلط كلبتين على غزال

وقال في مليح سلم عليه :

تنبأ فيك قلبي فاسترابت ... به قوم وعمهم الضلال ... وصدهم الهوى أن يؤمنوا بي
وقالوا إن معجزة محال ... ومذ سلمت سلمت البرايا ... إلي وقيل كلمه الغزال

وقال في مليح يرمي بالسهام :

وظبي يشعر فوق طرف مفوق ... بقوس رمى في النقع وحشا بأسهم
كبدر بأفق فوق برق بكفه ... هلال رمى في الليل جنا بأنجم

وقال في مليح يضرب بالعود :

فتن الأنام بعوده وبشدوه ... شاد تجمعت المحاسن فيه
حتى كأن لسانه بيمينه ... وكأن ما بيمينه في فيه

وقال أيضا فيه :

وأغيد قد أبدى لنا من عوده ... نغما أصح به القلوب وأمرضا
بيد إذا سخطت على أوتاره ... نال الرفاق بسخطها عين الرضا

وقال في مليح مشبب :

يا نافخ الصور بل يا باعث الصور ... من رقدة السكر لا من رقدة الحفر
قرنت حسنك بالاحسان فيه لنا ... فكان فيك مراد السمع والبصر
ضمنت للصحب إقبال السرور كما ... ضمنت نايك نأي الهم والفكر
صوت بسيط به أرواحنا انبسطت ... إذ جئت في اللفظ والمعنى على قدر

وقال في مليح ساق :

وساق من بني الأتراك طفل ... أتيه به على جمع الرفاق
أملكه قيادي وهو رق ... وأفديه بعيني وهو ساق

وقال أيضا في رسول مليح أتاه من عند من يحبه :

من كنت أنت رسوله ... كان الجواب قبوله ... يا طلعة الشمس الذي
جاء الصباح دليله ... لم يبد وجهك قبلة ... إلا ارتقبت وصوله

فلذاك إذ واجهتنى ... بلّ الفؤاد غليله

(فى مليح قارئ):

نفسى الفداء لشادن شاهدته ... يوم الزيارة قارئا فى المصحف
فتن الأنام ببهجة وبلهجة ... تسبى وتضنى كل صب مدنف
فتلا مليا جل سورة يوسف ... وجلا محيا مثل صورة يوسف

وقال آخر فى مليح مكتمل العذار:

وكامل العارض قبلته ... فصدنى وازورّ من قبلتى
وقال كم أنهاك عن مثل ذا ... وأنت ماتفكر فى لحيتى

وقال آخر فى مليح حجام:

كلفت بحجام تحكم طرفه ... فغدا على سفك الدماء يواطى
أضحى كثير الاشتطاط ولم تكن ... منه اللحاظ كليلة المشراط

[فصل فى الألغاز]

(فى غزال): اسم من قد هويته ... ظاهر فى صروفه ... فاذا زال ربعه ... زال باقى حروفه

(فى كوز فقاع):

ومحبوس بلا ذنب جناه ... له فى السجن ثوب من رصاص
إذا أطلقته وثب ارتفاعا ... يقبل فاك من فرح الخلاص

(فى زرموزة) مطية فارسها راجل ... تحمله وهو لها حامل
واقفة بالباب مزبولة ... لاتشرب الدهر ولاتأكل

وقال فى طاحون:

ومسرعة فى سيرها طول دهرها ... تراها مدى الأيام تمشى ولا تتعب
وفى سيرها ماتقطع الأكل ساعة ... وتأكل مع طول المدى وهى لاتشرب
وما قطعت فى السير خمسة أذرع ... ولا ثلث عن من ذراع ولا أقرب

(فى دواة): ومرضعة أولادها بعد ذبحهم ... لها لبن ماذاق قط لشارب
وفى بطنها السكين والثدى رأسها ... وأولادها مدخورة للنوائب

(فى دواة أيضا): وما أم يجامعها بنوها ... وليس عليهم تجب الحدود
كأنهم إذا ولجوا حشاها ... أفاعى فى أماكنها رقود

(فى قلم): وأهيف مذبوح على صدر غيره ... يترجم عن ذى منطق وهو أبكم
تراه قصيرا كلما طال عمره ... ويضحى بليغا وهو لا يتكلم

(وفيه أيضا): بصير بما يوحى إليه وماله ... لسان ولا قلب ولا هو سامع
كأن ضمير القلب باح بسره ... إليه إذا ماحركته الأصابع

(وفيه أيضا): وأصفر عار أنحل السقم جسمه ... يشتت شمل الخطب وهو جموع
حمى الجيش مفطوما كما كان تحتمى ... به الأسد فى الغابات وهو رضيع

(وفيه أيضا): وذى نحول راكع ساجد ... أعمى بصير دمعه جارى

يعودها بالغداة والعشى ويسألنى هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتى لبد أجلس عليه فكان إذا خرج يقول خذ ماتحت اللبد حتى وصل إلىّ من غلة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ. وحكى أبو القدامة العشيرى قال كنا مع يزيد بن مزيد يوما فسمع صائحا يقول يايزيد ابن مزيد فطلبه فأتى به إليه فقال ماحملك على هذا الصياح قال فقدت دابتى ونفدت نفقتى وسمعت قول الشاعر:

إذا قيل من للجود والمجد والندى
فنادى بصوت يايزيد بن مزيد

فأمر له بفرس أبلق كان معجبا به وبمائة دينار وخلعة سنية فأخذها وانصرف. ومن الغرائب ماحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنام وهو يقول له هل لك أن تبيعنى بعيرك بنجيبى وكان الميت قد خلف نجيبا وكان الرائى بعير سمين فقال نعم وباعه فى النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير فنحره فى النوم فانتبه الرائى من نومه فوجد الدم يسيح من نحر بعيره فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوه ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم منهم شاب فنادى هل فيكم فلان بن فلان فقال صاحب البعير نعم

هاأنا فلان بن فلان فقال هل بعث معى فلان الميت شيئا ؟ قال نعم بعثه يعيى بنجيبه فى النوم فقال هذا نجيبه فخذه وأنا ولده وقد رأيته فى النوم وهو يقول إن كنت ولدى فادفع نجيبى الى فلان، فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته .

قيل إن شاعرا قصد خالد بن يزيد فأنشد شعرا يقول فيه :

سألت الندى والجود حران أنتما
فقالا يقينا إننا لعبيد
فقلت ومن مولا كما فتطاولا
الىّ وقالا خالد ويزيد

فقال ياغلام أعطه مائة ألف درهم وقل له إن زدتنا زدناك ، فأنشد يقول :

كريم كريم الأمهات مهذب
تدفق كفاه الندى وشمائله
هوالبحر من أىّ الجهات أتيته
فلجته المعروف والجود ساحله
جواد بسيط الكف حتى لوانه
دعاها لقبض لم تجبه أنامله

فقال ياغلام أعطه مائة ألف درهم وقل له إن زدتنا زدناك فأنشد يقول :

تبرّعت لى بالجود حتى نعشتنى
وأعطيتنى حتى حسبتك تلعب
وأنبتّ ريشا فى الجناحين بعد ما
تساقط منى الريش أوكاد يذهب
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى
حليف الندى ما للندى عنك مذهب

فقال ياغلام أعطه مائة ألف درهم وقل له إن زدتنا زدناك ، فقال حسب الأمير ماسمع وحسبى ما أخذت ، وانصرف .

ملازم الخمس لأوقاتها   مجتهد فى طاعة البارى

(فى مرملة) :

معشوقة لذوات العز قد صنعت   حزينة ماتراها قط تبتسم
كأنها من صروف الدهر خائفة   تبكى دماء على ماسطر القلم

(فى كتاب) : وذى أوجه لكنه غير بائح   بسرّ وذو الوجهين للسرّ يظهر
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه   فتسمعها بالعين مادمت تبصر

(فى سلطان حسن لابن أبى حجلة) :

ما اسم محبب للقلوب لأنه   حسن الحروف يجود بالإحسان
تصحيفه أمسى حبيبا كلما   صحفت أحرفه بحسن بيان
لو جاد لى يوما برؤية وجهه   نلت المراد وعشت بالسلطان

(فى شبابة) :

ومامصفراء شاحبة ولكن   تزينها النضارة والشباب   مكتبة وليس لها بنان
منقبة وليس لها نقاب   تصيح لها إذا قبلت فاها   أحاديث تلذ وتستطاب
ويعلو المدح والتشبيب فيها   وليست لاسعاد ولا الرباب

وفيها أيضا :

ومقروحة الأجفان مثلى شجية   تناءت عن الأهلين أسقمها البعد
* تزوّجها عشر وذاك محرم   ولاحرج كلا ولاوجب الحدّ *
إذا ماوطئها القوم تصرخ صرخة   يلين إليها القلب لو أنه صلد

وفيها أيضا :

منقبة مهما خلت مع محبها   يزوّدها لثما وينظرها شزرا *
وتصحيفها فى كف حاملها فقل   إذا شئت فى اليمنى وإن شئت فى اليسرى

(فى دملج) :

إلى النساء يلتجى   وعندهن يوجد   الجسم منه فضة   والقلب منه جامد

(فى خلخال) : أياعجبا من صابر صامت ولم   يفه بكلام قط فى ساعة الضرب
أقام ولم يبرح مكانا ثوى به   على أنه أضحى يدور على الكعب

(فى شعر اللحية) :

وذى عدد كالرمل سام محله   جميل على كل الملاح له حق
يحاذر من موسى ويرهب باسمه   وفى قلب هرون له الهلك والمحق

(فى التين):

أىّ شىء له طعما   ناعم اللمس ولين   كيف لايبدو وضوحا   وهو فى التصحيف بين

(فى اللوز) : ما اسم لشىء حسن شكله   تلقاه عند الناس موزونا
تراه معدودا فان زدته   واوا ونونا صار موزونا

(فى حمزة) من لى بمعتدل القوام مهفهف   أزرى بغصن البان لينة قده

فى

فى فيه تصحيف اسمه وبخدّه   وبقلب عاشقه لشدّة صدّه

(وفيه أيضا) : اسم الذى أنا أهواه وأعشقه   وطول دهرى أخشى من تجنيه
تصحيفه فى فؤادى دائما أبدا   يبدو وفى خدّه أيضا وفى فيه

(فى ساقية) : وجارية لولا الحوافر ماجرت   أشاهدها تجرى وليس لها رجل
وترضع أطفالا ولا هى أمهم   وليس لها ثدى وليس لها بعل

(وفيها أيضا) : وجارية تبكى إذا الليل جنها   بلا ألم فيها ولا ضرب ضارب
عليها رجال شنقوا بعد حرقهم   وما كان شنق القوم إلا بواجب

(فى زرّ وعروة) :

وما أخت يجامعها أخوها   وليس عليهما فيه جناح
ترى بجوازه الحكام طرّا   وفى أعناقهم ذاك النكاح

(فى راوية) : وسوداء تشرب من رأسها   وإن شئت تسقيك من فرد يد
ولون لها مثل لون أختها   وثنتاهما واحد فى العدد
وتحبل فى الوقت هى وأختها   وفى ساعة يضعان الولد

(فى شطرنج) : ياذا النهى مااسم له حالة   يحار فيها الذهن والفكر
له حروف خمسة إنما   ثلاثة منها له شطر

(فى فيل) : أيما اسم تركيبه من ثلاث   وهو ذو أربع تعالى الإله
حيوان والقلب منه نبات   لم يكن عند جوعه يرعاه
فيك تصحيفه ولكن إذا ما   رمت عكسا يكون لى ثلثاه

(فى بجع) :

ماطائر فى قلبه يلوح للناس عجب   منقاره فى بطنه والعين منه فى الذنب

(فى نار) : وما اسم ثلاثى به النفع والضرّ   له طلعة تغنى عن الشمس والقمر
وليس له وجه وليس له قفا   وليس له سمع وليس له بصر
يمدّ لسانا يختشى الرمح بأسه   ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكر
يموت إذا ماقمت تسقيه عامدا   ويأكل مايلقى من النبت والشجر
فياقارئ الأبيات دونك شرحها   وإلا فقم عنها ونبه لها عمر

(وفيها أيضا) : وآكلة بغير فم وبطن   لها الأشجار والحيوان قوت
إذا أطعمتها انتعشت وعاشت   وإن أسقيتها ماء تموت

(فى يد الهاون) : قل لى فما شىء يرى ناعما   منتصب القامة طول الزمان
أطول من شبر له حزّة   مفيشل الرأس قوىّ الجنان
يسمع فى القعر له رنة   ويظهر الصفق بأعلى مكان

(وفيه أيضا) :

خبرونى أى شىء   أوسع مافيه فمه   وابنه فى بطنه
يرضه ويلكه   وقد علا صياحه   ولم يجد من يرحمه

وجاء إلى خالد بن عبد الله بعض الشعراء ورحله فى الركاب يريد الغزو فقال له إنى قلت فيك بيتين من الشعر، فقال فى مثل هذا الحال؟ قال نعم فقال هاتهما فأنشد يقول : ياواحد العرب الذى مافى الأنام له نظير
لو كان مثلك آخر
ما كان فى الدنيا فقير
فقال ياغلام أعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف.

وحيث ذكرنا نبذة من أخبار الكرماء فلنذكر نبذة من أخبار البخلاء.

فمن ذلك أن رجلا من البخلاء اشترى دارا وانتقل إليها فوقف ببابه سائل فقال له فتح الله عليك ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك ثم التفت إلى ابنته فقال لها ما أكثر السؤال فى هذا المكان فقالت يا أبت مادمت متمسكا لهم بهذه الكلمة فما تبالى كثروا أم قلوا.

وألأم اللئام وأبخلهم حميد الأرقط الذى يقال له هجاء الأضياف وهو القائل فى ضيف له يصف أكله من قصيدة :
مابين لقمته الأولى إذا انحدرت
وبين أخرى تليها قيد أظفور
وقال فيه أيضا :
تجهز كفاه ويحدر حلقه
إلى الزور ماضمت عليه الأنامل

وأكل أعرابى مع أبى الأسود رطبا فأكثر ومدّ أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابى إليها فسقطت منه فى التراب فأخذها أبو الأسود وقال لاأدعها للشيطان يأكلها، فقال الأعرابى والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا من السماء ماتركتها.

(فى خشخاش) :

وما قبة مبنية فوق شاهق   لها علم يحكى الملاحة بالظرف
وأولادها فى بطنها فى جماعة   يكونون ألفا أو يزيدون عن ألف
ويأخذها الطفل الصغير بجهله   ويقلبها عسفا على راحة الكف

(فى كوز زير) : وذى أذن بلا سمع   له قلب بلا لب
إذا استولى على صب   فقل ماشئت فى الصب

(فى اسم على) :

اسم الذى أعشقه أوّله فى ناظره   إن فاتنى أوّله فإنّ لى فى آخره

(فى موسى للصفدى) :

وما شىء له حدّ وخدّ   يكلم من يلامسه بحلقه
وكلّ حلقه من تحت راسى   وهذا الرأس صارت تحت حلقه

(فى حلب لابن الفارض رحمه الله تعالى) :

مابلدة بالشام قلب اسمها   تصحيفة أخرى بأرض العجم
وثلثه إن زال من قلبه   وجدته طيرا شجى النغم

(وقال فى سمرقند) :

وما اسم سداسى إذا ما لحته   ترى فيه أجزاء تذمّ وتشكر
له ثلث يأتى به الموت فجأة   وثلث مع الكتاب يطوى وينشر
وثلث رعاك الله ياصاحبى له   على مدد الأيام نشر معطر
وفى نصفه لما تحرّك بعضه   حديث شهىّ فى الليالى يذكر
وفى نصفه الثانى إذا ما أعدته   إلى النار للتحليل والعقد سكر
فقسر لنا ذا اللغز إن كنت ذا حجى   فليس على ذى العقل لغز معسر

(وقال فى كون) : يا أيها العطار أعرب لنا   عن اسم شىء قلّ فى سومك
تراه بالعين فى يقظة   كما ترى بالقلب فى نومك

(وقال فى قالب الطوب) :

وما آكل فى قعدة ألف لقمة   ولقمته أضعاف أضعاف وزنه
إذا نزل المأكول جنبيه لم يقم   سوى لحظة أو لحظتين ببطنه

(فى العين) : وباسطة بلا عصب جناحا   وتسبق ما يطير ولا تطير
إذا ألقمتها الحجر اطمأنت   وتجزع أن يباشرها الحرير

ويكفى من ذلك ما أشرت إليه وما نبهت من هذا الفنّ عليه وقد مضى القول من الفنون السبعة على فنّ الشعر القريض وما فيه من الفنون المتقدّم ذكرها .

ولنذكر إن شاء الله تعالى بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار . والفنون السبعة المذكورة عند الناس هى الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليات والكان وكان والقوما ، ومنهم من جعل الحماق من السبعة وفى ذلك اختلاف وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها

وقال أعرابى لنزيل نزل به : نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور فأقم بعدم أو ارحل بندم

(وللحمدونى) : رأيت أبا زرارة قال يوما لحاجبه وفى يده الحسام لئن وضع الخوان ولاح شخص لأختطفنّ رأسك والسلام

فقال سوى أبيك فذاك شيخ بغيض ليس يردعه الكلام فقام وقال من حنق عليه ببيت لم يرد فيه القيام أبى وابنا أبى والكلب عندى بمنزلة إذا حضر الطعام وقال له آبن لى يا ابن كلب على خبزى أصادر أو أضام إذا حضر الطعام فلا حقوق علىّ لوالدىّ ولا ذمام فما فى الأرض أقبح من خوان عليه الخبز يحضره الزحام

(ويعجبنى قول بعضهم): زففت إلى نبهان من صفو فكرتى عروسا غدا بطن الكتاب لها صدرا فقبلها عشرا وهام بحبها فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

(ومن أخبار البخلاء) ماحكاه بعضهم قال: كنت فى سفر فضلات فى الطريق فرأيت بيتا فى الفلاة فأتيته فإذا به أعرابية فلما رأتنى قالت من تكون ؟ قلت ضيف قالت أهلا ومرحبا بالضيف الذى نزل على الرحب والسعة . قال فنزلت فقدمت لى طعاما فأكلت وماء فشربت فبينا أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال من هذا ؟ فقالت ضيف فقال لا أهلا ولا مرحبا ما لنا وللضيف ، فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتى وسرت

منها ثلاثة معربة أبدا لا يغتفر اللحن فيها وهي الشعر القريض والموشح والدو بيت ، ومنها ثلاثة ملحونة أبدا وهي الزجل والكان وكان والقوما ، ومنها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهو المواليا ، وقيل لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة فان هذا من أقبح العيوب التي لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعا بمفرده ويكون الملحون فيه ملحونا لا يدخله الإعراب وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفيّ الدين أبو المحاسن الحلي في ديوانه وسماه بالعاطل الحالي والمرخص الغالي ولو بسطت المقال لاتسع المجال وكثر القال ولكن الاختصار يذهب الأوجال والحمد لله رب العالمين على كل حال .

[فصل في بيان الفن الثاني وهو الموشح]

(لابن المبارك) : قد أنحل الجسم أمر أكحل وأوحل القلب فيه مذ حلّ

(دور) : أميل له فلا يميل يحول وعنه لا أحول أقول إذا زادني النحول

أما حل عقد الصدود ينحل ويرحل عن نجم المزحل

(دور) : كم أبعد وكم أبيت مكمد ويعمد بهجره لا فقد وأجهد لارتصاد من قد

تحمل والحاسدون رحل تحمل والوعد منه ماحل

(دور) : متوّج بالحسن هذا الأبلج مدبج عذاره البنفسج مفلج وطرفه ذا الأدعج

مكحل وثغره منحل مخلخل بعنبر مرجل

(دور) : برغمي من يستحل ظلمي ويرمي بحربه لسلمي وجسمي من الغرام سقمي

منحل وقد غدا مرحل فمن حلّ سفك دمي وماحل

(دور) : قلاني واشتط ذا الفلاني غزاني بطرفه اليماني تراني أنشد لمن يراني

قد أنحل الجسم أمر أكحل وأوحل القلب فيه مذ حل

(لابن سناء الملك) :

كللي ياسحب تيجان الربا بالحلي واجعلي سوارك المنعطف الجدول

(دور) : ياسما فيك وفي الأرض نجوم وما كلما ما أخفيت نجما أظهرت أنجما

وهي ما تهطل إلا بالطلى والدما

فاهطلي على قطوف الكرم كي تمتلي وانقلي للدنّ طعم الشهد والقرنفل

(دور) : تتقد كالكوكب الدريّ لمرتصد يعتقد فيها المجوسي بما يعتقد

فانتقد ياساقي الراح بها واعتمد

واملى لي حتى تراني عنك في معزل قل لي فالراح كالعشق إن يزد يقتل

(دور) : لا ألم في شرب صهبا وفي عشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم

لا أهيم إلا بهذين فقم يانديم

واجل لي من أكؤس صيرت من فوفل ألذ لي من نكهة العنبر والمندل

(دور) : خذهني واعطني كاسي مثل كاسك هني واسقني على رضاب القطن الملسن

والمني ببعض ماصيغ من الألسن

لو تلي مدح سناه مع رشا أكحل الذ لي على سنا الصهباء والسلسل

ولما كان من الغد رأيت بيتا في الفلاة فتقدمت فاذا فيه أعرابية ، فلما رأتني قالت من تكون ؟ قلت ضيف ، قالت لا أهلا ولا مرحبا بالضيف مالنا وللضيف ، فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت فلما رآني قال من هذا ؟ قالت ضيف قال مرحبا وأهلا بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مرّ بي بالأمس فتبسمت فقال مم تبسمك ؟ فقصصت عليه ما اتفق مع تلك الأعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته فقال لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي وإن بعلها أخو امرأتي هذه فغلب على كل طبع أهله .

وقال عمر بن ميمون مررت ببعض طرق الكوفة فاذا أنا برجل يخاصم جارا له ، فقلت ما بالكما ؟ فقال أحدهما إن صديقا لي زارني فاشتهى رأسا فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس

وقال رجل من البخلاء لأولاده اشتروا لي لحما ، فاشتروه فأمر بطبخه ، فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة وعيون أولاده ترمقه ، فقال ما أعطى أحدا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها ، فقال ولده الأكبر أمشمشها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلا ، قال لست بصاحبها ، فقال الأوسط ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدري أحد ألعام هي أم لعامين . قال لست بصاحبها ، فقال الأصغر يا أبت أمصها ثم أدقها

وآسفها سفا قال إنك صاحبها وهى لك زادك الله معرفة وحزما . وقيل خرج أعرابى قد ولاه الحجاج بعض النواحى فأقام بها مدة طويلة . فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه أعرابى من حيه فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جائعا فسأل عن أهله وقال ماحال ابنى عمير قال على ماتحب قد ملأ الأرض والحى رجالا ونساء قال فما فعلت أم عمير قال صالحة أيضا قال فما حال الدار قال عامرة بأهلها قال وكلبنا إيقاع قال قد ملأ الأرض نباحا قال فما حال جملى زريق قال على مايسرك قال فالتفت إلى خادمه وقال ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الأعرابى ثم أقبل عليه يسأله وقال يامبارك الناصية أعد على ماذكرت قال سل عما بدالك قال فما حال كلبى إيقاع قال مات قال وما الذى أماته قال اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات قال أو مات جملى زريق قال نعم قال وما الذى أماته قال كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير قال أو ماتت أم عمير قال نعم قال وما الذى أماتها قال كثرة بكائها على عمير قال أو مات عمير قال نعم قال وما الذى أماته قال سقطت عليه الدار قال أو سقطت الدار قال نعم قال فقام إليه بالعصا ضاربا فولى من بين يديه هاربا . وقال دعبل كنا عند سهل بن هرون فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع فقال ويلك ياغلام آتنا غداءنا فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل فتأمل الديك فرآه بغير رأس فقال لغلامه وأين الرأس فقال رميته

(دور) : أزهرت ليلتنا بالوصل مذ أسفرت … أصدرت بزورة المحبوب إذ بشرت
أخرت فقلت للظلماء مذ قصرت
طولى ياليلة الوصل ولا تنجلى … واسبلى سترك فالمحبوب فى منزلى

(دور) : من ظل فى دولة الحسن إذا ماحكم … فالألم يجول فى باطنه والندم
والقلم يكتب فيه عن لسان الأمم
من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل … يعزى لألحاظ الرشا الأكحل

(وله أيضا) : ترى هل يشتفى منك الغليل … ويشفى من صبابته العليل

(دور) : لقد أسرفت فى هجرى وصدى … بلا سبب سوى كلفى ووجدى
وماذا فى سلوّ عنك يجدى
خضاب الوجد ليس له نصول … وأسياف الهوى فينا تصول

(دور) : لئن شحيت عنى بالسلام … وطيفك قد جفا لجفا المنام … فقد جادت بأربعة سجام
جفون بالبكا كادت تحول … على خد أسف به النحول

(دور) :
لقد أرسلت فى طى النسيم … حديث هوى عن الوجد القديم … فعادت وهى عاطرة الشميم
تخبر أن ظعنهم تزول … بدار لا يلم لها نزيل

(دور) : تلقته الموالى والموالى … بألحاظ وزرق من نصال … وأعطاف وسمر من عوالى
فكم بطل هناك وكم قتيل … بسيف من لواحظه قتيل

(وله أيضا) :
شمس الحيا أم القمر … أم بارق الثغر يابشر … أم البها حفه الخفر … بطرز خديك مستطر

(سلسلة) : قم تباها عما تباها ولا تلاها

(قفلة) : فكل أحبابنا حضروا … والعود يشجيك والوتر

(الدور) : أفديك بالسمع والبصر … يا أهيف وصله وطرى
بدر بدا فى دجى الشعر … قد لى فى حبه سهرى

(سلسلة) : إذا تجلى وقد تحلى عليك يحلى

(قفلة) : تحير فى وصفه الفكر … والعقل والسمع والنظر

(الدور) : فهاك حدث عن الطرب … وعن سلاف ابنة العنب
إذا سقاه مع الضرب … يخبر بأفق الجمال ربى

(سلسلة) : فى ظل بان على المثانى من غير ثانى

(قفلة) : إلا الندامى اذا سكروا … والروض والماء والشجر

وقال رحمه الله تعالى :
وانسيم السحر هل لك خبر … عن عريب حمو بالمنحنى … فارقونى ولم أقض الوطر
من لقاهم ولا نلت المنى … قلت ياقلب صبرا ماصبر … والنبى ما الهوى إلا عنا
ما كتمت الهوى إلا ظهر … من شهود المدامع والضنى

(دور)

(دور) : ليش تمنع وصالك ياحبيب   عن محبك ولايعشق سواك
راقب الله وارجع من قريب   قبل يبلى جسمه فى هواك   لست ألقى لدائى من طبيب
غير رشف حبيبى من لماك   لو رأى حالى العاذل عذر   حينما ينظر جمالك والسنا

(دور) : ياقمر فوق غصن من نقا   أضنتنا مطالك والصدود
يا رعى الله لويلات اللقا   ليتها ياخلّ يوما لى تعود   ليلة السعد ما فيها شقا
كيف تشقى وطالعها سعود   صفوها لا يمازجه كدر   بالمسرّات وأوقات الهنا

(غيره) : حملت مذ سارت الحمول   وجدا مضى العمر وهو باق

(دور) : ساروا وسار الفؤاد لكن   جسمى مقيم على المساكن   وعن الحب صار ظاعن
مالى إلى وصله وصول   لو سرت بالبرق والبراق

(دور) : وغادة كالقضيب قدا   والورد والياسمين خدا   كأنها البدر إذ تبدى
وشعرها أسود طويل   كأنه ليلة الفراق

(دور) : هونا أتتنا تميل ميلا   سحابة كالسحاب ذيلا   فقلت شمس تزور ليلا
وما درى كاشح عذول   فذاك من أعجب اتفاق

(دور) : وسدتها ساعدى لسعدى   وبتّ أرعى رياض وردى   وخمر ريق كذوب شهد
لو ذاقها مدنف عليل   لعاش والروح فى التراق

(دور) : لما رأتنى أذوب سقما   ومن ورد الرضاب أظما   قالت كلت الخدود لثما
مايشتفى منك ذا الغليل   بغير نومى وشيل ساق

[فصل فى الفن الثالث وهو الدوبيت]

(لسيدى شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى) :

أهوى قمرا له المعانى رقّ   من صبح جبينه أضاء الشرق
تدرى بالله ما يقول البرق   ما بين ثناياه وبينى فرق

وقال أيضا : أهوى رشا كل الأسى لى بعثا   مذ عاينته تصبرى ما لبثا
ناديت وقد فكرت فى خلقته   سبحانك ما خلقت هذا عبثا

وقال أيضا : عرج بطويلع فلى ثم هوى   واذكر خبر الغرام واسنده إلى
واقصص قصصى عليهم وابك على   قلّ مات ولم يحظ من الوصل بشى

وقال أيضا : روحى لك يا زائرا فى الليل فدا   يامؤنس وحدتى إذا الليل هدا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا   لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

وقال آخر : ياشمس ضحى جبينه وضاح   ساعات وصالك كلها أفراح
عشاقك لو فعلت ما شئت بهم   ماتوا كمدا وبالهوى ماباحوا

وقال آخر : أهواه مهفهفا ثقيل الردف   كالبدر يجل حسنه عن وصف
ما أحسن واو صدغه حين بدت   يارب عسى تكون واو العطف

وقال التلعفرى : قلبي ذهبت لبعدكم راحته   ما الصبر على بعادكم عادته
بنتم فرثى لما به شامته   لا كان فراقكم ولا ساعته

فقال والله إنى لأكره من يرمى برجله فكيف برأسه ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصيح الديك ولولا صوته ماأريد وفيه فرقه الذى يتبرّك به وعينه التى يضرب بها المثل فيقال شراب كعين الديك ودماغه عجيب لوجع الكلية ولم نر عظما أهش تحت الأسنان من عظم رأسه وهبك ظننت أنى لا آكله ماقلت عنده من يأكله انظر فى أىّ مكان رميته فاتنى به فقال لا أعرف أين رميته فقال لكنى أنا أعرف أين رميته فقد رميته فى بطنك الله حسبك . واشتكى رجل مروزى صدره من سعال فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخفّ عليه من الدواء فبينما هو يماطل الأيام ويدفع الآلام أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة وقال له إنه يجلو الصدر فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها فجلا صدره ووجده يعصم فلما حضر غداؤه أمر برفع إلى العشاء وقال لامرأته اطبخى لأهل بيتنا النخالة فانى وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر فقالت لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة . وعن خاقان بن صبيح قال دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا فأتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة وقد علق فيها عودا بخيط فقلت له ما بال هذا العود مربوطا قال قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم تحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلاعودا عطشان وتخشى أن يشرب الدهن قال بينما أنا أتعجب وأسأل

وقال المنشد : إحسانك طول الدهر لا أنساه   لا أذكر بعد خالقى إلا هو
إن أبعدك الزمان عنى حسدا   مولاى خليفتى عليك الله

وقال آخر : إن جئت ربا الحمى ولاحت نجد   فاذكر ولهى وما جناه البعد
قدكنت أقاسى الصدّ حتى رحلوا   ياليتهم عادوا وعاد الصد

[فصل فى الفنّ الرابع وهو الزجل]

(حمل للغبارى) : قل لغزلان وادى مصر والشام يقصروا ذا النفار
لهم اجعل حشاشتى مرعى وفؤادى قفار

(دور): مصر والشام فيها ملاح أقمار بالمحاسن تسود
ذاأبيض وذاأحمر وذامليح أسمر لوعيون نجل سود   وذاغزال صار يفوق على الغزلان ويصيد الأسود
وذاغصن بان أهيف قوام قد وقدالأغصان جهار   وذابدر الكمال قدظهر فى الليل وذاشمس النهار

(دور) : تدر بالله إيش قالت مليح الشام بعد ذاك الصدود .
قد سمينا بصحة الأبدان واعتدال القدود   وتخضب تفاحنا الأحمر فوق بياض الخدود
وأنتم يا عشاق لكم قلنا والحسود راح بنار   أنتم التفاح وما نقصد منكم إلا الخيار

(دور) : وملاح مصر قالت إحنا أصحاب الوجوه الملاح
والحلاوة وطيبة الأخلاق فى الخلائق مباح   إحنا أقمار وإحنا بدور الليل وشموس الصباح
وفى الألفاظ والظرف والمعنى ليس لنا حدّ صار   وورثنا الحسن بن يوسف واكتسبنا الفخار

(دور) : حسن حبى الفرارجى فرحه بدر فى السعد لاح
فرخ ناجب خرج من القشرة فاق ملاح الملاح   كلما أعمل على رضاه يفسد بجفاه الصلاح
ومن البيضة قد خرج نافر رد جفنى بنار   وجفانى وخد بياض جسمى خلطوا بالصفار

(دور) : وقع الطل خط بالأبيض فى اخضرار الطروس
قم ياساق على بساط زهرى تحت ظلّ الغروس   هاتهاشمس راح شمول قرقف بكرعذراعروس
عروس لماصفوالنسيم ولطف الملى وابتهاج الثمار   قدجلوها فى كاس زجاج أبيض فاكتسى باحمرار

(دور) : خمر فيه سرّ لو جعل أشياف ردّ الأعمى بصير
أقطع القطف أسود يحاكى الليل شفق أحمر يصير   ياترى ذا السرّ فى كرمه أو يكون فى العصير
وترى النور دا عليه يلمع ذاك من إيش استتار   وكذا الكاس يحاكى ياسمين من كساه جلنار

(دور) : فهو عطار عندو شراب هندى   وبرانى جفاه
كلّ من مص من لسانو ريقو يلتقى فيه شفاه   ورد خدو وحبتو سودا شبه خال فى صفاه
جبل آس عارضو أسر قلبي والكبار والصغار   فى الحب غاروا على حسنو وكل من حبّ غار

(دور) : دوروفى الملاح على كمي   ونصوا نصوص
بلا دعوى التفّ لفّ البسبر فى هوام خصوص   وعليا صار نقشهم قاعد مثل نقش الفصوص
والبساط انطوى وحين مار أواحلف له همه ولو اصطبار   فروفى فى عشق هذا القمر والمحبة قمار

(دور) : لحبيبي ثغر من جوهر   والشفيفات عقيق
وعوارض ماضرهم عارض غير نبات الشقيق   وخدود ورد من غير مس ووصفنا عن حقيق

الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال للرجل يافلان لقد فررت من شىء ووقعت فيما هو شرّ منه أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشفان هذا العود لم لاتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف والعود أيضا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها فقال له الرجل الخراسانى أرشدك الله ونفع بك فلقد كنت فى ذلك من المسرفين . وقال الهيثم بن عدىّ نزل على أبى حفصة الشاعر رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه فى هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب له :

يا أيها الخارج من بيته   وهاربا من شدّة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له   فارجع وكن ضيفا على الضيف

وكان أبو العتاهية ومروان ابن أبى حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل قال مروان مافرحت بشىء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لى المهدى فوزنتها فرجحت درهما ، واشترى لحما بدرهم فلما وضعه فى القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين فجعل القصاب ينادى على اللحم ويقول هذا لحم مروان . واحتاز يوما بأعرابية فأضافته فقال إن وهب لى
يحرس
أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهما فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوانق . ومن الموصوفين بالبخل آل مرو ،

يحرس الورد خال عنبر تحت أهداب غزار — فى صفا وجهو أنزه طرق عند خلع العذار

(دور) : فى رياض صفوفٌ من الأزهار — قابلتها صفوف *

كيف لاترقص والنسيم بهاموصول وورقهادفوف — واعجب من النهر إذ صفق لومن الموج كفوف

والغيوم نقطت وحين جا النسيم طار أعلى مطار — باختلاف الألحان سحرفى الروض صاح على عودوطار

(دور) : أشرف الخلق بين الإسلام — والهدى والضلال *

والشرائع والحق والباطل والحرام والحلال — نبي من بين أصابعه تحقيق، نبع الماء الزلال

ولوأن النبات جميعه أقلام والمداد والبحار — والخلائق تكتب مديحوتاه كل كاتب وحار

(دور) : خلف أستاذ فى الفن ماينطاق — ذاق عداه المنون *

مايعيبوا فى الفن غيرناقص عقل زايد جنون — شيخ مصدر لبيب قيم فى جميع الفنون

باتضاعومع الصدارم فوع فوق رءوس الكبار — وأهل الفنون تجرى وما تلحق للغبارى غبار

(غيره لناصر الغيطى) :

كنزروضى طالبو بسعدياخليع قم فى دجى الأسحار — تلتق در الندى برهج فوق فصوص غرائب النوار

(دور) : كنز روضى نزهة الطالب — جوهر و بين الندى برهج

ولجين الما يتكسر ياخليع هيا تعا انفرج — بين عنابر تلتق الخلع كل حد مع إلفو يدرج

راش فى عرش الرياض وارتع بين أغصان وماوأطيار — فوق بساط زمرد وقضبان كل ورده أحكت لنا دينار

(دور) : وترى الياسمين بحال فضه — ضربت لأهل النزه صلبان

والشحارير لابسين أسود وقلانس كنهم رهبان — وكذا الكتان وهوأصفر بعمائم زرق للناس بان

وانجلت بين القسوس فى ألحان وعلينادارها الخار — والقطيع الراهبى يحكى الشماس لابس الزنار

(دور) : الفراق نار والوصال جنه — والخلائق بعضهم يعشق

داحبيب قلبوعليه راضى وداحبيو بوعليه يشفق — ولهيب الهجر يتوقد والوصال من اللاح يشتق

والمليح عندى وأنا معطن وسط روضا زهرها معطار — فى نعيم مع حوروميع ولدان والعذول مسكين صبح فى نار

(دور) : وعمل فى الروض سماع با كر — بين الأغصان والزهور أنغام

والنسيم شبب والغدير صفق والخليع من كثر وجدوهام — والنخيل بأكمامها ترقص وأقبل الريحان بحال عجام

والعصافير شيخهم زريق لوطريق بين الأزهار دار — والبلبل بالغنا يشجى فكأنو ناى أومزمار

(دور ناصر الغيطى) :

ياخلايا صحبت إنسان — أنكر الصحبة وعادانى

ونضنى حين بقيت مسى والاله بالفضل أسمانى — فى بلاد قبلى وأرض الشام يشكرونى ساير أقرانى

والشجيع الشاطر المذكور فى جميع الأرض لوتذكار — والبلط يوقع لوتطلق مايحصل شيء مع الشطار

(الغبارى) : جار حبيبى فقلت ذا الحجاج — جا بجور أويزيد *

لوعدل عشت بو مسرور — ويكون الرشيد *

(دور) : اقلع القلب فى هوى العشاق — والدموع فى انحدار

وبحور الهوى إذا هاجت ليس لها من قرار — كنت أحسب قلبى معو ريس غرنوذا البحار

صحت لما وحلت يامحبوب بحر عشقك يزيد — خفت فيه الغرق فقال افرح من غرق مات شهيد

(دور) : أنا يوم فى الصبوق بانفرج — على شط الغدير

يقال إن من عادتهم إذا ترافقوا فى سفر أن يشترى كل واحد منهم قطعة لحم ويشبكها فى خيط ويجمعون اللحم كله فى قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه فإذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق. وكان عمر بن يزيد الأسدى بخيلا جدا أصابه القولنج فى بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما فى بطنه فى الطست فقال لغلامه اجمع الذى نزل من الحقنة وأسرج به. وكان المنصور شديد البخل جدا مر به مسلم الحادى فى طريقه إلى الحج فحدا له يوما بقول الشاعر:

أغر بين الحاجبين نوره
يزينه حياؤه وخيره
ومسكه يشوبه كافوره
إذا تغدى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل وقال يا ربيع أعطه نصف درهم فقال نصف درهم يا أمير المؤمنين والله لقد حدوت لهشام فأعطانى ثلاثين ألف درهم فقال تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع وكل به من يستخلص منه هذا المال قال الربيع فما زلت أمشى بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له فى ذهابه وإيابه بغير مؤنة، وأخبار البخلاء كثيرة وفيما أوردناه كفاية.

نادرة: قيل لأبى الحرث ما تقول فى الفالوذجة قال وددت لو أنها وملك الموت اختلجا فى صدرى والله لو أن موسى لقى فرعون بالفالوذجة لآمن به ولكنه لقيه بعصا. ودخل ابن قزعة يوما على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال ما بال مولانا ليس يدعونى إلى

الموز يأكل الموز فقال صفه حتى أطعمك فقال ماالذى أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبدا وعسلا وأطيب التمر كأنه مخ الشحم سهل القشر لين المكسر عذب الطعم بين الطعوم سلس فى الحلقوم ، ثم مدّ يده وأكل .

وسمع رجلا يذم الزبد فقال له ما الذى ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه . وقيل له ماتقول فى الباذنجان ؟ قال أذناب المحاجم و بطون العقارب و بزور الزقوم ، قيل له إنه يحشى باللحم فيكون طيبا فقال لوحشى بالتقوى والمغفرة ماأفلح .

وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاذان هل عمل كسرى مثلها فاستعفاه فأقسم عليه فقال أولم عبد عند كسرى فأقام على رءوس الناس ألف وصيفة فى يد كل واحدة إبريق من ذهب فقال الحجاج أفّ والله ماتركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفا

وقال معاوية لرجل على مائدته خذ الشعرة من لقمتك فقال وإنك تراعينى مراعاة من يرى الشعرة فى لقمتى لا أكلت لك طعاما أبدا . وحضر أعرابىّ على مائدة بعض الخلفاء فقدّم جدى مشوى فجعل الأعرابىّ يسرع فى أكله منه فقال له الخليفة أراك تأكله بحرد كأنّ أمه نطحتك فقال أراك تشفق عليه كأنّ أمه أرضعتك .

ودعت أبا الحرث صبية له فحادثته ساعة فجاع فطلب الأكل فقالت له أما فى وجهى مايشغلك عن الأكل ، قال جعلت فداك

(المعنى

إذ رأيت على الشط واحد واقف شب صياد صغير … نظرت مقلتى إلى منظر ماالحسنو نظير
قلت ياعينى إن غرّك الصياد بالجمال للصيد … يوقعك فى فخاخ شباك عشقو وكراكى يصيد
(دور) : من نحبو بجديد حبيب قلبى … يوم صدفتو صدف *
قلت لين ياقاسى لمن دمعو سال وحالو وقف … دار وقال لى ماالاسم بالإنجيل قلت اسمى خلف
قال علينا يكتب ومن يسمع دا الكلام يستفيد … فى الحقيقة من لا يكون داود مايلين لو الحديد
(دور) : لك عوارض فى الخد مرقومه … ليس لها من مثال *
وجفاك صار حاق وباب وصلك كان وكان ياغزال … وأنت دوبيت موشح القاما ياعزيز الدلال
ولك ألفاظ صارت مواليا بالزجل والنشيد … و بشعرك متوّج القاما وأنت بيت القصيد
(دور) : عن محرم شرابنا ضمنا … ونفطر بالخمار *
حين وجدنا سفرجل البستان يذهب الاصفرار … وغنا الطير به الجماد يطربه وكذا الجلنار
فى ربيع حين رأى الثمر قاعد فيه تعاليق عقيد … حسب الروض الشى من شعبان صار يقيد فيه وقيد
(دور) : من لهيب مدمعى جرى الطوفان … للهيب ماطفى *
وأنا هوى الغبارى فى العشاق ماجرى لى كفى … حين عليا بالصدّ والهجران والبعاد والجفا
جار حبيبى فقلت ذا الحجاج جايجور أويزيد … لو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد
(غيره) : حين سكنت القلب ياعبسى … أمسى من بعدك الحزين فرحان
وتقدّس بك ولكنو … ماجرت فيه ياابن عين سلوان
(دور) : عارضو لما عشق خدو … غرت من وجدى بقيت حاير
جيت إلى طرفو وناديت لواحرسوو كون عليه ناظر … بعد حين نظرت فى خدو النق العارض وهو داير
وعليه قدّدب بالسرقه جيت لطرفو قلت ياكسلان … هكذا فى عادة الحراس قال لى اعذرنى أنا نعسان
(دور) : بدر شعبان منيق لما … فى بروض السعد لاح نجمو
قلت لواقضى بفيض دمعى لطلقو واجراه على رسمو … قلت لودام الله اطلاقك ياحزين قلبو الشوم قسمو
ايش قد أذنب حين قطرتو … دايغلط قول بالبهتان
قال لى صوم عن الوصال ناديت … ليش أصوم يابدر فى شعبان
(دور) : حين تدبج احمرار خدّو … باخضرار العارض أسبانى
ضحك فايض وابتسم واسوداد شعرى وأبكانى … وحين أضحيت باصفرار لونى أشعث أغبر فى هواه عانى
قال لى لونك قد صبح حايل وقد أبصر مدمعى طوفان … ذقت تبريح الغرام ناديت فى هواك ذقت الهوان ألوان
(دور) : قلت لو حين عنى تخلف … لله كن لى يارشيد مهدى
قد تلون دمعى من بعدك وتجرى اليوم على خدى … دار إلى إنسان مقلتى قال لوأنت ماعندك نظر بعدى
ماترى ماقد جرى منك على الخدود قال يافتان … جرى الماء تحت من بعدك راقب الله فيا ياإنسان
(دور) : ذا الغزال النافر الانسى … للغزالة قد أغار النور
كسر قلبى كسر جفنو فاعجبوا للكاسر المكسور … و بخمر الدن قد عربد وادّعى أنى أنا المخمور
وابتسم لى عن نقا ثغرو وخطر والبشر فيا بان … صحت ياقلبى صفا وردك أنت مابين النقا والبان

فلو أن جميلا و بثينة قعدا ساعة لايأكلان لبصق كل منهما فى وجه صاحبه وافترقا . وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبدالعزيز وقال ياشمردل ماعندك ماتطعمنى قلت عندى جدى كأعظم ما يكون سمنا قال عجل به فأتيته به كأنه عكة سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذالم يبق منه إلافخذا قال هلم يا أبا جعفر فقال إنى صائم فأكله ثم قال: ياشمردل ويلك أماعندك شىء قلت ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام فأتيته بهن فأتى عليهن ثم قال ياشمردل أما عندك شىء قلت سويق كأنه قراضة الذهب فأتيته به فعبه حتى أتى عليه ثم قال ياغلام أفرغت من غدائنا قال نعم قال ماهو قال نيف وثلاثون قدرا قال ائتنى بقدر قدر فأتاه بها ومعه الرقاق فأكل من كل قدرثلثه ثم مسح يده واستلق على فراشه وأذن للناس فدخلوا وصف الخوان وأكل مع الناس . ونزل رجل بصومعة راهب فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة وذهب ليحضر إليه العدس فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب وأتى بخبز فوجده قدأكل العدس ففعل معه ذلك عشر مرات فسأله الراهب أين مقصدك قال إلى الأردن قال لماذا قال بلغنى أن بها طبيبا حاذقا أسأله عما يصلح معدتى فانى قليل الشهوة للطعام فقال له الراهب إن لى إليك حاجة قال وماهى قال إذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك من ههنا . يحكى أن زيادا أمر بضرب عنق رجل فقال

(الصق الحلى) :   أنت ياقبلة الكرام   زينة المال والبنين
الله يعطيك فوق ذا المقام   ويعيدك على السنين

(دور) :   أنت شاما بين الأنام   الله يحرس شمايلك
ويزيدك بالدوام كى نعيش فى فواضلك   ماينطوى ذكر الكرام لما تنشر فضايلك
ونهنيك لكل عام والخلائق تقول آمين   قدبقينابك فى أمان الله يحييك اول السنين

(دور) :   مارأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعم
كل من جا ليسألك ليس تقول له سوى نعم   أملك أنت أو ملك ضاعف الله لك النعم
أنت فى الجود كالغمام وسماك فوق ماردين   در غيثك فى انسجام عم كل السائلين

(دور) لاعدمنا كل صوم ذا السحور فيك والهنا   كل ليلة وكل يوم ينشر الذكر والثنا
الله يحييك من خير قوم بالغ القصد والمنى

(دور) حتى تقضى ذا الصيام ويليه باقى السنين   وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

(غيره) خال عبدالرحيم نقطة حبر من غير قاف ولام وميم   ثغر معشوق الفتان نون وعين وميم
شال السعد فوق راسو عين ولام وميم   دا لى قد هواه قلبى صاد وبا ويا
مليح مارأيت مثله ظا وبا ويا   ما أحلاه عند من يلبس قاف وبا ويا
ذقت من صدود حبى غين وصاد وصاد   ولما رأيت صبرى نون وقاف وصاد
النوم من جفون عينى خا ولام وصاد   وأصبحت وجود فكرى عين ودال وميم
قلت يوم لمن كان لى سين ونون ودال   اعدل فى الذى صبر ونون وفا ودال
ولا تهجر العشاق با وعين ودال   ما أفلح قط ياناس من ظا ولام وميم

جمل فى الألغاز

المطلع فى العين

وما طير أكلو الحجر ياكرام   وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح
ولمس الحرير يؤذيه وريش النعام   يصول بين جناحين سود كبيض الصفاح

(دور فى السراج) :

وما بحر ما هو ماوفى الليل يزيد   وينقص ولاهو خوض ولاهو غريق
وفيه شىء صفات حيه بلاوكر استفيد   لها جوهره فى فمها يارفيق
بلاشك ينظره القريب والبعيد   ويخفى ويظهر كل يوم عن حقيق
يغيب فى النهار لكن إذاجا الظلام   تشوفو يضىء بين الوجوه الصباح
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام   قتيل الهوى بين الربا والبطاح

(دور فى جوزة الكنافة) :

وماهى التى تركب على ستين ألف   وما مثل ذاك فسر لنا ياخبير
مليحة وقصيفة وتلبس ترف   وتحمل وتوضع كل يوم فى السعير
لها عشرة أعوان حالهم مختلف   يشيلوا أودها الكبير والصغير
لها خل يخدمها عليه السلام   يعادى سراها فى المجى والرواح

وأكثر تعبها فى ليالى الصيام ... وذا اللغز قلته من غير مزاح

(دور فى الغربال) :

وما هو الذى يا سعد كله عيون ... ولا يعتم ضوء الظلام والضيا
وهو بين خشب مصلوب لتلك الفتون ... وميت وهو يحيي أصول الحيا
إذا غاب عن أهله فرد يوم مايهون ... ولا حد يعوّض موضعه لوعيا
وكم من رقيص فى صنعته باهتمام ... مكابد عجاجه فى المسا والصباح
ويحتاج له الناس كل يوم فى الدوام ... على شان فنونه دول فنون ملاح

[الفنّ الخامس فى المواليا]

وله وزن واحد وأربع قوافى ، فمن تلك الأربعة واحد لصفىّ الدين الحلى :

ياطاعن الخيل والأبطال قد غارت ... والخصب الربع والأمواه قد غارت
هواطل السحب من كفيك قد غارت ... والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

وقال أيضا:

سل مقلتيك الكحال عمن سلاسلها ... ومرشفيك من رشف منها سلاسلها
وعارضيك التى مدّت سلاسلها ... كم من أسود ضوارى فى سلاسلها

وقال آخر :

قد أوعدونا الغضابا أننا نخلو ... فى ظلّ بستان حافف بالتمر نخلو
والطلّ من فوقنا قد بلنا نخلو ... ومن كلام الأعادى قط ما نخلو

وقال آخر :

قسما وبالله مفرقها وجامعها ... ومن أمرنا بمسجدها وجامعها
لو حلّ مع بغيق عابد وجامعها ... كان افتتن فى محاسنها وجامعها

ومن اثنين واثنين قال آخر :

قوم اسقنى ما تبق فى أباريقو ... أما ترى الصبح قد لاحت أباريقو
مع شادن كلما دارت شفا ريقو ... سق للداما وإن عزت سقى ريقو

وقال :

البارحه ريت بعينى فى الدجا جبين ... اثنين مثل البدوره فى الدجى جبين
ناديتهم فين كنتم يا خفاجيين ... قالوا لمن قد وعدنا فى الخفاجيين

وقال :

قد زدت هجرك جد بالعفو عن صبك ... وارحم خضوعى وخف فى قتلتى ربك
يكفيك تهجر تكدر قلب من حبك ... ماظنّ فى الناس أقسى قلب من قلبك

(غيره خمرى عاطل) :

كاس الطلا لطلاها طال لما سر ... وصار لما حوى حمراه مكلل در
مدام لو طعم كله حلو ماهو مر ... ما حلّ علوك إلا صار ملك حر

(غيره حربى) :

لك ياإمام الوغى فى كل موقع حرب ... سماع يطرب له السامع وينفى الكرب
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب ... سيوف تفنى وكفك لايملّ الضرب

(الصفىّ الحلى فى المدح) :

أغنت وأفنت كفوفك فى الندى والحرب ... فى القرب والبعد فى شرقها والغرب
وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب ... ذا الكرب فرج وهذا قدرى فى الكرب

أيها الأمير إن لى بك حرمة قال وما هى قال إن أبى يجارك بالبصرة قال ومن أبوك قال يامولاى إنى نسيت اسم نفسى فكيف لا أنسى اسم أبى فرد زياد كمه على فمه وضحك وعفا عنه . وحكى عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه أن غلاما له وقف يصبّ الماء على يديه فوقع الإبريق من يد الغلام فى الطست فطار الرشاش فى وجهه فنظر جعفر إليه نظر مغضب فقال يا مولاى والكاظمين الغيظ قال قد كظمت غيظى قال والعافين عن الناس قال عفوت عنك قال والله يحبّ المحسنين قال اذهب فأنت حرّ لوجه الله الكريم. وقيل لما قدّم نصر بن منيع بين يدى الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه قال يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمات أقولهن قال قل فأنشأ يقول :

زعموا بأن الصقر صادف مرة ... عصفور برّ ساقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه ... والصقر منقضّ عليه يطير
إنى لمثلك لا أتم لقمة ... ولئن شويت فإننى لحقير
فتهاون الصقر المدل بصيده ... كرما وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلى سبيله . وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكرى فقال له عباد أيها الأمير أنشدك الله لاتقتلنى فوالله إنى لأعول أربعا وعشرين امرأة مالهن كاسب غيرى فرقّ لهن واستحضرهن فإذا واحدة منهنّ كالبدر فقال لها الحجاج ما أنت منه قالت أنا ابنته فاسمع منى ياحجاج ما أقول ثم قالت وقال :

ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة .

وحكى أن رجلا زور ورقة عن خط الفضل ابن الربيع تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها إلى وكيل الفضل فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل فشرع فى أن يبذل له الألف دينار وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر فى وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فأطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل أتدرى لم أتيتك فى هذا الوقت ؟ قال لا قال جئت لأستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذى فى هذه الورقة فأسرع عند ذلك الوكيل فى وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيرا فى أمره فالتفت إليه الفضل وقال له طب نفسا فقال له سترتنى سترك الله فى الدنيا والآخرة ثم أخذ المال ومضى .

وقال أيضا : من قال جودة كفوفك والحيا مثلين أخطا القياس وفى قوله جمع ضدين
ماجدت إلا وثغرك مبتسم يازين وذاك ماجاد إلا وهو باكى العين

وقال فى التهنئة :

رأيت العيد أول يوم فى عصرك ورأيت ذا اليوم مع ذا الشهر فى نصرك
ودبت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك والكل بالكل أول مبتدا عمرك

(فى المعاتبة) :

عنى تسليت وأسياف الجفا سليت ومذ توليت عن طرق الوفا وليت
لما تمليت بالأعمال لى مليت إذا تخليت تعرف قدر من خليت

وقال أيضا : ياقلب إن غدروا فاغدر وإن خانوا خن وإن هم قسوا فاقسا وإن لانوا
فلن وإن قربوا فاقربهم وإن بانوا فبن وكن لى معاهم كيفما كانوا

وقال آخر : حلف عليا جكاره أن يقاطعنى وصد عنى وأقسم مايطاوعنى
كم ذا يصد وكم يرجع يصد عنى إن كنت أنا هو المطلق لايراجعنى

وقال آخر هجوا :

قطع قفا ابن أخت خالك وابن أخو عمك والحق يصفع أبو بنتك أو ابن أمك
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك وإن كنت تسكت يبول الكلب فى فمك

وقال آخر : إن ردت تسلم بطول الدهر ماتبرح لا تيأسن ولا تقنط ولا تمرح
واستعمل الصبر لاتحزن ولاتفرح وإن ضاق صدرك ففكر فى ألم نشرح

وقال آخر : إن كنت عاقل وربك بالتقى برك ادفع أذاك وهات خيرك ودع شرك
وإن تعدى حسودك والحسد ضرك ناديه ياأيها الإنسان ماغرك

وقال آخر : ياقلب إن خانك المحبوب لاتدبر عنو وعن قصة السلوان لاتخبر
واستعمل الصبر دائم للعدا تقهر فإن والله ماخاب الذى يصبر

[الفن السادس كان وكان]

له وزن واحد وقافية واحدة ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثانى فمنه هذه الوعظيات

ياقاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
أفنيت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك ليتك على ذى الحاله تقلع عن الإصرار
تحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشتغل فكيف يامتخلف تحسب من الحضار
ويحك هنبه فتى وافهم مقالى واستمع فى المجالس محاسن تحجب عن الأبصار
يحصى دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه وكيف تعزب عنه غوامض الأسرار
تلوت قولى ونصحى لمن تدبر واستمع ما فى النصيحة فضيحه كلا ولا إنكار

وقال أيضا :

صرح بذكر المحبة مافى المعمى فائده وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه
ودع حديث العواذل ليس الخبر مثل النظر أنا عاشق لحبيب كل المعانى فيه
من أين البدر حسن يحكيه أو شمس الضحى حاشا لذاك الحيا من مشبه يحكيه

ومن اللطائف والغرائب الدالة على الوفاء بالذمم ماحكاه بعض خدم أمير المؤمنين المأمون قال : طلبنى أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لى خذ معك فلانا وفلانا وسماهما : أحدهما على بن محمد والآخر دينار الخادم واذهب مسرعا لما أقول لك فإنه

قد بلغنى أن شيخا يحضر ليلا إلى دور البرامكة وينشد شعرا ويذكرهم ذكرا كثيرا ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تروا هذه الخربات فاستتروا فى بعض الجدران فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئا فائتونى به قال فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخربات وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسى جديد وإذا بشيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل فجلس على الكرسى وجعل يبكى وينتحب ويقول :

ولما رأيت السيف جندل جعفرا
ونادى مناد للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى
عليهم وقلت الآن لاتنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ورددها فلما قبضنا عليه وقلنا له أجب أمير المؤمنين فزع فزعا شديدا وقال دعونى حتى أوصى وصية فإنى لاأوقن بعدها بحياة ثم تقدم إلى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه ثم سرنا به فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين زجره وقال له ومن أنت وبماذا استوجبت البرامكة منك مانفعله فى خرائب دورهم وما تقوله فيها ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندى أيادى خطيرة أفتأذن لى أن أحدثك حديثى معهم ؟ قال فاعجب ثم قال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال فلما ركبنى الدين واحتجت

إن غبت فهو أنيسى   وإن حضرت نديمى   وإن شربت مدامى   فالكاس هو ساقيه
فمنه روحى وراحى   إذا سكرت   وراحتى وفيه عزّى   وذلى بمهجتى أفديه
قولوا لمن يلحانى   فى الحبّ قصر واعتبر   هذا الذى قد عشقته   قد حار وصفى فيه

(الصنّ الحلى) :

شاهدت فى الليل طيرى   وقمت حتى أنصب شركى   ما كلّ صيد يحصل   يفرح الصياد
طيرى الذى كان إلفى   لو ردت مثله ماحصل   وهو علىّ معوّد   وأنا عليه معتاد
قد كان شرطى وخلقى   لبرج غيرى ماعرف   كأننا فى الصحبه   جينا على ميعاد
من قبلى ماأبصبص له   يجى ويدخل قصورى   وأناأرصده فى مطاره   خائف عليه ينصاد

وقال آخر :

ماذقت عمرى جرعه   أمر من طعم الهوى   الله يصبر قلبى   على الذى يهواه
الناس تعلم منى   حال الجلاده والقوى   وما أطيق التجلد   على أليم جفاه
لى حبّ مثل الخوخه   لو لون وطعم وريحه   ماأكثر مفابن حبيبى   وما أقلّ وفاه
أنا عرّفتو حظى   وكلّ ماأحسن لو يبنى   لوكنت أعشق ظلى   ما كنت قط أراه

(وله فى القراقيات) :

ياسادة هجرونى   وهم تزول بخاطرى   لا أوحش الله منكم   فى سائر الأوقات
أوحشتم العين منى   وأنسكم فى خاطرى   والقلب فى نور منكم   والعين فى ظلمات
قد انتهى الصبر منى   وما بقى فيا رمق   هيهات أنى أحيا   من بعدكم هيهات
لم يبق غير خيالى   يلوح كالشبح الخفى   أعدّ بين الأحيا   وأنا مع الأموات
ودّعتمونى وسرتم   والقلب يتبع ركبكم   ايش ضرلو كان جسمى   من جملة التبعات
ماس ماريت ضدّى   يقول لى من فرحته   هنا تشقّ المرابر   وتسكب العبرات
لولم أسلى روحى   وأرض نفسى بالمنى   لكان قلبى تقطع   من بعدكم حسرات
وقفت لما رحلتم   حيران بين أظعانكم   أخفض جناح الذله   وأرفع الأصوات
طول الليالى أساهر   كنى أريد الكيميا   أقطر الدمع منى   وأصعد الزفرات
ماأطول ليالى جفاكم   ساعاتها مثل السنه   وما أقصر أيام وصلى   كأنها ساعات
مالى أرى حسناتى   بالسيئات تبدلت   وسيئات الاعادى   انبدلت حسنات
خالفتمونى وعمرى   مازلت أتبع أمركم   كذا العبيد تتابع   أوامر السادات
أسكت وأصبر عنكم   ويفعل الله مايشاء   والدهر من عاداته   يقلب الحالات

[الفنّ السابع فى القوما]

قيل : أوّل من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ، والصحيح أنه مخترع من قبله وكان الناصر يطرب له وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر فى نظم القوما فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه فتعذّر عليه ذلك فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ووقف أوّل ليلة من الشهر تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق فأصغى الخليفة إليه وطرب له فكان أوّل ماقاله قوله :

ياسيد السادات   لك بالكرم عادات   أنا بنىّ ابن نقطه   تعيش أبويا مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار فاستحضره وخلع عليه وفرض له ضعف ما كان لأبيه .

(ومنها للصفىّ الحلى) :

من كان يهوى البدور   ووصل بيض الخدور   بالبيض والصفر يسخو   وقد جلس فى الصدور
من حب بيض الجدور   ورام لزوم الصدور   يسمح وإلا فيبق   من بينهم مهدور
كم بين سجف الخدور   من عاشق مصدور   يرعى الكواكب لعلو   يرى جمال البدور
بين الحلل والخدور   وجوه مثل البدور   إشراقها فى المعاجر   وغروبها فى الصدور
قد كنت فوق الصدور   بين الظبا والبدور   فصرت أحمد بن أبصر   خيامهم والخدور
نوائب للقدور   مثل الكواكب تدور   بعد طيب الخواطر   يقضى بضيق الصدور
غيرى يلازم الصدور   وأنا عليكم أدور   وأصطلى الصد وأنا   من بينهم مهدور

وقال أيضا :

حال الهوى مخبور   يريد جلد صبور   يصون سره وإلا   يبقى من أهل القبور
من كان هواه مستور   يحظى برفع الستور   ومن هتك سر حبو   يمحى من المستور
أبذل لبيض النحور   أموال مثل البحور   إن أردت تملك وتظفر   ولدانهم والحور
قم فابذل الذخور   وفى العطا لا تجور   تريد هذى المحبة   قلوب مثل الصخور
كم حول تلك الخدور   من عاشق مذعور   مثل الدواليب تجرى   دموعها وتدور
من يركب المحذور   هو فى الهوى معذور   يظفر بحبه ويبلغ   قصده ويوفى النذور
كن بالهوى مسرور   ولا تبيت مغرور   واجعل تراب أعتابهم   لأجفان عينك درور
طرق المحبة وعور   كم بينها معذور   من فتك بيض السوالف   على سواد الشعور
كم عاشق مذغور   فى حب بيض الثغور   يغار قلبه ولكن   مدامعه ما تغور
كم بينهم يعفور   كالظبى أنس نفور   من أهل بدر فديته   إيش ما عمل مغفور

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء فى رمضان :

لازال سعدك جديد   دائم وجدك سعيد   ولا برحت مهنا   بكل صوم وعيد
فى الدهر أنت الفريد   وفى صفاتك وحيد   والخلق شعر منقح   وأنت بيت القصيد
يا من جنابه شديد   ولطف رأيه سديد   ومن يلاق الشدائد   بقلب مثل الحديد
لازلت فى تأييد   فى الصوم والتعييد   ولا برحت مهنا   بكل عام جديد
نحن لذكرك نشيد   بقولنا والنشيد   ونبعث أوصاف مدحك   على خيول البريد
ظلك علينا مديد   ما فوق جودك مزيد ،   وكم غمرت بفضلك   قريبنا والبعيد
لازلت فى كل عيد   تحظى بجد سعيد   عمرك طويل وقدرك   وافر وظلك مديد
لازال قدرك مجيد   وظل جودك مديد   ولا برحت موقى   كما يوقى الوليد
ما زال برك يزيد   على أقل العبيد   وما برح جود كفك   منا كحبل الوريد
لازال برك مزيد   دائم وبأسك شديد   ولا عدمنا نوالك   فى صوم فطر وعيد

(ومما قيل فى فن الحماق) :

أنا ما عبورى الحمام   لجسمى لكى ينظف   إلا لدمع جارى   على اللما ولا يوقف

إلى بيع مسقط رأسى ورءوس أهلى أشاروا علىّ بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبى وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت بثويبات لى كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شىء عندهم ودخلت شوارع بغداد سائلا عن دور البرامكة فاذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زى وزينة وعلى الباب خادمان فطمعت فى القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل منى لأنها لم تكن صناعتى وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم وإذا بيحيى جالس على دكة له فى وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده وإذا غلام أمرد قد عذر خداه أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون فى وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ومع كل خادم مجمرة من ذهب فى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر السلطانى فوضعوه بين يدى الغلام إلى جنب يحيى ثم قال يحيى للقاضى تكلم وزوج بنتى عائشة من ابن عمى هذا فخطب القاضى وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ونظرت فاذا نحن فى المكان

ودبك المجارى تجرى ودمعى يسابقها تقول الأنام فى الحمام له أحباب فارقها

وقال آخر :

ترى كل من نعشقو علينا يقيم أنفه فاسلاه واترك هواه وسد الطريق خلفه
وإن زاد على عشقو وزاد بى الهوى والذل تركتو ولو كان يحيي لأهل القبور الكل

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة وذكرت منها ما تبتهج به النفوس وتقر به العيون واختصرت ذلك إلى الغاية فجاء بتوفيق الله فى الحسن نهاية ، وأسأل الله التوفيق بمنه وكرمه والمزيد من بره ونعمه وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثالث والسبعون فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول

الفصل الأول فى النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى ــ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ــ الآية وقال تعالى ــ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ــ وقال تعالى ــ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم ــ الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «استوصوا بالنساء خيرا فانهن عوار عندكم» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تزوجوا الودود الولود فانى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» وقال صلى الله عليه وسلم «سوداء ولود خير من حسناء عقيم» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحسن النساء بركة أحسنهن وجها وأرخصهن مهرا» فينبغى للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب فى ذات الدين وأن يختار الشرف والحسب كما حكى أن نوح بن مريم قاضى مرو أراد أن يزوج ابنته فاستشار جارا له مجوسيا فقال سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتينى قال لابد أن تشير على قال إن رئيسنا كسرى كان يختار المال ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال والعرب كانت تختار الحسب والنسب ورئيسكم محمد كان يختار الدين فانظر أنت بأيهم تقتدى . وقال رجل للحسن إن لى ابنة فمن ترى أن أزوجها له قال زوجها ممن يتقى الله عز وجل فان أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها وقيل لرجل من الحكماء فلان يخطب فلانة فقال أموسر من عقل ودين فقالوا نعم قال فزوجوه إياها . ويستحب أن يختار البكر لقوله صلى الله عليه وسلم «عليكم بالأبكار فانهن أطيب أفواها وأنتق أرحاما» وقالوا : أشهى المطى ما لم يركب وأحب اللآلى ما لم يثقب وأنشد بعضهم :

قالوا نكحت صغيرة فأجبتهم أشهى المطى إلى ما لم يركب
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة نظمت وحبة لؤلؤ لم تثقب

فأجابته امرأة :

إن المطية لا يلذ ركوبها حتى تذلل بالزمام وتركبا
والدر ليس بنافع أربابه حتى يؤلف بالنظام ويثقبا

قال خالد بن صفوان :

عليك إذا ما كنت فى الناس ناكحا بذات الثنايا الغر والأعين النجل

وقيل استشار رجل داود عليه السلام فى التزويج فقال له سل سليمان وأخبرنى بجوابه فصادفه ابن سبع

ما بين والشاهد وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلا فخرج إلينا مائة واثنا عشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية فرأيت القاضى والشاهد يصبون الدنانير فى أكمامهم ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدى بين يدى يحيي لا أجسر على أخذ الصينية فغمزنى الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب فى كمى وأخذت الصينية فى يدى وقمت وجعلت ألتفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب بها فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ويحيي يلحظنى إذ قال للخادم ائتنى بذلك الرجل فرددت إليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان فى كمى ثم أمرنى بالجلوس فجلست فقال لى ممن الرجل فقصصت عليه قصتى فقال للخادم ائتنى بولدى موسى فأتى به فقال يا بنى هذا رجل غريب فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى على يدى وأدخلنى إلى دار من دوره فأكرمنى غاية الإكرام وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال إن الوزير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل وقد علمت اشتغالى فى دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وأكرمه ففعل

سنين

ذلك وأكرمنى غاية الإكرام فلما كان من الغد تسلمنى أخوه ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولوننى عشرة أيام لا أعرف خبر عيالى

سنين وهو يلعب مع الصبيان راكبا قصبة فسأله فقال عليك بالذهب الأحمر أو الفضة البيضاء واحذر الفرس لايضربك ، فلم يفهم الرجل ذلك فقال له داود عليه الصلاة والسلام الذهب الأحمر البكر والفضة البيضاء الثيب الشابة ومن وراءهما كالفرس الجموح ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم » وقال صلى الله عليه وسلم « انظر فى أى شىء تضع ولدك فإن العرق دساس » وقال عليه الصلاة والسلام « إياكم وخضراء الدمن ، قالوا وماخضراء الدمن يارسول الله؟ قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء » وأنشدوا فيه :

إذا تزوّجت فكن حاذقا   واسأل عن الغصن وعن منبته

وقال بعضهم :

وأوّل خبث الماء خبث ترابه   وأوّل خبث القوم خبث المناكح

وعن علىّ رضى الله تعالى عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « لاتسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإنّ اللبن يعدى » . وقيل إن جعفر بن سليمان بن علىّ عاب يوما على أولاده وأنهم ليسوا كما يجب فقال له ولده أحمد بن جعفر إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة وإماء الحجاز فأوعيت فيهنّ نطفك ثم تريد أن ينجبن وإنما نحن كصاحب الحجاز هلا فعلت فى ولدك مافعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها فزوّجها منك ، وأنشدوا :

صفات من يستحب الشرع خطبتها   جلوتها لأولى الألباب مختصرا
صبية ذات دين زانه أدب   بكر ولود حكت فى نفسها القمرا
غريبة لم تكن من أهل خاطبها   تلك الصفات التى أجلو لمن نظرا
فيها أحاديث جاءت وهى ثابتة   أحاط علما بها من فى العلوم قرا

وقال آخر :

معطيات السرور فويق عشر   إلى العشرين ثم قف المطايا
فإن جزت الصبر فسر قليلا   وبنت الأربعين من الرزايا

وقال آخر :   فإياك إياك العجوز ووطأها   فما هو إلا مثل سم الأراقم

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التى لاتسكن النفس إلى عشرتها ولا تقرّ العيون برؤيتها . وفى حكمة سليمان بن داود عليهما السلام : المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها والمرأة السفيهة تهدمه . وروى أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر خطب فقال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرّية إبراهيم وزرع إسمعيل وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس ثم إن محمد بن عبدالله ابن أخى من لايوزن به رجل من قريش إلا رجح به برا وفضلا وكرما ومجدا ونبلا فإن كان فى المال قلّ فالمال ظل زائل ورزق حائل وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ماعاجله وآجله من مالى كذا وكذا وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل . ولما خطب عمرو بن حجر الكندى إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها فكان مما أوصتها به أن قالت أى بنية إنك مفارقة بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى

وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء ؟ فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا لى قم فاخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالى على هذه الحالة إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأوّل ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع . فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لى مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلىّ فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به . فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا واستقبلنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل إلىّ ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق وأقمت بأمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لايعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعونى ؛ فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد مانزل أجحفنى عمرو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج مالايفى دخلهما به فلما تحامل علىّ الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خربات القوم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلىّ وأشكرهم على إحسانهم ، فقال المأمون علىّ بعمرو بن مسعدة ، فلما أتى به قال له ياعمرو أتعرف هذا الرجل ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة قال كم ألزمته

فى ضيعته ، قال كذا وكذا قال رد كل مااستأديته منه فى مدته ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده ، قال فعلا نحيب الرجل وبكوه ، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال ياهذا قد أحسنا إليك فلم تبكى قال ياأمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة إذ لولم آت خرباتهم وأندبهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين ففعل بى مافعل فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين قال إبراهيم ابن ميمون فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك وإياهم فاشكر ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر . ومن ذلك أنه خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبانات الشام فاذا امرأة جالسة على قبر تبكى قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فكشفت شمسا عن متون غمامة ، فوقفنا متحيرين ننظر إليها فقال لها يزيد ابن المهلب ياأمة الله هل لك فى أمير المؤمنين فنظرت إلينا ثم أنشأت تقول :

فإن تسألانى عن هواى فإنه
بحول بهذا القبر يافتيان
وإنى لأستحييه والترب بيننا
كما كنت أستحييه وهو يرانى

ومن ذلك ماذكره عبدالله ابن عبد الكريم قال إن أحمد بن طولون وجد عند سقاية طفلا مطروحا فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن ، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فأخذه إليه ، فلما

منه درجت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فكونى له أمة ليكون لك عبدا واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا ، فأما الأولى والثانية فالرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولايشم أنفه منك إلا أطيب الريح ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه فان شدة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة فالإحراز لماله والإرعاء على حشمه وعياله ، وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصى له أمرا ولاتفشى له سرا فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره وإياك ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما والكآبة لديه إذا كان فرحا ، فقبلت وصية أمها فأنجبت وولدت له الحرث بن عمرو جد امرئ القيس الملك الشاعر . وعن الهيثم بن عدى الطائى عن الشعبى قال لقينى شريح فقال لى : ياشعبى عليك بنساء بنى تميم فانى رأيت لهن عقولا ، فقلت ومارأيت من عقولهن ؟ قال أقبلت من جنازة ظهرا فمررت بدورهن وإذا أنا بعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن مارأيت من الجوارى فعدلت إليها واستسقيت ومابى عطش فقالت لى أى الشراب أحب إليك ؟ قلت ماتيسر قالت ويحك ياجارية ائتيه بلبن فانى أظن الرجل غريبا ، فقلت للعجوز ومن تكون هذه الجارية منك قالت هى زينب بنت جرير إحدى نساء بنى حنظلة قلت هى فارغة أم مشغولة قالت بل فارغة قلت أتزوجينيها قالت إن كنت كفؤا (ولم تقل كفوا) وهى لغة بنى تميم فتركتها ومضيت إلى منزلى لأقيل فيه فامتنعت منى القائلة ، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخوانى من العرب الأشراف علقمة والأسود والمسيب ومضيت أريد عمها فاستقبلنا وقال ماشأنك أبا أمية قلت زينب ابنة أخيك قال مابها عنك رغبة فزوجنيها ، فلما صارت فى حبالى ندمت وقلت أى شىء صنعت بنساء بنى تميم وذكرت غلظ قلوبهن فقلت أطلقها ثم قلت لا ولكن أدخل بها فان رأيت ما أحب وإلا كان ذلك فلو شهدتنى ياشعبى وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت على فقلت : إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلى ركعتين ويسأل الله تعالى من خيرها ويتعوذ من شرها ، فتوضأت فاذا هى تتوضأ بوضوئى وصليت فاذا هى تصلى بصلاتى ، فلما قضيت صلاتى أتتنى جواريها فأخذن ثيابى وألبسننى ملحفة قد صبغت بالزعفران ، فلما خلا البيت دنوت منها فمددت يدى إلى ناصيتها فقالت على رسلك أبا أمية ، ثم قالت الحمد لله أحمده وأستعينه وأصلى على محمد وآله ، أما بعد فانى امرأة غريبة لاعلم لى بأخلاقك فبين لى ماتحب فآتيه وماتكره فأجتنبه فانه قد كان لك منكح فى قومك ولى فى قومى مثل ذلك ولكن إذا قضى الله أمرا كان مفعولا وقد ملكت فاصنع ماأمرك الله تعالى به إما إمساك بمعروف أوتسريح باحسان ، أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولك ولجميع المسلمين ، قال فأحوجتنى والله ياشعبى إلى الخطبة فى ذلك الموضع ، فقلت الحمد لله أحمده وأستعينه وأصلى على محمد وآله ، أما بعد فانك قلت كلاما إن ثبت عليه يكن ذلك حظا لى وإن تدعيه يكن حجة عليك أحب كذا وأكره كذا ومارأيت من حسنة فابثثيها ومارأيت من سيئة فاستريها ، فقالت كيف محبتك لزيارة الأهل ؟ قلت ما أحب أن يملنى أصهارى قالت فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له ومن تكرهه أكرهه قلت بنوفلان قوم صالحون وبنوفلان قوم سوء ، قال فبت معها ياشعبى بأنعم ليلة ومكثت معى حولا لاأرى منها إلا ما أحب ،

فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهى قلت من هذه ؟ قالوا فلانة أم حليلتك قلت مرحبا وأهلا وسهلا ، فلما جلست أقبلت العجوز فقالت السلام عليك يا أبا أمية ، فقلت وعليك السلام ومرحبا بك وأهلا قالت كيف رأيت زوجتك ؟ قلت خير زوجة وأوفق قرينة لقد أدبت فأحسنت الأدب وريضت فأحسنت الرياضة فجزاك الله خيرا ، فقالت يا أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالا منها في حالتين قلت وما هما ؟ قالت إذا ولدت غلاما أو حظيت عند زوجها فإن رابك مريب فعليك بالسوط ، فوالله ماحاز الرجال في بيوتهم أشر من الروعاء المدللة ، فقلت : والله لقد أدبت فأحسنت الأدب ، وريضت فأحسنت الرياضة . قالت : كيف تحب أن يزورك أصهارك ؟ قلت : ماشاءوا ، فكانت تأتيني في رأس كل حول فتوصيني بتلك الوصية ، فمكثت معي عشرين سنة لم أعب عليها شيئا ، وكان لي جار من كندة يفزع امرأته ويضربها فقلت في ذلك :

رأيت رجالا يضربون نساءهم ... فشلت يميني يوم تضرب زينب
أأضربها من غير ذنب أتت به ... فما العدل مني ضرب من ليس يذنب
فزينب شمس والنساء كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر ، فلما خرج عبد الله ابن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافدا نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب ، فقال له الوليد لكنك أنت لا مرحبا بك ولا أهلا قال مهلا يا ابن أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك قال بلى والله و بشر منها قال وفيم ذلك ؟ قال لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها لعبد ثقيف يتفخذها . قال : وفي هذا عتبت علي يا ابن أخي ؟ قال نعم ، فقال عبد الله : والله ما أحق الناس أن لا يلوموني في هذا إلا أنت وأبوك لأن من كان قبلكم من الولاة يصلون رحمي و يعرفون حقي و إنك وأباك منعتماني رفدكما حتى ركبني الدين ، أما والله لو أن عبدا حبشيا مجدعا أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتي فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال مالك يا أبا العباس قال إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف فأدركت عبد الملك غيرة فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل قال ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقا ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا ، وما زال واصلا لعبد الله ابن جعفر حتى مات ، وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف . وحكي أن المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمياء مترهبة فاستأذن عليها فقالت من أنت ؟ قال المغيرة بن شعبة الثقفي قالت ما حاجتك؟ قال جئت خاطبا . قالت إنك لم تكن جئتني لجمال ولا مال ولكنك أردت أن تتشرف في محافل العرب فتقول تزوجت بنت النعمان بن المنذر وإلا فأي خير في اجتماع أعمى وأعور . وكان عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل وكانت من أجمل نساء قريش وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجها وأبرهم بوالديه فلما دخل بها غلبت

فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه وقال له أنت عندي بمكانة أرعاك بها ولكن عادتي أني آخذ العهد على كل أحد أعرفه أن لا يخونني في شيء ، فعاهده ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام والأمير أبو الجيش ابن طولون يحسن إليه فلما رأى أحواله متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن إليه واعتمد في أمور بيوته عليه فقال له يوما يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية في المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائتني بها فمضى أحمد فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هم من الأمير بمحل قريب فلما رأياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه ودعته إلى قضاء وطره فقال معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلي وأخذ العهد علي ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعد ما أخذ السبحة وخرج من الحجرة لئلا يذكر حالها للأمير فأقامت أياما لم تجد من الأمير ما تغيره عليها ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية غيرها وقدمها على حظاياه وغمرها بعطاياه واشتغل بها عمن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها ، وكان أولا مشغولا بتلك الجارية الخائنة الماهرة ، فلما أعرض عنها اشتغالا بالجارية الجديدة وصرف لبهجة محاسنها

على عقله وأحبها حبا شديدا فثقل ذلك على أبيه فمرّ به أبو بكر يوما وهو فى غرفة له فقال يابنىّ إنى أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك وغلبت على عقلك فطلقها قال لست أقدر على ذلك ، فقال أقسمت عليك إلا ماطلقتها فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها فجزع عليها جزعا شديدا وامتنع من الطعام والشراب ، فقيل لأبى بكر أهلكت عبد الرحمن ؟ فمرّ به يوما وعبد الرحمن لايراه وهو مضطجع فى الشمس ويقول هذه الأبيات :

فوالله لاأنساك ماذرّ شارق ... وما ناح قمرىّ الحمام المطوق
فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها فى غير شىء يطلق
لها خلق عفّ ودين ومحتد ... وخلق سوىّ فى الحياء ومنطق

فسمعه أبوه فرقّ له وقال له راجعها يابنىّ فراجعها وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابه سهم فقتله فجزعت عليه جزعا شديدا وقالت ترثيه :

فآليت لاتنفكّ نفسى حزينة ... عليك ولا ينفكّ جلدى أغبرا
فتى طول عمرى ما أرى مثله فتى ... أكرّ وأحمى فى الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى القرن حتى يترك الرمح أحمرا

ثم تزوّجها بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته ودعا الناس إلى وليمته فأتوه ، فلما فرغ من الطعام وخرج الناس قال له علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ياأمير المؤمنين ائذن لى فى كلام عاتكة حتى أهنيها وأدعو لها بالبركة فذكر عمر ذلك لعاتكة فقالت إن أبا الحسن فيه مزاح فائذن له ياأمير المؤمنين فأذن له فرفع جانب الخدر فنظر إليها فإذا مابدا من جسدها مضمخ بالخلوق فقال لها ياعاتكة ألست القائلة :

فآليت لاتنفكّ نفسى حزينة ... عليك ولا ينفكّ جلدى أغبرا

وقيل إنّ عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعا شديدا وتزوّجت بعده الزبير بن العوّام وكان رجلا غيورا وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها فشقّ ذلك عليه وكان يكره أن ينهاها عن الخروج إلى الصلاة ، لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » فعرض لها ليلة فى ظهر المسجد وهى لاتعرفه فضرب بيده عجيزتها ثم انصرف فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد وكان يقول لها ألا تخرجين ياعاتكة ؟ فتقول : كنا نخرج إذ الناس ناس وما بهم من باس وأما الآن فلا ، ثم قتل عنها الزبير قتله عمرو بن جرموز بوادى السباع وهونائم ثم تزوّجها بعده محمد بن أبى بكر فقتل عنها بمصر فقالت لاأتزوّج بعده أبدا إنى لأحسبنى أنى لو تزوّجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم . وحكى عن الحرث بن عوف بن أبى حارثة أنه قال لخارجة بن سنان أترى أنى أخطب إلى أحد فيردّنى ؟ قال نعم . قال ومن هو ؟ قال أوس ابن حارثة بن لام الطائى . قال اركب بنا إليه ، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة فى بلاده فوجدناه فى فناء منزله ، فلما رأى الحرث بن عوف قال مرحبا بك ياحارث ، ثم قال ماجاء بك ؟ قال جئت خاطبا قال لست هناك فانصرف ولم يكلمه ، فدخل أوس على امرأته مغضبا فقالت له من الرجل الذى سلم عليك فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه ؟ فقال ذلك سيد العرب الحرث بن عوف فقالت فمالك لاتستنزله قال إنه استهجننى قالت وكيف قال لأنه جاءنى خاطبا قالت ألست تزعم أنه سيد العرب ؟ قال نعم ، قالت إذا لم تزوّج سيد العرب فى زمانه فمن تزوّج ؟ قال قد كان ذلك قالت

وكثرة آدابها وجهه عن ملاعبة أترابها وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف ضرب أضرابها وكانت تلك الجارية لطول حسنها متآمرة على تأميره لاتخاف من وليه ولا نصيره كبر عليها إعراضه عنها ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها وأعلنت البكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها وقالت إنّ أحمد اليتيم راودنى عن نفسى فلما سمع الأمير ذلك استشاط غضبا وهمّ فى الحال بقتله ثم عاوده حاكم عقله فتأنى فى فعله واستحضر خادما يعتمد عليه وقال إذا أرسلت إليك إنسانا ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكا فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه فى الطبق وأحضره مغطى ثم إنّ الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواصّ وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن فى سربه لم يخطر بخاطره شىء فلما مثل بين يدى الأمير وأخذ منه الشراب شرع فى التذكير فقال ياأحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكا فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز فى طريقه بالمغنين و بقية الندماء والخواصّ فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم فقال أنا ماض فى حاجة الأمير أمرنى بإحضارها فى هذا الطبق فقالوا له أرسل من ينوب عنك فى إحضارها وخذها أنت وادخل بها

فتدارك

تعدلك ما كان منك قال فبماذا قالت بأن تلحقه فترده قال وكيف وقد فرط منى إليه ما فرط قالت تقول له إنك لقيتنى وأنا مغضب لأمر فلك المعذرة فيما فرط منى فارجع ولك عندى كل ماطلبت قال فركب فى أثرهما قال خارجة بن سنان فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته فقلت للحرث وهو ما يكلمنى هذا أوس فى أثرنا فقال ما أصنع به فلما رآنا لانقف قال ياحارث أربع علىّ فوقفنا له وكلمه بذلك الكلام فرجع مسرورا قال خارجة بن سنان فبلغنى أن أوسا لما دخل منزله قال لزوجته ادعى لى فلانة أكبر بناته فأتته فقال لها أى بنية هذا الحرث بن عوف سيد من سادات العرب جاءنى خاطبا وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين قالت لاتفعل قال ولم قالت لأن فى خلقى رداءة وفى لسانى حدة ولست بابنة عمه فيراعى رحمى ولا هو بجار لك فى البلد فيستحى منك ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون علىّ بذلك مسبة قال لها قومى بارك الله فيك ثم دعا بنته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها فأجابته بمثل جوابها فقال لها قومى بارك الله فيك ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهن سنا فقال لها مثل ما قال لأختيها فقالت له أنت وذاك فقال لها إنى عرضت ذلك على أختيك فأبتاه ولم يذكر لها مقالتهما فقالت له والله إنى الجميلة وجها الرفيعة خلقا الحسنة رأيا فان طلقنى فلا أخلف الله عليه فقال لها بارك الله فيك ثم خرج إليه فقال زوجتك يا حارث بابنتى هنيسة قال قد قبلت نكاحها وأمر أمها أن تهيئها له وتصلح شأنها ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه ثم بعثها إليه فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج إلىّ فقلت له أفرغت من شأنك قال لا والله قلت وكيف ذلك قال لما مددت يدى إليها قالت مه أعند أبى وإخوتى هذا والله لا يكون ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا وسرنا ما شاء الله ثم قال لى تقدم فتقدمت فعدل عن الطريق فما لبث أن لحقنى فقلت أفرغت من شأنك قال لا والله قلت ولم قال قالت تفعل بى كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم وتدعو العرب وتعمل مايعمل مثلك لمثلى فقلت والله إنى لأرى همة وعقلا فقال صدقت قال وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة فوردنا إلى بلادنا فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إلىّ فقلت أفرغت من شأنك قال لا والله قلت ولم ذاك قال دخلت عليها أريدها فقلت لها قد أحضرت من المال ماتريدين قالت والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك قلت ولم ذاك قالت أتستفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضا وكان ذلك فى أيام حرب قيس وذبيان قلت فماذا تقولين قالت اخرج إلى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ماتريد فقلت والله إنى لأرى عقلا ورأيا سديدا قال فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم تؤخذ الدية فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير فانصرفنا بأجمل ذكر ثم دخل عليها فقالت له أما الآن فنعم فأقامت عنده فى ألذّ عيش وأطيبه وولدت له بنين وبنات وكان من أمرهما ما كان والله أعلم بالصواب . وحكى الفضل أبو محمد الطيبى قال حدثنا بعض أصحابنا أن رجلا من بنى سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبدالله بن أسد ذات ظرف وجمال وكان شجاعا فارسا فلما رآها قال طوبى لمن كان له امرأة مثلك ثم أتبعها رسولا يسألها ألها زوج ويذكره لها وكان جميلا فقالت للرسول وماحرفته فأبلغه الرسول ذلك فقال ارجع إليها وقل لها :

وسائل ما حرفتى قلت حرفتى ... مقارعة الأبطال فى كلّ شارق

إذا عرضت خيل لخيل رأيتنى ... أمام رعيل الخيل أحمى حقائقى

فى الأمير فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال له امض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكا فمضى ذلك الفراش إلى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله فى الطبق وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال ماهذا فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من إنفاذ الطبق وإرساله مع الفراش وأنه لاعلم عنده غير ماذكر قال أتعرف لهذا الفراش خبرا يستوجب به ماجرى عليه فقال أيها الأمير إن الذى تمّ عليه بما ارتكبه من الخيانة وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وبما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها فأقرت بصحة ماذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ففعل وازدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه وجعل أزمة جميع مايتعلق به بيديه. قلت وقريب من ذلك ما حكى أن ملكا من ملوك الفرس يقال له أزدشير وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الأردن الجمال البارع وأن هذه البنت ذات خدر فسير أزدشير من يخطبها من أبيها فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك فعظم ذلك

على أزدشير وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة وليمثلن بهما أخبث مثلة فسار إليه أزدشير في جيشه فقاتله فقتله أزدشير وقتل سائر خواصه ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنا وجمالا وقدا واعتدالا فبهت أزدشير من رؤيته إياها فقالت له أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية وإن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت وإنه أسرني في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر فلما رآني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي فتركني لها فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك فقال أزدشير وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال فمالت نفسه لها فأخذها للتسري وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها ثم إنه واقعها وأزال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوما فوقد رآه منشرح الصدر فقالت له أنت غلبت أبي وأنا غلبتك فقال لها ومن أبوك فقالت له هو ملك بحر الأردن وأنا ابنته فعجل التي خطبتها منه وإني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت والآن هذا ولدك في بطني فلا تهيأ لك قتلي فتظلم

أصبر نفسي حين لم أر صابرا ... على ألم البيض الرقاق البوارق

فلحقها الرسول فأنشدها ما قال فقالت له ارجع إليه وقل له أنت أسد فاطلب لك لبوة فلست من نسائك وأنشدته تقول:

ألا إنما أبغي جوادا بماله ... كريما محياه كثير الصدائق

فتى همه مذ كان خود خريدة ... يعانقها في الليل فوق النمارق

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه قال تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة فكانت جارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول :

وما يستوي الرجلان رجل صحيحة ... وأخرى رمى فيها الزمان فشلت

ثم تعود وتقول :

وما يستوي الثوبان ثوب به البلى ... وثوب بأيدي البائعين جديد

فمرت جارية القديمة على باب الجديدة يوما وقالت :

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لأول منزل

وقال عمرو بن العلاء وكان أعلم الناس بالنساء :

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب

وسئل المغيرة بن شعبة عن صفة النساء فقال بنات العم أحسن مواساة والغرائب أنجب وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء. وقال عبد الملك بن مروان من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية قال الشاعر:

لا تشتمن امرأ بمن يكون له ... أم من الروم أو سوداء عجماء

فإنما أمهات القوم أوعية ... مستودعات وللأنساب آباء

وقال الأصمعي أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها فقلت يا ابن أخي أقصيرة النسب أم طويلته فلم يفهم عني فقلت يا ابن أخي أما القصيرة النسب فالتي إذا ذكرت أباها اكتفت به والطويلة النسب فهي التي لا تعرف حتى تطيل في نسبها فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيرا من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نسبك فيهم . وخرج رجل من أهل الكوفة في غزاة فكسب جارية وفرسا وكان مملكا على ابنة عمه فكتب إليها يغيرها ويقول :

ألا بلغوا أم البنين بأننا ... غنينا وأغنتنا الغطارفة النجد

بعيد مناط المنكبين إذا جرى ... وبيضاء كالتمثال زينها العقد

فهذا لأيام العدو وهذه ... لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلما ورد عليها كتابه وقرأته قالت يا غلام هات الدواة وكتبت جوابه تقول :

ألا فاقره مني السلام وقل له ... غنينا وأغنتنا غطارفة المرد

إذا شئت أغناني غلام مرجل ... ونازعته في ماء معتصر الورد

وإن شاء منهم ناشئ مد كفه ... إلى عكن ملساء أو كفل نهدي

فما كنتم تقضون حاجة أهلكم ... شهودا فتقضوها على النائي والبعد

فعجل إلينـا بالسراج فإنه ... منانا ولا تدعو لك الله بالردّ

ولا تقفل الجند الذى أنت فيهم ... وزادك رب الناس بعدا على بعد

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنـة عمه فكان أوّل شىء بدأها به بعد السلام أن قال لها بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك ؟ فقالت له الله فى قلبى أعظم وأجل وأنت فى عينى أذل وأحقر من أن أعصى الله فيك فكيف ذقت طعم الغيرة فوهب لها الجارية وانصرف إلى الغزاة ، والله تعالى أعلم بالصواب .

[الفصل الثانى فى صفات النساء المحمودة]

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، شريفة فى قومها ، ذليلة فى نفسها مؤاتية لبعلها ، فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثدييها ، فكتب إليه : لايكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها فتدفئ الضجيع وتروى الرضيع . وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان : صف لى أحسن النساء قال خـذها يا أمير المؤمنين ملساء القـدمين ردماء الكعبين ناعمة الساقين ضخماء الركبتين لفاء الفخذين ضخمة الذراعين رخصة الكفين ناهدة الثديين حمراء الخدين كحلاء العينين زجاء الحاجبين لمياء الشفتين بلجاء الجبين شماء العرنين شنباء الثغر محلولكة الشعر غيداء العنق مكسرة البطن ، فقال ويحك وأين توجد هذه ؟ قال تجدها فى خالص العرب وفى خالص فارس . وقال حكيم : عليكم بمن تربت فى النعيم ثم أصابتها فاقة فأثر فيها الغنى وأدّبها الفقر . وقال رجل لخاطب : ابغ لى امرأة لاتؤنس جارا ولا توطن دارا يعنى لاتدخل على الجيران ولا تدخل الجيران عليها ، وفى مثل هذه قال الشاعر :

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلف ... عيطاء غامضة الكعبين معطار

خود من الخفرات البيض لم يرها ... بساحة الدار لا بعل ولا جار

وقال الأعشى :

لم تمش ميلا ولم تركب على جمل ... ولم تر الشمس إلا دونها الكلل

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجها وكان هو من أقبح الناس وجها فقال لها يوما أنا وإياك فى الجنـة إن شاء الله تعالى ، فقالت له وكيف ذلك ، فقال لأنى أعطيت مثلك فشكرت وأعطيت مثلى فصبرت والصابر والشاكر فى الجنة . وقال بعضهم : رأيت فى طريق مكة أعرابية مارأيت أحسن منها وجها ، فقعدت أنظر إليها وأتعجب من جمالها ، فجاء شيخ قصير فأخذ بردائها وسار بها ومضى ، فلقيتها مرة أخرى فقلت لها من هذا الشيخ ؟ قالت زوجى ، قلت كيف يرضى مثلك بمثله ، فأنشدت :

أياعجبا للخود يجرى وشاحها ... تزف إلى شيخ بأقبح تمثال

دعانى إليـه أنه ذو قـرابة ... يعزّ علينا من بنى العم والخال

وسمع بعضهم قائلا يقول :

ومن لايرد مدحى فإن مدائحى ... توافق عند الأكرمين نوامى

توافق عند المشترى الحمد بالندى ... نفاق بنات الحرث بن هشام

ذلك على أزدشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من بين يديه ، فانتهرها وخرج من عندها مغضبا وعوّل على قتلها ثم ذكر لوزيره مااتفق له معها ، فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها خشى أن يتحدّث الملوك عنه بمثل هـذا وأنه لايقبل فيها شفاعة شافع ، فقال أيها الملك إن الرأى هو الذى خطر لك والمصلحة هى التى رأيتها أنت وقتل هذه الجارية فى هـذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأى الملك وحنثته فى يمينه لأجل شهوة النفس ثم قال أيها الملك إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها وهى أولى فى الستر ولا أرى فى قتلها أهون ولا أستر عليها من الغرق ، فقال له الملك نعم مارأيت خذها فأغرقها ، فأخذها الوزير ثم خرج ليلا إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان ، فتحيل إلى أن طرح شيئا فى البحر أوهم من كان معه أنها الجارية ، ثم إنه أخفاها عنده ، فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرقها فشكره على فعله ثم إن الوزير ناول الملك حقا مختوما وقال أيها الملك إنى نظرت مولدى فرأيت أجلى قد دنا على مايقتضيه حساب حكماء الفرس فى النجوم وإن لى أولادا وعندى مال قد ادّخرته من نعمتك فخذه إذا مت إن رأيت وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادى بالسوية فإنه إرثى الذى قد ورثته عن أبى وليس عندى شىء اكتسبته منه إلا هذا الجوهر ، فقال له الملك يطوّل الرب فى عمرك ومالك لك ولأولادك

سواء كنت حيا أو ميتا ، فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة ، فأخذه الملك وأودعه عنده فى صندوق ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولدا ذكرا جميلا حسن الخلقة مثل القمر فلاحظ الوزير جانب الأدب فى تسميته فرأى أنه إن اخترع له اسما وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك فسماه شاه بور ومعناه بالفارسية ابن ملك فان شاه ملك وبور ابن ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر ، وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة ، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم فعلمه كل مايصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية وهو يوهم أنه مملوك له اسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ ، هذا كله وأزدشير ليس له ولد وقد طعن فى السن وأقصده الهرم فمرض وأشرف على الموت فقال الوزير أيها الوزير قد هرم جسمى وضعفت قوتى وإنى أرى أنى ميت لامحالة وهذا الملك يأخذه بعدى من قضى له به ، فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولى بعده الملك ، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وحملها ، فقال الملك لقد ندمت على تغريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع

لقد

فلعل حملها يكون ذكرا ، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال أيها الملك إنها عندى حية وقد ولدت ذكرا من أحسن الغلمان

فقال ياابن أخى مابلغ من نفاق بنات الحرث بن هشام ، قال كن من أجمل الناس وجوها وكان أبوهن إذا زوجهن يسوقهن ومهورهن إلى بعولتهن ، فقال ياابن أخى لو فضل هذا إبليس ببناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون . وقال عبد الملك لابن أبى الرقاع : كيف علمك بالنساء قال أنا والله أعلم الناس بهن وجعل يقول :

قضاعية الكعبين كندية الحشا   خزاعية الأطراف طائية الفم
لها حكم لقمان وصورة يوسف   ومنطق داود وعفة مريم

وقالوا الوجه الحسن أحمر وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث فى السكن والتضمخ بالطيب ، وقالوا إن الوجه الرقيق البشرة الصافى الأديم إذا خجل يحمر وإذا فرق يصفر ، ومنه قولهم ديباج الوجه يريدون تلونه من رقته . قال على بن زيد فى وصفه :

حمرة خلط صفرة فى بياض   مثل ماحاك حائك ديباجا

وقال على بن عبد ربه :

بيضاء يحمر خداها إذا خجلت   كما جرى ذهب فى صفحتى ورق

وقالوا إن الجارية الحسناء تتلون بتلون الشمس فهى بالضحى بيضاء وبالعشى صفراء فقال ذوالرمة :

بيضاء صفراء قد تنازعها   لونان من فضة ومن ذهب

قالوا : ليس المرأة الجميلة التى تأخذ ببصرك جملة على بعد فاذا دنت منك لم تكن كذلك بل الجميلة التى كلما كررت بصرك فيها زادتك حسنا . وقالوا : إن أردت أن ينجب ولدك فأغضبها ثم قع عليها . قال الشاعر :

من حملن به وهن عواقد   حبك النطاق فعاش غير مهبل
حملت به فى ليلة مزؤدة   كرها وعقد نطاقها لم يحلل

[الفصل الثالث فى صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها]

فى حكمة داود عليه السلام : إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لاينجو منها إلا من رضى الله تعالى عنه وقيل : المرأة السوء غل يلقيه الله تعالى فى عنق من يشاء من عباده . وقيل لأعرابى كان ذا تجربة بالنساء : صف لنا شر النساء ، فقال شرهن النحيفة الجسم القليلة اللحم المحياض الممراض المصفرة المشومة العسرة المبشومة السلطة البطرة النفرة السريعة الوثبة كأن لسانها حربة تضحك من غير عجب وتبكى من غير سبب وتدعو على زوجها بالحرب أنف فى السماء واست فى الماء عرقوبها حديد منتفخة الوريد كلامها وعيد وصوتها شديد تدفن الحسنات وتفشى السيئات تعين الزمان على بعلها ولاتعين بعلها على الزمان ليس فى قلبها عليه رأفة ولا عليها منه مخافة إن دخل خرجت وإن خرج دخلت وإن ضحك بكت وإن بكى ضحكت كثيرة الدعاء قليلة الإرعاء تأكل لما وتوسع ذما ضيقة الباع مهتوكة القناع صبيها مهزول وبيتها مزبول ، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكى فى المجامع ، بادية من حجابها ، نباحة عند بابها ، تبكى وهى ظالمة وتشهد وهى غائبة ، قد دلى لسانها بالزور وسال دمعها بالفجور ، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور . ويقال : إن للمرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه وإن كانت محبة له لاتقلع عن النظر إليه . قال بعضهم :

لقد كنت محتاجا إلى موت زوجتى … ولكن قرين السوء باق معمر
فياليتها صارت إلى القبر عاجلا … وعذبها فيه نكير ومنكر

وقال زيد بن عمير :

أعاتبها حتى إذا قلت أقلعت … أبى الله إلا خزيها فتعود
فان طمثت قادت وإن طهرت زنت … فهاتيك تزنى دائما وتقود

وقال داود عليه الصلاة والسلام : المرأة السوء على بعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير ، والمرأة الصالحة كالتاج المرصع بالذهب كلما رآها قرت عينه برؤيتها ، والله أعلم .

[الفصل الرابع فى مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن]

فى حكمة داود عليه الصلاة والسلام : وجدت فى الرجال واحدا فى ألف ولم أجد واحدة فى جميع النساء . وقيل : إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقى إبليس وهو يسوق أربعة أحمرة عليها أحمال فسأله فقال أحمل تجارة وأطلب مشترين ، فقال ماأحدها ؟ قال الجور ، قال من يشتريه ؟ قال السلاطين ، قال فما الثانى ، قال الحسد ، قال فمن يشتريه ، قال العلماء ، قال فما الثالث ؟ قال الخيانة ، قال فمن يشتريها ، قال التجار ، قال فما الرابع ، قال الكيد ، قال فمن يشتريه ، قال النساء . وقال حكيم : النساء شر كلهن وشر مافيهن قلة الاستغناء عنهن . وقالت الحكماء : لاتثق بامرأة ولا تغتر بمال وإن كثر . وقال : النساء حبائل الشيطان . قال الشاعر :

تمتع بها ماساعفتك ولا تكن … جزوعا إذا بانت فسوف تبين
وخنها وإن كانت تفى لك إنها … على قدم الأيام سوف تخون
وإن هى أعطتك الليان فانها … لغيرك من طلابها ستلين
وإن حلفت أن ليس تنقض عهدها … فليس لمخضوب البنان يمين
وإن سكبت يوم الفراق دموعها … فليس لعمر الله ذاك يقين

وقال ابن بشار :

رأيت مواعيد النساء كأنها … سراب لمرتاد المناهل حافل
ومنتظر للوعود منهن كالذى … يؤمل يوما أن تلين الجنادل

قال بعض الحكماء : لم تنه المرأة عن شىء قط إلا فعلته . وقال الغنوى :

إن النساء متى ينهين عن خلق … فانه واقع لابد مفعول

وقال النخعى : من اقتراب الساعة طاعة النساء . ويقال : من أطاع عرسه فقد أضاع نفسه . وقال على رضى الله تعالى عنه : إياك ومشاورة النساء فان رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن ، اكفف أبصارهن بالحجاب فان شدة الحجاب خير لهن من الارتياب وليس خروجهن بأضر من دخول من لايوثق به عليهن فان استطعت أن لايعرفن غيرك فافعل . قال السمعانى :

لاتأمنن على النساء ولو أخا … مافى الرجال على النساء أمين
إن الأمين وإن تحفظ جهده … لابد أن بنظرة سيخون

وقال غيره :

لاتركنن إلى النساء ولا تثق بعهودهن … فرضاؤهن جميعهن معلق بفروجهن

وقال على رضى الله تعالى عنه : لاتطلعوا النساء على حال ولاتأمنوهن على مال ولا تذروهن إلا لتدبير

خلقا وخلقا ، فقال الملك أحق ماتقول فأقسم الوزير أن نعم ثم قال أيها الملك إن فى الولد روحانية تشهد بأبوة الأب وفى الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن لايكاد ذلك ينخرم أبدا وإنى آتى بهذا الغلام بين عشرين غلاما فى سنه وهيئته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلا أباه وإنى أعطى كل واحد منهم صولجانا وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا ويتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم فكل من مالت إليه نفسك وروحانيتك فهو هو ، فقال الملك نعم التدبير الذى قلت ، فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدى الملك ، فكان الصبى فيهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فانه كان إذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولاتأخذه الهيبة منه فلاحظ أزدشير ذلك منه مرارا فقال أيها الغلام مااسمك ؟ قال شاه بور ، فقال له صدقت أنت ابنى حقا ، ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه ، فقال له الوزير هذا ابنك أيها الملك ، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبى منهم والدا بحضرة الملك فتحقق الصدق فى ذلك ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها ، فقبلت يد الملك فرضى عنها ، فقال الوزير أيها الملك قد دعت الضرورة فى الوقت إلى إحضار الحق المختوم ، فأمر الملك باحضاره ثم أخذه الوزير وفتح ختمه وفتحه

فاذا فيه ذكر الوزير وأشياء مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولا من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة . قال : فدهش الملك أزدشير وبهت لما أبداه الوزير من قوة النفس فى الخدمة وشدة نصحه فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به ثم إن الملك عوفى من مرضه الذى كان به وصح جسمه ولم يزل يتقلب فى نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أزدشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرى منزلته حتى توفاه الله تعالى .

ومن بديع ما جاء فى المكافأة على الصنيع ما حكى عن الحسن بن سهل قال : كنت عند يحيى ابن خالد البرمكى وقد خلا فى مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياما أحمد بن أبى خالد الأحول فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه وقال يابنى إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثا ، فاذا فرغت من شغلى هذا فذكرنى أحدثك به فأنت فلما فرغ من شغله قال له ابنه الفضل أعزك الله يا أبت أمرتنى أن أذكرك حديث خالد بن الأحول ؟ قال نعم يابنى لما قدم أبوك

العيال إن تركن وما يردن أوردن المهالك وأفسدن الممالك ينسين الخير ويحفظن الشر يتهافتن فى البهتان ويتمادين فى الطغيان . وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : ذل من أسند أمره إلى امرأة وقيل إن صيادا أتى أبرويز بسمكة فأعجبه حسنها وسمنها فأمر له بأربعة آلاف درهم فخطأته شيرين زوجته فقال لها ماذا أفعل ؟ فقالت له إذا جاءك فقل له أذكرا كانت أم أنثى ؟ فإن قال لك ذكر فاطلب منه الأنثى وإن قال لك أنثى فاطلب منه الذكر ، فلما أتاه سأله فقال كانت أنثى فقال ائتنى بذكرها ، فقال عمر الله الملك كانت بكرا لم تتزوج فقال زه وأمر له بثمانية آلاف درهم وقال اكتبوا فى الحكمة : الغدر ومطاوعة النساء يؤديان إلى الغرم الثقيل . وقال حكيم : اعص النساء وهواك وافعل ماشئت . وقال عمر رضى الله تعالى عنه : أكثروا لهن من قول لا فإن نعم تغريهن على المسئلة . وقال : استعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر .

(ومما قيل فى الباءة) ذكر الجماع عند الإمام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه قال : هو نور وجهك ومخ ساقك فأقل منه أو أكثر . وقال معاوية رضى الله تعالى عنه : مارأيت نهما فى النساء إلا عرفت ذلك فى وجهه ، وخلا تمام بجارية له فعجز عنها فقال ما أوسع حرك فأنشأت تقول :

أنت الفداء لمن قد كان يعلوه ... ويشتكى الضيق منه حين يلقاه

وقال آخر: شفاء الحب تقبيل ولمس ... وسحب بالبطون على البطون

ورهز تذرف العينان منه ... وأخذ بالمناكب والقرون

وقالت امرأة من أهل الكوفة : دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها فقيل هى مع زوجها فى القيطون فسمعت شهيقا وشخيرا لم أسمع مثله ، ثم خرجت إلى وجبينها يتصبب عرقا فقلت لها ماظننت حرة تفعل هذا بنفسها ! فقالت إن الخيل تشرب بالصفير ، وعاتبت امرأة زوجها على قلة إتيانها فأجابها يقول :

أنا شيخ ولى امرأة عجوز ... تراودنى على مالا يجوز

وقالت رق أيرك مذ كبرنا ... فقلت بلى قد اتسع القفيز

وكان لرجل امرأة تخاصمه وكلما خاصمته قام إليها فواقعها فقالت ويحك كلما تخاصمنى تأتينى بشفيع لاأقدر على رده ، وأتى رجل إلى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وقال إن لى امرأة كلما غشيتها تقول قتلتنى ، فقال اقتلها بهذه القتلة وعلى إثمها . وقالوا : من قل جماعه فهو أصح بدنا وأنقى جلدا وأطول عمرا ، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول أعمارا من البغال ولا أقصر أعمارا من العصافير وهى أكثرها سفادا ، والله تعالى أعلم بالصواب .

[الفصل الخامس فى الطلاق وما جاء فيه]

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخى الأصمعى قال : قال عمى الرشيد فى بعض حديثه ياأمير المؤمنين بلغنى أن رجلا من العرب طلق فى يوم واحد خمس نسوة قال وكيف ذلك ؟ وإنما لايجوز للرجل غير أربعة . قال ياأمير المؤمنين كان متزوجا بأربعة فدخل عليهن يوما فوجدهن متنازعات وكان شريرا ، فقال إلى متى هذا النزاع ما أظن هذا إلا من قبلك يافلانة لامرأة منهن اذهبى

فأنت طالق ، فقالت له صاحبتها عجلت عليها بالطلاق ولو أدّبتها بغير ذلك لكان أصلح ، فقال لها وأنت أيضا طالق ، فقالت له الثالثة قبحك الله فوالله لقد كانتا إليك محسنتين فقال لها وأنت أيضا أيتها المعدّدة أياديهما طالق ، فقالت الرابعة وكانت هلالية ضاق صدرك إلا أن تؤدّب نساءك بالطلاق فقال لها وأنت طالق أيضا ، فسمعته جارة له فأشرفت عليه وقالت له والله ماشهدت العرب عليك ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم أبيت إلا طلاق نسائك فى ساعة واحدة ، فقال لها وأنت أيتها المتكلمة فيما لايعنيك طالق إن أجازنى بعلك فأجابه زوجها قد أجزت لك ذلك فعجب الرشيد من ذلك وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال لها اسمعى وليسمع من حضر إنى والله اعتمدتك برغبة وعاشرتك بمحبة ولم أجد منك زلة ولم يدخلنى عنك ملة ولكن القضاء كان غالبا فقالت المرأة جزيت من صاحب ومصحوب خيرا فما استقللت خيرك ولا شكوت ضيرك ولا تمنيت غيرك ولا أجد لك فى الرجال شبيها وليس لقضاء الله مدفع ولا من حكمه علينا ممنع وقال رجل لابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ماتقول فى رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء ؟ فقال يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء .

(ذكر من طلق امرأته فتبعتها نفسه) قال الهيثم بن عدى : كانت تحت ابن الغربان بن الأسود بنت عمّ له فطلقها فتبعتها نفسه فكتب إليها يعرّض لها بالرجوع فكتبت إليه تقول :

إن كنت ذا حاجة فاطلب لها بدلا ⁂ إنّ الغزال الذى ضيعت مشغول

فكتب إليها يقول :

إن كان ذا شغل فالله يكلؤه ⁂ فقد لهونا به والحبل موصول

وقد قضينا من استظرافه وطرا ⁂ وفى الليالى وفى أيامها طول

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى فلما تزوّجت اشتدّ ذلك عليه وندم على ما كان منه فدخل عليه أشعب فقال له هل لك أن تبلغ سعدى عنى رسالة ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال أقبضنيها فأمر له بها ، فلما قبضها قال له هات رسالتك قال ائتها فأنشدها :

أسعدى هل إليك لنا سبيل ⁂ ولا حتى القيامة من تلاق

بلى ولعلّ دهرا أن يؤاتى ⁂ بموت من خليلك أو فراق

قال فأتاها أشعب فاستأذن عليها فأذنت له فدخل فقالت له مابدا لك فى زيارتنا يا أشعب ؟ فقال ياسيدتى أرسلنى إليك الوليد برسالة ثم أنشدها الشعر فقالت لجواريها عليكنّ بهذا الخبيث ، فقال ياسيدتى إنه دفع لى عشرة آلاف درهم فهى لك وأعتقينى لوجه الله ، فقالت والله لا أعتقتك أو تبلغ إليه ماأقول لك . قال ياسيدتى فاجعلى لى جعلا قالت لك بساطى هذا . قال قومى عنه فقامت فأخذه وألقاه على ظهره وقال هات رسالتك فقالت :

أتبكى على سعدى وأنت تركتها ⁂ فقد ذهبت سعدى فما أنت صانع

فلما بلغته الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت وأخذته كظمة ، فقال لأشعب اختر منى إحدى ثلاث إما أن أقتلك وإما أن أطرحك من هذا القصر وإما أن ألقك إلى هذه السباع فتفترسك فتحير أشعب وأطرق مليا ثم قال ياسيدى ما كنت لتعذب عينا نظرت إلى سعدى فتبسم وخلى سبيله .. وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوار ثم ندم على طلاقها وقال :

.. العراق أيام المهدى كان فقيرا لايملك شيئا فاشتدّ بى الأمر إلى أن قال لى من فى منزلى إنا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا ثلاثة أيام ماعندنا شىء نقتاته . قال : فبكيت يابنىّ لذلك بكاء شديدا وبقيت ولهان حيران مطرقا مفكرا ، ثم تذكرت منديلا كان عندى فقلت لهم ماحال المنديل ؟ فقالوا هو باق عندنا فقلت ادعوه إلىّ فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابى وقلت له بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهما فدفعتها إلى أهلى وقلت أنفقوها إلى أن يرزق الله غيرها ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدى فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه فخرج عليهم راكبا فلما رآنى سلم علىّ وقال كيف حالك ؟ فقلت ياأبا خالد ماحال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلا بسبعة عشر درهما فنظر إلىّ نظرا شديدا وما أجابنى جوابا فرجعت إلى أهلى كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد فقالوا بئس والله مافعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل فكشفت له سرّك وأطلعته على مكنون أمرك فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلا فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين فقلت قد مضى الأمر الآن بما لايمكن استدراكه فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة فلما بلغت الباب استقبلنى صاحب أبى خالد فقال لى أين تكون وقد أمرنى أبو خالد بالجلوس له إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين فجلست

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار فأصبحت الغداة ألوم نفسي
بأمر ليس لي فيه اختيار وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أني ملكت بها يميني لكان عليّ للقدر الخيار

ومن طلق امرأته فتبعتها نفسه فندم قيس بن ذريح وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم على ذلك فأنشد يقول : فقي صبري وعاودوني ردائي وكان فراق لبنى كالخداع

تكنفني الوشاة فأزعجوني فيا للناس للواشي المطاع فأصبحت الغداة ألوم نفسي
على أمر وليس بالمستطاع كمغبون يعض على يديه تبين غبنه عند البياع

وحدث العتبي قال جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبدالرحمن بن الحكم وهو على الكوفة فقال إن امرأتي هذه شجتني فسألها عبدالرحمن فقالت نعم يامولاي غير متعمدة لذلك كنت أعالج طيبا فوقع الفهر من يدي على رأسه وليس عندي علم ولا يقوى بدني على القصاص فقال للرجل علام تمسكها وقد فعلت بك ما أرى فقال يامولاي إن صداقها عليّ أربعة آلاف درهم ولا تطيب نفسي بفراقها قال فان أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها قال نعم قال هي لك قال فهي إذن طالق فقال لها عبد الرحمن احبسي علينا نفسك وأنشأ يقول :

يا شيخ يا شيخ من دلاك بالغزل قد كنت يا شيخ عن هذا بمعتزل
رضت الصعاب فلم تحسن رياضتها فاعمد لنفسك نحو القرح والذلل

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والسبعون في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها

قد أنزل الله تعالى في الخمر ثلاث آيات : الأولى قوله تعالى ـ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ـ الآية فكان من المسلمين من شارب ومن تارك إلى أن شرب رجل فدخل في الصلاة فهجر فنزل قوله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضي الله تعالى عنه فأخذ بلحي بعير وشج به رأس عبد الرحمن بن عوف ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول :

وكائن بالقليب قليب بدر من الفتيان والعرب الكرام أيوعدني ابن كبشة إن سنحيا
وكيف حياة أصداء وهام أيعجز أن يرد الموت عني وينشرني إذا بليت عظامي
ألا من مبلغ الرحمن عني بأني تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعني شرابي وقل لله يمنعني طعامي

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج مغضبا يجرّ رداءه فرفع شيئا كان في يده فضربه به فقال أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فأنزل الله تعالى ـ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ـ فقال عمر رضي الله تعالى عنه انتهينا انتهينا . ومن الأخبار المتفق عليها في تحريمها قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة مدمن خمر » وقوله صلى الله عليه وسلم « أول ما نهاني ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحاة الرجال » . ومن تركها في الجاهلية عبد الله بن جدعان وكان

حتى خرج فلما رآني دعاني وأمر لي بمركوب فركبت وسرت معه إلى منزله فلما نزل قال عليّ بفلان وفلان الخياطين فأحضرا فقال لهما ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم قالا نعم قال ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما؟ قالا بلى قال هو هذا الرجل الذي اشترطت شركته لكما ثم قال لي قم معهما فلما خرجنا قالا لي ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون لك فيه الربح الهنيء فدخلنا مسجدا فقالا لي إنك تحتاج في هذا الأمر إلى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شيء فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به ويسقط عنك التعب والكلف فقلت لهما وكم تبذلان لي فقالا مائة ألف درهم فقلت لا أفعل فما زالا يزيدانني وأنا لا أرضى إلى أن قالا لي ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا فقلت حتى أشاور أبا خالد قالا ذلك لك فرجعت إليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما هل وافقتماه على ما ذكر قالا نعم قال اذهبا فأقبضاه المال الساعة ثم قال لي أصلح أمرك وتهيأ قد قلدتك العمل فأصلحت شأني وقلدني ما وعدني به فما زلت في زيادة حتى صار أمري إلى ما صار ثم قال لولده الفضل يا بنيّ فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل وما جزاؤه قال حق لعمري وجب عليك له فقال والله ياولدي ما أجد له مكافأة غير أن أعزل نفسي وأوليه ففعل ذلك وهكذا تكون المكافأة:

وكان جوادا من سادات قريش وذلك أنه شرب مع أمية بن أبى الصلت الثقفى فضربه على عينه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب فقال له عبد الله ما بال عينك فسكت فألح عليه فقال ألست ضاربها بالأمس فقال أوبلغ منى الشراب ما أبلغ معه إلى هذا لا أشربها بعد اليوم ثم دفع له عشرة آلاف درهم وقال الخمر على حرام لا أذوقها بعد اليوم أبدا . وممن حرمها فى الجاهلية أيضا قيس بن عاصم وذلك أنه سكر ذات ليلة فقام لابنته أو لأخته فهربت منه فلما أصبح سأل عنها فقيل له أو ماعلمت ماصنعت البارحة فأخبر بالقصة فحرم الخمر على نفسه . وممن حرمها فى الجاهلية أيضا العباس بن مرداس وقيس بن عاصم وذلك أن قيسا شرب ذات ليلة فجعل يتناول القمر و يقول والله لا أبرح حتى أنزله ثم يثب الوثبة بعد الوثبة و يقع على وجهه فلما أصبح وأفاق قال مالى هكذا فأخبروه بالقصة فقال والله لا أشربها أبدا . وقيل للعباس بن مرداس لم تركت الشراب وهو يزيد فى سماحتك فقال أكره أن أصبح سيد قومى وأمسى سفيههم . ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشده فأعجبه إنشاده وشعره ووصله ثم دعا بالطعام فطعم منه فقال له عبد الملك يانصيب هل لك فيما ينادم عليه قال يا أمير المؤمنين جلدى أسود وخلق مشوه ووجهى قبيح وتكفينى مجالستك ومؤاكلتك ولم يوصلنى إلى ذلك إلا عقلى وأنا أكره أن يدخل عليه ماينقصه فأعجبه كلامه ووصله . وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج فى وفدة وفدها عليه هل لك فى الشراب فقال يا أمير المؤمنين لاخلاف لما أمرت ولكن أنا أمنع أهل عملى منه وأكره أن أمنعهم عن شىء ولا أمتنع منه وقد قال الله تعالى ــ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ــ وقال تعالى ــ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ــ وقيل لأعرابى لم لا تشرب النبيذ فقال لا أشرب ما يشرب عقلى . وقال الضحاك بن مزاحم لرجل ماتصنع بشرب النبيذ قال يهضم طعامى قال أما إنه يهضم من دينك وعقلك أكثر . وقال ابن أبى أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر :

ألا يالقومى ليس فى الخمر رفعة   فلا تقربوا منها فلست بفاعل
فانى رأيت الخمر شينا ولم يزل   أخو الخمر دخالا لشر المداخل

وقال الحسن لو كان العقل يشترى لتغالى الناس فى ثمنه فالعجب ممن يشترى بماله مايفسده . وقال عليه الصلاة والسلام «حب الدنيا رأس كل خطيئة والنساء حبائل الشيطان والخمر داعية إلى كل شر» وقال بعضهم :

بلوت نبيذ الخمر فى كل بلدة   فليس لإخوان النبيذ حفاظ
إذا دارت الأرطال أرضوك بالمنى   وإن فقدوها فالوجوه غلاظ

وقال حكيم . إياك و إخوان النبيذ فبينما أنت متوج عندهم مخدوم مكرم معظم إذ زلت بك القدم فجروك على شوك السلم فاحفظ قول القائل فيه :

وكل أناس يحفظون حريمهم   وليس لأصحاب النبيذ حريم
فان قلت هذا لم أقل عن جهالة   ولكننى بالفاسقين عليم

وللأعرج الطائى :

تركت الشعر واستبدلت منه   إذا داعى صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك   وودعت المدامة والندامى

وقال الصفدى .

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال : دخلت يوما إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد و بين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآنى قال لى ياعباس قلت لبيك ياأمير المؤمنين قال خذ هذا إليك فاستوثق منه واحتفظ وبكر به إلى فى غد واحترز عليه كل الاحتراز قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت فى نفسى مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به مايجب إلا أن يكون معى فى بيتى فأمرتهم فتركوه فى مجلس لى فى دارى ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو فقال من دمشق فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيرا فمن أنت من أهلها قال وعمن تسأل قلت أتعرف فلانا قال ومن أين تعرف ذلك الرجل فقلت وقع لى معه قضية فقال ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه فقال ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى إن الوالى تدلى فى زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت فى جملة القوم فبينما أنا هارب فى بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفى فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت أغثنى أغاثك الله قال لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت فقالت زوجته ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل الرجال معه يقولون هو والله عندكم فقال دونكم الدار ففتشوها ففتشوها حتى لم يبق

دع الخمر فالراحات فى ترك راحها ... وفى كأسها للمرء كسوة عار
وكم ألبست نفس الفتى بعد نورها ... مدارع قار فى مدار عقار *

نكتة : اجتمع نصرانى ومحدث فى سفينة فصب النصرانى خمرا من زق كان معه فى شربة وشرب ثم صب فيها وعرض على المحدث ، فتناولها من غير فكر ولا مبالاة فقال النصرانى جعلت فداءك إنما هى خمر قال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلامى من يهودى وحلف أنها خمر فشربها المحدث على عجل وقال للنصرانى ياأحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان ابن عيينة ويزيد بن هرون أفنصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودى والله ماشربتها إلا لضعف الإسناد . ومن المجون فى ذلك ماحكى أن سكران استلقى على طريق فجاء كلب فلحس شفتيه فقال خدمك بنوك ولا عدموك فبال على وجهه فقال وماء حارا أيضا بارك الله فيك وقيل حالة السكارى ثلاثة : قرد حرك رأسه فرقص ، وكلب هارش فنبح ، وحية زويت فنامت . ومرّ عقال الناسك بجرداس بن خدام الأسدى فاستسقاه لبنا فصبّ له خمرا وعلاه بلبن فشربه وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام ، فقال :

سقيت عقالا بالعشية شربة ... فمالت بعقل الكاهلى عقالى
قرعت بأم الخل حبة قلبه ... فلم ينتعش منها ثلاث ليالى

ويقال : الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور ، اللهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين برحمتك ياأرحم الراحمين آمين .

الباب الخامس والسبعون فى المزاح والنهى عنه وماجاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول

الفصل الأول فى النهى عن المزاح

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى » . وعن علىّ : مامزح أحد إلا مج الله من عقله مجة . وعنه : إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكا وإن حكيت ذلك عن غيرك . وكتب عمر رضى الله تعالى عنه إلى عماله : امنعوا الناس من المزاح فانه يذهب بالمروءة ويوغر الصدور . وقال بعض الحكماء : تجنب سوء المزاح ونكد المزل فانهما بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد غم . وقال آخر : لكل شىء بذر وبذر العداوة المزاح . وعن محمد بن المنكدر قال : قالت لى أمى لاتمازح الصبيان تهن عندهم . وخرج أعرابىّ بالليل فاذا بجارية جميلة ، فراودها ، فقالت أمالك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك ؟ فقال والله مايرانا إلا الكواكب ، فقالت له ياهذا وأين مكوكبها ، فأخجله كلامها فقال لها إنما كنت مازحا ، فقالت :

فإياك إياك المزاح فانه ... يجرى عليك الطفل والرجل النذلا
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ... ويورث بعد العز صاحبه ذلا

وقال الأحنف : كثرة الضحك تذهب الهيبة وكثرة المزاح تذهب المروءة ومن لزم شيئا عرف به . ومما روى عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار ، فاذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كأنهم لم يعرفوا أحدا .

سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم ، فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ماتحملنى رجلاى من شدة الخوف فقالت المرأة اجلس لابأس عليك فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال لاتخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى فقلت له جزاك الله خيرا فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجلها وأفرد لى مكانا فى داره ولم يحوجنى إلى شىء ولم يفتر عن تفقد أحوالى ، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت له أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى فلعلى أقف منهم على خبر فأخذ علىّ المواثيق بالرجوع فخرجت وطلبت غلمانى فلم أر لهم أثرا فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لايعرفنى ولايسألنى ولايعرف اسمى ولايخاطبنى إلا بالكنية فقال لى علام تعزم فقلت له قد عزمت على التوجه إلى بغداد فقال إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وهاأنا قد أعلمتك فقلت له إنك قد تفضلت علىّ هذه المدة ولك علىّ عهد الله أنى لاأنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت ، قال فدعا غلاما له أسود وقال له أسرج الفرس الفلانى ثم جهز آلة السفر فقلت فى نفسى أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أوناحية من النواحى فأقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب ، فلما كان يوم

[الفصل الثانى فيما جاء فى الترخيص فى المزاح والبسط والتنعم]

لابأس بالمزاح مالم يكن سفها والله تعالى وعد فى اللمم بالتجاوز والعفو فقال ـ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ـ . وقيل إن يحيى بن زكريا لقى عيسى عليه الصلاة والسلام فقال مالى أراك لاهيا كأنك آمن ، فقال له عيسى مالى أراك عابسا كأنك آيس ، فقالا لانبرح حتى ينزل علينا الوحى ، فأوحى الله إليهما إن أحبكما إلىّ أحسنكما ظنا بى .. ويروى إن أحبكما إلىّ الطلق البسام . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لجارية : خلقنى خالق الخير وخلقك خالق الشرّ فبكت الجارية ، فقال عمر لابأس عليك فان الله خالق الخير والشرّ . قال الشاعر :

إن الصديق يريد بسطك مازحا ... فاذا رأى منك الملالة يقصر

وترى العدوّ إذا تيقن أنه ... يؤذيك بالمزح العنيف يكثر

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا . فمن مزحه صلى الله عليه وسلم أنه جاءه رجل فقال يارسول الله احملنى على جمل ، فقال عليه الصلاة والسلام : لاأحملك إلا على ولد الناقة ، فقال يارسول الله : إنه لايطيقنى ، فقال له الناس ويحك وهل الجمل إلا ولد الناقة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة من الأنصار : الحقى زوجك فى عينيه بياض ، فسعت إلى زوجها مرعوبة فقال لها مادهاك ؟ قالت إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لى إن فى عينيك بياضا فقال نعم والله وسوادا . وأتته أيضا عجوز أنصارية فقالت يارسول الله ادع الله لى أن يدخلنى الجنة فقال لها ياأم فلان إن الجنة لايدخلها عجوز فولت المرأة تبكى ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال لها أما قرأت قوله تعالى ـ إنا أنشأناهنّ إنشاء فجعلناهنّ أبكارا عربا أترابا ـ . وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : سابقت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما كثر لحمى سابقته فسبقنى فضرب بكتفى وقال هذه بتلك . وعنها أيضا قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل وأنا ألعب مع صويحباتى ولا يعيب علىّ . وسئل النخعى هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون ؟ قال نعم ، والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى . وكان نعيمان الصحابى من أولع الناس بالمزاح والضحك . قيل إنه يدخل الجنة وهو يضحك . فمن مزحه أنه مرّ يوما بمخرمة ابن نوفل الزهرى وهو ضرير فقال له قدنى حتى أبول فأخذ بيده حتى أتى به إلى المسجد فأجلسه فى مؤخره فصاح به الناس إنك فى المسجد فقال من قادنى قالوا نعيمان قال لله علىّ نذر أن أضربه بعصاى هذه إن وجدته ، فبلغ ذلك نعيمان فجاء إليه وقال له ياأبا المسور هل لك فى نعيمان قال نعم قال هاهو قائم يصلى وأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلى وقال هذا نعيمان فعلاه بعصاه فصاح الناس أمير المؤمنين فقال من قادنى قالوا نعيمان ، فقال والله لاتعرّضت له بسوء بعدها وقال عطاء بن السائب : كان سعيد بن جبير يقصّ علينا حتى يبكينا وربما لم يقم حتى يضحكنا وكان رجل يسمى تاج الوعظ يعظ الناس ويقصّ عليهم حتى يبكيهم ثم لم يقم حتى يضحكهم ويبسط آمالهم . فمن لطائفه أنه حكى يوما بعد مافرغ من ميعاده قال : سمعت الناس يتكلمون فى التصحيف وكنت لا أعرفه فوقع فى قلبى أن أتعلمه فدخلت فى سوق الكتبية واشتريت كتابا فى التصحيف فأوّل ماتصفحته وجدت فيه كباج تصحيفه بك تاج ، فرميت الكتاب من يدى وحلفت أنى لاأشتغل به أبدا فضحك الناس حتى غشى عليهم . ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان

خروج القافلة جاءنى فى السحر وقال لى يافلان قم فان القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت فى نفسى كيف أصنع وليس معى ما أتزوّد به ولا ماأكرى به مركوبا ، ثم قمت فاذا هو وامرأته بحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر ثم جاء بسيف ومنطقة فشدّهما فى وسطى ثم قدم بغلا فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ورفع إلىّ نسخة مافى الصندوقين وفيها خمسة آلاف درهم وقدّم إلى الفرس الذى كان جهزه وقال اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إلىّ من التقصير فى أمرى وركب معى يشيعنى وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره فلهذا أنا أسأل عنه فلما سمع الرجل الحديث قال لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت وكيف ذلك قال أنا ذاك الرجل وإنما الضرّ الذى أنا فيه غير عليك حالى وما كنت تعرفه منى ثم لم يزل يذكرلى تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له فما الذى آل بك إلى ماأرى ، فقال هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك فنسبت إلىّ ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت

فوجده يتأوه ، فقال يا أمير المؤمنين لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ويباسطك استرحت ، فقال لست بصاحب لهو ، فقال ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين قال هاج بى عرق النسا فى ليلتى هذه فبلغ منى ما ترى ، فقال إن بديحا مولاى أرق الخلق منه فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه قال عبد الملك يا بديح ارق رجلى ، فقال يا مولاى أنا أرقى الناس لها ، ثم وضع يده عليها وجعل يقول ما لا يسمع ، فقال عبد الملك قد وجدت راحة بهذه الرقية أين فلانة اتونى بها تكتبها لئلا يهيج بى الوجع بالليل ، فقال بديح : الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتى ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال يا أمير المؤمنين : الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جائزتى إلى بيتى قال تحمل فحملت ، فقال يا أمير المؤمنين : الطلاق يلزمه ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال :

ألا إن ليلى العامرية أصبحت   على البعد منى ذنب غيرى تنقم

فقال ويلك ما تقول ، فقال : الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها ، فقال اكتمها على ، فقال كيف وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر ، فضحك حتى فحص برجليه وأعجبه هذا البسط .

وروى أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر :

أنبئت أن فتاة كنت أخطبها   عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

ثم يضحك حتى يسيل لعابه .

(ومما جاء فى الشطرنج واللعب به والنهى عنه والترخيص فيه) أما النهى عنه فقد قيل إن عليا كرم الله وجهه مر بقوم يلعبون الشطرنج فقال لهم ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . وكان أبو القاسم الكسروى يقول : لا ترى شطرنجيا غنيا إلا بخيلا ولا فقيرا إلا طفيليا ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج . واحتضر شطرنجى فصار يقول شاه مات شاه مات مكان الشهادتين حتى مات . وأما الترخيص فيه فقد سئل الشعبى عن اللعب بالشطرنج ، فقال لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر وتبادل وقال بعضهم : كنا فى السجن مع ابن سيرين فكان يرانا ونحن نلعب بالشطرنج فيقوم فيأتى ويقول ارفع الفرس ارفع كذا افعل كذا ولا يعيب علينا . وعن سعيد بن المسيب قال : كنت ألعب بالشطرنج مع صديق فى بيته حين خفت الحجاج . ومما قيل لعلى بن الجهم فى الشطرنج وقيل للمأمون :

أرض مربعة حمراء من أدم   ما بين حرين معروفين بالكرم
تذكرا الحرب فاحتالا لها فطنا   من غير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك على   هذا يغير وعين الحزم لم تنم
فانظر إلى همم جاشت بمعركة   فى عسكرين بلا طبل ولا علم

قالوا : إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال فإذا تنازع ملكان فى كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج فيأخذها الغالب من غير قتال ، وقيل إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر القطعة منه ثلاثة آلاف دينار .

(ومما جاء فى لعب الغلمان) ما حكى أن غلمانا من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة وأسقف البحرين قاعد فوقعت الكرة على صدره فأخذها فجعلوا يطلبونها منه فأبى ، فقال غلام منهم سألتك بحق محمد صلى الله عليه وسلم إلا رددتها علينا فأبى لعنه الله وسب رسول الله صلى

و بعث بى إلى أمير المؤمنين وأمرى عنده عظيم وخطبى لديه جسيم وهو قاتلى لا محالة وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف إلى أهلى بخبرى وهو نازل عند فلان فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره حتى أوصيه بما أريد فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لى بوفاء عهدك قال العباس : قلت يصنع الله خيرا ، ثم أحضرت حدادا فى الليل فك قيوده وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم أرسل من أحضر إليه غلامه ، فلما رآه جعل يبكى ويوصيه فاستدعى نائبه وقال على بالفرس الفلانى والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة ومن الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا ، قال ذلك الرجل وأحضر لى بدرة عشر آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه فى الشرط خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار فقلت له إن ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم وخطبى جسيم وإن أنت احتججت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فأرادوا قتلى فقال لى انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى ، فقلت والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فإن احتجت إلى حضورى حضرت ، فقال صاحب الشرطة إن كان الأمر على ما تقول فليكن فى موضع كذا فإن أنا سلمت

صلى الله عليه وسلم فأقبلوا عليه بصوالجهم فما زالوا يخبطونه حتى مات لعنة الله عليه ، فرفع ذلك إلى عمر رضى الله تعالى عنه فوالله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف وقال : الآن عز الاسلام ، إن أطفالا صغارا شتم نبيهم فغضبوا له وانتصروا وأهدر دم الأسقف والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب السادس والسبعون فى النوادر وفيه فصول

[الفصل الأول من هذا الباب فى نوادر العرب] خرج المهدى يتصيد فغار به فرسه حتى وقع فى خباء أعرابى ؛ فقال : يا أعرابى هل من قرى ، فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه ثم أتاه بنبيذ فى ركوة فسقاه ، فلما شرب قال : أتدرى من أنا ؟ قال : لا ! قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة . قال : بارك الله لك فى موضعك ، ثم سقاه مرة أخرى فشرب فقال : يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة . قال : لا أنا من قواد أمير المؤمنين . قال : رحبت بلادك وطاب مرادك ، ثم سقاه الثالثة فلما فرغ قال : يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنكَ من قواد أمير المؤمنين . قال: لا ولكننى أمير المؤمنين قال : فأخذ الأعرابى الركوة فوكاها وقال : إليك عنى فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله . فضحك المهدى حتى غشى عليه ثم أحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأشراف ، فطار قلب الأعرابى فقال له لا بأس عليك ولا خوف ، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل . ووجد أعرابى يأكل ويتغوط ويفلى ثوبه ، فقيل له فى ذلك فقال : أخرج عتيقا وأدخل جديدا وأقتل عدوا * وقيل لبعض الأعراب إن شهر رمضان قدم فقال : والله لأبددن شمله بالأسفار * وسمع أعرابى قارئا يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى: الأعراب أشد كفرا ونفاقا . فقال : لقد هجانا ، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ : ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، فقال : لا بأس هجا ومدح هذا كما قال شاعرنا :

هجوت زهيرا ثم إنى مدحته … وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

وحضر أعرابى على مائدة يزيد بن مزيد فقال لأصحابه : أفرجوا لأخيكم . فقال الأعرابى : لا حاجة لى بافراجكم إن أطنابى طوال ــ يعنى سواعده ــ فلما مد يده ضرط ، فضحك يزيد فقال : يا أخا العرب أظن أن طنبا من أطنابك قد انقطع * ورؤى أعرابى يغطس فى البحر ومعه خيط ، وكلما غطس غطسة عقد عقدة ، فقيل له ما هذا ؟ قال : جنابات الشتاء أقضيها فى الصيف * وسرق أعرابى غاشية على سرج ثم دخل المسجد يصلى ؛ فقرأ الامام : هل أتاك حديث الغاشية ، فقال : يا فقيه لا تدخل فى الفضول . فلما قرأ وجوه يومئذ خاشعة قال : خذوا غاشيتكم ولا تخشع وجهى لا بارك الله لكم فيها ، ثم رماها من يده وخرج * وحضر أعرابى مجلس قوم فتذاكروا قيام الليل فقيل له : يا أبا أمامة أتقوم الليل ؟ فقال : نعم . قالوا ما تصنع ؟ قال : أبول وأرجع أنام . وسرق أعرابى صرة فيها دراهم ثم دخل المسجد يصلى وكان اسمه موسى فقرأ الامام : وما تلك بيمينك ياموسى . فقال الأعرابى : والله إنك لساحر ، ثم رمى الصرة وخرج (وحكى) الأصمعى قال : ضلت لى إبل فخرجت فى طلبها وكان البرد شديدا ، فالتجأت إلى حى من أحياء العرب وإذا بجماعة يصلون وبقربهم شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد وينشد :

فى غداة غد أعلمته وإن أنا قتلت فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجتهد فى إخراجه من بغداد . قال الرجل : فأخذنى صاحب الشرطة وصيرنى فى مكان أثق به وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفنا قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسل المأمون فى طلبى يقولون : يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم . قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس عليه ثيابه وهو ينتظرنا ، فقال : أين الرجل ؟ فسكت . فقال : ويحك أين الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين اسمع منى . فقال : لله على عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك . فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب ، ولكن اسمع حديثى وحديثه ثم شأنك وما تريد أن تفعله فى أمرى ، فقال : قل ، فقلت : يا أمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت ، وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أننى أريد أن أوفى له وأكافئه على ما فعله معى وقلت : أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين : إما أن يصفح عنى فأكون قد وفيت وكافأت وإما أن يقتلنى فأقيه بنفسى وقد تحنطت وها كفنى يا أمير المؤمنين . فلما سمع المأمون الحديث قال : ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيرا إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير . هلا عرفتنى خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر فى وفائك له

فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لايبرح حتى يعرف سلامتى فان احتجت إلى حضوره حضر . فقال المأمون : وهذه منة أعظم من الأولى ، إذهب الآن (٣٦٦) إليه فطيب نفسه وسكن روعه وائتنى به حتى أتولى مكافأته . قال العباس :

فأتيت إليه وقلت له : ليزل خوفك ، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال : الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه منه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة بغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى المأمون ، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى : يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم. (ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه) ما أورده محمد بن القاسم الأنبارى رحمه الله تعالى أن سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال : انصرفت يوما من دار الخليفة المهدى فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبله نفسى فأمرت به فرفع ، ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسى ، فدخل وقت القائلة فلم يأخذنى النوم ،

أيا رب إن البرد أصبح كالحا ... وأنت بحالى يا إلهى أعلم
فان كنت يوما فى جهنم مدخلى ... ففى مثل هذا اليوم طابت جهنم

قال الأصمعي : فتعجبت من فصاحته وقلت له : يا شيخ ما تستحى تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير، فأنشد يقول :

أيطمع ربى أن أصلى عاريا ... ويكسو غيرى كسوة البرد والحر
فوالله لا صليت ما عشت عاريا ... عشاء ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح إلا يوم شمس دفيئة ... وإن غيمت فالويل للظهر والعصر
وإن يكسنى ربى قميصا وجبة ... أصلى له مهما أعيش من العمر

قال : فأعجبنى شعره وفصاحته فنزعت قميصا وجبة كانا على ودفعتهما إليه وقلت له البسهما وقم فصل فاستقبل القبلة وصلى جالسا وجعل يقول :

إليك اعتذارى من صلاتى جالسا ... على غير طهر موميا نحو قبلتى
فمالى ببرد الماء يا رب طاقة ... ورجلاى لا تقوى على ثنى ركبتى
ولكننى أستغفر الله شاتيا ... وأقضيكها يا رب فى وجه صيفتى
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم ... بما شئت من صفعى ومن نتف لحيتى

قال : فعجبت من فصاحته وضحكت عليه وانصرفت * وصلى أعرابى مع قوم فقرأ الامام : قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا . فقال الأعرابى أهلكك الله وحدك إش كان ذنب الذين معك ، فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك * وقيل : دخلت أعرابية على قوم يصلون فقرأ الإمام : فانكحوا ماطاب لكم من النساء ، وجعل يرددها ؛ فجعلت الأعرابية تعدو وهى هاربة حتى جاءت لأختها فقالت : يا أختاه ما زال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا على * وصلى أعرابى خلف إمام فقرأ الإمام : ألم نهلك الأولين . وكان فى الصف الأول فتأخر إلى الصف الآخر ، فقرأ : ثم نتبعهم الآخرين ، فتأخر . فقرأ : كذلك نفعل بالمجرمين ، وكان اسم البدوى مجرما ، فترك الصلاة وخرج هاربا وهو يقول : والله ما المطلوب غيرى ؛ فوجده بعض الأعراب ، فقال له : مالك يا مجرم ؟ فقال : إن الإمام أهلك الأولين ، والآخرين ، وأراد أن يهلكنى فى الجملة والله لا رأيته بعد اليوم * وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندمائه فاحتاج إلى بيت الخلاء فدلوه عليه ، فلما دخل جعل يضرط ضراطا شنيعا فضحكوا عليه فأنشد يقول :

إذا ماخلا الإنسان فى بيت غائط ... تراخت بلا شك مصاريع فقحته
فمن كان ذا عقل فيعذر ضارطا ... ومن كان ذا جهل ففى وسط لحيته

وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك يسمى مرزوان ، فظهر له من الملك جفوة ، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب وعوى الذئاب ونهيق الحمير وصهيل الخيل وصوت البغال ، ثم احتال حتى دخل موضعا بقرب خلوة الملك وأخفى أمره ، فلما خلا الملك بنفسه نبح نبيح الكلاب، فلم يشك الملك فى أنه كلب ؛ فقال : انظروا ما هذا ؟ فعوى عوى الذئاب ، فنزل الملك عن سريره ، فنهق نهيق الحمير ؛ فمضى الملك هاربا ومضت الغلمان يتبعون الصوت ، فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل ، فاقتحموا عليه وأخرجوه عريانا ، فلما وصلوا به إلى الملك ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكا شديدا وقال

وقال له : ما حملك على ماصنعت ؟ قال : إن الله عز وجل مسخنى كلبا وذئبا وحمارا وفرسا لما غضب علىّ الملك . قال : فأمر الملك أن يخلع عليه وأن يرد إلى مرتبته الأولى . ومن الملح قول بعض الشعراء :

أيا من فاق حسنا واعتدالا ... وولج فى عطيته الشبابا
أما فى مال ردفك من زكاة ... فتدخل فيه لى هذا النصابا

(وحكى) الأصمعى أن عجوزا من الأعراب جلست فى طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذا فسقوها قدحا فطابت نفسها فتبسمت فسقوها قدحا آخر فاحمر وجهها وضحكت فسقوها ثالثا فقالت : خبرونى عن نسائكم بالعراق أيشربون النبيذ ؟ قالوا نعم قالت : زنين ورب الكعبة والله إن صدقتم ما فيكم من يعرف أباه . وصلى أعرابى خلف إمام فقرأ : إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ثم وقف وجعل يرددها فقال الأعرابى : أرسل غيره يرحمك الله وأرحنا وأرح نفسك ، وصلى آخر خلف إمام فقرأ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى ووقف وجعل يرددها فقال الأعرابى : يافقيه إذ لم يأذن لك أبوك فى هذا الليل نظل وقوفا إلى الصباح ثم تركه وانصرف . ولزم أعرابى سفيان ابن عيينة مدة يسمع منه الحديث فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان يا أعرابى ما أعجبك من حديثنا قال : ثلاثة أحاديث حديث عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب الحلوى والعسل وحديثه عليه الصلاة والسلام إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابدؤا بالعشاء وحديث عائشة أيضا ليس من البر الصوم فى السفر . وقيل لأعرابية ماصفة الأير عندكم قالت عصبة ينفخ فيها الشيطان فلا يرد أمرها . وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى فاذا هو بشيخ الأعراب على حمار وهو رطب العينين فقال له الفضل هل أدلك على دواء لعينيك قال : ما أحوجنى إلى ذلك قال خذ عيدان الهواء وغبار الماء فصيره فى قشر بيض الذر واكتحل به ينفعك فانحنى الشيخ وضرط ضرطة قوية وقال خذ هذه فى لحيتك أجرة وصفك وإن زدت زدناك فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته * وخرج معن بن زائدة فى جماعة من خواصه للصيد فاعترضهم قطيع ظباء فتفرقوا فى طلبه وانفرد معن خلف ظبى حتى انقطع عن أصحابه فلما ظفر به نزل فذبحه فرأى شيخا مقبلا من البرية على حمار فركب فرسه واستقبله فسلم عليه فقال : من أين وإلى أين قال : أتيت من أرض لها عشرون سنة مجدبة وقد أخصبت فى هذه السنة فزرعتها مقثأة فطرحت فى غير وقتها فجمعت منها ما أستحسنه وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور وفضله المشهور ومعروفه الأنور وإحسانه الموفور قال : وكم أملت منه قال : ألف دينار قال فان قال لك كثير قال خمسمائة قال فان قال لك كثير قال ثلثمائة قال فان قال لك كثير قال مائة قال فان قال لك كثير قال خمسين قال فان قال لك كثير قال فلا أقل من الثلاثين قال فان قال لك كثير قال أدخل قوائم حمارى فى حر أمه وأرجع إلى أهلى خائبا فضحك معن منه وساق جواده حتى لحق بأصحابه ونزل فى منزله وقال لحاجبه إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به علىّ فأتى بعد ساعة فلما دخل عليه لم يعرفه لهيبته وجلالته وكثرة حشمه وخدمه وهو متصدر فى دسته والخدم والحفدة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه فلما سلم عليه قال ما الذى أتى بك يا أخا العرب قال أملت الأمير وأتيته بقثاء فى غير أوان فقال كم أملت فينا قال ألف دينار قال كثير فقال والله لقد

فنهضت وأمرت ببغلة لى فأسرجت فركبتها ، فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ومعه مال فقلت : ما هذا ؟ فقال : ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد . قلت : أمسكها معك واتبعنى ، وأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء ، ثم رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم : أعندك ماء تسقينيه ؟ قال : نعم . ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل ، فناولنى فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب فصليت فيه ؛ فلما قضيت صلاتى إذ أنا بأعمى يلتمس فقلت ما تريد يا هذا ؟ قال : إياك أريد . قلت : فما حاجتك ؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى وقال : شممت منك رائحة طيبة فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشىء فقلت : قل . قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر قلت : نعم . قال : هذا قصر كان لأبى فباعه وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كنا فيها وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلنى به وأتوصل إلى سوار فانه كان صديقا لأبى فقلت : ومن أبوك ؟ قال : فلان بن فلان فعرفته فاذا هو كان من أصدق الناس إلىّ . فقلت له يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار منعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ، ثم دعوت الوكيل فأخذت

الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له : إذا كان الغد فسر إلى منزلي ثم مضيت وقلت : ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذه فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي ، فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لي فأعجبه ذلك وأمر لي بألف دينار فأحضرت ، فقال : ادفعها إلى الأعمى فنهضت لأقوم ، فقال : اجلس فجلست فقال أعليك دين قلت نعم ؛ قال كم دينك قلت خمسون ألفا فحادثني ساعة وقال : امض إلى منزلك فمضيت إلى منزلي فاذا أنا بخادم معه خمسون ألفا وقال : يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك قال فقبضت منه ذلك فلما كان من الغد أبطأ على الأعمى وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته فقال قد فكرت البارحة في أمرك . فقلت يقضي دينه ثم يحتاج إلى القرض أيضا ، وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى قال فقبضتها وانصرفت فجاءني الأعمى فدفعت إليه الألف دينار وقلت له قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على إحسان أبيك وكافأني على إسداء المعروف إليك ثم أعطيته شيئا آخر من مالي فأخذه وانصرف والله سبحانه وتعالى أعلم (ومن ذلك ما حكاه القاضي يحيي بن أكثم رحمة الله تعالى عليه) . قال : دخلت يوما على الخليفة هرون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر فقال لي أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنا مع عبيد

كان ذلك الرجل ميشوما عليّ ثم قال خمسمائة دينار قال كثير فما زال إلى أن قال خمسين دينارا فقال له كثير فقال لا أقل من الثلاثين فضحك معن فعلم الأعرابي أنه صاحبه فقال يا سيدي إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب وها معن جالس فضحك معن حتى استلقى على فراشه ثم دعا بوكيله فقال أعطه ألف دينار وخمسمائة دينار وثلثمائة دينار ومائة دينار وخمسين دينارا وثلاثين دينارا ودع الحمار مكانه فتسلم الأعرابي المال وانصرف

[الفصل الثاني في نوادر القراء والفقهاء] عن محمد بن عبد الله قال كنا في دهليز عثمان بن شيبة فخرج إلينا فقال ن والقلم في أي سورة * ومر بعضهم بقارئ يقرأ الم غلبت الترك في أدنى الأرض فقال له الروم فقال له كلهم أعداؤنا قاتلهم الله . وكان جماعة يجلسون إلى أبي العيناء وفيهم رجل لا يتكلم فقيل له يوما كيف علمك بكتاب الله قال أنا عالم به فقيل له هذه الآية في أي سورة الحمد لله لا شريك له فقال له في سورة الجمد فضحكوا عليه * وجاء رجل إلى فقيه فقال أفطرت يوما في رمضان فقال اقض يوما مكانه قال قضيت وأتيت أهلي وقد عملوا مأمونية فسبقتني يدي إليها فأكلت منها فقال اقض يوما آخر مكانه قال قضيت وأتيت أهلي وقد عملوا هريسة فسبقتني يدي إليها فقال أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك * وجاء رجل إلى بعض الفقهاء فقال له : أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل وإني توضأت وصليت فبينما أنا في الصلاة إذ أحسست ببلل في سراويلي يتلزق فشممته فاذا رائحته كريهة خبيثة قال الفقيه عافاك الله خريت باجماع المذاهب. وجاء رجل إلى فقيه قال أنا رجل أفسو في ثيابي حتى تفوح روائحي فهل يجوز لي أن أصلي في ثيابي قال نعم لكن لا كثر الله في المسلمين مثلك * ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما فدخل إليها وقال إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عمش عينيه ودقة ساقيه وضعف ركبتيه ونتن إبطيه وبخرفيه وجمود كفيه فقال له الأعمش قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبي ما لم تكن تعرفه * وسكن بعض الفقهاء في بيت سقفه يقرقع في كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة فقال له أصلح السقف فانه يقرقع قال لا تخف فانه يسبح الله تعالى قال أخشى أن تدركه رقة فيسجد

[الفصل الثالث في نوادر القضاة] كان لبعض القضاة بغلة فقرأ يوما في المصحف وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها فقال لغلامه أطلق البغلة ورزقها على الله فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكل من قشور الباذنجان وقشور الرمان وقشور البطيخ وقمامات الطريق فماتت فأمر الغلام باحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم فطلبوا من القاضي عشرة دراهم أجرة حملها وقالوا ليس لنا شيء نرتزق منه إلا من مثل هذا وسيدنا رجل غني وله أشياء كثيرة العدالة والتزويج والعقود والوراقة والسجن والاطلاق وجامكية الحكم وأجرة اليمين والتدريس والأوقاف فقال لهم القاضي أمثلي يقال هذا وأنتم لكم اثنا عشر بابا من المنافع : منها الوسخ والزفر والملح والولع وبيت النبذة وشركة النفوس وجباية الأسواق وحرق النار وسلب الشطار ولكم الصباح وثمن الاصلاح وما تروحوا من هذه البغلة بلا شيء جلدها للدباغين وذنبها للغرابلية ومعرفتها للشعار وتطبيقتها للبيطار قال فتقدم أحدهم إليه وقال بحق من تاب عليك ورد عاقبتك إلى خير وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشيء ولا تدعنا نروح بلاش * تفسير هذه الألفاظ الزفر الفساء الزانيات

الزانيات والوسخ المراحيض والملح جباية الأسواق والولع القمار وبيّت النبذة محل الزور وشركة النفوس كل من حمل ميتا ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه وسلب الشطار كل من شنقوه لهم سلبه * وولى يحيى بن أكثم قاضيا على أهل جبلة فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة فقال لأهل جبلة إذا اجتاز الرشيد فاذكرونى عنده بخير فوعدوه بذلك فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه فسرح القاضى لحيته وكبر عمته وخرج فرأى الرشيد فى الحراقة ومعه أبو يوسف القاضى فقال يا أمير المؤمنين نعم القاضى قاضى جبلة عدل فينا وفعل كذا وكذا وجعل يثنى على نفسه فلما رآه أبو يوسف عرفه فضحك فقال له الرشيد : مم تضحك فقال يا أمير المؤمنين المثنى على القاضى هو القاضى فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض ثم أمر بعزله فعزل * وأحضر رجل ولده إلى القاضى فقال : يا مولانا إن ولدى هذا يشرب الخمر ولا يصلى فأنكر ولده ذلك فقال أبوه يا سيدى أفتكون صلاة بغير قراءة فقال الولد إنى أقرأ القرآن فقال له القاضى اقرأ حتى أسمع فقال :

علق القلب الربابا بعد ما شابت وشابا إن دين الله حق لا أرى فيه ارتيابا

فقال أبوه إنه لم يتعلم هذا إلا البارحة سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه فقال القاضى وأنا الآخر أحفظ آية منها وهى :

فارحمى مضنى كئيبا قد رأى الهجر عذابا

ثم قال القاضى قاتلكم الله يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به * وتقدم اثنان إلى أبى صمصامة القاضى فادعى أحدهما على الآخر طنبورا فأنكر فقال للمدعى ألك بينة فقال لى شاهدان فأحضر رجلين شهدا له فقال المدعى عليه سلهما يا سيدى عن صناعتهما فأخبر أحدهما أنه نباذ وقال الآخر إنه قواد فالتفت القاضى إلى المدعى عليه وقال أتريد على طنبور أعدل من هذين إدفع إليه طنبوره * وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبى يوسف القاضى فى الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فقال أبو يوسف أنا لا أحكم على غائب فأمر الرشيد باحضارهما وقدما بين يدى أبى يوسف فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نصف الجامين ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته * وأتى بعض المجان لبعض القضاة فقال يا سيدى إن امرأتى قحبانا فقال له القاضى طلقهانا فقال عشقانا فقال قوهانا * وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدين فجعل القاضى يميل إليها بالحكم فقال الرجل أصلح الله القاضى حقى أوضح من هذا النهار فقال له القاضى اسكت ياعدو الله فان الشمس أوضح من النهار قم لا حق لك عليها فقالت المرأة جزاك الله عن ضعفى خيرا فقد قويته فقال الرجل لا جزاك الله عن قوتى خيرا فقد أوهيتها * ورفعت امرأة زوجها إلى القاضى تبغى الفرقة وزعمت أنه يبول فى الفراش كل ليلة فقال الرجل للقاضى ياسيدى لا تعجل علىّ حتى أقص عليك قصتى إنى أرى فى منامى كأنى فى جزيرة فى البحر وفيها قصر عال وفوق القصر قبة عالية وفوق القبة جمل وأنا على ظهر الجمل وأن الجمل يطأطىء برأسه ليشرب من البحر فاذا رأيت ذلك بلت من شدة الخوف فلما سمع القاضى ذلك بال فى فراشه وثيابه وقال : ياهذه أنا قد أخذنى البول من هول حديثه فكيف بمن يرى الأمر عيانا (وحكى) أن تاجرا عبر إلى حمص فسمع مؤذنا يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل

ابن الأبرص . فقال علىّ بعبيد فلما حضر بين يديه قال له أخبرنى عن قضية هذا البيت . فقال يا أمير المؤمنين كنت فى بعض السنين حاجا فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ألحقت أولها بآخرها فسألت عن القصة فقال لى رجل من القوم تقدّم ترما بالناس ، فتقدمت إلى أول القافلة فاذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء البعير فهالنى أمره وبقيت لا أهتدى ما أصنع فى أمره فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى فعارضنا ثانية فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه . فقلت أفدى هذا العالم بنفسى وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا فأخذت قربة من الماء تقلدتها وسللت سيفى وتقدمت ، فلما رآنى قربت منه سكن وبقيت متوقعا منه وثبة يبتلعنى فيها ، فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة فى فيه وصببت الماء كما يصب فى الإناء فلما فرغت القربة تسيب فى الرمل ومضى ؛ فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ومضينا لحجنا ثم عدنا فى طريقنا ذلك وحططنا فى منزلتنا تلك فى ليلة مظلمة مدلهمة فأخذت شيئا من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتى ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله حالى فأخذتنى عينى فنمت مكانى فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسا ، وقد ارتحلوا وبقيت منفردا لم أر أحدا ولم أهتد

حمص يشهدون أن محمدا رسول الله فقال : والله لأمضين إلى الإمام وأسأله فجاء إليه فرآه قد أقام الصلاة وهو يصلى على رجل ورجله الأخرى ملوثة بالعذرة فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر فسأل عنه فقيل إنه فى الجامع الفلانى يبيع الخمر فمضى إليه فوجده جالسا وفى حجره مصحف وبين يديه باطية مملوءة خمرا وهو يحلف للناس بحق المصحف إن الخمرة صرف ليس فيها ماء وقد ازدحمت الناس عليه وهو يبيع فقال : والله لأمضين إلى القاضى وأخبره فجاء إلى القاضى فدفع الباب فانفتح فوجد القاضى نائما على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحشة فقال التاجر : قلب الله حمص فقال القاضى لم تقول هذا فأخبره بجميع ما رأى فقال يا جاهل أما المؤذن فإن مؤذننا مرض فاستأجرنا يهوديا صيتا يؤذن مكانه فهو يقول ما سمعت وأما الامام فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مسرعا فتلوثت رجله بالعذرة وضاق الوقت فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى ولما فرغ غسلها وأما المحتسب فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلا كرم وعنبه ما يؤكل فهو يعصره خمرا ويبيعه ويصرف ثمنه فى مصالح الجامع ، وأما الغلام الذى رأيته فإن أباه مات وخلف مالا كثيرا وهو تحت الحجر وقد كبر وجاءه جماعة شهدوا عندى أنه بلغ فأنا أمتحنه فخرج التاجر من البلد وحلف أنه لا يعود إليها أبدا

[الفصل الرابع فى نوادر النحاة] وقف نحوى على بياع يبيع أرزا بعسل وبقلا بخل فقال بكم الأرز بالأعسل والأخلل بالأبقل فقال : بالأصفع فى الأروس والأضرط فى الأذقن * ووقع نحوى فى كنيف فجاء كناس ليخرجه فصاح به الكناس ليعلم أهو حى أم لا فقال له النحوى أطلب لى حبلا دقيقا وشدنى شدا وثيقا واجذبنى جذبا رفيقا فقال له الكناس امرأته طالق إن أخرجتك منه ثم تركه وانصرف. وكان لبعضهم ولد نحوى يتقعر فى كلامه فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت فاجتمع عليه أولاده وقالوا له ندعو لك فلانا أخانا قال لا : إن جاءنى قتلنى فقالوا نحن نوصيه أن لا يتكلم فدعوه فلما دخل عليه قال له يا أبت قل لا إله إلا الله تدخل الجنة وتفوز من النار يا أبت والله ما أشغلنى عنك إلا فلان فإنه دعانى بالأمس فأهرس وأعدس واستبذج وسكبج وطهبج وأفرج ودجج وأبصل وأمضر ولوزج وأفلوزج فصاح أبوه غمضونى فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحى * وجاء نحوى يعود مريضا فطرق بابه فخرج إليه ولده فقال كيف وجدت أباك قال يا عم ورمت رجليه قال لا تلحن قل رجلاه ثم ماذا قال ثم وصل الورم إلى ركبتاه قال لا تلحن قل إلى ركبتيه ثم ماذا قال مات وأدخله الله فى بظر عيالك وعيال سيبويه ونفطويه وجحشويه * وعاد بعضهم نحويا فقال ما الذى تشكوه قال حمى جاسية نارها حامية منها الأعضاء واهية والعظام بالية فقال له لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية

[الفصل الخامس فى نوادر المعلمين] قال الجاحظ مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكرة وطبل وبوق ؛ فقلت : ما هذه ؟ قال : عندى صغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لى بضرطة فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة فيفر من بين يدى فأضع الكرة فى الصولجان وأضربه فأشجه فتقوم إلى الصغار كلهم بالألواح فأجعل الطبل فى عنقى والبوق فى فمى وأضرب الطبل وأنفخ فى البوق ، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلى ويخلصونى منهم (وحكى) الجاحظ أيضا . قال : مررت على خربة فإذا بها معلم وهو ينبح نبيح

إلى ما أمله وأخذتنى حيرة وجعلت أضطرب فإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول :

يا أيها الشخص المضل مركبه
ما عنده من ذى رشاد يصحبه
دونك هـذا البكر منا تركبه
وبكرك الميمون حقا تجنبه
حتى إذا ما الليل غاب غيهبه
عند الصباح فى الفلا تسيبه

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندى وبكرى إلى جانبى فأنخته وركبته وجنبت بكرى فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة وانفجر الفجر ووقف البكر فعلمت أنه قد حان نزولى فتحولت إلى بكرى وقلت :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب
ومن هموم تضل المدلج الهادى
ألا تخبرنى بالله خالقنا
من الذى جاء بالمعروف فى الوادى
وارجع حميدا فقد أبلغتنا مننا
بوركت من ذى سنام رائح غادى

فالتفت البكرى إلى وهو يقول :

أنا الشجاع الذى ألفيتنى رمضا
والله يكشف ضر الحائر الصادى
جدت بالماء لما ضن حامله
تكرما منك لم تمنن بإنكاد
فالخير أبقى وإن طال الزمان به
والشر أخبث ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك منى لا أمن به
فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادى

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه وقال : لا يضيع المعروف

نبيح الكلاب فوقفت أنظر إليه و إذا صبي قد خرج من دار فقبض عليه المعلم وجعل يلطمه و يسبه فقلت عرفني خبره فقال هذا صبيٌ لئيم يكره التعليم و يهرب و يدخل الدار ولا يخرج وله كلب يلعب به فاذا سمع صوتي ظنّ أنه صوت الكلب فيخرج فأمسكه . وجاءت امرأة إلى المعلم بولدها تشكوه فقال له إما أن تنتهي و إلا فعلت بأمك فقالت يامعلم هذا صبي ما ينفع فيه الكلام فافعل ما شئت لعله ينظر بعينيه و يتوب فقام وفعل بها أمام ولدها * وقال الجاحظ رأيت معلما في الكتاب وحده فسألته فقال الصغار داخل الدرب يتصارعون فقلت أحب أن أراهم فقال ما أشير عليك بذلك فقلت لا بد قال فاذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك حتى تعمى. وقال بعضهم رأيت معلما وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما هذا عضّ أذني فقال الآخر لا والله يا سيدنا هو الذي عضّ أذن نفسه فقال المعلم يا ابن الزانية هو كان جمل يعض أذن نفسه * وقال بعضهم رأيت معلما وهو يصلي العصر فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه ونظر إلى الصغار وهم يلعبون وقال يا ابن البقال قد رأيت الذي عملت وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة (وحكي) عن الجاحظ أنه قال ألفت كتابا في نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب فدخلت يوما مدينة فوجدت فيها معلما في هيئة حسنة فسلمت عليه فرد عليّ أحسن رد ورحب بي فجلست عنده وباحثته في القرآن فاذا هو ماهر فيه ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب فاذا هو كامل الآداب فقلت هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب قال فكنت أختلف إليه وأزوره فجئت يوما لزيارته فاذا بالكتاب مغلق ولم أجده فسألت عنه فقيل مات له ميت فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء فذهبت إلى بيته وطرقت الباب فخرجت إليّ جارية وقالت ما تريد قلت سيدك فدخلت وخرجت وقالت باسم الله فدخلت إليه و إذا به جالس فقلت عظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة كل نفس ذائقة الموت فعليك بالصبر ثم قلت له هذا الذي توفي ولدك قال لا قلت فوالدك قال لا قلت فأخوك قال لا قلت فزوجتك قال لا فقلت : وما هو منك قال حبيبتي فقلت في نفسي هذه أول المناحس فقلت سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها فقال أتظن أني رأيتها قلت وهذه منحسة ثانية ثم قلت وكيف عشقت من لم تر فقال اعلم أني كنت جالسا في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا عليه برد وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ... ردي عليّ فؤادي أينما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعبين به ... فكيف يلعب بالانسان إنسانا

قلت في نفسي لولا أنّ أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت وأغلقت المكتب وجلست في الدار فقلت : يا هذا إني كنت ألفت كتابا في نوادركم معشر المعلمين وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إبقائه وأول ما أبدأ بك إن شاء الله تعالى

[الفصل السادس في نوادر المتنبئين] ادعى رجل النبوة في أيام الرشيد فلما مثل بين يديه قال له

ابن وضع (موعظة) حكي أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي وكان شيخا لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات فخرج في بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق قال الشبلي : فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد فجعلنا ندور بتلك القرية و إذا نحن بكنائس وبها شمامسة وقساقسة ورهبان وهم يعبدون الأصنام والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية و إذا نحن بجوار يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها وفي عنقها قلائد الذهب فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال : هذه ابنة من فقيل له هذه ابنة ملك هذه القرية فقال الشيخ فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء فقيل له أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته وخدمته ولا تعجبها نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحدا غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ والفقراء بين يديه ولا يدرون ما يصنعون قال الشبلي : فتقدمت إليه وقلت له ياسيدي إن أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك

ما الذى يقال عنك قال إنى نبى كريم قال فأى شىء يدل على صدق دعواك قال سل عما شئت قال أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى وأغير هذه الصورة الحسنة وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مردا فى لحظة واحدة فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة * وتنبأ إنسان فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة فقال أطرح لكم حصاة فى الماء فتذوب قالوا رضينا فأخرج حصاة معه وطرحها فى الماء فذابت فقالوا هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا ودعها تذوب فقال لستم أجل من فرعون ولا أنا أعظم حكمة من موسى ولم يقل فرعون لموسى لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندى تجعلها ثعبانا فضحك المأمون وأجازه * وتنبأ رجل فى أيام المعتصم فلما حضر بين يديه قال أنت نبى قال نعم قال وإلى من بعثت قال إليك قال أشهد أنك لسفيه أحمق قال إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم فضحك المعتصم وأمر له بشىء * وتنبأ رجل فى أيام المأمون وادعى أنه ابرهيم الخليل فقال له المأمون إن ابراهيم كانت له معجزات وبراهين قال وما براهينه قال أضرمت له نار وألقى فيها فصارت عليه بردا وسلاما ونحن نوقد لك نارا ونطرحك فيها فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك قال أريد واحدة أخف من هذه قال فبراهين موسى قال وما براهينه قال ألقى عصاه فإذا هى حية تسعى وضرب بها البحر فانفلق وأدخل يده فى جيبه فأخرجها بيضاء قال وهذه علىّ أصعب من الأولى قال فبراهين عيسى قال وما هى قال إحياء الموتى قال مكانك قد وصلت أنا أضرب رقبة القاضى يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة فقال يحيى أنا أول من آمن بك وصدّق * وتنبأ آخر فى زمن المأمون فقال المأمون أريد منك بطيخا فى هذه الساعة قال أمهلنى ثلاثة أيام قال ما أريده إلا الساعة قال ما أنصفتنى يا أمير المؤمنين إذا كان الله تعالى الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ما يخرجه إلا فى ثلاثة أشهر فما تصبر أنت على ثلاثة أيام فضحك منه ووصله * وتنبأ آخر فى زمن المأمون فلما مثل بين يديه قال له من أنت قال أنا أحمد النبى قال لقد ادعيت زورا فلما رأى الأعوان قد أحاطت به وهو ذاهب معهم قال يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبى فهل تذمه أنت فضحك المأمون منه وخلى سبيله * وتنبأ آخر فى زمن المتوكل فلما حضر بين يديه قال له أنت نبى قال نعم قال فما الدليل على صحة نبوّتك قال القرآن العزيز يشهد بنبوّتى فى قوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح وأنا أسمى نصر الله قال فما معجزتك قال ائتونى بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم فى الساعة ويؤمن بى فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته فقال الوزير أما أنا فأشهد أنه نبى الله وإنما يعطى زوجته من لا يؤمن به فضحك المتوكل وأطلقه * وادعى رجل النبوّة فى زمن خالد بن عبد الله القسرى وعارض القرآن فأتى به إلى خالد فقال له ما تقول فقال عارضت القرآن قال بماذا قال قال الله تعالى إنا أعطيناك الكوثر الآية وقلت إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ولا تطع كل ساحر فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب فمرّ به خلف بن خليفة الشاعر فضرب بيده على الخشبة وقال إنا أعطيناك العود فصل لربك من قعود وأنا ضامن لك أن لا تعود * وأتى للمأمون برجل ادعى النبوة فقال له ألك علامة على علامتى إنى أعلم ما فى نفسك قال وما فى نفسى قال فى نفسك أنى كاذب قال صدقت ثم أمر به إلى السجن فأقام فيه أياما ثم أخرجه فقال هل

أوحى

ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحدا قال فأقبل علينا وقال ياقوم اعلموا أن الجارية التى رأيتها بالأمس قد شغفت بها حبا واشتغل قلبى بها وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض . قال الشبلى فقلت له يا سيدى أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد فى سائر الآفاق وعدد مريديك اثنا عشر ألفا فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز. فقال ياقوم جرى القلم بما حكم ووقعت فى بحار العدم وقد انحلت منى عرى الولاية وطويت أعلام الهداية ، ثم إنه بكى بكاء شديدا وقال يا قوم انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر فتعجبنا من أمره وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد فخرج الناس إلى لقائه ومريدوه فى جملة الناس فلم يروه فسألونا عنه فعرفناهم بما جرى فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنا عليه وجعل الناس يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وأغلقت الرباطات والزوايا والخوانق ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا بسنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابى نكشف خبره فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا إنه فى البرية يرعى الخنازير قلنا وما السبب فى ذلك قالوا إنه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجها إلا ممن هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله ، وهاهو فى البرية يرعى الخنازير . قال الشبلى

أوحى اليك بشيء قال لا قال ولم قال لأن الملائكة لا تدخل الحبوس فضحك منه وخلى سبيله وأتى بامرأة تنبأت فى أيام المتوكل فقال لها أنت نبية قالت نعم قال أتؤمنين بمحمد قالت نعم قال فانه صلى الله عليه وسلم قال لا نبى بعدى قالت فهل قال لا نبية بعدى فضحك المتوكل وأطلقها . وتنبأ رجل يسمى نوحا وكان له صديق نهاه فلم يقبل فأمر السلطان بقتله فصلب فمر به صديقه فقال له يا نوح ما حصلت من السفينة الا على الصارى

[الفصل السابع فى نوادر السؤال] وقف أعرابى بباب يسأل فقال له صغير من بباب الدار بورك فيك فقال قبح الله هذا الفم لقد تعلمت الشر صغيرا . ووقف سائل على باب فقال يا أصحاب المنزل فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال فتح الله عليك فقال السائل يا قرنان كنت تصبر لعلى جئت أدعوك الى وليمة . وقال أبو عثمان الجاحظ وقف سائل بقوم فقال إنى جائع فقالوا له كذبت فقال جربونى برطلين من الخبز ورطلين من اللحم . ووقف سائل على باب فقالوا يفتح الله لك فقال كسرة فقالوا ما نقدر عليها قال فقليل من بر أو فول أو شعير قالوا لا نقدر عليه قال فقطعة دهن أو قليل زيت أو لبن قالوا لا نجده قال فشربة ماء قالوا وليس عندنا ماء قال فما جلوسكم ههنا قوموا فاسألوا فأنتم أحق منى بالسؤال

[الفصل الثامن فى نوادر المؤذنين] قيل لمؤذن ما نسمع أذانك فلو رفعت صوتك فقال انى اسمع صوتى من مسيرة ميل . وقال بعضهم رأيت مؤذنا أذن ثم غدا يهرول فقلت له إلى أين فقال أحب أن أسمع أذانى أين بلغ . واختصم رجلان فى جارية فأودعاها عند مؤذن فلما أصبح وفرغ من الأذان قال لا إله إلا الله ذهبت الأمانة من الناس فقالوا له كيف ذهبت الأمانة من الناس قال هذه الجارية التى وضعت عندى قيل انها بكر فلما أتيتها وجدتها ثيبا وسمع مؤذن حمص يقول فى سحور رمضان تسحروا فقد أمرتكم وعجلوا فى أكلكم قبل أن أؤذن فيسخم الله وجوهكم . وشوهد مؤذن يؤذن من رقعة فقيل له ما تحفظ الأذان فقال سلوا القاضى فأتوه فقالوا السلام عليكم فأخرج دفترا وتصفحه وقال وعليكم السلام فعذروا المؤذن . وسمعت امرأة مؤذنا يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول الصلاة خير من النوم فقالت النوم خير من هذه الصلاة . ومر سكران بمؤذن ردىء الصوت فجلد به الأرض وجعل يدوس بطنه فاجتمع اليه الناس فقال والله ما بى رداءة صوته ولكن شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين

[الفصل التاسع فى نوادر النواتية] حكى أن بعض النواتية تولى أحد الكراسى السلطانية لما ساعده الزمان فبينما هو جالس فى داره إذ سمع صوتا وراء الباب فقال لزوجته إنى أسمع غاغة فى البرحلى فاوعى واعملى أسفيرتى على جامورى وقدمى إلى اسقالة الرجل وقيميى بعدرة فامتثلت كلامه فنزل وجلس على مصطبته وقد علت مرتبته واصطفت المقدمون بين يديه ووقفت الجبرتية حواليه وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة وعمامته فى حلقه والدم نازل من أنفه وهو يصيح بصوت عال أنا بالله وبالوالى فقال له تعال يا شيخ مالى أرى أرطمونك فى حلقك وشبورتك مكسورة وأنت بترلع ماء متغير وتقيم الهنيلا فى الساحل دخل عليك شرد غربى وإلا دخلت على براجى فقال الشيخ والله ياسيدى بعض نواتية البحر عمل بى هذا فقال يا أولاد جيبوا غريموا بخفوا عدته وقشطوا ظهره وجروه على مقدمه فامتثلوا كلام الأمير وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له ويلك هو أنت

فانصدعت قلوبنا وانهملت بالبكاء عيوننا وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير ، فلما رآنا نكس رأسه وإذا عليه قلنسوة النصارى وفى وسطه زنار وهو متوكئ على العصا التى كان يتوكأ عليها إذا قام فى الخطبة ، فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا ياشيخ ماذاك وماذا وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم ، فقال يا إخوانى ليس لى من الأمر شيء ، سيدى تصرف فى كيف شاء وحيث أراد أبعدنى عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه ، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده والحذر الحذر يا أهل الودة والصفاء من القطيعة والجفاء ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : يامولاى ما كان ظنى فيك هذا ، ثم جعل يستغيث ويبكى ، ونادى يا شبلى اتعظ بغيرك ، فنادى الشبلى بأعلى صوته بك المستعان وأنت المستغاث وعليك التكلان اكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك . قال فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دوت منها الجبال . قال الشبلى فظننت أن القيامة قد قامت ، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديدا . قال الشبلى فقلنا له هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد ، فقال كيف لى بذلك وقد استرعيت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب ، فقلت يا شيخ كنت تحفظ القرآن ونقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيئا ، فقال

نسيته كله إلا آيتين فقلت وما هما قال قوله تعالى : ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء . والثانية قوله تعالى ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل فقلت يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل تحفظ منها شيئا قال حديثا واحدا وهو قوله صلى الله عليه وسلم من بدّل دينه فاقتلوه ، قال الشبلي فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع وهو يشهد شهادة الحق ويجدد إسلامه فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور ، فنظر إلينا وقال ياقوم اعطوني ثوبا طاهرا ، فأعطيناه ثوبا فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا له الحمد لله الذي ردّك علينا وجمع شملنا بك فصف لنا ما جرى لك وكيف كان أمرك ، فقال ياقوم لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم وقلت له يا مولاى أنا للذنب الجانى فعفا عني بجوده وبستره غطاني فقلت له بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب قال نعم لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي ما قدر هؤلاء عندي وأنا مؤمن موحد فنوديت في سري ليس هذا منك ولو شئت عرفناك ، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الإيمان .

قال الشبلي ففرحنا به فرحا شديدا وكان يوم دخولنا يوما عظيما مشهودا ، وفتحت الزوايا والرباطات والخوانق ونزل الخليفة

بغنوس بسفر البحر أنت الذي قطعت القلس وخرجت في الشعث حتى لقيت هذا الرجل نطحت مخطمته وكسرت اسقالته لو انصلح كنت عملتك في بدراوة وعلقتك في الصاري فلما سمع الرجل كلام الوالي علم أنه من أولاد المعيشة فقال له بهمترة النواتية والله ياخوند هو كار زني في معاشي اجصطن على الوحسة وأنا عايم في الليل إلا وشرد جاني من الشرق كابس هز أطرافي وكسر شابورتي وقطع لباني وها هو بحمد الله على بر السلامة وان كان انصلح فيه شيء فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلفاط أسد فتحه وأعيد له وثقه وأخليه يروح في طريقه فقال له الوالي أنت بتقدف في وجهي وتطرح مقاديفك حتى نعبر على الحجر يا رجالة الصاري سلسلوا أطرافه وعروا مقاديفه وبلوا شيبنة اللبان وانزلوا عليه وأوسقوه الجنبين والظهر حتى تلعب اليه على بطونسته هيا قوامك خلوا جنب برا وجنب جوا قدام الحن وراء الصاري فأكل علقة من كعبه إلى أذنه فقالت النواتية ياخوندا هو خنفست عليه الطمية البحرية قال مدراتين وقيموه فلما أقاموه باس يد الأمير وقال ياخوند سألتك بهبوب الرياح وطيب النسيم الرب لا يبليك بجر اللبان في الحلاقي وأنت حافي في الصياقي ويكفيك شر الاربعينيات قال فرق عليه قلب الأمير وقال له وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا عند بخنسة الريح وفروغ الزاد بعيد من البلاد وعياط الركاب عند قيام الموجة وبعد البر في أيام النيل لولا شفاعة الركاب لكنت أهد اسقالتك وأقعد في زوايدك حتى أخلي ظهرك جيفة فقال له والله يا خوند ما بقي جنبي يحمل هذا الوثق العظيم ولكن ان عدت أعبر لهذا الوجه اخسف من أضلاعي لوح وغرقني بالقايم فقال له الأمير احمد الله على السلامة واحرج في دي الطيابة وكتب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية للنواتية الله لك الله لي يا عملات على أبوس

[الفصل العاشر في نوادر جامعة] سمعت امرأة في الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة فصامت إلى الظهر ثم أفطرت وقالت يكفيني كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان . وأسلم مجوسي في شهر رمضان فثقل عليه الصيام فنزل إلى سرداب وقعد يأكل فسمع ابنه حسه فقال من هذا فقال أبوك الشقي يأكل خبز نفسه ويفزع من الناس . وسئل بعض القصاص عن نصراني قال لا إله إلا الله لا غير إذا مات اين يدفن قال يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذبذبا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وأهدى إلى سالم القصاص خاتم بلا فص فقال إن صاحب هذا الخاتم يعطى في الجنة غرفة بلا سقف . وبنى بعض المغفلين نصف دار وبنى رجل آخر النصف الآخر فقال المغفل يوما قد عولت على بيع النصف الذي لي وأشترى به النصف الآخر لتكمل لي الدار كلها . وسئل جامع الصيدلاني عن عمر ابنته فقال لا أدرى إلا أن أمها ذكرت أنها ولدتها في أيام البراغيث . وقيل لطفيلي أي سورة تعجبك في القرآن قال المائدة قال فأي آية قال ذرهم يأكلوا ويتمتعوا قيل ثم ماذا قال آتنا غداءنا قيل ثم ماذا قال ادخلوها بسلام آمنين قيل ثم ماذا قال وما هم منها بمخرجين . وقيل لعثمان بن دراج الطفيلي يوما كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها قال أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك فيدخلوني . وقيل له أتعرف بستان فلان قال إى والله إنه الجنة الخاضرة في الدنيا قيل لم لا تدخله وتأكل من ثماره وتستظل بأشجاره وتسبح في أنهاره قال لأن فيه كلبا لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال . وقيل له يوما ماهذه الصفرة التي في لونك قال من القترة من الضيفين . وقال مرت بنا جنازة يوما ومعى ابني ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول الآن

يذهبون

يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه ولا غطاء ولا وطاء ولا خبز ولا ماء فقال ابنى يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون (وحكى) عن هرون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقا شديدا فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكى إنى أرقت فى هذه الليلة وضاق صدرى ولم أعرف ما أصنع وكان خادمه مسرور واقفا أمامه فضحك فقال له ما يضحكك استهزاء بى أم استخفافا فقال وقرابتك من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ما فعلت ذلك عمدا ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر إلى أن جئت إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين فوقفت فرأيت رجلا واقفا يضحك الناس يقال له ابن المغازلى فتفكرت الآن فى شىء من حديثه وكلامه فضحكت والعفو يا أمير المؤمنين فقال له الرشيد ائتنى الساعة به فخرج مسرور مسرعا إلى أن جاء إلى ابن المغازلى فقال له أجب أمير المؤمنين فقال سمعا وطاعة فقال له بشرط أنه إذا أنعم عليك بشىء يكون لك منه الربع والبقية لى فقال له بل اجعل لى النصف ولك النصف فأبى فقال الثلث ولك الثلثان فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم فلما دخل على الرشيد سلم فأبلغ وترجم فأحسن ووقف بين يديه فقال له أمير المؤمنين ان أنت أضحكتنى أعطيتك خمسمائة دينار وإن لم تضحكنى أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات فقال ابن المغازلى فى نفسه وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب وظن فى نفسه أن الجراب فارغ فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالا عجيبة تضحك الجلمود فلم يضحك الرشيد ولم يتبسم فتعجب ابن المغازلى وضجر وخاف فقال له الرشيد الآن استحقيت الضرب ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان فضربه ضربة فلما وقعت الضربة فى رقبته صرخ صرخة عظيمة وافتكر الشرط الذى شرطه عليه مسرور فقال العفو يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمتين قال قل ما بدا لك قال إن مسرورا شرط على شرطا واتفقت أنا وإياه على مصلحة وهو أن ما حصل لى من الصدقات يكون له فيه الثلثان ولى فيه الثلث وما أجابنى إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم وقد شرط على أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيبى منها واحدة ونصيبه اثنتان وقد أخذت نصيبى وبقى نصيبه قال فضحك الرشيد ودعا مسرورا فضربه فصاح وقال يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقى فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار فأخذ كل واحد منهم خمسمائة ورجع ابن المغازلى شاكرا والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والسبعون فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول

[الفصل الأول فى الدعاء وآدابه] قال الله تعالى وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان . اختلف فى سبب نزولها فقال مقاتل ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واقع امرأته بعد ما صلى العشاء فى رمضان فندم على ذلك وبكى وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ورجع مغتما وكان ذلك قبل الرخصة فنزلت هذه الآية وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب. وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام وغلظ كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الآية . وقال الحسن إن قوما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت هذه الآية قوله تعالى أجيب دعوة الداع إذا دعان أى أقبل عبادة من عبدنى فالدعاء بمعنى العبادة والإجابة بمعنى القبول. وقال قوم إن الله تعالى يجيب كل الدعاء فإما أن يعجل الاجابة فى الدنيا وإما أن يكفر عن

لقاء الشيخ وأرسل إليه الهدايا وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفا وأقام على ذلك زمانا طويلا ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث وزاده على ذلك ، فبينما نحن جلوس عنده فى بعض الأيام بعد صلاة الصبح إذا بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود ، فقلت له ما الذى تريد . فقال قل لشيخكم إن الجارية الرومية التى تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك قال فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه وارتعد ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديدا فقال لها الشيخ كيف مجيئك ومن أوصلك إلى ههنا . قالت يا سيدى لما وليت من قريتنا جاءنى من أخبرنى بك فبت ولم يأخذنى قرار فرأيت فى منامى شخصا وهو يقول إن أحببت أن تكونى من المؤمنات فاتركى ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعى ذلك الشيخ وادخلى فى دينه ، فقلت وما دينه ؟ قال دين الإسلام . قلت وماهو قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقلت : كيف لى بالوصول إليه قال اغمضى عينيك واعطينى يدك ففعلت فمشى قليلا ثم قال افتحى عينيك ففتحتهما فإذا أنا بشاطىء دجلة ، فقال امضى إلى تلك الزاوية واقرئى الشيخ منى السلام وقولى له إن أخاك الخضر يسلم عليك ، قال فأدخلها الشيخ إلى جواره وقال تعبدى ههنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت وأشرفت

الداعي وإما أن يدخر له في الآخرة لما رواه أبو سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له ثوابها وإما أن يكف عنه من السوء مثلها. وروى أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة في الجنة فبينما العبد المؤمن في قصره وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله فيقول ما هذا أليس الله قد أنعم علي وأكرمني فيقولون ألست كنت تدعو الله في الدنيا هذا دعاؤك الذي كنت تدعوه قد ادخره لك (واعلم) أن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط فشرط الداعي أن يكون عالما بأن لا قادر إلا الله وأن الوسائط في قبضته ومسخرة بتسخيره وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه وأن يكون متجنبا لأكل الحرام ولا يمل من الدعاء ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعا كما قال عليه الصلاة والسلام مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم فيدخل في الإثم كل ما يأثم به من الذنوب ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . قال ابن عطاء الله إن للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا فإن وافق أركانه قوي وإن وافق أجنحته طار إلى السماء وإن وافق مواقيته فاز وإن وافق أسبابه نجح فأركانه حضور القلب والخشوع وأجنحته الصدق ومواقيته الأسحار وأسبابه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ومن شروط الدعاء أن يكون سالما من اللحن كما قال بعضهم :

ينادي ربه باللحن ليث ... كذاك إذ دعاه لا يجاب

وقيل إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف ولا شرطي ولا جاب ولا عشار ولا صاحب عرطبة وهي الطنبور ولا صاحب كوبة وهي الطبل الكبير الضيق الوسط . ومن آداب الدعاء أن يدعو الداعي مستقبل القبلة ويرفع يديه لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء لما روى عن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله صلى الله عليه وسلم لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو ليخطفن الله أبصارهم وأن يخفض الداعي صوته بالدعاء لقوله تعالى : أدعوا ربكم تضرعا وخفية . وعن أبي عبد الرحمن الهمداني قال صليت مع أبي إسحق الغداة فسمع رجلا يجهر في الدعاء فقال : كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفيا . وينبغي للداعي أن لا يتكلف وأن يأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع لقوله صلى الله عليه وسلم إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل . وقيل ادعوا بلسان الذلة والافتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها كما في آخر سورة البقرة وعن سفيان بن عيينة لايمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس إذ قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون وعن النبي صلى الله عليه وسلم إذا سأل أحدكم مسئلة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عليه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال . وعن سلمة بن الأكوع قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح

الدعاء

على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت قولوا للشيخ يدخل علي قبل الموت فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رأته بكت فقال لها لاتبكي فان اجتماعنا غدا في القيامة في دار الكرامة ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياما قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه قال الشبلي فرأيته في المنام وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما اه فليتأمل العاقل في ذلك ولا ير له فضلا على أحد من خلق الله تعالى فهو الفاعل المختار يعطي من يشاء ويمنع فالكل منه وإليه (موعظة) قيل عشش ورشان في شجرة في دار رجل فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخ ذلك الورشان ففعل ذلك مرارا وكلما خرج الورشان أخذ أفراخه؛ فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه الصلاة والسلام وقال يارسول الله أردت أن يكون لي أولاد يذكرون الله تعالى من بعدي فأخذها الرجل بأمر امرأته ، ثم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان لشيطانين إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين؛ فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير ، ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال للشيطانين ألم تفعلا ما أمرتكما به فقالا

الدعاء إلا قال : سبحان ربى الأعلى الوهاب. وعن أبى سليمان الدارانى من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينبغى للمؤمن أن يجتهد فى الدعاء وأن يكون على رجاء من الاجابة ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريما . وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الاجابة وذلك وقت السحر ووقت الفطر وما بين الأذان والاقامة وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة وعند نزول الغيث وعند التقاء الجيش فى الجهاد فى سبيل الله تعالى وفى الثلث الأخير من الليل لما جاء فى الحديث إن فى الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئا إلا أعطاه وفى حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء وما بين الظهر والعصر فى يوم الأربعاء وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرض هذا كله جاءت به الآثار. قال جابر بن عبدالله رضى الله تعالى عنه دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفتح ثلاثة أيام يوم الاثنين ويوم الثلاثاء واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرفت السرور فى وجهه قال جابر ما نزل بى أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الاجابة. وفى بعض الكتب المنزلة يا عبدى إذا سألت فاسألنى فإنى غنى ، وإذا طلبت النصرة فاطلبها منى فإنى قوى وإذا أفشيت سرك فافشه إلىّ فانى وفىّ وإذا أقرضت فأقرضنى فانى ملى وإذا دعوت فادعنى فانى حى. وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له وقال وهب بن منبه بلغنى أن موسى مر برجل قائم يبكى ويتضرع طويلا فقال موسى يارب أما تستجيب لعبدك فأوحى الله تعالى إليه يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له قال يا رب لم ذلك قال لأن فى بطنه الحرام . ومر ابراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا يا أبا إسحق ما لنا ندعوا فلا يستجاب لنا قال لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء الأول أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه الثانى زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تركتم سنته الثالث قرأتم القرآن ولم تعملوا به الرابع أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها الخامس قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه السادس قلتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها السابع قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها الثامن قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له التاسع انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم العاشر دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم . وكان يحيى بن معاذ يقول من أقرّ لله باساءته جاد الله عليه بمغفرته ومن لم يمن على الله بطاعته أوصله إلى جنته ومن أخلص لله فى دعوته منّ الله عليه باجابته وقال علىّ رضى الله تعالى عنه ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء وعن أنس رضى الله تعالى عنه يرفعه ألا تعجزوا عن الدعاء فانه لن يهلك مع الدعاء أحد

[الفصل الثانى فى الأدعية وما جاء فيها] كان من دعاء شريح رحمه الله تعالى اللهم إنى أسألك الجنة بلا عمل عملته وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته . ودعت أعرابية عند البيت فقالت إلهى لك أذل وعليك أدل. وكان من دعاء بعض الصالحين اللهم إن كنا عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك وهو الاشراك وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك وهو شهادة أن لا إله إلا أنت وأن رسلك جاءت بالحق من عندك . ومن دعاء سلام بن مطيع اللهم

اعترضنا ملكان فطرحانا فى الخافقين اه . وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل فان كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فان لم يكن عنده من ذلك شىء أعطاه دهنا أو غيره مما ينتفع به فان لم يكن عنده شىء أعطاه كحلا أو أخرج إبرة وخيطا يرقع بهما ثوب السائل. وحكى أن رجلا جلس يوما يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية فوقف سائل ببابه فخرج إليه وانتهره فذهب فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها فى بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية ، وإذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته ادفعى إليه هذه الدجاجة فخرجت إليه فاذا هو زوجها الأول فدفعت إليه الدجاجة ورجعت وهى باكية ، فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذى انتهره زوجها الأول فقال لها أنا والله ذلك السائل. ومما وقفت عليه ما حكى أن بعضهم قال دخلت البادية فاذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب فقالت أتدرى ما هذا ؟ فقلت لا قالت هذا جرو ذئب أخذناه صغيرا وأدخلناه بيتنا وربيناه. فلما كبر فعل بشاتى ما ترى، وأنشدت :

بقرت شويهتى وفجعت قلبى   وأنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدرها ونشأت معها   فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء   فلا أدب يفيد ولا أديب

قيل : مر عمرو بن عبيد بجماعة وقوف فقيل ما هذا ؟ قيل

إن كنت بلغت أحدا من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية وقيل لفتح الموصلي ادع الله لنا فقال اللهم هبنا عطاءك ولا تكشف عنا غطاءك وكان من دعاء بعض السلف اللهم لا تحرمني خير من عندك لشر ما عندي فإن لم تقبل تعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصاب على مصيبته اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضيع ، وقال الحسن من دخل المقابر فقال اللهم رب الأرواح الفانية والأجساد البالية والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة أدخل عليها روحا من عندك وسلاما مني كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات (وحكى) عن معروف القاضي أن الحجيج كانوا يجتهدون في الدعاء وفيهم رجل من التركمان ساكت لا يحسن أن يدعو فخشع قلبه وبكى فقال بلغته اللهم إنك تعلم أني لا أحسن شيئا من الدعاء فأسألك ما يطلبون منك بما دعوا فرأى بعض الصالحين في منامه أن الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركماني لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة وقال الأصمعي حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت وهي اللهم إن ذنوبي وإن كثرت وجلت عن الصفة فإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني وركب ابراهيم بن أدهم في سفينة فهاجت الريح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك وكان ابراهيم نائما في كساء فاستوى جالسا وقال أريتنا قدرتك فأرنا عفوك فذهب الريح وسكن البحر . وقال الثوري كان من دعاء السلف اللهم زهدنا في الدنيا ووسع علينا فيها ولا تزوها عنا ولا ترغبنا فيها . وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه قال اللهم إني أكفر بكل ما كفر به محمد وأومن بكل ما آمن به ثم يضع رأسه . وسمعت بدوية تقول في دعائها يا صباح يا مناح يا مطعم يا عريض الجفنة يا أبا المكارم فزجرها رجل فقالت دعني أصف ربي وأمجد إلهي بما تستحسنه العرب . وقال الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليماني يا أبا المكارم يا أبيض الوجه وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم والنزاهة على القبيح على طريق الاستعارة لأنه لا فرق عندهم بين الكريم وأبي المكارم ولا بين الجواد والعريض الجفنة ولا بين المنزه والأبيض الوجه وقيل لأعرابي أتحسن أن تدعو ربك قال نعم ثم قال اللهم إنك أعطيتنا الاسلام من غير أن نسألك فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى فيدعو فتبطىء عنه الاجابة ، فقال بلغني أن الله تعالى يقول كيف أرحمه من شيء به أرحمه وقال طاوس بينما أنا في الحجر ذات ليلة إذ دخل عليّ علي بن الحسين فقلت رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمعنّ دعاءه فسمعته يقول عبيدك بفنائك مسكينك بفنائك فقيرك بفنائك فما دعوت بهما في كرب إلا فرج عني . ودعا أعرابي فقال اللهم إنا نبات نعمتك وقال ابن المسيب سمعت من يدعو بين القبر والمنبر اللهم إني أسألك عملا بارا ورزقا دارا وعيشا قارا فدعوت به فما وجدت إلا خيرا ودعت أعرابية بالموقف فقالت أسألك سترك الذي لا تزيله الرياح ولا تخرقه الرماح . وقيل اتقوا مجانيق الضعفاء أي دعواتهم ودعا أعرابي فقال اللهم امح ما في قلبي من كذب وخيانة واجعل مكانه صدقا وأمانة وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك وبادر القيام فجذب ثوبه وقال أما لك إلى ربك حاجة . وقال سفيان الثوري سمعت أعرابيا يقول اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله وإن كان في الأرض فأخرجه وإن كان بعيدا فقرّبه وإن كان قريبا فيسره وإن كان قليلا فكثره وإن كان كثيرا فبارك لي فيه . وقال أبو نواس

السلطان يقطع سارقا فقال لا إله إلا الله سارق العلانية يقطع سارق السر . ومن ذلك ما حكي أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه وصار يدخل على حريمه من غير استئذان وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني منه فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله فطبخ له طعاما وأكثر فيه من الثوم ، فلما أكل البدوي منه قال له احذر أن تقرب من أمير المؤمنين فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال : يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم فلما رآه أمير المؤمنين كتب كتابا إلى بعض عماله يقول له فيه إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوي ودفع الكتاب إليه وقال له : امض به إلى فلان وائتني بالجواب فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده ؛ فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال أين تريد قال أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان ، فقال الوزير هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل فقال له يا بدوي ما تقول فيمن

أحييت

أحببت من شعر بشار وكلنه ... بيتا لهجت فيه من شعر بشار

يا رحمة الله حلي في منازلنا ... وجاوربنا فدتك النفس من جار

وكان بشار يعني بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتغزل فيها ونعني بها هنا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وسمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلا يقول وهو متعلق بأستار الكعبة يامن لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه إلحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك فقال علي والذي نفسي بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك ومن دعائه رضي الله عنه اللهم صن وجهي باليسار ولا تبدل جاهي بالاقتار فأسترزق طالبي رزقك من غيرك وأستعطف شرار خلقك وأبتلي بحمد من أعطاني وأفتتن بذم من منعني وأنت من وراء ذلك كله ولي الاجابة والمنع وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما انتهيت إلى الركن اليماني قط الا وجدت جبريل قد سبقني اليه يقول قل يا محمد اللهم اني أعوذبك من الكفر والفقر والفاقة ومن مواقف الخزي وهبط جبريل على يعقوب فقال يا يعقوب ان الله تعالى يقول لك قل ياكثير الخير يا دائم المعروف رد علي ابني فقالها فأوحى الله تعالى اليه وعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك وكان أبو مسلم الخراساني إذا نابه أمر قال يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين وقال جعفر بن محمد ما المبتلي الذي اشتد بلاؤه بأحق بالدعاء من المعافى الذي لايأمن وقوع البلاء وكان الزهري يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول اللهم اني أسألك من خير ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة وعن عقبة ابن عبد الغافر دعوة في السر أفضل من سبعين دعوة في العلانية . واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات وعن أبي الدرداء قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر فمر بنا كلب فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتا فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته قال من الداعي على الكلب آنفا قال رجل من القوم أنا يارسول الله قال لقد دعوت الله باسمه الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى قال كيف دعوت الله قال قلت اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والاكرام . وقيل إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة فعالجها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صماخه فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن فشكا له ما أصابه من الحصاة فدعا له بدعاء العلاء ابن الحضرمي وهو يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم قال الراوي فما برحنا حتى خرجت الحصاة من أذنه ولها طنين حتى ضربت الحائط وعن انس إذا قال العبد يا رب يا رب يا رب يقول الله عز وجل لبيك عبدي . وعنه قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل وهو يقول يا أرحم الراحمين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم سل حاجتك فقد نظر الله اليك وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر فان الله يستجيب له وروى عن علي بن أبي زفر عن أخ له وكان فاضلا صالحا فقال دعوت الله أن يريني الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب فقمت ليلة أصلي فسمعت قعقعة في سقف البيت ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهي وإذا مكتوب بالنور فقرأته يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والاكرام ومن دعاء الكرب ماروى عن وهب أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند

رحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار فقال له أنت الكبير وأنت الحاكم ومهما أردت افعل فقال أعطني الكتاب . ادفعه إليه فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده ، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أيام ما حضر وأن البدوي بالمدينة مقيم فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فحضر فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها بالقال أنت قلت للناس عني أني أبخر فقال يا أمير المؤمنين أنا أتحدث بما ليس لي به علم إنما كان ذلك مكرا منه وحسدا وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه فقال أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله ، ثم اتخذ البدوي وزيرا وراح الوزير بحسده انتهى

وحكي أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه لما مرض مرضه الذي مات فيه دخل عليه بعض بني هاشم ليعوده ، فلما استأذن عليه قام وجلس وأظهر القوة والتجلد وأذن للهاشمي فدخل عليه ثم قال متمثلا بقول أبي ذؤيب الهذلي من قصيدة رثى بها أولادا له ماتوا بالطاعون :

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع

فأجابه الهاشمي على الفور من القصيدة المذكورة بعينها :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

الكرب قال نعم اللهم انى أسألك يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين فان لكل مسألة منك سمعا حاضرا وجوابا عتيدا ولكل صامت منك علما ناطقا محيطا أسألك بمواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة أن تفعل بى كذا وكذا فقال ابن عباس هذا دعاء علمته فى النوم ما كنت أرى أن أحدا يحسنه وعن وهب أيضا قال لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة فهبط اليه جبريل وقال يا آدم هل أعلمك شيئا تنتفع به فى الدنيا والآخرة قال بلى قال قل اللهم أتمم النعمة حتى تهنئنى المعيشة اللهم اختم لى بخير حتى لا تضرنى ذنوبى اللهم اكفنى مؤنة الدنيا وكل هول فى القيامة حتى تدخلنى الجنة معافى وعن معروف الكرخى قال اجتمعت اليهود أخزاهم الله على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام بزعمهم وأهبط الله تعالى عليه جبريل وفى باطن جناحيه مكتوب اللهم انى أدعوك باسمك الأحد الأعز وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد وأدعوك اللهم باسمك العظيم الوتر وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعالى الذى ملأ الأركان كلها أن تكشف عنى ضر ما أصبحت وأمسيت فيه فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن ارفع عبدى إلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه عليكم بهذا الدعاء ولا تستبطئوا الاجابة فان ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون اسناد هذا متصل إلى معروف الكرخى ثم هو منقطع ولو لم يكن فيه من البركة الا رواية معروف لكان كافيا فى قوله والعمل به . حدث عبد الله بن إبان الثقفى رضى الله عنه قال وجهنى الحجاج بن يوسف فى طلب أنس بن مالك فظننت أنه يتوارى عنى فأتيته بخيلى ورجلى فاذا هو جالس على باب داره مادا رجليه فقلت له أجب الأمير فقال أى الأمراء فقلت أبو محمد الحجاج فقال غير مكترث به قد أذله الله ما أرانى أعزه لأن العزيز من عز بطاعة الله والذليل من ذل بمعصية الله وصاحبك قد بغى وطغى واعتدى وخالف كتاب الله والسنة والله لينتقم الله منه فقلت له أقصر عن الكلام وأجب الأمير فقام معنا حتى حضر بين يدى الحجاج فقال له أنت أنس بن مالك قال نعم قال أنت الذى تدعو علينا وتسبنا قال نعم قال ومم ذاك قال لأنك عاص لربك مخالف لسنة نبيك تعز أعداء الله وتذل أولياء الله فقال له أتدرى ما أريد أن أفعل بك قال لا قال أريد أن أقتلك شر قتلة قال أنس لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله قال الحجاج ولم ذاك قال لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنى دعاء وقال من دعا به فى كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل وقد دعوت به فى صباحى هذا فقال الحجاج علمنيه فقال معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت فى الحياة فقال الحجاج خلوا سبيله فقال الحاجب أيها الأمير لنا فى طلبه كذا وكذا يوما حتى أخذناه فكيف تخلى سبيله قال رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواهما ، إن أنسا رضى الله عنه لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو : بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء باسم الله الذى لا يضر مع اسمه أذى باسم الله الكافى باسم الله المعافى باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم باسم الله على نفسى ودينى باسم الله على أهلى ومالى باسم الله على كل شىء أعطانيه ربى الله أكبر الله أكبر أعوذ بالله مما أخاف وأحذر الله ربى لا أشرك به شيئا عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك اللهم انى أعوذ بك من شر كل جبار عنيد وشيطان مريد ومن شر قضاة السوء ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم . وهذا دعاء مشهور الاجابة وله شرح طويل تركناه لطوله وهو : اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق

ومما يشاكل ذلك ما حكاه لى سيدى ومولاى عمدة العلماء الأعلام ونتيجة قضايا الأدباء الفخام الشيخ عبد الغنى أفندى الرافعى حفظه الله تعالى أنه حكى له عبد الله أفندى ابن قاضى الموصل أن بعض علماء بغداد وفد على دار الخليفة العلية فى أيام السلطان سليم بن السلطان عثمان خان ونزل فى دار صاحب المشيخة العظمى إذ ذاك فاتفق له أن رأى السلطان سليما فى القائق بين أسكى دار واسلامبول فمر قائق الشيخ بالقرب من قائق السلطان فلما وقع عليه نظر الملك ورأى عليه سيما أهل العلم أحب أن يداعبه ، فقال عند ما ناداه :

فيما اقتحامك لج البحر تركبه
وأنت يكفيك منه مصة الوشل

فأجابه على الفور من القصيدة :

أريد بسطة كف أستعين بها
على قضاء حقوق للعلا قبلى

فعند ذلك سأله عن مكانه فأخبر أنه نزيل شيخ الإسلام ثم مر كل منهما بقائقه وبعد أيام اجتمع السلطان سليم بشيخ الاسلام وسأله عن الشيخ وذكر له صفته ثم أمره أن يسأله عن مراده فسأله من غير أن يعلمه أن ذلك عن أمر الملك فقال بنفيق القرية الفلانية فى محل

كذا وكذا إن أقطعتها كفتنى ولا أريد سواها فأخبر الملك بذلك فأقطعه القرية وعاد وقد ربحت تجارته ببضاعة أدبه .

ومن هذا القبيل ما وقع فى عصرنا لعوض بيك الأسعد رحمه الله تعالى أنه حين بدا تغير إبراهيم باشا سر عسكر الدولة المصرية على بكوات عكا وكان جالسا على دكان فى سوق العقادين من طرابلس الشام ، وكان أحد أمراء الآلايات جالسا على دكان يقابله ، فكتب له أمير الآلاى يهدده ضمنا بقول عنترة من قصيدة وأرسل يقول له أنظر خطى وهو

لى النفوس وللطير اللحوم وللوحش العظام وللخيالة السلب

فأجابه بقوله من القصيدة بعينها وأرسل يقول له أنظر خط من أحسن :

إن كنت تعلم يا نعمان أن يدى قصيرة عنك فالأحوال تنقلب

وكتب العلامة زين الدين ابن الوردى إلى قاضى القضاة الكمال البارزى وقد كان عزله من منصب القضاء وولى أخاه :

حملتنى وأخى تباريح البلا وتركتنا ضدين مختلفين

ياحى عالم عصرنا وزماننا ألك التصرف فى دم الأخوين

فأجابه بقوله : أبا عمرو الزجر عن مثل هذا

عرشك وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك وانقاد كل شىء لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك لا بيد غيرك اجعل لى من كل هم وغم أصبحت أو أمسيت فيه فرجا ومخرجا إنك على كل شىء قدير اللهم إن عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى وسترك عن قبيح عملى أطمعنى أن أسألك مالا أستوجبه منك مما قضيته لى أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا لا خائفا ولا وجلا لأنك أنت المحسن الى وأنا المسىء الى نفسى فيما بينى و بينك تتودد الى بالنعم مع غناك عنى وأتبغض اليك بالمعاصى مع فقرى اليك فلم أر مولى كريما أعطف منك على عبد لئيم مثلى لكن الثقة بك حملتنى على الجراءة على الذنوب فأسألك بجودك وكرمك واحسانك وطولك أن تصلى على محمد وآله وأن تفتح لى باب الفرج بطولك وتحبس عنى باب الهم بقدرتك ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين فأعجز ولا الى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين . وروى الحافظ النسفى باسناده عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل ساجد وهو يقول فى سجوده اللهم إنى أستغفرك وأتوب اليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلى فأيما عبد من عبادك أو أمة من إمائك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها اياه فى مال أو بدن أو عرض علمتها أو لم أعلمها ولم أستطع أن أتحللها فأسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت ثم تهبها لى من لدنك انك واسع المغفرة ولديك الخير كله يا رب ما تصنع بعذابى ورحمتك وسعت كل شىء فلتسعنى رحمتك فانى لا شىء وأسألك يا رب أن تكرمنى برحمتك ولا تهنى بذنوبى وما عليك أن تعطينى الذى سألتك يا رب يا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارفع رأسك فقد غفر الله لك إن هذا دعاء أخى شعيب عليه السلام . وقال صالح المزنى قال لى قائل فى منامى إذا أحببت أن يستجاب لك فقل اللهم انى أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطيب الطاهر المطهر المقدس فما دعوت بها فى شىء الا تعرفت الإجابة (وقيل) ان هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو بسم الله الرحمن الرحيم اللهم انى أسألك بالعزة التى لا ترام والملك الذى لا يضام والعين التى لاتنام والنور الذى لا يطفأ وبالوجه الذى لايبلى وبالديمومية التى لا تفنى وبالحياة التى لا تموت وبالصمدية التى لا تقهر وبالربوبية التى لا تستذل أن تجعل لنا فى أمورنا فرجا ومخرجا حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين . وقال سعيد بن المسيب دخلت المسجد فى ليلة مقمرة وأظن أنى قد أصبحت وإذا الليل على حاله فقمت أصلى وجلست أدعو وإذا بهاتف يهتف من خلفى يا عبد الله قل قلت ما أقول : قال قل اللهم إنى أسألك بأنك ملك وأنت على كل شىء قدير وما تشاء من أمر يكون قال سعيد : فما دعوت به قط فى شىء إلا رأيت نجحه . وعن الشيخ كمال الدين الدميرى قال روينا عن قاضى القضاة عز الدين بن جماعة قال : أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن مناع الفزارى خطيب دمشق قال أنبأنا الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسى بقراءتى عليه قال أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبى محمد بن الحافظ أبى القاسم علىّ بن الحسين بن هبة الله بن عساكر قراءة عليه وأنا أسمع قال رويت بالاسناد وذكر إسناده الى الامام الحجة التابعى الجليل محمد بن سيرين قال نزلنا بنهر تيرا فأتانا أهل ذلك المنزل فقالوا لنا ارحلوا فإنه لم ينزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه فرحل أصحابى وتخلفت فلما أمسينا قرأت آيات فما تمت حتى رأيت أقواما قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتى أكثر من ثلاثين نفرا وقد جردوا سيوفهم فلم يصلوا إلىّ فلما أصبحت رحلت فلقينى شيخ على فرس ومعه قوس عربية فقال لى : يا هذا إنسى أنت أم جنى

فقلت بل أنا من بني آدم قال : فما بالك لقد أتيناك في هذه الليلة أكثر من سبعين مرة وفي كل ذلك يحال بيننا و بينك بسور من حديد قلت حدثني ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ في ليلة ثلاثا وثلاثين آية لم يضره في تلك الليلة لص طار ولا سبع ضار وعوفي في نفسه وأهله وماله حتى يصبح فنزل عن فرسه وكسر قوسه وأعطى الله تعالى عهدا أن لا يعود لهذا الأمر وهذه الآيات وهي أن تقرأ بعد الفاتحة ألم ذلك الكتاب إلى قوله المفلحون وآية الكرسي إلى قوله هم فيها خالدون وآمن الرسول إلى آخر السورة وإن ربكم الله الذي إلى قوله المحسنين وقل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن إلى آخر السورة والصافات صفا إلى قوله لازب ويا معشر الجن والانس إن استطعتم إلى قوله فلا تنتصران لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا إلى آخرها وأنه تعالى جد ربنا إلى قوله شططا زاد البوني إلى قوله شهابا رصدا والله من ورائهم محيط إلى قوله محفوظ قال محمد بن سيرين فذكرت هذا الحديث لشعيب بن حرب فقال كنا نسميها آيات الحرز و يقال إن فيها شفاء من مائة داء وعدوا منها الجذام وغير ذلك قال محمد بن علي قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى عنه ذلك الفالج قال البوني هذه الآيات شرفها مشهور وفضلها مذكور لا ينكرها إلا غبي أو غيور وقد جربها المشايخ وعرف سرها من له في العلم قدم راسخ وقدر شامخ وهي على ما رويناه بل ما رأيناه أولها الفاتحة ثم أول البقرة إلى آخر الآيات . وقال أبو العباس أحمد القسطلاني سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول سمعت أبا زيد القرطبي يقول في بعض الآثار إن من قال لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار فعملت ذلك رجاء بركة الوعد ففعلت منها لأهلي وعملت أعمالا ادخرتها لنفسي وكان إذ ذاك يبيت معنا شاب يكاشف بالجنة والنار وكانت الجماعة ترى له فضلا على صغر سنه وكان في قلبي منه شيء فاتفق أن استدعانا بعض الاخوان إلى منزله فنحن نتناول الطعام والشاب معنا إذ صاح صيحة منكرة واجتمع في نفسه وهو يقول يا عم هذه أمي في النار و يصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر فلما رأيت ما به من الانزعاج قلت اليوم أجرب صدقه فألهمني الله تعالى السبعين ألفا ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى فقلت في نفسي الأثر حق والذين رووه لنا صادقون اللهم إن هذه السبعين ألفا فداء أم هذا الشاب من النار فما استتممت هذا الخاطر في نفسي أن قال يا عم هذه أمي أخرجت من النار والحمد لله فحصل عندي فائدتان امتحاني لصدق الأثر وسلامتي من الشاب وعلمي بصدقه . ومن خاف إنسانا فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبهته على التراب و يقول يا شديد المحال يا عزيز أذللت بعزتك جميع من خلقت صل على محمد وآله واكفني فلانا بما شئت كفاه الله تعالى شره . وروى الثقفي رحمه الله تعالى باسناده إلى محمد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول لولده يا بني من أصابته مصيبة في الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل أربع ركعات أو ركعتين فاذا انصرف من صلاته يقول يا موضع كل شكوى و يا سامع كل نجوى و يا شاهد كل بلوى و يا منجي موسى والمصطفى محمد والخليل ابراهيم عليهم السلام أدعوك دعاء من اشتدت فاقته وضعفت حركته وقلت حيلته دعاء الغريب الغريق الفقير الذي لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين قال علي بن الحسين رضي الله عنهما لا يدعو به مبتلى إلا فرج الله عنه . وقيل الاسم الأعظم هو بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك يا مؤنس كل وحيد يا قريبا غير بعيد يا شاهدا غير غائب يا غالبا غير مغلوب يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام أسألك باسمك

قال صاحب التسالي والطريف : وأذكر لك هنا حكاية لطيفة فيها لفظ أمرع من كلام الحصيب أبي محمد أغرب فيه وأبدع : كنت أقرأ عليه زمن الحداثة فذكر له أني أزن الشعر فأخبرني بكلام هذا نصه أدام الله عزك ، إن بيني و بينك ما شددت عليه من بعد ذلك راحق و يحق ذا كم علينا فاعلموا من ود أمرع والحمد لله وقال لي أخرج من هذا الكلام بيتين ناميين فقلت له هذا الشعر من بحر الوافر وآخر البيت الأول حرف العين من بعده وآخره أمرع فقال أحسنت انتهى وذكر ابن خلكان في تاريخه أنه كان بين الملك العادل نور الدين و بين أبي الحسن سنان صاحب قلاع الاسماعيلية ومقدم الفرق الباطنية مكاتبات ومحاورات فكتب إليه نور الدين كتابا يهدده فيه ويتوعده بسبب اقتضى ذلك ، فشق على سنان فكتب جوابه نثرا وأبياتا منها :

يا ذا الذي بقراع السيف هددني لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده واستيقظت لأسود البر أضبعه

بسم

وقفنا على تفصيله وجمله وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله فيالله العجب من ذبابة تطن فى أذن فيل وبعوضة تعض فى التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان لهم ناصرون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، وهى عجيبة طويلة غريبة . قال صاحب التالد والطريف أنشدت بعض الاخوان الظرفاء بيتى ذى القرنين بن حمدان الحمدانى وهما :

إنى لأحسد لا فى أسطر الصحف
إذا رأيت اعتناق اللام للألف
وما أظنهما طال اعتناقهما
إلا لما لقيا من شدة الشغف

فلما سمعهما قال : وقد وقع لى فى هذين البيتين حكاية لطيفة غريبة ظريفة وهى أنى كنت أحب غلاما لطيفا أديبا ظريفا فكتبت له صورة لام ألف لا وقصدت بها ماقاله الشاعر فى البيتين فكتب ل ا مفترقين هكذا وقصد أذيق بها وأرسلها إلىّ كأنه يقول لا أمكنك من عناق أبدا فكتبت له لفظ لام هكذا وأردت مقلوب ذلك فكتب لا متصلة هكذا وأرسلها إلىّ فعلمت بذلك رضاه وتعجبت من فهمه وحذقه ، فلما اجتمعنا عتب علىّ وقال عميت الأمر علىّ وأتعبتنى ، قلت مثلك يصلح للمنادمة والمجالسة . اه . قلت : وهذه الحكاية تشبه

بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم وأسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذى عنت له الوجوه وخشعت له الأصوات ووجلت له القلوب أن تصلى على محمد وعلى آله وأن تعطينى كذا وكذا إنك على كل شىء قدير . وهذه أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البونى قيل إن فيها اسم الله الأعظم وهى هذه :

إنى لأرجو عطفة الله ولا ... أقول إن قيل متى ذاك متى ... لا بد أن ينشر ما كان طوى
جودا وأن يعطر ما كان خوى ... وربما ينشر ما كان زوى ... وربما قدر ما كان لوى
وكل شىء ينتهى إلى مدى ... والشىء يرجى كشفه إذا انتهى ... لطائف الله وإن طال المدى
كلمحة الطرف إذا الطرف رمى ... كم فرج بعد إياس قد أتى ... وكم سرور قد أتى بعد الأسى
من لاذ بالله نجا فيمن نجا ... من كل ما يخشى ونال ما رجا ... سبحان من تهفوا ويعفو دائما
ولم يزل مهما هفا العبد عفا ... يعطى الذى يخطى ولا يمنعه ... جلاله من العطا لذى الخطا

(ومن المنظوم أيضا)

يامن يرى مافى الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع ... يا من يرجى للشدائد كلها
يا من إليه المشتكى والمفزع ... يا من خزائن رزقه فى قول كن ... أمنن فان الخير عندك أجمع
ما لى سوى فقرى إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقرى أدفع ... مالى سوى قرعى لبابك حيلة
فلئن رددت فأى باب أقرع ... ومن ذا الذى أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع

حاشا لجودك أن تقنط عاصيا ... الفضل أجزل والمواهب أوسع
ثم الصلاة على النبى وآله ... خير الأنام ومن به يتشفع

(وقال آخر) يا خالق الخلق يا رب العباد ومن ... قد قال فى محكم التنزيل أدعونى
إنى دعوتك مضطرا فخذ بيدى ... يا جاعل الأمر بين الكاف والنون
نجيت أيوب من بلواه حين دعا ... بصبر أيوب ياذا اللطف نجينى
واطلق سراحى وامنن بالخلاص كما ... نجيت من ظلمات البحر ذا النون

ثم يقرأ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين قال بعضهم :

يا رب ما زال لطف منك يشملنى ... وقد تجدد بى ما أنت تعلمه
فاصرفه عنى كما عودتنى كرما ... فمن سواك لهذا العبد يرحمه

(وقال آخر)

يا من تحل بذكره ... عقد النوائب والشدائد ... يا من إليه المشتكى ... وإليه أمر الخلق عائد
يا حى يا قيوم يا ... صمد تنزه عن مضادد ... أنت الرقيب على العبا ... د وأنت فى الملكوت واحد
أنت العز لمن أطا ... عك والذل لكل جاحد ... إنى دعوتك والهمو ... م جيوشها نحوى تطارد
فافرج بحولك كربتى ... يا من له حسن العوائد ... فخفى لطفك يستعا ... ن به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسبب ... ب والمسهل والمساعد ... يسر لنا فرجا قريبا يا إلهى لا تباعد
كن راحمى فلقد يئست من الأقارب والأباعد ... ثم الصلاة على النبى وآله الغر الأماجد
وعلى الصحابة كلهم ... ما خر للرحمن ساجد

(دعاء عظيم مأثور)

اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربى

إلى من تكلنى إلى بغيض يتجهمنى أو إلى قوى ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ولكن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يارب العالمين

(ومما جاء فى أدعية الناس بعضهم لبعض) دعا رجل لآخر فقال سرك الله بما ساءك ولا ساءك فيما سرك ودعا رجل لآخر فقال لا اخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ودعاء صالح واق . ودعا أعرابى لآخر فقال رحب واديك وعز ناديك ولا ألم بك ألم ولا طاف بك عدم وسلمك الله ولا أسلمك وسمعت بعض العرب يدعو لرجل و يقول سلمك الله تعالى من الرهق والوهق وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل وسلمك الله تعالى من الشاردات والواردات وسلمك الله بين الأعنة والأسنة . ودعا أعرابى لعبد الله بن جعفر رضى الله عنه فقال لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار وتناسخت الظلم والأنوار . ودعا بعضهم لآخر فقال زودك الله تعالى الأمن فى مسيرك والسعد فى مصيرك ولا أخلاك من شهر تستجده وخير من الله تستمده وعزى شبيب بن شبة يهوديا فقال أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحدا من أهل ملتك

(ومما جاء فى الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم) دعا أعرابى على ظالم فقال لاترك الله لك شفرا ولا ظفرا أى عينا ولا يدا ومن دعاء العرب فته الله فتا وحته حتا وجعل أمره شق. وخرج أعرابى إلى سفر وكانت له امرأة تكرهه فأتبعته نواة وقالت شط نواك ونأى سفرك ثم أتبعته روثة وقالت رثتك أهلك وورث خيرك ثم أتبعته حصاة وقالت حاص رزقك وحص أثرك ودعا أعرابى على آخر فقال أطفأ الله ناره وخلع نعليه أى جعله أعمى مقعدا ودعا أعرابى على آخر فقال سقاه الله دم جوفه أى قتل ابنه وأخذ ديته فشرب لبنها ودعا أعرابى على آخر فقال بعث الله عليه سنة قاشورة تحلقه كما يحلق الشعر بالنورة . ودعا رجل على أمير فقال :

أزال الله دولته سريعا ... فقد ثقلت على عنق الليالى

(وقالت امرأة من بنى ضبة فى زوجها)

وما دعوت عليه حين ألعنه ... إلا وآخر يتلوه بآمين
فليته كان أرض الروم منزله ... وليتنى قبله قد صرت للصين

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته يوم الأحزاب اللهم كل سلاحهم واضرب وجوههم ومزقهم فى البلاد تمزيق الريح للجراد ودعا رجل فقال اللهم اكفنا أعداءنا ومن أرادنا بسوء فلتحط به ذلك السوء إحاطة القلائد بترائب الولائد ثم ارسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل وحسبنا الله ونعم الوكيل . ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك وغرقتنا فى بحار نعمتك ودعوتنا إلى دار قدسك ونعمتنا بذكرك وأنسك إلهى إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عمت و بحار الغفلة على قلوبنا قد طمت والعجز شامل والحصر حاصل والتسليم أسلم وأنت بالحال أعلم إلهى ما عصيتك جهلا بعقابك ولا تعرضا لعذابك ولكن سولتها نفوسنا وأعانتنا شقوتنا وغرنا سترك علينا وأطمعنا فى عفوك برك بنا فالآن من عذابك من ينقذنا وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا واخجلتاه غدا من الوقوف بين يديك وافضيحتاه إن عرضت اعمالنا القبيحة عليك اللهم اغفر ما علمت ولا تهتك ما سترت إلهى إن

أن تكون عن أبى زيد السروجى أو من باب التجريد . قلت مثل هذين البيتين المتقدمين قول القائل :

يا من إذا قرأ الانجيل ظل به
قلب الحريف عن الاسلام منحرفا
إنى رأيتك فى نومى تعانقنى
كما تعانق لام الكاتب الألفا

وقولى من قصيدة :

إن تنأ عمن يعانى فيك كل عنا
فحسبه صوب دمع للنوى وكفا
بالحب صيرت لاما قامتى أترى
يوما تعانق من أعطافك الألفا

وما أرق قول بعضهم فى المعنى :

حكت قامتى لاما وقامة منيتى
حكت ألفا لوصل قلت مسائلا
إذا اجتمعت لامى مع الألف التى
حكتك قواما ما يصير فقال لا

ذكر ابن خلكان فى تاريخه أنه اجتمع الامام أبو بكر محمد بن الامام داود الظاهرى وأبو العباس ابن شريح فى مجلس الوزير الجراح فتناظرا فقال ابن شريح أنت الذى تقول من كثرة لحظاته دامت حسراته أنا أبصر منك بالكلام ، فقال له أبو بكر لئن قلت ذلك فإنى أقول :

أتزه فى روض المحاسن مقلتى ... وأمنع نفسى أن تنال المحرما

كنا

كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل حيث علمنا أن لنا ربا يغفر لنا ولا يبالى إلهى تحرق بالنار وجها كان لك مصليا ولسانا كان لك ذاكرا وداعيا لا بالذى دلنا عليك وأمرنا بالخشوع بين يديك وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك فان حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك كما أن منزلته لديك أشرف المنازل سيد خلقك ومعدن أسرارك صل يا رب على محمد وآله وأصحابه وارحم عبادا غرهم طول إمهالك وأطمعهم كثرة إفضالك فقد ذلوا لعزك وجلالك ومدوا أكفهم لطلب نوالك ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثامن والسبعون فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

إعلم أن كل ما يجرى فى العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكل بقضاء الله وقدره وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته كما لا يجرى شىء من ذلك إلا وقد سبق علمه به * واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة كما أن ما فى علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب وما قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب والطلب أيضا من القدر فان تعسر شىء فبتقديره وإن اتفق شىء فبتيسيره فمن رام أمرا من الأمور ليس الطريق فى تحصيله أنه يغلق بابه عليه ويفوض أمره لربه وينتظر حصول ذلك الأمر بل الطريق أن يشرع فى طلبه على الوجه الذى شرعه الله له فيه وقد ظاهر النبى صلى الله عليه وسلم بين درعين واتخذ خندقا حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدو وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد وكان يلبس لأمة الحرب ويهيىء الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم واسترق وأمر بالرقية وتداوى وأمر بالمداواة وقال الذى أنزل الداء أنزل الدواء . فان قيل قد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من استرق أو اكتوى فهو برىء من التوكل . قلنا أليس قد قال اعقلها وتوكل . فان قيل فما الجمع بين ذلك قلنا معناه من استرق أو اكتوى متكلا على الرقية أو الكى وأن البرء من قبلهما خاصة فهذا يخرجه عن التوكل وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله وقد أمرنا بالكسب والتسبب ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام وهزى إليك بجذع النخلة فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا فى ذلك :

ألم تر أن الله قال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جنته ولكن كل شىء له سبب

وقد تقدم هذا الشعر فى باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا فلم يحمل أرزاقها إليها فى أوكارها بل ألهمها طلبها بالغدو والرواح . وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا إنهما كالعدلين على ظهر الدابة إن حمل فى واحد منهما أرجح مما فى الآخر سقط حمله وتعب ظهره وثقل عليه سفره وإن عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وتمت بغيته وضربوا فيه مثالا عجيبا فقالوا إن أعمى ومقعدا كانا فى قرية بفقر وضر لا قائد للأعمى ولا حامل للمقعد وكان فى القرية رجل يطعمهما قوتهما فى كل يوم احتسابا لله تعالى فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا بعده أياما واشتد جوعهما وبلغ الضر منهما جهده فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد فيدله المقعد

واحمل من ثقل الهوى ما لو أنه يصب على الصخر الأصم تهدما
وينطق طرفى عن مترجم خاطرى ولولا اختلاسى رده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فما أن أرى حبا صحيحا مسلما

فقال له ابن شريح ولم تفتخر علىّ ولو شئت انا أيضا لقلت :

ومساهر بالغنج من لحظاته قد بت أمنعه لذيذ سناته
ضنا بحسن حديثه وغنائه وأكرر اللحظات فى وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده ولى بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر يحفظ الوزير عليه ذلك حتى يقيم شاهدى عدل أنه ولى بخاتم ربه ، فقال أبو العباس بن شريح يلزمنى من ذلك مايلزمك فى قولك :

أنزه فى روض المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنال المحرما

فضحك الوزير وقال : جمعتما لطفا وظرفا وفهما وعلما اه . وذكر أبو بكر الخطيب أنه كان فى مدينة بغداد محلة تسمى باب الطاق كان بها سوق الطير يزعمون أنه من عسر عليه أمر أطلق طيرا فتيسر أمره ، فمر عبدالله ابن طاهر وقد طال مكثه فى بغداد ولم يأذن له الخليفة بالذهاب فمر بذلك السوق فرأى قمرية تنوح فأمر بشرائها فامتنع صاحبها

على الطريق ببصره فاشتغل الأعمى بحمل المقعد و يدور به و يرشده إلى الطريق وأهل القرية يتصدقون عليهما فنجح أمرهما ولولا ذلك لهلكا فكذلك القدر سببه الطلب والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد فى بيته لم يطأ زوجته ولم يبذر أرضه معتمدا فى ذلك على الله واثقا به أن تلد امرأته من غير مواقعة وأن ينبت الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجا ولأمر الله كارها . قال الغزالى أما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا وقال أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا وقال عبد الله بن الفرج اطلعت على إبراهيم بن أدهم وهو فى بستان بالشام فوجدته مستلقيا على قفاه و إذا بحية فى فمها باقة نرجس فما زالت تذب عنه حتى انتبه فحسبك توكل يؤدى إلى هذا . وعن عبد الله الهروى قال كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبى قبيس فقال لو أن رجلا صدق فى توكله على الله ثم قال لهذا الجبل اهتز لاهتز فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك فقال له الفضيل رحمه الله تعالى لم أعنك رحمك الله فسكن . وفى الاسرائيليات أن رجلا احتاج إلى أن يقترض ألف دينار فجاء إلى رجل من المتموّلين فسأله فى ذلك وقال له تمهل علىّ بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلانى فإنّ لى ما لا آتيك به وأوفيك منه وتكون مدّة الأجل بينى و بينك كذا وكذا فقال له هذا غرر فأنا ما أعطيك مالى إلا أن تجعل لى كفيلا إن لم تحضر طلبته منه فقال الرجل الله كفيل بمالك وشاهد علىّ أن لا أغفل عن وفائك فان رضيت فافعل فداخل الرجل خشية الله تعالى وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذى ذكره فلما قرب الأجل الذى بينه و بين صاحبه جهز المال وقصد السفر فى البحر فعسر عليه وجود مركب ومضت المدّة و بعدها أيام وهو لا يجد مركبا فاغتم لذلك وأخذ الألف دينار وجعلها فى خشبة وسمر عليها ثم قال اللهم إنى جعلتك كفيلا بإيصال هذه إلى صاحبها وقد تعذر علىّ وجود مركب وعزمت على طرحها فى البحر وتوكلت عليك فى إيصالها إليه ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال طرحها فى البحر بيده وأقام فى البلد مدّة بعد ذلك إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال فابتدأه وقال أنت سيرت الألف دينار فى خشبة صفتها كيت وكيت وعليها منقوش كذا وكذا قال نعم قال قد أوصلها الله تعالى إلىّ والله نعم الكفيل فقال فكيف وصلت إليك قال لما مضى الأجل المقدّر بينى و بينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرنى عنك فوقفت ذات يوم إلى الشط و إذا بالخشبة قد استندت إلىّ ولم أر لها طالبا فأخذها الغلام ليجعلها حطبا فلما كسرها وجد ما فيها فأخبرنى بذلك فقرأت ما عليها فعلمت أنّ الله تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل وقيل إن سبب بداية ذى النون المصرى رحمه الله تعالى أنه رأى طيرا أعمى بعيدا عن الماء والمرعى فبينما هو يتفكر فى أمر ذلك الطائر فاذا هو بسكرجتين برزتا من الأرض إحداهما ذهب والأخرى فضة هذه فيها ماء والأخرى فيها قمح فلقط القمح وشرب الماء ثم غاب بعد ذلك فذهل ذو النون وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت

(وحكى) أن رجلا من أبناء الناس كانت له يد فى صناعة الصياغة وكان أوحد أهل زمانه فساء حاله وافتقر بعد غناه فكره الإقامة فى بلده فانتقل إلى بلد آخر فسأل عن سوق الصاغة فوجد دكانا لمعلم السلطنة وتحت يده صناع كثيرون يعملون الأشغال للسلطنة وله سعادة ظاهرة ما بين مماليك وخدم وقماش وغير ذلك فتوصل الصائغ الغريب إلى أن بقى من أحد الصناع الذين فى دكان هذا

فدفع له بها خمسمائة درهم فاشتراها وأطلقها فى ذلك السوق وأنشد يقول :

ناحت مطوقة بباب الطاق
فجرت سوابق دمعى المهراق
كانت تغرّد بالأراك و ربما
كانت تغرّد فى فروع الساق
فرمى الفراق بها العراق فأصبحت
بعد الأراك تنوح فى الأسواق
فجعت بأفراخ فأسبل دمعها
إن الدموع تبوح بالأشواق
تعس الفراق و بت حبل متينه
وسقاه من سم الأساود ساقى
ماذا أراد بقصده قمرية
لم تدر ما بغداد فى الآفاق
بى مثل ما بك يا حمامة فاسألى
من فك أسرك أن يحل وثاقى

قيل إنه فى ثانى يوم أطلق ورجع إلى بلاده . وحكى عن خالد الكاتب أنه قال جاءنى يوما رسول إبراهيم فسرت إليه فوجدته على فرش قد غاص فيها ، فاستجلى وقال أنشدنى من أجود شعرك فأنشدته

رأت منه عينى منظرين كما رأت
من الشمس والبدر المنير على الأرض
عشية حيانى بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن إلى بعض
ونازعنى كأسا كأن حبابها

المعلم وأقام يعمل عنده مدة وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة وتكون أجرة عمله تساوى عشرة دراهم فيكسب عليه ثمانية دراهم فى كل يوم فاتفق أن الملك طلب المعلم وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص فى غاية من الحسن قد عملت فى غير بلاده كانت فى يد إحدى محاظيه فانكسرت فقال له الحمها فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه فى عملها لما أخذها وأراها للصناع الذين عنده وعند غيره فما قال له أحد إنه يقدر على عملها فازداد المعلم لذلك غما ومضت مدة وهى عنده لا يعلم ما يصنع فاشتد الملك على إحضارها وقال هذا المعلم نال من جهتنا هـذه النعمة العظيمة ولا يحسن أن يلحم سوارا فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال فى نفسه هـذا وقت المروءة اعملها ولا أؤاخذه ببخله على وعدم إنصافه ولعله يحسن إلى بعد ذلك فحط يده فى درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت ونظم عليها جواهرها فعادت أحسن ما كانت فلما رآها المعلم فرح فرحا شديدا ثم مضى بها الى الملك فلما رآها استحسنها وادعى المعلم أنها صنعته فأحسن إليه وخلع عليه خلعة سنية فجاء وجلس مكانه فبقى الصانع يرجو مكافأته عما عامله به فما التفت اليه المعلم ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئا فما مضت إلا أيام قلائل واذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة فطلب المعلم ورسم له بكل مايحتاج اليه وأكد عليه فى تحسين الصفة وسرعة العمل فجاء الى الصانع وأخبره بما قال الملك فامتثل مرسومه ولم يزل منتصبا الى أن عمل الزوجين وهو لا يزيده شيئا على الدرهمين فى كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير ولا يتجمل معه فرأى المصلحة أن ينقش على زوج منهما أبياتا يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك فنقش فى باطن إحداهما هذه الأبيات نقشا خفيفا يقول:

مصائب الدهر كفى　　ان لم تكفى فعفى
خرجت أطلب رزقى　　وجدت رزقى توفى
فلا برزقى أحظى　　ولا بصنعة كفى
كم جاهل فى الثريا　　وعالم متخفى

قال وعزم الصانع على أنه ان ظهرت الأبيات للمعلم شرح له ما عنده وان غم عليه ولم يرها كان ذلك سبب توصله الى الملك ثم لفهما فى قطن وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة ولما سبق له فى القضاء فأخذهما المعلم ومضى بهما فرحا الى الملك وقدمهما اليه فلم يشك الملك فى أنهما صنعته فخلع عليه وشكره ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت الى الصانع وما زاده فى آخر النهار شيئا على الدرهمين فلما كان اليوم الثانى خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التى عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما فى يديها فأخذهما ليعيد نظره فيهما وفى حسن صنعتهما فقرأ الأبيات فتعجب وقال هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب فغضب عند ذلك وأمر باحضار المعلم فلما حضر قال له من عمل هذين السوارين قال أنا أيها الملك قال فما سبب نقش هذه الأبيات قال لم يكن عليهما أبيات قال كذبت ثم أراه النقش وقال ان لم تصدقنى الحق لأضربن عنقك فأصدقه الحق فأمر الملك باحضار الصانع فلما حضر سأله عن حاله فحكى له قصته وما جرى له مع المعلم فرسم الملك بعزل المعلم وأن تسلب نعمته وتعطى للصانع وأن يكون عوضا عنه فى الخدمة ثم خلع عليه خلعة سنية وصار مقدما سعيدا فلما نال هذه الدرجة وتمكن عند الملك تلطف به حتى رضى عن المعلم الأول وصارا شريكين ومكثا على ذلك الى آخر العمر ورحم الله من قال:

إذا كان سعد المرء فى الدهر مقبلا　　تدانت له الأشياء من كل جانب

وقال آخر:

ما سلم الله هو السالم　　ليس كما يزعم الزاعم

دموعى لما صدعن مقلتى غمضى　　وراح فكل الراح فى حركاته كفعل نسيم الريح فى الغصن الغض

فزحف حتى صار فى ثلثى الفراش وقال يافتى شبهوا الخدود بالورد وأنت شبهت الورد بالخدود فزدنى فأنشدته:

عاتبت نفسى فى هواك فلم　　أجدها تقبل
وأطعت داعيها إليك ولم　　أطع من يعذل
لا والذى جعل الوجوه　　بحسن وجهك تمثل
لا قلت إن الصبر عنك　　من الصبابة أجمل

فزحف حتى انحدر من الفراش واستخف طربا ثم قال لخادمه: كم معك لنفقتنا، قال: ثمانمائة وخمسون درهما، فقال له اقسمها بينى وبين خالد فدفع لى نصفها وانصرفت

لطيفة جاز بعض الطفيلية على باب دار فعزمه شيخها وأدخله عنده وأجلسه فى المكان منفردا ثم استدعى بجاريتين إحداهما صفراء والأخرى سوداء، ودفع لكل واحدة مزهرا وقال لهما أضربا له عليهما وغنيا وشاغلاه ثم ذهب الشيخ وبقى الضيف والجاريتان فلما اشتد به الجوع ومضى النهار ولم ير للطعام رائحة كتب فى مكان الشيخ هذين البيتين:

يادعوة كانت علينا دعوة　　عز الطعام بها وغيض الماء
سودا وصفرا كما غنين لى　　لعبت بى السوداء والصفراء

يحكى أن شهاب الدين الخفاجى

تجري المقادير التي قدرت   وأنت من لا يرتضي راغم

(وقال كعب بن زهير)

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني   سعي الفتى وهو مخبوء له القدر   يسعى الفتى لأمور ليس يدركها
والنفس واحدة والهم منتشر   والمرء ما عاش ممدود له أمل   لا ينتهي ذاك حتى ينتهي العمر

وروى في الإسرائيليات أن نبيا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مر بفخ منصوب وإذا بطائر قريب منه فقال له الطائر يا نبي الله هل رأيت أقل عقلا ممن نصب هذا الفخ ليصيدني به وأنا أنظر إليه قال فذهب عنه ذلك النبي عليه السلام ثم رجع وإذا بالطائر في الفخ فقال له عجبا لك ألست القائل كذا وكذا آنفا فقال يا نبي الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين. ويروى أن رجلا قال لبزرجمهر تعال نتناظر في القدر قال وما تصنع بالمناظرة قال رأيت شيئا ظاهرا استدللت به على الباطن رأيت جاهلا مبرورا وعالما محروما فعلمت أن التدبير ليس للعباد. ولما قدم موسى بن نصر بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك في يد سليمان فقال إن الهدهد ينظر إلى الماء في الأرض على ألف قامة ويبصر القريب منه والبعيد على بعد في التخوم ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وأنشدوا في ذلك :

وإذا خشيت من الأمور مقدرا   وفررت منه فنحوه تتوجه
(وقال آخر) : أقام على السير وقد أنيخت   مطاياه وغرد حاديها
وقال أخاف عادية الليالي   على نفسي وأن ألقى رداها
مشيناها خطا كتبت علينا   ومن كتبت عليه خطا مشاها
ومن كانت منيته بأرض   فليس يموت في أرض سواها

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد في منطقته كتاب فيه إذا كان القضاء حقا فالحرص باطل وإذا كان الغدر في الناس طباعا فالثقة بكل أحد عجز وإذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة إلى الدنيا حمق وقال ابن عباس وجعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى وكان تحته كنز لهما إنما كان الكنز لوحا من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله (وحكى) الطرطوشي رحمه الله تعالى في كتابه سراج الملوك قال من عجيب ما اتفق بالاسكندرية أن رجلا من خدم نائب الاسكندرية غاب عن خدمته أياما ففي بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب فانفلت في بعض الطرق وترامى في بئر والمدينة إذ ذاك مسردبة بسرداب يمشي الماشي فيه قائما فما زال الرجل يمشي إلى أن لاحت له بئر مضيئة فطلع منها فإذا البئر في دار النائب فلما طلع أمسكه النائب وأدبه فكان فيه المثل السائر : الفار من القضاء الغالب كالمتقلب في يد الطالب وأنشدوا فيه :

قالوا تقيم وقد أحا   ط بك العدو ولا تفر   لا نلت خيرا إن بقيـ   ـت ولا عداني الدهر شر
إن كنت أعلم أن غير الله ينفع أو يضر

الباب التاسع والسبعون في التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة وأمر الله تعالى بالتوبة فقال

وتوبوا

الصرى شرب الدخان هو وجماعة فاعترض عليهم شيخي زاده فكتب له الشهاب بقوله :

إذا شرب الدخان فلا تلمنا   وجد بالعفو يا روض الأماني
تريد مهذبا لا عيب فيه   وهل عود يفوح بلا دخان

فأجابه شيخي أفندي بقوله :

إذا شرب الدخان فلا تلمني   على لومي لأبناء الزمان
أريد مهذبا من غير ذنب   كريح المسك فاح بلا دخان

وحكي عن شرف الدين ابن الشريحي أنه اجتمع هو وشهاب الدين في ليلة أنس عند الملك الناصر فاتفق أن قام شرف الدين إلى الطهارة وعاد فأمره الناصر بالاشارة أن يصفع شهاب الدين ، فلما صفعه أمسك التلعفري بذقن شرف الدين وأنشد سريعا وذقنه بيده :

قد صفعنا بذا المحل الشريف   وهو إن كان يرتضي تشريفي
فارث للعبد من مصيف طباع   يا ربيع الندى والاخريف

فانقلب المجلس ضحكا . وروى أن ابن القطان الشاعر البغدادي دخل ذات يوم على الوزير الرضي وعنده الحيص بيص الشاعر المشهور فقال ابن القطان قد نظمت بيتين لا يمكن أن يعمل لهما ثالث لأني قد استوفيت المعنى

وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون . ووعد بالقبول فقال تعالى : وهو الذى يقبل التوبة عن عباده وفتح باب الرجاء فقال يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وروى فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإنى أتوب إلى الله تعالى فى اليوم مائة مرة . وروى أحمد بن عبد الرحمن السلمانى قال اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم فقال الثانى أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وأنا سمعته يقول إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم فقال الثالث أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وأنا سمعته يقول إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحوة أو قال بضجعة فقال الرابع أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وأنا سمعته يقول : إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال أرجع إلى المكان الذى ضللتها فيه وأموت فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه فالله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده. وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة رواه البخارى. وعن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها رواه مسلم . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه رواه مسلم . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال : لا فقتله وكمل به المائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له : إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ومن يحل بينك وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاءنا تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك فى صورة آدمى فحكموه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو أقرب لها فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة متفق عليه . وفى الصحيحين : فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشبر فجعل من أهلها . وعن أبى نجيد بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعى رضى الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى حبلى من الزنا فقالت يا رسول الله أصبت حدا فأقمه على فدعا نبى الله صلى الله عليه وسلم فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال عمر يارسول الله تصلى عليها وقد زنت قال : لقد تابت

فيهما ، فقال له الوزير ما هما فأنشده :

زار الخيال بخيلا مثل مرسله
فما شفانى منه الضم والتقبيل

مازارنى قط إلا كى يوافقنى
على الرقاد فينفيه ويرتحل

فقال الوزير للحيص بيص وما درى أن نومى حيلة نصبت لطيفة حين أعيا اليقظة الحيل . ومما يشاكل ذلك ما اتفق للوزير القوصى وقد أنشد ابن المرصص بيتين بين يديه نظمهما فى جارية حسناء كاملة للمعانى والأوصاف وزعم أنه لا ثالث لهما وهما :

تبدت فهذا البدر منكسف بها
وحقك مثلى فى دجى الليل حائر

وماست فشق الغصن غيظا ثيابه
ألست ترى أوراقه تتناثر

فأطرق الوزير يسيرا وقال :

وفاحت فألقى العود فى النار نفسه
كذا نقلت عنه الحديث المجامر

وقالت فغار الدر واصفر لونه
كذلك ما زالت تغار الضرائر

وكان فى المجلس النواجى الشاعر فأنشد ارتجالا :

وغنت فظل الجنك يطرق نفسه
وجادت لها بالروح منها المزامر

ومن لحظها المندى فى غمده اختفى
وظبى الفلا فى لفتة وهو نافر

ومن وجنتيها الورد راح بخجلة

توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت أفضل ممن جادت بنفسها لله عز وجل رواه مسلم . وعن أبي بصرة قال : لقيت مولى لأبي بكر رضي الله عنه فقلت له : سمعت من أبي بكر شيئا قال نعم سمعته يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصر من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة (وحكي) أن نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أتته امرأة حسناء تشترى تمرا فقال لها : هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له : اتق الله فتركها وندم على ذلك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى : والذين إذا فعلوا فاحشة إلى آخر الآية . وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال : سمعت عليا يقول : إني كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله حديثا ينفعني الله منه بما شاء ينفعني و إذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لي صدقته و إنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول : ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ويصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له. وروى في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا أذنب العبد ذنبا فقال يارب أذنبت ذنبا فاغفره لي قال الله عز وجل : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم إذا مكث ماشاء الله وأصاب ذنبا آخر فقال يارب أذنبت ذنبا فاغفره لي قال ربه علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ماشاء. وكان قتادة رضي الله تعالى عنه يقول : القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم أما دواؤكم فالاستغفار وأما داؤكم فالذنوب . وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول : العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة قيل : وما هي ؟ قال : الاستغفار . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال عشرا حين يصبح وحين يمسي أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج . ومن قال : سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ولو كانت مثل دبيب النمل . وقال أبو عبد الله الوراق : لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر وزبد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار وهو هذا : اللهم إني أسألك وأستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي ثم لم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك يقول الله عز وجل لملائكته : ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرني فأغفر له ثم يذنب الذنب فيستغفرني فأغفر له لا هو يترك الذنب من مخافتي ولا ييأس من مغفرتي أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له . وقال بشر الحافي : بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين ترفقوا عليه سبع ساعات فإن استغفرني فلا تكتبوها وإن لم يستغفرني فاكتبوها (نكتة) قيل : انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات وهلك الحيوان فخرج موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلا من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجري على خدودهم ثلاثة أيام فلم تمطر لهم فقال موسى : اللهم أنت القائل ادعوني أستجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل فأوحى الله تعالى إليه يا موسى إن فيهم من غذاؤه حرام وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة

ذكر ابن شاكر الكتبي في تاريخه في ترجمة شمس الدين بن عفيف الدين التلمساني أن جماعة من أهل الأدب اجتمعوا وعملوا سماعا وفيهم غلمان حسان فبعثوا منهم غلاما مليحا إلى الشيخ عفيف الدين يطلبون شمس الدين للحضور، فلما جاء الرسول كتب عفيف الدين على يده :

أرسلتما لي رسولا في رسالته حلو المراشف والأعطاف والهيف
وقد تمادى يسيرا ذاك أنكما أوقدتما النار في أحشاء ذي دنف

فلما حضر والده شمس الدين وأخبره بالقضية كتب إلى والده :

مولاي كيف اثني عنك الرسول ولم تكن لوردة خديه بمقتطف
جاءتك من بحر ذاك الحسن لؤلؤة فكيف ردت بلا ثقب إلى الصدف

ومما نقلته من التاريخ المذكور أن علية بنت المهدي العباسية أخت أمير المؤمنين هرون الرشيد كانت من أحسن خلق الله وجها وأظرف النساء وأعقلهن ذات صيانة وأدب بارع ، تزوجها موسى بن عيسى العباسي ، وكان الرشيد يبالغ في إكرامها

وهؤلاء

وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب فقال موسى : ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا فقال الله تعالى يا موسى لست بهتاك ولا نمام ولكن ياموسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبوا معكم فأجود بأنعامى عليكم فنادى منادى موسى فى بنى إسرائيل أن اجتمعوا فاجتمعوا فأعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه والعصاة يسمعون فذرفت أعينهم ورفعوا مع بنى إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين ورجعنا إلى بابك طالبين فارحمنا يا أرحم الراحمين فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يارب العالمين . أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام ياداود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتى ياداود هذه إرادتى فى المدبرين عنى فكيف إرادتى بالمقبلين على ولقد أحسن من قال :

أسئ فيجزى بالاساءة إفضالا وأعصى فيوليني برا وإمهالا
فحتى متى أجفوه وهو يبرنى وأبعد عنه وهو يبذل إيصالا
وكم مرة قد زغت عن نهج طاعة ولاحال عن ستر القبيح ولا زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى فى هذا الباب والله أعلم بالصواب

الباب الثمانون فيما جاء فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء
وما جاء فى السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول

[الفصل الأول فى الأمراض والعلل وما جاء فى ذلك من الأجر والثواب] روى عن عبد الله ابن أنيس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم ، فقالوا كلنا يا رسول الله . قال أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوالة ، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات ، والذى بعثنى بالحق نبيا إن الرجل لتكون له الدرجة فى الجنة فلا يبلغها بشىء من عمله ، فيبتليه الله تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله . وقال صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يمرض مرضا إلا حط الله من خطاياه كما تحط الشجرة ورقها ، وكان يقول لا تزال الأوصاب والمصائب بالعبد حتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة . وقيل إن الناس قد حموا فى فتح خيبر ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيها الناس إن الحمى رائد الموت وسجن الله فى الأرض وقطعة من النار ، فاذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء فى الشنان ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء ، ففعلوا ذلك فزالت عنهم . وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على شاب وهو فى الموت فقال له كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال عليه الصلاة والسلام هما لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله مايرجو وآمنه مما يخاف . وعن عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة رحمها الله تعالى أنها سمعت رجلا يقول ما أشد العمى على من كان بصيرا فقالت له يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا والله لوددت أن الله وهب لى كنه معرفته ولم يبق منى جارحة إلا أخذها . وكتب مبارك لأخيه سفيان الثورى يشكو إليه ذهاب بصره فكتب إليه : أما بعد فقد فهمت كتابك فيه شكاية ربك فاذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام . وقيل لعطاء فى مرضه ما تشتهى قال ما ترك خوف جهنم فى قلبى موضعا للشهوة . وأصاب ابن أدهم بطن فتوضأ فى ليلة سبعين مرة. وقيل لأعرابى فى مرضه ما تشتهى ، قال الجنة فقيل أفلا ندعوا لك طبيبا . قال طبيبى هو الذى أمرضنى.

واحترامها ، ولها ديوان شعر ، عاشت خمسين سنة وتوفيت سنة عشر ومائتين وكان سبب موتها أن المأمون سلم عليها وضمها إلى صدره وجعل يقبل رأسها ووجهها مغطى ، فشرقت من ذلك وماتت بعد أيام يسيرة ، وكانت تتغزل بشعرها فى خادمين اسم الواحد طل والآخر رشاء فمن قولها فى طل وصحفت اسمه :

أيا سروة البستان طال تشوقى
فهل لى إلى ظل لديك سبيل
متى يلتقى من ليس يقضى خروجه
وليس لمن يهوى إليه وصول

فبلغ الرشيد ذلك فحلف أنها لا تذكره أبدا ، ثم تسمع عليها الرشيد يوما فوجدها وهى تقرأ فى آخر سورة البقرة حتى بلغت قوله تعالى : فإن لم يصبها وابل فقالت فإن لم يصبها وابل فالذى نهى عنه أمير المؤمنين ، فدخل الرشيد وقبل رأسها وقال لها : قد وهبتك طلا ولا منعتك بعد هذا مما تريدين. وكانت من أعف الناس ، كانت إذا طهرت لازمت المحراب ، وإن لم تكن طاهرة غنت ، ولما خرج الرشيد إلى الرى أخذها معه ، فلما وصل إلى المرج نظمت قولها :

ومشتهر بالمرج يبكى لشجوه وقد غاب عنه المسعدون على الحب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنشق يستشفى برائحة الركب

الفصل الثاني من هذا الباب في ذكر العلل كالبخر والعرج والعمى والصمم والرمد والفالج وغير ذلك . نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة

قيل تسار أبخر وأصم فقال له الأصم : قد فهمت ثم فارقه . فسأله رجل فقال والله لا أدرى غير أنه فسا في أذني . وقيل إن عبد الملك بن مروان كان أبخر فعض يوما على تفاحة ورمى بها إلى زوجته ، فدعت بسكين فقال ما تصنعين بها قالت أميط الأذى عنها فشق عليه ذلك منها فطلقها . وسار أبو الأسود الدؤلي سليمان بن عبد الملك وكان أبو الأسود أبخر ، فستر سليمان أنفه بكمه فعبر أبو الأسود وهو يقول لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر . وقيل طول انطباق الفم يورث البخر وكل رطب الفم سائل اللعاب سالم منه . وقيل إن الزنج أطيب الناس أفواها . والسباع موصوفة بالبخر والمثل مضروب بالأسد والصقر في البخر والكلب من بينهما طيب الفم وليس في البهائم أطيب أفواها من الظباء (وحكى) أن أبخر تزوج بامرأة فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها ثم أنشدت تقول :

يا حب والرحمن إن فاكا أهلكني فولني قفاكا إذا غدوت فاتخذ مسواكا
من عرفط إن لم تجد أراكا لا تقربني بالذي سواكا إني أراك ماضغا خراكا

وفي ديوان المنثور : كم من ذي عرج في درج المعالي عرج ، وكم من صحيح قدم ليس له في الخير قدم . وقيل إن من الصم من يسمع السر ، فاذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه . ورأيت من العمش من لا يحظر صورة الانسان من قريب . ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشي . وقيل إن طريفا الشاعر مدح عمرو بن هداب وكان أبرص فلما انتهى إلى قوله :

* أبرص فياض اليدين مهذب * صاح به الناس وقالوا : قطع الله لسانك . فقال عمرو مه إن البرص مما تتفاخر به العرب . أما سمعتم قول سهل حيث قال :

أيشتمني زيد بأن كنت أبرصا وكل كريم لا أبالك أبرص
(وقال) كفى حزنا أني أعاشر معشرا يخوضون في بعض الحديث وأمسك
وما ذاك من عي ولا من جهالة ولكنه ما في للصوت مسلك
فإن سد مني السمع فالله قادر على فتحه والله للعبد أملك

(ومما جاء في العمى) ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من عدم إحدى كريمتيه ضمنت له على الله الجنة . وكان أبو عبد الرحمن بن الحرث بن هشام يطعم الطعام وكان أعور ، فجعل أعرابي يطيل النظر إليه حابسا نفسه عن طعامه فكلمه المغيرة في ذلك فقال له : والله إني ليعجبني طعامك وتريبني عينك قال : فما يريبك من عيني قال : أعور وأراك تطعم الطعام وهذه صفة الدجال فقيل له : إن عينه أصيبت في فتح الروم فقال : إن الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله. وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار . وقال علي كرم الله وجهه : ربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده . وقال أبو علي البصير :

لئن كان يهديني الغلام لوجهتي ويقتادني في السير إذ أنا راكب
لقد يستضيء القوم بي في وجوههم ويخبو ضياء العين والقلب ثاقب
(وقال) إذا عدمت طلابة العلم مالها من العلم إلا ما تسطر في الكتب
غدوت بتشمير وجد عليهم ومحبرتي سمعي وها دفتري قلبي
(وقال) إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وسمعي منهما نور

وغنت بهما ، فلما سمع الرشيد الصوت علم أنها قد اشتاقت إلى العراق وأهلها فأمر بردها ، ومن شعرها :

إني كثرت عليه في زيارته فمل والشيء مملول إذا كثرا
ورابني منه أني لا أزال أرى في طرفه قصرا عني إذا نظرا

انتهى . لطيفة يحكى أن عبدالملك بن مروان جمع عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة وجميل بثينة وأحضر لديه ناقة موقرة دراهم وقال ينشد كل واحد منكم بيتا في الغزل فأيكم كان أبدع فهي له بما عليها ، فقال جميل :

ولو أن راقي الموت يرقي جنازتي بمنطقها في العالمين حييت

وقال كثير :

وسمى إلي بعيب عزة نسوة جعل الإله خدودهن نعالها

وقال عمر بن أبي ربيعة :

فليت الثريا في المنام ضجيعتي لدى الجنة الخضراء أو في جهنم

فقال له عبدالملك : خذها يا صاحب جهنم والثريا هي بنت علي بن عبد الله والأموية تزوجها سهل ابن عبدالرحمن بن عوف الزهري فقال فيه عمر :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يماني

فهي

فهى ذكى وقلبى غير ذى غفل ... وفى فمى صارم كالسيف مشهور
(وقال) عزاءك أيها العين السكوب ... وحقك إنها نوب تنوب
وكنت كريمتى وسراج وجهى ... وكانت لى بك الدنيا تطيب
على الدنيا السلام فما لشيخ ... ضرير العين فى الدنيا نصيب
يموت المرء وهو يعد حيا ... ويخلف ظنه الأمل الكذوب
إذا ما مات بعضك فابك بعضا ... فإن البعض من بعض قريب

(وحكى) أن ربيعة رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول :

عينا ربيعة رمداوان فاحتسبى ... بنظرة منك تشفيه من الرمد
إن تكتحل بك عيناه فلا رمد ... على ربيعة يخشى آخر الأمد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : داء الأنبياء الفالج واللقوة . قال الجاحظ : ومن المفاليج سيدنا ادريس عليه الصلاة والسلام وأكثر ما يعترى المتوسطين من الناس لأن الشاب كثير الحرارة والشيخ كثير اليبس . وقيل إن إبان بن عثمان كان أفلج حتى صار مثلا ، فكانت الناس تقول لا رماك الله بفالج ابن عثمان . وكان معاوية أوقص وعبد الملك ابن مروان أبخر وحسان أعمى وابن سيرين أصم . وممن فلج ابن أبى داود قاضى قضاة المعتصم كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة قد ضرب المثل بفالجه . قال الشاعر فى رجل ضرب غلامه :

أتضرب مثله بالسوط عشرا ... ضربت بفالج ابن أبى داود

وشجة عبد الحميد كانت مثلا فى الحسن وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهم ، وكان بارعا فى الحسن والجمال فزادته حسنا إلى حسنه حتى أن النساء كن يخططن فى وجوههن شجة عبد الحميد . وكان يقال لعمر بن عبد العزيز أشج بنى أمية . وكان عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول: إن من ولدى رجلا بوجهه أثر فى جبهته . قال أصبغ : الله أكبر هذا أشج بنى أمية يملأ الأرض عدلا . وقال أعور لأبى الأسود ما الشىء ونصف الشىء ولا شىء . فقال : أما الشىء فالبصير كأنا وأما لا شىء فالأعمى وأما نصف الشىء فأنت يا أعور . اللهم اكفنا شر العاهات برحمتك ومنك وكرمك آمين .

[الفصل الثالث من هذا الباب فى التداوى من الأمراض والطب] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تداووا فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أنزل الله داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدواء والرقى هل يردان شيئا من قضاء الله تعالى قال هما من قدر الله تعالى . وقال عبد الله بن عكرمة عجبت لمن يحتمى من الطعام خوف الداء ولا يحتمى من الذنوب خوف النار . وقيل إن الربيع ابن خيثم لما مرض قالوا له ألا ندعوا لك طبيبا فقال لهم إن مرضى من الطبيب وأنه متى أراد عافانى ولا حاجة لى بطبيبكم وأنشد :

فأصبحت لا أدعو طبيبا لطبه ... ولكننى أدعوك يا منزل القطر

وعاد الفرزدق مريضا فقال :

يا طالب الطب من داء تخوفه ... إن الطبيب الذى أبلاك بالداء
فهو الطبيب الذى يرجى لعافية ... لا من يذيب لك الترياق بالماء

قال ولما مرض بشر الحافى رحمه الله تعالى قالوا ندعوا لك طبيبا فقال إنى بعين الطبيب يفعل بى

وكان يتشبب بذكرها كثيرا . وحكى أنها وعدته يوما فجاءت فى الوقت الذى وعدته به ، فصادفت أخاه الحرث قد نام مكانه ، فلم يشعر الحرث إلا والثريا قد ألقت نفسها عليه ، فانتبه وجعل يقول أعزبى عنى فلست بالفاسق ، أخزاكما الله ، فانصرفت فلما جاء عمر أخبره الحرث بذلك فاغتم لفواتها وقال له : أيم الله لا تمسك أبدا وقد ألقت نفسها عليك فقال له الحرث : عليك وعليها لعنة الله . ومات عمر بعد أن تاب وأحسن التوبة ، وقد عاش ثمانين سنة ويقال إنه تغزل أربعين سنة وتنسك أربعين سنة رحمه الله تعالى . روى أنه عرضت جارية على الرشيد ليشتريها فطلب بها البائع مبلغا جليا . فقال الرشيد أنا أعرض عليها بيتا إن أجابت عنه أعطيتك ما تقول وزدتك والتفت إليها وقال : ماذا تقولين فيمن أرق من أجل حبك حتى صار حيرانا ، فقالت بديها :

إذا رأينا محبا قد أضر به ... أمر الصبابة أوليناه إحسانا

فأعجبه جوابها واشتراها ومن اللطائف ما حكى عن الشيخ يحيى الساحلى أنه لما قدم دمشق الشام وقرأ فى الجامع الأموى نظر إلى غلام بديع الجمال فوقع حبه فى قلبه فافتتن به فسأل عنه فأخبر عن أبيه وكان ممن يتردد إلى الشيخ فاجتمع معه وقال له لم لا تحضر ولدك يتعلم

ما يريد . فألح عليه أهله وقالوا لا بد أن تدفع ماءك إلى الطبيب فقال لأخته ادفعى إليهم الماء فى قارورة . وكان بالقرب منهم رجل ذمى وكان حاذقا فى الطب فأتوه بمائه فى القارورة فلما رآه قال حركوه فحركوه ثم قال ضعوه ثم قال ارفعوه فقالوا له ما بهذا وصفت لنا قال وبم وصفت لكم قالوا بالحذق والمعرفة قال هو كما تقولون غير أن هذا الماء إن كان ماء نصرانى فهو راهب قد فتتت كبده العبادة وإن كان مسلما فهو ماء بشر الحافى فانه أوحد أهل زمانه فى السلوك مع الله تعالى قالوا هو ماء بشر الحافى فأسلم النصرانى وقطع زناره . فلما رجعوا إلى بشر قال لهم أسلم الطبيب فقالوا ومن أعلمك قال لما خرجتم من عندى هتف بى هاتف وقال يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب وصار من أهل الجنة . وفلج الربيع بن خيثم فقيل له هلا تداويت فقال قد عرفت أن الدواء حق ولكن عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيرا كانت فيهم الأوجاع كثيرة والأطباء أكثر فلم يبق المداوى ولا المداوى وقد أبادهم الموت ثم قال هذا المفرد :

هلك المداوى والمداوى والذى جلب الدواء وباعه والمشترى

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة أما تتعالج فقال إذا كان الداء من السماء بطل الدواء من الأرض وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المربوب ومرقوه بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات مطيبات وهن من أجمل الناس فأحبوا أن يروهن فحكوا ساق أحدهم حتى أدموها ثم قصدوهن فقالوا هذا جريح مريض فهل من طبيب فخرجت صغراهن وهى كأنها الشمس الطالعة فلما رأت جرحه قالت ليس هو بمريض بل خدشه عود بالت عليه حية فاذا طلعت الشمس مات فكان الأمر كما قالت . وقيل دواء كل مريض بعقاقير أرضه فان الطبيعة تتطلع لهوائها . وقالوا من قدم إلى أرض غير أرضه وأخذ من ترابها وجعله فى مائها وشرب به لم يمرض فيها وعوفى من وبائها . واحتمى أحمد بن المعدل لعلة أصابته فبرىء فقال الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا تبرئهم من المرض ولأهل الآخرة تبرئهم من النار . وقيل إن الأبدان المعتادة بالحمية آفتها التخليط والمعتادة بالتخليط آفتها الحمية لأن الحكماء تقول عودوا كل جسد بما اعتاد . وكان كسرى أنو شروان يمسك عما تميل إليه شهوته ولا ينهمك عليه . ويقول تركنا ما نحبه لنستغنى عن العلاج بما نكرهه . وقال لقمان لا تطيلوا الجلوس على الخلاء فانه يورث الباسور . وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحشوش أى الكنف . وقيل كفى بالمرء عارا أن يكون صريع مأكله وقتيل أنامله

فكم أكلة أكلت نفس حر وكم أكلة جلبت كل ضر

وقيل من غرس الطعام أثمره الأسقام . وعن بعض أهل البيت النبوى عليهم السلام أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم والعسل واستوهب من مهر أهله شيئا وكان يقول : قال الله تعالى وأنزلنا من السماء ماء مباركا وقال تعالى فيه شفاء للناس وقال عليه الصلاة والسلام : ماء زمزم لما شرب له وقال تعالى فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا فمن جمع بين ما بورك فيه وبين ما فيه شفاء وبين الهنى المرى يوشك أن يلق العافية . وقيل خمسة من المهلكات : دخول الحمام على الشبع والمجامعة على الشبع وأكل القديد وشرب الماء البارد على الريق ومجامعة المرأة العجوز . وقال لا تنكح العجوز ولا تخرج النغم وأنت مستغن عن إخراجه . وقال الامام على رضى الله عنه :

توق مدى الأيام إدخال مطعم على مطعم من قبل هضم الطعام

وكل طعام يعجز السن مضغه فلا تقربنه فهو شر لطاعم

عندى العلم ، فقال له إنه يحضر علم الحساب عند بعض المشايخ فقال أنا أقرأ قبل شيخه فإذا حضر عندى يكون محصلا للفضيلتين فأجابه لذلك وأمر ابنه بما ذكر فتوجه الغلام عند الشيخ يحيى فأجلسه بجانبه وأطال القراءة فى ذلك اليوم أكثر من الأيام الماضية فلما انقضى الدرس وأراد الغلام الانصراف لقراءة علم الحساب دفع له الشيخ يحيى رقعة وقال ادفعها إلى شيخك ، فلما حضر قال له ما أبطأك عن الحضور فأخبره بالقصة ودفع له الرقعة فإذا فيها :

ياجاعلا علم الحساب وسيلة تصطاد فيه فائق الألباب

كنت فى علم الحساب رزقته فالله يرزقنا بغير حساب

فكتب له على ظهر الرقعة وأمره أن لا يحضر عنده بعدها فأخذ الغلام الرقعة ودفعها للشيخ يحيى فإذا فيها :

لموت به ظبيا غريرا مهفهفا ومذ صار تيسا بعته للمسالحى

ومما نقلته أن أحد أمراء العرب كان عنده جماعة من أجلاء العرب ، فقام صاحب المنزل إلى الطهارة وعاد وهو قابض بيده على شيء من تحت ثوبه كهيئة المستبرىء من البول ودخل على الجماعة وهو على تلك الصفة وقال من يأخذ الذى بيده إلى زوجته ، فأطرق القوم خجلا

ووفر على الجسم الدماء فإنها لقوة جسم المرء خير الدعائم
وإياك أن تنكح طواعن سنهم فإن لها سما كسم الأراقم
وفي كل أسبوع عليك بقيئة تكن آمنا من شر كل البلاغم

ومما يورث الهزال النوم على غير وطاء وكثرة الكلام برفع الصوت. وقال النظام رحمه الله تعالى: ثلاثة تخرب العقل: طول النظر في المرآة وكثرة الضحك والنظر إلى النجوم. وفي الحديث: احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أم مغيث وهي وسط الرأس وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحتجم في الأخدعين ونهى عن الحجامة في نقرة القفا فإنها تورث النسيان وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور. وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال فقال في آخر خطبته: من كان يشكو سعالا فليتداو بالحل ففعلوا فعافاهم الله. وقال بعض الحكماء: إياك أن تطيل النظر في عين أرمد وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك فرب شظية حقيرة قلعت عينا خطيرة وقيل كانت الأدوية تنبت في محراب سليمان عليه الصلاة والسلام ويقول كل دواء يا نبي الله أنا دواء لكذا وكذا. وقال جالينوس البطنة تقتل الرجال وتورث الفالج والاسهال الذريع والاقعاد وصنفا من الجذام يقال له الفهد لا يسمع صاحبه ولا يبصر. نسأل الله العفو والعافية. وقيل البطنة تورث الصداع والكنة في العينين والضربان في الأذنين والقولنج في البطن. فعليك أيها الانسان بالطريقة الوسطى واتق الليل وطعامه جهدك. وقال جالينوس الغم المفرط يميت: يغلب ويجمد الدم في العروق فيهلك صاحبه، والسرور المفرط يلهب حرارة الدم حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه. وقيل إنه وضع على مائدة المأمون في يوم عيد أكثر من ثلاثين لونا فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته فقال يحيي ابن أكثم يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته أو في النجوم فأنت هرمس في صناعته أو في الفقه فأنت على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في علمه أو في السخاء فأنت حاتم في كرمه أو في الحديث فأنت أبو ذر في صدق لهجته أو في الوفاء فأنت السموءل ابن عادياء في وفائه فسر بكلامه وقال: يا أبا محمد إنما فضل الانسان على غيره بالعقل ولولا ذلك لكانت الناس والبهائم سواء. وقال طبيب الهند: إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر. وقال سفيان بن عيينة: أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام وقالوا: إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع في البر. وقيل: الشرب في آنية الرصاص أمان من القولنج وعرض رجل على طبيب قارورته فقال له: ما هي قارورتك لأنه ماء ميت وأنت حي تكلمني فلما فرغ من كلامه حتى خر الرجل ميتا. وقيل: إن ملكا من الملوك حصل عنده صداع في رأسه فأحضر الطبيب فأمر أن يضع قدميه في الماء الحار وكان عنده خصي فقال: أين القدمان من الرأس؟ فقال له الطبيب: وأين وجهك من خصيتيك نزعتا فذهبت لحيتك. وقيل: إن المأمون حصل له صداع بطرسوس فأحضر طبيبا كان عنده فلم ينفعه علاجه فبلغ قيصر فأرسل إليه قلنسوة وكتب له: بلغني صداعك فضعها على رأسك يزل ما بك فخاف أن تكون مسمومة فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شيء ثم إنه أحضر رجلا به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به فتعجب المأمون ثم إنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة لله تعالى في عرق ساكن وغير ساكن حمعسق لا يصدعون عنها ولا ينزفون من كلام الرحمن خمدت النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ادهنوا بالبنفسج

فقام رجل منهم وقال زوجتي أولى به يا أمير العرب، فأطلق الأمير يده وقال: هو لك خذ، وإذا بعقد مجوهر في يده، فبهت القوم وحسدوا الرجل. فقال الأمير: للرجل ما أجرأك على ذلك قال تحقق أنه لا يظهر منك إلا الكمال فدفع له ألف دينار. ذكر ابن خلكان في تاريخه في ترجمة يحيي ابن أكثم ما نصه: رأيت في بعض المجاميع أنه أي يحيي بن أكثم مازح الحسن بن وهب وهو يومئذ صبي ثم جمشه فغضب الحسن، فأنشد يحيي:

أيا قمرا جمشته فتغضبا
وأصبح لي من تيهه متجنبا
إذا كنت للتجميش والعض كارها
فكن أبدا يا سيدي متنقبا
ولا تظهر الأصداغ للناس فتنة
وتجعل منها فوق خديك عقربا
فتقتل مشتاقا وتفتن ناسكا
وتترك قاضي المسلمين معذبا

قال صاحب النبالة والطريف: أنشد الشيخ أبو إسحق الشيرازي إمام الشافعية لنفسه:

جاء الربيع وحسن ورده
ومضى الشتاء وقبح برده
فاشرب على وجه الحبيب
ووجنتيه وحسن خده

قال ابن السمعاني قال لي المظفر شعيب بن الحسين القاضي، أنشدني الشيخ أبو إسحق الشيرازي هذين البيتين لنفسه ثم بعد مدة كنت جالسا عنده

الشيخ ؛ فذكر بين يديه أن هذين البيتين أنشدا عند القاضي عين الدولة حاكم صور بد على

فانه حار في الشتاء، بارد في الصيف . وقال أيضا رضي الله عنه . عليكم بالزيت فانه يذهب البلغم ويشد العصب ويحسن الخلق ويطيب النفس ويذهب الغم . وعنه رضي الله عنه : إن لم يكن في شيء شفاء ففي شرطة حاجم أو شربة من عسل . وقال الحجاج لطبيبه : أخبرنا بجوامع الطب فقال : لا تنكح إلا فتاة ولا تأكل من اللحم إلا فتيا وإذا تغديت فنم وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك ولا تدخل بطنك طعاما حتى تستمرئ ما فيه ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء وكل الفاكهة في إقبالها ودعها في إدبارها. وأوصى حكيم خليفته وصية ووعده إذا لازمها لايمرض إلا مرض الموت فقال : إياك أن تدخل طعاما على طعام ولا تمش حتى تعيا ولا تجامع عجوزا ولا تدخل حماما على شبع وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء وعليك في كل أسبوع بقيئة ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها ولا تأكل القديد من اللحم وإذا تغديت فنم وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها وتستريح الكبد من حرارة المعدة ولا تنم على يمينك فيبطئ الهضم ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع ولا تنم ليلا حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج واقعد على الطعام وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه . قال بعضهم :

شره النفوس على الجسوم بلية ... فتعوذوا من كل نفس شره
مامن فتى شرهت له نفس وإن ... نال الغنى إلا رأى ما يكره

وقال أبو الفيض القضاعي يمدح الفضل وقد فصد :

أرقت دما لو تسكب المزن مثله ... لأصبح وجه الأرض أخضر زاهيا
دما طيبا لو يطلق الشرع شربه ... لكان من الأسقام للناس شافيا

(الفصل الرابع فيما جاء في العيادة وفضلها) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة في ظل العرش: عائد المريض ومشيع الموتى وطائع والديه وفي رواية : ومعزي الثكلى. ومن السنة تخفيف الجلوس في العيادة . مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنده فقال : المريض يعاد والصحيح يزار قال الشاعر :

يعدن مريضا هن هيجن داءه ... ألا إنما بعض العوائد دائيا

وقيل : إذا دخل العواد على الملك فحقهم أن لا يسلموا عليه فيحوجوه إلى رد السلام ويتعبوه فإذا علموا أنه لاحظهم دعوا له وانصرفوا . قيل : مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه : كشف الله عنك مابك من السقم وطهرك بالعلة من الخطايا ومتعك بأنس العافية وأعقبك دوام الصحة . ومرض إنسان فكتب إليه صديقه :

بإخوانك الأدنين لا بك كل ما ... شكوت إلى القيام من ألم الورد
فكل امرئ منهم بقدر احتماله ... وإن عجزوا عنه تحملته وحدي

(وقال آخر) بي السوء والمكروه لا بك كلما ... أراداك كانا بي وكان لك الأجر

(وقال عبد الله بن مصعب)

مالي مرضت فلم يعدني عائد ... منكم ويمرض كلبكم فأعود

فسمي بعد ذلك عائد الكلاب . وعاد مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه بعض المرضى فقال :

عادني مالك فلست أبالي ... بعد من عادني ومن لم يعدني

(وقال علي بن الجهم) أأرقد الليل مسرورا أعدمت إذا ... عيشي وأحمد يرعى ليله وصبا

ساحل بحر الروم فقال لغلامه : أحضر ذاك الشأن يريد الشراب فقد أفتانا به الامام أبو اسحق فبكى الشيخ ودعا على نفسه وقال : ليتني لم أقل هذين البيتين ثم قال لي كيف تردهما من أفواه الناس فقلت : ياسيدي هيهات وقد سار بهما الركبان اورد ذلك ابن النجار في تاريخه واسمه محمد ويلقب بمحب الدين انتهى (لطيفة) حكى الصفدي رحمه الله بالوافي في الوفيات أن أبا الحسين الجزار رحمه الله تعالى سأله طلبته يوما التنزه فقالوا له : ياسيدي أنت أجدر بشراء اللحم منا فتقدم من الجزار وأطلعه من مكانه ووقف هو وأخذ السكين وقطع قطعا ثم إنه قطع قطعة رديئة فقالوا له ياسيدي هذه ليست بجيدة فقال الشيخ معتذرا والله يا أولادي لما وقفت خلف القرمة أدركني لؤم الجزارين . قصد ابن عيينة قبيصة المهلبي واستماحه فلم يسمح له بشيء فانصرف مغضبا فتوجه إليه داود بن زيد ابن حاتم فترضاه وأحسن إليه فقال في ذلك :

داود محمود وأنت مذمم ... عجبا لذاك وأنتما من عود
ولرب عود قد يشق لمسجد

الله

الله يعلم أنى قد نذرت له   صيام شهر إذا ما أحمد ركبا

(وقال آخر) إذا مرضتم أتيناكم نعودكمو   وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

(وقال آخر) أعاذك الله من أشياء أربعة   الموت والعشق والافلاس والجرب

وقيل إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر :

قالت مرضت فعدتها فتبرمت   فهى الصحيحة والعليل العائد
والله لو أن القلوب كقلبها   ما رق للولد الصغير الوالد

وعلى الثانى قول بعضهم :

حق العيادة يوم بعد يومين   وجلسة مثل خلس اللحظ بالعين
لا تبرمن عليلا فى مسائلة   يكفيك من ذاك تسآل بحرفين

وفضل العيادة مشهور وشرفها مذكور وبها تعظم الأجور . وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والله الموفق للصواب

(الباب الحادى والثمانون فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله)

(روى) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مات لأحدكم ميت فحسنوا كفنه وعجلوا إنجاز وصيته وأعمقوا له فى قبره وجنبوه جار السوء . قيل يا رسول الله وهل ينفع الجار الصالح فى الآخرة ؟ قال وهل ينفع فى الدنيا ؟ قالوا نعم قال وكذلك فى الآخرة . ومن وصية على رضى الله عنه لأبى ذر : زر القبور تذكر بها الآخرة ، ولا تزرها بالليل وغسل الموتى يتحرك قلبك وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فان الحزين فى ظل الله تعالى . ويقال جزعك فى مصيبة صديقك أحسن من صبرك ، وصبرك فى مصيبتك أحسن من جزعك . ونظر فيلسوف إلى ميت يحمل إلى قبره فقال حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد . ودخل عمرو ابن العاص رضى الله عنه على معاوية فى مرضة مرضها فقال له أعائد أنت أم شامت فقال له عمرو لم تقول هذا ؟ والله ما كلفتنى رهقا ولا أصدعتنى زلقا ولا جرعتنى علقا فلم أستطل حياتك ولم أستبطئ وفاتك فأنشد معاوية يقول :

فهل من خالدين إذا هلكنا   وهل فى الموت بين الناس عار

لما مرض معاوية رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله مهدوا لى فراشا واسندونى وأوسعوا رأسى دهانا ثم اكحلوا عينى بالأثمد ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا على قياما ولا تجلسوا عندى أحدا ففعلوا ذلك فلما خرجوا من عنده أنشد يقول :

وتجلدى للشامتين أريهم   أنى لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقيل لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت :

هو الموت لامنجى من الموت والذى   نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

قال ثم رفع يديه وقال : اللهم أقل العثرة واعف عن الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك فانك واسع المغفرة وليس لذى خطيئة منك مهرب ومات رحمه الله تعالى . وذكر أبو العباس الشيبانى قال وفد على أبى دلف عشرة من أولاد على بن أبى طالب رضى الله عنه فى العلة التى مات فيها فأقاموا ببابه شهرا لا يؤذن لهم لشدة العلة التى أصيب بها ثم أفاق فقال لخادمه بشر إن قلبى يحدثنى أن بالباب قوما لهم إلينا حوائج فافتح الباب ولا تمنعن أحدا . قال

صفا وباقيه لحش يهودى   فالحش له أنت وذاك بمسجد   كم بين موضع مسلح وسجوده

(وله هجاء فى خالد)

أبوك لنا غيث نعيش بوبله   وأنت جراد لست تبقى ولا تذر
له أثر فى المكرمات يسرنا   وأنت تعفى دائما ذلك الأثر

(ولما قتل) جعفر بن يحيى بكى عليه أبونواس فقيل له أتبكى على جعفر وأنت هجوته فقال كان ذلك لركوبه الهوى وقد بلغه والله أنى قلت :

ولست وإن أطنبت فى وصف جعفر   بأول إنسان خرى فى ثيابه

فكتب يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه (ودخل) أبو دلامة على المهدى وعنده اسماعيل بن على وعيسى ابن موسى والعباس بن محمد وجماعة من بنى هاشم فقال له المهدى والله إن لم تهج واحدا ممن فى هذا البيت لأقطعن لسانك فنظر إلى القوم وتحير فى أمره وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمزه بأن عليه رضاه قال أبو دلامة فازددت حيرة فما رأيت أسلم لى من أن أهجو نفسى فقلت :

ألا بلغ لديك أبا دلامه   فلست من الكرام ولا كرامه

فكان أول من دخل آل علي رضي الله عنه فسلموا عليه ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال : أصلحك الله من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفينا من ولده وقد حطمتنا المصائب وأجحفت بنا النوائب فإن رأيت أن تجبر كسيرا وتغنى فقيرا لا يعلك قطميرا فافعل فقال لخادمه : خذ بيدى وأجلسني ثم أقبل معتذرا إليهم ودعا بدواة وقرطاس وقال : ليكتب كل منكم بيده أنه قبض مني ألف دينار قالوا : فبقينا والله متحيرين فلما أن كتبنا الرقاع ووضعناها بين يديه قال لخادمه : علي بالمال فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه : يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع في كفني فإذا لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم في القيامة كانت حجة لي أني قد أغنيت عشرة من ولده ثم قال يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف درهم ينفقها في طريقه حتى لا ينفق من الألف دينار شيئا حتى يصل إلى موضعه قال : فأخذناها ودعونا له وانصرفنا ثم مات رحمه الله . وقيل : لما دفن عمر بن عبد العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء فوجدوا بردة مكتوب فيها بالنور (بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبدالعزيز من النار) وقيل لأعرابي : إنك تموت قال : وإلى أين أذهب ؟ قالوا : إلى الله تعالى ، فقال : لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه . وبكى الخولاني عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لطول السفر وقلة الزاد وقد سلكت عقبة ولا أدري إلى أين أهبط وإلى أي مكان أسقط . ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له : من أنت ؟ قال : أنا الذي لا يهاب الملوك ، ولا تمنع منه القصور ، ولا يقبل الرشا . فقال : إذن أنت ملك الموت وإني لم أستعد بعد ، فقال له : يا داود أين فلان جارك ؟ أين فلان قريبك ؟ قال : ماتا قال : أما كان لك في موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ثم قبضه عليه السلام (وفي الخبر) من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الملائكة تكتنف العبد وتحتبسه ولولا ذلك لكان يعدو في الصحراء والبراري من شدة سكرات الموت . وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم فليكن المرء على أهبة من ذلك. وقيل : بينما حسان جالس وفي حجره صبي يطعمه الزبد بالعسل إذ شرق الصبي فمات فقال:

اعمل وأنت صحيح مطلق فرح ... ما دمت ويحك يامغرور في مهل
يرجو الحياة صحيح ربما كنت ... له المنية بين الزبد والعسل

وقيل : إن المأمون لما قربت وفاته دخل عليه بعض أصدقائه فوجده قد فرش له جل دابة وبسط عليه الرماد وهو يتمرغ فيه ويقول : يامن لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه (ولما) احتضر عمرو بن العاص دعا بغل وقيد وقال : ألبسوني إياهما فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن التوبة مقبولة مالم يغرغر ابن آدم بنفسه ثم استقبل القبلة وقال : اللهم إنك أمرتنا فعصينا ونهيتنا فارتكبنا وهذا مقام العائذ بك فإن تعف فأنت أهل العفو وإن تعاقب فبما قدمت يداي لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ثم مات وهو مغلول مقيد فبلغ ذلك الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما فقال : استسلم الشيخ ولعلها تنفعه (لما) احتضر المعتصم جعلوا يهونون عليه فقال : هان على النظارة ما يمر بظهر المجلود . سمع أبو الدرداء رجلا في جنازة يقول : من هذا ؟ فقال : أنت فإن كرهت فأنا . وقيل : مات عكرمة مولى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكثير عزة في يوم واحد فقال رجل : اللهم كما جمعتهما في زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم النشور فما بقي في المدينة أحد إلا استحسن كلامه (ولما احتضر إبراهيم الخليل) عليه الصلاة والسلام قال : هل رأيت خليلا يقبض روح خليله فأوحى الله إليه هل رأيت خليلا

جمعت دمامة وجمعت لؤما ... كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
إذا لبس العمامة قلت قرد ... وخنزير إذا نزع العمامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه (وكان) لأعرابي امرأتان فولدت إحداهما جارية والأخرى غلاما فرقصته أمه يوما وقالت معيرة لضرتها

الحمد لله الحميد العالي
أنقذني اليوم من الجوالي
من كل شوهاء كشن بالي
لا تدفع الضيم عن العيال

فسمعتها ضرتها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول

وما علي أن تكون جاريه
تغسل رأسي وتكون الفاليه
وترفع الساقط من خماريه
حتى إذا ما بلغت ثمانيه
أزرتها بنقبة يمانيه
أنكحتها مروان أو معاويه
أصهار صدق ومهور غاليه

قال فسمعها مروان فتزوجها على مائة ألف مثقال وقال إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ولا يخان عهدها فقال معاوية لولا مروان سبقنا اليها لأضعفنا لها المهر ولكن لاتحرم الهبة فبعث اليها بمائة ألف درهم (قيل) إن رجلا قال لولده وهو في المكتب في أي سورة أنت فقال لا أقسم بهذا البلد ووالدي بلا ولد فقال لعمري من كنت ولده يبقى بلا ولد (وأرسل) رجل ولده يشتري له رشاء للبئر طوله عشرون ذراعا يكره

فوصل إلى نصف الطريق ثم رجع فقال يا أبت عشرون ذراعا فى عرض كم قال فى عرض مصيبق فيك

يكره لقاء خليله قال : فاقبض روحى الساعة . وقيل : إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها . وقال بعضهم :

إذا ما حمام المرء كان ببلدة ... دعته إليها حاجة فيطير

(حكى) أن شابا تقيا من بنى إسرائيل كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه فبينما هو عند سليمان فى مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه فلما رآه الشاب اصفر لونه وارتعدت فرائصه وقال : يا نبى الله إنى خفت من هذا الرجل فمر الريح أن تذهب بى إلى الهند فأمر سليمان الريح فذهبت به فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب ، فقال له سليمان : مم تعجب ؟ قال : أعجب أنى أمرت بقبض روح الشاب الذى كان عندك بأرض الهند ودخلت عليك فوجدته عندك فصرت متعجبا ثم توجهت إلى الهند فرأيته هناك وقبضت روحه فهذا عجبى ، فقال له سليمان : إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب منى أن تحمله الريح إلى الهند فأمرتها فحملته وفى ذلك المعنى قال محمد بن الحسن :

ومتعب الروح مرتاح إلى بلد ... والموت يطلبه فى ذلك البلد

وقيل : إن الانسان يحصل له عند الموت قوة حركة نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة وضياء ساطع وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة والله أعلم . وقيل إن الرشيد ماتت له جارية وكانت من خواص محاظيه فجزع عليها جزعا شديدا فقال لبعض أصدقائه : أما ترى ما بليت به ما أحببت أحدا إلا مات ، فقال : يا أمير المؤمنين أحببنى فقال : ويحك إن الحب ليس هو شىء يصنع إنما هو شىء يقع فى القلب تسوقه الأسباب فقال : قل أنا أحبك قال : نعم أنا أحبك قال : فحم من وقته ومات . وفى الحديث المرفوع : كسر عظم الميت ككسره فى حياته . وقال يزيد بن أسلم : لقد كان يمضى فى الزمن الأول أربعمائة سنة ما يسمع فيها بجنازة . وعن ميمون بن مهران قال : شهدت جنازة ابن عباس رضى الله عنه بالطائف ، فلما وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكفانه ثم دخل فيها فالتمسناه فلم نجده ولما سوينا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول : يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك ـ الآية . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بمنى . وقال عطاء : بلغنى أن قبره تحت المنارة التى وسط الخيف . وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى ما لا يبكيه عند ذكر الجنة والنار فقيل له فى ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : القبر أول منازل الآخرة فان نجا العبد منه فما بعده أيسر منه . وعن معاذ بن رفاعة الزرقى قال : أخبرنى رجل من رجال قومى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جوف الليل معتجرا بعمامة من استبرق فقال : يا محمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر ثوبه مبادرا إلى سعد بن معاذ رضى الله عنه فوجده قد قبض . وقال الحسن رضى الله عنه : ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات فمن رآه على لهو ولعب أو معصية أو ضاحكا حرك رأسه وقال له : مسكين هذا العبد غافل عما يراد به ثم يقول له : اعمل ما شئت فان لى فيك غمزة أقطع بها وتينك . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لرجاء بن حيوة : يا رجاء إذا وضعت فى لحدى فاكشف الثوب عن وجهى فان رأيت خيرا فاحمد الله وإن رأيت غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك ، قال رجاء : فلما دفناه كشفت عن وجهه فرأيت نورا ساطعا فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير . وقال أيضا : دخلت على عمر

يابنى (وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة) فبينما هو يوما يمشى مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله فلم يجبه ذلك الشاب فقال ألا تسمع فقال ياعم كلنا عبيد الله فأى عبد الله تعنى فالتفت أبو حمزة إليه وقال ياحمزة فقال حمزة بن الأعرابى كلنا حاميز الله فأى حمزة تعنى فقال أبوه أعنيك يامن أخذ الله به ذكر أبيه . ويعجبنى قول الصفدى :

لولا شفاعة شعره فى صبه ... ما كان زار ولا أزال سقاما
لكن تنازل فى الشفاعة عنده ... وغدا على أقدامه يترامى

وقال ابن الصائغ :

ثنى غصنا ومد عليه فرعا ... لحظى حين أطلب منه وصلا
وبلبله على الأرداف منه ... فلم أر مثل ذاك الفرع أصلا

وقول الآخر :

بدت ثريا قرطها وشعرها ... متصل بكعبها كما ترى
يا عجبا لشعرها لما ابتدى ... من الثريا فانتهى إلى الثرى

وقول ابن نباتة :

و بمهجتى رشأ يميس قوامه ... فكأنه نشوان من شفتيه
شغف العذار بخده ورآه قد ... نعست لواحظه فدب عليه

وقوله أيضا مضمنا :

رضت سلاح الصبر عنه فما له ... يغازل بالألحاظ من لا يغازله

ابن عبد العزيز وهو محتضر فقال : يا رجاء إنى أرى وجوها كراما ليست بوجوه إنس ولا جان وهو يقلب طرفه يمينا وشمالا ثم رفع يده فقال : اللهم أنت ربى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت فان غفرت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت إلا أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك وأن محمــدا عبدك ورسولك المصطفى ونبيك المرتضى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة فعليه السلام والرحمة ثم قضى نحبه رحمه الله . وعن أسماء بنت عميس قالت : كنت عند أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد ماضربه ابن ملجم إذ شهق شهقة بعد أن أغمى عليه ثم أفاق وقال : مرحبا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فقيل له : ما ترى ؟ قال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهــذا أخى جعفر وعمى حمزة وأبواب السماء مفتحة والملائكة ينزلون على يبشروننى بالجنة وهــذه فاطمة قد أحاط بها وصائفها من الحور العين وهذه منازلى لمثل هذا فليعمل العاملون (ولما) احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد : إذا أنا مت إياك أن تجلس وتعصر عينيك كالمرأة الوكعاء لكن ائتزر وشمر والبس جلد النمر وضعنى فى حفرتى وخلنى وشأنى وعليك شأنك وادع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه هكذا فقل له بسيفك هكذا ثم بعث إلى محمد وخالد ابنى يزيد بن معاوية فقال : هل عندكما ندامة فى بيعة الوليد فقالوا لا نعرف أحدا أحق منه بالخلافة ، فقال : أما إنكما لو قلتما غير هــذا لضربت الذى فيه أعينكما ثم رفع كنار فراشه فاذا تحته سيف مسلول تحت يمينه كل هذا وروحه تتردد فى حنجرته وهو يقول : الحمد لله الذى لايبالى أصغيرا أخذ أم كبيرا لا إله إلا الله محمد رسول الله ثم بعد ساعة نفذت روحه فدخل عليه الوليد ومعه بناته يبكون فتمثل بقول الشاعر :

ومستخبر عنا يريد بنا الردى ... ومستخبرات والعيــون سواكن

وقال محمد بن هرون :

كأنى بأخوانى على جنب حفرتى ... يهيلون فوقى والعيون دما تجرى
فيا أيها للذرى علىّ دموعه ... ستعرض فى يومين عنى وعن ذكرى
عفا الله عنى أنزل القبــر ثاويا ... أزار فلا أدرى وأجفى فلا أدرى

وكان يزيد الرقاشى يقول من كان الموت موعده والقبر بيته والثرى مسكنه والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف تكون حالته ، ثم يبكى حتى يغشى عليه. فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل ولا يغتر بالأمل فان من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت . نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع أوامره واجتناب نواهيه وأن يجعل الموت خير غائب ننتظره وأن يختم لنا بالخير وأن يتغمدنا برحمته . إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثانى والثمانون فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول)

[الفصل الأول فى الصبر] قال الله تعالى وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . وقال صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدها فأحدث استرجاعا إلا أحدث الله له مثله وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها . وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح حزينا أصبح ساخطا على ربه ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله ومن تواضع لغنى سأله ما فى يده أحبط الله ثلثى عمله ومن أعطى القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار أبعده الله عن رحمته لأنه هو

وسال عذارى فوق خديه سائل
على خده فليتق الله سائله
(ولبعضهم فى ذم العذار)
غدا لما التحى ليلا بهيا
وكان كأنه قمر منير
وقد كتب السواد بعارضيه
لمن يقرا وجاءكم النذير
ولآخر :
ما زال ينتف ريحانا بعارضه
حتى استطال عليه صار يحلقه
كأنما طور سينا فوق عارضه
طول الزمان فموسى لايفارقه
(برهان الدين القيراطى)
شبه السيف والسنان بعينى
من لقتلى بين الأنام استحلا
فأبى السيف والسنان وقالا
حدنا دون ذاك حاشا وكلا
ابن الصائغ :
لمبلى من لواحظها سهام
لحلق القلب فتك أى فتك
إذا رامت تشك به فؤادا
يموت المستهام بغير شك
الصلاح الصفدى :
ياعاذلا لى على عين محجبة
خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفى
وخذ فؤادى ودعه نصب مقلتها
لا ترم نفسك بين السهم والهدف
آخر :

الذى فعل ذلك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن . وروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من مات له ثلاثة من الولد لم يلج النار إلا تحلة القسم . يعنى قوله تعالى وإن منكم إلا واردها . وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها إلا فعل الله به ذلك . وروى أنه لما مات ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرفت عيناه فقال له عبد الرحمن بن عوف يا رسول الله ألم تنه عن البكاء قال إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين والندب . ولكن هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوبنا ومن لا يرحم لا يرحم فان القلب يخشع والعين تدمع وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون . ولا نقول إلا ما يرضى الله ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون . وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أول شىء كتبه الله فى اللوح المحفوظ إنى أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدى ورسولى من استسلم لقضائى وصبر على بلائى وشكر نعمائى كتبته صديقا وبعثته مع الصديقين . ومن لم يستسلم لقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى فليتخذ ربا سوائى . وقال ابن المبارك إن المصيبة واحدة فاذا جزع صاحبها فهما اثنتان لأن إحداهما المصيبة بعينها والثانية ذهاب أجره وهو أعظم من المصيبة . وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبى صلى الله عليه وسلم لما حضرته الوفاة بكت فاطمة فقال لا تبكى يا بنتاه قولى إذا مت إنا لله وإنا إليه راجعون فان لكل إنسان مصيبة معوضة . قالت ومنك يا رسول الله قال ومنى . وعن عطاء بن أبى رباح قال قال النبى صلى الله عليه وسلم من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بى فانها من أعظم المصائب . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال من أخذت حبيبتاه يعنى عينيه فصبر واحتسب أدخله الله الجنة . وقيل إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت له : لو دعوت الله تعالى أن يشفيك . فقال لها ويحك كنا فى النعماء سبعين عاما أفلا نصبر على الضراء مثلها . فلم يلبث إلا يسيرا أن عوفى . وقيل الصبر مفتاح الظفر والتوكل على الله تعالى رسول النجاح . وقيل من لم يلق نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه . وقيل إن معاوية رضى الله تعالى عنه خرج يوما ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبى وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب فقال له معاوية يا عبد العزيز أتانى نعى سيد شباب العرب . فقال له ابنى أو ابنك . قال بل ابنك . قال للموت تلد الوالدة . ومما قيل اصبر لحكم من لا تجد معولا إلا عليه ولا مفزعا إلا إليه . وقال سويد السدوسى :

فأوصيكما يا ابنى سدوس كلاكما ... بتقوى الذى أعطاكما وبراكما
بشكر إذا ما أحدث الله نعمة ... وصبر لأمر الله فيما ابتلاكما

(وقال) أيا صاحبى إن رمت أن تكسب العلا ... وترقى إلى العلياء غير مزاحم
عليك بحسن الصبر فى كل حالة ... فما صابر فيما يروم بنادم

(وقال آخر) هو الدهر قد جربته وبلوته ... فصبرا على مكروهه وتجلدا

وحدث الزبير قال قامت عائشة بعد ما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فقالت نضر الله وجهك وشكر صالح سعيك فقد كنت للدنيا مذلا بادبارك عنها وللآخرة معزا باقبالك عليها ، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكبر الأحداث بعده فان كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر فى المصيبة وأنا تابعة له فى الصبر فأقول إنا لله وإنا إليه راجعون ومستعيضة بأكثر الاستغفار لك فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك

أنفقت كنز مدامعى فى ثغره
وجمعت فيه كل معنى شارد
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة
فمضى وراح تغزلى فى البارد

عز الدين الموصلى :

كالزرد المنظوم أصداغه
وخده كالورد لما ورد
بالغت فى اللثم وقبلته
فى الخد تقبيلا يفك الزرد

ابن نباتة :

أنسية فى مثال الجن تحسبها
شمسا بدت بين تشريق وتغميم
شقت لها الشمس ثوبا من محاسنها
فالوجه للشمس والعينان للريم

آخر :

بصدرها كوكبا در كأنهما
ركنان لم يدنسا من لمس مستلم
صانتهما بستور من غلائلها
فالناس فى الحل والركنان فى الحرم

الصلاح الصفدى :

تقول له الأغصان مذ هز عطفه
أتزعم أن اللين عندك ما قوى
فقم نحتكم للروض عند نسيمه
ليقضى على من مال منا إلى الهوى

وكأنه ينظر إلى قول السراج :

ولا رازئة على القضاء فيك (ولما) مات زر الهمدانى جاء أبوه فوجده ميتا وكان موته فجأة وعياله يبكون عليه فقال : ما لكم والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق ولا أصابنا فيه ما أخطأ من كان قبلنا فى مثله . ولما وضعه فى حفرته قال رحمك الله يا بنى وجعل أجرى فيك لك ، والله ما بكيت عليك وإنما بكيت لك فوالله لقد كنت بى بارا ولى نافعا وكنت لك محبا وما بى إليك من وحشة وما بى إلى أحد غير الله من فاقة وما ذهبت لنا بعزة وما أبقيت لنا من ذل ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك يا ذر لولا هول المطلع لتمنيت ما صرت إليه . فليت شعرى ماذا قلت وماذا قيل لك . ثم رفع رأسه إلى السماء وقال اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك . اللهم وقد وهبت ما جعلت لى من الأجر إلى ذر صلة منى له فلا تحرمنى ولا تعرفه قبيحا وتجاوز عنه فانك رحيم بى وبه . اللهم قد وهبت لك إساءته لى فهب لى إساءته إليك فانك أجود منى وأكرم . اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقا وجعلت لى عليه حقا قرنته بحقك فقلت اشكر لى ولوالديك إلى المصير . اللهم إنى قد غفرت له ما قصر فيه من حقى فاغفر له ما قصر فيه من حقك فانك أولى بالجود والكرم . فلما أراد الانصراف قال يا ذر قد انصرفنا وتركناك ولو أقمنا عندك ما نفعناك . وفى الحديث إذا مات ولد العبد يقول الله تعالى للملائكة ماذا قال عبدى عند قبض روح ولده وثمرة فؤاده فيقولون الحمد حمدك واسترجع . فيقول الله تعالى : أشهدكم يا ملائكتى أنى بنيت له بيتا فى الجنة وسميته بيت الحمد . وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه دفن ابنا له وضحك عند قبره فقيل له أتضحك عند القبر قال أردت أن أرغم أنف الشيطان . فينبغى للعبد أن يتفكر فى ثواب المصيبة فتسهل عليه فاذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة . وقد وعد الله تعالى فى المصيبة ثوابا عظيما إذا صبر صاحبها واحتسب وقال تعالى : ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين وقال تعالى ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الآية . اللهم رضنا بقضائك وصبرنا على بلائك واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يا رب العالمين

[الفصل الثانى من هذا الباب فى التعازى والتأسى] روى الترمذى فى كتاب السنن للبيهقى عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من عزى مصابا فله مثل أجره . وروينا فى كتاب الترمذى أيضا بسند متصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من عز ثكلى كسى برداء فى الجنة . وروينا فى سنن ابن ماجه والبيهقى باسناد حسن عن عمرو بن حزم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبته إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة (واعلم) أن التعزية هى التصبير وذكر ما يسلى صاحب الميت ويخفف حزنه ويهون مصيبته وهى مستحبة . فانها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى أيضا داخلة فى قوله تعالى : وتعاونوا على البر والتقوى وهى من أحسن ما يستدل به فى التعزية . وثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه . واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده . وتكره بعد ثلاثة أيام لأن التعزية لتسكين قلب المصاب والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام فلا يجدد الحزن . هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعى رضى الله تعالى عنه وقيل إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا فى صورتين وهما إذا كان المعزى أو صاحب المصيبة غائبا حال الدفن واتفق رجوعه بعد الثلاثة . وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه ، فبأى لفظ عزاه حصلت . واستحب أصحاب الشافعى أن يقول فى تعزية المسلم بالمسلم عظم الله أجرك وأحسن

ومهفهف عنى يميل ولم يمل
يوما إلى فصحت من ألم الجوى
لم لا تميل إلى يا غصن النقا
فأجاب كيف وأنت من جهة الهوى

(أراد ملك الروم) أن يباهى أهل الاسلام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل والثانى قصير شديد القوة فدعا الطويل بقيس ابن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل فبلغت ثدييه فلاموا قيسا على نزع السراويل فقال :

أردت لكيما يعلم الناس أنها
سراويل قيس والوفود شهود
وكيلا يقولوا خان قيس وهذه
سراويل عاد أحرزتها ثمود
وإنى من القوم اليمانين سيد
وما الناس إلا سيد ومسود

ثم دعا معاوية الرجل الشديد القوة بمحمد بن الحنفية فخيره بين أن يقعد فيقيمه أو يقوم فيقعده فغلبه فى الحالتين وانصرفا مغلوبين (وحكى الجاحظ) ما أخجلنى قط إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له اعمل مثل هذا فبقيت

عزاءك وغفر لميتك . وفى المسلم بالكافر : أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك ، وفى الكافر بالكافر أخلف الله عليك ولا نقص لك عددا . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد بعض أصحابه فسأل عنه فقالوا يا رسول الله بنيه الذى رأيته هلك فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم فسأل عن بنيه فقالوا يا رسول الله هلك فعزاه فيه ثم قال يافلان أيما كان أحب إليك أن تتمتع به عمرك أولا تأتى غدا بابا من أبواب الجنة إلا وجدته وقد سبقك إليه فيفتحه لك فقال يا رسول الله سبقه إلى باب الجنة أحب إلىّ من التمتع به فى دار الدنيا قال: ذلك لك. وروى البيهقى بإسناده فى مناقب الشافعى رحمهما الله أن الشافعى قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدى مات له ابن فجزع عليه جزعا شديدا فبعث إليه الشافعى رحمه الله يقول ياأخى عز نفسك بما تعزى به غيرك واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك واعلم أن أمض المصائب فقد سرور وحرمان أجر فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر ألهمك الله عند المصائب صبرا وأجزل لنا ولك بالصبر أجرا. وروى عن ابن المبارك قال : مات لى ابن فمر بى مجوسى وقال ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام فقال اكتبوها منه. وعن معاذ بن جبل أنه قال مات لى ابن فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل سلام عليكم فإنى أحمد الله الملك الذى لا إله إلا هو أما بعد فعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية وعواريه المستودعة يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى ، وكان ابنك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة متعك الله به فى غبطة وسرور وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت فاصبر واحتسب واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ولا يطرد حزنا. وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان إذا عزى مرزأ قال ليس مع العزاء مصيبة ولا مع الجزع فائدة والموت أشد مما قبله وأهون مما بعده فاذكر مصيبتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تهن عليك مصيبتك . وعزى الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه صديقا له فقال :

إنا نعزيك لا أنا على ثقة ... من الحياة ولكن سنة الدين
فما المعزى بباق بعد ميته ... ولا المعزى ولو عاشا إلى حين

وكتب بعضهم إلى أخ له يعزيه أنت ياأخى أعزك الله عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء وأنها لم تعط إلا أخذت ولم تسر إلا أحزنت وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لادافع عنه ولا مؤخر لما قضى الله عز وجل منه وإنا لله وإنا إليه راجعون . وعزى رجل بعض الخلفاء بابن له فكتب إليه يقول :

تعز أمير المؤمنين فإنه ... لما قد ترى يغذو الصغير ويولد
هل الابن إلا من سلالة آدم ... لكل على حوض المنية مورد

وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال :

الموت أخفى سوأة للبنات ... ودفنها يروى من المكرمات
أما رأيت الله سبحانه ... قد وضع النعش بجنب البنات

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه ويسليه: ماتصنع يا أخى والقضاء نازل والموت حكم شامل وإن لم تلذ بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة والدمعة الساكبة حاجبا من فضلك وحاجزا من عقلك ودافعا

مبهوتا ثم سألت الصائغ فقال هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت لا أدرى كيف أصوره فأتت بك إلى لأصوره على صورتك

وفى الجاحظ يقول بعضهم

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا
ما كان إلا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه
وهو القذى فى عين كل ملاحظ
ولو أن مرآة جلت تمثاله
ورآه كان له كأعظم واعظ

(قيل) إنه قدم تاجر إلى المدينة يحمل من خمر العراق فباع الجميع إلا السود فشكا إلى الدارمى وقد تنسك وتعبد فعمل بيتين وأمر من يغنى بهما فى المدينة وهما :

قل للمليحة فى الخمار الأسود
ماذا فعلت بزاهد متعبد
قد كان شمر للعبادة ذيله
حتى وقفت له بباب المسجد

فشاع الخبر فى المدينة أن الدارمى رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود فلم تبق فى المدينة مليحة إلا اشترت لها خمارا أسود فلما أخذ التاجر

من دينك ومانعا من يقينك فان المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر فصبرا صبرا ففحول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها فعزيز على أن أخاطب مولاى معزيا وأكاتبه مسليا عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو ينتمى إلى جملته فكيف بالصنو الأكرم والذخر الأعظم والركن الأشد والسهم الأسد والشهاب الأسطع والحسام الأقطع لكن التعزية سبر سائرة وسنة ماضية غابرة وقدر الله هو القدر وأجل الله إذا جاء لا يؤخر ولولا أن الذكرى تنفع والتعزية يستوى فيها الأشرف والأوضع لأجللت مولاى أن أفاتحه معزيا وأخاطبه مسليا ولكن بحمد الله العالم لا يعلم والسابق لا يتقدم فمولاى يقتدى فى الصبر على النوائب وبنوره يهتدى فى مشكلات المذاهب وكل ماكان من الرزء أوجع كان الأجر عليه أوسع جعل الله مولاى من الصابرين على المصيبة وأعظم أجره وجعل الجنة نصيبه . وعزى رجل فتى عن أبيه فلم يجده كما أحب فقال يا بنى سوء الخلف أشر علينا من فقد السلف . ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بدرة من المال وقال من بالغ فى تعزيته فهى له فدخل عليه أعرابى وقال عظم الله أجر الملك كفيت المؤنة وسترت العورة ونعم الصهر القبر فقال قد أبلغت وأوجزت ثم دفعها له . وعزت أعرابية قوما فقالت جافى الله عن ميتكم الثرى وأعانه على طول البلى وآجركم ورحمه . وكان لعلى بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعا شديدا فعزاه على بن الحسين رحمه الله ووعظه فقال يا ابن رسول الله إن ابنى كان مسرفا على نفسه فقال لا تجزع فإن من ورائه ثلاث خلال أولهن شهادة أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا رسول الله. والثانية شفاعة جدى صلى الله عليه وسلم والثالثة رحمة الله التى وسعت كل شىء فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال. وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة إن فى كبدى جمرة لا يطفئها إلا عبرة فقال عمر أذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته فقال رجاء أفضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس لقد دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم وقال إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون فأرسل سليمان عينيه حتى قضى أربه ثم أقبل عليهم وقال لولا نزفت هذه العبرة لانصدع كبدى ثم إنه لم يبك بعدها . وكتب الاسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل إذا وصل إليك كتابى هذا فأجمعى أهل بلدك وأعدى لهم طعاما ووكلى بالأبواب من يمنع من أصابته مصيبة فى أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد ففعلت فلم يدخل إليها أحد فعلمت أن الاسكندر عزاها فى نفسه . ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيها فيه فقال لها يا أماه لا تحزنى على الفضل فأنا خلف منه فقالت كيف لا أحزن على ولد عوضنى عنه خليفة مثلك فعجب المأمون من جوابها وكان يقول ما سمعت قط أحسن منه ولا أجلب للقلوب فقال لها عليك بالصبر فإن فيه مزيد الأجر . وممن جزع على ولده جعفر بن علبة لما قتله الحرث قام نساء الحى يبكون عليه وقام أبوه إلى كل شاة وناقة فذبحه وألقاها بين أيديها وقال لها ابكين معى على جعفر فما زالت النوق ترغو والشياه تيعر والنساء يصرخن ويبكين وهو يبكى معهن فلم ير مأتم كان أوجع منه . وقال يحيى بن خالد التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح (ومما قيل فى التأسى والتسلى بالخلف عن السلف) قيل عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية فى والده فقال :

اصبر يزيد فقد فارقت ذاثقة ... واشكر الملك من بالملك حاباكا

ماكان معه رجع المدارى إلى تعبده وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها (وص) رجل أشمط بامرأة عجيبة فى الجمال فقال ياهذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه وإلا فاعلمينا فقالت كأنك تخطبنى قال: نعم فقالت إن فى عيبا قال وما هو قالت شيب فى رأسى فثنى عنان دابته فقالت على رسلك فلا والله ما بلغت عشرين سنة ولكننى أحببت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ما تكره منى (وقال عبدالله الماجشون) وهو من فقهاء المدينة قال لى المهدى يوما يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك قال قلت يا أمير المؤمنين

قد باك على أحبابه جزعا ... قد كنت أحذر هذا قبل أن يقعا
ما كان والله شؤم الدهر يتركنى ... حتى يجرعنى من بعدهم جزعا
إن الزمان رأى إلف السرور لنا ... فدب بالبين فيما بيننا وسعى
فليصنع الدهر بى ما شاء مجتهدا ... فلا زيادة شىء فوق ماصنعا

فقال والله لأعطينك فأعطاه عشرة آلاف دينار

لا رزء أصبح فى الأيام نعرفه ... كما رزئت ولا عقبى بعقبا كا

(وقال آخر) لا بد من فقد ومن فاقد ... هيهات ما فى الناس من خالد

(وقال آخر) تبصر فلو أن البكا رد هالكا ... على أحد فاكثر بكاك على عمر

وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم فى والدهم فقال :

فلو كان فيض الدمع ينفع باكيا ... لعلمت غرب الدمع كيف يسيل

فإن غاب بدر فالنجوم طوالع ... ثوابت لا يقضى لهن أفول

يغاث بها فى ظلمة الليل حائر ... ويسرى عليها بالرفاق دليل

(ودخل) عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد وولد له فى تلك الليلة ولد ، فقال سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر.

وقال بعضهم :

أليس لهذا صار آخر أمرنا ... فلا كانت الدنيا القليل سرورها

فلا تعجبي يا نفس مما ترينه ... فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعى عن قول الخنساء فى نعيها صخر حين مات ونعته فقالت :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا ... وأندبه لكل غروب شمس

فقالوا له : لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب فقال لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان فذكرته بهذا مدحا لأنه كان يغير على أعدائه ويتقيد بضيفه . وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها :

ألا يا نفس لا تنسيه حتى ... أفارق عيشتى وأزور رمسى ... ولولا كثرة الباكين حولى

على أمواتهم لقتلت نفسى ... ومايبكون مثل أخى ولكن ... أسلى النفس عنه بالتأسى

(وقال آخر) ولولا الأسى ماعشت فى الناس ساعة ... ولكن إذا ناديت جاوبنى مثلى

(وقال آخر) وهون وجدى عن خليلى أننى ... إذا شئت لاقيت الذى أنا صاحبه

(وقال آخر) ومما يؤدينى إلى الصبر والعزا ... تردد فكرى فى عموم المصائب

[الفصل الثالث فى المراثى] لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رثاه جماعة من أصحابه وآله بمراث كثيرة . منها ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فانه كان أقرب الناس إليه وهو أول من رثاه فقال :

لما رأيت نبينا متجندلا ... ضاقت على بعرضهن الدور ... فارتاع قلبى عند ذاك لموته

والعظم منى ما حييت كسير ... أعتيق ويحك إن خلك قد ثوى ... والصبر عندك مابقيت يسير

يا ليتنى من قبل مهلك صاحبى ... غيبت فى لحد عليه صخور

فلتحدثن بدائع من بعده ... تعيا بهن جوانح وصدور

(وقال آخر)

فقدت أرضنا هناك نبيا ... كان يغدو به النبات زكيا ... خلقا عاليا ودينا كريما

وصراطا يهدى الأنام سويا ... وسراجا يجلو الظلام منيرا ... ونبيا مؤيدا عربيا

حازما عازما حليما كريما ... عائدا بالنوال برا تقيا ... إن يوما أتى عليك ليوم

كورت شمسه وكان خليا ... فعليك السلام منا جميعا ... دائم الدهر بكرة وعشيا

ورثاه صلى الله عليه وسلم أبو سفيان بن الحرث فقال :

(وحكى بعضهم) قال : دخلنا إلى دار هرقل فنظرنا إلى مجنون فى شباك وهو ينشد شعرا فقلنا له أحسنت فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به وقال لمثلى يقال أحسنت ففررنا منه فقال أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فان أنا أحسنت فقولوا أحسنت وإن أنا أسأت فقولوا أسأت فرجعنا إليه فأنشد يقول :

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهم

وحملوها وسارت بالدمى الإبل

وقلبت بخلال السجف ناظرها

ترنو إلى ودمع العين ينهمل

وودعت ببنان زانها عنم

ناديت لا حملت رجلاك يا جمل

يا حادى العيس عرج كى أودعهم

ياحادى العيس فى ترحالك الأجل

إنى على العهد لم أنقض مودتهم

يا ليت شعرى لطول البعد ما فعلوا

فقلنا له ماتوا فقال وأنا والله أموت ثم شهق شهقة فاذا هو ميت (قيل) لما وفد المهدى من الرى إلى العراق امتدحه الشعراء

أرقت فبات ليلي لا يزول　　وليل أخي المصيبة فيه طول　　وأسعدني البكاء وذاك فيما
أصيب المسلمون به قليل　　لقد عظمت مصيبتنا وجلت　　عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها　　تكاد بنا جوانبها تميل　　فقدنا الوحي والتنزيل فينا
يروح به ويغدو جبرائيل　　وذاك أحق ما سالت عليه　　نفوس الناس أو كادت تسيل
نبي كان يجلو الشك عنا　　بما يوحى إليه وما يقول　　ويهدينا فلا نخشى ملاما
علينا والرسول لنا دليل　　أفاطم إن جزعت فذاك عذر　　وإن لم تجزعي فهو السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر　　وفيه سيد الناس الرسول

ولما مات أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال :

ذهب الذين أحبهم　　فعليك يا دنيا السلام

لا تذكرين العيش لى　　فالعيش بعدهم حرام　　إني رضيع وصالهم　　والطفل يؤله الفطام

ورثى بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال :

سألت الندى والجود مالى أراكما　　تبدلتما عزا بذل مؤبد　　ومابال ركن المجد أمسى مهدما
فقالا أصبنا بابن يحيى محمد　　فقلت فهلا متما بعد موته　　وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالا أقمنا كى نعزى بفقده　　مسافة يوم ثم نتلوه في غد

وقال آخر :　　ولا أرتجى في الموت بعدك طائلا　　ولا أتقى للدهر بعدك من خطب

(وفي المعنى لبعضهم)

لقد آمنت نفسى المصائب بعده　　فأصبحت منها آمنا أن أروعا
فما أتقى للدهر بعدك نكبة　　ولا أرتجى للعيش بعدك مرتعا

ورثى أشجع السلمى عبد الله بن سعيد فقال :

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق　　ولا مغرب إلا له فيه مادح
وما كنت أدرى ما فواضل كفه　　على الناس حتى غيبته الصفائح
وأصبح في لحد من الأرض ميتا　　وكانت به حيا تضيق الصحاصح
سأبكيك ما فاضت دموعى فان تغض　　فحسبك منى ما تكن الجوانح
وما أنا من رزء وإن جل جازع　　ولا بسرور بعد فقدك فارح
لئن حسنت فيك المراثى بذكرها　　فقد حسنت من قبل فيك المدائح

(وقال آخر) :

إلى الله أشكو لا إلى الناس إننى　　أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب
أخلاى لو غير الحمام أصابكم　　عتبت ولكن ما على الدهر معتب

(وقال العباس بن الأحنف)

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا　　أجاب البكا طوعا ولم يجب الصبر
فان ينقطع منك الرجاء فانه　　سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

(وقال آخر يرثى صديقه)

خليلى ما أزداد إلا صبابة　　إليك وما تزداد إلا تنائيا
خليلى لو نفس فدت نفس ميت　　فديتك مسرورا بنفسى وماليا

فقال أبو دلامة :
إنى نذرت لئن رأيتك سالما
بأرض العراق وأنت ذو وفر
لتصلين على النبى محمد
ولتملأن دراهما حجرى
فقال المهدى صلى الله على محمد فقال أبو دلامة :
ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية فضحك وأمر ببدرة فصبت فى حجره (وتزوج) مغن بنائحة فسمعها تقول : اللهم أوسع لنا فى الرزق فقال لها يا هذه إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفى ذلك فان كان فرح دعونى وإن كان حزن دعوك (وكان) عروة بن الزبير صبورا حين يبتلى حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطىء عظما فما بلغ دمشق حتى بلغ به كل مذهب فجمع له الوليد الأطباء فأجمع رأيهم على قطع رجله فقالوا له اشرب مرقدا فقال ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى فأحمى له المنشار وقطعت رجله فقال ضعوها بين يدى ولم يتوجع ثم قال : لئن كنت ابتليت فى عضو فقد عوفيت فى أعضاء فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه أطلع من سطح على دواب الوليد

وقد كنت أرجو أن تعيش وإن أمت ... فخال رجاء الله دون رجائيا
ألا فليمت من شاء بعدك إنما ... عليك من الأقدار كان حذاريا

أخذها بعضهم فقال :

كنت السواد لمقلتى ... يبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر

(وقال آخر يرثى بعض أولاده)

وقاسمنى دهرى بنى مشاطرا ... فلما تقضى شطره عاد فى شطرى
ألا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ... سبقتك إذ كنا إلى غاية نجرى
وقد كنت ذا ناب وظفر على العدا ... فأصبحت لا يخشون نابى ولا ظفرى

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للخنساء : أخبرينى بأفضل بيت قلتيه فى أخيك فقالت :

وكنت أعير الدمع قبلك من بكى ... فأنت على من مات بعدك شاغله

ولأبى المحاسن الشواء فى صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته :

لم أنسه وبنو الملوك أمامه ... يدمون للأسف الأكف عضاضا
والثلج قد غطى الربا فكأنها ... من حزنها لبست عليه بياضا

(وقال آخر) وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنه أصلاب قوم تقصفوا
وليس نسيم المسك ريا حنوطه ... ولكنه ذاك الثناء المخلف

(وقال مقاتل بن عطية يرثى الوزير نظام الملك)

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها ... فردها عند ما عزت إلى الصدف

(وقال آخر) وقبرت وجهك وانصرفت مودعا ... بأبى وأمى وجهك المقبور
وأرى ديارك بعد وجهك قفرة ... والقبر منك مشيد معمور ... فالناس كلهم لفقدك واجد
فى كل بيت رنة وزفير ... عجبا لأربع أذرع فى خمسة ... فى جوفها جبل أشم كبير

وكان رجل توفى ولده يوم عيد فقال :

لبس الرجال جديدهم فى عيدهم ... ولبست حزن أبى الحسين جديدا ... أيسرنى عيد ولم أر وجهه
فيه ألا بعدا لذلك عيدا ... فارقته وبقيت أخلد بعده ... لا كان ذاك بقا ولا تخليدا
من لم يمت جزعا لفقد حبيبه ... فهو الخؤون مودة وعهودا ... مت مع حبيبك إن قدرت ولا تمش
من بعده ذا لوعة مكمودا ... ما أم خشف قد ملا أحشاءها ... حذرا عليه وجفنها تسهيدا
إن نام لم تهجع وطافت حوله ... فيبيت مكلوأ بها مرصودا ... منى بأوجع إذ رأيت نوائحا
لأبى الحسين وقد لطمن خدودا ... ولقد عدمت أبا الحسين جلادتى ... لما رأيت جمالك المفقودا
كنت الجليد على الرزايا كلها ... وعلى فراقك لم أجد تجليدا ... ولئن بقيت وما هلكت فإن لى
أجلا وإن لم أحصه معدودا ... لاموت لى إلا إذا الأجل انقضى ... فهناك لا أتجاوز المحدودا
حزنى عليك بقدر حبك لا أرى ... يوما على هذا وذاك مزيدا ... ما هد ركنى بالسنين وإنما
أصبحت بعدك بالأسى مهدودا ... يا ليت أنى لم أكن لك والدا ... وكذاك أنك لم تكن مولودا
فلقد شقيت وربما شقى الفتى ... بفراق من يهوى وكان سعيدا ... من ذم جفنا باخلا بدموعه
فليك جفنى لم يزل محمودا ... فلأنظمن مراثيا مشهورة ... تنسى الأنام كثيرا ولبيدا

فسقط بينها فمات فقال الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحدا لقد أبقيت جماعة (وقدم) على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى وعيالى ولا أعلم عبسيا يزيد ماله على مالى فعرسنا فى بطن واد فطرقنا سيل فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبى صغير وبعير فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير فسمعت صيحة الصغير فرجعت إليه فإذا رأس الذئب فى بطنه وهو يأكل فيه فرجعت إلى البعير فحطم وجهى برجليه فذهبت عيناى فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل فقال الوليد اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه (ومما نقلته) ما حكى عن مسلم بن الوليد أنه قال كنت يوما جالسا عند خباء لى بإزاء منزلى فمر بى إنسان أعرفه فقمت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلى لأضيفه وليس معى دراهم بل كان عندى زوج أخفاف فأرسلتهما

وجميع من نظم القريض مفارق ... ولدا له أو صاحبا مفقودا

وقال الفقيه منصور بن إسمعيل المصري :

سألت رسوم القبر عمن ثوى به ... لأعلم ما لاقى فقالت جوانبه
أتسأل عمن عاش بعد وفاته ... بإحسانه إخوانه وأقاربه

وقال الامام السبكي رحمه الله تعالى يرثي فضل الله العالم :

مصاب ليس يشبهه مصاب ... لذي الألباب إذ فقد الشهاب ... إمام قد حوى من كل علم
كنوزا نحوها يسمى الركاب ... ليبكي كل ذي علم عليه ... فكم علم له ضم التراب
وكم كلم موانع قد أتته ... ثناها وهي عاصية صعاب ... فسلطان البلاغ بغير شك
شهاب الدين ما فيه ارتياب ... سقى الله الكريم ثراه صوبا ... له من كل رضوان رضاب

وقال الصدفي :

يا غائبا في الثرى تبلى محاسنه ... الله يوليك غفرانا وإحسانا
إن كنت جرعت كأس الموت واحدة ... في كل يوم أذوق الموت ألوانا

وقال محمد بن عبد الله العتبي يرثي ابنا له :

أضحت بخدي للدموع رسوم ... أسفا عليك وفي الفؤاد كلوم
والصبر يحمد في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه مذموم

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثي بنتا له فقال :

عجبا للمنون كيف أتتها ... وتخطت عبد الحميد أخاكا
شملتنا مصيبتان جميعا ... فقدنا هذه ورؤية ذاكا

وله يرثي الأمير بليغا :

ألا إنما الدنيا غرور وباطل ... فطوبى لمن كفاه منها تفرغا
وما عجبي إلا لمن بات واثقا ... بأيام دهر ما وعى حتى يلدغا

وقال آخر : إلى الله أشكو أن كل قبيلة ... من الناس قد أفنى الحمام خيارها

وقال رجل يرثي صديقا له توفي وكان من الكرماء :

ما درى نعشه ولا حاملوه ... ما على النعش من عفاف وجود

ولبعض الكتاب في ابن مقلة :

استشعر الكتاب فقدك سالفا ... وقضت بصحة ذلك الأيام
فلذاك سودت الدواة كآبة ... أسفا عليك وشقت الأقلام

وقال الحسن بن مطير الأسدي يرثي معن بن زائدة رحمه الله تعالى :

ألما على معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن كنت أول حفرة ... من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ... ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتى عاش في معروفه بعد موته ... أناس لهم بالبر قد كان أوسعا
ولما مضى معن مضى الجود كله ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا

وقال آخر : عجبت لصبري بعده وهو ميت ... وقد كنت أبكيه دما وهو غائب

مع جاريتي لبعض معارفي فباعهما بتسعة دراهم واشترى بها ما قلته لها من الخبز واللحم فجلسنا نأكل وإذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان ففتحت الباب وخرجت فقال أنت مسلم ابن الوليد قلت نعم واستشهدت له بالضيف على ذلك فأخرج لي كتابا وقال هذا من الأمير يزيد ابن مزيد فإذا فيه قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا فأدخلته إلى داري وزدت في الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا فأكلنا ثم وهبت لضيفي شيئا يشتري به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة فوجدناه في الحلم فلما خرج استؤذن لي عليه فدخلت فإذا هو جالس على كرسي وبيده مشط يسرح به لحيته فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال ما الذي أقعدك عنا قلت ذات اليد وأنشدته قصيدة مدحته بها قال : أتدري لم حضرتك . قلت لا أدري قال كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه

وقال آخر: فديتك لم أصبر ولى فيك حيلة ولكن دعانى اليأس منك إلى الصبر

وقالت ريطة بنت عاصم :

وقفت فأبكتنى ديار عشيرتى على رزئهن الباكيات الحواسر
غدوا كسيوف الهند وراد حومة من الموت أعيا وردهن المصادر
فوارس حاموا عن حريمى وحافظوا بدار المنايا والقنا متشاجر
ولو أن سلمى نالها مثل رزئنا لهدت ولكن محمل الرزء عاسر

ولما قتل ابراهيم بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد وكانا فى حبسه ، وكان أبوه قائما يصلى فقال له محمد أوجز فأوجز وسلم ، فلما أتاه وضع الرأس فى حجره ، فقال أهلا وسهلا يا أبا القاسم تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى فى حقهم : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول :

فتى كان يحميه من العار سيفه ويكفيه سوآت الأمور اجتنابها

ثم قال للربيع قل لصاحبك المنصور قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعمتك أيام والملتقى غدا بين يدى الله تعالى . فكان ذلك فألا على المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة . وقيل لحسان ما بالك لم ترث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم أر شيئا إلا رأيته يقصر عنه . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(الباب الثالث والثمانون فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها)

قال الله تعالى : قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى . فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلا . ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو لقوله تعالى إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وقال تعالى وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون . فلا تبع أيها العاقل حياة قليلة تفنى بحياة كثيرة تبقى كما قال ابن عياض لو كانت الدنيا ذهبا يفنى والآخرة خزفا يبقى لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى ثم تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما أوتى سليمان عليه الصلاة والسلام حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن وسخر له الريح والطير والوحوش ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ، فوالله ما عدها نعمة مثل ما عددتموها ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجا من حيث لا يعلم فقال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر . وهذا فصل الخطاب لمن تدبر هذا وقد قال الله لجميع أهل الدنيا فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال تعالى وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أريك الدنيا جميعا فيها قلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدى وأتى إلى واد من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس الناس وعذرات وخرق بالية وعظام البهائم فقال يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم وهى اليوم صارت عظاما بلا جلد ثم هى صائرة عظاما رمما وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها فى الدنيا فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها وهذه

فقال لى يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات :

سل الخليفة سيفا من بنى مضر يمضى فيخترق الأجسام والهاما
لا يتقى عما يهم به كالدهر قد أوسع الناس إنعاما وإرغاما

فقلت : والله لا أدرى يا أمير المؤمنين فقال سبحان الله أيقال فيك مثل هذا ولا تدرى من قاله فسألت فقيل لى هو مسلم بن الوليد فأرسلت إليه فانهض بنا إلى الرشيد فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبلنا الأرض وسلمت فرد على السلام فأنشدته مالى فيه من شعر فأمر لى بمائتى ألف درهم وأمر لى يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال ماينبغى لى أن أساوى أمير المؤمنين فى العطاء انتهى (نادرة) قيل ترافق رجلان فى طريق فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر قد صار لى عليك حق وإنى رجل من الجان ولى إليك حاجة قال وما هى قال إذا وصلت إلى المكان الفلانى من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك فاشتره منها واذبحه

العظام عظام دوابهم التى كانوا يتجبون عليها أطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك. قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو على سرير من الليف ، وقد أثر الشريط فى جنبه فبكى عمر رضى الله تعالى عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عمر فقال تذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من سعة الدنيا وأنت رسول الله وقد أثر الشريط بجنبيك فقال صلى الله عليه وسلم هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا فى الآخرة . وروى عن الضحاك قال لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدا ريح الدنيا وفقدا ريح الجنة غشى عليهما أربعين يوما من نتن الدنيا . وعن ابن معاذ قال الحكمة تهوى من السماء إلى القلوب فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال ركون إلى الدنيا وهم عدو وحسد أخ وحب شرف. وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى يا على أربع خصال من الشقاء جمود العين وقسوة القلب وبعد الأمل وحب الدنيا. وروى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين أنيابها بادية مشوهة الخلق لا يراها أحد إلا هرب منها فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم أتعرفون هذه فيقولون لا نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التى تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها . وعن الفضيل بن عياض أنه قال : جعل الخير كله فى بيت واحد وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا وجعل الشر كله فى بيت واحد وجعل مفتاحه حب الدنيا . وقيل إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فر وإن تركته تبعك وفيه قال بعضهم :

إنما الرزق الذى تطلبه   يشبه الظل الذى يمشى معك
أنت لا تدركه متبعا   وهو وإن وليت عنه تبعك

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال :

رأيت خيال الظل أعظم عبرة   لمن كان فى علم الحقائق راق
شخوصا وأصواتا يخالف بعضها   لبعض وأشكالا بغير وفاق
تجىء وتمضى بابة بعد بابة   وتفنى جميعا والمحرك باق

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك :

ما أنعم الله على عبده   بنعمة أوفى من العافيه
وكل من عوفى فى جسمه   فانه فى عيشة راضيه
والمال حلو حسن جيد   على الفتى لكنه عاريه
ما أحسن الدنيا ولكنها   مع حسنها غدارة فانيه

وتوفى رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات :

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا   أن الحمام بكم علينا قادم
لو تنزلون بشعبنا لعرفتمو   أن المفرط فى التزود نادم
لا تستعزوا بالحياة فانكم   تبنون والموت المفرق هادم
ساوى الردى ما بيننا فى حفرة   حيث المخدم واحد والخادم

وقال آخر: عن قليل أصير كوم تراب   وتقول الرفاق هذا فلان
صار تحت التراب عظما رميما   وجفاه الأصحاب والخلان

وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر :

ألبس إلى ذا صار آخر أمرنا   فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبى يا نفس مما ترينه   فكل أمور الناس هذا مصيرها

فقال له الآخر وأنا أيضا لى إليك حاجة قال وما هى قال إذا ركب الجنى إنسانا ما يعمل له قال : تشد إبهاميه بسير من جلد اليحمور وتقطر فى أذنيه من ماء السذاب أربعا وفى اليسرى ثلاثا فان الراكب له يموت ثم تفرقا ودخل الإنسى فضل ما أمره به الجنى من شراء الديك وذبحه فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له أنت ساحر ومن حين ذبحت الديك سلبت صبية عندنا عقلها فلا نفلتك إلا إلى صاحب المدينة قال فقلت لهم ائتونى بسير من جلد اليحمور وقليل من ماء السذاب ودخلت على الصبية فربطت إبهاميها وقطرت ماء السذاب فى أذنها فسمعت صوتا يقول آه علمتك على نفسى ثم مات من ساعته وشفى الله تلك الشابة واليحمور دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر وقيل هو كالأيل يلقى قرنيه كل سهنة وهما صامتان وقال الجوهرى هو الحمار الوحشى (ومن اللطائف) ما حكاه أبو الفرج

وقال شرف الدين بن أسد :

يا من تملك ملكا لا بقاء له	حملت نفسك آثاما وأوزارا
هل الحياة بذى الدنيا وإن عذبت	إلا كطيف خيال فى الكرا زارا

وقال بعضهم:	وغاية هذى الدار لذة ساعة	ويعقبها الأحزان والهم والندم
	وهاتيك دار الأمن والعز والتقى	ورحمة رب الناس والجود والكرم
وقال غيره:	حسنت ظنك بالأيام إذ حسنت	ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
	وسالمتك الليالى فاغتررت بها	وعند صفو الليالى يحدث الكدر
وقال آخر:	فان كنت لاتدرى متى الموت فاعلمن	بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

ابن آدم أين الأولون والآخرون . أين نوح شيخ المرسلين . أين ادريس رفيع رب العالمين . أين ابراهيم خليل الرحمن . أين موسى الكليم من بين سائر النبيين . أين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين وإمام السائحين . أين محمد خاتم النبيين . أين أصحابه الأبرار . أين الأمم الماضية . أين الملوك السالفة . أين القرون الخالية . أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان . أين الذين قهروا الأبطال والشجعان . أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب . أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب . أين الذين تاهوا على الخلائق كبرا وعتيا . أين الذين راحوا فى الحلل بكرة وعشيا . أين الذين افتخروا بالأجناد . أين أصحاب الوزراء والقواد . أين أصحاب السطوة والأعوان . أين أصحاب الإمرة والسلطان . أين أصحاب الأعمال والولايات . أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات . أين الذين قادوا الجيوش والعساكر . أين الذين عمروا القصور والدساكر . أين الذين أعطوا النصر فى مواطن الحروب والمواقف . أين الذين آمنوا بسطوتهم كل خائف . أين الذين ملؤا ما بين الخافقين فخرا وعزا . أين الذين فرشوا القصور حريرا وقزا . أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزا . هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . أفناهم الله مفنى الأمم وأبادهم مبيد الرمم وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل والصخور . فأصبحوا لاترى إلا مساكنهم لم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا أسلمهم الأحباء والأولياء وهجرهم الإخوان والأصفياء ونسيهم الأقرباء والبعداء لو نطقوا لأنشدوا :

مقيم بالحجون رهين رمس	وأهلى راحلون بكل واد
كأنى لم أكن لهمو حبيبا	ولا كانوا الأحبة فى السواد
فموتوا بالسلام فان أبيتم	فأوموا بالسلام على البعاد

وقالوا لا فخر فيما يزول ولا غنى فيما لا يبقى . وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين : قدر يغلى وكنيف يملى وفى هذا المعنى قال الشاعر :

ولقد سألت الدار عن أخبارهم	فتبسمت عجبا ولم تبدى
حتى مررت على الكنيف فقال لى	أموالهم ونوالهم عندى

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال للرشيد لما قال له عظنى وكان بيده شربة ماء فقال له يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك قال نعم . قال يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك قال نعم . فقال له لا خير فى ملك لايساوى شربة ولا بولة . وقال ابن شبرمة إذا كان البدن سقيما لم ينفعه الطعام وإذا كان القلب مغرما لم تنفعه الموعظة . وروى أن أبا العتاهية مر بدكان وراق وإذا بكتاب فيه :

فى كتاب النساء وابن الكردبوس فى الاكتفاء قالا كانت عند أبى العباس السفاح أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله المخزومى وكان قد أحبها حبا شديدا ووقعت فى قلبه موقعا عظيما فحلف لها أن لا يتخذ عليها سرية ولا يتزوج عليها امرأة فوفى لها بذلك فخلا به خالد بن صفوان يوما وقال له يا أمير المؤمنين فكرت فى أمرك وسعة ملكك وأنك قد ملكت نفسك امرأة واقتصرت عليها فاذا مرضت مرضت وإذا حاضت حضت وحرمت نفسك التلذذ بالسرارى واستطراف الجوارى ومعرفة اختلاف حالاتهن وأجناس التمتع بما تشتهى منهن فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء والعنيقة الأدماء والزهية السمراء والمولدات الفتيات اللواتى يفتن بحلاوتهن ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمراء والحمراء من مولدات البصرة والكوفة وذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والأوساط المختصرة والثدى النواهد المحققة وحسن زيهن وشكلهن لرأيت فتنا ومنظرا حسنا

لا ترجع الأنفس عن غيها   ما لم يكن منها لها زاجر

فقال لمن هذا البيت فقيل لأبي نواس قاله للخليفة هرون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال وعشق الملاح فقال وددت أنه لي بنصف شعري . (وممن) استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا ونقضها وزوالها ابراهيم بن أدهم بن منصور كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ لما زهد الدنيا زهد في ثمانين سريرا قال ابن بشار سألت ابراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا فقال كان أبي من ملوك خراسان وكان قد حبب إليّ الصيد فبينما أنا راكب فرسي وكلبي معي إذ رأيت ثعلبا أو أرنبا فحركت فرسي نحوه فسمعت نداء من ورائي يا ابراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت . فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحدا فقلت لعن الله الشيطان ثم حركت فرسي فسمعت نداء أعلى من الأول يا ابراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر شيئا فقلت لعن الله الشيطان ثم حركت فرسي فسمعت النداء من قربوس سرجي يا ابراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت . فوقفت وقلت هيهات جاءني النذير من رب العالمين والله لاعصيت ربي ما عصمني بعد يومي هذا . فتوجهت إلى أهلي وخليت فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت جبته وكساءه وألقيت إليه ثيابي فلم أزل أرض تقلني وأرض تضعني حتى صرت إلى العراق فعملت بها أياما فلم يصف لي شيء من الحلال فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال عليك بالشام قال فانصرفت إلى بلد يقال لها المنصورية فعملت بها أياما فلم يصف لي شيء من الحلال فسألت بعض المشايخ فقال إن أردت الحلال فعليك بطرسوس فان المباحات بها والعمل فيها كثير فانصرفت إليها . قال فبينما أنا قاعد على باب البحر إذ جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستانا . فتوجهت معه فأقمت في البستان أياما كثيرة فاذا خادم له قد أقبل ومعه أصحاب له ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرته فقعد في مجلسه ثم قال يا ناظورنا فأجبته . قال اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه فأتيته برمان فكسر الخادم واحدة فوجدها حامضة فقال يا ناظورنا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا ولا تعرف الحلو من الحامض ، فقلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيئا ولا أعرف الحلو من الحامض . قال فغمز الخادم أصحابه وقال ألا تعجبون من هذا ثم قال لي لو كنت ابراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة . قال ثم تحدث الناس بذلك وجاءوا إلى البستان . فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون وأنا هارب منهم . وكان يأكل من كسب يده وكان يحصد ويحفظ البساتين ويعمل في الطين فبينما هو يوما يحرس كرما إذ مر به جندي فقال اعطنا من هذا العنب فقال له إن صاحبه لم يأذن لي فضربه بالسوط فطأطأ رأسه وقال اضرب رأسا طالما عصى الله يا سيدي الجندي فاستحى الرجل وتركه ومضى . وروى أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسيح في الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملق على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه : أنا دوسم الملك تملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وفضضت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشي والحجر وسادي فمن رآني فلا تغره الدنيا كما غرتني . وقال وهب بن منبه خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك . فقالوا يا نبي الله إنا جياع . فأوحى الله تعالى إليه أن ائذن لهم في قوتهم فأذن لهم فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول زرعي وأرضي ورثتها من أبي وجدي فباذن من تأكلون يا هؤلاء قال فدعا عيسى ربه أن يبعث جميع من ملكها من لدن

وأين أنت ياأمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن من الحياء والتخفر والدلال والتعطر ولم يزل خالد يجيد في الوصف ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة كلامه فلما فرغ قال له أبو العباس : ويحك والله ماسلك مسامعي قط كلام أحسن مما سمعته منك فأعده علي فأعاده عليه وزاد فيه ثم انصرف خالد وبقي العباس متفكرا مغموما فدخلت عليه أم سلمة وكانت تبره كثيرا وتتحرى مسرته وموافقته في جميع ما أراده فقالت له ما لي أراك مغموما ياأمير المؤمنين فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك أمر ارتعت له قال لم يكن شيء من ذلك قالت فما قصتك فجعل يكتم عنها فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد قالت فما قلت لابن الفاعلة قال سبحان الله ينصحني وتشتمينه فخرجت من عنده وأرسلت إلى خالد عبيدا وأمرتهم بضربه والتنكيل به قال خالد وانصرفت إلى منزلي مسرورا بما رأيت من إصغاء أمير المؤمنين إلى كلامي وإعجابه بما ألقيت

آدم إلى تلك الساعة فاذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة يقولون أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا ففر الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى ولكن لا يعرفه . فلما عرفه قال معذرة إليك يا نبى الله إنى لم أعرفك زرعى ومالى حلال لك فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم ليس لك أرض ولامال . ولما مات اسكندر قال أرسطاطاليس أيها الملك لقد حركتنا بسكونك . وقال بعض الحكماء من أصحابه : لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس . أخذه أبو العتاهية فقال :

كفى حزنا بدفنك ثم إنى ... نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت فى حياتك لى عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال عبد الله بن المعتز :

نسير إلى الآجال فى كل ساعة ... فأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم أر مثل الموت حق كأنه ... إذا ما تخطته الأمانى باطل
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا ... فكيف به والشيب فى الرأس شاعل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى ... فعمرك أيام تعد قلائل

(وقال) عبد الله بن المعلم خرجنا من المدينة حجاجا فاذا أنا برجل من بنى هاشم من بنى العباس ابن عبد المطلب قد رفض الدنيا وأقبل على الآخرة فجمعتنى و إياه الطريق فأنست به وقلت له هل لك أن تعادلنى فان معى فضلا من راحلتى فجزانى خيرا وقال لو أردت هذا لكان سهلا ، ثم أنس إلى فجعل يحدثنى فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد ونعمة طائلة ومال كثير و بذخ زائد فأمرت خادما لى أن يحشو لى فراشا من حرير ومخدة بورد نثير ففعل فانى لنائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم فقمت إليه فأوجعته ضربا ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدة فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة فهزنى وقال أفق من غشيتك وانتبه من رقدتك ثم أنشأ يقول :

يا خل إنك ان توسد لينا ... وسدت بعد اليوم صم الجندل
فامهد لنفسك صالحا تسعد به ... فلتندمن غدا إذا لم تفعل

فانتبهت مرعوبا وخرجت من ساعتى هاربا إلى ربى كما ترانى ثم أنشأ يقول :

من كان يعلم أن الموت يدركه ... والقبر مسكنه والبعث يخرجه ... وأنه بين جنات مزخرفة
يوم القيامة أو نار ستنضجه ... فكل شىء سوى التقوى به سمج ... ومن أقام عليه منه أسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا ... لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

قال وهب بن منبه أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذى يزن بأرض صنعاء اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوبا بالقلم المسندى فترجم بالعربى فاذا هى أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهى هذه الأبيات :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل ... واستنزلوا من أعالى عز معقلهم
فأسكنوا حفرة يابئس مانزلوا ... ناداهمو صارخ من بعد مادفنوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت محجبة ... وكان من دونها الأستار والكلل ... فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم
تلك الوجوه عليها الدود يقتتل ... قد طالما أكلوا دهرا وماشربوا ... فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

إليه وأنا لا أشك فى الصلة ، فلم ألبث أن جاء العبيد فلما رأيتهم أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة فوقفوا على وسألوا عنى فعرفتهم نفسى فأهوى إلى أحدهم بعمود كان فى يده ، فبادرت إلى الدار وأغلقت الباب ومكثت أياما لا أخرج من منزلى وطلبنى أمير المؤمنين طلبا شديدا فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا على فقالوا أجب أمير المؤمنين فأيقنت بالموت وقلت : لم أر دم شيخ أضيع من دمى وركبت ، فلم أصل إلى الدار حتى استقبلنى عدة رسل ، فدخلت على أمير المؤمنين فوجدته جالسا فأومأ إلى بالجلوس فثاب إلى عقلى ، وفى المجلس باب عليه ستور وقد أرخيت وخلفه حركة فقال لى يا خالد مذ ثلاث لم أرك ، قلت كنت عليلا يا أمير المؤمنين ، قال أنت وصفت فى آخر دخلة لى من أمر النساء والجوارى ما لم يطرق سمعى قط كلام أحسن منه فأعده على ، قلت نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضرة من الضرر ،

وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب فى بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه انطلق فاطلب لنا طعاما من هذه القرية وأعطاه ما يشترى به فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلى فجاء الرجل بثلاثة أرغفة فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة فأبطأ عليه فأكل رغيفا وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة ، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين فقال له أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل ما كانا إلا رغيفين فأكلاهما ثم مرا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحدا منها فجاءه فذكاه وأكلا منه فقال له عيسى بالذى أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث فقال ما كانا إلا اثنين ثم مرا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية فأنطق الله له لبنة فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد وصاحبه يتعجب مما رأى فقال له عيسى بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث فقال ما كانا إلا اثنين فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج فأخذ عيسى صلوات الله عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى عليه الصلاة والسلام بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث فقال ما كانا إلا اثنين . فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام وقيل ثلاثة أكوام من الرمل فقال لها كونى ذهبا بإذن الله فكانت فلما رآها الرجل قال هذا مال فقال عيسى نعم واحدة لى وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف الثالث فقال الرجل أنا صاحب الرغيف الثالث فقال عيسى عليه الصلاة والسلام هى لك كلها ثم فارقه عيسى ، وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه فمر به ثلاثة نفر فقتلوه فقال اثنان منهما للثالث انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق ، فلما غاب قال أحدهما للآخر إذا جاء قتلناه واقتسمنا المال بيننا فقال الآخر نعم ، وأما الذى ذهب ليشترى الطعام فإنه أضمر لصاحبيه السوء ، وقال أجعل لهما فى الطعام سما فإذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسى ، فوضع السم فى الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه وأكلا الطعام فماتا فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها فقال هكذا الدنيا تفعل بأهلها . وقال الهيثم بن عدى وجد غار فى جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من الذهب وعند رأسه لوح من الذهب أيضا مكتوب فيه بالرومية : أنا سبا بن نواس خدمت عيصو بن اسحق بن ابراهيم خليل الرب الأكبر وعشت بعده دهرا طويلا ورأيت عجبا كثيرا ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبابه ويعلم أنه صائر إليهم ثم لا يتوب وقد علمت أن الأجلاف الجفاة يستنزلوننى عن سريرى ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان ويترأس الصبيان فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلا ومات ذليلا. وعن عمرو بن ميمون أنه قال افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه أنا بهرام ملك فارس كنت أعظمهم بطشا وأقساهم قلبا وأطولهم أملا وأحرصهم على الدنيا . قد ملكت البلاد وقتلت الملوك وهزمت الجيوش وأذللت الجبابرة وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلى ولم أستطع أن أفتدى به من الموت إذ نزل بى . ويروى فى الاسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينا هو فى سياحته إذ مر بجمجمة نخرة فسأل الله فى أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت يا نبى الله أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ورزقت ألف ولد وافتضضت ألف بكر وهزمت ألف جيش وفتحت ألف مدينة فما كان كل ذلك

وإن أحدا لم يك عنده امرأتان إلا كان فى ضرر وتنغيص ، قال ويحك لم يكن هذا فى حديثك ، قلت نعم يا أمير المؤمنين إن الثلاث من النساء كأثافى فى القدر تغلى عليها أبدا ، وإن الأربع شر مجموع لصاحبه يهرمنه ويسقمنه ويضعفنه ، وإن أبكار الإماء رجال ولكن لا خصى لهن ، قال : فقال أبو العباس برئت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن سمعت منك من هذا شيئا قط ، قال خالد بلى والله يا أمير المؤمنين وعرفتك أن بنى مخزوم ريحانة قريش وأن عندك ريحانة الرياحين وأنت تطمح بعينك إلى الإماء والسرارى ، قال خالد فقال لى أبو العباس ويحك أتكذبنى ، قلت أفتقتلنى يا أمير المؤمنين قال فسمعت ضحكا من وراء الستر وقائلا يقول صدقت والله يا عماه هذا الذى حدثته ولكنه بدل وغير ونطق على لسانك بما لم تنطق به ، قال خالد : فقمت عنهما وتركتهما يتراودان فى أمرهما فما شعرت إلا برسل

إلا كحلم النائم ثمن سمع قصتي فلا يغتر بالدنيا ، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديدا حتى غشي عليه. ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه وبادت أهله وأظلمت نواحيه هذه الأبيات

هذى منازل أقوام عهدتهم ... يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذمم
تبكي عليهم ديار كان يطربها ... ترنم المجد بين الجود والكرم

وقيل في المعنى : بالله ربك كم قصر مررت به ... قد كان أعمر باللذات والطرب
نادى غراب المنايا في جوانبه ... وصاح من بعده بالويل والحرب

وفيه : أيها الرافع البناء رويدا ... لا يرد المنون عنك البناء

(وحكى) أن رجلين تنازعا في أرض فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت إني كنت ملكا من الملوك ملكت الدنيا ألف سنة ثم صرت رميما ألف سنة ثم أخذني خزاف وعملني إناء فاستعملت ألف سنة حتى تكسرت وصرت ترابا فأخذني طواب وعملني لبنا وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة فلم تتنازعان في هذه الأرض وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون . والله سبحانه وتعالى أعلم (وروى) أن ملكا بنى قصرا وقال انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه فقال رجل أرى فيه عيبين فقالوا له وما هما قال يموت الملك ويخرب القصر قال صدقت ثم أقبل على الله وترك القصر والدنيا . وقيل سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته وقطعه للقفار والفلوات فقال أعجب شيء رأيته أني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت وما زالت كذلك من عهد الطوفان ثم غبت عنها خمسمائة سنة ومررت بها فإذا هي خاوية على عروشها ولم أر أحدا أسأله وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت أين المدينة التي ههنا فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ههنا مدينة ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية فقلت للغواصين منذ كم هذا البحر هنا فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه وإذا مكانه غيضة وصيادون يصيدون فيها السمك في زوارق صغار فقلت لبعضهم أين البحر الذي كان ههنا فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ههنا بحر فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك فإذا هو بمدينة على الحالة الأولى والحصون والقصور والأسواق قائمة فقلت لبعضهم أين الغيضة التي كانت ههنا ومتى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت إليها فإذا عاليها سافلها وهي تدخن بدخان شديد فلم أر أحدا أسأله ثم أتيت راعيا فسألته أين المدينة قال سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان . فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي فسبحان مبيد العباد ومفنى البلاد ووارث الأرض ومن عليها وباعث من خلق منها بعد رده إليها . (ولبعضهم) :

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكي الأحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بها أسائل أهلها ... عن حالها مترحما أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها ... فارقت من تهوى وعز الملتقى

ولبعضهم :

أيها الربع الذي قد دثرا ... كان عاينا ثم أضحى أثرا ... أين سكانك ماذا فعلوا

أم سلمة معهم المال وتخوت ثياب ، فقالوا لي تقول لك أم سلمة إذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا انتهى . ومن البدائع ما يحكى أن السلطان الملك الكامل أصبح متمرضا فأشار عليه الأطباء باستعمال شراب ليمون شتوي فأمر بعض الخدم بإحضاره ، فمضى الخادم وأحضر شراب ليمون سائل ، فقال الطبيب : ما طلبت إلا شتويا وهذا سائل ردوه ، فقال الأمير صلاح الدين والله ما من عادة مولانا السلطان أن يرد سائلا فقال السلطان والله ما أرد سائلا هاتوه أحسنت والله يا صلاح الدين ، فأكله وكان الشفاء فيه . ونظير ذلك ما حكي أنه كان بالقاهرة شاب حسن الوجه يسمى بركن الدين وله معلم اسمه إبراهيم كان ربما يتهم به وكان بعض الأدباء يميل إلى هذا الصبي وله فيه غزل حسن . قال الناقل فركبت يوما مع الأمير صلاح الدين فمررنا على باب ذلك الصبي فوجدت ذلك الأديب قريبا من الباب ، فقلت له أي شيء

خبرن عنهم سقيت المطرا فلقد نادى منادى دارهم رحلوا واستودعونى عبرا

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام : أوحى الله إلى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه يا دنيا مرى على أوليائى ولا تحلى لهم فتفتنيهم . وقال بعض الحكماء الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبها شربا ازداد عطشا أو كالكأس من عسل وفى أسفله سم فللذائق منه حلاوة عاجلة وفى أسفله الموت أو كحلم النائم يفرح فى منامه فاذا استيقظ زال فرحه أو كالبرق يضىء قليلا ثم يذهب . ولما بنى المأمون قصره الذى ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلا يقول :

أتبنى بناء الخالدين وإنما بقاؤك فيها إن عقلت قليل
لقد كان فى ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحيل

قال فلم يلبث بعدها إلا قليلا ومات وقال :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع

ووجد مكتوب على قصر باد أهله :

هذى منازل أقوام عهدتهم فى خفض عيش نفيس ماله خطر
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا إلى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفى نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله :

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

(وروى) أن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبرا . فقال قبر من هذا فقالوا قبر خباب بن الأرت فوقف عليه وقال : رحم الله خبابا أسلم راغبا وهجر طائعا وعاش مجاهدا وابتلى فى جسمه آخرا ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . ثم مشى فاذا هو بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون . اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب وقنع بالكفاف ورضى عن الله تعالى ، ثم قال يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت وأما الديار فقد سكنت وأما الأموال فقد قسمت وهذا ما عندنا فما عندكم ثم التفت إلى أصحابه وقال : أما أنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى . والله سبحانه وتعالى أعلم

الباب الرابع والثمانون فيما جاء فى فضل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب

(ولنذكر أربعين حديثا فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم)

(الحديث الأول) عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على صلت عليه الملائكة ومن صلت عليه الملائكة صلى الله عليه ومن صلى الله عليه لم يبق شىء فى السموات ولا فى الأرض إلا صلى عليه (الحديث الثانى) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبا عليه ذنبا ثلاثة أيام (الحديث الثالث) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على مرة خلق الله من قوله ملكا له جناحان جناح بالمشرق وجناح بالمغرب رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول اللهم صل على عبدك ما دام يصلى على نبيك (الحديث الرابع) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على مرة صلى الله عليه

تصنع ههنا ، فقال أطوف بالبيت فلعلى أستلم الركن أو أصل إلى مقام إبراهيم فاستحسنت ذلك منه ، وسألنى الأمير صلاح الدين ما معنى ذلك فغالطته فى الجواب ، فأقسم أن لابد أن أخبره ، فأخبرته ، فاستحسن ذلك منه ، وأمر باحضاره إلى مجلسه ونال منه راحة . ذكر ابن الجوزى فى كتاب تلقيح فهوم الأدباء عن محمد بن عثمان بن أبى خيثمة السلمى عن أبيه عن جده قال : بينما عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة فى سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم من سبيل إلى نصر ابن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل
سهل المحيا كريم غير ملجاج
تنميه أعراق صدق حين تنسبه
أخى وفاء عن المكروب فراج

فقال عمر رضى الله تعالى عنه لا أدرى أن معى بالمدينة رجلا تهتف به العواتق

بها عشرا ومن صلى على عشرا صلى الله عليه بها مائة ومن صلى على مائة صلى الله عليـه بها ألفا ومن صلى على ألفا لم يعذبه الله بالنار (الحديث الخامس) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على مرة كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات (الحديث السادس) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى جبريل يوما قال يا محمد جئتك ببشارة لم آت بها أحـدا قبلك وهى أن الله تعالى يقول لك من صلى عليـك من أمتك ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائما قبل أن يقعد وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم فعند ذلك خر ساجدا لله شا كرا (الحديث السابع) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على فى الصباح عشرا محيت عنه ذنوب أربعين سنة (الحديث الثامن) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة (الحديث التاسع) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة ووكل الله به ملكا حين يدفن فى قبره يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية (الحديث العاشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على فى يوم مائة مرة قضيت له فى ذلك اليوم مائة حاجة (الحديث الحادى عشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقربكم منى مجلسا أ كثركم على صلاة (الحديث الثانى عشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على ألف مرة بشر بالجنة قبل موته (الحديث الثالث عشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنى جبريل عليه السلام وقال لى يا رسول الله لا يصلى عليك أحد إلا ويصلى عليه سبعون ألفا من الملائكة (الحديث الرابع عشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء بعد الصلاة على لا يرد (الحديث الخامس عشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة على نور على الصراط وقال عليه الصلاة والسلام لا يلج النار من يصلى على (الحديث السادس عشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جعل عبادته الصلاة على قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة (الحديث السابع عشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسى الصلاة على أخطأ طريق الجنة (الحديث الثامن عشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله ملائكة فى الهواء بأيديهم قراطيس من نور لا يكتبون إلا الصلاة على وعلى أهل بيتى (الحديث التاسع عشر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن عبدا جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا ولم تكن فيها الصلاة على ردت عليه ولم تقبل منه (الحديث العشرون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بى أ كثرهم على صلاة (الحديث الحادى والعشرون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة تصلى عليه ما لم يندرس اسمى من ذلك الكتاب (الحديث الثانى والعشرون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى الصلاة على من أمتى فأستغفر لهم (الحديث الثالث والعشرون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على كنت شفيعه يوم القيامة ومن لم يصل على فأنا برىء منه (الحديث الرابع والعشرون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق قالوا يا رسول الله ولم ذاك قال سمعوا اسمى ولم يصلوا على (الحديث الخامس والعشرون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمر برجل إلى النار فأقول ردوه إلى الميزان فأضع له شيئا كالأنملة معى فى ميزانه وهو الصلاة على فيرجح ميزانه وينادى سعد فلان (الحديث السادس والعشرون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع قوم فى مجلس ولم يصل على فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغسلوه (الحديث السابع والعشرون) قال رسول الله

فى خدورهن علىّ بنصر ابن حجاج ، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فاذا هو من أحسن الناس وجها وأحسنهم شعرا ، فقال عمر عزيمة من أمير المؤمنين لتأخـذن من شعرك ، فأخذ من شعره فخرج من عنـده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر فقال له اعتم فاعتم فافتتن الناس بعينيه ، فقال له عمر والله لا تساكننى فى بلدة أنا فيها ، فقال يا أمير المؤمنين ماذنبى ، قال هو ما أقول لك، ثم سيره إلى البصرة ، وخشيت المرأة التى سمع منها عمر ما سمع أن يبدو من عمر إليها شىء ، فدست إليه أبياتا وهى :

قل للإمام الذى تخشى بوادره
مالى وللخمر أو نصر بن حجاج
لاتجعل الظن حقا أن تبينه
إن السبيل سبيل الخائف الراجى
إنّ الهوى ذم بالتقوى لتحجبه
حتى يقرّ بالجام وإسراج

قال : فبكى عمر رضى الله تعالى عنه وقال الحمد لله الذى ذم الهوى بالتقوى قال وطال مكث نصر بن

صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى وكل بقبري ملكا أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلي على أحد إلى يوم القيامة إلا بلغني اسمه وقال يا رسول الله إن فلان ابن فلانة صلى عليك (الحديث الثامن والعشرون) عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أمحى للذنوب من الماء لسواد اللوح (الحديث التاسع والعشرون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك ومن روحك لجسدك فأكثر من الصلاة على النبي الأمي صلى الله عليه وسلم (الحديث الثلاثون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ملكا أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك ولم يبادر إلى اقتلاعها فغضب الله عليه وكسر أجنحته فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله فسأل الله فيه فأمره أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم فصلى عليه فغفر الله له ورد عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (الحديث الحادي والثلاثون) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت من صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مرات وصلى ركعتين ودعا الله تعالى تقبل صلاته وتقضى حاجته ودعاؤه مقبول غير مردود (الحديث الثاني والثلاثون) عن زيد بن حارثة قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عليه فقال صلى الله عليه وسلم صلوا على واجتهدوا في الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد (الحديث الثالث والثلاثون) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوا على فإن صلاتكم على زكاة لكم واسألوا الله لي الوسيلة (الحديث الرابع والثلاثون) عن سهل ابن سعد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا صلاة لمن لم يصل على نبيه صلى الله عليه وسلم (الحديث الخامس والثلاثون) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على (الحديث السادس والثلاثون) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال جزى الله عنا محمدا خيرا وجزى الله نبينا محمدا بما هو أهله فقد أتعب كاتبيه (الحديث السابع والثلاثون) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجعلوا بيوتكم قبورا وصلوا على فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم (الحديث الثامن والثلاثون) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد يصلي على إلا رد الله على روحي حتى أرد عليه (الحديث التاسع والثلاثون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقربكم مني منزلا يوم القيامة أكثركم على صلاة (الحديث الأربعون) نقل الشيخ كمال الدين الدميري رحمه الله تعالى عن شفاء الصدور لابن سبع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يلقى الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة على فإنه من صلى على في كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبدا وهدمت ذنوبه ومحيت خطاياه ودام سروره واستجيب دعاؤه وأعطي أمله وأعين على عدوه وعلى أسباب الخير وكان ممن يرافق نبيه في الجنان. اللهم صل على سيد المرسلين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين الذي أنزل عليه في محكم الكتاب العزيز تعظيما له وتوقيرا يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا. فهذا خطاب خاص الخاص ولم يخاطب الله أحدا من المرسلين ولا من الأنبياء ولا رسولا بالرسالة إلا سيد خلقه محمدا صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى نادى أبا البشر يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، ويانوح اهبط بسلام منا، ويا إبراهيم أعرض عن هذا، وياداود إنا جعلناك

حجاج بالبصرة فخرجت أمه يوما بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر، فإذا هو قد خرج في إزار ورداء وبيده الدرة، فقالت يا أمير المؤمنين والله لأقفن أنا وأنت بين يدي الله تعالى وليحاسبنك الله أيبيتن عبدالله وعاصم إلى جنبيك وبيني وبين ابني الفيافي والأودية؟ فقال لها إن ابني لم تهتف بهما العواتق في خدورهن ثم أرسل عمر إلى البصرة بريدا إلى عتبة، فقال عتبة من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فإن البريد خارج فكتب نصر بن حجاج بسم الله الرحمن الرحيم، سلام عليك يا أمير المؤمنين، أما بعد فاسمع مني هذه الأبيات:

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني
وما نلت من عرضي عليك حرام
فأصبحت منفيا ملوما بظنة
وبعض أماني النساء غرام
ظننت بي الظن الذي ليس بعده
بقاء ومالي جرمة فألام
فيمنعني مما تقول تكرمي
وآباء صدق سالفون كرام

خليفة فى الأرض، ويا عيسى اذكر نعمتى عليك وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك. يا أيها الرسول لايحزنك. يا أيها النبي حسبك الله. يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال. يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين. يا أيها النبي إذا طلقتم النساء. يا أيها النبي لم تحرم يا أيها النبي اتق الله. يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا. وماناداه باسمه يامحمد كغيره إلافى أربع مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد صلى الله عليه وسلم. الأول قوله عز وجل وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد قد قتل محمد وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية ولو قال وما رسولى لقال الأعداء ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمد. الثانى قوله عز وجل ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين. الثالث قوله عز وجل الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد فلو قال وآمنوا بما نزل على رسولى لقال الأعداء ليس هو فعرفه باسم محمد صلى الله عليه وسلم. الرابع قوله عز وجل محمد رسول الله والحكمة فى ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فكان من الأعداء من يقول من هو رسوله الذى أرسله فعرفه باسمه فقال محمد رسول الله وسماه تعالى باسمه أحمد فى موضع واحد وله حكمة وهى أن الله تعالى لما أرسل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بنى اسرائيل يابنى اسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة التى أنزلت على موسى ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد لأنهم كانوا يعرفونه فى التوراة أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد ولا أحمد وإنما ذكر ذلك إعلاما به وتعريفا له وما ناداه الا بالنبوة والرسالة فقال يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا أى شاهدا بالإيمان للمؤمنين ومبشرا لأهل التمجيد ونذيرا لأهل التجحيد وقيل شاهدا لأهل القرآن ومبشرا لهم بالغفران ونذيرا لأهل الكفر والعصيان وقيل شاهدا لأمتك ومبشرا بشفاعتك ونذيرا لمن ارتكب مخالفتك وقيل شاهدا بالمنة ومبشرا بالجنة وقوله وداعيا إلى الله باذنه أى يدعو الناس بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله قال تعالى وأنه لما قام عبد الله يدعوه وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه داعيا فقال أنا الداعى إلى الله وقوله تعالى وسراجا منيرا أى يهتدى به كما يهتدى بالسراج فى ظلمة الليل (فان قلت) ما الحكمة فى قوله تعالى وسراجا منيرا ولم يقل قمرا منيرا. فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر لأن المراد بالسراج هنا الشمس قال تعالى: وجعل الشمس سراجا والشمس أعم نفعا ونورا من القمر وقيل المراد بقوله تعالى وسراجا منيرا السراج الذى يقتبس منه لأن القمر لاتصل إليه الأيدى حتى يقتبسون منه والسراج إذا كان فى بلد يملأ ذلك البلد نورا لأن كل من جاء يقتبس منه والقمر ليس كذلك ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته صلى الله عليه وسلم ظلاما فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الشباب على ومن الموالى زيد ومن العبيد بلال رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس وصهيب من الروم وبلال من الحبشة ووفد الوفود واقتبسوا وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها حتى امتلأت الأرض من نور سراجه فهو صلى الله عليه وسلم أعظم الأنبياء وأكرم المرسلين وسيد الخلق أجمعين لم يخلق الله أحسن ولا أجمل ولا أكمل ولا أفضل ولا أفصح ولا أرجح ولا أسمح ولا أصبح

ويمنعها مما تقول صلاتها
وحالى لها فى قومها وصيام
فهاتان حالان فهل أنت راجعى
فقد جب منى كاهل وسنام

قال فلما قرأ عمر رضى الله تعالى عنه هذه الأبيات قال أما ولى السلطان فلا وأقطعه دارا بالبصرة فى سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة اهـ. قيل: دخل بعض الشعراء على الأديب جمال الدين بن نباتة فرأى فى نواحى منزله نملا كثيرا فأنشد يقول:

مالى أرى ومنزل المولى الأديب به
نمل تجمع فى أرجائه زمرا

فأجابه ابن نباتة بقوله:

لا تعجبن إذن من نمل منزلنا
فالنمل من شأنها أن تتبع الشعرا

هذا آخر ما أردت إيراده فى هذا الذيل مما وقفت عليه من المستطرف والنكات المفتخرة والزند الوارى والتالد والطريف وغير ذلك والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ولا أجل ولا أعظم ولا أسخى ولا أكرم ولا أبهى ولا أنصف ولا أعدل منه صلى الله عليه وسلم. فلو أن البحار مداد والنبات أقلام وجميع الخلق تكتب معجزاته صلى الله عليه وسلم لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته صلى الله عليه وسلم.

اللهم اجعلنا من خالص أمته واحشرنا فى زمرته وأمتنا على محبته ولا تخالف بنا عن ملته ولا عمن جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه تم طبع كتاب (المستطرف فى كل فن مستظرف) لشهاب الدين محمد بن احمد أبى الفتح الأبشيهى المحلى، وبهامشه: ثمرات الأوراق فى المحاضرات، لتقى الدين أبى بكر بن على بن محمد بن حجة الحموى القادرى الحنفى، ومعه ذيلان: أولهما لابن حجة الحموى. وثانيهما لمحمد بن ابراهيم الأحدب، مصححا بمعرفتى؟

أحمد سعد على
أحد علماء الأزهر ورئيس لجنة التصحيح

القاهرة فى { ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٧١ هـ
٢٠ مارس ١٩٥٢ م

فهرست

الجزء الثانى من كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » للأبشيهى

صحيفة

صحيفة

فهـــرست

بقية كتاب ثمرات الأوراق لتقي الدين أبي بكر بن حجة الحموي

فهرست الذيل الأول لابن حجة الحموى

فهرست الذيل الثانى لمحمد بن إبراهيم الأحدب